دكتور شوقى الجمل

تاريخ
سودان وادى النيل

حضارته وعلاقاته بمصر

من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر



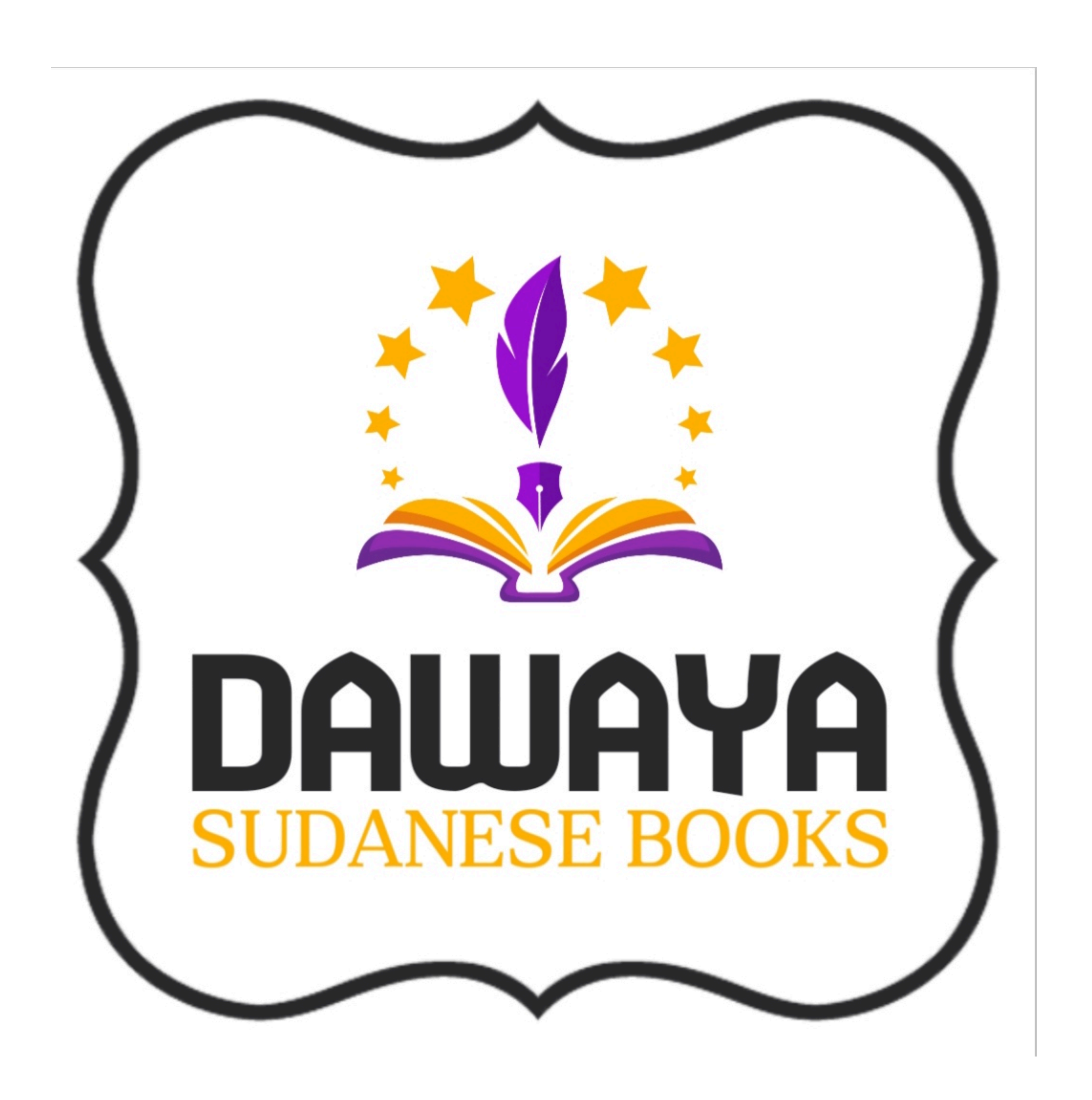
تاريخ سودان وادى النيل

حضارته وعلاقاته بمصر
من أقدم العصور إلي الوقت الحاضر

دكتور
شوقى الجمل
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة



مكتبة الأنجلو المصرية


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

الجمل ، شوقى .

تاريخ سودان وادى النيل / حضارته وعلاقاته بمصر فى اقدم العصور الى الوقت الحاضر / تأليف : شوقى الجمل .

-ط١. -

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٨.

٩٣٢ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١- السودان – تاريخ .

أ- العنوان

رقم الإيداع : ٧٥٦١

ردمك :٩-٢٣٩٠-٠٥-٩٧٧ تصنيف ديوى: ٩٦٢,٤

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم غلاف : ماستر جرافيك

الناشر: مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة – جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

المحتويات

الجزء الأول

القسم الأول

السودان من عصر فجر التاريخ حتى القرن السادس الميلادى

الفصل الأول

بلاد النوبة الشمالية فى عصور فجر التاريخ

الفصل الثاني

بلاد النوبة من بداية عصر الاضمحلال فى مصر حتى نهاية حكم الهكسوس

الفصل الثالث

بلاد النوبة من بداية عصر الاضمحلال فى مصر حتى نهاية حكم الهكسوس

الفصل الرابع
بلاد النوبة من بداية الأسرة الثامنة عشر إلى الأسرة الرابعة والعشرين

الفصل الخامس

مملكة نباتا النوبية وملوك النوبة فى مصر

الفصل السادس

مملكة مروى النوبية ودورها السياسى والحضارى

القسم الثانى

انتشار المسيحية والإسلام فى سودان وادى النيل

الفصل السابع

دخول المسيحية بلاد النوبة وانتشارها بها

الفصل الثامن

انتشار الإسلام والثقافة العربية فى سودان وادى النيل

الفصل التاسع

بعض الرحالة الذين زاروا السودان قبل امتداد الإدارة المصرية إليه

الجزء الثانى

الفصل الأول

ملامح السودان قبيل امتداد التنظيمات المصرية إليه فى عهد محمد على

الفصل الثاني

امتداد الإدارة المصرية للسودان فى عهد محمد على

الفصل الثالث

السودان فى ظل الإدارة المصرية فى عهدى عباس الأول ومحمد سعيد

الفصل الرابع

ما تحقق فى السودان فى ظل الإدارة المصرية من ١٨٢٠ إلى ١٨٦٣

الفصل الخامس

الإدارة المصرية فى السودان فى عهد إسماعيل

الفصل السادس

تطور السودان الاقتصادى والاجتماعى فى هذه الفترة

الفصل السابع

امتداد الإدارة المصرية فى السودان إلى مناطق جديدة

الفصل الثامن

الإهتمام بالبحر الأحمر والأقاليم السودانية المطلقة على هذا البحر

الفصل التاسع

امتداد الإدارة المصرية لمديرية خط الاستواء والوصول لمنابع النيل الاستوائية

الفصل العاشر
الحبشة وعلاقة الإدارة المصرية فى السودان بها

الجزء الثالث

أولاً: الحركة المهدية بالسودان

الفصل الأول

الحركة المهدية والحركات المماثلة

الفصل الثانى

المهدى- مبادئ والظروف التى أحاطت بظهوره

الفصل الثالث

تطورات الحركة المهدية حتى سقوط الخرطوم

ثانيا: الحكومة المهدية

الفصل الرابع

التطورات التى تبعت سقوط الخرطوم

الفصل الخامس
طبيعة الحكومة المهدية

ثالثا: السودان بعد الإسترداد
الفصل السادس
استرداد السودان

الفصل السابع
نظام الحكم الجديد فى السودان

الفصل الثامن
سياسة إنجلترا تجاه السودان (١٩١٤-١٩٢٤)

الفصل التاسع

إنفراد إنجلترا بإدارة السودان (١٩٢٤-١٩٣٦)

الفصل العاشر

السودان فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٣

الفصل الحادى عشر
المشكلات التى واجهتها السودان بعد الاستقلال

الفصل الثانى عشر
مشكلة جنوب السودان وتطورها

الفصل الثالث عشر
مشكلة دارفور وتطورها

الجزء الأول



مقدمة

الجزء لأول

مـــنذ أقـــدم العصـــور سكنت على ضفاف النيل- فى كل من شقى الوداى فى مصر والسودان – شعوب أثبتت الأبحاث أنها تنتمى لجنس واحد أو على الأقل أن الاخـــتلاط بينهما قد تم منذ فجر التاريخ بحيث يظهر أثر هذا الامتزاج واضحاً فى مختلف مظاهر الحضارة.

فـــلا شك فى أن النيل فى جريانه لم يكن يحمل ماء الحياة لسكان هذا الوادى فى الجنوب والشمال فحسب، بل حمل معه أيضاً تيار الحضارة- ولا يعنى هذا أن اتجـــاه الحضـــارة سار فى نفس اتجاه مياه النهر من الجنوب للشمال – لكن رواد الحضـــارة منذ أقدم العصور انتقلوا وتجولوا بين شمال الوادى وجنوبه بالبر والنهر حاملين معهم قبساً من النور يضئ أرجاء الوادى أينما حلوا.

ولا يعنى هذا أيضاً أن تيار الحضارة كان دائماً يسير من الشمال للجنوب.

حقـــاً إن الطبـــيعة فـــى شـــمال الوادى هيأت لسكانه الفرص ليُقيموا أقدم الحضـــارات المعـــروفة فى التاريخ، وعن طريق شمال الوادى وسكانه انتقلت مختلف مظاهر الحضارة للجنوب فى مختلف العصور – متمثلة ابرز ما تمثلت فى الديانات الفرعونية والمسيحية والإسلام، كما تمثلت فى التفاعل الطيب بين الأسنان وبيئته.

لكـــن لا ننسى أيضًا أنه حين أصاب الوهن الجزء الشمالى من الوادى وأتاح ذلـــك فرصـــة للغزاة الطامعين ليزحفوا على مصر – قام من جنوب الوادى من وجـــدوا مـــن واجـــبهم أن يحملوا العبء بعض القوت فمدوا نشاطهم للشمال من الوادى.

فـــتاريخ شمال الوادى وجنوبه فى مختلف عصوره قديمها ووسيطها وحديثها بل وفى وقتنا الحاضر يرتبط كل الترابط حتى ليصعب على المرء أن يدرس تاريخ الجزء الجنوبى من وادى النيل إن لم يُلم بأحداث الشمال، فقد كان لكل حادثة هامة فـــى شـــمال الوادى – أثرها القوى وصداها العميق فى جنوبه – ولسنا بحاجة لأن نضرب الأمثلة على ذلك فالترابط بين تاريخ الشقين من وادى النيل من القوة بحيث يقف المرء أمام هذه الظاهرة الرتيبة مبهوراً.

ورغم أن دراسة مظاهر الحضارة فى جنوب الوادى لم تلق بعد من العناية ما يكشف عن الكثير من خباياها - لكن كل جديد يُكَشف عنه يضيف دليلاً على هذا الترابط القوى بين الأحداث فى الشمال والجنوب.

وكان الجهد القليل الذى بُذل - للأسف - من جانب بعض الأجانب أفراداً أو جماعات علمية؟ وبالتالى كانت أغلب الكتابات التى ظهرت فى هذا المجال من وضع أفراد وهيئات أجنبية، ولذا فقد كان طبيعيًا أن يتسم الكثير منها بسمة التحيز والبعد عن الحقيقة عن قصد أو غير قصد.

ومن الحقائق الهامة التى عانت الكثير من المسخ ما يتصل بعلاقة مصر والسودان والأسس التى كانت تقوم عليها هذه الصلات من أقدم العصور- والشخص المحايد لا بد أن يُدرك بيسر وبوضوح أن علاقات مصر بالسودان فى مختلف عصور التاريخ ليست - كما حاول أن يصورها بعض الكتاب الأجانب المغرضين أو على الأقل المتأثرين بالعقلية الأوربية الاستعمارية- من نوع الامتداد الاستعمارى الأوربي الحديث، بل هى علاقات قائمة قبل كل شىء على المصالح المشتركة والروابط بين شقى الوادى فى مصر والسودان - ولعلنا نجد خير الشعور فى ذلك الشعر الذى صاغه كهنة آمون يتغنون لتحوتمس الثالث معبرين عن فرحتهم لنجاحه فى إخماد الثورة التى أدت لتفتيت وحدة مصر بتولهم (ألف بين حورس وست). مشيرين لما حدث فى مصر القديمة حين أنقسمت مصر إلى شطرين جنوبى أجلسوا على عرشه (ست) وآخر شمالى تمثلوا له حكومة على رأسها (حورس) فكان التآخى بين الأخوين (حورس وست) رمزاً للوحدة بين شمال الوادى وصعيده.

والأحداث فى تاريخ السودان الحديث كما سنوضح فى الجزء الثانى من هذا الكتاب - إذا دُرست بإنصاف تبرهن على صدق ذلك فقد كانت النظرة للسودان لا تختلف عن النظرة لاى إقليم من أقاليم مصر، وكانت الخزانة المصرية باستمرار - طوال فترة امتداد الإدارة المصرية على السودان وبعدها - تصرف بسخاء منقطع النظير لعمران السودان - وأصاب السودان من الخير ومن الشر ما أصاب مصر منهما باختلاف ظروف تبدل الحكام والأحداث.

ومن دواعى الأمل أن بدأت أخيراً بعض الدارسات والأبحاث والكتابات الجادة والعميقة من رجال العلم والجامعات فى شمال الوادى وجنوبه تبرز فى

هـذا المجـــال - وإن كان الأمر يحتاج إلى أضعاف أضعاف ما بُذل للآن من جهد.

ولعـــل هذه المحاولة لتتبع التاريخ الحضارى للشق الجنوبى من وادى النيل - تُضـــيف لبـــنه إلى البناء الشاهق الذى نربو إليه من دراسة تاريخ وادى النيل على أيدى أبنائه.

والله ولى التوفيق،

شوقى الجمل
المعادى ٢٠٠٨

القسم الأول
السودان من عصر فجر التاريخ
حتى القرن السادس الميلادى

الفصل الأول: بلاد النوبة الشمالية فى عصر فجر التاريخ.

الفصل الثانى: بلاد النوبة فى عصر الدولة القديمة.

الفصل الثالث: بلاد النوبة من بداية عصر الإضمحلال فى مصر حتى نهاية حكم الهكسوس.

الفصل الرابع: بلاد النوبة من بداية الأسرة الثانية عشرة المصرية حتى الأسرة الرابعة والعشرين.

الفصل الخامس: مملكة نباتا النوبية – وملوك النوبة فى مصر.

الفصل السادس: مملكة مروى النوبية – ودورها السياسى والحضارى.





الفصل الأول
بلاد النوبة الشمالية
فى عصور فجر التاريخ

- التعريف ببلاد النوبة
- أصل النوبيين.
- الأسماء التى أطلقت على بلاد النوبة.
- مدلول كلمة (نوبة).
- النوبة العليا والنوبة السفلى.
- تاريخ بلاد النوبة.
- حضارة النوبة الشمالية فى عصر فجر التاريخ.
- حياة إنسان بلاد النوبة فى عصر فجر التاريخ.
- فكرة النوبيين عن الحياة الثانية.



الفصل الأول

بلاد النوبة الشمالية فى عصور فجر التاريخ

بلاد النوبة

منذ فجر التاريخ قامت فى المنطقة الممتدة من الشلال الأول عند أسوان جنوباً حضارة لها طابعها الخاص، وإن كنا نجهل الكثير عن مميزات هذه الحضارة ولكن البعثات الأثرية التى بدأت تنقب فى أوائل هذا القرن فى المناطق التى خُشى أن تُغمر بسبب خزان أسوان- كشفت عن بعض مظاهر هذه الحضارة[1].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن أقدم مملكة معروفة قامت فى السودان كانت (مملكة إيتيوبيا Ethiopia) وأنها كانت تمتد من الشلال الأول عند أسوان إلى أقاصى الحبشة، ونحن لا نعرف كثيراً عن تاريخ هذه المملكة – ولكن المعروف أنها انقسمت إلى قسمين:

أ - إيتيوبيا العليا: فى المنطقة المعروفة الآن بالحبشة والتى تحتفظ بنفس الاسم.

ب- إيتيوبيا السفلى: فى المنطقة الممتدة من الشلال الأول وبجزاء شاطئ النيل وقد امتد سلطانها فى بعض الأحيان إلى قرب الشلال السادس – واشتهرت لهذه المملكة فى تاريخها الطويل عاصمتان هما (نباتا) جنوب الشلال الرابع، (مروى) قرب شندى.

وهذه المملكة الأخيرة (مملكة إيتيوبيا السفلى) هى التى يهمنا تاريخها لأن تاريخها هو فى الحقيقة تاريخ السودان القديم، وقد عاصرت فى مصر العصر الفرعونى وعصر الفرس وعصر البطالسة – والرومان.

ويرتبط تاريخ السودان ارتباطاً وثيقا بالتاريخ الفرعونى بحيث يصعب دراسة تاريخ السودان القديم دون إلمام بالتاريخ الفرعونى. وليس هذا بغريب فالحضارة

١- كانت البعثة الأثرية الأولى برئاسة الدكتور جورج ريزنر George Reisner ثم المستر فيرث (Mr. Cecil M. Firth) وانتهى نشاطها فى عام ١٩١١. وقد أمدتنا بمعلومات طيبة عن تاريخ بلاد النوبة القديم – أما البعثة الثانية فكانت فى (١٩٢٩) حين تقرر تعلية الخزان للمرة الأخيرة وكانت برئاسة المستر اميرى (Walter B. Emery) يعاونه نخبة من الأثريين المصريين واستغرق نشاطها ثلاثة مواسم فى أعوام ١٢٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١- كل موسم ستة شهور تقريباً، إذ أن العمل فى هذه الجهات متعذر فى فصل الصيف لشدة الحرارة- وكان أنجح مواسم هذه البعثة الموسم الأخير حيث اكتشفت المقابر التى تنسب للمجموعة الحضارية فى (البلانة والقسطل) على بعد أميال قليلة جنوب أبى سنبل.

ملاحظة: يشغل أمرى حالياً (٦٥ سنة) وظيفته أستاذ ورئيس قسم الآثار المصرية بجامعة لندن وله حفائر حديثة شمال الهرم المدرج فى سقارة بحثاً عن مدفن (ايمحتب) منهدس زوسر الذى صمم الهرم المدرج.

الفرعونــية القديمة قامت أساساً على ضفاف النيل وازدهرت هذه الحضارة فى المناطق الخصــبة حــول هــذا الــنهر العظيم، وتأثرت به - والنيل يجرى فى أرض السودان ومصــر- لذا كان الاتصال بين سكان مصر والسودان قائماً من أقدم العصور - وفى المــناطق التى كانت توجد فيها العقبات فى مجرى النهر ذاته كانت القوافل تسير حاملة التجارة فى الطرق الصحراوية المعروفة وبالطبع تنقل وتحمل معها مظاهر الحضارة، فلم تقف العوائق الطبيعية فى وجه الاتصال بين شطرى الوادى.

وقــد ذكــر (ديــودور الصــقى) "إن الايتيوبيين يقولون إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا وأن طين بلادها طمى من بلادنا ساقه النيل إليها- وأن بين عاداتنا وعادات المصريين مشابهة ظاهرة، وهناك تشابه بين القوانين، وفى زى ملوك البلدين".

وقد حاول بعض المؤرخين مناقشة هذا القول - وذهب بعضهم إلى أن رواية ديــودور المؤيــدة لمجيء المصريين من إيتيوبيا راجعة فى الحقيقة إلى أن أصل المصــريين القدماء من بلاد العرب الجنوبية، لأنه كما ذكر ديودور فى مكان آخر "إن القــبائل المهاجرة من بلاد العرب نزلت على شواطئ البحر الأحمر فى إيتيوبيا وأقامت فيها زمناً ثم زحفت بعد ذلك على وادى النيل"[١].

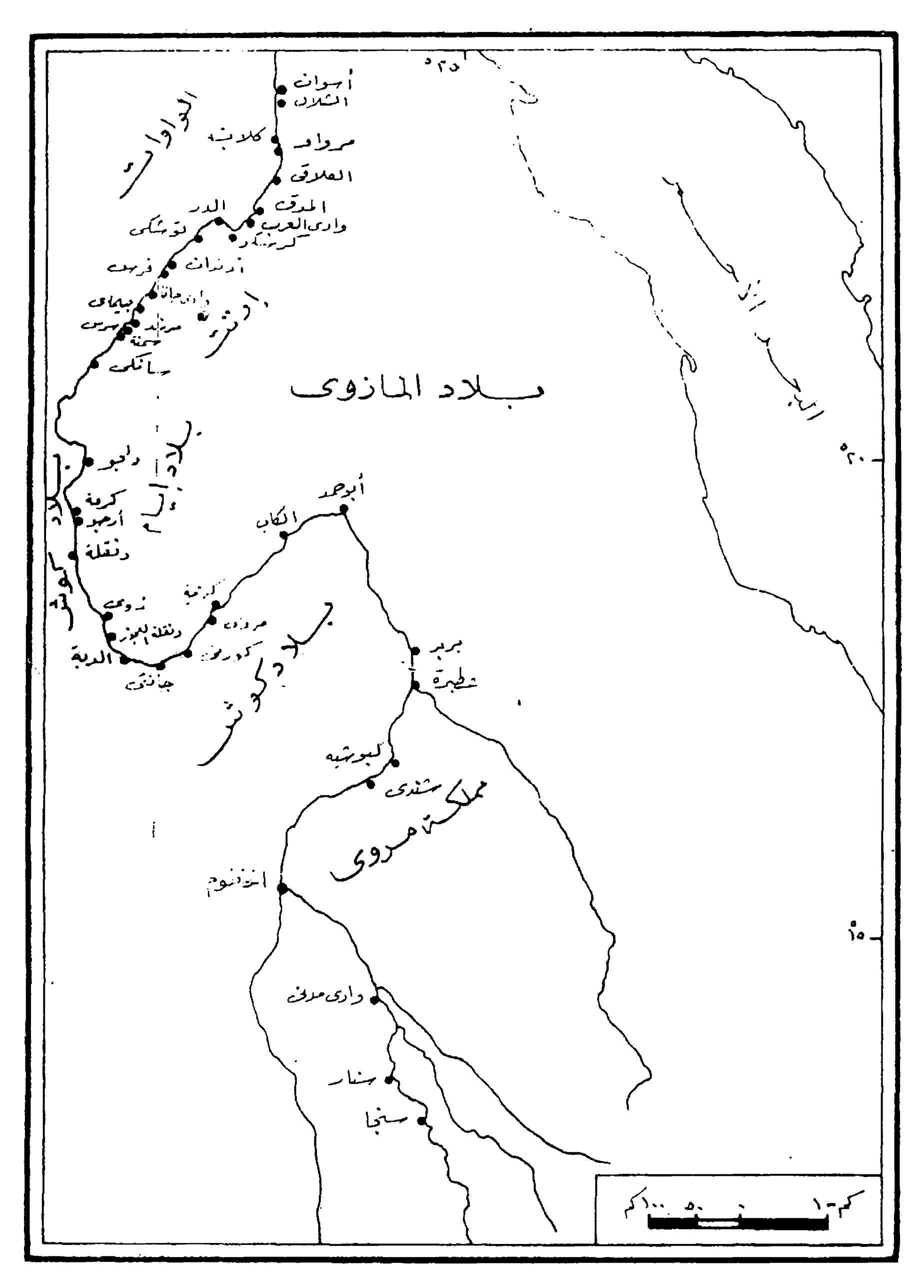
وعلــى كل نحن لا يهمنا الآن البحث عن أصل الحضارة الفرعونية أو أصل الذيــن قامــت على أيديهم هذه الحضارة. لكن نشير هنا إلى أن (ديودور) تعرض أكثر من مرة لهذه الصلة القوية بين المصريين القدماء وبلاد السودان فقد ذكر مثلاً أن (بــلاد الــنوبة) وهو الاسم الذى يُطلق على المنطقة الهامة الواقعة بين الشلال الأول والرابع - يسكنها قوم يجتمعون فى نسبهم مع المصريين، فالمصريون جالية نوبية نزحت من الجنوب.

والذيــن يؤيدون قول (ديودور) هذا يسوقون بعض الأدلة منها أن المصريين فــى عصــور مــا قبل التاريخ كانوا يدفنون موتاهم ورؤوسهم متجهه نحو وطنهم الاصــلى فى الجنوب بل ويذهبون إلى أن آلهة المصريين اوزيريس وحورس آلهة أصلها نوبية[٢].

وعلــى العكــس من ذلك ذهب البعض إلى أن النوبيين أصلهم مصريين ونزحوا قديمــاً من مصر إلى الجنوب حاملين معهم بذور الحضارة والعقائد المصرية، ويستدل هــؤلاء علــى رأيهم بأن آثار وتأثيرات الحضارة المصرية واضحة فيما عُثر عليه من حضارة النوبة وأن الإله المصرى (آمون) كان مقدساً فى (نباتاً) و(مروى).

١- سليم حسن: مصر القديمة ج ١ ص ١٤٣.

٢- انظر تاريخ الحضارة المصرية العصر الفرعونى - المجلد الأول ص ٧٥ عن عادات الدفن (للأستاذ مصطفى عامر).



شكل رقم (١) إثيوبيـــــــا

وسواء أكان المصريون جالية نوبية نزحت إلى الشمال، أم كان النوبيون جالية مصرية هاجرت إلى الجنوب - فما لا شك فيه أنهما (من عنصر واحد).

وقـد أثبتـت الأبحاث العملية التى أجراها (إليوت سميث Elliot Smith) فى مقابـر مصر والنوبة أنه لا فرق بين المصرى القديم والنوبى فى التكوين الجثمانى ويتعذر تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر، فقد حدث اختلاط بين الاثنين منذ فجـر التاريخ، وقد أطلق المصريون القدماء على (السودان) اسم (تا- نحسو) Ta Nehesu [1] تا = أرض، نحسو = السود.

ولـيس ببعـيد أن تكـون هـناك صلة فيلولوجية بين (Nehesu) هذه وكلمه (النُحاس) العربية فسكان النوبة لونهم قريب من اللون النحاسى.

هذا على أن بلاد النوبة أُطلقت عليها أسماء كثيرة. فقد أطلق عليها فى التوراة اسـم (بلاد الكوش) Kush، كوش هذا - كما تقول التوراة- هو جد النوبيين وأخو (مصرايم) جد المصريين وكلاهما من حام بن نوح.

هـذا بيـنمّا أطلـق المصريون القدماء على أهل النوبة الساكنين المنطقة بين الشلال الثانى وملتقى النيل الأزرق بالأبيض اسم المازوى (Mazoi) [٢] - على أن (قـبائل الكـوش) جـاء ذكرهًا فى عصر (سنوسرت الثانى) أى فى عصر الدولة الوسـطى فى مصر فقيل "إن سنوسرت أقام عند الشلال الثانى معاقل لحماية البلاد مـن قـبائل الكوش (Kush) التى كانت تعيش فى جنوب الشلال السادس ثم بدأت تـتحرك شمالاً[٣]. على إن المصريين القدماء أصبحوا بعد ذلك يُطلقون أسم (قبائل الكوش) على سكان بلاد النوبة الشمالية والجنوبية دون تمييز، وأصبحت بلاد النوبة كلهـا يطلق عليها اسم (أرض موش). أما الإغريق فقد أطلقواً على بلاد النوبة اسم (إثيوبـيا)، وإثيوبـيا معناها الوجه شديد السمرة- وقد أشرنا من قبل إلى صلة هذا اللفظ بهذه المنطقة.

أمـا عن اشتقاق كلمة نوبة - فيقول بعض المؤرخين أن هذه الكلمة انحدرت إليـنا عن طريق الكلمة القبطية (Notpt) بمعنى يُضفر وفى هذه الحالة يكون معنى (نوبة) ذو الشعر المضفر أو المجعد.

1- Budge: The Egyptian Sudan, Its History & Monu ments, Vol. 1. P. 505.

٢- برستيد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى ص ٨٨ (ترجمة د. حسين كمال).

٣- د. أحمد بدوى: فى موكب الشمس ج ٢ ص ٤١٥.

لكـــن بعض المؤرخين ومنهم (برستيد) يرون أنها مرتبطة بكلمة (Nabu) أو الذهـــب، ونحن نعرف شهرة بلاد النوبة بالذهب إبان العصور الفرعونية إذ كانت هـــذه المـــنطقة هى الوحيدة التى تُغذى مصر بتلك الكميات الهائلة من الذهب التى جعلت لمصر شهرة بين دول الشرق من ميتانيين وحيثيين وبابليين وآشوريين حتى قيل "إن الذهب فى مصر مثل الرمال على شاطئ البحر[١] - وكان من أسباب طمع هـــذه الدول فى مصر، لكن المصريين القدماء كانوا يُطلقون على هذه المنطقة أسم (تاستى) كما جاء فى قائمة أسماء البلاد بالعرابة المدفونة[٢].

ومـــن ناحـــية الجـــنس فقـــد كانت النوبة الشمالية مأهولة بقبائل من (الجنس الحامى) وهو الجنس الذى يرجع إليه جميع سكان أفريقياً الشمالية ابتداءًا من البحر المتوسط إلى الصومال (بلاد بنت)[٣].

ولكـــن جـــنوب هذه المناطق كانت تسكن قبائل تنتمى للجنس الأسود (Negroite) وقد بدأت قبائل من هذا الجنس تتحرك شمالاً وتختلط بالقبائل الحامية وقد وصلت فلول مـــنها لمصر على شكل خدم أو جند - فقد بدأنا نجد فى النقوش المصرية صوراً تمثل هـــذا الجـــنس بكـــل ملامحـــه، بل أكثر من هذا فقد بدأ المصريون ابتداءًا من الأسرة السادســـة يختلطون بهذا الجنس ويتزاوجون منه بدليل أن أحد الأمراء المصريين وهو أمـــير فيله (المدعو ببيى ناخت) (Pepinakht) كان من نتاج هذا الاختلاط، وقد وجدت فى مقبرته المشهورة بأسوان تماثيل له بملامحه التى تدل على انتمائه لهذا الجنس.

ويقســـم الجغرافـــيون إقلـــيم النوبة الممتد من أسوان حتى إلتقاء النيل الأبيض والنيل الأزرق إلى ثلاثة أقسام - وهى من الجنوب للشمال:

١- النوبـــة العليـــا: من التقاء النيل الأبيض بالأزرق إلى دنقلة.
٢- النوبة الوسطى : من دنقلة إلى وادى حلفا.
٣- النوبـــة السفلى : من وادى حلفا إلى أسوان[٤].

وقـــد أطلـــق المصريين القدماء فيما بعد على النوبة السفلى الممتدة من أسوان حـــتى وادى حلفا أسم (واوت)، وعلى الإقليم الواقع جنوب وادى حلفا أسم (كوش)،

1- Mac. Michael : A History of the Arabs in the Sudan. 1, P. 21.

٢- د. سليم حسن : ج ١٠ ص ٧٩
- وكذلك .Budge: Vol. 1, P. 534

٣- د. سليم حسن : ج ١٠ ص ١٤١.

٤- د. محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله ص ٢٨٥.

وكانـــت (نـــباتا) عاصمة هذا الإقليم ثم أصبحت العاصمة فى (مروى) كما سنشير بالتفصيل فيما بعد[١].

تاريخ بلاد النوبة :

كمـــا ذكرنا ظلت حضارة بلاد النوبة مدة طويلة من الزمن مجهولة لا يعنى بها أحد من العلماء حتى عام (١٩٠٧) تقريبا عندما بدأت البعثات تحضر لمصر لكى تنقب فى المسافات الشاسعة التى ستغمرها مياه الخزان عندما فُكر فى إنشاء خزان أسوان. فُبحثت عده مناطق فى (بلاد النوبة الشمالية) وعملت حفائر كثيرة أهمهـــا الـــتى قام بها الدكتور ريزنر (Dr. Reisner) فى (كرمه) جنوب الشلال الثالث[٢].

ويمكننا أن نقسم تاريخ بلاد النوبة إلى الأقسام الآتية:

١- مـــن عصر فجر التاريخ المصرى أى من العصر الحجرى الحديث حتى آخر الأسرة الثانية المصرية.

٢- من بدء الدولة القديمة فى مصر (أى من عصر الأسرة الثالثة) حتى نهاية هذه الدولة، أى حتى بداية الأسرة السادسة.

٣- مـــن بدايـــة عصـــر الاضمحلال الأول فى مصر حتى نهاية حكم الهكسوس (حوالى عام ١٥٧٠ ق. م).

٤- مـــن بدايـــة حكم الأسرة الثامنة عشر المصرية حتى دخول الاسكندر أرض مصـــر (ســـنة ٣٣٢ ق. م). وكما سنرى أن هذا العصر هو أهم عصور بلاد الـــنوبة إذ تمكنت فيه من التقدم ومن أن تثبت أقدامها فى الحضارة لدرجة أن تكونـــت دولة نوبية فى (نباتا) استطاعت يوماً ما أن تبسط نفوذها على مصر ذاتها، وكونت فى مصر الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٥- ٦٦٤ ق. م).

٥- ثـــم فـــترة حكـــم الاســـكندر والبطالسة فى مصر (٣٣٢- ٣٠ ق. م)، وحكم الرومان (٣٠ ق. م - ٦٤١م).

١- د. سليم حسن : ج ١٠ ص٧٧.

- وكذلك Budge: Vol. 1, P. 536t

٢- جـــورج ريزنر Reisner، جميس هنرى برستيد H. Breasted من علماء الآثار الأمريكيين، ومن تلاميذ العالم الالمانى الكـــبير المرحوم أدولف إرمن (A. Erman) الذى وضع أجرومية اللغة المصرية القديمة، ومن تلاميذه أيضاً هرمن ينكر (H. Hunker) وقد اشتهر ريزنر (Reisner) بحفائره فى بلاد النوبة.

وقـد حاول العلماء تنظيم الآثار التى عثر عليها على يد (ريزنر) وغيره من علماء الآثار فى بلاد النوبة – فى مجموعات خمس رُمز لها بالحروف (A. B. C. D. X) وتمثل كل منها فترة معينة.

فالمجموعة A: تمـثل حضارة بلاد النوبة فى فترة ما قبل التاريخ، وعصر الأسـرات الأولـى فـى مصر. وقد عثر على بقايا فخار، ومصنوعات حجرية ومعدنية ترجع لهذه الحقبة.

والمجموعة B: تمـثل حضارة بلاد النوبة فى الفترة المقابلة للأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة المصرية.

والمجموعة C: تمـثل حضارة بلاد النوبة فى الفترة التى تقابل فى التاريخ المصـرى القديم من سقوط الدولة القديمة حتى نهاية حكم الهكسوس فى مصر.

والمجموعة D: تمـثل فـى مصـر عصر الدولة الحديثة، وفى هذه الفترة نزحـت مـن مصـر لـبلاد النوبة جماعات حملت معها الحضارة المصرية، وقامت فى بلاد النوبة نهضة حضارية فى (نباتا) وغيرها من المدن النوبية الهامة.

والمجموعة X: وتتمـثل فـيما عُثر عليه من آثار فى البلانة وقسطل، وقد كشف عن هذه الآثار الأثرى W. B. Emery وقد ازدهرت هـذه الحضـارة فـى الفترة بين القرنين الثالث والسادس الميلادى أى الفترة الواقعة بين الحضارة المروية وحضارة العصر المسيحى[1].

حضارة النوبة الشمالية فى عصور فجر التاريخ :

نقسم عصر فجر التاريخ إلى عصرين:

١- العصر الحجرى القديم (٨,٠٠٠ ق. م – ٦٠٠٠ ق. م).

٢- العصر الحجرى الحديث (٦,٠٠٠ ق. م – ٣,٢٠٠ ق. م).

وبعـض المؤرخين يميزون عصراً ثالثاً بين العصرين السالفين وهو (العصر الحجرى الوسيط) فيما بين ٦٠٠٠، ٥٠٠٠ ق. م.

1- Walter B. Emery: Nubian Tresure (an account of the Discoveries at Ballana & Qustul) P. 26,

وبعد ذلك يبدأ (العصر التاريخى) الذى يستند فيه المؤرخ على وثائق مكتوبة[١].

حياة إنسان النوبة فى عصر فجر التاريخ :

يمكن إن نقول إن إنسان بلاد النوبة الشمالية الذى عاش فى عصر فجر التاريخ وبالأخص فى العصر الحجرى القديم كان هو بعينه الإنسان المصرى الذى عاش إبان هذه الفترة فى البيئة المصرية – وان إنسان بلاد النوبة الأول بدأ الحياة من نفس النقطة التى بدأ فيها إنسان مصر – وهذا أمر طبيعى ففى هذا العصر لم يكن النيل مثلاً عمق مجراه بعد فكان يفيض بلا انتظام – فأضُطر الإنسان لأن يعيش حياة بدائية على المرتفعات يعتمد على الصيد والقنص ويقتات على ثمار الأشجار ويعيش بالكهوف، ولم يستقر بعد فى موطن محدد، وكان ينتقل فى الجهات التى تكثر فيها الحيوانات والأشجار.

ثم حدثت بعد ذلك اختلافات جوية فبدأ الجفاف يظهر رويداً رويداً، كما بدأ النيل يستقر فى مجراه، وهنا وجد الإنسان نفسه مضطراً للنزول من التلال للوادى- وبدأت الطبيعة فى هذه الآونة تُجبر الإنسان على الاستقرار وعلمته (الزراعة) فارتبط بالأرض وظهرت أنظمة جديدة ترتبط باجتماع الناس فى بقعة واحدة واتصال مصالحهم.

وهنا بدأ العصر الحجرى الحديث.

على أنه يجب أن نشير إلى نقطة هامة وهى أنه وإن كان إنسان بلاد النوبة الأول قد بدأ حياته من نفس النقطة التى بدأ منها إنسان مصر، لكن الظروف البيئية ما لبثت أن تحكمت فى الفروق التى لمسها الباحثون بين الحضارتين المصرية القديمة وحضارة النوبة، ذلك أن البيئة فى مصر لم تلبث أن دفعت المصريين فى طريق التقدم، فبيئة مصر غنية بمحصولاتها ومساحات واسعة من أراضيها صالحة للزراعة، فكانت لهذا تأثيرات تخالف تأثير بلاد النوبة الشمالية التى لم تهبها الطبيعة سوى خطين متوازيين ملازمين لمجرى النيل بينما الجبال المرتفعة ملاصقة للشاطئ بشكل لا يدع للإنسان مجالاً واسعاً يستغله فى الزراعة. والحضارة المصرية كما نعلم تميزت إبان العصور الأولى على وجه الخصوص

١- د. أحمد بدوى: فى موكب الشمس ج ١ ص ٨٢.

وللدراسة التفصيلية انظر- د. سليم حسن: ج ١ (الفصل الأول) و ج ١٠ (الفصل الأول).

بطابعهـــا (النـــيلى الـــزراعى) – فالعصر الحجرى الحديث بدأ فى مصر باستقرار المصـــريين فـــى وادى النيل وتعلمهم الزراعة وارتباط كل جماعة بالأرض التى تعـــيش علـــيها، وكان النيل بفيضانه وما يتبعه من نعمه إذ يُكسب الأرض خصوبة فتكـــثر ثروتها، كما يصبح نقمة إذا لم يستطع المصرى أن يحد من فيضانه- كان هـــذا دافعاً للمصريين (للتعاون) فأخذوا يتكتلون سوياً ليساعدوا على رد هذه النقمة الـــتى سوف تصيبهم، وللاستفادة إلى أكثر حد بما يمكن أن يقدمه لهم هذا النهر من الخير، ومن هنا تعلم المصرى (النظام) ونشأت الحكومات وتقدمت مصر بخطوات واسعة فى مضمار الحضارة. فكانت مصر من أولى الدول التى ظهرت فيها أنظمة الممـــالك الموحـــدة التى يحكمها حاكم واحد[١] وقد ذهب بعض علماء الآثار وعلى رأســـهم (يـــنكر) إلى أن حضارة (البدارى) فى مصر تمتد حتى بلاد النوبة القديمة حيـــث تتمثل هناك فى الآثار التى عُثر عليها ورمز إليها بالمجموعة (A) بما فيها مـــن أوانى فخارية ذات السطح المموج وأدوات من الصوان، ومخازن من العظام، كما عُثر على أوانى فخارية ذات مقابض مموجة تشبه تلك التى وجدت فى (نقاده) فـــى مصـــر، وهـــذا الفـــرض يصل بنا إلى القول بوجود وحدة ثقافية وجنسية فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى دلتا مصر[٢].

علـــى أن البيـــئة فـــى بلاد النوبة الشمالية بنوع خاص لم تسمح إلا بمساحات ضـــيقة صـــالحة للـــزراعة- ولذلك ضعفت سبل التعاون ودوافعه بين الأقوام التى تعيش فيها وقلت كثافة الجماعات التى ترتبط بوحدة محلية ثابتة- ومن هذا نرى أن بـــلاد النوبة الشمالية عندما انتقل أهلها من العصر الحجرى القديم للعصر الحجرى الحديث كان تقدمهم بطيئاً.

وتدل الاوانى الفخارية التى عثر عليها فى بلاد النوبة والتى نرجح أنها ترجع للعصر الحجرى الحديث على هذه الظاهر- ففى الوقت الذى عُثر فيه على (أوانى حجـــرية) ثـــم أوانى نحاسية فى مصر- فإن آثار بلاد النوبة تدل على أن (الاوانى

١- حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر تتمثل فى:

أ - حضارة الشمال: تتمثل فى آثار (مرمدة بنى سلامة) والمعادى.

ب- حضارة الجنوب: تتمثل فى آثار (نقاده- والبدارى- وديرتاسا).

- أنظر موكب الشمس: ج ١ ص ٨١ وما بعدها.

- مصطفى عامر: تاريخ الحضارة المصرية (العصر الفرعونى) المجلد الأول ص ٥١ وما بعدها.

٢- د. سليم حسن: جـ١٠ ص٧.

الفخاريـــة) هـــى السائدة، وقد بقيت بلاد النوبة على هذا المستوى الحضارى حتى آخـــر الأسرة الثانية، بل إن ما طرأ بعد ذلك من تغيرات على حضارة النوبة حتى عصـــر الدولـــة القديمة- طفيف لا يكاد يذكر، وكان هذا بدء الخلاف بين حضارة مصر وحضارة بلاد النوبة.

فكرة النوبيين عن الحياة الثانية :

لكـــى نستكمل الصورة عن حضارة بلاد النوبة الشمالية فى هذه الفترة ندرس فكرتهم عن الحياة الثانية ومعتقداتهم الدينية ومقابرهم، إذ أن العقيدة الدينية والمقابر كانـــت دائماً المصدر الغنى الذى يمدنا بمعلومات عن حضارة القوم وتفكيرهم فى هذه العصور القديمة.

كانـــت مقابـــر بـــلاد النوبة الشمالية التى عُثر عليها - مشابهة لمقابر قدماء المصـــريين فـــى ذلك العصر- فقد كان إنسان بلاد النوبة الشمالية يدفن موتاه فى (حفر مستديرة) أو (بيضاوية) طولها ثلاثة أقدام وعرضها قدمان وعمقها يقرب من ثلاثة أقدام[1].

وتوضـــع الجـــثة فى قاع هذه الحفرة وتهال عليها الرمال، أو يعمل للحفرة ســـقف مـــن عـــروق الأشجار تغطى بالرمال، وكانت الجثة عادة تلف فى الجلد وتوضـــع بشـــكل معين- بشكل القرفصاء، فالأرجل تنتحنى لأعلى حتى تلاصق الركـــبة الذقن، ثم توضع الأيدي أمام الوجه، وتلف الجثة كلها فى جلد أو حصير وحـــول الجثة يوضع ما نسميه (بالأثاث الجنائزى) وهو عبارة عن أوانى مختلفة (Black inszed, Black topped, Red Potteries)

ولوحـــة إردواز، وقطعة زلط لطحن الكحل، وحصير مسدير- وصولجان من الحجـــر مثبـــت على مقبض خشبى وهو يستعمل للدفاع عن النفس- وسكاكين من حجـــر الصـــوان، بالإضافة لأدوات الزينة كأمشاط العاج أو العظم - وقلائد خرز صـــغير مـــن العظـــم والعاج، ولم تكن الجثة في بلاد النوبة تحنط أبداً ولكن كانوا يضعون إلى جانبها قطعة من القار النباتى اعتقاداً منهم أنها سوف تساعد على حفظ الجـــثة مـــن الـــبلاء، ولكن كانت الجثة تجفف، والجثث التى عثر عليها فى النوبة الشمالية كانت فى مجموعها ذات شعر أسود ناعم مسترسل غير مجعد وكان الجسم خالياً من الشعر.

1- Emery: P. 18.

والعجيب أنهم فى بلاد النوبة فى ذلك الوقت لم يعرفوا طريقة (الوشم) علي الجسم كمعظم الزنوج – فلم يُعثر على جثة واحدة بها (وشم) – ومن الغريب أيضاً أن كل الجثث أيضا لم تظهر بها تلك العادة التى انتشرت فيما بعد بعمل فتحة فى الأذن لتعليق بعض الأقراط – وهى عادة انتشرت فى العصور التاريخية حتى بين الرجال.

وأظهرت الأبحاث أن هذا الإنسان بالنوبة كان يعيش غالباً على أطعمة نباتية أكثر من اللحوم – وكانت الأسنان قد تآكلت بشكل جعلها اختفت تقريباً فلم يبق منها إلا الجذور ولعل هذا يدل على إن الأطعمة التى كان يتناولها كانت صابة– وبمقارنة الفخار الذى عثر عليه فى النوبة بما عُثر عليه فى مصر فى مثل هذا العصر نجد إن الفخار المصرى متقدم، فطريقة الزخرفة فى النوبة بدائية فقد اقتصر الأمر على الزخرفة المعروفة بالحلزونية Spiral.

فكما ذكرنا أن التحول والتغيير هنا كان بطيئاً. فقد لاحظ الباحثون اتجاهاً للجمود بينما نجد فى مصر تقدماً سريعاً، فاستخدمت الأحجار ونحتت منها الاوانى، ثم استخدمت المعادن وعُرفت الأختام الاسطوانية، واستخدمت لختم سدادات الاوانى الفخارية– وهذه الأختام لم تُعرف مطلقاً فى بلاد النوبة وكانت القرى النوبية فى هذه الفترة عبارة عن أكواخ بيضاوية الشكل مسقوفة (بالحصير) أو جلود الحيوانات المحمولة على أعمدة خشبية.

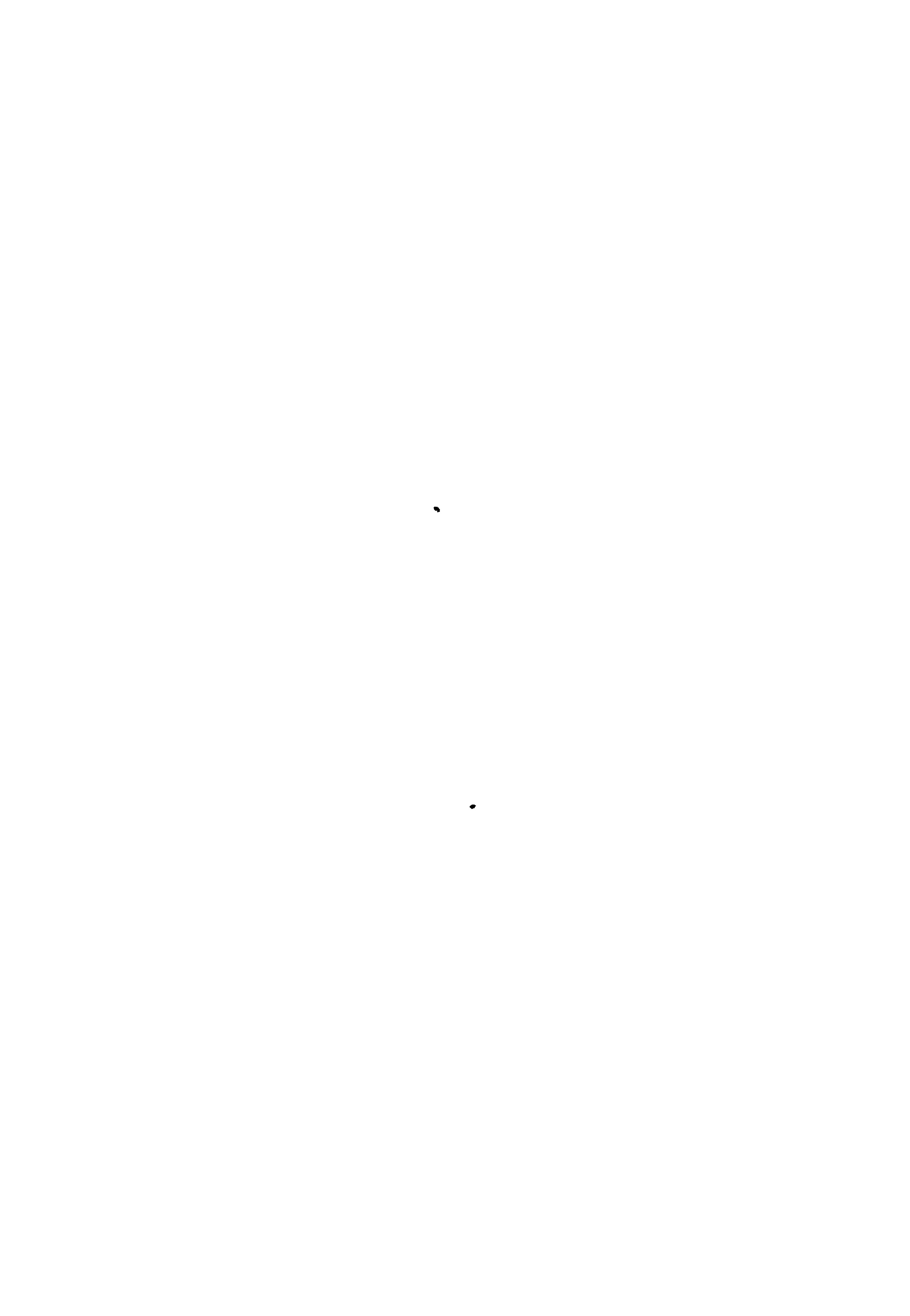


المقبرة فى عصر فجر التاريخ فى بلاد النوبة

ولاشك فى أنه كانت بين مصر وبلاد النوبة فى هذه الفترة علاقات تجارية فقد كانت مصر تجلب سن الفيل وخشب الأبنوس وريش النعام وغيرها من حاصلات هذه البلاد مقابل ما ترسله مصر من حاصلاتها الزراعية ومن صناعاتها، ويرجع بعض المؤرخين أن (جزيرة الفيلة) اشتقت اسمها من أنها المكان الذى كان يُحزن فيه العاج الوارد من الاراضى النوبية. والبعض يربط بين الاسم واسم قبيلة كان يرمز لها بالفيل كما سنوضح فيما بعد.

الفصل الثانى
بلاد النوبة من بداية عصر الاضمحلال فى مصر حتى نهاية حكم الهكسوس

- الكشف عن جبانة كرمة، والمعلومات التى أمدتنا بها.
- مقارنة بين ثقافة المجموعة (C) وثقافة كرمة.
- بلاد النوبة فى عصر الأسرة الثانية عشرة المصرية.
- حملات ملوك الأسرة الثانية عشرة المصرية على بلاد النوبة.
- لوحه سمنة ودلالتها.
- القلاع التى أقيمت فى بلاد النوبة.
- عصر الأسرة الثالثة عشرة فى مصر ونشاطهم فى بلاد النوبة.
- المقابر القعبية للنوبيين فى الوجه القبلى بمصر.



الفصل الثانى
بلاد النوبة من بداية عصر الاضمحلال
فى مصر حتى نهاية عصر الهكسوس

عصر الأسرتين الأولى والثانية :

كانت الحضارة فى بلاد النوبة فى عصر الأسرتين (الأولى والثانية) امتداداً للحضارة فى العصر السابق للأسرات- ومقابر هذا العصر كانت بيضاوية الشكل أو مستطيلة، يوضع فيها الميت على جانبه ملفوفاً فى جلد ماعز أو فى حصير- والأثاث الذى كان يوضع مع جثة المتوفى عبارة عن أوانى من الفخار سميكة رديئة الصنع، وبعض الأدوات من العظم كالإبر ومقابض السكاكين والملاعق- ولم توجد فى مقابر هذه الفترة أوانى حجرية. ويبدو أنه لم تكن للمصريين علاقة وطيدة بهذه البلاد خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية، إذ لم يأت ذكر بلاد النوبة فى الآثار المصرية فى عصر هاتين الأسرتين، ولعل مصر شُغلت فى هذه الفترة بالاضطرابات التى حدثت والتى نجمت عنها حركات انفصالية حتى تمت الوحدة من جديد فى عهد الملك (خع سخموى) (Kha Sekhemui) أحد ملوك الأسرة الثانية.

عصر الأسرة الثالثة :

أول مرة يُذكر فيها اسم بلاد النوبة فى عصر الدولة القديمة فى مصر كانت فى عصر الملك (زوسر) – من ملوك الأسرة الثالثة – فقد عُثر فى (جزيرة سهيل) جنوب أسوان على لوحه جرانيتية سُميت باسم (لوحه المجاعة) وهذه اللوحة ولو أنها كتبت فى عصر البطالسة لكنها تحدثت عن مجاعة طويلة حدثت فى مصر أثناء حكم الملك زوسر (٢٩٠٠ ق. م.) وإن هذا الملك التجأ إلى مصادرة محصولات النوبة الشمالية وإرسالها لمصر لتخفيف حدة هذه المجاعة[1].

وإذا أخذنا بما جاء فى هذه الوثيقة يمكن أن نقول أن مصر بعد أن اتحدت اتحاداً كاملاً فى عصر (خع سخموى) بدأت تهتم بالشعوب المتاخمة لحدودها فُمدت سُلطانها على شعب النوبة الشمالية وسيطرت عليه بشكل ما – وإلا ما كان فى استطاعه (زوسر) وفى بلاده مجاعة كبيرة أن يلجأ لحملة حربية يفتح فيها النوبة

١- برستيد : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى (ترجمه د. حسن كمال) ص ٧٣.

الشـمالية ويّصـادر محصولاتها - فالأكثر قبولاً أن النوبة كانت قبل زوسر واقعة تحت سيطرة مصر - ثم لجأ زوسر بعد ذلك للمصادرة.

وقـد وصـلت حدود الملك زوسر إلى بلده (المحرقة) من أقاليم النوبة السفلى وقـد أوقـف الملـك عُشر محصول أراضى تلك المنطقة وحبس خيراتها وغلاتها جميعاً على معبّد (خنوم) رب الشلال وحامى منبع النيل[١].

وهـناك نص آخر ورد على حجر (بلرمو)[٢] وهو عبارة عن كتلة من الحجر الأسود أقامها أحد ملوك الأسرة الخامسة وأثبت على وجهها أسماء الملوك منذ فجر الـتاريخ حـتى وقـت كتابتها ومُدد حكمهم وبعض ما وقع فى عهدهم من أحداث ومنشـآت، وقد ذكر السنوات الهامة المرتبطة بالأحداث التى يُريد تخليدها لكل ملك مـثل سـنة التعداد للماشية - وسنة إرسال سفن لبيبلوس لإحضار الأخشاب، وعام الفيضان.

وقـد ذُكـر فى هذا الحجر أن الملك (سنفرو) من ملوك الأسرة الثالثة قد غزا بـلاد الـنوبة ٧,٠٠٠ من الرجال والنساء، وغنم ٢٠٠,٠٠٠ من الثيران والعجول والأغنام فلما جاء إلى مصر استخدم الرجال فى أعمال الحكومة والنساء فى القصر الملكى - أما الثيران والعجول فبعضها ذُبح للطعام والبعض الأخر احتفظ به لتربية نتاجه لجودة نوعه[٣].

وهـذه السنة التى حدثت فيها هذه الأحداث اشتهرت (بعام غزوة بلاد النوبة) والانتصـار علـى النوبيين وإحضار غنائم لا حد لها من الماشية ورؤساء القبائل المهزومة.

وينسـب الـيونان إلـى (زوسـر) فـتح الإقليم المعروف باسم (دوديكاشين) (Dodekasehoinos) أى المنطقة التى يبلغ طولها نحو ١٤٣ كليوا متراً من الفنتين فصاعدا [٤].

١- د. أحمد بدوى : ج ١ ص ١٣٦.

٢- سمى بهذا الاسم لأن الجزء الأكبر منه موجود بمتحف بالرمو عاصمة صقلية.

انظر Bndge: Vol. I, P. 514

٣- برستيد: ص ٧٥.

٤- د. سليم ج ١ ص ٢٨٠.

، د. حسن كمال : تاريخ السودان القديم ص ٥.

ويقــول الأستاذ إميرى (Walter B. Emery) إن هذا الاحتكاك بين المصريين والنوبيين فتح بلاد النوبة لمؤثرات حضارية جديدة وضعت بلاد النوبة السفلى (حتى الشلال الثانى) على أعتاب مرحلة حضارية أخرى استمرت مظاهرها فى هذه البلاد حتى وصلت قمتها إبان حكم الأسرة الثانية عشرة فى مصر(١).

ولا تحدثنا الآثار بعد ذلك بقليل أو كثير عن بلاد النوبة الشمالية حتى عصر الأسرة الخامسة – ولكن هناك بضع نقوش نقشت على الصخور الجرانيتية الممتدة جنوب الشلال الأول تثبت لنا حضور بعض كبار رجال الدولة لهذه المنطقة لتسلم بعض الهدايا المقدمة من رؤساء القبائل فى منطقة النوبة الشمالية للفرعون المصرى.

عصر الأسرة السادسة :

ابتداء من الأسرة السادسة يبدأ التاريخ يتحدث بتوسع عن النوبة الشمالية– ففى عصر الملك (بيبى الأول) تجمعت عدة قبائل على حدود مصر الشرقية لغزوها – فانتدب الملك (بيبى الأول) رجلاً من رجال مصر اسمه (أونى) وقلده قيادة الجيش وكلفه بصد الأعداء فتمكن من رد هذا الخطر، و(أونى) هذا بدأ حياته كموظف صغير، لكنه تمكن من أن يرتقى بخطوات واسعة حتى وصل لوظيفة قاضى القصر الملكى، وكلفة الملك بأن يحقق فى مؤامرة دبرت لاغتياله – وبعد ذلك تولى (أونى) قيادة الجيش وقد تحدث عن هذا الجيش والعناصر التى يتكون منها فى نقش فى مقبرته الكبيرة فقال:

"لقد ألف صاحب الجلالة سيدى ملك القطرين بيبى الأول جيشاً كبيراً من عشرات الآلاف من الجنود الذين جلبهم من المنطقة الجنوبية الواقعة جنوب جزيرة الفانتين من بلاد إرتت (Irthet)، وبلاد (Mazoi) وبلاد إيام (Iam) – ثم بلاد كا آو (Ka-aw) التى يسكنها الزنوج، وأرسلنى صاحب الجلالة على رأس هذا الجيش الكبير بينما قد عين أمراء الأقاليم وحاملوا الأختام الملكية، وأصدقاء القصر وحكام الجنوب والشمال، والمشرفين على أملاك الخاصة الملكية – كرؤساء لفرق فقط كل منهم على رأس فرقة واحدة (٢).

1- Emery.

٢- يذكر Maspero: Etudes de Myth.et d,Arch Egt. Vol. P. 26.

إن قبائل (واوات) و (المجا) كانت فى شرق النيل وباقى القبائل كانت على الضفة الغربية.

وهكـذا بدأنا نسمع عن أقاليم النوبة الشمالية وعن أسمائها المختلفة – ونستدل مـن الـنص السـابق أن (بيبى الأول) أخضع بلاد النوبة وجَند من أهلها فرقاً فى الجيش المصرى، وقد اشتهر النوبيون بالبراعة فى استخدام القوس.

وذكر(أونى) نفسه بأنه كان أول من أشرف على عمل هندسى جليل وذلك هو فـتح خمسـة مسالك فى صخور الشلال الأول الجرانيتية لتسهيل المواصلات بين مصـر والنوبة الشمالية، وكان ذلك فى عهد (مرن رع) الذى خلف أباه الأول فى حكم مصر.

وقـد عُين أونى (حاكماً للجنوب) وهى وظيفة بدأت تظهر أهمية شاغلها من ابتداء عصر الأسرة السادسة، إذ نجد أن حكام الجنوب صاروا يُلقبون بلقب "قواد القوافـل المصرية المتجهة للجنوب، والتى تجلب الخيرات لملك مصر، وحراس الـباب الجـنوبى" – إذ كـان يسـمى الجزء المجاور للشلال الأول باب القطر الجنوبى[١].

وجاء فى نص أونى الذى تحدث فيه عن هذا العمل الهندسى فى الجنوب:

"أرسلنى جلالة (الملك مرن رع) لحفر خمس ترع فى الجنوب، ولأضع ثلاث نقالات وأربع قوارب تجر بالحبال من خشب سنط بلاد (واوات)، وقد كان رؤساء أقطـار إرتت ووات وإيام، ومجا يقدمون الخشب لهذا الغرض، وقد أنجزت العمل فى سنة يدخل فى ذلك السياحة وتحميل الجرانيت بكمية لهرم (مرن رع)[٢]".

ونسـتطيع أن نستنتج أن عمل (مرن رع) وسياسته تجاه الجنوب تنطوى على كشف منظم لهذه الجهات وتحسين طرق المواصلات والتجارة بينها وبين مصر.

حاكم الجنوب :

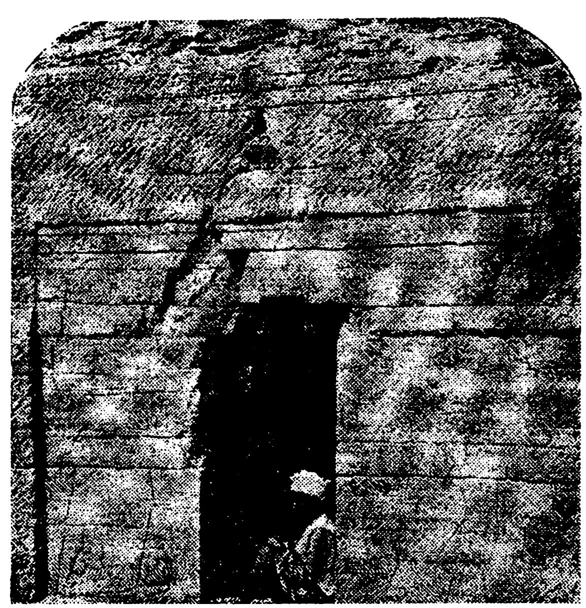
تولـى وظـيفة (حـاكم الجنوب) حكام عديدون مثل (حرخوف) وقد كان فى الأصل أميراً على (جزيرة فيلة). وكان مسئولاً عن المنطقة ابتداء من الكاب (على الضفة اليمنى للنيل بعد مدينة قنا) إلى ما بعد الشلال الاول[٣].

١– برستيد: ص ٨٧– و د. سليم حسن: ج ١٠ ص ٢٢.

٢– د. سليم حسن: ج ١ ص ٣٧٩، ج ١٠ ص ٣٧.

٣– مديـنة الفيل (الفنتين كما يسميها الإغريق) لعل أسمها منسوب– فى رأى الدكتور سليم حسن – لقبيلة يرجع عهدها إلى مـا قـبل التاريخ – وهى التى يرمز لها بالرمز الحيوانى (الفيل)– أما إلها فهو (خنوم) انظر د. سليم حسن: ج ١ ص ١٨٧.

ونستدل من نقوش مقبرة (حرخوف) بأسوان – على أن الملك (مرن رع) أمر حــرخوف بغزو أراضى (إيام) فقام بثلاث غزوات، استغرقت الغزوة الأولى سبعة أشــهر وكان فى هذه الغزوة مساعدا لآبيه – أما الغزوة الثانية فقد كان على رأسها (حــرخوف) وحده واستغرقت ثمانية أشهر وغنم فيها نفائس كثيرة، ثم قام بغزوته الثالثة إلى (إيام) بعد ذلك.



مقبرة (حرخوف) بأسوان

وقــد كتــب سجل حوادث غزواته هذه فى مقبرته المنقورة فى الصخر على الضفة الغربية بأسوان (أنظر الشكل) فقال:

"أرســلنى جلالــة الملــك (مرن رع) إلى منطقة (إيام) لفتح الطريق إلى ذلك القطــر ففتحــته فــى ســبعة أشهر وأحضرت كل المحاصيل التى تحصد من هذه المــنطقة – ومُدحت كثيراً من أجل هذا العمل – ولذلك أرسلنى سيد القطرين جلالة الملــك مرة ثانية إلى هذا القطر فسرت فى طريق جزيرة فيلة ووصلت إلى (إيام) ورجعــت مخــترقاً بــلاد (ارتت) و(ماخر) فى نحو ثمانية أشهر – وجلبت معى محاصــيل هذه البلاد بوفرة عظيمة، لم يجلب مثلها أى شخص آخر إلى هذا القطر وقد رجعت بعد أن فتحت هذه الاراضى. ولم يفعل مثلى هذا أى قائد آخر ذهب إلى (إيــام) مــن قــبل – وأرسلنى جلالة الملك مرة ثالثة إلى (إيام) فتوجهت إليها عن

طـريق الواحة – ووجدت أن حاكم (إيام) قد ذهب إلى بلاد التمحو Temehw أى (بــلاد الليبييــن) فى الركن الغربى من المعمورة فذهبت إلى هناك وتمكنت من أن أهــدئ مــن روعه، وانتهى من غزوته هذه ورجع لبلاده بعد أن مدح جميع الآلهة المصــرية إكــراماً للملك المصرى، ورجعت لمصر ومعى ٣,٠٠٠ حماراً محملة بالــبخور والأبــنوس وزيــت الكافور، والحبوب، وجلود النمور، والعاج، وعصى الــرماية – ولقد صحبنى حاكم (إيام) إلى حدود منطقته – ثم أرسل معى قوة كبيرة لكــى تأتى إلى مصر. وفى طريق العودة اخترقت بلاد (إرتت) و(واوات) – ولما رأى حكــام هذه البلاد قوة جنودى ومن صحبنى ذُعروا وقدموا إلى ثيراناً، وماعزاً وأرسلوا معى قواداً ليدلونى على الطريق"[١].

وقــد عــثر على الصخور الموجودة على شاطئ النيل فى المنطقة من أسوان إلى فيلة ما يدل على أن فرعون مصر (مرن رع) زار منطقة الشلال الأول فأقبل أمراء النوبة ليقبلوا الأرض بين قدميه[٢].

أسباب اهتمام المصريين ببلاد النوبة :

اهتمام المصريين ببلاد النوبة يرجع لأسباب منها:

١- أهمية تلك البلاد باعتبارها الطريق لأقاليم السودان الجنوبية الغنية التى تُصدر لمصــر الذهب، وريش النعام، وخشب الأبنوس، وجلود النمر وسن الفيل. كما تــرد عن طريقها أيضاً صادرات الصّومال والبلاد المجاورة كالمر والصموغ والبخور والعطور.
٢- إنها تؤدى لمناجم الذهب والحديد الموجودة بالصحراء شرقى النيل.
٣- شــعور الفراعنة فى مصر بأهمية استتباب الأمن فى هذه الأقاليم على حدود مصر الجنوبية.

وفــى عهــد الملك (ببيى الثانى) الذى جلس على عرش مصر بعد وفاة أخيه الملــك مرن رع – وكان صبياً لم يتعد السادسة من عمره– قام (حرخوف) بغزوه لــبلاد النوبة – وهى رابع غزواته، وقد سجل (حرخوف) أخبار غزواته هذه على جــدران مقبرته وقد ذكر حادثاً طريفاً – فقد عاد من غزوته هذه بغنائم كثيرة منها

١- برستيد: (ص ٨٩).

وكذلك .Budge: Vol. I, P. 19

٢- د. أحمد بدوى: ج ٦ ص ٢١٦، د. سليم حسن: مصر.

(قزم) يُحسن الرقص – فلما علم بيبى بخبر حضور قزم مع حرخوف كان سروره عظيماً وأرسل إلى حرخوف خطاباً خاصا يرجوه فيه الاهتمام بالقزم والاحتراس من غرقه فى النيل ووعده بمكافأة عظيمة(١).

وتعتبر رحلة (حرخوف) من أقدم الرحلات الكشفية المعروفة فى التاريخ، وقد فتحت الطريق للتوغل فى قلب أفريقيا.

ومن أمراء جزيرة فيلة الذين عُينوا حكاماً للجنوب وقاموا بحملات على أراضى (الواوات) و(إرتت) رجل يدعى بيبى نخت (Pepinakht) وقد ذكر فى مقبرته ما يلى:

"أرسلنى جلالة سيدى رب القطرين لغزو (الواوات) فقمت بهذا العمل مما جعل سيدى يمدحنى، وقد جلبت عدداً من الأسرى منهم أبناء الرئيس والعظماء لأننى كنت بطلاً على رأس رجال أشداء وبذلك حققت رغبة جلالته كما هو الحال فى أية مهمة يكلفنى بها، وقد مدحنى جلالته أكثر من أى شخص آخر فى مصر إذا أخضعت للبلاط المصرى حكام بلاد (الواوات) و(إرتت) – كما أحضرت عدداً لا حد له من الماشية والماعز(٢).

وهناك رجل آخر اسمه سبنى (Sehni) ترك نصاً طويلاً فى مقبرته – الأسطر الأولى منه غير واضحة لكنه يروى فى هذا النص كيف أن أحد ربابنة السفن التى تتجه إلى الجنوب قد أتاه بخبر موت أبيه (مخو) الذى كان قد أُرسل لمهمة رسمية إلى الجنوب فطلب (سبنى) على أثر ذلك من الفرعون المصرى الإذن له بالتوجه للجنوب ليحضر جثة أبيه ويذكر فى النص ما يلى:

"توجهت مع فرقة من رجال إقطاعيتى ومعى مائة حمار محملة بالعطور وعسل النحل والملابس المصرية ومصنوعات مختلفة من كل نوع من الهدايا التى تحوز القبول فى هذه الأقطار ووصلت إلى بلاد الواوات – فوجدت جثة أبى محملة على حمار فأسرعت وصنعت تابوتاً من الخشب وطلبت من رجالى أن يحملوه، ورجعت به لمصر ومعى كثير من الهدايا مثل البخور وأنياب الفيل طول الواحد منها ثلاثة أذرع (الذراع المصرى ٥٢,٥ سم) وبعضها طوله خمسة أذرع، ثم أحضرت كل ما كان والدى سيحضره معه من هذه البلاد"(٣).

١– نص خطاب الملك (لخوفو حر) موجود فى د. سليم حسن : ج ١ ص ٣٨٧ وج ١٠ ص ٢٨.

٢– يذكر Emery: P. 5. أن المصريين القدماء أطلقوا لفظ الواوات (Wawat) على المنطقة بين أسوان ووادى حلفا– ويطلق لفظ النوبة السفلى على المنطقة بين الشلالين الأول والثانى– والنوبة العليا جنوب ذلك.

٣– د. سليم حسن: ج ١ ص ٣٩١ وما بعدها، ج ١٠ ص ٣٠.

وأهم ما يمكن استخلاصه من هذه الوثائق :

١- هذه الوثائق كلها تدل على العلاقة بين مصر وبلاد النوبة الشمالية خلال حكم الأسـرة السادسـة المصرية- وتؤكد هذه الصلة النقوش الأخرى التى نُقشت علـى صـخور الجرانيت الممتدة جنوب الشلال الأول، وقد كتب هذه النقوش القـواد الذيـن كلفـوا بالقيام بحملات نحو الجنوب ابتداءًا من عصر الأسرة السادسة.

٢- السؤال الذى يتبادر للذهن هو: إلى أى مدى وصلت هذه الرحلات فى توغلها نحو الجنوب؟.

يذكـر لـنا (خوف - حور) أن رحلته إلى (إيام) استغرقت ثمانية أشهر- والمعروف أن الرحلة من أسوان إلى (دنقلة) فى هذه الأيام تستغرق من شهر إلى ٥٠ يومياً فى الذهاب والإياب، والى (جبل برقل) ما يقرب من ٧٥ يومياً والـى (سنار) ما يقرب من ٢١٠ يوماً. لكن (خوف - حور) يذكر أن رحلته اسـتغرقت حوالى (٢٤٠ يوماً) ذهاباً وإياباً - ولذلك يُرجح البعض أنه توغل جنوباً لمسافات كبيرة- على كل ليس لدينا ما يجعلنا نجزم بالمدى الذى وصل إليه ونشك فى أن المصريين وصلوًا فى ذلك الوقت إلى قرب (سنار)، كما أنه لا شك فى أن هذه الرحلات كانت تتخللها فترات للتفاهم مع الرؤساء (رؤساء القبائل) وتقديم الهدايا - والإتفاق معهم.

٣- نـرجح أن هذه الرحلات كان يسود فيها جو الود بل نميل لترجيح أنها كانت بمـثابة رحـلات للتبادل الاقتصادى فكانت تعتمد على التفاهم والود ولم تكن تُسـتعمل القـوة إلا عند الضرورة وفى أضيق نطاق - والبضائع التى كانت مطلوبـة مـن الجنوب والتى حرص المصريون على جلبها من هذه الجهات هـى: الأخشـاب - وقـد أشـار إليها (أونى) فى رحلته الثانية - والزيوت، والبخور، والمر الذى كان يُستعمل كثيراً فى تحنيط الأجسام، وجلود الفهد التى كانـت تُستخدم كزى للكهنة فى المعابد بالإضافة إلى العاج والأبنوس، وريش النعام.

وقد أثبتت حفائر الأستاذ (ريزنر) فى كرمه جنوب الشلال أن هذه البضائع الـتى كانـت متوفرة ومعروفة للسكان الذين عاشوا فى هذه المناطق حوالى ٢٠٠٠ ق. م أى إبـان الدولـة الوسطى فى مصر- هذه بالإضافة لأنواع من الأحجـار كانـت تُقطع من محاجر بلاد النوبة- وفى مقابل هذه الأشياء كان المصريون يُقدمون الصناعات المختلفة والعقود، والعطور، وعسل النحل الذى

اشـــتهرت به مصر، والمنسوجات، وورق البردى، والآلات النحاسية والأسلحة. وفـــى حفـــريات الأستاذ ريزنر فى منطقة (كرمه) عُثر أيضاً على (بناء من اللبـــن) يُحتمل أن كان مركزاً للتجارة- عثر عليه تحت أنقاض معبد بُنى فى عصـــر الدولـــة الوســـطى - ولذلك يُعتقد أن هذا المبنى الأول يرجع لعصر الأســـرة السادسة. وقد عثرت البعثة الأمريكية بالقرب منه على عدد كبير من أوانى العطور من المرمر نُقش عليها إسم (بيبى الأول) وعُثر على بقايا أوانى حجرية يُحتمل أنها كانت تحوى عسل النحل.

وكانـــت هـــذه البضائع تُحمل على ظهور الحمير. ويبدو أنه كانت هناك محطـــات مـــتفرقة علـــى طـــول الطـــريق حيث تنزل هذه البعثات التجارية للاستراحة، وكانت تُرسل مع القوافل التجارية وكذا مع بعثات المحاجر طوائف مـــن الجـــند بُنيـــت لهم أماكن متفرقة على طول الطريق للراحة والإستجمام، وكانت طريقة (التبادل) هى المتبعة، أما إذا كانت هناك حملات حربية فكانت تنهـــب الـــبلاد وتفرض جزية ثم يُحضر لمصر عدد كبير من الأسرى الذين كانوا يُستخدمون كخدم فى المنازل أو فى أعمال البناء الضخمة.

ونشـــير هنا إلى أن اسم (أسوان) تحريف للفظ (سوون) بمعنى السوق فقد كانـــت هـــذه المـــنطقة السوق التى تلتقى فيها القوافل التجارية المصعدة نحو الجنوب حاملة للبضائع المصرية أو القوافل القادمة من بلاد النوبة تحمل سلع تلـــك الـــبلاد لمصر، ويذكر الأستاذ سليم حسن أن أسوان أى (سونت) معناها الـــتجارة وقـــد كانت أسوان تحتل مكاناً ممتازاً فى حياة مصر الإقتصادية فى ذلك العصر[١].

٤- أهتم المصريون بتنظيم (طرق الاتصال) ببلاد النوبة الشمالية. ففي نص أونى يذكر أنه أُرسل لحفر خمس قنوات فى البلاد الجنوبية ولبناء زوارق نيلية من خشـــب الســـنط ممـــا يدل على الإهتمام بالمواصلات النيلية بين مصر وبلاد النوبة. على أن الاتصال ببلاد النوبة كان إما:

أ - بطـــريق الـــبر - فـــى الـــدروب الصحراوية من أسوان عن طريق الواحات (واحـــات كركر، ودنقلة، وسليمة) - على أن الطريق البرى لم يكن سهلا فى ذلك الوقت إذ أن المصريين القدماء كانوا يستخدمون (الحمير) وهى لا تتحمل ما تتحمله الإبل من مشقات الطريق والظمأ[٢].

١- د. سليم حسن: ج ٢ ص ٢٦٩.

٢- أنظر Maspero: Hist Anc. Des Peuples de L, orient,t 1 p. 426.

ب- طريق النيل- وكانت العقبة فى طريق السفن الشراعية فى النيل هى الصخور التى تعترض مجرى النيل وتعوق الملاحة فيه وهو ما دعا المصريين للتفكير فى شق طريق ملاحى فى هذه الصخور.

٥- الأسماء التى أطلقت على هذه البلاد مثل (الواوات) و(المازوى) أسماء قبائل كانت تعيش فى المناطق الواقعة بين دنقلة وأسوان.

٦- تعلمت هذه القبائل بالتجربة تُقدر وتُحترم وتخاف الملك المصرى وتخشى بطشه، وكانت تقنع بأخذ الهدايا من رؤساء الرحلات المتجهة للجنوب، وتتبادل معهم البضائع - لكن الأمر لم يكن يخل من أن تباغت هذه القبائل إحدى هذه الحملات وتنهبها ولذلك كان الفرعون المصرى يضطر لإرسال حملات حربية لتأديب هذه القبائل وردعها- لكن العامل الرادع والفعال فى هذه المناطق كان هو العلاقات الشخصية.

فقد ذُكر فى أكثر النصوص أنه بعد استخدام القوة أضطر رؤساء البعثات الحربية لمسالمة رؤساء القبائل واستمالتهم حتى يؤمن طريق التجارة لأجل طويل.

٧- نقطة أخرى نشير إليها هى الصلات التى كانت بين مصر وبين البلاد الجنوبية الواقعة على البحر الأحمر وبلاد الصومال فقد عهد الفراعنة كما يبدو أيضاً لحكام (جزيرة فيلة) بالسلطة على المناطق الممتدة من النيل إلى البحر الأحمر، ولتوثيق الصلات بهذه الجهات بُنيت السفن بميناء البحر الأحمر كالقصير - وتذكر الآثار أن (القائد البحرى) للملك بيبى الثانى وكان يُدعى إنيتحت (Enenkhat) فتك به البدو وبرجال حملته فأمر الملك (بيبى نجت) بالذهاب فوراً لإنقاذ جثته وعقاب البدو فقام بمأموريته خير قيام.

وهناك نقوش عُثر عليها على مقبرة لأحد الموظفين التابعين لأمير جزيرة فيلة ذكر فيها أنه سافر مع الأمير لبلاد الصومال أكثر من إحدى عشر مرة ورجع سالماً[1]. ونستدل من هذا أن مصر كانت لها علاقات تجارية ليس مع القبائل القاطنة جنوب مصر فى بلاد النوبة الشمالية فحسب- بل أيضاً مع سكان الأقاليم المطلة على البحر الأحمر، وذلك فى وقت مبكر جداً فى عصر الدولة القديمة فى مصر.

٨- اتخذ (حكام الجنوب) أسوان مقراً لهم لكنهم نشطوا فى تنظيم علاقات مصر مع بلاد النوبة، وكثيراً ما توغلوا جنوباً لاكتشاف الأقاليم البعيدة المجهولة فكانت

١- د. سليم حسن: ج ٢ ص ٤٨٣.

رحلاتهم هذه بمثابة (رحلات كشفية) تُعتبر من أقدم الرحلات الكشفية المعروفة فى التاريخ.

٩- كذلك نُشير إلى أن نقوش (أونى) تدل على أنه كان يوجد بمصر بالإضافة لجيش مصر الثابت – جيش من الجنود المرتزقة (النحسى) تألف من النوبيين، وكانت الكتائب التى تؤلف منهم تكون جزءًا من الجيش المصرى- وكان الملوك ابتداءًا من عهد الأسرة السادسة يمنحونهم أراضى وضياعاً- والبعوث التى تُرسل للبلاد الأجنبية يقود كل منها (مدير القوافل) وهو يقود جنوداً من المرتزقة من بلاد النوبة عُرفوا باسم (نحسى)، ويذكر الأستاذ سليم حسن أن كلمة (النخاسة) قد تكون اشتقت من اسم نحسى[1].

وقد أُنيط لمديرى القوافل مهمة حراسة الحدود الجنوبية لمصر فاستوطنوا الفنتين ومنهم (حرخوف) و(بيبى نخت) و(سبنى) وقد تحدثنا عنهم سابقاً.

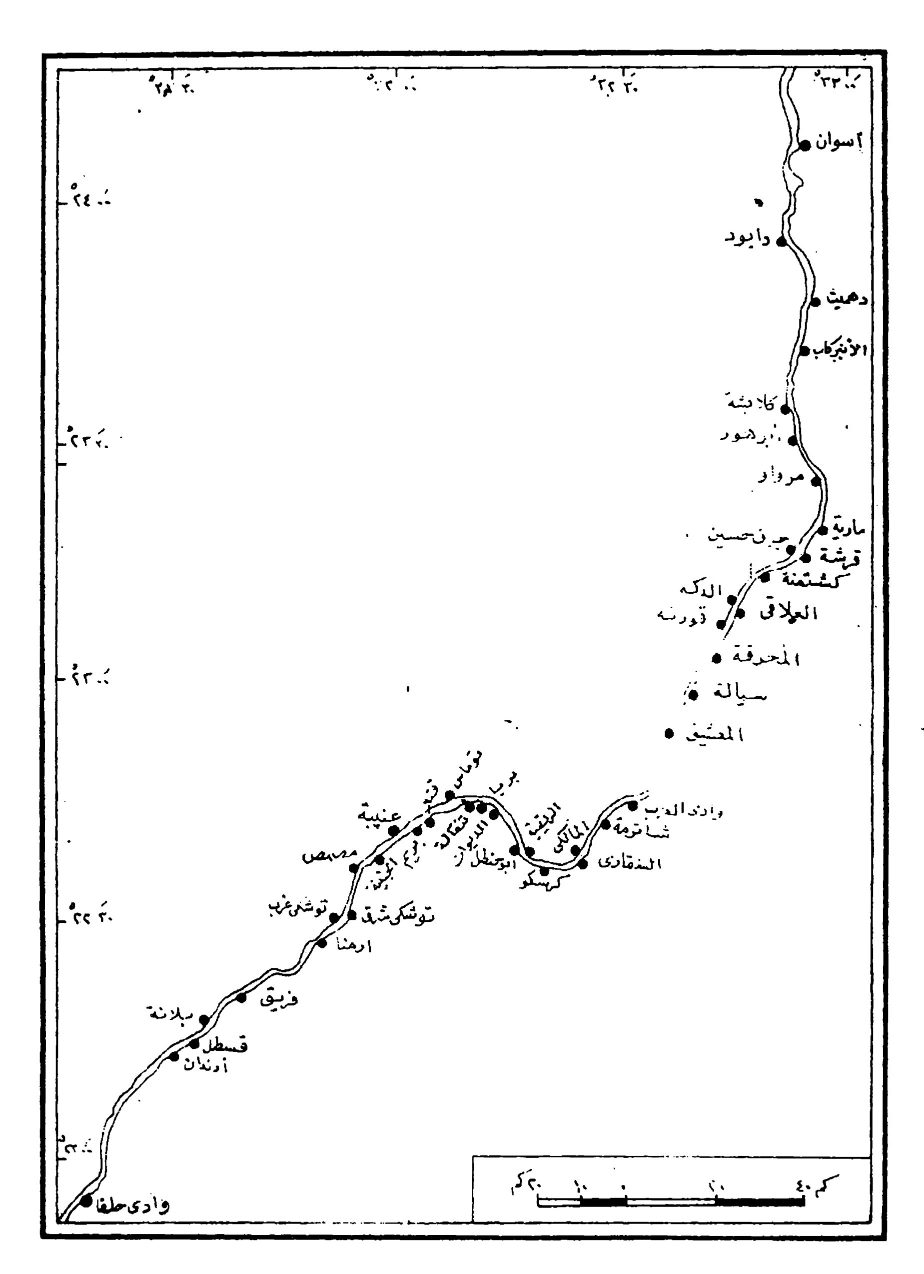
وكان إقليم (إيام) بالذات أكثر الأقاليم التى تُمون جيش المرتزقة بحاجته من الجنود، وأصبح لمديرى القوافل أهمية فاكتسبوا ألقاب نائبين عن فرعون فى (نخن)، ثم لقبوا أنفسهم (بأمراء) مقاطعة الفنتين و(مديرى الأقطار الأجنبية)، وأصبحت قوتهم أكبر حين أصبحت مقاطعاتهم ووظائفهم وراثية فى أسرهم.

١٠- وكان المصريون ينظرون لبلاد النوبة على أنها جزء من مصر، وعلى إحدى حوائط هرم (بيبى الأول) نقش يوضح أن المصريين كانوا ينظرون لآلهة السودان بنفس الأهمية والدرجة كآلهتهم[2].

وقد انتهت الدولة القديمة بمصر بانتهاء عصر (بيبى الثانى) وحدث بعد ذلك أن وقعت مصر نفسها فريسة لاضطرابات استمرت ما يقرب من ثلاثة قرون فضعفت العلاقات بين مصر وبلاد النوبة إبان هذه الفترة وقلت المعاملات التجارية.

١- سليم حسن: نفس المصدر والصفحة السالفة الذكر.

2- Budge: Vol. I, P. 5265.



شكل رقم (٢) النوبة السفلى

الفصل الثالث
بلاد النوبة من بداية عصر الاضمحلال في مصر حتى نهاية حكم الهكسوس

- الكشف عن جبانة كرمة، وما أمدتنا به من معلومات.
- مقارنة بين ثقافة كرمة وثقافة المجموعة (C).
- بلاد النوبة في عصر الأسرة الثانية عشرة المصرية.
- حملات ملوك الأسرة الثامنة عشرة على النوبة.
- لوحه سمنة.
- القلاع التى أقيمت فى بلاد النوبة.
- عصر الأسرة الثانية عشرة المصرية.
- عصر الأسرة الثالثة عشرة المصرية.
- المقابر القعبية للنوبة فى الوجه القبلى بمصر.
- النوبة فى عصر الأسرة السابعة عشرة المصرية.

الفصل الثالث

بلاد النوبة من بداية عصر الاضمحلال فى مصر حتى نهاية عصر الهكسوس

جبانة كرمة :

ظلت معلومتنا عن حضارة بلاد النوبة فى هذه الفترة طفيفة حتى نجح الدكتور ريزنــز (Dr. Reisner) فى عام (١٩١٣) فى الكشف عن جبانة (كرمه) فكان هذا الكشــف إيذاناً بتقدم كبير فى دراسة حضارة الشعوب التى كانت تسكن بلاد النوبة فى هذه الحقبة التاريخية.

وقد رمز للآثار التى عُثر عليها والتى ترجع لهذه الفترة (C) ودلت هذه الآثار علــى أن النوبييــن القدماء قد اختلطت دماؤهم الحامية بالدم "الزنجى" وأثارت هذه الظاهرة تساؤلات كثيرة عن الظروف التى حدث فيها هذا الإختلاط.

ويــبدو أن الاضــطرابات التى إنتابت مصر طوال عصر الإضمحلال الأول حيــنما كانــت مصر منقسمة على بعضها، وتخلخل الصلة بينها وبين بلاد النوبة الشمالية وشغف هيبة الفرعون المصرى أتاح كل ذلك فرصة ذهبية (لأهل الكوش) ليمدوا سلطانهم شمالاً لبلاد النوبة الشمالية. حتى أن ملوك الدولة الوسطى لم يكادوا يوطــدوا ســلطانهم فى مصر حتى رأوا هذا الخطر ماثلاً أمام أعينهم، كما وجدوا أهــل الــنوبة الشــمالية يدينون بالولاء لهذه القوة الجديدة، ولذا حفل تاريخ الدولة الوسطى بهذه الحملات التى أُرسلت لبلاد النوبة الشمالية والحروب مع أهل كوش، وكانــت سياســة مصــر أن تجعــل البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثانى مكاناً للصراع فبدءوا بإخضاعها وإقامة الحصون فيها.

وهذا الحديث عن أهل كوش، وحضارتهم يستلزم منا إسترجاع بعض الحقائق التى نستخلصها مما ذكرناه سابقاً.

ونلخص هذه الحقائق فيما يلى:

١- كــان المصــرى القديــم يُســمى المنطقة الواقعة جنوب مصر والواقعة بين (السلسلة) والشلال الأول باسم (تاستى)[1].

٢- القبائــل التى كانت تسكن هذه المنطقة كانت من نفس (الجنس الحامى) الذى

١- د. سليم حسن: ج ١ ص ١٥٥ (طبعة ١٩٤٠).

ينـتمى إلـيه الشعب المصرى – بينما كان "الزنوج" يستقرون في المساحات الواسعة من الأرض السهلة التى تبدأ من قرب العطبرة وتتجه جنوباً.

٣- قـبائل الـزنوج هذه تحركت فى عصور مختلفة للشمال وإستقرت فى النوبة الشمالية بل إن بعض ذيول منها وصلت للحدود المصرية وإجتازتها للشمال.

وكـان الجـنس الزنجى معيناً لا ينضب استغله المصرى القديم فى عصر الدولة القديمة بالذات كخدم فى المنازل، وكجند وكون منهم فرقاً حربية كبيرة، وفـى المـزارع وغيرها- وحدث تزاوج بين المصريين والزنوج ابتداءًا من عصر الدولة القديمة نتيجة هذا الاختلاط والإنتشار، ويبدو أن الجزء الجنوبى مـن مصر الذى يبدأ بجبل السلسلة الواقع قرب (كوم أمبو) ويمتد جنوباً حتى الشـلال الأول – هذا الجزء الذى يشبه فى بيئته وثروته النباتية ومناخه بلاد الـنوبة الشمالية يبدو أنه كان أكثر تأثراً بهذا الإختلاط من غيره من المناطق المصـرية الأخـرى فنتائج الأبحاث التشريحية والأنثروبولوجية أظهرت أن عـدداً كبيراً من الهياكل العظمية للمصرى القديم الذى عاش فى هذه المنطقة كانـت تغلب عليها الصفات الزنجية- بل إن أمير جزيرة الفنتى (Pepi Nakht) كمـا ذكـرنا والذى عاش إبان حكم الملك بيبى الثانى مُثل فى مقبرته كزنجى أسود بملامح زنِجية.

ويمكـن إن نقول أن الجنس الزنجى هذا بدأ يتسرب للمناطق الجنوبية من مصـر وكان هذا الإختلاط فى المبدأ ضئيلاً، لكن ما لبث أن أخذ يشتد ويزيد بسرعة وكان من نتيجة ذلك ما لاحظناه من تشابه عظيم بين مخلفات الإنسان الأول الـذى عـاش فـى بـلاد النوبة الشمالية فى عصر فجر التاريخ وبين مخلفـات الإنسان الذى عاش فى مصر. فالتشابه كان نتيجة لوحدة فى الجنس وليس فقط لتأثيرات حضارية.

والـزنوج لم يظهروا على المسرح المصرى بشكل ملحوظ إلا ابتداءًا من عام ٣٠٠٠ق. م تقريباً – فنجد مثلاً (نصوص الأهرام) التى تحدثت كثيراً عن بلاد النوبة لم تذكر شيئاً عن الزنوج- وكذلك القوائم المشهورة التى تصور لنا (شـعوب الدولـة المصرية المتحدة) وكان يقصد بهذا التعبير عند المصريين القدمـاء كمـا نعلـم – شعب مصر وجميع البلاد التى خضعت لمصر- هذه القوائـم لـم تذكـر الزنوج، وكانت الشعوب التسعة التى ذُكرت والتى كانت تتكون منها الدولة المصرية فى وقت عظمتها هى:

أهـل الدلـتا - أهـل الوجـه القـبلى - أهل ليبيا (تحنو) الآسيويون والسـاميون - البدو سكان جنوب فلسطين - البدو فى الصحراء الشرقية وسـيناء - سـكان بعـض جزر البحر المتوسط - سكان النوبة الشمالية (نحسو) وسكان الواحات الغربية.

٤- عـندما إشـتد زحف الزنوج للشمال- ولم يستطع أهل النوبة الشمالية التغلب علـيهم أضـطر بعضهم لأن يهجروا أوطانهم، وهاموا فى الصحراء الشرقية وانـتقلوا مـن حياة الإستقرار والزراعة والإنتاج إلى حياة الانتقال والبداوة- ومـن هؤلاء (قبائل البجة) أو البشاريين، وأصبحت هذه القبائل بحكم وضعها الجديد تُغير على البلاد الزراعية ويقع بينها وبين سكانها معارك.

وكـان المصـرى يُطلق على سكان بلاد النوبة أسماء مختلفة هى أسماء القبائل فهناك شعب (الواوات) و(المازوى) وغيرها[1].

٥- ابـتداءًا من عصر الولة الوسطى بدأ يظهر فى النقوش المصرية ولأول مرة إسـم (شعب الكوش)[2] ويرجع السبب فى ذلك إلى أن هذا الشعب لعب دوراً كبـيراً فى السياسة المصرية طوال عصر هذه الدولة- فقد إنتهز هذا الشعب فـترة الإضمحلال الأول فى مصر- فمد سلطانه على بلاد النوبة وتمكن من أن يكون دولة قوية فى مديرية دنقلة كانت عاصمتها (كرمه) التى تقع للجنوب من الشلال الثالث.

٦- حقـيقة سادسـة وهامـة عن شعب كوش ودولتهم هذه التى - سنتحدث عنها طويـلاً فـى عهد الدولة الوسطى - وهى إن حضارتهم هذه التى كشف عنها (Reisner) وغيره من علماء الآثار والتى سادت فى بلاد (النوبة العليا) كانت مُعاصـرة للثقافة التى سادت فى (النوبة السفلى) والتى أدرجت فى المجموعة الثقافية التى رمز لها (C) واستمرت سائدة فى بلاد النوبة السفلى فترة طويلة مـن الزمن تمتد من الأسرة السادسة المصرية حتى بداية الأسرة الثانية عشرة أى فـترة ثمانـية قرون تقريباً، ولذلك كان طبيعياً أن نلمس تغيرات فى هذه الحضارة وبعض العلماء يقسمها إلى مجموعتين أو أكثر.

١- المازوى- هى القبائل التى أمدت الجيش المصرى بأعداد كبيرة من المحاربين فى العصور القديمة حتى أصبحت كلمة (مازوى) تعنى جندى فى اللغة المصرية القديمة.

٢- يذكر برستيد أن اسم (كوش) ورد على آثار المملكة القديمة مرة واحدة.

(أنظر برستيد ص ١١٧).

ثقافة كرمة :

مـن دراسة الآثار التى كشف عنها (ريزنر) نلاحظ الحقائق العامة الآتية عن ثقافـة (كـرمه) الواقعة شمالى (جزيرة أرقو) على مسافة غير قصيرة من حصن سمنه:

أ - كان ملوك الكوشيين يدفنون فى مقابر ضخمة مستديرة يحيط بها حائط سميك.

ب- عُثر على عدد ضخم من الهياكل البشرية لذكور وإناث مكدسة فوق بعضها- ولا نجـد تفسيراً لهذه الظاهرة إلا أن الكوشيين كانوا يقومون بقتل جميع أتباع وخدم الملك فى يوم وفاته ويدفنونهم معه كى يقوموا له بنفس الخدمات الملقاة علـى عـاتقهم فى الدنيا الأولى، وقد كانت هذه العادة موجودة فى مصر فى عصر فجر التاريخ لكنها انقرضت فى العصور التاريخية.

وكانت الجثة فى هذا العصر تدفن موضوعة على جانبها الأيمن وكثيراً ما كانت تُلف فى حصير أو فى جلد ماشية.

جـ- كـان الكوشـيون يحـيطون مقبرة الملك بمقابر عدة صغيرة خُصصت لدفن حاشية الملك وأفراد أسرته.

د - يـدل الأثاث الجنائزى فى هذه المقابر على أن حضارة الكوشيين كانت بمثابة استمرار للحضارة المصرية التى ظهرت فى عصر فجر التاريخ. ولم يجددوا فى أشكال الفخار- لكنهم وصلوا لدرجة فائقة فى مهارة الصنعة ودقة الحرق وقـد عثر (ريزنر) على لوحات عده من العاج حُفرت عليها رسومات مختلفة تمتاز بمحاكاة الطبيعية محاكاة صادقة، كما عثر على قلائد من الخرز، وعلى أوانـى مصرية، وعلى أسورة مختلفة وأقراط، وعُثر كذلك على بقايا الجبس الـذى يُغطى جدران الحجرات المهمة فى المقابر- وتدل هذه البقايا على أنهم كـانوا يستعملون ألواناً زاهية فى رسم بعض الزخارف التى استوحاها الفنان من البيئة المحيطة به.

فحضـارة كـرمه إذًا كانـت حضـارة نابعة من البيئة مع تأثيرات واضحة بالحضـارة المصرية. وإن كان بعض العلماء يذهب إلى أن هذه الحضارة حضارة وافـدة أصـلاً على المنطقة التى ساد فيها لفترة طويلة شعب كوش - لكن الأستاذ (ريزنر) يرى غير ذلك.

علـى أن وضـع (كرمه) فى نهاية الدولة الوسطى يدعو للظن على أنها كانـت مُلـتقى أجناس مختلفة، وقد أظهرت الفحوص التى عملت على الهياكل

الــتى كانــت مدفونة فى الجبانات الواقعة التى تبعد حوالى أربعة كيلو مترات ونصــف كلــيو متر عن شاطئ النيل- على وجود هذا الخليط الجنسى – وقد أشرنا سابقاً إلى مميزات هذه الثقافة كما تدلنا عليها هذه القبور، فأهم الظواهر الــبارزة فيها هى عادة دفن أقارب الميت وأتباعه وخدمه طوعاً أو كرهاً منهم معــه فقد بلغ عدد الذين دفنوا أنفسهم بهذه الكيفية فى أحد المقابر مع المتوفى- ولعلــه أحــد الأمراء عدد يتراوح بين ١١٠ و١٣٠ شخصاً وكل هذه الأجسام وجُــدت فــى أوضاع مفزعة بشكل يدل على أن هؤلاء الرجال والنساء لاقوا حتفهم فى وقت واحد[١].

وغالــباً كان يدفن صاحب المقبرة مع زوجه على سرير ويلف كل منهما فى جلــد حــيوان- ويدفن فى حجرة دفن الأمير أقرباؤه المقربون- يدفنون أحياء بينما يدفــن الخدم والأتباع خارج هذه الحجرة فى دهليز طويل ويهال عليهم التراب، أما الماشية فكانت تدفن فى الجهة الجنوبية من المقبرة.

أما الأشياء التى وجُدت فى المقابر فى (كرمه) والمخصصة للاستعمال اليومى للمــتوفى فــى العالم الآخر فكانت عبارة عن: أباريق، وأطباق للأكل والشرب من الفخار.

وقد قسم ريزنر الأوانى الفخارية التى عُثر عليها بكرمة إلى ثلاث مجموعات:

أ - أوانــى وطنية متينة الصنع: وهى أوانى جميلة، يُعتقد أن أصولها منقولة من مصر.

ب- أوانــى مصرية: وهى إما مجلوبة من مصر أو عُملت تقليداً لأوانى مصرية، ويعتقد (الأستاذ ينكر) أن صُناعاً مصريين كانوا يديرون المصانع التى تصنع هذه الاوانى فى كرمه ذاتها.

جـ- أوانى وطنية خشنة الصنع: وكلها صناعة محلية ساذجة الصنع.

وقــد وجُــد غير الاوانى الفخارية- أسرة وكراسى، وأشياء مصنوعة من الجلــد كالأحذية والأغطية، وأربطة للأسرة والكراسى، كما وجُدت مصنوعات معدنــية كأدوات الزينة والأساور والأقراط – ووجدت كذلك مرايا من الميكا، وقــبعات مصــنوعة مــن الجلد خيطت فيها قطع من الميكا، وأشكال حيوانات صــنعت مــن ســن الفــيل – وأشياء مصنوعة من الخزف المطلى، والآلات مصنوعة من النحاس.

١- د. سليم حسن : ج ١٠ ص ١٨٣.

ثقافة المجموعة C وثقافة كرمة:

و لا شك فى أن (ثقافة المجموعة C) – و(ثقافة كرمه) ثقافتان منفصلتان بدليل:

١- رغـم مـا بين الثقافتين من رابطة جنسية واضحة - فان أثر الثقافة الإفريقية أكثر وضوحا فى ثقافة كرمه.

٢- رغـم تشابه المقابر فى الثقافتين فى المظهر الخارجى فهناك إختلاف بين فى نظام المقبرة وتخطيطها.

٣- هـناك إخـتلاف واضـح فى عادات الدفن – فبينما نجد فى كرمه يدفن مع الرئـيس عدد عظيم من أقاربه وأتباعه أحياء فإنه فى مقابر (المجموعة C) لم نجد هذه الظاهرة العجيبة فقد كان صاحب المقبرة يُدفن بمفرده.

٤- التماثـيل الـتى عُـثر علـيها فـى (كرمه) قليلة جداً ومحدودة وهى لبعض الحـيوانات والطيور، ولم يُعثر على تماثيل للرجال – هذا بعكس الوضع فى المقابر التى تُمثل ثقافة (المجموعة C).

٥- الأسـلوب الذى رسُمت به الصور التى عُثر عليها فى (كرمه) مخالف لأسلوب الصور التى رسُمت أو حفرت على أوانى الفخار والتى ترجع (للمجموعة C).

٦- الملابس التى وجدت فى كرمه والقبعة الجلدية المزينة بالميكا مخالفة لملابس جماعة الثقافة (C) ولم نجد فى كرمه الأقراط والأسورة التى وُجدت فى مقابر المجموعة (C).

ممـا سـبق نسـتنج أن الحفائر التى عُلمت فى (كرمه) أظهرت حضارة لها ممـيزاتها الخاصـة المتأثرة بالبيئة، والمعتقد أن (كرمه) تُمثل عاصمة المستعمرة التجارية التى أسسها ملوك الأسرة الثانية عشرة فى هذه المنطقة، فقامت هنا ونمت حضـارة فريدة متأثرة بالظروف الجغرافية للمكان وبالثقافات المحيطة، وكان نواة هذه الحضارة حاكم بلاد النوبة الذى عينه الفرعون المصرى فى هذا المكان (حاب جـافى) وحاشـيته[١] – والمعتقد أن المقبرة التى رمز لها ريزنر بالرقم (٣) والتى وجد فيها مع الأمير المتوفى ما يبلغ من مائة شخص من أقاربه وأتباعه هى مقبرة (حاب جافى) إذ عُثر فيها على تماثيل للأمير (حبزافى) وزوجه ولعل (حبزافى) قد اصـطحب معه لهذه البلاد حاشية كبيرة من أتباعه ومن الصناع والعمال وقد نقل هؤلاء معهم بعض الحرف المصرية، كما اخذوا عن أهل الجهات التى انتقلوا إليها الكثـير من عاداتهم وحرفهم وأثروا فيهم وتأثروا بهم وبالمكان الذى استقروا فيه –

١- تذكرة بعض المراجع باسم حاب زفاى (Hapzefi) أو (زفاى حعبى).

وأصـــبح الأمـــير المصـــرى يُمثل هنا صاحب الإقطاع العظيم فى مصر فى تلك الفترة، وما عثر عليه (الدكتور ويزنر) فى المقبرة التى يُعتقد أنها مقبرة (حبزافى) – كمـــا ذكرنا – يُشعر بأن الأمير كان يحيى فى بيئة نوبية حقيقية وإن كان العالم الالمـــانى (Junker) يـــرى أن آثـــار مقابـــر (كرمه) تدل على التأثير القوى للفن المصرى على سكان بلاد النوبة.

ونشير هنا إلى أن (إمرى) يُبدى دهشته البالغة من تأثر (حاب جافى) بالعادات الدينـــية التى كانت منتشرة فى النوبة العليا فى ذلك الوقت فقد كان يتوقع أن امتداد الحضـــارة المصرية لهذه البلاد كان كفيلاً بالقضاء على العادة الرذيلة المتعلقة بدفن الأحـــياء مـــن أقارب الميت وأتباعه، وهى عادة كان ينظر إليها فى مصر فى ذلك الوقـــت باشمئزاز، وكانت هذه من الأسباب التى دعت لإثارة الشكوك حول حقيقة هذه المقبرة التى رمز لها (بالجبانة رقم ٣ كرمه) هل هى مقبرة حبزفاى أم لا؟[١].

العلاقات بين مصر وبلاد النوبة فى هذه الفترة :

العلاقـــات بيـــن مصـــر بـــلاد الـــنوبة وإن كان قد شابها الفتور طوال فترة الاضـــطرابات التى عاشت فيها مصر منذ سقوط الأسرة السادسة وبسبب الحروب الـــتى قامت بين أمراء (إهناسية) وبين أمراء (طيبه) حتى استطاع الملك (منوحتب الـــثانى) أن يعـــيد الوحدة بين أفراد القطر المصرى – فإن هذه العلاقات لم تنقطع كلـــية فـــلا شك فى أن التجارة كانت مستمرة بشكل ما، كما وجد ما يدل على أن النوبيـــن كـــان مـــنهم فـــى مصر فى هذه الفترة جنود مرتزقة يؤيدون فريقاً من المتحاربين على الفريق الأخر، وقد عُثر على نماذج لهؤلاء الجنود مسلحين بالسهام والأقواس ويرتدون قمصاناً قصيرة مزينة برسوم مختلفة.

علـــى أن ملوك الأسرة الحادية عشرة لم يلبثوا أن وجهوا أنظارهم لبلاد النوبة بهد أن استتب لهم الأمر فى مصر.

وقـــد عُـــثر فـــى (الجبلين) على اثر يرجع لمصر (منتوحتب الثانى)يدل على اهـــتمامه ببلاد النوبة، ووجُد فى (دندره) أثر مماثل ذكر فيه إن "النوبيين أصبحوا يدفعون الضرائب" وذكر أهل (المازوى) و(الواوات) بجانب التمحو (الليبيين) الذين خضعوا للفرعون المصرى[٢].

1- Emery P. 19.

٢- د. سليم حسن: ج ١٠ ص ١١٠.

وكـل مـا يمكـن أن نقوله إنه كانت هناك فى عهد (منتوحتب الثانى) سياسة نشطة تجاه الجنوب، ولكن لا يمكن أن نجزم بأنه اخضع هذه البلاد لسيطرته – وقد وجُد على قطعة حجرية بالقرب من أسوان نص جاء فيه:

"إنه فى السنة الحادية والأربعين من حكم الملك منتوحتب الرابع حضر رئيس خزائـن الملـك ورئـيس حملة الأختام فى أسطول نيلى كبير متجهين صوب بلاد الواوات"(١).

وكـل مـا نستنتجه من ذلك أن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة بدأت ترجع لمجراها السابق وأن ملوك الأسرة الحادية عشرة بدءوا يستأنفون النشاط والعلاقات التى كانت بين مصر وبلاد النوبة فى عهد الأسرة السادسة بمجرد أن تخلصوا من المشكلات الداخلية التى كانت تقف حائلاً دون إستمرار هذا النشاط الطبيعى.

كمـا يسـتدل مـن الـنص السابق على أن ملوك الأسرة الحادية عشرة بدءوا يستغلون القناة إلى شقها (أونى) بين صخور الشلال الأول، وقد وجدت على صخور المحاجـر بوادى الحمامات نقوش كتبها القائد (حنو) قائد جيش الملك منتوحتب الثالث بمـا يشـير إلـى بعثة قام بها هذا القائد إلى بلاد بنت فى السنة الثامنة من حكم ذلك الملـك، وقـد ذكر فى هذه النقوش "أنه قام بهذه الرحلة بوصفه حارس باب الجنوب والمشرف على إدارة مقاطعات الجنوب، وأنه كان بصحبته جيش من الجنوب"(١).

كما أن الآثار التى كشف عنها الدكتور (أحمد فخرى) فى وادى الهودى الواقع فى الصحراء الشرقية على بعد أربعين كليو مترًا جنوب شرق أسوان تدل على "أنه فى السنة الثانية من حكم منتوحتب الرابع خرج احد الموظفين الكبار واسمه (انتف) علـى رأس جيش لُيحضر بعض الأحجار الكريمة من أرض (تخنت) وقهر الذين فى جنوبى الدولة وفى شمالها وعاد سالماً بعد أن نفذ أوامر سيده(٢).

وحيـن تولى (منتوحتب الخامس) الُملك تابع الجهود المبذولة لتوثيق الروابط بيـن مصـر وبلاد النوبة وتذكر لنا الآثار أنه عين موظفاً خاصاً أطلق علية لقب (محـافظ بـاب القطر الجنوبى)، وكان فى مرتبة وزير مسئول عن شئون التجارة الخارجـية – وهـذا يـدل على أن الناحية الاقتصادية كانت من الأهداف الرئيسية لعلاقات مصر بهده البلاد.

١- برستيد: ص ١٠٠، د. سليم حسن:

٢- د. سليم حسن: ج ٣ ص ١٠٨.

٣- نفس المرجع السابق ونفس الجزء ص ١٥١.

وبانـــتهاء حكم الملك منتوحتب الخامس تنتهى الأسرة الحادية عشرة وتلتها فى حكم مصر الأسرة الثانية عشرة.

بلاد النوبة فى عهد الأسرة الثانية عشرة :

حفـــل تـــاريخ ملوك الأسرة الثانية عشرة بحملاتهم على بلاد النوبة ووقائعهم ضـــد قبائل الكوش. ويعتبر المؤرخون هذا الإحتكاك الذى بدأ بين مصر وبين بلاد النوبة منذ عصر امنمحمت الأول مرحلة جديدة فى تاريخ وحضارة بلاد النوبة[1].

وقـــبل أن نُشير إلى حملات ملوك الأسرة الثانية عشرة على بلاد النوبة يجدر بنا أن نوضح نقطة هامة وهى أن الهدف الأساسى من هذه الحملات أو غيرها من الحمـــلات الـــتى قـــام بها فراعنة مصر على هذه البلاد لم يكن إخضاع هذه البلاد وضـــمها لمصـــر، فقد ظلت هذه البلاد تتمتع دائماً بنوع من الحكم الذاتى، وكل ما كـــان يهدف إليه الفراعنة من حملاتهم هو الضرب على أيدى القبائل التى كانت لا تعرف الإستقرار والهدوء والتى كانت تهدد أمن هذه الجهات، وتعوق التجارة بينها وبين مصر وتتحكم فى الطرق المؤدية للمناجم والمحاجر، ولذا فقد أقيمت الحصون فـــى أماكـــن متباعدة فى (كوبان) و(دكا) و(وادى حلفا) وغيرها لحماية المحطات الـــتجارية، وقد وجد منقوشا على قلعه سمنه مرسوم ملكى ينظم حركة الملاحة فى النهر بعد أن تحسنت الملاحة خاصة فى منطقة الشلال الأول[2].

هـــذا وقـــد عُثر فى (كرمه) خلاف الجبانات التى أشرنا إليها على مقبرة تقع على مسافة كيلو مترين من شاطئ النيل على مسيرة خمسة كليو مترات من جزيرة (أرقـــو) وهـــذه المبـــنى المستطيل الشكل المقام (باللبنات) يبلغ طوله ٥٢,٥ مترا وعرضـــه ٢٦,٧متراً وكان إرتفاعه عند الكشف عنه ١٩,٣ متراً، وأقيم فى الجهة الشرقية لهذا المبنى مبنى آخر بنفس الطريقة، كما توجد فى الجهة الغربية مجموعة مبان.

والمعتقد أن هذا المبنى الاصلى كان (مركزاً تجارياً) وقد عُثر فيه على أوانى مصـــنوعة من الفخار ويبدو أن الدور العلوى من المبنى الرئيسى كمان مخصصاً لســـكن الـــتجار المصـــريين الذين كانوا يقومون بعملية التبادل التجارى مع أهالى الجنوب – قد بنى هذا (المركز التجارى) بطريقة تشبه الحصون الجبلية – والتاريخ

1- Emery : Nubian Treasure P. 19

2- Ibid. P. 9.

الاصلى لإقامة هذا المستودع التجارى غير مؤكد لكن يوجد ما يثبت أنه استمر يؤدى وظيفته حتى عهد الهكسوس.

وهذا يدل على أنه توجد فى بلاد (كرمه) مؤسسة مصرية كان الهدف الأساسى منها التجارة بين بلاد (كوش) ومصر، على أن هذه المؤسسة ظلت تقوم بعملها حتى أخذت مصر فى التدهور الذى أنتهى بسقوط الدولة الوسطى ثم احتلال الهكسوس للبلاد. ولذا ففى الوقت الذى كانت فيه مصر تسيطر على بلاد النوبة السفلى عن طريق جيوش مصرية فى هذه البلاد كان لمصر نفوذ تجارى قوى عن طريق المستودعات المصرية فى كرمة (تشبه الوكالات التجارية وتقوم بعملها) وهكذا كانت لمصر مكانة سياسية وتجارية فى بلاد النوبة حتى سقطت الدولة الوسطى وانتاب مصر ضعف سياسى واضطراب أدى لتدهور إقتصادى واجتماعى.

ملوك الأسرة الثانية عشرة المصرية :

١- أمنمحعت الأول	٢٠٠٠-١٩٧٠ ق. م.
٢- سنوسرت الأول	١٩٧١-١٩٣٥ ق. م.
٣- أمنمحعت الثانى	١٩٣٥-١٩٠٣ ق. م.
٤- سنوسرت الثانى	١٩٠٣-١٨٨٧ ق. م.
٥- سنوسرت الثالث	١٨٨٧-١٨٤٩ ق. م.
٦- أمنمحعت الثالث	١٨٤٩-١٨٠١ ق. م.
٧- أمنمحعت الرابع	١٨٠١-١٧٩٢ ق. م.
٨- سبك نفرورع	١٧٩٢-١٧٨٨ق. م.

ويلاحظ أن هؤلاء الملوك درجوا على إشراك أبنائهم معهم فى الحكم لذلك فهناك تداخل فى فترات الحكم نتيجة اشتراك الابن فى الحكم مع أبيه ولهذا تختلف المراجع فى تحديد فترة حكم كل ملك منهم.

أهم المصادر التى نستقى منها تاريخ بلاد النوبة فى عصر الأسرة الثانية عشرة:

١- نصائح أمنمحعت الأول لابنه سنوسرت.

٢- نقوش مقابر (حكام بعض الأقاليم) الذين عاونوا الملوك فى حملاتهم فى بلاد النوبة، ونخص بالذكر حكام مقاطعة الوعل (بنى حسن) وحكام مقاطعة الفنتى.

٣- لوحه سمنة.
٤- لوحـــات أقامهـــا قواد الحملات فى الجنوب فى نقط على الحدود التى وصلت إليها جيوشهم.

وأهم الحملات التى قام بها ملوك الأسرة الثانية عشرة على السودان:

١- الحملـــة الـــتى أرسلها أمنمحعت الأول فى السنة التاسعة والعشرين من حكمه (١٩٧١ ق. م.)
ودليلنا عليها:
أ - النقوش الموجودة على صخور كورسكو.
ب- وصايا أمنمحعت الأول لأبنه سنوسرت.
جـ- ما كتبه أمير بلدة (منعات خوفو) المدعو (خنوم حتب) فى مقبرته.
٢- الحملة التى قام بها سنوسرت الأول فى السنة الثانية عشرة من حكمه (١٩٦٢ ق.م.)
ودليلنا عليها:
أ - لوحه القائد أمنتوحتب قرب (وادى حلفا)
ب- نص على مقبرة أمير مقاطعة الفنتى.
جـ- نص على مقبرة الأمير (إمنى) فى بنى حسن.
٣- الحملة التى قام بها سنوسرت الثالث فى السنة الثامنة من حكمه (١٨٧٩ ق.م)
ودليلنا عليها:
أ - النقوش الموجودة على الصخور الجرانيتية فى (جزيرة سُهيل).
ب- نقوش مقابر حكام الفنتى.
جـ- لوحه سمنة.
٤- حملات أخرى لسنوسرت الثالث:

وأهمهـــا ثـــلاث حملات فى السنوات (١٢، ١٦، ١٩) من حكمه ودليلنا عليها نصوص تهشم بعضها.

هذه هى أهم الحملات وأعقبتها فترة هدوء امتدت حتى الأسرة الثامنة عشرة. والآن نتناول بالتفاصيل ما أجملناه عن هذه الحملات:

حيـــن تولـــى امنمحعـــت الأول عرش مصر كانت قوته مؤسسة على مركزه كزعـــيم للأســـرة الحاكمة فى طيبة وعلى الحلف المنتصر الذى كونته القبائل التى تعاونت مع عظيم طيبة لفائدتهما المشتركة- ولذلك حفظ الملك امنمحعت الأول هذا

الجميل لحكام الأقاليم الذين عاونوه فمنحهم فى أقاليمهم الكثير من السلطة فنحتوا مقابرهم فى الصخر فى سيوط وبنى حسن وغيرهما، وكان الملك يعتمد عليهم فى تنفيذ سياسته. وكانوا من جانبهم يتفانون فى إرضاء الفرعون المصرى – ولذا كما ذكرنا وصلتنا الكثير من المعلومات عن هذا العصر من النصوص والمناظر المنقوشة على جدران مقابر حكام الأقاليم الذين اشتركوا فى الحملات على بلاد النوبة.

وقد ذكر حاكم مقاطعة الغزال المدعو (خنوم حتب) التى كانت عاصمتها منعات خوفو (بنى حسن الحالية) بالقرب من المنيا – إنه حارب مع امنمحعت الأول ضد حكام النوبة الشمالية واشترك فى معركة بحرية ضد هؤلاء الحكام كان قد اشترك فيها أسطول من عشرين سفينة(١).

ومن الغريب أن امنمحعت الأول الملك الذى تمكن من أن يضمن لمصر وحدتها قوبل فى أواخر أيامه بنكران الجميل، إذ دبر بعض أفراد حاشيته مؤامرة لإغتيالة ودخل الجناة غرفة نومه وهجموا عليه لكن يبدو أنه تمكن من الدفاع عن نفسه وقتل المهاجمين ونجا هو من القتل بأعجوبة، وقد أثرت هذه الحادثة فى أمنمحعت مما دفعه لأن يكتب نصائحه لأبنه.

وتهمنا هذه الوثيقة لأن الملك امنمحعت الأول تعرض فيها لأحداث بلاد النوبة وفيها يقول امنمحعت الأول لأبنه سنوسرت(٢).

"أنصت واستمع لما أقوله لك حتى إذا ما صرت ملكاً وحاكماً على الأقطار زاد فلاحك. حصن نفسك من كل تابعيك واستعمل الشدة مع مرؤوسيك حتى يرهبوك، والناس تحترم كل من يخيفهم ويفزعهم. ولا تقربهم وحيداً، ولا تتخذ منهم أخاً، ولا تعرف منهم صديقاً ولا رفيقاً إذا لا فائدة تُرجى من ذلك. وإذا ما نمت فاجعل قلبك حارساً لك لأن الإنسان – لا أهل له وقت الشدة – قد أعطيت السائل وأطعمت اليتيم وسمحت للوضيع – كما سمحت للعظيم – بالمثول أمامى ولكن من أكل من خبزى أشعل الفتنه ضدى، وكل من أعطيته أيقظ الخوف فى

---

١ – ملاحظة: يرجح البعض ومنهم (Junker) وجود دم نوبى فى سلالة الثانية عشرة وقيل إن امنمحعت الأول إلى أن أمه نوبيه.

د. أحمد بدوى: ج٢ ص ٨٨، د. سليم حسن: ج ٣ ص ١٨١، ج ١٠ ص ١١٨.

٢ – برستيد: ص ١٦ أ،

د. أحمد بدوى: ج٢ ص ١٢٠ وما بعدها، د. سليم حسن: الأدب المصرى القديم ج١ ص ٢٤، ومصر القدمية ج٣ ص ١٨٥.

نفســـى، وكـــل من لبس كتانى الجميل نظر الى نظرة الخائن، وقلما يجد الإنسان حليفاً له عندما تشتد المصائب. لقد أرسلتُ الى الفنتى رجالى كما وصلت الى الدلتا ووقفـــت على حدود القطرين ووسعت هذه الحدود بشجاعتى وأعمالى – ووزعت الحـــبوب وأحييت الحصاد، ولم يكن هناك جائع فى أعوانى، ولم يعطش أحد من رعيتى بل عاشوا فى سلام فقد أمسكت السباع وأخذت التماسيح – وقبضت على شـــعب الواوات (شعب النوبة) وأسرت (المازوى) وجعلت البدو يهربون ككلاب السباق".

هـــذه بعـــض نصائح امنمحعت الأول لإبنه بعد ما اكتشفه من دسائس رجال القصر – وقد حرص امنمحعت على أن يُشرك ابنه فى الحكم ليعلمه ويدربه.

ويهمـــنا مـــن هـــذه الوثيقة الإشارات التى تُفيد امتداد النفوذ المصرى فى هذا الوقـــت لبلاد النوبة الشمالية – وعلى بعض الصخور فى منطقة (كورسكو) الواقعة فى بداية الطريق الصحراوى الواصل الى بلاد المازوى إشارة الى حملة امنمحعت الأول على هذه البلاد[١].

ويمكن إذا أن نستنتج من هذه الدلائل أنه فى السنة التاسعة والعشرين من حكم امنمحعـــت الأول أى عـــام (١٩٧١ ق. م) توغلـــت الجـــنود المصرية فى أرض (الواوات) حتى بلغت (كورسكو) وحدثت بعد ذلك فترة هدوء حوالى تسع سنوات.

١ – عهد سنوسرت الأول :

حكم نحو أربعين سنة، منها عشر سنوات بالاشتراك مع والده وثلاث منها مع ابنه عندما أشركه فى الحكم، وفى السنة الثامنة عشرة من حكمه عهد لأحد الأمراء المدعو (مننوحتب) بقيادة حملة ضد قبائل الكوش وقد نجحت هذه الحملة فى مهمتها وأقام منوحتب لوحة تذكارية فى (وادى حلفا) سرد فيها أسماء المدن التى أخضعها وقد وصل منتوحتب جنوباً حتى (الشلال الثالث) وثبت حدود مصر الجنوبية لنقطة تـــبعد نحو ٢٥٠ كليو متراً جنوب وادى حلفاً[٢]، وفى النقش تركه منتوحتب بمعبد بهيـــن فـــى (وادى حلفـــا) نجده يمثل الملك سنوسرت الأول واقفاً أمام إله الحرب (منتو) الذى يتحدث للملك قائلاً: "أحضرت كُل الممالك التى فى النوبة تحت قدميك" ثـــم نـــرى الإلـــه منتو يقود أمام الفرعون عشرة أسرى يُمثلون القبائل النوبية التى خضـــعت للحكـــم المصرى– ويذكر منتوحتب بعد ذلك فى النص بعض الأوصاف

1- Emery: P 19.

٢– د. سليم حسن : ج ٣ ص ٢٢٣.

التى أراد ذكرها عن نفسه ونسب لنفسه مفاخر هذه الحملة، وهذا شيء لم نألفه فى النقوش المصرية إذ كان النصر دائماً يُنسب للفرعون المصرى نفسه.

والمعتقد أن القائد لم يتجاسر على ذكر مناقب نفسه فى مثل هذه اللوحة إلا إذا اعـتقد أن الفرعون المصرى لا يراها، والدليل على ذلك إنه لما وصلت أخبار هذه اللوحـة ومـا قيل فيها لسنوسرت أمر بأن يُمحى إسم منتوحتب من اللوحة وأصبح منتوحتـب من المغضوب عليهم – وقد ذكر منتوحتب أسماء عشرة مدن أخضعها فى هذه الحملة ببلاد النوبة لكن لم يمكننا تحقيق أماكن هذه المدن على الخريطة.

ولعل سنوسرت الأول كان أول من استثمر محاجر صحراء النوبة الغربية فى عهـد الدولة الوسطي- وقد كُشف عن موقع هذه المحاجر حديثاً على مسافة خمسة وسـتين كلـيو متراً فى الشمال الغربى من (أبى سمبل) – وعُثر فيها علي أحجار (الديوريـت) الـتى كانـت تُستخدم فى صنع التماثيل، وبهذه المنطقة أيضاً محاجر (الجرانيـت) – وكـان الفراعـنة يرسـلون البعثات لهذه المحاجر لجلب الأحجار الصلبة[١].

كمـا عُـثر علـى آثار تدل على أن (سنوسرت الأول) أرسل عدة بعوث الى وادى الهودى لاستحضار حجر الجشمت[٢].

وقـد تحدث إمنى (Emni) حاكم مقاطعة الغزال فى قبره عن حملات أخرى لـبلاد النوبة أيام سنوسرت الأول، وكما نعلم أن أعضاء هذا البيت كانوا باستمرار يسـاعدون ملوك هذه الأسرة ويفاخرون بولائهم لها- قال الأمير: "لقد سرتُ خلف سـيدى عـندما أقلع نحو الجنوب ليهزم أعداءه وأقلعت جنوباً بوصفى ابن الأمير (خنوم حتب) لابساً الخاتم الملكى وقائداً لجنود مقاطعة الوعل، وكنت فى ذلك أنوب عـن والدى المسن وذلك لحظوته فى القصر، فحررت بلاد (كوش) وأحضرت كل الهدايا- وبعد ذلك عاد جلالته فى سلام بعد أن هزم أعداءه[٣].

ونفهـم مـن النص أن سنوسرت الأول ذهب بنفسه فى هذه الحملة كما ذكر الأمير، وكانت هذه الحملة فى السنة الثالثة والأربعين من حكم (سنوسرت الأول).

وقـد كلف الملك سنوسرت الأول حاكم بنى حسن أن يخرج على رأس (بعثة) أخـرى من ربعمائة جندى لجلب الذهب من بلاد النوبة، وقد عاد (الحاكم) بعد أن

١- د. سليم حسن: ج ٣ ص ٢١٧، ج ١٠ ص ١٢٢.

٢- نفس المرجع : ج ١٠ ص ١٢٣.

٣- نفس المرجع : ج ١٠ ص ١٢٣.

نفذ ما طُلب منه دون أن يفقد رجلاً واحداً من رجاله، وطلب الملك إليه أن يصحب معه ابنه وولى لهده (امنمحعت) ليتعرف على أحوال هذه البلاد[١].

ومن أهم ما إتخذه سنوسرت الأول من إجراءات أنه عين حاكماً لبلاد النوبة، وكـان أول حـاكم لـبلاد الـنوبة هو أمير من أمراء مقاطعة أسيوط أسمه (حاب جافى)[٢].

ويذكـرنا هـذا بما ذكرناه عن بيبى الأول من ملوك الأسرة السادسة فقد عين (أونـى) فـى وظـيفة حـاكم للجـنوب بلقـب (قـائد القوافل المصرية المتجهة للجنوب)وخلفه فى هذا المنصب أمراء آخرون مثل (سابينى) و(خوف حور). على أن مـنطقة نفـوذ (حاب جافى) كانت تمتد حتى جنوب الشلال الثالث، وكان يلقب بلقـب "الأمـير الحـاكم والكاهـن الأعظم" وهذا يضفى عليه قوة وسطوة - ومن المعـروف أن هـذا الأمـير (حاب جافى) شيد لنفسه مقبرتين إحداهما فى أسيوط وتُعتـبر أكبر مقبرة معروفة من تاريخ الدولة الوسطى- هذا بالإضافة لشهرتها لما احـتوته من نصوص تُعتبر من أهم ما عُثر عليه فى هذا العصر- وهذه النصوص عـبارة عن عشرة شروط وضعها الأمير ليتقيد بها كهنة مقبرته فى تنفيذ التعليمات المشـددة الخاصـة بـتقديم القرابين المختلفة فى الاحتفالات الدينية المتعددة وحدد كمـياتها- وهى بذلك تعطينا فكرة عن الأعياد المصرية التى تُقام بمصر فى عهد الأسرة الثانية عشرة وتُقدم فيها القرابين.

وبعـض المؤرخين استنتج من هذا العمل الفريد أن (حاب جافى) لم يُدم عليه سـوى لأنه أُضطر للذهاب الى السودان وخشى أن يموت هناك ويتهاون الكهنة فى تنفـيذ تعلـيماته، وفـى صـرف دخل الأوقاف الضخمة التى أوقفها على مقبرته فتُصرف فى شئون بعيدة عن الغرض الذى أُقفت من أجله[٣]. والثانية أقامها (حاب

١- برستيد : ص ١١٧،

Emery: P 19.

Budge: V. I. p 534. وكذلك

٢- بعـض المراجع تذكر أنه عين فى أواخر أيام أمنمحعت الأول واستمر فى وظيفته هذه فى عهد ابنه سنوسرت الأول - علماً بـأن سنوسـرت اشترك مع أبيه فى الحكم ما يقرب من ٨ سنوات- والبعض يذكر أن تيعينه نائباً للملك فى (كوش) كان بمثابة النفى له وأنه تم فى عهد امنمحعت الثانى- أنظر د. سليم حسن - ج ١٠ ص ٢٠١.

٣- لمعرفة شروط الوقف العشرة المنقوشة على جدران معبد الأمير (زفارى جعى)

أنظر سليم حسن : ج ٣ ص ٤٧٦ (طبعه دار الكتب).

جافى) فى (كرمه) ذاتها وهى العاصمة التى اتخذها لنفسه ليحكم منها بلاد السودان التى خضعت لمصر ويرجح أنها المقبرة التى عثر عليها (الدكتور ريزنر) فى عام ١٩١٤.

وقد بدأ سنوسرت الأول فى إقامة قلاع فى (كورسكو) وغيرها لتكون مقراً للجنود المصريين، وكمحطة تجارب خاصة لإعداد الذهب المستخرج من مناجم وادى العلاقى[١].

وفى عهد امنمحعت الثانى :

ساد الهدوء والسلام، واتجه النشاط لاستغلال مناجم الذهب أكثر من أى شىء آخر، وفى السنة الثالثة من حكمه أشرك أمنمحعت الثانى ابنه سنوسرت الثانى معه فى الحكم.

وقد أرسل امنمحعت الثانى أحد ضباطه المدعو ساهاتور Sa, Hathur للإشراف على العمل فى مناجم الذهب مستخدماً العمال الوطنيين. فكان الشبان منهم يعملون فى استخراج المعدن، بينما يقوم كبار السن بأعمال (تنقية) المعدن المستخرج[٢].

وفى عهد سنوسرت الثانى :

أُضطر الفرعون المصرى- كما تدل الآثار التى عُثر عليها لبناء سور طوله ثمانون كليو متراً قرب الحدود الجنوبية، كما اضطر لتقوية الحصون فى (عنيبه وكوبان) وغيرهما مما يدل على أن الهدوء طوال حكم امنمحعت الثانى أطمع القبائل فى شمال النوبة فى غزو مصر[٣].

كما عُثر على لوحه عُرفت باسم (لوحه حابو) وهو اسم الموظف الذى كان مختصاً بالتفتيش على الحصون جاء فيها "إنه فى السنة الثالثة من حكم سنوسرت الثانى حضر حابو لأجل أن يُفتشَ على حصون واوات".

1- Emery: P 20

2- Budge: Vol. 1. P. 553.

3- Emery: P 20

و د. سليم حسن: ج ٣ ص ٢٦٧ (طبعه دار الكتب).

وفى عهد سنوسرت الثالث :

تعـددت الحروب والغزوات سواء ضد الآسيوين فى الشمال أو ضد الكوشيين فى السودان حتى أن (سنوسرت الثالث) لُقب(بفاتح النوبة العظيم) – وأُله وعُبد فى السودان[١].

وقد ذكرنا أن الهدوء الذى ساد عهد أمنمحعت الثانى وسنوسرت الثانى أثر فى هيـبة مصر فى هذه الجهات، فكان على سنوسرت الثالث أن يُواجه الاضطرابات المـتعددة على حدوده الجنوبية- وقد أدرك سنوسرت الثالث أن الأمر لا يحُسم عن طريق إرسال حملة تقضى على الاضطرابات الموجودة ثم تعود – لكن يلزم أيضاً وجود طريق سهل للمواصلات يساعد على سرعة نقل الجيوش والإمدادات خاصة عـند حـدوث أى اضـطراب، لأن القـبائل الثائرة كانت تتجمع فى منطقة وتُثير الاضـطراب فـيها فإذا ما سمعت عن قدوم حملة لتأديبها لا تلبث أن تتفرق حتى تتجمع فى مكان آخر – وكان (أونى) مهندس الملك بيبى من ملوك الأسرة السادسة كما ذكرنا – قد حفر قناة تخترق صخور الشلال الأول وكان طولها يبلغ عده كليو مترات لكنها كانت بمضى الوقت قد هُدمت وطُمرت – ولذلك فكر سنوسرت الثالث فـى أن يـبدأ بإعادة حفر هذه القناة، وقد تم فعلاً هذا العمل الجليل فى بداية حكمه وأمـر الملك بحفر نقش على صخرة عالية فى (جزيرة سُهيل) قرب أسوان تخليداً لذلك العمل العظيم- وفى هذه اللوحةُ نشاهد الملك سنوسرت الثالث واقفاً أمام الآلهة يُخبرها بأنه تمكن من أن يحفر طريقاً جميلاً سماه باسم طريق (خع كاو رع) وهو اسم سنوسرت[٢].

بعـد ذلـك أصبح ممكناً أن يُرسل جيشاً كبيراً لهذه البلاد بواسطة السفن وقد تعددت حملات سنوسرت الثالث على هذه البلاد – ونلخصها أولاً فيما يلى:-

١- الحملة الأولى: فى السنة الثانية من حكمه.
٢- الحملة الثانية: فى السنة الثامنة من حكمه وقد استخدم فيها السفن الكبيرة حتى أنه أُضطر لتطهير قناته مرة ثانية لتسير فيها هذه السفن.
٣- الحملة الثالثة: فى السنة الثانية عشرة من حكمه.

١- مـن الآثار التى عثر عليها الأستاذ (ريزنر) يظهر أن تقديس سنوسرت الثالث فى بلاد النوبة كانت قبل عهد تحتمس الثالث وليس فى أيامه كما هو شائع.

٢- د. سليم حسن: ج ١٠ ص ١٣٩.
وكذلك Budge: Vol. 1. P. 540.

٤- الحملة الرابعة: فى السنة السادسة عشرة من حكمه.
٥- الحملة الخامسة: فى السنة التاسعة عشرة من حكمه.

وسنمر على هذه الحملات مراً سريعاً:

الحملة الأولى: كانت كما ذكرنا فى السنة الثانية من حكمه- وليس لدينا بيان واف بهذه الحملة ولكن هناك إشارة إليها على أحجار قرب أسوان[١].

ويبدو أنه ظهر للفرعون المصرى بعد هذه الحملة أن (قبائل الكوش) أصبحت من القوة بحيث تحتاج لإعداد خاص- ولذ بدأ بعدها مباشرة يُعد للحملة الثانية، ولعل الحملة الأولى كانت بمثابة حملة استطلاعية.

وهذه الحملة الثانية تطلبت كما ذكرنا تطهير القناة التى حفرها فى صخور الشلال الأول قبل القيام بحمله لبلاد النوبة حتى تتمكن السفن الضخمة من نقل الجنود والمؤن، وقد دون سنوسرت هذا العمل على صخرة أخرى من صخور جزيرة سوهيل صُور فيها الفرعون لابساً تاج الوجهين وواقفاً أمام الآلهة ساتت آلهة الشلال. وجاء فيها: إنه فى السنة الثانية من حكم جلالة ملك الوجهين الملك (خع كاو رّع) سنوسرت الثالث أمر جلالته بأن تُحفر ترعه من جديد وذلك عندما سار بجيشه لأعالى النهر ليهزم الكوش، وطول هذه القناة مائة وخمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً[٢] - وهذا يعطى صورة عن حجم السفن المصرية فى ذلك الوقت.

ويبدو أن المصريين اعتنوا بعد ذلك بهذه القناة إذ بقيت مستعملة حتى فى عصر الدولة الحديثة- وقد طُهرت فى عهد تحتمس الأول، وكذلك فى عهد تحتمس الثالث اللذين قاما بغزوات كثيرة فى بلاد النوبة.

وقد وصلت حملة سنوسرت هذه التى قام بها فى السنة الثامنة من حكمه الى جنوب وادى حلفا بأكثر من سبعه وثلاثين ميلاً لكن بالطبع لم يصلوا الى مدينة (كرمة) التى جعلها الأمير (حاب جافى) مقراً لحكمه، وهو كما نعرف حاكم الجنوب الذى عينه سنوسرت الأول فى هذه الوظيفة[٣].

١- برستيد: ص ١١٨.

2- Emery: P 10

وسليم حسن: ج٣ ص ٧٩، ج١٠ - ص ١٤٠.

٣- يعتقد الدكتور أحمد بدوى أن نفوذ مصر فى هذه الجهات لم يكن يتجاوز بعض الامتيازات الشبيهة بما كان للأجانب حديثاً فى مصر- أنظر- ج٢ ص ٢٣٤.

وأقـــام سنوســـرت الثالث لوحة تذكارية فى (سمنه) بالقرب من الحصن المقام هناك على حدود فتوحه الجديدة يؤكد منطقة الحدود ويحذر السود من عبورها[١].

وقد نقش على هذه اللوحة النص الآتى:

"الحـــد الجنوبى الذى توصل إليه ملك القطريـــن فى السنة الثامنة من حكمه لمنع أى زنجى من أن يتخطاه الى الشمال سواء أكان ذلك عن طريق البر أو النهر اللهم إلا إذا أتـــى للتجارة أو لأداء مهمة فى مصر، وفـــى مـــثل هذه الحالة يُقابل الزنجى بكل إكـــرام، ولا يُسمح بأى حال من الأحوال لســـفينة من سفن الزنوج أن تمر (بسمنه) متجهة شمالاً على مدى الأيام[٢]".

الحملـــة الثالثة: فى السنة الثانية عشرة من حكمه أُضطر الملك سنوسرت أن يذهب لـــبلاد الـــنوبة، ومعلوماتـــنا عن هذه الحملة الثالـــثة قلـــيلة لا تـــتعدى نقشاً على صخور أسوان ذُكر فيه تاريخ هذه الحملة وأن جلالة الملك سار لُيعاقب الكوشيين الثائرين[٣].

الحملة الرابعة: اضطر سنوسرت الثالث فى العام السادس عشر من حكمه أن يـــزحف بجيشـــه لملاقاة تجمعات جديدة من قبائل الكوش التى زحفت حتى كادت تصـــل لحســـن سمنه- وبعد أن هزمهم أقام لوحة ثانية بالقرب من قلعة سمنه جاء فـــيها: "لوحـــة أُقيمت فى السنة السادسة عشر الشهر الثالث من الفصل الثانى من

١- بـــدأت ترتيبات أقامه سمنه قبل أيام سنوسرت الثالث كما ذكرنا لكنه هو الذى أتمها وأعدها للعمل هى وقلعة (قمة) التى أقيمت تجاهها على الشاطئ الشرقى للنهر.

٢- أنظر برستيد: ص ١١٩،

Emery: P 20

Budge: Vol. 1. P. 541 وكذلك

٣- هـــناك اخـــتلاف فى تواريخ بعض هذه الحملات فبرستيد مثلا يذكر أن هذه الحملة كانت فى العام (١٢) من حكم الملك سنوسرت – والدكتور أحمد بدوى لا يشير للحملة الأولى لهذا الفرعون.

عصـــر الملك سنوسرت الثالث- وقد ذكر فيها أن الملك أقام حصناً لطرد النوبيين لكى لا يسير للشمال أى أسود إلا طلباً للتجارة أو لأداء مهمة".

وجاء فيها "لقد زدت مساحة بلادى على ما ورثته وإنى ملك يقول وينفذ، وإنى طمـــوح للسيطرة وما يكتنف فى صدرى تفعله يداى، أهاجم من يهاجمنى حسب ما تقتضـــيه الأحوال، الشجاعة هى العزيمة والجبن هو التخاذل... وعلى كل ولد يأتى مـــن صلبى أن يحافظ على الحدود التى وصلت إليها وأن يُحافظ على تخوم بلادى فهو ابناً لى، أما من يتخلى عنها ولا يحارب دفاعاً عن سلامتها فليس ابنى ولم يولد مـــن ظهرى- أنظر فإننى قد أمرت بإقامة تمثال لى عند هذه الحدود التى وصلتى إليها وإنى أرجو أن تبعث فيكم الشجاعة من أجلها وتحاربون للمحافظة عليها[1]".

وقـــد شـــيد سنوسرت حصناً ثالثاً فى جزيرة الملك (أورونارتى) جنوب سمنه وأقـــام لوحـــاً أثـــرياً شبيهاً بلوح سمنه عند هذا الحصن، كما أقام سنوسرت تماثيل ضـــخمة يـــبلغ ارتفاع التمثال منها أكثر من خمسة أمتار أقامها ليظهر نفسه بشكل جبار أمام العدو ليرهبه.

وقـــد كانـــت لانتصـــارات سنوسرت الثالث فى هذه البلاد وحروبه فيها آثار عظـــيمة فـــى تاريخهـــا حتى أن اسم سنوسرت أصبح على كل لسان، وظل كذلك يتحدث به حتى العصر الرومانى حيث ذاع وعرف باسم (سيزوستريس).

ولعـــل هـــذا مصـــدر ما ذكره هيرودوت فى الجزء الثانى من كتابه عن مصر (ترجمة الدكتور وهيب كامل) – فقد ذكر هيرودوت "أخبرنى الكهنة أن سيزوستريس كـــان أول ملـــك أقلع بسفنه الحربية من خليج العقبة، وقهر الأمم الساكنة على شاطئ البحر الأحمر- ولما عاد لمصر فيما بعد جمع جيشاً عظيمًا وسار فى القارة مخضعًا كل أمه تعترضه وحيثما كان يصادف قومًا شجعاناً كان يهزمهم أشد هزيمة – وكان يقيم فى بلادهم عموداً ينقش عليه كيف تغلب عليهم بالقوة رافعاً اسم بلاده".

وقد عُبد سنوسرت فى بلاد النوبة واعتبر من أرباب بلاد النوبة[2].

ولعل تماثلية الضخمة التى أقامها أوحت لسكان النوبة أنها تمثل إلهاً يجب أن يتعـــبدوا إلـــيه، ونحـــن نعلم أن عبادة (الإله خنوم) المعبود الخاص بمدينة أسوان

١- أنظر د. أحمد بدوى : ج٢ ص ٢٣٧، برستيد : ص ١٢٠،

Emery: P. 21.

2- Ibid. P 21.

و د. سليم حسن: ج ١٠ ص ١٤٣.

تســربت لبلاد النوبة- على أن تحتمس الثالث أله سنوسرت وجعله من إلهة الحدود الــتى تعبد فى معابد النوبة الى جانب آلهة النوبة وآلهة الدولة فى مصر، على أننا نشــير بهــذه المناسبة الى أن بلاد النوبة كانت موطنا خصباً لهذا النوع من تقديس الحكام وتأليههم(١).

علــى إن الفرعون النوبى (طهراقة) عندما حضر لمصر بعد اثنى عشر قرناً تقريــباً علــى حكم سنوسرت أعاد بناء معبد (سمنه) وأعاد أيضاً عبادة فاتح النوبة العظيم (سنوسرت الثالث).

الحملة الخامسة:

أخــبار هــذه الحملــة عرفناها من نقش لموظف مصرى وهو (رئيس إدارة موظفى الملك) وقد عُثر على هذا النقش فى العرابة المدفونة (ابيدوس) – يقول فيه "حضــرت الى ابيدوس، ومعى رئيس بيت المال للإشراف على نحت تمثال للإله ازوريس – وذلك عندما كان ملك القطرين خع ماو رع (سنوسرت الثالث) مسافراً ليهزم الكوش فى السنة التاسعة عشرة من حكمه""(٢).

وقــد وُجــد إسم سنوسرت منقوشاً على الآثار فى (الفنتين) و(سُهيل) و(أمادا) و(جزيرة الملك) شمال سمنه.

هكــذا اســتطاع (سنوسرت الثالث) أن يوطد نفوذ مصر فى بلاد النوبة حتى الشلال الثانى فبعد أن كان هذا النفوذ فى عهد ما قبل الأسرات يمتد الى إقليم الكاب (نخــن) وصــل فى عهد الأسرة السادسة الى الشلال الأول، ثم الى الشلال الثانى قرب نهاية الأسرة الثانية عشرة.

وقــد أقيمــت عدة حصون فى مختلف أقاليم النوبة، وفى مناطق أُختيرت لهذه الحصــون علــى الضفتين الشرقية والغربية للنيل، وذلك لحماية التجارة عبر هذه الــبلاد، ولقمع أية حركة للتمرد أو لرقابة حدود مصر الجنوبية، ولا تزال الحفائر تكشــف لــنا كل يوم عن معلومات أكثر عن أماكن هذه الحصون ودورها فى ذلك الوقت.

وقــد أشــرنا سابقاً لأهمية استتباب الأمن فى هذه الجهات لاستمرار العلاقات الاقتصــادية بين مصر وبلاد السودان، وكذلك ليمكن لمصر الحصول على المعادن اللازمة لها وخاصة الذهب.

١- د. سليم حسن: ج ١٠ ص ٤٠٣.

٢- د. سليم حسن: ج ١٠ ص ١٤٦.

وقـد ورد علـى الآثار أن (سنوسرت الثالث) أرسل رئيس ماليته الى العرابة لترميم تمثال أوزيرويس بالذهب الذى أخذ من بلاد كوش[١].

وقـد عُـثر علـى أثر لسنوسرت الثالث يُذكر فيه إنه قام بحمله على منطقة (Hua) والـبعض يذهـب الـى أن هذا الاسم يُطلق على بلاد (بنت) فإذا صح هذا الـزعم فإنه يعنى أن سنوسرت تحكم فى طرقى التجارة البحرية والبرية بين مصر والسودان بالإضافة للطرق المؤدية لمناجم الذهب[٢].

ويذكـر (إمـرى) أن الهدوء الذى شمل بلاد النوبة السفلى (الواوات) فى هذه الفترة واحتكا كهم بالمصريين الذين لم يتدخلوا فى حياة الناس هناك إلا بالقدر الذى كـان يتطلبه حفظ الأمن والاستقرار أتاح فرصة للحضارة النوبية للازدهار لم تتح من قبل[٣].

أما عصر أمنمحعت الثالث:

فقـد كـان عصـر هـدوء وسكينة ومشاريع للرى والتعمير إذ يبدو أن سلفه (سنوسـرت الثالث) قد كفاه مؤنة القيام بأى عمل حربى كبير فى بلاد النوبة- وكل ما وصلنا عنه أن رجاله قاموا بإصلاحات فى الحصون التى بنيت فى بلاد النوبة- وقـد أسس مقياساً للنيل قرب (قلعه سمنة) ووُجدات أثار لهذا الفرعون فى (كرمه) قرب الشلال الثالث كما عُثر على لوحات تدل على أنه أرسل بعوثاً لمحاجر النوبة الغربـية، وقد اهتم بتقوية الحصون فى المناطق المؤدية الى مناجم الذهب كمنطقة (الدكه) التى تؤدى لمناجم وادى العلاقى[٤].

وكذلـك عصـر (أمنمحعت الرابع) الذى لم يترك وريثا للعرش فخلفته أخته (سـبيك نفرورع) وانتهى الأمر بضعف الملكية وانتهاز أمراء الأقاليم لهذه الفرصة فانتهى عصر الأسرة الثانية عشرة الزاهر الذى دام ما يقرب من قرنين – وبانتهائه بـدأ عصـر مظلم كله اضطرابات يُشبه فى نواح كثيرة عصر الاضمحلال الأول الذى حل بمصر بعد انتهاء الدولة القديمة.

١- برستيد: تاريخ ص ١٢٠.

2- Budge: Vol. 1. P. 553.

3- Emery: P 21

4- Budge: Vol. 1. P. 555 (1907)

اهتمام المصريين بتأمين المواصلات مع السودان :

مـــن أبـــرز الظواهـــر فى عصر الأسرة الثانية عشرة الإهتمام البالغ بتأمين المواصـــلات مـــع السودان وقد بدأ هذا الاهتمام من عهد الدولة القديمة فى مصر فأقيمت القلاع لحماية طرق المواصلات المعروفة.

ويـــرجح أن طريق (الواحات) كان معروفاً للمصريين من وقت بعيد فقد عُثر علـــى نقش من عهد الأسرة السادسة لموظف يدعى (خومرحر) جاء فيه انه ذهب الـــى الفنتيـــن عـــن طريق الواحة – وهذا يدل على أن طريق القوافل الذى يربط الواحات المختلفة فى الصحراء الغربية بشمال دارفور كان معلوماً فى ذلك الوقت.

ولعل أمنمحعت الأول كان أول من اهتم بتخوم بلاده الغربية وتأمينها وقد أقام قلعة فى الواحة الخارجة لهذا الغرض(١).

وقـــد وجدت لوحه وهى المعرفة بلوحة (كاى) وكان صاحبها يلقب بلقب مدير الصـــحراء الغربـــية ذكـــر فيها "إنه وصل الى الواحة الغربية وفحص كل طرقها وأحضر الهاربين الذين وجدهم هناك"(٢).

واهـــتم المصـــريون بأوديـــة الصـــحراء الشرقية خاصة التى تؤدى للمناجم، (كوادى علاقى) الذى يؤدى لمناجم الذهب ولهذا الغرض افتتحت قلعة فى (كوبان) لحماية الطريق المؤدى لهذه المناجم.

وقد اهتم (سنوسرت الثالث) بالذات بإقامة القلاع على المرتفعات التى تُشرف علـــى الســـهول المؤديـــة على الطريق الملاحى بين مصر والسودان وفى الجزر بالنـــيل– وقد عُثرنا ضمن البردى الذى عثر عليه (كوبيل) سنه ١٨٩٦ على بردية تحـــتوى معلومات تُلقى الضوء على القلاع التى أقامها (سنوسرت الثالث) ليحصن بلاده(٣).

ويبلغ عدد الحصون التى ذُكرت فى هذه البردية سبعة عشر حصناً وقد كانت هـــذه القلاع تقوم بوظيفتين. الوظيفة الأولى حربية لصد هجمات القبائل التى كانت تُغـــير علـــى الحـــدود وتهددها كما تهدد المواصلات الآتية بين مصر والسودان، والوظيفة الثانية تجارية فقد كانت بمثابة محطات تجارية.

1- Fakhry, Ahmed: the Egyptian Deserts, Siwa Oasis P. 24.

2- Fakhry, Ahmed: Bahria Oasis P.p 12.13..

٣- أنظر د. سليم حسن: ج٣ ص ٤١٦ وما بعدها (طبعه دار الكتب).

ومـن ضـمن مـا عثر عليه (كوبيل) أيضاً بردية تحتوى على صور رسائل يـرجع تاريخهـا لعهد (أمنمحعت الثالث) – وهذه الرسائل تُحدثنا عن ذهاب بعض النوبييـن إلى (سمنه) لتصريف متاجرهم، وقد أشرنا الى اللوحتين اللتين وجدتا فى سـمنه وتـرجعان لعهد سنوسرت الثالث وقد ذكر فيهما (إنه يحرم على السود أن يتخطوا الحدود فى النهر شمالاً اللهم إلا إذا كانوا يقصدون التجارة مع إقليم الحدود المسـمى إقن على شرط إن يستعملوا فى هذه الحالة سفنا مصرية) – ومعنى ذلك انـه لا يسمح لقوارب النوبيين أن تتخطى الحدود، ولكن كان يُسمح للقاصدين الى إقن لتصريف منتجات بلادهم بالإبحار فى قوارب مصرية.

وفى الرسائل التى أشرنا إليها والتى عُثر عليها فى (الرمسيوم) ذُكر أنه كانت ترسـل تقاريـر رسـمية عن المعاملات والحركات التى تتم فى منطقة قلعة سمنه وتُخطـر بها الجهات العليا والحصون الأخرى وتحفظ صورة من هذه التقارير فى سجلات قلعة سمنة ذاتها.

وقـد حاول عُلماء الآثار والتاريخ تحقيق موقع القلاع التى ذُكرت فى البردية السالفة– على الخريطة لكن لم يمكن التحقق من موقعها كلها.

ومن الملاحظات العامة عن هذه القلاع:

١- أن ثمانـية منها افتتحت فى المنطقة الواقعة بين (سمنه) و(وادى حلفا) وعدد غير قليل من هذه القلاع نُسب الى سنوسرت الثالث ولعل السبب فى إقامة هذا العـدد من الحصون فى هذه المساحة التى لا تزيد على ستين كليو متراً يرجع الـى طبـيعة هـذه المنطقة فهى منطقة تصعب فيها الملاحة النهرية، كما أن موقعهـا يجعـل لهـا أهمية كخط دفاعى فى طريق المهاجرين من السودان لمصـر، فالحصـون فى المنطقة كانت تقوم بعده مهام– منها مراقبة وحماية الـتجارة وحراسـة السهل على جانبى النهر ومنها أنها تُعد بمثابة حاجز فى وجه القادمين من السودان لمصر.

٢- الحصن كان يُقام بحيث يمكنه الاعتماد على نفسه– فالصحن كان يحتوى على حامـية صـغيرة تستطيع أن تصد أى هجوم مفاجئ – كذلك كان مع الحامية رجـال قد يحتاج إليهم الأمر للقيام بواجبات أخرى كمساعدة السفن المارة فى هذه المنطقة الوعرة دون أن تُشغل حامية الحصن بمثل هذه الأعمال.

٣- دراسـة مواقـع هـذه الحصون (سمنه، قمة، شلفك، مرجيس، بهين، عنيبة، كوبـان، كوبائية...) توحى بأن أماكنها اختيرت بدقة لتقوم بوظيفتها خير قيام

فمـــثلاً فى (بهين) فان هذا المكان لا بد أنه كان به ميناء لتفريغ البضائع فهى نقطـــة نهاية للتجارة النهرية وحينما كان الشلال يُمثل عقبة حقيقية فى طريق التجارة النهرية يفضل طريق البر.

وبالطبع كان الإهتمام بمراقبة البضائع فى البر كالاهتمام بالبضائع المنقولة عن طريق النهر.

٤- ولذا فيمكن أن نستنتج أن طبيعة البلاد فرضت نوعين من الحصون:

أ - حصـــون تُقـــام فى الوديان- وهى كثيرة فى بلاد النوبة السفلى، وكانت هذه الحصون تُقام بالقرب من النهر وللحصن ضلع طويل محاذ للنهر، وآخر يطل على اليابسة وعادة يحصن الحصن بإقامة منحدر حوله، وكانت للحصن أبراج صـــغيرة، ويصمم الحصن بحيث أن المهاجمين له يكونون تحت نيران الجنود المحتمين به.

ب- حصـــون جبلـــية – وقـــد كـــثرت فى مناطق النوبة العليا ومناطق الشلالات بـــالذات- وكانـــت مـــثل هـــذه الحصون تُصمم بحيث تقابل المهاجم عقبات طبيعية- ويحاط الحصن بسور خارجى إلا إذا كانت طبيعية الأرض المحيطة به شديدة الانحدار بحيث تمثل حماية طبيعية للحصن.

وفى بعض الحصون كُشف عن ممر سرى يصعب على البدو رؤيته، كما كان يُلحق بالحصن مخزن للغلال، وبيت المال – ومن هذا يمكن أن نستنتج أنه كانـــت لكل حصن إدارة خاصة به – وإن كان هذا لا يعنى عدم وجود إدارة عامة لها إشراف على عده حصون.

٥- أقيمـــت حصـــون لحمايـــة الطـــرق لمواقع مناجم الذهب وغيرة من المعادن والأحجـــار- ومن أمثلة هذه الحصون ما أقيم عند مدخل (وادى العلاقى) على أن المشكلة التى كان لابد من حلها فيما يتعلق بالحصون المقامة فى الصحراء هـــى تدبـــير المياه للمقيمين فى الحصن أو المارين بهذا الطريق، وهؤلاء كما نعلـــم كان عددهم عادة كبيرا لما يستلزمه العمل فى المناجم والمحاجر من أيد عاملة عديدة.

٦- لاشك فى أنه كانت بين هذه الحصون روابط قوية وأنه كان فى مقدور الجنود بالحصن الاستنجاد بالحصون الأخرى عن طريق (الإشارة) وغيرها[1].

٧- ونـــدل الآثـــار التى عُثر عليها على أنه كان بجوار الحصون مستعمرات أو مؤسسات، لكن هذا لا يعنى أن المصريين هاجروا لهذه الجهات بأعداد كبيرة

١- د.سليم حسن : ج١٠ ص ١٥٣ وما بعدها.

لأنـــه لم تكن هناك أراضى خصبة صالحة للزارعة بجوار هذه الحصون، ولم نعثر على ما يدل على أن هذه المؤسسات كانت أماكن مريحة صالحة للإقامة هذا على أنه وجد ما يدعنا نعتقد بأنه كان يقيم بهذه الجهات موظفون لهم مهام خاصـــة تستـــلزم ذلـــك، لكن المصرى كما نعلم كان يكره أن يُدفن بعيداً عن مصـــر فكانت أجسام موتى الأثرياء وأصحاب النفوذ تنقل عادة لمصر لتدفن هناك.

ويمكـــن أن نجمـــل جهود ملوك الأسرة الثانية عشرة المصرية فى السودان فيما يلى:

١- امنحتب الأول – وصل بحدوده إلى قرب (كورسكو).

٢- سنوســـرت الأول – وصـــل بحـــدوده إلى (بوهين) اى وادى حلفا اى أنه مد حـــدوده ما يقرب من مائة ميل للجنوب عن سلفه، وإستطاع أن يستغل مناجم الذهب والمحاجر بالنوبة – وأرسل (إمنى) حاكم مقاطعة الغزال لهذا الغرض. ولعـّل سنوسرت الأول أول ملك مصرى يهتم ببناء القلاع فى النوبة، فقد بنى قلعـــه ومديـــنة جنوب (كورسكو)، وقد كُشف عن آثار هذه القلعة والمدينة فى عـــام ١٨٩٢، ولعل هذه القلعة والمدينة كانت مركزاً لتجارة السودان كما بنى قلاعاً فى (كوبان).

واســـتن (سنوســـرت الأول) سُـــنة جديدة إذ عين حاكمًا لبلاد النوبة وكان (حاب جافى) أمير مقاطعة سيوط أول من عُين فى هذه الوظيفة.

٣- امنحتب الثانى – أتجه نشاطه لاستغلال مناجم الذهب أكثر من اى شىء أخر.

٤- سنوســـرت الثالـــث – امتدت الحدود المصرية فى عهده إلى (سمنه) وقد أعاد تطهـــير القناة التى تخترق صخور الشلال الأول وساعده ذلك على القيام بعدة حـــروب انتهـــت بإخضـــاع بـــلاد النوبة لسلطانه، وبنى سلسلة من الحصون والقـــلاع ووضـــع فيها حاميات تحت قيادة ضابط مصريين، كما بنى المعابد المصـــرية فـــى هـــذه النقط ويبدو أنه شيد نقطة مسلحة على بعد ثمانين ميلا جنوب (سمنه).

وترتـــب علـــى ذلـــك أن أصبحت القوافل تنتقل من قلعه إلى قلعه محملة بالذهـــب أو البضـــائع حتى تصل بأمان إلى مدينة (الفنتين)، وكانت كل قافلة تُـــزود بعـــدد من الجنود لحمايتها – وكان لكل حصن أو قلعة من القلاع التى شُـــيدت ببلاد النوبة ضابط له سلطة مطلقة ويُختار هؤلاء الضباط خاصة فى المناطق الهامة مثل (بوهين) من كبار ضباط الجيش.

٥- وقـــد وُجـــه اهـــتمام خاص لتأمين الطرق المؤدية للمناجم فنجد مثلاً امنحتب الثالـــث يهـــتم ببـــناء أو تقوية الحصون فى المناطق المؤدية للمناجم كحصن (الدكه) ليتحكم فى طريق مناجم وادى العلاقى.

كذلـــك كـــان هناك إهتمام من ملوك الأسرة الثانية عشرة بإعادة فتح القناة فى صـــخور الشلال الأول وتطهيرها باستمرار لتصبح الملاحة بين مصر وبلاد النوبة سهلة.

وكـــان هناك إهتمام بتسجيل ارتفاع مياه النيل على صخور سمنه وقمة وذلك لعلاقته بالرى فى مصر.

عصر الأسرات (١٣- ١٧) :

خو تاوى رع :

أول ملوك الأسرة الثالثة عشرة هو (خو - تاوى - رع) وكانت مملكته ممتدة من الدلتا شمالاً إلى الشلال الثانى جنوباً.

وقـــد وجدت بإقليم الشلال الثانى نقوش لمقاسات النيل فى الأربع سنين الأولى لحكـــم هـــذا الملك، كما كانت هناك حامية مصرية - بقلعه (سمنه) وقد عثر على تمثال له فى (سمنه) وآخر فى (كرمه).

لكن لم يدم هذا الحال طويلا فقد عمت الفوضى البلاد، وقامت المنازعات بين حكـــام الأقاليم، ونجح بعضهم فى الاستقلال عن سلطة الفرعون، ولما ضعفت قوة الفراعـــنة سهل على الاجنبى المغتصب غزو مصر - ففى عام (١٦٧٥ ق. م) أى فـــى أواخـــر أيـــام الأســـرة الثالـــثة عشرة غزا الهكسوس مصر واستوطنوا فيها واســـتطاعوا توطـــيد نفوذهم فى البلاد حتى أن الأسرات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة أسرات هكسوسية

الهكسوس :

ابتداءًا من الأسرة السابعة عشرة بدأ التاريخ يحدثنا عن مناورات شديدة تحدث بين أمراء (طيبة) وبين ملوك الهكسوس.

وقـــد عُـــثر علـــى وثيقة هامة عرفت باسم لوح (كارنرفون) وهو اسم الثرى الانحلـــيزى الـــذى ساهم بماله فى الكشف عن مقبرة توت عنخ أمون سنة ١٩٢٣، هـــذه الوثـــيقة تتحدث عن نقاش طويل بين الملك كاموسى (kemose) آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة ورجال حاشيته وفى هذا النقاش يذكر الملك لحاشيته "أريد أن

أعـرف لماذا اشتهرت أنا بالقوة والعزة بينما يجلس فى (أواريس) ملك أجنبى وفى (كـوش) يحكـم ملك آخر أما أنا فإنى هنا فى طيبة أحكم بين رجل آسيوى وآخر زنجـى- انظروا تجدون الآسيويين يحكمون مصر حتى الأشمونين – ولقد هدموا كل أبنية المصريين وخربوها، إننى سأهاجمهم وسوف أبقر بطن الآسيوى بيدى – وكل أملى أن أخلص مصر من تعسف الاجنبى واطرده شر طرده".

وكـان رد رجال الحاشية الذين استعبدهم وأذلهم وأضعف نفوسهم ذلك الرخاء المـادى "إذا كـان الأسـيويون قـد توغلوا فى مصر حتى الأشمونين، وإذا كانوا يحرضـون آلهتهم ضدنا إلا أننا فى الحقيقة نعيش فى سلام وصفو فى أرضنا كما أن جزيرة فيله محصنة تحصيناً قوياً، ونحن نحكم مصر حتى سيوط ونملك أحسن الاراضـى وقطعانـنا تـرعى بأمان ولا زلنا نستورد الحبوب كما نشاء من الدلتا، فدعهم يحكمون الشمال فقط أما نحن فتحكم مصر الحقيقية".

فغضـب الملك عليهم وقال لهم يجب أن يلهج المصريون بإسمى ويتحدث كل مـنهم عـنى قائلاً ها هو مخلص مصر، وجمع الملك جيشاً قوياً مكوناً من رجاله البواسل وفرقة الحدود من رجال النوبة وسار بهذا الجيش شمالاً[1].

وممـا نُقـش علـى هذه اللوحة نستنتج أن البلاد فى ذلك الوقت كانت مقسمة ثلاثة أقسام:

أ – الدلتا ومصر الوسطى – فى قبضة الهكسوس.

ب- مصر العليا – يحكمها ملوك طيبة.

ج- بلاد النوبة – منفصلة عن مصر ويحكها ملك من (بلاد كوش).

الملك كاموسى:

يـبدو أن الملـك (كاموسى) هاجم القبائل الجنوبية بدليل أننا عثرنا على اسمه منقوشـاً علـى صخر بالقرب من (تشكا) بين الدر، و(أبى سمبل) حيث وجد اسمه على صخرة هناك فوق اسم أخيه (أحمس)، ويبدو أن (كاموسى) قُتل فى حروبه مع الهكسوس وخلفه ابنه (أحمس الأول) الذى نجح فى طردهم من مصر.

علـى أن الأحداث التى انتابت مصر نتيجة غزو الهكسوس لها – أثرث بالتالى فـى بـلاد الـنوبة إذا أن المصـريين طوال الفترة الماضية كانوا يكتفون بالصلات

١- أنظر د. أحمد بدوى: ج ٢ ص ٣٥٥.

و د سليم حسن: ج ١٠ ص ٢٣٦، و ج ٤ ص ١٣٩ وما بعدها.

الـــتجارية وما تتطلبه من وجود نقاط للتبادل التجارى بالإضافة للقلاع العسكرية فى المناطق الإستراتيجية الهامة سواء لحماية الطرق التجارية أو الطريق المودى المناجم أو للقضاء على أية حركة تُعرض الأمن فى هذه المناطق للخطر- لكن حين تعرض الشمال لهجمات هؤلاء الغزاة الآسيويين اضطرت أعداد كبيرة من المصريين للهجرة للجـــنوب والإستقرار فى المناطق الخصبة الصالحة للاستغلال والإستيطان- ولو انه لـــيس لدينا اى دليل كتابى على هذه الهجرة فان الدراسات التى عُملت على قبور هذه الفـــترة تقطـــع بهذه الهجرة، إذ أن اختلاط المصريين بهذه الصورة مع النوبيين أدى لتغيـــير واضـــح فى عادات الدفن – فقد وجدنا شكل القبر قد تغير بحث أصبح مكاناً فســـيحاً يوضـــع فيه الميت إما على ظهره أو على جنبه، وفوق حجرة الدفن أصبحنا نجد حجرة صغيرة من الطين والأجر خُصصت للأثاث الجنائزى.

ويعـــتقد (إمرى) أن آثار هذه الهجرات المصرية للجنوب كانت قوية وعميقة بحيـــث يُمكـــن أن نقول أنها أدت إلى تمصير كامل لبلاد النوبة السفلى[١] وما عُثر عليه من النقوش والآثار التى وجدت فى مصر وبى بلاد النوبة السفلى وكرمه يدل علـــى أن العصـــر الذى يلى الأسرة الثانية عشرة فى مصر- كان عصر سلام فى بـــلاد النوبة، وكانت فيه مصر صاحبة السيادة على هذه الجهات حتى نهاية الأسرة الثالـــثة عشـــرة، ومـــن المحـــتمل حتى بداية عصر الهكسوس- وإن كانت القبور المصرية التى عُثر عليها فى هذه الفترة يمكن أن نستدل منها على أن العلاقات مع مصر كانت مستمرة وعلى أن الحصون ظلت باقية حتى عهد الدولة الحديثة.

وتـــدل الأخـــتام التى عُثر عليها فى (كرمة) على أن التجارة بين مصر وبلاد الـــنوبة كانت مستمرة فى عهد الهكسوس وقد وجدت أسماء لملوك الهكسوس على طوابـــع الأختام فى مستودع (كرمه) مما قد يُفسر على أن حُكام الهكسوس كان لهم فـــى العصر الأول من حكمهم سلطان فى الجنوب، وأن مستودع كرمه كان تحت سلطانهم، وبالطبع فلا بد أن بلاد النوبة السفلى كانت فى قبضتهم.

والمعـــروف أن الهكســـوس لم يستطيعوا أن يبسطوا سلطانهم مدة طويلة على الوجه القبلى فقد أخذ صغار الحكام المختلفين فى البلاد يعارضون سلطانهم إلى أن قام أمراء طيبه وأسسوا الأسرة السابعة عشرة التى تصدت للهكسوس.

علـــى أن الانحلال السياسى والإقتصادى الذى كان قد حل فى ذلك الوقت قد أضعف صلاتها التجارية مع الجنوب.

1- Emery: P. 22.

ويُعـــارض بعـــض المؤرخين الرأى القائل بأن سيادة الهكسوس فى مصر قد أدت إلى هجرة عدد كبير من المصريين إلى بلاد النوبة وأن هذا بدوره قد أدى إلى حركة تمصير للثقافة الوطنية فى بلاد النوبة كما نظهر بوضوح من التغيرات التى طرأت على مجموعة (C) النوبية[١].

وقـــد وجُدت لوحه فى (بهين) تتحدث عن تاريخ حياة مصرى كان فى خدمة حاكم مستقل لبلاد كوش، ويرجح أن تاريخ هذه اللوحة يرجع للفترة التى كانت فيها بلاد النوبة حرة قبل إعادة فتحها ثانية على يد (أحمس الأول).

والتفســـير الـــذى يورده الأستاذ الدكتور سليم حسن لهذه الظاهرة هو أن بلاد الـــنوبة حيـــنما أصـــبحت حـــرة وصارت المدنية المصرية منتشرة هناك كان من الطبـــيعى أن يرحب بالمصريين الذين يريدون أن يخدموا الحكام هناك، وإذا كانت بـــلاد الـــنوبة الســـفلى فـــى هذه الفترة قد أصبحت محكومة بحاكم واحد ميوله مع المصـــريين والمدنـــية المصـــرية- فإن التغيير يصبح فى هذه الحالة أكثر سهولة وسرعة.

وقـــد عُثر على لوحه عُرفت باسم (لوحة ادفو) لرجل مصرى يقول فيها: "لقد كنـــت محارباً شجاعاً واحد الداخلين (ادفو) وقد نقلت زوجتى وأطفالى ومتاعى من جـــنوب كـــوش فـــى ثلاثة عشر يوماً، وقد عُدت بذهب قدرة ست وعشرون دبناً والخادمة (وشع شنى) - واشتريت ذراعين من الأرض، وهكذا كوفئت على السنين الست التى خدمتها فى بلاد النوبة التى جاء منها الذى اشتريت به الأرض[٢].

وهـــذا النص يدل أيضاً على انه وجُد من المصريين فى ذلك الوقت من كانوا فى خدمة الحكام بالنوبة.

علـــى أن البعض يُفسر التغيير الذى طرأ على ثقافة بلاد النوبة فى هذه الفترة كمـــا يظهـــر فى (المجموعة الثقافية C) بأنه عندما أصبحت بلاد النوبة غير تابعة سياســـياً لمصـــر، وكـــان فضلاً عن ذلك عدد كبير من النوبيين قد تشبعوا بالثقافة المصـــرية، وكان عدد منهم يعملون بوصفهم جنوداً مرتزقة- أصبح النوبيون أكثر ميلاً للذوق المصرى وأكثر استعداداً لقبول الثقافة المصرية فجلبت الأوانى الفخارية المصـــرية وقُلدت فى بلاد النوبة وكذلك الملابس المصرية بل لعل الحكام الصغار فى بلاد النوبة أنفسهم كانوا مقلدين للحكام المصريين.

١- أنظر د. سليم حسن: مصر القديمة ج ١٠ ص ٢٢٥ (طبعة ١٩٥٥).

٢- نفس المرجع والجزء ص ٢٦١.

وقــد وُجــدت فى مقابر أفراد من أهالى النوبة من هذا العهد كتابات مصرية قديمة لا معنى لها أكثر من أنها تقليد أعمى لما كان يُكتب على المقابر المصرية.

هــذا وقــد عُثر فى الوجه القبلى بمصر على جبانات نوبية، وأطلق الأثريون علــى هــذه المقابر اسم (المقابر القعبية الشكل)، وجدت هذه الآثار فى عدة أماكن. وقد فسر البعض وجود هذه المقابر بأنها ترجع لقوم وفدوا لمصر من البقعة الواقعة فى جنوبى حدود (سمنه) التى كانت تُعتبر الحد الفاصل بين مصر والسودان، ولكن ما جاء فى لوحه (كاموسى) من أن الحد الفاصل بين مصر وبلاد النوبة هو الشلال الأول يــدل علــى أن المــرور أصبح عند نقطة (سمنة) حراً. ويرجح أن هؤلاء المهاجرين ينتسبون لقبيلة تجارية أو أنهم من الجنود المرتزقة الذين جاء ذكرهم فى قصــة (كاموسى) باسم (مازوى) وأن ملوك الأسرة السابعة عشرة استخدموهم فى حروب التحرير التى أشعلوا نارها ضد الهكسوس.

وقد وُجدت فى مقابر هؤلاء النوبيين أسلحة مصرية كالبلط والخناجر والسهام كمــا وُجــدت أوانى فخارية مصرية الصنع، وعلى ذلك تكون الثقافة المصرية قد ســادت على هؤلاء القوم كما سادت على قوم ثقافة (المجموعة C) فى بلاد النوبة السفلى.

هكذا كان الوضع فى بلاد النوبة حتى قيام الدولة الحديثة فى مصر.

شكل رقم (٣) النوبة العليا

الفصل الرابع
بلاد النوبة من بداية الأسرة الثامنة عشرة المصرية حتى الأسرة الرابعة والعشرين

- بلاد النوبة فى عصر الملك أحمس الأول.
- بلاد النوبة فى عصر تحتمس الأول.
- بلاد النوبة فى عصر تحتمس الثالث.
- بلاد النوبة فى عصر أمنحتب الثانى.
- بلاد النوبة فى عصر تحتمس الرابع.
- بلاد النوبة فى عصر أمنحتب الثالث (أمينو فيس الثالث).
- بلاد النوبة فى عصر أمنحتب الرابع (أخناتون).
- بلاد النوبة فى عصر الأسرة التاسعة عشر.
- بلاد النوبة فى عصر سيتى الأول.
- بلاد النوبة فى عصر رمسيس الثانى.
- معابد بلاد النوبة فى ذلك العصر.
- بلاد النوبة فى عصر الأسرة العشرين المصرية.
- وظيفة نائب الملك ومعاونيه فى بلاد النوبة.
- الاقتصاد النوبى، والاقتصاد المصرى فى عصر الدولة الحديثة فى مصر.

الفصل الرابع
بلاد النوبة من بداية الأسرة الثامنة عشرة
المصرية حتى الأسرة الرابعة والعشرين

بلاد النوبة فى عصر الملك أحمس الأول :

الملك أحمس الأول (أحموسى) هو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وقام بالعبء الكبير فى طرد الهكسوس من مصر حتى أجلاهم عنها وطردهم إلى فلسطين.

ومن الغريب أن الملك أحمس لم يكد يفرغ من حروبه ضد الهكسوس فى آسيا حتى وجه همه (لبلاد النوبة) التى لم تشعر بالسيادة المصرية إبان عصر الهكسوس فانتهز بعض زعمائها الفرصة للتمرد على الحكم المصرى فخربوا الحصون والقلاع المقامة هناك.

ونجح الملك أحمس فى إرجاع الحكم المصرى لبلاد النوبة الشمالية ومد حدوده للشلال الثانى – وفى أواخر حياته كتب نصاً يقول فيه:

"رجعت وقلبى قد مُلىء بالفرح لإنتصاراتى المتعددة، لقد هزمت شعوب الجنوب– وشعوب الشمال".

ولقد عثرنا على نقش على جدران مقبرة القائد (أحمس بن إبانا) فى الكاب وهو قائد جيش الملك أحمس الأول – جاء فيه "بعد أن أنتهى الملك أحمس من إبادة الآسيويين اتجه جنوباً إلى منقطة القبائل المعروفة باسم خنت– حن نفر (Khent-Hen. Nefr) لمعاقبة الثوار فقضى عليهم ورجعت أنا بأسيرين وثلاثة أيدى، وكافأنى المالك بالذهب على شجاعتى ووهبنى أسيرتين[1].

وبعد أن استتب الأمر لأحمس وقضى على الثورة عين حاكماً لبلاد الواوات الواقعة بين الشلال الأول والثانى – وكان هذا الحاكم هو حورمنى (Hor-Meni) وقد ذكر هذا الحاكم على جدران مقبرته ما يلى:

"لقد بقيت أعواماً طويلة كأمير لمدينة أهناسيا، وقدمت خلالها ما استحق على هذه المدينة من ضرائب إلى سيد القطرين وامتدحنى لذلك، ولم تُنسب لى أخطاء،

---

١ – إبانا اسم والدته– وللنص انظر د. سليم حسن: ج ٤ ص ١٤٣.
(طبعة ١٩٤٨)، ج ١٠ ص ٣٧٥ _طبعة ١٩٥٥).
كذلك Budge: Vol. 1. P. 562

ثم عُينت حاكماً على (الواوات) وبقيت فى هذه الوظيفة حتى آخر عمرى، وكنت محبوباً عند مليكى، وقدمت الخراج فى نهاية كل عام كاملاً، ولم يحدث أن قصرت فى شىء".

ويظهر أن هذا الموظف بقى فى وظيفته كحاكم على بلاد الواواوات منذ حملة أحمس الأول على النوبة حتى تولى امنحتب الأول العرش، وقد وجد فى (جزيرة ساى) تمثال نقش عليه اسم (أحمس الأول).

ونشير هنا إلى انتشار عبادة الإله آمون فى بلاد النوبة عندما تغلغل النفوذ المصرى فيها، وهذا هو السبب الذى جعل الدولة النوبية التى نشأت فيما بعد فى بلاد النوبة الجنوبية وكانت عاصمتها أولاً (نباتا) ثم انتقلت (لمروى) قد اتخذت من آمون إلهًا لها، كما كان كهنة هذا الإله هم الذين نشروا الحضارة والديانة المصرية فى ربوع بلاد السودان القديم. وخلف أحمس أبنه امنحتب الأول.

ولم يكد يجلس على عرش مصر حتى أسرع لبلاد النوبة الشمالية لإخضاع ثورة قامت بها (قبائل الكوش)، فقد كانت هذه القبائل تحاول أن تتحدى الحكم المصرى وكان هم كل ملك يجلس على العرش محاربة هذه القبائل وطردها لما وراء الشلال الرابع ليأمن شرها، وكان فى معية امنحتب الأول القائدان العظيمان (أحمس بن إبانا) و(أحمس بن نخت)- وقد قال أحمس بن إبانا: "إنه أبحر بفرعون مصعداً على نهر النيل حتى وصل إلى كوش ... ثم قال ... لقد أسر جلالة الملك رئيس الثوار وسط جنده بالنوبة[1]".

ونستنتج من ذلك أن امنحتب كسر شوكة الثوار، ومن ذلك الوقت أصبح إقليم النوبة الشمالى تحت لإشراف حاكم مدينة الكاب الذى أصبح يدير الإقليم الممتد من الكاب شمالاً إلى الواوات جنوباً، وقد عُثر فى (إبريم) على وثيقة تدل على أن

١- أحمس بن إبانا، وأحمس بن نخت من أهم الشخصيات التى ظهرت فى عصر أحمس الأول وخلفائه، وقد ترك كل منهما ترجمة لحياته فى مقبرته بالكاب، وأحمس بن إبانا كان والده جندياً بسيطاً أو بحاراً لكن ما لبث أن ظهرت كفاءته فى الحروب ضد الهكسوس وغيرهم وكوفىء بمساحات من الأرض، ولعل أول البهبات التى كوفئ بها هى الهبة التى كافأه بها أحمس الأول- وقدرت ضيعته عند مماته بما يقرب من سبعة وستين فداناً (انجليزيا).

أما أحمس بن نخت- فهو بطل آخر من أبطال مصر، انخرط فى سلك الجيش فى عهد احمس وهو فى الخامسة عشرة من عمرة واشترك فى حملة على سورياً، ثم خدم فى عهد خلفاء أحمس (أمنحتب الأول) و (تحتمس الأول والثانى) وعاش حتى عصر (تحتمس الثالث) وكان قد بلغ من الكبر عتيا (كما يقول هو) فكان موضع رعاية تحتمس الثالث حتى انتقل إلى الحياة الأخرى، وقد كان أحمس بن نخت مربى الأميرة (نفرورع) ابنه حتشبسوت قبل مربيها المشهور (سنموت).

أمنحتب الأول قد نحت كهفاً فى جبال إبرايم وأهداه للآلة (سانت) إحدى آلهة الشلال، كما عثر على لوحة لموظف يُدعى (حورمنى) وهى الآن فى متحف (فلورنس) – ويقول هذا الموظف فى هذه اللوحة: "لقد أمضيت سنين عدة عمدة لبلدة (نخن) وجمعت خراجها لرب الأرضين أمنحتب الأول، ولم تُوجد فرصة قط للومى، ولقد بلغت الشيخوخة فى (واوات) وأنا محبوب سيدى وذهبت نحو الشمال بالجزية للملك كل عام، وقد خرجت من عنده وأنا برىء"(١).

ونحن نعلم أن (نخن) كانت تُعد الحد الفاصل بين مصر وبلاد النوبة، ومن هذه الوثيقة نستنتج أن عمدة نخن كان مسئولاً عن خراج البلاد الجنوبية، ولا نستطيع الجزم إذا كان هذا الموظف قد رقى إلى مرتبة حاكم إقليم (واوات) فى بلاد النوبة السفلى لأننا كما نعلم أن إدارة نائب الفرعون فى بلاد النوبة فى خلال الأسرة الثانية عشرة امتدت من (نخن) حتى (كاراى) وكانت إدارة بلاد النوبةُ ملقاة على عاتق إقليم الكاب (نخن) كما ذكرنا، لكن إبان عصر الهكسوس تغير الوضع فى بلاد النوبة فقد اشتد ساعد (شعوب الكوش) وكثرت غاراتهم على حدود مصر الجنوبية فأصبح لزاماً على الملوك المصريين أن يدفعوهم جنوباً للمناطق الواقعة جنوب الشلال الرابع حتى تكون المنطقة الواقعة بين الشلال الثانى والرابع منطقة أمان تحدث فيها الالتحامات بين الشعبين، ولذا أُعتبر الشلال الرابع وليس الشلال الثانى هو نهاية الحدود المصرية فى عصر الدولة الحديثة.

وأصبح من الصعب على (حاكم بلاد النوبة) أن يُسيطر على هذه المنطقة الشاسعة وهو مستقر فى الكاب، ولذلك استن ملوك الأسرة الثامنة عشرة سنة جديدة وهى تعيين حاكم عام لبلاد النوبة أطلقوا عليه لقب "ابن الملك المعين على بلاد الكوش"، هذا مع العلم بأن لقب ابن الملك هذا لم يكن يدل مطلقاً على أن صاحبه ينتمى فعلاً للعائلة المالكة أو أنه ابن الملك فعلاً– بل أعطى هذا اللقب فقط للتقدير ولزيادة المظهر الخارجى الذى يجب أن يلازم القائم بأعمال هذه الوظيفة الكبرى.

وجرت العادة أن يُقام احتفال بهذا التعيين يُعد من أكبر الاحتفالات المصرية – إذ يحضره الملك ويتقدم أحد ممثلى إدارة الخزانة التى كانت تُشرف على النواحى المالية ويعطى خاتم الحكومة للمندوب المعين على بلاد النوبة قائلاً له:

"هذا خاتم فرعون الذى ولاك حاكماً على القطرين مدينة الكاب ومدينة نباتاً"

١– د. سليم حسن : ج ٤ ص ٣٤٦ (طبعة دار الكتب ١٩٤٨).

وهذا يجزم بأن سلطة الحاكم العام كانت تمتد جنوباً لما بعد (نباتا) بالقرب من الشـلال الرابع وكان المتبع أن تترك إدارة المنطقة من الشلال الثانى للشلال الرابع تحـت سـلطة رؤسـاء القبائل المحليين يُشرف كل رئيس على قبيلته وكان هؤلاء الرؤساء المحليين ويعتبرون موظفين إداريين يتبعون فى النهاية المندوب المعين من قـبل الفرعون على (بلاد الكوش)، وكانت هناك خمسة أقسام كبيرة فى بلاد النوبة كل تحت إدارة أمير نوبى، لكن يبدو أن هذا النظام لم يستمر فقد ظهر أن الرؤساء المحلييـن إذا ما شعروا بأى تخلخل فى السلطة أو أن السلطة المركزية غافلة عن حـركاتهم لا يلبـثون أن يثوروا، لذلك اضطر الفرعون المصرى لاستبدال هؤلاء الرؤسـاء المحليين بضباط مصريين، وكان أول حاكم عام للنوبة هو (تورى) وقد عُـثر فى (سمنة) على نقوش له ترجع لأيام امنحتب الأول وتدل هذه النقوش على اتسـاع الحركة التجارية فى مصر وبلاد النوبة فى عهد أمنحتب الأول[1] فقد كانت السـفن تـأتى من الجنوب محملة بالعبيد والماشية والذهب والعاج والقمح والجلود بيـنما تـأتى مـن الشمال محملة بالأطعمة للضباط المصريين والرجال للعمل فى المناجم بالإضافة للأقمشة والخرز وغيره للتجارة.

تحتمس الأول وبلاد النوبة :

حيـن تولـى تحتمس الأول العرش أرسل إلى ابن الملك حاكم كوش المدعو (تـورى) منشوراً ملكياً محفوراً على لوحة حجرية ينبؤه باعتلائه العرش ترجمته كما يلى:

"مرسـوم أمـر ملكى إلى ابن الملك حاكم كوش المدعو تورى – أنظر فهذه رسـالة ملك مصر إليك لتخبرك أن جلالته قد تبوأ عرش حوريس كملك للقطرين، وقـد اخترت لنفسى الألقاب الملكية الآتى ذكرها: الثور القوى، محبوب اله الحق، صـاحب التاجيـن الـذى يظهر على الناس بالثعبان الملكى العظيم القوة– صاحب السنوات الطيبة الذى يُحيى القلوب، ملك القطرين هو الذى يوطد الروح ويُعلى من شـأنها، ابـن رع تحـتمس... إن علـيك أن تقدم القرابين إلى إلهة الفنتى صاحبة السـلطان علـى الجـنوب وتقوم بالإبتهالات لسيدك العظيم ملك الشمال والجنوب تحتمس– وتعطى الأمر أن يقسم الناس باسمى، المولود من الأم الملكية سنى سنب.

أُرسل هذا إليك لتأخذ علماً ولتعرف أن أفراد العائلة المالكة بخير.

1- Budge: Vol. 1. P. 566.

صـــدر فـــى العـــام الأول، والشهر الثالث، من الفصل الثانى – اليوم الحادى والعشرين من تاريخ اعتلاء الملك على العرش[١]".

ولكـــن يـــبدو أن (تورى) لم يتمكن من أن يقبض بيد من حديد على الأوضاع هناك مما اضطر تحتمس الأول لأن يتوجه بنفسه لبلاد كوش فى أوائل السنة الثانية من حكمه[٢].

ووصـــف لـــنا أحمـــس بـــن إبانا قائد أسطول الملك المعركة التى قامت عند (تـــانجور) بين الشلالين الثانى والثالث وانتصر فيها تحتمس الأول ثم واصل زحفه إلـــى (تومـــبس) وراء الشـــلال الثالـــث وكان بذلك أول فرعون وصل بنفسه لهذه المـــنطقة وهـــى قرب (دنقلة) الحالية وتُعتبر من أخصب المناطق فى بلاد النوبة– وأمضى الملك هناك سبعة أشهر لم يسترح فيها مطلقاً حتى كسر مقاومة الكوشيين ووضع أساساً لتنظيم شئون هذه المنطقة.

وخلد الملك فتوحاته فى خمس لوحات حجرية كبيرة أقامها فى مناطق مختلفة. أقـــام لوحتيـــن مـــنها فى (جزيرة سوهيل) الواقعة بين جزيرة الفنتين وجزيرة فيلة (أنـــس الوجود) وهما من نقش تورى نائب الملك فى السودان، والثانية فى أسوان نفسها وقد سجل فيها بالإضافة لمهمته فى الجنوب أن الملك لاحظ عند زيارته لبلاد الـــنوبة أن القناة التى حفرها (أونى) فى عصر الأسرة السادسة بين صخور الشلال الأول قـــد بطل استعمالها لأنها ملئت بالأحجار فأمر بإصلاحها وإعادة حفرها، وتم ذلـــك فعـــلاً وافتُـــتحها الملك أثناء عودته من حملته، وهذه القناة طولها ٧٥ متراً وعرضها ١٠ أمتار وعمقها ٧,٥ متراً وهى القناة التى أصلحها (سنوسرت الثالث) فى عصر الأسرة الثانية عشرة– ومنها أثر حجرى على صخور (تومبوس) يفتخر فـــيه الملـــك بأنه مهيمن على الأقاليم الممتدة من تومبوس جنوباً للفرات شمالاً[٣]، ورجع تحتمس الأول لمصر ليواجه مشكلات جديدة فى الحدود الشمالية فقد اضطر للذهاب أيضاً لبلاد الشام.

وحيـــن تم له النصر هناك أقام لوحة كبيرة على شاطئ الفرات تفاخر فيها بأن دولـــته تمتد شمالاً من نهر الفرات إلى الشلال الرابع جنوباً وأصبح صاحب الكلمة

١– د. أحمد بدوى: ص ٣٩٣،

، برستيد : ص ١٦٩.

٢– د. سليم حسن: ج ٤ ص ٢٥٦ (طبعة ١٩٤٨) وما بعدها، ج ١٠ ص ٢٧٨.

3- Budge: Vol. 1. P. 568.

العلياً فى كل البلاد التى تستطع عليها الشمس فإنه لم يحدث مطلقاً ما يشبه هذا فى أى ملك من ملوك مصر منذ عبد المصريون الإله حوريس.

وكانت إقامة تحتمس الأول ببلاد النوبة- فرصة سانحة لدراسة الأوضاع هناك والعمـــل لإصلاح شئون هذه البلاد. ومن التنظيمات التى قام بها تحتمس الأول أثناء إقامـــته فى النوبة أنه عزل (تورى) حاكم عام السودان وأعطى المنصب لرجل آخر إســـمه (ســـنى) وكان هذا الرجل قد شغل عدة وظائف منذ عهد أحمس الأول، فكان (مديـــر مخازن غلال الإله آمون) و(مدير الأعمال فى الكرنك) وعمدة لمدينة (طيبة) وقد بقى هذا الحاكم محتفظاً بمنصبه هذا فترة طويلة طوال حكم تحتمس الأول وحكم تحـــتمس الـــثانى، وكان يعيش فى عصر حتشبسوت- وتبلغ مدة خدمته فى وظائف الدولة المختلفة (٦٠ عاماً) قضى منها (٣٥ عاماً) تقريباً كحاكم للسودان.

ورافـــق تحتمس الأول فى حملته للسودان كل من (أحمس بن إبانا) (وأحمس بـــن نخـــت) وقد ذكر كل منهما فى تاريخ حياته المنقوش على مقبرته أخبار هذه الحملـــة، وقـــد وجـــدت على صخور (تانجور) نقوش تُسجل عدد قطع الأسطول المصـــرى الذى توغل به تحتمس الأول حتى بلغ جزيرة (تومبس) حيث أقام لوحته المشهورة هناك مسجلاً أخبار حروبه بالنوبة.

وبعـــد تحـــتمس الأول حكـــم مصر لمدة قصيرة ابنه تحتمس الثانى وقد كان مريضـــاً فلم يجلس على العرش سوى بضع سنوات تعرضت مصر فى هذه الفترة لهزات بسبب خلاف (التحوتموسيين) على توارث العرش.

ويـــبدو أن أخبار هذا الشقاق على العرش قد وصلت لشعب الكوش، كما يبدو أنهـــم شـــعروا بانشـــغال ملوك مصر بأمورهم عن الأمور الخارجية- لذلك بدأت الـــثورات تظهـــر بشـــكل واضح. وأضطر تحتمس الثانى لأن يُجند جيشاً جراراً ويرســـله لبلاد النوبة لإخضاع الثورة بها، وقد وصل هذا الجيش إلى الشلال الثالث وهزم الثائرين وأسر بعض الأفراد من المحرضين على الثورة ووُجدت أخبار هذه الحملة مسجلة على الصخور بين أسوان والشلال الأول[١].

وقـــد وجد اسم تحتمس الثانى على صخرة فى (جبال بركال)[٢] وذهب بعض المؤرخيـــن إلـــى استنتاج أن هذا يدل على أن العمليات الحربية أيام تحتمس الثانى

١- د. سليم حسن: ج ٤ ص ٢٩٤ (طبعة ١٩٤٨)، ج ١٠ ص ٢٨٤.

٢- د. أحمد بدوى: ج٢، ص ٤٥٠.

ملاحظة: تكتب جبل (برقال) ار (برقل) أو جبل (البرقل).

امــتدت إلى الشلال الرابع، لكن لا يوجد دليل يجعلنا نقطع بذلك- وقد وجدت على معـبد قلعــة (قمــة) نقوشاً ترجع لعصر الملك تحتمس الثانى دونها (سنى) حاكم السودان والملقب (بابن الملك) كما وجد فى (سمنه) اسم تحتمس الثانى مع والده فى نقش دونت فيه قائمة عطاياً للإله آمون.

وبعــد تحــتمس الــثانى – تولت حتشبسوت عرش مصر، ثم تحتمس الثالث وكانت هذه الفترة مشحونة بأمر النزاع على العرش فى بيت التحامسة، ذلك النزاع الذى زادت من حدته الأحزاب المؤيدة لهذا أو ذاك من أطراف النزاع، وأمتد تأثير هــذه الإحداث بالطبع للبلاد التى كانت خاضعة للسلطان المصرى، فقد تعددت فيها الثورات فلم يكد الأمر يستتب لتحوتمس الثالث حتى واجه هذا الخطر.

تحتمس الثالث وبلاد النوبة :

بقــى تحتمس الثالث على العرش بمفرده حوالى ثلاثين عاماً[١] – وقد استطاع فــى هذه المدة أن يثبت سلطان مصر فى أنحاء الإمبراطورية المصرية الشاسعة – وقــد قضى هذا الملك مده حكمه فى غزوات مستمرة- تكاد تكون بنسبة غزوة كل عام – ويتميز عصر تحتمس الثالث بالذات بأنه هو الذى نقش قوائم مفصلة لما كلن يصل لمصر من خراج سنوياً من بلاد (الواوات) وكذا بلاد (الكوش).

وفــى عصــر هذا الملك توفى حاكم السودان (سنى) وعُين مكانه رجل آخر اسمه (نهى) (Nehi)، وقد لبث حاكماً لكوش حوالى عشرين سنة، وكان هذا الحاكم يبعث بقوائم مسجلة فيها كميات الضرائب التى كانت تُجبى من بلاد السودان القديم وكانت قسمين:

أ – قسم خاص ببلاد النوبة السفلى (الواوات).
ب- قسم خاص ببلاد النوبة العليا (الكوش).

وكلاهمــا كان يُرسل بجزيته السنوية إلى مصر وهى عبارة عن أعداد كبيرة مــن العبــيد والإماء وهؤلاء كانوا يُستخدمون فى القصور، وفى الجيش (الذكور) وفــئة مــنهم كانت تكون فرق البوليس المصرى- هذا بالإضافة لكميات وافرة من الذهــب، والماشــية، والعاج، والأبنوس، وجلود الفهد وغير ذلك من محاصيل هذه الــبلاد – وكانت هذه الأشياء كلها تقدر وتسجل، والمقياس لهذا التقدير هوال (دبن)

١- يذكر برستيد أن مجموع سنى حكم تحتمس الثالث المشتركة وبمفرده ٥٤ عاماً

(برستيد : ص ٢٠٩).

وهـو ثقل من النحاس[1] – وكان العبد يُقدر ثمنه بما يقرب من (عشرة جنيهات)، ورأس الماشـية تعـادل (خمسـة جنيهات) ولدينا قوائم مفصلة بما أرسل من بلاد النوبة من خراج فى سنوات حكم تحتمس الثالث[2].

ويلاحـظ أن بلاد (كوش) كانت تفوق الواوات فيما ترسله من الحيوانات بينما كانـت تقـل عنها فيما ترسله من الذهب – وكان هناك نوعان من الذهب– ذهب الجـبال، وذهب المياه الذى يُحصل عليه بعد تصفيه الغرين المترا كم على شواطئ النـيل – وقد ذُكر أن الوارد من الذهب من بلاد النوبة فى السنة الحادية والأربعين من حكم تحوتمس الثالث بلغ ثمانمائة رطل ذهباً وهو قدر كبير.

وقيمة الخراج الذى كانت ترسله بلاد (الواوات) لمصر فى ذلك الوقت أى فى السنوات الأولى من حكم تحتمس الثالث وصل حوالى ١٢,٠٠٠ جنيه لكنه قفز بعد ذلك إلى حوالى ٢٠,٠٠٠ جنيه، ولعل ذلك ناتج عن اكتشاف مصادر جديدة للذهب، وقيمة الخراج الذى كانت ترسله بلاد الكوش حوال ٦,٠٠٠ جنيه.

لكـن كانـت هناك بالإضافة لذلك (ضرائب) تُجبى لصالح الخزانة المصرية على القوافل المتجهة من بلاد كوش إلى أواسط إفريقياً والحبشة– وقد نُقش فى عهد تحـتمس الثالث أسماء ما يقرب من ثلثمائة وخمسين قبيلة خاضعة للنفوذ المصرى الأدبى أى تُجبى منها ضرائب لكن لم يستطع العلماء التحقق من أسماء هذه القبائل، كما أن ضخامة العدد تدعو للتشكيك فيه.

وقد وجُدت على كثير من مقابر كبار الكهنة وأصحاب الوظائف العليا فى الدولـة فـى عهد تحتمس الثالث مناظر تسليم (جزية) بلاد النوبة – نذكر على سـبيل المثال مقبرة (منخبر رع سنب) الكاهن الأكبر للاله آمون، ومقبرة رجل آخـر مـن رجال تحتمس الثالث يُدعى (أمو نزح) قيل إنه صاحب الفرعون، و(رخ مـى رع) (Rkh mi Re) وقد تقلد وزارة الصعيد – وهذه المقابر فى جـبانة (شـيخ عبد القرنة) بطيبة الغربية، ومما صُور على هذه المقابر صور رؤسـاء هذه البلاد يُقبلون الأرض بين يدى فرعون، ثم ما أحضروه من هدايا من نعام وريش نعام وبيض النعام ووعول وأرانب، وذهب بلاد النوبة فى صور مخـتلفة بعضة حلقات وبعضة تبر وجزء منه سبائك وقرون، وخشب الأبانوس وسـن الفـيل، وجلود الفهد، والزراف، جرار مملوءة بالعطور– وبعض كلاب

١– الدين: مثقال مصرى وزنه ٩١ جرام (أنظر د. سليم حسن: ج ٤ ص ٣٤ ص ٤٣٢.

2- Emery: P. 23.

الصيد، وبعض الأبقار وبعض الرهائن لضمان حسن سير القبائل، والرقيق من رجال ونساء.

وكان هؤلاء عادة يوزعون على مصانع الإله (آمون) ومعابده، وكانت النساء (الإمـــاء) يعملـــن خاصـــة فـــى الغزل والنسيج بينما يعمل الرجال فى الصناعات الأخـــرى أو فـــى أعمال المبانى. ولدينا نقش على صخور (إبريم) فى بلاد النوبة الســـفلى يقـــص علينا كيف أن جزية بلاد النوبة كان يحملها لمصر ما لا يقل عن ألفين وستمائة وستين رجلا[1].

وقـــدر الـــبعض قـــيمة ما يصل للخزانة المصرية من بلاد النوبة (الشمالية) و(الجنوبية) بعد أن يأخذ موظفو الدولة هناك وعلى رأسهم الحاكم العام مرتباتهم ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ جنيه سنوياً.

هـــذا ولا شـــك فى أن مصر كانت تصدر للبلاد الأفريقية عبر بلاد السودان بعـــض منـــتجاتها مـــثل الحبوب، والملح، والملابس الكتانية، والآلات الحربية من الـــبرنز، والـــتمائم الملونة، والأدوات الخاصة بالزينة من القيشانى وخاصة الخرز الملون – ولعل الأبحاث والحفائر تكشف فى المستقبل عن وجود أمثال هذه الأشياء المصرية الصنع فى أقاليم مختلفة من أفريقيا جنوب النوبة العليا.

وقد عثر فى بلاد النوبة على آثار كثيرة ترجع لعهد تحتمس الثالث نذكر منها المعـــابد للآلـــة المحلية فى: (كلابشة) و(عمادة) ومعبد بوهن (وادى حلفا) و(قمة) و(ســـمنه) وفـــى (صولب) – كما وجدت نقوش عليها اسمه فى (كوبان) وفى معبد (دكة) وفى (إبريم) وفى جهات أخرى متعددة خاصة فى إقليم الشلال الثالث.

وفـــى الفنتين أقام (تحتمس الثالث) معبدًا للإله (خنوم) وقد هدمه محمد على الكبير عـــام ١٨٢٢ لإقامة قصر له هناك[2] ويرجع لتحتمس الفضل فى إصلاح معـــبد (سنوســـرت الثالـــث) فى سمنه – وتحتمس الثالث هو الذى أمر بأن يعبد (سنوسرت الثالث) إلى جانب آلهة النوبة وأن تُقدم له القرابين بوصفه بطل مصر الـــذى فتح بلاد النوبة وثبت حدودها عند الشلال الثانى – وقد كان (نحى) حاكم الســـودان فى عهده هو المسئول عن أعمال الإصلاح والتشييد والتعمير فى هذه الجهات.

١- د. سليم حسن: ج ٤ ص ٥٣٠، ٥٤٤، ٥٧٨.

٢- نفس المرجع والجزء ص ٤٨٣.

ونفس المرجع ص ٤٨٧.

ومن أهم الآثار التى عُثر عليها لتحوتمس الثالث (لوحه جبل بركل) عند الشلال الرابع التى عثر عليها (ريزنر) فى الردهة الأولى من ردهات معبد الإله (آمون) في جبل (بركل) وهي مصنوعة من الجرانيت الأحمر - ولعل هذه اللوحة كانت قد أقيمت فى الأصل فى (بركل) فى معبد آخر لكنها نُقلت فيما بعد إلى حيث وجدت- وتاريخ هذه اللوحة السنة السابعة والأربعون الشهر الثالث من فصل الفيضان - اليوم العاشر- من حكم جلالة الفرعون تحتمس الثالث- وقد سجل تحتمس الثالث فى هذه اللوحة الهامة انتصاراته فى سوريا (بلاد رتنو) وأشير بنوع خاص إلى موقعة (مجدو) - وتبرز اللوحة قوة تحتمس الثالث وانتصاراته بأمر الإله رع على أقوام الشمال والجنوب[1].

ولعل الهدف من إقامة هذه اللوحة ونقش انتصارات تحتمس الثالث فى سوريا عليها هو إظهار جبروته لأهل هذه الأقاليم النائية لتكون عظة وعبرة فلا يقومون بثورات أو يحرضون على فتن.

وفى اللوحة إشارة إلى السفن والخشب المفروض على بلاد كوش فقد جاء فيها إنه يبنى سنوياً ثمانى سفن... وكذلك يحضر خشب بناء من كوش ويشمل ألواحاً من خشب الدوم وخشب (تيت) وخشب السنط، وكذلك عدد عظيم من سفن النقل- ونستنتج من هذا أنه أنشئ فى هذا المكان البعيد حوض لبناء السفن التى كان تحتمس الثالث يحتاج إليها لحروبه الآسيوية وحروبه فى بلاد النوبة، وذلك لتوفير الأخشاب التى كانت تفتقر مصر إليها.

وتدل الآثار على أن تحتمس الثالث قد أُضطر للقيام بحملة للسودان فى السنة الخمسين من حكمه، ويبدو أنه لم يقم بأية حملة تأديبية لبلاد النوبة فى المدة الأولى من حكمه وأنه اضطر لتطهير القناة التى تخترق إقليم الصخور تمهيداً للقيام بهذه الحملة للقضاء على مُثيرى الاضطرابات والفتن، وقد بقى تحتمس الثالث فى هذه الحملة قرابة ثمانية أشهر فى السودان.

والمفهوم أنه بدأ حملته فى فصل فيضان النيل الذى كانت تذهب فيه الحملات عادة إلى بلاد السودان حيث يسهل على السفن أن تسير عَبر الشلال، ولكن فى العودة كانت السفن تستخدم القناة المحفورة فى صخور الشلال، وعلى صخرة بجهة الشلال الأول وُجد نقش جاء فيه:

"فى السنة الخمسين الشهر الأول من الفصل الثالث، اليوم الثانى والعشرين من حكم جلالته ملك الوجه القبلى والوجه البحرى تحتمس الثالث معطى الحياة أمر

١- وكذلك .Budge: Vol. 1. P. 476

جلالته بحفر هذه القناة بعد أن وجدها مسدودة بالأحجار لدرجة أن لا يمكن لسفينة أن تسبح فيها، وقد انحدر فى النيل عليها وقلبه منشرح لأنه ذبح أعداءه.. وعلى صيادى الفنتين تطهير هذه القناة سنوياً[١].

ومن النص نستنتج أن تحتمس الثالث قد سار فى حملته التأديبية وعاد مخترقاً هذه القناة. وقد خلد تحتمس الثالث ذكرى انتصاراته فى بلاد النوبة بالنقوش الموجودة على واجهة كل من بُرجى بوابة من بوابات الكرنك، وقد ذُكرت أسماء عدد كبير من البلاد والأقاليم قيل إن الفرعون أخضعها (تبلغ مائة وسبعة عشرة بلداً وإقليماً) – وفوق هذه البلاد ذكر إنها أسماء بلاد النوبة التى هزمها جلالته – ومما يؤسف له أن هذه الأسماء مجهولة الموقع لنا فلم يمكن تحقيق مكانها على خريطة بلاد السودان ولذلك لا نستطيع تحديد على وجه التأكيد المسافة التى وصل إليها تحتمس الثالث فى زحفه، لكن لا شك فى أنه وصل إلى الشلال الرابع، فقد عثر الأستاذ (ريزنر) كما ذكرنا على لوحة لتحتمس عند جبل (بركال) وإن كان لم يتحدث فيها عن حروبه فى بلاد السودان.

وقد اقتصر الحديث فيها على موقعة (مجدو) وغيرها من حروب تحتمس الثالث فى سوريا.

وبقيت سيادة مصر على بلاد السودان قوية نافذة طوال عصر الدولة الحديثة ابتداءًا من الأسرة الثانية عشرة إلى آخر عصر الأسرة العشرين، وكانت الجزية المفروضة على هذه البلاد تصل تباعاً وبانتظام للخزانة المصرية.

ويذكر الدكتور (بدج) أن مقاطعات السودان التى كانت تدفع الجزية السنوية لمصر فى عهد تحتمس الثالث هى: الواوات – وكانت تشمل بلاد النوبة حتى وادى حلفا، وكوش – وكانت تشمل المنطقة من (وادى حلفا) إلى قرب الخرطوم الحالية، وبنت– وكانت تشمل الإقليم الواقع إلى الجنوب الشرقى، وهذه أول مرة يشار فيها لتقديم هذا الإقليم جزية لمصر[٢].

بلاد النوبة فى عصر أمنحتب الثانى :

خلف أمنحتب الثانى أباه تحتمس الثالث على عرش مصر – وفى عهده امتد النفوذ المصرى فى النوبة للشلال الرابع – وضم الجزء المعروف باسم (كاروى)

١– د. سليم حسن : ج ٤ ص ٤٦٩ (١٩٤٨).

2- Budge: Vol. 1. P. 572.

(Karoy) لسلطة المندوب السامى (بكوش) فأصبح نفوذه يمتد إلى قرب منحنى النيل عند بلدة (أبى حمد). وقد أقام أمنحتب الثانى هناك لوحة حجرية كبيرة أثبت عليها حدود مملكته.

كما أقام حاميه تُشرف على الطرق التجارية المتجهة لجنوب هذه المنطقة، وقد اشتهر هذا الفرعون بقوة جسمه وبمهارته فى استخدام قوسه الحربى وعثر على هذا القوس فى قبره مكتوباً عليه (قاتل الأعناء، قاهر كوش، حامى مصر العظيم..."[١].

كما عثر على آثار كثيرة لا منحتب الثانى فى بلاد النوبة، فقد وجدت معابد له فى (وادى حلفا) و(قمة) وفى (جزيرة ساى) – وفى نقش على معبد (أمادا) ذُكر أنه عاد من الشمال (سوريا) مسروراً لأن أباه آمون نصره على أعدائه، وأنه أرسل جثة الرئيس السورى الثائر لتعلق على حوائط (Nept) ليراها كل السود – ويعتقد الأستاذ (بدج) أن هذه هى نفس مدينة (نباتا)، فإن صح هذا الاعتقاد فإنه يدل على أن النفوذ المصرى وصل إلى هذه الجهات[٢].

وفى عهد تحتمس الرابع :

أرسل حملة فى العام الثامن لحكمه للقضاء على ثورة فى بلاد النوبة الشمالية، وزحف على بلاد الواوات، وهزم الثوار واستولى على كميات كبيرة من الغنائم منها عدد من الأسرى أرسلهم للخدمة فى المعابد– واللوحة التى تحدثُنا عن حروبه فى بلاد (واوات) وُجدت على صخور جزيرة (كونوسو) فى النهاية الشمالية من (الفيلة)، ومنها نستدل على أنه بينما كان تحتمس الرابع فى الكرنك مشغولاً ببعض الاحتفالات الدينية بلغه خبر حركة العصيان التى قامت فى أعالى (واوات) فذهب الفرعون ليستشير الإله ويتلقى منه التعليمات فبشره بالنصر – ولذا سير حملة نحو الجنوب فى سفن أعدت لذلك– والتقى الفرعون بالعدو وانتصر عليه وعاد بأسلاب كثيرة، والأسرى الذين عاد بهم أقيمت لهم مستعمرة خاصة فى طيبة عُرفت باسم (مستعمرة أهل بلاد كوش) وألحقوا بخدمة معبده فى طيبة الغربية.

وقد وجدت لوحات عليها اسم تحتمس الرابع فى معبد (بوهن) وفى جبل (بركل) وفى معابد أخرى ببلاد النوبة.

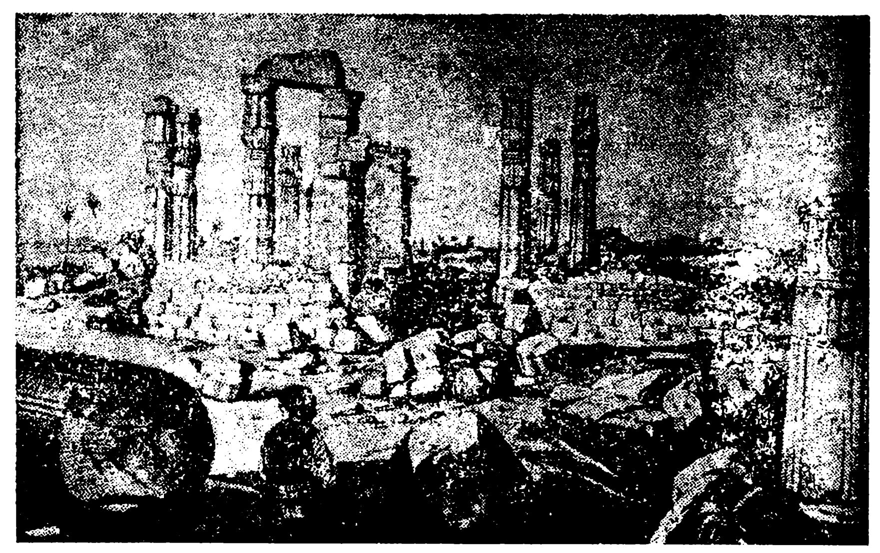
١– برستيد : ص ٢١٦.

2- Budge: Vol. 1. P. 600.

عصر أمنحتب الثالث (أمينوفيس الثالث) :

لمـــا توفـــى تحوتمس الرابع خلفه ابنه (أمنحتب الثالث) وقد وجد على النقش الـــذى أمر بعمله تخليداً لقرانه بزوجته (Tiy) ما يلى "لقد صارت هذه السيدة زوجة الملـــك العظـــيم الـــذى بلغـــت حدود مملكته الجنوبية إقليم كاروى والشمالية بلاد النهرين"(١).

وفـــى أواخر السنة الرابعة من حكمه حدثت اضطرابات بجنوبى النوبة فذهب إليها بجيشه وأسطوله وانضمت قوة سودانية أعدها المندوب السامى بكوش المدعو (مـــرمس) والتقـــت جـــيوش أمنحتـــب الثالث بالعصاة قرب الشلال الثانى وانتهت بهزيمة العصاة وقتل منهم ثلمائة واثنى عشر قتيلاً وأسر سبعمائة وأربعين، وسجل هـــذا النصر على لوح منصوب عند الشلال الثانى، وقفل الملك عائداً بعد أن جمع كميات كبيرة من الذهب لعمارات طيبة من إقليم (كاراى). ودليلنا على هذه الحملة لوحـــه نُقشـــت فى الصخور عند الشلال الأول، وكذلك لوحه على صخور جزيرة (كونوســـو) وقد ذكر أمنحتب أنه اصطاد بنفسه مائة واثنين أسداً ويبدو أن ذلك كان فى التلال الواقعة شرق جزيرة مروى(٢).



معبد امنحتب الثالث (فى صولب)
(كما رسمه هوسكنس سنة ١٨٣٢)

ولقد استتبت الأمور فى بلاد النوبة بعد ذلك وأصبح الإقليم بين الشلال الأول والشلال الرابع يسوده السلام، بل أصبح هذا الإقليم مصبوغاً بالصبغة المصرية تنتشر فيه الهياكل والمعابد المصرية وعُبدت فيه المعبودات المصرية، كما انتشرت الصناعة والأشغال اليدوية المصرية والفن المصرى، وفى نفس الوقت تُرك رؤساء القبائل السودانية الموالية لمصر فى أقاليمهم يحتفظون بسلطانهم وألقابهم الرسمية، وكان المندوب السامى للسودان يحضر كل سنة لطيبة لتقديم جزية النوبة- حتى أصبح ذلك الأمر مألوفاً - ومن المعابد الباقية ببلاد النوبة من عصر أمنحتب الثالث معبد (صلب) (Soleb) الذى خُصص لعبادة آمون وقد أصاب هذا المعبد التلف فى عهد إخناتون - لكن رُمم فى عهد (توت عنخ آمون)، وأقام امنحتب مسلتين أمام هذا المعبد على أنه لم تبق منها واحدة فى مكانها.

وقد صُفت تماثيل (الكباش) على جانبى الطريق المؤدى إلى المعبد ووجدت نقوش على هذه التماثيل تدل على أن المعبد أقيم للإله (آمون) - وكذلك زُين المعبد بتماثيل سباع ضخمة وصور حيوانات أخرى مقدسة، وقد نقل بعض هذه التماثيل إلى (نباتا) (جبال بركل) ويوجد كثير منها فى متاحف أوروبا - وقد محيت بعض النقوش علىّ هذه التماثيل فى عهد ثورة (أخناتون) مما يدل على أن أعمال التخريب فى الآثار فى عهد أخناتون امتدت أيضاً إلى بلاد النوبة[١].

والذى أشرف على بناء هذا المعبد الضخم هو (أمنحتب بن حبو) فقد كلفه أمنحتب الثالث بتنفيذ هذا العمل وإعداد كل ما يحتاجه من معدات دينية واقتصادية- وقد حبس على هذا المعبد الحقول وخصص لها فلاحون ليقوموا بزراعتها وصيانتها، وأعد ما يلزم لإقامة الشعائر الدينية من مغنيين وراقصات ونصب الكهنة- وقد كافأه الفرعون على إتمامه هذا العمل العظيم.

وتدل آثار (صولب) على أنها كانت فى وقت من الأوقات مركزاً تجارياً هاماً موقعها على شاطئ النيل يعطيها فرصة التحكم فى التجارة الذاهبة لشمال النوبة[٢].

وكان يوجد فى (الفنتين) معبد جميل لأمنحتب الثالث لكنه هُدم فى عهد محمد على عام (١٨٢٢) واستعملت أحجاره فى إقامة معسكر للجنود السودانيين الذى جاء بهم محمد على من السودان ليدربوا فى أسوان، وكان علماء الحملة الفرنسية قد قاموا من قبل بعمل رسم لهذا المعبد، وتوجد معابد أخرى له فى (مرجيس) كما توجد لوحات ونقوش فى بوهن (وادى حلفا) وسمنه، ونباتا (جبل بركل).

١- د. سليم حسن: ج٥ ص ٨٧، ص ٤٧١ وما بعدها

2- Budge: Vol. 1. P. 450 & P. 612.

أما أمنحتب الرابع (أخناتون) :

فقد شُغل بثورته الدينية ومنازعاته مع كنهه أمون عن توطيد سلطان مصر فى أملاكها – ومع ذلك فقد وجدث نصوص على مقبرة هوى (Huy) والى كوش تدل علـى إن بـلاد النوبة كانت حتى أيام (توت غخ أمون) مستمرة فى دفع الخراج السنوى لخزانة الفرعون المصرى.

الأسرة التاسعة عشرة وبلاد النوبة (١٣٥٠–١٢٠٥ ق. م):

أول ملوك هذه الأسرة هو (حورمحب)، وكان عليماً بأحوال البلاد لأنه ارتقى مـن موظف صغير فى عهد أخناتون وخلفائه حتى صار قائداً عاماً للجيش ورئيس المستشارين الملكيين قبل أن يصل لرتبة الفراعنة.

وكـرس (حـور محـب) جهده للإصلاح الإجتماعى والإدراى للبلاد فوضع قانونـه المـنقوش على لوحة حجرية أقامها بمعبد الكرنك لمنع الرشوة والاستبداد والاختلاس والتهريب وذلك كما قال فى لوحته بالكرنك لضمان رفاهية أهل مصر وإزالة الظلم الصارخ الواقع على أهل البلاد.

ولـم يذكر التاريخ عن (حورمحب) انه قام بحملة لبلاد النوبة إلا حملة واحدة أُضـطر أن يذهـب علـى رأسها لبلاد (النوبة الجنوبية) ليقمع ثورة قام بها شعب الكـوش محـاولاً جس النبض لكى يسترجع سلطته، ولكن الملك عالج هذه الثورة بسـرعة فائقة وحزم – وقد سجل على جدران الكرنك أخبار إنتصاراته على ثوار الجنوب – كما صورت على صخور السلسة.

وخلفه الملك **رمسيس الأول** – الذى وصل للعرش شيخاً فلم يمكث على عرش الـبلاد أكـثر مـن عامين ونضف عام وفى السنة الثانية من حكمه أحس رمسيس الأول بالكهولـة والعجز عن إدارة شئون دولته فأشرك ابنه (سيتى الأول) معه فى الملـك وقـد وجد فى آثار تلك السنة ما يدل على أن (سيتى الأول) قام بجملة على ثوار النوبة – وأهدى العبيد الذين أسرهم لمعبد (وادى حلفا) بالنوبة ليخدموا هناك.

وتولـى **سـيتى الأول** – بعد أبيه وعصره يشبه عصر تحتمس الأول فى أنه صبغ بصبغة عسكرية وقد تعددت حملاته لمحاربة الحيثيين فى آسيا وإنتهى الأمر بمحالفة بينه وبين ميتلا (Metella) ملك الحيثيين – وقام سيتى بإصلاح معابد بلاد الـنوبة من (عماره) جنوباً للشمال، وتوجد بالمعابد نقوش أثرية تدل على ذلك، وقد أراد سـيتى استغلال مناجم الذهب بالصحراء الشرقية بالنوبة فأمر بحفر بئر عميقة

علـــى الطـــريق المبتدئ من جنوبى شرقى (كوبان) إلى وادى علاقى- لكن أوقف المشروع لعدم الوصول للماء[١].

ويذكر الأستاذ (بدج) أن الأنظار اتجهت فى ذلك الوقت للصحراء الشرقية بعد أن أنهكت مناجم الذهب الأخرى لكثرة ما استخرج منها[٢].

وعلـــى أننا نشير إلى أن (رمسيس الثانى) حين تولى العرش بعد أبيه عزم علـــى تنفـــيذ هذا المشروع الذى فكر فيه أبوه فاجتمع بوزرائه والمندوب السامى لكوش للتفكير فى طريقة إنجازه – وانتهى الأمر بان عهد الفرعون المصرى إلى المـــندوب السامى لكوش بالقيام ببحث وسائل توفير الماء اللازم فى هذا الطريق، إذ كـــان العمال الذين يُرسلون للعمل فى المناجم، وكذا الحمير تموت عطشاً فيه، ونجـــح مندوب كوش فى أن يعثر على كمية غزيرة من المياه على عمق عشرين قدمـــاً – وحفر بئراً فى هذا المكان وخلد هذا النصر على حجر أثرى نصب فى جهة (كوبان).

وقـــد عُـــثر على لوحة الملك (سيتى الأول) تشيد بذكره على انه هو الذى مد حدود بلاده فى الجنوب – هذا بالإضافة للوحة داخل مقياس النيل القديم فى الفنتين تشاهد عليها صورة سيتى الأول يتعبد للإلهين (خنوم)، (أمون رع) لأنهما كما ذكر نصـــراه على أعدائه فى الجنوب والشمال والغرب والشرق – وربما دل هذا على أن (سيتى الأول) قام بحمله على بلاد النوبة.

وقـــد عُـــثر عند بلدة (نورى) شمالى الشلال الثالث على لوحة عليها مرسوم صادر من سيتى الأول يتعلق بتخصيص ضيعة عظيمة حبسها الفرعون على الإله (أوزير) فكانت منتجاتها ترسل إلى (العرابة المدفونة) وفى المرسوم يهدد الفرعون كل من يتعدى على مخصصات هذا الإله.

وقد وجدت لوحات ترجع لعهد (سيتى الأول) فى معابد الفنتين، وكلبشة، وكوبان، وفى قصر أبريم، وفى معبد آمون الذى أسسه توت عنخ آمون فى جبل بركل.

كمـــا تـــدل نقوش من عهد رمسيس الثانى على أن سيتى الأول أرسل عماله لاستغلال المناجم فى (وادى العلاقى) وكذلك فى مناطق (البجة) بالصحراء الشرقية وانه حفر الآبار فى الطرق المؤدية لهذه المناطق[٣].

1- Emery: Nubian Treasure P. 23.

2- Budge: The Egyptian Sudan, Vol. 1. P. 630.

3- Budge: The Egyptian Sudan, Vol. 1. P. 630.

رمسيس الثانى :

قام بعده حروب ضد الحيثيين انتهت بمعاهدة بين رمسيس الثانى وخيتاسار الذى خلف (ميتلا)، وبزواج رمسيس من إبنة ملك الحيثيين، واستطاع رمسيس بعـد ذلـك أن يتفرغ لشئون الجنوب – وكانت سياسة أمراء الجنوب تقوم على أسـاس صـبغ المناطق الجنوبية بطابع حضارى مصرى، ولتنفيذ هذه السياسة عمـد لإقامـة (المعابد المصرية) لتكون مراكز مصرية دينية وثقافية فى هذه الـبلاد. فأقـام فـى المنطقة بين أسوان والشلال الثانى عدة معابد فى الصخر نفسه[1].

وأهم هذه المعابد (انظر مواقعها على الخريطة:

١- معبد بيت الوالى (القريب من كلبشة):[2]

يـتألف مـن دهلـيز، وقاعة منحوتة فى الصخر، ومحراب صغير، ويمتاز بالـنقوش الـتى نقشـت علـى جدران الدهليز، وهى تمثل إنتصار الفرعون على النوبييـن، كما تمثل جزية بلاد النوبة المقدمة للفرعون من ماشية وفهود، وزرافه ونعامة، وريش نعام، وحلقات ذهب، وأسنان فيلة، وأقواس، وأشياء من الأبنوس – وغير ذلك – كما نقشت مناظر تمثل حروب الفرعون فى سوريا.

٢- معبد جرف حسين :

أقـيم هـذا المعـبد على الضفة اليمنى للنهر وقد هُدمت بوابة المعبد لكن المدخـل الـذى يحيط بالردهة لا يزال قائماً، كذلك جزء من العمد والتماثيل – وبعد المدخل توجد قاعة مقطوعة من الصخور وسقفها يرتكز على ستة أعمدة مقطوعة من الصخر أيضاً، وتؤدى هذه القاعة لقاعة أخرى ثم قدس الأقداس فى نهاية المعبد.

٣- معبد وادى السبوع:

أقـيم علـى ضـفة النيل الغربية – وكان المعبد محاطاً بجدران من اللبن وله بوابـة مـن الحجر، وفى الردهة الأمامية من المعبد يُوجد ممر به ستة تماثيل (أبو هول) لها أجسام السبوع وهذا هو سبب تسمية العبد بهذا الاسم.

١- د. سليم حسن: ج ٦ ص ٢٣٢ (طبعة ١٩٤٨).
وكذلك Budge: Vol. I. P. 633.

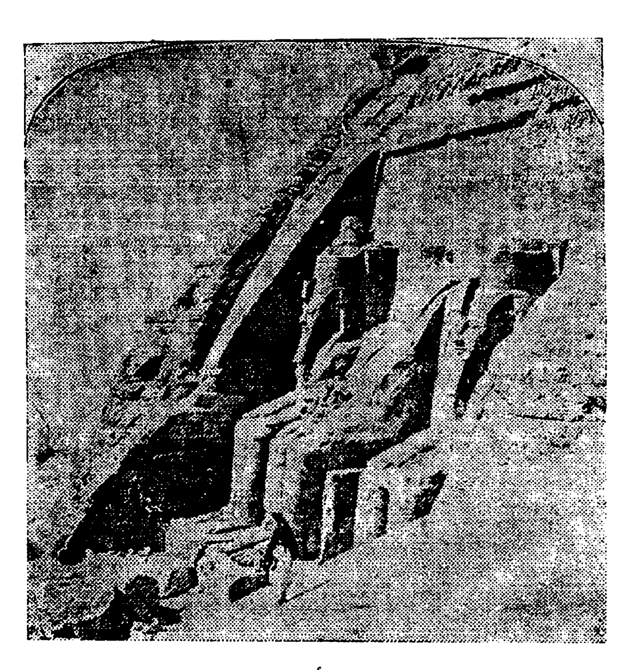
٢- أنظر خريطة النوبة السفلى.

٤- معبد الدر:

وهو منحوت فى الصخور وعلى جدران قاعته نُقشت مناظر إنتصارات رمسيس الثانى فى بلاد النوبة.

٥- معبد أبو سنبل :

وهو أهم وأجمل أثار رمسيس الثانى بالنوبة (انظر الصورة) – وهو مقام على رابية صخرية على شاطئ النيل ومن أمام مدخله عن اليمين وعن اليسار



معبد أبو سمبل

تمثالان لرمسيس الثانى ارتفاع كل منها عشرين متراً ومن وراء المدخل أجزاء المعبد فالفناء ذو العمد، وبهو الأعمدة وقدس الأقداس.

ويلفت النظر فى هذا المعبد ما احتواه من حجرات، والنقوش التى تزين جدران المعبد الداخلية وتصور المواقع الحربية وغيرها – وقد ساهم اليونسكو أخيراً فى إنقاذ هذا المعبد من أن تغمره مياه السد العالى وتم المشروع بنجاح ونُقل المعبد لمكان لا تغمره المياه بنفس الوضع الذى وجُد به فى الأصل.

وكانــت هذه المعابد مراكز للعمران إذا بدأت تنشأ المدن حول القلاع والمعابد المصرية لتحل محل القرى القديمة التى ترجع لعهد حضارة فجر التاريخ.

وبجانــب كــل معــبد أقام رمسيس معسكراً كبيراً للحامية ومستعمرة صغيرة لســكنى الموظفيــن، وكانت تقام فى هذه المعابد الطقوس الدينية للإله (آمون رع) (والإلــه بتاح) ولرمسيس نفسه – وقد أوقفت مناجم الذهب النوبية على معابد آمون حتى أن والى كوش لقب بلقب (حاكم ارض أمون الذهبية).

ويــبدو أن هــذه السياسة التى اتبعها رمسيس الثانى كانت ناجحة حتى أننا لم نعثر على وثيقة تدل على إضطراره لإرسال حملة كبيرة للمناطق الجنوبية، فالحملة الــتى أرسلها فى السنة الثانية من حكمه أو ما أرسل بعدها من حملات لم تكن ذات بال – وقد شكل رمسيس (محكمة) تحت إشراف المندوب السامى المصرى بالنوبة للــنظر فــى (شكايات) الناس هناك، ولعل مناظر (بيت الوالى) ومعبد (أبو سمبل) وغــيرها مجــرد مناظر صخرية تبرز قوة الفرعون ولا تدل على حملات حربية حقيقية جُردت على بلاد النوبة.

وبعد رمسيس الثانى حكم ابنه (منفتاح) وكان ضعيف الصحة طاعناً فى السن، ثــم حكــم بعده (سبتاح) الذى لعله وصل للعرش عن طريق تأييد أهل النوبة له – والمعــروف أنــه فى أول سنة من حكمه ذهب للنوبة وعين مندوبه السامى هناك المدعــو (ســيتى) وأرسل رسله لتوزيع الهبات على الأهالى – ولُقب سيتى (بحاكم أرض أمون الذهبية)، وقد وطدت هذه الوظيفة العلاقة بين المندوب السامى بكوش وكهنة آمون.

وسيتى هذا لعله هو الفرعون المصرى الذى تولى عرش مصر بعد ذلك باسم (ســيتى الــثانى) ولعله اعتلى العرش بمعاونة كهنه آمون – وقد قامت فى مصر اضــطرابات أسقطت هذا الفرعون من عرشه وظل الأمر كذلك حتى جاء رمسيس الثالث.

الأسرة العشرون المصرية وبلاد النوبة (١٢٠٠-١٠٩٠ ق. م):

يُعتــبر رمســيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين، وقد نجح هذا الفرعون فى القضــاء على خطر الليبيين الذى هدد مصر، ثم خطر الشماليين من سكان شواطئ جــزر البحر المتوسط وبسط نفوذه على بلاد آسيا القريبة من مصر وحكم رمسيس الثالث ما يقرب من إحدى وثلاثين عامًا حفلت كلها بأخبار انتصاراته على الليبيين والآسيويين وسكان جزر البحر المتوسط.

وتـــدل المـــناظر على معابد (بيت الوالى) و(الدر) و(أبو سمبل) وكذلك ورقة هـــاريس[١] على أن رمسيس الثالث قام بحروب على بلاد كوش ليبعدهم عن حدود مصـــر، وانـــه أحـــرز النصـــر على أعدائه وأسر كثيراً منهم وأجبرهم على دفع الجزية[٢]

وبعد رمسيس الثالث حكم تسعة ملوك ضعاف تسموا كلهم باسم رمسيس لكنهم لـــم يستحقوا ذلك الاسم العظيم- وكل ما وصلنا عن أخبار تلك العصور يشير إلى اضـــمحلال عام فى كيان الدولة، وكثرة نهب المقابر الملكية - هذا إلى زيادة نفوذ الكهـــنة حتى أن الكاهن الأكبر (لآمون) كان يُعتبر فى نظر الشعب فى ذلك الوقت أعظم شأناً من الفرعون ذاته.

وأمـــا الـــنفوذ فى بلاد النوبة فكان يرجع لشخصية المندوبين المصريين الذين كانوا يُعينون على هذه الجهات.

فقـــد عـــثر فـــى بلده (عنيبه)[٣] على مقبرة ابن الملك صاحب كوش فى عهد رمســـيس الســـادس، واسم ذلك النائب (بنسنوت) ومن النقوش الموجودة على هذه

١- ورقـــة هاريس: عثر عليها فى عام ١٨٥٥ فى مكان بالقرب من معبد (الدر البحرى) واشتراها المستر (هاريس) الانجليزى الذى سميـــت باسمـــه مـــن أحد تجار الآثار، وقد كتب عن محتوياتها بالتفصيل الأستاذ (إرمان) والأثرى (برش) - وتتألف الورقة من مقدمـــة، ثم الكلام عن طيبة ومعابدها الخاصة بالالة أمون - ثم عن هليوبوليس ومعابدها الخاصة بالاله رع- ومنف ومعابدها الخاصـــة بالاله (بتاح) وأخيراً المعابد الصغيرة المختلفة - وتختم الورقة بالجزء التاريخى الخاص بالأحداث العظيمة التى وقعت فى عهـــد رمسيس الثالث. وقد قطعها مشتريها المستر (هاريس) وإلى تسعا وسبعين صحيفة ونشرها الأثرى (برش) الأمين بالمتحف البريطانى بهذه الكيفية - أنظر سليم حسن: مصر القديمة ج ٧ ص ٣٣٧ وما بعدها (طبعة ١٩٥٠).

٢- د. سليم حسن: ج ٧ - ص ٢٦٩.

٣- اســـم بلـــدة عنيبة القدم هو (معام) وكان هذا الاسم يطلق على الإقليم الذى يشمل المنطقة التى كانت على شاطئ النيل الشرقى والغربى بالإضافة لجزيرة (إبريم)، وقد كان لعنيبة معبد للإله (حور) الذى كان يمثل بصورة صقر على رأسه قرص الشـــمس- كمـــا كان بها حصن لحماية التجارة فهى تقع فى مكان هام يتحكم فى طريق التجارة فى الصحراء الغربية، هذا بالإضـــافة لأهميتها فى مراقبة السفن المارة بالنيل - وقد كان لعنيبة منذ أقدم العصور أهميتها، وزادت هذه الأهمية بازدياد علاقـــات مصر ببلاد النوبة، وكان لحصنها أهمية كبيرة - وقد جدد (سنوسرت الأول) هذا الحصن فأصبحت عنيبة مركزاً حربياً وتجارياً وثقافياً هاماً فى بلاد النوبة - واعتبرت الآثار التى وجدت بها مثلا للآثار النوبية التى تدل على ثقافة المجموعة C التى أشرنا إليها - وظل الحال كذلك حتى عصر الدولة الحديثة فى مصر حين كثر وجود الموظفين المصريين واستقرارهم بهـــذه المـــنطقة فتمصـــرت بلاد النوبة وأعيد بناء (عنيبة) الحديثة وأقيم بها معبد جديد- لكن مع ذلك فقد بقى فريق من ســـكانها الأصليين بمعزل عن المستوطنين الجديد ويدينون بالطاعة لرئيس من بنى جلدتهم يحمل لقب (أمير معام) وكان يعتبر المتحدث الرسمى باسمهم إلى السلطات الحاكمة ويدفع الجزية المفروضة عليهم.

المقبرة نعرف الكثير عن الحكم المصرى فى هذه الأصقاع النوبية فى هذه الفترة- فنعلم مثلاً أن (بنسنوت) كان يستعين بأقاربه فى تيسير أمور الحكم فى هذه الأصقاع فكان اثنان من عشيريه يحمل كل منهما لقب (خازن رب الأرضين فى عنيبة)، وآخر يحمل لقب (كاتب بيت المال وعمده عنيبه)، وقد أقام (بنسنوت) تمثالاً لرمسيس السادس فى معبد الدر وأوقف على هذا المعبد واردات خمسة من المراكز المتاخمة - وقد كافأه الفرعون على هذا العمل- ومع أن جميع الدلائل تدل على أن الأحوال فى مصر كانت آخذة فى التدهور لكن نقوش مقبرة (بنسنوت) فى عنيبة تدل على أن النفوذ المصرى كان لا يزال قوياً فى هذه الجهات.

ونقوش هذه المقبرة تُعتبر نموذجاً لنقوش مقابر كبار الموظفين فى هذا العصر.

وقد عُثر على خطاب من الفرعون (رمسيس الحادى عشر) إلى حاكم كوش (باينحسى) يأمره فيه بأن يحث الموظف الذى بعثه للإشراف على جمع مواد البناء- على سرعة انجاز هذا العمل، وهذا الخطاب محفوظ فى بردية بمتحف تورين[1].

وتدل جميع الوثائق التى عُثر عليها على أنه فى الوقت الذى كانت سلطه الفرعون المصرى تتزعزع حتى أن العرش أنتقل بين الرعامسة عده مرات فى ظرف ٢٥ أو ٣٠ سنة بعد وفاة رمسيس الثالث - وفى الوقت الذى كانت فيه مصر تعانى أيضاً من أزمة اقتصادية حادة- كان (كهنة آمون) بطيبه يتمتعون بنفوذ سياسى وثروة اقتصادية ضخمة، وقد اعتاد ملوك مصر أن يهبوا هبات كبيرة للمعابد- وكان نصيب آمون وكهنته من تصيب الأسد من هذه الهبات التى وصلت إلى حد الإسراف الذى أثر فى الخزانة التى أصبحت على وشك الإفلاس.

ولدينا من أيام رمسيس الثالث ذلك الدرج الضخم الموجود الآن فى المتحف البريطانى والمعروف باسم بردية هاريس (Pap. Harris) والسابق الإشارة إليه فمنه نستدل على أن نسبة الاراضى المصرية المحبوسة للمعابد ١٥% من الاراضى المزروعة، وتعداد الأغنام والبهائم التى حُبست للمعابد يقرب من نصف مليون، وكان عدد السفن ٨٨٠ سفينة كبيرة وصغيرة، وعدد المصانع ثلاثة وخمسين- هذا بالإضافة لدخل مائة وتسعة وستين مدينة فى سوريا وكوش ومصر، وكان حوالى ٢% من سكان مصر يعملون فى خدمة المعابد، وكان نصيب معابد

١- سليم حسن: ج ٨ ص ٥٥١.

آمون من هذه كلها – نصيب الأسد – وقد قال رمسيس الثالث عن معبد آمون بمدينة هابو:

"لقد ملأت خزائنه بخيرات مصر من ذهب وفضة وأحجار كريمه بما يُعد بمئات الألوف، أما الشون فكانت طافحة بالشعير والقمح، وأما أراضيه وأغنامه فكانت عديدة كرمال الشاطئ، لقد فرضت الجزية لهذا المعبد على أراضى الجنوب والشمال وسوريا والنوبة بما يقدر بعشرات الألوف".

فليس غريباً إذاً أن يُصبح لكهنة آمون نفوذ ضخم وأن يُبح لعظيم كهنه هذا المعبود سلطة تضاعفت منذ أيام الأسرة الثانية عشرة – ولم يقتنع هؤلاء الكهنة بما أصبح لهم من نفوذ فطمعوا فى المزيد خاصة بعد أن وصل للعرش فراعنة ضعاف فأصبحت الهدايا تُعطى للكهنة لا مكافأة على الأقدام والشجاعة وتعبيراً عن الاعتراف بجميل الآلـة بعد النصر فى الحروب – لكن لضمان سلامة العرش المصرى وإطاله حكم الفرعون – وأغرب من ذلك أن رمسيس التاسع سمح لكهنة آمون بجباية أموال المعابد بأنفسهم بعد أن كانت تلك الأموال تُورد للخزانة الملكية وتقوم بدورها بدفع نصيب المعابد، فامتد نفوذ الكهنة لشئون الدولة – وقد وجِّدت صورة ونقوش على معبد الكرنك لرؤساء الكهنة أنفسهم برسوم بارزة تمثلهم بحجم كبير كحجم الملك وهو يُنعم عليهم الهدايا والهبات، ولم يسبق لأى موظف مصرى أن مُثل بهذه الكيفية – وهذا يدل على أن نفوذ كهنة آمون أصبح مساوياً لنفوذ الفرعون[1].

إدارة السودان فى هذه الفترة (عصر الدولة الحديثة فى مصر):

رأينا كيف اهتم (أحمس الأول) بعد أن استتب له الأمر بمصر بأمر بلاد النوبة فأعاد سلطان مصر على هذه البلاد، وأهتم خلفاؤه من بعده بالقضاء على كل ثورة أو فتنه تقوم بها القبائل فى هذه الجهات.

وذكرنا أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة استنوا سنة جديدة فعينوا حاكماً خاصاً لبلاد النوبة أطلق عليه لقب (ابن الملك – حاكم بلاد كوش).

والظاهر أن هذه الوظيفة أنشئت فى عهد (أمنحتب الأول) وبقيت حتى عهد الأسرة الحادية والعشرين – ومن تتبع ألقاب الذين شغلوا هذه الوظيفة نجد أن هذا الحاكم كان يُلقب (بابن الملك المشرف على البلاد الجنوبية)، ولقب (ابن الملك) لم

1- Budge: Vol. 1. P. 644

يكن من الضرورى أن يحمل معناه الحرفى المفهوم من هذا اللقب أى أنه قد يكون لقب شرف وحسب- ومن الألقاب الأخرى لقب (المشرف على أرض الذهب للآلة آمـــون)، ونحـــن نعلم أن تحتمس الثالث خصص إيراد بعض مناجم الذهب لخدمة (آمـــون)، ومـــن الألقاب الأخرى (المشرف على أراضى كوش) و(حامل المروحة علـــى يميـــن الفـــرعون)، وكذلـــك من الألقاب التى كان نائب الملك يحملها نائب الفـــرعون (الأمـــير الوراثـــى) و(حامل خاتم الملك) و(السمير الوحيد) وكانت هذه بمثابة ألقاب شرف.

ولديـــنا بيانات كافية عن أسماء حكام السودان الذين أنابهم الملوك نيابة عنهم فى حكم هذه البلاد وأولهم (ثورى) الذى تولى هذه الوظيفة فى عهد أمنحتب الأول، وآخـــر من لُقب بهذا اللقب هو (بى عنخنى) بن الفرعون حريحور فى عهد الأسرة الحاديـــة والعشـــرين، وقـــد جُـــدد لقب (نائب الملك) ثانية فى عهد الأسرة الثالثة والعشرين لكن كان مجرد لقلب فخرى لا يعنى عودة الوظيفة بكل التزاماتها.

ويُـــبدى الأستاذ (بدج) دهشته من عدم تعيين أفراد الأسرة الثانية عشرة (نائباً للملـــك) فـــى ســـوريا يكـــون مسئولاً عن إدارة هذا الإقليم كله أسوه بما أتبع فى الســـودان- ويذكـــر إنهـــم لو فعلوا ذلك لما كانوا بحاجه للقيام بغارات متعددة فى فترات متقاربة فى سوريا[1].

وتُقـــدر المدة التى تولى (نواب الملك) فيها إدارة السودان بأربعمائة وخمسين عاماً، والحقيقة أن بلاد النوبة فى هذه الفترة قد تمصرت تماماً.

وإذا حللنا الشخصيات التى شغلت وظيفة (نائب الملك فى بلاد النوبة) نجد أن معظمهـــم كان فى خدمة الفرعون أصلاً وكانوا يشغلون وظائف على جانب عظيم من الأهمية (كوظيفة كاتب الملك)، وكانوا ممن اشتهروا بحسن الإدارة الحزم، ولم تجعـــل هـــذه الوظـــيفة وراثية لضمان كفاءة من يشغلها، وبعض الذين شغلوا هذه الوظـــيفة – خاصـــة فى أول إنشائها- كانوا من ذوى الخبرة الحربية وكانت تحت إمـــرتهم فرق من الجنود لقمع أى عصيان أو ثورة تقوم فى هذه البلاد، ولكن نجد أنـــه فـــيما بعدُ عهد بالسلطة الحربية فى هذه الأقاليم لشخص آخر هو (رئيس رماة الكـــوش) كـــان مســـئولاً عـــن ضبط النظام بالسودان لكنه كان تحت إدارة نائب الملك[2].

1- Budge: Vol. 1. P. 627

٢- د. سليم حسن: ج ٥ ص ١٧٦.

وقــد نشــرت عده قوائم بأسماء نواب بلاد النوبة ومن أهم هذه القوائم القائمة التى نشرها (ريزنر).

وأهم من شغل وظيفة نواب بلاد النوبة:

١- **ثــورى:** كــان كاهنا فى (أبوسمبل) ثم قائداً لحصن (بوهين) فى عهد أحمس الأول، واسـم (ثورى) الحقيقى هو أحمس – وقد عين (نائب ببلاد النوبة فى عهــد (أمنحتــب الأول)، وقد وجدنا نقشاً له فى جزيرة (أرونارتى) يُعدد فيه ألقابـــه، وقد ظل يشغل هذه الوظيفة حتى عهد تحتمس الأول، وقد عثر على تمثال من حجر الكوارتسيت الأحمر محفوظ الآن بالمتحف البريطانى ذُكر فيه ثلاثـــة أشخاص باسم أحمس منهم (أحمس ثورى) واثنان منهما يحملان لقب (ابـــن الملك المشرف على البلاد الأجنبية الجنوبية)، وقد أدت محاولة تفسير التسميات الموجودة على هذا التمثال إلى القول بأن (أحمس ثورى) ربما يكون حفـــيد الملك أحمس محرر مصر من الهكسوس، وأن أباه ربما يكون أول من حمل لقب (نائب الملك فى كوش) وأن التسمية (ابن الملك حاكم كوش) كانت فى المبدأ حقيقة تنطبق على الواقع ثم صارت تطلق بحكم التقليد والعادة على من يشغل هذه الوظيفة[١].

٢- **سنى:** كان يشغل وظيفة مدير مخازن آمون، ومدير الأعمال فى معبد الكرنك فى عهد أمنحتب الأول – وفى السنة الثالثة عن عهد (تحتمس الأول) عُين فى وظيفة (نائب الملك فى بلاد النوبة)، وفى عهد (تحتمس الثانى) أضيف لألقابه لقـــب رئـــيس المازوى (أى الشرطة) ويبدو انه بقى مدة طويلة حوالى خمس وثلاثيـــن سنه فى إدارة بلاد النوبة – وقد وجدت آثار أخرى كُشط منها اسمه عـــن قصـــد كمـــا كشط منها اسم الملكة حتشبسوت ولعل ذلك العمل يرجع لتحـــتمس الثالـــث. ولقـــد عثرنا على نقش فى معبد (سمنه) عليه تاريخ حياة سنى.

٣- **نحى:** كان يشعل منصب (ابن الملك المشرف على البلاد الجنوبية) منذ السنة الثانية من حكم تحتمس الثالث، وامتدت إدارته من نخن (الكاب) الى (كاراى) قـــرب (نـــباتا) عـــند الشلال الرابع، وقد حباه تحتمس الثالث بمكانة عالية إذ يرجع له الفضل فى مد فتوح مصر فى السودان وفى حسن إدارة هذه الجهات المفتوحة، وقد وجدت آثار فى عنيبه عليها اسمه.

١- د. سليم حسن: ج ١٠ ص ٢١٤ وما بعدها.

٤- **وسرســاتت**: شغل هذه الوظيفة فى عهد أمنحتب الثانى ولعله خلف نحى فى هذه الوظيفة – وقد وجُدت له عدة آثار فى إبريم وجزيرة سهيل، وبهين.

٥- **أمنحتب**: كان نائب الملك فى السودان فى عهد أمنحتب الثالث- وقد وجد اســمه علــى نقش بجزيرة سهيل وهو أول من لقب (بابن الملك صاحب كوش).

٦- **مــرى موسيٍ**: تولى هذه الوظيفة منذ السنة الخامسة من حكم أمنحتب الثالث، وقد لقب أيضاً (بالمشرف على أرض الذهب للإله آمون). وقد عثر على عدة آثــار علــيها اسمه وألقابه، منها لوحه محفوظة فى المعهد الفرنسى بالقاهرة وأخرى بالمتحف البريطانى، كما عُثر على عده توابيت له.

٧- **تحتمس**: تولى الوظيفة فى عهد أخناتون- وقد وجدت فى جزيرة سهيل وفى بهين نقوش عليها اسمه.

٨- **حــوى Huy**: كــان نائب الملك فى عهد (توت عنخ آمون) وقد وجدت على مقــبرته فى (قرنه مرعى) مناظر جميلة توضح مراسم تعيننه نائباً للملك فى (بــلاد كوش) – فنشاهد (توت عنخ آمون) جالساً على عرشه وأمامه صفان مــن الرجال- ثم نشاهد موظفاً كبيراً يستقبل (حوى) وهو يتقدم نحو الفرعون تحــف بــه طائفة من رجال البلاط- ثم يقدم هذا الموظف الكبير الى (حوى) خاتمــاً من فرعون رمزاً لتعيينه حاكماً على الإقليم الممتد من (نخن) الى نباتا ويقول له "خذ خاتم وظيفتك يا ابن الملك" ثم يخرج حوى من القصر فيستقبله كــبار الموظفيــن وأفراد أسرته فرحين – ثم نراه فى منظر آخر مُنحنياً أمام ســيده (تــوح عنخ آمون) يقدم له جزية ببلاد كوش من ذهب وفضة وأثاث درورع- وكانت إداراته تمتد من الكاب حتى نباتا.

٩- **باســر**: شغل هذه الوظيفة فى عهد الملك (آى) ولعله استمر يشغلها فى عهد (حــور محــب) و(رمسيس الأول)، ومن أهم النقوش التى وجد اسمه عليها لوحة (جبل الشمس) جنوبى (أبوسمبل).

١٠- **أمنأبــت**: (Amen-n-ipt): شــغل هــذه الوظــيفة فــى عهد (سيتى الأول) و(رعمســيس الــثانى) كما يدل على ذلك النقش الذى وُجد له فى معبد (بيت الوالى) – وهو ابن نائب الملك المدعو (باسر).

١١- **إيونــى**: شــغل هذه الوظيفة بعد (أمنأبت) فى عهد (سيتى الأول) و(رمسيس الثانى) ،وقد عثر على أكثر من لوحه عليها أسمه.

١٢، ١٣، ١٤- **حقانخــت، باسر الثانى، ستاو (Setaw)**: تقلبوا على الوظيفة فى عهد رمسيس الثانى - والأخير (ستاو) حكم بلاد النوبة فترة طويلة (أكثر من خمسة وعشرين عاماً) ووجدت عدة نقوش باسمه.

١٥- **مس سوى**: شغل وظيفة نائب الملك فى كوش فى عهد (مرنبتاح).

١٦- **ســيتى**: شــغل هــذه الوظيفة فى عهد (سبتاح)، ويعتقد (إمرى) أنه هو الذى أصــبح فــيمْا بعد الفرعون (سيتى الثالث) وقد وُجدت له عده نقوش فى بلاد النوبة فى (أبو سمبل)، (بوهين)، و(سُهيل).

١٧- **حورى الأول**: تولى هذه الوظيفة فى حكم سبتاح.

١٨- **حورى الثانى**: خلف حورى الأول فى هذه الوظيفة ابنه - وكان ذلك فى عهد رمسيس الثالث ورمسيس الرابع.

١٩- **ويــن - تــا - وات Wen-ta-Wat**: شغل هذه الوظيفة فى عهد رعمسيس التاســع- وســبقه فــى ولاية كوش نواب أخرون (باسر الثالث، سا أزيس، نحرحــر) - وكان هذا النائب يقوم بأعباء وظائف أخرى منها وظيفة الكاهن الأكبر لآمون.

٢٠- **رعمــيس نخــت**: شغل وظيفة نائب الفرعون فى عهد رعمسيس التاسع (كما يذكــر ريزنــر) ويرجح د. سليم حسن أنه كان يقوم بأعباء وظيفته فى عهد رمسيس الحادى عشر[1].

٢١- **بانحســى**: تولى أمر هذه الوظيفة فى عهد رعمسيس الحادى عشر، وهو من أبناء السودان نفسه ولعله انتخب لهذه الوظيفة إرضاءًا لأهل النوبة الذين كانوا على وشك الإنفصال.

٢٢- **حــرى حــور**: خلف بانحسى فى هذه الوظيفة، وقد أصبح كبيراً لكهنة آمون، وتولــى عــرش مصر كأول ملوك الأسرة الحادية والعشرين بعد أن ضعف الرعامسة.

٢٣- **بــاى عنخى**: خلف (حرى حور) كنائب فى حكم السودان وهو ابن (حريحور) ولــم يقدر له أن يصل للعرش بعد أبيه - ويدل هذا على أنه فى أواخر الأسرة العشرين أصبح الفراعنة يضعون الإدارات الهامة فى يد وارث العرش.

هــذا وقد دامت مدة النواب المصريين فى بلاد كوش فترة بلغت نحو (أربعة قرون ونصف قرن تقريباً).

١- د. سليم حسن: ج ١٠ ص ٣٦٣ (طبعة ١٩٥٥).

و(بيعـنخى) بن (حريحور) هو آخر رجل معروف لدينا يحمل لقب ابن الملك صـاحب موش – وإن كان بعض المؤرخين يذكرون أن (أوسر كون- عنخ) كان يحمـل هـذا اللقب أيضاً أثناء حكم الأسرة الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين – لكن لم يمكن التحقق من ذلك.

وقد كانت منطقة نفوذ (نائب الملك) تختلف بإختلاف الأزمان- ففى عهد نائب الملك (حوى) كانت سلطته تمتد من أول (نخن) حتى ما بعد (كارى) أى الى ما بعد منطقة جـبل بركل، وفى بعض العهود وُضعت مناجم الذهب تحت إدارة (نائب الملك) ومن ثم ظهر لقب (المشرف على أرض الذهب لآمون).

وكـان نائب الملك هو المسئول عن توريد (جزية إقليم النوبة)، وكانت الجزية غالـباً تُقدم أمام الفرعون فى احتفال كبير يحضره نائب الفرعون وبعض الموظفين الآخرين من النوبة.

وقد كان يعاون نائب الملك طائفة كبيرة من الموظفين منهم:

أ - (قـائد جـيش الرماة لكوش) – وكان على رأس الجنود الذين فى خدمة نائب الملك.

ب- وكـيلان للنائب يقوم أحدهما على إدارة بلاد (واوات) الممتدة من أسوان حتى الشلال الثانى- والثانى على إدارة بلاد (كوش) الممتدة من الشلال الثانى حتى الشلال الرابع تقريباً.

ج- عـدد كبير من صغار الموظفين- وبعضهم تلقب بألقاب متصلة بوظيفته- وقد جمع الأستاذ- (ريزنر) قائمة بأسماء هؤلاء الموظفين وألقابهم.

وكـل مـا يمكـن استنتاجه من هذه الأسماء والألقاب هو أن الإدارة فى بلاد النوبة فى تكوينها كانت شبيهه بالإدارة المصرية فى مصر ذاتها.

وكان من بين الموظفين الذين عملوا فى بلاد النوبة نوبيون- وصل بعضهم الـى أكـبر الوظائف- وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن نائب الملك (باسر) وكذلك (بانحسى) كانا نوبيين وليس هذا بغريب فقد ثبت أن النوبيين شغلوا حتى فـى مصـر ذاتهـا وظائف هامة- بالإضافة الى انه كان منهم جنود المزوى (الشـرطة) وفـرقاً كاملة من الجيش المصرى كما تدل على ذلك خطابات (تل العمارنة)، وبالإضافة الى ذلك قُسمت بلاد النوبة إدارياً الى خمسة أقسام وكان علـى كل قسم منها أمير نوبى، وكان هؤلاء الأمراء النوبيون تحت سلطان ابن الملـك صاحب كوش ونائبه وكانوا يتوارثون وظائفهم طالما هم موالون لمصر

ويبدو أن أبناءهم كانوا يحضرون لمصر ليربوا فى البلاط ليرثوا آباءهم فى مراكزهم ببلاد النوبة.

وقد تطلبت مستلزمات الأمن فى بلاد النوبة إقامة عدة حصون، وأقيمت الحصون – كما رأينا – فى بلاد النوبة السفلى فى عهد الدولة الوسطى وفى عهد الدولة الحديثة فى مصر أُصلحت هذه الحصون، وأقيمت حصون جديدة فى بلاد كوش فى المناطق التى فُتحت حديثاً، وهذه الحصون التى امتدت من (وداى حلفا) الى (كرمه) كانت مهمتها بالإضافة للدفاع ضد قبائل البدو أو غيرهم من المغيرين الهجوم على أهالى الصحراء وردعهم.

وكان يُلحق ببعض الحصون معابد لإقامة الشعائر الدينية ويُرتب لها ما يلزمها من كهنة وخدم للمعبد.

الاقتصاد النوبى وأثرة فى الاقتصاد المصرى فى عهد الدولة الحديثة:

لاشك فى أن اهتمام مصر ببلاد النوبة منذ أقدم العصور لا يرجع لحب المصرى القديم فى فرض سيطرته على هذه البلاد – لكن (الناحية الأقتصادية) كما ذكرنا لعبت درواً هاماً ورئيسياً فى هذه العلاقات منذ أدرك الفراعنة أهمية منتجات بلاد النوبة، كما أدركوا ضرورة تأمين طرق التجارة بين مصر وهذه البلاد بالإضافة لأهمية استغلال مناجم هذه البلاد ومحاجرها – وكانوا يُدركون أن مصر هى النافذة التى يمكن أن تخرج منها حاصلات هذه البلاد للعالم الخارجى المعروف فى ذلك الوقت – ولعل هذه الأهداف من أهم العوامل التى تحكمت فى العلاقات السياسية بين مصر وبلاد النوبة.

وقد قام بعض علماء الآثار والتاريخ بدراسات على ما استطاعوا الوصول إليه من آثار متعلقة بالحالة الإقتصادية لبلاد النوبة فى عهد الدولة الحديثة وعلاقتها بمصر فى هذا المجال – إذ لم يُعثر على القوائم الرسمية لجزية بلاد النوبة – ومن الآثار التى خدمت فى هذا المجال:

أ – مناظر الجزية الواردة من بلاد النوبة – مثل مناظر معبد قصر أبريم (وترجع لعصر أمنحتب الثانى)، ومقادير الجزية المدونة على صخرة فى (تومبوس) (وترجع لعصر تحتمس الثالث) وغيرها من قوائم الجزية الخاصة بفراعنة الدولة الحديثة بمصر – هذا بالإضافة لقوائم حصر غنائم الحروب.

ب- الإحصـــاءات الخاصة بالذهب (قوائم الذهب) الواردة من بلاد النوبة بقسميها (كـــوش، والـــواوات) خاصة القوائم المتعلقة ببعض سنوات من حكم تحتمس الثالث.

ج- مناظر مقبرة (حوى) نائب الملك فى بلاد كوش فى عهد الفرعون (توت عنخ آمون) – والمقبرة عثر عليها فى (قرنه مرعى) – ومناظر هذه المقبرة تعتبر من أكبر الوثائق التى تمدنا بمعلومات عما كانت تقدمه بلاد النوبة من جزية – وكذلك مقابر حكام بلاد كوش الآخرين.

د – لوحة جبل (برقل) التى أقامها تحتمس الثالث وذكر فيها جزية بلاد النوبة من أوانى مملوءة بالذهب، ومواد معدنية مختلفة وحاصلات هذه الجهات وعطور وغير ذلك.

هـ- منشور (مرسوم) ثورى – الذى صدر فى عهد سيتى الأول وهو خاص بمعبد (أوزير) بالعرابة – وقد تعرض المنشور لتفتيش السفن على الحدود المصرية النوبـــية حيـــث بُنيـــت قلعـــة ليقوم المشرف على القلعة بتحصيل الضرائب المفروضة على هذه السفن.

ومن هذه الآثار نستنتج الحقائق الآتية:

١- كان الذهب – من أهم محصولات بلاد النوبة، وكانت تُرسل منه سنوياً لمصر ضـــمن الجزية المفروضة على بلاد النوبة كميات كبيرة، والكمية التى كانت تـــرد مـــنه من بلاد (واوات) الواقعة بين الشلال الأول والثانى أكثر من التى كانت ترد من بلاد كوش – ويرجع ذلك لوجود مناجم للذهب غنية فى (وادى العلاقى) شرقى كوبان، كما أن مناجم الذهب التابعة لكوش كان الوصول إليها صـــعباً، وكـــان الإلـــه (آمون) معبود الدولة يحصل على مقدار كبير من هذا الذهـــب الـــنوبى، وكان الذهب يرسل لمصر غُفلا أو مصنوعاً فى حلقات أو قضبان.

٢- جـــزء مـــن الجزية – خاصة المتعلق بإقليم واوات كان يقدم فى صورة أشياء مصـــنعة كسهام، ودروع، وموائد، ومساند، وأشياء مصنوعة من الذهب ومن خشـــب الســـنط والســـلات – ممـــا يُعطى فكرة عن الثقافة النوبية وعن تقدم الصناعات المحلية ومدى تأثرها بالصناعات المصرية مع استغلالها لمنتجات البيـــئة المحلية – والصور التى وجدت فى مقبرة (حوى) بالذات تُعطى فكرة واضحة عن ذلك.

٣- من الأشياء التى كانت ترد من النوبة أشياء مصنوعة من الخشب سواء خشب الأبنوس أو السنط أو الدوم أو غيرها – وتحدثنا لوحة جبل (برقل) التى أقامها تحـتمس الثالث عن سفن نقل بأعداد كبيرة ولعل هذه السفن كانت نصنع هناك وتُحمل بالمحاصيل السودانية وتعتبر السفن نفسها جزءًا من الجزية المطلوبة.

٤- مـن المواد التى ذُكرت ضمن الجزية مواد معدنية وأحجار مختلفة الألوان – وبعض هذه الأحجار كان يُستغل فى مصر فى صنع الأصباغ.

٥- ممـا ذكر من واردات بلاد النوبة العطور النوبية، وسن الفيل وكانت الكميات الواردة منه أغلبها من كوش.

٦- كذلك ذُكر ريش النعام وبيضه، وكان الريش يُستعمل فى مصر حلية فى لباس الـرأس وفى صنع المراوح، وقشر بيض النعام كانت تزين به بعض الاوانى، بينما كان البيض ذاته طعاماً محبباً.

وجلود الفهد التى كانت ترد من كوش كانت تُستخدم بوصفها نوعاً من الملبس لدى الكهنة للزينة.

٧- أمـا الماشية كالثيران والبقر والضأن والماعز وغيرها فكانت تأتى من كوش كمـيات أكبر مما ترد من (الواوات) وكانت تصل لمصر فى سفن خاصة – كما كان بعضها يُقدم للمعابد فى بلاد النوبة أو فى مصر كقربان.

٨- ويـبدو أن الغلال كانت بمصر كافية فى اغلب الأحيان بل كانت مصر تصدر الحـبوب لبلاد البجر المتوسط – لكن لا يمنع هذا انه فى بعض الأحيان وجُد (القمح) ضمن القوائم السنوية للجزية.

٩- وكـان العبـيد والإمـاء يُمثلون جزءًا من الجزية فى بعض الأحيان وكانوا يُسـتخدمون فـى مرافق الحياة المختلفة، وفى المؤسسات العُمالية وفى أعمال الغـزل والنسـيج وفـى المعابد، وكان عدد من الفتيان يُدَرب فى مصر على الأعمـال الحربـية وهـؤلاء يُختارون ممن يتمتعون بصفات جسمية خاصة، والمعـروف أن تجارة العبيد كانت معروفة وكان النوبيون أنفسهم لهم عبيد – على أن الشواهد تدل على أن هؤلاء كانوا يعاملون فى مصر معاملة طبية.

وكان أبناء الأمراء النوبيين يؤتى بهم لمصر كرهائن ويُعَدون ليخلفوا آباءهم فى الوظائف الهامة فى بلادهم.

ويمكنـنا أن نـدرك الأهمـية الاقتصـادية لمنتجات بلاد النوبة فى الاقتصاد المصـرى – إذ أصبح ما يرد من بلاد النوبة لا يسد حاجة مصر فقط بل أن بعض

هـــذه الـــواردات مثل الذهب وسن الفيل وخشب الأبنوس، وريش النعام – أصبحت تمـــثل عنصـــراً هامـــاً فى الإقتصاد المصرى إذ كانت هذه المحاصيل تلعب دورًا رئيســـياً فـــى التبادل التجارى بين مصر وبلدان البجر المتوسط وغيرها من البلاد التى كانت لمصر بها علاقات تجارية هامة.

٥

الفصل الخامس
مملكة نباتا النوبية
وملوك الأسرة الكوشية

- اضطراب الأحوال فى مصر - وهجرة كهنة آمون للسودان.
- قيام مملكة نباتا.
- ملوك الأسرة الكوشية.
  (كشتا، بيعنخى، وشبتاكا، تانوت آمون).
- الخطر الاشورى
- حالة مصر بعد انتهاء الحكم النوبى.
- ملوك نباتا المتأخرين.
- ملاحظات عن مملكة نباتا النوبية.
- نهاية حكم ملوك نباتا.
- الحضارة فى مصر والسودان فى عهد ملوك نباتا.

الفصل الخامس
مملكة نباتا النوبية وملوك الأسرة الكوشية

اضطراب الأحوال فى مصر وهجرة كهنه آمون للسودان:

فى أواخر الأسرة العشرين كانت الإضطرابات تعم أرجاء البلاد المصرية بسبب ضعف الملوك – حتى أن احد الأشراف من (تنيس) وهو الذى عُرف فى كتب مؤرخى اليونان باسم سمندس (Simendes) استطاع أن يُسقط رمسيس الثانى عشر مستعيناً فى ذلك بالأجانب الذين ذُكروا فى الآثار المصرية باسم (الأنجاس).

وهرب رمسيس الثانى عشر إلى (طيبة) العاصمة الدينية للبلاد، وتعاون الملك ورئيس كهنه آمون (حريحور) على بسط نفوذهم على الوجه القبلى وبلاد النوبة.

وكان (حريحور) قد جمع فى يديه سلطة نائب الملك فى (كوش) وكبير كهنه آمون والقائد الأعلى للجيش فى آن واحد إذ حل محل كل من (بينحسى) نائب الملك فى كوش و(أمنحتب) كبير كهنه آمون، وأصبح حريحور فى الحقيقة يحكم مصر العليا باسم الملك رمسيس الثانى عشر الملتجئ إليه.

وتتضح لنا الخطة التى اتبعها (حريحور) ليصل للسلطة من النقوش التى عُثر عليها بمعبد (خونسو) بالكرنك إذا يبدو أن (حريحور) كان قائداً أعلى للجيش، لكنه لمس أن الكهنة أصبحوا أصحاب الشوكة والسلطان، وان (أمنحتب) الكاهن الأكبر لآمون كان له من التقوذ ما يوازى بل يزيد على نفوذ الفرعون، حتى أنه رسم صورته على جدران المعابد بحجم مساو لحجم صورة الفرعون – الأمر الذى لم نعتده من قبل – فسعى لأن يخلفه فى وظيفة الكاهن الأكبر لآمون ونجح فى ذلك فكان هذا النجاح بداية لتوليه مقاليد الأمور فى مصر، وجمع (حريحور) فى يديه كل الأمور الإدارية والدينية فأصبح قائدا لقوات مصر وواليا على كوش ورئيساً للخزانة ومُشرفاً على عمارات المعبودات.

وبعد موت رمسيس الثانى عشر نصب (حريحور) نفسه ملكاً على مصر العليا، وبدأ فى مصر عصر جديد يُطلق عليه بعض المؤرخين اسم (عصر النهضة ويُعتبر (حريحور) بذلك مؤسس الأسرة الحادية والعشرين التى بقيت على عرش مصر ما يقترب من قرنين ونصف قرن، وقد وجُد اسمه فى معبد (خونسوا) مكتوباً فى خانة ملكية ومسبوقاً بالألقاب الفرعونية.

وحين أصبح الأمر بيد (حريحور) أراد أن يُوطد سلطان أسرته فى مصر فعين ابنه قائداً للجيش وكاهناً أكبر لآمون ليسير فى نفس الطريق الذى سار فيه هو[1].

على أن الانقسام الذى إنتاب مصر والخلافات على العرش أدت إلى تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها - خاصة أن رئيس كهنه آمون حكم البلاد بطريق الشعوذة دون اعتبار للعدل والقانون - فكانت شئون البلاد يؤخذ فيها رأى آمّون فالأمر الذى يوافق عليه كان يحرك له رأس تمثاله للأمام فينفذ فوراً.

ومن مظاهر التدهور الذى ساد البلاد يومئذ سرقات المقابر الملكية حتى لم تُترك مقبرة دون العبث بمحتوياتها مما اضطر الكاهن الأكبر لآمون أن يتخذ إجراءًا جريئاً بنقل موميات الملوك وتكديسها فى مخبأ كبير فى الدير البحرى[2].

لكن هذا الإجراء أدى لاستياء كهنه آمون إذا كانوا يقومون بطقوس دينية مختلفة فى مقابر الملوك فى مناسبات متعددة وكان هذا العمل بالطبع يُدر عليهم أموالاً ضخمة تمتعوا بها سنين طويلة كما يُضفى عليهم سلطة كبيرة، هذا وقد عثرنا على أوراق بردية متعددة خاصة بسرقة المقابر الملكية وغيرها من مقابر الأفراد، والإعتداء على المعابد بالسلب والنهب، وعن المحاكمات التى أجريت بهذا الخصوص ابتداءًا من السنة الرابعة عشرة من حكم الملك رمسيس التاسع واعترافات اللصوص - ولكن رغم ذاك استمرت حوادث السرقة واتسع نطاقها. فإن العمال الذين كانوا يشتغلون فى حفر المقابر الملكية وغيرها - الذين أصابهم الفقر بسبب حالة الاضطراب التى اجتاحت البلاد - لم يجدوا لهم مخرجاً إلا فى نهب المقابر والاستيلاء على ما بها من ذهب ونفائس.

وقد عثر على قوائم بأسماء اللصوص الذين تخصصوا فى سرقة المقابر - والطريف أن أحدهم أشار فى التحقيق معه إلى أن نصف سكان طبية على الأقل يُمارسون نفس العمل.

وكانت السرقات تُباع - كما هى الحال فى عصرنا هذا - لتجار الآثار، وزعم أن اللصوص كانوا يُعاقبون بالجلد والتهديد بإرسالهم إلى (كوش) ليعترفوا على ما

١- د . سليم حسن : ج ٨ ص ٦١٨.

٢- الصدفة الـتى قادتنا للوصول إلى هذا المخبأ فقد عُثر أحد لصوص المقابر فى صيف (١٨٧١) على هذا المخبأ واكتشفت مصلحة الآثار المصرية الأمر فى يونيه (١٨٨٠) فعملت على نقل الموميات والتوابيت والأثاث الجنائزى وأوراق البردى إلى المتحف المصرى، وأدى فحص هذه الموميات إلى الكشف عن كثير من خفاياً التاريخ المصرى القديم.

اقــترفوا وعلى شركائهم فى الجرائم فقد ازدادت حوادث السرقة بشكل أدى لاتخاذ الإجــراء الــذى أشرنا إليه والخاص بنقل موميات الملوك لمخبأ خاص وتكديسها هناك – هذا ونشير إلى أن الدوريات الخاصة بمحاكمات لصوص المقابر فى مصر القديمــة فى هذه الفترة بالذات اتخذت كمادة طبية لدراسة نظام المحاكمات الجنائية فى مصر القديمة.

علــى أن التذمر من هذه الإجراءات التى أُتخذت وما أصاب الكهنة من خيبة أمــل بسببها وصل لدرجة أنهم فضلوا أن يهجروا طيبة وينتقلوا لمكان يجدون فيه مجــالاً أوســع لنشاطهم. وبينما كان الشمال مقفولاً أمامهم – بسبب الاضطرابات المــتعددة التى كان يموج فيها خاصة أن أعدادًا كبيرة من (الليبيين) بدأت تفد على الدلــتا وتســتوطنها، كما كان عدد كبير منهم قد دخل فى الجيش المصرى – فان الجنوب كان مفتوحاً على مصراعيه أمام كهنه آمون.

ونحــن نعلــم انه ابتداءًا من عصر الأسرة الثانية عشرة كانت عبادة آمون قد آخذت تنتشر فى بلاد النوبة وشُيدت لهذا الإله – الذى كان يُعزى إليه فضل حماية الجــيوش المصــرية فى البلاد الأجنبية وتحقيق النصر لها – المعابد المتعددة فى مــناطق مختلفة من السودان، وظل هذا الإله (آمون) يتمتع بنفوذ كبير فى السودان مدة تقرب من خمسة عشر قرناً.

ولهــذا كان من المؤكد أن أهل النوبة سوف يستقبلون كهنه آمون بكل ترحاب فهم قادمون من طيبة المركز الرئيسى للديانة المحببة إلى نفوسهم.

وقــد علمــنا أنه بعد طرد الهكسوس من مصر وقيام الآسرة الثامنة عشرة حــرص ملوكها على إقامة القلاع والمعابد فيها بين الشلال الأول والرابع وكان كهنة هذه المعابد قد جاءوا من طيبة نفسها – لذلك تكونت مراكز (محلات) دينية تديــن بديانــة آمــون رع فى كلبشة، جرف حسين، دكه، ووادى السبوع، الدر، بوسميل، ووادى حلفا، سمنه، مروى وغيرها (مواقع هذه المراكز موضحة على الخريطة).

علــى أن كبار كهنه آمون الذين قدموا للسودان لم يجدوا فى هذه المحلات ما اعتادوا عليه من رفاهية فى طيبة مما اضطرهم للبحث عن مكان آخر أكثر ملاءمة فاســتقر بهــم المقام فى (نباتا) وهى مدينة كبيرة تقع قرب الشلال الرابع، وكانت مُعتــبرة عاصمة للسودان المصرى منذ استقرار الحكم المصرى فى السودان إبان عصر الأسرة الثامنة عشرة.

وكانــت تتمتع بمناظر خلابة بالإضافة لمناخها الرائع، فالنيل يجرى بجوارها ونحيط بها المزارع الواسعة من كل جانب – كما أنها تقع فى مفترق طرق القوافل الآتية من الجنوب أو الذاهبة من الشمال للجنوب مما أدى لثراء أهلها.

وبانــتهاء الأسرة الحادية والعشرين المصرية التى أسسها كهنة آمون وسقوط سلطانها أخذ الكهنة يتدفقون على السودان الشمالى و(نباتا) بالذات حاملين معهم كل ما أمكنهم حمله من أدوات كانوا يستخدمونها فى المعابد المصرية وتتعلق بالطقوس المخــتلفة، بالإضافة للكنوز التى كانت تفيض بها معابدهم، وبذا نزحت الكثير من كــنوز هذه المعابد – ورحيل جانب كبير من رؤساء كهنة آمون من طبية (لنباتا) أضــعف شــأن هــذه العبادة فى مصر بقدر ما بدأ شأنها يقوى فى مركزها الجديد بالسودان الشمالى.

تطور الأحداث فى مصر وفى بلاد النوبة :

تطــورت الأحداث فى مصر وفى بلاد النوبة تطوراً سريعاً يمكن أن نوجزه فيما يلى:

١- ففى مصرّ كانت الأحوال تتدهور من سئ لأسوأ إذ لم يصل للعرش المصرى فــرعوى قــوى يمكنه أن يُعيد النظام والأمن لنصابهما ووصل الأمر إلى أن استطاع أحد (الليبيين) من أن ينشر نفوذ أسرته على الدلتا وأن يحكم من هناك مُتخذاً (تل بسطة) بشرق الدلتا عاصمة له، ويعتبر بعض المؤرخين بداية حكم (شيشنق الأول) الليبى بداية الأسرة الثانية والعشرين فى مصر.

وقــد ظل الليبيون يحكمون البلاد المصرية حوالى قرنين من الزمان، لكن فــى أثناء حكمهم دب الانقسام فى ربوع البلاد، فعادت السلطة لحكام الولايات كما يحدث دائماً فى عصور الضعف، هذا وقد كان الكهنة الذين بقوا فى طيبة وكــان لهم النفوذ فى مصر العليا يقفون فى وجه أية محاولة من ملوك الوجه الــبحرى لبســط ســلطانهم على الجنوب- ولم يكن لهؤلاء الملوك بالفعل أى سلطان فى الوجه البحرى نفسه أو فى الوجه القبلى.

٢- اســتغل الأمــراء الوطنيون فى (نباتا Napata) هذه الظروف خاصة بعد أن أصــبحت (نباتا) مقراً لكبار كهنة آمون – فأعلنوا أنفسهم حُكاماً مُستقلين على مناطقهم.

٣- أخــذ هــؤلاء الحكام يعملون لبسط سلطانهم تدريجيًا على الأقاليم الممتدة من الشلال الأول حتى النيل الأزرق جنوبًا.

٤- قويـت عبادة آمون النوبى، وقد رأيناً أن شطراً كبيراً من الثروة التى تنعم بها معـابد آمـون فى مصر كانت ترد من مناجم الذهب بالنوبة التى ضمت لهذه المعابد وسُميت (أرض آمون الذهبية).

٥- أصبح حكام نباتا يصرحون بأن (طيبة) العاصمة الدينية وما يقع جنوبها يُعتبر مـن ممـتلكاتهم- وفعلاً حاولوا أن يجعلواً (إقليم دنقلة) الخصيب صورة من مصر العليا- وكانت الظروف كلها ملائمة لمثل هذه المحاولة الجريئة فالنفوذ المصرى امتد إلى مديرية دنقلة من عصر (سنوسرت الثانى) الذى عين (حاب جـافى) أمـير إقلـيم سـبوط حاكما عاما على بلاد النوبة والذي كون لنفسه عاصمة فى (كرمه) الواقعة فى هذه المديرية واستمرت مصر تحكم النوبة مدة تنيف على ألف وثمانمائة سنة.

ونتيجة لهذا كله أصبح سكان هذا الجزء مختلطين بعناصر مصرية كثيرة، وكانوا على أتم الاستعداد لان يحكموا تبعاً للديانة والعادات والتقاليد المصرية الـتى اعتادوها من أكثر من خمسة عشر قرناً، وكان بكل مدينة نوبية تقريباً معـبد مصـرى وعلـى الـرغم من محافظة النوبيون على فنهم فإن اللسان المصرى صار اللغة الرسمية.

٦- ونظـر النوبيون لمدينهم (نباتا) بإعتبارها طيبة النوبية – ولم لا؟ وفيها آمون النوبى – يقوم على خدمته كهنة آمون الأصليون.

وقـد عرف النوبيون خلال الحكم المصرى أهمية بلادهم فأقبلوا على استثمار خـيراتها وتشـربوا الحضـارة المصرية، بل كما ذكرنا جرت فى عروقهم الدماء المصـرية[١] ووصـل الأمـر إلى أن حاكم الكوش اتخذ لنفسه لقب فرعونى، لقب (حريحور) ونعلم أن هذا لقب أول كاهن مصرى تمكن من الوصول للعرش، وكان لهـذه التسمية هدف سياسى ودينى بعيد – وشيدوا معابدهم على الطراز المصرى وزينوها بالرسوم المصرية والنقوش الهيروغليفية.

وهكـذا بيمـنا كان زعماء مصر يتصارعون من أجل السيادة كان أمراء الـنوبة يُدعمـون قوتهـم ومركزهم وينشرون سلطانهم على الأقاليم المجاورة متحينيـن الفرصة المؤاتية لبسط نفوذهم على أرض مصر ذاتها إن استطاعوا لذلك سبيلاً.

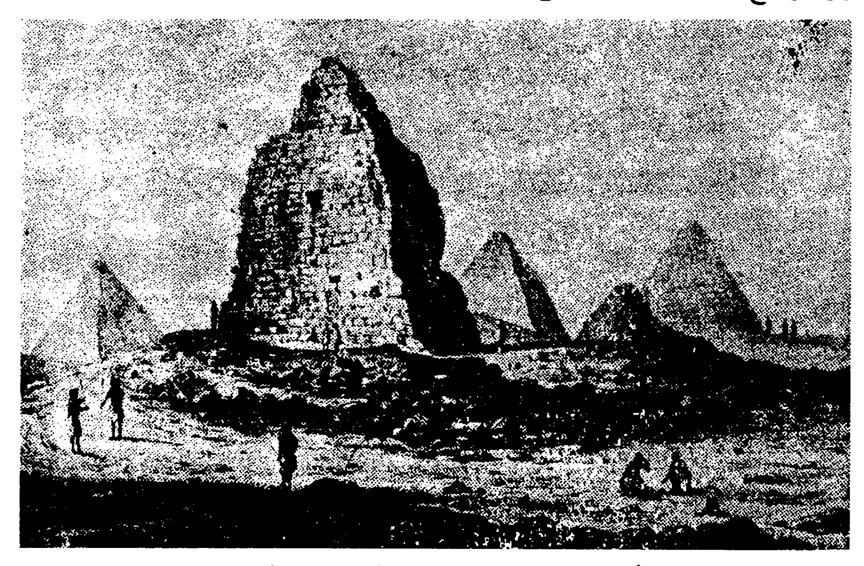
١- أدولف إيرمان: مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة (مترجم ص ٥٧٧). بدون تاريخ.

قيام مملكة نباتا :

ظلــت معلوماتــنا عن الأسرة المالكة الكوشية التى اتخذت (نباتا) عاصمة لها والتى استطاعت أن تمد نفوذها لمصر مكونة الأسرة الخامسة والعشرين – غامضة ومضطربة إلى أن استطاع الأستاذ (ريزنر) أن يكشف الجبانات الملكية الواقعة فى منطقة (نباتا) فألقى هذا الكشف الضوء على كثير من الظلال التى كانت قائمة، كما صــحح الكثير من المعلومات التى كانت متواترة عن تاريخ الأسرة الكوشية وعن حضارتها.

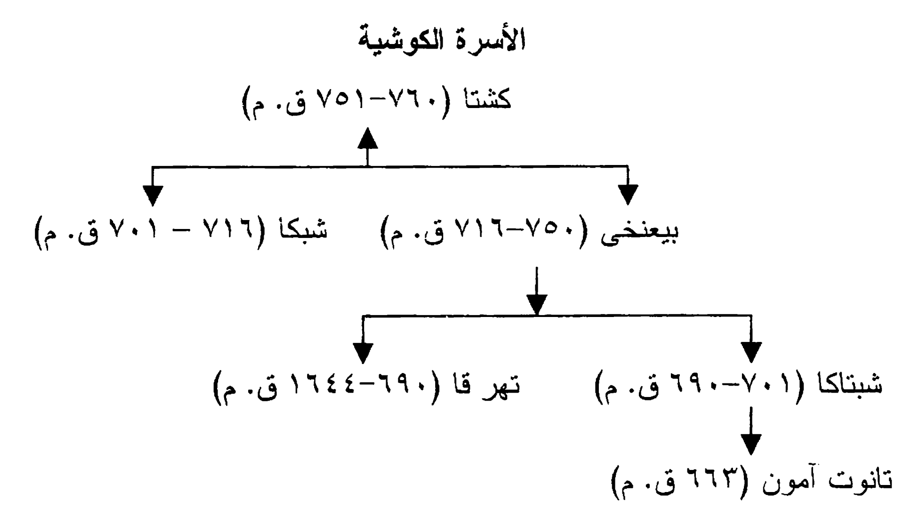
ومــن أهــم مــا كشــفت عنه هذه الجهود الأهرام الأربعة للملوك (بيعنخى) و(شــبكا) و(شــبتاكا) و(تانو تآمون) وقد وجدت فى بلدة (الكورو) الواقعة جنوب (نــباتا) على الضفة اليسرى للنيل وتقابلها على الضفة الأخرى مدينة (نورى) حيث عثر ريزنر فى عام ١٩١٧ على مقبرة الملك (تهرقا).

وقــد يَسرت الكشوف التى عُملت فى هذه الجهات على العلماء تتبع تطورات المقــبرة الكوشــية مــن (المقــبرة التلــية) إلى (المصطبة) ثم (المقبرة ذات حفرة وســلم)حــتى اتخــذت الشكل الهرمى ذات السلالم الذى اشتهرت به أهرام ملوك (كــوش) ومنْ الملاحظات العامة التى وصلنا إليها من هذه الاكتشافات إنه منذ عهد (بيعنخى) كان هناك فصل بين مقابر الملوك ومقابر الملكات هذا وقد عثر على عدة قبور يرجح أنها لأجداد بيعنخى.



بعض أهرامات (نورى) كما رآها الرحالة (هوسكنس)

وقـد حـاول (لبسـيوس)[1] وضع قائمة بأسماء ملوك الأسرة الكوشية ومدة حكمهـم، أقر بروكش[2] هذه القائمة، لكن المقابر التى عثر عليها فى بلده (الكورو) وفـى مديـنة (نورى) صححت الكثير من معلوماتنا عن هؤلاء الملوك ويمكن أن نسلسل ملوك الأسرة الكوشية الذين حكموا مصر وكوش هكذا:



الملك كشتا :

لا تكـاد المعلومـات التى تمرنا بها الآثار تجعلنا تتعرف على الظروف التى اسـتطاع بهـا رأس الأسـرة المالكة الكوشية أن يتحبب إلى باقى أمراء النوبة أو يتغلـب عليهم وينصب نفسه ملكاً على عرش جديد هو عرش (إله النوبة) – ويعتقد (ريزنـر من أبحاثة فى جبانات هذه الأسرة الكوشية أن بداية نفوذ هذه الأسرة فى (نـباتا) يُعاصـر حكـم (شيشـنق الأول) مؤسس الأسرة الليبية أى الأسرة الثانية والعشـرين فـى مصـر – لكن الملك (كشتا) الذى كان معاصراً لحكم (أوسر كون الثالـث) فـى مصر هو الذى بدأ الزحف على مصر، ولعل الأسرة الكوشية التى

١- ريتشـارد لبسـيوس (R. Lepsius) عـالم ألمانى أوفدته حكومة بروسيا على رأس حملة علمية لمصر لدراسة آثار مصر والنوبة، فوضع وصفاً شاملاً للآثار وسجل نقوشها ورسومها فى عده مجلدات ضخمة (أثنى عشر جزء) وذلك فى الفترة من (١٨٤٢- ١٨٤٥).

٢- بـروكش (Brugsch) عـالم ألمانى آخر – يرجع الفضل إليه فى إنشاء مدرسة فى مصر لتثقيف المصريين– وقد خرجت مدرسـته أول العلماء الأثريين المرحوم (أحمد كمال باشا) وكان له الفضل فى قراءة الكتابة الديموطيقية عام (١٨٤٩)، وله قاموس فى اللغة المرية القديمة.

استطاعت أن تصل للسلطة فى بلاد كوش انتظرت حتى سنحت الظروف بالزحف على مصر.

وقد استطاع (كشتا) أن يمُد سلطانه فى مصر حتى طيبة وأن يُمهد لابنته أمنردس (Amen Rades) لتقلد منصب رئيسة كهنة آمون (المتعبدة الإلهية) بعد وفاة (شبنوبت) ابنة أوسر كون الثالث التى كانت تتولى هذا المنصب.

وقد وجدت عدة آثار لكشتا مع ابنته (أمنردس).

بيعنخى :

حوالى عام ٧٥ ق. م أصبح بيعنخى (Piankhi) أقوى أمراء بلاد النوبة، وقد عثر الأستاذ (ريزنر) على قبره فى جبانة (الكورو)، كما عثر فى جبل (برقل) على لوحة ضخمة دُون عليها بالتفصيل وبالخط الهيروغليفى انتصاراته على ملوك مصر السفلى والوسطى، وحذا بيعنخى حذو الفراعنة المصريين فكتب اسمه فى خرطوش ملكى- بل إنه اغتصب لنفسه اللقب المصرى البحت (ملك الشمال والجنوب)، كما أن زوجته كينست (Kensat) اغتصبت ألقاب الملكات المصريات[1].

وتدل هذه المحاولات كلها دلالة واضحة على أن أمير أو ملك بلاد النوبة الذى كان يحكم هذه البلاد فى القرن الثامن ق. م حاول بكل الوسائل أن ينتسب للأسُرات الملكية الفرعونية القديمة وأن يستعمل نفس ألقاب الفراعنة ولو أنه ربما كان يجهل مدلولاتها.

وامتدت سلطة بيعنخى تدريجياً للشمال، وكانت مدينة (هيرا كليوبوليس – أهناسيا المدينة) الحد الشمالى- بل لقد قاد حملة كبيرة متوجهاً صوب الشمال- وأخبار هذه الحملة منقوشة على شاهد من الجرانيت ارتفاعه خمسة أقدام وعشر بوصات وعرضه ستة أقدام، أمر بيغنخى بنصبه فى معهد كبير أعاد بنائه فى المنطقة المعروفة باسم جبل (البرقل) بالقرب من (نباتا)، ووصف هذه الحملة منقوش بالتفصيل على جهات الشاهد الأربع باللغة الهيروغليفية، وقد عثر على هذا الحجر فى عام ١٨٦٢ بطريق الصدفة- ضابط مصرى كان يعمل فى الجيش المصرى بالسودان فى عهد سعيد، ويبلغ طول معبد بيعنخى ٥٠٠ قدم وعرضه ١٣٥ قدم ونقل لمتحف الآثار المصرية، وهو من أطول النصوص المصرية وأهمها قيمة من الناحية

1- Budge: Vol. 11. P. 5.

التاريخية. فهو يتحدث بتوسع عن هذه الفترة من التاريخ المصرى النوبى- ولم نعثر علـــى نـــص مصـــرى يتـــناول هذه الفترة من الوجهة المصرية ليمكن المقارنة بين الاثنين، وعدد سطور النص تسعة وخمسون سطرًا[١].

وفـــى الجزء الأعلى المستدير من هذه اللوحة توجد صورة (لآمون) رب نباتا وخلفه زوجه (موت) والملك بيعنخى يقف أمام الإله آمون يتقبل منه المديح.

ويذكـــر النهن أن بيغنخى سليل الإله أتاه رجل فى السنة الواحدة والعشرين من حكمـــه وأخـــبره أن مصر فى فوضى إذ أن تفنخت (Tafanekth) أمير سايس الذى يحكـــم المناطق الشمالية من الدلتا حتى (منفيس) قد أخذ يتجه للجنوب مع عدد عظيم من جنده ليسيطر على الأقاليم الجنوبية، وأن بلاد النوبة نفسها قد تكون فى خطر من جراء هذا الزحف- ويذكر النص أن تفنخت بعد أن سيطر على معظم مقاطعات الدلتا انحـــدر جـــنوباً واســـتولى على (منف) ثم زحف على مصر الوسطى فاستولى على (مـــيدوم) و(الفيوم) وسلمت له هذه البلاد بدون قيد ولا شرط وأكمل زحفه محاصراً (اهناســـيا المديـــنة)، وأن الأمير (نرموت) ملك الأشمونين الذى كان موالياً لبيعنخى أعلـــن ولاءه لتفنخت، وأن كل رؤساء بلاط بيغنخى المدنيين والعسكريين أرسلوا له رســـلاً يـــرجونه إلا يقف مكتوف الأيدى حتى لا تسقط مصر كلها فى قبضة الأمير الشمالى (تفنخت) – وأنه حين وصلت هذه الأنباء أرسل لقواده الذين كانوا بالفعل فى مصر يأمرهم بالزحف على (الأشمونين) وأن يقفوا بجيوشهم أمام قوات تفنخت لمنعه مـــن الـــتوغل جنوباً – كما أعد جيشاً آخر ليرسله من (نباتا) لمصر- ويستمر النص بعـــد ذلك ذاكراً النصائح الكثيرة التى أسداها بيغنخى لجنوده آمراً إياهم بأن يحاربوا بشـــجاعتهم المعروفة مذكراً إياهم بأن حروبهم هذه من أجل آمون العظيم، وحدد لهم صيغ الأناشيد التى يجب أن ينشدوها فى حفلاتهم لآمون عند دخولهم طيبة وهى كما يـــأتى "لتفتح أمامنا الطريق ولتجعلنا تجارب فى ظل سيفك فإن ابنك الذى أرسلته إلينا هو الذى سيقهر الجموع الحاشدة[٢]".

وبـــالفعل وصلت جنود بيغنجى إلى (طيبة) وتعبدوا لآمون ثم أبحروا فى سفن عديـــدة للشمال والتقوا بجيوش (تفنخت) ومن تحالف معه من زعماء وأمراء الدلتا

١- توجد ترجمة كاملة لمحتويات هذا النقش فى:

Budge: Vol. 11. pp (11-26)

٢- كان بيغنخى فى ذلك الوقت فى (نباتا) عاصمة ملكه وكانت تخضع له الاجزاء الجنوبية من مصر حتى طيبه، فالرسول الذى أخبر بيغنخى عن تحركات (تفنخت) ومحاولاته للسيطرة على مصر كلها – كان مرسلاً من ضباطه وقواد جنده بطيبه.

الذين كانوا يحاصرون مدينة (إهناسيا) وهى إحدى مدن مصر الوسطى بالقرب من بـنى سـويف - وانتصـرت جيوش بيعنخى وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من جنود (تفنخـت) وحلفائـه وسفنهم وتقدموا شمالاً صوب (منفيس) ولما وصلت (بيعنخى) أخـبار انتصـارات جيشه أسرع بالحضور بنفسه لمصر، وفى طيبه قدم هدايا لا حصر لها لآمون، وأبحر (للأشمونين) حيث كانت جيوشه تُحاصر المدينة فاشترك فـى حصارها حتى سقطت فى يده وطلب أميرها المدعو (نرموت) العفو وقدم عدة هدايـا لبيعـنخى من الذهب والأحجار الكريمة كما قدم تاجه نفسه ولم يقبل الملك الكوشى الصلح إلا بعد أن ذهبت زوج الملك (نرموت) وابنته لزوج الملك بيغنجى تطلبان التوسط لدى الملك للعفو- كما تقدم (نرموت) نفسه وسجد على الأرض أمام الملـك فقـبل الملك الصلح ودخل (الأشمونين) وقدم القرابين للإله (تحوت) وزار معـالم المدنـية وتقدم إلى منطقة (اللاهون) إحدى مدن الفيوم فسلمت له المدينة ثم سـلمت (مـيدوم) - واتجـه شمالاً إلى (إثت تاوى) عاصمة الأسرة الثانية عشرة فسلمت له أيضاً ثم إلى (منف)، وحاول التفاهم والتفاوض مع أهلها لدخولها، وتقديم القرابيـن للاه (بتاح) دون أن تتعرض المدينة لمعركة حربية، ولكن أهل المدينة لم يُصـدقوا وعـده واستمروا فى المقاومة خاصة أ المدينة كانت محصنة ومعده أتم إعـداد لاحـتمال الحصـار الطويل، وعقد (بيغنخى) مؤتمراً حربياً تشاور فيه مع ضـباط جيشـه فى الخطة التى تُتبع وأخيراً استطاع (بيعنخى) بمعاونة أسطوله أن يخضع (منف) وفعلا ذهب لمعبد بتاح وقدم القرابين لهذا الإله.

وقـد وصـف لـنا (بيعنخى) بالتفصيل جميع الطقوس الدينية التى كانت تُقام هـناك، وبعد ذلك ذهب (بيعنخى) إلى معبد الإله (رع) فى عين شمس وقدم الهدايا أيضـاً ودخـل قـدس الأقـداس وأقام صلوات عديدة، فتقدم أمراء الدلتا مُظهرين الاحـترام والإكرام لبيعنخى، وزار بيعنخى أتريب (بنها) حيث قَدم له خمسة عشر أميراً من أمراء الوجه البحرى خاضعين حاملين جزيتهم من ذهب وفضة بالإضافة للخـيول، أمـا (تفنخت) فقد هرب لمكان يقع بين المستنقعات عند البحيرات المرة على أمل أن يستطيع معاودة الكرة فى محاربة الملك النوبى، لكنه حين تأكد ألا أمل لـه أعلـن خضوعه للملك النوبى وأرسل يستعطفه ويقول له إنه اضطر لأن يأكل الخبز اليابس ويلبس الخرق ويسير حاسر الرأس وقبل بيعنخى استعطافه وأرسل له رسـله ليتسـلموا مـنه الجزية وليقسم أمام مقصورة الالة بألا يعاود مقاومة الحكم النوبى ثانية، وبذا أصبحت مصر كلها فى قبضة الملك النوبى فوضع فيها حاميات من الجنود الكوشيين فى المراكز الرئيسية.

وبعـــد ذلـــك حمـــل الملك بيغنخى سفنه بكميات كبيرة من الجزية من الفضة والذهـــب والنحاس والملابس التى وصلت إليه وأبحر نحو الجنوب وقابله الناس فى كل مكان بالسرور.

وهكـــذا أصبح (بيعنخى) يحكم إمبراطورية تمتد من البحر المتوسط شمالاً إلى (نـــباتا) جـــنوباً- وهـــى نفس الحدود التى تتكون منها الدولة المصرية فى أزهى عصـــور الأســـرة الثامنة عشرة إلا أن ملك مصر لم يكن مصرياً بل كان سودانياً، ولـــم يحكـــم (بيعـــنخى) من طيبة بل عاد إلى (نباتا) وقسم الغنيمة التى غنمها إلى قســـمين:- فالنصيب الأوفى كان من نصيب الإله آمون، أما الجزء الثانى فكان من نصيب الآلهة الأخرى.

هذا وقد كُشف عن مقبرة فى جبانة (الكورو) - لكن وجُدت محتوياتها منهوبة تمامـــاً- وعُـــثر على بعض الآثار الأخرى منقوشاً عليها اسم بيعنخى كما عُثر فى (الكورو) على جبانة الخيل الخاصة ببيعنخى ومن خلفه من ملوك الكوش.

لكن أهم أثر له هو معبده الذى بناه على سفح جبل البرقل (لآمون رع)، وهذا المعـــبد الضـــخم يكـــاد يكون محطماً الآن، لكن وصف ورسم الأثريين من أمثال (Cailliaud) و(Hoskins) و(Lepsius) الذين شاهدوه فى حالة أفضل يُعطى فكرة عـــنه، ويبدو أن طوله كان يبلغ ٥٠٠ قدم وعرض أكبر قاعاته ١٣٥ قدماً، وعلى جانـــبى المدخل تمثالان لأسدين، وعلى الحوائط نُقشت أخبار معارك بيعنخى بنفس الطريقة التى سجل بها ملوك الأسرة الثامنة عشرة انتصاراتهم[1].

ويذكر (إمرى) أنه كما كانت مصر تعين حاكماً للنوبة يلقب (ابن الملك الحاكم فى كوش) كذلك عين ملك للنوبة نائباً عنه لحكم مصر[2].

وبعـــد رحيل (بيغنخى) عن مصر استطاع تفنخت أن يعيد بسط سلطانه على الدلـــتا مـــن جديد، بينما استمر الصعيد من مدينة (إهناسيا) جنوباً خاضعاً لسلطان بيعـــنخى - ويُـــرجح بعـــض المؤرخيـــن أن بيعنخى هو الذى عَين أخته المدعوة أمنارديس (Amenardis) كبيرة للكهنة بطيبة (الزوجة الإلهية لآمون بطيبة) ولعل الدافـــع لهـــذا هو الاستيلاء بطريق شرعى على خيرات آمون وليضمن نفوذه على كهـــنة آمـــون - علـــى كل ليس لدينا ما يؤكد أن هذه الحادثة وقعت فى عهد فتح بيعنخى لمصر أم فى عهد الملك كشتا.

1- Budge: Vol. 1. P. 144.

2- Emery: P. 24.

على أن الأمور لم تستقر بمصر بل انتابتها الاضطرابات والمنازعات الداخلية فـــى الوقــت الذى بدأ خطر آخر يظهر فى الأفق فقد كانت دولة (آشور) قد أخذت تظهر كدولة عظيمة وأخذت تمد نفوذها على الشام وتطرق أبواب مصر.

الملك شبكا :

تولى الحكم بعد الملك بيعنخى الملك (شبكا) (Shabaka) بن (كشتا) الذى تلقب بلقب (ملك مصر والنوبة) واتخذ (نباتا) عاصمة له، لكنه اضطر لأن يخرج لمصر ليعيد إخضاع البلاد الشمالية وكان (بوكوريس) قد خلف أباه تفنخت فى الحكم فى الدلتا، وفعلاً تمكن من إخضاع البلاد الثائرة وقيل أنه أسر (بوكوريس) وحرقة حياً عقابـــاً على شقه عصا الطاعة على الكوشيين ووصل لطيبة واستقر فيها فترة من الزمن يحكم منها مصر والسودان، وامتاز بإصلاحاته المتعلقة بالزراعة فسن قانوناً يحـــتم أن يعمـــل المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام فى الحقول الملكية والجسور لحمايـــة الـــبلاد التى يغمرها الفيضان، وقد استفادت من ذلك مدن كثيرة مثل مدينة (بوبسطس) فى الدلتا التى كانت تغمرها مياه الفيضان من حين لآخر، وقد بنى فيها معبداً تحدث عنه المؤرخ (هيرودوت) حين زار المدينة عام ٢٤٢ ق. م[١].

وقـــد شـــيد (شـــباكا) عدة أبنية ضخمة فى (بوبسطس)، ومنف، وطيبة حيث أضـــاف لمعـــبد الكـــرنك جـــزءًا لا يزال يحمل اسمه، وقد شاركته فى هذا العمل (إمـــنارديس) الـــتى ذكرنا أنها تقلدت هذا المنصب الدينى الكبير فى طيبة منصب رئيسة كهنه آمون، ويبدو أن مشروعاته الكثيرة فى مصر لم تترك شيئاً من نشاطه وجهده لبلاد النوبة.

وفى عهده بدأت دولة آشور تمد سلطانها على أمم الشرق الأدنى ولا شك فى أنهـــا كانـــت تطمع فى مصر، واتصل (شباكا) بملك الآشوريين المدعو (سرجون Sargon) ونســـتدل على هذا الاتصال من الأختام الاسطوانية الشكل المنقوشة باسم الملـــك النوبى والتى عثر عليها فى مخلفات المكتبة فى (نينوى) عاصمة آشور مما يدل على أن الملكين تبادلا الهدايا[٢].

وتطـــور العلاقـــات بين الآشوريين وحكام مصر فى ذلك الوقت غير واضحة كـــل الوضـــوح لكن نعتقد أن العاهل الآشورى (سرجون) قد تقدم للحدود المصرية

1- Budge Vol 2, P. 28.

2- Ibid P. 30.

واســتطاع أن يُوقع الهزيمة بجيش شبكا – وقد شجع هذا الإنتصار الأمير (تفنخت) على شق عصا الطاعة من جديد فجمع حوله حكام مقاطعات الدلتا وعقد صلحاً مع الملــك الآشــورى (سرجون) وقدم له الهدايا، وقد حكم فى الدلتا بعد (تفنخت) ابنه لكن استطاع الملك شبكا أن يقبض عليه وبقتله بعد أن حكم سبع سنوات.

ويخــبرنا (ديــودور) الصــقلى عن صفات الملك (شباكا) فيذكر أنه أتصف بــالعطف والــتقوى والــزهد، ويذكر أن الملك حلم فى إحدى الليالى حُلماً مزعجاً ملخصه أنه لا يستطيع أن يحكم من طيبة مدة طويلة أن لم يتخلص من كهنه آمون ولذلــك ولكــى لا يسئ إلى الكهنة فضل أن يترك مصر ويذهب (لنباتا) عاصمته الأولــى حيث مات هناك بعد أن حكم مصر ما يقرب من خمس عشرة سنة وخلقه ابن أخيه شبتاكا (shabataka).

شبتاكا :

اشــترك (شــبتاكا) مع عمه (شباكا) فى الحكم فترة من الزمن وقد عُثر على لوحــة نقلــت إلــى متحف برلين عليها (خرطوش) الملك (شباكا) والملك (شبتاكا) متجاوريــن – وقــد اكتســب شباتاكا من ذلك خبرة، واشترك مع عمه فى أعمال التعمير والبناء التى قام بها شباكا فى معبد الكرنك وغيره من المعابد المصرية.

هــذا وقــد زاد خطر الآشوريين إذ أخذت الدولة الآشورية تتسع على حساب ســوريا وفلســطين وموانــى البحر المتوسط وكان على عرش أشور ملك يدعى سنحريب (Sanherib)[1].

وقد انضمت مصر للحلف الذى تألف للوقوف فى وجه الآشوريين فقد تحالف ولاة سوريا وحاكم ولاية يهوذا (حزقيال) مع الفرعون المصرى النوبى للوقوف فى وجه الخطر الاشورى، لكن سنحريب بعد أن فرغ من إعادة بناء عاصمته (نينوى) اتجه بجيشه لملاقاة أعدائه وكان حوالى عام ٧٠٠ ق. م. فزحف على مدن فلسطين واســتطاع أن يهــزم أعداءه وأن يحاصر (بيت المقدس) وأن يرسل قوة من جيشه لحصــار مديــنة (بيلــيزيوم) المصرية لكن أثناء هذا الحصار حدثت كارثة لجيش سنحريب اضطرته للرجوع عن بيت المقدس.

ولــم نجد فى النصوص ما يُشير لماهية هذه الكارثة لكن لعل وباء انتشر بين الجيش الآشورى ففقد الكثير من رجاله وتعذر عليه مواصلة القتال رغم انتصاره.

1- Budge: Vol. 11. P. 33.

كمـــا أن الكتاب المقدس يُشير إلى هذه الحادثة موضحاً أن ملاك الرب خرج وضرب معسكر الآشوريين[١].

علـــى أن هـــيرودوت يقـــول إنه سمع من الكهنة المصريين انه حدث ليلاً أن ملايين من فيران الحقول هاجمت الجند وقرضت السهام، وخيوط الأقواس، وجلود الـــدروع – فلمـــا اســـتيقظ الجند فى الصباح وجدوا أنفسهم محرومين من السلاح فاضطروا للهرب متوجهين للشمال بدلاً من الجنوب.

وقـــد عُثر على آثار مؤرخة من عهد شبتاكا، فهناك مقياس النيل الذى دونه على مرسى الكرنك ومؤرخ عليه السنة الثالثة من عهد جلالة الملك شبتاكا كما يذكر الأستاذ (بدج) أن أحد المعابد الصغيرة المخربة الآن بجبل برقل من عمل هذا الملك[٢].

وعُـــثر علـــى مقـــبرة شبتاكا فى (جبانة الكورو) وعُثر فيها على جمجمته – والعجيـــب أن الآثار فى مصر وفى بلاد الكوش التى ترجع لهذا العصر لا تحدثنا بشـــىء عـــن الحروب بين الآشوريين والمصريين، ولعل ذلك راجع إلى أن ملوك المصريين جُبلوا على عدم تسجيل أخبار الحروب التى لم يحرزوا فيها النصر.

الملك تهرقا (Tharka) :

بعد شباتاكا أتى ملك قوى أخر هو (تهرقا) بن بيعنخى وكيفية وصوله للعرش غير معروفة – لكن المعروف أنه جاء لمصر قرب عام (٦٨٨ ق. م) وكان عمره عشـــرين عاماً تقريباً ويُعتقد أنه بقى فى مصر حوالى ستة أعوام أيام شبتاكا، وبعد ذلـــك أعلن نفسه ملكا على الشمال والجنوب وأن ذلك تم فى (منف) حيث تصادف أنـــه كـــان فيها وقتئذ، ولما أصبح ملكاً أرسل لامه يستدعيها لمصر لتسلم مركزها الســـامى كالأم الملكية ويُقال "أن أمه حين وصلت لمصر وجدت ابنها الذى أمضى سنوات حياته الأولى يعمل بمصر قد صار ملكا على الشمال والجنوب[٣].

ويبدو أن (تهرقا) وصل لمصر ولم يكن يتوقع أنه سيُصبح ملكاً وقد عبر عن ذلك فى إحدى لوحاته التى نقشها فى معبد الكوة وهى لوحة مؤرخة بالسنة السادسة

١– سفر الملوك الثانى ص ١٩ عدد (٦ – ٣٥)، واشيعاء ص ٣٧ عدد (٦ – ٣٦).

2- Budge: Vol. 11. P. 33.

٣– والدتـــه كانـــت تدعى (آيار) وقد تحدث عن وصولها من بلاد النوبة فى اللوحة التى عرفت بلوحة الفيضان المؤرخة بالسنة السادســـة مـــن حكـــم الملك تهرقا– وقد عثر عليها فى الردهة الأولى بمقبرته فى (الكوة).. وتحدث فيها الملك عن معجزة الفيضان الثانى فى هذا العام الذى ترتب عليه مضاعفة المحصول.

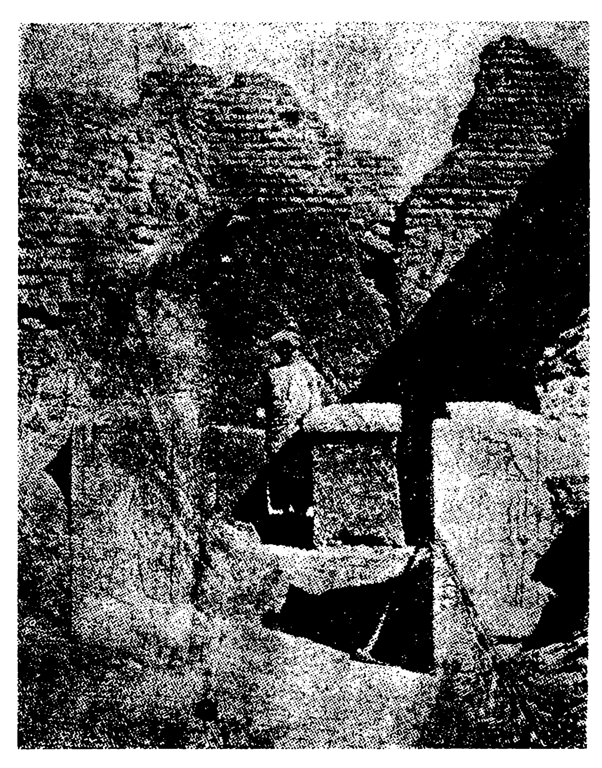
من حكمة فقد وصف فيها اعتلاءه العرش بأنه معجزة وأنه وهو فى طريقة لمصر أيـام شـبتاكا لاحـظ ما عليه معبد (جمآتون) من التخريب ونذر أن يُعيد بناءه إن وصل للعرش، وقد تذكر نذره بمجرد أن وضع على رأسه عرش الملك.

وقد كان عهد (نهرقا) مليئاً بالنشاط فى الداخل والخارج وأعماله العمرانية فى مصر وبلاد كوش خيرُ شاهد على ذلك.

ودلـت الآثـار التى كشف عنها النقاب فى قرية الكوة (جمآتون) الواقعة على الضفة اليمنى للنيل جنوبى (دنقلة) على النشاط العمرانى الذى قام به هذا الملك فقد أنشـا بها معبداً فخماً ويبدو أنه على أثر اعتلاء (تهرقا) العرش مباشرة بدأ فى بناء هـذا المعـبد فأرسل جماعات من أصحاب الحرف والصناعات من (منف) لإقامته ولتزيـنه بالـنقوش التى كانت تقليداً لآثار الدولة القديمة الموجودة فى (أبو صير) و(سـقارة) – وقـد صُفحت عمد المعبد الجديد بالذهب وصُنعت الأبواب من خشب الأرز، وصـبت مزالـيجها من البرونز، وزرعت الحدائق فى الاراضى المجاورة بالنـباتات والأشجار وحفرت البحيرات والبرك لإمدادها بالمياه كما زُرعت الكروم التى خصص لرعايتها رجال مختصون جلبوا خصيصاً لذلك.

وكانت كروم هذا المعبد تُستخدم فى صنع النبيذ الذى قيل إنه يفوق فى حلاوته نبيذ (الواحة البحرية) – وقد صفت كباش من الجرانيت على جانبى بوابة المعبد – والحق بالمعبد مصنع للطوب ومخزن للغلال.

وقـد عُـثر علـى لوحات فى الردهة الخارجية للمعبد مدونة عليها معلومات خاصـة بالمعـبد وتأسيسـه والقيام على خدمته – وسجل بالهدايا التى قدمها الملك تهـرقا للمعـبد فـى السنوات من السنة الثانية من حكمه حتى السنة الثامنة، وهذه الهدايـا تدل على ما كانت تتمتع به البلاد من ثروة فالأوانى معظمها من الذهب– هـذه بالإضـافة لأنواع الأنسجة والكتان ويدل تعدد هذه الأنسجة على تقدم صناعة الغـزل فـى الـبلاد، كذلك ذُكر انه أمد المعبد بالخدم والخادمات، كما خصص له مغنـيات وكاهـنات يقمن بأداء الشعائر الدينية – ونلاحظ أن العنصر النسائى كان سـائداً بين خدم وكنهه المعبد ولا غرابة فى ذلك فقد انتهى الأمر إلى أن أصبحت الكهانـة العظمـى فـى معبد آمون فى يد النساء ولمدة طويلة من الزمن بدلاً من الكاهـن الأعظم ويبلغ طول المعبد (٤٨,٥) متراً وعرضه (٣٨,٧) متراً وهو من الحجـر الـرملى الأصفر – ويبدو أن هذا المعبد قد أقيم فى أوج سلطان تهرقا كما يظهر من مبانيه وما فيها من إتقان ونقوش خلابة.



معبد تهرقا (فى سمنة) (من بدج)

مـــن صنع أيد مصرية مدربة، وقد أفتتح هذا المعبد رسمياً فى السنة العاشرة مـــن حكمه[١]، وأقام (تهرقا) معبداً أخر فى (صنم أبو دوم) كشفت عنه بعثة جامعة أكســفورد بحفائر بلاد النوبة – ويبدو أن الذين قاموا بهذا العمل أيضاً من الصناع والمهندســين المصريين فالمعبد مصرى ونماذجه صورة من مناظر الدولة القديمة فـــى مصـــر – فقد مثل ذلك الملك تهرقا لابساً تاج الوجه البحرى كما صور على صـــورة (أبو الهول) يدوس أعداءه بأرجله – ويبدو أن هذا المعبد (معبد صنم) قد صـــمم فـــى وقت متأخر بعض الشئ كان فيه ضغط الآشوريين على مصر شديداً وهـــو مـــن مبنييـــن مستطيلين – الفناء الخارجى من ردهة ذات عمد يصل إليها الإنســـان بواسطة بوابة ضخمة، والبناء الثانى يتألف من قاعة عمد خلفها المحراب وحوله حجرات.

١- الوصف التفصيلى للمعبد- انظر د. سليم حسن: ج ١١ ص ١٢٨ وما بعدها.

هــذا ونشير إلى أن لوحات (تهرقا) التى عُثر عليها فى معبد فى الكوه (سبع لوحـــات) بالإضـــافة للوحـــة التى عَثر عليها (مريت) فى مدفن السربيوم (بمنف) والموجـــودة الآن بمـــتحف اللوفر وهى خاصة بدفن عجل أبيس فى منف – أثارت الكثير من الجدل حول تفسير محتوياتها ومدلولها.

وقـــد عُثر على آثار أخرى لتهرقا فى بلاد النوبة تذكر منها معبده فى (سمنه) ومعبد الآلة آمون فى (جبل البرقل)[١].

وقد نَقش على معبد سمنه لقبه باعتباره (ملك الشمال والجنوب) وذكر انه أقام هــذا المعبد لسنوسرت الثالث، وتهرقا فى هذا يقتفى أثر تحتمس الثالث وغيره من الغزاة الذين عملوا على تمجيد فاتح النوبة العظيم[٢].

أمـــا فـــى مصـــر فقد عُثر فى مرسى الكرنك على مقاييس النيل فى سنوات مـــتعددة من عهد تهرقا، كما أنه أقام قاعات عمد فى معبد الكرنك العظيم، كما عثر لـــه علـــى معبد (لاوزير) بالكرنك، وعثر فى مدينة (هابو) على لوحة باسم الملك تهرقا – هذا خلاف آثار أخرى متعددة له وجدت فى منف وغيرها.

وقـــد بقى (تهرقا) فترة هدوء تبلغ ثلاثة عشر سنة بمصر يُنظم الإدارة ويعمل لنشـــر الأمن وتنشيط التجارة فى ربوع إمبراطوريته العظيمة التى تمتد من البحر المتوسط حتى الشلال الرابع.

وفى ذلك الوقت كان (نيكاو) – ولعله من نسل (بوكوريس) هو أمير (سايس) وكان بالطبع خاضعاً للفاتح الكوشى (تهرقا).

خطر الآشوريين :

كـــان خطـــر الآشوريين ماثلاً إذ لم يلبث الملك (سنحرب) ملك الآشوريين أن أعـــد حملـــة للإغارة على الحدود المصرية، لكن هذه الحملة لم تصل لمصر فعلاً بســـبب قيام ثورة فى (نينوى) انتهت بقتل الملك الاشورى (سنحرب) واعتلاء ابنه (اســـرحدون Esarhaddon) أو كمـــا تذكره بعض المراجع باسم (أشورأخى الدين) على العرش الأشورى.

وفكـــر (اســـرحدون) هذا فى إتمام العمل الذى كان يهدف إليه أبوه خاصة أن مصـــر كانـــت لا تكـــف عن تحريك الثورات والفتن فى فلسطين ضد الآشوريين،

1- Budge : Vol . 2, P. 56.

2- Budge : Vol . 1, pap 482-483.

فخرج فى عام ٦٧٥ ق. م بحملة يقصد غزو مصر وحلفائها مثل (بعلو) ملك مدينة صور.

واستطاع الملك الأشورى أن يُحاصر صور وينتصر عليها، وتقدم للجنوب الشرقى حتى وصل (رفح) ثم تقدم صوب الحدود الشرقية للدلتا والتقى بجيوش (تهرقا) وهزمها ثم حاصر (منف) واستولى عليها وهرب (تهرقا) جنوباً تاركاً زوجته وأطفاله أسرى فى يد الملك الأشورى- واكتفى الملك الآشورى بتعين حكام جُدد من قبله لأقاليم مصر وتحديد الجزية المطلوبة من كل منهم وغيرت أسماء بعض المدن المصرية بأسماء أشورية ونقل عدداً كبيراً من أهل الحرف والصناعات العربية لبلاده، وعاد لعاصمته (نينوى) بكمية هائلة من الغنم، وأقام لوحة تذكارية بجوار اللوحة التى أقامها رمسيس الثانى أشاد فيها بانتصاره على (مصر) و(صور) وأطلق على نفسه لقب (ملك الوجه البحرى والوجه القبلى وبلاد الكوش)، وصور نفسه فى هذه اللوحة مُمسكاً بحبل قيد به (تهرقا) ملك مصر والكوش، وبعلو ملك صور[1].

على أنه لم يلبث الملك الآشورى أن غادر مصر- حتى قام النزاع بين عدد من الحكام فىّ أقاليم مصر المختلفة كل منهم يدعى السلطة لنفسه- وقد شجع هذا (تهرقا) للعودة على رأس جيشه وبسط سلطانه من جديد على الأقاليم الشمالية – لكن حين وصلت الأنباء لنينوى بذلك أسرع (اسرحدون) رغم مرضه بإعداد حملة ثالثة لغزو مصر فى عام ٦٨٨ ق. م لكنه مات فى الطريق وتولى الملك فى أشور اشورنابنيال (Ashurbanipal) أبن الملك المتوفى فأعد حملة لغزو مصر ووصل الجيش الآشورى فعلاً إلى مصر فى عام ٦٧٧ ق. م، وتمكن الأشوريون من دخول (منف) من جديد وتقدموا صوب (طيبه) وأعادوا الأمراء الموالين لهم لإمارتهم ومقاطعاتهم، وبعد أن استقرت الأمور غادر الجيش الآشورى الرئيسى مصر فلم يكن فى مقدور الملك الآشورى أن يترك عاصمة ملكه مدة أطول – لكن لم يلبث أن قام أمراء الأقاليم المصريين ضد الحكم الأشورى وأرسلوا للملك (تهرقا) يدعونه للاشتراك فى محاربة المغتصب لبلادهم ويعدونه بالاعتراف بسلطته، وأشترك فى هذه الحركة الأمير (نيكاو) (أمير صا الحجر) وغيرة من أمراء الدلتا، كما شارك فيها (منتومحات) حاكم مقاطعة طيبة – لكن أمر هذه المؤامرة فُضح وتمكن الآشوريون من القضاء عليها وأخذوا الأمراء المتآمرين مقيدين إلى (نينوى) لكنهم عفوا عن (نيكاو) أمير (تانيس) وفكوا أسره وأعادوه

1- Budge: Vol. 2. P. 39.

لقاطعته بل وعينوا أبنه أميراً على تربب (بنها)، أما (تهرقا) فقد أسرع للهرب إلى (نباتا) ودخل الآشوريون طيبة وأصبحت مصر بأجمعها بذلك مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الآشورية.

ولـم يصلنا شيء بعد ذلك عن مصير تهرقا، ولكن يجب رغم هزيمته على يد الآشوريين أن نذكر له مقاومته لهم مما يدل على أنه كان محارباً ماهراً كما يُذكر لـه نشـاطه فـى تشييد المبانى ومنها ما بناه فى معبد الكرنك وسجل عليه مناظر تتوجه فـى طيبه – ومنها ما أصلحه وشيده من معابد بلاد النوبة ذاتها كما ذكرنا سابقا– وقد كشف الدكتور (ريزنر) عن قبر تهدقا فى بلدة (نورى).

الملك تاوت آمون (Tanut Amon) :

بعـد تهرقا أتى ملك نوبى آخر اسمه (تانوت آمون) وهو ابن (شبتاكا) ويبدو أنه اشترك مع (تهرقا) فى أواخر حكمه فى إدارة شئون الحكم، وحين اضطر تهرقا للهرب لعاصمة ملكه (نباتا) فى الجنوب بقى (تانوت آمون) فى طيبه.

وحيـن وصلت أنباء موت تهرقا فى عاصمة ملكة فى الجنوب أعلن (تانوت آمون) نفسه ملَكاً على مصر والسودان واستعد للذهاب لنباتا ليُتوج هناك.

وقبل أن يتُوج (تانوت آمون) ملُكاً للوجهين رأى رؤيا كان لها أكبر الأثر فى نفسـه حـتى أنـه أمر بنقش ما تضمنته على لوحة حجرية من الجرانيت الأسود وضعها إلى جوار لوحة بيعنخى المشهورة فى المعبد الكبير فى جبل (البرقل)، وقد كُشـف عـن هـذه اللوحة المسماة (لوحة الحلم) ونّقلت لمصر وهى من الجرانيت الـرمادى ويـبلغ ارتفاعهـا ١,٣٢ من المتر وعرضها ٧٢ سنتيمترا وهى تتناول الأحوال السياسية فى مصر خلال المدة الأخيرة من حكم تهرقاً وخلال حكم تانوت آمـون القصـير – وفى الجزء العلوى المستدير للوحة منظرين يمثل أحدهما على اليميـن الملك (تانوت آمون) واقفاً يتعبد أمام الآلة آمون وخلفه شقيقته تصب ماءًا للتطهـير، وفـى المنظر الثانى على اليسار نجد الملك نفسه يقدم قرباناً للإله آمون ووراءه زوجته.

أما النص فيبدأ بسلسلة طويلة من ألقاب الملك، ثم بعد ذلك وصف الرؤيا وهى أن الملك رأى حيتين كبيرتين تهاجمانه لكنه أمسك بكل منهما ثم فزع واستيقظ ولم يجد لهما أثراً.

ولمـــا سأل (تانوت آمون) مستشاريه عن تفسيرهم الرؤية هنأوه بأنه سُيصبح ملكـــاً علـــى القطريـــن، ومعنى ذلك أنه من الواجب عليه أن يستولى على الشمال ويسترده.

وكانت هذه الرؤيا سبباً فى أنه طمع فى المُلك كما طمع فى ضم الشمال للجنوب.

وقـــد توجه (تانوت آمون) إلى الجنوب وفى طريقة ذهب إلى الفنتين (أسوان) وقـــدم القرابيـــن للإله (خنسو) – ثم اتجه لنباتا وتوج هناك – ثم قفل راجعاً للشمال ليستولى على النصف الشمالى من مصر والواقع تحت النفوذ الآشورى.

والـــتقى الملـــك الـــنوبى بالجيش الآشورى واستولى على بعض أقسام مدينة (مـــنف) وذهـــب لمعبد الآلة (بتاح) وقدم له القرابين ثم استولى على باقى المدينة واتجـــه شـــمالاً ليطهر الدلتا من جيوش الأعداء، ولا نجد فى النقوش المصرية ما يدلنا على مدى تقدم (تانوت آمون) فى الدلتا.

لكن النقوش الآشورية تذكر أن الملك الآشورى (اشوربنيبال) لما علم بما حل بجيوشـــه علـــى يد (تانوت آمون) أسرع فى أوائل عام ٦٦٣ ق. م. بإعداد حملته الثانية على مصر فخرج على رأس جيشه، ولما شعر تانوت آمون بأنه لا يستطيع مقاومة الزحف الآشورى فر (لطيبه)، ووصلت الجيوش الآشورية لمنف ثم طاردت تانوت آمون جنوباً وسقطت (طيبه) فى أيدى الآشوريين فعملوا فى العاصمة الدينية ســـلباً وتخريباً، وعاد الجيش الآشورى حاملاً معه الذهب والفضة والملابس الثمينة والخيول الأصيلة وعدداً كبيراً من النساء والأطفال.

وبذلك أصبح الملك (أشوربنيبال) السيد فى مصر شمالاً وجنوباً بغير منازع – والغريـــب أن الملـــك الآشورى لم يُحاول مطاردة (تانوت آمون) جنوباً بل أسرع للدلـــتا ومكث مدة فى (منف) يحاول تنظيم شئون الدلتا على الوجه الذى يرتضيه، وممـــن أعـــادهم الملك الاشورى لحكم إمارتهم (بسمتيك) الذى خلف أباه نخاو فى حكم (سايس)، ثم عاد الملك الاشورى بعد ذلك لنينوى محملاً بالأسلاب.

على أن النصوص المصرية لم تذكر لنا شيئاً بعد ذلك عن (تانوت آمون) لكن المؤرخين يعتبرون هروبه وسيطرة الملك الأشورى على الدلتا والوجه القبلى إيذاناً بانتهاء وسقوط الأسرة الخامسة والعشرين.

ومعنى ذلك أن قوة السودان قد تحطمت فى مصر ولم يستطع أحد ملوكها أن يبسط سيطرته مرة ثانية عليها، وانتهى الحكم النوبى فى مصر عام ٦٦٢ ق. م أى أنه استمر فى مصر ما يقرب من سبعين عاماً.

وقـــد عُـــثر على مقبرة الملك (تانوت آمون) فى جبانة (الكورو) كما عُثر فى الكـــرنك على لوحة من الحجر مؤرخة بالسنة الثامنة من عهد تانوت آمون، ولعل هذه كانت آخر سنة من سنى حكمه القصير.

حالة مصر بعد انتهاء الحكم النوبى فيها :

ظهـــر فى مصر أثناء الاستعمار الآشورى للدلتا أمير مصرى هو (نيكاو) أمير (صا الحجر) وقد شعر هذا الأمير بأن الأمر يستلزم تخليص مصر من كل من الحكم الآشـــورى والكوشـــى، فكوّن جبهة قوية من أمراء الدلتا ليحقق ذلك فقد كان الوجه البحرى فى مصر تحت رحمة أمراء متنازعين منذ الأسرة الحادية والعشرين.

وقـــد اســـتطاع ابنه (بسماتيك) أن يُحقق هذا الحلم لذا أُعتبر المؤسس للأُسرة السادســـة والعشـــرين المصـــرية، وأن ينتهز فرصة انهماك الجيوش الآشورية فى حـــروب ضـــد القوى الأخرى فى آسيا القريبة منها (بابل وعيلام وغيرهما) ليثبت أقدامـــه فـــى مصـــر، واســـتطاع بســـماتيك تخليص الإمارات المصرية من نفوذ الأشوريين واعترف بسلطة باقى الأمراء المصريين ونودى به ملكاً.

واســـتعان بسماتيك بفرق من الجنود المأجورين يونانيين وغيرهم للمحافظة على حـــدود مصـــر، وفى عام ٦٥٨ ق. م استطاع (بسماتيك) أن يستولى على إقليم طيبة دون أن يجـــد مقاومـــة من الكوشيين، وثبت (منتومحات) فى وظيفته كحاكم لمقاطعة طيـــبه لكـــن بسماتيك أجبر (الزوجة الألهية) لآمون بطيبة المدعوة شبنويت على أن تتبـــنى كـــبرى بناته (نيتوكريس) بدلاً من ترك الأميرة الكوشية (منردس الثانية) إبنة تهـــرقا – وقـــد وصـــلت الأميرة إلى طيبة لتتسلم مهام وظيفتها وكان ذلك فى السنة التاسعة من حكم والدها وتبارى عظماء طيبة فى الترحيب بها وتقديم الهدايا لها[١].

وهكـــذا أصبحت مصر كلها من سواحل البحر المتوسط حتى صخور الشلال الأول موحـــدة تحت حكم ملك مصرى واحد، وأصبح جزء صغير من بلاد النوبة وهـــو الجزء القريب من (الفنتين) تابعاً لمصر- لكن بقى الجزء الأعظم من النوبة تابعـــاً لملـــوك كوش، وخلف بسماتيك ابنه (نيكاو الثانى) ثم (بسماتيك الثانى) ولم يعمـــل أحد منهما لمد نفوذ مصر جنوباً لبلاد النوبة، ولم تقع (نباتا) بعد ذلك تحت الـــنفوذ المصرى خاصة أن ملوك النوبة أنفسهم عمدوا على نقل عاصمتهم للجنوب عـــند الحدود الفاصلة بين القبائل المنتمية للجنس الحامى، والمنتمية للجنس الزنجى

١- قصة هذا التبنى منقوشة على لوحة عثر عليها الأثرى (لجران) فى الكرنك عام ١٨٩٦ وهى الآن بمتحف القاهرة.

عند (مروى) فنقل عاصمة مصر من (طيبة) للدلتا أضعف الصلة بالجنوب كما أن نفس الشيء يُقال عن ملوك كوش فإن نقل عاصمتهم جنوباً أضعف صلتهم بالشمال، وهكذا فإن النصر الباهر فى ظاهره الذى أحرزه بسماتيك ترتب عليه أن محت (مصر الكبرى) التى كانت تتكون من مصر وكوش وبلاد آسيا وحلت محلها (مصر الصغرى)[١].

على أننا لا بُد أن نعترف إنه برغم ضعف العلاقات السياسية بين مصر وبلاد النوبة بعد أن نجح بسماتيك الأول فى إجبار الملك (تانوت آمون) على أن يرتد إلى بلاد النوبة ونجح فى أن يستولى على طيبه منذ عام ٥٥٦ ق. م ويولى ابنته (نيتو كريس) مكان المتعبدة الإلهية الكوشية وأن يضع حامية قوية فى (الفنتين) – فإن العلاقات الاقتصادية لم تنقطع بين البلدين فمصر كانت بحاجه لبعض ما اشتهر به السودان من ثروة معدنية وغيرها خاصة (ذهب) بلاد النوبة، كما أن بلاد النوبة كانت بحاجة للمحاصيل الزراعية المصرية كما كان- بلا شك للأسرة المالكة النوبية أعوان فى مصر، فقد توطن فى إقليم طيبه عدد غير قليل من الإشراف النوبيين وكان عدد منهم يشغل وظائف كبيرة بين كهنة آمون- كذلك فإن مملكة كوش كانت المركز الذى يتجمع فيه كل الخارجين عن سيادة فرعون مصر- كما أن ملوك كوش كانوا يُرحبون بعودة نفوذهم على مصر.

وقد عُثر بالقرب من بوابة معبد الكرنك على بقايا لوحة أثرية تحدثنا عن حملة قام بها (بسمتيك الثانى) فى السنة الثالثة من حكمه على بلاد كوش وقد أيدت أخبار هذه الحملة لوحة تاريخية أخرى عُثر عليها فى (تانيس)، ويبدو من اللوحتين أن الحملة كانت حوالى عام ٥٩١ ق. م وأن (بسماتيك) أضطر للقيام بها ضد مملكه (نباتا) التى كان على رأسها الملك (اسبلتا)- ويبدو أن الملك المصرى صاحب جيشه حتى (الفنتين) – واستطاع الجيش المصرى بعد ذلك أن يُتابع السير حتى قرب (نباتا) وأن ينتصر على الجيش الكوشى وأن يعود لمصر محملاً بالغنائم والأسرى- لكن يبدو أن هذه الحرب كانت حرب دفاع اكتفى فيها الجيش المصرى بتخريب حصون الكوشيين وعاد لمصر فقد كان الخطر الحقيقى على مصر يكمن على حدودها الشمالية الشرقية وليس على حدودها الجنوبية، على أننا نشير إلى أنه وجدت بعض تماثيل ملوك النوبة بمبانى طيبة وقد هشم (الصل المزدوج) الذى كان يميز ملوك كوش ويرمز لسيادتهم على مصر والسودان مما يدل على محاولة

١- د. سليم حسن : ج ١٢ ص ٣٣ (طبعة ١٩٥٧).

فـرعون (سايس) للقضاء على آثار الملوك الكوشيين فى مصر، كما عمد الفرعون المصرى بالطبع إلى القضاء على نفوذهم فى إقليم مصر بإحلال موظفين من الدلتا من المخلصين للبيت المالك المصرى الجديد محل كبار الموظفين الذين كانوا يُبدون عطفهم على الحكم الكوشى السابق.

هـذا ونشـير إلى القصة الذى ذكرها بعض المؤرخين (مثل هيرودوت) عن هجـرة رجال الحاميات - التى وضعها (بسمتيك) على الحدود فى الفنتين لمواجهة أطمـاع ملك النوبة - هجرتهم إلى ملك النوبة حيث عرضوا عليه خدماتهم فأدخلهم فى خدمته وكافأهم بأن أعطاهم أراضى فاستقروا هناك ونشروا الحضارة المصرية بين ربوع بلاد النوبة- وقد قدّر عدد هؤلاء المهاجرين بمائتين وأربعين ألف مقاتل وعلـل سبب هجرتهم إلى أن بسمتيك أهمل شأنهم مدة ثلاث سنين دون أن يُعيدهم لـبلادهم وأُسرهم، وإنه كان يميز عليهم جنوده المرتزقة من الإغريق وقيل إنه علم بنيـتهم وحاول أن يُثنيهم عن عزمهم دون جدوى إذ خشوا أن يغدر بهم وقد أطلقت عليهم بعض المراجع اسم (الموشوش).

بلاد النوبة بعد تانوت آمون وانتهاء حكم ملوك نباتا :

بـلاد الـنوبة فـى هذه الفترة الغامضة، والآثار التى عُثر عليها قليلة لا تدل بوضوح عما كان يجرى فى بلاد النوبة الجنوبية فى ذلك الوقت منذ هروب (تانوت آمون) لنباتا.

وكل ما وصل إلينا عبارة عن بعض الآثار عليها كتابات تذكر لنا أسماء ملوك اخـتلف العلماء فى ترتيبهم ترتيباً تاريخياً خاصة أن هذه الآثار لا تكاد تذكر شيئاً عـن أعمـال هـؤلاء الملـوك، وقائمة الملوك التى وضعها الأستاذ (ريزنر) هى الأسـاس الذى يسير عليه علماء الآثار عند التحدث عن ملوك كوش، وسنشير إلى أربعة من هؤلاء الملوك لأن التاريخ يسجل لنا بعض الوقائع الهامة عن كل منهم.

١- الملك اسبلتا (Aspelta) :

يـؤرخ بعـض المؤرخين حكمه لبلاد النوبة بعام ٥٩٣ ق. م، وترجع أهميته لأنه صاحب اللوحة الكبيرة التى عُثر عليها فى معبد جبل البرقل، وهذه اللوحة من الجرانيـت ومحفوظة الآن فى المتحف المصرى- وهى تتحدث عن الطقوس التى أتبعـت لانتخاب الملك (Aspelta) ملكاً على بلاد النوبة - ولذا عُرفت باسم "لوحه التـتويج" وتُعد هذه اللوحة وثيقة هامة توضح بعض العادات النوبية السائدة فى ذلك الوقت وهى تحتوى على ثلاثين سطراً.

علـــى أن المـــؤرخ (ديودور) وصف لنا أيضاً فى كتابه العادات المنتشرة فى بـــلاد النوبة عند اختيار الملك، فذكر أن كهنة آمون كانوا يختارون عدداً من كبار القـــوم وسادتهم ويتقدمون بهم إلى مقصورة الإله (آمون رع) يحيط بهم كبار رجال المعبد، ويصبح أحد هؤلاء ملكاً إذ ما لمسة التمثال أو عانقه، وإذا ما تم ذلك يسجد الجمـــيع علـــى الأرض يُقبلونها لأن الإله قد وضع قدسيته وسلطانه الإلهى فى احد أبـــناء بـــلاد النوبة فحق على الجميع الخضوع وتقديم فروض الطاعة له باعتباره الملك المختار من الإله.

وإذا مـــا قـــرأنا اللوحـــة الخاصـــة بتتويج الملك (Aspelta) نجد أن ما قاله (تـــيودور) يقـــرب من الحقيقة والواقع- فالنص يتحدث عن أن جيوش الملك كانت متجمعة فى مدينة (جبل البرِقل) وبينهم ٢٤ من عظماء الدولة ستة من قواد الجيش، وســـتة منـــن حاملى الأختام وستة من كبار العمال، وستة من كبار رجال البلاط، اجتمعت كلمتهم على أن يكون أحدهم مَلكا على بلاد النوبة، وقرروا التوجه



لوحة التتويج الخاصة بالملك (أسبلتا) وقد عثر عليها فى جبل البرقل

لمعبد (آمون رع) إله كوش لكى يختار الإله أحدهم وعندما وصلوا للمعبد وجدوا الكهنة مستعدين للقائهم ثم أطلقوا البخور فى أنحاء المعبد وطهروا جوانبه بالماء المقدس، وبعد أن تلها الأناشيد الخاصة تقدموا لمقصورة الإله الأعظم إلا أن الإله لم يحرك ساكناً ومعنى ذلك أنه لم يختر أحدهم ليكون ملكا على النوبة، وعندئذ تقدم الكهنة بالأخ الملكى (Aspelta) وما كاد يتقدم هذا الرجل أمام التمثال حتى تحرك ذراعه ولمسه فخر الجميع على الأرض فاختير هذا الرجل ملكا على بلاد النوبة[1].

ومن هذه اللوحة نستنتج أن الملكية الكوشية كانت إسمياً على الأقل انتخابية والانتخاب كما رأينا يتم على درجتين إذ ينتخب الكهنة فى المرة الأولى عدداً من المرشحين اللائقين لهذا المنصب الرفيع، وكان هؤلاء يحضرون أمام تمثال الإله وتُؤدى الشعائر الدينية إلى أن يختار الإله الفرد الذى يميل إليه أكثر.

وكان الانتخاب يتم فى معبد آمون فى (نباتا) ويحضره عدد من الأفراد من طبقات معينة من الدولة، وكانوا فى العادة ينتخبون ابن الملك المتوفى، لكن كان الانتخاب يمر فى هذه المراحل التى تضفى عليه صبغة دينية خاصة باعتباره من اختيار الإله، ولذا كانت المؤامرة على شخص الملك تحدث نادراً فى كوش.

٢- الملك (أمن نتى رك):

لعل هذا الملك كان معاصراً للأسرة السابعة والعشرين فى مصر، وله هرم فى جبانة (نورى)، وعُثر فى أركان هذا الهرم على بعض الأطباق والاوانى المختلفة.

وقد ذكرنا هذا الملك بالذات لأنه ترك لنا نقشاً طويلاً من (١٢٦ سطراً) فى المعبد الذى أقامه تهرقا (معبد الكوة) – ويقص علينا فى هذا النص كيف أنتخب ملكاً على بلاد النوبة، كما يذكر مجهوداته لقمع الفتن التى قامت بها بعض القبائل فى بلاد النوبة، وحروبه ضد القبائل التى كانت تهاجم البلاد المستقرة- والإصلاحات التى قام بها فى المعابد، وأهمية النصن أنه يمدنا بمعلومات عن بلاد النوبة فى الفترة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد وهى فترة معلوماتنا عنها قليلة.

٣- الملك حورس سا اتف (Heru-Sa-Atef) :

من ملوك النوبة أيضاً حور ساتف ومعظم المؤرخين حددوا فترة حكم هذا الملك فى القرن السادس ق. م لكن ريزنر ذكر أنه عاش فى النصف الأول من القرن الرابع ق. م.

١- ترجمة اللوحة – موجودة فى د. سليم حسن: ج ١٢ أ ص ٤٨٨ (وما بعدها) Budge Vol, I P. 67- 82.

وقد عُثر على لوحة كبيرة من الجرانيت فى جبل برقل- موجودة الآن فى المتحف المصرى- عليها نص طويل يتكون من إحدى وستين سطراً يدور حول أعمال هذا الملك فى بلاد النوبة.

ومن هذه اللوحة يتضح أن الملك (حورس) هذا حكم ما يقرب من ٣٥ عاماً وأن ملكه امتد من (وادى حلفا) شمالاً إلى (سنار) على النيل الأزرق جنوباً- ولم يحاول هذا الملك مُطلقاً مهاجمة الحدود المصرية، كما لم يطمع فى أيه مدينة تقع شمال (وادى حلفا).

ولكنه وجه همه إلى إخضاع كل العناصر التى تعيش فى مملكته سواء أكانت تنتمى للجنس الحامى أو السامى أو الزنجى- وقد ذكر أنه رأى فى الحلم أن آمون صاحب نباتا قد منحه أرض (نحسى) فلما تسلم عرش بلاد النوبة قام بزيارة معابد آمون فى جهات متعددة من بلاد النوبة حيث قدم الذهب بسخاء لإصلاح وإعادة تجديد هذه المعابد، وبعد ذلك اتجه لتأديب القبائل الصحراوية غير المستقرة التى كانت تُغير باستمرار على أملاكه وقد غنم من غزواته غنائم كبيرة أعطى نصيب الأسد منها لمعبد آمون فى (نباتا).

ومن الواضح أن الملك النوبى قلد ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية بأنه بدأ غزواته بعد أن استرضى فى ذلك الإله آمون، فإذا ما نزل عليه الوحى بالاستعداد للحرب نفذ مشيئة الإله- وكان كلما نال انتصارات وهب معبد آمون جزءاً كبيراً من الغنيمة – وقد بلغت حملاته التى ذكرت فى هذه اللوحة تسع حملات.

كما أنه قلد ملوك الأسرة الثامنة عشرة أيضاً فى كتابة ملخص لأعماله الحربية دونه على جدران معابده على شكل حوليات.

٤- الملك نس تاسنن (Nas Ta Senen) :

وترجع أهمية هذا الملك النوبى إلى أنه كان معاصراً للغزو الفارسى لمصر على يد قمبيز ملك الفرس، فقد عثرنا على لوحة تذكر لنا أن الاختيار وقع عليه ليصبح ملكاً فى مدينة (مروى)، ثم بعد ذلك خرج إلى (نباتا) ليتقبل موافقة آمون فى معبده الكبير، ثم قام بجولة لزيارة المعابد الأخرى التى كان يلزم أن يزورها الملك بعد تتويجه.

وهذه اللوحة التى أطلق عليها البعض أسم (لوحة دُنقلة) إذ عُثر عليها فى عام (١٨٥٣) فى (دنقلة الجديدة) أهداها عباس الأول إلى فردريك وليم الرابع عاهل

بروسـيا حيث نُقلت إلى متحف برلين- ولعل مكان هذه اللوحة الاصلى هو (جبل برقل) مثل لوحة بيغنخى[1].

وهـى مصـنوعة مـن الجرانيت – ونص اللوحة يحتوى على ثمانية وستين سـطراً – وفـيها يـتحدث (نستاسنن) عن قصة تتويجه ملكاً على بلاد النوبة، كما يـتحدث عـن الهدايا التى قدمها لآمون، وعن الحملات الخمس التى قام بها على الأقالـيم المجـاورة لمملكته والغنائم التى غنمها والتى قدم جزءًا كبيراً منها للمعابد كمـا يذكـر لـنا أن المغيرين من الصحراء الشرقية سرقوا متاع معبدى (آمون) و(باستت) وأنهم فروا بغنيمتهم فعوض المعبدين عما سرق منهما من ماله الخاص.

ولقد نقش الملك (نس تاسنن) على لوحته هذه العبارة:

" إن الـناس قالوا عنى، بعد أن انتهت حفلات التتويج فى معبد آمون فى نباتا مـا يلى: سوف يعالج الأمور بمهارة إذ أن آمون نباتا قد أعطاه مقاليد الحكم على النوبة – فهو ابن الإله، وهو الملك الذى سيبقى فى مروى".

وهذا النصر يدعونا لأن نقف قليلاً لنسجل بعض الملاحظات عن مملكة نباتا النوبة:

١- الملاحظة الأولى:

خاصـة بملـوك النوبة أو ملوك مملكة نباتا النوبية فالحقيقة كما ذكرنا أننا لا يمكن أن نجزم بالتتابع الصحيح لهؤلاء الملوك ولا يزال الأمر يحتاج لبحث طويل، لكننا نشير هنا إلى أن العالم الامريكى (Reisner) وهو من القلائل الذين تمكنوا من دراسة معالم الحضارة القديمة فى السودان وقام بحفائر فى أماكن مختلفة منه – قد وضـع قائمة بملوك بلاد النوبة وتحتوى هذه القائمة أسماء الملوك الذين يعتقد أنهم حكمـواً مـن أول حكم كاشاتا فى ٧٥٠ ق. م حتى (Nes-Ta Senen) الذى يعتقد (ريزنر) أنه آخر ملوك مملكة نباتا والذى حكم فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد، وهو آخر ملك كوشى دُفن فى جبانة (نورى)، ومن هؤلاء الملوك كما رأيـنا تكونـت الأسـرة المصرية الخامسة والعشرين التى انتهت بنهاية محاولات (تانوت آمون) لاسترجاع السلطة فى مصر.

هـذا ويـرى بعض المؤرخين أن عاصمة الملك فى بلاد النوبة قد نقلت من (نـباتا) إلى (مروى) فى القرن السادس، وليس فى القرن الرابع قبل الميلاد، ويؤيد هـؤلاء وجهه نظرهم بأن متوسط ما عثر عليه من قبور الملكات بالذات منذ القرن

1- Budge: Vol. 2. P.84

السادس فى (نباتا) و(الكورو) و(نورى) قد نقص بشكل ملحوظ وعُلل ذلك بان الملوك بعد انتقالهم لمروى كانوا يتزوجون من ملكات من عليه القوم فى (مروى) وهؤلاء كن يفضلن أن يُدفن فى مسقط رءوسهن(١).

كما أن هيرودوت يُشير إلى أنه فى عصره (حوالى ٤٥٥ ق. م) كانت مروى عاصمة الأثيوبيين جميعاً.

٢- الملاحظة الثانية:

أن العاصمة كانت (نباتا) لكن كانت بجانبها عدة مدن كبرى، وكان الملك يُتوج فى (نباتا) وتقام الحفلات الكبرى لذلك فى معبد آمون- لكن كان لابد أن تتم هذه الاحتفالات بزيارات للمعابد الهامة الأخرى.

٣- الملاحظة الثالثة:

أننا لا نستطيع بما لدينا من معلومات أن نجزم متى انتقلت عاصمة الملك من (نباتا) إلى (مروى) لكن كل ما يمكن أن نؤكده هو أن (مروى) أخذت تدريجياً تنافس (نباتا) وقد عظم شأنها بعد أن أصبح ملوك النوبة منفصلين تماماً عن مصر واتجهت جهودهم للجنوب حيث تمتد الأرض الخصبة.

وكانت (مروى) هذه الواقعة على الشاطئ الشرقى للنيل ما بين الشلالين الخامس والسادس على مسافة أربعة أميال تقريباً شمالى محطة سكة حديد (الكابوشية) الحالية بمثابة مفتاح الطرق الموصلة لأراضى الجزيرة الخصبة فى السودان، وأراضى كردفان وكذلك للطرق الموصلة إلى جبال (الذهب) فى الصحارى الشرقية والطرق الموصلة أيضاً لبلاد الحبشة.

والآثار التى عُثر عليها بمدينة (مروى) تدل على أنها كانت ميناءًا صالحاً لرسو السفن، كما أن التلال السوداء المحيطة بها تدل على أنها غنية بالحديد، ولعل هذا الحديد كان يُصهر فى حفر فى ذلك الوقت باستخدام قطع الخشب التى كانت متوفرة هناك هذا بالإضافة إلى غزارة مراعيها.

والتاريخ لا يذكر لنا متى نشأت هذه المدينة وكيف تطورت حتى أصبحت ذات أهمية كبيرة ولعبت دروا هاماً فى تاريخ السودان.

وكل ما نعلمه هو أن إقليم (مروى) كان من الأقاليم التابعة للدولة النوبية منذ عصر الملك (كاشاتا)- ثم نعرف من الآثار أن الملك (Aspelta) كان قد قام بزيارة لمعبد آمون بهذه المدينة- وحين جلس الملك (حورس - سا أتف) على العرش ذكر فى لوحته أن أفراد عائلته الملكية يسكنون (مروى) - ثم بعد ذلك نجد فى لوحة

١- د. سليم حسن : ج ١١ ص ٤٩٩ وما بعدها.

الملك (Nes Ta Senen) أن الاختيار وقع عليه كملك فى مدينة (مروى) لكنه تُوج فى معبد آمون.

وهـذا يجعلنا نعتقد أنه فى ذلك الوقت أى وقت الملك (نس – تا– سنن) الذى يعتـبره (ريزنر) آخر ملوك مملكة نباتا انتقلت السيادة إلى (مروى) فأصبحت هى العاصمة السياسية للدولة النوبية بينما ظلت (نباتا) العاصمة الدينية ومقر الإله آمون حيـث الحـياة الفنـية والعلمـية التى تتجمع حول الكهنة والصناع، بينما (مروى) العاصمة السياسية حيث تجتمع السلطة والثروة حول شخصية الملك.

ويحدثـنا (هـيرودوت) عن محاولة (قمبيز) غزو السودان وعن هلاك معظم جيشه فى الطريق مما اضطره للتراجع.

وقـد أشـار إلـى ذلك أيضاً (سترابو) و(ديودور)، وذكر أن قمبيز نجح فى محاولـته وأنه أطلق اسمه على إحدى مدن السودان قرب الشلال الثالث، لكن لوحة (نـس – تا – سنن) فى السطر التاسع والثلاثين وما بعده تذكر بصراحة أن الملك النوبى قد هزم جيوش قمبيز الغازية واستولى على سفنه وحاشيته وقتل عدداً غفيراً مـن رجالـه وأسر الباقين وأنه أهدى جزءاً كبيراً من الغنائم لمعابد آمون فى بلاد النوبة[١].

ويبدو أن (نس – تا – سنن) بعد أن تخلص من العدو الفارسى الآتى من الشمال شـن عـدة حـروب على القبائل فى الصحراء الشرقية وفى الجنوب وغنم من هذه الغـزوات الكثـير من الذهب والماشية– مما يدل على أن الغزوات كانت على قبائل تسـكن بالقـرب من مناجم الذهب أى على النيل الأزرق، كما أن الأعداد الكبيرة من الماشـية تدل على أن الملك وصل فى غزواته لمناطق لعلها قريبة من كردفان وربما دارفور أيضاً– وقد كان نصيب كهنة آمون من هذه الغنائم كبيراً كالمعتاد.

٤– الملاحظة الرابعة :

خاصـة بالحضـارة فى مملكة نباتا – فكما علمنا أن (نباتا) خضعت لمصر خـلال حكـم الدولة الحديثة وأدى هذا إلى أنها تأثرت بمظاهر الحياة والحضارة المصرية وقد لمسنا هذا بنوع خاص فى المعابد والديانة النوبية كما سنفصل ذلك فـيما بعـد– وحدث بعد ذلك أن حكم ملوك النوبة مصر مدة فاستقدموا عدداً من

1- Budge: Vol. 2. pp. 94-95

ملاحظة: الترجمة الكاملة للوحة نس تا سنن فى Budge: Vol. 2. pp. 97-103

ويؤرخ (بدج) لوفاة الملك (نس تا سنن) ب ٥١٧ ق. م أى وقت غزو (دارا) لمصر.

مهــرة الصــناع المصريين خاصة فى فن العمارة والزخرفة ليعملوا على إقامة معــابد ملائمة لآمون فى (جبل برقل)، خاصة بعد أن هاجر عدد من كهنة آمون إلــى هــذه الجهــات- وقــد عمل هؤلاء الصناع الفنيين على إدخال فن العمارة والزخــرفة المصــرية وكذلك فن الصباغة وغيره من الفنون المصرية إلى هذه المملكــة الجديــدة وبذلــك تأسس ما نستطيع أن نسميه (بالمدرسة المصرية) فى (نــباتا)، وأصــبحت التقالــيد والأساطير المصرية متداولة هناك، وهكذا تأصلت الثقافة المصرية[1].

وحيــن اعــتمد (بسمتيك الأول) فى مصر على الجنود المرتزقة من الإغريق وذلــك فى القرن السابع قبل الميلاد أغضب هذا عدداً كبيراً من الجنود المصريين فــنزحوا للجــنوب لبلاد النوبة واندمج هؤلاء فى سكان البلاد وبالطبع حمل هؤلاء معهم تقاليدهم وعاداتهم المصرية[2].

لكــن لا شــك فــى أن أثر الثقافة المصرية ظل قوياً طالماً كانت هناك علاقــات مستمرة تغذى الفروع الموجودة فى بلاد النوبة باستمرار، لكن حين ضــعفت أو انقطعــت العلاقــات بين مصر وبلاد النوبة أخذت هذه المظاهر الثقافية تضعف.

٥- الملاحظة الخامسة :

خاصــة بالموارد المادية لمملكة نباتا- فقد كانت قوة هذه الدولة تستند للثروة الماديــة القائمــة على الحركة التجارية بين مصر وبلاد النوبة – وبين بلاد النوبة والأقالــيم الجنوبــية وبيــنها وبيــن الغرب- وكذلك تستند لاستثمار مناجم الذهب بالصــحراء الشــرقية، وذلك لأن الأراضى الزراعية كانت لا تتعدى شريطاً ضيقاً على جانبى النهر بينما كانت فى الجنوب أرضاً أكثر خصباً.

وهــذا يدعونا لأن نبحث بشىء من التفصيل مظاهر الحضارة فى مصر وفى السودان فى العهد الكوشى.

١- حسن كمال: تاريخ السودان القديم (١٩٢٤).

٢- أطلق هيرودوت على هؤلاء الجنود المصريين النازحين لفظ (Automoli) أى (الأسماخ) أو (المشوش).

الحضارة فى مصر والسودان فى العهد الكوشى الأول :
(عهد ملوك نباتا)

لا شك فى أن ملوك الأسرة الكوشية التى بسطت سلطانها على مصر والسودان معاً قرابة قرن من الزمان (٧٦٠- ٥٦٣ ق. م) قاموا بنهضة عمت بلاد السودان ومصر، وهذه النهضة قامت فى الأصل على أساس إحياء الحضارة المصرية القديمة كما عُرفت فى أزهى عصورها – يظهر ذلك فى كل مظاهر الحياة الفكرية والدينية والإجتماعية والإقتصادية، ويدل عليه ما وضعنا أيدينا عليه من آثار هذه الفترة سواء فى مصر أو فى بلاد النوبة – على أن الكثير من هذه الآثار لم يُكشف عنه بعد، لكن كل جديد عثرنا عليه زاد يقيننا بأن النهضة الأخيرة فى مصر القديمة التى اعتاد المؤرخون أن يُحددوا بدايتها بقيام الأسرة السادسة والعشرين المصرية أى بعصر (بسمتيك الأول) تمتد جذورها فى الحقيقة إلى العهد الكوشى فى مصر والسودان.

وسنحاول أن نلقى الضوء على مظاهر الحياة المختلفة فى ذلك العصر.

أولاً: الناحية الاجتماعية :

كان المجتمع المصرى قبل مجىء (بيعنخى) للبلاد مجتمعاً إقطاعياً يسوده الحكم الإقطاعى- فقد كانت البلاد مقسمة إلى إقطاعيات عدة على رأس كل منها (أمير) وكانت تتجمع فى أيدى هؤلاء الأمراء أو الملوك الصغار ثروة البلاد وكانوا هم المتصرفون فى أرزاق الشعب، وكان لكل أمير جيشه، وخدمه وإداراته وماليته، وادينا صور من هؤلاء الأمراء – فنجد (نمروت) أمير الآشمونين بعد أن هُزم على يد بيعنخى واضطر لتسليم مدينته يقدم للفاتح الكوشى هدايا من الفضة والذهب والبرنز والأحجار الأخرى الثمينة والجياد وغير ذلك مما يدل على ثراء فاحش وعلى سلطة لا حد لها فى مقاطعته.

ونجد (تفنخت) الذى قاوم بيعنخى مقاومة جبارة يذكر لنا أنه استطاع أن يحصن منف وأن يملأ مخازنها بالشعير والبرُ وحظائرها بالثيران وخزائنها بالذهب والفضة والنحاس.

ونجد أيضاً حاكم أتريب (بنها) حين يدعو بيعنخى لزيارة مقاطعته يذكر له إن بيت ماله مفتوح له وأنه سيقدم له ذهباً وفضه ولا زود حسبما يرغب قلبه، هذا بالإضافة للملابس الكتانية والعطور والحياد والعقود والقلائد.

ولا شــك فى أن نظام الإقطاع هذا بقى سائداً طوال العصر الكوشى بدليل أن شخصــية مثل (منتومحات) وقد كان معاصراً للملكين (تهرقا) و(تانوت آمون) كما عــاش فى عهد الملك (بسمتيك الأول) حتى السنة التاسعة من حكمه وهو من أسرة كانــت لهــا إمــارة طيبة فترة طويلة من الزمن وكان منتومحات كما تدل الوثائق العديدة الخاصة به وبأسرته التى شغل أفرادها أرفع المناصب فى زمن حكم الأسرة الكوشــية- يحمــل لقب الأمير الوراثى، والحاكم وحامل خاتم ملك الوجه البحرى والســمير الوحــيد والكاهــن الــرابع لآمون وعمدة المدينة والمشرف على مصر العليا[1].

وتــدل الآثار التى عثرنا عليها لهذا الأمير، ومقبرة (منتحومحات) التى ظهر أنهــا تــتألف من أكثر من إحدى عشرة حجرة والتى تُعتبر من أضخم المقابر التى كُشــف عــنها فى جبانة طيبة بجوار الدير البحرى - علي أنه كان صاحب ثروة ضــخمة وجــاه وســطان لدرجة أنه كان فى عظمته ملكاً غير متوج، وقبره هذا يضارع قبور الملوك فى ضخامته بل يفوقها- ويدل على مقدار ثروته أيضاً ما قام به من إصلاحات فى طيبة وفى معبد الاشمونين لإصلاح ما كان قد خرب فى زمن الاضــطرابات والحروب التى وقعت فى عهد الآشمونين. فقد أحضر خشب الأرز مــن لبنان لبناء (قارب أوزير) ومقصورته من الذهب المرصع بكل أنواع الأحجار الثميــنة وطهر معابد كل الإلهة فى كل مقاطعات الوجه القبلى، كما يظهر ما قدمته للمتعــبدة الآلهــية (نيتو كريس) ابنة بسمتيك الأولى إلى وصلت إلى طيبة بعد أن أعتلى أبوها العرش لتصبح ابنة المتعبدة (شبنوبت الثانية) بدلاً من (أمنردس الثانية) ابــنه تهــرقا الــتى أُعفيت من هذا التبنى بعد انتقال الحكم من يد الكوشيين إلى يد (بســمتيك الأول)، فالهدايا التى قدمها لها (منتومحات) وابنه ووريثه الشرعى كانت أعظم بكثير مما قدمه الكاهن الأكبر لآمون.

هذا وإذا نظرنا إلى ما عُثر عليه فى المقابر الكوشية على انه دليل ما وصلت إليه الصناعة والفن من تقدم يمكننا أن نقول أن الحرف والصناعات كانت مزدهرة ومستمرة فى مصر حتى أن الملك (تهرقا) عندما أراد إقامة المعابد فى بلاد النوبة أرســل العمال والفنانين وأصحاب الحرف من (منف) وغيرها من البلاد المصرية لإقامة هذه المعابد فى السودان – وتدل بقايا مقابر جبانة (الكورو) وجبانة (نورى) على أن الفنون فى هذه الجهات كانت امتدادًا للفن المصرى فى عصوره السابقة.

١- د. سليم حسن: ج١١ ص ٢٨٧ وما بعدها.

ثانياً: الناحية الدينية:

ذكرنا أن أساس الدولة الكوشية التى قامت فى بلاد كوش هم كهنة (آمون رع) الذين هاجروا من مصر إلى (نباتا) ولذا فلم يكن غريباً أن تكون لعبادة (آمون رع) مكانتها فى نفوس أفراد الأسرة المالكة الكوشية التى كانت تحكم باعتبارها حكومة آلهية أى حكومية يُديرها الإله آمون نفسه.

وقد أشرنا من قبل إلى تعليمات (بيعنخى) لجنوده لما يجب أن يقوموا به من فروض عند وصولهم لطيبة مقر عبادة (آمون رع) وكيف أنه أشار إلى أن (أمون) هو الذى أرسلهم فهو كفيل بنصرهم.

على أن التعصب (لآمون) لم يمنع الملك الكوشى (بيعنخى) حين جاء بنفسه لمصر من أن يزور معابد الآلة المحليين فى كل بلد خضعت له ويقدم للآلهة القرابين بوصفهم أتباعاً لإلههم (آمون).

وكان لهذا العمل أثره فى نفوس المصريين الذى لم ينظروا للملوك الكوشيين على اعتبار أنهم أجانب باعتبار أن مقياس الوطنية فى نظرهم على حسب ديانة ومعتقدات حاملها[1].

وقد دلت الآثار على أن ملوك كوش كانوا طوال حكمهم يتبعون بكل دقة شعائر الدين المصرى وقد اهتم هؤلاء الملوك بإصلاح المعابد المصرية ومضاعفة النذور للآلهة – وقد عُثر على لوحه أثرية فى (دندرة) – وموجودة الآن بالمتحف المصرى – تتضمن مرسوماً ملكياً صادراً من الملك (شبكا) بالأعمال التى لا بد من تنفيذها فى (دندره) وغيرها من البلاد المصرية لإصلاح المعابد.

والملك (شبكا) كان أول من اتخذ مدينة (طيبة) مقراً لملكه بدلاً من (نباتاً)، ولذا اهتم بآثار (آمون) الدينية القائمة فى طيبة – فأصلح البوابة الرابعة بالكرنك وزينها بالذهب والفضة – وقد نصب (شبكا) أحد أبنائه كاهناً أكبر لآمون فى (طيبه).

ولم يقتصر إهتمامه على ما يخص الآله آمون فقد عُثر على وثيقة منقوشة على حجر أسود ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى، وهذه الوثيقة التى أطلق عليها شبكا اسم (تأليف الأجداد) والتى أدعى أنه نسخها من بردية كان قد أكلها الدود تحتوى على قصة تصور نظام العالم وخلقة– وترجع كل شىء إلى (بتاح) إله منف وكان الملك قد انتقل (لمنف) واتخذها عاصمة له.

١– انظر د. سليم حسن: ج ١٢ ص ٤٢٠ وما بعدها.

وفـــى عهد الملك (تهرقا) بلغ الاهتمام بإقامة المعابد أقصاه فأقام معبداً فاخراً فـــى الكـــوه (جمآتون)، وآخر فى بلده (صنم) – وقد زين معبد الكوه بتماثيل الإله آمون مع الآلهة النوبية الأخرى – وقد كان اهتمام الملك (تهرقا) بمعابد (بتاح) فى مـــنف عظـــيماً أيضـــاً فقد تُوج فيها ملكاً، وأقام (تهرقا) معبداً خاصاً للإله (بتاح) بالكرنك.

ومن أجمل آثار تهرقا المعبد الذى أقامه (لآمون نباتا) وزوجه (موت صاحبة نباتا) فى جبل (برقل).

وقـــد وهب ملوك كوش هبات عدة للمعابد كما وفروا للمعابد الكهنة والمغنيين والمغنـــيات، والهـــبات التى ذكر تهرقا أنه وهبها لمعبده فى (جمآتون) – تدل بحق على ما كانت عليه البلاد فى عهده من رخاء وثراء.

وقـــد زينـــت هـــذه المعـــابد بمناظر من الدولة القديمة فقد أراد ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية إحياء مجد البلاد القديم.

هذا على أن هؤلاء الملوك لم يُهملوا شأن الإله (ددون) وهو الإله القومى لبلاد النوبة فقد وجد مّذكوراً بين آلهة معبد (جبل برقل).

وقـــد أدرك الملوك الكوشيون أهمية المركز الذى يشغله الكاهن الأعظم لآمون فـــى طيـــبة، لذلك كان أول عمل قام به (كشتا) بعد فتح إقليم طيبة أن نصب ابنته (امنردس) متعبدة إلهية أى كاهنة عظمى لطيبة – وقد لعبت المتعبدات الآلهيات أو (زوجـــات آمون) فى طيبة دوراً هاماً خلال حكم هذه الأسرة وكان لهن من النفوذ والســـلطان مـــا خـــول لهـــن حمل لقب الملك ومميزاته، والواقع إنهن كن ملكات مـــتوجات فى إقليم طيبة- وقد رأيناً كيف أن (بستميك الأول) حين انتقل الحكم إليه اهـــتم بـــأن تُعين أبنته (نيتو كريس) متعبدة إلهية محل (أمنردس الثانية) ابنة تهرقا التى أُعفيت من هذا المنصب.

أمنا عادات الدفن التى يمكن أن يستدل عليها من مقابر هذا العهد خاصة التى عثر علـــيها فـــى (الكورو) و(نورى) فهى فى جملتها ترجع للأصول المصرية مع تعديلات امتاز بها القبر الكوشى الذى تطور حتى أصبح بالشكل الهرمى كما أسلفنا القول.

ثالثا: الحالة الاقتصادية:

لاشـــك فى أن الحروب المتعددة سواء إبان الفتح الكوشى أو جزءًا من الحملات الأشـــورية علـــى مصر – قد أثرت على الحالة الاقتصادية – لكن الوثائق التى عثّر

علـيها تـدل علـى تقـدم الزراعة والصناعة والرعى بالإضافة للتجارة بين مصر والسـودان، وبيـن مصر والخارج، خاصة أن بلاد السودان كانت المصدر الرئيسى للذهـب وغيره من الأحجار الكريمة، وكانت حياة الملوك الكوشيين واهتمامهم بالخيل الـتى عـثر على مقابر عده لها فى بلاد النوبة مما جعل بعض المؤرخين يشبهونهم بالمماليك الذين حكموا مصر لفترة طويلة فى العصر الحديث من حيث الثراء والجاه.

رابعاً: الحالة الثقافية :

لفـت نظـر المؤرخين كثرة الوثائق الخاصة بالمعاملات بين الأفراد (العقود الخاصة بالملكية والبيع والشراء والتسجيل ...) المكتوبة (بالديموطيقية) وهى كتابة الشـعب التى تطورت من (الهيراطيقية) باختصار إشارتها لتلائم الأغراض اليومية العادية ككتابة العقود وغيرها.

ولعل كثرة هذه الوثائق يُعتبر دليلاً على زيادة المعاملات.

وقد عكف بعض الأثريين على دراسة اللغة التى كُتبت بها اللوحات التى عُثر عليها من العصر الكوشى مثل لوحه الملك (بيعنخى) التى عُثر عليها فى معبد جبل برقل، ولوحه الملك (شبكا) التى عُثر عليها بمنف ولوحات الملك (تهرقا) التى عثر عليها فى معبد الكوه.

ومـن دراسـة هـذه اللوحات يبدو أنه كانت توجد فى هذا العصر طبقة من الكُـتاب مـتأثرة إلـى حد كبير بالكتابات القديمة التى اشتهر بها الأدب المصرى القديـم، وكان هناك شيء من التقليد والنقل من كاتب لآخر، ويبدو أنه كانت هناك محاولـة فـى هـذا العصر لإحياء التراث القديم لمصر، لكن دراسة اللوحات التى أقامها بعض الملوك المتأخرين من ملوك نباتا تدل على تدهور واضح فى فهم اللغة المصرية القديمة وفى التعبير عنها.

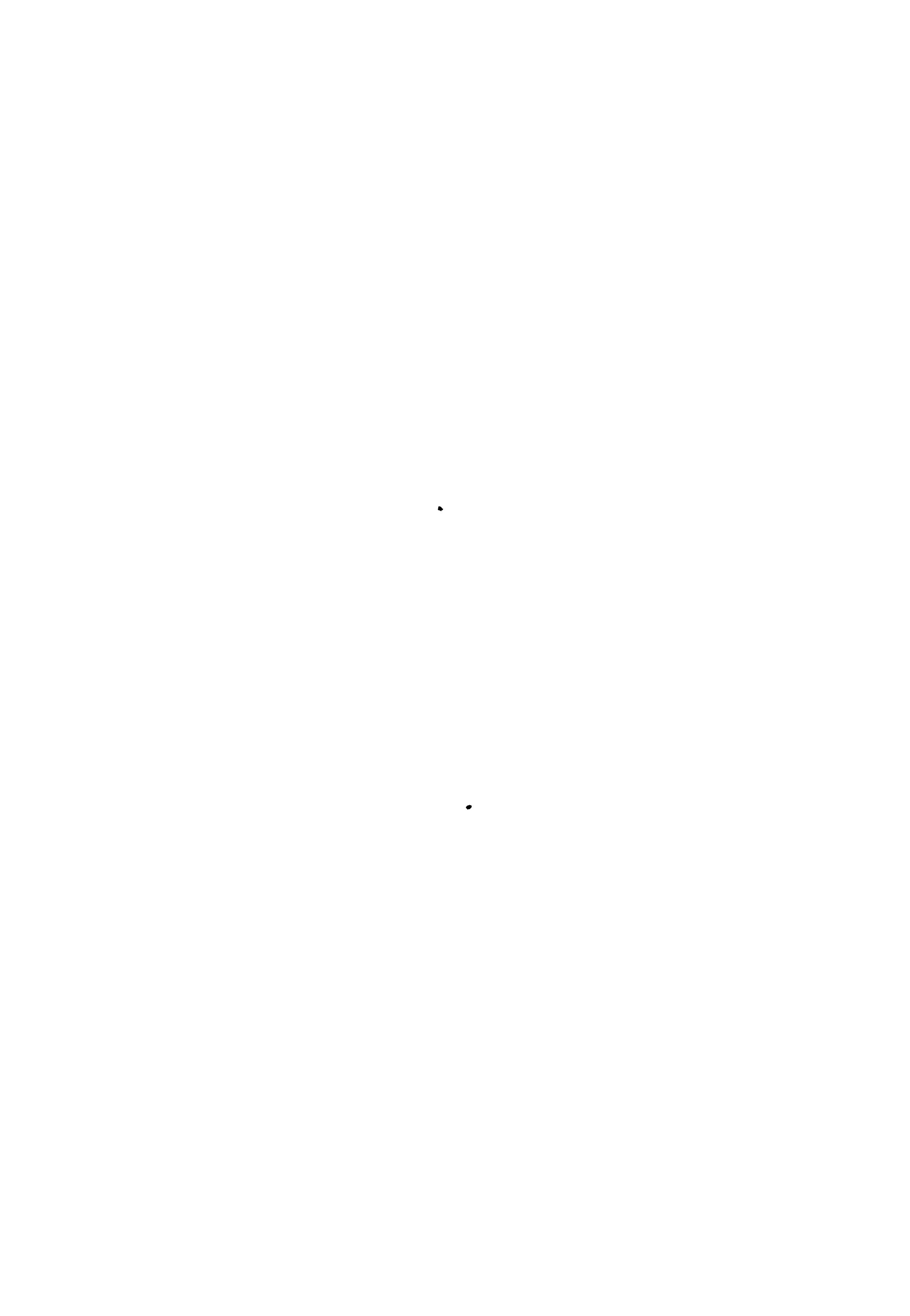
و لا شـك فـى أن الحـياة الثقافـية فى (نباتا) كانت أكثر اتصالاً بالحضارة المصـرية الفرعونـية، لكـن حين تركزت حضارة بلاد النوبة فى (مروى) كانت الحضارة اليونانية هى المسيطرة على العالم القديم وكان ذلك فى عصر البطالمة.

ومنذ ٣٠٠ ق. م يمكن أن نتحدث عن دولة مروى.



الفصل السادس
مملكة مروى النوبية
ودورها السياسى والحضارى

- ظهور مملكة مروى.
- ملوك مملكة مروى.
- مراكز الحضارة النوبية فى هذه الفترة.
- محاولات الفرس، والبطالمة، والرومان، والبليمينى، والبجا غزو هذه البلاد.
- حضارة العصر المروى.



الفصل السادس

مملكة مروى النوبية ودورها السياسى والحضارى

ظهور مملكة مروى :

ظهـرت بالسودان بعد أن ضعفت دولة نباتا مملكة (مروى) فى الجنوب وقد أشـرنا إلى العوامل التى أدت لانتقال مركز القوة والسياسة جنوباً- ونشير هنا إلى أن مـروى هـذه تقوم قرب (شندى) الحالية وهى غير البلدة المعروفة الآن بنفس الاسم والواقعة قرب نباتا- وقد عاصرت مملكة مروى حكم الفرس - والبطالسة- والرومان بمصر وكانت لها مع كل منهم وقائع سنشير إلى بعضها.

وامتد سلطان مملكة (مروى) من الشلال الأول إلى حدود الحبشة - وقد عثرنا علـى آثـار لملوك هذه الملكة، منها آثار هيكل ضخم يبدو أن محيطه كان يبلغ ما يقـرب مـن ١٠٠٠ ياردة، بالإضافة لعدد من الأهرامات يربو على ثمانين هرماً، وهياكل أخرى فى مناطق متعددة فى بلاد النوبة فى نباتا، ودكه، وغيرهماً.

وقـد بلغـت هذه المملكة من القوة حتى قيل إن جيشها كان يصل تعداده إلى ٢٥٠,٠٠٠ مقـاتل وأنـه كانت فيها نهضة صناعية حتى بلغ الصناع فى مختلف الصناعات القائمة فى ذلك الوقت ٤٠٠ صانع- وكان للمرأة مركز سام فى مروى فاستطاع عدد غير قليل من الملكات أن يتربع على عرشها.

وكـان موقع مدينة (مروى) فى مفترق طق التجارة سبباً فى ثرائها حتى قبل أن تصـبح حاضرة لمملكة (مروى) - وقد كان ملوك نباتا يُقدرون أهميتها فكانوا يرسـلون إليها من ينوب عنهم فى حكمها وغالباً كان الحاكم (ابن ملك نباتا) وبقى الوضـع كذلـك حـتى ضعفت مملكة نباتا كما ذكرنا وبدأت مروى تظهر كأمتداد سياسى وثقافى لمملكة نباتا الشمالية.

وقـد نشر (Reisner) أيضاً ثبتاً بملوك مروى ويحتوى هذا الثبت على أسماء مـا يقـرب من ستين ملكاً وملكة، منهم أربعون ملكاً وعشرون ملكة، وقد وجدت مقابـرهم فـى (مروى) ذاتها أو فى جبل (البرقل) - ويبدو أن حكم هؤلاء الملوك امتد من القرن الثالث ق. م. إلى أوائل القرن الرابع الميلادى.

علـى أنـنا نشير إلى أن الدراسات والبحوث الجديدة التى عُملت بعد أن نشر (ريزنر) قائمته فى عام ١٩٢٣ - خاصة التى قام بها الاثرى دوس دنهام (Dows

(Dunhum)، والأستاذ هنتسة (Hintze) دعت إلى إجراء بعض التغيرات فى الترتيب الذى اقترحه ريزنر لملوك العصر المروى ومُدد حكمهم وهو ترتيب عُمل على أساس دراسة المقابر التى عثر عليها لملوك هذا العصر.

ملوك مملكة مروى :

ما يمكن أن نخرج به من دراسة قوائم ملوك كوش هو أن هؤلاء الملوك يمكن تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات:

١- من أول حكم الملك كاشتا (٧٥٠ ق. م) حتى بداية الملك إسبالتا (٥٩٣ ق. م) وتشمل هذه المجموعة تسع ملوك، ولا يوجد خلاف فى ترتيب هؤلاء الملوك وتحديد مدد حكمهم.

٢- من أول حكم الملك اسبالتا (٥٩٣ ق. م) إلى الملك أرجامنز (Argamines) وقد ثبت أن هذا الملك الأخير كان معاصراً لكل من بطليموس الثانى والثالث والرابع وهذا يتفق مع تحديد فترة حكمه بالفترة من (٢٤٨- ٢٢٠ ق. م).

٣- من حكم الملك أرجامنز إلى نهاية العهد المروى- وتمتد هذه الفترة إلى أوائل القرن الرابع الميلادى.

وقد حاول لبسيوس (Lepsius) جمع أسماء ملوك وملكات مروى، كما حاول عن طريق دراسة الآثار التى عُثر عليها تتبع المظاهر الحضارية لبلاد النوبة فى هذه الفترة- وقد استطاع فعلاً أن يصل إلى حقائق ودلائل تلقى أضواءً على هذه الفترة من تاريخ بلاد النوبة، لكنه لم يستطع أن يصل إلى ترتيب دقيق للملوك حسب فترات حكمهم.

ومما لاحظه هذا الأثرى أن ملوك بلاد النوبة تركوا نهائياً الحصون القديمة التى كان قد أسسها فراعنة مصر فى بلاد النوبة.

مراكز الحضارة النوبية فى هذه الفترة :

المدن والأماكن الهامة التى تُعتبر مراكز للحضارة النوبية فى هذه الفترة هى من لشمال للجنوب(١).

١- عمارة Amara :

تقع على الشاطئ الشرقى للنيل على بعد ١٣٠ ميلاً شمال وادى حلفا قرب

1 Budge: Vol11. P. 116

(كوشـــه) وتشـــتهر بمعـــبدها وقد نقشت على أعمدته صور للملوك والملكات وهم يقدمون التقدمات للآلهة، والمعبد مبنى حوالى ٣٠ ق. م.

٢- نباتا Napata :

تقـــع علـــى بعـــد ٦٤٨ من وادى حلفا جنوباً أى قرب الشلال الرابع، وقربها أهـــرامات (الكورو) ثم على الضفة الأخرى للنهر أهرامات (نورى) وكذلك توجد قربها مجموعة أهرامات (جبل البرقل).

وجـــبل برقل وهو الذى أطلق علية فى الكتابات المصرية القديمة اسم (الجبل المقـــدس) يقع على بعد ميل من النيل، وارتفاعه عن سطح البحر يبلغ (٣٠٢ قدم). والمـــنطقة الغربية من النهر كانت المصدر الذى حصل منه النوبيون على الأحجار التى استخدموها فى بناء مقابرهم ومعابدهم وقد بُنيت الأهرامات فى الجهة الغربية فى ثلاث مجموعات.

أهرامات نورى :

تقـــع أهرامات نورى على الضفة الأخرى للنيل فهى مختلفة من حيث الحجم اخـــتلافاً واضـــحاً وقد سقط وتهدم الكثير منها لدرجة أن الأثريين الذين زاروا هذه المـــنطقة اخـــتلفوا فى تحديد عدد هذه الأهرامات فقد حددها هوسنكر (Hoskins) بخمســـة وثلاثين، بينما ذكر ليبسيوس (Dr. Lepsius) أن عددها خمسة وعشرون، فقـــد امـــتدت يد التخريب إلى هذه الأهرامات واستخدام الاهالى أحجارها فى بناء المقابر والمنازل والسواقى.

وقـــد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ بناء أهرامات نورى- لكن يُعتقد أنها ســـابقة لأهرامات (جبل البرقل) وأهرامات (جزيرة مروى)، ولعلها أقدم أهرامات أُقيمـــت فـــى السودان، ويبدو أنها بُنيت كتقليد لأهرامات الدولة القديمة فى مصر- ونحـــن نعلـــم أنـــه بعد فتح سنوسرت الثالث لبلاد النوبة أخذت كثير من العادات الجـــنائزية تتســـرب إلى هذه البلاد - لكن حجم هذه الأهرامات يدل على أن بُناتها كـــانوا حكاماً مستقلين، وكان تحت إمرتهم عدد كبير من الأفراد فحين كانت قبضة الفـــرعون المصرى على بلاد النوبة قوية كان من المتعذر على أى حاكم نوبى أن يبنى مثل هذه الأهرامات.

فهـــى إذا تكـــون قد بُنيت فى فترة من فترات الضعف فى مصر التى ضعفت فيها بالتالى سلطة الفرعون المصرى فى السودان.

٣- مروى Meroe:

تقــع على ضفة النيل الشرقية على بعد ٨٧٧ ميلاً من وادى حلفاً عن طريق الــنهر، لكن المسافة تصبح ٥٥٤ ميلاً تقريباً إذا استخدم الطريق الصحراوى (حلفا - أبوحمد) بدلاً من طريق النيل - وهى قرب بلده (كبوشية).

وتوجــد فــي جزيــرة مروى عدة مجموعات من الأهرامات- وأول من قام بحفــريات فــى أهــرامات جزيرة مروى هو الطبيب الايطالى فيرلينى (Joseph Herlini) فقــد دخل فى خدمة الحكومة المصرية فى عام (١٨٣٠) فى عهد محمد على، فأرسل إلى سنار ثم إلى كردفان وأخيراً استقر به الأمر فى الخرطوم كطبيب فــى الجــيش المصــرى- وقد قام هذا الطبيب بعمل حفريات فى أهرامات جزيرة مــروى مستعيناً برجل ألبانى يدعى استيفانى Antoine Stefani كان قد عاش فى هذه المنطقة مدة طويلة.

وقد عثر على مقبرة بها عظام آدمية لعده جثث، كذلك عثر على عظام خيول وجمــال - كمــا كشــف أحــد الأهرامات التى رمز لها (Cailliaud) فى رسمه لأهــرامات مروى بالحرف (F) وظهر أنه لإحدى الملكات التى كانت تسمى باسم كندا كه (Candace) وجدت فى أشكالها مرتدية رداءًا خاصاً وتتزين بجواهر غير عاديــة مما يدل على ثرائها، كما عُثر على عدة حلقان من الزجاج وتماثيل للآلهة وأوانــى بها مواد لتكحيل العيون- وقد عمل (فيرلينى) ورفيقه اكتشافات فى أربعة أهــرامات صغيرة فى مروى- وخرج فيرلينى بمجموعة نادرة من الآثار ذكر أنه وجدها فى حجرة بهرم الملكة السالفة الذكر على ارتفاع خمسة أو ستة أقدام - وأنه هــرب بهــذه الآثار خوفاً من العمال السودانيين الذين كانوا يعملون معه أو من أن تكتشف الإدارة المصرية فى السودان فى ذلك الوقت أمره وتضع يدها على كل أو بعض ما وصل إليه.

وقد نشر اكتشافه بالإيطالية فى سنة (١٨٣٧) وألحق به مصوراً يحتوى على صــور الأشياء التى وجدها- وقد ظهرت ترجمة بالفرنسية لكتابه فى (١٨٣٨) مع إضــافات وشرح ووصف للطريق لمروى.. والآثار التى عثر عليها موجودة الآن بمتحف برلين.

لكــن يشــك كثير من الأثريين فى صحة ما ذكره (فيرلينى) عن مصدر هذه الآثــار إذ لــم يعــثر فــى الأجزاء العلوية لاى هرم آخر بالسودان على مثل هذه المجوهرات، كما أنه لا يُعقل أن أى شخص يُريد أن يخبئ هذه المجوهرات يختار

مثل هذا المكان الذى يسهل الوصول إليه إذ يذكر أنه بمجرد ازاله بعض الطبقات من الحجـارة بمساعدة أربعة من رجاله وصل إلى مدخل الحجرة التى وجد الكنز منثوراً فيها- فالعقل لا يصدق أن ملكة من ملكات مروى تفكر فى أن تخبئ مجوهراتها فى مـثل هـذا المكان- ولم يذكر لنا بدقة كيف كان وضع هذه المجوهرات فى الحجرة، كـل مـا ذكـره هو أنه وجد كتلة ضخمة مغطاة بقطعة بقماش وأنها تفتت إلى قطع صـغيرة بمجـرد لمسـها وأنـه تحت القماش ظهر ما يشبه المنضدة المستطيلة من الخشب محمولة على أربعة أرجل وتحتها كانت الاوانى التى تحتوى على هذه الآثار الذهبـية الـتى عـثر عليها. ويذكر أن هذه المنضدة لعلها كانت سريراً يُوضع عليه الميـت وأنه يُشبه الكرسى الذى يجلس عليه الاهالى وينامون اليوم، وقد استغرق هد هـذا الهـرم (١٥يوماً)، وأنه لما أزال الجزء الأول منه وجد حجرة أخرى عثر بها علـى آنيتيـن من المعدن من أجل الاوانى المنقوشة فهما كأنهما قد خرجا من أيدى الصـناع علـى الفـور- ووجود هذه الاوانى فى هذا المكان يدعو للشك أيضاً إذ أن المعتاد أن تدفن هذه الأشياء مع الميت ليستخدمها فى الحياة الثانية.

وقـد رجـح بعض المؤرخين أن الأشياء التى حملها (فيرلينى) معه وضمها المحلـق المصـور الخـاص بكـتابه، وُجـدت فى أماكن متعددة فهى أشبه شيء بالمجموعـات التى يجمعها اللصوص من عدة مقابر وليست ملكاً لملك واحد، وقد تكون سرقت من المقابر فى عصر من عصور الفوضى، كما حدث فى مصر لكن حـتى هذا الفرض يصطدم مع ما ذُكر من أنها وُجدت فى الجزء العلوى من الهرم الـذى يسهل الوصول إليه- ولذلك يعتقد (بدج) Budge أن فيرلينى قد اشترى هذه الأشـياء فى (قوص) أو فى أى بلد آخر أثناء رحلته فقد كان بيع الآثار التى يعثر علـيها الاهـالى أو يسـرقونها من المقابر شيئاً شائعاً، وأن ما ذكره هو خليط من تجاربه ومما سمعه من الاهالى الذين احتك بهم فى مصر وفى السودان[1].

وبعـد عودة (فيرلينى) لأوروبا باع هذه الآثار وقد ذهب الجزء الأكبر لمتحف برليـن كمـا كان جزء من نصيب متحف (ميونخ) – على أنه لم يذكر لنا هل هذه الآثـار التى ذكرها هى كل الآثار التى عثر عليها أو أن هذا هو بعض منها؟ لأن اتفاقه مع رفيقه كان على أساس أن يتقاسما كل ما يعثران عليه، ولا شك فى أنه لو ثبـت صـحة نسبة هذه الآثار (لمروى) فإنها تقدم لنا مادة فريدة لدارسة الحضارة المروية ومدى ما وصلت إليه من تقدم.

1- Budge: Vol. 2. P. 298.

هــذا وقــد قــام بدج (Budge) بكشف ودراسة أهرامات ملكات مروى ونشر الــنقوش الــتى عُثر عليها على هذه الأهرامات مشُيراً إلى رمز كل منها فى الرسم التخطــيطى الذى قام به كيو (Caillaud) ورسم هوسكنس (Hoskins)، ورقمه كما رمز له ليبسُيس (Lepsius). وذكر بدرج أنه رغم أن ستة على الأقــل – من الاثنى عشــر هــرماً التى فتحوها ثبت أنها أهرامات ملكية- فلم يعثروا فيها إلا على أوان قلــيلة، كمــا ظهر أن العمال الذين اشتغلوا فى بناء هذه الأهرامات لم يستطيعوا أن يحفــرواً فــى الصــخر الصــلب حجرات منتظمة كالتى نلاحظها فى مقابر فراعنة مصــر- فلــم يهتموا بأن تكون الحفرة منتظمة الشكل أم لا، ويبدو أن ملوك مروى قلــدوا الكثــير من العادات المصرية القديمة فى الدفن وفى النقوش التى على جدران المعــابد. وذكر (بدج) أن الجنود المصريين أسهموا فى وقت الفراغ فى تمهيد الطرق لأهــرامات مروى وفى ازاله الكثير من الرمال من مداخل المعابد، وذلك حسب أمر حاكم عام السودان السير ونجيت (Sir Reginald Wingate) وقد يسر له ذلك مهمته فى دراسته لهذه المنطقة أثناء رحلته العملية سنة (١٩٠٣) للسودان[١].

٤- واد بانجا (Wad Banagaa):

يقــع علــى بعد (٢٤ ميلاً) جنوب شندى – وتوجد هنا بقايا عدة معابد، وتدل الآثــار إلى عُثر عليها على أن هذا المكان كان مركزاً هاماً للقوافل فقد عُثر على بقايــا خزانات للمياه للإستفادة بها فى خزن المياه فى زمن الأمطار- وتمتاز معابد هــذه المــنطقة بنقوشــها الفريدة – وقد قدم لنا كل من (Cailliaud) و(Lepsius) وصــفاً لهــذه المعابد وما عليها من النقوش التى تُعتبر من أجمل النقوش التى عُثر عليها فى بلاد النوبة.

١- من أهم الأثريين الذين قاموا بدراسة منطقة مروى:

Cailliaud, Hoskins, lepsius & Budge.

وقد قسموا أهرامات هذه المنطقة إلى مجموعتين شمالية وجنوبية – ولوحظت خلافات واضحة بين كل من المجموعتين وأطلق علــيها مجموعة (بجراوية شمال) ومجموعة (بجراوية جنوب) وبجراوية قرية على الضفة الشرقية للنيل على بعد (٤٠٤ ميلاً) جنوب عطبره وتوجد بها أكبر مجموعة من آثار مروى، ويعيش أهلها على زراعة الذرة. والمجموعة الشمالية – عد أهراماتها (٤٣) هرماً – وأما الجنوبية فعدد أهراماتها (٥٠ هرماً) وإن كان الكثير منها قد أصابه الدمار- على انه توجد غرب هذه المجموعــات مجموعــات أخــرى من الأهرامات لكن حالتها سيئة ويبدو أنها ترجع لعصر متأخر عن المجموعتين السابقتين، ولعلها ترجع للقرن الثانى أو الثالث الميلادى.

أمــا عــن رحلات بدج للسودان فقد أشرنا إليها فيما بعد- عند الحديث عن الرحالة الذين زاروا السودان – بشيء من التفصيل.

والمعـــابد هنا موجودة فى منطقتين – مجموعة منها فى الطرف الشرقى عند (Masawwarat As Sufra)، ومجموعة موجودة فى الشمال.

٥- سوبا :

تقع على الضفة اليمنى للنيل الأزرق على بعد أمتار قليلة من مدينة الخرطوم الحالية وقد أصبحت فيما بعد عاصمة لمملكة علوه المسيحية بالنوبة.

وقـــد حمـــل ملـــوك مروى ألقاب الفراعنة كما فعل ملوك نباتا وأطلقوا على أنفسهم أسماء (أبناء رع).

عجـــز الفرس عن غزو مملكة مروى وإن كان (هيرودوت) يذكر أن النوبيين كـــانوا يقدمـــون لحكام الفرس فى مصر هدية من الذهب والعبيد والعاج لكن على الأرجـــح أن هـــذه الهدية كان القصد منها تيسير عملية التبادل التجارى بين مصر والسودان وتأمين القوافل التجارية وعدم التعرض لها.

وفـــى عهـــد البطالســـة – اســـتولوا علـــى جزء من النوبة السفلى حتى بلدة (المحرقة).

وكـــان الملك أرجامنز (Argamines) أو أركمين (Arq. Amen) كما يُسميه بعض المؤرخين – وهو من أعظم ملوك مروى- مُعاصراً لبطليموس الثانى (٢٨٣-٢٤٧ ق. م) وقـــد قامـــت بينهما علاقات مودة ومحبة فازدادت التجارة بين مصر والســـودان، وكانـــت أنظـــار البطالســـة فى الحقيقة متجه إلى مناجم الذهب بوادى العلاقـــى- وحـــاول بطليموس الثالث أن يجرب استخدام الطريق البحرى للاتصال بين مصر وبلاد السودان، وقد عثرنا على لوحه أثرية فى عام (١٨٨٤) عند بيثوم Pithom (تـــل المسخوطة) قرب بحيرة التمساح تدل على أن بطليموس أرسل سفناً بحـــرية إلى همزيتت (Khemthihet) بالسودان عن طريق خليج السويس وأن قائد هـــذه الحملة البحرية عاد بنفائس كثيرة من هذه البلاد مما دفع بطليموس حين علم بخـــيرات هذه البلاد وثروتها أمر بتشيد مدينة ابيثيراس (Epitheras) لتكون قاعدة اتصـــال وتجارة بين مصر والسودان ولعل هذه المدينة لا تبعد كثيرا عن (سواكن) الحالية[1].

وقد حذا حذوه غيره من ملوك البطالسة فى استخدام الطريق البحرى للاتصال بالســـودان فمثلاً ذكر أن (بطليموس الرابع) أرسل بعثات كثيرة عن طريق موانئ

1- Budge: Vol. 2. P. 111.

البحر الأحمر لقنص الفيلة للاستعانة بها فى الحروب – وانه أصلح بناء معبد (الدكه) بالنوبة الذى بناه (أرجامنز) ملك النوبة.

آثار مروى :

المعروف أن المعبد الذى أقامه (أرجامنز) فى الدكه أقيم على أسس مصرية بحته، وأن حجرة الدفن بهرم هذا الملك الموجود بالقرب من مروى قد زينب بمناظر (كتاب الموتى) حسب الشعائر المصرية مما يقطع بأنه رغم تغلغل الثقافة الإغريقية لبلاد النوبة لدرجة أنه كان بمروى وفى بلاط ملوكها بعض الأدباء الإغريق – فان ملوك الكوشيين مع ذلك ظلوا محافظين على كثير من المظاهر الفرعونية.

وقد أوضح الاثرى الانجليزى الدكتور (بدج) أنه على كثير من أهرامات مروى وجدت نقوش تُمثل صور محكمة (أوزيريس) بقضاته الإثنين والأربعين كما تمثل فصولاً من كتاب الموتى(١).

وقال: "ساد السلام العلاقات بين مصر والسودان طوال عهد البطالسة وراجت التجارة بين البلدين وكانت القوافل لا ينقطع سيرها، دون أية عقبة فى سبيلها اللهم إلا ما كان من سطو بعض قطاع الطرق، والضرائب الباهظة التى كان يطلبها أحياناً حكام المدن التى كانت تُعرض فيها تلك السلع للبيع(٢).

ويلاحظ أن البطالسة كانوا يُطلقون على مملكة مروى اسم (اتيوبيا) وقد سمحوا لملوك النوبة بزيارة (معبد ايزيس) لتقديم القرابين والهدايا فى عيدها السنوى.

وقد عُرف عن الملك مروى (أرجامنز) هذا أنه لإعجابه بالحضارة الإغريقية أدخل فى مملكته الكثير من النظم والقوانين الإغريقية.

ومن آثاره الهيكل الذى ذكرناه (فى الدكة) وقد أقامه على أطلال معبد قديم من عهد الأسرة الثانية عشرة(٣).

1- Budge: Vol. 1. P. 384.

2- Budge: Vol. 2. P. 113.

ملاحظة: يذكر (ديودور) انه كانت هناك عادة متبعة فى مروى أن الكهنة إذا ضاقوا ذرعاً بملكهم يأمرونه على أساس أن هذا أمر صار من الإله– وحين يقتل الملك نفسه يفعل خدمة بأنفسهم نفس الشيء – وأن الأمر ظل كذلك حتى عهد (أرجاميتر) الذى رفض أن يخضع للكهنة وقاد جنوده إلى (نباتا) حيث قتل الكهنة – أنظر:

Budge: Vol. 2. P. 154.

3- Emery: P. 117.

وقـــد لقب ارجامنز نفسه بألقاب فرعونية فسمى نفسه (ابن رع وحبيب ايزيس) إلـــى غير ذلك من الألقاب المنسوبة إلى الآلهة المصرية- وعُثر على هرم هذا الملك فـــى جبانة مروى، بل انه لقب نفسه بملك الشمال والجنوب ولعل ما شجعه على ذلك أن مصـــر فى نهاية عهد بطليموس الرابع وفى أوائل حكم بطليموس الخامس كانت مشـــغولة بحركة تمرد قام بها الجنود فى مصر العليا ولا يبعد أن يكون الملك النوبى قد شجع المتمردين، ودام حكم الملك (ارجامنز) ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً.

ومـــن الملـــوك الذيـــن اشتهروا فى مروى (أذخر أمن) وله هيكل فى ديبود (Dabud).

وعـــندما خضـــعت مصـــر للرومان (٣١ ق. م) وعُين (كورنليوس جاليوس) (Cornelius Gallus) حاكمـــاً رومانياً بمصر من قبل الإمبراطور (أغسطوس) تقدم هذا الحاكم الرومانى صوب مصر العليا فأخضع جميع أهل مصر لسلطان الرومان- وبعـــد أن خضـــعت- (طيـــبه) له وكانت هى مركز القلاقل والثورات يُساعدها أهل الـــنوبة المقيميـــن جـــنوب الشلال الأول- سار الحاكم الرومانى (كورنليوس) حتى أسوان، وهناك دعا رؤساء النوبيين المقيمين قرب (فيله) جنوبى وادى حلفا- وأفهمهم مـــا أصـــبح لـــروما من حقوق فى تلك المنطقةمن وادى النيل - وعرض عليهم أن يحتفظوا باستقلالهم على أن يدفعوا الضرائب المقررة ويحترموا الحدود.

لكن يبدو أن أهل النوبة كانوا يتحينون الفرصة للثورة على الرومان فقد عثرنا على لوحة مكتوبة بالهيروغليفى والاغريقى والرومانى عند (فيله) تتحدث عن قيام الرومان بإخماد ثورة فى بلاد النوبة سنة ٢٩ ق. م.[1]

كمـــا أن الـــرومان أنفســـهم كـــانوا يطعمون فى مد نفوذهم من مصر للبلاد المجـــاورة وحـــدث أنه لما استتب الأمر للرومان أرسل الإمبراطور الرومانى إلى الوالـــى الرومانى بمصر وكان يُدعى (اليوس جاليوس) (Aelius Gallus) ليخرج علـــى رأس حملـــة لإخضاع بلاد (اليمن) أما سلما أو حرباً ليضع الرومان أيديهم علـــى الكـــنوز التى يُشاع وجودها هناك، ولكن لم تُحقق هذه الحملة هدفها إذ فتك المرض برجالها وفقدت الكثير من سفنها.

وأهمـــية هذه الحملة فى موضوع حديثنا أن أهل النوبة انتهزوا هذه الفرصة- فرصـــة خـــروج الجيش الرومانى من مصر- وغزوا (طيبه) وهاجموا الحاميات الرومانية التى قابلوها وانتزعوا تماثيل قيصر وكان ذلك فى عام ٢٣ ق. م.

1- Budge: Vol. 2. P. 166.

وكـــان علـــى عرش مملكة (مروى) فى ذلك الوقت ملكة تلقب بـــ (كندا كه)، والمـــرجح أن هـــذا هـــو اللقب الذى كانت تتخذه الملكات اللواتى تولين الحكم فى مـــروى ولـــيس اســـماً لملكة معينة- ولما وصلت أخبار هذه الحملة للإمبراطور الـــرومانى أمر حاكم مصر المعين حديثاً والمدعو بترونيوس (Gaius Petronius) بـــأن يخـــرج على رأس جيش كبير يبلغ ١٠,٠٠٠ من المشاة، ٨,٠٠ من الفرسان لمحاربة الجيش النوبى – وكان الجيش النوبى قد استولى على الأقاليم الجنوبية من مصـــر وهزم الحاميات الرومانية بها، وقُدر عدد هذا الجيش النوبى بـــ ٣٠,٠٠٠ مقـــاتل، واضطر الجيش النوبى للانسحاب إلى قرية (الدكه) الحالية – وهناك التقى الجيشان وإنهزم الجيش النوبى وطلب القائد الرومانى من النوبيين أن يُعيدوا كل ما غـــنموه، وسألهم عن سبب نقضهم للعهود، ولما أجابوا بأن ذلك يرجع لسوء معاملة الموظفيـــن والحكـــام الرومان- أجابهم القائد الرومانى (بترونيوس) "بأنهم يجب أن يخضـــعوا لأوامـــر الرومان، وأنهم ما كانوا قط سادة بلاد سيدها قيصر"- وطلب مـــنهم أن يـــتعهدوا بالخضوع وعدم العودة للعصيان مرة أخرى[1]. ولما لم يصله مـــنهم رد قـــاطع مُقـــنع هاجمهم بجيشه ولم تُجد أسلحة النوبيين من رماح وقسى وســـيوف أمـــام أســـلحة الـــرومان فقُتل منهم عدد كبير وفر الباقون وتبعهم القائد الرومانى وأسر منهم عدداً كبيراً، وتتبع الفارين فوصل إلى (أبريم) واستولى عليها وتـــابع الســـير فى النهر حتى وصل (نباتا) العاصمة القديمة، واستولى فى طريقة علـــى المـــدن المهمة، وأرسلت الملكة رُسلها تطلب الصلح، عارضة إطلاق سراح مـــن لديهـــا من الأسرى وإعادة تماثيل قيصر التى كان النوبيون قد استولوا عليها، لكـــن اســـتمر (بترونيوس) فى مهاجمة (نباتا) ودخلها ودمرها وأخذ الكثيرين من الأســـرى والغنائم، لكنه أضطر للرجوع إذ وجد أن شدة الحر وكثرة الرمال تحول دون مـــتابعة الـــتقدم جـــنوباً- وترك (بترونيوس) فى (أبريم) ٤٠٠ مقاتل رومانى ومعهـــم من المؤن ما يكفيهم لمدة عامين – وعاد إلى الإسكندرية ومعه لآلاف من أسرى النوبيين أرسل بعضهم لقيصر.

لكـــن لم يكد (بترونيوس) يعود للشمال حتى عادت الملكة النوبية (كندا كه) تقود جيشـــاً كبـــيراً وهاجمت الحامية الرومانية الموجودة فى (أبريم)، وقبل أن تتمكن من الاستيلاء عليها عاد (بترونيوس) للجنوب- فأُضطرت لإرسال رسلها لطلب الصلح، لكـــن القـــائد الـــرومانى قـــبض عليهم وأرسلهم للإمبراطور حيث عرضوا قضيتهم

1- Emery : P. 25.

وأسـباب ثورتهـم، وقد أعادهم قيصر لبلادهم وقبل طلبهم فى أن يتركوا أحراراً فى بلادهـم على أن يدفعوا جزية معينة[1]. وقد عثر (ريزنر) فى حفائره على بقايا معبد (آمون) فى نباتا الذى خر به (بترونيوس) والذى كان قد بناه بيعتخى.

ومـن الـنقوش التى عُثر عليها على جدران المعبد عُرف أنه أصلح أكثر من مـرة، وقـد ذُكـرت أسماء ملوك النوبة الذين قاموا بإصلاحه ومنهم الملك (نيتيك أميـن) (Netek Amen) الذى حكم (١٥ ق. م- ١٥م)، والذى ذكر أنه استقدم من مصـر كثيريـن من مهرة الصناع والفنانين حيث عملوا على إصلاح المعابد التى خـربها الـرومان، وبذا انتعش الفن المصرى من جديد فى هذه البلاد بعد أن كاد نجمه أن يأفل.

ونشـير هـنا إلـى أن (معـبد كلبشة) بُنى أثناء حكم الإمبراطور الرومانى أغسطس (Augustus) وبجواره يقع معبد آخر لرمسيس الثانى معروف باسم معبد بيت الوالى (Abeit El- Wali) [2].

وفى عهد الإمبراطور الرومانى (نيرون) (٤٥- ٦٨ م) أرسل بعثة كشفية من بعـض ضـباطه وجنوده ليكتشفوا بلاد السودان، وكان فى نيته إرسال حملة لغزو الـنوبة طمعاً فيها سمعه عن ثروتها - وقد وصلت هذه البعثة إلى مدينة (مروى) وتابعـت السير حتى وصلت لمنطقة وصفتها بأنها صخرية فيها تعترض الصخور مجـرى الـنهر- ثـم تابعوا السير حتى وصلوا إلى إقليم تغمره مستنقعات عظيمة وتنبت فيها أعشاب كثيفة جعلت الملاحة مستحيلة.

ويبدو من هذا الوصف أن البعثة وصلت إلى قرب (بحر الجبل)، لكن للأسف لـم يصلنا الكثير من التفاصيل التى ذكرتها هذه البعثة الكشفية- وكان تقرير البعثة غـير مُشـجع للقـيام بالحملة المذكورة فقد ذكرت (أن ليس على ضفاف النيل إلا أرض بلقع)[3] - وهذا يدل على أن المعلومات التى كانت معروفة عن الأقاليم ذات الـثروة فى السودان سواء فى دارفور أو كردفان أو حول النيلين الأبيض والأزرق كانت طفيفة.

ولـم تحـدث أحـداث هامة خلال المائة عالم التالية حتى ٢٦٠م فقد رضى النوبـيون بأن يتركوا سيادة المنطقة الممتدة من (أبريم) جنوباً للشمال لحكام مصر

1- Budge: Vol. 2. P. 169.

2- Emery: P. 8.

3- Budge: Vol. 2. P. 171.

من الرومان- وكانت مدينة (المحرقة) جنوبى (الدكه) هى الحد الفاصل بين مصر والنوبة.

واهتم أباطرة الرومان من أمثال (تراجان) و(هدريان) بتعمير معابد (فيله، ديبود، كلابشة، دكه، السبوع، الدر، أبو سنبل الصغير، أبو سنبل الكبير) وغيرها.

لكن عادت القلاقل ثانية لهذه المنطقة بسبب قبائل (التلال) وكان الإغريق والرومان يُسمونهم البلمبيين، وهم من أصل (حامى) نزلوا بالصحراء الشرقية وكانوا يتنقلون فيها شمالاً وجنوباً طلباً للكلأ لإبلهم وماشيتهم ولعلهم من قبائل (البجه) المعروفة فى السودان الشرقى.

لكن منهم أيضاً من رحل للصحراء النوبية وانتشروا فى كردفان وغيرها ولم يحن القرن الثانى الميلادى حتى انتشرت قبائل البجه فى النوبة السفلى فى المنطقة الواقعة جنوب الحدود الرومانية فى المحرقة، واشتهرت هذه القبائل بشدة البأس وقد كانوا رغم اعترافهم بسيادة (مروى) كثيراً ما يهاجمون المدن المستقرة ويُثيرون الرعب فى سكانها[1].

على أن غارات البليميين على الحدود كانت مستمرة، ففى سنة ٢٦١ م سار إليهم ماركوس يوليوس (Marcus Julius) وهزمهم وردهم عن المناطق الجنوبية من مصر- ولكنهم بقوا مصدر إقلاق للرومان خاصة أنهم كثيراً ما لقوا العون والتأييد من سكان النوبة لمناوأة الرومان.

وفى ٢٧٢م انتهز (البليميون) فرصة انشغال الرومان فى مصر بإخضاع ثورة داخلية بالإضافة لحملة من الملكة زنوبيا ملكة (تدمر) فى الشام أرسلت لمساعدة الثوار فى مصر- فغزوا جنوب مصر وتقدموا حتى (فقط)، لكن استطاع الرومان إخماد الثورة فى مصر وهزيمة التدمريين ثم طاردوا البليميين جنوباً، ويذكر الرومان أن من الذين وقعوا فى الأسر من البجه أفراد من فروع البجه التى كانت خاضعة لمملكة أكسيوم (الحبشية) تحالفوا مع أخوانهم لقتال الرومان.

١- ملاحظة: يذكر Emery P. 26 "أنه حتى منتصف القرن الثالث الميلادى كان الجزء الجنوبى من بلاد النوبة لا يزال تحت سلطة ملوك مروى، وأنه رغم ظهور (البلمين) كقوة فلم يكونوا حتى ذلك الوقت قد كونوا مملكة مستقلة، بينما الجزء الشمالى بين (المحرقة) والشلال الأول كان معتبراً كجزء من الإمبراطورية الرومانية- لكن لم يحن عام ٢٩٧ م حتى كان البليمون قد استقلوا عن سلطة (مروى) وضغطوا على القوات الرومانية التى اضطرت للانسحاب حتى الشلال الأول" – وقد ظهر فى بلاد النوبة منذ عهد (دقلديانوس) عنصر جديد هم النباطيون (Nabatoe) ويرى بعض المؤرخين أنهم من ليبيا ونزحوا من شمال أفريقياً تحت ضغط الرومان ولعبوا دوراً كبيراً فى تاريخ بلاد النوبة.

وفـــى ٢٧٦م تجـــددت غارات (البليميين) على مصر ويبدو أنهم كانوا يلقون المســـاعدة والتأييد من المصريين فأُضطر الرومان لإرسال جيش لطردهم وإرجاع الحدود كما كانت عند المحرقة[1].

وفـــى عهــد الإمــبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥) زاد نشاطهم وتكررت اعتداءاتهم على جنوب مصر ورأى الإمبراطور إلا قبل للرومان على ردعهم، كما أنـــه أدرك أن (خـــراج) المـــنطقة الواقعة بين (المحرقة، وأسوان) لا يفى بنفقات الأعـــداد اللازمة من الجنود لحماية هذه المناطق فاستن سنة جديدة، فقد أخلى بلاد الـــنوبة الشـــمالية وأعاد الحدود المصرية إلى الشلال الأول وقوى حامية (الفنتين)، وعقـــد اتفاقـــاً مـــع قبائل السودان القوية البأس وكذا مع البجه على حفظ الحدود، واستطاع (دقلديانوس) بدهائه أن يُوقع بين القبائل بعضها والبعض الآخر[2].

وكانـــت هذه القبائل (قبائل البجه) تحج إلى معبد إيزيس (بفيله) كما كانت تُقدم القرابيـــن لتماثلـــيها، كمـــا تحمـــل تمثال (إيزيس) لتطوف به أنحاء بلادها ليجلب الخصـــب للمحصـــولات ثـــم تُعـــيده للمعـــبد ثانـــية- وقد ظلت هذه القبائل تثير الاضطرابات حتى أغلق الإمبراطور جستنيان معبد (فيله).

ويـــبدو من كتابات أحد المؤرخين الذين زارو المناطق الواقعة جنوب الشلال الأول فـــى الفترة (٤٠٧- ٤٢٥) م وهو المؤرخ المبيودورس (Olympiodorus) أن نفـــوذ الـــبجه كـــان فى ذلك الوقت يمتد على بلاد النوبة السفلى الواقعة جنوب الشلال الأول، فقد ذكر أن مدينة (تلميس) الواقع بالقرب منها معبد (كلابشة) كانت تحـــت سلطانهم- ويدل على قوتهم فى ذلك الوقت أنهم فى عام ٤٢٩م أغاروا على الواحـــة الخارجـــة وكـــان مـــن بين أسراهم عدد من المسيحيين منهم نستوريوس (Nestorius) الذى كان يعيش هناك فى (الفنتين) والذى كان بطريركاً للقسطنطينية فى ٤٢٨م وأثار الخلاف حول طبيعة السيد المسيح وأنتهى الأمر بنفيه لمصر، لكن الـــبجه فـــى عودتهـــم اصطدموا بقبائل صحراوية أخرى واضطروا لترك أسراهم وغنائمهم فلجأ هؤلاء لدير الأنبا شنودة (الدير الأبيض) فى أخميم[3].

وتجددت غارات البجه على الحدود المصرية الخاضعة للرومان حتى أنه فى منتصـــف القـــرن الســـادس وصلوا إلى طيبه واحتلوها، فأرسل الرومان بمصر

1- Emery: P. 27.

2- Ibid: P. 29 & 30.

3- Budge: Vol. 2 P. 17.

للإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (Theodosius II ٤٠٨ - ٤٥٠) لطلب النجدة - وفى عهد خليفته الإمبراطور ماركيانس (Marcianus) (٤٥٠- ٤٥٧) أرسلت حملة هزمتهم وعقدت معهم إتفاقاً مُدته مائة عام وسُمح لهم بالحج لمعبد (ايزيس) بفيله.

ويبدو أن (البجه) فى هذه المنطقة التى بسطوا سلطانهم عليها من بلاد النوبة السفلى أوجدوا نوعاً من النظام ولو أنه لم يكن لهم لغة خاصة مكتوبة، لكن كان هناك عُرف وتقليد أتبعوه فى حكم البلاد التى خضعت لهم، وقد عُثر على جلد الغزال تُعطى فكرة عن بعض الأسس المتبعة فى حكمهم، كما تُشير إلى أن الرومان قبلوا دفع مبلغ معين من المال لجيرانهم (البليميين) - على أنه مهما يكن فإن حضارة هؤلاء القوم موروثة ومُستقاة من حضارة العصر المروى الذى عاصروه وعاشوا فيه وخضعوا لسلطان ملوكه فترة غير قصيرة.

على أن الإمبراطور جستنيان (Justinian I ٥٢٧- ٥٦٥م) صاحب التشريع الرومانى المشهور أغلق معبد ايزيس وحرم عبادتها وحمل تماثيل المعبد إلى القسطنطينية لاعتقاده أن وجود المعبد فى هذه المنطقة هو من أسباب القلاقل والدسائس المتكرّرة فيها.

وكانت هذه القبائل تهدأ حيناً ثم تثور أحياناً حتى شُغل الرومان عنها بالنزاع بينهم وبين الفرس، فتركوا هذه القبائل بل كانوا أحياناً يدفعون لها شيئاً من المال فى مقابل خلودها للسكون.

وكانت لمملكة مروى علاقة وثيقة بحكام (أكسيوم) (الحبشة) ودليلنا على ذلك الأثر الاثيوبى الذى يبدو بوضوح فى معابدهم- ولا شك فى أن العلاقات التجارية كانت قائمة بينهما- ذلك فى الوقت الذى كانت تتمتع. مملكه مروى فيه بسلطانها وقوتها وتأثيرها على القبائل المجاورة وعلى التجارة المارة ببلادها.

و لا يذكر لنا التاريخ كيف انتهت مملكة مروى، لكن الوقائع تدل على أن هذه المملكة انتهت حوالى القرن الرابع الميلادى نتيجة هجوم البجه من الشمال وملوك أكسيوم (الحبشة) من الجنوب والشرق - وقد عُثر على نقش فى أكسيوم لملك يُدعى (عيزانا) (Azana) يُستدل منه أن هذا الملك قام بحملات لبلاد النوبة- ويبدو أنه لم يأت منتصف القرن الرابع الميلادى حتى كانت سلطة مملكة النوبة قد زالت وأصبحت هذه المنطقة مسرحاً لقتال عنيف بين القبائل.

وتدل القرائن على أن آخر ملوك النوبة هرب إلى (كُردفان) واتخذ منها ملجأ لــه- وفــى خــلال القــرون الثالث -الرابع- الخامس- السادس الميلادى كانت (أكســيوم) متصرفة فى هذه المناطق الممتدة حتى ساحل البحر الأحمر، وأتاح لها ذلك فرصة القيام بحملات ضد اليمن.

وقد أتاح اتجاه مملكة أكسيوم (المعروفة الآن بالحبشة) للبحر الأحمر الفرصة لظهور أسر قوية فى بلاد النوبة استطاعت أن تبسط سلطانها على بلاد النوبة وأن تقضى على قوة (البجه).

حضارة العصر المروى :

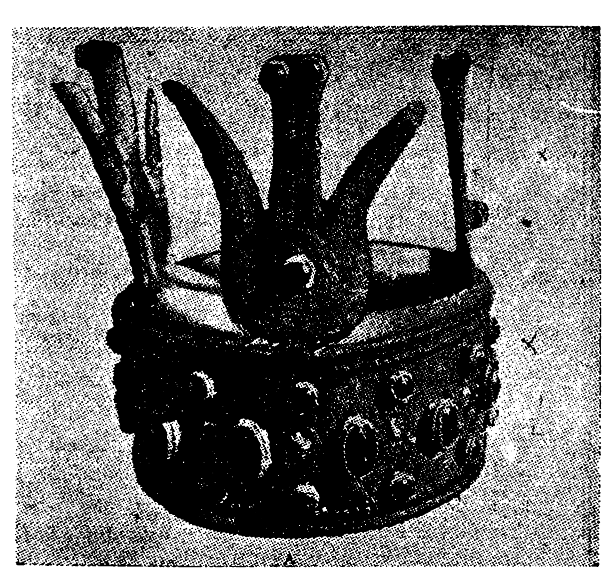
دل التنقيــب علـــى أن حضارة العصر المرورى كانت حضارة زاهية وأنها أخــذت تــنمو وتزدهــر مــتأثرة بالصــفة الفرعونية بالإضافة للتأثيرات الأخرى الإغريقية والرومانية والحبشية.

وقــد عُــثر على عدد كبير من الأهرام والمعابد فى قسطل (Qustul) وبلانة (Ballana) ووُجــدت تــيجان مــن الفضة المرصعة بالجواهر، وتماثيل صغيرة، ومجموعــة ثميــنة من الحلى والأسلحة والإطباق والملاعق - والتحف من البرنز على شكل مواقد ومباخر ومصابيح- ورقعة للشطرنج من العاج والأبنوس، وأطقم فاخــرة، وســروج من الجلد المصبوغ باللون الأزرق ومطعمة بالفضة والأحجار الكريمة ومُحلاة بالزخارف[1].

وتــدل الآثــار الــتى عُثر عليها على أنهم كانواً يضعون مع الميت فى قبره الطعــام والشــراب بالإضافة لتحفه الخاصة، كما أن العبيد والخيول والكلاب التى كانــت فــى خدمة الملك الميت كانت تدفن مع الملك ليصبح الجميع فى خدمته فى الحياة الأخرى كما كانواً فى خدمته فى الحياة الدنيا.

وقــد روى (هــيرودوت) أن النوبييــن كانوا يحفظون الميت ويطلون جسده بــالجص- ويدهــنونه بمــاده تجعلــه قريب الشبه بالأحياء ثم يُوضع فى اسطوانة مفــرغة مــن الــبلور بحيث يُرى الميت ولا تبعث منه رائحة الموت وتُحفظ هذه الاسطوانة لدى أقارب الميت لمدة سنة كاملة تُقدم له فى خلالها الذبائح وبواكير كل شىء حتى ينتهى العام فتنقل هذه الاسطوانة إلى المقابر.

١- انظر: Emery: P. P 44 -72.



تاج عثر عليه على رأس ملكة فى مقبرة (بالبلانة)

ويعتقد الأستاذ (Emery) – وهو الذى كان على رأس البعثة التى اكتشفت مقابر النوبة فى (قسطل) (والبلانة) فى عام (١٩٣١) – أن هذه الآثار للأشراف والملوك الذين كانوا يسكنون النوبة السفلى فى الفترة من القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادى، ويرجح أنها لأشراف وملوك (البليميين) وأنها امتداد للحضارة المروية، وبالتالى فهى تعتبر الصفحة الأخيرة من حضارة مروى التى أخذت الكثير من أصولها من الحضارة الفرعونية – وقد وصف لنا (إميرى) كل خطوه من خطوات التنقيب منذ بدأت البعثة تُسابق الزمن لتنتهى من مهمتها قبل إتمام مشروع تعليه خزان أسوان حتى تم ترتيب الآثار المكتشفة والمنقولة من هذه المقابر فى القسم النوبى بالمتحف المصرى.

وقد عثرت البعثة على عدة مقابر بعضها امتدت له يد اللصوص، لكن الكثير من محتوياتها اضطروا ليتركوه إما لانهيار الأتربة أو لأنهم اكتشفوا وُطوردوا، والبعض وُجد سليما وقد وُجدت بالإضافة لجثث الملوك المتوجة والموضوعة أسلحتهم بجانبهم– جثث عدد كبير من العبيد المدفونين مع ملوكهم لخدمتهم والذين يُعتقد أنهم إما ماتوا نتيجة إسفكسيا الخنق أو أنهم أعطوا السم أو أى دواء آخر مُميت قبل غلق المقبرة، بل وّجدت جثث لبعض الملكات اللاتى أجبرن على مصاحبة أزواجهن فى حياتهم الثانية إذ يبدو أن موت الملك كان يعنى التضحية

بكـــل الأقربين منه– زوجته وعبيدة وخيوله وكلابه الذكور والإناث، وقد وُجد عدد مـــن الجثـــث لأفـــراد مطـــروحة علـــى وجوهها كأن تكون قد ضربت بفأس من الخلف[1].



(بعض الأوانى والأدوات من البرنز عثر عليها فى مقبرة بالبلانة)

ويـــبدو أن حضـــارة (الـــبلانة) ترجع للعصر الذى بدأت فيه الدولة تضمحل ومظاهـــر الثروة تقل – وقد عثرت البعثة على آثار قنوات مائية قديمة وقد ثبت أن هذه المنطقة تمتاز بالخصب.

ويـــتحدث (سترابون) عن المرويين فيقول: "كانوا لا يستقرون فى مكان واحد فهم ينتقلون من مكان لآخر بقطعانهم، وأنهم يعيشون على الذرة والشعير ويصنعون مـــنه مشروباً يُعرف (بالمريسة)، وأن الفواكه نادرة عندهم إلا فى الحدائق الملكية، وأن البعض يتغذى بلب الأشجار، وهم يُقدسون ملوكهم.

ويتحدث عن عاصمتهم (مروى) فيقول أن اسمها على اسم الجزيرة التى توجد فيها، وأن الجزيرة مساحتها كبيرة وهى جبلية وبها مناجم للنحاس والحديد والذهب والأحجار الأخرى الكريمة وبها الملح الجبلى.

وأن المـــنازل فى المدن تُبنى من فروع الأشجار أو الأحجار، ويصيد الاهالى الفيلة والأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة – كما توجد الثعابين الضخمة.

ويســـتخدم الاهالى فى الحروب القوسى الخشبى– والنساء يحاربن مع الرجال ومعظمهن تضعن فى الشفة العليا حلقة من الذهب ويلبسن جلود الأغنام.

1- Emery: P. 37.

ويتعبد بعضهم للشمس- كما أن سكان (مروى) يعبدون الآلهة المصرية بجانب آلهتهم، وبعضهم يتصرف فى موتاه بإلقائهم فى النهر، والبعض يحتفظ بالموتى فى منازلهم محفوظاً فى اسطوانة من المرمر، والبعض يدفنون موتاهم حول المعابد. وهم يختارون ملوكهم من الأشخاص الذين يملكون أكبر عدد من الماشية أو لشجاعتهم، وللكهنة عندهم مكانة لدرجة أنهم يرسلون للملك أوامر لينهى حياته ويعينون من يحل محله - وإذا أصيب أحد ملوكهم فى أى جزء من جسمه فإن إتباعه المقربين إليه يُحدثون بأنفسهم نفس الإصابة وحتى يموتون مع الملك".

على أننا بالطبع لا نتقبل كل هذه الأقوال على أنها حقائق ثابتة، فالكثير مما كتب عن حضارة بلاد النوبة وحياة سكانها فى هذه الفترة لا يتعدى الخرافات التى يتناقلها القوم دون أن يكون هناك دليل على صحتها، وذلك لصعوبة الوصول لهذه المناطق فى ذلك الوقت- لكن مما لا شك فيه أن الحضارة المروية مزيج من حضارات وثقافات مختلفة مصرية ويونانية ورومانية بالإضافة لثقافات حبشية خاصة فى ناحيتى الدين والفن[١].

وفى المتحف المصرى قسم خاص بتاريخ الفن النوبى تمتلئ غرفه بما يُمثل مظاهر الحياة النوبية، وقد أشرنا لما أضافه الاثرى الأستاذ إمرى Emery من ثروة لهذا القسم نتيجة لاكتشافاته فى الأعوام (١٩٢٩- ١٩٣١)[٢]. هذا بالإضافة لجهود الأستاذ ريزنر (Reisner) والمستر فرث (Firth) وقد امتد نشاطهما فى الأعوام (١٩٠٨- ١٩١١) إلى وادى السبوع.

كما نشير إلى جهود Cailliaud, Hoskins, Lepsius & Budge للكشف عن مظاهر الحضارة النوبية- على أن متاحف برلين وميونخ ولندن وغيرها من المتاحف الأجنبية تحتوى الكثير مما استطاعت هذه البعثات أن تضع أيديها عليه من الآثار سواء عن طريق الحفريات التى عُملت أو عن طريق الشراء. ويذكر (بدج) بصراحة أن الرحالة الأجانب من أمثال (Lepsius) الالمانى هم الذين عودوا الاهالى بالنوبة على نهب المقابر والمعابد بما كانوا يدفعونه لهم مقابل

1- Hamilton: The Anglo Egyptian Sudan From within P. 18

٢- ملاحظة: ذاع اسم العالم الاثرى البريطانى (إيمرى) أخيراً بسبب ما عثر عليه من آثار فى سقارة أثناء بحثه عن مقبرة المهندس (إيمحتب) الذى صمم وأقام (الهرم المدرج) - فقد عثر على سرداب (مومياء القردة)، وعلى عدد كبير من أوراق البردى، وعلى عده تماثيل منها تمثال متحرك (لايزيس).

الآثار، حتى أن الأهالى تعودوا من بعد ذلك أن يحملوا لمساكنهم كل ما يُمكن حمله من التماثيل والآثار التى يعثرون عليها بالتنقيب فى المعابد والمقابر[١].

وقد ذكر لنا كثير من الأثريين الأجانب كيف خرجوا لبلادهم بذخيرة من هذه الآثار والوسائل التى أتبعوها لتهريبها- وأشرنا سابقاً لما ذكره الايطالى فيرلينى (Ferlini) فى هذا السبيل.

ويذكر (بدج) أن الهرم رقم ١١ من أهرام مروى والخاص بإحدى الملكات انتزعت حوائطه بما عليها من نقوش، وأمر حاكم عام السودان (السير ونجيت) بأن تُرسل أحجار الحائط الجنوبى لمتحف لندن حيث أعيد بناؤه فى صيف (١٩٠٥) فى القسم الخاص بالآثار المصرية هناك وذلك لسد النقص الخاص بالحضارة المروية فى هذا المتحف[٢].

ولا شك فى أن الدراسة الدقيقة للحضارة المروية تحتاج لجهود أخرى سواء فى دراسة ما تحت أيدينا فى مختلف المتاحف من آثار أو فى التنقيب للكشف عما لم يُكشف بعد من خبايا هذه الفترة من تاريخ السودان.

وحوالى القرن السادس الميلادى كانت المسيحية قد انتشرت فى بلاد النوبة ولم يبق على الوثنية إلا قبائل البجه ومنذ ذلك الوقت نجد فى النوبة مملكتين هما:

١- مملكة النوبة السفلى: من الشلال الأول إلى قرب الشلال الرابع وعاصمتها (دنقلة العجوز) وكانت مقسمة إلى قسمين:

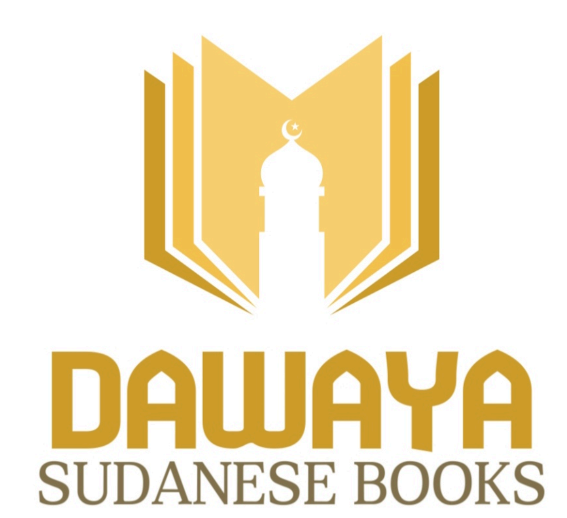
أ - قسم شمالى – اسمه (المريس) ومنها الرياح المريسى الآتية من الجنوب.

ب- وقسم جنوبى – اسمه (المقره).

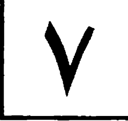
٢- ومملكة (علوه) وتمتد إلى اعالى سنار وعاصمتها (سوبا) على النيل الأزرق جنوب الخرطوم بحرى.

1- Budge: Vol. 1. P. 149.

2- Budge: Vol. 2. P. 502.

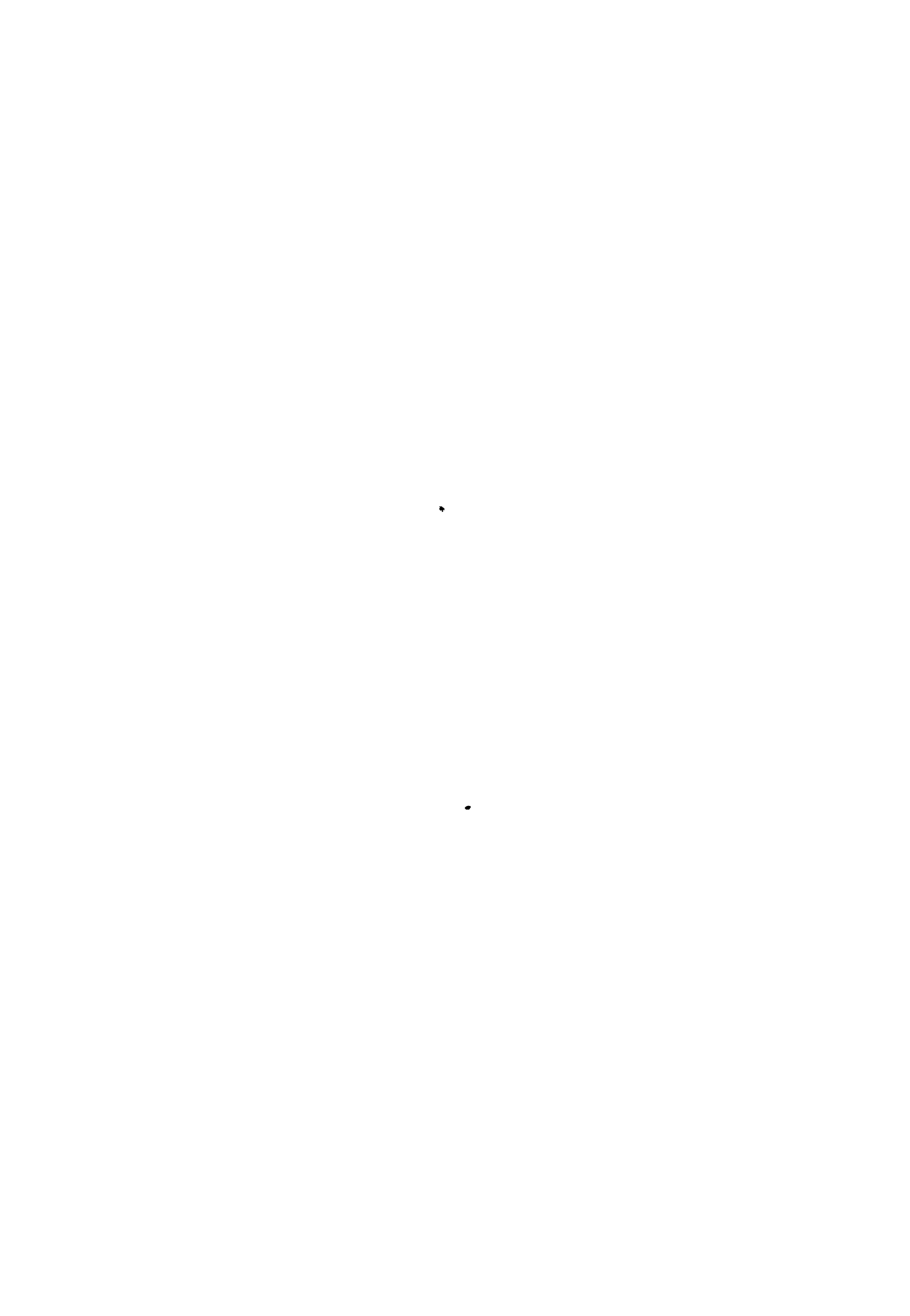

DAWAYA
SUDANESE BOOKS

القسم الثانى
انتشار المسيحية والإسلام
فى سودان وادى النيل



الفصل السابع
دخول المسيحية بلاد النوبة وانتشارها بها

- ظهور المسيحية.
- دخول المسيحية مصر وانتشارها بها
- المسيحية فى بلاد النوبة
- الديرية فى بلاد النوبة
- الكنائس والأديرة فى بلاد النوبة العليا.
- الكنائس والأديرة فى بلاد النوبة السفلى.
- لماذا لم تتخذ المسيحية فى النوبة جذورا عميقة بها.
- مصادر دراسة تاريخ بلاد النوبة قبل الإسلام.
  المسعودى: مروج الذهب.
  عبدالله بن سليم الاسوانى.
- الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية لممالك النوبة المسيحية.
- ضعف ممالك النوبة المسيحية واندثارها.



الفصل السابع
دخول المسيحية بلاد النوبة وانتشارها بها

المسيحية:

كــان مــيلاد المســيح علــيه الســلام فى بلدة (الناصرة) بفلسطين فى عهد الإمــبراطور الــرومانى (أوغســطس)، وكانــت فلســطين حيــنذاك جــزءاً من الإمــبراطورية الرومانــية، وأخــذ المسيح ينشر تعاليمه أولاً بين اليهود وهم بنو جلدتــه، لكــن المسيح لقى مقاومة من اليهود ومن الحكام الرومان- الأولون كانوا يخشــون علــى دينهم والآخرون على سلطانهم، لذلك وجد المسيح منهم اضطهاداً شديداً وانتهى برفعه إلى السماء كما يروى لنا القرآن.

غير أن رسالة المسيح لم تتم برفعه بل حملها من بعده الحواريون وهم أتباعه وأنصاره فقام هؤلاء بنشر المسيحية سراً فى آسيا الصغرى، وفى مصر، واليونان بل فى روما نفسها.

وفــى مصــر كما نعلم دخلت المسيحية سراً على يد القديس (مرقس) صاحب إنجــيل مــرقس الــذى بنى أول كنسية فى الإسكندرية حوالى ٦٩م - وقد وجدت الديانــة الجديدة لها معتنقين من اليهود ومن الوثنيين من سكان البلاد ومن الإغريق الذيــن كــانوا بمصر، وكان انتشارها سراً خشية بطش الحكام، وقد اختلفت الآراء حول الظروف التى لاقى فيها القديس مرقس نهايته[١].

وكان أباطرة الرومان يعذبون المسيحيين ويُلقون بهم فى السجون ويقتلونهم، ومــع ذلك فقد كان عدد المسيحيين فى القرن الثالث الميلادى بمصر كبيراً حتى اســتلزم الأمر تعيين عشرين كاهناً لهم[٢]. وقد بلغ الإضطهاد الدينى للمسيحيين أشــده فــى عهد الإمبراطور (دقلديانوس) (٢٨٤- ٣٠٥ م) الذى أسرف فى ذبح المســيحيين ولاســيما أقــباط مصر وفى هدم الكنائس- غير أن هذا لم يمنع من انتشــار المسيحية التى كانت قبل كل شىء تعبيراً عن نزعة قومية ضد الرومان المستعمرين.

١- احتفلــت الكنيســة المصرية أخيراً فى عام (١٩٦٨) بنقل رفات القديس مرقس من روما إلى الكاتدرائية المرقسية الجديدة فى مصر.

2- Budge Vol. 2 P. 289.

وقد ترتب على حركة الاضطهاد هذه نتائج هامة:

١- هجـرة عدد كبير من المصريين نحو الجنوب - هرباً من مضطهديهم ونجاةً بدينهم الجديد- فلجأ كثيرون إلى الصحراء والأماكن النائية والى أسوان وما حولها، وأمعن كثيرون منهم فى الهجرة جنوباً واستقر كثيرون منهم فى بلاد النوبة- بل وصل بعضهم إلى إثيوبيا الحالية وكانوا من عوامل نشر المسيحية بها قبل إن تصبح ديانة القصر فى عهد الملك (عيزانا) فى القرن الرابع الميلادى[١].
٢- عاش كثير منهم فى الأماكن النائية عيشة الرهبان.
٣- تكونت تجمعات منهم فى الأماكن النائية وأدى ذلك إلى قيام نظام (الديرية) فى مصر، ولا يزال عدد من الأديرة المصرية فى (الواحات الخارجة) وفى غيرها من واحات مصر، تُعطى فكرة عن هذا النظام الفريد الذى نشأ نتيجة الضغوط التى لاقاها هؤلاء الفارين بدينهم الجديد.

وحدث أن اعترف الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣- ٣٣٧م) بالمسيحية ديانة على قدم المساواة مع الديانات الأخرى المعترف بها فى الإمبراطورية - وبذلك استطاع مسيحيو مصر إعلان دينهم، وأعقب ذلك تحويل عدد من الهياكل الوثنية إلى كنائس.

وفى سنة ٣٨٥م أصدر الإمبراطور (تيود وسيوس Theodosius) (٣٧٨- ٣٩٥) مرسوماً يقضى بأن يعتنق المسيحية جميع سكان الإمبراطورية فصارت المسيحية ديناً إجبارياً أى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية فى الدولة.

وادى ذلك لانتشار بناء الكنائس- وصار للدين الجديد نظامه الخاص من حيث المعتقدات والحياة الإجتماعية، وصار له رجاله المعترف بهم- وكان أشهر رجال الدين فى ذلك العهد (بطريق روما) العاصمة الذى اعتبر نفسه خليفة للقديس بطرس وأُطلق عليه اسم بابا (Pappas) أى الآب.

وكان بطريرك الإسكندرية هو الرئيس الدينى لمسيحى مصر- وكلما استقر المسيحيون فى مكان فى مصر أو خارجها كان بطريرك الإسكندرية لا يتوانى عن رعايتهم وتنصيب الأساقفة لهم، ثم خرجت (بعثات تبشيرية) مصرية إلى خارج الحدود خاصة بعد أن أُنشئت مدرسة لاهوتية فى الإسكندرية تخرج منها عدد من المبشرين والكهنة المسيحيين.

١- د. زاهر رياض: كنيسة الإسكندرية (١٩٦٢) ص ٨٥.

ومــن أهــم هذه البعثات التبشيرية تلك التى ذهبت إلى إثيوبياً حيث أخذت فى إنشاء الأديرة ونشر المسيحية فى ربوعها.

وأخذت المسيحية تنتشر وسيل اللاجئين يزداد.

دخول المسيحية بلاد النوبة :

عــندما وصــل المبشرون من مصر إلى بلاد النوبة وجدوا بها الممالك التى ســبق ذكرها(١) والمؤرخون يُجمعون على أنه عن طريق مصر دخلت المسيحية بــلاد الــنوبة - فمصــر هــى التى بعثت لبلاد النوبة بحضارة الفراعنة وثقافتهم وعقــائدهم وديانتهم وهى التى نقلت للنوبة حضارة اليونان- وهى التى بعثت أيضاً لــتلك الــبلاد الديانة المسيحية، وكما سنرى أنها هى التى عنها وصل الإسلام إلى بلاد النوبة.

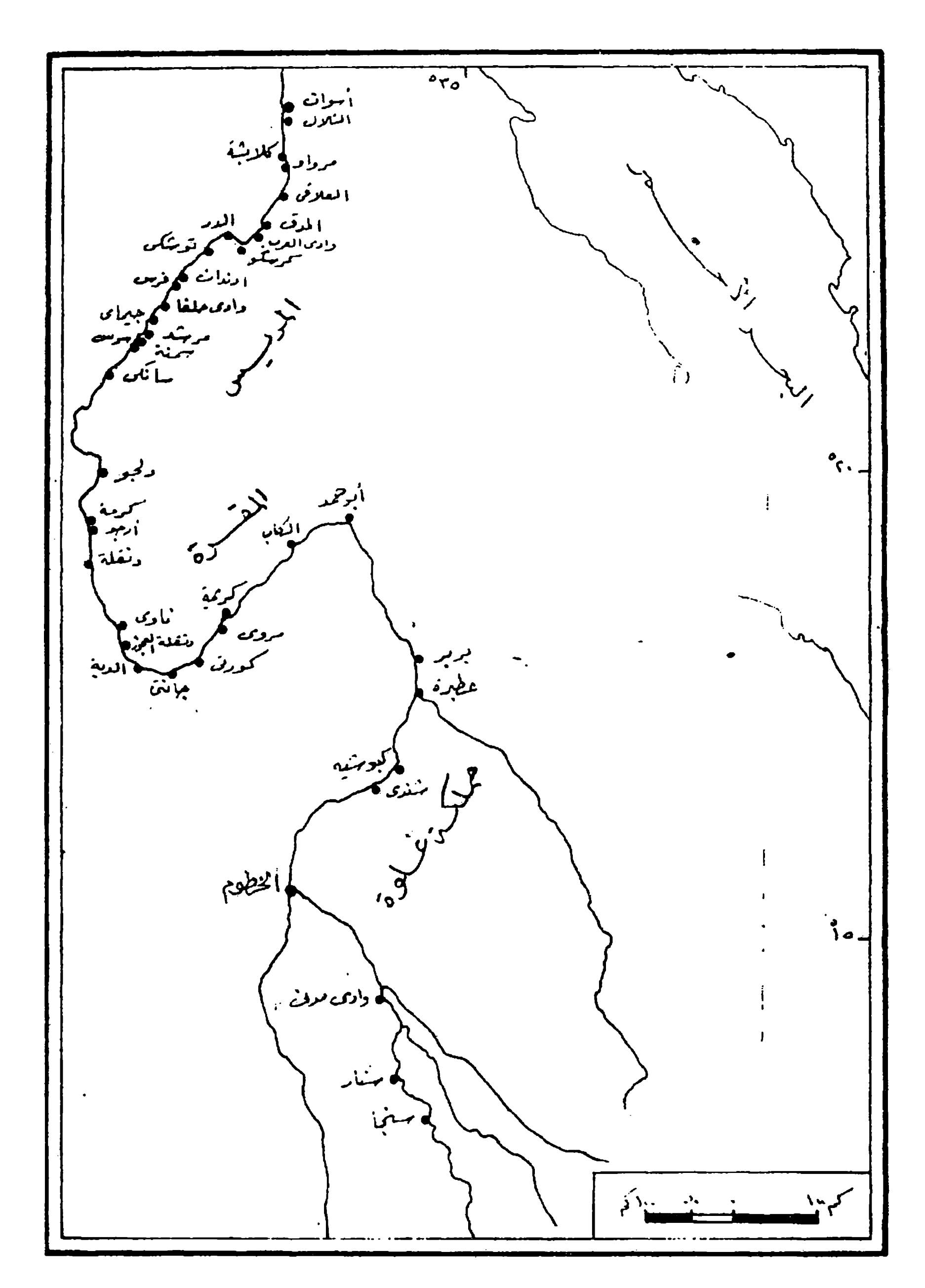
يــرى المؤرخــون أن المســيحية دخلت من مصر إلى بلاد النوبة منذ القرن الأول للمــيلاد وعلــى يد مصريين ممن اعتنقوا هذه الديانة من قبل ونزحوا لهذه الــبلاد فى القرنين الأول والثانى هرباً من الاضطهاد الذى كان موجهاً إليهم لاسيما فى عهد (تارجيان) و(دقلديانوس).

١- كانت بالنوبة ثلاث ممالك:

أ - مملكــة النوبادين (Nobadae) التى أسسها الملك سالكو (حوالى ٥٣٠ م) وتمتد من أسوان إلى قرب الشلال الثالث، وكانت عاصمتها (فرس).

ب- مملكــة مقــرة - وتمتد من قرب الشلال الثالث إلى (كبوشيه) الحالية. وقد اتحدت المملكتان وأصبحت (دنقله العجوز) عاصمة لمملكة واحدة أطلق عليها اسم (مملكة النوبة) - والمصادر التاريخية لا تجزم بالتاريخ الذى تمت فيه هذه الوحدة، والمــرجح أن هذه الوحدة تمت بين نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى- بدليل ما جاء فى الصلح الذى عقــد بــين (عبدالله بن سعد بن أبى السرح) قائد الحملة التى أرسلها (عمرو بن العاص) لبلاد النوبة بعد فتح مصر سنة ٦٤٠م- وبــين عظيم النوبة - وبعض المؤرخين يذهب إلى أن انضمام النوبة الشمالية ومملكة مقرة فى اتحاد واحد كان الغــرض مــنه مقاومــة الفتح الاسلامى (أنظر د. زاهر رياض: كنيسة الإسكندرية فى أفريقياً ص ١٦٥ - وكذلك د. مصطفى مسعد: الإسلام فى النوبة ص ٧٣ وما بعدها).

ج- مملكــة علــوه- فى أقصى جنوب بلاد النوبة وعاصمتها (سوبا) على النيل الأزرق، وكانت منقسمة لقسمين كل قسم مــنهما عــلى ضفة من ضفتى النيل الأزرق، وقد اختلفت المصادر فى تحديد حدودها، لكن على الاجمالى تمتد من قرب (كبوشة) شمالا حتى (قطنه) على النيل الأبيض جنوب الخرطوم الحالية- وشرقا حتى حدود الحبشة وغرباً لبعض جهات دارفور وكردفان.



شكل رقم (٤) ممالك النوبة المسيحية

الاضطهاد :

فقـد أدت سياسة الاضطهاد إلى أن أصبحت الصحراء - كما أصبحت منطقة (طيبة) والمناطق الجنوبية من مصر التي لم تكن قبضة الرومان عليها قوية- مكاناً يهرب إليه المسيحيون الذين تمسكوا بدينهم، وكانت المنطقة من وادى النيل بين الشلال الثانى والرابع أكثر ملاءمة لهؤلاء النازحين من المنطقة الواقعة شمال الشلال الثانى- ففى المنطقة الأولى تكثر الجزر فى النيل فيمكن للقادمين أن يجدوا بالإضافة للأمان متسعاً للرزق، وما كشف عنه من بقايا الكنائس والأديرة فى هذه المنطقة يؤيد هذا الرأى[١].

وقـد زاد عـدد المسيحيين فى الواحة الخارجة لدرجة أنه فى القرن الرابع الميلادى أنشئت أسقفية لهم بها ولا تزال فيها آثار من عهود المسيحية الأولى، ونحن نعلم أهمية (الواحة الخارجة) فى طريق القوافل القديم المؤدى للسودان.

هـذا كما أن رجال القوافل التجارية التى كانت تذهب من مصر إلى الجنوب كانوا حتما يتحدثون للسكان بالسودان عن الدين الجديد- وبذلك إكتسبوا لهذا الدين أنصاراً ومعتنقين[٢].

المسيحية فى بلاد النوبة :

لا شـك فـى أنه فى القرنين الثانى والثالث الميلادى كان أفراد من النوبة قد اعتنقوا المسيحية، على أن عدد من قبل المسيحية من سكان النوبة حتى ذلك الوقت لم يكن كبيراً- يؤيد هذا ما ثبت من أن البجاة، والنوبيين كانوا على الوثنية فى سنة ٤٥٢ م- فـى عهـد الإمـبراطور (مرقيانوس Marcianus) إذ أننا نعلم أن القائد الرومانى (مكسيمينوس Maximinus) ذهب فى ذلك العام على رأس حملة تأديبية لـبلاد النوبة انتهت بعقد معاهدة مع أهل البلاد تعهدوا فيها بأن يدفعوا للإمبراطور الـرومانى جزية كبيرة، وأن يُحافظوا على السلام لمدة مائة سنة وأن يُطلقوا سراح جميع الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم فى غزواتهم السابقة، بل وأن يحتفظ الرومان برهائـن من الأسر النبيلة للبجه لضمان تنفيذ هذا العهد. على أن يُسمح لهم (للبجه) بالحج إلى جزيرة فيلة كل عام وأن يستعيروا من حين لآخر تمثال الآلهة (ايزيس) ليطوفوا به فى البلاد تبركا وطلباً للحماية[٣].

1- Budge: Vol. 2 P. 291.

2- Ibid: P. 289.

3- Emery: P 31.

ويظهر أن النوبيين والبجاه حافظوا على هذا العهد وظلوا على وثنيتهم يحجون إلـــى معبد (ايزيس) فى جزيرة فيله كل عام حتى النصف الأول من القرن السادس المــيلادى، ولا شــك فـــى أن المراكز المسيحية من أديرة وكنائس وتجمعات التى نشأت بالقرب من أوطان النوبيين فى القرن الرابع الميلادى كان لها أثرها، وهناك روايـــات وقصص تروى عن دخول بعض النوبيين فى المسيحية بل وعن التحاق بعضـــهم بالأديـــرة المصرية التى نشأت فى بلادهم، وعن تودد الرهبان والأساقفة للنوبيين لكسبهم للدين الجديد.

وقـــد اعتنق بعض (البليميين) المسيحية بعد إغلاق معبد فيله سنة ٥٣٥ م لكن مـــع ذلـــك فقـــد بقى عدد كبير منهم ومن النوبيين على الوثنية حتى القرن السادس وكثيراً ما اعتدى هؤلاء على الكنائس فى أسوان و(الفنتين).

علـــى أن التبشير بالمسيحية فى النوبة على نطاق واسع فى النصف الأول من القـــرن السادس الميلادى يرجع للنزاع المذهبى الذى ثار حول طبيعة السيد المسيح والذى أحيل إلى (مجمع خلقدونية الرابع)- هذا الخلاف الذى اتسع ونجم عنه وجود مذهبين:

١- المذهب الذى سُمى بالمذهب (الملكى) لأنه مذهب الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ -٥٦٥) وحاشيته.
٢- المذهـــب اليعقوبى – وهو المذهب الذى اعتنقته الكنسية المصرية والذى انتشر فـــى مصر والقدس وفلسطين وسُمى بهذا الاسم نسبة إلى بطريرك الإسكندرية الذى كان يُعرف قبل تنصيبه بطريركا باسم (يعقوب).

والطـــريف أن الإمـــبراطور جســـتنيان كـــان ملكيا لكن زوجته الإمبراطورة (ثـــيودورا Theodora) كانـــت تعطف على المذهب اليعقوبى – فلما عرض القس (جولـــيان) علـــى الإمـــبراطورة أن ترسله على رأس بعثة للتبشير فى بلاد النوبة رحبـــت بهذا العرض، وسهلت الإمبراطورة للقس اليعقوبى (جوليان Julian) مهمة الذهاب لبلاد النوبة للتبشير هناك، وكان ذلك فى عام ٥٤٢م[١].

وفعـــلاً نجـــح ذلـــك القس فى أن يصل لمملكة النوبة السفلى وأن يُقابل ملكها (سلكو Silko) ونصر الملك والأعيان وعمدهم وأدخلهم فى المسيحية وفى المذهب الارثوذكســـى الـــيعقوبى، وبقى فى بلاد النوبة ما يقرب من عامين مُبشراً ومُعمداً

١- أخـــبار هـــذه البعـــثة ذكرها بالتفصيل يوحنا الافسسى فى كتابة: التاريخ الكنسى الذى ألفه فى القرن السادس عن تاريخ الكنيسة والحركات التبشيرية، وقد كان هذا الكاتب معاصراً للحوادث المتعلقة بهذه البعثة.

أهلها، وهكذا لم يجئ النصف الثانى من القرن السادس الميلادى حتى صارت بلاد النوبة رسمياً مسيحية تحت حكم الملك (سلكو)، هذا بينما وصل لبلاد النوبة بعد ذلك وفد آخر من قبل الإمبراطور جستنيان، ورغم أنه قوبل بالحفاوة لكن رفض الملك وحاشيته اعتناق المسيحية على مذهبهم، ويقال أن البعثة نجحت بعد ذلك فى إدخال المسيحية على المذهب الملكى فى (مملكة مُقرة)[١].

وأحرزت الإمبراطورة نجاحاً آخر بأن أمرت بتعيين أسقف خاص لبلاد النوبة سنة ٥٦٥م واستطاع هذا الأسقف المدعو (لونجينوس Longinus) رغم العقبات التى وُضعت فى سبيله أن يصل لبلاد النوبة وأن يبنى كنسية فى (دنقلة العجوز) تابعة لكنسية الإسكندرية، وبقى هذا الأسقف فى منصبه ببلاد النوبة ست سنوات وبذا أصبح بطريرك الإسكندرية بطريركاً لمصر والنوبة والخمس مدن الغربية[٢].

على أننا نشير إلى ذلك لا يمنع من بقاء جماعات من النوبيين والبجاه شمالى السودان على وثنيتها بدليل أن الإمبراطور جستنيان أرسل سنة (٥٦٣ م) قائدة (نرسيس) إلى (جزيرة فيله) ليقضى على عبادة الآلهة ايزيس التى كان يفد لعبادتها الوثنيون من الجنوب - وقد نفذ (نرسيس) مهمته وزج بالكهنة فى السجن وحمل التماثيل إلى القسطنطينية وأقفل المعبد نهائياً.

وهكذا دخلت المسيحية إلى بلاد النوبة الشمالية فى عهد الملك (سلكو) وصارت الدين الرسمى للدولة ولكن كان عدد غير قليل سواء فى جنوب مصر أو فى بلاد النوبة أو فى الصحراء الشرقية على وثنيتهم، وبمرور الزمن تنصر كثيرون من هؤلاء وتبعوا كنسية الإسكندرية ومذهبها اليعقوبى.

وقد شجع الرومان الملك (سلكو) على القضاء على سلطة (البجة)، وبتأييد القوات الرومانية استطاع الملك النوبى أن يهزمهم وأن يبسط سلطانه على المناطق الواقعة جنوب الشلال الأول والتى كان لهم فيها نفوذ، ورغم أنهم بقوا بعد ذلك لسنوات يمارسون هوايتهم القديمة فى الصحراء وهى الإغارة على القوافل والمدن الآمنة- لكن قوتهم كشعب انتهت من ذلك الوقت واختفوا من صفحات التاريخ كقوة منظمة وانتهت بذلك صفحة من الصفحات التى تُعتبر امتداداً للحضارة الفرعونية

١- د. زاهر رياض: ص ١٦٤.

٢- الخمس مدن الغربية: مستعمرات يونانية قامت فى شمال افريقية فى إقليم برقة، وسميت بالخمس مدن الغربية تمييزاً لها عن خمس مدن أخرى قامت على الساحل الشرقى للبحر المتوسط فى لبنان الحالية وعرفت بالخمس مدن الشرقية. (أنظر د. زاهر رياض: كنسية الإسكندرية فى أفريقياً ص ١٦).

المصرية، وقد سجل (سلكو) نصره هذا على جدران معبد كلبشة باللغة الإغريقية - ذاكراً أنه حارب (البلميين) وهزمهم ودخل مدينتى تلميس (Talmis) وتافس (Taphis) وذلك لأنهم حنثوا بوعودهم بالخضوع له، كما ذكر أن انتصاره عليهم كان بتأييد (الله) له، وحركات سلكوا هذه ضد البلميين كانت باتفاق مع الإمبراطور (جستنيان) أو لعله باتفاق مع زوجه الإمبراطورة ثيودورا (Theodora) [١].

ويؤثر عن الملك (ايربانم Eirpanome) بن سلكو أنه حول معابد (كلابشة، ودكا، ووداى السبوع) وغيرها إلى كنائس - كما حول أسقف فيله تيودور (Theodore) معبدها إلى كنيسة- رسم على جدارنها الصور المقدسة بعد أن طلاها بالجص لُيغطى صور الآلهة المصرية، تم ذلك حوالى ٥٧٧م ولم يتوقف هذا التحويل بعد ذلك بل استمر [٢].

الديرية فى بلاد النوبة :

اتجه النوبيون إلى (الحياة الديرية) أيضاً فأنشأوا الأديرة التى ازدحمت بهم وظلت عامرة مدة طويلة، وقد عُثر على بعضها سليمة- وهكذا لم ينته القرن السادس الميلادى إلا وكان هذا الجزء من بلاد النوبة الواقع بين الشلال الأول والثانى قد تحول للمسيحية.

وقد اكتشفت البعثة البولندية فى بلدة (فرس) النوبية فى فبراير (١٩٦٢) لوحات ذات ألوان زاهية من الطراز البيزنطى على جدران كنيسة قبطية يرجع عهدها للقرن السابع الميلادى.

وقد اتخذت مدينة دنقلة (دنقلة العجوز) عاصمة لمملكة النوبة المسيحية وكان اختيارها كعاصمة اختياراً موفقاً فهى فى موقع يسهل الدفاع عنه بقوة بسيطة، وظلت دنقلة آمنة لمدة مائة عام تقريباً منذ أنشأها الملك (سلكو) حتى الفتح العربى لمصر فى عام ٦٤١م.

المسيحية وبلاد النوبة العليا :

أما عن النوبة العليا (مملكة علوة) التى كانت تمتد من الشلال الرابع إلى النيل الأزرق، فقد دخلتها المسيحية عن طريق النوبة السفلى، ويُقال إنه فى حوالى سنة ٥٧٨، م أرسل ملك علوة رسولاً للنوبة السفلى يطلب السماح للأسقف الذى عُين

1- Emery: P. 32 & Budge: Vol. 2. P. 298

2- Budge: Vol. 2. P. 297

هـناك بالسفر للجنوب لتعميده وأهل دولته، فأرسل ملك النوبة هذه الرغبة للأسقف (لونجيـنوس) بمصـر حيـث كان يشترك فى انتخاب البطريرك- فأسرع الأسقف بالسـفر للنوبة حيث التقى بوفد ملك (علوة) الذى اصطحبه إلى (سوبا) وقام بمهمته هناك على أحسن وجه.

وقـد حاول ملك مقرة تعويق سفر (لونجينوس) للجنوب لكنه لم يُفلح فى ذلك- ويرجع سبب هذا الموقف من ملك مقره إلى أن الملك وأهل بيته وكثيراً من رجاله كـانوا قد اعتنقوا المسيحية لكن على المذهب البيزنطى تحت تأثير بعثه جوستنيان فى سنة (٥٦٧).

وإن كانـت صـعوبة المواصـلات بين بلاد النوبة والدولة الرومانية بعكس الوضع بالنسبة لمصر التى كانت توالى إرسال الأساقفة والقسس ورجال الدين لهذه الـبلاد- جعـل للكنسـية القبطية فى مصر ومذهبها السيادة فقضى على المذهب الخلقدونى الذى كان سائداً فى (مقره) من قبل[١].

وهكـذا انتشـرت المسـيحية ببلاد النوبة وكان بطريرك الأقباط بالإسكندرية يُرسل للنوبة المطارنة من مصر.

ولابـد أن قراراً صدر من ملوك النوبة باعتبار المسيحية دين الدولة الرسمى فاعتـنقها الناس، ولابد أن عملية التبشير بالنوبة اتبعت أبسط الصور لتلائم ظروف البيـئة البدائـية وثقافة السكان، واعتمد المبشرون على سرد القصص المحببة إلى نفـوس السـامعين أكثر من اعتمادهم على الحجج المنطقية والمناقشات اللاهوتية، وبهـذا يمكن تصور نوع التعليم الدينى الذى تلقاه النوبيون على يد مبشريهم الأول، ولابـد أن تكـون هذه التعاليم قد خرجت أحياناً عن أصولها للحصول على كسب سـريع ثم إنه لابد أن النوبيين لم يعتنقوا المسيحية دفعة واحدة ولكن على مراحل، بدلـيل وجود بعض العادات الوثنية فى وقت قيام كل من (جوليان)، و(لونجينوس) بالتبشير بينهم.

وزاد انتشـار المسـيحية ببلاد النوبة حتى أصبحت عامة تقريباً بسبب هجرة الأقـباط مـن مصـر لبلاد النوبة إثر الغزو الفارسى لمصر، واضطهاد الملكانيين لأقباط مصر بعد ذلك بعد استرداد البيزنطيين مصر[٢].

١- د. زاهر رياض: (١٦٤ ١٦٦).

٢- مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ٦٦، ٦٧.

ويقـول (أبوصـالح الأرمنى) أنه كانت فى مملكة علوه ربعمائة كنيسة ودير علـى جانبى النيل الأزرق وفى البطاح، وقد ظل عدد كبير من هذه الكنائس قائماً حـتى القرن السادس عشر، والراجح أنه لم يكن فى وسع النوبيين أن يُنشئوا الكثير مـن الكنائس الجديدة، ولذا فإنهم لجأوا إلى تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس بعد أن يكسـوا جدرانهـا بطـبقة من الجص ويصوروا عليها القصص الدينية والكتابات المسـيحية، ومـما زالت الجدران الوثنية القديمة تبدو فى بعض الآثار هناك إذا ما أزيلت طبقة الجص بفعل فاعل أو بفعل عوامل التعرية.

وقـد حُول معبد (إيزيس) فى جزيرة فيلة إلى كنيسة كُتب عليها "بفضل الآلة المسـيح قـد حـول المطران الصالح (أبا تيودورس) هذا المعبد إلى حرم للقديس اسطفانوس"، وعلى الشاطئ الغربى من وادى السبوع حُول معبد (لرمسيس الثانى) إلى كنسية رُسم على جدارنها صورة للقديس بطرس وبيده مفتاح.

وهكـذا نجـد عشرات من المعابد الوثنية حُولت إلى كنائس مسيحية ولا تزال نعثر على جديد منها من وقت لآخر.

وقـد بُنيـت بعـض الكنائس الجديدة فى مناطق مثل إبريم، ودنقلة، وفرس، وبوهين وغيرها من الأماكن – لكن بنى أغلبها بالطين، لذا أندثر معظمها – لكن لا زلـنا نسـتطيع أن نُشاهد بقايا أعمده الكنيسة القبطية مثلاً التى شُيدت قرب جزيرة سـاى، وكذلك فى واحة (سليما) يمكن مشاهدة بقايا كنيسة مسيحية، كما توجد آثار مـبانى مسـيحية فـى المنطقة بالقرب من الشلال الثالث، وتوجد فى المنطقة بين الخندق ودنقلة العجوز أيضاً بقايا آثار مسيحية منقوش عليها الصليب.

وفـى وادى الغزال (قرب مروى) عُثر على بقايا دير وكنسية مبنية بالحجارة حـتى ارتفـاع النوافذ، أما باقى المبانى فكانت من الطوب، ووجدت على جدران الحجـرات نقوش، وكل بقايا المبانى كانت مستديرة وفوق الأبواب نُقشت علامات الصـليب، وكانت أبعاد المبنى حوالى ٨٠ قدماً فى الطول و٤٠ قدماً فى العرض، ويوجد فناء واسع حيث توجد أماكن يأوى إليها الرهبان.

وقـد لاحظ (Lepsius) وجود نقوش بالإغريقية ونقوش بالقبطية جنباً إلى جنـب، وهـذا يؤيد ما ذهب إليه (أبو صالح الآرمنى) من أن الصلوات كانت تؤدى فى بلاد النوبة باللغة اليونانية، ولعل ذلك راجع إلى أن المسيحية انتشرت فـى بـلاد الـنوبة قبل أن يتم وضع ترجمة للصلوات والطقوس الدينية باللغة القبطية.

وفى (مملكة علوه) أشرنا لما ذكره أبو صالح الأرمنى من وجود ما يقرب من أربعمائـــة كنيسة ودير على جانبى النيل الأزرق، ويمكن أن نشاهد الآن فى جزيرة (مـــروى) بقايـــا معبد قديم وعلى ما بقى من أعمدته يمكن بوضوح تمييز (علامة الصليب) منقوشة، مما يدل على أن المعبد حول إلى كنيسة فيما بعد.

وفـــى الطـــريق مـــن ســـواكن لكسلا توجد بقايا أحجار ومقابر ترجع للعهد الميسحى المبكر. والطابع الغالب على الكنائس النوبية هو البساطة فى البناء، ولعل هـــذا يرجع لفقر المواد الطبيعية، وضعف المستوى الفنى وإن وجدت بعض نقوش بديعة لصور القديسين ومشاهد من الإنجيل عن ميلاد المسيح[١].

وهكذا ظهرت المسيحية فى السودان وعاشت هناك نحو تسعة قرون حتى حل محلها الإسلام فى ظروف سنشير إليها فيما بعد.

وكانت الصلوات والأدعية فى الكنائس والأديرة بالنوبة غالباً (باللغة الإغريقية) والســـبب فى ذلك هو أن الكنيسة النوبية قد أخذت هذه الأدعيات والصلوات من اللغة الإغريقية مباشرة قبل ترجمتها إلى اللغة القبطية- ولا غرابة فى ذلك فالثقافة الهلينية (الرومانـــية الإغريقية) كانت قد تطرقت إلى بلاد النوبة فى القرون السابقة للميلاد - عـــن طـــريق مصر أيضاً حتى صارت (اللغة الإغريقية) هى اللغة الرسمية فى بلاد النوبة، بينما كانت (اللغة النوبية) وهى لغة البلاد- لغة أدب وكتابة.

ثـــم أخذت الكلمات القبطية تدخل للعبادات فى النوبة، خاصة بعد القرن السابع المـــيلادى حيـــن ضـــعف استخدام اللغة اليونانية فى مصر ذاتها- وأصبحت اللغة القبطـــية تُشـــاهد علـــى كثير من القبور المسيحية، بل وفى الرسائل المتبادلة حتى القرن العاشر الميلادى تقريباً.

المسيحية فى النوبة لم تتخذ جذورا عميقة لها لأسباب:

١- لم تمثل المسيحية بالنوبة اتجاهاً وطنياً أو قومياً كما كان الحال فى مصر حيث أعتـــنق المصريون المسيحية كمظهر من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى الأجنبى.

٢- كانـــت الإضطهادات الرومانية للمسيحية بمصر من أسباب تقوية جذورها فى نفوس الذين ظلوا ثابتين على ديانتهم.

٣- عاشـــت المســـيحية فـــى النوبة إلى جانب الأفكار الدينية الوثنية فلم تُقتلع هذه الأفكار وذلك لأن اعتناق النوبيين لها لم يكن عن عقيدة وفهم وتعمق ودراسة.

1- Budge: Vol. 2. p.p. 300 302.

٤- ظلت الكنيسة المصرية تُعامل الكنيسة النوبية كطفل صغير، فتعين لهم المطارنة كمـا تعيـن جميع رجال الدين وكانوا من المصريين والذين عاش أغلبهم بينه وبيـن الشعب النوبى حجاب حاجز، فلم يتجاوبوا معهم فى مشكلاتهم وظروفهم – فظلت الكنيسة المصرية ورجالها يُمثلون عُنصراً أجنبياً.

٥- كانت الطقوس الدينية تؤدى بلغة أجنبية لم يتعمق فيها الشعب ليساهم فيها عن علم ومعرفة.

٦- كثـيراً مـا كانت الظروف الداخلية فى مصر تؤدى إلى إمتناع البطاركة عن إرسـال مبعوثيـن مصريين لمدد طويلة فتظل الوظائف الدينية خالية- ويظل الناس فترة طويلة لا يمارسون الطقوس.

٧- لـم يحـدث أن خـرج مـن النوبيين فى هذه الفترة علماء ومتخصصون فى اللاهـوت أو الفلسفة الدينية، مستمدين تجاربهم من القديسين والشهداء كما فى مصر.

مصادر دراسة تاريخ بلاد النوبة قبل الإسلام :

المصـادر الـتى نسـتقى منها تاريخ ممالك النوبة المسيحية قليلة، ومن هذه المصـادر الـنقش الـذى وُجـد للمك (سلكو) على جدران (معبد كلابشة) باللغة اليونانـية، وقـد أشـرنا إلـيه سابقاً، وقد وجد نقش آخر فى (دندور) يرجع للملك ايريـبانم (Eripanome) نسـتطيع أن نستشـف منه شيئاً عن نظام الحكم فى بلاد النوبة فى ذلك الوقت.

كذلك لدينا مجموعة من معلومات جمعها أسقف الأشمونين المدعو (ساويرس) وفـى ثناياها الكثير عن التنظيمات الإدارية فى ممالك النوبة المسيحية- وذلك مما يُعرف بسيرة البطريرك ميخائيل (٧٤٤- ٧٦٨) م.

أما عن الكُتاب العرب فلدينا مرجعان هامان يمكن أن نستقى منهما الكثير عن أحـوال ممـالك الـنوبة المسيحية من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهما:

١- المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر. (وقد توفى سنة ٣٤٦ هـ-٩٥٨ م).
٢- عبدالله بن سليم الأسوانى: أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجه والنيل.

وأبـن سليم من أهل أسوان وهذا هو السبب فى تلقيبه (بالاسوانى) وكان الخليفة الفـاطمى المعـز لديـن الله قد أرسله فى عام ٩٦٩م بخطاب إلى ملك النوبة (الملك

جـورج الـثانى)[١] يدعوه إلى الإسلام- وإن كان الملك لم يستجب لهذه الدعوة لكنه أحسـن استقبال ابن سليم، وقد استطاع ابن سليم من خلال زيارته هذه أن يقف على الكثير من أحوال بلاد النوبة فى القرن العاشر الميلادى- وللأسف فإن كتابه قد ضاع لكن المقريزى فى كتابه (المواعظ والأعتبار) اقتبس الكثير من كتاب ابن سليم.

أولاً: مروج الذهب للمسعودى جاء فيه عن النوبة:

"أمـا الـنوبة فافترقـت فريقين، فريق فى شرق النيل وغربة، وأناخت على شـاطئه، فاتصـلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغـيرها، واتسـعت مسـاكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة، ولحقوا بقرب من أعالية- وبنوا دار مملكة عظيمة تُدعى (دنقلة)، والفريق الآخر من النوبة يُقال لهم (علوه)- وبنوا مدينة عظيمة وسموها (سوبه)."

(ودنقلـة) هذه التى يذكرها المسعودى هى (دنقلة العجوز) – وهى غير (دنقلة أردى) الـتى تقع غربى النيل والتى يرجع ازدهارها ونموها لهجرة المماليك إليها من وجه محمد على، وكلمة (أردى) بالتركية معناها (العسكر) فتسميتها راجعة أن المماليك عسكروا فيها.

وإذاً فقـد عـرف مؤرخـو العرب أن النوبة كانت مملكتين أحداهما ملاصقة لأرض صعيد مصر والثانية جنوبها.

ثانياً: أما عبدالله بن سليم الاسوانى – فقد تحدث عن النوبة فقال:

عن بلاد النوبة السفلى:

"أول بلـد النوبة قرية تعرف (بالقصر) – من أسوان إليها خمسة أميال وآخر حصـن للمسـلمين جزيرة تعرف (ببلاق)[٢] بينها وبين قرية النوبة[٣] ميل وهو[٤] سـاحل بلد النوبة – ومن أسوان إلى هذا الموضع[٥] جنادل كثيرة الحجر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يُخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، لأن

١- اختـلف المؤرخـون فى ترتيب ملوك النوبة الشمالية وفى تحديد مدد حكمهم، وقد نشر الدكتور محمد مسعد قائمة بأسماء الملوك فى كتابه الإسلام والنوبة فى العصور الأول (ص ٢٨١) – وهى قائمة تقريبية.

٢- جزيرة الفيلة.

٣- القصر.

٤- أى الميل.

٥- القصر.

هذه الجنادل منقطعة وشعاب معترضة فى النيل- ولانصبابه فيها أزيز عظيم ودوى يُسمع من بعد.

وبهذه القرية[١] مسلحة للعرب[٢] وباب إلى بلاد النوبة - ومنها[٣] إلى الجنادل الأولى[٤] من بلد النوبة عشر مراحل - وهى[٥] الناحية التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك - ويتجرون فى أعلاها وفيها جماعة من المسلمين قاطنون ولا يفصُح أحدهم بالعربية، وشجرها كثير وهى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال، وما تخرج عن النيل .... ويستمر فى وصف النوبة الشمالية- ويقول:

وفى هذه الناحية (نجراش) مدينة المريس،[٦] وقلعه إبريم، وقلعة أخرى دونها[٧] وبها بربا عجيبة.

ولهذه الناحية[٨] والي من قبل عظيم النوبة يُعرف (بصاحب الجبل) من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام- ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه[٩] فى تجاره أو هدية إليه أو إلى مولاه[١٠] - يقبل الجميع ويُكافئ عليه بالرقيق ولا يُطلق لأحد الصعود إلى مولاه لا لمسلم ولا لغيره.

وأول الجنادل من بلد النوبة[١١] قرية تعرف باسم (تقوى) وهى ساحل[١٢] واليها ينتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول[١٣] بلدهم ولا تتجاوزها المراكب - ولا يطلق أحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم.

١- القصر.

٢- أى حصن حربى.

٣- من قرية القصر أو المسلحة.

٤- يقصد الشلال الثانى الواقع جنوبى حلفا.

٥- أى المراحل.

٦- أى عاصمة بلاد المريس وهى الجزء الشمالى من بلاد النوبة السفلى.

٧- جنوبها.

٨- ناحية المريس.

٩- مع الوالى.

١٠- أى حاكم النوبة الأكبر ومقره دنقلة.

١١- أى الشلالات التى جنوب وادى حلفا.

١٢- ميناء.

١٣- أى الذى هو أول حدودهم.

ومنها[١] إلى المقس الأعلى ست مراحل وهى جنادل كلها، وشر ناحية رأيتها لصعوبتها وضيقها ومشقة مسالكها – أما بحرها فجنادل وجبال معترضة فيه، حتى أن النيل ينصب فى شعاب، ويضيق فى مواضع.

والمسلحة بالمقس الأعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها.. ولا يحذها دينار ولا درهم إذ كانوا لا يبتاعون بذلك إلا دون الجنادل[٢] مع المسلمين، وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء وإنما هى معاوضة بالرقيق والمواشى والحبال والحديد والحبوب ولا يطلق لأحد أن يجوزها[٣] إلا بأذن الملك ومن خالف كان جزاؤه القتل كائناً من كان، وبهذا الاحتياط تُكتم أخبارهم.

ومن هذه المسلحة إلى قرية تعرف (بساى) جندل أيضاً – وهى آخر كرسيهم[٤] ولهم فيها أسقف وفيها بربا.

وفى الجنوب من (بساى) قرية تعرف باسم (يستو) وهى أخر قرى (مريس) وأول مقره ومن هذا الموضع إلى حد المسلمين لسانهم مريس[٥].

هذا هو القسم الأول والشمالى من بلاد النوبة السفلى.

وقد وصف ابن سليم الاسوانى القسم الجنوبى من بلاد النوبة السفلى فذكر إنه يشمل المنطقة التى على جانبى النيل من (يستو) إلى جهة الأبواب عند بلدة (كبوشية).

وفى ذلك (الجزء) من القُرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزروع والكروم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام وفى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام – فيها الجبال والوحش والسباع ومغاور يُخاف فيها العطش– والنيل ينعطف فى هذه النواحى إلى مطلع الشمس والى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد[٦] كالمنحدر[٧]."

ومن هذا الوصف يتضح ما سبق أن ذكرناها من أن بلاد النوبة السفلى كانت منقسمة إلى قسمين:

١- من تقوى.

٢- شمال الشلال الثانى.

٣- أى لا يجتاز المسلحة التى بالمقس الأعلى.

٤- كرسى أهل مريس.

٥- انظر خطط المقريزى (ج١ ص ٣٠٨، ٣٠٩).

٦- المتجه إلى أعلى النيل.

٧- أى كل منهما يسير نحو الشرق أو الغرب.

١- قسم شمالى- اسمه المريس ينتهى عند بلده (يستو) ويُعين حكامه من قبل ملوك النوبة.
٢- وقسم جنوبى اسمه المقره.

ويصف ابن سليم النوبة فيقول :

"وأول بلاد علوه قرى فى الشرق على شاطئ النيل تُعرف (بالأبواب) - ولهذه الناحية والٍ مِنْ صاحب علوه، والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار ومنها نهر يأتى من ناحية الشرق كدر الماء يجف فى الصيف حتى يُسكن بطنه[1] ثم النيل الأبيض وهو نهر يأتى من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن- ثم الأخضر وهو نيل يأتى من القبلة[2] مما يلى الشرق - شديد الخضرة صافى اللون جداً [3].

ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوه[4] وهى على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بحرى بقليل - ويبقيان على ألوانهما قريباً من مرحلة، ثم يختلطان، وبين هذين النهرين جزيرة لا يُعرف لها غاية[5] وكذلك لا يُعرف لهذين النهرين نهاية."

ولم يتعرض ابن سليم لحالة السكان ولا لنظام الحكم عندهم لكن وصفه كما رأينا كان مركزاً على جغرافية البلاد ومُنتجاتها.

وهذا الوصف ولو أنه كان فى القرن الرابع الهجرى لكنه كم يبدو لم يحدث فى هذه البلاد يذكر يميزها عما كانت عليه عندما غزاها العرب لأول مرة.

وقد وصف ابن سليم (سوبا) بالتفصيل فقال:

"وفيها أبنية حسان، ودور واسعة، وكنائس كثيرة الذهب، وبساتين ومتملك[6] علوه أكثر مالاً من متملك المقره وأعظم جيشاً، وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى- وبلده أخصب وأوسع، والنخل والكروم عندهم يسير، وأكثر حبوبهم

١- ينطبق هذا نهر العطبرة أو نهر الرهد.

٢- أى الجنوب.

٣- ينطبق هذا على النيل الأزرق فى موسم التحاريق.

٤- يعنة مدينة (سوبا).

٥- يقصد جزيرة سنار الحالية.

٦- حاكم.

(الذرة البيضاء) التى مثل الأرز، منها خبزهم ومزرهم[١] واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى، والمروج الواسعة.

وعندهم خيل عتاق، وجمال صُهب عراب، ودينهم النصرانية يعاقبه- وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة السفلى، وكتبهم الرومية يفسرونها بلسانهم - وهم أقل فهماً من النوبة السفلى".

"إنهم أهل بادية يتبعون الكلأ حيثما كان المربط- بأخبية من جلود- وأنسابهم من جهة النساء- ولكل بطن منهم رئيس، وليس عليهم متملك ولا لهم دين - وهم يُورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال، وهم يركبون النجب،[٢] الصهب وتكثر عندهم، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضاً- والمواشى من البقر والغنم والضأن غاية فى الكثرة، وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن وأبدانهم صحاح، وبطونهم خماص وألوانهم مشرقة الصفرة ولهم سرعة فى الجرى يباهون بها الناس، وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش، يُسابقون عليها الخيل ويقاتلون، وتدور بهم كما يشتهون وهم يُبالغون فى الضيافة - فإذا طرق أحدهم الضيف ذبح له (الشاه) فإذا تجاوز ثلاثة نفر ذبح لهم (الناقة) من أقرب الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره - فان لم يكن شيء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خير منها، وسلاحهم الحراب السباعية[٣] مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع والعود أربعة.

وبلدانهم كلها معادن- وكلما تصاعدت كانت أجود ذهباً وأكثر، وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغناطيس والزمرد... وفى أوديتهم شجر المقل[٤] والشيح والحنظل .. وألبان، وبأقصى بلادهم النخل وشجر الكرم والرياحين وغير ذلك مما لا يزرعه أحد - وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة".

ويضيف ابن سليم عن حياة الناس وعاداتهم فيقول:

"وفى البجة شر وتسارع إليه- ولهم فى الإسلام وقبله أذية، على شرق صعيد مصر- ضربوا هناك قرى عديدة، وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً،

١- نوع من الاشربة من الذرة.

٢- الخيل.

٣- أى طولها سبعة أذرع.

٤- الدوم.

لحاجتهم إلى المعادن وكذلك الروم لما ملكوا مصر- ولهم فى المعادن آثار مشهورة".

هذه هى أرض البجه فى أواخر القرن ٤ هـ ١٠م.

أحوال ممالك النوبة المسيحية من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية:

أولاً: التنظيم السياسى:

كان على رأس كل دولة من دولتى النوبة (ملك)، وكان الملك يلبس تاجاً مرصعاً بالأحجار الكريمة ويعلوه صليب من الذهب، ومن شارات الملك أيضاً (المظلة) تُرفع على رأس الملك فى المواكب، وسرير الملك يُصنع غالباً من خشب الأبنوس.

وكان الملك يتمتع بسلطة مطلقة فهو يملك الأرض ومن عليها، وكان نظام الوراثة السائد هو نظام (الأمومة) فيرث ابن البنت أو ابن (الأخت).

والى جوار الملك موظفون يرأسهم (نائب الملك) – والى جانبه (حامل الرسائل) و(حامل التاج)، و(كبير الحراس) و(أمين الأختام).

وكانت مملكة النوبة الشمالية مقسمة إلى (١٣ قسماً) إدارياً، على كل منها رئيس سلطته فيه مطلقة، وأتخذ كل رئيس شارة عبارة عن طاقية ذات قرنين وسوار ذهبى.

والتنظيم السياسى لمملكة علوه – لم يكن يختلف فى تفصيله عما فى مملكة النوبة الشمالية، وإن كان ملك علوه يمتاز بجاه أو نفوذ أكبر وجيشه أكبر عدداً، ولعل ذلك يرجع لاتساع مملكته، وخصوبة تربتها وكثرة المراعى بها- وإن كان الشعب فى المملكة الشمالية كما يبدو أكثر تحضراً. ويظهر ثراء مملكة علوه فى كثير من عدد كنائسها وأديرتها وفى نقوشها، ولا تزال بقايا هذه الكنائس والأديرة، تُشاهد على النيل الأزرق جنوبى الخرطوم بما يقرب بإثنى عشر ميلاً ويُرجح أنها من بقايا مدينة سوبا[١].

ثانياً: النواحى الاجتماعية:

كان المجتمع النوبى فى العصر المسيحى يتألف من طبقتين:

١- الطبقة الحاكمة: الأسرة المالكة وحكام الأقاليم والموظفون.

٢- طبقة أفراد الشعب.

١- Budge: vol. 2 p. 303 نقلاً عن (ابن سليم الاسوانى- وأبو صالح الأرمنى).

وكانــت الطبقة الأولى تتمتع بكافة الحقوق والامتيازات بينما الطبقة الثانية تقوم بالأعباء والواجبات – وكان الرق منتشراً ويُعتبر وسيلة من وسائل التبادل التجارى.

والــى جانب الملك وربما يتمتع بسلطة أكبر منه (أسقف) المملكة أو مطرانها وكـان يُعينه بطريرك الإسكندرية، وهو من جانبه يُعين أصحاب المناصب الدينية الصـغرى- وكـان مـن عادة البطريرك أن يكتب المطران مستفسراً عن أحوال الشـعب بالـنوبة، وقد ينبهه إلى بعض ما كان يشكو منه الشعب، وقد كان بعض الملوك وحكام الأقاليم يمارسون وظائف كهنوتية إلى جانب وظائفهم الإدارية.

ولعلـنا نتساءل عن مدى الدور الذى لعبته (الكنيسة) فى المجتمع النوبى نفسه وفى تاريخ بلاد النوبة وعلاقتها بمصر باعتبارها الأم التى أخذت عنها النوبة تعاليم المسيحية الأولى؟

ويـبدو أن الكنيسـة النوبية استخدمت فى مبدأ الأمر (اللغة اليونانية) فى أداء الطقـوس الدينـية ثـم أخذت اللغة القبطية تنتشر وتُستخدم فى الكنائس ثم تُرجمت الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية[١].

أمـا عن أثر الكنيسة النوبية فى تاريخ بلاد النوبة وعلاقتها بمصر فيرجع إلى العلاقة بين الكنيستين المصرية والنوبية، فقد كان أساقفة النوبة يُرسلون من مصر.

وتذكـر بعض المصادر أنه حدث فى عام ٧٣٧م أن زجت السلطات الحاكمة فى مصر (بالبطريرك ميخائيل) البطريرك الواحد والأربعين لكنيسة الإسكندرية فى السـجن- فلما وصل خبر ذلك إلى ملك النوبة (قرياقوص) زحف على مصر بقوة مـن ١٠٠,٠٠٠، ١٠٠,٠٠٠ مـن راكـبى فأضـطر والـى مصر إلى فك أسر البطريرك، وطلب منه أن يتوسط لدى المالك النوبى ليسحب قواته من مصر[٢].

ويذكـر أن (الأنـبا يوساب) بطريرك الإسكندرية توسط فى الخلاف بين ملك الـنوبة (زكـريا بن يحنس) وبين الخليفة المأمون لرفض الملك النوبى دفع (البقط) المـتفق علـيه والـذى تأخر دفعه لمدة أربعة عشر عاماً، وقد استجاب الملك لهذه الوساطة وأرسل ابنه (جورج) لبغداد لحل هذا الخلاف.

١- المقريزى: المواعظ والاعتبار – ج ١ ص ١٩٣.

٢- ذكر هذه الحادثة (أبوصالح) الارمنى ص ٢٦٧.

وكذلك Budge: vol 2 p. 298. & Lane Poole: Middle ages p. 27

وقــد حاول بعض حكام مصر الحد من سلطة بطريرك الإسكندرية فى النوبة والحبشـــة- فمـــنع (الحاكم بأمر الله) المراسلات بين بطريرك الإسكندرية المرقسية وبيـــن مطارنة النوبة والحبشة، وحدث مثل هذا الضغط على الكنيسة المصرية فى العصـــر المملوكـــى ممـــا أضـــعف صـــلات الكنيسة المصرية بالكنيستين النوبية والأثيوبية[١].

على أنه مما يلاحظ أنه برغم اعتناق الشعب النوبى للمسيحية فقد بقيت بعض العادات والتقاليد الوثنية سائدة فى المجتمع، ويكفى أن تجارة الرقيق بقيت سائدة فى المجـــتمع النوبى بالإضافة لنظام الإقطاع بقسوته- كما أن الوظائف الكنسية الهامة ظلـــت بـــيد رجال الدين الذى يبعثون من مصر، وحيث وقفت الظروف عائقاً فى طريق إرسال الكهنة ورجال الدين من مصر- تعطلت الشعائر الدينية فى كثير من كـــنائس النوبة- كما أن الطقوس الدينية ظلت فترة طويلة تؤدى بلغة أجنبية - مما يـــدل على أن العقيدة الجديدة لم تتفاعل مع مشاعر الجماهير بل إنها فُرضت على الناس من ملوكهم فرضاً، ويُمثل هذا خلافاً واضحاً بين الظروف التى انتشرت فيها المسيحية فى مصر وظروف انتشارها فى بلاد النوبة.

ثالثاً: الاقتصاد النوبى :

يمكننا أن نستنتج مما كتبه (ابن سليم الاسوانى) وغيره من الكتاب العرب شيئاً **عن الأحوال الاقتصادية لممالك النوبة المسيحية.**

ومـــن أهم أسس الاقتصاد النوبى (التجارة) وتتم عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشـــى والحبال والحديد والحبوب، وكانت أهم معاملاتهم التجارية فى مصر، وكانت هناك نقط على النيل بمثابة محطات للتجارة مثل (بلاق) وبلدة (تقوى)[٢].

وقد حرص حكام مصر فيما عقدوه مع حكام النوبة من إتفاقات ومعاهدات أن تتضمن هذه الاتفاقات ما يؤمن التبادل التجارى بين البلدين.

كمـــا أنه كانت لهم علاقات قوية مع إثيوبيا - وكانت الطرق الممتدة من إلى سواكن ومصوع معروفة[٣].

هـــذا بالإضافة للتجارة مع بلاد العرب، وكان لقبائل البجة دور كبير فى هذه الـــتجارة مع شبه جزيرة العرب لمعرفتهم بمسالك الصحراء الشرقية ودروبها، فقد

١- انظر د. زاهر رياض : ص ١٦٨.

٢- المقريزى: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٣ نقلا عن ابن سليم الاسوانى.

٣- د. زاهر رياض: ص ١٧:

نشـــطت حركة التجارة فى العاج والصمغ والكتان والذهب والرقيق، وانتشر بعض الـــتجار العرب فى نقط على الساحل الافريقى ليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم فى الجزيرة العربية وبين التجار الافريقين[١].

أمـــا عـــن (الزراعة) فقد كانت تقوم فى المناطق التى يتسع فيها الوادى، وقد كانوا يزرعون الذرة والشعير والسمسم، وكانت تكثر أشجار النخيل والمقل وبعض الكـــروم، وقد استخدموا فى ذلك السواقى، كما كانت طريقة التسميد (بروث البهائم) معروفة لديهم.

والأجـــزاء الجنوبية من بلاد النوبة السفلى أكثر غنى من الجهات الشمالية فى الزراعة، كما أن بها من المراعى ما يسمح بتربية (المواشى).

وتقـــوم الزراعة أيضاً فى الجزائر المنتشرة فى النيل، أما الجهات التى تضيق فيها رقعة الأرض الزراعية فيعتمد الاهالى أكثر على السمك فى غذائهم.

أمـــا مملكـــة علوه فهى أغنى وأوسع ثروة من مملكة (النوبة السفلى) لاتساع واديهـــا وخصـــوبة أراضيها، وبها تزرع الذرة ويكثر بها شجر النخيل، كما يُزرع البصل والفجل والقثاء والبطيخ.

وتكثر قطعان الماشية فى مملكة علوه لتوفر المراعى[٢].

ويســـتخرج (الذهب) وبعض المعادن الأخرى كالحديد من مناجم النوبة وهى مشهورة بذلك من قديم الزمان، وتستغل هذه المعادن فى عملية المقايضة.

وهكـــذا تقوم الحياة فى ممالك النوبة المسيحية على استغلال الموارد الطبيعية بوســـائل بدائـــية إلـــى حد كبير، (فالصناعة) لم تكد تخرج عن بعض الصناعات الأولـــية، وكذلك فنونهم كما تظهر بوضوح فى آثارهم المادية كالكنائس والأديرة – لا تدل على تقدم كبير.

ضعف ممالك النوبة المسيحية :

تُعتـــبر الفترة بين ١١٠٠، ١٣٠٠م أزهى عصور مملكتى النوبة المسيحيتين (مقـــره وعلـــوى)، لكن من بداية القرن الرابع عشر الميلادى بدأت المملكتان فى الانهيار[٣].

١- شرحنا بإيضاح أكثر فيما بعد – علاقة العرب بأفريقيا الشرقية.

٢- انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٠ وما بعدها (نقلاً عن ابن سليم الاسوانى).

3- Budge: vol 2 p. 306

ويرجع انهيار المملكتين لعوامل متعددة منها:

١- الضغط الذى تعرضت له مملكتا النوبة من الشمال والجنوب- ففى الشمال كانت قوة العرب الذين استقروا فى مصر منذ القرن السابع الميلادى تضغط باستمرار على بلاد النوبة التى كانت دائماً خاضعة للسلطات الحاكمة فى مصر طالما أن هذه السلطات لديها القوة لفرض سلطانها على هذه المناطق.

أما من الجنوب فقد كانت القبائل الزنجية تضغط باستمرار وتتوغل شمالاً كلما سنحت الفرصة.

وسنتحدث فى الباب الثانى بالتفصيل عن علاقة العرب بممالك النوبة المسيحية- لكننا نشير هنا إلى أن ضغط العرب من الشمال على بلاد النوبة ازداد شدة منذ أواسط القرن الثانى عشر وكثر الإحتكاك بين البلدين فى عهد الدولة الفاطمية فى مصر ثم فى عهد الدولة الأيوبية، وفى عهد الدولة المملوكية (حوالى عام ١٢٧٥م) أصبحت النوبة الشمالية خاضعة لمصر- أما مملكة علوه فتجمع الروايات التاريخية على أن نهايتها كانت فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى على يد جماعة من العرب (الفنج)[1].

٢- لم ترتبط المسيحية فى بلاد النوبة بأيه ناحية قومية، فقد اعتنقها الشعب لا عن طريق الإقتناع بل بأمر الملك بعكس الوضع فى مصر فقد ارتبطت فيها المسيحية بالثورة على الحكم الاجنبى وزادت جذوتها بسبب اضطهاد الرومان للمصريين، وقد أثبتت الحوادث صدق هذا فلم ير النوبيون فى التغيير الجديد ما يمس عقيدة راسخة فى نفوسهم.

٣- كانت المسيحية فى النوبة تعتمد اعتماداً كاملاً على الكنيسة المصرية وكان معظم رجال الدين يُرسلون من مصر، والطقوس تؤدى بلغة أجنبية- ولذا شعر النوبيون أن الكنيسة النوبية ذاتها غريبة عنهم، كما أن الظروف كانت تؤدى فى كثير من الأحيان إلى عدم إرسال ما تحتاج إليه الكنائس النوبية من رجال دين فكانت تبقى هذه الوظائف الدينية شاغرة مُدداً طويلة تتعطل فيها الطقوس الدينية، وبالتدريج تَعود سُكان النوبة على هذا الوضع دون أن يشعروا أنهم فقدوا شيئاً.

٤- ضعف ملوك النوبة وانقسام الأسرة المالكة إلى عدد من الأمراء المتنافسين على العرش، وضعف العلاقة بين مملكة النوبة الشمالية وبين (مملكة علوه) والتنافس بين المملكتين مما أدى لضعفهما.

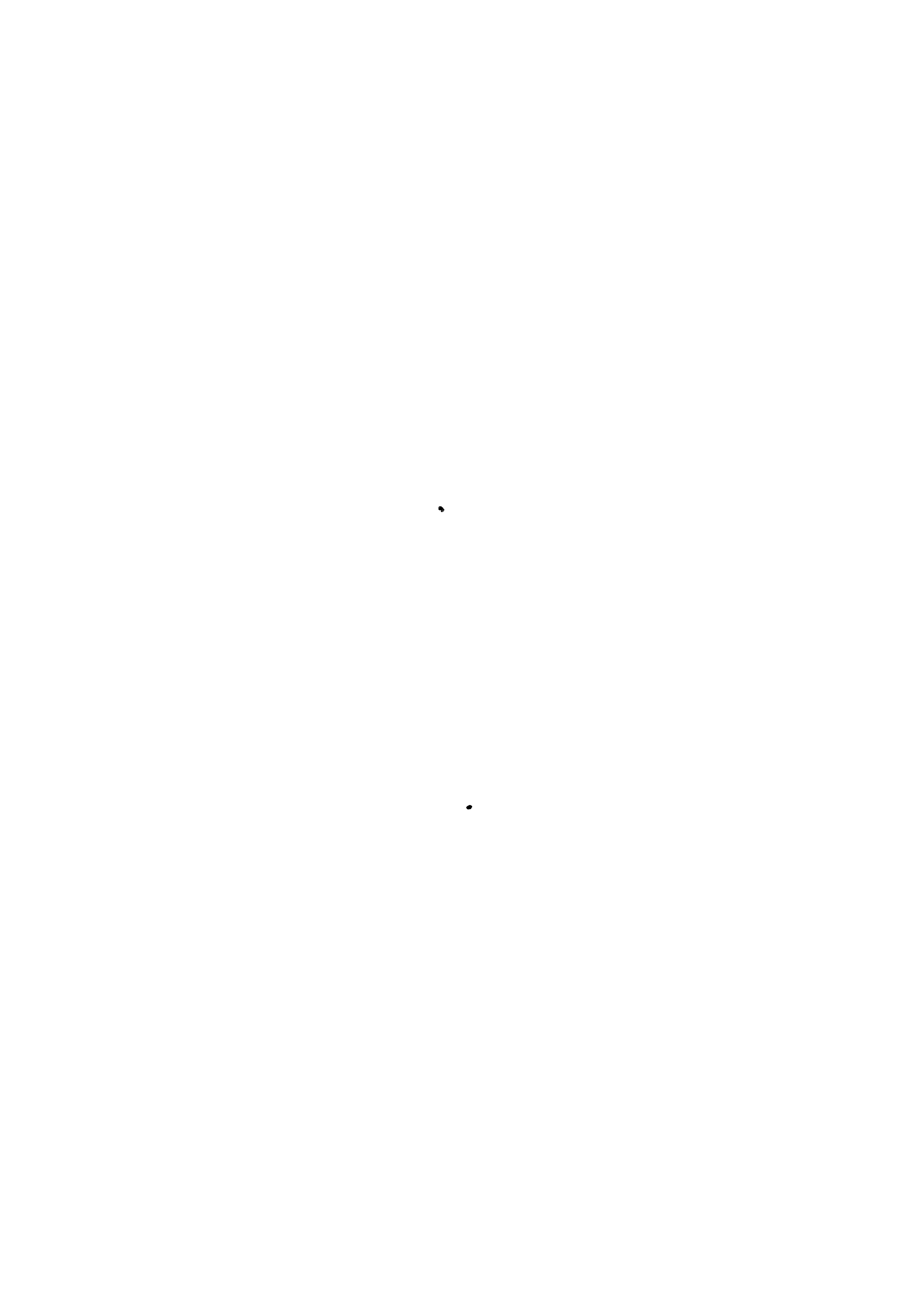
١- د. زاهر رياض: ص ١٨٢.

٥- ضعف السلطة الحاكمة فى ممالك النوبة حتى عجزت عن حماية رعاياها، فكانوا صيداً سهلاً لتجار الرقيق يغدون على القرى ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال لشحنهم إلى أسواق الرقيق – ولذا لجأ الكثيرون للقبائل العربية القوية التى جاءت واستقرت فى بلاد النوبة لتحميهم.

٦- عدم قيام ملوك النوبة بأى جهد صادق للنهوض بالبلاد فى النواحى العمرانية والإقتصادية، فظل الإقتصاد النوبى كما كان فى العصور القديمة دون تطور، وقد رأينا المجتمع النوبى يُعانى من الإقطاع ومن ضعف الإنتاج الذى كان يسير بنفس الطرق القديمة البدائية.

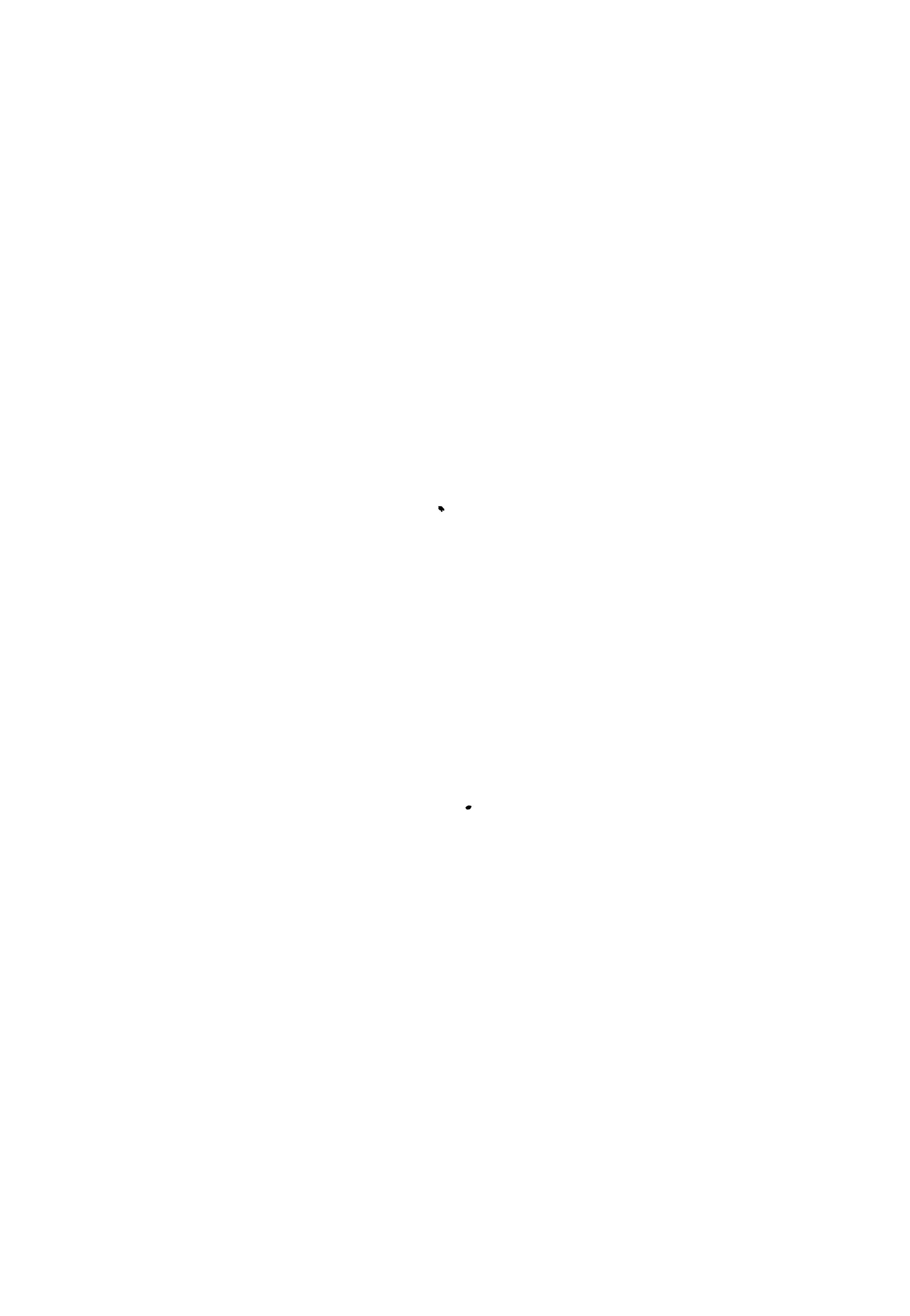
٧- الهجرات العربية إلى النوبة واستقرار كثيرين من العرب فى هذه البلاد للتجارة. وإذا كان العرب قد وفداً للسودان من الجزيرة العربية فقد أضاف وجود الإسلام بمصر مصدراً جديداً للهجرة للسودان وسنناقش هذه النقطة بالتفصيل فى الباب التالى.

هذه بعض العوامل التى أدت لضعف ممالك النوبة المسيحية، فقد أتت أدت نهاية القرن الثالث عشر الميلادى وأوائل القرن الرابع عشر نهاية (مملكة النوبة الشمالية) كما أن نهاية (مملكة علوه) كانت فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، وسنفصل ذلك فيما بعد.



الفصل الثامن
انتشار الإسلام
والثقافة العربية فى سودان وادى النيل

- علاقة العرب ببلاد السودان قبل الإسلام.
- علاقة العرب ببلاد السودان بعد فتح مصر.
- العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام فى النوبة فى عهد الدولة العباسية - فى عهد الدولة الطولونية - فى عهد الاخشيدين - فى عهد الأيوبيين - فى الهد المملوكى.
- تطور العلاقة بين النوبة ودولة المماليك فى مصر.
- سقوط ممالك النوبة المسيحية والعوامل التى أدلت لذلك.
- القبائل العربية التى هاجرت للسودان الشمالى.
- انتشار الثقافة الإسلامية فى السودان.
- علماء مسلمون وفدوا للسودان.
- الثقافة الإسلامية فى كردفان ودار فور.



الفصل الثامن

انتشار الإسلام والثقافة العربية فى سودان وادى النيل

أولاً: علاقة العرب وبلاد السودان قبل الإسلام :

علاقة العرب بالسودان قديمة جداً ولا نحتاج لأن نتتبعها من أقدم العصور للآن وقد تعرض كثيرون من المؤرخين الذين كتبوا بالخصوص عن تاريخ (شرق إفريقياً) للهجرات العربية لشرق القارة.

لكن هذه الدراسات كلها حديثة وكنا نود أن تكون تحت أيدينا معلومات أدق عن العلاقات القديمة للعرب بهذه الجهات – متى بدأت؟ وما نوع هذه العلاقات وما نتائجها؟.

والكتابات التى لدينا ترجع للقرن الثامن الميلادى وما بعده- وهى كتابات الرحالة العرب والأجانب الذين زاروا هذه المناطق فأشاروا فيما كتبوه عن العرب فى هذه الجهات.

ونشير فى هذا المجال إلى نقاط هامة:

١- أن السودان يُواجه الجزيرة العربية ولا يفصل بينهما إلا البحر وهو بحر هادئ ضيق- فكان من الطبيعى أن تمد العناصر العربية نشاطها إلى هذا الجزء المقابل لها من السودان من أقدم العصور، خاصة أن الأحوال الإقتصادية فى الجزيرة العربية تجعلها بيئة طاردة، ولذا استقر كثير من سكانها بالنوبة الشمالية واشتغلوا كوسطاء فى التجارة أو فى مناجم الذهب واختلط العرب المهاجرون بالسكان الأصليين وأثروا فيهم وتأثروا بهم.

٢- وفى عهد دولتى معين وسبأ (١٥٠٠- ٣٠٠ ق. م) هاجرت أعداد غفيرة من جنوب الجزيرة العربية للقارة الإفريقية وتوغلت أعداد منهم حتى وادى النيل وتحكم المعينيون والسبيئيون فى التجارة فى البحر الأحمر[(١)].

واستمر نشاط التجار العرب خلال العصور التالية وترتب على ذلك استمرار الإحتكاك بين العرب وبين سكان هذه البلاد واستمرار الهجرة- وفى القرنين السابقين للميلاد عَبر عدد كبير من (الحميريين) البحر الأحمر من اليمن وكذا جماعة من الحضارمة واستقر بعضهم فى الحبشة، وتابع البعض

1- Mac Michael: A History of the Arabs in Sudan p. 4.

السير متتبعاً فروع النيل الحبشية حتى انتهى بهم المطاف إلى بلاد النوبة واختلط بعضهم بالبجه وتصاهروا معهم[١].

٣- وقد رأيناً صورة من هذه الهجرات العربية لافريقياً فى فجر الإسلام حينما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أتباعه بالهجرة للحبشة مرتين.

٤- زادت الهجرة بعد إنتشار الإسلام واتسع طريق الهجرة من الشمال للجنوب على وجه خاص، حيث أخذت القبائل العربية تتمتع بالحماية التى تكفلها لها الدولة الإسلامية، على أن هذه الهجرات العربية الإسلامية أصبح أثرها أعمق فلم تنتشر دماءها فقط فى المنطقة لكنها أيضاً نشرت لغتها – لغة القرآن الكريم.

ثانياً: علاقة العرب ببلاد السودان بعد فتحهم لمصر:

لما دخل عمرو بن العاص مصر سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ) أرسل (عبدالله بن سعد ابن أبى السرح) لبلاد النوبة فلم يقدر عليها ورجع.

ويذكـر المقريـزى أن جيش المسلمين لبلاد النوبة بلغ ٢٠,٠٠٠ مقاتل وهذا العدد لا شك مبالغ فيه لأسباب:

١- جيش المسلمين الفاتح لمصر كان ٤,٠٠٠ مقاتلاً والمدد الذى وصل فيما بعد ١٦,٠٠٠ مقاتلاً.

٢- **تموين وتغذية ٢٠,٠٠٠ جندى فى ذلك الوقت وفى هذه المنطقة البعيدة أمر عسير.**

٣- لا يُعقل إلا يستطيع هذا العدد الانتصار نهائياً على النوبة وينتهى الأمر بمجرد عقد صلح لم يُكر فيه المنتصر، ولم يُحدد فيه قدر المال الذى يدفع له.

وقد ذكر البلاذرى[٢] – تحت عنوان "صلح النوبة" أن عمرو بن العاص أرسل (عُقـبة بـن نافع) أخى العاصى لأمه للنوبة– وأن العرب رشقوا النوبة بالنبال – وذكـر أن شيخاً حميرياً قال "لقد شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمرو بن العاص" ويصف سكان النوبة بالمهارة فى القتال بالسهام فلا يكاد يُخطئ سهمهم مكانه.

حين أصبح (عبدالله بن سعد بن أبى السرح) والياً لمصر سنة ٣١ هـ – أرسل أهـل الـنوبة سراياهم[٣] إلى صعيد مصر فخربوا وأفسدوا فغزاهم عبدالله بن سعد

١- د. مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص ١٠٨ (طبعة ١٩٦٠).

٢- البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٣٧.

٣- السرايا: جمع سرية وهى الغزوة.

سـنه ٣١ هـ وضــرب (دنقلـة) ورمــى كنيستها بالمنجنيق فأضطر ملكها المدعو (قُليدور) أن يطلب الصلح صاغراً فكتب بذلك عهد.

وقد جاء فى هذا العهد[١]

"عهـد مـن الأمـير عبدالله بن سعد بن أبى السرح لعظيم النوبة وجميع أهل مملكـته- عقـد عقـده على الكبير والصغير من حد أرض أسوان إلى حد أرض (علـوه) – إن عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة[٢] جارية بينهم وبين المسلمين ممـن جاوروهم من أهل صعيد مصر، وغيرهم من المسلمين وأهل النوبة – إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى (صلى الله عليه وسلم) أن لا نحـاربكم وننصب لكم حرباً[٣]، ولا نغزوكم[٤] ما أنتم على الشرائط[٥] التى بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيميـن فـيه، وعليكم حفظ[٦] من نزل بلدكم أو بطرفكم من مسلم أو معاهد حتى يخـرج عنكم- وأن عليكم رد كل آبق[٧] خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه[٨]، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجـاوره[٩] إلى أن يتصرف عنه – وعليكم حفظ المسجد[١٠] الذى ابتناه المسلمون بفـناء مدنتكم (دنقلة) ولا تمنعوا منه مصلياً – وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه[١١]

١- المقريزى: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخط والآثار ج ١ ص ٣٢٣.

٢- صدقة: مصادقون.

٣- ننصب لكم حربا: ندر لكم حرباً.

٤- نغزوكم: فرق بين الغزو والحرب.

٥- الشرائط: الشروط والاتفاقات المعقودة بيننا وبينكم.

٦- تمنعوا منه: لا تمنعوا من يأتى لاستلام الآبق.

٧- أبق: خارج على القانون – هارب.

٨- تمنعوا منه: لا تمنعوا من يأتى لاستلام الأبق.

٩- قصده وجاوره: قصد هذا الآبق وجاوره.

١٠- المسجد: الثابت أن المسلمين فى كل جهة يدخلوها يتركون وراءهم مسجداً رمزاً لدخولهم البلاد، ويعملون شروطاً مع السكان أن يحافظا عليه وإذا احتاج لإسراج يقومون به، والمسجد كان قديماً يمكن للمسلم أن يترل وينام فيه- وكان له من الحرمة ما للسفارات اليوم، متى آوى إنسان صار فى حصانة، لأن ليس ملك الدولة- فهم يعملون المسجد ليأوى إليه المسلم للصلاة والنوم، وليعلنوا أ، المسلمين وصلوا لهذه الأرض رمزا على أ، الإسلام صاحب الحق فى هذه المنطقة.

ويرجح الدكتور مصطفى مسعد أن المسجد بناه التجار المسلمون بهذه الجهات قبل حملة عبدالله بن سعد (انظر مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ص ١١٤).

١١- تكريم المسجد: لا يلحقون به شيئاً من الاهانه.

وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين[١] من أواسط رقيق[٢] بلدكم غير العيب- يكون فيها ذكران وأناث، ليس منها شيخ هرم، ولا عجوز، ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان، وليس على مسلم دفع[٣] عدو عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض (علوه) إلى أرض أسوان.

فإن أنتم أويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً- أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئا من الثلمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين – بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمه رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) – ولنا عليكم[٤] بذلك أعظم ما تدينون به من ذمه المسيح، وذمه الحواريين[٥] وذمه من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم – الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك".

كتبه عمرو بن شرحبيل – فى رمضان ٣١هـ.

ويلاحظ من دراسة هذا النص :

١- هذه الاتفاقّية سُميت بالعهد، وبعض الكتاب كالمقريزى أطلقوا عليها لفظ (بقط)، وكلمه (Pakt) كلمة فرعونية قديمة بمعنى عهد.

٢- شروط المسلمين عند غزو أى بلد إما الإسلام أو الجزية أو القتال، ويُلاحظ أن النوبيين لم يُسلموا ولم يستمروا فى القتال فقد خُربت كنيستهم، ويلاحظ فرق بين الجزية والخراج- الجزية وهى من الآية: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } التوبة٢٩ أى عن غنى وهم خاضعون، ودفع الجزية على أساسين:

أ - التأمين من الأعداء.

ب- التمتع بالمرافق العامة.

أما الخراج فضريبة تفرض على الأرض.

١- إمام المسلمين: الخليفة- عادة يستلمها والى مصر ويبعث بها للخليفة.

٢- الرقيق : كان شائعاً فى ذلك الوقت وكان الرق هو السلعة المتداولة فى هذه البلاد لفقرها.

٣- دفع العدو: رده.

٤- لنا عليكم: نحلفكم "عليك بالله" أى استعن بالله عليك. حقا مقدس فى ذمتكم بأعظم ما تدينون به.

٥- الحواريون: تلاميذ المسيح.

٣- هذا الصلح لم يشمل (دولة علوه) المسيحية إذ لم تصلها جيوش المسلمين ولم يُشر للبجة أيضاً بشىء - الـ ٣٦٠ رأساً هل هى إذا جزية عُملت بعد إحصاء للنوبيين؟ - بالطبع لا - إذ فى مقابلها يدفع المسلمون قمحاً وشعيراً وغيرها، والجزية لا مقابل لها.
هل هى إذا خراج. لكن الخراج على الأرض[1].
إذا - هى فقط مقابل خدمات للمسلمين.

٤- من هذا يتضح لنا أن هذه المعاهدة بين المسلمين وأهل النوبة كانت مجرد تنظيم طبيعى للعلاقات إقرارًا للسلام على الحدود المشتركة، وهى نابعة من المصالح المتبادلة للفريقين، وقد ظلت سارية المفعول لأكثر من ستمائة سنه (أى حتى قيام الدولة المملوكية الأولى فى مصر)، وظلت العلاقات بين مصر والنوبة يتحكم فيها عاملان[2]:

أ - معاهدة البقط التى نظمت العلاقات السليمة والتبادل التجارى بين القطرين.

ب- الصلات الدينية بين بلاد النوبة ومصر- فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبى فكانوا يتبعون الكنسية المرقسية بالإسكندرية.

وهـــذه المعـــاهدة بالاختصار (معاهدة حسن جوار) تحقق للمسلمين الإطمئنان على سلامة حدوهم من ناحية الجنوب، وفتح البلاد للتجارة وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية ونشر الثقافة الإسلامية فى بلاد النوبة بالطرق السلمية[3].

ولا يخفـــى علينا أن المسلمين لقوا مقاومة عنيفة من النوبيين، ويرجع هذا قبل كل شىء إلى جغرافية بلادهم، فتضاريسها تتيح أماكن وفرص يقيم فيها المدافعون، وكذا مناخها من القوة بحيث يشعر بعنفه الجيش الغريب الغازى.

وكانـــت هـــذه المعاهدة على كل بداية تسرب الإسلام إلى بلاد النوبة بطريقة سلمية حتى بداية العصر المملوكى الأول.

العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام فى بلاد النوبة:

١- من هذه العوامل هجرة القبائل العربية إلى بلاد النوبة قبل الإسلام ثم ازدياد هذه الهجرة بعد الإسلام، وقد تدفق العرب المسلمون للسودان كما ذكرنا من

١- والجزية معروفة منذ زمن اليونان وهى قدر معلوم من المال يفرض على الرؤوس- انظر د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص٥٩٦ وما بعدها (١٩٣٥).

٢- د. حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية (١٩٥٨) ص ٢٨٤ وما بعدها.

٣- د.مصطفى ميعد: ص ١١٥.

جهات مختلفة أكثرها: من مصر لبلاد النوبة ثم جنوب السودان، ومن الحجاز واليمن لشرقى السودان، ومن بلاد المغرب إلى غربى السودان – أضف إلى ذلك ما حدث بين أهل النوبة والعرب من إتصال وإختلاط لأسباب تجارية واقتصادية، أو حين استقر العرب المهاجرون ببلاد النوبة.

وقد كان السودان طريقاً هاماً للتجارة بين البحر الأحمر وبلاد العرب وغرب أفريقيا، وهكذا انتشر الإسلام والثقافة العربية فى السودان ببطء وفى غير عنف وكان التجار خير دعاة للإسلام فى هذه البلاد.

٢- حدث حين انتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس حوالى ١٣٢ هـ أن فر (مروان الثانى) آخر خلفاء الأمويين لمصر مع عدد كبير من أنصاره وعبيده وأمواله وانتهى الأمر بقتل (مروان الثانى) عند قرية (بوصير) فاضطر أتباعه وأنصاره وعبيده للتقدم جنوباً ووصل عدد كبير منهم إلى بلاد النوبة، وعبرت قلة منهم البحر عائدة إلى جدة واستقر الباقون بالسودان الشمالى، وكان هذا الاستقرار من الأسباب التى أدت لانتشار الإسلام بين سكان هذه البلاد(١).

ازداد سيل المهاجرين للجنوب حين أصبحت حالة مصر خاصة والعالم الاسلامى عامة لا تشجع العرب على البقاء بل تدفعهم للهجرة، فقد بدأت العناصر الأخرى من فرس وترك وغيرهم تحل فى الجيش وفى وظائف الدولة محل العرب.

٣- ضعف سلطة ملوك بلاد النوبة حتى أصبحوا لا يستطيعون حماية رعاياهم– الذين أصبحوا معرضين لتجار الرقيق بالإضافة لقطاع الطرق وغيرهم لذلك كان طبيعياً أن يسعى عامة الشعب لمن يحميهم ويجيرهم، وكانت القبائل العربية المستقرة بعاداتها وتقاليدها خير مجير، وقد أشرنا لهذه النقطة عند الحديث عن أسباب سقوط ممالك النوبة المسيحية – وحدثت مصاهرات بين العرب والنوبيين الذين كانوا يرحبون بهذه المصاهرات التى تضمن لهم سنداً قوياً وحماية فى وسط عوامل العنف والفوضى التى اجتاحت هذه البلاد.

٤- هبوط المستوى الاقتصادى بعد أن أستنزف عدد كبير من الأيدى العاملة بسبب تجارة الرقيق، وبسبب الاضطرابات.

١- د. عبدالعزيز عبدالمجيد: التربية فى السودان \ ج ١ ص ٢٠.

وفى عهد الدولة العباسية :

كان فى أسوان كثير من العرب من قبائل (قحطان) و(ربيعة) و(مضر) و(قريش) وكانت لهم ضياع فى النوبة – فلما جاء المأمون لمصر أرسل ملك النوبة وفداً يشكو إليه من أن الضياع التى اشتراها المسلمون كانت مملوكه لعبيده من النوبيين وباعوها للمسلمين بغير وجه حق– لأن البائعين عبيد له فالأرض تُعتبر أرضه بحكم كونهم عبيداً– فأحال (المأمون) هذه الدعوى على (حاكم أسوان) للبت فيها بالاشتراك مع أهل العلم والشيوخ.

ورأى المسلمون أن يُفسدوا على الملك النوبى محاولته فأوصوا البائعين أن يقروا أمام الحاكم وأتباعه أنهم ليسوا عبيداً للملك بل أحرار وعلاقتهم به أنما تكون كعلاقة المسلمين بملوكهم – فلما جمع الوالى بينهم قروا بذلك فسقطت حُجة الملك وأعتبر البيع قانونياً، ومن ذلك العهد صار سكان تلك الضياع المجاورة لأسوان أحرار لا تسرى عليهم شريعة ملك النوبة من حيث استعباد رعياه.

وكان هذا من أسباب عداء ملوك النوبة للمسلمين، فكثرت غاراتهم على أسوان وجنوب مصر حتى أقفرت منطقة أسوان وقُتل وسبى عدد كبير من أهلها.

وقد كان لأسوان وضع آخر إذ كانت مقر إمارة عربية (إمارة بيت كنز الدولة) ومنهم (الكنوز) وسنشير إلى الدور الذى لعبته هذه الإمارة بعد قليل.

وقد حدث فى عهد المأمون أيضاً حادث أخر بين المسلمين وبين بعض قبائل السودان الشرقى وهم قبائل (البجه).

والبجه كما نعلم حامى قوى شديد البأس، وكانت لهم وقائع مع قدماء المصريين، ومع ملوك النوبة أشرنا إليها من قبل، ومن أشهر بلادهم مدينة (عيذاب) على البحر الأحمر تجاه (جده) وقد كانت فيما مضى مركزاً هاماً لنقل الحجاج والتجارة – وتشمل بلادهم منطقة (العلاقى) التى تقع فيها مناجم الذهب والزمرد التى استغلها الفراعنة عهوداً طويلة– وقد ظل البجه عنصراً مستقلاً فى تلك الصحراء الشرقية حتى الفتح الاسلامى لمصر، فوفد على هذه المناطق الكثير من القبائل العربية للاشتراك فى استغلال ما فيها من معادن، وكان البجه كثيراً ما يُغيرون على بلاد النوبة وقرى صعيد مصر وكذلك على غيرهم من القبائل المستقرة التى تعمل فى التجارة أو فى التعدين ثم يفرون فى شعاب الجبال والصحراء.

وفى أواخر القرن الأول الهجرى حيث كثرت الشكوى من غارات البجه خرج إليهم (عبيد الله بن الحبحاب السلولى) والى الصعيد وغزاهم وعقد معهم عهداً

تعهـدوا فـيه بـالإقلاع عن مهاجمة القرى والمدن الآمنة وعدم التعرض للقبائل العربية المستقرة.

لكـن البجه لم يُحافظوا على ما كان بينهم وبين السلولى من عهد، ولما كثرت غـاراتهم رُفع أمرهم للخليفة المأمون سنة ٢١٦ هـ فبعث إليهم (عبدالله ابن الجهم) على رأس جيش كبير فحاربهم وعقد عهداً مع كبيرهم (كنون بن عبدالعزيز).

وقـد ذُكر هذا العهد فى كتاب ابن الحكم فتوح مصر " هذا الكتاب كتبه عبدالله بـن الجهم مولى أمير المؤمنين[١] صاحب جيش الغزاة، عامل[٢] الأمير أبى اسحق ابن أمير[٣] المؤمنين الرشيد أبقاه الله. فى شهر بيع الأول سنة ست عشرة ومائتين (٢١٦هـ) – لكنون بن عبدالعزيز عظيم البجه بأسون.

إنـك سـألتنى إلى أن أُومنك وأهل بلدك من البجه، وأعقد لك ولهم أماناً على وعلـى جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً – ما استقمت واستقاموا[٤] على ما أعطيتنى وشرطت لى فى كتابى هذا– وذلك أن يكون سـهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين (دهلك) و(باضع) ملكاً للمأمون عبدالله ابن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى.

وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون فى بلدك ملكاً على مـا أنت عليه فى البجه، وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سـلف الـبجه– وذلك مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال– والخـيار فـى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تحزم[٥] شيئاً عليك من الخراج.

وعلـى أن كـل واحد منكم إن ذَكر محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكـتاب الله أو ديـنه بما لا ينبغى أن يَذكره به، أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً– فقد برئت منه الذمة[٦] – ذمه الله وذمه رسوله (صلى الله علية وسلم) وذمه أمـير المؤمنيـن أعـزه الله– وذمة جماعة المسلمين، وحل دمه كما يحل دم أهل

١– أمير المؤمنين: المأمون.

٢– عامل: قائد.

٣– أبى اسحق: المعتصم بن الرشيد (تولى بعد المأمون).

٤– استقاموا: أى البجه.

٥– تحزم: تؤجل.

٦– برئت الذمة منه: حل دمه.

الحــرب وذراريهــم، وعلى أن أحداً منكم إن أعان المحاربين[١] على أهل الإسلام بمــال أو دلهــم على عورة[٢] من عورات المسلمين، أو أثراً لعزلتهم[٣]، فقد نقض ذمــة عهده وحل دمه- وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحداً من المسلمين أو أصاب[٤] لأحــد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالاً ببلد البجه أو ببلاد الإسلام، أو ببلاد النوبة، أو مــن شــىء من البلدان براً أو بحراً - فعليه: فى قتل المسلم عشر ديات[٥] وفى قتل غير المسلم قيم[٦] وفى قتل الذمى عشر ديات، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعاف[٧].

وإن دخل أحد المسلمين بلاد البجه تاجراً، أو مقيماً، أو مجتازاً أو حاجاً - فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم- ولا تؤوا أحداً من آبقى[٨] المسلمين- فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين.

وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤنه[٩] تلزمهم فى ذلك - وعلى أنكم إذا نزلتم ريف صعيد مصر للتجارة أو مجتازين لا تُظهرون[١٠] ســلاحاً ولا تدخلون المدائن والقرى بحال[١١] ولا تُمنعوا أحداً من المسلمين الدخول فــى بلادكــم والتجارة فيها براً ولا بحرًا، ولا تخيفوا السبيل، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ولا تسرقوا المسلم ولا لذمى مالاً- وعلى الأ تهدمــوا شــيئاً من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحه[١٢] وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً.

فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة.

١- المحاربين: الأعداء فى النوبة.

٢- عروة: مكان الضعف.

٣- أثراً لعزلتهم: مكان اختباء.

٤- أصاب مالا: اغتصب.

٥- الدية: تختلف تبع الجاه والقبيلة (نظام المحكمين).

٦- القيم: تختلف تبع السن والجنس (قيمة العبد).

٧- أضعاف: أمثال.

٨- آبقى : جمع ابق - الخارج.

٩- مؤنه: مصاريف.

١٠- لا تظهرون: لا تحملون (لأنه يحمل على الظهر).

١١- لا تدخلون المدن: الأسواق كانت بعيده عن المدن.

١٢- صيحة: قرب (عيذاب).

وعلـــى أن (كـــنون بـــن عبدالعزيز) يقيم بريف مصر وكيلاً[١] يفى بما شُرط للمســـلمين من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال وعلى أن أحـــداً من البجه لا يعترض حد (القصر)[٢] إلى قرية يُقال لها (قبان) من النوبة حداً لا عمدة.

عقـــد عبدالله بن الجهم، مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبدالعزيز كبير البجه الأمـــان علـــى ما سميناه وشرطنا هذا- وعلى أن يُوافى أمير المؤمنين - فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة.

وعلـــى كنون أن يُدخل عُمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات[٣] من أســـلم من البجه - وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبدالله بن الجهم، وأخذ بذلك عهد الله علـــيه، بـــأعظم ما أخذ على خلفه من الوفاء والميثاق - ولكنون ابن عبدالعزيز ولجميع أهل البجه عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبى إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمه عبدالله بن الجهم وذمه المسلمين برئيه منهم.

تَـــرجم جمـــيع ما فى هذا الكتاب حرفاً حرفاً زكرياً بن صالح المخزومى من سكان جده، وعبدالله بن إسماعيل القرشى[٤]، ثم نسق جماعة من شهود أسوان".

على أن البجه لم يحفظوا العهد بل عادوا إلى غزو الصعيد والإيقاع بالمسلمين العاملين فى مناجم التعدين- فلما كثر شرهم ولى الخليفة المتوكل على الله العباسى (محمـــد بن عبدالله القمى) على الصعيد الأعلى وأمره بحرب البجه فسار إليهم عام (٢٤١ هـ) بجـــيش من ٢٠,٠٠٠ فارس وراجل، ووجه إلى البحر الأحمر سبع سفن محملـــة بـــالمؤن والأقـــوات والتقى بالبجه وعلى رأسهم ملكهم المدعو (على بابا) واستطاع أن يُوقع بهم فى النهاية حتى طلب مليكهم الصلح فصالحهم (القمى) على أداء ما عليهم من جزية وتمكين المسلمين من التجارة والعمل فى المناجم...

ونلاحظ فى العقد الذى عقده المأمون مع البجه:

أ - فرض الخراج على هذه البلاد التى تمتد على ساحل البحر الأحمر يدل على أنها أصبحت جزءًا من الدولة الإسلامية.

١- وكيلاً: كرهينة.

٢- حد القصر: مساحة القصر.

٣- صدقات: الزكاة.

٤- معرفة بعض العرب للغة البجاوية دليل قاطع على اختلاط العرب بهم وتعلمهم التعامل معهم.

ب- ما نص عليه من جمع صدقات من أسلم من البجه دليل قاطع على دخول عدد كبير من البجه فى الإسلام.

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وظروف دخول البجه فى الإسلام، لكن مما لا شك فيه أنه فى نهاية القرن السابع الميلادى كان الإسلام قد أخذ ينتشر بسرعة بين قبائل البجه.

وفى عهد الطولونيين والإخشيديين :

أصبح الولاة بمصر أتراكاً ففرضوا ضرائب عديدة على عرب مصر مما اضطر الكثيرين للهرب للجنوب والإستقرار جنوبى أسوان وفى الشرق بمواطن المعادن.

ولما كثرت الاعتداءات على هؤلاء العرب المستقرين أرسل ابن طولون لنجدتهم حملة تأديبية بقيادة (أبى عبدالرحمن عبدالله بن عبدالحميد العمرى)، وقد تمكن العمرى من التغلب على قوات (جورج الأول) ملك النوبة واكتشفت الحملة أماكن جديدة للذهب، قوى نفوذ العمرى حتى خشى ابن طولون إن يحاول أن يستقل عن مصر - وانتهى الأمر بأن قُتل العمرى لكن أثر حملته هذه كان عميقاً إذ أن اختلاط العرب بالبجه والنوبيين وتزاوجهم بهم ترتب عليه أن نشأ جيل جديد يعتنق الإسلام[١].

وقد عُثر على شواهد للقبور فى (نافه) و(كلابشة) مكتوبة بالخط العربى تحمل أسماء عربية ترجع للقرنين التاسع والعاشر الميلاديين كما وُجدت كتابات بالخط الكوفى ترجع للقرن العاشر الميلادى على جدران القرع قرب المناجم[٢].

وقد أرسل الإخشيد جيشاً أدب القبائل الموجودة فى الجنوب ووصل إلى (ابريم) وكان جيش الإخشيد هذا برياسة (محمد بن عبدالله الخازن).

وفى عهد الفاطميين :

لم يهتم الفاطميون فى المبدأ بهذه القبائل التى تثير الشغب على حدود مصر خاصة أنهم علموا أنها ذات قوة ومنعه فى الصحراء وأن الطريق إليها يستغرق وقتاً طويلاً.

١- المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤.

٢- د. مصطفى مسعد: ص ١٣٠، ١٣١.

علـــى أنه حين جاء جوهر الصقلى قائد جيش الخليفة المعز لدين الله الفاطمى لمصـــر- أرســـل بعـــثة إلـــى (جرجس) ملك النوبة لأخذ الجزية المعتادة ودعوته للإســـلام- وكان على رأس البعثة (أحمد بن سليم الاسوانى) فرحب به ملك النوبة وبـــالغ فـــى إكـــرامه ودفع الجزية إلا أنه بقى على مسيحيته- وقد ذكر ابن سليم الاسوانى أن المسلمين الذين كانوا قد هاجروا لبلاد النوبة واستقروا فى المنطقة بين أســـوان والشلال الثالث اندمجوا فى سكان هذه البلاد، ولهم نفوذهم واحترامهم، كما ذكـــر أنـــه شاهد المسلمين وهم يقيمون الاحتفالات بعيد الأضحى، وقد ألفوا- بهذه المناســـبة- موكباً دينياً سار فى المدينة مع عزف الطبول وأصوات الأبواق، وهذا يدل على مدى قوتهم ومدى ما كان لهم فى ذلك من نفوذ[١].

وحـــدث أيضـــاً فى أثناء حكمهم (حكم الفاطميين) لمصر أن استقر أفراد من قبـــيلة (ربيعة) جنوب أسوان، قوى نفوذهم وأصبح لهم سطوة وكلمة على المناطق مـــن أسوان والممتدة جنوباً فى بلاد النوبة التى كان سلطان ملوكها قد ضعف إلى درجة أنهم أصبحوا لا يستطيعون تهيئة الأمان والطمأنينة لأتباعهم وقد رأت الدولة الفاطمـــية أن تعترف بسلطة قبيلة (ربيعة) وأن تقرب إليها زعيم القبيلة (أبو مروان بشر بن اسحق)- وهكذا قامت فى هذه الجهات (إمارة عربية إسلامية).

وفى عهد خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى حدث أن هرب أحد الخارجين على الخلـــيفة وهـــو (أبوركوه) من سلالة بنى أمية وفر من مصر للجنوب، فاستعان الخليفة بزعيم قبيلة ربيعة المدعو (أبو المكارم هبه الله) واستطاع هذا الزعيم أن يقـــبض على أبى ركوة، فكافأه الخليفة الفاطمى بمنحه لقب (كنز الدولة) وتوارث أبـــناؤه) هذا اللقب فسموا (بالكنوز)، وانتشروا فى المنطقة الممتدة من أسوان إلى كورسكو.

وقـــد أشـــار ابـــن الأثـــير فى كتابه الكامل إلى هذه الحادثة فى سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م)، كما أشار إليها المقريزى فى خططه[٢].

فى عهد الأيوبيين :

ظلـــت الإمـــارة العربـــية – إمارة الكنوز- على ولائها للفاطميين، ولذا كان طبيعـــياً أن يقـــاوم الكـــنوز (صلاح الدين) مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر، وأن

١- المقريزى: الخطط ج ١ ص ١٩٨.

٢- نفس المرجع ص ١٩٩.

ينضـــموا للثائرين عليه- فأرسل إليهم أخاه (توران شاه) سنة ١١٧٣م لإخضاعهم، ثـــم أرســـل حملـــة أخرى على رأسها أخوه (الملك العادل) - وإن كان هناك من المؤرخيـــن من يذكر أن صلاح الدين رغب فى معرفة الطريق للنوبة لتكون ملاذاً له ولأسرته للجوء إليها إذا ما هاجمه (نور الدين).

والـــبعض يُعلل حملة صلاح الدين على النوبة بأن صلاح الدين كان يُفكر فى إيجاد بعض المكملات الاقتصادية لمشروعه الاستقلال بمصر - أو ربما كان للحملة علاقة بمشروع غزو اليمن[١].

وقد استطاعت جيوش صلاح الدين أن تهزم (كنز الدولة) وتقتله، وأدت هذه الهزيمة إلى رحيل الكنوز عن أسوان وهجرتهم للجنوب حيث استقروا حول (وادى حلفا) وأندمجوا فى السكان هناك إندماجاً كاملاً.

وقـــد ذهـــب البعض فى تعليل الجفوة بين النوبيين والأبويين إلى عزوف صلاح الديـــن عن استخدام النوبيين فى الجيش واستبدالهم بالعناصر الكردية والتركية مما أثار حفيظتهم، وإذا صح هذا فإنه يُعطينا سبباً جديداً لضعف النوبيين، فهجرة عدد كبير منهم لمصر ودخولهم فى الجيش وإعتناقهم الإسلام أضعف المسيحية ببلاد النوبة.

علـــى أن الهجـــرات العربية لبلاد النوبة سواء من مصر أو من شبة الجزيرة العربـــية كانـــت مســـتمرة وتتم بطريقة لا تُثير أى اضطراب فى هذه المنطقة، فلم يشـــعر ملوك النوبة فى ذلك الوقت بأى سبب يدعوهم لمنع هذه الهجرات أو التدخل فى شئونها[٢].

وهكـــذا حدث ما يمكن أن نُسميه تبادل فى (الجماعات والثقافات)، فكثر عدد النوبييـــن الوافديـــن لمصـــر حـــتى أنهم شاركوا فى الإحداث التى حدثت بها أيام الطولونييـــن والاخشيديين والفاطميين ودخل أغلب هؤلاء فى الإسلام حتى أن أهل مصر شكوا من ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند من السودانيين[٣].

أمـــا الوافدون من العرب على بلاد النوبة فقد عملوا من جانبهم عن قصد أو عـــن غـــير قصد لننشر الإسلام فى بلاد النوبة- وهكذا أدى تيار الهجرة من والى بلاد النوبة إلى نشر الإسلام بهذه البلاد.

١- د. مصطفى مسعد: ص ١٣٦.

2- Trimingham, S.: Islam in the Sudan P. 617

٣- د. مصطفى مسعد: ص ١٣٩.

وفى العهد المملوكى :

ظلـــت بلاد النوبة فى العهد المملوكى كما هى، ولم يحدث تغيير إلا من حيث كثرة عدد المسلمين الذين هاجروا إليها واستقروا فيها.

وقـــد حـــدث فى سنة ١٢٧٣ أن امتنع (داود) ملك النوبة عن دفع البقط الذى أتفق عليه وحنث بالعهود،وقبض على عدد من العرب زج بهم فى السجون، وهاجم عـــدة بلاد فى صعيد مصر، وكان ذلك أيام السلطان (الظاهر بيبرس) من سلاطين المماليـــيك الـــبحرية (١٦٠- ١٢٧٧م)، كما حاول ملوك النوبة التأثير على التجارة المملوكـــية التى كانت مصدر قوة المماليك وثرائهم وذلك بتعرضهم للتجارة المارة بالصـــحراء الشـــرقية عن طريق ميناء (عيذاب)، وقد كان هذا الميناء مفتاح مصر الشـــرقى إذ كانـــت تصل إليه تجاره الشرق فتنتقل منها فى الصحراء إلى (قوص) حيـــث تحملها السفن إلى القاهرة والإسكندرية، ثم تنقلها السفن الأجنبية إلى أوربا - ولعبـــت (عـــيذاب) دوراً هامـــاً فى تجارة المماليك فى البحر الأحمر خاصة حين تعرض طريق البحر المتوسط التجارى لتهديد الصليبيين.

وأثـــرت شهرة عيذاب بالطبع على (سواكن) وما حولها وأدى ذلك إلى زيادة الضـــيق الإقتصـــادى فـــى السودان والممالك المسيحية، أضف إلى ذلك قيام حملة مملوكـــية فى عام (١٢٦٥) باحتلال ميناء سواكن نفسه مما دفع (داود) ملك النوبة لمحاولة غزو (عيذاب) كما حاول غزو أسوان.

وتُشير بعض المراجع إلى أن ملوك النوبة فى تعرضهم للتجارة المملوكية فى الـــبحر الأحمـــر كـــانوا فى الحقيقة ضالعين مع بقايا الصليبيين فى الشام مما كان يعرض مصر المملوكية وهى فى صراع مع الصليبيين لطعنة من الخلف[١].

وحـــدث فى هذه الأثناء أن لجأ لمصر ابن أخت داود ويسمى (شكنده) يطلب المعونـــة على خاله (داود) - فأرسل (بيبرس) معه جيشاً جراراً تحت قيادة اثنين مـــن أمراء المماليك هما (الأمير شمس الدين سنقر الفرقانى - والأمير عز الدين الأرقـــم)، وهزم النوبيين قرب دنقلة، وفر (داود) وتقدم المسلمون بالبر والنهر- ونُصب الأمير (شكنده) ملكاً على بلاد النوبة وتعهد بدفع جزية سنوية (ثلاثة فيلة وثـــلاث زرافات وخمسة فهود ومائة جمل أصهب وأربعمائة رأس من البقر) - كمـــا وعـــد بأن يقسم خراج بلاده إلى قسمين أحدهما يعطى لبيبرس أو لمن يليه والآخـــر يُنفقه فى إصلاح بلاده وإدارتها وحمايتها- هذا وقد قبل (شكنده) مقابل

١- د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٢٩١.

بقائـــه وأهل بلاده على مسيحيتهم أن يدفع ديناراً ذهبياً عن كل ذكر بالغ من أهل بلاده[١].

وقــد تــردد صدى الحملة العربية فى كل الجنوب فأثارت رعب ملك (علوه) حــتى إذا لجأ إليه الملك (داود) يطلب نصرته قبض عليه وأرسله إلى الظاهر حيث أعتقل بالقلعة إلى أن مات.

أنـــا نـــص اليميـــن التى حلف عليها شكنده ملك النوبة الجديدة بدنقلة للظاهر بيـــبرس بعـــد فـــتح المماليك لتلك البلاد سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) وهو منقول من النويرى[٢] وقد صُحح وقويل على النص الوارد فى ابن أبى الفضائل فهى:[٣].

"والله والله – وحـــق الـــثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العـــذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والمرسلين والحواريين والمقدسين والشهداء الإبرار وإلا أجحد بالمسيح كما جحده يودس[٤] وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه – وإلا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة أنى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس، وإنى أبـــذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته– وانى ما دمت نائبه[٥] لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى.. وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمـــن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من التحصيل للسلطان مخلصاً من كـــل حـــق، والنصف الأخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها[٦] وان يكون على كل سنة من الأفيلة ثلاث، ومن الزرافات ثلاث ومن إناث الفهود خمس ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجياد المنتجة أربعمائة.

وإنـــنى أقـــرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغيـــن ديناراً عينا[٧] وأن يفرد بلاد العلا والجبل[٨] خالصا للسلطان – وإنه مهما كـــان (لـــداود) ملـــك النوبة وأخيه (سنكوا) ولأمه وأقاربه، ومن قُتل من عسكره

١– المقريزى: الخطط ج ١ ص ٣٢٦.

٢– النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٢٥٩ ب صورة شمسية بدار الكتب المصرية – معارف عامه رقم ٥٤٩.

٣– ابن أبى للفضائل : النهج الجديد ص ٢٣٦ وما بعدها.

٤– يودس: أحد الجنود الذين طعنوا المسيح بالحربة.

٥– اعتراف صراحة بأنه نائب للسلطان المملوكى.

٦– تجبى الضرائب من المصادر المختلفة، ويصرف منها ما تحتاجه البلاد– لا تقتير ولا إسراف – ويقسم الباقى نصفين، نصف للسلطان والآخر يرصد لزيادة عمار البلاد.

٧– جزية على الرأس بالإضافة للخراج السابق وسبق أشرنا للفرق بين الخراج والجزية.

٨– حصيلة البلاد الواقعة بين حلفا، وأسوان (المريس).

بسيوف العساكر المنصورة أحمله إلى الباب العالى مع من يرصد[١] لذلك- وإننى لا أترك شيئاً منه ولا أخفيه ولا أمكن أحداً من إخفائه.

ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو شيء من هذا المذكور أعلاه كُنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى إلى غير المشرق، وأكفر بالصليب واعتقد ما يعتقد اليهود- وإنى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة ومن وجدته أرسلته إلى الباب السلطانى[٢] - ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته، ولا انفراد بشيء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة[٣] وإننى ولى من والى السلطان وعدو من عاداه، والله على ما أقول الوكيل.

تطور العلاقات بين النوبة والدولة المملوكية فى مصر :

ترتب على حملة (بيبرس) على النوبة أن أصبحت (مملكة مُقره) المسيحية جزءًا من السلطنة المملوكية- وأصبح النوبيون يدفعون الجزية للسلطان المملوكى ولهذا أنشأ السلطان بيبرس فى مصر ديوناً سماه (ديوان النوبة) للإشراف على جمع الجزية والخراج الخاصين بالنوبة.

على أن الملك (شكنده) لم يحكم إلا عاماً واحداً وقد مات قتيلاً، ولما حاول الملك الجديد التخلص من تبعيته وخضوعه للدولة المملوكية أرسل السلطان المملوكى (قلاوون) جيشاً أخضعه وأجلس مكانه ملكا جديداً موالياً يسمى (سمعان) وهكذا أصبح تعيين ملوك النوبة لا يتم إلا بموافقة السلطان المملوكى.

ولم يقتصر النفوذ المملوكى على النوبة السفلى ففى (مملكة علوه) أيضاً أصبح النفوذ المملوكى قوياً حتى أن الملوك كانوا يتقربون للسلطان المملوكى بالهدايا.

وتوالت حملات (قلاوون) على النوبة كلما أحسست السلطنة المملوكية أيه محاولة للملوك للخروج عن الولاء لسلطان مصر- وأدت هذه الحملات بالطبع لكثير من الدمار فى بلاد النوبة.

وقد أغرت قوة الجيوش المملوكية الطامعين فى العرش النوبى على الخروج على ملوكهم.

١- يرصد: يعين.

٢- كان العرب يهربون لبلاد النوبة هرباً من الضرائب فكان عليه رد هؤلاء الآبقين.

٣- ينبه إلى الأشياء التى فى غير المصلحة.

وفى عهد السلطان (خليل بن قلاوون) (١٢٩١ م) تأخر ملك النوبة فى إرسال البقط والجزية - فأرسل السلطان حملة بقيادة (عز الدين الأقرم) وصلت إلى جنوبى دنقلة، وهرب ملك النوبة من وجه الجيش المملوكى، كما هجر كثير من النوبيين ديارهم بعد ما أصابها من خراب، وعقد قائد الجيش المملوكى اجتماعاً فى كنيسة (سوس) بدنقلة بحضور أعيان النوبة تم فيه تعيين. ملك جديد حسب التقاليد النوبية بعد أن أقسم الولاء للسلطان المملوكى.

وفى عهد (الناصر محمد بن قلاوون) فر لمصر أمير نوبى يدعى (نشلى)[1] فأسلم وأقام عند السلطان مع جملة مماليكه وتمسى باسم (عبدالله)، ولما تأخر ملك النوبة المدعو (كربيس)[2] عن دفع الجزية أرسل السلطان (الناصر بن قلاوون) جيشاً عام ٧١٦ هـ (١٣١٦) هزم كربيس وأقام الملك (عبدالله) مكانه. وهكذا أنهت هذه الحملة الحكم المسيحى فى النوبة وأعتقل (كربيس) ونُقل لمصر وأسلم هناك.

ولم يستتب الأمر للمك الجديد- إذ خرج عليه النوبيون وقتلوه- ويُعلل النويرى سبب هذا بقسوته وشدته، ولأن كثيرين من المسلمين من الكنوز وغيرهم كانوا يرون أنهم أحق بهذا المركز لسبقهم فى الإسلام ونصرتهم للدولة على أعدائها مراراً بالإضافة لمصاهرتهم للبيت المالك نفسه.

ويُقال أن كنز الدولة جمع حوله بعض القبائل الموالية ونادوا به ملكاً على النوبة، لكن (السلطان الناصر) رأى فى هذا الوضع وبالطريقة التى تم بها نذيراً بذهاب السلطة المملوكية، ولذا رفض الاعتراف بذلك وأرسل جيشاً لتثبيت كربيس (كرنيس) ملك النوبة السابق بعد أن أسلم، على أن الأمر ظل سجالاً، وفى (دنقلة العجوز) جامع قائم على أطلال كنيستها وعلى واجهته حجر من الرخام منقوش عليه تاريخ افتتاح العاصمة ودخول جيش السلطان المملوكى فيها فيها (٢٠ ربيع الأول سنة ٧١٧ هـ ٩ يونيه ١٣١٨ م).

وهكذا أصبحت الجيوش المملوكية فى حملات متتابعة، وانتهى الأمر بالقضاء على الممالك المسيحية فى النوبة وأخذت القبائل العربية تتوافد على هذه

١- القلقشندى: ج ٥ ص ٢٧٧.

ملاحظة: أطلقت بعض المراجع على هذا الأمير النوبى اسم (برشمبو) - انظر المقريزى ج ٣ ص ٩٥.

٢- أطلقت عليه بعض المراجع اسم (كرنيس) انظر المقريزى- ج ٢ - القسم الأول ص ٢٥٠، لكن ابن خلدون ج ٥ ص ٤٢٩ يذكره باسم (كربيس).

الــبلاد وتنتشــر الإسلام فى ربوعها، فام يأت القرن الخامس عشر الميلادى حتى كــان الأمــر قد استقر للدين الجديد فى هذه البلاد بدليل ما يذكره المؤرخون عن انقطاع الجزية.

ومــنذ أوائــل القــرن الرابع عشر الميلادى أخذت جموع من عرب (جهينة) تهاجر من مصر لبلاد النوبة وأندمجت هذه الجموع فى النوبيين وصاهرتهم وساهم هذا بالطبع فى تحويل البقية الباقية من مسيحى النوبة إلى الإسلام.

وترتــب علــى ذلــك أن انتشرت اللغة العربية وحلت مكان اللغة النوبية فى المكاتــبات، كما خربت الكنائس النوبية وزالت كثير من المبانى التى إمتاز بها الفن المعمــارى المســيحى النوبى وتحولت كثير من الكنائس إلى مساجد – ومن بينها (كنيسة دنقلة) التى حُول طابقها العلوى إلى مسجد[١].

علــى أن هــذه الهجــرة العربية للنوبة والمصاهرة بين الشعبين ترتب عليها ظهــور المجموعــات النوبية المستعربة ومن أهمها الكنوز، والسكوت، والمحس، والدناقلــة – وظــل الكــنوز يمثلون أقوى هذه العناصر فى بلاد النوبة حتى نهاية الدولة المملوكية الثانية بمصر والشام[٢].

سقوط مملكة علوه المسيحية :

علــى أن نشــاط العــرب لم يقف عند حد (مملكة النوبة السفلى) فقد اندفعت موجــات منهم– من (جهينة) وغيرها من القبائل العربية جنوباً إلى بلاد علوه، كما تدفقت وفود عربية مثل الكواهلة الذين ينتسبون إلى (كاهل بن أسد ابن خزيمة) من شــبه الجزيــرة عــبر البحر الأحمر إلى شرق السودان، ثم اتجهوا صوب الغرب والجــنوب فاستقرت القبائل العربية فى مناطق متعددة بين النيل ونهر العطبرة، بل وعــبر النــيل الأزرق، وبنى المسلمون المهاجرون مسجداً فى (سوبا)[٣] عاصمة مملكــة علوه– وقوى نفوذ هذه القبائل المهاجرة تدريجياً حتى استطاعت فى مستهل القــرن السادس عشر الميلادى – بالتحالف مع (الفونج) القادمين من الجنوب – أن تقضــى نهائياً على مملكة علوه وأن تستولى على عاصمتها (سوبا) – وكانت هذه المملكة قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف بسبب هجمات جيرانها عليها طمعاً

1- Budge: Vol. 2. p. 150.

٢- د. مصطفى مسعد: ص ١٨٢.

٣- أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٠.

فى الحصول على الرقيق منها – كما إن الكنائس بها كان قد أهمل شأن الكثير منها وأهملت الشعائر الدينية خاصة بعد سقوط (مملكة مقره) فى الشمال وتعذر إرسال رجال الدين لها من مصر.

ولا شك فى أن الانتشار العربى دماءًا وثقافة وسيادة فى السودان كان عن طريق الاختلاط والتزاوج، فلم تحدث فى أى جهة من جهات السودان هجرة من السودانيين تحت ضغط الجماعات العربية باستثناء إقليم جبال (النوبا) على أن سقوط مملكة علوه ترتب عليه قيام عدة وحدات قبلية مستقلة لم يلبث أن اندمج بعضها فى البعض الآخر كما سنشير فيما بعد.

العوامل التى عجلت بسقوط ممالك النوبة المسيحية فيما يلى :

١- ازدياد نفوذ العرب فى النوبة نتيجة للهجرات المتتالية والإستقرار والتصاهر مع السكان[1]، ولعل هذا من أهم الأسباب إذ أن انتشار الإسلام فى هذه البلاد تم فى الحقيقة بطريقة بطيئة تبعاً لعملية الامتزاج هذه فلم يكن الأمر غزواً عسكرياً سريعاً.

٢- الخلافات بين أفراد الأسر المالكة النوبية مما أضعفها وأتاح الفرص للسلطات الحاكمة فى مصر للتدخل فى شئونها.

٣- حملات سلاطين مصر المتتابعة على بلاد النوبة خصوصاً بعد أن هددت ممالك النوبة مصالح مصر التجارية فى البحر الأحمر.

٤- ضعف الرابطة بين ملوك النوبة العليا والسفلى، حتى أن ملوك النوبة العليا لم يُقدموا أى عون لملوك النوبة السفلى فى حروبهم، بل بالعكس كثيراً ما سلموهم لأعدائهم خوفاً منهم واسترضاءاً لهم.

٥- ما كانت تعانيه الكنيسة المسيحية فى مصر من ضعف فلم تستطع أن تُقدم عوناً لكنائس النوبة.

٦- فساد كثير من ملوك النوبة وضعفهم حتى أن رعاياهم لم يكونوا يجدون منهم حمايةً مما دعاهم للجوء للقبائل العربية القوية لحمايتهم من تجار الرقيق أو من بطش الملوك، وترحيبهم بمصاهرتهم لهؤلاء الجيران الأقوياء.

٧- التدهور الإقتصادى الذى أصاب بلاد النوبة وأضعفها نتيجة للحروب المتعددة، وبسبب هجمات تجار الرقيق مما ترتب عليه فقر البلاد فى الايدى العاملة المدربة- ولذا انتشرت المجاعات وضعفت البلاد اقتصادياً وحربياً.

١- انظر ما ذكرناه فيما بعد من أسباب هجره العرب للسودان.

العوامل التى شجعت العرب على الهجرة للسودان :

أ - أن مراعى السودان أخصب من أراضى شبه جزيرة العرب وهى ملجأ أمين، والبحر الأحمر لا يُعتبر فاصلاً يمنع عرب الجزيرة من الوصول لصحراء السودان الشرقية.

ب- تشابه مناخ السودان الشمالى بصحاريه مع مناخ وبيئة شبه الجزيرة العربية.

ج- منذ أن حكم مصر ولاة غير عرب (منذ عهد الدولة الطولونية) تغيرت الحال بالنسبة للعرب بمصر وفضل كثير منهم الهجرة للجنوب.

الثورات والاضطرابات فى مصر كانت تدفع بمزيد من الهجرة للسودان - كذلك الاضطرابات فى الدولة الإسلامية كانتقال الخلافة من الأمويين للعباسيين.

العناصر العربية التى هاجرت للسودان والطرق التى سلكتها :

القبائل العربية التى وفدت للسودان كثيرة ومتعددة، ومجيئها لم يحدث مرة واحدة لكن على فترات ودفعات وفى أزمنة متفاوتة- وقد كثر الجدل حول هجرة العرب للسودان - هل كانت فى غالبية الأحيان من مصر أو غير مصر أم كانت من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر للسودان الشرقى؟

وقد تناول هذا الموضوع بالتفصيل (ماك مايكل) (Mac Michael) [(١)] وهو يرى أن مصر غزت السودان بقبائل عربية أكثر مما وصله عن طريق الشرق عبر البحر الأحمر، ومن ضمن الدوافع التى يسوقها لهجرة العرب بأعداد غفيرة من مصر أنه لما انتقل الحكم فى مصر من أيدى ولاة عرب إلى أسرات تركية غير عربية ابتداءًا من أيام الطولونيين - شعر العرب بمصر بضيق فهاجروا للجنوب، كذلك يذكر أن العرب الذين جاءوا لمصر من بيئة شبه الجزيرة العربية الرعوية وجدوا أنهم فى البيئة الجديدة قد حُرموا مما تعودوه فى بيئتهم الأصلية من لذة الارتحال والتنقل فتركوا مصر ورحلوا لبلاد بيئتها تلائم إلى حد كبير بيئة بلادهم، والسودان وبيئته الملائمة إلى حد كبير للنظام القبلى كان الموطن الثانى المناسب لهذه القبائل.

ويعارض بعض المؤرخين هذا الرأى على أساس أن الجزيرة العربية بيئة طارده بحكم جدبها بعكس مصر، وأن ما حدث من هجرة من مصر أو غيرها كان عرضًا نتيجة حوادث خاصة حين وجد العرب أن المقام فى مصر غير مهيأ

١- انظر Mac Michael: A History of the Arabs ih the Sudan.

لهم سياسيًا وإقتصاديًا كما حدث حين توافدت على حكم مصر أسرات حاكمة غير عربـية اسـتعانت بعناصـر غير عربية (تركية مثلاً) - فلم يجد العرب بداً من الهجرة جنوباً - حيث كان لهم أبناء عمومته فى بلاد النوبة الشمالية (السفلى) وما جاورها.

علـى أن هذه البلاد كانت أقل خصباً من بلاد النوبة العليا مما شجع القادمين علـى الـتوغل جنوباً خاصة بعد أن ضعفت مملكة (علوه)، ولم تعد تستطيع صد القادمين أو منعهم.

علـى كـل لا شك فى أن العرب وفدوا على السودان من جهات متعددة منها مصـر - وكانت مصر من المنابع التى غذت السودان بالدماء العربية، لكن موجات هامـة أيضـاً وفـدت على السودان من الجزيرة العربية عن طريق شرق القارة الإفريقية، ومن شمال أفريقياً وبلاد المغرب.

وبالطبع فان طريق النيل إلى (دنقلة) كان من أكثر الطرق التى سلكتها العناصر المـتجهة من الشمال إلى بلاد النوبة جنوباً، لكن لا شك أيضاً فى أن بعض العناصر المهاجـرة من مصر جنوباً للسودان لم تلازم النهر فى كل جزء منه مفضلة الطريق الصحراوى حين تعترضها الصخور التى تعترض مجرى النهر[١].

أما الجماعات الوافدة من الجزيرة العربية عن طريق البحر الأحمر فقد استقر بعضها (الكواهل) فى الإقليم الساحلى بين سواكن وعيذاب واختلطوا بالبجه ثم نزح بعضهم إلى جهات النيل الأبيض ثم إلى كردفان.

وأهم القبائل العربية الوافدة على السودان:

ربيعة: وقد نزلت فى الصحراء الشرقية وعلى الأخص (وادى العلاقى) حيث معادن الذهب والزمرد- وقيل إن رئيسها (بشر بن مروان بن اسحق) حوالى عام ٣٣٢ هـ كان يركب فى ثلاثة آلاف رجل من قبائل ربيعة ومصر وأحلافهما، وكان فى الحروب تحت امراته ٣٠,٠٠٠ مقاتل يحملون الحراب- وسبق أن تحدثنا عن (إمارة الكنوز) ومركزها.

الجعليون: يرجعون بنسبهم إلى العباس عم النبى، وتسميتهم ترجع إلى جدهم إبراهيم الملقب بـ (الجعل) - وقد نزلوا على النيل من (دنقلة) حتى جنوب (الخرطوم) الحالية واتجه بعضهم غرباً نجو جبال النوبا وكردفان، وللجعليين

١- د. محمد عوض محمد: السودان الشمالى ص ١٦٠.

أثر كبر فى حياة السودان بسبب كثرة عددهم وانتشارهم الواسع فى ربوعه المختلفة- وكان لهم أثر كبير أيضاً فى نشر الثقافة العربية فى ربوع السودان وقد أشار (ود ضيف الله) فى الطبقات إلى ذلك.

جهينة: وهى قبائل قحطانية وفدت على مصر وبعد أن أقامت بها زمناً هاجرت للسودان وانتشرت فى الصحراء الشرقية والمناطق التى على جانبى النيل الأزرق.

الكواهلة: ينتسبون إلى (كاهل بن أسد بن خزيمة) وقد سكنوا المنطقة الممتدة من (سواكن) إلى (عيذاب) واختلطوا بالبجة، واشتغلوا بالتجارة، والتعدين، لكنهم انتشروا بعد ذلك غرباً.

الفونج: ملوك سنار (قيل إنهم عرب أمويون).

العبدلاب: مركزهم حلفاية (الخرطوم بحرى) ويرجع نسبهم إلى عبدالله الجماع.

الهمج: وزراء الفونج – وبعد فتح محمد على للسودان حكموا جبال الفونج.

التعايشة: انتشروا فى غرب السودان ووصلوا إلى قرب حدود بحر الغزال ومنهم الخليفة (عبدالله التعايشى).

هذه بعض القبائل العربية التى نولت فى السودان[١].

انتشار الثقافة الإسلامية فى السودان :

بانتشار العرب فى السودان انتشرت اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية ولسنا بحاجه لأن نشرح أهمية هذا التطور الخطير فى تاريخ السودان – أن أصبح السودان أمه عربية إسلامية.

هذا التطور الذى حدث فى الفترة الواقعة بين فترتين- بين الفترة التى كانت متصلة حضارياً وثقافياً وسياسياً فى بعض الأحيان بتاريخ مصر القديم- وبين الفترة الحديثة من تاريخ السودان والمرتبطة أيضاً بتاريخ مصر الحديث الذى يبدأ بولاية محمد على مصر ثم امتداد التنظيمات التى قامت فى مصر إلى السودان نفسه.

العلماء المسلمون الوافدون للسودان:

منذ القرن الرابع عشر بدأ بعض العلماء المسلمين يفدون للسودان وستقرون فيه ويُعمرون المساجد به ويُعلمون أهله مختلف علوم اللغة والدين-

---

١- انظر د. محمد عوض محمد: لمن يريد دراسة مستفيضة للقبائل العربية بالسودان الشمالى.

نذكر من هؤلاء (غلام الله بن عابدين اليمنى) الذى رحل إلى دنقلة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر وكان يعلم أولاد المسلمين القرآن والعلوم الأخرى- وهكذا بدأت تظهر طبقة من الفقهاء ورجال الدين تعمل على بذر بذور الثقافة الإسلامية والتقاليد الإسلامية بين سكان شمال السودان وقد انتشرت مراكز تعليم القرآن والفقه الحديث خاصة فى المنطقة الممتدة من (دنقلة) شمالاً إلى (أريجى) فى الجنوب، ومن أهم هذه المراكز مدينة (دنقلة)، و(الدامر) مركز الجعليين وكعبتهم الثقافية، و(كورتى)، و(بربر) – وقد كان سكان (الحلة) التى بهاالمسجد أو الخلوة يستضيفون الطلبة الغرباء فى بيوتهم ليقيموا فيها طاعمين كاسين ويبقوا معهم كما يشاءون، وقد لاحظ (بوركهارت) ذلك وأشار إليه[1].

لكن لا بد أن بعض التقاليد السابقة ظلت سائدة لفترة من الزمن حتى تأصلت التقاليد العربية وثبتت تعاليم الإسلام فى نفوس النوبيين- وكان ازدهار الحضارة العربية فى السودان حين قامت السلطنات الإسلامية فى السودان[2].

إذ أن العرب الذين إستقر بهم المقام فى السودان واستطاعوا أن ينشروا فى البيئة الجديدة لغتهم والكثير من عاداتهم وتقاليدهم ودمائهم ودياناتهم استطاعوا فى الفترة السابقة لما يمكن أن نسميه – بداية تاريخ السودان الحديث فى القرن التاسع عشر – أن يُكونوا فى السودان تنظيمات وتكتلات اجتماعية وسياسية- أقصد بها السلطنات والمشيخات العربية السودانية التى كانت فى السودان قبل امتداد التنظيمات التى بدأت فى عهد حكم محمد على – والتى استمرت بعد ذلك معالمها فى المجتمع السودانى لوقت غير قصير إذ أنها ظلت توجه الحياة السياسية والإجتماعية فى السودان لمدة أربعة قرون تقريباً.

والتعرف على ملامح هذه التنظيمات هو مفتاح دراسة تاريخ السودان الحديث.

ولما كانت النوبة السفلى والمنطقة الواقعة شرق النيل الأزرق قد سبقت النوبة العليا فى الإسلام – فقد كان طبيعياً أن تنتشر بها تعاليم الإسلام فى وقت مبكر خاصة أنها كانت أول موطن للهجرات العربية من الشمال أو من الشرق للسودان،

١- انظر – د. حسن أحمد محمود: الإسلام ص ٣٤١.

٢- محمد ضيف الله : طبقات و د. ضيف الله ص ٥، ص ٧٩.

وقــد رأيناً أن ملك النوبة السفلى (عبدالله نشلى) أسلم فى أوائل القرن الرابع عشر المــيلادى (١٣١٧ م) فقــام بين مسلمى هذه الجهات من ينشر تعاليمٌ الدين الجديد ويفقه هؤلاء القوم الحديثى العهد بالدين فى أسس دينهم.

ومن الذين بشروا وعمروا المساجد وقرأوا القرآن فى هذه الجهات غير (غلام الله عابد) الذى ذكرناه (أولاد عون الله السبعة) والشيخ (البندارى) و(الشيخ حمد ولد رزوق) و(الشيخ إدريس الأرباب)[١].

ومن يجوب خلال السودان يلاحظ أن مواطن العلماء والأولياء التى تظهر فيها الأضرحة منتشرة على طول النيل شمالى الخرطوم، وعلى طول النيل الأزرق[٢].

علــى أن مــنطقة النيل الأبيض والأقاليم الواقعة شرقها إلى حدود سنار ظلت خالــية مــن معاهد العلم حتى جاء الشيخ (محمود العركى) من مصر فنشر تعاليم الإســلام بهــا وأنشــأ ســبع عشرة مدرسة فى المنطقة بين (الحسانية) و(الكوه). و(محمــود العركى) هذا عراقى الأصل وقد تعلم فى الأزهر الشريف فى الفترة ما بيــن (٩٣٥، ٩٤٠ هـــ)، ثم عاد للسودان ونشر الثقافة الإسلامية فى نطاق النيل الأبــيض وكــان ذلك فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى أى قبل منتصف القرن العاشر الهجرى.

١- غلام الله بن عابد : هاجر فى النصف الأول من القرن الرابع عشر من اليمين إلى جزيرة فى البحر الأحمر ومنها إلى (دنقلة) واستوطنها لأنه سمع أن المسلمين بها كانوا فى حيرة شديدة وضلالة لعدم وجود من يقرأ القرآن بها من العلماء، فلما حل فيها عمر المساجد، وقرأ القرآن، وعلم العلوم لأولاده وتلاميذه أولاد المسلمين ودفن فى (دنقلة العجوز) ولا يزال بيته هناك، ونسبه ينتهى إلى (على) رضى الله عنه فهو إذاً شريف وكان مجيئه لدنقلة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى – انظر د. عبدالعزيز عبدالمجيد : التربية فى السودان ج ١ الباب الرابع (ص ٥٤ – ٧٣).

أولاد عون الله السبعة: كانوا قبل تأسيس دولة الفونج، وكان نشاطهم فى الجزيرة والنيل وأحدهما المسمى (بالضرير) كان قاضياً قبل ظهور الفونج.

الشيخ البندارى: أصله من الشام وكان من الصالحين، وقد وفد على السودان وكان يدرس القرآن لتلاميذه ومريديه ، ولعل حضوره كان قبل تأسيس مملكة سنار.

الشيخ حمد ولد رزوق: هو شريف حضرموتى يمنى.

الشيخ إدريس الآرباب: تتلمذ على الشيخين (البندارى) و (حمد ولد رزوق) وقد ولد فى عام ٩١٣هـ.

2- J. A Reid: Tribes and Prominent families in the Biue Nile Province p. 21.

ويذكـــر ود ضـــيف الله – فـــى كتابه الطبقات[١]- إنه لما نشأت دولة الفونج الإســـلامية علـــى أنقاض دولة (علوه) كان العرب الذين أسسوا هذه الدولة قد نسوا الكثير من تعاليم دينهم فكان إسلامهم إسمياً- ووصلت الفوضى والجهل بالدين إلى أن الـــرجل كـــان يُطلق إمراته ويتزوجها غيرة فى نهارها بدون عدة، وظل الحال كذلـــك حتى قدم من مصر الشيخ (محمود العركى) فنشر تعاليم الإسلام بين الناس وعلم الناس العدة.

ويمـــثل النصـــف الثانى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) عهد ازدهار الثقافة الإسلامية فى السودان إذ أخذ حملة مشاعل العلم والدين يفدون للســـودان مـــن مصـــر ومن غيرها من البلاد العربية ليقوموا بواجبهم نحو تثقيف إخوانهم السودانيين وتوجيههم إلى تعاليم دينهم، وكان الأزهر الشريف هو المصدر الـــذى نهل منه كل هؤلاء فتتلمذوا على شيوخه وعلمائه قبل أن ينتقلوا لينشروا ما تعلموه.

١- محمود نور الدين ود ضيف الله : طبقات ود ضيف الله فى أولياء وصالحين وعلماء وشعراء السودان.

وقد ولد (ودضيف الله) بحلفاية الملوك ١١٣٦ هـــ وتوفى فى عام (١٨٠٩ م) ودن بمسجد أبائة، وسبب كتابته لهذا الكتاب هو أن جماعة من إخوانه طلبوا منه أن يكتب عن ملوك السودان والأولياء، والكتاب يعتبر حجة عن الثقافة فى السودان فى الفترة (١٥٠٠ – ١٨٠٠ م) – وقد تأثر المؤلف فى كتابه بكتب طبقات الصوفية، ويحتوى الكتاب على ترجمه لمائتين وخمسين شخصاً رتبت أبجدياً، وموطن هؤلاء المترجم لهم (مملكة الفونج) على طول النيل شمال الخرطوم وفى منطقة النيل الأزرق، والتاكا. وقد تحدث المؤلف عن مدارس، وخلوات النيل الأبيض فذكر إنها ازدهرت واختفت قبل عهده بسبب المجاعة التى اجتاحت المنطقة فى عام ١٦٨٤ وبسبب كثرة غارات الشلوك، ولم يتعرض المؤلف لعلماء دارفور وكردفان.

وفى ترجمته يتحدث المؤلف عن مولد المترجم له، وكان مولده، ونسبه، ونوع تعليمه، ومكانه والفقهاء الذين تعلم على أيديهم والشيوخ الذين سلك على طريقتهم- وتناول أعال المترجم له، ويستقى المؤلف معلوماته من الروايات الشفوية التى تناقلها الراوة، ومن الوثائق والكتب المؤلفة، والخطابات للمرسلة، والمخطوطات التى تحت يده.

ويذكر ماكميكل (Mac Michael) أ، (ود ضيف الله) استعان فى كتابه بمكتبه (حسن عبدالرحمن بانقا) وهو من علماء السودان وقد كانت عنده مكبة تحوى عداً كبيراً من الكتب النفيسة لكنها ضاعت فى فتنة الملك نمر، ويتبع (ود ضيف الله) فى كتابه الأسلوب العامى وان كتب المقدمة وبعض الوثائق بالعربية الفصحى – واتخاذه العامية قصد به أن يحفظ الروايات المتوترة كما نقلت إليه.

والكتاب طبع بالعربية فى طبعتين:

١- نشرها الشيخ _إبراهيم صديق) القاضى الشرعى بالسودان (١٩٣٠) وعليها الكثير من التعليقات.

٢- نشرها السيد (سليمان داود) صاحب الجريدة التجارية بالخرطوم (١٩٣٠) وهى من غير تعليقات أو تفسيرات.

نذكر من هؤلاء على وجه الخصوص:

الشـــيخ إبراهـــيم بن جابر الشهير (بالبولاد) وهو من بيت غلام الله بن عابد الـــذى أشـــرنا إلـــى قدومـــه للسودان فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر المـــيلادى- وقـــد ولد فى السودان (بدنقلة) لكنه تعلم فى الأزهر، وجاور الشيخ (محمـــد البنومرى) المالكى، ولما وفد السودان أخذ يعلم فقه المالكية- وحذا حذوه أخوه (عبدالرحمن بن جابر) الذى اتخذ ثلاثة مساجد لتدريس فقه المالكية – أحدها فـــى (دار الشايقية)، والثانى فى (كورتى)، والثالث فى (دنقلة) وكان يقرأ فى كل مسجد أربعة شهور[1].

محمد القناوى المصرى: وهو رسول آخر من رسل الثقافة الأزهرية فى السودان وقد أسس فى (بربر) مسجداً لتدريس العقائد والنحو والمنطق وعلوم القرآن.

ومحمد بن على القرم: وقد تتلمذ فى الأزهر على أحد أعلام المذهب الشافعى وهـــو الشيخ (محمد الخطيب الشربينى) – وجاء (محمد القرم) إلى السودان حوالى (٩٧٠هـ) وأســـتقر فى (بربر) أيضاً ونشر المذهب الشافعى وأخذ عنه الكثيرون من الطلبة – ويلاحظ أن المذهب المالكى كان هو السائد فى السودان حتى ذلك الوقت.

تارج الدين البهارى البندارى: وهو شيخ من شيوخ الصوفية، من خلفاء الشيخ (عبدالقادر الجيلانى)، وفد إلى السودان فى النصف الثانى من القرن العاشر وسكن (اربجـــى) ونشـــر الطريقة الجيلانية- والشيخ البهارى لعله فى الأصل من مقاطعة (بهـــار) (Bihar) بالهند وانه كان من مريدى الطريقة الجيلانية، وقد وفد إلى بغداد كغيره من المريدين للدرس والتبرك بضريح السيد عبدالقادر، وفى بغداد تلقى ثقافة الصوفية ثم ذهب للحجاز ومنها للسودان حيث نشر تعاليم الصوفية.

الشـــريف محمـــد التلمسانى: أصله من بلدة (تلمسان) فى مراكش على حدود الجزائر، وهى من مراكز الطريقة الصوفية- وفد للسودان فى أواخر القرن العاشر وأوائـــل الحادى عشر الهجرى، وسكن (بربر) وأسس بها مسجده وتتلمذ على يديه بعض السودانيين.

انتشار الثقافة الإسلامية فى كردفان ودارفور:

أثـــر موقع كردفان الجغرافى بين سنار شرقاً، ودارفور غرباً فى ثقافتها، فقد كانـــت دائمـــاً مطمعـــاً لكل من الدولتين، وأدت صعوبة المواصلات بين كردفان

١- انظر ما كتبه عنه- إبراهيم بن عبدالدافع فى كتاب :تاريخ السودان وأقاليمه.

وشـقيقتها الشـمالية مصر وكذا فقرها إلى عرقلة انتشار الموجه الثقافية الإسلامية إليها من مصر، لكن كان أبناء (كردفان) يذهبون إلى (سنار) لتلقى العلم وكان تأثير (سـنار) الثقافى على (كردفان) أقوى من تأثير (دارفور) عليها بحكم صلة كردفان القويـة (بدنقلـة) و(سـنار) - كما أن بعض سكان وادى النيل انتقلوا إلى كردفان للتجارة أو للرعى واستقروا فيها وحملوا معهم ما نقلوه من علم ومعرفة مثل أسرة الشيخ (أحمد الازهرى) التى انتقلت من دنقلة إلى الأبيض[1].

علـى أن الوضع فى (دارفور) كان مختلفاً عنه فى (كردفان)، فدارفور كانت تتمـتع بالإستقلال السياسى كما أن مركزها الإقتصادى الممتاز وموقعها فى طريق القوافل التجارية- كل هذا جعلها فى مركز مكنها من الإتصال بالعالم الخارجى وقد شـجع سلاطينها العلماء ليفدوا إليها، لكن رغم ذلك فان العنصر العربى لم يكن فى دارفـور بالكـثرة كمـا هو فى كردفان مثلاً ولا شك فى أن ذلك مما يسر إنتشار الثقافة الإسلامية فى كردفان عنها فى دارفور.

وقـد ظل الحال كذلك حتى إمتدت التنظيمات المصرية إلى السودان فى القرن التاسـع عشر فتحملت مصر تبعية التنظيم الإقتصادى والسياسى والادارى والثقافى فى السودان.

ومما ذكرناه يمكن أن نستنج الحقائق الآتية:

١- فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى أخذت المساجد والمدارس التى يّقرأ فيها القرآن والعلوم الدينية تنتشر فى بلاد النوبة السفلى وفى المنطقة الواقعة شرق النيل الأزرق.

٢- كانت منطقة النيل الأبيض والأقاليم التى شرقها خالية تقريباً من معاهد العلم والدين حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى، والفضل الأول فى نشر تعاليم الدين فى هذه المنطقة يرجع إلى شيخ عراقى الأصل تعلم فى الأزهر ثم وفد من مصر للسودان فأنشأ المدارس وأخذ يُفقه الناس فى دينهم وهو الشيخ (محمود العركى).

٣- يُمثل النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى فترة نهضة حقيقة فقد أخذ يفد للسودان عدد كبير من العلماء الذين تتلمذوا على علماء الأزهر وشيوخه، وفى السودان نشروا تعاليم المذهب المالكى مثل (إبراهيم البولاد)، و(محمد القناوى المصرى)، كما وفد بعد ذلك شيوخ نشروا المذهب الشافِعى (محمد بن على

1- Mac Michael: Vol. 2. p.p 61 & 71.

القرم)، بل وفد بُعض دعاة التصوف (تاج الدين البهارى البغدادى، والتلمسانى).

٤- فمصر هى التى ساهمت بالنصيب الأكبر فى غرس بذور الثقافة الإسلامية فى السودان، وقد إستمرت الصلات الثقافية بين مصر والسودان بعد ذلك، واستمرت وفود العلماء من مصر وإلى السودان، كما زادت رحلات السودانيين لمصر وللحجاز وغيرهما من البلاد العربية.

٥- انتشرت المساجد والمعاهد العلمية فى (سنار) أكثر من (كردفان) و(دارفور) وقد أثر موقع (كردفان) الجغرافى بين (سنار) و(دارفور) وأطماع كل من الدولتين فيها، بالإضافة لصعوبة اتصالها بمصر على سرعة إنتشار الثقافة الإسلامية بها- لكن كان تأثير (سنار) الثقافى على (كردفان) أقوى من تأثير (دارفور) وكان يفد (لسنار) عدد من أبناء (كردفان) لتلقى العلم بها.

٦- دارفور - رغم ثرائها بحكم موقعها فى طريق القوافل التجارى ورغم إستقلال سلاطينها بالحكم فيها فإن الثقافة الإسلامية لم تنتشر فيها بيسر وبسرعة لقلة العنصر العربى بها بالمقارنة بكردفان مثلاً.

٧- لا شك فى أن الشعب السودانى كان فى ذلك الوقت على استعداد لتقبل وتصديق الكثير من التعاليم الدينية، أو المذهبية أو العقائدية، بل والتحمس لها.

٩

الفصل التاسع
الرحالة الذين زاروا السودان الشمالى قبل امتداد الإدارة المصرية إليه

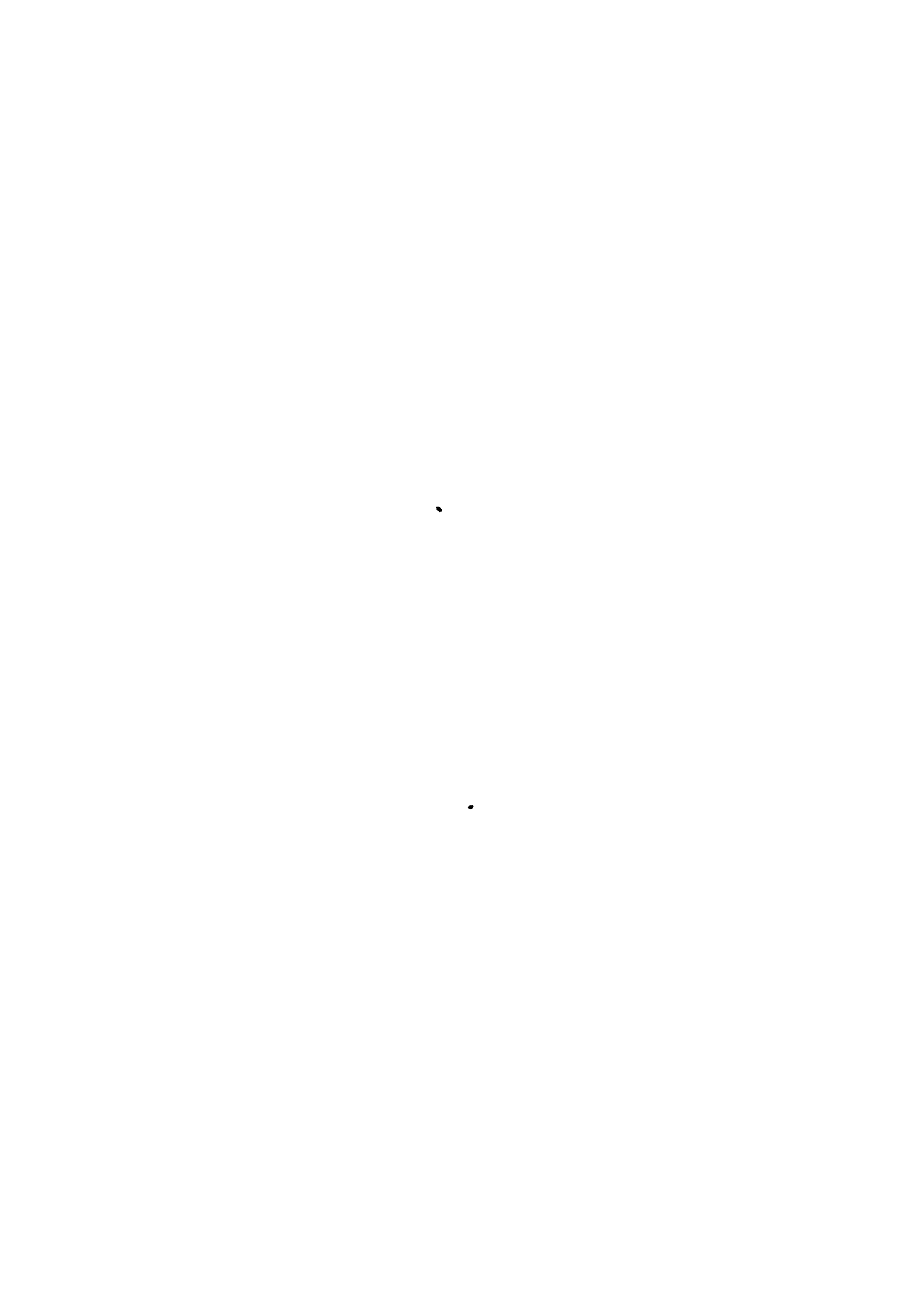
أولاً: أهم الرحالة الذين زاروا السودان الشمالى.

١ - جاك فرانسوا بونسيه .Poncet
٢ - لونارد دى رول .Deroule
٣ - لويس نوردين .L. Norden
٤ - جيمس بروث .J. Bruce
٥ - وليم جيمس برون .J. Browne
٦ - بوركهارت .Burchard
٧ - جورج وادنجتون .Waddington
٨ - كيو .Cailliaud
٩ - هوسكنس .Hoskins
١٠ - روسيجر .Rossegr
١١ - لبسوس R. Lepsiuce
١٢ - عمر التونسى.

ثانياً: بعد امتداد الإدارة المصرية"
عمر التونسى.

ثالثاً: البعثات الأثرية:

١ - جورج ريزنر .Reisner
٢ - إمرى .W. Emery



الفصل التاسع
الرحالة الذين زاروا السودان الشمالى
قبل امتداد الإدارة المصرية إليه

الذين زاروا السودان وكتبوا عنه قُبيل امتداد التنظيمات المصرية إليه فى عام (١٨٢٠) قلــه بحيث لا تكاد تعطى كتاباتهم حقيقة عن النظم السياسية والاجتماعية التى كانت سائدة فيه فى هذه الفترة.

على أن ما ساد السودان بعد ذلك من نظام وأمن أتاح للباحثين فرصة للزيارة والكتابة- فبدأت تظهر كتابات أثرت معلوماتنا بعض الشىء عن تاريخ هذه البلاد.

كمــا أتاحــت ظــروف الاستقرار والأمن ووسائل النقل المتقدمة فرصاً أكثر للبحــث والتنقيــب والدراســة، تدلنا على الكثير من مظاهر حضارة السودان فى عصوره المختلفة وإن كان الأمر- كما أشرنا أكثر من مرة- يحتاج إلى جهد أكبر لنجلو الكثير من الغموض الذى لا يزال يُحيط بنواح عدة من حياة سكان هذا الجزء الهام من وادى النيل خلال عصور التاريخ المختلفة.

وسنعرض هنا لبعض الرحالة الذين أسهمت رحلاتهم فى خدمة تاريخ السودان فــى عصــوره المخــتلفة، وليس الهدف بالطبع التعريف بكل الرحالة الذين زاروا السودان فى ذلك الوقت لكن الإشارة إلى بعض الرحلات الهامة.

١- جاك فرنسوا بونسيه (Poncet)[1]:

طبيــب فرنسى قام فى عام (١٦٩٨) برحلة إلى إثيوبيا ومكث هناك ما يقرب من عامين.

وقــد بــدأ رحلــته مــن أسيوط مخترقاً الصحراء الغربية ومتبعاً طريق القوافل المعــروف فــى ذلك الوقت- ووصل إلى (موشى) بالقرب من جزيرة (أرقو) فى النيل وذكــر أنه شاهد أشجار النخيل بكثرة في هذه الجزيرة وأن حاكم هذه الجهات كان فى ذلك الوقت تابعاً لمملكة (الفونج) وخاضعاً لملك سنار، وتقدم صوب (دنقلة العجوز).

١- نشر مشاهداته فى لندن عام (١٧٠٩) فى كتاب بعنوان:

A Voyage to Ethiopia made in the years 1968, 1699& 1700 describing particularly that famous Empire, Likewise the kingdoms of Dongola, Sennar part of Egypt.

وذكر أن المنطقة الموازية للنهر من (أرقو) إلى (دنقلة) منطقة خصبة ويستخدم الأهالى السواقى التى تجرها الثيران لرفع المياه من النهر- وتكثر هنا زراعة الذرة لأنها الغذاء الرئيسى للسكان، وتعامل السكان هنا بالمقايضة، وهم يستخدمون الخيل ويضعون على ظهورها السرج، ويتدثرون بقطعة من القماش يلفونها حول أنفسهم، وبعض الأثرياء ينتعلون خفاً يُربط بسيور، بينما الأطفال عُراة تقريباً- ويحمل الرحال الحراب- والمبانى عبارة عن عشش من الطين تُغطى بسيقان الذرة.

ويصف (دنقلة العجوز) فيذكر أنها تقع على الشاطئ الشرقى للنهر، ومنازلها بسيطة وطرقاتها مملوءة بالرمال وفى وسط المدينة توجد (قلعة).

ومن دنقلة سافر إلى (كورتى) ثم اخترق (صحراء بيوضه) حتى وصل مرة ثانية إلى النيل قرب الشلال السادس، ووصف كيف إستطاع عبور النهر فى هذه المنطقة الشاقة – وسافر بعد ذلك إلى (حلفايه) ثم (سنار) وتحدث عن ممالك السودان الواقعة غرب سنار، وذكر أن كانت لها تجارة مع مصر فى الذهب والرقيق.

ومن سنار ذهب إلى إثيوبياً حيث عالج الملك من مرض مزمن كان يُعانى منه.

وركز بوفسيه حديثة على إثيوبيا لكن المعلومات السريعة التى ذكرها عن أحوال بلاد النوبة التى مر بها فى نهاية القرن السابع عشر لا بأس بها خاصة ما ذكره عن إمبراطورية الفونج.

وقد ذكر أن هذه الإمبراطورية كانت تمتد لمسافة كبيرة على شاطئ النيل بحيث إنه كان فى وسع ملوكها أو ينتقلوا مسافة ألف ميل على شاطئ النيل من غير أن يتجاوزوا حدود سلطانهم- لأن حكمهم كان يمتد إلى قرب سواحل البحر الأحمر شرقاً، والى النيل الأبيض غرباً وجبال إثيوبياً جنوباً والحدود المصرية شمالاً.

وتحدث (بونسيه) عن بيوت سنار فذكر إنها من طبقة واحدة ما عدا قصر الملك فهو ضخم، وله بوابات كبيرة من الخشب المنقوش وله خمسة أبراج، وذكر أن ثروة سنار كانت من التجارة، وأن أسواقها دائمًا عامرة بالعبيد والجمال والخيول، والعاج، والتمر الهندى، والعطور، والتبر (تراب الذهب)، والطباق.

ويذكر المبشر ثيودور كرمب (Krump) الذى زار سنار قرب ذلك الوقت فى سنة (١٧٠١) أنه فى وسط المدينة كانت قاعة كبيرة مخصصة للملوك التوابع من (بربر) و(شندى) و(الدامر) والمناطق الأخرى – يأتون إليها لتقديم فروض الولاء لعاهل الفونج فيقبلون الأرض بين قدميه ويؤدون له الجزية من العبيد والخيول والجمال وغيرها.

على أن الوضع فى (سنار) تغير بعد ذلك تغيراً كلياً – كما وصفة لنا (جميس بـروس) الـذى زراها فى عام (١٧٧١) أى بعد زيارة (بونسيه) لها بما يقرب من سبعين عاما[١].

٢- جاك لونوار دى رول (Le Noir du Roule) :

كان نائباً للقنصل الفرنسى بدمياط – وأبحر من القاهرة فى عام (١٧٠٤) على رأس بعـثة فرنسية للحبشة بهدف الإتفاق مع الأحباش لإرسال عدد من أبناء البلاد لفرنسـا ليـتعلموا علـى يد (الجزويت) لبتيسر نشر المذهب الكاثوليكى فى إثيوبياً بالإضافة لإنشاء علاقات تجارية بين الحبشة وفرنساً.

وقـد وصـل (لونوار دى) إلى سنار فى ١٠ يوليه (١٧٠٥) لكنه قُتل مع بعض رفاقـه، وقـد كتب عن مأساة لونوار دى رول كل من (بروث) (Bruce) – الذى قام بتحقـيق عن ظروف الحادث، وكايو (Cailliaud) الذى أشار إليه فى مقدمة كتابه الذى سـنذكره فيما بعد، وكان مما أثار النفوس ضدهم الشائعات المغرضة التى أثارتها بعثة الفرنسـيكان التى كانت تعمل للتبشير فى بلاد الفونج وفى إثيوبياً، والتى كانت ترى فى البعـثة الجديـدة منافسـاً خطيراً فأشاعت فى سنار أن هذه البعثة الجديدة – تعمل على تحويـل مجـرى النيل الأزرق، وساعد على ترويج هذه الإشاعات التى ذهب ضحيتها (دى رول) ورجـال بعثته أن فيضان عام (١٧٠٥) جاء صدفة منخفضاً عن المعتاد – وقد قُتل (دى رول) ورجاله فى ٢٥ ديسمبر ١٧٠٥ وكان سلطان سنار فى ذلك الوقت هـو (بـادى الأمـر أبـو أونسه) الذى حكم (١٦٩٢ – ١٧١٦) وفى عهده زار سنار الرحالة الفرنسى (بونسيه)، وكرمب (Krump) البافارى.

٣- لويس نوردين (L.Norden)[٢].

جـاء (الكابتن نوردين) لمصر فى عام (١٧٣٧) وسافر إلى أسوان حيث زار الآثـار من الفنتين إلى فيلة وقرر أن يكمل رحلته إلى الشلال الثانى رغم أن حاكم المدنـية (الآغـا) حـذرة من الإضطرابات التى تسود هذه المناطق، ثم زار آثار

١- مورهيد (الآن): النيل الأزرق – ترجمة د . نظمى لوقا ص ٢٣٠.

٢- نشرت رحلته فى الدانيمرك فى مجلدين بهما بعض الصور والرسوم – وقد قام الدكتور بيتر تمبلمان (Dr. Peter Templeman) فى عام ١٨٥ بنشر ترجمة لها فى انجلترا مع إضافات بعنوان:

Travles in Egypt & ?Nubia translated and enlarged with observations from ancient and modern writers.

(كلابشـــة)، و(وداى الســـبع)، و(كورسكو) – وتحدث عن حاكم هذه المدينة الذى يقول إنه وجده فى حالة سيئة وملابس رثة.

ووصـــل إلى (الدر) حيث أضطر للتنازل عن معظم ما كان معه من الأمتعة الثمينة للحاكم حتى يسترد قاربه الذى كان الحاكم قد استولى عليه – ثم قفل راجعاً.

ومـــن هـــذه الحقـــائق يتضح لنا أنه فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانـــت المـــنطقة بيـــن الشلال الأول والثانى فى حالة شديدة من الاضطراب، وأن الســـلطان العـــثمانى لم تكن له أيه سلطة على هذه المنطقة، وأن حالة الاهالى بل السلطات المملوكية كانت غاية فى السوء.

٤- جيمس (بروث) (Jamees Bruce) :

يعتبر (بروث) من أهم الرحالة الذين زاروا السودان خلال القرن الثامن عشر.

وهـــو اســـكتلندى قـــام بجولة فى مختلف البلاد الأوربية، ثم سافر إلى سوريا ووصـــل إلى الإسكندرية فى يونيه عام (١٧٦٨) ومنها للقاهرة ثم قنا، وفى فبراير (١٧٦٩) ســـافر إلى القصير ومنها عبر البحر الأحمر إلى (جده) ومن هناك استعد لرحلة للحبشة.

تـــرك جـــده فـــى مايو (١٧٦٩) فوصل مصوع ومنها اتجه صوب (أكسيوم) وتـــرك أكسيوم إلى (جندار) فوصلها فى ١٥ فبراير ١٧٧٠، وفى الطريق شاهد- كمـــا يقـــول – بعـــض الجـــنود يـــأكلون قطعاً من اللحم تُقطع من جسم بقرة حيه ويشـــربون الدمـــاء التى تتدفق من جرح الحيوان، وقد آثار هذا التصرف – حين نشر- فى أوربا ضجة كبيرة.

وقد أنعم عليه ملك الحبشة بإحدى القرى وجعله رئيساً للخيالة وحاكماً لإحدى المقاطعات الحبشية.

وخـــلال صـــيف عام (١٧٧٠) زار منابع النيل الأزرق وكان يعتقد أنها هى المنابع الرئيسية والوحيدة للنيل، وكان يقلل من قيمة وأهمية النيل الأبيض، ولم يكن يتصور أنه هو المجرى الاصلى للنيل، وقد ابتهج بزيارته للمناطق العالية التى ينبع مـــنها النـــيل الأزرق واحتفل بهذه الزيارة- وفى خلال زيارته للحبشة حدثت عدة اضطرابات لكنه استطاع أن يُغادر الحبشة فى ديسمبر (١٧٧١).

ووصـــل إلى (سنار) التى ذكر أن حالتها كانت من السوء بحيث يتعذر على أى كائن حى أن يقضى هناك موسماً كاملاً دون أن يهلك- وتحدث عن ملك سنار فذكر

إنـــه شـــخص ضعيف ترك أمور دولته لوزرائه- ويصف الشيخ (عدلان) فيذكر أنه زعـيم قـوى مـن زعماء الصحراء يُشبه إلى حد كبير فى حياته وسطوته مماليك مصـر، وتحت إمرته فرقة من ربعمائة رجل من الخيالة يلبسون القمصان الفولاذية والخوذ النحاسية وقبل أن يغادر (بروس) سنار جرد من كل ما كان يحمله من سلع[1]

ووصل إلى (حلفاية) ثم (شندى) فى أكتوبر (١٧٧٢) وذكر أن حاكمتها سيدة هى شقيقة (ود عجيب)، ومن شندى سافر بالطريق الصحراوى فوصل أسوان بعد أن كابد الأهوال فى الرحلة الصحراوية ومنها إلى القاهرة التى وصلها فى يناير (١٧٧٣).

وما نشر عن رحلة (بروس) يُلقى أضواءً على عادات الأثيوبيين، وعلى منابع النيل الحبشية، كما يُعطينا معلومات عن مملكة سنار فى ذلك الوقت، ولكن لا يكاد يُعطـى أيـة معلومات عن المنطقة من الشلال الأول للخرطوم، لكنه أشار إلى أنه رأى خـارج (شـندى) (أكوامـاً) من قواعد التماثيل المحطمة وغيرها من النقوش الهيروغليفـية، وذكر أنه من المستحيل أن يتجنب المرء المغامرة بالتخمين بأن هذه الـبلدة هى مدنية (مروى القديمة)، والواقع أن تخمينه هذا لم يُخطئ كبد الحقيقة – ومهمـا تكـن المعلومات التى نستفيدها من رحلة (بروس) قليلة، ومهما تكن أراؤه المـتعلقة بالحضارة الإثيوبية التى جعلها الأصل فى حضارة (سنار) بل وزعم أن كل النشاط التجارى فى خليج العرب ومع الهند يرجع الفضل فيه للأثيوبيين – فإننا لا يمكنـنا أن نقلـل من أهمية معلوماته عن فترة من تاريخ بلاد النوبة والسودان معلوماتـنا عـنها ضئيلة، إذ لم يجرؤ أحد من الرحالة أو المثقفين الأوروبيين على زيـارة هـذه الأماكن، وحتى الذين كانوا يقصدون الحبشة كانوا يُفضلون اختراق الصحراء الغربية بمشقاتها عن أن يكونوا ضحايا القبائل التى تسكن المناطق النيلية الواقعـة جنوب مصر- خاصة فى نهاية القرن الثامن عشر حين اشتدت الخلافات بيـن المماليك فى مصر وحاكم (ابريم) فى النوبة فأصبح الطريق بين مصر وبلاد النوبة فى غاية الاضطراب.

٥- وليم جيمس بروان (W. G. Browne) :

جـاء الرحالة الانجليزى (برون) إلى مصر فى عام (١٧٩٢) على أمل أن يصل إلـى أسـوان ثـم يقـوم منها برحلة لبلاد النوبة ويتجه إلى (إثيوبيا) ليحقق الكثير من المسائل التى أثارها (بروس) عن النيل الأزرق الذى ذكر أنه هو المنبع الاساسى للنيل.

١- مورهيد (الآن): النيل الأزرق – ترجمة د. نظمى لوقا ص ٤٨ وما بعدها.

علـــى أن يـــتجه بعد ذلك من سنار غرباً إلى مملكة (دارفور) ليسافر منها مع رحلـــة مـــن رحلات قناصة الرقيق إلى قرب المنطقة الاستوائية، وفى نفس الوقت كـــان يأمل أن يصل إلى منبع (النيل الأبيض) الذى كان يعتقد - عكس بروس- أنه النيل الحقيقى ومن ثم يمكنه أن يحل مسألة النيل نهائياً.

لكن حين وصل إلى أسوان وجد أنه من المتعذر أن يكمل رحلته جنوباً بسبب توتـــر العلاقـــات بين المماليك فى مصر وبين حكام النوبة- كما وصلته أنباء عن اضطراب الأحوال فى سلطنة الفونج بسبب اغتيال السلطان[١].

ولـــذا قـــرر فـــى عام (١٧٩٣) أن يسافر لأسيوط حيث يستطيع أن يلحق بإحدى القوافـــل التى تتخذ طريق الصحراء الغربية إلى السودان، وفعلا غادر أسيوط مع القافلة الســـودانية فـــى (٢٥ مـــايو) ووصف طريق الرحلة من أسيوط إلى مدينة (الخارجة)، و(باريس)، ثم الاتجاه صوب واحة (سليمة) ثم وصل لحدود مملكة دارفور حيث كانت القوافل لتنتظر حتى تحصل على إذن من سلطان دارفور بالدخول.

وقـــد قضـــى (برون) فى دارفور ثلاثة أعوام كاملة إستطاع خلالها أن يجمع الكثـــير مـــن المعلومات عن نظام الحكم وعن السكان وعاداتهم وعن التعليم وعن إقتصـــاديات دارفـــور وتجـــارة الرقـــيق بالذات بها فقد كانت تلعب دروا هاماً فى إقتصاديات دارفور.

وممـــا ذكـــره أن ســـلطان (دارفور) كان لا يسمح أبداً للقادمين بطريق النيل بدخـــول بلاده لأنه كان يخشى إن فتح هذا الطريق للتجارة سيترتب عليه أن يُشجع المصـــريين على غزو بلادة، بينما كان يسمخ للتجار الآتين بطريق الصحراء لأنه كـــان يعـــتقد أن الرجال الذين قطعوا هذه المسافة الطويلة فى السير عبر الصحراء الرملـــية مـــن أسيوط حتى حدود بلاده يكونون من الإنهاك بحيث لا يستطيعون أن يشنوا عليه حرباً حامية.

وأهمـــية مـــا كتبه (براون) عن دارفور ترجع إلى أنه حتى ظهور المعلومات الـــتى كتبها ونشرها لم يكن الكثير معروفاً عن دارفور وحدودها وظل الأمر كذلك حتى نشرت رحلة (محمد بن عمر التونسى)[٢].

١- لعل المقصود هنا - السلطان بادى الخامس الذى أغتيل فى (حلفاوية) سنة ١٧٩٠.

٢- من الرحالة الذين زارو (دارفور) وكتبوا عنها الرحالة ناختيجال (Nachtigal) وممن كتبوا عن دارفور أيضاً بالم (Pallme) الذى قام برحلة إلى كردفان، وبارث (H. Barth) الذى قام بجولات فى السودان.

- رحلة براون طبعت باسم:

- Browne: Travels in Africa. Egypt & Syria (London 1799).

٦- بوركهارت (John Lewis Burckhardt) :

مـــن أهم الرحلات التى ألقت الضوء على تاريخ سلطنة الفونج (فى سنار) فى الفـــترة الســـابقة للإدارة المصرية رحلات الرحالة السويسرى (جون لويس بور-كهارت).

ولـــد بـــور كهارت فى لوزان فى سنة (١٧٨٤ م) وأتم دراسته الجامعية فى (ليبنرج)، وفى عام (١٨٠٦) جاء إلى لندن وقد أستهوته فكرة السفر والرحلات فى أفريقـــيا- وكانـــت الـــرحلات فى هذا الوقت تقوم بها جمعيات تبشيرية، ومن هذه الجمعـــيات التبشـــيرية الجمعية الانجليزية التى تألفت سنة ١٧٨٨ باسم (African Association) وكانـــت الجمعية تبحث عن متطوعين يُعدون أنفسهم للقيام برحلات فـــى المناطق المجهولة تمهيداً لإرسال بعثات دينية لهذه المناطق فتقدم بور كهارت لهذا العرض بتزكية من الدكتور (هملتون)، وقد قبل طلبه فى مايو (١٨٠٩)، وكان الهدف الأساسى من الرحلة كشف الغموض فيما يتصل بنهر النيجر ونهر النيل.

وكان (بور كهارت) فى ذلك الوقت منذ أن قدم طلبه يشغل نفسه بدارسة اللغة العربية وبفروع العلم التى يعلم أنه بحاجه إليها فى عمله المقبل، فقام بدراسات فى الكيمـــياء والتعديـــن والفلـــك والطـــب والجراحة – كما اخذ نفسه بكثير من الشدة وشـــظف العيش، وكان يتدرب على الرحلات الطويلة على الأقدام، وكان يقوم بها عـــارى الـــرأس فـــى الشمس الشديدة، وينام على الأرض الصلبة ويتقوت لفترات طويلة بالخضروات والمياه فقط.

وفى (١٨٠٩) أبحر من انجلترا ووصل إلى (حلب) وبقى فى سوريا ما يقرب من عامين ونصف عام ليتعلم اللغة العربية ويتدرب على النطق الصحيح بها، وكان متخفـــياً كـــتاجر هـــندى مسلم وتسمى باسم (إبراهيم بن عبدالله)، وبعد أن أكتسب الصـــفات التى تجعله قادراً على القيام بمهمته، كما عرف العادات والتقاليد الشرقية حـــتى أصـــبح يُتقنها ويمارسها بمهارة – سافر للقاهرة فى عام ١٨١٢، وقد وصل إتقانه للغة العربية إلى أنه أثناء إقامته بسوريا على ترجمه (روبسون كروزو) إلى اللغة العربية ترجمة أدبية دقيقة[١].

وفى الفترة ما بين (١٨١٢، ١٨١٥) قام برحلتين لبلاد النوبة[٢].

١- مورهيد(الآن): النيل الأزرق ترجمه د. نظمى لوقا ص ٢٠٢.

٢- كان بور كهارت يدرك أن رحلته للنوبة ليس من شأنها أن تقربه من هدفه الاساسى المتعلق بنهر النيجر ووسط أفريقيا، لكنه قام بهذه الدورة الصغيرة خارج نطاق المشروع الاصلى فى الوقت الذى كان عليه أن يقضيه فى انتظار القافلة التى تنطلق به من القاهرة إلى واحة (فران) ثم للأقاليم الداخلية فى أفريقية الوسطى.

وقد كتب بور كهارت للهيئة الإفريقية قبل رحلته الأولى للنوبة يقول:

"إن الــبلاد الواقعــة جنوب (الدر) لم يزرها أى رحالة – ومع ذلك فقد علمت مــن كثيريــن مــن الاهالى بأنه على جانبى النهر يوجد الكثير من المعابد والآثار الأخــرى الــتى تُشبه آثار الأقصر، وآثار جزيرة فيلة- والحالة هادئة الآن وتتيح فرصــة ذهبــية للقــيام بزيارة هذه الجهات فى ظروف أقل خطورة مما كان عليه الوضــع خــلال القرن الماضى- خاصة أن باشا مصر يُسيطر سيطرة كاملة على الــبلاد، كما أنه على علاقات طيبة مع أمراء النوبة – ولولا شرذمة المماليك الذين استقروا فى (دنقلة) فإننى كنت أرجو أن أصل إلى هذه المنطقة، ومع ذلك فإننى لن أعرض نفسى لمكايدهم وسأقتنع بالقيام برحلة لمدة خمسة أو ستة أيام إلى (دنقلة) ثم القيام ببعض الجولات فى الصحراء النوبية".

فــى الــرحلة الأولــى- سافر بور كهارت من (إسنا) حتى بلاد المحس شمال (دنقلــة) – وقد أُتيح له فى هذه الرحلة أن يلتقى بتوماس ليج (Legh) عضو البرلمان الإنجلــيزى والقس تشارلس سملت (Smelt) وكانا قد سافراً فى ١٨١٣ حتى إبريم[1] وكانــت طريقته هى السفر بأبسط الوسائل، فكان يُسافر أفقر ما يستطيع مخفياً حقيقته كــأوربى، فقــد كان يتظاهر بأنه تاجر مسلم، وقد وصف البلاد التى زارها والواقعة شمال (دنقلة) وسكانها، ووصفه لها جميل ومشوق ويُعطى الكثير من المعلومات عن هذه البلاد فى ذلك الوقت.

فقــد وصف (النوبيين) وتحدث عن تقاليدهم، فذكر إنهم قوم شجعان ولا يكاد للسرقة أو الدعارة وجود على الإطلاق عندهم – لكن قطع الطريق لم يكن معدوداً عندهم من قبل السرقة- ووصف معابد النوبة، كما أشار إلى معبد (أبى سنبل) الذى وصــله فــى مــارس (١٨١٣) وكانت تماثيله مطمورة تماماً تحت الرمال، وكتب يقول:

"إنــنى أتوقع إذا ما كان فى الوسع ازاحه هذه الرمال أن ينكشف هذا الموضع عن معبد هائل"[2].

١- ضمن ليج رحلته فى كتابه:

Legh, Thomas : Narrative of s Journey in Egypt and the Country beyond the Cataracts (London 1816).

٢- أنظر رحلات بور كهارت فى بلاد النوبة والسودان : ترجمة فؤاد اندراوس ص ٨١ وما بعدها (نشرته الجمعية المصرية للدارسات التاريخية – ١٩٥٩).

كمـــا زار المـــناطق التى كان يُقيم فيها المماليك، ووصف حياتهم هناك وذكر إنهـــم رغـــم قسوة هذه المناطق فإن هؤلاء العبيد المستبدين غير النظاميين الذين لا مبدأ لهم- ما زالوا يرتحلون وسط مظهر البذخ مع زوجاتهم وأتباعهم.

ووصـــف بلاد قبائل (الشائقية) وعاداتهم وتقاليدهم فذكر أن بلادهم من أجمل الـــبقاع الواقعة على نهر النيل لسواقيها التى تضخ الماء، ورقعة بلادهم يبلغ طولها على مجرى النهر نحو ثمانين ميلاً.

وذكـــر إنهـــم جمـــيعاً يُقاتلون فوق صهوات خيولهم، وأسلحتهم هى الحراب والدرق والسيف، وأنهم يرمون الحراب إلى مسافة بعيدة بمهارة عظيمة، ويحملون على الدوام أربع حراب أو خمساً فى اليد اليسرى عندما يشنون الهجوم على العدو، وأن فى استطاعتهم حشد نحو عشرة الآف مقاتل.

وبدأ رحلته الثانية – بعد مدة من الرحلة الأولى، وقد برر تأخيره فى مواصلة أســـفاره بإنتشار المجاعة فى بلاد النوبة مما أضطر القوافل للتجمع فى بلدة (دراو) انتظاراً لموسم الذرة الجديد- بدأت هذه الرحلة من بلدة (دراو) فى مارس (١٨١٤) وعـــبر الصحراء النوبية ووصل إلى (بربر) التى يقول أن المسافر فى هذا الطريق يتطلع للوصول إليها كما يتطلع النوتى لظهور البر، ثم وصل (الدامر) حيث قضى يوميـــن، ووصـــل (شـــندى) وزار بهـــا سوق الرقيق الذين كانوا يفدون من سنار ودارفور وكردفان.

وفـــى حديثة عن (بربر) ذكر أنها مستودع للبضائع واقع على طريق التجارة المصـــعد فـــى النـــيل إلى (سنار)، وتحدث عن عادات أهل بربر وأوجه نشاطهم التجارى والزراعى وأشار إلى أنهم يُدمنون شرب الخمر[1].

أمـــا (الدامـــر) فذكـــر أنها مدينة مقدسة بها مسجد كبير و(محلة) للفقراء من الدراويش الذين يُحرمون على أنفسهم كل لون من ألوان الترف.

وهو يُقارن بينها وبين (بربر) ويُرجع هذا التطرف فى كل شىء إلى الحرارة الشديدة على مدار السنة، فهى تدعو الناس إما للسأم والفجور اللذين ذكر أنه رآهما فى (بربر) أو للتقشف المسرف كما فى (الدامر)، أما (شندى) فهى عامرة بالسكان وقـــدر ســـكانها بستة آلاف نسمة، وأرجع ذلك لموقعها فقد اشتهرت باسم (البوابة) فمنها تبدأ السُبل المفتوحة شرقاً لبلاد العرب والهند والشرق الأقصى- ومن الغرب تمـــتد طـــرق القوافـــل ملتزمة النطاق الممطر جنوبى الصحراء الكبرى متنقلة من

١- رحلات بور كهارت فى بلاد النوبة والسودان – الترجمة العربية ص ١٧٠ وما بعدها.

واحة إلى أخرى حتى بحيرة (تشاد) وتمبكتو- كما أنها تؤدى عن طريق النيل شمالاً لمصر، كما يمكن الاتجاه منها إلى إثيوبياً عن الطريق الصاعدة التى تخترق (المتمة) إلى (غندار).

وقد مر (بور كهارت) فى طريقة لشندى بأطلال عاصمة (مروى القديمة) وذكر أن شندى كانت بها سوق عامرة حيث تُعرض التوابل وخشب الصندل المستورد من الهند وحجر الكحل والعقاقير والسيوف والسروج والمصنوعات الجلدية الواردة من كردفان، والخرز والقماش والسلال والصابون والملح والصحاف الخشبية بالإضافة للخيول والجمال والدواب الأخرى- والمعاملة فيها بالمقايضة غالباً، كما ذكر أنها مركز عظيم للنخاسة، وشأنها فى الإدارة شأن كل الحواضر الرئيسية القائمة على شاطئ النهر فملكُها المقلب (بالمك) ترجع أسرته الحاكمة لأواخر القرن السادس عشر، وكان الملك المستربع على أريكة الحكم فى ذلك الوقت هو (الملك نمر) وله حرس خاص من ثلثمائة فارس، وعنده ثروة طائلة أهم مصادرها الرقيق.

وقد افتتح بور كهارت فى شندى (حانوتاً) صغيراً اتخذ منه وسيلة لتوجيه الأسئلة والاستفسارات للتجار الذين يترددون عليه لجمع المعلومات التى يُريدها عن جهات السودان والحبشة وغيرها.

وفى شهر مايو (١٨١٤) ترك بور كهارت (شندى) فى جماعة من التجار صوب إقليم الجاش وكان يُسمى فى ذلك الوقت بإقليم (التاكه) وذهب إلى (سواكن) ومن سواكن عبر البحر الأحمر إلى (جده) ووصلها فى (١٤ أغسطس ١٨١٤) ومنها إلى (الطائف) حيث قضى شهر رمضان، وقابل هناك (محمد على باشا) الذى يعرفه من القاهرة- وذهب (لمكة)، وأدى فريضة الحج وزار المدينة وهناك أُصيب بالحمى وأضطر للبقاء حتى أبريل (١٨١٥)، ولما أصبح فى مقدروه أن يتحمل الرحلة على ظهر الجمل ركب إلى (ينبع) على ساحل البحر الأحمر حيث حملته سفينة إلى (رأس محمد) فى شبة جزيرة سيناء ومنها إلى السويس عند (الطور) ووصل القاهرة فى ١٩ يونيو- وخلال هذه الرحلة للحجاز تدهورت صحته وأرجع هو ذلك لقسوة المناخ والمياه غير الصالحة- وفى أبريل ١٨١٦ قام بجولة فى شبه جزيرة سيناء وزار معالمها وعاد للقاهرة فى يونيو، وبقى بالقاهرة حتى مات فى ١٥ أكتوبر (١٨١٧) وكان عمره ثلاثة وثلاثين عاماً- وكان أثناء إقامته بمصر قد أعتنق الدين الاسلامى.

ويذكر الجبرتى اسمه فيقول إنه زار الهرم والآثار برفقه سيدى إبراهيم المهدى الانجليزى (وهو بور كهارت نفسه) وعند احتضاره استعد المسلمون لتشيع جنازته واستعد المسيحيون لنفس العمل واحتدم الخلاف بين الفريقين وسمع المحتضر بهذا الخلاف وأشار بإعطاء جسمه للمسلمين ودُفن بمقبرة باب النصر- ولا يزال قبره قائماً هناك وعليه شاهد أقامته الجالية السويسرية بالقاهرة منذ سنين قليلة.

وقد استطاع (بوركهات) بما اكتسبه نتيجة إتقانه اللغة العربية ودراسته وممارسته للتقاليد الشرقية وقدرته على التطبع بطباع القوم أن يحصل على الكثير من المعلومات، وما يذكر أنه استطاع أن يمارس فريضة الحج فى مكة دون أن يثير أى شيء من الظنون والريبة فإننا ندهش لهذه القدرة، والقصة التالية تدل على مقدرته الحقيقة- إذ يُقال إنه لما كان (محمد على) فى الطائف لجأ إليه (بور كهارت) يطلب معونة لقضاء بعض أموره وكان (محمد على) قد عرفه بالقاهرة ويبدو أن (محمد على) كان يعلم اتصاله بالهيئة الإفريقية- لكنه أراد أن يختبر مدى صدق دعواه باعتناقه الإسلام عن علم ودراية ويقين، فأرسل اثنين من أشهر العلماء فى الجزيرة العربية ليناقشاه فى الشرع والدين وليقررا مدى صدقه فى دعواه- فذهبا إليه وتناقشا معه فى كثير من المشكلات الدينية التى كانت موضع جدل ونقاش بين عُلماء المسلمين أنفسهم لكنه – كما ذكرا – استطاع أن يُدلى بآراء صائبة وأن يستند فى آرائه إلى نصوص من القرآن والحديث لدرجة أنهما عادا ليقررا للوالى بأنه ليس مُسلماً حقيقاً فحسب بل إنه عالم مدرك بكثير من تفاصيل ودقائق العقيدة الإسلامية – وبالطبع لا يعنى هذا أن الرجلين لم يدركا أنه أجنبى لكنهما ظنا أن مسلم من الهند أو غيرها لكنهما أبدياً دهشتهما لعلمه وتعمقه.

ورحلة بور كهارت ذات قيمة كبيرة، فهو شخص عالم دقيق الاطلاع ذكى قوى الملاحظة، ومع ذلك تجنب الحديث عن الأشياء التافهة لكنه وصف مثلاً المعيشية فى القوافل وما كانت تتعرض له القافلة من اعتداءات مختلفة من أهل الصحراء، والطرق التى تعمد إليها القوافل للتغلب على تلك الصعاب، ورغم أن ملاحظاته وتقاريره كتبت فى ظروف متناهية فى القسوة إذ كان لديه وقت قليل للانفراد تحت ظل جَمله للكتابة، وكانت الرياح كما يقول تُثير الرمال وتجعل الكتابة تكاد تكون مستحيلة، كما أن الكثير من تقاريره كتبت وهو يعانى من الآلام المرض- مع ذلك فإن تقاريره عن رحلاته فى مصر والنوبة والسودان وسنار وسوريا كانت دقيقة، ولما نُشرت لأول مرة أثارت الإعجاب من كل المهتمين بمثل

هـذه الـرحلات - فهـى تشـتمل على كثير من الملاحظات التى تدل على الدقة والأمانة.

وسنشـير فـيما بعـد عند الحديث عن سلطنة الفونج عن أهمية ما كتبه هذا الرحالة لإعطاء صورة عن الأوضاع فى هذه السلطنة وقت زيارته.

هـذا علـى أن (بور كهارت) قد ذيل ما كتبه عن مشاهداته فى رحلاته- بما سـمعه فـى أسـفاره عـن أجزاء لم يزرها من السودان فمثلاً ذكر ما سمعه عن (دارفـور)، وحديثه عن دارفور هذا حديث طويل يستغرق عده صفحات من كتابه الأصـلى (رحـلات فى بلاد النوبة) الذى نُشر فى لندن سنة ١٨١٩، وككل حديث يتناقله الناس فيه الغث وفيه الثمين وفيه ما هو حقيقى وفيه ما هو مُغاير للواقع.

٧- جورج وادنجتون وبرنارد هنبرى Waddington & Hanbury:

بعـد رحلـة بـور كهارت للسودان بسنوات قلائل قام وادنجتون - وهو من خريجى جامعة كمبردج - يرافقه (هنبرى) برحلة للمناطق التى زارها بور كهارت على الضفة الغربية للنيل.

وترجع أهمية هذه الرحلة إلى أنه يرجع لها الفضل فى توجيه الأنظار لأهمية الآثار المصرية القديمة فى بلاد النوبة - وإن كان بور كهارت قد أشار لما فى هذه الجهات من معابد وحصون مصرية قديمة لكن زيارة الرحالتين للأهرامات القائمة فـى حـدود مملكـة (دنقلة) القديمة وما نشراه من رسوم تخطيطية لبعض المعابد والأهـرامات بهـذه المـناطق يعتبر المرحلة الأولى فى الدراسة الأثرية للسودان، وكان فاتحه لمجهودات أخرى مثمرة فى هذا السبيل.

وصـل الرحالـتان إلـى (وداى حلفا) فى ١٠ نوفمبر (١٨٢٠) ووصلا إلى (فركة) ثم إتجها جنوباً إلى قرب جزيرة (ساى)، واتبعا نفس الطريق الذى سار فيه (بـور كهارت) وشاهدا عن بعد معبد (صلب) ولم يزورا المعبد فى هذه المرة إذ لم يجـدا وسـيلة لعبور النيل للضفة الأخرى حيث يقع المعبد، ومرا بـ (دلقو) وزارا بعـد ذلـك جزيرة (ارقو) وفحصاً التماثيل الجرانيتية هناك، وقد أشارا فى بحثهما الـذى نُشر فى لندن فى (١٨٢٢) إلى دقة المعلومات التى كتبها بو كهارت عندما يطبقها الزائر على الطبيعة[1].

1- Waddington & Hanbury: Journal of a visit to some parts of Ethepia With maps and other engravings (London 1822).

ووصلا إلى (دنقلة) ثم سافر إلى (كورتى) وزارة منطقة (جبل البرقل) وقضيا عشرة أيام فى التجول فى الأهرامات والمعابد فى هذه المنطقة ودراستها- وغادرا مدينة (نباتا) فى ٢٤ ديسمبر (١٨٢٠)، وفى أثناء العودة قابلاً الرحالة كيو (Cailliaud) وقد أشار وادنجتون إلى هذه المقابلة العابرة بينهم، كما أشار إليها (كيو) نفسه فذكر أنه لم يحصل من (ودانجتون) على أية معلومات عن (جبل البرقل) تُفيده فى رحلته.

وفى رحلة العودة استطاعا زيارة معبد (حُلب) وعمل رسم تخطيطى له، ومن وصفهما له يبدو أن بقايا المعبد كانت فى حالة أحسن وقت زيارتهما عما آلت إليه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين بُذلت الجهود لكشف هذه الآثار ودراستها.

ولم يستطيعاً أن يجدا وسيلة لعبور النيل وزيارة آثار جزيرة (ساى).

وفى أول فبراير (١٨٢١) عادا إلى (وادى حلفا) وهكذا استغرقت رحلتهما ما يقرب من ثمان وأربعين يوماً فى الذهاب والإياب.

وقد كانا أول من نشر بحثاً تفصيلياً عن آثار جبل البرقل، وعن بعض آثار بلاد النوبة الأخرى ففتحت العيون لأهمية الآثار فى هذه المنطقة من السودان.

٨- كيو (Cailliaud) :

كيو هو الرحالة الفرنسى الشهير الذى يرجع الفضل إليه فى إثارة الكثير من الإهتمام بآثار بلاد النوبة والسودان.

ولد فى مدينة (نانت) بفرنسا فى (٩ يونيه ١٧٨٧) وكان شغوفاً بدراسة الآثار والحضارة المصرية القديمة، وكان عالما محباً للاستطلاع حتى وصف بأنه (مجمع علمى فرنسى مصغر) وملاحظاته الدقيقة خير شاهد على ذلك، وقد قضى ثلاث سنوات (١٨١٥-١٨١٨) فى زيارة لبعض الواحات فى صحراء مصر الغربية، وكانت العقبات الطبيعية التى تعترض الطريق إلى بلاد النوبة بالإضافة إلى اضطراب الأمن وما يتعرض له المسافر من مخاطر من الأسباب التى جعلت الكثيرين من العلماء والرحالة يُحجمون عن السفر جنوب (فيلة)، فكانت المعلومات والدراسات التى وصلتنا عن هذه المناطق الواقعة جنوب الشلال الأول ضئيلة غير شافية، حتى بدأت مصر منذ ديسمبر (١٨٢٠) تتجه لتنظيم شئون الجنوب فكان الأمان والاستقرار وعمليات الضبط القوية التى شملت المنطقة بين الشلالين الأول

والـثانى والمـناطق الواقعة للجنوب عن ذلك التى تحققت نتيجة الخطوة الجديدة- دافعـاً لعدد كبير من الأجانب لزيارة الأقطار السودانية، وقد رافق بعضهم الحملة المصـرية فـى تقدمها والبعض الآخر جاء بعد أن استقر الحكم المصرى فى هذه الجهـات- وسـنتحدث عـن بعـض هؤلاء من أمثال (Cailliand)، وهو سكنس (Hoskins)، ورسيجر (Russeger) ولبسيوس (Lepsius) وكثيرين غيرهم.

وقـد سـمع (كـيو) عن حملة محمد على للسودان فسعى للسماح له بمصاحبة الحملة ونجح فى مسعاه[1].

وبدأ (كيو) رحلته ومعه صديق له هو ليتورزيك (Letorzec) ومعهم ستة رجال ودلـيل، فوصـلوا إلى (أبو سنبل) فى ديسمبر ١٨٢٠، وفى ٢١ ديسمبر وصلوا إلى (سـمنه) وبعـد زيـارة آثارهـا عبروا الضفة الغربية إلى آثار (قمة) – وفى يناير (١٨٢١) وصـلوا إلى جزيرة (ساى) وعبروا النهر على طوف من جزع شجرة من أشـجار النخـيل، وزاروا بقايا الكنيسة القطبية فى أطراف الجزيرة، كما شاهدوا عن بعد بقايا الحصن الذى بناه العرب على بقايا أسُس قلعة مصرية قديمة.

ووصـل (كـيو) وصحبه إلى (صُلب) حيث قضوا ثلاثة أيام أعد فيها وصفاً دقـيقاً ورسـمّاً تخطيطـياً للمعبد القديم، ثم وصل إلى جزيرة (أرقو) فى ١٩ يناير (١٨٢١)، وبعـد فحـص التماثيل الموجودة بها اتجه إلى (دنقلة)، ولم يقف (كيو) وصـحبه فـى هـذه المرة كثيراً عند أهرامات (جبل البرقل) وآثارها واتجه إلى (بربـر) وقضى فترة فى العاصمة القديمة لمملكة (مروى) حيث استطاع (كيو) أن يرسـم معابدهـا وأهراماتها بينما شَغل رفيقه (ليتورزيك) نفسه بعلاج الاهالى من بعض أمراضهم مستغلاً ما كان مع الرحالة من أدوية، وكانت معهما الخريطة التى رسـمها (جيمس بروس) فى رحلته لهذه المناطق، فقاما بتحقيق للاماكن الموضحة بهـا على الطبيعة وقد قضى (كيو) أسبوعين فى رسم النقوش والكتابات التى على مقابـر (مروى)، وكانت خرائطه ورسومه أساساً لكل أعمال النحت الأثرية التالية فى (مروى).

علـى أن وصـفه للآثار كان شيقاً وتعليقاته طريفة حتى أنه يكاد فى وصفه برسـم صور للماضى بحضارته كما تخيله من الآثار التى أمامه، وفى تعليقه على هذا يقول:

١- كان إسماعيل بن محمد على يشك فى نوايا الأجانب، فأعاد (كيو) برفق، كما أعاد غيرة من الأجانب مثل (جورج وادنجتون) الانجليزى وغيره من الأجانب، لكن (كيو) تمكن إن يغرى محمد على بإعادته فأعاده حيث أدرك حملة إسماعيل قرب (بربر) ورافقها حتى حدود إثيوبياً.

"هكذا يندثر جاه هذه الحياة ويذبل رونقها".

وقد قضى ليلته فى مقبرة فى مكان يسمى (القرنة) فوصف المناظر التى رآها علـى جدران المقبرة من خلال أضواء القمر الساطع، ثم شرح الشعور الذى تملكه حين غادر المقبرة بعد ذلك للخارج فلم يجد أمامه إلا أكواماً من الحطام فكتب معلقاً على ذلك بقوله:

"حقاً لقد كان الماضى مجيداً أما الحاضر هنا فهو غاية فى الإنحطاط"

وأبحـر كـيو إلـى (شندى) ومنها إلى (حلفاية) ثم إلى (أم درمان) حيث كان يُعسـكر الجـيش المصرى بقيادة إسماعيل بن محمد على - ووصف المشاق التى عناها الجيش (المصرى) فى عُبور النيل فى هذه المنطقة فى ذلك الوقت.

واتجـه (كيو) إلى (سوبا) على الضفة الشرقية للنيل الأزرق حيث زار معالم المديـنة القديمة، وقد وجد بين بقايا المدينة تمثالاً (لأبى الهول) من حجر الكوارتز على هيئة التماثيل المصرية، ويبدو أن زيارته للمدينة كانت سريعة إذ لم يُشر لبقايا بوابـات المديـنة القديمـة وللآثار الأخرى التى ترجع إلى العهد المسيحى بالنوبة (الكنيسـة الـتى بُنيت على بقايا معبد قديم، والدير الملحق بها) والتى تحدث عنها بعض الرحالة الذين زاروا هذه الجهة بعد.

ومـن (سـوبا) توجـه إلى سنار، ووصل فى زيارته إلى (فازوغلى) وشاهد بعـض الأهـالى مشـغولين بجمـع التبر (الذهب) من الرمال المتخلفة بعد سقوط الأمطار، وقد اشتهرت قبيلة (برتا) بذلك[1].

وفـى طـريق عودتـه زار (كيو) الأهرام والآثار فى منطقة نجا (Nagaa) الواقعـة شـمال (شـندى) بمـا يقـرب بثلاثيـن ميلاً، ومنطقة وادى مساوارات (Masawwarat) الواقع على مسيرة خمس ساعات ونصف من المنطقة الأولى.

وأشـار إلـى أن تلك الآثار تدل بلا شك على أنه فى هذه المنطقة كانت توجد مديـنة مأهولـة بالسكان، وذكر أن الإنسان لا يكاد يجد تفسيراً لإختيار الأقوام فى القديـم لهـذا المكان بالذات لبناء مدينتهم العظيمة حيث أنه تكاد تتجنب هذا المكان حتى الحيوانات المتوحشة إذ لا يجد كائن حى منبعاً صغيراً من الماء عن قرب يسد به ظمأه.

١- يلاحظ أن سلطان مصر امتد فى عهد محمد على إلى (فازوغلى) وهذا يدل على أن الرحالة كانوا لا يطمئنون للسفر إلا للجهات التى امتدت إليها الغارة المصرية.

وقد اهتم (كيو) بوصف بقايا المعابد والمباني في هذه الجهات واستنتج أن هذه المـــنطقة كانت خاضعة لمملكة عظيمة كان حكامها من النساء، وذكر أن ملابسهن وزينتهـــن كما تبدو على المعابد تختلف عن ملابس وزينة الملكات المصريات، كما تدل تقاطيعهن على أنهن لسن مصريات.

ويـــبدو أن المديـــنة التى كانت مُقامة فى هذه المنطقة كانت تستمد أهميتها من أنهـــا تقع فى الطريق الرئيسى المؤدى من النيل إلى الحبشة وموانئ البحر الأحمر، ولعلهـــا كانـــت توجـــد فى هذه المنطقة سلسلة مدن فى الطريق من موانئ البحر الأحمر والحبشة إلى مصر والى شمال أفريقياً.

وقـــد عَـــبّر (كيو) عن دهشته من آثار (Masawwarat) لدرجة أنه ذكر إنه وقـــف مشـــدوهاً لا يدرى من أى اتجاه يبدأ زيارة هذه الآثار، إذ أن كل جزء من المـــنظر الـــذى كان أمامه كان يشد انتباهه، ويقول إنه انتقل من معبد لمعبد، ومن حجـــرة لحجـــرة، ومن أثر لأثر وسأر فى ممرات متعرجة صاعداً ونازلاً دون أن يشـــعر بأى ملل، وكانت الآثار تشغل مساحة تقرب من (٨٢٨) متراً مربعاً وذكر أنـــه فـــى تصوره أن هذه الحجرات والقاعات المتعددة ربما كانت جزءًا من مكان مخصـــص للتّعْلـــيم، فهى تعطى للناظر إنطباع الجامعات اليوم، لكن لم يستطع من جاء بعده من العلماء مجاراة (كيو) فى هذا التصور.

ولم يتجه (كيو) لتلال الصحراء الشرقية ليحاول اكتشاف ما إذا كان هناك من الآثـــار ما يستحق الدراسة أم لا، إذ كان متعطشاً لزيارة منطقة (جبل البرقل) قرب الشـــلال الـــرابع، وقد قضى (كيو) فى هذه المنطقة الأخيرة فترة طويلة أتاحت له فرصـــة وصـــف الأهـــرامات والآثـــار وعمل رسومات تخطيطية لها وزار معبد (طهراقة) ووصفه وصفاً مفصلاً.

وعـــبر كـــيو بعد ذلك الصحراء إلى جزيرة (أرقو) إذ أعتقد أنه بذلك يختصر الطـــريق بـــدلاً مـــن تتـــبع النهر فى إلتواءاته، كما انه يعتقد – وقد ثبت خطأ هذا الإعـــتقاد– أنه لا يوجد على ضفتى النهر بين (جبل البرقل) و(دنقلة) من الآثار ما يشـــد الإنتـــباه– هذا على أن الرحلة فى الطريق الصحراوى الذى اختاره فى شهر مـــايو فـــى غاية القسوة، فقد عانى الكثير من شدة الحر ووصل (كيو) إلى (صُلب) وجزيـــرة (ســـاى) وزار واحة (سليمة) التى أرجع تسميتها إلى أميرة كانت تسكنها وذكر أنه يُقال أنها كانت من الشدة بحيث تُثير الرعب فى بلاد النوبة كلها.

ويبدو أن هذه الواحة كانت لها أهمية خاصة فى طريق القوافل بين مصر و(دارفور) ولعبت دوراً هاماً فى تجارة الرقيق وكانت تحت سلطة سلطان دارفور الذى كان يُدعى أيام كيو (محمد الفاضل) والذى ذكر أن تحت إمرته جيشاً قوياً من المشاة والخيالة يبلغ من ٢٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ مقاتل وأنهم أصلاً من الرقيق الذين يُجلبون من (دارفرتيت) فى جنوب دارفور.

وفى طريق عودته زار كيو أيضاً معبد (تحتمس الثالث) فى (سمنة) ونقل النقوش الموجودة على حوائطه – ثم اتجه شمالاً صوب (وادى حلفا).

وفى (١٨٢٦) نشر (كيو) كتابه الذى وصف فيه رحلته وصفاً شيقاً مع ما ذكره من معلومات كثيرة عن أحوال بلاد النوبة، وأرفق به مجموعة كبيرة من الرسوم والصور، والكتاب فى أربعة مجلدات وملحق به مجلد خاص بالرسوم والصور والخرائط[1].

وقد كان لهذا الكتاب ضجة فى الأوساط العلمية فحرك الكثيرين للبحث والتنقيب، ولزيارة بلاد النوبة ومصر والسودان.

ومن أهمية هذا الكتاب أنه يعطينا على الأقل فكرة عن حالة الآثار التى تعرض لها فى بداية القرن التاسع عشر إذ أن الكثير من النقوش والرسوم التى شاهدها (كيو) زالت أو أصابها التلف- ولما عاد كايو لمسقط رأسه فى (نانت) عُين أميناً لمتحف التاريخ الطبيعى هناك.

ومات كيو فى مايو (١٨٦٩) أى أنه كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت (أثنين وسبعين) عاماً تقريباً.

٩- هوسكنس (Hoskins) :

بدأ الرحالة الانجليزى (هوسكنس) رحلته فى عام (١٨٣٣) وبرفقته رسام ليعاونه فى رسم الآثار التى يزورها، فوصل (كورسكو) فى ١٦ فبراير ثم وصل إلى (أبو حمد) فى ٢٣ فبراير، ومنها إلى (بربر) ثم سافر فى النيل إلى نقطة التقائه بنهر العطبرة.

1- Voyage a Moroe, au Fleuve Blanc, au-dela de Fazoql dans le midi du Royaume de Sennar. A Syouah et dans cinq autres Qasis. Fait dans les annees 1819/18201821et1822.

وفى ٣ مارس (١٨٣٣) وصل إلى قرب أهرامات (جزيرة مروى) وقد بهره منظر هذه الأهرامات وهندستها لدرجة أنه وقف أمامها مذهولاً فهى- من وجهه نظرة- تفوق فى الناحية المعمارية أهرامات الجيزة- وذكر أن هذه الأهرامات بُنيت بحيث تواجه الشمس وقت شروقها، ولاحظ أن كل هرم منها مبنى على بئر عميقة حيث تُوضع جثة الملك.

وقام هوسكنس بعمل دراسة لبعض هذه الأهرامات كما عمل رسوماً لها.

وبعد ذلك تحرك إلى (شندى) وزار آثار ماساوارات (Masawwarat) وذكر إنها من أجمل الآثار التى شاهدها، وشاهد الحجرات والقاعات الواسعة التى ذكر (كيو) أنه يرجح أنها مدرسة أو كلية، لكن (هوسكنس) عارض هذه الفكرة وذهب إلى أنها بقايا قصر لعل الملوك كانوا يقضون فيه الفصل المطير من العام إذ أن المنطقة المجاورة للنهر كانت بلا شك فى هذا الفصل غير ملائمة، أو أنها كانت من وجهة نظره – مستشفى – لعلاج المرضى خاصة من الملاريا التى كانت تنتشر على وجه الخصوص فى موسم المطر.

وعاد (هوسكنس) إلى النيل ولسوء حظه رفض الرسام أن يذهب معه لزيارة آثار نجا (Naga) ومعابدها التى تقع على مسيرة ما يقرب من ثمان ساعات فى الصحراء بحجة أنه فى هذه المنطقة تكثر الحيوانات المفترسة – وقد أبدى عميق أسفه لتركه (جزيرة مروى) دون أن يزور هذه الآثار التى علم فيما بعد أنها من أجمل آثار السودان.

ومن شندى عبر (هوسكنس) النهر إلى (المتمه)، ثم اخترق صحراء بيوضة ووصل إلى النيل قرب مروى فأصبح قُباله (جبل البرقل).

وقد خصص (هوسكنس) وقتاً طويلاً وجُهداً لدراسة ورسم آثار ملوك النوبة فى هذه الجهة من أمثال (بيعنخى) و(طهراقة) – وقد أشار إلى ما أصاب هذه الآثار بسبب محاولات الذين اعتقدوا أنها (هذه الآثار) تُخبى فى جوفها كنوزاً ضخمة.

وزار أيضاً (نورى) على الضفة الأخرى المقابلة لآثار (جبل البرقل)

وأبحر بعد ذلك فى النهر إلى (دنقلة العجوز) حيث شاهد بقايا الآثار المسيحية بها واستمر فى رحلته شمالاً إلى جزيرة (أرقو)، وفى طريق عودته للشمال زار معبد (صُلب) وعمل له رسماً تخطيطياً، ثم زار الآثار التى ترجع إلى عهد (سنوسرت الثالث)، ووصل إلى جزيرة (ساى) حيث شاهد بقايا الكنيسة المسيحية فيها.

ووصـــل بعـــد ذلك فى اتجاهه شمالاً إلى (سمنه) فوصف معبدها وعبر النهر إلـــى (قمـــة) فوصف بقايا معبدها حيث شاهد أسماء تحتمس الأول وتحتمس الثانى وتحتمس الثالث وأمنحتب الثالث منقوشة.

وأخيراً وصل إلى (وادى حلفا).

وقـــد نشر هوسكنس مشاهداته فى عام ١٨٣٥ فى كتاب زوده بالخرائط والصور والرسوم للمعابد والأهرامات التى زارها فى (جزيرة مروى) و(جبل البرقل) و(صُلب) و(سمنه) و(قمه) وغيرها مما أعده المؤلف نفسه أو الرسام الذى كان برفقته(١).

وبالإضافة لما أضافه كتابه من معلومات قيمة على ما ذكره الرحالة السابقون وبالإضـــافة للميزة التى امتاز بها بسبب الرسوم المتعددة والأشكال التخطيطية التى أثـــرى بهـــا كتابه – فان الكتاب يُعتبر وثيقة تسجل الوضع الذى كانت عليه الآثار الـــتى تعـــرض لوصفها وقت زيارته لها إذ أن هذه الآثار ونقوشها كانت معرضة دائماً للتلف.

١٠- رسيجر (Russegger) :

قـــام بـــزيارته لـــبلاد النوبة فى الفترة من ١١ نوفمبر ١٨٣٦ حتى ٢٧ يوليه ١٨٣٨ – وقـــد زار (سنار) ووصل إلى (فازوغلى) و(الرصيرص) بقصد التنقيب عن معدن الذهب بنوع خاص، كما زار كردفان ومضى بها بعض الوقت.

وفـــى طـــريق عودته زار آثار (جبل البرقل)، وقد نشر مشاهداته وأرفق بها الكثير من الصور والأشكال والرسومات وذلك فى ستة أجزاء(٢).

١١- لبسيوس (Richard Lepsius) :

أرسل الإمبراطور (فردريك وليم الرابع) إمبراطور بروسيا فى عام (١٨٤٢) بعـــثة علمـــية علـــى رأســـها الدكتور (لبسيوس) لكشف وتسجيل الآثار المصرية والأثيوبـــية الموجودة فى وادى النيل والجهات المجاورة ونقل ما قد يمكن نقله منها لمتحف برلين.

1- Travels in Ethiopia above the Second Cataract of the Nile: Exhibiting the country and Its various inbabitants uuder the dominion of Mohamed Ali; and illus. trating the antiquities arts, and History of the ancient kingdom of Meroe.

2- Reisen in Europa, Asien und Africa (1843).

بدأ نشاط البعثة فى السودان فى يناير (١٨٨٤) وعبر أعضاؤها الصحراء من (كورسكو) إلى (أبو حمد) ثم زارت البعثة قرية (البجرارية) حيث تقع بالقرب منها أهـرامات جزيرة (مروى) وبعد دراستها وعمل الرسوم اللازمة ذهبت البعثة إلى (شـندى) ثـم زارت آثار نجا (Nagaa) و(ماساوارات) وسافرت البعثة للخرطوم، ومنها سافرت فى النيل الأزرق فزارت (سوبا) و(سنار)، وبعد زيارة هذه المناطق عادت البعثة عبو الصحراء إلى قرب (جبل البرقل) لمشاهدة ودراسة آثارها، ومنها ركـب أعضاء البعثة النيل إلى (دنقله) وزاروا معبد (صُلب) وآثار جزيرة (ساى) و(سمنة) ثم الآثار فى المنطقة بين (وادى حلفا) وأسوان.

وقـد نُشرت الدراسات والرسوم والخرائط والأشكال التى قامت بها البعثة بعد ذلك فى عده مجلدات.

وفـى أثناء رحلة البعثة أخذت معها من المبانى والمقابر ما وجد ابسيوس أنه ذات قيمة وفى الإمكان حمله وأرسلت هذه الأشياء لمتحف برلين.

والمـادة الـتى نشرتها بعثة (لبسيوس) من الأهمية بمكان وتزداد أهميتها مع الأيـام إذ أن الكثـير من الآثار التى سجلتها وصورتها أو رسمتها إما أنها اختفت نهائياً أو على وشك الانهيار.

١٢- محمد بن السيد عمر التونسى:

التونسـى مـن الرحالة العرب الذين زاروا السودان ودرنوا ملاحظاتهم عنه، وقد أقام التونسى فى السودان نحو عشر سنوات (من ١٨٠٣ إلى ١٨١٣م). ووصل التونسى إلى دارفور من (درب الأربعين) الذى يبدأ من أسيوط واتجه فى صحراء ليبـيا مـارا بالواحات والآثار المختلفة - وقد وصف التونسى هذا الطريق الطويل وكانت (الخارجة) محطة رئيسيه فيه- وبالطبع بطل هذا الطريق حالياً لكن الطريق الـذى تسـتخدمه السيارات من أسيوط للخارجة هو جزء من الطريق القديم- وفى (الخارجة) قلاع ومخافر ترجع لعهد الرومان حيث أنشت لحراسة هذا الطريق، كما توجـد بالقـرب من (الخارجة) مقابر مسيحية وآثار ترجع للعصر الرومانى- كما نلاحـظ أسماء مئات من الناس نقشوا أسماءهم على جدران هذه المقابر ممن مروا بهـذا الطـريق بعضهم كتبه اسمه باليونانية أو الفرنسية - هذه أشياء ذكرناها فقط للدلالة على عمران هذا الطريق[1].

١- أورد على مبارك فى خططه ج ١٧ ص (٣١- ٣٣) بيانات وافيه عن درب الأربعين.

وقــد تحدث التونسى عن عناصر الأهالى فى سلطنه (دارفور) وعن ظروفهم المعيشــية وتنظــيم الســلطنة والمعتقدات والخرافات.. الخ - ومما ذكره التونسى نعــرف أن كلمة (الفاشر) فى وقته لم تكن تُطلق على مكان معين لكن حيث يستقر الســلطان، لكــن لمــا كــثر استقراره بمكان معين التصق اسم الفاشر بهذا المكان وأصبح لا يُطلق على غيره.

والحقــيقة أن رحلـــة التونســـى بالإضافة للمعلومات التى تمدنا بها عن بلاد (دارفــور) فـــى وقـــت زيارتـــه لها أهمية خاصة لابد من الإشارة إليها فهى تُثير موضوعاً هاماً هو رحلات أهل تونس - فالسيد التونسى ورحلات أبيه تثير ذكرى تلـــك الـــرحلات المتواصلة فى التاريخ الاسلامى للتجارة والحج والعلم- فكثير من العلمـــاء - المغاربة بالذات - شغفوا بالانتقال من بلادهم (ابن خلدون مثلاً)، وعادة تقـــترن الـــرحلة لطلب العلم بأداء فريضة الحج، ومع الفريضة تجارة وطلب علم- والوقـــت لـــم يكـــن فى أيامهم ضيقاً كأيامنا هذه - يبدأ بتونس وقد يستقر سنوات بالقاهـــرة وعـــادة يركب النيل لشبه الجزيرة العربية ويؤدى الفريضة ثم يعود على نفس النمط[1].

وقـــد قضى التونسى فى (دارفور) نحو سبع سنوات ونصف السنة ألم خلالها بـــأحوال الـــبلاد إلماماً تاماً - ثم سافر إلى (واداى) فى غربها حيث قضى بها ما يقـــرب من العام والنصف ثم سافر التى تونس فى عام ١٨١٣ وعاد للقاهرة حيث عمل واعظاً بالجيش المصرى الذى ذهب لحرب المورة سنة ١٨٢٧ - وعاد منها فى (١٨٣٢) فاشتغل مصححاً بتصحيح كتب الطب المترجمة.

ورحلته منشورة تحت أسم:

" تشخيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"

وقـــد نشـــرت فى المبدأ مطبوعة (طبع حجر)، والفضل فى نشرها يرجع إلى المستشرق الفرنسى الدكتور بيرون (A. Perron) فهو الذى اقترح على التونسى أن

١- من الرحالة التونسيين الذين زاروا السودان وكتبوا عنه (زين العابدين التونسى) وكان معاصراً لمحمد بن عمر التونسى، ودرس فى الأزهر واتصل بالمستشرقين الأوربيين فى مصر وقضى فى السودان فترة تقرب من عشر سنوات إذ زار سنار، وكردفان، دارفور وواداى ثم عاد إلى بلدة تونس- وقد سجل مشاهداته عن السودان فى كتاب طبع ونشر وترجم من العربية إلى التركية فى عام (١٨٤٦) - وقد اهتم بوصف حضارة ودارفور وواداى ونظامهما الاجتماعى وحياة البلاط والقبائل والأرقاء والتجارة وغير ذلك، والنسخة العربية للكتاب يبدو أنها مفقودة - انظر محاضرة الأستاذ عبدالعزيز عبدالحق حلمى عن: "استدراكات على رحلة التونسى إلى دارفور" التى ألقاها بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى الموسم الثقافى ١٩٦٧، ١٨٦٨ وطبعتها الجمعية (مطبعة عين شمس ١٩٦٨).

يُسجل مشاهداته وذكرياته عن البلاد السودانية التى زارها وأقام بها وهى (دارفور، وواداى).

وكان (بيرون) من أساتذة مدرسة الطب الفرنسيين الذين قدموا لمصر فى عهد محمد على، ويرجع اتصاله بالتونسى إلى أن هذا الأخير كما ذكرنا عمل مُصححاً بمدرسة الطب فاتصل فى أثناء قيامه بهذا العمل بالأساتذة الأوربيين ومنهم بيرون وقد علمه اللغة العربية، وكان المتبع فى مدرسة الطب أن يضع الأساتذة الأوربيون مؤلفاتهم بلغتهم ثم يقوم مترجمون فى المدرسة بترجمتها، وهؤلاء كانوا عادة من زملاء المدرسيين الأوربيين، ومن أعضاء البعثات، وعادة يكونون من المتمكنين فى اللغة العربية من رجال الأزهر فيقومون بصقل العبارات المترجمة وتحسينها قبل طبعها وتداولها بين الطلاب.

وكان التونسى من هؤلاء المترجمين فاختص بترجمة كتب الطبيعة وقد أبدع فى إعداد وتهيئة هذه الترجمات السقيمة ووضعها فى لغة عربية سليمة، وأشار فى بعض مقدماته لتلك الكتب إلى أنه يرجع للكتب العربية القديمة (مثل ابن سينا...) ليستخرج التعابير والعبارات المناسبة – وهذه الملاحظات تعطينا فكرة عن المؤلف، فهوّ من الرواد الأول فى مصر فى تعريب المصطلحات الطبية والعلمية قبل إنشاء المجامع اللغوية فى البلاد العربية – وقد قام بعمل جليل هو تحقيق طبعتى مقامات الحريرى، والمستظرف (للابشيهى) اللتين أخرجتهما مطبعة بولاق – كما أشرف على تحقيق القاموس المحيط (للفيروز ابادى) وكان شاعراً ينظم الشعر ويستشهد به فى كتاباته.

وقد نشر (Perron) كتاب تشخيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان فى باريس سنة ١٨٥٠ وكان قبل ذلك قد نشر ترجمة له بالفرنسية فى (١٨٤٥) مع كثير من (الحواشى) والشروح الإضافية ومقدمة له أخرى لجومار (E. F. Jomard) الذى يرجع الفضل إليه فى الأنفاق على نشر رحلتى التونسى مع معجم صغير بالمفردات (الفوراوية) ومقابلها بالفرنسية من وضع جومار، وكذلك مشروع محمد على لفتح دارفور[١].

١– نشر الدكتوران خليل محمد عساكر، ومصطفى محمد مسعد رحلة التونسى إلى دارفور فى عام (١٩٦٥) اعتماداً على النص العربى للمستشرق (بيرون) الذى نشر فى باريس سنه ١٨٥٠ لأنهما لم يعثروا على الأصل الذى دونه التونسى نفسه.

وقـد ذكـر (بيرون) فى مقدمته "إنه كان عليه أن يستوثق من صحة البيانات الـتى أوردهـا التونسـى فـى رحلتيه، فرجع إلى عدد من أبناء كردفان ودارفور ووادای وأنه وجد دائماً فى أقوالهم مطابقة تامة لما كتبه التونسي".

فكـتابات التونسـى تُعد مصدراً هاماً لدراسة الأحوال السياسية والإجتماعية والثقافـية لجهـات السـودان الـتى زارها، ولكنها مع ذلك لا تلقى سوى قليل من الإهتمام والتقدير من الأوربيين.

ومن جهة أخرى تُعتبر كتابات التونسى حلقة متأخرة من الكتابات العربية عن الـرحلات – فهـى تذكرنا بطريقة الرحالة العرب القُدامى الذين لم يقتصروا على وصـف المعـالم الجغرافـية للـبلاد التى زاروها بل كتبوا عن نظمها وتاريخها وأعلامها وعادات أهلها– فقد ضمن كتابة الكثير من الأشعار والأعلام وغيرها كما تعـرض للعـادات الاجتماعـية وعقد فصلاً كاملاً عن (السحر والتنويم عند أهل دارفور....).

وللتونسـى كتاب آخر عن رحلته إلى (واداى) أو فى الحقيقة هما كتاب واحد وتقسـيمه إلى كتابين هو من صنع (بيرون) – وقد ترجم بيرون رحلة التونسى إلى (ودادى)[١] إلـى الفرنسـية أمـا النص العربى للرحلة فلم ينشر بعد – وللتونسى مؤلفات أخرى لا زال أغلبها مخطوطاً.

وقـد شُـغل التونسـى فى السنوات الأخيرة من حياته بإلقاء دروس دينية فى الحديث فى مسجد السيدة زينب إلى أن توفى فى القاهرة سنة (١٨٥٧ م) وكان يبلغ من العمر سبعين سنة تقريباً.

هـذا وحين فكرت مصر فى ضم دارفور للإدارة المصرية وطُلب من (جعفر مظهر) حكمدار السودان سنة ١٨٦٧ عمل دراسة لأحوال دارفور والطريق إليه– وكانـت الترجمة الفرنسية لرحلة الشيخ محمد التونسى تحت يد جعفر مظهر أرسل يستفسـر عن النص العربى للرحلة ولما لم يعثر عليه طلب أن يقوم (رفاعة رافع الطهطاوى) بإعادة ترجمتها للعربية[٢].

علـى انـه يبدو أن على باشا مبارك عثر عام (١٨٨٧) على النص العربى بدليل ما نقله منه فى كتابه الخطط التوفيقية.

1- Voyage au Waday.

٢- عابدين – المعية تركى دفتر ٥٦٠ رقم ٢٤٤ فى صفر ١٢٨٤ هـ (كتاب من المعية إلى ديوان المدارس للبحث عن الص العربى لرحلة التونسى).

١٣- الرحلات المتأخرة بعد امتداد الإدارة المصرية للسودان:

أ - بامتداد الإدارة المصرية للسودان بدأت تتدفق الرحلات على هذه البلاد كما ذكرنا، ومن أهم هذه الرحلات تلك التى قصد بها الكشف عن الأقاليم السودانية عامة وعن منابع النيل بنوع خاص، وتذكر فى هذا السبيل رحلات (البكباشى سليم قبطان)، ورحلات سبيك وجرانت، وصمويل بيكر، وغوردون وغيرهم وسنشير إلى هذه الرحلات فيما بعد عند الحديث عن الكشوف الجغرافية[١].

ب- بدج E. Wallis Budge:

كذلـك نشير بنوع خاص إلى الرحلات التى قام بها الرحالة الانجليزى (بدج) لاهتمامه بدراسة الأماكن الأثرية، فقد قام خلال الفترة (١٨٩٧- ١٩٠٥) بأربع رحلات[٢].

١- ففى الرحلة الأولى فى عام ١٨٩٧ - قام فيها بزيارة (جبل البرقل) قرب المكان الذى كان يُعسكر فيه فى ذلك الوقت الجيش المصرى بقيادة السردار (كتشنر) وكان قد بدأ العمل فى مد الخط الحديدى من وادى حلفا فاستعمل القطار من وادى حلفا إلى (كرمه) ثم أكمل الرحلة بالباخرة.
وقد استطاع أن يزور أهرامات (نورى) الواقعة على ضفة النهر الغربية وأن يُعطى وصفاً تفصيليا لها - كما اهتم بدراسة معابد (جبل البرقل).

٢- الرحلة الثانية فى شتاء عام ١٨٩٨ - وكانت القوات المصرية قد أحرزت نصراً كبيراً على الدراويش فى أبريل ١٨٩٨ فى (معركة العطبرة) - كما كانت السكة الحديد قد تقدمت إلى قرب العبطرة فأمكنه أن يزور آثار (جزيرة مروى).

٣- الرحلة الثالثة فى ١٩٠٣ - وكان فى هذه الرحلة مُوفداً من المتحف البريطانى لزيارة (سوبا) عاصمة مملكة علوه المسيحية، وزار آثار نجا (Naga) و(ماساوارات) - وغيرها من الآثار التى زارها (كيو، وهوسكنس، ولبسيوس).

٤- الرحلة الرابعة فى ١٩٠٥- وكان الهدف منها مساعدة السلطات الحاكمة فى السودان فى إقامة متحف فى الخرطوم يمكن أن يُنقل إليه كل ما يمكن نقلة من الآثار السودانية التى تتعلق بتاريخ السودان خلال عصوره المختلفة خاصة

١- فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

2- A. Wallis Budge: The Egyptian Sudan: its History & Monuments. 2 Vols. (London 1907).

وأنه فى المنطقة بين وادى حلفا وكرمه كانت كثير من الآثار – التى اكتشفتها البعثات الأوربية السابقة وعجزت عن نقلها إلى أوربا.

وقــد زار لذلــك مخــتلف المــناطق الأثرية فى السودان بمساعدة المسئولين السودانيين وسجل الكثير من آثارها ونقل للخرطوم ما أمكن نقلة، كما نقل للمتحف البريطانى الكثير مما أمكن – بمساعدة السلطات البريطانية فى السودان – نقلة إلى انجلتراً.

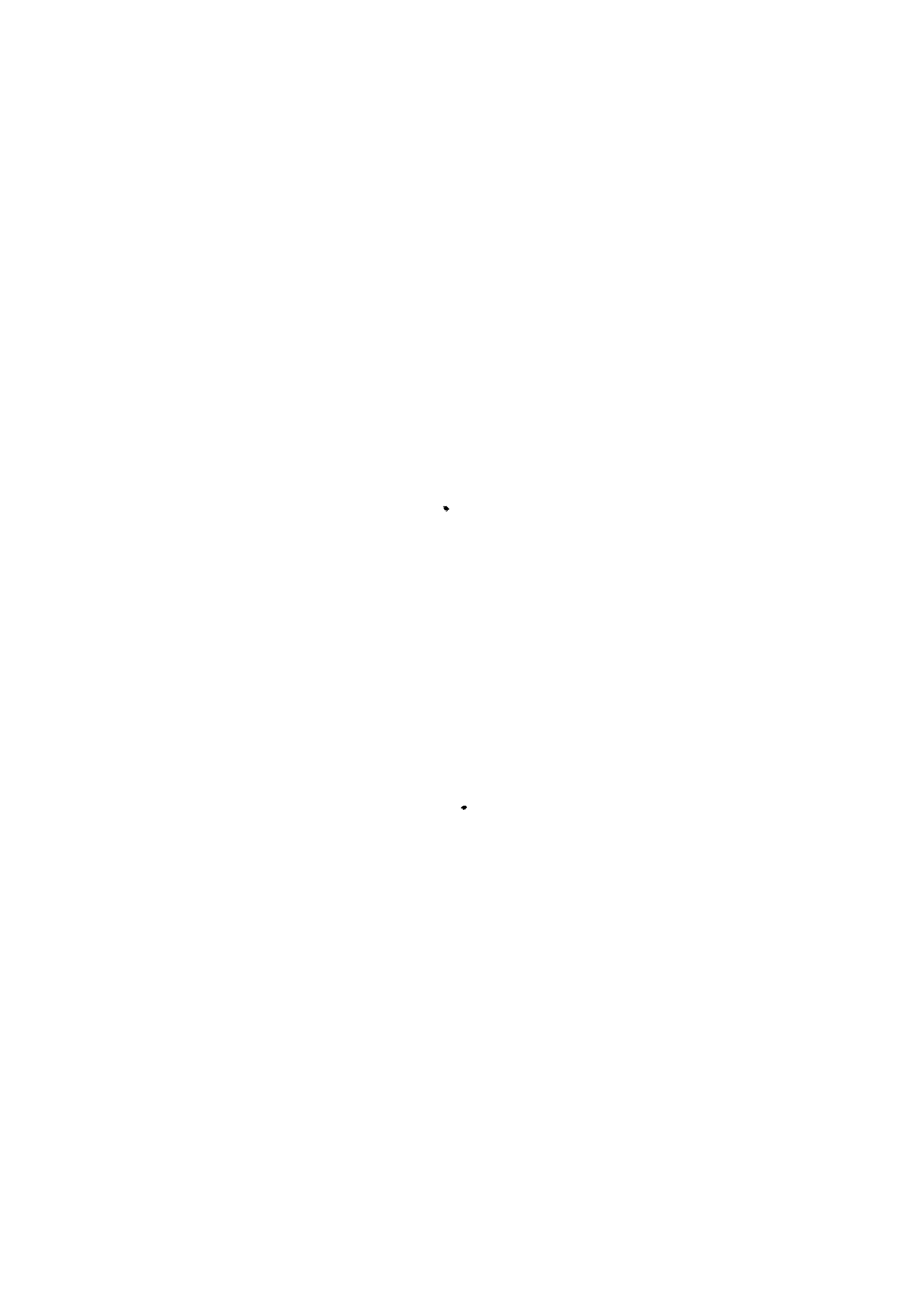
ويمــتاز (بدج) بأنه مؤرخ دقيق الملاحظة وكتاباه يعتبران من المراجع الهامة لدراســة تاريخ السودان، ويحتويان على عدد كبير من الرسوم والصور والأشكال، وقــد اطلع على كتابات الأثريين والمؤرخين السابقين وناقشها فى ضوء ما شاهده، وان كــان فــى كثــير من إشارته للمصريين وجهودهم فى السودان لم يتخل عن التعصب والتحيز الذى أفسد كتابات الكثيرين من المؤرخين الأجانب.

ج- البعثات الأثرية فى أوائل القرن العشرين:

أشرنا سابقاً إلى بعض هذه البعثات ومن أهمها بعثات:

الدكتور جورج ريزنر (Dr. George Reisner) وبعثة

المسترى إميرى (Walter B. Emery).



مراجـع
الجزء الأول



المراجــع

أولاً: المراجع العربية أو المعربة :

١- ابن عبد الحكم: كتاب فتوح مصر وأخبارها (ليدن. ١٩٢٠).
٢- أحمــد الحاج أبو على (كاتب الشونة): تاريخ مدينة سنار (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٨).
٣- أحمــد بــدوى (دكــتور): فــى موكب الشمس (جزءان) مطبعة لجنة التأليف والترجمة (١٩٥٠).
٤- البلاذرى: فتوح البليدان (ليدن ١٨٦٦).
٥- التونســى (محمد بن عمر): تشحيذ الأزهان بسيرة بلاد العرب والسودان (نشر د. خليل محمود عساكر، د. مصطفى محمد مسعد ١٩٦٥).
٦- الشاطر بصيلى عبدالجليل: معالم تاريخ سودان وادى النيل (١٩٥٥).
٧- المســعودى (علــى بــن الحسن بن على أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر – ٨ أجزاء (باريس ١٨٦٠-١٨٧٦).
٨- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على): المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ).
٩- النوبرى (شهاب الدين أحمد): نهاية الأرب جـ٢٨ (صورة شمسية بدار الكتب المصرية معارف عامة رقم ٥٤٩.
١٠- ابرمان (أدولف): مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة (مترجم بدون تاريخ).
١١- برســتيد (جــيمس هــنرى): كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى (ترجمة د. حسن كمال – القاهرة ١٩٢٩).
١٢- بوركهــارت (جون لويس بوركهارت): رحلات بوركهارت فى بلاد العرب والســودان (تــرجمة فؤاد أندراوس – ١٩٥٩ – نشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية).
١٣- حســن أحمد محمود (دكتور): الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا – (الجزء الأول ١٩٥٨).
١٤- حسن كمال (دكتور): تاريخ السودان القديم (١٩٢٤).
١٥- زاهر رياض (دكتور): كنيسة الإسكندرية فى أفريقيا (١٩٦٢).

١٦- زاهر رياض (دكتور): السودان المعاصر (١٩٦٦).
١٧- سليم حسن (دكتور): مصر القديمة ١٦ جزء (١٩٤٠-١٩٥٨- بعض الأجزاء صدرت بدون تاريخ).
١٨- سليم حسن (دكتور): جغرافية مصر القديمة (د.ت).
١٩- سليم حسن (دكتور): الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة (جزءان).
٢٠- عبد العزيز عبد الحق حلمى: استدراكات على رحلة التونسى إلى دارفور (محاضرات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٧/١٩٦٨ - منشورة).
٢١- عبد العزيز عبد المجيد (دكتور): التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها (ثلاثة أجزاء - القاهرة ١٩٤٩).
٢٢- محمد ضيف الله بن محمد الجعلى (محمد نور الدين - ود ضيف الله): كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والسفراء فى السودان (١٩٣٠).
٢٣- محمد عوض محمد (دكتور): السودان الشمالى - سكانه وقبائله (القاهرة ١٩٥١).
٢٤- مصطفى عامر: حضارات عصر ما قبل التاريخ.
(تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى - المجلد الأول - وزارة الثقافة والإرشاد).
٢٥- مصطفى محمد مسعد (دكتور): الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى (١٩٥٦).
٢٦- مورهيد (الآن): النيل الأزرق - ترجمة د. نظمى لوقا (د.ت).
٢٧- نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث (١٩٥٦).

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1- Abu-Saleh-AI Armani: The churches and monastries of Egypt and some neighbouring countries (Edited and translated by B.T.A, Evetts-Oxford 1893).
2- Arken, A.J.: Fung Origins (S.N.R. Vol. XVI-part H).
3- Arkell, A.J.: A History of the Sudan to A.D. 1821 (1955).
4- Bonomi, J.: Egypt, Nubia & Ethiopia (London 1892).

5- Breasted, J.H.: Ancient records of Egypt, 5 vols. (Chicago, 1906).

6- Breasted, J.H. : A History of Egypt (1905).

7- Breasted, j.H. : The Temples of lower Nubia (Chicago 1906).

8- Brockender, W.s Egypt & -Nubia, 2 vols. (London 1846-1849).

9- Brown: Travels in Africa, Egypt & Syria, 1792-1798 (London 1806).

10- Bruce, J. : Travels to discover the Source of the Nile in the years 1768-1773 (Edinburgh, 1805).

11- Budge, E.A. Wallis: The Egyptian Sudan; Its History & Monuments, 2 Vols. (London 1901).

12- Buteher, L. : Story of the Church in Egypt, 2 vols. (London 1897).

13- Burton: First footsteps in East Afries, 2 vols. (1856).

14- Caillaud, F.: Voiage a Meroe au Fleuve Blance, au dela de Fazog ait, dans les années 1819, 1820, 1821 et 1822, 3 Vols. (Paris 1826).

15- Chatarvay, J.A.: Fung Origins (S.N.R. Vol. XVII-part I, 1934).

16- Combes, E. : Voyage en Egypte, en Nubie, dans le desert de Bayouda des Bischarys (Paris 1846).

17- Coupland: East Africa & its invaders (London 1938).

18- Crawford, O.G.S. : The Fung Kingdom of Sennar (1951).

19- Devlieger, Rev. A.: Origin and Early History of the Coptic Charch (Lausanne, 1900).

20- Emery, Walter, B. : Nubian Treasure (an account of the discoveries at Ballana & Qustul) (London 1948).

21- Fakhry, Ahmed: The Egyptian deserts, Siwa Oasis (London 1935).

22- Fakhry, Ahmed: Bahria Oasis.

23- Griffith, F. Li.: The Nubian Texts of the Christian period (Berlin 1913).

24- Hamilton, I.A. : The Anglo Egyptian Sudan from within.

25- Henderson: Fung Origins (S.N.R. vol. XXVII)

26- Hobreyd, A.T. : Notes on a Journey to Kordofan in 1836-1837 (London 1839).

27- Hoskins, G.A. : Travels in Ethiopia (London 1835).

28- Horner, L. : Observation on Lepsius' discovery of sculptured Marks on. rocks in the Nile Valley in Nubia (Edinburgh., 1850).

29- Hughes, W. : Africa, the Red Sea, and the valley of the Nile, including Egypt, Nubia and Abyssinia, (London 1867).

30- Jackson, H.C.: Tooth Fire, being some account of the ancient Kingdom of Senuar (Oxford 1912).

31- James, F. L.: The unknown horn of Africa (London IS88).

32- Kammerer, A.: Le mer rouge, L'abyssinie et I'Arabie depuis l'antiquite (Caire-1929).

33- Kirvoin, L.P.: A contemporary account of the conversion of the Sudan to Christianity (S.N.R. XX'1937)

34- Legb, T.M.P. : Narrative of a Journey in Egypt and the Country beyond the Cataracts (London 1816).

35- Letrone, J.A.: Materiaux pour l'histoire du Cbristianisme en Egypte, en Nubie et en Abyssinie (Paris 1832).

36- Light, Henry: Travels in Nubia (London 1818).

37- Mac Michael, H.A. : A History of the Arabs in the Sudan 2 vols. (Cambridge 1922).

38- Meyer: Histoire de J' Antiquite (T. II).

39- Meyer: Egypte jusqu a l'Epoque des Hyksos (Paris 1914).

40- Moorehead, Aban: The White. Nile (New York, 1900).

41- Moukhtar, M.: Dans Ie Soudan Oriental (Bull. So('. Soc. R Kh- Geog. Sere 1 No. 11-1876).

42- Murrav, H.: Historical account of discoveries and travels. in Africa, etc. . . (Edinburgh-1820).

43- Norden, F.L., Travels in Egypt and Nubia- 2 Vols. (Londoo-1757)

44- Pallme, I: Travels in Cordofan (Translated from the German London 1844).

45- Paul: A History of the Beja tribes of the Sudan Camb. ridge 1954).

46- Petrie, W.M.F.: A History of Egypt from the earliest times to the XXXth Dynasty (London 1894).

47- Reid, J.A.: Tribes & brominent families in the Blue. Nile province.

48- Revillout, E. : Memoire sur les Blemmyes (Paris 1874).

49- Roberts, D. : Egypt and Nubia - 3 vols. (London 1846).

50- Robertson, J.W.: Fung Origins (S.N.R. XVII part I-1934).

51- Robinson : The Mamlukes in the Sudan (S.N.R. vol. V).

52- Rocket: Voyage sur la cote Orientale de la mer rouge dans le pays d' Adel et Ie Royaume de Choa-2 vols. (1841).

53- Rocket: Second voyage Dans le pays d' Adel et de Choa 1846).

54- Romer, Mrs. : A pilgrimage to the Temples and Tombs. of Egypt, Nubia and Palestaine - 2 vols. (London 1846).

55- Smith, H.F.C.: The transfer of the capital of Kush from Npata to "Meroe (Jorn. Sud. Ant-1955).

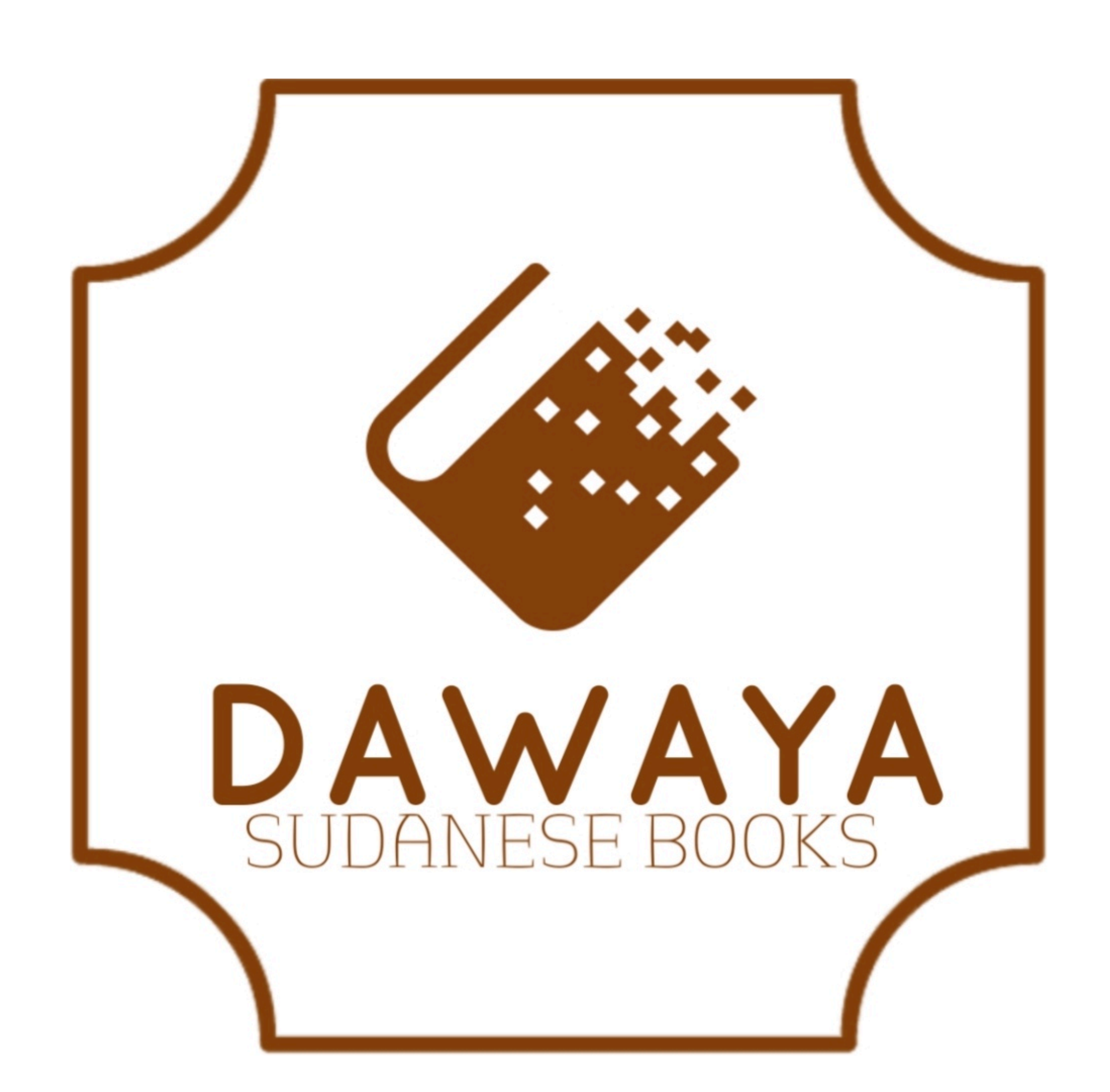
56- Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan (1949).

57- Waid, J.: Our Sudan, its pyramids & progress (London 1905).

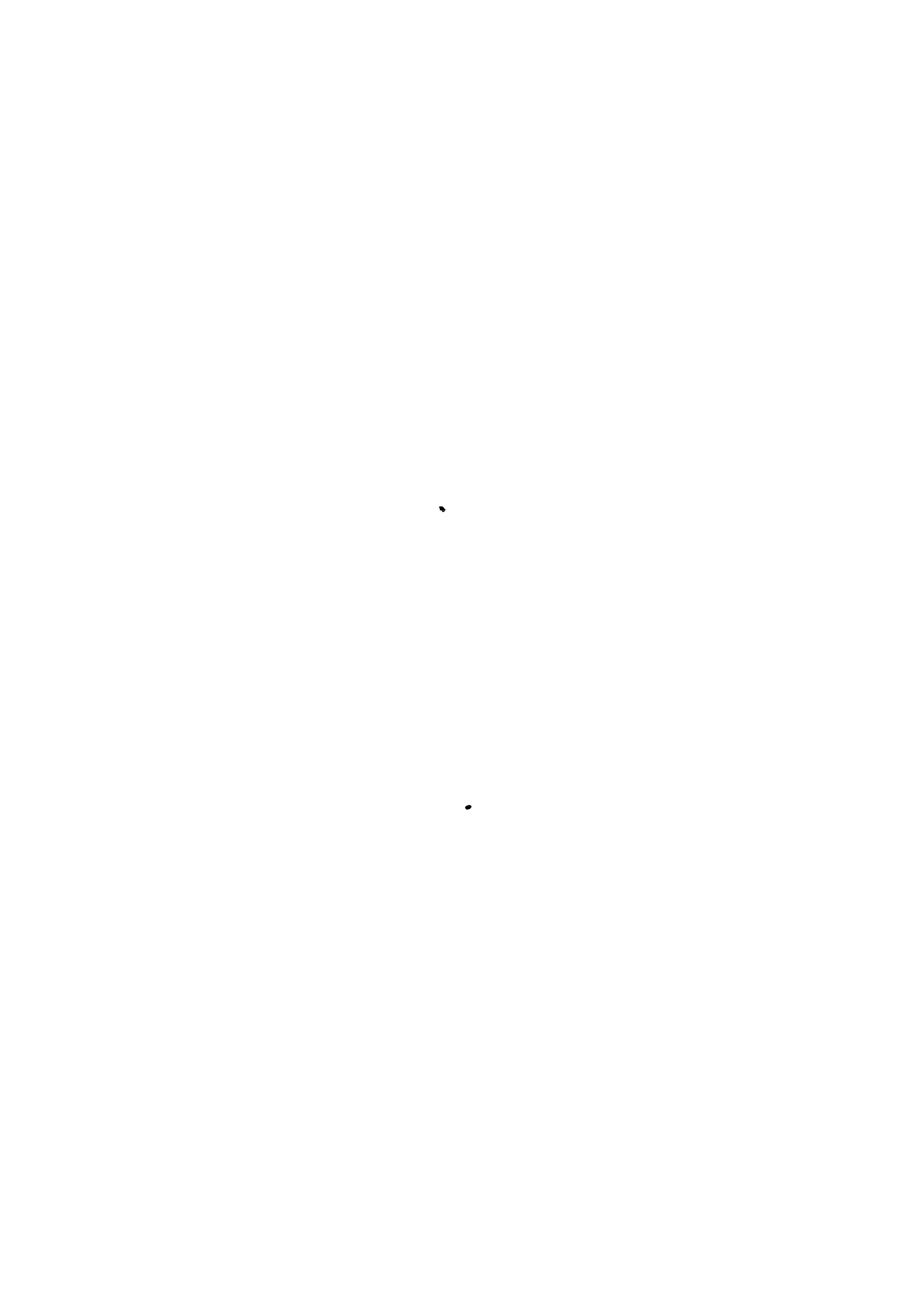
58- Weigall, A.E.P.: A report on the antiquities of Lower Nubia (Oxford 1907).

59- Wilkinson, J .G. : Remarks on the country between Wady Halfeh and Gebel Berkel in Ethiopia (Journol Royal Geog. Society vol. XX.1850).

60- Wylde : The Red Sea trade (1887)


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

الجزء الثانى



مقدمة

الجزء الثانى

عرضنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب التاريخ السياسى والحضارى لمرحلة هامة من مراحل السودان – وهى مرحلة لها حضارتها الخاصة تلك الحضارة التى تأثرت إلى حد بعيد بالحضارة المصرية وأثرت فيها.

وتتبعنا هذا التاريخ وتلك الحضارة عبر العصور، فرأينا كيف قامت فى بلاد النوبة دولة (نباتا) السودانية العظيمة ثم دولة (مروى)، وكيف دخلت المسيحية السودان بعد ذلك ثم كيف أشرق عليه نور الإسلام.

عالجنا كل ذلك فى ضوء ما عثر عليه من آثار بهذه البلاد وهو كثير – وإن كان مالم يكشف عنه بعد من الآثار التى ترسم لنا بصدق وأمانة مبلغ ما وصلت إليه الشعوب التى سكنت هذه البقعة من وادى النيل – من حضارة وتقدم كثيرًا أيضًا.

ووقفنا فى دراستنا فى هذا الجزء الأول عند الفترة السابقة لامتداد الإدارة المصرية إلى السودان فى عهد محمد على – وإن كنا عالجنا الإرهاصات أو الدلائل التى كانت تدل على أن الأمر لا يمكن أن يستمر طويلاً فى هذه المنطقة على هذا الحال.. كما قال الرحالة بوركهارت، وإن كانت نيته متجهة إلى أن دولة أجنبية ستبادر بإحتلال هذه المنطقة لتضع حدًا للاضطرابات التى سادت أرجاءها.

وفى هذا الجزء الثانى بدأنا من حيث انتهينا فى الجزء الأول – فتحدثنا عن امتداد الإدارة المصرية إلى السودان فى عهد (محمد على)، وعالجنا الدوافع التى دفعت محمد على إلى القيام بهذا العمل، ثم حاولنا أن ندرس الملامح البارزة للإدارة منذ أن امتدت الإدارة المصرية إلى السودان فى عهد محمد على حتى نهاية عهد إسماعيل.

هذا بالإضافة إلى دراسة مظاهر التقدم الإجتماعى والإقتصادى والثقافى للسودان فى هذه الفترة.

وقد أتيح للإدارة المصرية فى عهد إسماعيل أن تمتد إلى الحدود الطبيعية للسودان شرقًا وجنوبًا وغربًا، وكانت مظاهر التقدم والعمران تتبع الراية المصرية

فـــى هذه الجهات أينما حلت، كما أُتيحت لكثير من أبناء السودان فرصة الاشتراك في إدارة بلادهم والنهوض بها فى هذه الفترة من تاريخها.

واعـــتمدنا فى هذا الجزء الثانى من الكتاب أكثر على الوثائق الأصلية وأقصد بهـــا المكاتـــبات الرسمية الخاصة بهذه الجهات والموجودة بدار الوثائق التاريخية بمصر وكذلك الوثائق الوطنية بالخرطوم بالإضافة إلى المراجع التى كتبت عن هذه الفـــترة الهامة من تاريخ السودان، التى أسهمت بلاشك فى إعطاء هذا الجزء الهام من وادى النيل مكوناته الحضارية الحديثة.

وليس الهدف من هذه الدراسة إبراز الدور الهام الذى أسهم به المصريون فى بـــناء الســـودان الحديث فحسب، ولكن من أهداف هذه الدراسة – قبل كل شىء – إبـــراز الصلات الوثيقة القائمة بين سكان الوادى شماله وجنوبه من أقدم العصور، والتى أمتدت وتمتد عبر عصور التاريخ المختلفة.

فيجـــب أن نـــدرك، أن ما قام به المصريون فى السودان من تغيير وإصلاح، ومـــا اســـهموا بـــه من قدر فى تحضر هذه البلاد، ليس منة بل هو واجب تحتمه العلاقات بين القطرين، وما فرضته الطبيعة على شمال الوادى وجنوبه من ارتباط وتآخى منذ أقدم العصور.

وقـــد رأيـــنا فـــى الجـــزء السابق من الكتاب كيف أنه حين ضعفت مصر – وأصـــابها الوهـــن وتعرضـــت للإنقسام والغزو الآشورى – وجد حكام النوبة فى الجـــنوب أن الواجـــب يحتم عليهم أن يهرعوا إلى الشمال لتخليصه مما يعانيه من ضعف وأطماع أجنبية.

ومهمـــا يكـــن من أمر فأهم ظاهرة تتضح للعيان، هى أن السودان فى تاريخه الحديـــث – كما فى تاريخه القديم – أصابه من الخير والشر بقدر ما أصاب مصر مـــنهما – فكمـــا عانت مصر من أخطاء أسرة محمد على الحاكمة بها – انسحبت نـــتائج هذه الأخطاء على السودان، فعانى مثلاً من أزمة الإسراف التى تخبط فيها إســـماعيل، فتوقفـــت الكثـــير من المشروعات العمرانية التى كان ينتظر أن ترسو قواعدهـــا فى السودان وعلى رأسها مشروع مد السكك الحديدية فى ربوع السودان وربطـــه بمصـــر، فتأخر تنفيذ هذا المشروع الهام – وإن قدُر له أن ينفذ فيما بعد بفضـــل سواعد الجنود والعمال المصريين الذين ساروا فى مقدمة حملات ما عرف فى كتب التاريخ باسم (استرداد السودان) بعد الثورة المهدية.

كمـــا عانى السودان من التدخل الأجنبى الذى عانت مصر منه، والذى مهد له سـعيد ثــم إسماعيل حين فتحا باب مصر والسودان للأجانب دون تدبر لمغبة هذا العمــل الخطــير، بــل أسهما بسياستهما فى جعل مصر والسودان ميداناً للصراع الاستعمارى.

وإذا كانــت الثورة الشعبية التى قامت فى مصر والتى كان على رأسها (أحمد عــرابى) تعبــيرا عن غضبة الشعب على هذا التدخل الأجنبى فى شئون البلاد – بالإضــافة إلى ما كانت تشعر به عامة الشعب من الغبن – فإن الغالبية من الشعب الســودانى عــبرّت عــن هــذه الغضبة فى مناصرتها للثورة المهدية ضد السلطة الحاكمة.

وقــد حــاول الكُتاب الأجانب – أو على الأقل الكثرة الغالبة منهم – عن عمدٍ وقصــدٍ أن يقللــوا من شأن الأعمال الهامة التى تحققت فى السودان فى الفترة من ١٨٢٠ إلى ١٨٧٩ – أى منذ امتدت الإدارة المصرية إليه حتى نهاية حكم إسماعيل فى مصر – والهدف من هذه المحاولات واضح.

على أن المؤرخين السودانيين الذين ألقوا بعض الأضواء على تاريخ السودان فــى هــذه الفترة، كانوا أكثر إنصافاً للتاريخ وللعلاقات بين القطرين الشقيقين من الكُــتاب الأجانــب، وإن كان أغلب من كتب عن تاريخ السودان فى هذه الفترة من المصــريين والســودانيين لم يستطيع أن يتحرر نهائيًا من تأثير الكتابات الأجنبية، وهى كما قلنا كتابات مغرضة.

ويجب فى الختام أن نذكر أن الكثير من الوثائق الهامة المتعلقة بعلاقات مصر والســودان فــى هــذه الفــترة، لا تــزال فى حاجة لمن يزيل عنها تراب السنين، ويخــرجها إلــى الضوء، ليضع الكثير من الأحداث التى مرت بوادى النيل شماله وجــنوبه فى موضعها الصحيح – ومن تسمح له الظروف بالإضطلاع على بعض هــذه الوثــائق الأصلية يدرك أهمية هذا المصدر الأمين كنقطة بداية لإعادة كتابة تاريخنا الحديث بطريقة علمية سليمة.

وقــد قُــدِّر لمؤلــف هــذا الكتاب أن يقضى أكثر من عشر سنوات فى عمل متواصــل بين خبايا الوثائق المتراكمة فى دار الوثائق المصرية، وأن ينشر بعض الوثــائق المــتعلقة بسياســة مصر فى السودان الشرقى فى الفترة من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩، والفضــل الأول فــى نشــر هذه الوثائق وللطريقة التى نُشرت بها يرجع

لمؤرخ مصر العظيم أستاذنا المرحوم الأستاذ شفيق غربال، وقد قامت بنشرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

ولكن لا شك فى أن المجال يحتاج للمزيد من الجهد والعمل الجاد - والأمل كبير فى أن يُسهم الكثيرون من أبناء وادى النيل شماله وجنوبه فى هذا العمل لكشف النقاب عن تاريخ بلادهم وحضارتها والعلاقات التى قامت بين الشمال والجنوب عبر عصور التاريخ المختلفة.

والله ولى التوفيق ،

شوقى الجمل

المعادى

٢٠٠٨

القسم الأول

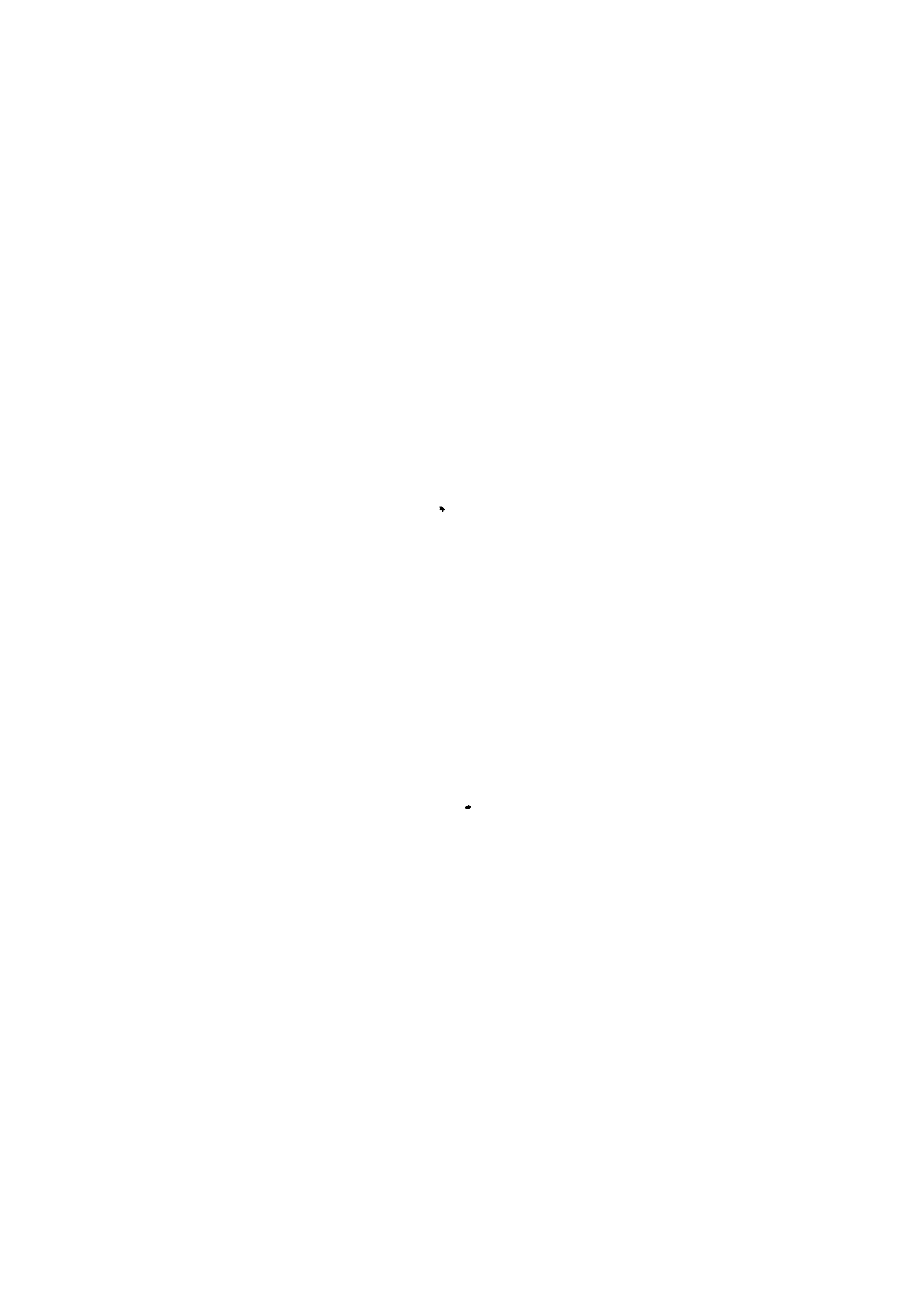
السودان من ١٨٢٠ إلى ١٨٦٣

الفصل الأول: ملامح السودان قبيل امتداد التنظيمات المصرية إليه في عهد محمد على

الفصل الثاني: امتداد الإدارة المصرية للسودان في عهد محمد على (١٨٢٠- ١٨٤٨)

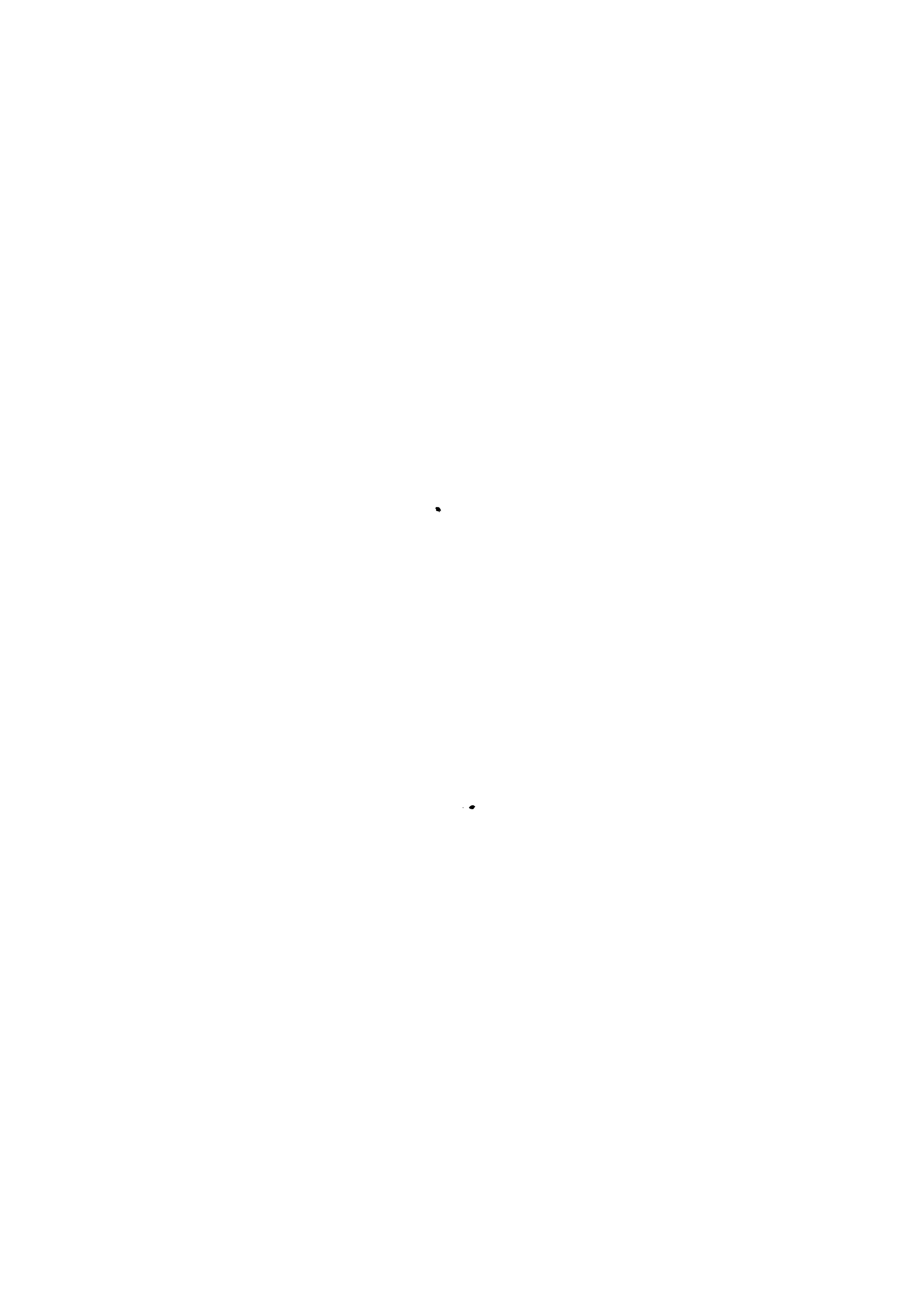
الفصل الثالث: السودان في ظل الإدارة المصرية في عهدى عباس - وسعيد

الفصل الرابع: أهم ما تحقق في السودان في ظل الإدارة المصرية في الفترة ١٨٢٠-١٨٦٣



الفصل الأول
ملامح السودان قبيل امتداد التنظيمات المصرية إليه فى عهد محمد على

- استقرار العرب بالسودان (الشمالى).
- تكوين سلطنات عربية.
- إقليم النوبة (سلطنة الكشاف الأتراك).
- الموانى (سواكن، مصوع).
- القبائل الزنجية فى جنوب السودان.
- سلطنة الفونج فى سنار - أصل الفونج - نظام الحكم عندهم - المشيخات المحلية التابعة لهم - ضعف السلطنة وأسبابه.
- سلطنة الفور في دارفور - أصلهم - نظام الحكم عندهم - أهم سلاطينهم.
- سلطنة تقلى - أصلهم - علاقتهم بمصر - أحوال السلطنة الاقتصادية.
- سلطنة الكشاف فى النوبة.
- الوضع فى السودان الجنوبى.
- قبائل النوير - البارى - الدنكا.



الفصل الأول
ملامح السودان قبيل امتداد
التنظيمات المصرية إليه فى عهد محمد على

إن ملامـح الأقالـيم الشـمالية مـن السـودان قبل التنظيم المصرى فى عام (١٨٢٠) كمـا تـبدو مـن كـتابات الرحالة الذين أشرنا إليهم نتجت عن حركات جماعـات يصـح تسـميتها (قبائل) - هذه الجماعات اكتسبت سيادة على جماعات أخرى.

وهذه السيادة قد نشأ عنها نظام ثابت بعض الشيء فيه إستقرار، وفيه تحضر ويقوم أساسًا على سيطرة عصابة من الناس على جماعات تسودها سذاجة فتنشأ (إمارة) نتيجة لحركة هذه الجماعة من الناس وتغلبهم على جماعات أخرى.

وبـذا تخـرج المسألة من الشكل القبلى إلى نظام (سلطنة)، وقد استطاع هذا النظام أن يدير شئون هذه الجماعات فترة تزيد على الثلاثة قرون من مستهل القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر.

هذا التفوق الذى يؤدى لبسط السيادة على جماعة من الناس قد يرجع لإختلاف مـادى، كـان تكـون الجماعـة غنية بماشيتها أو رجالها - أو قد ينشأ عن تسلح الجماعـة المتغلـبة بأسلحة نارية على الناس الذين لا يعرفون هذه الأسلحة فتكون النتـيجة وجـود بيـت سـلطنة، بيت من الناس ينتمون لعنصر (الفور) مثلاً فى (دارفور) أو الفونج فى (سنار)، وملكهم كما سنرى بحكم طريقة تكوينهم وأصولهم وظـروف اسـتقرارهم هنا - خليط نجد فيه عناصر مأخوذة من الزنوج والتقاليد الزنجية كما نجد عناصر عربية بعضها مستمد من البيئة - وهناك محاولة فى كثير من الأحيان لأن يقلدوا فى تلك السلطنات الممالك الإسلامية كالمملكة العثمانية مثلاً، حسب ما سمعوا عن تلك الممالك - والفقهاء بالطبع يرشدونهم.

وسـنجد أيضًا أن هناك تحريفًا ومحاولة لمراعاة ظروف المكان والزمان فى تطبيق الأحوال الشرعية - فهو ملك غريب فى بابه.

ويمكن أن نُجمِل أثر التوغل والإستقرار العربى على هذه الجهات من السودان فيما يلى:

١- انتشار الإسلام وتوغله فى هذه المناطق من السودان بل وتسربه منها لمناطق أخرى فى أفريقيا.

٢- تغيير شامل فى العادات الاجتماعية للسكان.

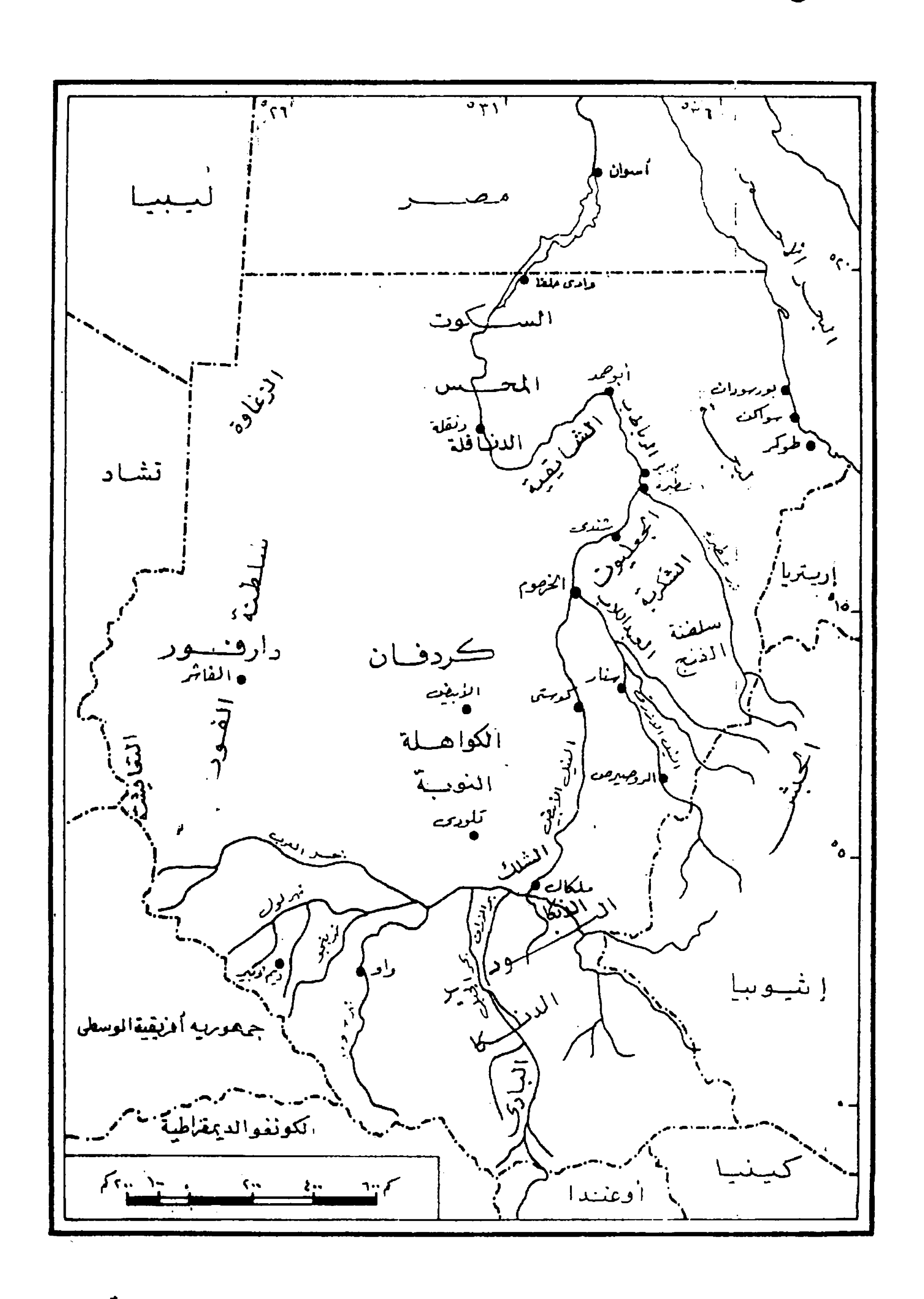
٣- تنظيم لاقتصاديات هذه البلاد على أسس جديدة فباستقرار العرب تطور النظام الإقتصادى للبلاد، فمن العرب من استمر فى حياة البداوه والرعى، ومنهم من استقر بجوار النيل واستغل الأرض فى الزراعة، ومنهم من زاول التجارة مع البلاد المجاورة فى أفريقيا ومع الجزيرة العربية وغيرها ودخل الرقيق كسلعة تجارية لحاجة الأسواق الخارجية فى أوروبا وأمريكا وغيرها إليه، ومنهم من اشتغل بالتعدين، وهكذا تنوعت مصادر الإقتصاد السودانى.

وأهم من ذلك كله قيام (دويلات) و(ممالك) وسلطنات عربية لها نظمها وتقفاليدها الخاصة مثل:

أ - سلطنة الفونج فى (سنار).

ب- سلطنة الفور فى (دارفور).

ج- سلطنة تقلى فى جبال النوبا ووديانها (جنوب كردفان).



شكل رقم (١) السلطنات الإسلامية وبعض قبائل السودان الجنوبية

هـذا عـن الممـالك أو السلطنات العربية، أما الأجزاء الجنوبية من السودان فكانـت فـيها سلطات إما قبلية أو عصبيات أخرى استطاعت أن تُخضع لسيادتها السكان أو القبائل أى المشيخات فى مناطق معينة :

أ - فى إقليم النوبة (من أسوان حتى وادى حلفا) - وجدت سلطة الكشاف الأتراك.

ب- فى الموانى مثل (سواكن، مصوع) نجد شكلاً آخر فريدًا من أشكال السلطة فسنجد هنا سُلطة عثمانية ضعيفة قائمة أكثر على الوهم التاريخى القديم منذ فتح السلطان سليم مصر والشام وبسط نفوذه على ملحقات السلطنة المصرية فى الحجاز واليمن وإمتد سلطانه من تلك الجهات إلى سواكن ومصوع.

ج- فى جنوب السودان وأعالى النيل:

لـم يستطع العرب الذين مدوا سلطانهم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر جـنوبًا حـتى (السوباط) و(بحر الغزال) أن يتوغلوا أكثر من ذلك صوب الجنوب وذلـك لأسـباب طبيعـية، تتمثل فى قسوة المناخ وقسوة مظاهر السطح بالإضافة لضـراوة المقاومة التى وجدوها من العناصر الزنجية التى تسكن فى هذه المناطق من أعالى وادى النيل.

علـى أنّ القـبائل الزنجـية فى هذه الجهات إستطاعت أن تنتظم فى وحدات وصـلت فـى بعـض الأحيان لحد قيام نظام ملكى متوارث كما عند (الشلوك) فى أعالى النيل الأبيض والجزء الأدنى من السوباط.

ومن أهم القبائل الأخرى التى لها السلطة فى هذا الجزء من السودان:

أ - الدنكا : ويمتد سلطانهم فى أعالى النيل الأبيض والسوباط ثم فى بحر الغزال وبحر العرب.

ب- النوير : حول منطقة السدود.

ج- البارى : فى أعالى بحر الجبل.

وسـنتناول بالتفصـيل دراسـة أهم هذه النظم التى سادت السودان قبل امتداد التنظيم المصرى إليه فى عام ١٨٢٠.

أولا: الممالك والسلطنات العربية فى السودان قبيل التنظيم المصرى (فى عام ١٨٢٠)

١- سلطنة الفونج (فى سنار) :

مـد الفونـج سلطانهم من الجندل الثالث شمالاً حتى (فازوغلى) جنوبًا - كما خضـعت لهم الأقاليم الشرقية حتى ساحل البحر الأحمر، وأمتد سلطانهم فى الغرب

حتى إقليم كردفان، وكان هذا الإقليم (إقليم كردفان) مثار نزاع بينهم وبين سلطنة الفور الحاكمة فى دارفور، وبسببه قامت عدة حروب بينهما.

ورحلة الرحالة السويسرى (بوركهارت) لأجزاء من سلطنة الفونج تعطينا صورة عن الأوضاع الداخلية فى هذه السلطنة وعلاقاتها الخارجية فى وقت قيامه بهذه الرحلة، فقد تعرض فى حديثه لأنواع التنظيمات الاجتماعية الموجودة فى الحواضر مثل (بربر) و(شندى) فذكر أن الأمر لا يعدو أن يكون شأن قبائل استقرت ونمت فى هذه الأماكن للتجارة على يد أسرة أو (بيت) وفقدت هذه القبائل لحد ما أصولها القبلية واكتسبت شكل الخليط الذى سكانه من أصول مختلفة تناسوا فى الحاضرة أصولهم القبلية وتشبهوا بأهل المدن.

مركز البيت فى مدينة كبربر يعتمد على حرس خاص يُنفق عليه لتأييد سلطته أو لدفع القبائل عن المدينة، والسلطة فى بربر فى بيت يسمى (بيت عجيب ويتصل ببيت شندى (بيت الملك نمر)، وقد وصف بوركهارت الجمارك التى دفعها – ووصف نظام المدينة وتخطيطها وذكر أن عبيد الملك يستحلون شيئًا فيأخذونه، وأشار إلى ظاهرة غريبة وهى انتشار البيوت التى سماها (بيوت البوظة) والنساء اللائى يدرن هذه البيوت فى الغالب يرجع أصلهن للرق، جوارى ثم أعتقن واستخدمهن أصحابهن لهذا الغرض.

(شندى) من نفس النوع بشىء من التقدم، و(الدامر) وهى فى نفس الإقليم فيها شىء غريب فالسلطة فيها فى يد (فقيه) من علماء الدين وحوله فقهاء، والبلد تجارية يقصدها الناس من جهات مختلفة – ولم تخل أيضًا من (بيوت البوظة).

(سواكن) تمثل حالة أخرى فى التنظيمات السودانية مدينة بحرية أى مرفًا تجارى، فهنا عنصر إستقرار ناشىء من مزاولة التجارة، وأغلب التجار من أصول مدنية وحضرية مختلطين بأهل البلاد.

يزيد على ذلك أن السلطان العثمانى يدعى سيادة على هذا البلد، فابتداءًا من عهد سليم بعد فتح مصر والشام بسط نفوذه على ملحقات السلطنة المصرية فى الحجاز واليمن وامتد من تلك الجهات سلطانه إلى سواكن ومصوع – ومن هذه السيادة نشأت ولاية أطلق عليها فى نظام الدولة العثمانية اسم (ولاية الحبش) وهى ولاية عثمانية على الساحل بين (سواكن) و(مصوع)، ومقدار امتداد سلطانها للداخل يتوقف على أمور كثيرة، بالطبع التسمية ترجع إلى أن هذه البلاد مخارج لبلاد الحبشة.

وبحكم بعد هذه البلاد وضآلة الموارد، وبحكم أن الحامية العثمانية التى هبطت إلـيها واختلطت بالسكان لم تجدد فالسلطة العثمانية فيها قائمة على الوهم التاريخى القديـم، ومـن وقت لآخر لما يتلاشى أمر نائب السلطان تمامًا - ترسل حملة من (جده) لإرجاع المسائل لحد ما لما كانت عليه.

ولاحظ (بوركهارت) فى سواكن وجود سلطتين:

أ - سلطة محلية حضرية نشأت بشكل ما.

ب- سلطة عثمانية تتمثل فى نائب السلطان هناك.

والمهـم من الذى يُمسك بإيراد الجمارك هناك - ومقدار قوة نائب السلطان أو ضـعفه يقاس بسلطته على الميناء، فى زمن (بوركهارت) كان نائب السلطان اسمه (يمك) ويقول إنه عربى وكان يعرف بعض ألفاظ قليلة تركية - وتحت إمرته أربعة عساكر، وهو يسكن خارج البلد.

ويذكر (بوركهارت) حادثًا طريفًا حدث له فى سواكن - فيذكر أنه كان معه عبد يخدمـه طـول الطـريق إشـتراه فى (شندى) ليبيعه فى النهاية وبالربح يدفع أجر المركـب- حاول العساكر أخذ العبد منه رفض هو ولجأ لليمك فأمر اليمك بأخذ كل بضـاعته وتفتيشه وحبسه، ولكن (بوركهارت) كان بيده فرمان من إبراهيم وآخر من محمـد علـى، فلما أظهرهما ارتجف اليمك وأنقذه، هذا دليل على أن سلطة الحكومة المصرية كانت قوية جدًا فى هذه المناطق قبل امتداد نفوذ (محمد على) للسودان.

يشـير (بوركهـارت) أيضًا إلى أن الأحوال فى هذه الجهات غير مستقرة ولا يمكن أن تستمر هكذا - بالطبع هو يشير إلى أن دولة أوروبية لابد أن تأخذ عنصر المبادرة بمد نفوذها على هذه الجهات.

هـذه بعض الإشارات فقط لما يمكن أن نستخلصه من رحلة (بوركهات) لهذه البلاد قبل أن تمتد الإدارة المصرية إليها فى عام ١٨٢٠، ذكرناها لنعطى أمثلة فقط لمـا يمكـن أن نسـتفيده منها لدراسة التنظيمات الإدارية والإجتماعية فى سلطنة الفونج.

ولعلـنا نتساءل عن أصل الفونج الذين استقروا فى هذه الجهات وكونوا أسرة حاكمة فيها؟.

اخـتلف الكتاب فى أصلهم، فالبعض يرون أنهم من أصل عربى هاجروا إلى شرق أفريقيا فى القرون التالية لظهور الإسلام واستقروا فترة من الزمن، ثم أخذوا يتحركون نحو الشمال والجنوب فاستقروا قرب (طوكر) الحالية وتحالفوا مع القبائل

العربية التى فى أرض (مملكة علوه) المسيحية، ثم دخلوا أرض الجزيرة وانتشروا شـــمالاً وجنوبًا فى المناطق الممتدة من الجندل الثالث إلى (فازوغلى) بعد أن قضوا على نفوذ مملكة علوه[1].

والفونـــج أنفسهم يدعون أنهم من نسل (الآمويين) وأن استقرارهم فى مناطقهم هــذه يــرجع لعام ١٣٢هــ حين هرب (مروان الثانى) آخر خلفاء الأمويين لمصر حيث قتل فاضطر اتباعه لمتابعة السير جنوبًا حتى السودان حيث استقروا فى شرق السودان وعلى ضفاف النيل.

وبعــض المؤرخيــن يذهــب إلى أن أصل الفونج يرجع فى الواقع إلى بعض القبائل التى استطاعت أن تتحالف مع بعضها وتقضى على البيت المالك فى (علوه) وتــأخذ مكانـــة، وتذكــر هذه المراجع أن ذلك تم فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى[2].

هذا وقد ذهبت بعض الآراء إلى أنهم من قبيلة (الشُلك) التى كانت تسكن على شـــاطىء النـــيل الأبــيض، وقــد ذكــر هذا الرأى الرحالة (جيمس بروس) وأيده (Arkell) الــذى كتب عدة مقالات عن أصل الفونج فى (S. N. R.) لكن ثبت خطأ (بروس) الذى بناه على بعض الصفات الجسمانية.

وكذلك ثبت أن الرأى الذى يذهب بأصل الفونج إلى الغرب (دارفور أو برنو) وهــو رأى اعتــنقه (أركــل) فيما بعد لا يستند على أسانيد تاريخية يمكن الإرتياح إليها.

علـــى كــل ما يمكن أن نستنتجه من كتابات (بوركهارت) وغيره أن العنصر العربى غالب على تكوينهم وأنهم يدينون بالإسلام.

والثابـــت أنـــه فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى تحالف زعيم الفونج (عماره دونقس) مع شيوخ القبائل الأخرى المرابطة على ضفاف النيل وعلـــى رأسهم (الشيخ عبد الله جماع) شيخ العبد اللاب وإتفق على أن يكون لشيخ الفونـــج الزعامة، وتبع هذا اتخاذ مدينة (سنار) لتكون عاصمة للحلف الجديد الذى شـــمل المنطقة من (دنقلة) شمالاً إلى (فازوغلى) على النيل الأورق، ولابد أن هذا الحلف قد تدرج فى مراحل متعددة أخذت صورتها النهائية فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادَى.

١- الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٢٣.

٢- د. عبد العزيز عبد المجيد: جـ١ ص٣٨.

نظام الحكم فى سلطنة الفونج :

نستقى معلوماتنا عن سلطنة الفونج والنظم التى كانت سائدة فيها مما كتبه الرحالة الأجانب الذين زاروا هذه البلاد من أمثال (بونسيه) و(دى رول) و(بروس) و(كيو) وغيرهم[١]، هذا بالإضافة إلى بعض المخطوطات التى كتبها بعض السودانيين، أو من عمل بالسودان فى أوائل القرن التاسع عشر[٢].

ويمكن أن نجعل الأسس التى قام عليها نظام الحكم فى السلطنة السنارية فيما يلى:

١- السلطان :

يُختار عادة من بين أبناء السلطان السابق أو أخواته أو أعمامه بواسطة مجلس من كبار رجال الدولة وتُقام مراسيم خاصة لتتويجه، وبعد ذلك يتقدم كبار رجال الدولة والمشايخ وغيرهم لبيعه الحاكم الجديد، وتدل التقاليد والطقوس التى تتخذ عن تقليد سلطان جديد أو حتى عند تقليد شيخ من الشيوخ المحليين لوظيفته - على أن الكثير من العادات والتقاليد القديمة كانت لا تزال باقية فى السلطنة السنارية وأنه كان على القوم أن يوفقوا بين العادات الموروثة فى مجتمعهم وبين ما تقضى به تعاليم الإسلام.

وقد ذكر الرحالة (بونسيه) أن السلطان فى سنار عادة يتلثم بلثام من الحرير الملون حتى لا يظهر سافرًا أمام شعبه وأن ذلك يعطيه شيئًا من المهابة، وأنه يرتدى عادة معطفًا موشى بالذهب، كما يتمنطق بحزام من قماش ويضع على رأسه عمامة بيضاء.

وفى الاحتفالات الرسمية يُحاط السلطان بكبار رجال الدولة، أما فى الديوان السلطانى فيجلس على عنجريب ويحيطه جنود من حملة الرماح - وعلى من يريد مقابلته أن يخلع حذاءه عند باب الديوان.

ب- معاونو السلطان :

والرجل الذى يلى السلطان فى السلطنة هو الوزير ويلقب (بسيد القوم) وعليه قيادة الجيش، ولما ضعف السلاطين أصبحت السلطة فى يد هؤلاء الوزراء،

١- انظر ما ذكرناه عن رحلات هؤلاء الرحالة فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

٢- أهم هذه المخطوطات التى نشرت:

أ - طبقات (ود ضيف الله) فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان - نشره وعلق عليه الشيخ إبراهيم صديق (القاهرة ١٩٣٠).

ب- تاريخ مدينة سنار - لكاتب الشونة (أحمد بن الحاج أبو على)، وقد كان موظفا بالديوان العام فى الخرطوم، وهو يشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهاية عهدها وتناول الأحداث التالية حتى عام ١٨٣٥.

فأصبحوا يثيرون المشاكل للسلاطين ويخلعون من لا يروقهم ويولون بدله من يشاءون من أفراد الأسرة السلطانية وأقاربهم.

كما يوجد إلى جانب السلطان رجال الدين، وأصحاب الطرق الصوفية، وقد كان السلاطين يُقربونهم ويُغدقون عليهم الهبات، وأدى هذا – كما ذكرنا سابقًا – لمحاولة تقليد بعض الممالك الإسلامية والسير حسب أصول الشريعة الإسلامية بقدر ما تسمح به ظروف البلاد وتقاليد المجتمع – ولذا وجدنا هنا خليطًا من أشياء إسلامية وأخرى زنجية – كما يبدو أثر الثقافة المصرية إلى جانب التأثيرات الأخرى، وقد اهتم سلاطين الفونج ببناء المساجد، كما أوفد بعضهم أبناءهم للأزهر.

وكانت للسلطنة علاقات مع نائب السلطان العثمانى فى موانى البحر الأحمر (سواكن، ومصوع) بحكم المصلحة التجارية المشتركة – فقد كانت ثروة سلاطين الفونج ترتكز على مركز (سنار) التجارى فى طريق التجارة مع موانى البحر الأحمر، وأثيوبيا، ومصر، والحجاز، والهند، وأقطار السودان الأخرى.

ويعتمد السلطان على جيشه المكون من الرقيق والمرتزقة.

ج- المشيخات المحلية :

كانت سلطة السلطان المباشرة محصورة فى حدود قطاعه فى حوض النيل الأزرق – أما المشيخات الأخرى الداخلة فى هذا الحلف فلم يكن السلطان يتدخل فى تصريف شئونها الداخلية بل يكتفى بزعامته الرمزية عليها وبنصيب من الضرائب والزكاة والرقيق والرسوم التى تحصل من التجارة المارة فى المحطات الهامة – تورد لخزينة السلطان.

فالملاحظ أن الوحدات الإقليمية والقبلية لم تنصهر داخل الوحدة الكبرى وكان هذا فى النهاية من العوامل التى سببت انحلال سلطنة الفونج.

فالقرية (الحلة) – ظلت كما هى تتكون من أفراد من قبيلة واحدة أو بطون قبائل متآلفة مع بعضها وتدين بالولاء لشيخ يُعرف أحيانًا (بالأرباب) يُعاونه فى إدارة شئون الجماعة بعض أتباعه وبينهم (الفقيه) الذى يختص بشئون القضاء والتعليم، وأراضى القبيلة ملكا للقبيلة حيث يوزعها شيخ القبيلة على أفرادها الذين يقومون بالزراعة حسب طاقتهم المادية والعددية.

والمدينة يتولى شئونها (الملك) وتتبعها عادة عدة مدن صغرى و(حلال).

وعادة تكون وظيفة (الشيخ) أو (الملك) وراثية فى بيت أو أسرة معينة – مثل أسرة الملك (نمر) فى (شندى).

وللملـــك نصـــيبه من (المكوس) على القوافل، وهناك مراسيم خاصة لابد من اتباعها عند تقليد (المشيخة) أو (الملوكية) للزعيم المحلى.

وأهم المشيخات التى تتبع دولة الفونج:

مشيخة العابد لاب : من حجر العسل إلى سوبا (بين أربجى والشلال الثالث).
مشيخة خشم البحر : على النيل الأزرق الشرقى بين الرصيرص وفازوغلى.
بنى عامر : فى الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور (بركة).
الحلانقة : فى جبل كسلا على القاش.
السنابلة : على النيل الأزرق شمال سنار.
الجعليين : بين حجر العسل والدامر ومركزهم شندى.
الميرفاب : فى شمال الجعليين (مركزهم بربر).
الرباطاب : فيما وراء أبى حمد.
المناصير : من الشامخية إلى الجندل الرابع.
الشايقية : يسكنون حول دنقلة.

ترتيـــب ســـلاطين ســـنار: اختلفت المراجع فى ترتيب هؤلاء السلاطين ومدد حكمهم – فقد ذكر (بروس) جدولاً بأسماء بعض هؤلاء السلاطين ابتداءًا من السلطان عميره (عماره) بن عدلان الذى ذكر أنه حكم ثلاثين عامًا (١٥٠٥-١٥٣٤)[١].

على أن (ودضيف الله) ذكر فى طبقاته قائمة أخرى شملت عددًا آخرًا إذ كانت وفاته فى عام ١٨٠٩.

وقد ذكر (كايو) فى رحلته التى نُشرت (١٨٢٦) قائمة شاملة لهؤلاء السلاطين حســب تقديـــره، وكذلك يحوى مخطوط كاتب الشونة قائمة لهؤلاء السلاطين، وقد نشـــر الأســـتاذ الشاطر بصيلى جدولاً مقارنًا بهؤلاء السلاطين حسبما جاء فى هذه الروايات المختلفة[٢].

العوامل التى أدت لتقويض أركان السلطنة:

انتهـــت ســـلطنة الفونج بتنازل السلطان (بادى) آخر سلاطينهم عن ملكه يوم دخـــول الحملة التى أرسلها محمد على إلى السودان بقيادة ابنه (إسماعيل) فوصلت إلـــى عاصـــمة الفونج حيث وقع السلطان الوثيقة التى اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى وتسليمه إدارة البلاد إلى والى مصر.

١– كتب (بروس) هذه القائمة بأسماء السلاطين حوالى سنة ١٧٧٢ ولذلك لم تشمل إلا تسعة عشر سلطانا.

٢– الشاطر بصيلى عبد الجليل: معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ١٠٢.

لكـن لاشـك فـى أن عوامل الانحلال والفساد كانت تدب من مدة طويلة فى ربوع السلطنة لأسباب نذكر منها:

١- لم يهتم السلاطين بعملية الصهر الكاملة للعناصر المختلفة المتحالفة ضمن هذا النظام العجيب - فكان الوضع أشبه بالنظام الاقطاعى، وكان ولاء الأفراد والقبائل لشيوخهم أكثر منه لأى فرد آخر بعيد عنهم.

٢- ترتب على نظام جباية الضرائب وتدرج الإلتزامات المالية أن أثقل كأهل القبائل والعشائر وظهر ذلك العبء بوضوح حين أصيبت البلاد بحالة من الكساد بسبب الحروب بين العثمانيين والأوربيين، وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ونزول الأوربيين لساحل أفريقيا الغربى وإنشائهم للنقط التجارية وتوغلهم فى الداخل.

٣- كثرت الفتن والإضطرابات فى مملكة الفونج فى أيام (بادى أبو شلوح)، فانقلب الجيش على السلطان وأرغمه على التنازل عن العرش وانتقلت السلطة إلى يد الوزراء الذين عرفوا باسم الهمق (الهمج)، فأصبح بقاء السلطان على عرشه رهن برضاء الوزراء عليه وأدى هذا لاستمرار الحروب بين المتنازعين ولاضطراب الأمن وتعطل التجارة، مما أدى لهجرة كثيرين إلى دارفور والحجاز ومصر - وقد شجع نظام ولاية العرش على التشاحن خاصة بعد أن ضعف السلاطين وأسرفوا فى حياة الترف والملذات.

٤- زاد من عوامل الاضطراب أن مورد الثروة الرئيسية كان (التجارة فى الرقيق) وكانت هذه التجارة يترتب عليها الكثير من حوادث النهب والحروب والسرقة - وقد أشار الرحالة جيمس بروس إلى أن الرعايا كانوا يتحدثون بازدراء عن ملوكهم وأن، النزاع على السلطة انحصر فى الوزراء.

٥- قيام سلطات دينية متعددة فى البلاد زاد الأمور تعقيدًا فقد عمد الفقهاء إلى إشاعة روح التعصب والتنافس وتحول الكثير من هؤلاء إلى كسب المال.

٦- الحروب الطاحنة التى قامت بين سلطنة الفونج وإثيوبيا فى عام (١٦٠٤) أيام السلطان (عبد القادر) أدت لضعف سلطنة الفونج حتى أن (الشايقية) وهى إحدى المشيخات التابعة للفونج استطاعت الخروج على السلطنة والاتفاق مع سلطنة الفور ضدها، وقد وصل الأمر فى بداية القرن التاسع عشر أن امتنعت عدة قبائل عن دفع الجزية منها (الشايقية) الذين استقلوا بحكم الشمال كما استقلت بلدان (كالدامر)، و(شندى) واحتد النزاع بين إثنين من الوزراء هما (عدلان) و(حسن رجب) وأضافت كل هذه مزيدًا من أسباب الاضطرابات.

هذا وقد أشار الرحالة (بوركهارت) إلى الاضطرابات والقلاقل التى لمسها فى الأماكن التى زارها وأشار إلى أن الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا وذكرنا أنه يشير إلى ضرورة تدخل دولة أوربية لتضع حدًا لهذه الاضطرابات.

٢- سلطنة الفور فى (دارفور) :

هــذه السلطنة قديمة ترجع فى الأصل إلى العرب الذين وفدوا للسودان الغربى مــن مــراكش، وتونــس، ومصر – فقد تغلبوا على القبائل التى تقطن الصحراء ونشــروا نفوذهــم علــيها وامتزجوا بها وأنشأوا دولة جديدة فى (دارفور) – وقد وجــدت فــى شــمال جــبال (مــره) بعض آثار هذه الدولة ويبدو أن الأحجار قد أســتخدمت فى البناء فى هذه الجهات – وقد أدت الحروب المتتالية إلى ضعف هذه الدولة وإنهيارها.

ويُــرجع الدكتور (حسن محمود) أن الموجات – التى اندفعت إلى دارفور فى القرن الثانى عشر والثالث عشر من المغرب غبر المسالك الصحراوية التى تنحدر مــن طرابلس نحو الجنوب، من البربر المعروفين (بالطنجور) (Tungari) الذين اندفعوا للجنوب تحت ضغط قبائل العرب الهلالية واندمجوا فى العناصر الموجودة أصلاً فى هذه الجهات وصاهروهم ونتج عن ذلك الاختلاط عنصر جديد هو شعب (الفــور)، وبالطــبع وصل الإسلام لهذه البلاد مع البربر الوافدين. على أن ظهور (ســلطنة الفــور) بصورة أوضح كان متوقفًا على عمق التيار الإسلامى فلم تظهر ســلطنة الفــور كســلطنة قويــة مهيبة الجانب إلا بعد أن صُبغت البلاد بالصبغة الإسلامية الواضحة وقد تم ذلك فى عهد السلطان (سليمان سولون)[١].

فقد استطاع (سليمان سولون) أن يعيد بناء هذه الدولة، ثم حكم البلاد أبناؤه من بعــده فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد بلغت دارفور فى هذه الفترة أوج عضمتها[٢].

وهــناك قصــة متواترة ترجع بأصل الفور إلى سلالة (بنى العباس) فيقال أن شقيقين من العباسيين كانا ممن هاجر إلى هذه المنطقة بعد زوال سلطان العباسيين، وحــدث بينهما خلاف ففر أحدهما إلى جبل (مره) فى دارفور وتزوج من ابنة ملك

١- د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا جــ١، ص٣٢٤.

٢- اختلفت المراجع فى تحديد فترة حكم (سليمان سولون) اختلافًا بيّنًا فبينما تذكر بعض المراجع أنه حكم (١٦٤٠-١٦٧٠) – فإن البعض يرجع بمدة حكمه إلى (١٥٩٦-١٦٣٧) بينما يذهب نعوم شقير إلى أنه حكم فى الفترة (١٤٤٠-١٤٧٦) – انظر: نعوم شقير جــ٢، ص١١٣.

زنجى كان يحكم فى هذه المنطقة وأنه أنجب أبنًا هو (سليمان صولون) الذى خلف جده والذى يعتبر المؤسس لسلطنة الفور.

ومما يرجح هذه القصة أن (الفاشر) لم تصبح عاصمة لهذه الدولة إلا فى أيام (السلطان عبد الرحمن) (١٧٨٥-١٨٠٣) ويبدو أن انتقل إلى هذه المدينة لما لها من مركز ممتاز كنقطة تجارية هامة فى طريق القوافل مع مصر المعروف (بدرب الأربعين).

ومن الذين زاروا هذه البلاد الرحالة (محمد بن السيد عمر التونسى) صاحب كتاب تشحيذ الأذهان لسيرة بلاد العرب والسودان الذى نشره الأستاذان خليل عساكر، ومصطفى محمد مسعد، فقد زار (دارفور) فى عام ١٨٠٣ وبقى بها نحو سبع سنوات ونصف وانتقل منها إلى (واداى) فى الغرب. وقد تحدثنا عن هذا الرحالة فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

ومن رحلة التونسى نعرف مقومات تلك السلطنة القديمة التى قامت فى دافور والتى استمرت كما سنذكر - حتى (١٨٧٥) حين فتحها الزبير رحمت أحد تجار الرقيق والعاج فى السودان وقدمها هدية للخديو إسماعيل فحمل الباقون من أمرائها وأسرتها الحاكمة السابقة لمصر حيث سكنوا فيها وقررت لهم الحكومة معاشًا ثابتًا[١].

والحقيقة أن سلطنة دارفور تُعطينا صورة لما ذكرناه عن السلطنات السودانية من حيث غرابة تكوينها وعقائدها فهى تجمع عناصر من الزنوج وعناصر عربية وتتمثل فيها تقاليد مختلفة بعضها عربى وبعضها يتصل بالتقاليد الزنجية السابقة.

وقد اختلف المؤرخون فى ترتيب سلاطين الفور الأوائل ومدد حكمهم.

أهم هؤلاء السلاطين الذين ذكرهم التونسى خلاف مؤسس الدولة (سليمان سلون):

السلطان أحمد بكر: (١٦٨٢-١٧٢٢) وقد اشتهر بمجهوداته لنشر الإسلام فبنى المسجد وشجع الفقهاء ورجال الدين.

السلطان تراب: حكم من (١٧٦٨-١٧٨٧) وقد غزا كردفان ومد حدود دولته للنيل شرقا و(واداى) غربًا وبحر الغزال جنوبًا - وقد كانت (أسرة المسبعات) وسلطانها (هاشم المسبعاوى) تسكن فى كردفان بالقرب من حدود دارفور -

---

١- على أن السلطة عادت لسلاطين دارفور فيما بعد، وآخر سلاطينهم هو السلطان على دينار (١٨٩٦-١٩١٦) وسنتعرض لظروف هذا الحادث فى حينه.

وقد ذكر التونسى أنه رغم صلة العمومة بينهما فقد حصلت معارك عدة بين السلطان (هاشم) والسلطان (تراب) - وكانت الحرب المستمرة بين (سلطنة المسبعات) فى كردفان وبين سلاطين الفور من جهة، وسلاطين الفونج من جهة أخرى سببًا فى ضعف قوة كردفان فوقعت أخيرًا فى قبضة (الفور).

السلطان عبد الرحمن: لُقب (بالرشيد)، وفى عهده نُقلت العاصمة إلى (الفاشر)، وقد حدث بُعد فتح الفرنسيين لمصر (١٧٩٨) أن هرب عدد كبير من المماليك إلى دارفور وقد كتب (الرشيد) إلى بونابرت خطاب تهنئة بفتح مصر والقضاء على سلطة المماليك بها.

ويذكر التونسى أن (عبد الرحمن الرشيد) سلطان دارفور أمر والده الشيخ عمر التونسى بأن يكتب شرحًا لبعض كتب علماء المسلمين فكتب شرحًا عظيمًا سماه (الدرة الوفية على الخصائص المحمدية) - ويدل هذا بالطبع على انتشار الثقافة العربية والإسلامية فى هذه السلطنة الإسلامية وعلى اهتمام سلاطينها بتشجيع العلماء.

وقد أشار التونسى أيضًا إلى نزوح عدد كبير من المماليك إلى (دارفور) وذكر حادثة طريفة فقد ذكر - أنه لما دخل الفرنسيون مصر وهرب المماليك من وجههم توجه إلى دارفور منهم كاشف يسمى (زاونه كاشف) من مماليك مراد بك وأن هذا المملوك دبر مؤامرة لخلع السلطان عبد الرحمن لكن السلطان أكتشف المؤامرة وأحبطها[1].

هذا وقد اتصل السلطان عبد الرحمن بالسلطان العثمانى وحصل منه على اعتراف بسيادته ومُنح لقب (الرشيد)[2] وكان يرسل كل عام كمية من الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد لمصر لتباع وترسل أثمانها إلى (جدة) فى الحجاز مع ركب الحجاج المصريين.

محمد الفضل: كان سلطانًا فى عهد محمد على وقد أرسل إليه محمد على سنة (١٨٢٢) يدعوه للخضوع له فرد بكتاب طويل يرفض فيه هذا الخضوع، وقد أشار (بيرون) فى مقدمة الترجمة الفرنسية لرحلة التونسى إلى مشروع محمد

١- هذا خطأ من التونسى لأن (زاونه كاشف) ذهب لدارفور سنة ١٧٩٦ قبل حملة بونابرت على مصر ولم يكن من المماليك لكنه كان يونانيًا يعمل فى خدمة مراد بك - انظر التونسى: نشر د. محمود عساكر، د. مصطفى مسعد ص ١٧٨- ومحاضرات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٦٧/٦٨ ص ٧٣.

٢- نعوم شقير جـ٢، ص ١٢١.

على فتح دارفور - وفى عهده تم اخضاع (واداى) لسلطنة دارفور وكانت واداى تدفع ضريبة سنوية لسلطان دارفور.

محمد حسين بن فضل: عاصر سعيد وإسماعيل وقد اهداه سعيد مركبة ذات جوادين - كما تبادل مع إسماعيل بعض الهدايا.

السلطان إبراهيم: آخر سلاطين الفور (١٨٧٥) انتصر عليه الزبير رحمت فى بلدة منواشى فى (٢٤ أكتوبر ١٨٧٥) وأرسل بقية أمراء الفور إلى القاهرة حيث أسكنوا سوق السلاح.

وفى أثناء الحركة المهدية حاول بعض الأمراء الباقين من هذه الأسرة استرداد الحكم ففشلوا.

وقد استطاع الأمير (على دينار) بن الأمير زكريا بن السلطان محمد الفضل أن يستخلص دارفور من يد الدراويش بعد واقعة (أم درمان).

وكتب (على دينار) إلى السردار بالطاعة وأنه يحكم البلاد على جزية يدفعها لحكومة السودان - وأسس حكومة فى دارفور على مثال سلطنة أجداده، وقد بقى هذا الوضع قائمًا بعد أن اعترفت حكومة السودان رسميًا بسلطنة على (دينار) فى سنة ١٩٠٠ إلى أن انتهز على دينار فرصة الحرب العالمية الأولى - فنبذ ولاءه للحكومة تحت تأثير الأتراك والسنوسيين فى سنة ١٩١٦ فقبضت عليه جيوش الحكومة وأصبحت دارفور مديرية عادية تابعة لحكومة السودان.

نظام الحكم فى سلطنة الفور :

١- السلطان - سلطته مطلقة فكما قال التونسى .. "لملكهم السلطة التامة عليهم فإذا قتل منهم ألوفا لا يسأل لماذا؟ وإن عزل ذا منصب لا يسأل لماذا؟ - فهو تام التصرف فى كل أمر يريده، وإذا أمر بأمر لا يراجع فيه ولو كان منكرًا إلا من قبيل الشفاعة، ولا ترد له كلمة - والحكم وراثى فى أكبر أبناء السلطان.

وكان للسلطان زوجات كثيرات لكن كان للملكة الأم المركز الأول.

ويلبس السلطان قميصًا مذهبًا وشالاً من الكشمير وعلى رأسه تاج من الذهب وعلى جانبه الأيسر سيف ذو مقبض ذهبى.

٢- وكانت دولتهم مقسمة إلى أربعة وعشرين قسمًا على كل قسم رئيس يُعرف (بالملك) له حاشيته وحرسه.

وكان هؤلاء المكوك يتولون سلطتهم بإذن من السلطان، وقد يرث الملك ابنه إذا مات ويدفع للسلطان جزية معينة.

٣- والأرض ملك للسلطان لكنه يعطيها للمشايخ والأمراء (المكوك) نظير الجزية السنوية والعشور.
٤- ويعاون السلطان فى الحكم (الوزير)، يعينه السلطان ويقيله متى شاء.
كما كان هناك مجلس للسلطان يستشيره فى مهام شئون الدولة.
٥- وهناك وظائف أخرى متعددة يطلقون عليها أسماء غريبة، ومن الموظفين من يختص بتحديد الضرائب وجمعها للمخازن الملكية، ومنهم المختص بعبيد السلطان وهناك من يختص بالتفتيش على القبائل - وهكذا لكل وجه من وجوه الإدارة فى الدولة موظفون مختصون به ولم يكن يتقاضى الموظفون مرتبات لكن كانت لكل منهم أرض باسمه له إيرادها - كما يُمنح بعض الخيول والسلاح، والجنود والملابس له ولأتباعه.

الديـــن :

الإســـلام ديـــن الدولة والأهالى، ولكن إلمامهم بالدين كان سطحيًا وكانت لهم أعياد خاصة غير الأعياد الإسلامية، والسلطان يخرج للعيد فى موكب حافل ويحف بـــه رجال الحرس الخاص بحرابهم، وكان يرسل كل عام (صرة) ومحملاً إلى مكة عـــن طريق مصر مع كميات من الريش والصمغ والرقيق تباع فى القاهرة ويوزع ثمـــنها علـــى فقـــراء الحجـــاز، وكان بأسيوط (قائم بأعمال السلطان) لقضاء هذه الحاجات.

ورغـــم أن المـــرجع الأول فى القانون هو الشريعة - لكن كانت هناك تقاليد وعادات إلى جانب ذلك لها سلطة القانون، وقد جمعت كلها فى كتاب واحد، ويقوم بتنفـــيذ القانون (القائم)، وكان بعض سلاطينهم يرسلون أبناءهم للأزهر طلبًا للعلم، وكان لهم رواق خاص بالأزهر يسمى (رواق دارفور).

وقد اشتهر عن بعض سلاطين الفور تشجيعهم للعلماء، وقد أشار التونسى إلى أن الســـلطان (عبد الرحمن الرشيد) لما اشتهر فضله وعدله وحبه للعلماء وفد عليه الأشراف والعلماء، وكان والده من هؤلاء الوافدين، ثم ذكر أسماء عدد من الشيوخ مـــن مصـــر ومن مكة وفدوا لسلطنة دارفور وكانوا يعقدون حلقات العلم فيفد إليهم الناس ليُثقفوا وليعوا أمر دينهم.. وقال التونسى إن الفقيه فى دارفور كانت له أعلى منزلة بعد رجال السلطان[1].

١- التونسى: تشحيذ الأذهان ص ٥٥.

وقــد أشار برون (Browne) الذى زار دارفور قبل ذلك إلى أن العلماء كان لهم مركز ممتاز عند السلطان عبد الرحمن الرشيد[١].

الحالة الاقتصادية :

بعــض ســكان دارفور رحل يرعون إبلهم ومواشيهم (الزغاوة فى الشمال). والــبعض يزرعون الأرض، وقد ذكر التونسى أن أرضهم الزراعية كريف مصر من أخصب الأراضى، والآبار هى مصدر مائهم.

وقــد زرعــوا الخضــروات، القطن، القمح، الدخن، الذرة، السمسم - وكان السلطان يفتتح موسم الزراعة بأن يخرج لمزرعته الخاصة فى موكب خاص وذلك إيذانًا بافتتاح الموسم.

ولم يكن لديهم صناعة بل يستوردون ما يحتاجون إليه من أقمشة وحلى وكانت لهم (أسواق) أسبوعية فى مختلف البلاد.

ودخل السلطان من:

أ - العشور - عشر ما يباع فى الأسواق (فى الحضر).

ب- الزكاة فى البادية.

ج- الجزية السنوية - يدفعها المشايخ (المكوك) من محصولات أراضيهم.

التجارة الخارجية :

كانــت لهــم تجارة واسعة مع مصر فيرسلون لها: الشطة، الكمون، الكزبرة، ريش النعام، وسن الفيل والرقيق.

ويستوردون: المصنوعات المختلفة من أقمشة وعطور وحلى.

كما يستوردون من الهند: العطور، والمحلب.

جيش السلطان :

مــن الرقــيق الذيــن يحاربون فى مقابل الغنيمة التى تُوزع عليهم - ومعظم الجــنود مــن الفرسان وسلاحهم السيوف، وقد استخدموا بعض البنادق القديمة التى أستوردت من مصر.

وكــان الســلطان وكبار رجال الجيش يلبسون تحت ثيابهم دروعًا من الصلب تقيهم من السهام.

١- زار (برون) دارفور سنة ١٧٩٣ وقضى بها ثلاثة أعوام كاملة - انظر ما ذكرناه عنه سابقًا فى هذا الكتاب.

وانظر Browne: Travels in Africa, Egypt & Syria P. 240.

اللغة :

لهم عدة لهجات لكنهم يكتبون كتبهم بالعربية التى كانت لغة الخاصة.

٣- سلطنة تقلى :

تقع غرب النيل الأبيض، وجنوب كردفان، والمنطقة جبلية لكن تتخللها وديان خصبة والسكان فى الأصل من الزنوج لكنهم اختلطوا بالدم العربى.

فالأساطير تذكر أنه فى أوائل القرن السادس عشر وفد إلى (تقلى) الشيخ (محمد الجعلى) من الجعليين الموجودين على النيل قرب مصب العطبرة، واستقر وتزوج إبنة زعيم (تقلى) فولدت له ولدًا سُمى (أبو جريده) ورث السلطنة عن جده، ويعتبر هو المؤسس للأسرة التى ظل سلاطينها يتعاقبون على عرش تقلى حتى بداية القرن العشرين.

وبنى (أبو جريدة) مسجدًا وعمل لنشر الإسلام بين شعبه، وشجع المسلمين بين مختلف البلاد العربية على الهجرة لبلاده والاستقرار بها بالإضافة لتشجيع التجارة بين بلاده ومختلف البلاد الإسلامية.

وقد كان مركز (سلطنة تقلى) دقيقًا بحكم موقعها الجغرافى بين سلطنتى (سنار) و(دارفور)، وحاول سلطان سنار أن يكسب ود سلطنة تقلى ليعمل الإثنان على الحد من نفوذ الفور فزوج (السلطان رباط) إبنته من ملك تقلى المدعو ابوقرون (١٦٤٠-١٦٦٨)، ولكن هذه الصداقة القائمة على المصاهرة لم تدم طويلا إذ أن سلاطنة الفور كانوا يعملون جاهدين لمد سلطانهم إلى حوض النيل فسعوا للتقرب إلى سلاطين تقلى، كما تقربوا إلى قبائل (الشايقية) الذين يتحكمون فى طريق القوافل إلى البحر الأحمر، وتدل الوثائق على أن سلاطين الفور كانوا يرسلون الهدايا للمساهمة فى إقامة المساجد وعمارتها وإطعام المساكين فى هذه الجهات[١].

وقد عمد سلاطين تقلى إلى تحصين بلادهم فأقاموا القلاع فى (تاس) وغيرها من الأماكن الهامة.

نظام الحكم فى سلطنة تقلى :

السلطان: يتمتع بنفوذ مطلق وفى يده تتركز جميع السلطات، ويلبس السلطان طاقية ذات قرون تشبهًا بملوك الفونج، ويعاونه فى الحكم موظف كبير مسئول عن اخضاع القبائل الجنوبية وجمع الضرائب منها، وآخر مسئول عن قبائل الشمال.

١- انظر - الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل ص ٨١.

الوزير: يعاون السلطان فى شئون الحكم.
القاضى: المسئول عن شئون الشريعة.
وكان يتبع السلطنة عدد من (المكوك) يؤدون لها الجزية السنوية.

علاقة سلطنة تقلى بالإدارة المصرية فى السودان:

لما دخلت الجيوش المصرية السودان وقضت على سلطنة الفونج أرسل محمد على رسالة إلى (عمر بن أبو بكر) يدعوه للإعتراف بسلطان مصر على بلاده لكنه رفض ذلك – وفى عهد حكمدارية أحمد خورشيد باشا للسودان (١٨٢٦-١٨٣٧) أرسلت حملة إلى تقلى وعُقدت معاهدة صداقة من السلطان.

وفى (١٨٤٣) حدث خلاف بين المتنافسين على عرش سلطنة تقلى وفر أحد المطالبين بالعرش وهو (ناصر بن أبو بكر) للخرطوم يلتمس المساعدة فى العودة إلى السلطنة نظير اعترافه بسلطة مصر عليه ودفع جزية سنوية من العبيد والعاج، فأرسلت حملة مصرية مكنته من الوصول لعرشه لكن حين أصبح مركزه قويًا نقض اتفاقه.

وقد رفض السلطان آدم دابلو (١٨٥٤-١٨٨٤) الاعتراف بسلطان مصر على بلاده، ونقل عاصمته إلى (كوبيه) التى أخذت تتسع ويدب فيها العمران حتى أصبحت سوقًا تجاريًا هامًا للرقيق وسن الفيل، وظل (آدم دابلو) يعمل لتقوية سلطنته حتى قامت الثورة المهدية فى السودان، وظل فترة مترددًا فى الانضمام تحت لواء المهدى حتى استولى المهدى على (الأبيض) فسار إليه (آدم دابلو) مع بعض رجاله وثروته ليعلن ولاءه له، لكن المهدى قبض عليه وسجنه وقتل بعض أتباعه ومات (آدم دابلو) فى السجن.

وظلت الأمور مضطربة فى تقلى وأبناء (آدم دابلو) يتنازعون على السلطان حتى أرسل التعايشى سنة (١٨٨٧) حملة نهبت البلاد وضربتها وقتلت الآلاف من سكانها – وقد عادت سلطنة تقلى لمكانتها بعد استرداد السودان، وأعلن السلطان خضوعه للإدارة الجديدة فعين مأمورًا لإدارة سلطنة هذه البلاد باعتبارها جزءً من مديرية كردفان.

الحالة الاقتصادية :

يعتمد اقتصادها على التجارة – فنشأ بها مركز تجارى هام يتاجر فى سن الفيل والرقيق بنوع خاص – وكانت البضائع تتجمع ثم ترسل للخرطوم عن طريق (الأبيض) – وقد أثرى الشعب والسلطان من هذه التجارة – وعُثر على الذهب فى جبال (النوبا) وقامت الدولة باستغلاله خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

كما يقوم بعض الأهالى بالزراعة فى الوديان الخصبة.

الديـــن :

الإسلام، وكنت فى كل قرية زاوية تجمع بين المدرسة والمسجد.

ثانياً: سلطة الكشاف بالنوبة

رأيـــنا كـــيف قامـــت مملكة النوبة القديمة وكيف دب الضعف فى هذه الدولة وذكـــرنا أن سلاطين الفونج استطاعوا أن يمدوا سلطانهم ما بين (وادى حلفا) ونـهر الســوباط، لكن المنطقة ما بين (أسوان) و(وادى حلفا) كانت مثارًا للفوضى ومرتعًا لـــتجار الرقـــيق - فلمـــا فتح السلطان سليم مصر أرسل أحد قواده المدعو (حسن قوســـى) مـــع بعض الجنود العثمانيين لغزو النوبة ففتحها وعُين حاكم مستقل على الـــنوبة حـــتى الشلال الثالث، وتولت ذريته حكم النوبة من بعده، وكانت عاصمتهم (الدر)، وحصن الجنود الأتراك القلاع لحماية هذه البلاد.

ولقـــب الأتراك الذين حكموا هذه الجهات باسم (الكشاف)، واستعانوا بالفرسان وبفرق من العبيد لتدعيم سلطانهم فى هذا الأقليم كما عينوا منهم (قضاة) للفصل بين الناس مقابل أجر يدفع لهم.

وكـــان من نتيجة ظلم هؤلاء الكشاف للناس بالإضافة لفقر هذه البلاد وضيق الـــرقعة الزراعية أن تفشى الفقر بين السكان، هذا بالإضافة لكثرة النزاع بين أفراد البيـــت الحـــاكم على السلطة مما أدى فى كثير من الأحيان إلى الاتفاق على تقسيم المنطقة لمناطق نفوذ بين الحكام المتنافسين.

وكانـــت لـــبلاد الـــنوبة تجارة مع مصر فترسل لمصر البلح الرقيق وتستورد الحـــبوب والأقمشة كما كان الكشاف يتقاضون ضرائب على التجارة المصرية التى تخـــترق إقلـــيم الـــنوبة فى طريقها إلى سلطنة سنار - وكانت هذه التجارة تتعرض للنهـــب فـــى الطـــريق خاصـــة فى الأوقات التى يضطرب فيها حبل الأمن بسبب المـــنازعات فى بلاد النوبة وبسبب سوء حالة السكان مما يضطرهم لمحاولة نهب القوافل أو التجار المارين بمناطقهم.

ولمـــا حدثت (مذبحة القلعة) فى عهد محمد على هرب عدد كبير من المماليك إلـــى الجنوب ووصلوا حتى دنقله وقد أشار الرحالة (بوركهارت) إلى هؤلاء وإلى أنهـــم ســـببوا قلقلـــة وفوضى فى هذه المنطقة فقد قطعوا طريق التجارة وأصبحوا ينهبون المتاجر ويعيثون فى هذه البقعة فسادًا.

ثالثا: الوضع فى السودان الجنوبى وأعالى النيل

هـذا عـن وضـع السودان الشمالى، أما فى الجنوب فقد كانت توجد القبائل الزنجـية، وكـان لبعضها من السلطة والاستقرار حتى كان لها نظام يشبه النظام الملكـى المـتوارث (كمـا عند الشلوك) المقيمين عند أعالى النيل الأبيض والجزء الأدنى من السوباط – كما أن لها تقاليدها التى تتحكم فى مختلف مواطن النشاط فى المجتمع.

ومن القبائل الهامة الأخرى بأعالى النيل:

النوير: ويسكنون منطقة السدود وفى السهول المحيطة بها فى منطقة (بحر الجبل الأدنى).

البارى: يسكنون شرق وغرب النيل بأعالى بحر الجبل.

الدنكا : يسكنون فى المنطقة بين البارى والنوير وتمتد فروع منهم غربًا حتى تشمل بحر الغزال.

ونشـير هنا إلى أن الأقاليم الجنوبية من السودان كان لكبار الرقيق فيها سلطة ونفـوذ تقرب من سلطات الحكومات، فقد كانت تحت إمرتهم قوات ضخمة مسلحة يسـتطيعون بها اقتناص الرقيق أو حماية (زرايبهم) ومخازنهم، وكانت لهم السلطة على التجارة المارة بأقاليمهم.

وكـان التجار الأقل منهم قوة أو سلطة يسترضونهم حتى لا تتعرض تجارتهم المارة للنهب وذلك بدفع مكوس أو ضرائب محددة.

ويمكن إذًا أن نُعطى صورة عامة لملامح السودان قبل امتداد الإدارة المصرية إليه فى عام (١٨٢٠) حيث كانت هناك **سلطنات متعددة** تتمثل فى:

١- سلطنة الفونج: وما يتبعها من ممالك أصغر ومشيخات، يمتد سلطانها من الشلال الثالث إلى (جبال فازوغلى) – ومركزها (سنار).

٢- سلطنة الفور: فى دارفور وسلطنة الفونج وسلطنة الفور سلطنتان عربيتان – وترجع الأولى لقوم يقال أنهم من بنى أميه – والثانية لجماعة يقال أنهم من سلالة العباسيين.

٣- سلطنة تقلى: جنوبى كردفان فى منطقة (جبال النوبا).

٤- سلطة (الكشاف الاتراك): فى المنطقة فيما بين أسوان ووادى حلفا منذ فتح السلطان سليم مصر، وكانت هذه المنطقة قُبيل الفتح المصرى قد تعرضت لعوامل اضطراب جديدة بانتقال المماليك الفارين من مصر إليها.

٥- فى السودان الجنوبى وأعالى النيل: توجد قبائل بعضها لها من النظام والإدارة والسلطة مالا يقل عن سلطة الممالك الأخرى (مثل الشلوك) ومن أهم هذه القبائل النوير، والبارى، والدنكا.

٦- هذا بالإضافة لسلطة كبار تجار الرقيق وقد كانت تحت إمرتهم من القوات المسلحة ما يجعل لهم النفرذ المطلق فى أقاليمهم.

الفصل الثانى
امتداد الإدارة المصرية للسودان
فى عهد محمد على (١٨٢٠-١٨٤٨)

- العوامل التى دفعت محمد على لمد إداراته للسودان.
- عوامل كانت تدعو للتردد..
- العوامل التى رجحت كفة التدخل.
- العوامـــل الـــتى جعلت من المتعذر الاستمرار فى حاله الركود فى البحر الأحمر.
- العوامل الرئيسية والعوامل الثانوية لتحرك محمد على.
- حوادث الفتح في سنار وكردفان.
- الإدارة المصرية فى السودان فى عهد محمد على.
- العوامل التى عاقت حدوث تغير كامل فى السودان.
- محاولة تكوين جيش من السودانيين.
- التنظيم الاقتنصادى.
- حكام السودان فى عهد محمد على.
- رحلة محمد على للسودان وما ترتب عليها من متغيرات وانجازات.



الفصل الثانى
امتداد الإدارة المصرية للسودان
فى عهد محمد على (١٨٢٠-١٨٤٨)

العوامل التى دفعت محمد على لمد إدارته للسودان

يُصور بعض الكتاب ما حدث من إمتداد الإدارة المصرية فى عام (١٨٢٠) للسودان، أى امتداد حكومة محمد على للأراضى الواقعة فيما وراء حدود الولاية المصرية العثمانية، بأنه عملية فتح إستعمارى من نوع التوسع الإستعمارى الذى ساد فى القرون الحديثة، أى من نفس حركات الإمتداد التى قام بها الأوروبيون فى القرن التاسع عشر- والواقع أن هذا التصور بعيد كل البعد عن الحقيقة- والخطأ فى هذه الفكرة راجع إلى أننا نُصور الأمور فى ذلك الوقت من وجهة نظرنا اليوم، فنحن نضع الرجل وعصره فى موضعنا الحاضر ونُجرى فى ذهنه ما يجرى فى أذهاننا.

عوامل تدعو للتردد قبل الأقدام على مد إدارة محمد على للسودان:

وقبل أن نتحدث عن العوامل التى دفعت (محمد على) للإقدام على مد إدارته للسودان – نُشير إلى أنه كانت هناك عوامل تدعوه للتردد قبل أن يُورط نفسه فى عمليات حربية فى السودان – نذكر من هذه العوامل:

١- عوامل طبيعية – فمحمد على كان يُدرك أن مشاكله التى سُيواجهها ستكون أولاً وقبل كل شيء مع الطبيعة أكثر منها مع المحاربين أنفسهم- فالجنادل التى تعترض مجرى النهر حتى قُرب التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق تُمثل عقبة حقيقية- كذلك طبيعية هذه المناطق كانت تتطلب أن يَلزم الجيش شاطئ النهر باستمرار وإلا مات الجنود عطشاً فى الطريق.

٢- عوامل خارجية- كان على (محمد على) أن يعمل حساب معارضة (انجلترا) بالذات لمشروعاته فى السودان، فإنجلترا – منذ حملة (بونابرت) على مصر بدأت تُدرك أكثر من ذى قبل – أهمية البحر الأحمر لها، وبدأت ترسم سياستها على أساس هذا الإدراك، ومن ذلك مثلاً أنها بدأت تحاول الحصول على امتيازات لها فى موانئ البحر الأحمر والموانئ المؤدية لهذا البحر، كما أخذت تُرسل البعوث لإمبراطور إثيوبياً لعقد تحالف معه.

ويرتبط بهذه النقطة نظرة إنجلترا لمحمد على، فقد كان منظورًا إليه فى لندن باعتباره حليفاً للفرنسيين أعداء الإنجليز فى ذلك الوقت، وإن كانت القوة الفرنسية التى كان على رأسها (بونابرت) قد هُزمت فى ذلك الوقت (فى سنة ١٨٢٠)، وكان بونابرت نفسه مُعتقلاً فى منفاه فى جزيرة (سنت هيلانة) - لكن لا شك فى أن الخوف من إمتداد النفوذ الفرنسى للشرق الأدنى كان من أسس السياسة الإنجليزية فى ذلك الوقت - وكان محمد على يُدرك ذلك، بل سنرى أن الإهتمام بشئون البحر الأحمر وسواحله كان من دوافع تفكير محمد على نفسه فى مد نفوذه للجنوب.

٣- عوامل داخلية- لم تكن فى السودان (الشمالى) قوة تستطيع أن تقف فى وجه جيش محمد على الزاحف من الشمال، فالمماليك المحاربون لم يكن يتجاوز عددهم الثلاثمائة، والدول الإسلامية فى السودان التى كانت تُمثل فى وقت سابق مركز القوة- كانت قد انقسمت إلى دويلات تكاد تكون مستقلة - لكن الأمر كان يُحتم أن يفكر محمد على فى الوضع لو أن هذه الدويلات التى كانت فيما مضى تابعة لدولة الفونج- اتحدت مرة أخرى لمواجهة هذا الجيش الزاحف.

لا شك فى أن هذه الإعتبارات كانت أمام محمد على وهو يفكر فى التدخل فى شئون السودان فى ذلك الوقت.

العوامل التى رجحت كفة التدخل:

العوامل التى رجحت كفة التدخل فأهمها عاملان رئيسيان رغم ما يردده الكتاب من أسباب أخرى:

١- **العامل الأول:** يتعلق بدواعى الأمن فى الولاية الأصلية (مصر).

٢- **العامل الثانى:** يتعلق بالاهتمام بشئون البحر الأحمر وسواحل هذا البحر- وهذا العامل يتصل بامتداد نفوذ محمد على إلى سواحل الحجاز.

أما عن العامل الأول:

فهو متصل بشئون الأمن فى مصر وعلى حدودها، والحقيقة أن هناك أوجه شبه كبيرة بين الأوضاع فى مصر فى الفترة التى تلت خروج الفرنسيين منها وبين الأوضاع فى السودان فى الفترة السابقة لإمتداد الإدارة المصرية إليه- ففى مصر كانت هناك فوضى تتمثل فى وجود عصبيات متفرقة: عصبية المماليك، وعصبية علماء الدين، وعصبية الموظفين، وعصبية الملتزمين. وكانت بمصر قوات

متنازعة– قوات عثمانية حضرت لإخراج الفرنسيين من مصر بالاشتراك مع الانجليز، وهذه القوات لم تكن خاضعة تمام الخضوع لقوادها ولم تكن مطيعة للأوامر الصادرة لها تمام الطاعة، هذا بالإضافة إلى أن الدولة حاولت إزالة اغتصابات أمراء المماليك للسلطان الذى كان سائداً قبل مجيء الفرنسيين ولم تفلح فى ذلك– وأمراء المماليك أنفسهم لم ينجحوا فى استعادة سلطانهم كاملاً كما كان فى الماضى.

ظهر محمد على فى وسط هذا الجو المشحون بالاضطراب والذى تكون ضحيته عادة هم (الرعية) فظنوا فيه الشخص الذى يستطيع أن يُعيد الأمر لنصابه ويقيم حكومة قوية تضع حداً لما يُعانيه الشعب نتيجة مظاهر الفوضى والظلم.

واستطاع محمد على بذلك أن يستولى على السلطة، واستطاع فعلاً أن يعمل لإزالة الاغتصابات والعصبيات المتفرقة – وأن، يقضى على العصبيات المناهضة للحكومة حتى على العصبية الشعبية التى أوصلته لكرسى الولاية.

ومن أظهر العصبيات التى قضى عليها محمد على (عصبية المماليك)، وقد مرت العلاقة بين محمد على والمماليك (من ١٨٠٥ حتى ١٨١١) فى أدوار كثيرة، فى بعضها كان هناك جنوح للصلح، لكن كان لا يدوم طويلاً، وانتهى الأمر بمحاولة استئصال تلك الطائفة بطريق الغدر باستدراجهم لاجتماع بالقلعة والفتك بهم جملة واحدة فى سنة ١٨١١.

إنما مشكلة المماليك لم تُحل فى القاهرة كلية لأن الكثيرين من أتباع الأمراء الذين لم يُلبوا الدعوة للحفلة المشئومة فى القلعة أو الذين كانوا فى الأقاليم انسحبوا للوجه القبلى، ثم للنوبة[١].

ويذكر (هيل) أن الأحوال على حدود مصر الجنوبية فى منطقة (النيل النوبى) كانت مضطربة، فهذه المنطقة لم تشهد جيشاً قوياً منذ جيش السلطان سليم الأول الذى هزم الفونج فى موقعة (حنك) عام ١٥٢٠ – وكانت سلطة سنار فى وقت محمد على فى حاله انحلال، فالمنطقة كلها من دنقلة إلى سنار كانت تخضع

١– أنظر الأمير طوسون: نهاية المماليك.

Tousson, Omer: Le fin des Mamelouks

(Bull. De l;inst. Egypt. T. IX- Caire 1927)

– وكذلك رحلة بور كهارت : عن تأثير المماليك فى أحوال التجارة والأمن فى هذه الجهات.

لسـلطات قبلية، وكثيراً ما وفد لمصر رسل من الجنوب يُزينون له تدخل مصر فى شئون هذه الجهات[١].

وقـد أضاف المماليك عاملاً جديداً لعوامل الفوضى فى هذه الجهات، فالبقية الباقـية منهم التى نجت من مذبحة القلعة هربت للجنوب وانتشرت فى المنطقة من (إسـنا) إلى (وادى حلفا)، ولكن استطاع إبراهيم باشا فى الفترة (١٨١١ - ١٨١٢) أن يُوقـع بهـم ويجْـبرهم علـى الفرار للصحراء الشرقية حيث اصطدموا بقبائل (العـبايدة) الـرعاة- لكـن من تبقى بعد هذه المآسى كلها وكان عددهم لا يتجاوز الثلـثمائة اتخـذوا طـريقهم مع نسائهم وعبيدهم صوب (دنقلة)، حيث كونوا شبه مسـتعمرة، وكـانوا فى حرب مستمرة مع الشايقية وبقوا هناك إلى أن قرر محمد على القضاء عليهم نهائياً[٢].

فهـذا الجزء من تاريخ المماليك يرتبط بانتقال نشاط محمد على لتلك الجهات المتاخمة للحدود المصرية الأصلية- لا لأن المماليك الذين لجأوا للنوبة وأقاموا مُلكاً لهـم فى (دنقلة) كانوا من القوة بحيث يستطيعون غزو مصر وإحراج مركز محمد علـى بها- لكن لأن المماليك فى دنقلة أحدثوا قلقلة شديدة فى تلك البقاع بين مصر والسـودان وكانوا أشبه شئ بالخميرة الصغيرة التى تحدث تأثيراً كبيراً فى كمية كبيرة من العجين.

فتُعقب محمد على لهم يرجع لآن وجودهم أحدث من الاضطرابات بين القبائل النوبية العربية وبين الإمارات الصغيرة فى تلك المناطق بحيث أن والى مصر وجد انـه لا بُد من التدخل ليعيد الحياة المستتبة لإقليم مهم لأنه على حدود مصر ولأنهم أصبحوا يتحكمون فى طريق التجارة بين مصر والسودان.

ونُشير إلى أن المماليك الأصليين الذين فروا لدنقلة وكونوا ما يُمكن أن نسميه (إمارة المماليك فى دنقلة) كانوا قليلين وكان على رأسهم (إبراهيم بك) الذى شارك الأمـير (مراد بك) فى حكم مصر، وقد نجا (إبراهيم بك) من مذبحة القلعة، وكان علـى رأس هذه العصابة من المماليك إسماً على الأقل، لكنه كان قد ضعف وبقى معـه من مماليكه القدماء عدد قليل- لكنهم بعد أن استقروا فى دنقله أخذوا يعملون

١- وفد لمصر عدد من السودانيين من الحكام والملوك المغلوبين على أمرهم يطلبون العون لاستعادة سلطتهم على أن يعترفوا بالتبعية لمحمد على، ومن هؤلاء (الشيخ نصر الدين) ملك بربر، والملك (إدريس واد ناصر) من سنار، و(إدريس واد عدلان) من فازوغلى و(أبومدين) من أقارب السلطان محمد الفضل سلطان دارفور و(واد هاشم) من كردفان.

2- Hill: Egypt in the Sudan (1820 1881) p. p. 7 - 8

لشـــراء العبيد ويُعدونهم للحرب، وقد أشار (بور كهارت) إلى تأثيرهم ونفوذهم فى هذه الجهات كما أشار إليه غيره من الرحالة الذين زاروا هذه الجهات مثل الرحالة جورج وادنجتون[١].

فقـــد لجـــأ المماليـــك للاستعانة بالرقيق، ولم يكن هذا غريباً عليهم فهو أساس نظـــامهم الاصـــلى، فقط فى هذه المرة يستخدمون العبيد السود لا البيض كأنفسهم، وأخـــذوا يُدربونهـــم على السلاح النارى (البندقية، الطبنجة) – ودخول هذا السلاح هـــذه المناطق وانتشاره فيها كان من العوامل التى زادت الإضطراب والقلقلة فيها، فأصـــبحت الإمـــارات الصغيرة شبة الحضرية فى مدينة (كشندى)، و(بربر)، كما أصبحت القبائل فى السودان الشرقى بين النوبة والبحر الأحمر – فى جزء من تلك القوة المملوكية التى تملك سلاحاً وتعتبر قوة هائلة بالنسبة للأحوال البدائية فى تلك الأقاليم[٢].

كمـــا أن المماليـــك لـــم يكن فى استطاعتهم الحصول على السلاح النارى إلا بالـــرجوع لـــوادى النيل، ولطرابلس، وبرقة – وعمدواً للحصول على هذا السلاح للمـــبادلة بالتجارة بالرقيق– وهكذا أحدث المماليك فى هذه المنطقة قلقلة أشار إليها (بور كهارت)، وأشار بأن الأمر لا يمكن أن يستمر هكذا طويلاً، ففى كلامه إشارة لأن تتدخل الدول الأوروبية لوضع حد لهذه الفوضى.

وقد ذكر (الآن مورهيد) إن المماليك يظهرون فى ترحالهم غير المستقر كأنما هـــم عصـــبة من الذباب تنشر الرعب فى الأقاليم وتجرده من الطعام ثم تمضى فى حال سبيلها[٣].

وممـــا يـــدل على اهتمام محمد على بالقضاء على شراذم المماليك التى فرت لدنقلـــه أنه أوفد فى عام ١٨١٣ إلى ملك سنار (بادى السادس) وفداً يطلب معاونة الســـناريين علـــى طرد فلول بكوات المماليك الذين فروا إلى السودان بعد مذبحتى القلعـــة وإســـنا عام ١٨١١ – ويذكر الأستاذ نعوم شقير أنه كانت من مهمة الوفد الوقـــوف علـــى أحوال البلاد ومعرفة مقدار قواتها الحربية وما يلزم من الجيوش لفـــتحها– وأن الوفـــد قـــدم بعد عودته من سنار تقريراً وافياً إلى الباشا وصف فيه

1- Burckhardt: Travels in Nubia p. 452

وكذلك Waddington: George: Journal of a visit to Some Parts of Ethiopia P. 254.

٢– الجبرتى : ج ٤ – ص ٣٠٥.

٣– الآن مورهيد: النيل الأزرق – ترجمة د. نظمى لوقا ص ١٩٦.

اضـطراب الأحوال فى تلك البلاد وما هى عليه من ضعف شديد يسلبها كل قدرة على المقاومة بصورة جدية[١].

ويجب أن نُشير هنا إلى أن الأمر لا يقتصر على ما أحدثه المماليك على حدود مصر الجنوبية نتيجة تفوقهم فى الإلمام بفنون الحرب وتفوقهم فى السلاح وممارستهم الطويلة لشئون الحكم- هذا رغم قلة عددهم- لكن لا شك فى أنهم كانوا يحلمون بالرجوع للقاهرة والتمتع بحياة الترف التى اعتادوها فى مصر بدلاً من شظف العيش فى دنقله، كما أن التجارة لا يمكن أن تزدهر فى جو مشحون بالاضطراب- وهذا الإهتمام بشئون الأمن فى الطريق التجارى بين مصر والسودان (درب الأربعين) يرجع لعهد الفراعنة فهو إتجاه ليس بجديد[٢].

كما أن وجود المماليك فى هذه المناطق من السودان لم يكن السبب الوحيد لما أصاب السودان من إضطراب وفوضى- وان كان هو السبب فى إضافة المزيد من الإضطراب على هذه الأقاليم المتاخمة لحدود مصر.

ومن بعد (١٨١١) أنشأ محمد على شبكة من المواقع الإدارية على امتداد النيل واستقر (إبراهيم باشا) أكبر أبناء محمد على فى أسيوط بصفته حاكماً على مصر العليا، مما أدى لإستقرار الأحوال، خاصة بعد أن قام إبراهيم باشا بهجوم حاسم على المماليك فى (إبريم) فى بلاد النوبة[٣].

وقد رأينا من دراستنا لملامح السودان قبل امتداد الإدارة المصرية إليه أن السودان – كما يقول الدكتور محمد فؤاد شكرى- أصبح نهباً موزعاً بين طغمة من مغتصبى السلطة فى سنار، وطائفة من الملوك ومشايخ العربان لا هم لهم إلا ابتزاز أموال رعاياهم والإستمتاع بلذائذ الحياة، والإغارة على قوافل الجلابين وسلب المتاجر[٤].

فصورة السودان كما صورها الرحالة الذين زاروا هذه البلاد قبيل إمتداد الإدارة المصرية قوامها بعض الممالك الإقطاعية الصغيرة وأساس هذه الممالك العرب ومن يدينون بالإسلام، وفيما عدا هذا القليل من النظام لم تكن تُوجد إلا مناطق موحشة خطرة لا يأمن الغريب على نفسه فيها.

١- نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته – ج ٣ ص ٣٤٢.

٢- أنظر – شوقى الجمل: تاريخ سودان وادى النيل ج ١.

٣- الآن مورهيد: النيل الأزرق (ترجمة نظمى لوقا) ص ١٩٦.

٤- د. شكرى الحكم المصرى فى السودان. ص ١٨.

أما عن العامل الثانى:

فممـــا لا شك فيه أن حملة محمد على لبلاد العرب وإمتداد نفوذه لهذه الجهات فتحت أمامه آفاقاً جديدة فيما يتعلق بالبحر الأحمر وأهميته.

والحقـــيقة أن أهمـــية البحر الأحمر كانت قد برزت قبل ذلك بزمن، وكان قد وضـــح بجـــلاء أن من تكون له السيادة فى البحر الأحمر يستطيع أن يُسيطر على الأماكن المقدسة فى شبه الجزيرة العربية.

علـــى أن نشـــاط الدولة العُثمانية فيما يتعلق بالبحر الأحمر والخليج العربى، والـــبحار المحيطة ببلاد العرب- بدأ فى القرن السادس عشر الميلادى (أى العاشر الهجـــرى) فـــى الأوقات التى تلت فتح العثمانيين لمصر ووصولهم لليمن- فبعد أن بســـط السلطان سليم الأول نفوذه على ملحقات السلطة المصرية فى الحجاز واليمن امـــتد ســـلطانه مـــن تلك الجهات إلى (سواكن، ومصوع)، ومن هذه السيادة نشأت ولاية أطلق عليها فى نظام الدولة العثمانية اسم (ولاية الجيش)، وهى ولاية عثمانية تمتد على الساحل بين سواكن ومصوع- ومقدار إمتداد سلطانها للداخل يتوقف على أحـــوال كثـــيرة، بالطبع لم تمتد لبلاد الحبشة لكن التسمية ترجع لأن هذه البلاد هى مخـــارج بلاد الحبش، وبحكم البعد وضآلة الموارد وبحكم أن الحامية العثمانية التى هبطـــت تلك البلاد اختلطت بالسكان ولم تُجدد - فالسلطة العثمانية فيها قائمة على الوهـــم الـــتاريخى القديم، وعلى أنه من وقت لآخر لما يتلاشى أمر نائب السلطان تماماً تُرسل من (جده) حملة لإرجاع المسائل لحد ما لما كانت عليه[1].

ويجـــدر بـــنا أن نُشـــير إلى أن الكفاح بين العثمانيين وبين القوى الأوروبية الاستعمارية فى ذلك الوقت ممثلة فى قوة (البرتغاليين) بالذات بقصد السيطرة على مـــنافذ الـــبحر الأحمـــر- أتخذ صوراً مختلفة وطريفة، منها أن البرتغاليين كانوا يعملـــون للوصـــول للحبشـــة المســـيحية والاتفاق معها لتكوين تحالف ضد القوى الإســـلامية، بيـــنما نجد العثمانيين من جانبهم يشدون أزر الّوى الإسلامية المُحيطة بالحبشـــة فى المنخفضات بين البحر الأحمر والحبشة وهى إمارات إسلامية قديمه لهـــا شـــأن فـــى التاريخ الاسلامى وعُرفت فى كثير من كتب التاريخ باسم ممالك (الطراز الاسلامى) والمقريزى خصص لها رسالة عن (مّلوك الإسلام فى الحبشة) ويقصد بالطبع تلك الإمارات المحيطة بهضبة الحبشة - وقد انتعشت هذه الإمارات

١- انظر - شوقى الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (هامش ص ٣٠).

ورسالة ماجستير للباحث حسين حامد زكى: ولاية الجيش العثمانى (معهد البحوث الإفريقية القاهرة ٢٠٠٦).

فى القرن السادس عشر بتأييد العثمانيين الذين دخلوا البحر الأحمر ووقفوا فى وجه البرتغاليين الذين شدوا أزر القوات المسيحية بالحبشة[١].

ويعتـــبر بعــض المؤرخين هذا الاتجاه من البرتغال امتداداً للحروب الصليبية المعـــروفة الـــتى قامت بها الدول الأوروبية. على أنه بانتهاء القرن السادس عشر فترت هذه الفورة، فأهل المنخفضات الإسلامية لم يقوا على الصعود وأهل الهضبة المســيحية لـــم يقووْا على امتلاك السهول، وانسحب العثمانيون من اليمن وتركوه لأهلـــه فـــى القرن السابع عشر، كما أن قوة الدفع التى أوصلت البرتغاليين للخليج العربى والبحر الأحمر، خفت وابتدأت ممتلكاتهم تسقط فى أيدى قوات بحرية أحدث كالبلجيكيين والانجليز - فأصبح البحر الأحمر فى حاله ركود.

وحين زار (بوركهارت) سواكن لاحظ بها سلطتين:

أ - سلطة محلية حضرية نشأت بشكل ما.

ب- سلطة عثمانية تتمثل فى نائب السلطنة هناك.

والأهمـــية تتركز فى من يُمسك بإيراد الجمارك هنا، مقدار قوة نائب السلطان أو ضعفه تُقاس بسلطته على الميناء[٢].

وقـــد شُغلت السلطنة العثمانية بمشاكلها الكثيرة فى أواسط أوروبا وفيما يُقابل البحر الأسود وموضع تلاقيها مع الدولة الإيرانية فى أذربيجان - لكن سيادة الدولة وحقوقها المبهمة فى البحر الأحمر والحجاز كانت تتولاها من قواعد معينة هى:

أ - **جده** : فى الحجاز وتلحق بها ولاية الحبش، فمن جده يمتد نقود عثمانى للساحل المواجه.

ب- **مصر** : فمن مصر كانت الأرزاق التى رصدها السلاطين للحرمين، ومن مصر كانت تُجهز التجريدات التى كانت تضطر السلطنة لإرسالها للحجاز لضبط أحواله، ومنها أيضاً كانت تُراقب حركات الأوربيين فى البحر الأحمر.

ج- **باشوية دمشق**: ومركزها شبيه بالقاهرة فمنها تخرج أرزاق للحرمين أيضاً وتجريدات لضبط الأمن، إنما ليس لها القيمة السياسية التى كانت للقاهرة.

د - **بغداد** : وهى لا تقل عن القاهرة ففى نطاقها الخليج العربى، وطريق الفرات لحلب والبحر المتوسط، ثم هى النافذة العثمانية التى يطل منها العثمانيون على

١- انظر - المقريزى - الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام - نشرة الدكتور رنك.

٢- أشرنا لذلك بشىء من التفصيل فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

العالم الايرانى وما بعده، فزادت أهميتها خاصة بعد أن توطدت أقدام الانجليز فى الهند وأصبحوا يطمعون فى التقدم صوب إيران.

وكانت سياسة الدولة العثمانية فيما يتعلق بالبحر الأحمر والخليج العربى تقوم علـى تعطـيل شرايين الحركة التجارية فى هذه البحار بقدر إستطاعتها، فقد حاول العثمانـيون تحويـل هذه البحار إلى برك لا حركة فيها إلا حركة محلية- لكن منذ أواخـر القرن الثامن عشر لم يكن فى الاستطاعة الاستمرار فى هذه السياسة التى قصدت إليها الدولة العثمانية - سياسة الركود فى البحر الأحمر.

وذلك راجع لعاملين :

العـامل الأول: عـامل أوربى - هو انبعاث الإهتمام بإحياء تلك الطرق، فقامت محـاولات لفتح طريق مصر والبحر الأحمر بالاتفاق مع السلطات المحلية (سلطات الممالـيك)، كمـا قامـت محاولات بالإتفاق مع السلطات المحلية أيضاً لفتح طريق الفرات وتنظيمه - ومما زاد المسألة تعقيداً أن المحاولات لم تقتصر على دولة واحدة بـل اهتمـت بهـا دول عديدة وفى مقدمتها إنجلترا، وفرنسا، وهولندا، والنمسا ... وترتب على هذه الاتفاقات مع السلطات نصف الشرعية تعقيدات ومشاكل دبلوماسية.

ما يهمنا أن سياسة الركود- سياسة تعطيل المرافق العالمية لم يكن فى الإمكان استمرارها، وحين نزل (بونابرت) فى مصر حاول أن ينشىء علاقات مع سلطات فـى الهـند وفى شبه الجزيرة العربية فكتب رسائل لشريف مكة، ولبعض رءوس الهند.

وحين تحالف الإنجليز مع العثمانيين لإخراج الفرنسيين من مصر- استخدموا الـبحر الأحمر فوصلت مراكبهم من الهند حتى السويس وجاءوا بجيش من الهنود نزل فى (القصير) ومنها لقنا والقاهرة وبالطبع ترتب على هذا - الربط بين مصر والهند فى خطط حربية وسياسية عبر البحر الأحمر.

وفـى السـنوات الأولى من حكم (محمد على) لمصر ظهر واضحاً أن حالة الـركود الـتى كان عليها البحر الأحمر والبلاد المطلة عليه قد تغيرت رأساً على عقـب، وممـا يدل على ذلك أن أول عمل سياسى عمله محمد على سنة (١٨٠٩) كـان دخولـه مع حاكم الهند العام فى مكاتبات لإقامة علاقات سياسية- بالطبع من أسـباب حـيوية هـذه المناطق وأهميتها النزاع بين الإمبراطورية الفرنسية ودول أوروبا مما عطل تجارة البحر المتوسط بسبب الحصار البحرى على فرنسا فانغلاق الجبهة الأوروبية جعل للبحر الأحمر أهمية خاصة فى ذلك الوقت.

العـــامل الـــثانى: الذى قضى على سياسية الركود التى أرادت الدولة العثمانية فرضها على هذه الجهات. عامل عربى داخلى، هو قيام (الحركة الوهابية) فى بلاد العـــرب، وانتشار هذه الحركة وإغارات الوهابيين على العراق وتخريبهم مزارات الشيعة فى (كربلاء) و(النجف) بالإضافة لاضطراب الأمن بالحجاز.

كـــل هـــذا جعـــل الدولة العثمانية تقدر خطورة هذه الحركة- فكلفت باشوية (بغداد) وباشوية (دمشق) ثم باشوية (مصر) بإخضاع هذه الحركة.

فمحمـــد على - ولو أنه فى حملاته على هذه البلاد والتى استغرقت ما يقرب مـــن عشـــر سنوات واشترك فيها ابنه طوسون ثم إبراهيم ثم هو نفسه- كان منفذاً لسياســـة عثمانية- لكن النتائج كانت أهم من ذلك بكثير، فقد استطاع محمد على أن يقضـــى علـــى القوة السياسية والحربية النجدية التى استندت إليها الوهابية ولم تأت سنة ١٨٢٠ حتى كانت قد انتهت تقريباً مهمة محمد على ضد الوهابية الأولى، لكن ترتب على ذلك أن انتقل الإشراف على بلاد العرب للقاهرة- وأُحيلت مناطق البحر الأحمر وسواكن ومصوع وولاية الحبش العثمانية على والى مصر.

ويذكـــر (هيل) أن محمد على أدرك أنه بسيادته على البحر الأحمر يمكنه أن يُـــرجعه إلى أهميته التجارية القديمة فتستفيد مصر من الطرق التجارية المارة بهذا الـــبحر- ولا شـــك فـــى أن محمد على لمس النفوذ التجارى المتزايد لشركة الهند البريطانـــية علـــى ســـواحل شبه الجزيرة العربية خاصة بعد حملته على الوهابيين (١٨١٣-١٨١٨) التى فتحت عينيه أكثر على نشاط الشركة البريطانية فى الجزيرة العربية والبحر الأحمر[١].

وهكـــذا فُتح الباب لإهتمام مصر من جديد بشئون (السودان الشرقى) و(النيل) ومـــن ذلـــك التاريخ نشأت ما يمكن أن نسميها (سياسة البحر الأحمر) - وستتضح معالم هذه السياسة أكثر فى عصر إسماعيل حين توجه عناية شديدة لسواحل البحر الأحمر، ولضم تلك السواحل للمناطق النيلية الصرفة.

فالبحر الأحمر كان فى ذلك الوقت ليس فقط طريقاً للأماكن المقدسة بشبه الجزيـــرة العربـــية وللشرق بتجارته، لكنه أيضاً وسيلة هامة للاتصال المادى بالمـــناطق النيلـــية، وفـــى عصـــر إســـماعيل بالذات كان الإهتمام أشد بجعل مواصـــلات مصـــر بحـــوض النيل عن طريق البحر الأحمر أكثر من الإهتمام بالوادى نفسه.

1- Hill: Egypt in the Sudan (1820 1881) P. 8.

ويمكـــن إذاً بعـــد هـــذا التفصيل للجو الذى فيه تقرر امتداد الإدارة المصرية لشئون السودان أن **نجعل العوامل التى ذكرناها كدوافع لهذا العمل فيما يلى:**

١- الاضطراب فى المناطق المتاخمة لحدود مصر الجنوبية (بلاد النوبة) الناتج من وجود المماليك فى هذه المناطق وإدخالهم الأسلحة النارية فيها، وسعيهم لتكوين قوات تحت إمرتهم مسلحة بهذه الأسلحة، وتحكمهم فى التجارة بين مصر والسودان عبر الطرق البرية.

٢- ما يمكن أن نُطلق عليه (سياسة البحر الأحمر) وما دب فى هذا الطريق- طريق البحر الأحمر- من عوامل نشاط وحيوية وإهتمام والى مصر بهذا الطريق أكثر بعد إخماد الثورة الوهابية وتوليه حكم (الحجاز، ونجد، وولاية الحبش) نيابة عن الدولة العثمانية – هذا فى الوقت الذى كان فيه (البحر الأحمر) وليس النيل هو المخرج الطبيعى للسودان الشرقى.

ونُشير هنا إلى أن هذه الفكرة كانت واضحة فى ذهن إبراهيم (باشا)، فقد قال لبعض الإفرنج أثناء حروب الشام : "ما لنا والأناضول – ميداننا الطبيعى كله هو بلاد العرب، والبحر الأحمر، والمناطق النيلية".

٣- بصفة سلبية نقلل من شأن الفكرة النيلية الصرفة- ونقصد بها الفكرة المتصلة بضبط النيل أو استغلاله التى شاعت فى بعض الكتب، فالنيل لا شك فى أنه عامل هام من عوامل توحيد الوادى ويبلغ من الوضوح درجة لا يختلف فيها اثنان – إنما هذا الجانب من الموضوع لم يظهر إلا فيما بعد- فحتى (١٨٢٠) لم يكن محمد على قد اتجه للمشروعات على النيل التى تؤدى للاهتمام بالنهر وضبطه وتخزين مياهه.

حقـــيقة إن الفرنســـيين أثناء توليهم الأمر بمصر بحثوا هذا وكتبوا فيه وكتب (بونابرت) عن (مشروع إنشاء قناطر عند رأس الدلتا) للتحكم فى النيل، إنما محمد علـــى لـــم يكن قد أخذ على نفسه تنفيذ هذه الفكرة- وحتى لما أخذ على نفسه إنشاء القـــناطر الخـــيرية لـــم يتسع الأفق لتكوين مشروعات أخرى خارج مصر نفسها- فالتفكير فى جعل الوادى وحده من حيث مشروعات الرى يرجع لسنة (١٩٠٤) منذ نشـــر تقريـــر السير هارى جونستون فى كتابه عن النيل[1]. إنما فى عصر محمد علـــى وإســـماعيل لم يكن هناك تفكير فى سياسة مائية واحدة، تشمل النهر كله من بحـــيرة فيكـــتوريا إلى البحر المتوسط- لأنه فى عهد محمد على وفى الوقت الذى

1- Johnston, H. : The Nile Quest. (1904).

وصلت فيه جيوشه إلى السودان لم تكن منابع النيل قد عُرفت بعد- وبالتالى فإن الكثير عن نظام الأمطار وطبيعة الاراضى لم يكن معروفاً، وما كان معروفاً ضئيل لا يكفى لإقامة خطة علمية محكمة لأجل وضع مشاريع رى.

عوامل أخرى ثانوية :

تذكر المراجع أسباباً أخرى كدوافع لمحمد على للتفكير فى مد إداراته لجنوب الوادى منها:

١- ما ذكره (هيل) من أن المحرك الأول لمحمد على لفتح السودان هو الحصول على (الرقيق) اللازمين له للعمل فى الزراعة والصناعة وللجيش ليحقق أحلامه عن هذا الطريق- ويذكر (هيل) أن محمد على كان يعلم أنه فى جنوب السودان يوجد مستودع لا يفرغ من الزنوج الأفريقيين الذين يمكن أن يمدوه بحاجته، خاصة أنه حتى ذلك الوقت كان يؤمن أن الفلاحين المصريين يجب أن يتركوا لفلاحة الأرض، كما انه كان مقتنعاً أن سكان السودان الشمالى من الصعب أن يلتزموا بالنظام الحربى، ومحمد على لم يلجأ لتجنيد الفلاحين إلا بعد أن تعب من الزنوج الجنوبيين، واكتشف فى ذلك الوقت فقط أن هؤلاء الفلاحين من أحسن الجيوش النظامية فى الشرق الأوسط(١).

ومع أن محمد على جرب - كما سنشرح عند الحديث عن الجيش - أن يُكون فرقاً فى جيشه من السودانيين، لكن مما لا شك فيه أن تجارة الرقيق كانت متغلغلة فى كيان السودان الاقتصادى، وأن محاولات الإدارة المصرية كانت تتجه كلها إلى التخفيف عن هؤلاء الأرقاء وإيجاد نوع من الحياة الآدمية المستقرة المنظمة لهم طالما أن القضاء النهائى على الرق لم يكن مُستطاعاً فى ذلك الوقت- وأقل ما يمكن أن يُقال أن محمد على نجح فى إدخال شىء من النظام على تجاره كان من المستحيل عليه أن يقتلع جذورها المتأصلة فى البلاد من أزمان سحيقة(٢).

٢- ويذكر (هيل) أيضاً - أن من دوافع محمد على لفتح السودان الحصول على (الذهب) وأنه ظل حتى نهاية حياته يحلم بهذا المنبع للثروة- ورغم أننا سنعالج مسألة الذهب هذه عند الحديث عن رحلة محمد على للسودان - لكن نشير إلى أن الأحداث التالية كلها برهنت على أن الهدف من وراء استغلال

1- Hill: Egypt in the Sudan (1820 1881) P. 7.

٢- د. شكرى : الحكم المصرى فى السودان ص ١٩.

الموارد الطبيعية للسودان كان هو تحقيق الرفاهية لأهله عن طريق استثمار الموارد الطبيعية للبلاد، وسنرى أن هذه الروح كانت رائد الإدارة المصرية دائماً رغم ما وقعت فيه من أخطاء[1].

٣- تُردد بعض المراجع أن من دوافع هذه المغامرة من محمد على التخلص من جنوده الألبانيين الذين أصبحوا فى عام (١٨٢٠) مصدر خطر وإزعاج له فى مصر، فحملته للسودان طريقة لامتصاص طاقتهم ونشاطهم، وهذا قد يكون من عوامل إرسال هذه الحملات إلى السودان، لكن لا يمكن أن يكون العامل الرئيسى لكل هذه الاستعدادات الحربية والتضحيات.

٤- يذكر الرحالة (وادنجتون) أن من أسباب حملة محمد على للسودان طموح محمد على فى أن يمتلك وادى النيل من منبعه إلى مصبه، وأن يكون سيداً على سكانه جميعاً من يشربون من مائه من الحبشة حتى البحر المتوسط[2] وبالطبع لم يتجه إلى ذهنه مسألة التحكم فى مشروعات الرى على النيل لكن الإشارة إلى طموح الوالى ذاته.

حوادث الفتح (فتح سنار وكردفان)

فى عام (١٨١٨) أرسل محمد على صهره (محمد بك الدفتردار) لحدود مصر العليا، وفى سبتمبر سنة ١٨١٩ سافر محمد على بنفسه إلى هذه الجهات ومعه حسن باشا قائد الجنود الألبانيين، ومحمد لاظوغلى، وأمضى شهرين فى تلك المنطقة يتدارس مع قواده خطة الزحف على السودان.

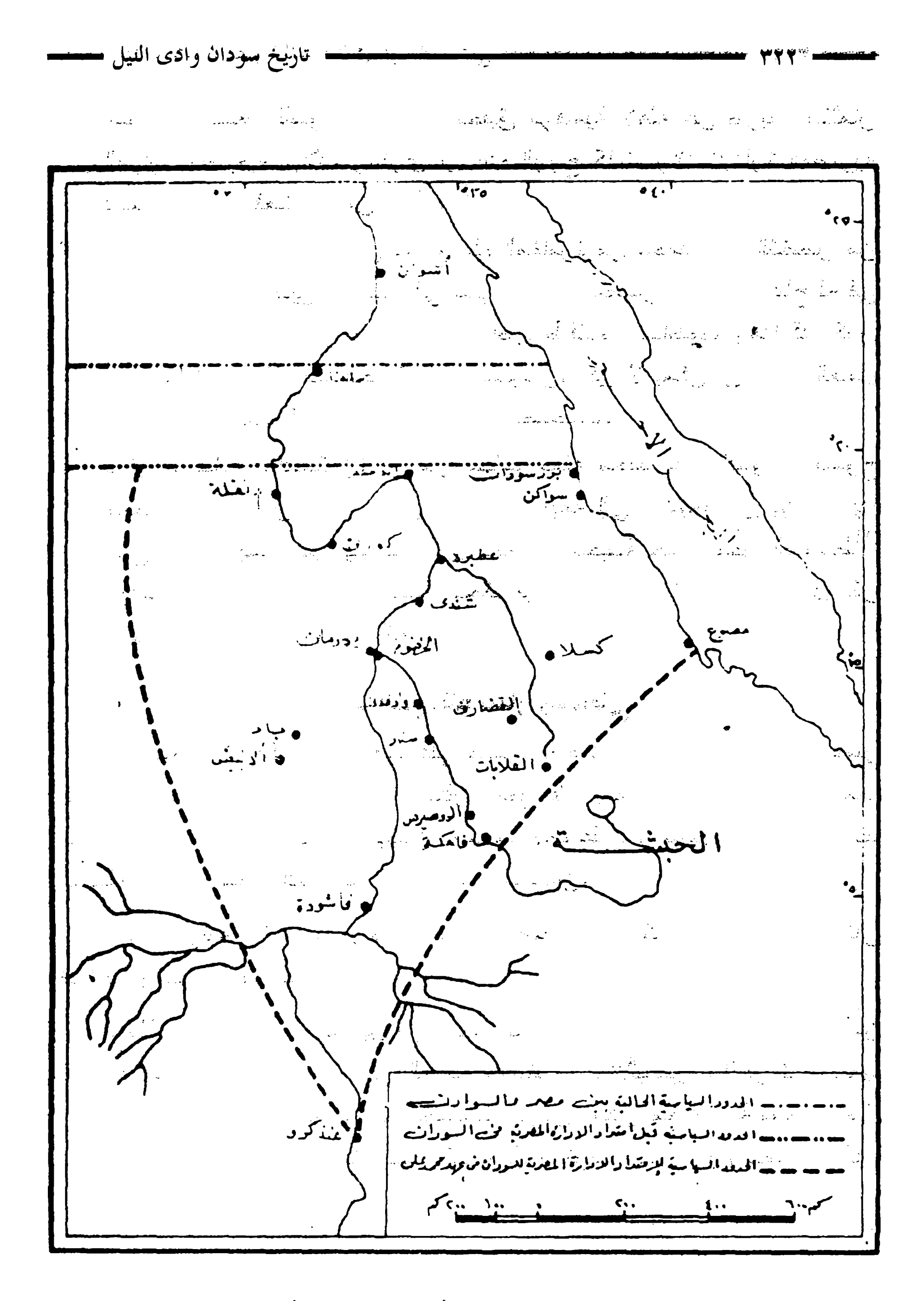
وفى يوليه ١٨٢٠ بدأ زحف الجيش المصرى الذى كان محمد بك لاظوغلى قد أعده وكانت هناك حملتان:[3]

أ - حملة على رأسها (إسماعيل بن محمد على)- وقوامها أربعة آلاف مقاتل من عناصر مختلفة أكثرهم من العرب والمغاربة والألبانيين والأتراك، ومعهم أربعة وعشرون مدفعاً وألف وخمسمائة فارس، وكان مع الحملة بعض رجال الدين على رأسهم الشيخ أحمد السلاوى المغربى الذى عُين مفتى للمالكية بالسودان.

1- Hill: Egypt in the Sudan P. 8.

2- Waddington: Journal of a visit to Some parts of Ethiopia p. 91.

٣- لا يوجد دليل على أن محمد على طلب موافقة السلطان وإذنه للقيام بحملته على السودان، ولا ندرى هل يوجد فى الأرشيف التركى وثيقة بهذا الخصوص أم لا، فلم نعثر فى وثائق عابدين على أية وثيقة بهذا الشأن.



شكل رقم (٢) امتداد الإدارة المصرية فى السودان فى عهد محمد على

ب - قوة أخرى بقيادة (محمد بك الدفتردار) صهر محمد علي - وقوامها ثلاثة الآف مقاتل، ومعهم عشرة مدافع وذلك لفتح كردفان.

وكان مع إسماعيل من القواد - قوجة أحمد أغا، وعابدين كاشف، ومن رجال الإدارة أحمد أفندى الترجمان، والمعلم حنا الطويل للشئون المالية[١].

كما كان مع الحملة الرحالة الفرنسي المسيو فردريك كايو Caillud الذى سمع عن الحملة وسعى لصحبتها ونجح في ذلك، وكذلك طبيب الدفتردار دكتور بينى Dr. Peny الذى نشر مذكرات عن مشاهداته في السودان[٢].

نقل الجنود من مصر القديمة في النيل إلى (إسنا) ومنها سافرت الحملة براً ومعها آلاف الأبل حتى (أسوان)، ومن أسوان وصلت إلى (وادى حلفا) بعد جهد عنيف بذل في جر المراكب فوق البر لاجتياز صخور الجندل الأول وبقيت الحملة (بوادى حلفا) عشرين يوماً.

ومن (وادى حلفا) توجهت الحملة إلى (دنقله)، وقد فر فلول المماليك بمجرد سماعهم بتقدم الجيش المصرى، فروا إلى سواكن ومنهم من فر إلى دارفور، ومنهم من عبر الصحراء لطرابلس، فمنهم من هرب للبلاد الواقعة على البحر الأحمر حيث أصبح هلاكهم هناك لا مفر منه[٣].

واستسلم الملك محمد إدريس وأبقى في وظيفة كاشف تحت إمرة حاكم دنقله عابدين أغا، وتقدم الجيش المصرى بعد ذلك - وعلى مقربة من مدينة (كورتى) على الشاطئ الغربي للنيل هجم (الشايقية) على فرسان الجيش المصرى لكن

١- أرسل محمد علي لأبنه إسماعيل يؤنبه لاستبداده برأيه وعدم استشارة من معه من المجربين- أنظر دفتر ٧ معية تركي مكاتبة رقم ١٩٩ في (٢١ شعبان ١٢٣٦).

٢- أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب لرحلته للسودان ولأهميتها، كما أشرنا إلى رحلة الانجليزى جورج والجتون (Waddington) وقد رحل لروى حيث ضرفه إسماعيل بأدب ليعود لمصر، ولذا كان متحاملاً في تعرضه للحملة وأهدافها، والأمريكي جورج انجلش (English) وكان في عام ١٨٣٠ بحاراً على سفينة أمريكية واستقال وأسلم وتسمى (محمد أفندى) ودخل في خدمة إسماعيل واشرف على مدفعيته وألف كتاباً طريفاً عن (الجياد العربية) - أنظر شوقي الجمل: تاريخ سودان وادى النيل ج١ ص ٢٨١ وما بعدها.

3- Waddington: Journal of a visit to Some parts of Ethiopia p. 230.

وكذلك انظر: English : A narrative oft the Expedition to Dongola and Sennar P. 110.

المهاجميـــن هُزموا وسلموا فى (٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠)، وانضم كثير منهم للجيش المصرى وأبلوا بعد ذلك فى الحرب بلاء حسناً[1].

وتركـــت قـــوة بقيادة (عابدين أغا) الذى اتخذ (دنقله الجديدة) مقراً له، بقصد تيســير المواصلات مع الشمال وبناء المراكب اللازمة وجمع الضرائب وأصبحت سلطته تمتد بين الشلالين الثانى والرابع[2].

وواصـــل الجيش المصرى زحفه واخترق صحراء (بيوضه) حتى وصل إلى (بربـــر) فـــى (٥ مـــارس ١٨٢١)، وكان السير يتم غالباً فى الليل لشدة الحر فى الـــنهار، وأعلـــن ملكها (نصر الدين) الولاء لمصر فأبقاه إسماعيل فى مكانه تحت إمـــرة (محـــو بـــك أورفالى) الذى عين مديراً (لبربر)، وتقدم الجيش إلى (شندى) وأعلـــن ملكهـــا الملك (نمر) ولاءه، ثم تقدم الجيش المصرى جنوباً فاحتل (حلفايه) وأم (درمـــان)، ولاقى الجيش الكثير من المشاق فى عبور النهر، ولكن (إسماعيل) تقـــدم فى النيل الأزرق فاحتل (واد مدنى) وأخضع ملكها (بادى السادس) ثم احتل (سنار) عاصمة مملكة الفونج فى (١٤ يونيه ١٨٢١).

وقـــد ذكـــر (كايو) أن سنار كانت فى حالة تدعو للرثاء، ولم يكن بها من المـــبانى ذات الشـــأن إلا قصـــر الملك والمسجد وكانا آيليين للسقوط، وكانت الملاريـــا والدوسنتاريا وغيرها من الأمراض المتوطنة فى هذه المنطقة منتشرة بشكل وبائى.

١- أرسل محمد على يؤنب ابنه إسماعيل لعدم أخذه (الشايقية) بالسياسة واللين ويذكره أن هذه السياسة هى السياسة التى نجح بها الفرنسيون والانجليز فى حروبهم.

- انظر دفتر تركى مكاتبة رقم ١١٧ فى (٩ ربيع الآخر سنه ١٢٣٦).

وارجع : لما ذكره بوركهارت عن الشايقية وقد أوردناه (فى الجزء الأول من هذا الكتاب) عند الحديث عن رحله بور كهارت

- كذلك ما أورده الرحالة الامريكى (إنجلش English) عن الحوار الطويل بين إسماعيل وزعماء الشايقية الذين رفضوا فى النهاية طلباته الخاصة بالإقلاع عن عادات النهب والسلب والإغارة على القوافل على أن يستقروا فى الأرض لفلاحتها.

English. Narrative of the Expedition Dongola and Sennar. P. 109.

- كذلك ما أورده الرحالة الانجليزى وادنجتون Waddington عن قصة وقوع ابنه أحد زعماء الشايقية أسيرة فأعادها إسماعيل مكرمة لأبيها الذى تأثر بهذه المعاملة، وكان هذا الحادث كما يقول الرحالة ختاماً لكل مقاومة منظمة فى السودان ودافعاً لانضمام الشايقية للجيش المصرى الزاحف.

٢- يذكر مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ١٨ - أن أسمه (عبدى كاشف) وليس عابدين كما ذكره كل من كايو وادنجتون - وهو كبير معاونى إسماعيل وقد امتاز بالحكمة والكياسة".

واستطاع (إسماعيل) أن يقضى على مقاومة الملوك الذين رفضوا التسليم، واستطاعت قواته أن تصل إلى (فازوغلى) - وقد اتخذ إسماعيل (وادى مدنى) مركزاً لقايدته لملاءمتها فى فصل المطر- على الخصوص- عن (سنار).

ويبدو أن (محمد على) شعر بأن إسماعيل لا يستطيع لقلة خبرته أن يُدير شئون الجهات المفتوحة، فأرسل ابنه (إبراهيم) لما له من خبرة ودارية بشئون الحرب والإدارة وعينه قائداً عاماً للقوات المصرية فى سنار وكردفان - ووصل إبراهيم إلى (سنار) فى نهاية أغسطس سنة ١٨٢١، وكان من رأى محمد على أن يؤجل حالياً ضم (دارفور) لكنه ترك حرية التصرف لابنه إبراهيم، وإن كان قد حسم هذا الأمر اندلاع الثورة فى اليونان وما بدا من احتمال طلب السلطان المعونة من محمد على فأصبح من المتعذر أن تعزز الحاميات المصرية بالسودان بإمدادات جديدة[1].

ولعل هذا هو السبب فى إلحاح محمد على إرسال أعداد كبيرة من الرقيق لُيدربوا على الجندية فى مصر ليمكن إرسال جنود مدربين آخرين للسودان.

وأرسلت الأخشاب والأدوات الأخرى إلى (دنقله) لبناء عدة مراكب لتيسير الاتصال النهرى بين مصر والسودان، وبعد أن تعاون (إبراهيم) مع إسماعيل فى تنظيم الإدارة فى سنار- سار على رأس قوة صوب النيل الأبيض بقصد الاتجاه إلى مواطن (الدنكا)، لكن قسوة المناخ أثرت على صحة إبراهيم وعاوده مرض الدوسنتاريا الذى كان يشكو منه فاضطر للعودة لمصر مع طبيبه الايطالى تاركاً القيادة العليا من جديد لإسماعيل.

أما (الدفتردار) فقد أرسل (للقمدوم مسلم) حاكم كردفان من قبل السلطان محمد الفضل بن عبدالرحمن سلطان دارفور يدعوه للتسليم، فلما رفض تقدم الدفتردار بجيشه عبر الصحراء ووصل إلى بلدة (باره) شمال (الأبيض) حيث التقى فى (ابريل ١٨٢١) بجيش المقدوم وهزمه ودخل (الأبيض)، وقد رحب سلطان كردفان بالجيش المصرى الذى خلصهم من سلطان دارفور، كما أن السلطان نفسه لم يُحرك ساكناً لاسترجاع سلطته على كردفان[2].

ومما يؤسف له ما حدث من الجنود غير النظاميين من حوادث النهب والتخريب بدون مقتضى عسكرى، ويُلاحظ أن إسماعيل بن محمد على كان شاباً صغير السن

1- Hill: Egypt in the Sudan p. 11.

2- - 1825 (S. N. R- XXIX pt. 1. 1948

وفيه شيء من الحدة والطيش- وقيل إنه حدث تمرد من سكان (حلفاوية) و(شندى)، ولما علم إسماعيل بهذا سافر إلى (شندى) وأشيع أن ملكها (الملك نمر) هو الذى أثار (الجعليين) وحنث بعهده- فدعاه إسماعيل ولما حضر أمامه وبخه وأهانه ولطمه على وجهه وحجزه ثم عفا عنه مقابل غرامة مالية كبيرة - وكان الرجل معتزاً بكرامته فدبر إنتقاماً شنيعاً - إذ دعا (إسماعيل) ومعيته إلى وليمة فى داره بشندى فلبى إسماعيل الدعوة، وتظاهر الملك وأعوانه بالترحيب بهم، وفى أثناء ذلك جمع أنصار الملك الحطب والقش والتبن حول الدار بحجة جمع العلف لخيل الباشا، ثم أشعلت النار فى كل هذا، وكان أنصار الملك محيطين بالدار، ورموا إسماعيل وحاشيته بالنبال والسهام فلم ينج إلا أفراد قلائل[1].

وترتب على موت إسماعيل أن أصبح (محمد بد الدفتردار) المسئول الأول عن الإدارة والجيوش المصرية بالسودان.

ولما علم (محمد بك الدفتردار) بما حدث- توجه من (كردفان) إلى شندى ولم ينتظر صدور التعليمات إليه من القاهرة، بل انتقم شر انتقام وأنزل العذاب بالأبرياء أكثر من المجرمين فقتل ألوفاً منهم، بينما فر الملك (نمر) وأسرته إلى حدود الحبشة- وبهذه المناسبة نذكر أن الدفتردار كانت فى طبيعته قسوة شنيعه وكان يُضرب به المثل فى القسوة التى يتلذذ بها مرتكبيها (sadism) [2].

وقد أدت سياسة العنف التى اتبعها الدفتردار فى زيادة الحالة سوءاً، ولولا نجاح (محو بك أورفالى) فى تهدئة الأحوال فى مقاطعة بربر والجهات المحيطة بها- لانقطع اتصال المصريين فى سنار وكردفان بإخوانهم فى الشمال بمصر، ولحدثت مأساة شبيهة بما حدث لغوردون ورفاقه فيما بعد، أما الأعداد الهائلة منن

١- ترجع بعض المراجع سبب الاضطرابات التى حدثت فى هذه الفترة فى السودان إلى الضرائب التى فرضتها الإدارة المصرية على الاهالى، وتقع تبعية التنظيم الضريبى الذى وضع على عاتق الرجل المختص بالشئون المالية الذى أرسل للسودان لهذا الغرض، وهو شخص يدعى (حنا الطويل)، وقد استعان فى وضع نظام الضرائب للمناطق التى امتدت إليها الإدارة المصرية برجل سودانى هو الأرباب (دافع الله ود احمد حسن) - ولا شك فى أن مسالة الضرائب لا يمكن أن تكون السبب الوحيد لاندلاع الاضطرابات فى السودان، وسنشير لمسألة الضرائب ولغيرها من أسباب الترميز فيما بعد- على أننا نشير إلى أن إسماعيل كان شاباً ورغم أنه كان يتصف بذكاء حاد- كما وصفة أغلب الذين كتبوا عنه من الأجانب - أنظر : (Waddington P. p 93.94)، ولكن الكثير من تصرفاته فى هذه الحملة جعلت البعض يشبهونه (بجنكيز خان)، وقد أرسل له أبوه أكثر من مرة يؤنبه على تهوره وقسوته (أنظر مكاتبه محمد على لأبنه فى دفتر ٧ معيه تركى - مكاتبه ١١٧ بتاريخ ٩ ربيع الأخر سنة ١٢٣٦) وقد أشرنا إليها سابقاً

2- Petherick: Egypt, the Sudan and Central Africa, 277.

القتلى الذين تذكر المراجع أنهم لقوا حتفهم فى هذه المذابح فلا شك فى أنها مبالغ فيها ولم يثبت قط صحتها.

على أن نفوذ الإدارة المصرية امتد بعد ذلك إلى جهات أخرى من السودان، ففى سنه (١٨٣٨) فى عهد حكمدارية (أحمد باشا أبو ودان) امتد نفوذ الإدارة المصرية إلى إقليم (التاكه) فى السودان الشرقى وأُسست مدينة (كسلا)، كما حدث تقدم فى النيل الأبيض جنوباً وسنشير إلى ذلك عند الحديث عن الرحلات الكشفية فى هذه الجهات.

وكانت حدود مصر فى ذلك الوقت تنتهى (بجزيرة ساى) جنوب وادى حلفا، فأصبحت الإدارة المصرية فى السودان تمتد من هذه الحدود جنوباً فى النيل الأبيض إلى جزيرة (جانكير) قُبالة (غندكرو) – وشرقاً دخل فى ظل الإدارة المصرية إقليم (التاكا) و(القضارف) و(القابلات) – وكذلك (سواكن ومصوع)[1].

وفى الغرب وصلت الإدارة المصرية إلى كردافان- فلم تُفتح (دارفور) ولا (أقاليم خط الاستواء) وقد تم ذلك فى عهد إسماعيل.

وبهذه المناسبة نُشير إلى نقطة هامة وهى انه فى عام (١٨٤١) صدر فرمانان حددا علاقة محمد على بالسلطان، وذلك بموافقة الدول إثر الحروب التى عُرفت (بحروب الشام) بين محمد على والسلطان والتى انتهت بتدخل الدور الأوروبية – الفرمان الأول – خاص بوضع والى مصر وعلاقته بالسلطنة العثمانية- والثانى منح السلطان محمد على بالإضافة لولاية مصر- "مقاطعات النوبة، ودار فور، وكردفان، وسنار، وجميع توابعها وملحقاتها الخارجية عن حدود مصر لكن بغير حق التوارث[2]. – وهذا الفرمان يلقى أضواء أخرى على النقطة التى سبقت الإشارة إليها عن امتداد الإدارة المصري للسودان لم يكن توسعاً بالمعنى المفهوم من التوسع الأوروبى فى أفريقيا الذى ساد فى القرن التاسع عشر – فمصر لم تكن

١- فى عام ١٨١١ لما أخذت مصر تتدخل لإعادة النظام فى بلاد العرب ألحقت بالإدارة المصرية أيضاً (ولاية الحبس العثمانية) وهو الاسم الذى كان يطلقه العثمانيون على سواكن ومصوع وغيرها من جهات الساحل الافريقى التى خضعت لهم. وفى سنة (١٨٤٠) بعد التسوية المعروفة بين مصر والدولة العثمانية رجعت الحالة فى سواكن ومصوع لما كانت عليه من قبل، وأحليت إدارة جمركى سواكن ومصوع لمصر مرة أخرى فى عام (١٨٤٦) فألحقت هذه الإدارة بمديرية التتاكه – لكن فى عام (١٤٤٨) عادت إدارة الميناءين لجدة مرة أخرى.

– انظر شوقى الجمل: الوثائق التاريخية لسياسية مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ص ٢٩، ٣٠.

٢- للاطلاع على الفرمانيين ارجع لمجموعة الغرامات الشاهية بالحفوظان التاريخية بعابدبن.

فـــى ذلك الوقت إلا ولاية عثمانية والاستعمار بالمعنى التقليدى لا يتم إلا من دولة مســتقلة ذات ســيادة علـــى نفسها - كما أن صدور هذا الفرمان فى عام (١٨٤١) متضمناً سلطنة (دارفور) لا يعنى أنها خضعت للإدارة.

الإدارة المصرية فى السودان فى عهد محمد على :

مقدمة :

موضـــوع الإدارة المصـــرية فى السودان كُثر الكلام حوله، لكن ليكون الحكم سليماً لابد من مراعاة حقائق هامة نجملها فيما يلى:

١- لا يُنتظر أن يحدث تتغير كامل فى أحوال السودان بمجرد امتداد الإدارة المصرية إليه وذلك لأسباب:

أ - وجود استحالة مادية لإحداث تغيير شامل وفقاً للرغبات لُبعد المسافات الشاسعة فى السودان.

ب- انعدام وسائل المواصلات إلا القديمة منها.

ج- قيام حكومة واحدة يخضع لها الكل أمر مفاجئ وجديد على المجتمع السودانى.

د - هُناك عادات متأصلة فى هذا المجتمع تحتاج لعشرات السنين لاستئصالها، تجارة الرق مثلاً، لابد من مرور زمن طويل حتى يمكن إلغاؤها دون أحداث هزة عنيفة فى المجتمع.

٢- إن امتداد الإدارة المصرية للسودان وما تبعه من استتباب فى الأمن أتاح فرصة لزوار كثيرين للحضور للسودان، رحالة ومبشرين وأطباء وتجار - وبدأوا يكتبون وينشرون- ولذا ظهرت أشياء كثيرة قديمة غير مرغوب فيها لكنها كُشفت بعد هذا الوضع الجديد وقُرنت خطأ بالحكومة الجديدة.

٣- إرتبطت الإدارة فى السودان بالإدارة فى مصر، فنظم الإدارة فى السودان نُقلت من مصر، والمديرون الذين أوفدتهم الحكومة المصرية للسودان تدربوا وتكونوا فى الإدارة المصرية.

والإدارة فى مصر فى عهد محمد على تطورت تطوراً كبيراً وحدث فيها تغيير جذرى- فحكومة محمد على أمسكت بزمام كل شىء فى مصر، ووضعت يدها على الأرض الزراعية وأصبحت تتولى واجبات لم يسبق أن اعتبرتها الحكومات السابقة من عملها، كالعناية بالصحة، وبالمشروعات العمرانية، وبالصناعة، والتجارة، والتعليم - وهناك أيضاً تجديد فى فروع الإدارة المصرية متعمد فيه النقل من الحضارة الأوروبية - كنظام القوة

الحربية الجديد مثلاً فقديما كانت تحبس قرى وبلاد لأرزاق الجند، ولذا كان الجند أنفسهم يشرفون على التحصيل، حالياً تغير الأمر فأصبح إيراد الحكومة من أرض زراعية، وجمارك، ورسوم، واحتكارات يُورد لخزينة الحكومة ويُنفق الوالى منه على التعليم، وعلى الجيش ... الخ.

٤- البيئة السودانية كانت لها خواصها المختلفة عن البيئة المصرية - ونذكر من أوجه الخلاف مثلا:

أ - بُعد المسافات وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، وقيام عقبات مما يترتب عليه صعوبات أمام الحاكم خاصة فى الزمن السابق لأدوات الاتصال السريع.

ب- تنوع موارد معيشة السكان- فهنا بعض الأقاليم زراعية، وبعضها رعوى، بينما فى مصر تكاد الزراعة تكون المورد الوحيد لحياة وعيشة غالبية السكان فى ذلك الوقت.

ج- تغلغل العصبية القبيلية فى تلك الأرجاء، فالمجتمع مجتمع قبلى وقيام السلطات الجديدة لا يقضى على هذا النظام- فهذه السلطات- فى نظر الأفراد على الأقل- كانت على هامش القبائل، بينما فى مصر العصبية القبلية ضئيلة.

د- الحكم الموحد فى السودان جديد غير مألوف بالمرة بعكس الوضع فى مصر، ففى السودان اجتماع الناس كلهم تحت إدارة واحدة أمر غريب.

هـ- كان الاقتصاد فى السودان اقتصاداً بدائياً أدواته التبادل بالسلع والرقيق والقماش المنسوج (خاصة الدمور فى سنار) - بينما التعامل فى مصر بالنقود.

و- محدودية النفوذ المصرى بالسودان فالإدارة المصرية استقرت فى جزء فقط من السودان، لكن هناك أراض واسعة تسكنها جماعات لا يعرف عنها الكثير- مجاهل غير محدودة فيها الزنوج، وبالإضافة لذلك توجد فى الشرق (الحبشة) وعلاقتها بتلك الأقطار غير محدودة تماماً فهناك مشاكل للحدود لا بد أن تواجهها الإدارة الجديدة.

هـذه مقدمـة تُعطيـنا فكرة عن المشكلات التى واجهتها الإدارة الجديدة فى السودان والآن ننتقل لدراسة النظام الادارى نفسه وما تحقق للسودان فى ظله.

النظام الادارى :

وُضعت السلطة الإدارية فى السودان فى يد موظفين أهمهم:

١- **الحكمدار (الحاكم العام):** جُعل على رأس الإدارة فى السودان حاكم عـام له

السلطة العسكرية والمدنية المطلقة – ويتبع (ديوان الداخلية بمصر)، **وأنشئت** مدينة (الخرطوم) وجُعلت مقراً للحكمدار.

٢- **المديرون:** قُسم السودان إلى مديريات بلغت فى نهاية حكم محمد على سبع مديريات (دنقله، بربر، الخرطوم، كردفان، سنار، فازوغلى، التاكه) – وعُين لكل مديرية مدير، وحُددت حدود كل مديرية، وضُم إليها العرب الرحل الضاربون فى وديانها وهكذا قللت الإدارة الموحدة التى أوجدتها الإدارة المصرية بالسودان- من العصبية القبلية التى كانت متحكمة فى عهود الفونج[١].

ويعاون المدير فى شئون مديريته وكيل للمديرية ومعانون، وكتبة، وقاضى، ومفتى ومجلس استشارى من الوطنيين.

٣- **نظام الأقسام:** قُسمت كل مديرية إلى أقسام يدير كل منها (ناظر).

وفى كل مديرية (حامية) – هذا بينما كان يُدير كل مدينة ساحلية كمصوع وسواكن (محافظ)[٢].

على أن هذا النظام لم يستمر طوال فترة حكم محمد على على وتيرة واحدة فسنرى عند الحديث عن حُكام السودان فى عهده أنه لجأ فى بعض الأحيان إلى نظام اللامركزية بتقسيم البلاد إلى مديريات ترجع فى أمورها رأساً إلى مصر على أن يتعاون المديرون فيما بينهم لإنجاز المصالح المشتركة، وألغى نظام الحكمدارية.

سواء أكان الدافع لهذا الإجراء هو ما ذكرته بعض المراجع عما أُشيع من أن بعض حكمدارى السودان (مثل أحمد باشا أبو ودان) حين وجدوا السلطة كاملة فى أيديهم فكروا فى فصل السودان عن حكومة محمد على[٣]. أو أن محمد على شعر أن إدارة السودان لا يستطيع أن يقوم بها – على خير وجه – حاكم واحد لاتساع أرجائه ولحاجته الشديدة لأوجه الإصلاح المختلفة- فإن هذه التجربة التى تكررت فى عهد محمد على وفى عهد خلفائه ثبت عدم نجاحها لبُعد الشقة بين مصر والسودان فى ذلك الوقت بالذات، فكان الوضع الطبيعى هو الرجوع بالتالى لنظام الحكمدار الواحد فى العاصمة (الخرطوم) ومنحه كافة السلطات التى تكفل له حُرية التصرف مع محاسبته بعد ذلك.

١- د. مكى شبيكة: السودان فى قرن – ص ٥٣.

2- Hill: Op. Cit. P. 23

٣- د. مكى شبيكة: مرجع سابق – ص ٤٧.

المجالس المحلية :

أصبح فى كل مدينة رئيسية فى السودان مجلسها المحلى للنظر فى المسائل الإدارية البسيطة.

مجلس الحاكم: كان بالخرطوم، وكان خاضعاً مباشرة للمجلس المخصوص بمصر.

التنظيم المالى :

كانت معظم التجارة الداخلية فى السودان – قبل الإدارة المصرية تسير بطريق المقايضة (المبادلة)، على انه فى السودان الشرقى كان الدولار (مارياتريز) النمساوى متداولاً (فى بورسودان ومصوع)، وكانت لهذه العملة قيمتها فى تجارة البحر الأحمر وفى التبادل التجارى مع الحبشة، كما كانت بعض العُملات الفضية والذهبية الأخرى معروفة(١).

على أن إمتداد الإدارة المصرية للسودان ترتب عليه زيادة فى حجم التجارة الخارجية بالإضافة لتنظيم التجارة الداخلية، فبدأت تنتشر العملة المصرية الفضية والجنية المصرى خاصة فى مدن السودان الكبرى.

الضرائب :

كانت عملية جمع الضرائب عملية شاقة كثيراً ما شابها الاضطراب، وسنُشير بشىء من التفصيل إلى هذا الموضوع فيما بعد عند تقييم الإدارة المصرية فى السودان، وكان عساكر الشايقية يُسهمون فى هذا العمل.

وقد قام بتنظيم عملية الضرائب منذ البداية (حنا الطويل) أحد المصريين الذين رافقوا حملة إسماعيل بن محمد على، فقام بتسجيل القرى، وفرض الضرائب عليها.

وكانت أهم الضرائب الضريبة على (السواقى) وهى تختلف حسب مساحة الأرض التى تُروى ومدى جودتها.

على أن جزءاً من الضرائب كان يُجمع عيناً فى المناطق التى يقل فيها تداول النقود بين الاهالى، فمثلاً القبائل الرحل والرعاة كانت تدفع الضريبة من أغنامها.

وكانت ميزانية السودان تحقق دائماً عجزاً فالمصروفات أكثر من الدخل، وقد بُذلت محاولات لعمل ميزانية مستقلة للسودان عن مصر، بل وعمل ميزانية لكل

1- Hill: Op. Cit. P. 34.

إقلـــيم من أقاليمه، لكن لم تُجد هذه المحاولات إذ لم يستطع كل إقليم أن يسد حاجة إدارته بنفسه.

وقـــد بُذلـــت جهـــود لترغيب الاهالى فى الاستقرار فى الأرض والعمل بها، ونجحـــت هذه الجهود فى كثير من الأحيان، فمثلاً نجح الشيخ (احمد الريه) فى أن يستقر فى أرض الجزيرة مع ألف ومائتين من قبيلته.

ولـــم يكن بالسودان مكان للجمرك إلا فى (وادى حلفا) وأنشئ بعد ذلك جمرك عند (القلابات) فى نقطة الحدود مع الحبشة.

وفـــى ســـواكن كـــان الجمرك يتبع والى جده كما أشرنا سلفاً إلى أن أحيلت إدارتها إلى مصر.

القضاء :

كان الشرع الاسلامى هو المطبق فى السودان على قدر معرفة السودانيين به، ولما امتدت الإدارة المصرية للسودان أصبح القانون المدنى والحربى معمولاً بهما، وقد وُجد فى السودان عدد من الفقهاء السودانيين، تعاون عدد كبير منهم مع الإدارة المصرية لتطبيق الشرع.

وكـــان يرأس الهيئة القضائية فى السودان (قاضى عموم السودان)، وكثيراً ما كـــان محمد على يُرسل ضابطاً من مصر مشهوداً له بالأمانة للتحقيق فى الشكاوى التى تصله ضد الحكام، وكثيراً ما ترتب على تقرير هؤلاء المحققين عزل المشكو فى حقهم من وظائفهم أو تقديمهم للمحاكمة.

ونُشير هنا إلى نقطة أثارتها كثير من المراجع، وهى الشدة التى كثيراً ما أتبعت مـــع بعـــض المخالفين أو المتهمين – لكن لا شك فى أن هذا الأسلوب الذى قد ننظر إليه اليوم بالنقد اللاذع كان طابع العصر فى مصر وفى غيرها فى ذلك الوقت.

وفـــى خطاب محمد على للحاكم العام للسودان يذكر انه وصلته خطابات تظلم مـــن بعض المحبوسين فى (دنقلة)، وأنه علم أنه استخدمت معهم وسائل فى منتهى القســـوة لإجـــبارهم على الإعتراف– ويذكر له أن هذا يتنافى مع العدالة وأنه يجب عليه أن يسعى وراء الحقيقة بطرق أخرى غير استعمال القسوة[1].

علـــى أن القضـــايا المتعلقة بالأمن كانت تُحال إلى المكتب المختص بالقاهرة، ولـــذا كان كثيرون من هؤلاء المتهمين يقضون الشهور بل قد يصل الأمر إلى عام

١– محافظ المعيه تركى ٢٢٤ برقم ٥٢٨ فى (٢٩ أكتوبر ١٨٣٩).

كـــامل فى السجن فى انتظار المحاكمة، على أن (على خورشيد) عالج هذا النقص فيما بعد بأن شكل فى السودان محاكم عسكرية لمثل هذه القضايا.

وكـــان محمـــد علـــى على أتم استعداد لاستقبال القادمين من السودان ليستمع لشكاياتهم من ظلم وقع عليهم أو على أقرانهم أو عشيرتهم(١).

وكثـــيراً ما أرسلت الحكومة للحاكم العام للسودان تطلب تحقيقاً سريعاً فى ظلم حـــاق بالاهـــالى، فمثلاً حين عُلم أن مدير كردفان يستغل سلطته فى شراء الحبوب من الاهالى بأقل من ثمنها، وأنه يُعاود بيعها بعد ذلك بسعر مرتفع أرسلت الحكومة للحـــاكم العام ليحقق هذه الشكوى وإلا يدع الظلم يقع على الناس كما لا يدع محالاً لتخطى القانون.

وكانت الحكومة تُوصى الحكام بأن يحافظوا على هيبة الحكومة- فمثلاً حدث أن أســـتأذن عـــثمان بك جركس فى أن يقبل باسم الحكومة هدية كبيرة من الجمال قدمها بعض الأعراب فكان الرد عليه:

"إنـــه مـــن الأفضـــل أن يُراعى كرامة الحكومة ومهابتها، وإذا كان فى شديد الحاجة إلى هذه الجمال فيمكنه أن يقبلها باسمه(٢)".

محاولة تكوين جيش من السودانيين:

تكوين قوة حربية من المسائل الأساسية لأى حكومة، ومحمد على كان الجيش مـــن الأشياء الهامة التى شغلت باله فترة طويلة، وكان أمام محمد على عدة طرق لتكويـــن جيشه- منها استخدام (المرتزقة) الذين كانوا يحترفون الجندية للارتزاق، وبالطـــبع الاعـــتماد على هؤلاء خطأ لأن هذا مصدر غير ثابت وخاضع لسلطات غـــير سلطة محمد على – تستطيع هذه السلطات تعطيل التجنيد والتحكم فيه فيصبح الأمـــر غـــير ثابـــت وغير مضمون، كذلك أثبتت التجارب أن أمثال هؤلاء الجنود ليسوا مطيعيين دائماً لقادتهم.

والطريق الثانى هو تكوين جيش من الوطنيين، ويؤخذ على محمد على أنه لم يلجأ لهذا الاتجاه إلا مضطراً بعد أن فشلت فكرة تكوين جيش من الرقيق الآتى من الســـودان- وفكـــرة عـــدم تجنيد الفلاحين تحتاج لدراسة، فقد عللت بكره الفلاحين للتجنـــيد وهـــذا افـــتراء، لكن لعل السبب هو أن الفلاحين يقومون بفلاحة الأرض

1- Hill: Op. Cit. P. 44

٢- محفظة ١٦ صادر معية تركى رقم ٤٢٨ فى (١٥ ديسمبر ١٨٢٤).

وإنتاج الحبوب، ودفع الضرائب مما دفع الحكومات للتفكير فى عدم إنقاص الفلاحين، كما أن فكرة التجنيد العام الإجبارى دفاعاً عن البلاد لم تنتشر إلا بعد الثورة الفرنسية والمبادئ التي أرستها من أن (الأمة مصدر السلطات) وان واجب الدفاع عن أرض الوطن فرض على الجميع، قبل ذلك كانت كل الجيوش تتكون من متطوعين مأجورين – لكن من ذلك التاريخ انتشرت مسألة تأليف الجيوش الوطنية فى سائر بلاد العالم.

محمد على نظر للسودان أنه موردًا للجيش، وهناك خطابات مرسلة منه إلى مرؤوسيه تستعجل الذكور الصالحين للتدريب العسكرى[١].

هذه كانت فى رأيه أحسن طريقة لتكوين جيش، فقد لمس المميزات الجسمية للرقيق الذين كانوا يُجلبون لأسواق الرقيق من مختلف أنحاء أفريقيا، هذا بالإضافة لاستعدادهم للتخلق بالأخلاق العسكرية كالطاعة والولاء لأصحاب الكلمة مع الميل للحرب. وكان يعتقد أن ذلك أمر لا ينتهى وموردًا لا ينضب ولا تتأثر الزراعة بمقتلهم بالإضافة إلى أنهم أرقاء ليست لهم ارتباطات، ولا يكلفون كثيراً غير المأكل والمشرب – وكانت طريقة الحصول عليهم ليست بالشراء بل بالجمع كما يفعل تجار الرقيق فى أعالى النيل– ولم تلحظ محكومة محمد على أن هذا النوع من الرق معيب لأن الرقيق بعد أن يُجمع بالخطف يأكل ويشرب ويرتقى فى الجيش إلى رتب عالية أحياناً، بعكس العبيد الذين كانوا يستخدمون فى الإنتاج الزراعى مثلاً.

وكانت الخطة أن يُغار على أراضى (سنار) مثلاً، فإذا جُمع عدد كبير من أسرى الزنوج مثلاً عشرة آلاف من الصالحين للجندية يُرسلون على جناح السرعة وهكذا حتى يتم جمع ما يقرب من أربعين ألفاً من الصالحين للجندية. وقد صدرت الأوامر بتحريم تعاطى الرقيق بواسطة الجلابة إذ أصبح ذلك حكراً للحكومة وحرمت الحكومة على الجلابة بيع ما يحصلون عليه من رقيق حتى للحكومة ذاتها.

وللحصول على الرقيق أيضاً جرت مكاتبات فى عهد محمد على ومع سلطان دارفور يطلب الرقيق منها.

ولما قامت حركة مناهضة الرق اعترضت الحكومة الانجليزية على محمد على فى هذا الشأن، وكان رده انه أصدر أوامره بمنع الرق، لكن قد يحدث عصيان من بعض القبائل الزنجية فتزحف الجنود للضرورة ليسود النظام، ومن ثم فمن كان

١– دفتر ١٠ معيه تركى– مكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ (٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٣٧) – ونفس الدفتر مكاتبة رقم ٣٢٥ بتاريخ (غرة ذى القعدة سنة ١٣٢٧).

في سن الجندية قد ينضم للجيوش النظامية ولا يُعامل كرقيق بل يتزوج وتسير عليه الرتب اللازمة.

لم ينجح محمد على في تكوين جيش كامل عن طريق الرق لأسباب عدة منها:

أ- أن الحكومة لم تستطع منع الجلابة من مزاولة اصطياد الرقيق وأتى وقت أصبحت فيه مشاركة لهؤلاء في هذه العملية. وعلى هذا فلم تستطع الحكومة احتكار هذا المورد مما ترب عليه أن تموين الجيش بالعبيد تعرض لحالة نقص أو ازدياد حسب الظروف.

ب- ثبت أن هذه الطريقة يترتب عليها خسارة كبيرة في الأرواح، لأن اصطياد الرقيق وترحيله يتعرض فيه الرقيق لعوامل المرض والموت، وكثير منهم كان يلجأ للانتحار فطبيعة الرق مصحوبة بقسوة وفزع وحرمان.

ج- لم تستطع الحكومة المصرية في القرن التاسع عشر أن تعتمد على الرق لتكوين جيش كامل مع الضغط الأوروبي باسم الإنسانية لإلغاء الرق، لكن لا يعني هذا عدم نجاح تكوين فرق في الجيش من القبائل السودانية الراغبة في الجندية.

التنظيم الاقتصادي:

كفل النظام والأمن ازدهاراً ملحوظاً للاقتصاد السوداني بمختلف فروعه.

أ - الزراعة:

بُذلت جهود لإنعاش الزراعي القائمة، فأقيمت السواقي لتوفير المياه وأرسلت الأدوات اللازمة لحفر قنوات الري، كما بُذلت الجهود لمكافحة الآفات الزراعية كالجراد، وصدرت الأوامر للمديرين بمصر لتُسهم مديرياتهم في إرسال عدد من الفلاحين المهرة للمساهمة في تعمير سنار وكردفان وتدريب السودانيين هناك على طرق الزراعة الحديثة[1].

وقد كان مجال العمل في السودان مفتوحاً، وكانت الضرائب المفروضة على الأرض أقل منها في مصر حتى انه في عام ١٨٢٩ إشتكى بعض المديرين بمصر من أن كثيرين هربوا من مديرياتهم لدنقله بالسودان، ليستقروا هناك ويزرعوا الأرض، حيث أن الضرائب المفروضة على الأرض الزراعية هناك أقل بكثير منها في مصر.

١- محافظ عابدين ١٩ معية تركى رقم ٥٣٤٠ ف (٧فبراير ١٨٢٥).

وقد أدخلت فى السودان كثير من الزراعات الجديدة بالإضافة للجهود لتحسين الأنواع التى كانت تزرع من قبل.

فالقطن حين ازدهرت زراعته بمصر بُذلت جهود لتعميمه فى المناطق التى تتوفر فيها مياه الرى بالسودان- وقصة إدخال زراعة القطن فى مصر والسودان ترجع - كما يقال- إلى (محو بك) الذى خلف (عثمان جركس) فى إدارة السودان، فقد أحضر بعض بذور القطن التى وجدها مزروعة فى بعض المناطق فى جنوب سنار وزرعها فى حديقته فى مصر فكانت هذه نواه لزراعة القطن فى مصر التى يرجع الكثير من الفضل لوضع أسسها للخبير الفرنسى جوميل (L. A. Jumel).

وزرع المصريون فى سنار أشجار الفاكهة كالعنب والليمون والتين، وقد ذكر كثير من الذين زاروا السودان فى ظل الإدارة المصرية بأن منازل الضباط المصريين بالسودان كانت مُحاطة بالحدائق التى تزدهر فيها أشجار الفاكهة[1].

وكان (النخيل) يُزرع بكثرة فى إقليم دنقله فقط فعُممت زراعته فى أقاليم السودان الأخرى حتى أصبح البلح يعتبر فى مقدمة قائمة الصادرات السودانية.

وبُذلت جهود لزارعى (الأرز) فى السودان بعد توفير مياه الرى له، كما أدخلت زراعة (قصب السكر) بكثرة فى المناطق التى يلائم مناخها زراعته والتى أمكن توفير مياه الرى فيها عن طريق السواقى- وقد انتشرت زراعته فى (بربر) و(سنار) حتى أن أحد (الأمان) أنشأ مصنعاً لعصر القصب المزروع فى هذه الجهات لاستخراج السكر منه[2].

وتوسع المصريون فى زراعة (الكِتان) الذى كانت مصانع أوروبا الغربية فى حاجة إليه، وكان من قبل ينمو برياً فى كردفان فكان ذلك مشجعاً على زراعته وتعهده- فكما قال محمد على لمعاونيه فى هذا الشأن:

"إن كل الأشجار والنباتات والأزهار تنمو عادة بطريقة برية لكن يرجع الفضل لعبقرية الإنسان ليُخضعها لنظامه ويحقق منها ربحاً".

وكانت الأصباغ اللازمة لصباغة الأقمشة تُرسل من مصر حتى اكتشفت نباتات تُعطى الأصباغ المطلوبة.

وبذلت الإدارة المصرية جهوداً لتحسين الإنتاج الحيوانى، فاستوردت بعض المواشى والأغنام من الخارج لتحسين الإنتاج، ولذا فقد أمكن التوسع فى تصدير

1- Hosikins: Travels in Ethiopia P.5

٢- نفس المرجع السابق والصفحة.

الماشــية الحــية بالإضافة للمنتجات الحيوانية- وقد أرسل من مصر خبرا لتدريب السودانيين على الاستفادة من جلود الحيوانات.

ب- التعدين والصناعة:

يُوجد الحديد فى السودان بمنطقة كردفان فى المنطقة الممتدة من جبال حرازة إلى جبال النوبا، وكان الأهالى بطريقتهم البدائية يستخلصون المعدن ويحولونه إلى رؤوس للســهام وبعــض الآلات اللازمة للزراعة، وبعض الآلات المنزلية- فلما امــتدت الإدارة المصــرية لهــذه الجهات أرسلت عينة من خام الحديد المستخرج لمصــر لفحصــها، ومنذ عام (١٨٢٨) أصبح معظم الحديد المستخرج من كردفان يُســتخدم فى صناعة المسامير اللازمة (للترسانة) السفن التى أقامها (على خورشيد) على النيل الأبيض[1].

وقــد بذلــت جهــود لمســح منطقة المناجم هذه فى كردفان وبُحثت أنجح الوســائل للاســتفادة من معدن الحديد، فأُرسلت بعثة إنجليزية لهذا الغرض، ثم أرسل المهندس الفرنسى لمبير (C. Lembert) الذى كان فى خدمة محمد على فــى عــام ١٨٣٩ لبحث الوضع، وقد كتب تقريراً أشار فيه إلى ضرورة إيجاد وســائل أخرى متقدمة لصهر المعدن ليتيسر الاستفادة منه، وفى ١٨٤٧ أرسل مهــندس آخــر هو يوحنا بتريك (John Petrick)، وأهم ما جاء فى تقريره أن صــعوبة وســائل النقل وعدم توفر العمالة المهرة هى التى تعوق الاستفادة من المعــدن وتجعــل تكالــيفه باهظة بحيث لا يحقق ربحاً يشجع على المضى فى عملية استخراجه[2].

وقــد بُذلــت جهــود للبحث عن المعادن الأخرى كالرصاص، والنحاس وهذا الأخير كان موجوداً فى جنوب غرب دافور فى المنطقة المعروفة (بحفرة النحاس) وكــان بعــض الاهالى يصهرونه بالطرق البدائية أيضاً ويستخدمونه بعد ذلك فى عمليات المقايضة- وهذه الجهات كما نعلم لم تدخل فى حوزة الإدارة المصرية إلا فى عهد الخديوى إسماعيل.

وقد أرسل (بتريك) الذى أشرنا إليه سابقاً للبحث عن الفحم فى صحراء النوبة وفى كردفان لكن لم تسفر جهوده عن نتيجة مثمرة.

1- Hill: Egypt In The Sudan P. 57.

2- Hill: Egypt In The Sudan P. 58.

وسنشير فيما بعد للجهود التى بُذلت أيضاً للتحقق من وجود الذهب فى المناطق القريبة من فازوغلى وبحث إمكانيات استغلاله.

على أننا نشير إلى أن بعض الكُتاب الذين تعرضوا للحديث عن الجهود التى بذلتها الإدارة المصرية فى السودان لتحقق لهذه البلاد أكبر قدر من التقدم الاقتصادى- يرجعون هذا الاهتمام إلى حاجه محمد على للمال. وحتى إذا افترضنا أن الدافع للجهود المبذولة هو الحاجة للمال فإن ذلك لا يُنقص من قيمة هذه الجهود، ومن الفوائد التى لا شك فى أنها تعود على السودانيين من هذا النشاط.

على أن الإدارة المصرية اهتمت بإرسال بعض السودانيين لمصر لتعلم بعض الصناعات والحرف ثم يعوون لبلادهم يمارسونها فيها نشاطهم[1].

ومن الحرف والصناعات التى أخذت ترسخ أقدامها فى السودان الغزل والنسيج، والصناعات القائمة على الإنتاج الحيوانى وصناعة السفن والتعدين.

جـ- التجارة والمواصلات:

أشرنا إلى التطور فى المعاملات التجارية الداخلية والخارجية بعد امتداد الإدارة المصرية للسودان.

وقد ترك أمر حماية (القوافل التجارية) لشيوخ القبائل التى تمر هذه القوافل بأرضها طالما كان هؤلاء الشيوخ موالين للحكومة، وحُددت لهم المبالغ التى تؤخذ من القوافل المارة بما لا يتجاوز ١٠% من قيمة البضائع، وعلى أن تقوم هذه القبائل بتمهيد الطرق البرية ووضع العلامات الحجرية التى ترشد القوافل للطريق السليم.

واهتمت الإدارة المصرية بالملاحة النهرية، وقد بذلت الجهود منذ ١٨٢٠ لتيسير مرور الراكب عبر صخور الجندل الثانى بالذات، وخلال زيارة محمد على للسودان (١٨٣٨- ١٨٣٩) أمر بأن يُبذل كل ما يمكن من جهد لحفر طريق ملاحى عميق خلال الجنادل ليسمح بمرور السفن الكبيرة طوال شهور السنة. وإن كان تحقيق هذا الهدف كاملاً لم يتم فى ذلك الوقت لكن بُذلت بعض الجهود الناجحة فى هذا السبيل.

هذه بعض انجازات الإدارة المصرية للنهوض بالسودان اقتصادياً.

١- د. مكى شبيكة: مرجع سابق – ص٤٠.

حكام السودان فى عهد محمد على

١- إسماعيل بن محمد على:

هو قائد الحملة التى عُهد إليها بضم السودان للإدارة المصرية، وقد صدر أمر تعيينه حاكماً على (سنار) فى يوليو ١٨٢٠ لكنه مات فى شندى فى صفر سنة ١٢٣٩ (أكتوبر ١٨٢٣) نتيجة مؤامرة الملك نمر زعيم الجعليين[١].

٢- محمد بك الدفتردار (صهر محمد على):

بعد موت إسماعيل أصبح الدفتردار المسئول الأول عن الحاميات المصرية بالسودان، وعن إدارة الأقاليم التى تم ضمها، وقد أصدر محمد على له أمراً بذلك- واستمر محمد بك الدفتردار فى السودان حتى شهر أكتوبر ١٨٢٤، وتميزت هذه الفترة من تاريخ السودان بالاضطرابات التى أعقبت مقتل إسماعيل والحملات الانتقامية التى قادها الدفتردار الذى- كما ذكرنا- كان فى طبعه الكثير من الشراسة وحب سفك الدماء.

٣- عثمان بك جركس البرنجى:

أرسل (عثمان جركس) إلى السودان فى عام ١٨٢٤ لتسلم دفة الأمور من الدفتردار الذى أمر بالعودة، وكانت الحالة فى السودان قد وصلت إلى درجة تحتاج لشخص معتدل وحازم يبعث فى النفوس الطمأنينة ويُعيد الثقة بين الحكام والمحكومين، ويقضى على عوامل الفوضى والاضطراب[٢].

وقد أرسلت مع عثمان جركس – قوة من الجيش المصرى الجديد الذى أُعيد تنظيمه وتدريبه على الأسس الحديثة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت فى الجيوش الأوروبية، كما أرسلت معه نخبة من المعاونين لمساعدته فى تنظيم الإدارة فى سنار وكردفان، ومن هؤلاء المعاونين (سليمان بك الخربوطلى) وقد عُين قائمقاماً فى (الأبيض).

ووجد عثمان بك أن (ود مدنى) لا تصلح كمركز لإدارة الأقاليم السودانية التى امتدت إليها الإدارة المصرية، ولفت نظرة موقع قرية صغيرة على النيل الأزرق على بعد ميل تقريباً من نقطة التقائه بالنيل الأبيض، فاختارها كمركز للإدارة

١- تختلف الآراء فى نهاية إسماعيل فُيقال إنه مات مختنقاً (مكى شبيكة: السودان فى قرن – ص ٣٥) ويُقال إن رجال نمر هجموا عليه هو ورجاله وهم محاصرون بالنيران فقتلوهم (Hill: p. 16).

٢- أنظر خطاب محمد على بهذا المعنى إلى (القبو كتخدا) – محفظة ١٨ معية تركى رقم ٦٣٣ فى (١٢ نوفمبر ١٨٢٤).

الجديـدة وبـنى فـيها قلعة صغيرة، وكانت هذه بداية نشأة مدينة (الخرطوم) التى أخـذت تـنمو بسـرعة حتى أن بعض الذين زاروها فى عام (١٨٢٦) دُهشوا من التغيير الذى طرأ عليها فى خلال عامين فقط من اختيار عثمان جركس لها كمركز لإدارة شئون الأقاليم السودانية التى إمتدت إليها الإدارة المصرية.

وكـان اختـيار هذا المكان للعاصمة الإدارية اختياراً موفقاً فهو مكان متوسط بالنسبة للسودان، وعلى الطريق الرئيسى للقوافل المتجهة إلى القاهرة، كما أنها فى مفترق الطرق النهرية للجنوب.

وتوفـى عثمان جركس فى أبريل ١٨٢٦ فأستدعى (محو بك) على عجل من بربر ليحل محله[١].

٤- محو بك:

رأى محمـد على أن تقتصر إدارة محو بك على سنار، وكانت كردفان - كما ذكرنا- تحت إدارة (سليمان بك الخربوطلى).

وفـى خطـاب مرسل للمعية من حاكم كردفان يذكر أنها عانت الكثير بسبب القحط الذى اجتاحها لعدم نزول أمطار لمدة عامين، مما ترتب عليه جفاف كثير من المحاصـيل التى زرعها المصريون فى الاخوار حول (باره) و(الطيارة) وغيرها من مدن كردفان- لكن الأمن الذى ساد المنطقة والجهود التى بذلتها الإدارة ساعدت على تخفيف وطأة المجاعة، وأرسل (سليمان بك) لمصر عينه من الحديد من جبال كردفان لاختبارها، وكذلك كمية من الصمغ العربى وريش النعام، والعاج[٢].

أمـا (محـو بك) فقد اهتم بإشاعة الأمن فى سنار، واشتد مع الجنود حتى لا يسـيئوا معاملـة الأهالى، وبنى داراً للحكومة وثكنة لإقامة الجند بالخرطوم وقرب إليه الاهالى ومشايخ القبائل- وأمر بحفر الآبار فى المناطق البعيدة عن النيل والتى تقـع فـى طريق القوافل أو التى يتجمع فيها عدد من الاهالى، وذلك لتوفير المياه الصالحة للشرب[٣].

ولـم يـبق (محو بك) كحاكم لسنار إلا لمدة قصيرة فخلفه فى ولاية السودان (على خورشيد).

1- Budge: Op. Cit. Vol. 2. p. 213.

٢- وارد المعية - محفظة ٢٠ معية تركى، رقم ٣٢٩ فى (٤ مارس ١٨٢٦).

٣- إبراهيم (باشا) فوزى: السودان بين يدى غوردون وكتشنر - ج ١ ص ٦٥.

وكذلك Budge: The Egyptian Sudan Vol. 2. p. 213.

٥- على خورشيد (باشا) :

بقى (على خورشيد) فى إدارة السودان فترة طويلة امتدت نحو أثنى عشر عاماً (١٨٢٦- ١٨٣٨)- وقد اتسعت سلطته تدريجياً، فبعد أن كانت سلطته قاصرة على سنار فى ١٨٢٦ أضيف إليه إقليم بربر الذى كان تحت إدارة محو بك، وفى ١٨٣٢ أضيفت كردفان لإدارته، وتلاها إقليم دنقله فى ١٨٣٣. فأصبح مديراً للسودان بلقب بك، وفى ١٨٣٥ أصبح حكمدارًا عاما للسودان بلقب باشا[١]. ويبدو أن محمد على أدرك أن تركيز الإدارة على يد على خورشيد القريب من مركز الحوادث، أفضل من تقسيم السودان لإدارات متعددة منفصلة تتلقى أوامرها من القاهرة.

وقد كان (على خورشيد) من المبدأ موضع ثقة محمد على- ففى الأمر الصادر بتعيينه يذكر له محمد على إنه منحه كل السلطات ليحكم الإقليم الذى وضع تحت إدارته، وليحقق له النظام والأمن والدفاع ضد اى هجوم، وعليه أن يُنفذ ذلك دون أن يرجع إليه إلا فى المسائل البالغة الأهمية[٢].

وبمجرد وصول الحاكم الجديد للخرطوم عقد مجلساً مع كبار ضباط جيشه لبحث حالة الإقليم الذى وُضع تحت إداراته والوسائل التى تقترح للنهوض به، وقد أبرق (على خورشيد) لمحمد على بتقرير هذا المجلس – وعقد الباشا جلسة خاصة لمجلس المشورة لبحث هذا التقرير، وقد حضر جلسة المجلس هذه الدفتردار، وحنا الطويل وغيرهما من المختصين بشئون السودان، وقد أشار التقرير بنوع خاص للحالة الاقتصادية ولعجز الاهالى عن دفع لمطلوب منهم من ضرائب.

وبذل على خورشيد جهده لتعمير البلاد وتوطيد الأمن، وعمر مدينة الخرطوم وبنى بها مسجداً، ونظم دواوين الحكومة، وعلم الاهالى استخدام (الطوب) والأخشاب فى المبانى بعد أن كانوا يبنون بيوتهم بالغاب والجلود- وأدى هذا كله لاطمئنان الاهالى واستقرارهم، وقد وصل عدد سكان الخرطوم وحدها فى أيامه حوالى خمس عشرة ألف نسمة[٣].

ولذلك فإن اسمه يقترن دائماً باسم مدينة (الخرطوم) التى نقلها من (حلة) قديمة للصيادين لا يوجد بها إلا بعض مساكن للاهالى من القش (تُكلات) إلى مدينة عامرة أصبحت حاضرة للسودان الحديث، ومنذ ١٨٣٠ أصبحت الخرطوم مقراً

١- دفتر ٦٦ معيه تركى – أمر رقم ٦٧ بتاريخ (٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥١هـ).

٢- انظر صادر معية تركى – محفظة رقم ٤٢١ – فى سبتمبر سنة ١٨٢٦).

3- Combes: Voyage en Egypte, en Nubie, Vol. 2 P. 336.

رسمياً لحكمدار السودان، وسُميت بالخرطوم لأن موقعها عند ملتقى النيلين الأزرق والأبيض يُوحى بشكل خرطوم الفيل، وأسست بها سراى من دورين للحكومة ومسجدان وثكنة للجنود شرقها، ومصنع للبارود ومستشفى وقيل إن عدد سكانها وصل فى نهاية عهد محمد على ثلاثين ألفاً.

وقد وضع خورشيد نظاماً ثابتاً للإدارة طبقه بدقة وحزم وكفاءة، وطلب أن تُرسل له من مصر طائفة من المزارعين لتدريب الاهالى على الزراعة، واستطاع بذلك أن يتوسع فى زراعة الذرة، والشعير، والقطن، والقمح، والشوفان، والنيلة وغيرها من المحاصيل التى أخذت تزدهر فى السودان بالإضافة للموالح وغيرها من الفواكه- وقد تحقق ذلك بفضل توفير مياه الرى بحفر الترع وتعميم استخدام السواقى- وأهتم أيضا بالثروة الحيوانية ومنتجاتها.

كما أرسل بعض السودانيين لمصر لتعلم بعض الصناعات والحرف ثم يعودون لبلادهم يمارسونها فيها[1].

ويذكر لخورشيد أنه نجح إلى حد كبير فى تيسير المواصلات النهرية بين مصر والسودان، بالإضافة لربط أجزاء السودان الشمالى التابعة للإدارة المصرية ببعضها عن طريق السفن النيلية، وقد اخضع مناطق الجنادل الصخرية التى تعترض مجرى النهر من جنوب أسوان إلى الخرطوم، كما ذلل عقبة عدم وجود الأخشاب بكثرة فى المناطق التى خضعت للإدارة المصرية حتى ذلك الوقت، فأُستخدمت أخشاب الأشجار الموجودة بالإضافة لمحاولة استيراد الأخشاب من الجنوب عن طريق المبادلة مع قبائل هذه الجهات، إذ أن الأخشاب متوفرة فى جنوب السودان خارج نطاق الإدارة المصرية حينئذ- كما أوجد على النيل الأبيض والأزرق (مراسى) صالحة لاستقبال السفن النيلية وإصلاحها، وعلم بعض الاهالى الصناعات المتعلقة بالسفن والملاحة بجانب من أمدته بهم مصر من الفنيين والخبراء فى هذه الصناعات.

وكان من أساب نجاح (على خورشيد) فى سياسته، انه حرص على أن يشترك الوطنيون فى إدارة شئون بلادهم وفى النهوض بها فى مختلف المجالات وقد وُفق فى كسب ثقة السودانيين فعاونوه فى مهمته خير معاونه.

على أن خورشيد أُضطر لمغادرة السودان لمرضه، وقد كان يشرف على علاجه فى مصر قبل سفره للسودان (كلوت بك)، لكن تدهورت صحته فى السودان

١- د. مكى شبيكة: مرجع سابق – ص٤٠.

وكذلك Sabry, M: L,Empire Egyptien sous Ismail P. 434

فالـتمس مـن محمد على إعفاءه من منصبه وقبل محمد على ذلك فأعفاه فى عام (١٨٣٨). ويصف الشيخ أحمد كاتب الشونه وداع الاهالى لخورشيد باشا فيذكر "إن رحيله صعب على الاهالى جميعاً وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع، حتى قيل إن الشيخ عبدالقادر هجر نفسه من الأكل والشراب يومين حزناً على فراقه"[١].

وقد شهد لخورشيد أيضاً الأجانب الذين زاروا السودان خلال فترة إدارته من أمـثال الالمـانى روبل (Rpell) الذى استطاع أن يزور كردفان فى عام (١٨٢٥) ومـا بعده، وأدولف لينان دى بلفون (Linant de Bellefonds) الذى قام برحلة فى عـام ١٨٢٧ فـى النـيل الأبيض لحساب (البعثة الأفريقية الانجليزية)، والرحالة الفرنسى كومب (Combes)، وبالم (Pallme)، وهوسكنس (Hoskins) الانجليزى، وعـالم الآثـار الالمانى لبسيوس (Lepsius)، وقد استرعى إنتباههم جميعاً التغيير الـذى شمل مختلف نواحى الحياة المصرية فى السودان والأمن الذى أصبح مستتباً فـى الأقاليم تحت الإدارة المصرية، بعكس ما كان معروفاً من تعرض أى مسافر وبالأحـرى الاجنـبى لمخاطـر لا حد لها من قبل- وسنشير بشىء من التفصيل لكتابات هؤلاء فيما بعد[٢].

٦- أحمد باشا أبوودان:

اسـتمرت إدارته للسودان خمس سنوات تقريباً (١٨٣٨-١٨٤٣) وكانت فترة مليـئة بـالأحداث والنشـاط- واشتهر بالحزم والشدة مع العابثين بالأمن سواء من المواطنيـن أومـن الأجانـب، ومن أهم الأحداث فى هذه الفترة رحلة محمد على للسودان التى بدأت من أكتوبر ١٨٣٨ واستمرت حتى مارس ١٨٢٩. وتستحق هذه الرحلة الدراسة لمعرفة أهدافها وما تحقق منها.

رحلة محمد على للسودان :

بـدأت بعـد نحو عشرين سنه من امتداد الإدارة المصرية إليه، ومحمد على وقـت قيامه بالرحلة كان عمره سبعين عاماً تقريباً – وقد لاقى الكثير من المشقات

١- د. مكى شبيكة: السودان فى قرن ص ٤٤- وكاتب الشونة هو أحمد الحاج أبو على- وقد كان موظفاً بالديوان بالخرطوم وكتابه بعنوان (تاريخ مدينة سنار).

٢- أشرت فى الجزء الأول من هذا الكتاب لرحات وكتب (Hoskins) & (Lepsuis) ص ٢٨٩، ٢٩١، وقد نشرت رحلات الآخرين.

- Ruppell, E. : Reisen in Nubien, Kaedofan. 2 Vols. (Paris 1838).
- Combes, E. : Voyage en Egypt, en Nubien, 2 Vols. (Paris 1846).
- Pallme, I. : Travels in Kordofan (Translated from the German- London 1844).

والصعاب، وكاد يهلك غرقاً فى النيل بسبب انكسار سفينته، كما أنه اجتاز الصحراء للخرطوم على هجينه – وقد وصفت الوقائع المصرية الرحلة- كما أن مرافقى محمد على من الأجانب كتبوا عنها.

والدافع لهذه الرحلة أن محمد على فى سنة (١٨٣٨) التى اعتزم فيها القيام بهذه الرحلة كانت ظروفه المختلفة على شىء كثير من الحرج- فقد كانت إداراته تمتد إلى بلاد العرب، وكان يعمل لمد نفوذه لساحل اليمن، بينما فى الشام كان يحكم سورياً لغاية حدود الأناضول، فجيوشه كانت كبيرة ومبعثرة فى أمكنه عديدة- بخلاف أنها كانت قائمة فعلاً بحملات مختلفة خاصة فى بلاد العرب- وكانت العلاقات بينه وبين السلطان العثمانى (السلطان محمود) فى غاية السوء- وكان السلطان يؤلب أو على الأقل يُعاون على تأليب جبهة أوروبية ضد اتساع النفوذ المصرى، ويمكن القول أنه لم تحل سنه (١٨٣٨) إلا وكان قد استقر رأى الحكومة الانجليزية على مقاومة الاتساع المصرى، والعمل على الوقوف فى وجهه، وإرجاع مصر لما كانت عليه، وكانت الحكومة الانجليزية قد دخلت فى عدن (١٨٣٨) لتواجه امتداد مصر، كما أنها كانت تُشجع الانتفاض على الإدارة المصرية فى سورّياً، وكانت سياستها فى هذا الاتجاه قد بدأت تكون سافرة.

فموقف محمد على فى سنة ١٨٣٨ كان حرجاً، وكانت حالته المالية سيئة لأن مصروفاته وخاصة العسكرية أصبح من المتعذر مواجهتها من موارد الدخل العادية، فبدأ يشعر سنة ١٨٣٨ أنه لابد من موارد مالية جديدة، ولابد من أن تكون موارد سريعة تأتى ثمرتها مباشرة. سمع محمد على فى العشرين سنة الماضية أقوالاً متضاربة عن السودان ومصادر الثروة به فقد قال بعض الناس إن فيه من الخيرات والمعادن الشىء الكثير، والبعض قال العكس- فقرر أن ينتقل بنفسه ليرى كما قال (بعينه) واصطحب معه أخصائيين أوروبيين فى شئون المعادن.

فالرحلة فى الواقع كانت رحلة تحقيق دفعت إليها ظروف الضائقة التى كان فيها محمد على، أتم رحلته (لفازوغلى) وقابل الاهالى فى مختلف الجهات وسمع شكايات من كثيرين- وبدأ الأخصائيون المرافقون له يبحثون العينات التى حصلوا عليها من المعادن، وتضاربت أقوالهم- فمن قائل أنها لا تساوى شيئاً، ومن قائل إنها ذات قيمة- لعل الأقرب هو تقرير لأمبير (Lambert) ناظر مدرسة الهندسة الذى قرر فيه أن شُغل العامل فى استخراج التبر يوماً كاملاً يُعطى تبراً قيمته أربعة قروش، أى أن المعدن الموجود قليل وعملية استخراجه لا تُغطى التكاليف – لكنه أشار إلى أن هناك ذهباً إنما هذا الذهب يتمثل فى مشروعات للرى والزراعة

فى إقليم سنار – وقد رجع محمد على من هذه الرحلة بعد أن تأكد أن السودان من هـذه الناحية الاقتصادية ليس كأقاليم الذهب فى (ألسكا) مثلاً التى يُحصل منها على الذهب بطرق سريعة.

مـن الذيـن صـحبوا محمد على فى هذه الرحلة للسودان أيضاً من الباحثين والمهندسين خلاف (لأمبير):

أ – طبيب محمد على الخاص وهو رجل فرنسى يدعى (Gaetani)، وقد كان من أعوان (كلوت بك) فى ضبط الصحة المدرسية.

ب– الخبير النمساوى فى التعدين روسيجر (J. Von Russeger)[١]

ج– والمهندس الايطالى بوربانى Boreani الذى كان فى خدمة محمد على.

ولهـم مقـالات عن السودان ومعادنه، وموارده النباتية والحيوانية نُشرت فى مجلـة الجمعية الجغرافية الفرنسية، أما عن الرحلة ذاتها فقد نشر المؤرخ الايطالى (Sammarco) مقالاً وافياً عنها فى الجمعية الجغرافية المصرية[٢].

كذلك قنصل اليونان بمصر فى ذلك الوقت له بحث منشور مرفق معه خرائط لسير محمد على إلى دنقلة ثم فى صحراء بيوضه حتى وصوله الخرطوم.

ومهما تكن أهداف محمد على من رحلته للسودان، فالذين كتبوا جميعاً يُجمعون على أن الأمر لم يقتصر على التنقيب عن المعادن، بل امتد النشاط فى هذه الفترة إلى كـل نواحى الإدارة المصرية بالسودان– فقد أتاحت هذه الزيارة الفرصة لوالى مصر لـيرى بنفسـه الأوضاع فى بلاد السودان التى خضعت لسلطانه، ويحاول أن يضع الحلول السريعة للمشكلات القائمة– ومن المشكلات العاجلة التى ناقشها (محمد على) فى زيارته للسودان مُشكلة المواصلات، وقد ناقش مع المهندسين المرافقين له مسألة إمكانـية مـد خط حديدى لربط بعض أجزاء السودان الهامة مثل مناطق الحديد فى كردفان وتوصيلها بالنيل الأبيض– بل بحث مسألة مد خط حديدى من (القاهرة) حتى (فـازوغلى) ومـن (أسـوان) إلى (بربر)، ومسألة إخضاع مناطق الجنادل للملاحة النهرية، ومد خط تلغرافى بطول وداى النيل فى مصر والسودان[٣].

ولو أن الدارسات كلها كانت بلا شك سابقة لأوانها، لكن التفكير فيها يدل على اهتمام حقيقى بشئون السودان.

1- Russeger, J. Reisen in Europa. Asien und Afrika (Stuttgart 1841).

2- Sammarco, A.:. Viaggio di Mohammed Ali al Sudan. (Cairo 1929).

3- Hill: Op. Cit. P. 67.

نتائج الزيارة :

لمس محمد على أثناء زيارته للسودان مبلغ ما يرتكبه النخاسون من قسوة فى جلب الرقيق وشحنهم إلى مختلف الأسواق، فأصدر أمراً بإلغاء (تجارة الرقيق) وإن كان هذا الأمر لم يمكن تنفيذه فى ذلك الوقت بسبب تغلغل الرق فى المجتمع الافريقى عامة من زمن بعيد، لكن كانت هذه خطوة لما اتخذه الخديوى إسماعيل فيما بعد من خطوات لإنهاء الاتجار بالرقيق.

وقد فكر محمد على فى أن يعدل عن النظام المركزى المتبع فى إدارة السودان، فألغى منصب الحكمدار وجعل المديرين يتصلون من القاهرة مباشرة حتى لا يستغل الحكمداريون وظائفهم وسلطانهم للإثراء والاتجار فى الرقيق، وجعل (الخرطوم، وسنار، والجزيرة) مديرية واحدة على رأسها (أحمد باشا ابووودان) – لكن لم يلبث أن أكتشف أن هذا النظام لا يُحقق الهدف منه، إذ أصبح المديرون لا يشعرون بأية رقابة عليهم لبُعد المسافة بينهم وبين مصر– فأعاد النظام القديم وأرجع للحكمدار سلطته المطلقة.

وفى أثناء زيارة محمد على للسودان تظلم بعض الفلاحين والتجار من (نظام الاحتكار) الذى طبقة (محمد على) على السودان كما كان مطبقاً على مصر، فقد كان يُطبق هذا النظام على الاتجار فى الصمغ العربى، والعاج، وريش النعام، والعظام، ولما تأكد محمد على من أحقية التجار فى شكواهم أمر بوقف العمل بهذا النظام وبالتدريج عادت للتجارة حريتها فى التداول(١).

ومن الأعمال الهامة التى تحققت فى هذه الفترة رحلات البكاشى (محمد سليم قبطان)، الضابط المصرى الذى قاد حملات الكشف عن منابع النيل العليا فى الفترة (١٨٣٩-١٨٤٢) وسنشير لهذه الرحلات الكشفية بشىء من التفصيل فيما بعد، لكن نشير هنا إلى أنه أثناء زيارة محمد على للسودان بُحثت الترتيبات اللازمة لنجاح هذه الحملات الكشفية.

وفى عهد حكمدارية (احمد باشا أبو ودان) فُتح إقليم التاكه الواقع بين محافظتى مصوع وسواكن وحدود الحبشة، وأسست مدينة (كسلا)، وقد حاول (احمد باشا أبو ودان) أن يتفاوض مع زعماء الهدندوه القاطنين فى ذات الإقليم لُيعلنوا خضوعهم حقناً للدماء– دون جدوى، وحاول بعد ذلك أن يستخدم سلاح العلم فبنى سداً ليحول دون وصول مياه (الجاش) إليهم فيُجبروا على الاستسلام،

1- Hill: Op. Cit. P. 74.

لكن لم تنجح هذه الوسيلة أيضاً فقد حُطم السد وتدفقت مياه الفيضان كالمعتاد تروى أراضى الهدندوه ومراعيهم- وبعد معارك متعددة نجحت اتصالات رجال الدين المرافقين للحملة المصرية لإقناع زعماء الهدندوه بأنه من الخطأ أن تقع حروب بين جيوش المسلمين، وان الإدارة المصرية فى الخرطوم تنوب عن السلطان العثمانى- خليفة المسلمين فى إدارة دفة الأمور[١].

وقد حصن أحمد باشا مدينة (كسلا) بعد ذلك بسور منيع من الحجارة وأبراج ومُعدات للدفاع عنها[٢].

على أن ضم التاكة للإدارة المصرية أعاد للظهور مشكلة (سواكن، ومصوع) فكما ذكرنا سابقاً أن الميناءين ألحقت إدارتهما بولاية جدة من جديد فى سنة (١٨٤١) بعد التسوية المعروفة بين مصر والدولة العثمانية- لكن كما شرح محمد على للباب العالى - فإن الإدارة المصرية أصبحت الآن تُمارس سلطتها على كل ساحل البحر الأحمر الشرقى المقابل للسودان، وان الحاجة أصبحت ماسة لتمهيد الطريق من بربر إلى سواكن لنقل الماشية التى زادت الحاجة إليها بسبب الطاعون الذى أصاب الماشية فى مصر حتى أن محمد على طلب أن يُرسل من إقليم التاكه وحده أكثر من ٨٠,٠٠٠ رأس من الأغنام والماشية لسد حاجة مصر منها[٣].

على أن جمرك سواكن ومصوع أحيل لمصر مرة أخرى فى ١٩ رمضان ١٢٦٢ (١٨٤٦) فأُلحقت إدارة هذا الجمرك بمديرية التاكه[٤].

هذا فيما يتعلق بامتداد الإدارة المصرية للسودان الشرقى، على أننا نُشير إلى نقطة هامة خاصة بامتداد الإدارة المصرية إلى غرب السودان، فلا شك فى أن محمد على كان يتوق إلى مد الإدارة المصرية إلى دارفور، كما أن السلطان (محمد الفضل بن عبدالرحمن) الذى كان يحكم دارفور منذ ١٧٩٩ كان يُدرك نوايا المصريين خاصة بعد أن أستولوا على كردفان التى كانت خاضعة لإدارته- ولذلك فقد فرض رقابة شديدة على الوافدين لبلاده كما أعد جيشه لملاقاة العدو المرتقب.

1- Budge: Vol. 2P. 214.

Sabry: L. Empire Egyptien Sous Ismail P. 434.

٢- إبراهيم فوزى (باشا) السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج١ ص - ٦٥.

٣- محفظة ٨معية تركى رقم ٢٦٩ من محمد على للباب العالى فى (١٨ يوليه ١٨٤٣).

٤- شوقى الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر - ص ٣٠.

ورغم ذلك فقد استمرت التجارة القديمة بين مصر والسودان عن طريق درب الأربعين فى الصحراء الغربية دون توقف، فقد كان استمرارها لصالح الطرفين، كما استمرت قوافل الحجاج وغيرهم تتخذ طريقها المعتاد من غرب السودان وأفريقيا عبر كردفان إلى سواكن لتعبر البحر الأحمر إلى الحجاز- هذا ولم يُخل الأمر من مجاملات شكلية بين الطرفين، فقد كان مدير كردفان يبعث من حين لآخر- وحسب تعليمات القاهرة وبموافاتها بهدايا لسلطان دارفور، لكن كانت التعليمات المرسلة لمدير أسيوط تشدد فى عدم تسرب الأسلحة من مصر إلى دارفور، وتقضى بمعاقبة من يُضبط متلبساً بهذه الجريمة بالإعدام[1].

وكانت الإدارة المصرية لا تريد أن تُقدم على فتح (دارفور) إلا إذا استقرت الأحوال تماماً فى (سنار) و(كردفان) وتحسنت الحالة الاقتصادية، بما يجعل من المتيسر الاستغناء عن بعض القوات الموجودة فى اقليمى سناء وكردفان كما يكفل فائضاً على هذه القوات.

وفى (١٨٣٧) سنحت فرصة كان يمكن انتهازها لغزو دارفور فقد وصل للخرطوم الأمير (محمد أبو مدين) شقيق سلطان دارفور هارباً وطالباً مساعدة المصريين له لطرد شقيقه من على العرش وإحلاله محله، على أن يعترف بسلطة مصر على بلاده، وقد أبرق (خورشيد) لمحمد على بذلك وذكر أن هذه فرصة ذهبية يمكن اقتناصها والاستناد عليها لغزو دارفور.

لكن محمد على حذر خورشيد من الإقدام على أى عمل حربى كهذا دون أن يكون مستعداً له ويكون متدبراً عواقبه.

وفى أثناء زيارة محمد على للسودان فى (١٨٣٨/١٨٣٩) رحب بالأمير (محمد أبو مدين) ودعاه لزيارة القاهرة حيث أحسن استقباله – لكن الظروف لم تسمح بعد لتنفيذ فكرة غزو دارفور[2].

وقد بذل (أحمد باشا أو ودان) فقد أتهم بأنه يعمل للاستقلال بدارة السودان عن مصر، واستدعى للقاهرة للرد على الاتهامات الموجهة إليه، لكنه مات قبل مغادرته الخرطوم فى أكتوبر (١٨٤٣) وقيل إنه مات مسموماً – وخلفه فى إدارة السودان احمد باشا المنكلى.

١- أنظر صادر المعية السنية محفظة ٦٠ رقم ١٩٣ فى (٢٨ أبريل ١٨٣٥) من محمد على (باشا) إلى حسين (بك) مدير أسيوط.

2- Hill: Op. Cit. P. 30.

٧- **أحمد باشا المنكلى:**

أحمد باشا من الضباط الذين اشتركوا فى عده معارك آخرها معركة (قونية)، وقـد كـان مع الجيوش المصرية التى انسحبت من سوريا فى عام ١٨٤٠- وكان تعيينه فى (١٨٤٣) على رأس بعثة للتنقيب عن الذهب فى السودان، لكن حين فكر فـى عام (١٨٤٤) فى تقسيم السودان إلى مديريات منفصلة متصلة بمصر مباشرة كلف أحمد باشا بتنفيذ ذلك والإشراف على استلام المديرين الجدد كل لمديريته[١].

لكـن بعد ذلك بشهور قليلة عَدل محمد على عن نظام اللامركزية هذا وأعاد منصـب الحكمداريـة للسودان وعين احمد باشا المنكلى حمكداراً، ولم تستمر مدة إداراته للسودان طويلاً فقد عاد لمصر فى ديسمبر ١٨٤٥ وخلفه فى إدارة السودان (خالد خسرو باشا).

وفـى مـدة إدارة المـنكلى للسودان قام (الهدندوه) بإقليم التاكه بحركة تمرد، فأضطر لقمعها واستخدم العنف والقسوة مع زعماء المتآمرين كما استخدم الشدة فى جمع الضرائب المتأخرة على السكان هناك.

٨- **خالد خسرو باشا:**

وصل إلى الخرطوم فى يناير (١٨٤٦) واستمر فى إدارة السودان حتى بداية عهد (عـباس الأول) أى حـتى ١٨٤٩ فهو آخر حكمدارى للسودان فى عصر محمد على، وتتميز فترة إداراته بالسعى الحثيث للتنقيب عن الذهب دون الوصول لنتيجة مشجعة.

وفـى ١٨٤٦ – كمـا أشـرنا سابقاً – أحيلت إدارة جمركى سواكن ومصوع لمصر مرة أخرى فألحقت هذه الإدارة بمديرية التاكه.

وقـد اسـتعان خالد خسرو باشا بالسودانيين من أمثال (الشيخ إدريس عدلان) و(الأرباب محمد دفع الله) وغيرهما، فعاونوه على حفظ الأمن وضمان ولاء القبائل للإدارة المصرية[٢].

علـى أن وفاة محمد على فى (١٨٤٩) كان لها أثر عميق على الطريقة التى تُساس بها شئون السودان.

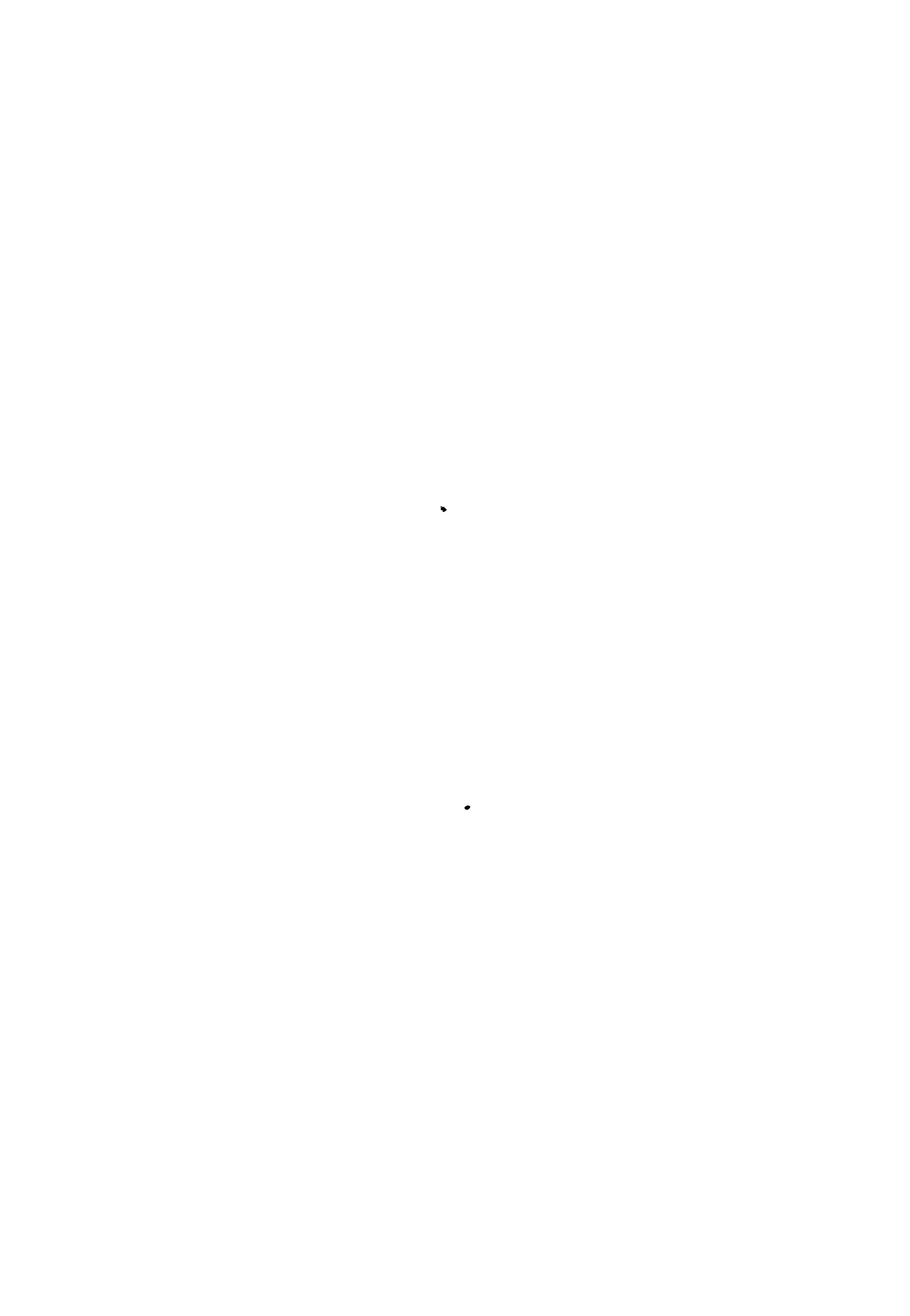
١- صدر أمر فى ١٢ شوال سنة (١٢٥٩ هـ) بتقسيم السودان إلى ست مديريات هى: (دنقلة وبربر وملحقاتها، المتمه، وشندى وملحقاتها، سنار وملحقاتها لغاية القضارف والقلابات، وغيرها وفيزاوغلى وملحقاتها، كردفان وملحقاتها، التاكا حتى مصوع وسواوكن- انظر أمين سامى باشا: تقويم النيل الجزء الثانى ص ٥٢٧.

٢- محفظة عابدين معية – رقم ٨٢ فى (٢٩ ربيع الثانى ١٢٦٢ هـ).

الفصل الثالث
السودان فى ظل الإدارة المصرية
فى عهدى عباس – وسعيد

أولاً: عهد عباس الأول ١٨٤٩-١٨٥٤.
- سياسة عباس فى السودان.
- الرحالة الذين زاروا السودان فى هذه الفترة وسجلوا مشاهداتهم عنه.
- المدرسة الأميرية بالخرطوم.
- حكام السودان فى عهد عباس.

ثانياً: عهد سعيد ١٨٠٤-١٨٦٣.
- الأمير عبدالحليم حكمدار السودان.
- زيارة سعيد للخرطوم وما ترتب عليها من تغيرات.
- مراسم الخرطوم.
- الاقتصاد السوداني فى عهد سعيد.
- العلاقات الخارجية.
- الجهود لمكافحة الرق.



الفصل الثالث
السودان فى ظل الإدارة المصرية
فى عهدى عباس – وسعيد

أولا: عهد عباس الأول (١٨٤٩–١٨٥٤)

واجـــه عباس الأول منذ بداية عهدة بولاية مصر- محاولات الدولة العثمانية لإضـــعاف ســـلطة والـــى مصر وحرمانه من الامتيازات التى حصل عليها محمد علـــى- وقـــد كان فرمان عام (١٨٤١) ملزمًا لمصر بتنفيذ المعاهدات والاتفاقيات الـــتى تعقدها تركيا مع الدول الأجنبية، وكذا تنفيذ التنظيمات المعمول بها فى تركيا وولاياتها الأخرى.

فانـــتهزت تركـــيا فرصـــة انـــتقال أمـــر الولاية لعباس الأول فطلبت تطبيق التنظـــيمات والقوانيـــن العثمانية، وتنفيذ هذا الأمر كان معناه إهدار كل الامتيازات التى كانت لمصر فى أيام محمد على، بالإضافة لما يترتب عليه من أضرار بمصر والسودان[1].

وقـــد لعـــب الصـــراع الدولى بين الدول الكبرى فى ذلك الوقت دوراً فى هذه الأزمـــة بيـــن الدولة العثمانية ومصر، لكن عباس نجح بتأييد انجلترا التى كان لها مركـــز مفضـــل لـــدى هذا الوالى- فى أن يخرج من الأزمة منتصراً فوافق الباب العالى على أن تُطبق التنظيمات العثمانية فى مصر مع إجراء ما يناسب وضع هذه الولاية الخاص من تعديلات.

على أن عباس لم يكد يفرغ من مشاكله مع الدولة العثمانية حتى وجه نظره للسودان.

سياسة عباس فى السودان :

يؤخذ على عباس كثرة تغييره لحكمدارى السودان، فقد ولى فى فترة حكمه القصـــيرة عـــدداً غير قليل من الحكمداريين لم تتجاوز مده حكم بعضهم العام الواحـــد- ولســـنا ندرى هل الدافع لهذا التغيير الكثير هو الحرص على وجود الحـــاكم القوى الحازم فى هذه البلاد البعيدة، أم الخوف من أن يفكر الذى يبقى

١- مما يترتب على تطبيق هذه التنظيمات مثلاً أن يتمتع الأجانب فى كل من مصر والسودان بالامتيازات التى منحتهم إياها الدولة العثمانية – ونحن نعلم مبلغ ما عانته مصر من جراء تطبيق هذا الأمر فيما بعد.

فترة طويلة فى أن يجمع حوله من أسباب النفوذ والقوة ما يمكنه من الانفصال عــن مصر، أن تدخل الدول الأجنبية عن طريق قناصلها والرغبة فى إرضائها هــو الذى تسبب فى بعض الأوقات على الأقل فى تغيير الحكام، على كل هناك بعــض الحقــائق المــتعلقة بــالإدارة فــى السودان فى ذلك الوقت والتى تُلقى بعض الضوء على هذا الموضوع وتساعد على إصدار حكم صائب نجملها فيما يلــى:

١- حرص عباس الأول على إلا تقل رتبه حكمدار السودان العسكرية عن (أمير ألاى) وقد ذكر ذلك صراحة فى الخطاب الصادر للكتخدا فى ٢٤ شوال عام ١٢٦٥هـ.

٢- ساهمة عدد كبير من زعماء القبائل والمشايخ الوطنيين فى الحكم والإدارة- نذكر من هؤلاء (الشيخ عبدالقادر ود الزين) معاون الحكمدراية، والشيخ (عدلان محمد) شيخ جبال الفونج، و(الشيخ إبراهيم عبدالدافع) الذى عين مفتياً و(الشيخ محمد نور ضيف الله) الذى عين بمجلس الدعاوى وغير هؤلاء كثيرون من الوطنيين اشتركوا فى إدارة بلادهم.

٣- اهتممت الإدارة المصرية بتعمير البلاد، فأنشئت المبانى فى الخرطوم، وغيرها من المدن الهامة (بالطوب) وأرسل من مصر الأطباء، كما أرسلت الأدوية اللازمة، واتسعت مساحة الأرض الزراعية، كما نشطت التجارة وتدفق على السودان عدد من الأجانب للتجارة ولاستثمار أموالهم، وللتبشير، وأخذت الدول الأجنبية تنشئ لها قنصليات فى الخرطوم[1]. وحين تعددت شكاوى الأجانب من الإجراءات التى اتخذها حكمدار السودان (عبداللطيف باشا) الذى احتكر تجارة السن والصمغ العربى وأغلق النيل الأبيض فى وجه الملاحة الحرة- أرسل إليه عباس يوبخه على تصرفاته ويحذره من نتائج الاستمرار فى هذه السياسة التى لا تحوز القبول[2].

وقــد انــتهى الأمر فى النهاية باستدعاء عبداللطيف باشا وتعيين (رستم باشا) مكانه وفتح النيل الأبيض من جديد للملاحة الحرة.

١- عينت النمسا قنصلاً لها فى الخرطوم فى ١٨٥٠ هو البارون مللر (Muller).

- وعينت الحكومة الانجليزية بعد ذلك جون بتريك (J Petherick) نائباً للقنصل فى الخرطوم.

- وأخذت الدول الأخرى بعد ذلك تنشئ لها قنصليات بالخرطوم..

٢- عابدين المعية تركى دفتر ٤٧٥ رقم ٤٣٩ فى (١٧ صفر ١٢٦٧) من الجانب العالى إلى حكمدار السودان.

الرحالة الذين زاروا السودان فى هذه الفترة:

من الرحالة الذين زاروا الخرطوم فى ذلك الوقت (١٨٥٠) وتحدثوا عن مشاهداتهم فيه جورج ميلى "Melly" وقد ذكر أنها تضم ثلاثة آلاف بيت، وان معظم الكماليات الأوروبية كان من اليسير الحصول وعليها من أسواقها- كذلك زار السودان الرحالة (جوستاف فلوبير) ومعه الصحفى والمصور الفوتوفرافى الفرنسى "مكسيم دى كمب"[١]

المدرسة الأميرية بالخرطوم:

يقترن اسم عباس بمحاولة إنشاء مدرسة أميرية بالخرطوم، وضع لها نظاماً معينا وميزانية جديدة، واختار لها نخبة من كبار الأساتذة فاختار لإدارتها (رفاعة رافع الطهطاوى) مؤسس مدرسة الألسن فى القاهرة ومن كبار زعماء الحركة الفكرية فى البلاد أيام محمد على، كما اختار لتدريس بعض المواد أساتذة من المدارس العالية المصرية، فاختار للرياضة مثلاً (محمد بيومى) كبير أساتذة الهندسة والرياضة بمدرسة المهندسخانة، و(أحمد طائل) أستاذ الرياضيات – وقد شاع أن إرسال هذه النخبة من العلماء لم يكن الغرض منه خدمة السودانيين، لكن التخلص من هؤلاء الرجال لأن عباس كرههم بسبب ما عُرف عن اتصالهم بالباب العالى أو غير ذلك فأراد معاقبتهم (بالنفى) كما كان يُسمى النقل للسودان فى ذلك الوقت.

وقد ردد الكُتاب الأجانب هذه الفكرة وبنوا عليها أن الأمر لم يكن مبعثه الرغبة فى تثقيف السودانيين بل التخلص من غير المرغوب فيهم من المصريين[٢]. وقد ربط الأستاذ عبدالرحمن الرافعى بين طبع رفاعة بك لكتابه (تخليص الإبريز) الطبعة الثانية وما يحتويه الكتاب من آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد – وبين نفى رفاعة للسودان[٣].

ولا يمكن أن نقبل هذا التفسير دون مناقشة كما ندهش كيف يردد الكتاب والمؤرخون المصريون هذه الأفكار بهذا اليسر، حقيقة أن رفاعة ورفاقه اعتبروا نقلهم للخرطوم نفياً فصمموا على ألا يفعلوا شيئاً، بل شكوا لمن زار الخرطوم من

1- Melly, G: Kartoum and the Blue and White Nile 2 Vols. (London 1951).

وكذلك Maxime du camp: Le Nile Egypte et Nubie. (Paris 1860).

3- Hill: Op. Cit. P. 87.

٣- عبدالرحمن الرافعى ٠بك) : عصر محمد على ص ٥١٦.

الأجانب من وضعهم- وعطلوا المشروع فلم يفتحوا فصلاً ولم يعلموا تلميذاً وقضوا وقتهم فى نظم القصائد فى التظلم والاسترحام- وأرسل ديوان المدارس فى مصر مراراً مستفسراً عن سبب عدم فتح المدرسة.

وقد توفى (محمد بيومى) فى الخرطوم لكن رفاعة وباقى رفاقه عادوا للقاهرة بعد موت عباس وتولى سعيد الحكم، وقد حكى رفاعة نفسه كيف أنه استنتج من النجوم ومن ملابسات كثيرة أن عباس سيقتل، أى أنه كان يحلم بنهاية الظلم الذى أصابه وبالعودة لمصر ولا شك فى أن هذه وصمة فى تاريخ رفاعة(١).

ويبنى الذين يؤيدون وجهه نظر رفاعة وأصحابه حجتهم على أن عباس كان رجعياً وأنه أقفل المدارس التى فُتحت فى عهد جده فى مصر(٢).

لكنا نستعبد أن تكون المدرسة منشأة للتخلص من رفاعة ورفاقه، فكان فى الإمكان التخلص منهم بدون إختلاق فكرة المدرسة- وعدم قيامهم بما كُلفوا به أمر يعيبهم بلا شك، ويُخشى أن ينطبق هذا على كثيرين من الموظفين الذين أرسلواً للسودان وكان من أسباب عدم تنفيذ كثير من المشروعات على الوجه المطلوب.

وقد ذكر الدكتور مكى شبيكه "إن وجود أمثال رفاعة وبيومى وغيرهما فى الخرطوم كان له بعض الأثر فى الطبقة المتعلمة فى السودان آنذاك وقد ذكروا بالخير وحزنت الخرطوم على وفاة بيومى أفندى بها(٣).

علـى أن البعض يأخذون على عباس أنه لم يُفكر فى زيارة السودان ليشاهد بنفسه شئون البلاد وأهلها ويتعرف على أحوالها كما فعل محمد على الذى لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة عن أن يجوب السودان باحثاً ومستطلعاً(٤).

١- أنظر خطاب عباس الأول إلى (إسماعيل حقى) حكمدار الأقاليم السودانية بتاريخ (٢١ رمضان ١٢٦٨) بخصوص مدرسة الخرطوم فى أمين سامى: - المجلد الأول من الجزء الثالث ص٥٠ وقد جاء فيه : "وصل إلى سمعنا وعلمنا فى هذين اليومين أن المدرسة المقرر تأسيسها وإنشاؤها فى بلدة الخرطوم لتعليم أولاد الناس وصبيانهم أهمل فتحها إلى الآن، وحيث أن (رفاعة بك) الذى تعين ناظراً للمدرسة على حسب ما تقتضيه إرادتنا توجه إلى بلدة الخرطوم ووصل إليها من مده مديدة- فالمأمول أن تبادروا بفتح المدرسة على حسب ما تقتضيه إرادتنا، وتباشروا تعليم وتعلم الصبيان أولاد الاهالى بلا تأخير وإهمال، كما هو منظور فى درايتكم".

٢- د. مكى شبيكه: السودان فى قرن ص ٥٧.

٣- نفس المرجع ونفس الصفحة السابقة.

٤- عبدالرحمن الرافعى (بك) : عصر إسماعيل ص ١٧.

حكام السودان فى عهد عباس الأول

١- لطيف باشا (عبد اللطيف باشا):

ظل حكمدارًا للسودان فى الفترة من نوفمبر ١٨٤٩ حتى يناير ١٨٥٢، وتميزت هذه الفترة بالمشروعات العمرانية فى مدينة الخرطوم، فأنشئت مبانى حكومية (بالطوب الأحمر) لديوان الحكمدارية، وديوان المديرية، ومحكمة، وصيدليه، وقشلاقات للجنود وغير ذلك من المصالح الحكومية[١].

وقد اهتم عبداللطيف باشا بتدعيم الإدارة الحكومية فعدل فى حدود المديريات بـنا ييسر عملية الحكم والإدارة، كما وفر للمديريات ما يلزمها من الكتاب والمحاسبين وغيرهم[٢].

وفى أثناء حكمدرايته (فى يونيه ١٨٥٠) صدر الأمر بتأسيس مدرسة الخرطوم لكن المدرسة لم تفتح إلا بعد ذلك بوقت طويل فى أثناء حكمدارية سليم باشا[٣].

وكانت سياسته- الخاصة بإغلاق النيل الأبيض فى وجه الملاحة الحرة واحتكار الاتجار فى بعض الأصناف كالصمغ وسن الفيل، وشكوى القناصل من معاملته للأجانب ومنعهم من الذهاب إلى مناطق النيل العليا – سبباً فى استدعائه من السودان فى أوائل عام (١٨٥٢).

٢- رستم باشا:

وصل للخرطوم فى فبراير ١٨٥٢ لكنه لم يبق كثيراً فى وظيفته فقد توفى فى الخرطوم فى نفس العام لكنه استطاع فى هذه المدة أن يكسب ثقة الاهالى وزعماء القبائل[٤].

٣- إسماعيل حقى باشا (أبو جبل):

تولى الحمكدارية فى يوليه (١٨٥٢) بعد وفاة رستم باشا- لكنه أستدعى فى أبريل (١٨٥٣) لقيادة احد الألوية التى أرسلت لنجدة الدولة العثمانية فى حرب القرم كما يذكر عمر طوسون[٥].

١- إسماعيل سرهنك (باشا): حقائق الأخبار عن دول البحار ج٢ ص ٢٦١، نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ج ٣ ص٢٨.

٢- د. مكى شبيكة : السودان فى قرن – ص ٥٥.

3- Sabry: L, Empire Egyptien Sous Ismail P. 435

٤- أنظر الأمر الصادر لمديرى المديريات بالسودان فى (١١ ربيع الأول سنة ١٢٦٨) الخاص بفصل عبداللطيف باشا من حكمدارية السودان وتعيين رستم باشا خلفا له فى: أمين سامى ٠باشا): تقويم النيل- المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٤٥، ٤٦.

٥- عمر طوسون: الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم (ص ٧٩ وما بعدها.

لكـن بعـض الكتاب يذكرون أن إسماعيل حقى قد أستدعى من السودان لأنه ارتكب عدة مخالفات استلزمت سحبه من السودان ومحاكمته.

٤- سليم باشا صائب الجزائرلى:

خلـف إسـماعيل باشا فى أبريل ١٨٥٣ وقد اعتلت صحته فى السودان،وظل يعانى من وطأة المرض حتى أعفى من حمكدارية السودان فى فبراير ١٨٥٤، وفى عهـد حكمداريـته افتتحـت مدرسـة الخرطوم، ويذكر الرحالة الانجليزى جيمس هميلتون (J. Hamilton) الذى زار السودان فى عام ١٨٥٣ أنه وجد بالمدرسة ٨٤ تلمـيذاً، وأنهـم كـانوا يدرسون القرآن الكريم، واللغة العربية، والتركية، وبعض الرياضـيات، ويذكـر أنه دُهش من التقدم المحسوس الذى حققه هؤلاء التلاميذ فى الفترة القصيرة التى انقضت على افتتاح المدرسة وانتظامهم فيها[1].

٥- على باشا سرى الأرنؤوطى:

تولـى الحكمدارية فى يوليه (١٨٥٤) وفى عهد حكمداريته مات عباس الأول فـى (١٤ يوليه ١٨٥٤) وتولى سعيد بن محمد على وقد أتهم بالرشوة والاختلاس، ووصـلت للوالـى الجديـد عـدة شـكاوى من تصرفات هذا الحكمدار فأعفاه من الحمكدارية فى ديسمبر ١٨٥٤ وأمر الحكمدار الجديد (على باشا شركس) بالتحقيق فيما نُسب إلى الحكمدار المخلوع من تُهم.

وهكـذا كما نرى- تولى إدارة السودان فى ولاية عباس الأول هذا العدد من الحكمداريين مل لُفترة قصيرة- ومهما قيل فى تبرير هذه الظاهرة فلا شك فى أن الإدارة قـد حرُمـت مـن عـامل الاستقرار الذى لا بد منه لتنفيذ المشروعات العمرانية الهامة.

ثانياً: عهد سعيد (يوليه ١٨٥٤- يناير ١٨٦٣)

نال السودان فى هذه الفترة الكثير من العناية وبُذلت جهود صادقة للنهوض به فى مختلف المجالات وسنتناول هذه الجهود المبذولة بشىء من التفصيل:

1- Hill: Op. Cit. P. 88.

- نشر (هميلتون) رحلته هذه فى عام (١٨٥٧) تحت عنوان:

Ha,ilton, J. Si

Swakin to Khartum. (London 1857).

١ - الإدارة :

لا شـــك فـــى أن النوايا الطيبة لا تكفى وحدها لأن تأتى بالثمرة المرجوة فى الـــنهوض بقطـــر كالسودان، خاصة فى وقت كانت لا تزال عقبات كثيرة تقف فى وجـــه الاتصـــال الســـريع بينه وبين مصر - فكان الأمر يتوقف إلى حد كبير على (الحكمـــدار) ومدى نزاهته، بالإضافة إلى كفاءته واستعداده للعمل المخلص فى هذه الجهـــات. وقـــد رأيـــنا كـــيف اضـــطرت الظروف عباس الأول ليبدل ويُغير فى الحكمداريـــن مما أفقد الإدارة الاستقرار اللازم لإنجاز أوجه الإصلاح الضرورية التى كان السودان فى شديد الحاجة إليها.

وفـــى عهـــد ســـعيد حدثت تغيرات عدة فى إدارة السودان، ففى نوفمبر عام (١٨٥٥) عيـــن أخـــاه **الأمير عبدالحليم باشا** حكمداراً على السودان، وفى الفرمان الصـــادر بهـــذا الخصـــوص ذكـــر سعيد أن الهدف من هذا التعيين هو أن يعمل الحكمدار الجديد على تعمير البلاد، ورفاهية العباد، وإقامة شعائر العدل ونشر ألوية اليُمن[١].

وصـــدر أمـــر فـــى (١٨ شعبان ١٢٧٢ هـــ) بأن يكون مرتب حليم باشا من تاريخ تعيينه لحكمدارية السودان ألفى كيس سنوياً[٢].

و لا شـــك فـــى أن سعيد كان ينتظر الكثير من الإصلاحات على يد الحكمدار الجديـــد - وقـــد أشـــار إلـــى ذلك بعض القناصل الذين كانوا قريبين من سعيد مثل القنصل الفرنسى (Sabatier)، والامريكى أدوين دى ليون (Edwin de Leon)[٣].

وقـــد بـــدأ الأمير فعلاً منذ وصوله للخرطوم يدرس أحوال البلاد وينظر فيما يمكـــن القـــيام به من أوجه الإصلاح، وإهتم الحكمدار الجديد بتأمين الاهالى على أرواحهم وممتلكاتهم ونشر لواء الأمن خاصة فى مديرية التاكا، وفى مناطق الحدود مع الحبشة وفى منطقة النيل الأبيض - وقد أرسل سعيد باشا يشكر الحكمدار على هذه الجهود[٤].

لكـــن الأمير عبدالحليم لم يستمر طويلاً فى السودان فقد عاد لمصر فى ديسمبر (١٨٥٦) إثر ظهور وباء فى السودان (الوباء الأصفر) ولم يرجع لمقر حكمداريته.

١- دفتر ١٨٨٣ صادر الأوامر نمرة (٤) بتاريخ (١٢ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ هـــ).

٢- أمين باشا سامى: تقويم النيل - المجلد الأول من الجزء الثالث ص ١٦١.

٣- د. محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان ص ٥٥/ ٥٦.

٤- دفتر ١٨٨٤ صادر الأوامر عربى صفحه ٤٦ - اراده سنية لحكمدار السودان فى (١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢).

علـى أن بعـض الكُتاب قد أرجع تعيين الأمير عبدالحليم فى منصب الحكمدارية إلـى رغـبة سعيد فى إبعاده عن مصر خشية مناوأته فى الولاية، وهذا الرأى لا يستند على دليل خاصة أنه ثبت أن الأمير عبدالحليم هو الذى طلب أن يُعين فى هذا المنصب وكانت العلاقة بينه وبين سعيد باشا طيبة ولم يظهر منه ما يُثير مخاوف سعيد.

زيارة سعيد للسودان:

ترتـب علـى زيارة سعيد للسودان فى عام ١٨٥٧ تغيرات أساسية فى إدارته فقد ألغى منصب الحكمدار وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة هى:

التاكا، كردفان، ودنقله وأضيف إليها بربر، والنيل الأبيض، وجعلت الخرطوم وسنار مديرية واحدة.

وتسـلم الإدارة فـى كـل مديرية مدير مسئول يرجع فى كل شئونه لوزارة الداخلية فى مصر شأنه شأن مديرى القطر المصرى.

وعيـن (أرا كيل بك نوبار) مديراً للخرطوم وسنار وقد توفى أرا كيل بك فى الخرطوم فى عام (١٨٥٩)، فخلفه (حسن بك سلامه) ثم (محمد بك راسخ).

لكـن سـعيد أدرك أن نظـام (اللامركزية) الذى أوجده فى السودان لا يحقق الهـدف مـنه فأعـاد نظام الحكمدارية فى عام ١٨٦٢ وعين (موسى حمدى باشا) حكمـداراً علـى عموم السودان، وكان على دراية بأحوال السودان فقد قضى وقتاً طويـلاً فـى الخدمـة به سواء فى كردفان أو فى الخرطوم كمعاون بالحكمدارية، ورغـم مـا عـرف عنه من الشدة والعنف فقد أثبت أنه من أكفأ الذين تولوا إدارة السـودان وتمـت فـى فترة حكمداريته إصلاحات هامة وسنت عدة قوانين لتنظيم الإدارة، واشترك عدد من السودانيين فى الحكم، كما ساهمت (المجالس المحلية) فى النهوض بالبلاد فى مختلف المجالات.

وسنشـير إلى ذلك كله بشىء من التفصيل عند الحديث عن إدارة السودان فى عصر إسماعيل إذ أن سعيد توفى فى ١٨ يناير ١٨٦٣ ولم يكن (موسى حمدى) قد قضـى فـى حكمدارية السودان فى ذلك الوقت إلا ستة شهور تقريباً وإنما نشاطه ظهر بوضوح فيما بعد أثناء ولاية الخديو إسماعيل.

نتائج الزيارة من تغيرات فى أوجه النشاط المختلفة:

أهمية هذه الزيارة فى مجال حديثنا- ترجع لما ترتب عليها من تغييرات سواء فـى نظـام الإدارة والحكم، أو فى غيرة مما يتصل بتطور السودان فى المجالات المختلفة وذلك بناء على ما شاهده سعيد باشا بنفسه خلال هذه الرحلة.

أمـــا الغرض من هذه الزيارة فقد عبر عنه سعيد نفسه فى أمر صادر منه إلى ناظر الجهادية جاء فيه:

إن عـــدم دخول بلاد السودان التى هى من أجزاء ممتلكاتنا تحت الإتقان والإنتظام حـــتى الآن، مـــع أن مقاصدنا ومطلوبنا تقدمها وعمرانها– لأمر موجب للأسف جداً، والحـــق يقـــال إن بقاءها على ما هى عليه من الأمور التى لا يجوز تحملها، وبما أننى صـــممت العـــزيمة منذ مدة على أن أرى تلك البلاد، وأتبين أحوالها وأوضاعها، وأقف على ما يجرى فيها .... فعزمت على أن أذهب إليها بذاتى كى أضع لها فيما بعد النظم التى تكفل عمران تلك البلاد وتكون بها الرفاهية للرعايا والاهالى"[١].

فالغـــرض الاساسى من سفر سعيد هو أن يتمكن من مشاهدة الأقاليم السودانية الـــتى ضُمت للإدارة المصرية منذ حوالى ثمانية وثلاثين عاماً بنفسه، ليبحث على الطبـــيعة مـــا يقتضـــيه الحال من وجوه الإصلاح المختلفة لتحسين شئون السودان وتنمية موارده والنهوض بسكانه وأزاله كل أسباب شكوى الوطنيين.

واصطحب سعيد معه عدداً من الشخصيات الهامة من مصريين وأجانب منهم فردنـــند دليســـبس (Ferdinand de Lesseps)، والدكتور هوجلين (Dr. Heuglin) القنصـــل النمســـاوى، وبـــوب لانـــى (G. Popolani) قنصل البرتغال، وساباتيية (Sabatier) قنصل فرنسا العام، وأراكيل بك (أخو نوبار باشا)، والدكتور أباته باشا (D. Abbate) طبيبة الخاص بالإضافة لأورطه سودانية كاملة.

وكان سفر سعيد عن طريق صحراء النوبة ثم وصل إلى (بربر) حيث اجتمع بعـــدد من الاهالى والزعماء الوطنيين واستمع إلى آرائهم وشكاياتهم– وفى طريقة مـــن بربـــر إلـــى الخرطوم اجتمع أيضاً ببعض المشايخ وتناقش معهم فيما يريح الاهالى– وكان وصوله للخرطوم فى (١٦ يناير ١٨٥٧). وقد اقترنت زيارة سعيد للسودان بكثير من أنواع النشاط– فقد قيل إنه فكر فى إخلاء السودان، لكن لما شاع الخـــبر بيـــن الاهـــالى التمسوا من الوالى العدول عن هذه الفكرة التى تترك البلاد لعوامل الفوضى، فعدل سعيد عن هذه الفكرة– ولعل (دليسبس) (F. De Lesseps) هـــو أول من أشاع فى مذكراته التى كتبها عن رحلته هذه للسودان عن تفكير سعيد باشا فى ترك السودان بعد أن هاله ما رآه من سوء الحالة – وذكر أن ذلك كان فى حديث خاص لسعيد معه[٢].

١– أوامر ديوان الجهادية محفظة رق ٦ – وثيقة رقم ٥٠ بتاريخ (١١ ربيع الأول ١٢٧٣).

٢– نشرها فى باريس تحت عنوان : Souvenirs d,un Voyage au Soudan (Paris 1884)

وقد ردد الكتاب بعد ذلك هذه الفكرة رغم أن المرافقين الآخرين لسعيد وهم كما ذكرنا كثيرون – وقد كتب كل منهم أخبار هذه الرحلة- لم يُشيروا بشىء عن هذا الاتجاه الغريب – وما يدعونا أيضاً للشك فى صحة ما روجه دليسبس عن نية سعيد هذه، أن سعيد منذ وطأت أقدامه أرض السودان بدأ يستمع لآراء الاهالى وزعماء القبائل ويُصدر الأوامر والتعليمات بإزالة أسباب الشكوى شأنه شأن أى شخص يروم الإصلاح ويضع الحلول العاجلة لعلاج كل ما يراه من الأخطاء، وليس هذا اتجاه الشخص المتبرم اليائس من الإصلاح الذى يفكر فى الأجلاء[1]. ومن الإجراءات التى اتخذها سعيد بالسودان لإصلاح أحواله:

مراسم الخرطوم :

أصدر سعيد فى (٢٦ يناير ١٨٥٧) من الخرطوم أوامر بالقواعد الإدارية والمالية التى رأى أنها كفيلة بعلاج المشكلات التى لمسها[2].

وأهم ما تضمنته هذه الأوامر:

أ – الضرائب:

أمر بإعفاء الاهالى من الضرائب المتأخرة عليهم، وأمر أن يكون تقدير الضرائب على الاراضى التى تروى بالسواقى على أساس مائتى قرش على الساقية، كما خفض الضرائب على الأرض التى تعتمد على (الطمبور) فى ريها فجعلها عشرين قرشاً للفدان، أما أطيان الجزر فقدرت عليها الضريبة بخمسة وعشرين قرشاً للفدان، وأعفيت الأطيان التى تغرس بالأشجار المثمرة من الضرائب، كما ألغيت الضرائب التى كانت تحصل من أصحاب الحرف والصناعات، وعهد بتحصيل الضرائب إلى مشايخ القبائل بدلاً من الجنود، على أن يمنح هؤلاء المشايخ مكافأة على هذا العمل وعلى إيوائهم للسياح والمسافرين فتعفى بعض أراضيهم من الضرائب – وتقرر أن تقسم الضرائب إلى أقساط ويكون التحصيل فى الأوقات التى يسهل فيها على الاهالى الدفع – وأن تدفع الحكومة ثمن ما تأخذه من الاهالى من محاصيل أو غيرها بزيادة ٣% عما يدفعه السكان.

١– وصل الأمر إلى أن (Hill) يذكر أن سعيد أقال المديرين وسلم الإدارة إلى مجلس من شيوخ السودانيين أنظر: أهمم : لغحف هىفات عيشى ؛. ٩٤

٢– دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى مكاتبه رقم ٣٥ بتاريخ (٢٧ جمادى الأول ١٢٣٧).

ب- اللامركزية فى الإدارة:

أرجع سعيد سوء الإدارة لانفراد فرد واحد (الحكمدار) بإدارة السودان، فألغى الحكمدار وقسم السودان إلى خمس (مديريات) على رأس كل منها مدير يتبع نظارة الداخلية بالقاهرة وهذه المديريات هى : (الخرطوم، وسنار – كردفان- دنقله – بربر- التاكه)، وكانت مديرية (الخرطوم وسنار) هى أكبر المديريات، وقد عُين (أرا كيل بك) مديرًا لها لكنه توفى بالخرطوم فى (١٨٥٨) وخلفه (حسن بك سلامة)[1]. وفى (١٨٦١) تولى أمر هذه المديرية سوادنى هو (محمد راسخ بك)، على أن سعيد شعر بعدم جدوى هذا الإجراء لبعد الشقة بين مصر والسودان وجنوح بعض المديرين للاستبداد دون رادع، فأعاد منصب حكمدار السودان وعين (موسى حمدى باشا) – كما ذكرنا سابقاً حمكداراً عاماً فى مايو ١٨٦٢.

ج- اشتراك السودانين فى الحكم والإدارة:

أمر سعيد بإنشاء (نجالس عرفية) من نظار القبائل ورؤساء العشائر للفصل فى المنازعات والقضايا المحلية، بالإضافة (لمجلس تجار) فى كل مديرية.

د- تنظيم المواصلات والبريد:

أمر بتعبيد الطرق وتأمينها، ويبحث مد السكه الحديد بين (بربر) و(سواكن).

ومن أهم المشروعات التى نُفذت فعلاً ربط بلدان السودان بعضهما بالبعض الآخر ومع مصر بالبريد فأقيمت محطات على مسافات محددة لتغيير (الجمال)، وأنشئ قسم خاص (بالهجانة) للقيام بهذه المهمة.

وقد بُذلت محاولات لتذليل العقبات التى تعترض الاتصال النهرى بين مصر والسودان وبين شمال السودان وجنوبه، فأُرسل المهندس جوتبرج (G. Von Gottberg) لبحث مدى إمكانية تيسير الملاحة فى منطقة الجنادل بالذات، لكن الأمر لم يخرج عن نطاق البحث القديم وتقديم الاقتراحات[2].

١- أرا كيل بك هو شقيق (نوبار باشا) وهو غير أرا كيل بك الذى عين فيما بعد محافظاً لمصوع بعد ضمها للإدارة المصرية أنظر:

Sabry: L, Empire Egyptien Sous Ismail P. 435.

وكذلك Abbate: Voyage De S. A. Mohamed Said Paid Pacha Dans ses Provinces de Sudan pp. 29 46.

وكذلك د. فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ص٣٤٢- ٣٠٧.

2- Hill: Op. Cit. P. 100

على أن قُرب إتمام الخط الحديدى بين السويس والإسكندرية وجه الأنظار للبحر الأحمر وإمكان استخدامه كوسيلة لربط السودان بمصر والعالم الخارجى[١].

وقد حصل سعيد على فرمان فى (١٨٥٦) يمنحه حق تكوين شركة ملاحية للعمل بين موانئ البحر المتوسط وموانئ البحر الأحمر، وأسست هذه الشركة فى سنة (١٨٥٧) وكان لها مجلس إدارة من وطنيين وأجانب برئاسة (مصطفى فاضل ابن إبراهيم)، وسُميت باسم (الشركة المجيدية) نسبة إلى السلطان عبدالمجيد، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وموانئ الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع- وكان لهذه الشركة أربعة مراكب هى (الحجاز، ونجد، والقبارى، وجده) - وقد ضعفت هذه الشركة فيمما بعد فى عهد الخديو إسماعيل وحلت محلها (الشركة العزيزية) وسنشير لذلك ولنشاط هذه الشركة الأخيرة عند الحديث عن سياسة الخديو إسماعيل فى البحر الأحمر[٢].

وقد زادت أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى خاصة لاهتمام انجلترا بهذا الطريق الحيوى المؤدى للهند- ولذا فقد عمدت لمد خطوط التلغراف التى تربطها بالهند، وكانت هذه الخطوط عن طريق الإسكندرية والسويس، كما مُدت الخطوط إلى (القصير) و(سواكن)، وهكذا برزت أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى وتضاعفت هذه الأهمية بالطبع فيما بعد ربط البحرين الأحمر والمتوسط عن طريق قناة السويس.

هـ- الأمن :

رُتب لكل مديرية ما يكفيها من الجنود لحفظ الأمن ومُنع استخدام الجنود فى جمع الضرائب، وكونت فرق من الخيالة من عرب (كردفان) الذين كانوا يُجيدون ركوب الخيل وذلك للمساهمة فى حفظ النظام والأمن.

الاقتصاد السودانى فى فترة ولاية سعيد:

كان لإستتياب الأمن، ولتعبيد طرق المواصلات أثرها فى ازدهار تجارة السودان، ومن التنظيمات التى استحدثت فى السودان إنشاء (نجلس تجار)

١- تم الخط بين القاهرة والإسكندرية فى عام (١٨٥٦) عن طريق بنها - وكفر الزيات، أما الخط بين القاهرة والسويس فقد تم فى عام (١٨٥٨).

٢- أنظر مجموعة الفرمانات الشاهانية - فرمان رقم ٨٥١.

بالخـــرطوم، وقـــد أرســـلت نسخة من قوانين مجلس التجار الجارى العمل بها فى مصر للاسترشاد بها عند الفصل فى الدعوى التجارية بالسودان[١].

علـــى أن إلغـــاء احتكار الحكومة للتجارة فى البضائع الهامة وإلغاء الجمارك التى كانت قائمة بين مصر والسودان شجع البيوت التجارية الأوروبية على التعامل مباشـــرة مع عملائها في السودان، خاصة أن بضائع كالصمغ العربى وريش النعام والعاج كانت تجد رواجاً كبيراً فى الأسواق الأوروبية[٢].

هذا وقد ازدهرت (القصارف) كسوق للتجارة الحبشية ومع الجزيرة العربية.

وكـــان لإحـــياء طريق البحر الأحمر كطريق ملاحى أثرة فى ازدهار تجارة الســـودان الخارجية، وسيظهر ذلك بوضوح أكثر فيما بعد فى عصر إسماعيل حين وجُهـــت عـــناية أكـــثر للموانئ المطلة على البحر الأحمر وأصبحت هناك خطوط ملاحية منتظمة فى هذا البحر.

العلاقات الخارجية :

كانت السياسة العامة التى رُسمت للإدارة المصرية فى السودان هى السلام مع جـــيران هـــذه الإدارة ســـواء فى الشرق أو فى الغرب، فمع (دارفور) كانت هناك صـــلات طيـــبة، وقـــد أحسن سعيد استقبال مبعوث سلطان دارفور، ولم يعترض ســـلطان دارفـــور على الحملات التى أرسلها مدير كردفان لتأديب قبائل الكبابيش والـــبقارة الـــتى على الحدود بين الإقليمين والتى كانت تُثير الاضطراب بإغاراتها المستمرة على المدن الآمنة ونهبها[٣].

علـــى أنـــه فيما يتعلق بالحدود الشرقية مع الحبش فإن حركات القبائل الكثيرة الحـــركة فـــى هذه المنطقة والتى لم تكن تعترف بالحدود السياسية، بل كانت تمتنع عـــن دفـــع الضـــرائب المطلوبـــة منها وتُغير على المدن الآمنة ثم تسرع بالهرب لتحـــتمى بحدود دولة أخرى- تسببت هذه الحركات كلها فى كثير من الاضطرابات علـــى الحـــدود، مما اضطر لإرسال حملات من التاكا لتأديب هذه القبائل وردعها، وكـــان طبيعـــياً أن يؤدى هذا لاحتكاك مستمر مع الحبشة، وسنرى كيف أن الأمر انـــتهى فـــى عهد الخويو إسماعيل إلى حروب سافرة أنهكت قوة الدولتين وأساءت للعلاقات بينهما.

١- دفتر ١٨٨٦ صادر أوامر عربى – صفحة ٧٨ أمر عالى لمديرية الخرطوم فى (١٢ ذى الحجة سنة ١٢٧٣).

٢- قدر المحصول السنوى للصمغ فى كردفان فى ذلك الوقت من ٤٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ قنطار.

٣- أنظر دفتر صادر المعية السنية عربى ١٨٨٢ رقم ٢١ – أمر صادر لمدير كردفان فى (أول أغسطس ١٨٥).

وقبل أن نُنهى الحديث عن العلاقات الخارجية وما يتصل منها بالسودان نشير إلى الكتيبة السودانية التى أرسلها سعيد إلى المكسيك مساعده لصديقه الإمبراطور نابليون الثالث إمبراطور فرنسا- وقصه هذه الكتيبة تدعو للدهشة، فهى تدل على مدى تأثير الأجانب والعلاقات الشخصية فى تصرفات ولاة مصر فى ذلك الوقت - فقد أرسل الإمبراطور نابليون الثالث فى عام (١٨٦٢) قوه من جيشه لمعاضدة الثورة التى نشبت فى المكسيك ضد رئيس جمهوريتها المسيو جوارز (Juarez) ولما وجد الإمبراطور أن جيشه غير قادر على إحراز النصر، وأن عدداً كبيراً من الجنود الفرنسيين قد مات نتيجة قسوة المناخ استنجد بصديقه سعيد باشا- فأمده بكتيبه من الجنود السودانيين عددها ١٢٠٠ مقاتل بقيادة البكباشى (جبره الله محمد السوادنى) و(الصاغ محمد الماس)، وظلت هذه الكتيبة فى المكسيك أكثر من أربع سنوات قتل خلالها عدد كبير من رجالها منهم البكباشى (جبره الله) - وعادت الكتيبة إلى فرنسا فى عام (١٨٦٧) حيث استعرضها الإمبراطور نابليون فى ٩ مايو فى حضور شاهين باشا وزير الحربية المصرية الذى كان فى زيارة لباريس فى ذلك الوقت- وساهم الأحياء من أفراد هذه الكتيبة فى تدعيم ومد نفوذ الإدارة المصرية فى مديرية خط الاستواء، وخدموا فى هذه المديرية أيام حكمدارية بيكر وغوردون وأمين باشا، بل لعب أفرادها دوراً هاماً فى الدفاع عن الخرطوم أثناء حصار المهدى لها[1].

مكافحة الرق :

تغلغل الرق فى أفريقيا منذ زمن بعيد بحيث أصبح يكون ركناً رئيسياً من أركان المجتمع الافريقى، وكان السودان بالذات من أهم مستودعات الرقيق وساهمت الدول الأوربية - التى مدت نفوذها الاستعمارى للقارة الافريقية- بنصيب كبير فى رواج تجارة الرقيق، بل كان للأسلحة الحديثة التى أدخلها الأوربيون فى أفريقيا أثرها البالغ فى اتساع نطاق الغزوات لجلب الرقيق وتصديره للعالم الجديد، حيث أصبح من العوامل التى يقوم عليها الاقتصاد الامريكى، ولهذا حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - لم يكن هناك استنكار لهذا العمل واعتباره عملاً يتنافى مع المبادئ الإنسانية، وكانت للرقيق أسواق معروفة فى سوبا وبربر، ووشندى، وسواكن، وسنار، وكوبى، والقاشر وغيرها من مدن السودان، كما كانت (دارفور) بالذات تعتبر مستودعاً للرقيق[2].

١- أنظر: تاريخ الكتيبة فى مجله Revue d,Egypte سنة (١٨٩٤) ص ١٠٤.

وكذلك إسماعيل سرهنك (باشا): حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٧٦.

٢- رحلة بور كهارت فى بلاد النوبة والسودان - ترجمة فؤاد أندراوس- ص ٢٥٢ وما بعدها.

لكـن منذ أوائل القرن التاسع عشر بدأ الضمير الانسانى يستيقظ وينظر للرق على أنه عمل فيه امتهان لكرامة الإنسان ومنافاة لكل مبادئ الأخلاق والعدالة، ولذا فقـد أصدرت الدول المجتمعة فى مؤتمر (فينيا) عام ١٨١٥ – قراراً بإبطال تجارة الرقيق.

ومن ثم بدأت الدول الكبرى وعلى رأسها انجلترا– ضغوطها على محمد على صـاحب السلطان فى السودان– ليقضى على تجارة الرقيق به، وقد وجهت لمحمد علـى بعـض الادعـاءات فـى هذا السبيل، فمثلاً قيل إن الضباط المصريين فى السـودان يتجرون فى الرقيق وإن مرتبات الجند تدفع أحياناً من الرقيق وإن الجنود يُستخدمون فى صيد الزنوج.

وفـى عـام ١٨٢٧ حضر لمصر جون بورنج (Bowring) صاحب التقرير المشهور عن مصر وكريت وقابل محمد على وتحدث معه فى هذا الشأن.

وقـد أصدر محمد على فى أول ديسمبر (١٨٣٧) أوامر مشددة إلى (خورشيد باشـا) حكمـدار السودان بمنع استخدام الجنود فى صيد الزنوج ومنع دفع مرتبات الجـند من الرقيق، والتأكد من تنفيذ هذا الأمر لأن مخالفة ذلك يلحق العار بشخصه فى نظر جميع الشعوب الراقبة وبخاصة فى نظر الحكومة الانجليزية التى تقوم بينه وبينها علاقات ود وصداقة.

وحيـن زار محمد على السودان – أصدر فى ديسمبر (١٨٣٨) أوامر مشددة بضـرورة تنفـيذ الأوامـر السابقة الخاصة بمنع دفع رواتب الجند من العبيد ومنه استخدام الجنود فى صيد الزنوج، وأمر باطلاق سراح العبيد الذين كان (أحمد باشا أبـو ودان) قـد أسرهم فى أثناء قيامة بحملته لقمع بعض حركات التمرد، كما أمر بإنشـاء (مستعمرة زراعية) على النيل الأزرق لتوفير عمل مناسب لمن لا يستطيع العودة من هؤلاء الزنوج لبلاده.

وبُذلت جهود لتنمية موارد السودان الاقتصادية حتى تروج التجارة المشروعة وبذلك يقضى تدريجياً على التجارة المحرمة فى الرقيق.

وقـد أوفدت (جمعية إلغاء الرق بلندن) فى عام (١٨٤٠) مندوباً خاصاً لمصر ليشـكر محمـد على على الأوامر التى أصدرها أثناء زيارته للسودان فيما يتعلق بإلغاء تجارة الرقيق.

علـى أن هذه الجهود كلها لم تكن لتقضى على داء متغلغل فى كيان السودان مـن سـنوات طويلة، بل إن الحملات الاستكشافية التى أرسلت لفتح النيل الأبيض

للملاحـــة شـــجعت كبار تجار الرقيق على أن يوغلوا فى هذه المناطق لصيد الفيلة والرقيق، وكون بعضهم شركات بقصد القيام بنشاط قوى لصيد الفيلة وصيد الرقيق من هذه المناطق البعيدة عن سلطان الإدارة الفعلية فى الخرطوم، واشتهر عدد غير قليل من الأجانب ومن العرب فى ميدان الاتجار بالرقيق- وقد ذكر دوان (Douin) بعـــض هـــؤلاء التجار منهم ديبونو (Debono) المالطى، بارتلمى (Barthlemy) الفرنســـى - ومن التجار العرب (السيد أحمد العقاد) و(موسى العقاد) و(على أبو عمـــورى) و(غطـــاس) و(إدريـــس أبتر) و(كوشك على)، وكان الأجانب منهم يجـــتمعون وراء أعـــلام دولهم يرفعونها على مراكبهم حتى لا تتدخل الحكومة فى نشاطهم.

وعـــندما تولى سعيد باشا الحكم أرسل امرأ إلى حكمدار السوادن بمنع الاتجار فى الرقيق ومنع تصدير الرقيق لمصر، وأصدر الأوامر المشددة إلى مديرى أسوان وجرجا وأسيوط بعدم إعطاء اى ترخيص للجلابين للمرور بمناطقهم[١].

وكمـــا يذكـــر الأســـتاذ (رتشارد هيل) - كانت هذه الخطوة خطوة جريئة فى مجتمع يقوم اقتصاده أساساً على الرق[٢].

وفـــى أثـــناء زيـــادة سعيد للخرطوم أصدر فى (يناير ١٨٥٧) تعليمات مشددة لمكافحـــة الرق- لكن تتقيد هذه التعليمات كان رهناً بمد سلطان الحكومة الحقيقى على مـــناطق أعـــالى النيل، وتقوية قبضتها على الملاحة فى النيل الأبيض بالإضافة إلى مـــنطقة (دارفـــور) الـــتى كانت خارجة عن الإدارة المصرية وكانت تعتبر من أهم مراكـــز تجـــارة الرقـــيق فى السودان. وقد أشار قنصل انجلترا فى الخرطوم بثريك (Petherick) إلـــى ضـــرورة إنشاء (بوليس نهرى) فى النيل الأبيض لمراقبة السفن، والقبض على كل من يتجر فى هذه التجارة المحرمة- إذ أنه رغم أن سعيد أنشأ نقطة مراقبة فى (فاشوده) لمنع تسرب تجار الرقيق ببضاعهم المحرمة للشمال - لكن ثبت أن نشاط الجلابين فى المناطق البعيدة عن نفوذ الإدارة المصرية ما زال كبيراً وأنهم لا يعدمون الوسائل لتصريف بضاعتهم فى أسواق الخرطوم وغيرها[٣].

على أن الآمال أصبحت معقودة على أن تمد الحكومة المصرية سلطانها على هـــذه المناطق الخارجة عن نفوذها والتى تُعتبر الأوكار الحقيقية التى يُمارس فيها

١- دفتر ٧٢١ صادر الأوامر، مكاتبه رقم ١٠ - بتاريخ (١٤ ربيع الأول سنة ١٢٧١).

2- Hill: Op. Cit. P. 102.

٣- أنظر : Petherick, J. : Egypt, the Sudan and Central Africa. (London 1861).

تجار الرقيق نشاطهم، وقد أشارت كافة التقارير المرسلة من قناصل الدول الأوربية فـــى الخـــرطوم لحكومـــاتهم ومـــن الجمعيات الإنسانية والعلمية المختلفة إلى هذه الحقيقة.

وظـــل سعيد يُرسل التحذيرات المشددة لحكام السودان من التهاون فى مكافحة الـــرق– ففى ٢٧ نوفمبر ١٨٦١ وصل لسمع سعيد أن بعض العبيد المجلوبين من مـــناطق النـــيل الأبـــيض يبّاعون فى الخرطوم فأرسل إلى مدير الخرطوم وسنار يحـــذره من نتائج إهماله فى تنفيذ الأوامر الصادرة إليه وأمره بأن يُوقف فوراً هذه التجارة فى كل حدود مأموريته[١].

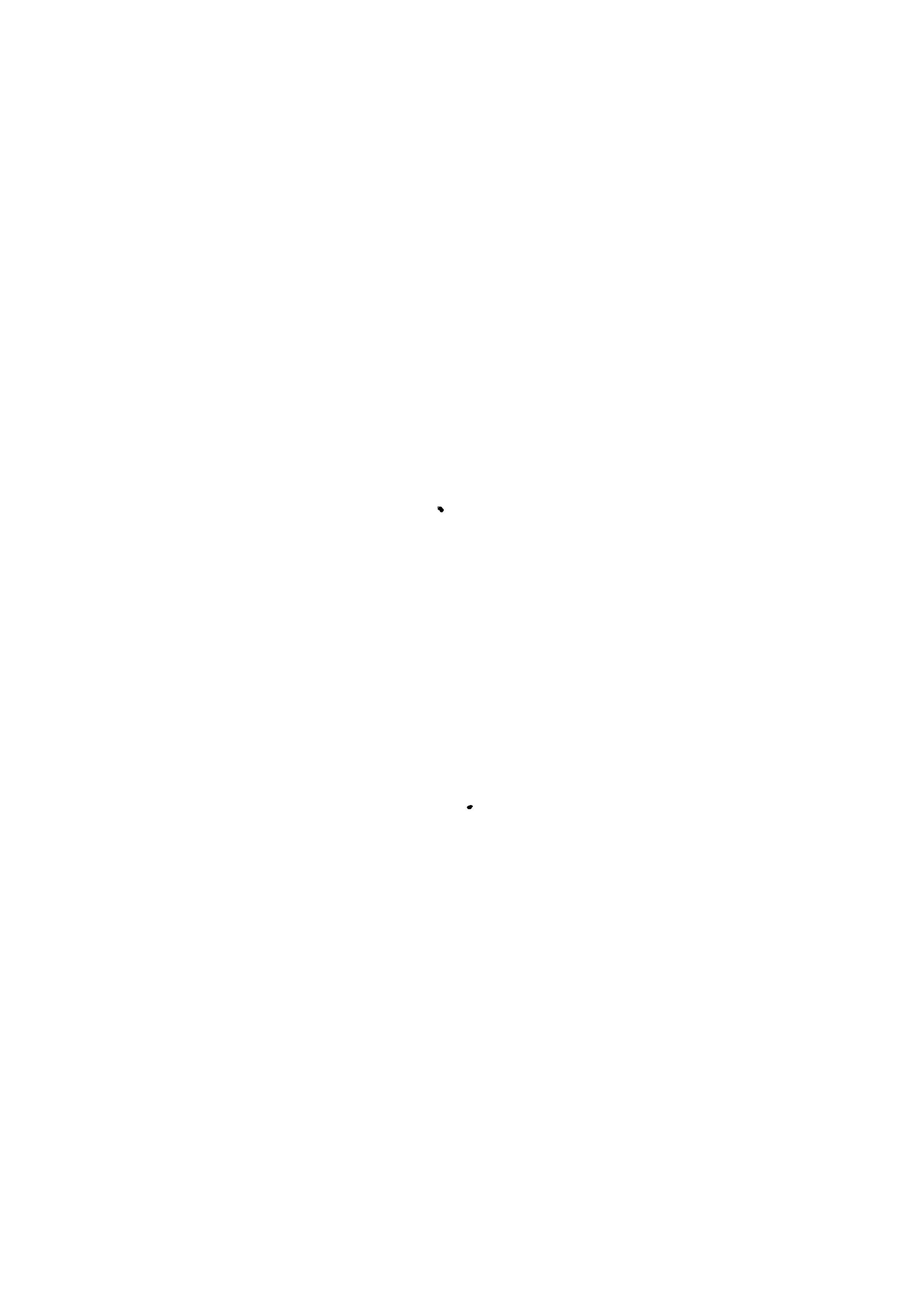
وفى ٢٣ ديسمبر ١٨٦١ أرسل مرة أخرى لمدير الخرطوم وسنار يذكر له أنه نما لعلمه أن التاجر (أحمد العقاد) ما زال يزاول نشاطه فى تجارة الرقيق، ويحذره مـــن أن استمرار هذا الأمر سيوقع الضرر بالمدير المذكور فعليه أن يتخذ إجراءًا عاجلاً لوضع حد لهذا النشاط المحرم.

وقـــد أمر سعيد فى عام ١٨٦١ بأن تُعد أربع بواخر للعمل فى السودان ليمكن تنفيذ مشروع (البوليس النهرى)، وليمكن إحكام مراقبة حركة السفن ومنع محاولات تهريـــب الرقـــيق عن طريق النيل خاصة فى مناطق النيل الأبيض– على أن هذه البواخر لم تصل للخرطوم إلا فى بداية حكم إسماعيل.

ولا شك فى أن الجهود التى بذلها سعيد وإن لم تقضِ نهائياً على هذه التجارة، التى كانت متغلغلة فى كيان السودان من زمن بعيد بحيث يحتاج اقتلاعها نهائياً إلى جهـــود جبارة والى صبر وأناة – لكنها زعزعت مركز هذه التجارة حتى بدأ تجار الرقـــيق يَشـــكُون من أن الأرباح التى يجنونها لا تتناسب مع ما يتعرضون له من جراء مزاولتهم لهذه التجارة التى تحاربها السلطات الحاكمة[٢].

١– دفتر أوامر المعية السنية ٢٥٦ رقم ٢ (فى ٢٧ نوفمبر ١٨٦١).

2- Hill: Op. Cit. P. 102.



الفصل الرابع
أهم ما تحقق فى السودان
فى ظل الإدارة المصرية فى الفترة ١٨٢٠-١٨٦٣

- الأمن.
- الرحالة الذين زاروا السودان في هذه الفترة وكتاباتهم عما شاهدوه.
- الاستعانة بالعناصر الوطنية وأثر ذلك.
- تأسيس المدن والمباني.
- التطور الاقتصادي.
- الكشف عن المناطق الداخلية ومحاولة الكشف عن منابع النيل.
- رحلات سليم قبطان.
- رحلات الرحالة الأجانب.
- المتغيرات الاجتماعية التى طرأت على السودان فى هذه الفترة.
- المطاعن التى وجهت للنظام الجديد.



الفصل الرابع
أهم ما تحقق فى السودان
فى ظل الإدارة المصرية (من ١٨٢٠- ١٨٦٣)

فـــى ضوء ما ذُكر فى الفصلين السابقين يمكن أن نُجمل التغييرات الهامة التى طـــرأت على أحوال السودان فى الفترة منذ امتدت إليه الإدارة المصرية حتى نهاية عصر سعيد فيما يلى:

أولاً: الأمن :

مـــن أهم ما تحقق فى السودان فى ظل الإدارة الجديدة- إستتباب الأمن ونشر هيـــبة الحكومـــة فى المناطق التى خضعت للإدارة المصرية، وإنشاء علاقات مع القـــبائل الـــتى تعـــيش خارج نطاق حدود البلاد الخاضعة لهذه الإدارة وحمل تلك القـــبائل علـــى الإذعان بالتبعية للحكومة الجديدة، كما حدث مثلاً مع (الشلوك)، فلم يكـــن هناك فتح منظم لمناطق تلك القبائل بل محاولات لنشر هيبة الحكومة بين تلك الجماعات، وحملها على أن تفهم أن من مصلحتها الخضوع الأسمى- على الأقل- لحكومـــة محمـــد على وعدم التعرض للحدود والإمتناع عن الاغارات لنهب القرى الداخلة فى نطاق الإدارة الجديدة كما كانت تفعل من قبل.

وقـــد شهد الأجانب الذين زاروا السودان فى هذه الفترة بأنه كان من أثر قيام الحكومـــة المســـتقرة فـــى الخـــرطوم – أن استتب الأمن وسادت الطمأنينة ربوع السودان واستطاع عدد كبير من الرحالة الأجانب القدوم إليه والتجول فى أنحائه فى سلام واطمئنان.

الرحالة الذين زاروا السودان فى هذه الفترة

١- الرحالة الفرنسى كيو (Cailliaud):

رافق حملة إسماعيل بن محمد على للسودان وقام بأبحاث علمية وجغرافية سجلها فى أربعة مجلدات نُشرت فى باريس فى عام (١٨٢٠)، وتناولت أحوال البلاد المختلفة من الناحية الجغرافية وما تيسر الإلمام به عن السكان وأحوال معيشتهم وعاداتهم.

٢- الرحالة الانجليزى هوسكنس (Hoskins):

قـــام برحلته فى السودان فى عام (١٨٣٣)، وقد تحدث عن التقدم الذى شاهده فـــى (بربر) سواء فى ميدان الزارعة حيث اهتمت الإدارة المصرية بتوسيع رقعة

الاراضـــى الزراعــية وتوفــير مــياه الرى عن طريق (السواقى) فأصبحت تُنتج المحصــولات المختلفة من ذرة وشعير، وقمح، وشوفان، وقطن بل أدُخلت زراعة قصــب السكر – أو فى ميدان الصناعة حيث أُنشئ مصنع (للنيلة) يقوم على نبات (العظلم) الذى أُدخلت زراعته فى هذه المناطق.

٣- الرحالة روسيجر (Russegger):

زار بلاد النوبة فى عام (١٨٣٧) ووصل إلى سنار، وفازوغلى والرصيرص، كما زار كردفان ونشر فى عام (١٨٤٣) مُشاهداته فى هذه المناطق.

٤- الرحالة الألمانى لبسيوس (Richard Lepsius):

زار الخرطوم فى عام (١٨٤٤) ثم زار سنار- وقد أشار للعمران الذى شاهده فى مختلف المناطق التى زارها، وعن المصانع التى اُستحدثت.

وذكــر أن الأجانــب بــدأوا يفــدون للسودان ويستقرون به لمزاولة نشاطهم الاقتصادى من إقامة مصانع صغيرة أو متاجر مما يدل على الاطمئنان الكامل.

وقد أشرنا بإسهاب إلى رحلات هؤلاء الرحالة جميعاً فى الجزء الأول من هذا الكتاب[١].

٥- أدوارد ربل الالمانى (E. Rupell):

اســتطاع أن يــزور كردفان فى عام (١٨٢٥) وأن يرسم أول خريطة علمية لهــذه البلاد – ورغم نزعته الاستعمارية الخاصة فقد أشاد بما ساد أرجاء السودان الــتى امتدت إليها الإدارة المصرية من استقرار وأمن وسلام حتى أنه استطاع أن يجوب حتى المناطق الصحراوية دون خوف[٢].

٦- المهندس البلجيكى أدولف لينان دى بلفون (Linant de Bellefonds):

قــام برحلة فى عام (١٨٢٧) فى النيــل الأبيض لحساب (الجمعية الأفريقية الإنجليزية) ووصل إلى جزيرة آبا[٣].

١- أنظر الجزء الأول.

٢- نشر كتبه فى عام ١٨٣٨ باسم:

Ruppell, E.: Reisen in Nubien, Kordofan und dem Petraischen Arabien (Frankfort 1838).

٣- وقد نشرت الجمعية الجغرافية فى لندن أخبار رحلته فى عام ١٨٣٢ تحت عنوان:

Bellefonds, Linant : Journal of a Voyage on the Bahr El-Abiad (Journal of the Royal Geog Soc.)

– وقد دخل لينان دى بلفون فى خدمة (محمد على) واشترك فى بعض أعمال المشف، واشترك فى عهد الخديو إسماعيل فى تنفيذ بعض مشروعات الرى الهامة.

٧- كومب الفرنسى (E. Combes):

زار بــلاد الــنوبة والخرطوم وسنار فى ١٨٣٣، ١٨٣٤، وأشار بنوع خاص إلـــى ما وصلت إليه (الخرطوم) من عمران فقد انتقلت من قرية صغيرة للصيادين إلى مدينة عامرة قدر تعداد سكانها فى ذلك الوقت بحوالى خمسة عشر ألف نسمة، وتحدث عن مجهودات الإدارة المصرية ليستتب الأمن وليمكن مضاعفة الإنتاج فى مختلف المجالات(١).

ويُعقــب (كومــب) على ذلك بقوله "إنه لأمر مدهش أن يصل الباشا إلى هذه النتيجة فى بلاد بعيده عنه بهذا القدر"(٢).

٨- الأمير الالمانى بكلر مسكاو (Puckler Muskau):

زار الســودان عــام ١٨٣٧ وذكر أن الطريق الصحراوى لشندى الذى كانت تكتنفه المصاعب والأخطار عند زيارة بور كهارت (Burchardt) لهذه الجهات فى الفترة ما بين (١٨١٢، ١٨١٥) قد أصبح آمناً كما هو الحال فى الديار المصرية(٣).

٩- بالم الانجليزى (Pallme):

زار كردفان فى عام ١٨٣٨ وأشار إلى الجهود التى بُذلت للضرب على أيدى العابثيــن بالأمن فى هذه المناطق البعيدة، كما أشار إلى رحلة محمد على للسودان ومــا تــبعها مــن أوجه النشاط المختلفة، والى عزله حاكم كردفان فى ذلك الحين وغــيرة مــن الموظفيــن الذيــن اشتكى الاهالى من ظلمهم وعدم رعايتهم لشئون الاهــالى- ومما يُذكر أن (بالم) استطاع أن يُسافر إلى كردفان مع خادم واحد مما يدل على استتباب الأمن فى ذلك الوقت(٤).

١٠- دهيران الفرنسى (Deherain):

يذكــر أنه أصبح فى استطاعه التاجر أن يتجول فى ربوع السودان وينتقل من جهــة لأخــرى دون حاجة لأن يكون برفقة قافلة أو جماعة تتعاون على دفع ما قد يتعرض له من أخطار الطريق الأمر الذى كان يُتبع عادة قبل الحكم المصرى(٥).

1- Combes, E. : Voyage en Egypte, en Nubie. Tome2 P. P. 110 -111

٢- نفس المرجع السابق ونفس الجزء ٢٢٨. ؛.

3- Puckler Muskan : Egypt under Mehemet Ali. Vol 11 P. 210.

4- Pallme, 1. : Travels in Kordofan .P. 249 & P. 275.

5- Deherain: Le Soudan Egyptien sous Mehemet Ali. P. 214.

١١- السير صمويل بيكر:

ذكر أن القبائل فى إقليم (التاكه) كانت قبل ضمها للإدارة المصرية فى حروب مستمرة مع بعضها البعض الأخر فلم تكن هناك حكومة أو قانون، حتى أن هذه البلاد كانت تقريباً مُغلقة فى وجه الأجانب- أما الآن فإنه لا خوف على أى مسافر، أكثر مما يتعرض له لو كان يخترق هيد بارك (Hude Park) فى وقت الظهيرة، والقبائل كانت فى عام ١٨٦١ أثناء زيارته لهذه الجهات تحت إدارة شيوخها لكن هؤلاء كانوا مسئولين مسئولية كاملة عما يحدث فى مناطقهم أمام الإدارة المصرية[١].

هذه بعض أقوال المعاصرين من الأجانب الذين زاروا السودان خلال الفترة القصيرة التى تلت الإدارة المصرية فيه- وكلها تشهد بالتغيير الشامل الذى طرأ على أحوال هذه البلاد بحيث أصبحت تنعم بالهدوء، بعد أن كان أى شخص لا يأمن على نفسه إلا إذا كان فى حماية القبائل القوية التى تُسيطر على الجهة التى يمر بها فلم يكن اجنبى يجرؤ على أن يُخاطر بحياته لارتياد هذه الأقاليم.

وقد قللت الإدارة الموحدة التى كلفها محمد على للسودان – من العصبية القبلية والتناحر وانفصالية الديار التى كانت متحكمة فى عهود الفونج وإن لم يُقضِ عليها تماماً[٢].

ثانيًا: الاستعانة بالعناصر الوطنية:

كانت السياسة التى رُسمت لإدارة السودان بعد أن خضع للإدارة المصرية هى التعاون بقدر الإمكان مع العناصر الوطنية التى يُمكن أن تُسهم فى الإدارة الجديدة، ولذا فقد شغل كثير من السودانيين وظائف رئيسية فى الإدارة الجديدة وسنُشير لذلك بالتفصيل عند الحديث عن السودان فى عهد الخديو إسماعيل.

ومن الذين كانت لهم مكانة- من السودانيين (الأرباب محمد دفع الله) – و(الشيخ أحمد أبو سن) شيخ قبيلة الشكرية وقد عُين فيما بعد فى أول عهد الخديو إسماعيل مديراً للخرطوم وسنار وظل فى وظيفته هذه عشر سنوات، و(الشيخ إدريس عدلان) من مشايخ جبل الفونج – وغير هؤلاء كثيرون. وقد أيد هؤلاء الإدارة المصرية وقدموا لها مشورتهم ومعاونتهم.

1- Baker, Samuel: Nile Tributaries of Abyssinia Pp. 72 83.

٢- د. مكى شبيكة: السودان فى قرن – ص ٥٣.

ثالثًا: تأسيس المدن وإقامة المبانى :

بــدأ العمــران فى ربوع السودان وأخذت مظاهر الاستقرار تظهر منذ امتدت إلــية الإدارة المصــرية وقد أُنشئت مدينة (الخرطوم)- كما ذكرنا وجُعلت فى عام (١٨٣٠) عاصــمة للسودان وأُنشئت بها دور الحكومة، ومسجدان، وثكنات للجيش، ومصانع عدة.

كما أُسست مدينة (كسلا) – وأصبحت عاصمة للسودان الشرقى (إقليم التاكا)، ومديــنة (فامكــا) علــى النيل الأزرق على بعد ٢٥ ميلاً من الرصيرص وجُعلت عاصمة لمديرية فأزوغلى.

وفــى كــل المدن كما فى غيرها من بقاع السودان التى استقرت فيها الإدارة المصرية بُنيت الدور والمساجد وافتتحت المتاجر بل كما سنرى فيما بعد – أُنشئت المدارس والمستشفيات وزُودت بالمياه الصالحة للشرب.

رابعًا: التطور الاقتصادى :

أ – الزراعة:

أدخلــت الإدارة المصرية بالسودان حاصلات جديدة من أهمها (القطن)، لكن انتشــار زراعة القطن فى السودان كان يتطلب القيام بمشروعات ضخمة للرى كما عُمل فى مصر مثلاً.

كذلــك اهتمــت الإدارة المصــرية بإدخــال زراعة (النيلة) للحاجة إليها فى الصــباغة- هذا بالإضافة للتوسع فى المساحات التى تُزرع (ذرة وقمح، وشوفان، وخضــر) كما أنشئت البساتين لزراعة أشجار البرتقال، والليمون والعنب وغيرها من الفواكه.

ولتحقيق ذلك بذلت الإدارة المصرية جهوداً ضخمة لنشر السواقى، وقد كانت معروفة من قبل فى (دنقله).

وقــد فكــر محمــد على فى نقل الفلاحين المصريين للسودان لترقية الزراعة السودانية- أو نقل السودانيين لمصر لتعلم الزارعة، والأمر الأول لم يتحقق وغالباً لــم يُفكر فيه طويلاً لأن مصر فى ذلك الوقت كانت الايدى العاملة فيها قليلة بسبب المشــروعات الزراعية والصناعية وتغيير أنظمة الرى التى أصبحت تشغل الفلاح المصرى طوال السنة، وبسبب الحاجة إليهم فى الجندية، ثم إنه وضح بعد أن نقلهم من غير عمل مشروعات رى مثل قناطر سنار كان نوعاً من العبث.

ولذلك لم يكن هناك حل سوى استحضار السودانيين لمصر لتعليمهم الزراعة- وتوجد فى دار المحفوظات التاريخية بعابدين أوامر لتحقيق هذا- وإن كان مبلغ تنفيذ تلك الأوامر أمر لا سبيل إلى التحقق منه.

ب- التجارة :

نهضت حركة التجارة لأسباب من أهمها:

١- إستتباب الأمن.
٢- خضوع هذه المناطق لحكومة واحدة وإلغاء نظام تعدد (الإتاوات).
٣- افتتحت للسودان أسواق فى الخارج كانت غير متيسرة فى الماضى، فمثلاً كان يأتى من السودان إلى مصر قبل محمد على: ريش النعام، وسن الفيل وقرن الخرتيت والرقيق- لكن بعد ذلك بدأت حاصلات جديدة كالصمغ والماشية الحية تجد طريقها لمصر، وبدأت تنشط التجارة بين السودان وأوربا برؤوس أموال كبيرة من الاروربين والسوريين واليونانيين، وقد فتح كثير منهم محلات تجارية واسعة- وتبع هذا إدخال طرق أرقى فى عمليات التبادل التجارى فازداد استخدام النقود، واستخدام رؤوس الأموال الأجنبية فى المشروعات الاقتصادية.

خامسًا: الكشف عن المناطق الداخلية بالسودان ومنابع النيل :

مجهودات الإدارة المصرية فى الكشف عن منابع النيل وعن الأقاليم الأخرى بالسودان تتمثل فى ناحيتين:

١- الناحية الأولى:

الرسائل الرسمية للحكومة المصرية أى الحملات التى أرسلتها مصر لتقصى أخبار تلك الأماكن.

٢- والناحية الثانية:

وهى لا تقل أهمية عن الناحية الأولى- وفضل مصر فيها يجب ألا ينكر، ونعنى بها أتاحه الظروف للأوروبيين للحضور لهذه الجهات مما ترتب عليه الكشف عن منابع النيل وغيره من الحقائق الجغرافية الهامة. لأنه – كما ذكرنا- ترتب على قيام الحكومة النظامية فى هذه الجهات أن فُتحت تلك الأقاليم للأوروبيين كمصر نفسها فقدموا لتلك الجهات للاستقرار بها كتجار ومبشرين أو كرحالة ومغامرين.

وسنشير لبعض هذه الجهود:

أولاً: من الناحية الأولى: نذكر عدة جهود منها:

١- حملة إسماعيل بن محمد على:

فقد استصحب إسماعيل معه فى حملته لفتح السودان بعض العلماء ويَسر لهم سبل التنقل والبحث نذكر منهم: فردريك كايو (Cailliaud) الفرنسى الذى وضع كتابه الذى أشرنا إليه سابقاً.

وقد أشاد (المجمع الفرنسى العلمى) بهذا الجهد وأشار بنشر نتائج رحلة (كايو) على نفقة الحكومة الفرنسية، وكان نشر هذه المعلومات فاتحة لعهد جديد فى الكشوف الجغرافية[١].

٢- رحلة محمد على للسودان:

الكتب الإفرنجية تناولتها فى الحديث عن بعثات الكشف عن السودان، وقد تحدثنا عنها قبلاً وذكرنا أن محمد على قام برحلته هذه فى عام (١٨٣٨) ووصل إلى الخرطوم فى نوفمبر من هذا العام، ثم زار سنار، ووصل إلى جبال (فازوغلى) للبحث عن منجم الذهب وكان بصحبته عدد من المهندسين والباحثين.

ومما يُذكر أن محمد على أثناء زيارته للسودان كان يُعد العدة لإرسال الحملة الكشفية فى النيل الأبيض برئاسة البكباشى سليم قبطان، وقد اجتمع محمد على فى الخرطوم فعلاً بضباط هذه الحملة وناقشهم فى ترتيبات الحملة وأسدى لهم النصح، موضحاً أن الهدف من الرحلة ليس الغزو والفتح بل الكشف العلمى وأن من معهم من الجنود لا للهجوم والغزو بل لضمان سلامتهم[٢].

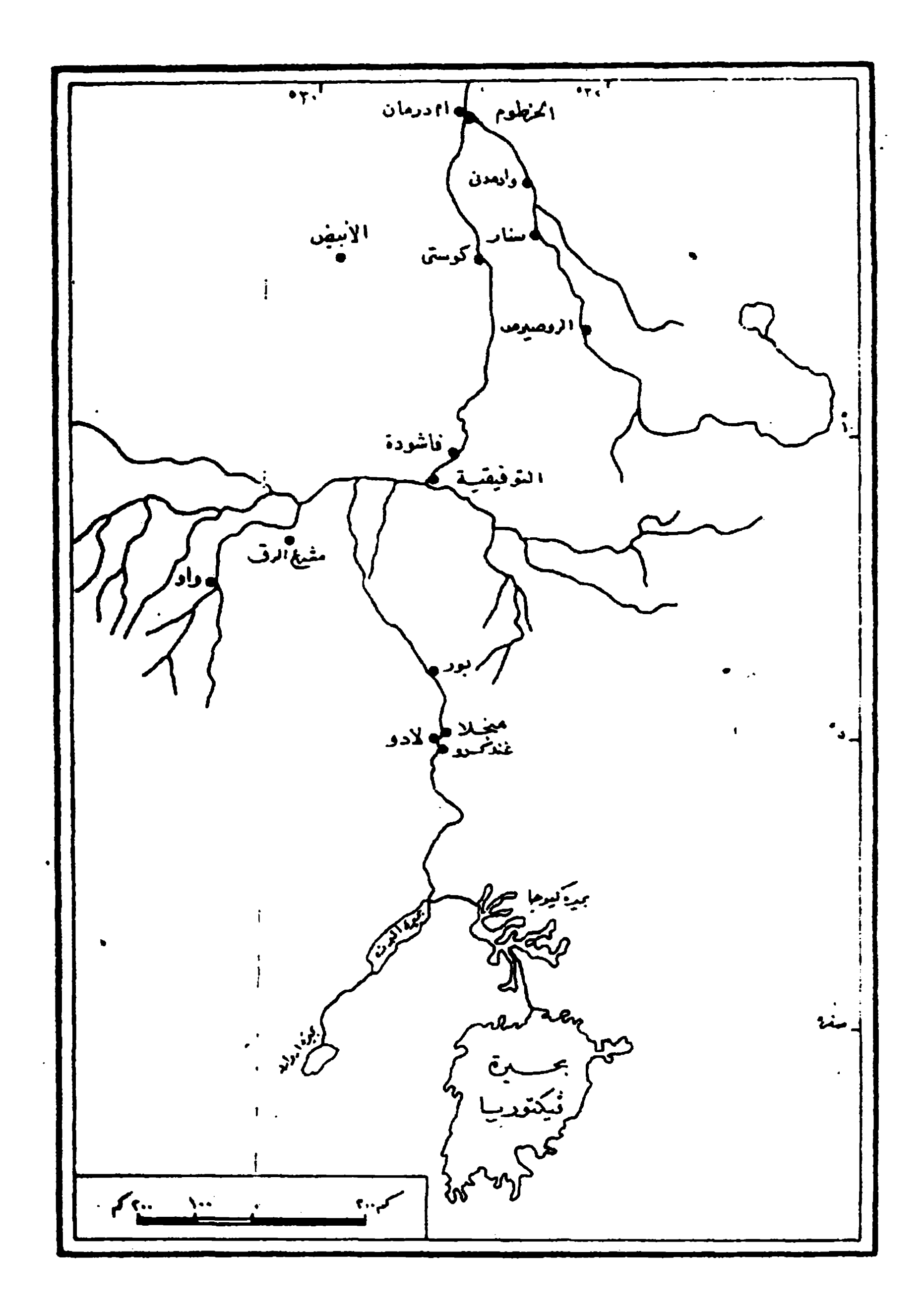
وقد يُذكر فى هذا المجال أيضاً زيارة سعيد باشا للسودان عن طريق الصحراء النوبية فى عام (١٨٥٦)، وقد سجل أحداث هذه الرحلة طبيب سعيد ورفيقه فى الرحلة الدكتور أباته[٣].

٣- لكن أهم هذه الجهود هى الحملات الثلاث التى قام بها (البكباشى سليم قبطان) للكشف عن منابع النيل فى الفترة بين ١٨٣٩، ١٨٤٢ ويمكن أن نلخصها فيما يلى:

١- د. فوردريك بنولا: مصر والجغرافيا (تعريب أحمد زكى) ص ١٥.

٢- د. أنجلوسا ماركو: رحلة محمد على إلى السودان (تعريب طه فوزى) ص ١٢، ١٣.

٣- انظر: Abbate, le Dr.: Voyage se S. A. Mohamed Said Pacha Dans ses Provinces Du Sudan (Paris 1858).



شكل (٣) رحلات سليم قبطان للكشف عن منابع النيل ١٨٣٩-١٨٤٢م

أ - الحملة الأولى:

غـادرت هذه الحملة التى قادها البكباشى سليم قبطان الخرطوم فى ١٦ نوفمبر ١٨٣٩ – وكـان بـرفقة سليم قبطان المهندس الفرنسى ثيبيو (Thibaut) الذى أطلق علـى نفسـه اسم (إبراهيم افندى)، وعدد من الضباط للإشراف على شئون الملاحة وعلـى تنظـيم القوات العسكرية المرافقة للحملة لحمايتها، وعدد من الرسامين لرسم الخرائط اللازمة، وبعض شيوخ القبائل الزنجية المجاورة لحدود الإدارة المصرية فى السودان مثل (الشلك والدنكا) – وكانت الحملة من أربعمائة جندى حملتهم السفن التى أعـدت لهـذا الغرض ومعهم من المؤن ما يكفى ثمانية أشهر خلاف العتاد الحربى والهدايا لكسب صداقة القبائل التى تسكن المناطق التى ستمر بها الحملة[١].

وقـد وصلت الحملة إلى منطقة السدود وتعذر عليها السفر جنوب خط عرض ١٠ َ ٦ ْ شـمال خط الاستواء، ولكنها أثناء عودتها توغلت فى نهر السوباط حيث مواطن (الدنكا) ثم عادت أدراجها فوصلت للخرطوم فى ٣٠ مارس (١٨٤٠).

وقـد سجل البكباشى سليم فى تقريره الذى كتبه عن هذه الحملة ما جمعه من بـيانات تـتعلق بالنـيل الأبيض ودارفور والسكان القاطنين على ضفتيه وعاداتهم والحاصلات الطبيعية للبلاد التى مر بها[٢].

ب- الحملة الثانية:

كـان الهـدف الرئيسى من إرسال حملة البكباشى سليم الأول هو الكشف عن مـنابع النيل، ولكن العوائق الطبيعية التى اعترضت سير الحملة حالت دون تحقيق هدفهـا هـذا كـاملاً لذلك أعدت حملة كشفيه أخرى برئاسة البكباشى سليم قبطان، ورافقـه فـى الحملـة الثانية بعض الضباط والبحارة المصريين من أمثال القبطان (فيظ الله أفنـدى) وسليمان كاشف، ومن الاروربين المسيو دارنو (D, Arnaud) ، والمسـيو ساباتيه (Sabatier) الفرنسيين والرحالة الالمانى فرن (Werne) وبعض المترجميـن والـبحارة – وقد غادر هؤلاء الخرطوم على ظهر السفن التى أعدت لنقلهم والمؤن اللازمة لهم فى (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠)، ووصلت الحملة إلى خط عـرض ١٠ َ ٦ ْ فـى المـناطق التى مرت بها الحملة الأولى، لكنها تجاوزت هذا المكـان صوب الجنوب حتى وصلت إلى جزيرة (جانكير) قبالة (غند كورو) عند خـط عـرض ٤٢ َ ٤ ْ شـمال خط الاستواء – وبذا أمكن لهذه الحملة الكشف عن

١- سليم قبطان: الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) تعريب محمد مسعود ص ٨، ٩.

٢- أنظر: د. نسيم مقار: البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل ص ٢٨ وما بعدها.

جهات وقبائل أخرى جديدة لم يقدر للحملة السابقة الكشف عنها، وقد تحدث المهندس الالمانى (Werne) الذى صاحب الحملة بإطناب عن القبائل التى قابلتها الحملة فى المناطق التى مرت بها ومن أهمها قبائل (البارى) وتحدث عن خصائص المنطقة الجغرافية ومظاهر النشاط الاقتصادى عندهم وعاداتهم وتقاليدهم وصور بعض مظاهر حياتهم ووصف المقابلة التى تمت بين سلطان (البارى) والبكباشى سليم قبطان على ظهر سفينة تصحبه زوجته وفرقة من الموسيقى[١].

وقد تعذر على الحملة الإبحار جنوب جزيرة (جانكير) لوجود حاجر صخرى جنوب الجزيرة يمتد عبر مجرى النهر من الشرق إلى الغرب،فمواصلة السير نحو الجنوب عبر هذه المنطقة متعذرة إلا فى فصل سقوط الأمطار حيث يرتفع منسوب الماء فى النهر وتُغطى الصخور والجنادل التى تعترضه فيتيسر للسفن المرور فيه- لكن لم فى استطاعه الحملة الانتظار لفصل الأمطار لقرب نفاذ ما معها من مؤن، ولذا قرر سليم قبطان ورفاقه العودة للخرطوم فوصلها فى (١٨ مايو سنة ١٨٤١) بعد أن وصلوا إلى خط عرض ٤٢َ ٤ ْ شمال خط الاستواء.

جـ- الحملة الثالثة:

كان التقدم الذى أحرزته حملة البكباشى سليم قبطان الثانية فى سيرها نحو الجنوب مشجعاً على إرسال حملة ثالثة لإمكان الوصول إلى منابع النهر ذاتها، وقد غادرت هذه الحملة الثالثة الخرطوم فى (٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤١) على عشر سفن مسلحة بالمدافع البحرية وعليها أربعمائة رجل من السودانيين، وكان المهندس الفرنسى دارنو (D, Arnaud) الذى رافق حملة سليم قبطان الثانية أيضاً ضمن رجال هذه الحملة الثالثة[٢].

لكن هذه الحملة لم تستطع أن تتعدى المكان الذى بلغته الحملة الثانية أى أنها وصلت إلى خط عرض ٤٢َ ٤ ْ شمال خط الاستواء واضطرت للعودة إلى الخرطوم فوصلتها فى (٣ مارس عام ١٨٤٢).

على أن أهمية هذه الحملات الثلاث لا تقتصر على ما جمعه رجالها والمرافقون لهم من الأجانب من معلومات عن طبيعة المناطق التى زاروها، أو عما سمعوه من الاهالى عن المناطق الأخرى التى لم تستطع الحملات الوصول

1- Werne: Expedition to discover the Sources of the White Nile in the years 1840, 1841. Vol 2 P P. 48, 49.

٢- د. فردريك بنولا: مصر والجغرافية (تعريب أحمد زكى) ص ٢٧.

إلـــيها وعـــن سكانها وعاداتهم ونشاطهم، بل إن هذه الحملات أيضاً أثارت اهتمام الشـــركات الـــتجارية والهيـــئات العلمية بما نشره رجالها عن خيرات وثروة البلاد الواقعة فى أعالى النيل، كما أثارت اهتمام الهيئات الدينية والتبشيرية.

وسنشير بعد قليل إلى بعض الجهود التى تلت حملات سليم قبطان والتى كانت بلا شك ثمرة من ثمارها.

وقـــبل أن نـــترك هذه النقطة نجد لزاماً علينا أن نذكر أن الكثير من المراجع العلمـــية الـــتى تُمجد الجهود التى تلت هذه الحملات المصرية لأعالى النيل والتى تـــرتفع برواد هذه الحملات المتأخرة من أمثال صمويل بيكر (S. Baker)، وسبيك (Speke) وجرانـــت (Grant) وليفنجســـتون (Levingstone) وستانلى (Stanley) وغـــيرهم – إلـــى القمـــة– تنسى أو تتناسى حتى مجرد الإشارة إلى هذه الحملات الرائدة التى قامت بها مصر لاكتشاف منابع النيل والتى مهدت الطريق بلا شك لما تلاها من حملات.

علـــى أنـــنا نُشير أيضاً إلى أن الذى حُل فى عهد محمد على من مسألة منابع النـــيل كان شيئاً هاماً لا يجب أن نقلل من قيمته– حقيقة لم يصلوا للمنابع نفسها فى البحـــيرات الاســـتوائية– وكما نعرف أن منابع النيل فى البحيرات الاستوائية حُلت عـــن طريق آخر– طريق شرق أفريقيا – بعثات وصلت للبحيرات مباشرة وأثبتت خروج ذلك النهر من شمال البحيرة التى أطلق عليها سبيك اسم بحيرة (فيكتوريا). أما ما حُل فى أيام محمد على فهو انه كان هناك شك فى أن النيل الأزرق هو النيل الحقـــيقى. فـــى عهـــد محمد على ثبت بالدليل القاطع أن النيل الأبيض هو الشىء الاساسى، وأكدت مهمة البكباشى سليم أن هناك مجرى طويل آت من الجنوب، وأن الروافد ما هى إلا روافد للنهر الاصلى– وقد توغلوا فى النيل الأبيض واصطدموا بصـــعوبات طبيعية. بالطبع نتيجة هذه الجهود تتم فيما بعد فى عهد إسماعيل حين اكتشفت مديرية خط الاستواء وامتدت إليها التنظيمات المصرية.

وفـــى الاكتشافات العلمية جزء من الحل يكون بطريق الحذف، فكما أثبتوا فى عهـــد محمـــد على أن الوصول لبحيرة (تانا) والمنابع الحبشية لا يكفى للبحث عن مـــنابع النيل – كذلك حُلت العلاقة بين النيجر والكنغو من جهة وبين النيل من جهة أخرى.

ونُشير أيضاً إلى حملات البكباشى سليم قبطان الكشفية قد فتحت النيل الأبيض والســـودان الجـــنوبى للملاحـــة والتجارة، فمن ذلك بدأت ما يمكن أن نُطلق عليها

(تجارة النيل الأبيض)، وقد اتسع نطاق هذه التجارة فيما بعد حتى أن بعض الأوربيين المغامرين حاولوا استغلال هذا الميدان الجديد – هذا بالإضافة إلى أنها فتحت طريق المدنية والحضارة إلى هذه الجهات[١].

من الناحية الثانية :

فضل الإدارة المصرية كما ذكرنا لا يقف عند الوسائل الرسمية للكشف، إذ كان استتاب الأمن وتشجيع هذه الإدارة وما قدمته من تيسيرات بالإضافة لما نُشر عن المناطق الواقعة فى أعالى النيل وسكانها وثرواتها دافعاً لكثير من الأجانب والشركات والجمعيات التبشيرية لإرسال رواد لهذه المناطق وليس القصد أن نلم هنا بمثل هذه الجهود.

الرحالة الأجانب :

أ – الرحالة الفرنسى برون روليه (Brun Rollet):

الذى سافر فى النيل الأبيض ووصل حتى (غند كرور)، كما زار مناطق بحر الغزال ووصف هذه الجهات[٢].

وقد استطاع (برون روليه) أن يُقيم علاقات تجارية واسعة مع قبائل أعالى النيل مثل (الشلك، والدنكا، والنوير) فى العاج وسن الفيل ثم فى الرقيق– وشجعت الأرباح الضخمة التى جناها من هذه التجارة غيرة من الأوربيين على ولوج هذا الطريق، وأصبحت (غند كورو) فى الخمسينات من القرن التاسع عشر مركزاً هاماً لتجارة العاج وسن الفيل[٣].

ب– البعثة الكاثوليكية التبشيرية:

التى بدأت منذ عام (١٨٤٧) برئاسة الدكتور كنوبلخر (Knoblecher) مؤسس مراكز التبشير بين الزنوج فى جهات بحر الجبل حول غند كورو، وفى السوباط وغيرها من جهات النيل الأعلى وقد نجحت هذه البعثة فى جمع المعلومات المختلفة عن هذه الجهات مما كان له أكبر الأثر فى خدمة الجهود التالية[٤].

١– أنظر د. نسيم مقار: البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل ص ١١٣ وما بعدها.

2- Brun Rollet: Le Nile Blanc et le Soudan P. 144.

٣– نفس المرجع السابق ص٣٨ وما بعدها– وكذلك ص ٥٢.

٤– د. محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان ص ١٣٤.

هـذا بالإضافة إلى من ذكرناهم أثناء الحديث عن استتباب الأمن فى السودان مـن الأجانب والرواد الذين زاروا السودان وكتبوا عنه وأشادوا بالإدارة المصرية وما أضفته على هذه الجهات من استقرار.

جـ- الرحالة الفرنسى- الفريد بينى (A. Peney):

تكفل سعيد باشا بنفقات رحلته التى أعدها بقصد الوصول إلى بحيرة فيكتوريا، وقـد سار (بينى) فى النيل الأبيض حتى وصل إلى غند وكرو فى (١٨٦٠) وعلم بوجـود انهـار عظيمة فى جهة الغرب فوجه جهده لكشفها وكشف جزءًا من إقليم بحـر الغزال، لكنه لم يستطع التوغل كثيراً إلى جنوب (غندوكور) فعاد إليها وزار بلاد (اللوتوكا) و(البارى)، وأرسل من غندو كرو تقريراً وافياً عن مشاهداته لرئيس المجمع العلمى المصرى وقد نشر هذا التقرير فعلاً فى عام ١١٨٦١.

د - الرحالتان الانجليزيان سبيك (Speke) وجرانت (Grant):

عمـدا إلى تجنب منطقة السدود النباتية فاتجها إلى زنجبار بشرق أفريقيا ومنا إلى (أوغندة) حيث قابلا ملكها ميتسا (Mittess) ثم وصلا فى سبتمبر سنة (١٨٦٢) إلـى (أونيورد) ومنها إلى (غندكرو) حيث قابلا صمويل بيكر وزوجته ثم سافرا للخرطوم ومنها للقاهرة، هكذا نجحا فى كشف بحيرة فيكتوريا٢.

هـ- رحلة السير صمويل بيكر:

جـاء صـمويل بـيكر لمصر حيث حصل من سعيد باشا على فرمان يقضى بمسـاعدة موظفـى الحكومة له فى رحلته المزمع القيام بها لكشف منابع الأبيض، وسافر معه زوجته للخرطوم فوصلاها فى يونيه (١٨٦٢) بعد أن زار الأقاليم التى يجـرى فـيها نهر العطبرة، وفى فبراير ١٨٦٣ وصلا إلى (غندوكرو) حيث التقيا بسبيك وجرانت وعلما منهما بما سمعاه عن وجود بحيرة أخرى، وكان ذلك مقدمة لكشـف بحـيرة (ألـبرت) وشـلالات مرشيزون، وقد رجع (بيكر) وزوجته إلى الخرطوم فى مايو (١٨٦٥) ومنها إلى بربر فسواكن حيث أبحرا إلى انجلترا[٣].

١- نفس المرجع السابق ص ١٣٦ – وقد نشر تقرير (بينى):

Peney, A. No 5).

٢- رحلة سبيك منشورة:

Speke, J. H. : Journal of the Discovery of the Sources of the Nile (Edinburg 1863).

3- Budge: The Egyptian Sudan Vol. 2 P. 272

- نشر بيكر رحلته فى كتابه Baker, S. : Albert Nyanza, Great Basin of the Nile . (1866).

سادسًا: التغيرات الاجتماعية التى طرأت على السودان بعد امتداد الإدارة المصرية إليه:

مـــا مدى التغيرات الاجتماعية التى طرأت على السودان؟ وهل نجحت الإدارة الجديـــدة فـــى الســـودان فـــى تحقيق ما تم تحقيقه فى مصر مثلاً من تغييرات فى المجتمع؟

فى مصر قَضى النظام الجديد على (الملتزمين) بمختلف طوائفهم، وأوجد نظام الحكومـــة التى تعتبر نفسها مسئولة عن كثير من الخدمات كفتح المدارس، وإنشاء المستشـــفيات والأعمال العامة وقضى على روح الفردية وأصبحت روح الجماعة هـــى الموجـــودة، حلت فكرة الأمة، والفكرة القومية محل الطائفية – فهل حدث فى السودان مثل هذا التغيير؟

يمكن أن نقول إنه فى السودان حدث تغيير لكن بدرجة أقل، حقيقة إن الإدارة المصرية فى السودان أوجدت بجانب الفكرة القبلية طائفة من المتعلمين سواء أكانوا فـــى خدمـــة المصـــالح المدنـــية أو العسكرية – أوجدتهم بجانب الرئاسات القبلية والوطنـــية القديمـــة بتعلـــيمهم فـــى مدارس وإلحاقهم بمناصب، فحولتهم بذلك إلى موظفين تابعين للحكومة أكثر منهم أفراداً منتسبين لجماعة أو قبيلة، لكنها لم تقض تمامـــاً علـــى الـــنظام القبلى، بل وُجد النظامان جنباً لجنب- فالضرائب مثلاً ظلت تُفـــرض علـــى القبيلة لا الفرد – هناك دلائل على انه لو بقيت الإدارة المصرية لا تحل النظام القبلى بدرجة أوسع مما حدث.

فى عهد المهدى- كما سنرى- قام النظام على أساس العقيدة والفكرة المهدية، وكـــان هـــناك رجـــوع للقبائل ومراعاة للنظام القبلى فى الحرب والتجريدات وفى الأمـــارات، وهـــذا يُشبه إلى حد ما الموقف فى الجزيرة العربية بعد ظهور الدعوة الإسلامية- فكرة القبيلة باقية مع وجود الفكرة الإسلامية، فى الفترة التالية لإسترداد السودان ضعف النظام القبلى خاصة فى المدن لانتشار التعليم- أى نوع من التعليم لكـــن الحكومة حرصت على بقاء بعض مظاهر الروابط القبلية لأنها كانت تُفضل التعامل مع جماعات لا أفراد.

ومـــن القضـــايا الاجتماعية التى واجهتها الإدارة المصرية فى السودان (قضـــيتى الـــرق والنخاسة) وقد أشرنا إلى موقف كل من محمد على وسعيد مـــن هـــذه القضـــية فيما مضى وستبرز هذه المشكلة بشكل أوضح فى عهد إسماعيل.

المطاعن التى وُجهت للنظام الجديد

١- الشدة فى جمع الضرائب:

فكــرة فرض ضرائب نظامية ثابتة- فكرة كانت معروفة بالطبع على نحو ما تحــتويه فــى السودان قبل الإدارة الجديدة- فالسلطات المختلفة تستولى على جانب مما ينتجه المنتجون سواء أكانوا زراعاً أو رعاه أو تجاراً.

لكن الجديد فى الأمر يجوز أنه يرجع للكمية المطلوبة، لكن الأهم من ذلك أنه فــى العهــد الماضى كان كل ما يُجمع يستولى عليه أصحاب سلطان قريبين جداً- فشــيخ القبــيلة أو حــتى السلطان أو الملك كان يحكم على رقعة غير واسعة من الأرض، مما يجعل تلك الضرائب تكاد تكون أمراً عائلياً أشبه بما يدفعه أمراء بيت لرئــيس البيت ليستطيع المحافظة على كرم البيت وكرامته، فالمسألة عائلية- فرق بيــن هــذه الضــريبة وضريبة تدفع لسلطة بعيدة غير مرئية تمثل هيئة عامة غير ظاهــرة للــناس، فكأنما أموال تغتصب منهم لا يعرف أحد أين ذهبت، لأن مفهوم كلمــة (المصــلحة العامــة) وإنفاق الضرائب فيها لم يكن فى ذلك الوقت واضحاً وراسخاً فى الأذهان، وحتى وقتنا الحاضر لم تتغلغل الضريبة وإنفاقها فى المرافق العامــة فــى ذهن المصريين بالقدر الواجب- ويبدو وضوح الفكرة إذا تذكرنا أنه حــتى وقــت قريــب كــنا نلاحظ أن النواب فى البرلمانات كانوا يصرحون بأنهم يرغــبون أن يلمس دافعوا الضرائب أنهم ينالون شيئاً من وراء تلك الضرائب، فكل نائــب يحاول أن تقام المستشفى أو المدرسة فى دائرته ليرى دافع الضرائب ثمرة محسوسة يحس بها هو دون نظر للحاجة الماسة فى ناحية أخرى- فما بالك بشىء يحدث سنه ١٨٢٠ ومبالغ تُدفع لقوة غريبة، بعد أن كانت تدفع لرب العائلة- فمهما خُفضت الضرائب فالنظرة كانت أنها ذاهبة لخزانة بعيدة.

٢- النظرة إلى هذه الإدارة فى السودان على أنها إدارة تركية:

فــى مصر ألف الناس أن تكون السلطات الرئيسية فى يد أناس من غير جنسهم ويــتحدثون لغــة غــير لغــتهم- فإذا انتقلنا للسودان نجد الناس لم يعتادوا إلا حُكاماً عرب- فى النظام الجديد نجد الحكمدار العام، والضباط، والمديرين بل وأعداد كبيرة مــن الجــنود من أشكال مختلفة أطلقوا عليها كلمة واحدة (أنهم أتراك) وهذه النظرة جعلت العهد الجديد أمراً مختلفاً فى مظاهره وتقاليده وقواعده عمال ألفه الناس.

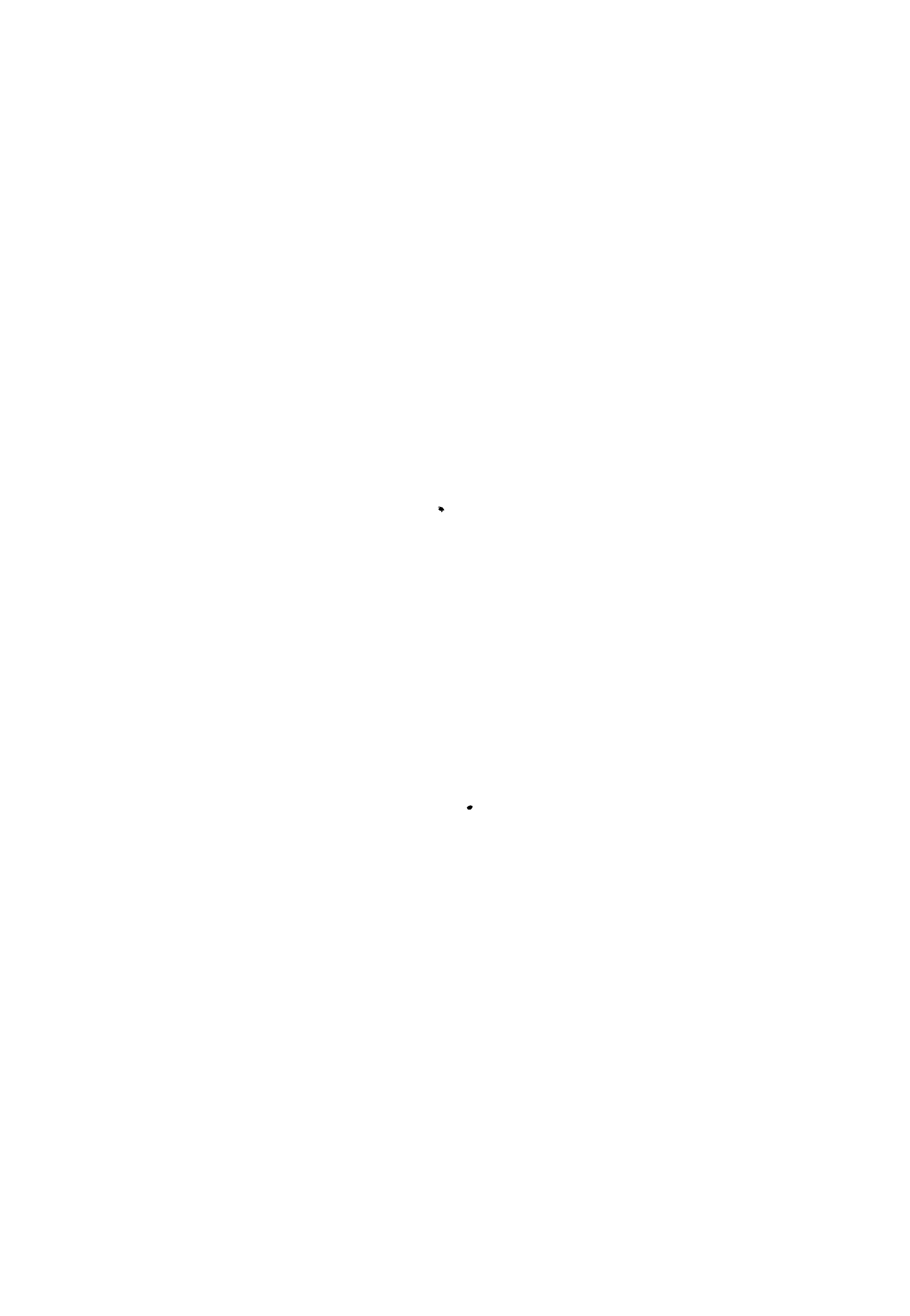
يدلــنا على ذلك أن الكُتاب من أبناء السودان يُطلقون دائما على العهد الذى بدأ بالانضمام لمصر بأنه (العهد التركى).

فهو من مظاهره ومقوماته أمر وعهد يُخالف كل المخالفة ما عرفوه وما ألفوه مُدد طويلة- فهم لا يعرفون إلا شيوخهم وسلاطينهم العرب.

ومـــع أن الحكمداريين فى الواقع لم يّحطموا السلطات المحلية - بل عمدوا فى حكـــم الـــبلاد إلـــى الاستعانة برؤساء العشائر وجعلوهم مسئولين عن شئون الأمن وجمع المال وفض الخصومات فى مناطقهم - لكن النظرة للأوضاع الجديدة كانت على أنها غريبة.

والغريـــب أن الزمـــن لـــم يُحل هذه المسألة كما كان معتقداً بدليل قيام الثورة المهدية والتأييد الذى وجدته من أفراد الشعب السودانى.

القسم الثانى
السودان فى عهد إسماعيل
(١٨٦٣-١٨٧٩م)



الفصل الخامس
الإدارة المصرية فى السودان
فى عهد إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)

- عوامل عوقت جهود التقدم.
- أسباب تركيز الاهتمام على السودان.
- حكمدارو السودان فى عهد إسماعيل - وما تم فى عهد كل منهم.
- الجيش السوادنى فى عهد إسماعيل.



الفصل الخامس

الإدارة المصرية فى السودان فى عهد إسماعيل

قبل أن نتحدث عن السودان فى عهد إسماعيل يجب أن نُشير إلى أن أحوال السودان عندما وصل إسماعيل للحكم فى مصر عام (١٨٦٣) كانت على شىء غير قليل من الارتباك بسبب بعض عوامل ترجع لعهدى عباس وسعيد أو لوقت أسبق من ذلك أيضاً.

أهم عوامل الضعف :

١- ضعف الحكومة المصرية فى عهد عباس وعهد سعيد: وهذا الضعف يرجع مرجعه لضعف الرجلين فهما لا يقاسان بمحمد على مثلاً ونحن لا نجد فى عهد عباس أو سعيد سياسة كاملة مرسومة خاصة بالسودان، سياسة اقتصادية أو سياسة خاصة بضبط الأمن، أو معاملة الشيوخ أو السياسة المالية- كلها معالجة سريعة ارتجالية لمسائل متفرقة، بناء مسجد - تحصيل ضرائب ... الخ.

٢- القيود التى فُرضت على مصر ابتداءًا من عام (١٨٤٠) - جعلت مركز الحكومة المصرية من نواح كثيرة - أضعف على وضع سياسة قوية وإتباعها.

٣- اتساع نطاق المشروعات المالية الأوربية - والبحث عن مناطق الإستثمار، فكان تدخل مستمر من جانب الحكومات الأجنبية فى عهدى عباس وسعيد مما شل الحكومة إزاء الماليين الأجانب والمشروعات الأجنبية.

٤- افتتاح السودان للمؤثرات الخارجية فى الوقت الذى لا ضابط فيه للإدارة المصرية- ففى الوقت الذى تنعدم فيه السياسة المستقرة للحكومة المصرية يزداد انفتاح السودان للمؤثرات الخارجية- فأخذت تلك المؤثرات تعبث بالبلاد وبأهلها بلا ضابط - حكمها فى ذلك أشبه شىء بالمشتغلين بالآثار - فإذا فُرض أن احد الأثريين حفر فى منطقة أثرية وكشف عن آثار مهمة ثم تركها وانصرف- فإن حالها بعد الكشف أسوأ بكثير مما لو تُركت مغمورة بالرمال غير معروفة لا تمتد إليها يد العابثين- كذلك حال السودان فُتح للعالم الخارجى فأصبح يفد إليه أجانب ومبشرون ورأسماليون ومكتشفون وغيرهم دون أن توجد قوة تُنظم من نشاط هؤلاء وتحد من الانحراف.

٥- إضعاف شأن الوحدات السياسية والقبلية السابقة- فالفتح المصرى أضعف شأن هذه الوحدات وأدمج بعضها، كمملكة (سنار) مثلاً زالت وقامت مكانها العاصمة المشتركة بالخرطوم - فإذا لم تكن فى هذه العاصمة قوة تنظم الأمور وتُحد من تسرب الأطماع الأجنبية- فلا توجد قوة أخرى تستطيع أن تكسر من حده هذا الطوفان.

لكـن منذ حكم إسماعيل نجد هناك إهتماماً حقيقاً بالسودان من جانب مصر- يخـرج بالسـودان مـن الركود الذى كان فى عهد عباس وسعيد، وكانت النظرة للسودان أنه جزء أساسى كمصر بالضبط- يدل على ذلك:

١- مظاهر التنظيم الادارى المختلفة والمحاولات التى بُذلت لإصلاح الإدارة.
٢- محاولة تيسير اتصال السودان بمصر بأحدث وسائل الاتصال كالسكك الحديدية، والسفن البخارية، والتلغراف.
٣- تعدد المشروعات العمرانية - ومنها منشآت تعليمية ومشروعات اقتصادية.

وقـد كانـت سياسة إسماعيل تجاه السودان كما لخصها (هيل) هى: "أن يُحقق للسـودان التقدم الاقتصادى، وأن يكفل له إدارة حازمة، ويوفر سبل الاتصال الداخلى بيـن أجزائه والاتصال بينه وبين العالم الخارجى عن طريق البحر الأحمر والموانئ الصالحة وأن يمد حدوده شرقاً وجنوباً وغرباً"[١].

والـبعض يُرجع هذا الاتجاه والاهتمام بشئون السودان إلى الالتفات للناحية الإفريقية عامة- ولعل ذلك يرجع أيضاً لعاملين:

١- تدخل الدول الأوربية فى جانب الدولة العثمانية فى عام (١٨٤٠) وما بعدها - جعل أنظار الحكام فى مصر بعد ذلك تتجه إلى القارة الإفريقية ذاتها.

٢- وضوح أهمية البحر الأحمر، وحوض النيل، والسياسة الإفريقية عامة - خاصة أنه فى أواخر القرن الثامن عشر، وفى القرن التاسع عشر حدث التحول الصناعى الكبير فى أوروبا، وبعد أن كانت الدول الاستعمارية الأوربية تكتفى بثغور على السواحل الإفريقية تلجأ لها السفن- كان لا بد أن تتوغل هذه الدول فى الداخل مدفوعة بعوامل دينية وإنسانية واقتصادية- فاتجهت الأنظار لسواحل البحر الأحمر والأقاليم الداخلية فى السودان.

1- Hill: Op. Cit. P. 107

ولـــم تسر الإدارة فى السودان فى هذه الفترة على وتيرة واحدة كل الوقت فقد كانـــت البلاد كلها تخضع أحياناً لحكمدار واحد، لكن فى بعض الأحيان أيضاً كانت تُعـــزل المديريات عن بعضها فى الإدارة أو تُمد مديريات معينة تحت إدارة واحدة (مديريات عموم).

لكـــن بوجـــه عام كانت تُدار البلاد بواسطة الحكمدار يُعاونه (المديرون) فى الأقاليم (ونظار الأقسام) و(مشائخ الاخطاط).

أما القبائل الرحل فلها شيوخها و(شيخ القبيلة) يتصل بالمديرية رأساً.

والذيـــن اهـــتموا بدراســـة شئون السودان فى هذه الفترة التى امتدت أكثر من خمسة عشر عاماً والتى حفلت بالكثير من الأحداث سلكوا أحد طريقين:-

فالـــبعض عالج كل موضوع من الموضوعات الهامة كوحدة، والبعض رتب الحـــوادث حول أشخاص الحمكداريين ومُدد حكمهم، وقد نهج دوان (Douin) هذا السبيل فى كتابه[1].

وســـنحاول الجمـــع بيـــن مـــزايا كل من الطريقتين فُتعطى فكرة سريعة عن الحكمداريين وما تم فى عهد كل منهم، ثم نتناول مرة أخرى كل موضوع على حدة لعالجته بتفصيل أكثر.

حكمدارو السودان فى عهد إسماعيل

١- موسى باشا حمدى (١٨٦٢- ١٨٦٥):

تولـــى حكمداريـــة الســـودان فى السنة الأخيرة من حكم سعيد لما أعاد سعيد الوحـــدة الســـودانية كمـــا كانت من قبل وعدل عن سياسية اللامركزية (أى سياسة تقســـيم الســـودان لمديريات تتصل فى إداراتها رأساً مع مصر)، وقد خبره الخديو إسماعيل قبل أن يتولى الخديوية لأن إسماعيل فى السنة الأخيرة من حكم سعيد كان (قائماً مقام) عمه فأقر موسى حمدى فى منصبه وحباه بالثقة والتأييد.

وموسى حمدى أصله مملوك شركسى كالكثير من الشخصيات فى عهد محمد على وعباس وسعيد وإسماعيل، ثم اندمج فى العسكرية وارتقى فى مناصبها وشهد حـــروب إبراهـــيم فـــى سوريا والأناضول، وقد سبقته فى السودان شهرته بالشدة المتناهـــية والقســـوة، وكان قبل أن يُصبح حكمداراً قد خدم فى السودان وقتاً طويلاً

1- Douin: Histoire du Regne de Khedive Ilmail. (Tome III)

وخاصـــة فـــى (كردفان)، لكن رغم شدتـــه كانت له مزايا كالسهر على مصالـــح الحكومة وعدم التردد وعدم الخوف من السلطات الأجنبية.

وقـــد وجه إسماعيل خطاباً إلى (موسى حمدى) بمناسبة تثبيته فى الحكمدارية حـــثه فـــيه علـــى معاملة السكان بالعدل وعلى بذل الجهد فى تعمير البلاد وتوسيع نطـــاق التجارة، وحفظ الأمن وعلى المحافظة على حدود السودان- وهذا بعض ما ورد فى هذا الخطاب:

"حيث أن هذا القطر الجسيم (السودان) قد ألحق بالمملكة المصرية من قديم الزمـــن، وأصبح حقاً مكتسباً لها فالواجب يقضى بعدم إضاعة شىء من حدوده المعيـــنة، وبما أن تعمير وإصلاح الإقليم المذكور وإدخاله فى عداد المديريات المصـــرية الـــتى هى أكثر عُمراناً، وازدهاراً، وكذلك توسيع نطاق تجارته - مـــن أقصـــى آمـــالى وأفكـــارى- فبناءًا عليه يلزم أن تُعاملوا سكانه وقاطنيه بـــالعدل والحقانـــية، وأن تبذلوا أقصى جهدكم فى سبيل زيادة عمرانه وتوسيع نطـــاق تجارتـــه وإيصاله إلى غاية الكمال من ناحية إستتباب الأمن واستقرار السلام[١]".

وامـــتاز عهـــد موسى باشا حمدى بالاستعانة بالعنصر السودانى الوطنى فى الإدارة والحكـــم، وممـــن عُيـــن فى ذلك الوقت (الشيخ أحمد أبو سن) كبير مشايخ الشكرية، فقد عُين مديراً للخرطوم وسنار وبقى فى وظيفته هذه عشر سنوات حتى وافته المنية وقد أظهر كفاية ومقدرة كبيرتين[٢].

كمـــا أنـــه قام بتنظيم (الجيش) فى السودان وأكثر فيه من العنصر السودانى، وفـــى عهـــد حكمداريته تأزمت العلاقات مع الحبشة بسبب هروب عرب (رفاعة) وعلـــى رأسهم شيخهم (الشيخ أحمد أبوجن) وغيرهم من قبائل الشرق للحبشة حتى لايدفعـــوا الضرائب المفروضة عليهم، وقد وُفق موسى حمدى فى إلزام هذه القبائل بالخضـــوع للـــنظام والاســـتقرار فى أماكنها، كما واجه اضطرابات فى السودان الغربى فى المناطق المحيطة بمرتفعات كردفان- وفى عهد حكمداريته بحث مشكلة المواصـــلات مـــع السودان وطريقة علاجها - وتوفى موسى حمدى بالخرطوم فى مارس ١٨٦٥[٣].

١- دفاتر عابدين- دفتر المعية تركى ٥٢٦ رقم ١٦ فى (١٦ شوال سنة ١٢٧٩).

2- Hill: Op. Cit. P.P. 107-108

٣- نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته - ج٣ ص٣٩.

٢- جعفر صادق باشا (١٨٦٥-١٨٦٦):

بعد وفاة (موسى باشا حمدى) راودت الخديوى فكرة تقسيم إدارة السودان لاعتقاده أن العبء أكثر مما يحتمله رجل واحد فى العاصمة، خاصة بعد إعادة ولايتى سواكن ومصوع للإدارة المصرية وإلحاقهما بمديرية التاكا[1].

فقسم مديريات السودان إلى ثلاث مناطق يحكم كل منها حكمدار مستقل على أن يتعاون الحمداريون الثلاثة.

(فالتاكا، وسواكن، ومصوع) وملحقاتها التى إنضمت للسودان أخيراً قسم، و(الخرطوم مع جهات النيل الأبيض الواقعة شرق النهر) قسم ثان، و(كردفان، ودنقله، وبربر، وأطراف النيل الأبيض الواقعة غرب النهر) قسم ثالث.

وقد وضح فى الأمر الصادر إلى "جعفر باشا صادق" الذى عُين حكمداراً على القسم الأول أى "التاكا، وسواكن ومصوع وملحقاتها" سبب هذا التقسيم فجاء فيه:

"إن جهات النيل الأبيض كانت ملحقة بحكمدارية السودان من عهد جدنا.. لكن لم يكن قد تم تنظيم إداراتها... وبما أن جهتى سواكن ومصوع وتوابعها الواسعة ألحقت بحكومتنا فبناءًا عليه زادت دائرة السودان وكثرت أمورها وأشغالها، وحيث أن أفكارنا متجهة نحو رؤية مصالح العباد وتسوية الأشغال وإنجاز الأعمال فى وقتها وإزالة العقبات والصعوبات... فلذلك رأينا أن نُقسم حكمدارية السودان ثلاثة أقسام وتعيين حكمدار لكل قسم منها....

وأوصوا المديرين الذين بالحدود أن يَتوادوا ويُقابل بعضهم بعضاً بالحسنى وإلا يختلفوا، ولا يأبى أحد منهم أن يُساعد الآخر عند الحاجة ويسهل أموره ولا ينبغى له أن يقول: إننى خاضع لحكمدار آخر فلا أستطيع أن أقوم بهذا الأمر إلا إذا أمرنى الحكمدار الذى أتبعه.....

وحيث أنه لا يبعد عن الملاحظة أنكم تطنون بعض الظنون وتذهبون مذاهب أخرى حينما ترون أن بلاد السودان التى كانت تحت إدارة حكمدار واحد قُسمت إلى ثلاث حكمداريات وأنكم وليتم حكمداراً لأحد أقسامها- أرى من الواجب أن

١- صدر فرمان إعادة ولايتى سواكن ومصوع للإدارة المصرية فى (مايو ١٨٦٥) ونفس الفرمان منشور فى كتاب الوثائق التاريخية المتعلقة بسياسة مصر فى البحر الأحمر- للمؤلف ص ٤٢- وسنتحدث بإسهاب عن ضم سواكن ومصوع للإدارة المصرية فى الفصل الثالث من هذا الكتاب.

أشرح لكم ما أرمى إليه من المقاصد والأغراض- وهى أن التجوال فى إقليم متسع كالسودان أو الاطلاع على تفاصيل أموره إطلاعاً تاماً والبت فيها وانجازها أمر لا يطيقه رجل واحد، والدليل على ذلك عدم وصول تلك الأقاليم منذ سنين إلى الدرجة المطلوبة من العمران والتمدن، وإنى لأرغب كل الرغبة فى تمدين هذه الأقاليم وعمرنها قابليه والاستعداد المفروض فيها- لذلك قد لاحظت أن تقسيم الحكمدارية إلى ثلاثة أقسام كما بيناه أدعى لزيارة الانتباه وانجاز الأعمال"[1].

لكن عُدل عن هذا الحل لفكرة الحاكم الواحد- وأقيم "جعفر صادق" حكمداراً وصدر الأمر بذلك وذُكر فيه أنه رؤى أن تقسيم الأقاليم السودانية لثلاثة أقسام قد يؤدى لانقسام الأفكار وتشتتها فتختلف الآراء وتقع إجراءات فى كل من الحكمداريات تخالف الإجراءات التى اتخذتها حكمدارية أخرى فيحدث خلل، وقد يُشجع ذلك على الاضطرابات على الحدود ولذا عُدل عن ذلك وعُين جعفر صادق حكمداراً وهو ولو أن رتبته عسكرية لكن آخر عمل كان يقوم به فى مصر عمل قضائى هو (رئيس دائرة استئنافية فى الوجبه القبلى)[2].

واستعد جعفر صادق للسفر، ويبدو أن استعداد الموظف للسفر فى ذلك الوقت كان يستغرق عده شهور على أمل أن يُلغى النقل فى هذه الأثناء- وعُين (جعفر باشا مظهر) وكيلاً للحكمدار.

وفى أثناء غياب جعفر صادق الطويل عن وظيفته اضطربت الأمور فى السودان اضطراباً شديداً وحدثت حركات عصيان عسكرية شديدة الخطر خاصة فى السودان الشرقى فى "التأمل" وكسلا.

وحث إسماعيل الحمكدار على سرعة السفر وقد أخمدت الثورة. وسنتحدث عن هذا الموضوع بالذات عند الحديث عن الجيش فى السودان.

٣- جعفر مظهر باشا (١٨٦٦-١٨٧١):

لم تطل مدة جعفر صادق ثم عاد لمصر لمرضه وحل محله (جعفر مظهر)، وهو من رجال البحرية، وكان مشهوراً بحسن السيرة، والنزاهة وعلى قدر كبير من التعليم، وظل يحكم السودان مدة ست سنوات وقدر صدر بمناسبة توليته فرمان

١- أنظر نصر الأمر فى دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى ص ٥٦ فلا (٩ محرم سنة ١٢٨٢) - ومنشور فى كتاب الوثائق التاريخية المتعلقة بسياسة مصر فى البحر الأحمر للمؤلف- ص ٤٤.

٢- أنظر نصر الأمر فى دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى- مكاتبة تركية رقم ١٢٩ ص ٦٨ فى (٢٤ محرم ١٢٨٢) - ومنشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٤٧.

يأمر فيه الخديو الاهالى بالطاعة والتضامن مع الحمكدار الجديد لما فيه خير البلاد، كما يوصى الحكمدار بالتقوى والإنصاف والعمل لصالح الرعية[١].

وامتازت فترة حكمدارية جعفر مظهر بالجهود التى بُذلت لتيسير المواصلات ومد الخطوط التلغرافية وتخطيط المدن الكبرى وتيسير البناء بالحجر وتشجيع الاهالى على ذلك وقيل إن الخديو فكر فى نقل الخرطوم- بعد أن أتى فيضان (١٨٦٦) على جزء كبير منها – لجزيرة (توتى) لصلاحيتها من الناحية الصحية لكن اعتراض جعفر مظهر على هذا الإجراء وتركزت الجهود نحو إصلاح الأوضاع فى الخرطوم ذاتها[٢].

كما بُذلت جهود لتعمير محافظتى (سواكن ، ومصوع) بعد أن ضُمتا إلى الإدارة المصرية – ومدهما بالآلات الرافعة وحفر القنوات والخزانات عند سفوح التلال لتوفير المياه العذبة. وقد حدثت مراسلات بين الخديو وجعفر مظهر بخصوص مستقبل (دارفور)، ويبدو أن النية كانت متجهة فى ذلك الوقت لفتحها فطلب من جعفر مظهر درس الطرق المؤدية لها، والآبار الموجودة، وعادات الاهالى وتقاليدهم، ومدى قوة دارفور العسكرية واستقر رأى جعفر باشا على أن يُوفد أحد ضباطه لزيارة دارفور، فأوفد (محمد نادى) معاون الخرطوم ومعه خمسة عساكر وبعض الهدايا لسلطان دارفور لإبلاغه تحيات حكومة السودان، على أن يُبين أن الهدف من زيارته هو حل مشكلات القبائل العربية على الحدود.

وقد قام (محمد نادى) بمهمته خير قيام، ووجد فى مكاتبات عابدين التقرير الذى كتبه وهو تقرير واف.

(وجعفر مظهر) له جهود فى نشر التعليم فى السودان وقد وصفه أحد الرحالة الأوربيين (الرحالة الفرنسى F. Lafargue) بأنه "رجل كتاب ومسجد" وهذا الوصف يُعطى فكرة عن اهتماماته وانجازاته، فقد كان رجلاً متديناً يدوام على الصلاة، كما كان يعقد حلقات علمية بحضوره فى دارى الحاكم العام يحضرها العلماء مثل (الشيخ الأمين محمد الدردير)، وغيره من رجال العلم والدين، وفى خلال حكمداريته اشترك السودان فى معرض باريس الدولى عام (١٨٦٧) ببعض منتجاته الزراعية والمعدنية ضمن القسم المصرى فى المعرض وكان يقوم بحراسة هذه المنتجات جنود سودانيون[٣].

١- أنظر نص الفرمان دفتر رقم ١٩٢١ أوامر عربى – ص ١١ رقم ٣ صادر فى (٢١ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ).

٢- محافظ المعية السنية (وارد) – محفظة ٤٠ رقم ١٢٥ فى (١٩ ديسمبر ١٨٦٦) من جعفر مظهر إلى المعية السنية.

3- Hill: Op. Cit. P. 118.

وكذلك Sabry: L, Empire Egytien sous Ismail P. 438.

وقد ذكر الرحالة الدكتور شفاينفورت (Dr. George Schweinfurth) أنه زار جعفر باشا فوجد لديه عدداً كبيراً من الأطالس والكتب العلمية مما يدل على أنه رجل علم ومعرفة[١].

لكن يؤخذ عليه سياسته المالية التى قَصد منها وضع سياسة ترمى لاستغناء السودان عن المساعدة المالية المصرية فقتر فى المصروفات حتى الضرورى منها، وشدد فى الضرائب وزادها بدرجة دعت للشكوى.

وتقترن هذه الفترة بالعمل لمد نفوذ الإدارة المصرية إلى منابع النيل بإنشاء (مديرية خط الاستواء)، وتكليف السير (صمويل بيكر) بهذا العمل فى عام (١٨٦٩) ومن الأهداف التى قُصد بها من هذا العمل إستئصال تجارة الرقيق.

وقد عُهد إلى الحكمدار جعفر باشا بضم جهات (بحر الغزال) للإدارة المصرية. فعهد الحكمدار للشيخ (محمد البلالى) بذلك على أن يُعين ناظراً لقسم بحر الغزال ويكون تابعاً لمديرية (فاشوده)، لكن كما سنعلم تكتل تجار بحر الغزال بزعامة (الزبير رحمت) ضد البلالى وانتهى الأمر بقتله- وإن كان الزبير امتثل بعد ذلك لسلطان الحكومة وُعين مديراً لبحر الغزال من قبلها وقد تم ذلك فى حكمدارية (إسماعيل أيوب باشا.

وفى (١٨٧٠) فُصلت محافظة سواحل البحر الأحمر (مصوع، وسواكن، والتاكا، وباقى سواحل البحر الأحمر حتى بربره) من حمكدارية السودان وجُعلت محافظة مستقلة وعُين (أحمد باشا ممتاز) محافظاً لها - وقد اشتهر ممتاز باشا بسياسته الزراعية فإليه يرجع الفضل فى نشر زراعة (القطن) خاصة فى (طوكر، وكسلا)[٢].

والى عهد متأخر كان كثيرون من السكان على ضفتى نهر (الرهد) وفى دلتا الجاش يُطلقون على القطن اسم (قطن ممتاز) على اسم من نشر زراعته بينهم[٣].

وفى عام (١٨٧١) أعيد تقسيم الخرطوم إلى إدارات مستقلة.

أ - مديريات الخرطوم، وسنار وفازوغلى والبحر (النيل) الأبيض - جُعلت إدارة واحدة باسم مديرية السودان قبلى وعُين (ممتاز باشا) مديراً لها.

١- نفس المرجع السابق ونفس الصفحة نقلاً عن كتاب:

Dr. Ceorge Schweinfurth: Au Coeur de L.Afrique (1868 1871)

٢- دفرت ١١ عابدين وارد تلغرافات رقم ١٢٨٤ فى (٢٣ ربيع الأول ١٢٨٧هـ).

وكتاب الوثائق التاريخية بساسة مصر فى البحر الأحمر للمؤلف ص ١٠٣.

3- Hill: Op. Cit. P. 119.

ب- ومديرية كردفان الكائنة فى الجهة الغربية من السودان والمتصلة بحدود دارفور جعلت إدارة مستقلة وعُين (عبدالوهاب بك) مديراً لها.

ج- ومديرية التاكا - الكائنة فى الجهة الشرقية من السودان والممتدة أراضيها إلى حدود الحبشة وسواكن - جعلت ادرة مستقلة وأبقى (علاء الدين بك) مديراً لها.

د - ومديريتا دنقله وبربر - على حدود السودان البحرية- ضُمتا تحت إدارة واحدة وعُين (حسين خليفة بك) مديراً لها.

هـ- انقسمت محافظة عموم البحر الأحمر وعُين (شكيب باشا) محافظاً على سواكن، و(منزنجر بك) محافظاً لمصوع وملحقاتها[1].

ورغم ما بذله ممتاز باشا للنهوض بالزراعة وخاصة القطن الذى استّورد من مصر آلاف الأرادب من بذرته ووزعها مجانا على الاهالى للتوسع فى زراعته فقد أُتهم بالرشوة وأوقف عن العمل فى عام ١٨٧٢، وأودع سجن الخرطوم حتى ينتهى التحقـيق معه وقد تُوفى فى سجنه بعد ثلاثة أعوام، ولم تكن التحقيقات قد تمت بعد وعُين مكانه كمدير لقبلى السودان - إسماعيل أيوب باشا[2].

٤- إسماعيل أيوب باشا (١٨٧٣-١٨٧٧):

عُيـن حكمـداراً للسـودان بعد العودة لنظام المركزية أى الإدارة الموحدة، وكانـت له خـبرة بـأحوال البلاد فقد كان ضابطاً فى السودان ثم شغل منصب معاون الحمكدارية- وفترة حكمداريته هامة لما تم فيها من أعمال - فقد تم تشكيل مديرية (بحر الغزال) وفتح (دارفور) بمعاونة الزبير رحمت وتنظيم إدارتها، كما امـتد سلطان الحكومة إلى (أقاليم خط الاستواء). وضمت (زيلع وبربره) وفُتحت (هـرر) وبـذا امـتد الـنفوذ المصرى لهذه المناطق الهامة المطلة على الساحل الافريقى للبحر الأحمر.

كمـا تم فى عهد حمكداريته تنفيذ عده مشروعات عمرانية واقتصادية فأُنشئت مكاتـب للبريد ومُهدت الطرق ونشطت الزراعة والتجارة والصناعة، وسنعالج هذه الموضـوعات المختلفة كل على حدة فيما بعد. لكن نُشير هنا إلى ما ذكره الرحالة

١- دفتر المعية بدون نمرة صفى ٤ مكاتبة ٢ فى (١٥ رجب ١٢٨٨).

- ومنشور نفس القرار الخاص بإلغاء حمكدارية السودان وتقسيمه لمديريات ومحافظات - فى كتاب الوثائق التاريخية المتعلقة بسياسة مصر فى البحر الأحمر - للمؤلف ص ١٢٢.

2- Sabry: L, Empire Egyptien Sous Ismail P. 349.

الذيـن زاروا السـودان فـى هذه الفترة عن التغييرات التى طرأت على العاصمة السودانية (الخرطوم)، بعد أن مُهدت طرقاتها وخُططت ميادينها. كذلك يُذكر له ما بذله مـن جهد لتعميم مصانع حلج القطن فى (كسلا) بالإضافة لجهوده فى إزالة العوائـق التى كانت تعوق الملاحة فى مناطق السدود النباتية، حتى أن (غوردون) فـى طـريقه (لغوندكرو) أشاد بهذا العمل ذاكراً أنه أصبح فى الإمكان عن طريق مركب بخارى أن يصل من الخرطوم لغوندكرو فى ثلاثة أسابيع وقد كانت الرحلة تستغرق قبل ذلك من عام ونصف إلى عامين[1].

وأقصى إسماعيل أيوب باشا عن حكمدارية السودان،وحل محله غوردون باشا وصار إسماعيل أيوب وزيراً للداخلية فى مصر عقب الاحتلال الانجليزى للبلاد.

٥- غوردون باشا (١٨٧٧-١٨٧٩):

كـان غـوردون قـد عين فى يناير (١٨٧٤) مديراً لمديرية خط الاستواء خلفاً للسـير (صـمويل بيكر) الذى انتهت مدة خدمته فى هذه المديرية التى حُددت بأربع سـنوات (١٨٦٩-١٨٧٣)، وكانـت إدارة صـمويل بـيكر فى هذه المديرية تابعة لحكمـدار عمـوم السـودان، أمـا غوردون فقد عُين فى سنة (١٨٧٤) مديراً (لخط الاسـتواء) علـى أن يكون مستقلاً فى إدارته عن حكمدار السودان (إسماعيل أيوب باشـا) - وفـى ١٨٧٦) اسـتقال غوردون باشا من منصبه وعاد لمصر ومنها إلى انجلترا.

ثـم ما لبث أن عُين غوردون باشا حكمداراً عاماً للسودان كله سنة ١٨٧٧ مع دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وسواحل البحر الأحمر وهرر[٢].

وكان بذلك أول أجنبى يشغل هذا المنصب الكبير- بل إنه مُنح سلطة كاملة لم تُمنح لحكمدار عام سابق فقد قيل إن الخديو كتب له وهو مسافر ليتولى منصبه هذا يقول:

"استخدم كل السلطات التى منحتك إياها، واتخذ كل خطوة تراها لازمة، عاقب وانقل وافصل أى موظف كما يحلو لك[٣].

1- Sabry: L, Empire Egyptien Sous Ismail P. 440.

٢- أنظر دفتر ١٩ أوامر ص ١٧ رق ١٠ فى (٤ صفر ١٢٩٤)

والوقائع المصرية رقم ٦٩٨ فى (١٢ صفر ١٢٩٤- ٢٥ فبراير ١٨٧٧).

- وكتاب الوثائق التاريخية - للمؤلف ص ١٥٥، ١٥٦ - وكذلك ص ٢٣١.

3- Alan Moorehed : The White Nile P. 185.

واهــتم غــوردون مدة حكمداريته بوضع حد لتجارة الرقيق مستخدماً العنف فى ذلــك، كمــا جعــل تجارة العاج وتداوله احتكاراً للحكومة- وقد استعان غوردون فى إداراتــه للســودان بفــريق ضــخم مــن الأجانــب نذكر منهم، مسيداليا بك الايطالى (Messedalia) الــذى عُين مديراً للفاشر، وجيسى باشا (R. Gessi) وهو ايطالى أيضاً وكــان مديــراً لبحر الغزال وقد خلفه فى هذه المديرية فرنك لبتون (F. Lupton) وهو بــريطانى، أمــا ســلاتين النسماوى (Slatin) فقد كان مفتشا للمالية، والدكتور ادوارد شنيترز الالمانى (أمين باشا) (E. Sehnitzer) عُين مديراً لمديرية لخط الاستواء.

ورغــم مــا أبــداه غوردون من نشاط أثناء حمكداريته إذا كان دائب الحركة والتــنقل لــيواجه المشــاكل المختلفة فى مواقفها بنفسه- فقد وقعت فى عهده عده ثــورات داخلــية فى دارفور وبحر الغزال، وسياسته مسئولية إلى حد ما عن هذه الــثورات، بل لا شك فى أنها مسئولة إلى حد كبير عن اندلاع الثورة المهدية فيما بعــد، ولمــا اضطربت حالة مصر عمد غوردون إلى فصل ميزانية السودان عن ميزانــية مصــر حــتى لا يُساهم السودان فى عبء الديون وفوائدها- وقد استقال غــوردون من منصبة فى أواخر سنة ١٨٧٩ فى أول حكم الخديو توفيق وخلفه فى حكمدارية السودان محمد رؤوف باشا.

اشتراك السودانيين فى الإدارة ونتائجه :

كانــت سياسة الإدارة المصرية فى السودان فى ذلك الوقت قائمة على أساس إشــراك الســودانيين فــى الحكــم والإدارة، واحترام (شيوخ القبائل) وكسب ثقتهم وتشجيعهم ليتعاونوا مع رجال الإدارة فى حفظ الأمن وفى النهوض بمختلف نواحى النشاط فى مناطقهم، وأن يُعهد لهم بكل ما يستطيعون القيام به من المهام المطلوبة- وقــد اظهــر الكثيرون من السودانيين كفاءة نادرة وعاونوا معاونة صادقة فى نشر الســلام فــى طريق القوافل، وفى تحصيل الأموال الأميرية والضرائب من القبائل والعشائر، وفى فض المنازعات وتشجيع الاهالى على الاستقرار فى المدن والإقبال على الزراعة والصناعة والأخذ بأسباب المدنية.

فكان من الوطنيين مُديرون ونظار أقسام ومشايخ قبائل وأعضاء فى (المجالس المحلــية) التى عُممت فى مختلف أنحاء السودان، وكان الاهالى ينتخبون أعضاءها من أعيان البلاد والتجار وكان من اختصاصها بحث المنازعات التجارية، كما كان من الوطنيين رؤساء للتجار، ومُنح عدد كبير منهم الرواتب الشهرية، فشيوخ القبائل

وذوى النفوذ مثلاً- كانوا يُعتبرون من موظفى الحكومة لهم مرتباتهم الشهرية وهم مسئولون عن الحوادث التى تحدث فى نطاق قبائلهم[١].

وأتيحت لبعضهم فرصة السفر للقاهرة ومقابلة ولاة الأمور هناك فأكرمت وفادتهم وانعم عليهم بالرتب والنياشين اعترافاً بكفاءتهم وفضلهم.

نذكر من هؤلاء- على سبيل المثال - الشيخ (أحمد أبوسن) كبير مشايخ قبيلة الشكرية فقد عُيِّن - كما ذكرنا سابقاً - مديراً للخرطوم وسنار وظل فى وظيفته عشر سنوات وأظهر كفاءة وامتيازاً فى إدارة هذه المديرية المترامية الأطراف وقد صحب حكمدار السودان (موسى حمدى) هو وعدد آخر من كبار السودانيين لمقابلة الخديو إسماعيل وانعم عليهم بالرتب والنياشين[٢].

ومنهم (الشيخ زبير عبدالقادر) شيخ المشايخ، و(آدم باشا) من كبار الضباط السودانيين وقد وصل إلى رتبة (لواء) وكذلك (حسين بك خليفة) شيخ العبابدة ومتعهد سكة العتمور الذى عُين مديراً لبربر ورقى للرتبة الثانية[٣]. وفى فترة من الفترات فُصلت مديريته عن حكمداريه السودان وجُعلت تابعة للمعية السنية مباشرة وقد بذل حسين بك جُهداً موفقاً لتوسيع رقعة الأرض الزراعية بمديريته وحل مشكلات الرى بمضاعفة عدد السواقى وحفر الترع، وأدى هذا لاستقرار كثيرين من العربان بالأرض وزراعتها[٤].

وغير هؤلاء عدد كبير من السودانيين ساهموا فى الإدارة (فالشيخ إبراهيم موسى) عُين شيخاً لقبائل الهدندوه، و(محمد أفندى أبو جبل) ناظر قسم الرباطاب أصبح مدير لدنقلة، والشيخ (محمد حسين) شيخ تجار الخرطوم أصبح رئيساً (لمجلس الخرطوم) الذى أصبح بمثابة مجلس استئناف للفصل فى القضايا الهامة[٥].

١- أنظر الوثائق التاريخية للمؤلف- نشرته الجمعية المصرية للدارسات التاريخية ص ٦٢.

٢- عابدين - دفتر معية تركى رقم ١٠ قسم ثان - أمر من الجناب العالى إلى حكمدار السودان فى (٨ شعبان ١٢٧٩).

٣- عابدين - المعية - دفتر ١٩٣٤ أوامر عربى رقم ١١٣ من الجناب العالى إلى حسين بك خليفة مدير بربر فى (٧ جمادى الآخر ١٢٨٧).

- وانظر أيضاً Dr. Sabry : I, Empire Egyptien Sous Ismail P. 439

٤- دفتر المعية بدون نمرة ص ٤ مكاتبة ٢ فى (١٥ رجب سنة ١٢٨٨)

- وكذلك الوثائق التاريخية - للمؤلف ص (١٢٢، ١٢٣).

٥- عابدين - المعية - دفتر ١٩٤٢ أوامر عربى رقم ١٤ من الجناب العالى إلى مدير عموم قبلى السودان فى (٢٧ جمادى الثانية ١٢٨٩).

وحيـــن امتدت الإدارة المصرية للسودان الشرقى - ساهم عدد كبير من أهله فـــى الإدارة، كمـــا شُكلت (مجالس محلية) فى هذه الجهات أسوه بما كان متبعاً فى باقى جهات السودان، ومجالس من أعيان وتجار هذه الجهات للحكم فى المنازعات ومجالس أخرى لاستئناف القضايا المحكوم فيها[١].

ففى (زيلع) مثلاً حين ضُمت للإدارة المصرية فى يوليه (١٨٧٥) أبقى أميرها الشـــيخ (أبـــو بكـــر شحيم) وعُين محافظاً لزيلع وقد قدم (أبو بكر سحيم) وأولاده لـــلإدارة المصرية خدمات جليلة وساهموا فى مد النفوذ المصرى إلى (هرر) وأنعم على (أبو بكر باشا) برتبة (الميرميران) فى يوليه سنة ١٨٧٦[٢].

وكذلـــك تم نفس الشيء مع (محمد بن عبدالشكور) أمير هرر حين تم فتحها فُعين محافظـــاً لهـــا لكـــنه تآمـــر بعد ذلك على رؤوف باشا مما أدى لفصله، ومع ذلك فقد صـــدرت أوامـــر بأن يُعامل ابن الأمير (محمد بن عبدالشكور) معاملة طيبة وسُمح له بالحضور لمصر وبالعودة لزيلع ويُسرت له مسألة حصوله على كافة ممتلكاته التى فى هرر[٣].

ومـــن الذيـــن أدوا للإدارة المصرية بالسودان خدمات جليلة (الزبير رحمت) وسُنشـــير فـــيما بعد للدور الذى لعبه فى ضم دارفور ومناطق بحر الغزال للإدارة المصرية وقد ولى الزبير أمر هذه البلاد فترة من الزمن كما ولى ابنه مديرية بحر الغزال بعده[٤].

١- عابدين- قرارات المجلس المخصوص- قرار رقم ١٠٤ دفتر ٧٨ ص ٩١ (فى ١٠ صفر سنة ١٢٨٩) - وكذلك الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ١٣١.

٢- دفتر نمرة ١٠ (أوامر عربى) ص١٧ رقم ٢٢ فى (١٦ رمضان ١٢٩٢).
- وفى نفس الدفتر أمر قم ٢٤.
- ونفس الدفتر ص ٢١ رقم ٢٥ فى (١٢ شوال ١٢٩٢).
- ودفتر ١١ معية صادر نمرة ١١٧ فى (١٦ ربيع الأول ١٢٩٣).
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٧.

٣- دفتر نمرة ١٠ أوامر عربى ص ٢١ رقم ٥٤ (فى ١٢ شوال ١٢٩٢).
- ودفتر ١٧ معية عربى وارد الإفادات ص ٦٥ رقم ٣٢٣ فى (١٩ ربيع الأول ١٢٩٣).
- ودفتر ١٥٨ ص ٧٧ مكاتبة رقم ٦ فى (١٦ رجب ١٢٩٣).
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٢٧٩، ٣٠٧، ٣١٤.

٤- أنظر خطاب إسماعيل أيوب باشا للزبير رحمت فى (٢٢ نوفمبر ١٨٧٣)- فى كتاب: سعد الدين الزبير (القائمقام) : الزبير باشا رجل السودان ص ٢٧٤.
- ودفتر ١٩٤٨ أوامر عربى ص ٣٠ رقم ٤ فى (٧ذى القعدة ١٢٩٠) - أمر تعيين الزبير رحمت مديراً لبحر الغزال.
- ودفتر ٣٣ عابدين صادر تلغرافات عربى شفرة رقم ٣٧٣ فى (٢٧ رمضان ١٢٩٤) بتعيين سليمان بن الزبير فى إقليمى بحر الغزال، وروول.

هــذه أمثلة تُوضح السياسة التى رَسمت للاستعانة الوطنية فى الإدارة والحكم فــى السودان ومنحها كافة الفرص وأتاحه المجال أمامها للخدمة العامة والترقى- وقــد ســارت الإدارة المصرية على هذه السياسة وتوسعت فيها حتى أننا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن الأمور لو سارت فى السودان سيرها العادى لأمكن فــى وقــت قريــب سودنه أغلب الوظائف فيه بعد أن يكون قد وصل السودانيون لدرجة من التدريب والمران ما يكفل قيامهم بكافة الوظائف على خير وجه.

الجيش بالسودان فى عهد إسماعيل :

يتصــل بدارسة الإدارة المصرية فى السودان بحث موضوع (الجيش) هناك، ومســألة تنظــيم الجيش بالسودان فى ذلك الوقت موضوع لم يُكتب بعد كما يجب، فهو يستحق أن يُؤرخ خاصة من ناحية العناصر التى يتكون منها.

لكــن نلاحظ أن تكوين الجيش لقى صعوبات عدة، خاصة أن مصر كانت فى ذلــك العصــر تشــكو مــن قلة عدد السكان أى لم يكن متوفراً عدد كاف لزراعة الأرض، ولســد حاجة الجيش والقوات العسكرية، ولذا حدث شىء من التخبط فيما يتعلق بالوحدات التى يتكون منها الجيش وترتب على ذلك أن روح التآخى والوحدة فى الجيش لم تكن متكاملة.

حقــاً إن طبقة الضباط بدأت تكون على شىء من التدريب والتعليم، لكن كانت لا تزال توجد عناصر من النوع القديم وكانت هناك عده فرق:

أ - فرق من العبيد

ب- فرق ممن أُطلق عليم اسم (المولدين).

ج- جنود غير نظامين، بعضها فرق من السودان من الخارج (باش بزق) بالإضافة لأفراد من الشايقية دخلوا فى خدمة الحكومة، وأصبحوا جنوداً غير نظاميين.

وفــى عهــد (ممــتاز باشــا) بالخصوص تكونت بلوكات كاملة من العساكر السودانية على رأسها ضباط سودانيون.

و لابد ونحن نتحدث عن الجيش فى السودان فى هذه الفترة أن نُشير لحركات الــتمرد والعصــيان التى حدثت بين الفرق العسكرية فى السودان وأبرزها (ثورة الجند فى التآكل) - فى كسلا نفسها.

والــبعض يــنظر لهــذه الحركة على أنها مقدمة للثورة المهدية، وأن، الثورة (المهديــة) بذلــك لم تكن مفاجئة، وأنه قد سبقتها حركات عصيان وفقتن. هنا فى

الـــتاكا القائم بالأمر عنصر عسكرى إنما الحركة مختلطة أيضاً باضطراب شعبى- فـــإذا أضيف إليها عنصر دينى يتولاه رجل ذو شخصية دينية وجدنا صورة قريبة الشبة من الحركة المهدية.

فـــى حركات كسلان فى عامى ١٨٦٣، ١٩٦٤ كان فيه عنصر دينى إنما فى هـــذه المرة كان الدين بجانب الحكومة يحض على الطاعة، فقد تدخل الزعيم الدينى السيد حسن الميرغنى (من الختمية) وكان تدخله للحض على طاعة الحكومة، وكان ذلـــك من العوامل التى أدت لإخماد الحركة بالإضافة لبسالة (آدم بك العريفى) وهو من الجنود السودانيين (الزنوج) الذين ترقواً فى الجيش حتى وصل فى عام ١٨٦٧ إلـــى رتـــبة (أمير تلاى) وقد استخدم نفوذه لإخضاع الجنود الثائرين كانت حركة كسلا محدودة النطاق ولم تتسع لتشمل السودان كله[1].

ولعلنا نتساءل عن أسباب هذا الفساد فى الجيش؟

هو يرجع لأسباب من أهمها:

١- تعدد العناصر فى الجيش – عدم انسجام بين عناصر الجيش، فهناك عدة عناصر وكل عنصر له تقاليده وأنظمته وأفكاره وآماله- بعضهم من العبيد المخطوفين ويريد الهرب والعودة للنظام القبلى وبعضهم جنود نظامية ... وقد تحدثنا عن تعدد العناصر فى الجيش.

٢- قيادة وإدارة غير طيبة- يلوح لى أنه لو كانت القيادة طيبة كانت هذه العناصر أخلدت لتأدية واجبها واقتنعت بأن حياة العسكرية النظامية أفضل بكثير من الحياة القبلية القديمة. لكن أثبت التحقيق الذى أجرى أن هؤلاء الجنود من (الدنكا) وغيرهم كان لهم الكثير من الحق فى الاستياء والشكوى- فلم تكن مرتباتهم المستحقة لهم تصلهم وقيل أن بعضهم لم يأخذ مرتباته من ستة شهور، وليس ذلك لأن الحكومة لا تؤدى ما عليها إنما قبل أن تصل لجيوب الجنود يحدث فيها الابتزاز والاختلاس من الإداريين والعسكريين – كذلك ثبت أن هناك تلاعباً فى تعييناتهم (مأكلهم ومشربهم).

٣- استخدم الجنود فى أعمال لا تتعلق بالجندية- استخدامهم للنهب مثلاً- عودهم عدم الطاعة للقانون والنظام- فقد ثبت من بعض كتابات المعاصرين أن الاهالى كانوا يهربون أثناء مرور الجند وقيل إن الضباط كانت لهم حصة مقررة مما ينهبه الجنود.

1- Hill: Op. Cit. pp. 113.

وبعد أن أخمدت الثورة أرسلت بعثة تحقيق بقيادة (شاهين باشا) ناظر الجهادية لبحث أسباب الثورة ومحاولة ملافاتها – وحضر (شاهين باشا) للسودان وبالتعاون مـــع حكمدار السودان (جعفر باشا مظهر) حقق فى أسباب الثورة وفيما يلزم إتباعه من وسائل الإصلاح.

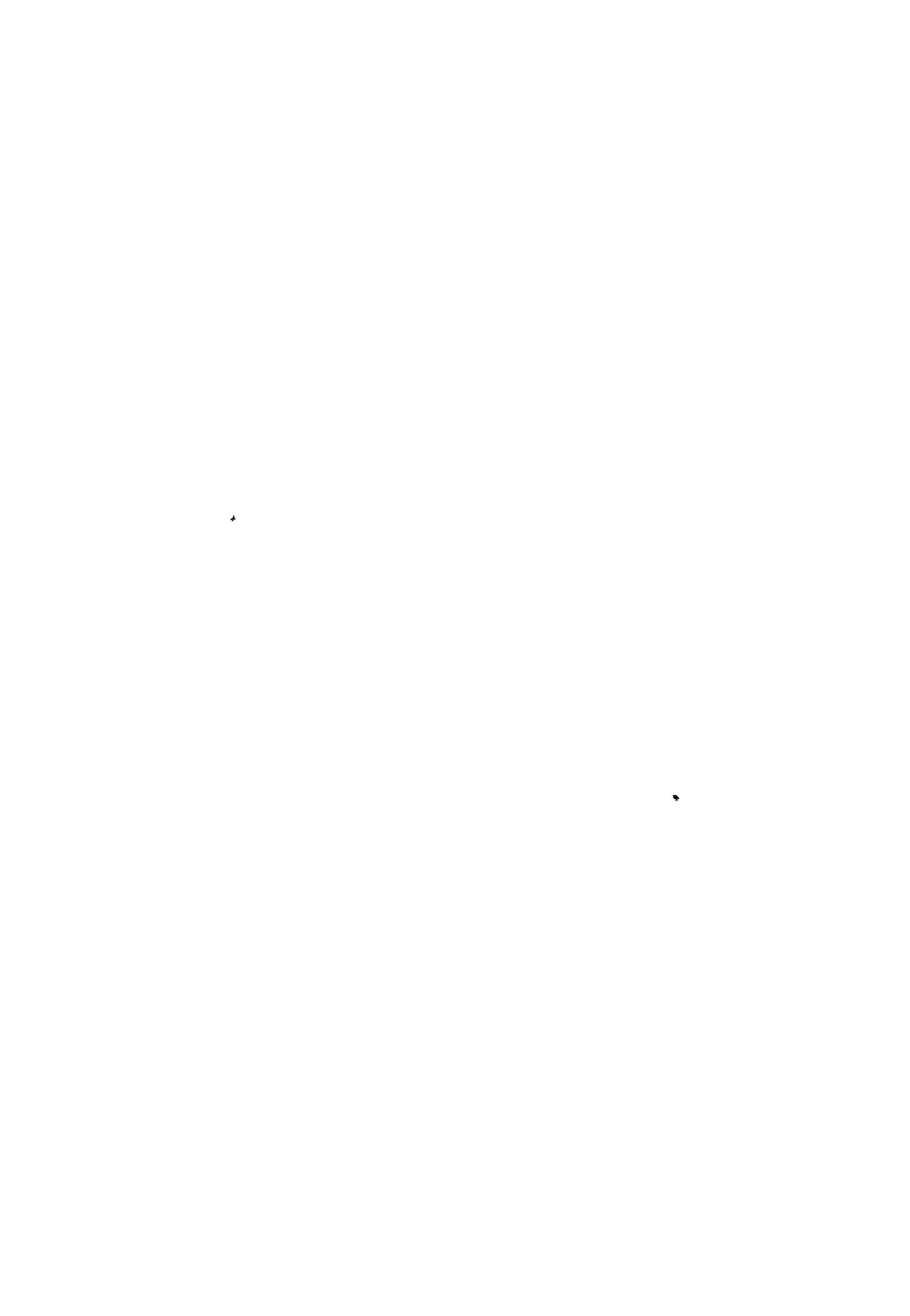
هــذه صـــورة عـــن مظاهر الإدارة المصرية فى السودان فى عهد إسماعيل، ولتكـــتمل هــذه الصـــورة لابد من دراسة التطور الذى طرأ على أحوال السودان الاقتصادية والاجتماعية فى هذه الفترة.



الفصل السادس
تطور السودان الاقتصادى والاجتماعى فى عهد إسماعيل

أولاً: التطور الاقتصادى.
- فى ميدان الزارعة.
- تطور الصناعة والتعدين.
- التجارة والمواصلات.
- الخطوط التلغرافية- والتليفونية.
- الضرائب والجمارك.

ثانياً: التطور الاجتماعى:
- شئون التعليم.
- الكشوف الجغرافية.
- الشئون الصحية.
- تخطيط المدن الكبرى.
- مكافحة الرق والنخاسة.



الفصل السادس
تطور السودان الاقتصادى
والاجتماعى فى عهد إسماعيل

أولاً: التطور الاقتصادى

تقـوم السياسـة التى رُسمت للنهوض بالسودان اقتصادياً على أحسن الأسس المعـروفة فـى ذلك الوقت، فقد بُذلت جهود صادقة للنهوض بالزراعة، سواء عن طريق توسيع رقعة الاراضى الصالحة للزراعة بتوفير المياه للرى وتوفير البذور، وترغيب الاهالى للاستقرار فى الأرض وزراعتها، وتشجيعهم على أن يحصلوا من الجهـات الرسـمية على (الحّجج) التى تُثبت ملكيتهم للأرض، أو إدخال زراعات جديدة، والتوسع فى الزراعات القائمة، وتدريب الاهالى على طرق الزراعة الأكثر تقدماً عما كان مُتبعاً فى السودان حتى ذلك الوقت.

كذلـك اهتمت الإدارة المصرية بالصناعات التى يُمكن أن تقوم على المنتجات الزراعـية الجديـدة (كالصناعات المتعلقة بالقطن)، أو التى تقوم على الكشف عن المعادن واستغلالها، أو على تطوير الصناعات البدائية القائمة بالفعل.

كمـا بُذلـت جهود لتنشيط التجارة الداخلية عن طريق إقامة الأسواق، ونشر اسـتخدام العملـة وغـيرها مـن الوسـائل، وكذلك توسيع نطاق تجارة السودان الخارجية- وارتبط بالتجارة الاهتمام الكبير الذى بذل لتيسير سبل المواصلات.

وسنشير إلى ذلك بشىء من التفضيل:

أ - **ففى ميدان الزراعة:**

كانـت التعلـيمات الصـادرة للحكمداريين وللمديرين، تقضى بضرورة حث السـكان وتشـويقهم للـزراعة، وتلقيـنهم أصولها، وإعطائهم التقاوى والحيوانات اللازمـة للعملـيات الزراعية وتشجيعهم على الاستقرار فى الأرض لاستصلاحها وخدمتها، وبدلاً من بقاء العساكر بلا عمل فى الأوقات التى لا تستلزم منهم تركيز الجهد فى الشئون الحربية- طُلب من المديرين تشغيلهم فى إصلاح التربة، وغرس الأشـجار، وزرع الخضر، وما إليها فى الجهات التى يُقيمون بها لتكون مزارعهم نموذجـاً يعمل الاهالى على منواله، وقد أرسلت من مصر تقاوى الخضر والفواكه والمحاصيل الأخرى وشتلات الأشجار[1].

١- دفتر ٥٥٨ معية تركية- مكاتبة رقم ٣ قسم ثانى فى (٢٣ شوال ١٢٨٣).

- أنظر ترجمتها فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٨٧.

وقد عمدت الإدارة المصرية بتوفير المياه العذبة فى الأماكن التى كانت تفتقر إلـيها، وذلك بتركيب (طلمبات الرى)، وبناء الخزانات لتتجمع فيها مياه السيول، ثم تـنقلها الـترع والقـنوات للاماكـن الصـالحة للاستقرار والسكنى كما حدث فى سواكن[١]- أو عمل السدود لحجز المياه، واستخدامها فى الرى كما حدث فى (زُلا) وهى ميناء صغير يقع جنوب مصوع[٢].

وقـد أرسـله مهندسون متخصصون لدراسة مشاكل المياه وسُبل توفيرها[٣]. واسـتوردت (الأودية اللازمة) لكل هذه العمليات والتى لم تكن متوفرة فى مصر- من الخارج[٤].

ولمـا كانت الحروب الأهلية والمشاحنات بين القبائل جعلت الاهالى غير مطمئنين علـى ما فى حوزتهم من أراضى- فقد مكنت الإدارة المصرية أصحاب الاراضى من الحصـول علـى (الحجج الشرعية) التى تؤيد ملكيتهم للأرض، وكان من نتائج تثبيت حقوق الملكية واستقرار الاهالى فى الأرض أن أقبلواً على زراعتها[٥].

ولتشـجيع الـزراعة خُفضـت ضـريبة النخيل والسواقى، وأعفت الحكومة الاراضى المزروعة بأشجار الحدائق من الضرائب، وتجاوزت عن المتأخرات.

ومـن المحاصـيل التى نجحت بشكل ملحوظ (القطن)، فمنذ أرسلت للسودان بـذور (القطـن) المنـتقاة لتعميم زراعته بعد توفير مياه الرى اللازمة - انتشرت زراعته فى بربر، والخرطوم وسنار والتاكا[٦].

١- محفظة ١٩ بحر برا وثيقة رقم ١٢١ فى (٩ شعبان ١٢٨٦).
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٩٥.
٢- دفتر ١٩٣٦ أوامر عربى جزء ثانى صفحة ٢١ أمر رقم ١٤٢ فى (٢٤ ربيع الثانى ١٢٨٨).
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ١١٩.
٣- دفتر أوامر عربى ٢ ص ٤٥ رقم ٨٢ فى (١٩ ذى الحجة ١٢٩١)
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٨٤.
٤- دفتر ٢٥ عابدين صادر تلغرافات - التلغراف العربى نمرة ١٠٣ فى (٢٥ شعبان ١٢٩٢)
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٢٠٧.
٥- عابدين - دفاتر المعية السنة (وارد) دفتر ١٨٦٤ رقم ٢٤ ف (١٧ شوال ١٢٨٩).
٦- محفظة ١٩ بحريرا تركى وثيقة رقم ١٢٢ فى (١٠ شعبان ١٢٨٦)
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٩٩.
وكذلك دفتر ١٨٤٧ معية وثيقة رقم ٧ صفحة ٥٢ فى (٢٩ رجب ١٢٨٧).
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ١٠٩.
ونفس الدفتر السابق صفحة ١٤٦ فى (٥ جمادى الثانية ١٢٨٨).
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ١٢١.

كما أطلقت زراعة (البن) فى هرر، بعد أن كان الأمراء السابقون يحتكرونها، بل إن الحكومة المصرية عرضت استعدادها لإحضار خبراء من الهند، لإرشاد السكان لأنجح الطرق لزراعته[١].

وشُجعت زراعة (الدخان) فى كسلا وسنهيت.

ب- فيما يتعلق بالصناعة والتعدين:

شجعت الحكومة إقامة المحالج والدواليب والمكابس لحلج القطن وإعداده[٢] كما شجعت الصناعات الوطنية، التى اشتهر بها السودان من العاج وغير ذلك من الصناعات اليدوية، وأرسلت المطاحن لطحن الغلال اللازمة للسودان[٣].

كما أرسل المهندس الانجليزى بورمان (Bowerman) للكشف عن المعادن فى ساحل البحر الأحمر والسودان الغربى[٤].

وقد أسفرت الجهود المبذولة للكشف عن المعادن عن العثور على (الرصاص) فى (دارفور)، كما أرسل الزبير رحمت مدير بحر الغزال عينة من النحاس الموجود فى (حفرة النحاس) للقاهرة لفحصها، فوجد أن النحاس المستخرج منها نقى وصالح للاستغلال، وبُذلت جهود للكشف عن الفحم فى جهة (زيلع) وقرب حدود (هرر). واستغلت (الملاحات) الموجودة بسواحل البحر الأحمر، ويُسرت عملية نقل الملح منها وعُين موظفون لتنظيم عملية استغلال هذه الملاحات[٥].

وقد فكر فى وقت من الأوقات فى عمل إدارة خاصة للإشراف على استغلال الملح والنطرون[٦].

١- دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٧ رقم ٤ وملحقاتها فى (١٢ شوال ١٢٩٢).
وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٢٩٠.

٢- محفظة بحر برا تركى وثيقة رقم ١٢٢ فى (١٠ شعبان ١٢٨٦).
وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٩٩.

٣- دفتر ٥٥٨ معية تركى وثيقة بدون نمر ص ٢٦ فى (٢٨ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢)
وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٥٣.

٤- دفتر ٥٧٣ معية تركى ص ١٧ فى (١٢ شوال ١٢٨٥)
ترجمتها فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٩٣.

٥- دفتر رقم ١٩٣٥ أوامر انرة ١٣ صفحة ١٤٦ فى (٢١ محرم ١٢٨٨).
وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ١١٠.

٦- دفتر رقم ١٥ وارد معيه عربى ص ١٠ رقم ٩ فى (٢٣ ربيع الثانى ١٢٩٣)
وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٢٥٨.

ج- التجارة والمواصلات:

أدى ازدهـــار الـــزراعة فى السودان واستتاب الأمن، إلى نشاط التجارة، وقد قامـــت الأسواق فى مصوع، والقضارف، وكسلا، وسواكن، والأبيض، وأسست فى عـــام (١٨٦٣) شـــركة تجارية سُميت باسم (شركة السودان التجارية) برأس مال (مليونيـــن مـــن الجنيهات)، لتنمية موارد السودان، وإدخال التجارة المشروعة فى مخـــتلف أنحائه، وكان عقد تأسيس الشركة يُبيح لها مد الخطوط الحديدية، وتسيير الـــبواخر النيلـــية لنقل الغلات التجارية. ومن أهم الغلات التجارية التى راجت فى الســـودان: القطـــن، الصـــمغ، الجلـــود، الأخشاب، وريش النعام، والبن، والحبوب وأســـهمت فـــى (شـــركة السودان التجارية) البيوت التجارية بالإسكندرية وبعض المصارف الاروربيه، وكان للشركة توكيلات فى سواكن والخرطوم[1].

واهتمـــت الحكومـــة بتيســـير سُـــبل المواصلات لخدمة الأغراض التجارية، بالإضافة لإغراض الأمن والعمران.

وقـــد شرحنا كيف مُهدت الطرق البرية، ووضع على عاتق شيوخ القبائل أمر حمايـــتها وتأمينها، كما بُذلت عناية خاصة بالطرق النهرية، والمواصلات البحرية فـــى الـــبحر الأحمر، بالإضافة لبحث مسألة السكك الحديدية وتعميم مكاتب البريد، ومد خطوط التلغراف فى أنحاء السودان المختلفة.

وكـــان الهدف من كل هذه الجهود هو استثمار موارد السودان، بما يعود على أهله بالفائدة والربح.

وكانت هناك ثلاثة طرق تجارية للاتصال بمصر:

١- مـــنطقة حـــوض النيليـــن الأزرق والأبيض وروافدهما، وكردفان الشرقية – وتتدفق متاجر هذا الإقليم عبر النيلين الأبيض والأزرق إلى الخرطوم ثم بربر فشرقاً لسواكن، أو شمالاً عبر الصحراء إلى كورسكو.

وأهـــم الصـــادرات من هذه المناطق : العاج، وريش النعام، والتمر الهندى، والســـنامكى، والجلود، وقرون الخرتيت، والنيلة، والمسك، والزيت، والعسل، والشمع، والذرة، والملح.

٢- طـــريق الأربعيـــن من كوبى بدارفور حتى أسيوط – وتنتقل عن هذا الطريق حاصـــلات كـــردفان الغربـــية ودارفور والأقاليم الخارجة عن إدارة السودان

1- Hill: Op. Cit. P. 122

(واداى، ياقـرمى، وبورنـو). وأهـم الصادرات من هذه المناطق: الصمغ، والريش، والعاج، والأبنوس، والجلود، والرقيق (فيما قبل).

٣- طـريق الشـرق- لبضائع الحبشة صوب (مصوع) على البحر الأحمر. وأهم بضائعة: البن، والشمع، والعسل.

أما أهم واردات السودان فهى: المنسوجات والآلات.

ومـن أبرز مجهودات الإدارة المصرية وأرجحها فى هذه الفترة، الجهود التى بُذلـت لتذلـيل مشـكلة المواصـلات بيـن مصر والسودان، فقد أدركت الحكومة المصـرية أنـه إذا لـم يُـربط السودان بمصر بالطرق البرية الممهدة، وبالطرق الحديدية والنهرية والبحرية وكذا بالخطوط التلغرافية، بالإضافة لتوفير نظام حديث سليم للبريد- فان بلاد السودان لا يمكن أن يتحقق لها أى تقدم[1].

فالمواصلات بالإضافة إلى أهميتها البالغة للاقتصاد فى السلم، إذ عليها يتوقف تبادل ونقل الحاصلات – فان أهميتها أكثر فى الحرب لتيسير نقل الجنود والعتاد.

وقـد أرسل الخديو إسماعيل المهندسين لدراسة الطرق البرية، ومدى ما يمكن عملـه لتمهـيدها، فأرسـل المهندس (حسن بك الدمياطى) لدراسة طريق سواكن- كسـلا، وأرسل إلى وكيل حكمدار السودان أمراً للعمل على إصلاح هذا الطريق، وحفـر الآبار الكافية فى كل مرحلة من مراحله، حتى يتيسر مرور العربات التى تجرها الثيران فيه[2].

وكذلـك أرسل (مصطفى الفلكى) لدراسة طريق سواكن- شندى، وأنشئ بريد بـرى بين سواكن والقصير وقنا، وأعدت به المحطات لتغيير (الجمال) وصرف ما يلزمها من (عليق) وكانت المسافة تُقطع فى خمسة عشر يوماً[3].

كذلك اهتمت الإدارة المصرية، بإصلاح طريق أبو حمد – كورسكو، وطريق الـتاكا- بربـر، وطريق طوكر – مصوع، وغيرها من الطرق البرية الهامة التى تربط بين ربوع السودان.

1- Hill : Ibid P. 122.

٢- دفتر نمرة ٥٥٨ معية تركى- وثيقة تركى بدون نمرة ص ٢٦ فى (٢٨ جمادى الآخر ١٢٨٢).

- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٥٣.

٣- دفتر رقم ٣٥٤٣ ح ١ صادر محافظة سواكن مكاتبة عربية ص ٨١ رقم ٨٢ فى جمادى الآخر ١٢٨٢) – وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٥٣.

وكان اهتمام هذه الإدارة بالغاً بسيادة الأمن فى هذه الطرق البرية، ووضع حد لتعدى العربان الموجودين بها- من الإمرار والبشارية والهدندوه - على المارة والتجارة.

وكان شيوخ القبائل - كما ذكرنا- يتقاضون مرتبات شهرية، باعتبارهم موظفين مسئولين أمام الحكومة عن الحوادث التى تحدث فى نطاق قبائلهم[١].

حتى أن (هيل) يُقدر عدد الجمال التى كانت تخترق صحراء العتمور من ثلاثين إلى أربعين ألف سنوياً فى أواخر عهد إسماعيل[٢].

وحتى عام (١٨٦٥) كانت تحتكر الخدمة البريدية فى مصر ذاتها شركة أجنبية، وقد آلت أعمال هذه الشركة للحكومة المصرية (بالشراء) فى هذا العام، وبدأ يظهر أول طابع بريد مصرى منذ سنة (١٨٦٦)، وقد أتاح هذا للحكومة المصرية فرصة مد الخدمات البريدية بين مصر والسودان وتنظيمها.

ففى عام (١٨٦٧) فُتح مكتب بريد فى سواكن، وفى ١٨٦٩ فى مصوغ، ولم يأت عام (١٨٧٣) حتى كانت قد انتشرت مكاتب البريد فى معظم مدن السودان الهامة مثل كورسكو، ووادى حلفا، ودنقلة، وبربر، والخرطوم، وامتدت الخدمات البريدية فيما بعد إلى سنار، وفاوزغلى، والقضارف، والأبيض، والفاشر- وانضم البريد السودانى لاتحاد البريد العالمى فى (١٨٧٨)، وبعد أن امتدت الإدارة المصرية لمختلف موانئ البحر الأحمر الغربية- أصبحت هناك خطوط ملاحة تكفل نقل البريد والركاب والبضائع بانتظام من مصر إلى هذه الموانئ، وبين هذه الموانئ بعضها والبعض الآخر، ومنها إلى مصر.

وقد أدركت الحكومة المصرية أهمية **انتظام البريد** فى انتظام الإدارة فى هذه الجهات البعيدة، وكان بريد السودان يُرسل من الخرطوم إلى سواكن ومنها بالبواخر إلى السويس بحراً مرة كل أسبوع بدلاً من طريق النيل[٣].

وأرسل (إسماعيل بك الفلكى) لبحث مسألة مد السكة الحديد من (سواكن إلى بربر) أو من (سواكن إلى شندى) وعاد لمصر بخريطة مفصله لكل من الطريقين-

---

١- دفتر رقم ٣٥٤٣ ح ١ صادر محافظة سواكن - مكاتبه عربية ص ١٧٥ رقم ٦ فى (٢٧ شعبان سنة ١٢٨٢) - وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٦٢.

2- Hill: Op. Cit. P. 129.

٣- دفتر ٥٥٨ معية سنية تركى رقم ١٩ صفحة ٤٢ فى (٩ ذى القعدة ١٢٨٢) - ترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ٦٩.

وقد رجح طريق شندى، وقدر المسافة عن هذا الطريق بـ (٥٨٤ كليواً متراً) لأنه وجد أن طريق بربر تعترض الجبال فيه المشروع[١].

وكانت الحكومة المصرية فعلاً جادة فى مد السك الحديدية بين مصر والسودان وبين مدن السودان الساحلية والداخل، وفى (١٨٦٤) كُلف الخبيران البريطانيان براى، ووكر (Bray and Walker) ببحث أى الطرق أسلم لربط مصر بالسودان بالخطوط الحديدية، فسافر من أسوان لشندى مخترقين الصحراء النوبية، وعاد بطريق صحراء بيوضة ودنقلة ثم وادى حلفا.

وقد رُجحت كفة تسيير السكة الحديد على الضفة الشرقية لأسباب متعلقة بطبيعة السطح- بالطبع لم يُشار فى ذلك الوقت لوجود مناجم الحديد فى الشرق كما يُقال حالياً- ووصل الخبيران لمنطقة صحراء العتمور فى رفقة (حسين خليفة) متعهد العتمور كدليل لهما وبحثا فى أى المناطق أفضل لمد الخطوط الحديدية، وكتبا تقريراً وافياً عن ذلك، وقُدرت التكاليف للخرطوم بتسعه ملايين جنيه[٢].

وقد أثار هذا الإهتمام والتقرير دهشة فى الأوساط المختلفة، عن أن الوجه القبلى بمصر لم تكن قد مُدت فيه السكة الحديد بعد، وقد مُدت بعد ذلك إلى أسيوط.

وقد أرسل الخديو فى (٢٨ صفر ١٢٨٣) إلى حكمدار السودان يقول: "إنه لو أنشئت فى السودان السكك الحديدية التى أصبحت الأساس الأعظم للتقدم والعمران، لأفادت البلاد فائدة جمة فى قليل من الوقت- والله يعلم أن هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنا لحظة واحدة- ولو كان فى الإمكان لأمرنا مباشرة العمل فى هذا المشروع منذ الآن، ولكن ما الحيلة وإنشاء السكك الحديدية فى تلك الجهة يصطدم بصعوبات كبيرة ويحتاج إلى نفقات طائلة، والحالة تقتضى بإرجاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة، التى تتطلب هذه النفقات إلى بعد مدة، ريثما تتخلص المالية من بعض الضيق الذى تعانيه فى الوقت الحاضر"[٣].

وفى حديث للخديو إسماعيل مع مراسل جريدة (النيويورك هيرالد) فى ١٨٧٢، ذكر أن مستقبل السودان الاقتصادى يتوقف على التوسع فى زراعة وتسويق القطن

١- سجل ٥٦٠ معية تركى – ودفتر معية تركى بدون نمرة صفحة ٨٩ قسم ثان فى (٢٤ صفر ١٢٨٤) – ترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٩٠.

2- Hill: Op. Cit. P. 123

٢- دفتر ٥٥٨ معية تركى وثيقة ٢٧- ص ٥٩ فى (٢٨ صفر ١٢٨٣٢)

– وترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٨٢، ٨٣.

والقصب، وأن الكثير من الضباط والموظفين المصريين المرسلين للسودان يعتقدون أنهـم مُـبعدون، وأن الكثير من أقطار السودان بعيد عن المدنية، ولا يحل كل هذه المشاكل إلا مد السكك الحديدية للسودان.

وفـى ١٨٧١ كلف إسماعيل السير جون فولر (Fowler) المهندس البريطانى بعمـل دراسات (طوبوغرافية) للمنطقة من أسوان إلى الخرطوم، وقدم تقريره فى عام (١٨٦٥)، وصدر الأمر فى سنة ١٨٧٥ بالبدء فى مد الخط الحديدى[١].

وهكـذا بُدى فى مد الخط الحديدى على طول النيل بين (وداى حلفا) و(حنلك) وكلـف نحـو ٤٠٠,٠٠٠ جنـيه ولكن لم يتم من هذا الخط إلا ٥٧ كيلواً متراً، ثم أوقـف العمل فيه سنة ١٨٧٨- فقد وقفت الضائقة المالية، إلى جر إسماعيل البلاد إلـيها حائلاً دون تنفيذ كافة المشروعات العمرانية الهامة، وبالطبع انعكس أثر هذه الضائقة على المشروعات المتعلقة بالسودان.

أما عن الخطوط التلغرافية فكان حظها أفضل من الخطوط الحديدية، فمنذ عام ١٨٦٤ بـدأ العمـل فـى مد خطوط التلغراف بين مصر والسودان، ولم يأت عام ١٨٦٦ حـتى كانـت الخطـوط التلغرافية قد وصلت إلى (وادى حلفا)، وفى عام ١٨٧٠ كانـتّ الخطوط التلغرافية قد وصلت قرب الخرطوم، وهكذا مُدت الخطوط التلغرافـية فى مختلف جهات السودان، وبينه وبين مصر، واهتمت مصر اهتماماً بالغـاً بضـمان سلامة الإتصال التلغرافى بين هذه الجهات المختلفة، وكان (سلامة بـك) باشـمهندس عمـوم الـتلغراف يُداوم المرور على كافة الخطوط التلغرافية السودانية لتفقد حالتها وضمان انتظامها[٢].

وقـد ثبـت أن الأخشاب التى يُرسل من مصر تتعرض لحشرة (القرضة)، التى كانـت تأكلها من القمة إلى الأساس، ولذا فُضلت عليها أخشاب شجرة الدوم التى تكثر بالسودان، وكانت الخطوط التلغرافية السودانية تُعانى أيضاً من تأثير العواصف العنيفة.

ولدينا وثائق عده عن احتفال الإدارة والاهالى بنصب أعمدة التلغراف- فمثلاً فـى سـواكن احتفل الاهالى بنصب أول عامود للتلغراف، فذبُحت الأبقار ووزعت علـى الفقـراء وقدم التجار (أحمد أعمدة التلغراف) كهدية رمزية منهم اعترافاً بما سُسيديه هذا العمل على التجار من فوائد[٣].

1- Hill: Op. Cit. P. 132

٢- دفتر رقم ١٤٨ ص ٢٧ رقم ٧٥ ف (٢٧ شوال ١٢٩٢).

٣- دفـتر رقـم ٣٥٤٣ ح ١ صـادر محافظة سواكن - مكاتبة عربية ص ١٥٧ رقم ٣ ف (٤ ذى القعدة سنة ١٢٨٢) - وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف- ص ٦٧.

وقد اتجه التفكير فى المبدأ إلى تغيير الأعمدة الخشبية بأعمدة من الحديد للتغلب على الصعاب الناتجة من تآكل الأخشاب وسقوطها نتيجة العواصف والحشرات- ولكنها وجُدت ثقيلة لا تقوى الإبل على حملها فاستخدم النقل المائى، وكانت الأعمدة الحديدية باهظة التكاليف كما أن الأسلاك والأعمدة كان لابد من حراستها، فكثيراً ما تعرضت للسرقات، وهكذا وجدت عقبات شديدة فى ذلك الوقت والتغلب عليها لم يكن كاملاً، ولكن مت أنجز يستحق التقدير، وقد تم توصيل الخرطوم بالقاهرة تلغرافيا خلال حكمدارية (جعفر مظهر باشا)، ووصلت الخطوط فى السودان الشرقى إلى القصارف وكسلا، وسواكن، ومصوع والى فازوغلى - وغرباً إلى (فوحه) شرق الفاشر فى عام (١٨٧٥)[١].

وفيما يتعلق بالنقل المائى- بُحثت مشروعات ثلاثة:

١- إنشاء ترعة ملاحية- شرق أسوان لتجنب منطقة الجنادل.
٢- أو أن تكون الترعة فى الغرب.
٣- إنشاء مجرى ملاحى فى منطقة الجنادل نفسها بتحطيم الصخور وعمل الجسور.

وقد شرح دوان (Douin) هذه الأبحاث كلها مع الخرائط اللازمة، ولكن أدت الأزمة المالية فى مصر- كما ذكرنا لعرقلة تنفيذ الكثير من المشروعات التى كانت النية تتجه لتنفيذها - وكل ما أمكن عمله فى ذلك الوقت، هو إرسال البواخر بالنيل ثم تُفكك إلى قطع، وتحمل على ظهور الإبل لتخطى منطقة الجنادل ثم يُعاد تجميعها بعد ذلك، وقد سجل لنا (صمويل بيكر) صوراً لعملية نقل البواخر النيلية التى استخدمت فى فتح أقاليم خط الاستواء على ظهور الإبل.

وتميزت هذه الفترة بالذات بأن وضحت لمصر فيها سياسة مُحددة تجاه البحر الأحمر، إذ ظهر أن هذا هو أفضل طريق للإتصال بالسودان عن طريق الموانى التى على هذا البحر، وظل الأمر هكذا إلى أن مُدت السكك الحديدية فى أواخر القرن التاسع عشر، بمناسبة الحملات التى أرسُلت ضد المهدى.

وكان هذا مصدر الاهتمام بإعداد الموانى الواقعة على البحر الأحمر، بالإضافة إلى الاهتمام بأحياء البحرية المصرية، وقد قام الأسطول المصرى بأعمال باهرة،

١- دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربي نمرة ٢ - ص ٣٨ ق (٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٩).
- كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص ١٣٦.
- وكذلك .Hill: Op. Cit. P. 131

فأقلت سفنه الجنود والعتاد إلى ثغور سواكن، ومصوع، وزيلع، وبربره، والصومال الجنوبى، بل حملت هذه السفن مواد التعمير والبناء إلى هذه الجهات، وكانت للأسطول المصرى رحلات منتظمة – حسب جداول معلنه- فى البحر الأحمر، وقد اتجه الاهتمام إلى الأسطول التجارى حين وُضعت العراقيل فى سبيل نمو الأسطول الحربى، فتأسست شركات للملاحة فى البحرين الأحمر والمتوسط[1].

وسنتعرض للحديث عن سياسة مصر فى البحر الأحمر فى هذه الفترة بإسهاب فيما بعد.

د- الضرائب والجمارك:

أما عن الضرائب فقد كانت تُقدر على (السواقى)، كما فُرضت على (الأراضى المطرية) والمنازل، وعلى القبائل البدوية حسب ثروتها، وقد أُلغيت ضريبة الأرض وفُرضت (فرضه الرؤوس) على الأهليين على حسب مقدرة كل منهم، وقد كانت هناك شكوى مستمرة من الضرائب، ولا يرجع هذا بالضرورة لفداحتها ولكن قد تكون هناك إساءة فى طريقة جمعها، وقد يرجع ذلك أيضاً لحداثة العهد بهذا النظام الضرائبى الذى يُدفع لحكومة مركزية فى مكان بعيد عن القبيلة ويُذكر فى هذا المّجال تجاوز الحكومة مراراً عن متأخرات الضرائب للتيسير على الناس، وتشجيعهم على الاستقرار فى الأرض، وقد بلغتْ متأخرات الضرائب على الاهالى مبلغاً باهظاً، فقدرت هذه المتأخرات على مديرية عموم قبلى السودان حتى سنة (١٨٧٢) مبلغ ٣١,٠٠٠ كيس، وكان المتأخر على عربان بنى عامر فى مديرية التآكل فى نفس السنة، يزيد على (٩٥٢ كيس)، وعلى فازوغلى (١٤٥٨٦ كيس) وعلى مديرية الخرطوم ذاتها حوالى (٢٧٥٩١ كيس)[2].

لكن لا شك – كما ذكرنا – فى أن الكثير من المظاهر التى تبعت التطور الاقتصادى الجديد فى السودان، لم تقابل بالارتياح من السودانيين، فالقضاء مثلاً على طريقة (المبادلة)- التى كانت عصب الاقتصاد السوادنى فيما قبل – هذا القضاء العنيف وإجبار الناس على استخدام العملة كان له أسوأ الأثر فى نفوس السودانيين[3].

١- أنظر كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – القسم الثالث- الوثائق المتعلقة بشركات الملاحة فى البحر الأحمر.

٢- دفتر ٨٥٩ عابدين المعية عربى- رقم ٢٦ فى (٢٠ ذى القعدة ١٢٨٨).

دفتر ١٨٦٤ عابدين المعية عربى- رقم ١٧ فى (١٥ رمضان ١٢٨٩)

دفتر معية تركى رقم ٢ فى (١٠ شعبان ١٢٩١)

٣- دفتر ٨٥٩ عابدين المعية عربى – رقم ٢٦ فى (٢٠ ذى القعدة ١٢٨٨).

دفتر ١٨٦٤ عابدين النعية عربى – رقم ١٧ فى (١٥ رمضان ١٢٨٩).

دفتر ٦ معية تركى رقم ٢ فى (١٠ شعبان ١٢٩١).

كما أن سياسة العنف التى أتبعت فى إلغاء تجارة الرقيق - أدت إلى كثير من التذمر والسخط فالرقيق كان معتبراً فى السودان عُملة تدفع بها أثمان السلع وغيرها- أضف إلى هذا أن الإدارة اهتمت بأنها لم تراع العدالة فى فرض الضرائب، فقد أعفت الحكومة بعض الطوائف- كالشايقية مثلاً- من الضرائب لأسباب متعلقة بعلاقة هذه الطوائف بالإدارة، وقد أوغر هذا صدور الطوائف الأخرى التى كانت تُطالب بشدة بسداد ما عليها من ضرائب، وقد ظهر أثر ذلك كله فى الثورة المهدية، وأشارت منشورات المهدى إلى سياسة العنف المتبعة مع الناس من أجل الضرائب[1].

هذا وقد كانت (الجمارك) التى تحصل على البضائع السودانية التى تُصدر لأوربا بواقع ١% عند خروجها من ميناء سواكن أو مصوع (تجارة الترانسيت) أما البضائع التى تُصدر للبيع فى مصر مثلاً فيحصل عليها ٨ % - على أنه رغم ما بذلته الحكومة المصرية من جهد ومال وما صرفته على تعمير موانى البحر الأحمر الهامة، وما يستلزمه حفظ الأمن وصيانة هذه الجهات من مصاريف باهظة فإن الحكومة الانجليزية بالذات كانت دائمة الضغط على الحكومة المصرية، لمنع أخذ جمارك فى هذه الموانى، وقد أجبرت مصر على فتح مينائى (بربره، وبلهار) للتجارة، مع عدم تحصيل جمارك فيهما. وقد ذكر غوردون نفسه أن هذا يتنافى مع ما تقضية العدالة[2].

على انه مما تجدر الإشارة إليه، أن مصر كانت تعتبر السودان كأى جزء من أجزاء مصر ذاتها، ولذا فقد كان الهدف الاساسى للإدارة، هو نشر العمران بين ربوعه، وكانت الخزانة المصرية تتحمل باستمرار كل ما يتطلبه نشر العمران والحضارة فى أرجائه من مصاريف.

ورغم إنشاء ميزانية خاصة للسودان فى أيام إسماعيل بحيث تتضح إيراداته ونفقاته بصورة سليمة- فان الحكومة المصرية لم تتأخر عن سد العجز فى ميزانية السودان، وإرسال ما كان يحتاجه من مال أو غلال أو خلافه.

ففى سنة ١٨٦٤ مثلاً التمس (موسى حمدى) حكمدار السودان إرسال (٤٠٠٠٠ كيس) نقداً لمديرية التاكا، لعلاج الضائقة المالية نتيجة القحط الذى أصاب حاصلاتها، فأرسلتها نظارة المالية فوراً، وكانت التعليمات الصادرة إلى

١- د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية ج ١ ص ٣٦٣.

٢- محفظة ٥٣ معية تركى وثيقة رقم ٢٧ فى (٥ صفر ١٢٩٣).

(جعفر صادق باشا) حكمدار السودان، تقضى بأن يبحث إيرادات الحكمدارية ومصروفاتها بحثاً دقيقاً، بمجرد وصوله إلى الخرطوم، وتنظيم ميزانيتها، وبعد بحث ما إذا كان السودان فى حاجة إلى نقود بطريق المساعدة علاوة على إيراداته السنوية لأنفاقها فى وجوه الإصلاحات الضرورية والتحسينات المهمة أم لا... يحرر بذلك بيان مفصل لعرضه[١].

وأكد ذلك مرة أخرى بإرادة صادرة إلى حكمدار السودان فى (جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢) جاء فيها: "بعد وصولكم إلى مركز الحكمدارية، واطلاعكم على المصروفات والإيرادات، إذا بعثم ألينا بميزانية صحيحة لها فسوف لا نضن عليكم بإجابة المطالب التى نرى لزوماً لها، كما أننا عندما نطلع على هذه الميزانية سنوافيكم حالاً بالمال الذى تدعو الضرورة له، ثم نؤكد لكم بأننا سنرسل ما تدعو الحاجة لإرساله من المال لتغطية بعض المصروفات علاوة على إيرادات السودان فنخطركم بذلك من الآن"[٢].

على أن (جعفر مظهر باشا) لما أصبح حكمداراً حاول الاقتصاد فى مصروفات السودان والتشديد فى الضرائب، فقصر المصروفات تقريباً على المرتبات، وخفض عدد الجيش، وحد من مشروعات الزراعة حتى أصبح الإيراد يكفى المصروفات ويزيد- لكن لم يمتدح منه هذا الإجراء.

وقد كانت الإعانات المالية والغلال، تُرسل بإنتظام من مصر إلى السودان[٣] وكانت مصر تسرع لنجدة السودان كلما حلت به ضائقة، ففى عام (١٨٧٥) حين حدثت ضائقة (دارفور) بسبب قلة الأمطار، أرسل لها من مصر حوالى (٢٠,٠٠٠ كيس) لفك ضائقتها.

وتدل الوثائق المتعددة، على أن العجز فى ميزانية السودان استمر مدة طويلة وأن متأخرات الضرائب على الآهلين كانت تتزايد باستمرار، وكانت الحكومة كثيراً ما تتجاوز عن هذه المتأخرات رغم العجز فى الميزانية، وتبادر بإرسال الأموال اللازمة لسد هذا العجز فى مصر.

١- عابدين – المعية (تركى) دفتر ٥٣٧ رقم ٢ فى (٢٨ محرم ١٢٨٢) إرادة سنية إلى جعفر باشا حكمدار عموم السودان.

٢- دفاتر عابدين – المعية تكى دفتر ٥٥٨ رقم ١١ فى (٢٩ جمادى الأخر ١٨٢) – إدارة إلى حكمدار السودان.

٣- دفتر نمرة ٥٥٨ معية تركى وثيقة نمرة ٣ ص ٦ فى (٧ رجب ١٢٨٢) –
وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٥٦.

ثانيا شئون التعليم

رأيـــنا أن الإدارة المصـــرية اهتمت بشئون التعليم في السودان اهتمامها بكافة نواحـــي الإصلاح الأخرى، وكانت الخطوة الأولى التى أتخذت فى هذا السبيل، هى مـــا تم فى عهد محمد على من إرسال عدد من أبناء السودان إلى مصر لتلقى العلم بالمدارس المصرية[1].

علـــى أنـــه يُوخـــذ على الإدارة أنها لم تحسن دائماً إختيار هؤلاء المبعوثين، فضـــجت المـــدارس التى الحقوا بها من. كبر أعمارهم وانخفاض مستواهم العقلى، وفكـــروا فى أن يلحقوهم جميعاً كجنود فى الجيش، على إعتبار أنهم كانوا يعتقدون أن ذلك لا يستلزم نشاطاً عقلياً[2].

وقد عين بعض الذين نالوا قسطاً من التعليم من هؤلاء المبعوثين فيما بعد فى الوظائف الكتابية بمديريات السودان.

وقـــد أشـــرناً ســـابقاً إلى محاولة عباس الأول فتح مدرسة بالخرطوم، وعين لنظارتها (رفاعة رافع الطهطاوى) وهذه المحاولة رغم ما أحاط بها من ظروف – سبق الإشارة إليها – فان لها أهميتها باعتبارها أول محاولة تشهدها أرض السودان لإدخال التعليم المدنى الحديث فيها[3].

علـــى أن الاهـــتمام بإنشـــاء المدارس فى السودان، وضح بنوع خاص فى عهد إسماعيل، ففى حكمدارية موسى حمدى باشا (١٨٦٢– ١٨٦٥) أنشئت خمس مدارس، وألحـــق بكل منهما نحو مائة تلميذ، وقد أفتتحت هذه المدارس الخمس فى يونيه ١٨٦٣، وورد فى الأمر الصادر لموسى حمدى بإنشاء هذه المدارس الخمس ما يلى:

"حيـــث أن تأسيس خمس مدارس فى المديريات المذكورة (الخرطوم، وبربر، ودنقلـــه، والأبيض، وكسلا) لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشـــروع، موافق لنفس المصلحة- فبناءًا عليه بادروا إلى إجراء إيجابيته وتسعوا فى تعليم سكان الجهات المذكورة وتقديمهم بأحسن وجه[4].

١– د . عبدالعزيز عبدالمجيد: التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ج ٢ ص ١٦.

٢– عابدين المعية– دفتر ١٢٥ (وارد معية) رقم ١١ فى (٢٣ شعبان ١٢٧٩)

– ودفتر ١٢٦ (وارد الأقاليم) رقم ٢٦ فى (٢٠ محرم).

– وكذلك Hill: Op. Cit. P. 127.

٣– د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية.– ج ١ ص ٣٥٢.

٤– أمين سامى باشا: تقويم النيل– المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٤٧٦.

– وكذلك د. عبدالعزيز عبدالمجيد : التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ج ٢ ص ٧٣.

وقد كانت هذه المدارس تحت الإشراف الفنى لديون المدارس، وتتبع خطط الدراسة المتبعة فى المدارس المصرية، وقد أختير بعض خريجى هذه المدارس لإتمام تعليمهم بمدارس التلغراف والهندسة، والطب، والصيدلة، والمدارس الفنية بمصر(١).

وأفتتحت بعد ذلك عده مدارس فى المدن الهامة، نذكر منها على سبيل المثال مدرستين أنشئتا بسواكن، ومدرسة لتعلم فن التلغراف أنشئت فى كل من (الخرطوم) و(كسلا)، وفى (١٨٦٨) أنشئت مدرسة فى الخرطوم لاستقبال الطلبة الذين أتموا تعليمهم بالمدارس الابتدائية، وأنشئت بعض المدارس لتدريب السودانيين على الصناعات الصغيرة المختلفة، وفى بعض هذه المدارس كان تعلم الصبية فى الصباح، بينما يؤمها الكبار فى الليل لدراسة القران الكريم.

وحين شعر (ممتاز باشا) بالحاجة لميكانيكيين لإدارة العدد والماكينات الخاصة بمحالج القطن، أرسل عدداً من الشبان السودانيين لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكية.

وتبعت الجهود المبذولة لنشر التعليم - الإدارة المصرية فى امتدادها إلى مختلف الأقاليم التى بسطت عليها نفوذها سواء فى شرق السودان أو فى غربه أو جنوبه، بل امتدت هذه الجهود إلى ناحية أعمق، وهى نشر التعليم بين الرقيق المحررين وأبنائهم لتشعرهم بإنسانيتهم، وقد أنشا محافظ شرق السودان وسواحل البحر الأحمر مدرسة فى (سواكن) لمن حُرر من العبيد(٢).

وأتبعت عده وسائل للترغيب فى التعليم، إذ وُجد فى المبدأ أن التلاميذ كانوا يهربون إلى الجبال ومن الصعب إعادتهم لمدارسهم(٣).

ويذكرنا هذا أيضاً بوسائل الترغيب التى أتبعت فى مصر فى أوائل عصر محمد على لحث الاهالى على إرسال أبنائهم للمدارس.

هذا فيما يتعلق بالتعليم المدنى الحديث- ولا شك فى أن امتداد الإدارة المصرية للسودان ساعد على انتشار اللغة العربية، والدماء العربية، والثقافة

١- د. حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية - ج ١ ص ٣٥٢ وما بعدها.

٢- د. عبدالعزيز عبدالمجيد : التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها ج ٢ ص ٨٧.

- كذلك Hill: Op. Cit. P. 127.

٣- عابدين معية - دفتر ٢٣٢ مدارس عربى رقم ١ فى (غرة شعبان ١٢٦٨) من ناظر الخرطوم (رفاعة رافع الطهطاوى) إلى مدير المدارس.

العربية فى السودان كله، فقد أسقط الحواجز السياسية القائمة بقضائه على السلطنات والإمارات والمشيخات، وأدمجها كلها فى وطن سودانى موحد، يخضع لحكم مركزى مستقر، وأفسح بذلك المجال للقبائل العربية للهجرة إلى حيث يطيب لها المرعى والمقام، وامتداد الحكم المصرى لمناطق جديدة فى الشرق والجنوب والغرب كشف للإسلام مناطق جديدة، لم يكن يتيسر له أن ينفذ إليها(١).

هذا أما فيما يتعلق بالتعليم الدينى المنظم (المقصود)، فقد كانت المساجد بالإضافة إلى رسالتها الدينية دوراً للعلم، وكان يرتب لأئمتها ومؤذنيها وخدمها المهايا والأرزاق، وكانت توهب بعض الأطيان والهبات للإنفاق منها على المساجد، بالإضافة إلى المرتبات والمعاشات لشيوخها، ليقوموا برسالتهم فى تعليم السودانيين وهم مرتاحوا البال، وأعفى هؤلاء الفقهاء من الأموال على الأطيان التى يزرعونها.

ومن المساجد التى عُمرت فى هذا العهد: مسجد الخرطوم، والجامع الشريف بأوردى دنقله، والجامع العتيق بالأبيض، ومسجد سنار، ومسجد قرية عبود، ومسجد الملمية، ومسجد مروى، ومسجد طوكر، والمساجد التى بنيت فى مصوع وساكن وبربره وهرر إلى غير ذلك من المساجد التى انتشرت فى السودان، وكانت منارات للدين والعلم والثقافة.

وكذلك انتشرت فى ربوع السودان (الخلاوى) و(الزوايا)، وكان يقوم المشايخ فيها بتعليم القران ومبادئ الدين الحنيف.

وبالإضافة إلى ذلك شُجع بعض الشبان السودانيين على السفر لمصر، وتلقى العلم بالأزهر الشريف- حتى أصبح للقادمين من سنار رواق خاص بالأزهر (رواق السناريين)(٢) ولكن للأسف فان العائدين من هؤلاء السودانيين لم يستطيعوا بعد عودتهم للسودان أن يقوموا بالدور الذى كان يجب أن يقوما به فى نشر مبادئ الدين الصحيح بين طبقات المجتمع السودانى المختلفة، وظلوا يمثلون طبقة منعزلة عن الشعب، ومتعالية على عامته، ولذا لم يستطيعوا أن يقضوا على طبقة مُدعى (التصوف) من الذين كانوا ينشرون الكثير من البدع والخرافات البعيدة عن تعاليم الدين الصحيح، مستغلين جهل عامة الشعب(٣).

١- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا – ص ٣٥٩ وما بعدها.

2- Hill: Op. Cit. P. 127.

3- Hill: Ibid P. 126 & 127.

وبرغم الجهود التى بُذلت لنشر التعليم فى السودان، فإنه يؤخذ على التعليم أنه لـم يكن سائراً على خطه معلومة، لها أهداف محددة، وأن الإتجاه فى السودان كما فى مصر – كان لتخريج عمال للإدارة – كما يُؤخذ على اتجاه التعليم بالسودان أنه لـم يصبـغ بصبـغة دينية صرفـة، فالتعليم الدينى فى السودان خاصة له أهميته القصوى، ولعل القائمين بالأمر لم يلمسوا الفرق بين مصر وبين السودان، ولعله لو نشـر الإسلام فى السودان – خاصة بين الزنوج فى الجنوب – لأمكن علاج كثير مـن المشاكل، فمثل هذا التعليم الدينى يُسهم بلا شك فى عملية المزج بين العناصر المخـتلفة، وانتشار اللغة العربية ومبادئ المساواة يضعف من تجارة الرقيق ويعالج الكثير من المشكلات الأخرى التى كان يشكو منها المجتمع السودانى. والغريب أنه فـى الوقت الذى انفتح فيه الباب فى السودان أمام الإرساليات الدينية، وظفر هؤلاء بحمايـة السلطات المصرية ومعاونتها المادية، فأقاموا مؤسساتهم الدينية – لم تنتبه الإدارة المصرية للقيام بنفس الدور[1].

والعجيب أن (جعفر مظهر) كتب فى هذا – وقد كان رجلاً متديناً وصف بأنه رجل كتاب ومسجد، لكثرة مداومته على القراءة والصلاة – وكان له اهتمامه الخاص بالمسـائل الثقافـية والدينية، وأشار إلى واجب الحكومة فى نشر التعليم الدينى فى السودان، والنتائج الحميدة التى تنتج من ذلك، وكان من رأيه وجوب تشجيع مكاتب الحفاظ والكتاكيب والخلاوى – ومع أن الأمر الصادر لحكمدار السودان فيما يتعلق بـإدارة جهـات(الـبحر الأحمر) بعد فتحها ذُكر فيه أهمية تعليم الاهالى وخاصة الأطفـال هـناك اللغـة العربية حتى يتيسر لهم التحدث بلسان عربى – ولكن هذه الاقـتراحات لـم تقابل بالعناية الواجبة، وكانت العناية بنفس نوع (التعليم المدنى) كمصـر ولـذا كـان المتطرفون فى السودان يُطلقون على الإدارة المصرية اسم الحكومة التركية[2].

وفى مجال العلم والتعليم نذكر الجهود التى بُذلت لأعمال الكشف الجغرافى بالإضـافة إلى تشجيع الرواد والكاشفين الأجانب على ارتياد الأقاليم السودانية

1- Hill: Ibid. P. 127.

"إن مـن أشـهر رجـال البعثات الدينية الذين عملوا فى السودان دانيال كيون (D. Comboni) الايطالى كان يهدف بـتخريج جـيل من شباب الأفريقيين يقومون بنشر المسيحية فى القارة بين الإفريقيين، ولقد لقى مشروعة هذا تعضيداً من الـبابا بـيوس التاسع (Pius IX)، وشمل نشاط (كمبونى) مناطق النيل الأبيض وكردفان حيث افتتح مركزاً للتبشير فى الأبيض، وفى جبال النوبا".

٢– أمين سامى باشا: تقويم النيل– المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٥٦٣ وما بعدها.

وكشفها، فقد ترتب على هذه الجهود فتح أقاليم السودان الجنوبية للحضارة والمدنية.

الكشوف الجغرافية :

رأينا الجهود التى بذلتها الإدارة المصرية منذ أن امتدت للسودان، لفتح هذه البلاد للحضارة والكشف، عن منابع النيل، ودراسة ومعرفة أحوال السكان فى السودان وطرق معيشتهم وعاداتهم وطبيعة الأرض التى يعيشون عليها ومناخها وثرواتها- ومن الجهود التى بذلت فى هذا المجال رحلات (سليم قبطان) التى سبق الإشارة إليها فى عهد محمد على والتى ذكرنا أنها بلا شك جهود راشدة فى هذا الميدان، رغم تعمد المراجع الأجنبية إغفالها أو الإقلال من أهميتها، هذا بالإضافة إلى تأمين الأجانب وتيسير مهمة الراغبين منهم فى البحث والكشف والدراسة، فى ظل إدارة تضمن لهم الأمن والسلام، وترتب وسائل الانتقال، وقد أشرنا سابقاً لبعض هذه الرحلات الكشفية الأجنبية.

وفى عصر إسماعيل بذلت جهود مضاعفة للكشف عن منابع النيل، وغيرها من جهات السودان التى لم تكن كشفت بعد نذكر منها:

١- مأمورية صمويل بيكر:

كان بيكر – كما ذكرنا سابقاً – قد قام برحلته فى السودان فى الفترة من (١٨٦١-١٨٦٥)، وأتيح له فى أثناء هذه الرحلة أن يلتقي بالرحالة (سبيك) وزميله (جرانت) عند غند كرو، وأن يكشف بحيرة (البرت) وشلالات (مرشيزون).

وفى (١٨٦٩) أوفدت الحكومة المصرية (صمويل بيكر) بقصد إخضاع الأقاليم الواقعة جنوب غندوكرو للإدارة المصرية المنظمة، وإنشاء عدة مراكز عسكرية وتجارية فى تلك الأقاليم وفتح النيل للملاحة من غندو كرو إلى البحيرات الاستوائية العظمى، ونقل السفن إلى بحيرة (ألبرت)، وذلك بهدف فتح هذه الجهات للحضارة والعمران، وكشف النقاب عنها، وتنشيط التجارة المشروعة لتحل محل تجارة الرقيق[١].

وقد بقى صمويل بيكر فى مهمته حتى عام (١٨٧٣) ولكنه لم يستطع تحقيق كل الأهداف التى أرسل من أجلها، وكانت سياسة العنف التى أتبعها مع الاهالى، من أسباب تنفيرهم بدلاً من جذب قلوبهم نحو الإدارة الجديدة.

١- أمين سامى باشا: تقويم النيل المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٨٣٥، ٨٤٨، ٨٦٥.

٢- مأمورية غوردون:

خلــف غــوردون صــمويل بيكر فى عام (١٨٧٤) وقضى فى مأمورية خط الاســتواء حــتى عــام (١٨٧٦)، وفى هذه الفترة تحققت نتائج كشفية هامة نتيجة رحلات متعددة نذكر منها[1]:

أ - الرحــلات التى قــام بها الضابط الامريكى الكولونيل شايية لونــج (Chaille Long) الــذى ذهب برحلة إلى (أوغندة) وأخرى إلى مكراكه (نيام نيام) لفتح الطريق بينها وبين (لادو) عاصمة المديرية الاستوائية.

ب- رحلــة البلجيكى إرنست لينان دى بلفون (Linant de Bellefeonds) فى عام (١٨٧٥) فــى الإقلــيم الممتد من (لادو) عاصمة مأمورية خط الاستواء إلى (روباجا) عاصمة أوغندة.

ج- رحــلات الــرحالة الايطالى جيسى (Gessi): تركزت جهوده فى إقليم بحر الغــزال، وفى بجيرة البرت وقد نجح فى عام ١٨٧٦ فى رسم خريطة لبحيرة (البرت).

د- رحلات غوردون: اتجهت جهوده لكشف الطريق النهرى إلى بحيرة فيكتوريا ورسم خرائط مفصلة لهذا الطريق، وإقامة المحطات على طوله.

وقد أعد الجنرال (ستون) رئيس عموم أركان حرب الجيش المصرى فى عام ١٨٧٦ تقريــراً وافــياً بالكشــوف الجغرافية التى تمت فى الفترة من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٦.

٣- جهود ضباط هيئة أركان الحرب المصرية:

أنشــئت مدرسة أركان الحرب فى عام ١٨٦٥، وفى عام ١٨٦٧ تأسست هيئة أركــان الحــرب العامة المصرية، وكان من أهدافها إعداد ضباط مصريين للقيام بأعمال الكشف الجغرافى.

وقــد أسهم عدد كبير من هؤلاء الضباط فى أعمال الكشف، نذكر منهم (محمد مخــتار) و(عــبدالله فــوزى) و(محمد نظمى) و(محمد رؤوف) - وقد قاموا بعمل خرائط للجهات التى خضعت للإدارة المصرية فى السودان الشرقى ولمجرى النيل الأبيض، وكذلك عُملت خريطة لقارة أفريقيا - بالإضافة إلى رسم خرائط تخطيطية

١- ملاحظــة: سنشــير بالتفصيل لمأمورية كل من (صمويل بيكر) و(غوردون) عد الحديث عن مديرية خط الاستواء وامتداد الإدارة المصرية إليها.

توضح المعلومات التى ذكرها المكتشفون الآخرون مثل غوردون وجيسى وشاييه لونج.

٤- الجهود فى السودان الغربى:

رُسمت خرائط للطرق المؤدية لكردفان، وقد أتم الامريكى بروات (Prout) كشف كردفان، واشترك معه الضباط المصريون فى ذلك- ورُسمت خرائط للطريق من الخرطوم إلى (الأبيض) ولمجرى النيلين الأبيض والأزرق، كما عملت خرائط كشفيه للطريق من (دنقله العجوز) إلى (الفاشر) وخرائط لدافور، وجبل مره، و(داره) و(شكا) وعملت دراسات على نباتات كردفان ودارفور.

٥- فى السودان الشرقى:

وضع محمد رؤوف باشا تقريراً شاملاً للمناطق التى خضعت للإدارة المصرية فى السودان، وساحل البحر الأحمر وبلاد الصومال وهرر وكذلك وضع (محمد مختار) و(عبدالله فوزى) تقريراً وافياً يحوى معلومات جغرافية متصلة مفصله، ومرفق به خرائط لهرر ومملكة عادل.

كما وُضعت خرائط لزيلع، وبربره، ومصوع وبلاد الصومال- ورُسمت خرائط لساحل البحر الأحمر بأجمعه والصومال ووضحت عليها الأماكن الملائمة لإقامة الفنارات[1].

٦- تيسير مهمة الهيئات العلمية الأجنبية:

قدمت الإدارة المصرية للمكتشفين الأجانب أفرداً وهيئات معاونة صادقة لإنجاح جهودهم، ومن هؤلاء المكتشفين يونكر (Junker) وميانى (Miani) الايطاليين، وقد خصص لميانى مرتب شهرى من أجل السياحة فى (النيل الأبيض)، وكذلك البعثة الانجليزية التى ذهبت لافريقية الوسطى للالتقاء بالدكتور لفنجستون.

وهكذا أسهمت الإدارة المصرية بجهود واضحة فى الكشف العلمى، وفى تيسير الوصول إلى أعماق القارة الإفريقية وكشف خبايا هذه القارة العظيمة.

٧- نشر العلوم الجغرافية:

من الجهود التى تُذكر للمصريين فى ميدان العلوم الجغرافية والكشوف، ما أبداه جعفر مظهر حكمدار السودان (١٨٦٦-١٨٧١) من الاهتمام فى هذا المجال،

١- نشر المؤلف هذه التقارير، وبعض الخرائط التى رسمها الضباط المصريون المصريين من ضباط هيئة أركان الحرب المصرية، فى كتاب الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر..

فقد طلب تكليف (رفاعة رافع الطهطاوى) بإتمام الأجزاء الباقية من كتاب ملطبرون (Molte Brun) : الجغرافية العامة، وكذا ترجمة كتاب الرحالة الإنجليزى سبيك (Speke) عن رحلاته لاكتشاف منابع النيل - بالإضافة إلى ترجمة رحلة الشيخ التونسى، وأن ترسل نسخ من هذه الكتب إلى السودان ليستفيد منها الدارسون السودانيون والموظفون والضباط العسكريون[١].

ثالثا: الشئون الصحية

اهتمت الإدارة المصرية - بشئون الصحة العامة بالسودان وبمكافحة الأمراض ومنع الأوبئة من الانتشار - وكانت المدن من قبل تتعرض لفتك الأوبئة، وكان التطبيب فى السودان - كما نعلم- عن طريق الشعوذة وأدعياء الطب والطرق البدائية.

فقامت الإدارة المصرية بإنشاء المستشفيات، سواء فى الخرطوم أو فى دنقله، والتاكا، وبربر، وسنار، وكردفان، وزيلع بل فى مختلف مدن السودان الأخرى - وكانت المدرسة والمستشفى والمسجد أول ما تهتم به الإدارة المصرية فى أى بلد جديد تمتد إليه، وقد أرسل من مصر أطباء وصيادلة لتطعيم الأهالى ضد الجدرى، والأمراض الوبائية، والإشراف على المستشفيات.

وكان المتبع أن تبنى مستشفى فى كل منطقة تمتد إليها الإدارة المصرية ويُعين لها طبيب وصيدلى، فمثلاً حين ضمت مصوع وسواكن للإدارة المصرية، أختير (ماهر محمد أفندى ريان) حكيمباشى مستشفى المنوفية ليعين حكيمباشى لجهة مصوع و(حسن أفندى حسيب) صيدلى بمديرية الغربية، عين صيدليا بالجهة المذكورة و(إبراهيم افندى جاهين) حكيمباشى بمستشفى الغربية عُين حكيمباشى لمستشفى سواكن، و(محمد أفندى دياب) صيدلى بندر رشيد عُين صيدليا بجهة سواكن[٢].

كذلك الحال فى بربره، فلما إنضمت تحت لواء الإدارة المصرية، عُين لها طبيبان أحدهما يُقيم بالبندر، والآخر يُقيم مع العساكر المقيمين بدوبار[٣].

١- عابدين دفتر المعية تركى- دفتر ٥٥٧ رقم ٥ فى (١٩ ربيع الأول ١٢٨٣).

٢- دفتر ١٩١٢ أوامر عربى - ص ٢ الأمر رقم فى (٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٢) - وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٥١.

، دفتر ٥٥٨ معية تركى - مكاتبة رقم ١ ص ٢٨ قسم ثانى قسم ثانى فى (٢٣ شوال سنة ١٢٨٣) - ومنشورة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٨٧ وما بعدها.

٣- صادر معية ١١ - وثيقة ص ٨٢ رقم ٣٠ فى (٢٩ صفر سنة ١٢٩٢)

- منشورة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢١٢

وقد أُعد مستشفى بربره وجُهز به قسم داخلى لاستقبال خمسين شخصاً، وأرسل ما يحتاجه من (ممرضين) أدوية[١].

وكذلك الوضع فى زيلع فحين طلب محافظها أبوبكر باشا غلق المستشفى الذى فُتح هناك، رفضت الحكومة المصرية ذلك، وأفهمته أنه من ألزم الأمور، والواجب تعويد الاهالى على العلاج عند الأطباء بدلاً من غلق المستشفى[٢].

وكانت ترسل الأدوية وغيرها من مستلزمات المستشفيات من مصر - وطُلب إلى أطباء وصيادلة المستشفيات محاولة تعليم أكبر عدد ممكن من السودانيين وسائل التمريض، للمساهمة فى العمل بالمستشفيات.

واتخذت الإدارة المصرية من إجراءات الحجر الصحى، ما يمنع تفشى الأمراض- مثل مرض (الكوليرا) - الذى كانت تنتشر فى موسم الحج فيحصد الاهالى حصداً[٣].

ويدخل فى تلك الجهود المتصلة بالصحة ما بُذلك لإمداد المدن بالمياه العذبة وتنظيمها وتوسيع الطرقات، ومنع تراكم القاذورات فيها.

ويكفى لإعطاء فكرة عن التغيرات التى طرأت على الحالة الصحية، أن تُقارن بين التقرير الذى كُتب عن بلد مثل مصوع وسواكن وبربره وغيرها وقت فتحها- حيث ذُكر أن الطرقات كانت ملأى بالمرضى والمصابين - وبين ما ذكره الرحالة الأجانب أنفسهم عن الأوضاع فى المدن السودانية بعد ذلك فى ظل الإدارة المصرية[٤].

ويُذكر فى مجا الصحة الجهود التى بذلها حكمدار السودان (جعفر مظهر) فقد كان يؤمن بنظرية شبيهة بالتى كان يعمل لها (كومب) فى مجال التبشير الدينى- وهى أن يكون نشر الوعى الصحى بين السودانيين عن طريق أبناء جنسهم -

---

١- دفتر ٣٧١٤ معية عربى ص ١١٥ رقم ١٤٠ فى (٢٠ رجب سنه ١٢٩٣)

- منشورة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٣٣.

٢- دفتر ٢١ صادر - معية عربى - ص ٥٣ رقم ١٣ فى (٢٣ رجب سنة ١٢٩٤)

وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٦٦

٣- دفتر رقم ٥٥٧ معية تركى - وثيقة رقم ٣٦ ص ٤٩ فى (٢١ رجب سنة ١٢٨٢١٢٨٢) - منشورة ترجمة لها فى كتاب الوثائق التاريخية.للمؤلف ص ٥٧.

٤- محفظة رقم ٣٨ معية تركى - وثيقة رقم ٢٢ فى (٦ محرم سنة ١٢٨٣) تقرير مرفوع من حسن رفعت محفظ مصوع عن استلام ميناء مصوع، وانتشار مرض الجدرى والكوليرا وخلافة بين السكان- ترجمة الوثيقة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٧١.

ولذلــك بــدأ تدريب عشرين طالباً ممن أتموا تعليمهم الابتدائى على وسائل العلاج الأولية، بوضعهم تحت إشراف طبيب مستشفى الخرطوم.

وفــى تقريــر رســمى صدر عام (١٨٧٣) يُذكر أنه أصبح فى كل عاصمة مديــرية من مديريات السودان – باستثناء فاشوده – مستشفى، وكان بالقسم الداخلى لمستشفى الخرطوم ٢٧٠ سريراً، وكانت هذه المستشفيات تقوم بالإضافة إلى علاج المرضى – بالتطعيم ضد الأمراض الوبائية وكذلك قيد المواليد والوفيات[١].

وقــد شــهد الطبيب الانجليزى فلكن (Felkin) – الذى زار السودان فى عام ١٨٧٨ (أثناء حكمدارية غوردون)، وقام بعده رحلات مع بعض المبشرين الانجليز فى مديرية خط الاستواء أوغندة – بما تؤديه الإدارة المصرية من جهد فى النواحى الصحية، وذلك بعد زيارته لمستشفى الخرطوم[٢].

و لا شك فى أن هذا الجهد الذى بُذل لم يكن كافياً للقضاء نهائياً على كثير من الأمــراض الــتى كانت تنتشر بشكل وبائى كالملاريا والجدرى والتى كان يموت بسببها مئات كل عام– ولكن الحكم السليم والتقييم الدقيق لما تم يستلزم المقارنة بين الحالة قبل الإدارة المصرية لهذه البلاد، وما آلت ليه بعد ذلك.

رابعا: تخطيط المدن الكبرى

هــناك إجمــاع مــن كل الرحالة الذين يزورون السودان، على عدم ازدهار (الحاضــرة) أو (المديــنة) فيه بالمعنى المعروف كما فى أقطار البحر المتوسط – سوريا أو الأناضول أو إيطاليا، لأنه فى تلك البلاد عُنصر الحاضرة أو المدينة قوى جداً من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية – نذكر على سبيل المثال ما كان (للمدينة اليونانية) من شأن – فالمدينة هى الوحدة الاجتماعية فى أقطار البحر المتوسط.

ولكــن إذا انتقلــنا إلى الأقطار الزراعية – حيث يسود نظام الزراعة – فان الأمر يختلف عن ذلك– ففي السودان كما فى مصر الحاضرة قليلة الأهمية نسبياً– فقبل القرن التاسع عشر مثلاً لا نكاد نجد مدينة سودانية لها شهرة من ناحية الشكل، أو المظهر أو النظام – فمعظم المدن السودانية عبارة عن قرى كبيرة، معظمها كان

١- محافظ المعية السنية محفظة ٤٧ رقم ٨٧٤ ف (٢٢ مارس سنة ١٨٧٤).

٢- أنظر الفصلين الأول والثانى من كتاب:

Dr. Felkin & others : Uganda & the Egyptian Sudan

– وكذلك عمر طوسون: تاريخ مدير خط الاستواء المصرية ص ٤٠١ وما بعدها وص ٤١٦ وما بعدها.

مبنيا على غير نظام، وأغلبها بالطوب (التى) أو الطين والقش والخشب - والغريب أن تبنى المبانى بالطين فى بلاد كثيرة الأمطار - فالأمطار كانت عادة تكتسح مبانى الاهالى فيعاد بناؤها من جديد، وكانوا يحفرون الحفر لأخذ الطين اللازم للمبانى ويترتب على ذلك أن تتخلف الأمطار والقاذورات فى الطرقات وتنتشر الأمراض.

ويُقال أن الخديو إسماعيل أرسل إلى (جعفر مظهر) حكمدار السودان اقتراحاً بنقل العاصمة (الخرطوم) إلى (جزيرة توتى) لصلاحيتها من حيث الصحة، فقد كتب له بتاريخ ٢٣ جمادى الأول سنة ١٢٨٣ يقول:

"لقد وصل إلى سمعنا أنه نظراً لانخفاض موقع الخرطوم، وكثرة الرطوبة فى جوها، يظل مناخها رديئاً جداً - أما الجزيرة التى تجاهلها، فهى - على الروايات الصحيحة- معتدلة الهواء للغاية، ومن حيث الموقع أصلح من الخرطوم لجعلها مركزاً، وقد فهمنا من إفادتكم الآنفه الذكر ومما وصل إلينا من الأخبار، أنه لا يوجد ببندر الخرطوم ما يستحق أن يُسمى بناءًا وأن أكثر منازلها من الطوب (النى) أو الطين، والبعض منها من القش وما إليه - وعليه فقد لاحظنا أنه من الهين نقل البلدة تدريجياً من موقعها الحالى إلى الجزيرة المقابلة، وأن فى ذلك فوائد جمة- فإذا كانت الجزيرة المذكورة تصلح أكثر من الخرطوم لاتخاذها مركزاً، أو كان فى الإمكان نقل الخرطوم إليها، فإننا نحيل على رأيكم وهمتكم أمر القيام بهذه العملية"[1].

ولكن (جعفر مظهر) لم يقر فكرة نقل العاصمة من الخرطوم، ووجه عنايته لتعمير وتجديد الخرطوم ذاتها- وكذا المدن الهامة الأخرى كدنقلة وبربر، والأبيض، وكسلا، وسواكن، ومصوع.

فأعاد تخطيط كل مدينة وأمر بزراعة الأشجار، وتيسير البناء بالحجر والخشب، واستخدم الجيش فى المحاجر ليتمكن الأهالى من الحصول على الأحجار، وكانت تعطى هذه الأحجار وكذلك الجير و(البلاط) والخشب للاهالى بتكاليفها دون ربح، لتشجيعهم على إقامة المبانى اللائقة - وأقيمت فى كل مدينة دار للمديرية - ومستشفى فى مكان طلق الهواء فسيح الجنبات، كما أنشئت الحدائق والمدارس والمساجد، وأقيمت قشلاقات للجند فى مواقع مناسبة بعيدة عن المدن ذاتها، وخططت الشوارع بحيث تكون منسقة ومنتظمة، وأشترط أن تكون المبانى بطريقة تتفق مع قواعد الصحة والهندسة، وعُملت مصارف لمياه السيول والأمطار.

١- مكى شبيكة: مرجع سابق ص ٦٨.

وقـد شهد الأوربيون الذين زاروا السودان بعد ذلك بالتغيير الكبير، الذى طرأ على مظهر المدن الكبرى.

ومـن المشـكلات التى واجهتها الإدارة المصرية فى محافظة البحر الأحمر، مشـكلة تدبير مياه الشرب للسكان، ففى سواكن مثلاً ومصوع كانت مصادر المياه بعـيدة عن المدينة – فدرس المحافظون مشروعات لإقامة الآلات الرافعة وأنشئت قنوات لنقل الماء، حيث أنشئت خزانات عند سفوح التلال لتتجمع فيها مياه الأمطار لتستخدم فى الزراعة، وأرسلت إلى هذه الجهات الأدوات اللازمة من مصر.

وهكـذا لـم يكـن اهتمام الإدارة المصرية بجمع المال ولكن برفاهية السكان وتدبير ما يحتاجون إليه، والاهتمام بمصالحهم الحقيقة.

خامسا: مكافحة الرق والنخاسة فى السودان

رغـم محـاولات محمد على وعباس وسعيد لكبح جماع تجار الرقيق، ورغم الجهـود التى بُذلت لتشجيع التجارة المشروعة والقضاء تدريجياً على التجارة غير المشـروعة– فقـد تضـافرت عوامـل عدة على بقاء الرق، وإنعاش هذه التجارة الكـريهة، حـتى ألّـف بعض الذين يمارسون هذه التجارة شركات كبيرة لمزاولة تجـارتهم هذه على نطاق واسع– ووصل نفوذ هذه الشركات، وما تحت إمرتها من قوات مسلحة وسفن ومعدات تستخدمها فى نشاطها، إلى أنه كانت تخضع لكل منها منطقة أو مناطق محددة لا تجرؤ قوة على مشاركتها النفوذ فى هذه المناطق.

الأسباب التى أدت إلى تطور تجارة الرقيق واتساع نطاقها:

١- فـتح النـيل الأبـيض للملاحـة ونمو التجارة فى هذه المناطق (تجارة النيل الأبـيض) كمـا يُسميها دوان (Douin)، وذلك نتيجة للتقدم العمرانى، وتقدم الحكومـة المصرية نحو منابع النيل نتيجة للحملات التى قادها البكباشى سليم قبطان فى الفترة ما بين (١٨٣٩، ١٨٤٣) والتى وصلت إلى قرب (غند كرو) علـى بحر الجبل، فتوافد على الخرطوم كثير من التجار العرب والأوربيين، وبـدأ نشـاطهم بطـريقة مشروعة بتبادل التجارة مع القبائل الساكنة فى تلك المـناطق، فيتسـلم الـتجار مـن تلك القبائل (من الشلوك والدنكا وغيرهم) حاصـلاتهم، وبالأخص العاج الذى يحصلون عليه من صيد الفيلة: ويعطونهم فى مقابلة مصنوعات من الحلى والزجاج وغيرها.

لكـن فسـدت علاقـة التجارة بالزنوج، وأساءوا معاملتهم، فصمموا على أن يصـيدوا الفـيلة بأنفسهم وأن يتعقبوها فى مواطنها– وقد أدى ذلك إلى قرار

الحيوان من وجه الصياد واختفائه فى مناطق بعيدة وعره من ناحية واصطدام قاس وبشع بتلك القبائل من ناحية أخرى.

٢- تدخــل رؤوس الأموال الأجنبية فى التجارة زاد نطاقها، فزاد النشاط وتنوع، كما تنوعت الأساليب والأسلحة المستخدمة.

٣- تطـور الأمر فأصبح صيد الرقيق (العاج الأسود) - كما يُسميه دوان- هو الأساس لأنه ظهر أنه هو الأكثر ربحاً من التجارة المشروعة، والاتجار فيه يتم أحياناً تحت اسم الاتجار فى العاج الأبيض، وهذه التجارة فى الرقيق كما ذكرنا تجارة قديمة ولكن نطاقها كان محدوداً لأن مزاوليها كانوا فى الغالب عـرباً محليين، أما الآن فقد أضيف إلى هؤلاء - التجار الأجانب ورؤوس الأمـوال الضخمة التى أدخلت للاستغلال فى هذا المجال وتنوعت أساليبها فاتسع نطاق هذه التجارة، ويصف مسيو (داون) قيام الحملات لصيد الرقيق فـى الخمسـينات مـن القرن الماضى من الخرطوم فى مواسم معينة، كما يصـف السـفن التى تستخدم فى العملية وكيفية تجهيزها، وأما التجار الذين يعملـون فى هذا الميدان فهم خليط من كل الأجناس منهم عربان من القدماء المشـتغلين بـتلك الـتجارة من زمن، ولكن أهميتهم نقصت بالنسبة للتجار الجدد، ومنهم اليابانيون والفرنسيون والانجليز ومنهم المالطى ورعايا النمسا وغـير ذلـك، بـل كان منهم قناصل أو موظفون بالقنصليات الأجنبية التى فتحت فى الخرطوم.

ورغم أن (الخرطوم) نفسها كانت مقراً لهؤلاء التجار فإنهم أقاموا فى أعالى النـيل علـى الضفتين لغاية (غندكرو) نفسها- مواقع محصنة تابعة لهم، يُقيم فيها وكـيل دائم لكل منهم، وبها عسكر مقيمون طوال العام- ويُطلق على كل موقع من هـذه المواقع اسم (زريبة)، والزريبه موقع محصن ويستخدم بصفة وكالة للتاجر، يضـع فـيها مهماتـه ويـتلقى فـيها نتائج الصيد، ويبعث كل عام بما يتجمع إلى الخـرطوم. ويبعث هؤلاء التجار بالحملات النهرية المسلحة تتوغل لمسافات بعيدة متسللة أحياناً تحت ستار محالفة بعض القبائل ضد البعض الآخر ثم تُهاجم قرية من القرى فتفاجئها ليلاً، وتحيط بالقرية ثم تشعل النار فى أكواخ الزنوج لإجبارهم على الهـرب وترك أكواخهم فيقتل من يقتل ويُؤسر من يؤسر- ويُقاد الأسرى للزريبة، وكـان هناك نظام معين فى دفع أجور العسكر المشتركين فى الغزوة وفى تصنيف الأسرى من الرقيق.

من أسباب عدم فاعلية الوسائل التى استخدمت للقضاء على الرق:

١- الحكام فى مصر والسودان لم يكونوا يُقرون وجهة النظر الأوربية فى التحريم- وقد قيل إن هناك تواطؤا بين التجار وعمال الحكومة- وإن الحكومة كانت تغض النظر إذا لجأ التجار للطرق البعيدة عن العاصمة لنقل بضائعهم المحرمة.

٢- عدم اقتناع الناس بعدالة التحريم، والقانون لا قيمة له إن لم يستند على اقتناع الناس به.

٣- المجتمع نفسه قائم على هذا الوضع، فالخدمة المنزلية يقوم بها العبد أو الجارية، ولم يروا أن فى هذا أمراً مستنكراً.

٤- الأرباح الطائله التى كانت تدرها هذه التجارة مما شجع على تحمل التضحيات التى تبذل فى سبيلها.

٥- إقليم مثل (دارفور) لم يكن قد خضع للحكم المصرى بعد وكان مركزاً هاماً من مراكز الرقيق.

٦- صعوبة المواصلات لا تسمح بالرقابة الشديدة.

٧- كان الأمر يحتاج - كما ذكر قنصل بريطانيا فى الخرطوم- إلى إنشاء محطات رئيسية وبوليس نهرى لمنع هذه التجارة المحرمة.

فحين تولى إسماعيل الحكم فى عام ١٨٦٣ كان الوضع كما رأيناً فيما يتعلق بنشاط تجار الرقيق- وفى نفس الوقت كان الرأى العام العالمى قوياً فى استنكاره لهذه التجارة البشعة، ووقع إسماعيل تحت ضغط متزايد من مختلف الحكومات، وخاصة الحكومة الانجليزية التى ألحت على الخديو ليتخذ إجراءات فعالة للقضاء نهائياً على تجارة الرقيق فى السودان.

ومن الإجراءات التى اتخذها إسماعيل فى هذا السبيل:

١- أصدر أوامر إلى حكمدار السودان (موسى حمدى) بمنع الإتجار فى الرقيق وباتخاذ الإجراءات لمراقبة ومصادرة مراكب النخاسة فى النيل الأبيض، ولما وصل لعلم الخديو إسماعيل أن مدير (البحر الأبيض) بدلاً من أن يعمل بأوامر الحكومة المتعلقة بمنع تجارة الرقيق، يقوم هو بنفسه بالاتجار فى الرقيق - أصدر أمره بعزله وإرساله إلى (فازوغلى) ليُعقل هناك ويعمل بالأشغال الشاقة ليكون عبرة للاخرين[١].

١- دفتر معية تركى ٥٥٨ وثيقة رقم ٣٣ - بتاريخ (٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨١).

وتنفيذاً لهذا الأمر أنشأ موسى حمدى (مراكز مسلحة) على طول النيل الأبيض لمراقبة المراكب الغادية والرائحة فى النهر.

واتخذ مدير النيل الأبيض (البحر الأبيض) مقره فى (فاشوده) ووُضعت سفينتان بُخاريتان فى النهر للقيام بأعمال الملاحة والرقابة فيه[1].

٢- شُددت الرقابة على السفن فى (البحر الأحمر) لمنعها من نقل الرقيق من سواكن ومصوع وغيرها من موانى البحر الأحمر على الشاطئين الافريقى والعربى، وصدرت الأوامر بتحقيق كل شكوى يتقدم بها قناصل الدول بالخرطوم فى ذلك الشأن، ورغم هذا فقد ظل القناصل متمادين فى اتهام الإدارة المصرية بأنها تغض نظرها عن القائمين بهذه التجارة- وقد ثبت أن انجلترا اتخذت من مسألة تجارة الرقيق ذريعةً للتدخل فى شئون الجهات الخاضعة للإدارة المصرية، وفى السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر بحجة تفتيش السفن التى تشتبه فى أنها تنقل الرقيق[2].

٣- ليحقق إسماعيل نتائج حاسمة فى مكافحة فى مكافحة الرق وجد أن الأمر يستلزم مد سلطة الحكومة إلى أعالى النيل، ومنطقة البحيرات الاستوائية، والى دارفور وبحر الغزال، والسودان الشرقى، و(هرر) والمنافذ المطلة على البحر الأحمر (كسواكن، ومصوع، وزولا، وتاجوره، وزيلع، وبلهار، وبربره)، بل حاول أيضاً أن يضم ساحل الصومال الشرقى حتى (قسمايو)، وبذلك يقضى على الرق فى مواطنه، يوقف نشاط تجارة الرقيق- وكانت كل جهة من الجهات التى يمتد إليها النفوذ المصرى يُنبه على من يوكل إليه أمر إدارتها بمنع تجارة الرقيق منعاً باتاً بجهته[3].

٤- فُرضت رقابة شديدة على دخول الأسلحة النارية إلى السودان، وطُلب من قناصل الدول فى الخرطوم، رفع حمايتهم عن تجار الرقيق من العرب والأوربيين.

٥- اشترت الحكومة (الزرائب) من أصحابها وأجرتها للتجار ليزاولوا فيها التجارة المصرح بها، وقد بلغ ما دُفع ثمناً للزرائب المشتراة فى زمن حكمدارية جعفر مظهر باشا (مائة ألف جنيه).

1- Hill: Op. Cit. P. 124

٢- محافظ الـ (F.O) بالمحفوظات التاريخية بعابدين خطاب فرنسى مؤرخ (٩ يناير ١٨٧٤) وترجمته بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ١٤٤.

٣- دفتر ٢٢ معية عربى ص ٢١ فى (١٩ صفر ١٢٩٤) من المعية السنية إلى أبى بكر باشا محافظ زيلع.

علـــى أن الحكومة المصرية كانت تهدف من كل هذه الإجراءات التى اتخذتها إلـــى التضـــييق علـــى تجار الرقيق حتى يُقضى بالتدريج على هذه التجارة- ولم تستصـــوب الحكومـــة فى المبدأ إتخاذ سياسة العنف التى تعتمد على وسائل القمع والإرهاب، لأنها كانت تخشى أن تؤدى مثل هذه السياسة إلى إثارة التذمر والسخط.

وأُضـــطر إســـماعيل تحـــت ضغط إنجلترا إلى أن يعهد بالأمر فى المناطق الحساســـة إلى أجانب، فعهد إلى (صمويل بيكر) فى عام (١٨٦٩) بالأمر فى النيل الأعلـــى، وكانـــت التعليمات التى صدرت إليه تقضى بأن يفتح الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من (غندكرو)، وينشئ بها سلسلة من المحطات المسلحة للسهر على الأمن ومراقبة نشاط النخاسين، وتجار الرقيق ويفتح هذه البلاد للتجارة المشروعة.

وقـــد جاء فى الأمر الصادر إلى صمويل بيكر بتعيينه رئيساً لحملة المصرية على ما يلى:

"نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة فى حوض نهر النيل، ونظراً لأن النواحى المذكورة ليست بها حكومة ولا قوانين ولا أمن، ولأن شرائع الإنسانية تفرض منع النخاسة، والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة فى تلك النواحى، ولأن تأســـيس تجـــارة مشروعة فى النواحى المشار إليها يُعتبر خطوة واسعة فى ســـبيل نشـــر المدنـــية، ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاســـتواء بواسطة المراكب التجارية، ويساعد على إقامة حكومة ثابتة - أمرنا بما هو آت:

تؤلـــف حملـــة لإخضاع النواحى الواقعة جنوب غندو كرو لسلطتنا، ولإبطال النخاسة وإيجاد تجارة منظمة بها ......"[١].

وخلـــف بيكر فى هذه المهمة (غوردون) فى فبراير ١٨٧٤ وقد جاء أيضاً فى التعليمات التى أعطيت لغوردون بخصوص مأموريته ما يلى:

"إن المديـــرية الـــتى شرع (أمير الآى غوردون) فى مباشرة تنظيمها وحكمها كانـــت واقعـــة بين مخالب قوم من الأفاقين همهم فقط الحصول على الأرباح غير المشـــروعة، فكـــانوا يـــتجرون بالعاج والرقيق وذلك بأن ينشئوا متاجر يديرونها بواســـطة رجـــال مســـلحين.... وكانت الحكومة المصرية قد استولت على مكاتب أولـــئك التجار بعد أن دفعت تعويضات لأربابها، مؤملة أن تتوصل من وراء ذلك إلـــى وضع حد لهذه التجارة الممنوعة المنافية لشروط الإنسانية .... وكان قد أتيح

١- عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ج ١ ص ١٣.

لبعض هؤلاء أن يستمر فى إقامة متاجره فى المراكز بعد أن قطع على نفسه عهوداً بالا يتجر فى الرقيق، ووضع بعد ذلك تحت مراقبة حكمدار السودان .... غير أن سلطة الحكمدار لم تكن قد تمكنت إلا قليلاً من جعل الناس تشعر بها فى تلك الأقطار النائية.... لذلك قرر الخديو أن يؤلف من هذه الإرجاء حكومة منفصلة وأن يجعل تجارتها مع الخارج كاحتكار من حق الحكومة"(١).

وقد أوضح الخديو لغوردون مهمته هذه فى رسالة بعث بها فى سبتمبر (١٨٧٥) جاء فيها "إن مهمة بعثته تنحصر فى العمل لاستتباب الأمن والسلام والقضاء على تجارة الرقيق، وفتح هذه البلاد الشاسعة للتجارة الأوربية"(٢).

وفى أغسطس (١٨٧٧) أبرمت بين مصر وانجلترا (معاهدة إلغاء الرقيق) بقصد منع تصدير الرقيق وإنزال عقوبة صارمة بالمتجرين بهذه التجارة، وتسليم الأجانب منهم ليحاكموا أمام المحاكم المختلطة، كما أعطى للسفن البريطانية حق تفتيش السفن المصرية فى البحر الأحمر وخليج عدن، للتأكد من عدم وجود رقيق بها، وتسليم أصحاب السفن التى يُضبط بها رقيق للسلطات المصرية لمحاكمتهم(٣).

وصدر أمر من الخديوى يُعطى لتجار الرقيق فى مصر مهلة سبعة أعوام، وفى السودان اثنى عشر عاماً لتصفية أعمالهم.

ولما كان غوردون قد عُين فى فبراير (١٨٧٧) حمكداراً على السودان فقد كان عليه أن ينفذ سياسة الإلغاء المتفق عليها، والحقيقة أن سياسة الإلغاء المعتمدة على (القوة والعنف)، والسياسة الأخرى التى كانت ترى الحكومة المصرية فى بادئ الأمر أنه يجب إتباعها للقضاء تدريجياً على الرق والنخاسة، يُمثلان اختلافاً فى وسيلتين لتحقيق الهدف المنشود- لكن العمليات العنيفة ضد تجار الرقيق أدت لإثارة التذمر والسخط فى كل مكان وكانت من عوامل اندلاع الثورة فى النهاية.

وقد أسرع غوردون بنشر معاهدة إلغاء الرقيق المبرمة بين الحكومة المصرية والانجليزية، وما تتضمن من عزم الحكومة على إبطال تجارة الرقيق إبطالاً تاماً خلال سنوات قليلة.

١- عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ج ١ ص ١١٠.

- ونص الخطاب موجود بالفرنسية فى محافظ الـ (F.O) بعابدين محفظة (١/٧١).

٢- محافظ الـ (F.O) بعابدين محفظة (٤/٧١) خطاب بالفرنسية موجه من الخديوى إسماعيل إلى غوردون.

٣- إسماعيل سرهنك (باشا): حقائق الأخبار فى دول البحار ج ٢ ص ٣٤٧.

- (نشر نص المعاهدة) د. محمد فؤاد شكرى: مصر والسيادة على السودان ص ١١٧.

وعينت الحكومة المصرية (قوة بوليسية) بحرية لمراقبة سفن تجار الرقيق فى البحر الأحمر، وعُين الضابط البحرى الانجليزى الكابتن مالكولم (Malcolm) رئيساً لهذه القوة[١].

واتخذ هذا الضابط إجراءات صارمة ضد كل من أُتهم بالاتجار فى الرقيق دون مراعاة لما قد تسببه هذه الإجراءات من اضطراب، حتى أنه قبض على بعض أبناء وأفراداً أسرة محافظ زيلع (أبوبكر شحيم)، وأودعهم السجن، وأحال قضيتهم على حكمدار السودان، الذى أضطر لأن يطلق سراح المسجونين حشية إثارة القلاقل، مما أدى لاستقالة (مالكوم)، واضطر غوردون أن يأخذ على عاتقه تبعة تنفيذ معاهدة إلغاء الرق، وأدى هذا الاتجاه لإرضاء الحكومة الانجليزية دون تبصر فى النتائج – إلى عده تصرفات خاطئة وعنيفة من غوردون، إذ عمد إلى مصادرة أموال عدد كبير من كبار التجار الذين اشتهروا فى الماضى بالاتجار فى الرقيق، ثم طرد طائفة كبيرة من كبار الموظفين المصريين والسودانيين من الخدمة بناءًا على وشايات ضدهم، إذ قيل له إن جميع الموظفين المصريين والسودانيين فى حكمداريته يتجرون بالرقيق[٢].

ولم يكلف غوردون نفسه مشقة التحقيق فى التهم المنسوبة إليهم، فاستبدلهم بأوروبيين من أمثال : الايطالى جيسى (Gissi) الذى عُين مديراً لبحر الغزال، وسلاطين (Slatin) النمساوى الذى عُين مديراً فى دارا، والايطالى اميليانى (Emilliani) الذى عُين مديراً فى كيكبية، والالمانى رسوى (Rosset) الذى عينه مديراً لدافور، والايطالى مسيداليا (Messedaglia) الذى خلف روسى فى دارفور، والالمانى جيلكر (Gieglar) الذى عينه مفتشاً على عموم تلغرافات السودان، والامريكى بروات (Prout) الذى عينه فى مديرية خط الاستواء، والالمانى الدكتور شنتزر (Schnitzer) الذى عينه بعد (براوت) فى مديرية خط الاستواء، وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وتسمى باسم (أمين باشا).

وترتب على ذلك أن سادت موجه التذمر والكراهية ضد الحكومة وقد قُرنت هذه الحركة بالعامل الدينى، فأصبحت توصف حركة العنف التى اتبعتها الحكومة فى السودان ضد الرقيق والنخاسة بالحركة التى يشنها (الكفار)، ودخل فى روع أهل السودان أن تحرير مواليهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الأجانب

١- عابدين – دفاتر المعية– دفتر ١٨ (أوامر عربى) رقم ٥٢ – أمر إلى حكمدار السودان فى (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٤).

2- Slatin : Fire & Sword in the Sudan P. 55.

بمــثابة اضــطهاد دينى، وأيد بعض المشايخ هذا الاتجاه بأدلة وشواهد مقبولة لدى البسطاء، وهكذا انتشرت الفتنة.

وقــد بدت مقدمات هذه الفتنة فى الثورات التى سبقت الحركة المهدية، والتى شــملت أجزاء مختلفة من السودان، كثورة (سليمان بن الزبير) الذى عُين من قبل غــوردون مديراً على بحر الغزال، وثورة (صباحى) أحد قواد الزبير السابقين فى كــردفان، وثــورة (الســلطان هارون) من أسرة سلاطين دارفور السابقين، وكان معتصماً فى جبل مره.

وأضطر غوردون لأن يرسل حملة بقيادة (جيسى) للقضاء على ثورة (سليمان ابــن الزبــير)، وانتهى الأمر بتسليم سليمان ثم قتله مع بعض رفاقه فى ٢٩ يوليو ١٨٧٩، كمــا أرســل (مسيدالبا) ثم (اميليانى) و(سلاطين) للقضاء على الثورة فى دارفور – وانتهى الأمر بقتل هارون فى يوليو سنة ١٨٨٠، كما قاد غوردون نفسه حملة هزمت (صباحى)، وانتهى الأمر بإعدامه[1].

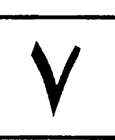
علــى أن القضــاء علــى هذه الثورات لم يكن يعنى انتهاء موجه التذمر، فقد نشــرت سياســة العــنف الــتى أتبعت لإلغاء الرقيق – الفوضى والاضطراب فى الســودان، وانتشرت موجه التذمر الشديد والكراهية العميقة ضد الحكومة فى طول الــبلاد وعرضــها، وكانــت النتيجة الطبيعية أن مهدت هذه الحالة لاندلاع الثورة المهدية والتفاف الناس حولها.

وقــد أدرك غوردون نفسه أن هذه السياسة التى أتبعت من الأسباب القوية لاندلاع الثورة المهدية، ولذا فقد حاول أن يُخفف من آثار هذه السياسة حين عاد للسودان- بعد اندلاع الثورة واستفحال أمرها- لسحب الحاميات المصرية منه، فأعلــن قــبل وصــوله إلى الخرطوم، وقف العمل بهذه الإجراءات، كما حاول اصــطحاب (الزبير رحمت باشا) معه للسودان، وألح فى ضرورة إرساله ولكن الحكومــة الانجلــيزية – تحــت ضــغط الــرأى العــام الانجليزى الذى كان ينظر للزبير باشا على أنه من كبار تجار الرقيق- لم توافق على رأى غوردون هذا.

١- أنظــر قصة ثورة (سليمان بن الزبير) والحرب بينه وبين جيسى كما يرويها الزبير باشا فى كتاب: سعد الدين الزبير: الزبير باشا رجل السودان ص ١٢٣ وما بعدها.

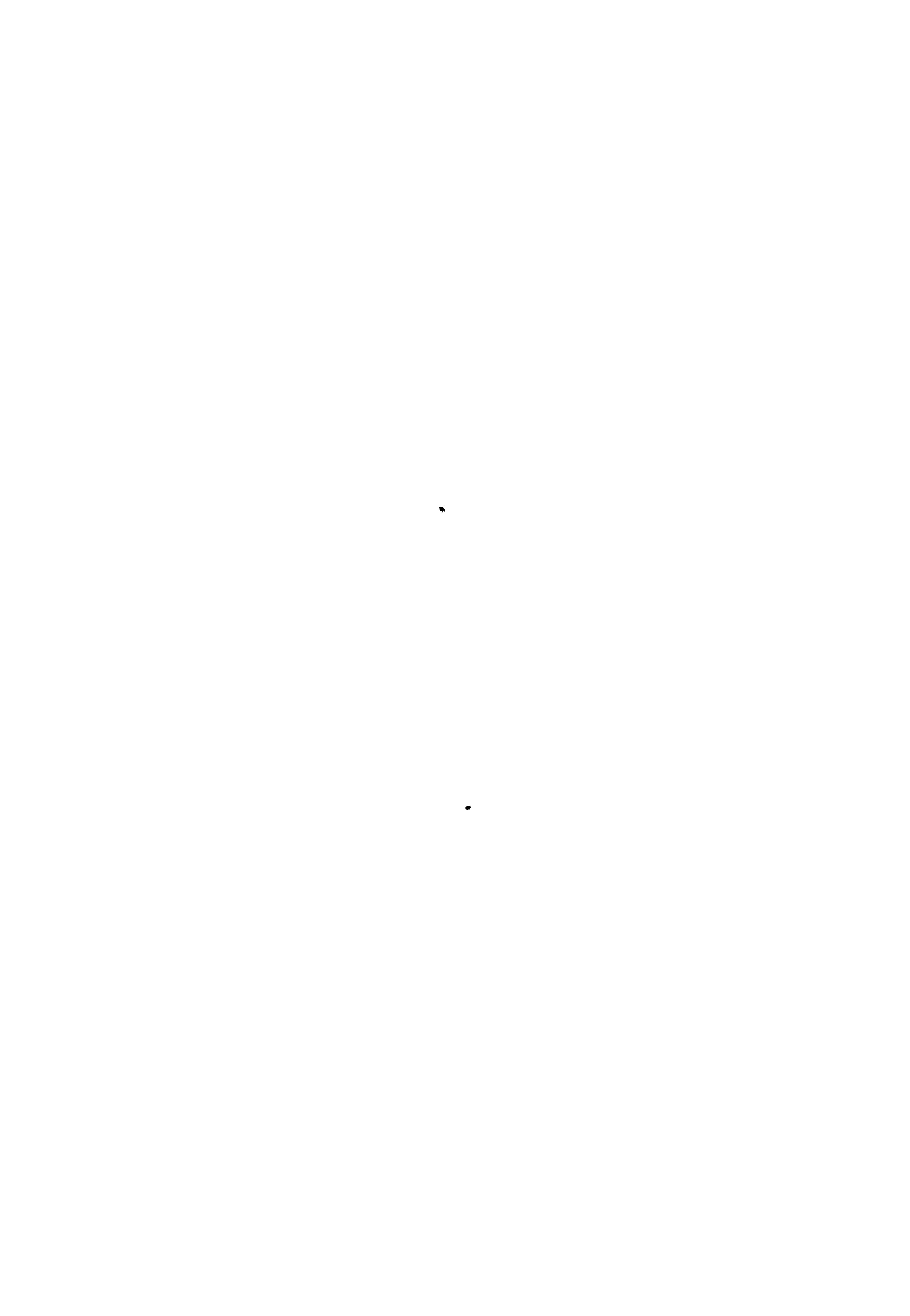
- وكذلــك دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات – عدة تلغرافات واردة من غوردون حكمدار السودان بخصوص ثورة سليمان بن الزبير (بتاريخ ٧ يوليه، ٢٤ أغسطس، ٢٥ أغسطس ١٨٧٨).

وانتهى الأمر - كما سنرى- بانتشار الثورة واستيلاء المهديين على أغلب مدن السودان، وبالتالى انتعشت تجارة الرقيق واستفحل أمرها، حتى أنه قيل إن من أسباب التفكير الجدى فى إرسال حملة لاسترداد السودان، استياء الرأى العام العالمى للنكسة التى أصابت الجهود التى بُذلت للقضاء على الرق والنخاسة فى السودان.



الفصل السابع
امتداد الإدارة المصرية
فى السودان لمناطق جديدة

- ضم بحر الغزال ودارفور للإدارة المصرية.
- الزبير رحمت وجهوده فى هذا المجال.
- ضم بحر الغزال.
- ضم دارفور.



الفصل السابع

امتداد الإدارة المصرية فى السودان لمناطق جديدة

ضم بحر الغزال ودارفور للإدارة المصرية

بعد أن استقرت الإدارة المصرية فى السودان، كان طبيعياً أن يتجه التفكير إلى مد نفوذ هذه الإدارة إلى حدود السودان الطبيعية فى الشرق، والغرب، ثم فى الجنوب صوب منابع النيل.

ومن جهة الغرب كانت سلطنة (دارفور) المستقلة - رغم أن الفرمانات لمحمد علـــى أدخلـــتها ضـــمن أملاك مصر - وكان على دارفور سلطان يُدعى (السلطان إبراهـــيم)، وكـــان هـــذا السلطان يعتبر بعض المناطق الواقعة بين دارفور، وبحر الغـــزال- والتى يسكنها (عرب الرزيقات) - تابعة لسلطانه، وكانت دارفور وبحر الغزال تعتبران من أكبر مراكز الرق والنخاسة فى السودان.

ويرجع فتح دارفور وضمها للإدارة المصرية إلى جهود (الزبير باشا رحمت) كما يرجع إليه الفضل أيضاً فى ضم إقليم (بحر الغزال).

والزبـــير باشا كان فى الأصل من أكبر تجار السودان، واشتهر بتجارة العاج والرقيق، وهو من قبيلة (الجميعاب) نسبة إلى (جميع)، وهى قبيلة عربية ترجع إلى جدهـــا (جمـــوع بـــن غـــانم)، وقد رحل هذا الأخير من بغداد فى عام ١٢٥٨ بعد تخريب المغول لها بقيادة (هولاكو)، فحط رحالة فى الشام ومنها مضى إلى مصر، ورحل بعشيرته إلى الجنوب حيث استقرت تلك العشيرة التى انحدر منها الزبير بن رحمت بن على بن سليمان- بين جبل (مرى) وجبل (الشيخ الطيب)[1].

مولد الزبير رحمت :

ولد الزبير فى الثامن من يوليو (١٨٣١)، ولما بلغ السبعة أرسله أبوه لمدرسة الخرطوم ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن، وحين بلغ سن الشباب كان قد أجاد ألعاب الروسية كعادة شباب القبائل العربية، وكان يقضى الأيام الطويلة فى الغابات للصيد، وفى الخامسة والعشرين من عمره اشتغل بالتجارة، وتزوج بابنة عمه.

مغامراته :

وتـــبدأ مغامـــرات الزبـــير فى السودان حين اتصل فى سبتمبر عام (١٨٥٦) بتاجر أصله من بلدة (نجع حمادى) فى صعيد مصر، ولكنه انحدر للجنوب وأصبح

١- سعد الدين الزبير (قائمقام) : الزبير باشا رجل السودان ص ٩٩ وما بعدها..

من أكبر تجار بحر الغزال، وهو (على أبو عمورى) وقد انتهى الأمر بأن أصبح الزبير وكيلاً عن (أبى عمورى)، ثم شريكاً له فى تجارته.

وفى عام (١٨٥٨) استقل الزبير بتجارته، وبدأ يقلد كبار التجار، فيبحر من الخرطوم بما معه من الخرز – على اختلاف ألوانه وأنواعه أو الودع والقصدير متجهاً صوب (مشروع الرق) على بحر الغزال، حيث يُقايض عليه بسن الفيل والخرتيت وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس والرقيق وغيرها، ثم يعود بها إلى الخرطوم حيث يبيعها وهكذا[١].

واتسعت تجارة الزبير بعد أن استقل بتجارته، وصار يتوغل فى أحراش الجنوب إلى بلاد (نيام نيام)، وسط القبائل من آكله لحوم البشر حيث لا تكاد قيمة العاج تذكر لكثرته هناك.

وتزوج الزبير مرة أخرى ابنة السلطان (تكمه) سلطان بلاد (نيام نيام) ولكن السلطان أوجس خيفة من زيادة سلطة الزبير، واضطر الزبير للرحيل عن بلاد (نيام نيام) إلى منطقة أخرى فى بحر الغزال، كان عليها ملك يدعى (دوية)، وقامت حرب بين الزبير ورجاله من ناحية وبين جيوش هذا الملك من ناحية أخرى انتهت بانتصار الزبير وقتل ابن الملك المدعو (شكو)، وكان قد خلف أباه فى الحكم– وبذا امتلك الزبير هذه البلاد، واتخذ من عاصمتها التى كانت تعرف باسم (بايه) والتى أصبحت بعد ذلك تُعرف باسم (ديَم الزبير) – عاصمة له، ودانت له جهات بحر الغزال، وتقاطر الناس إليه للانتظام فى خدمته، فجمع لنفسه جيشاً قوياً لتأييد سلطته، وتدعيم تجارته فى الرقيق والعاج[٢].

وعمد الزبير إلى تأمين الطريق التجارى بين بحر الغزال وكردفان، بعد أن فرض رسماً معيناً يدفعه التجار لمشايخ عرب (الرزيقات) الواقعين فى طريق التجارة– وأدى هذا إلى ازدهار التجارة فى بحر الغزال، وكثرة البضائع الواردة لأسواقها.

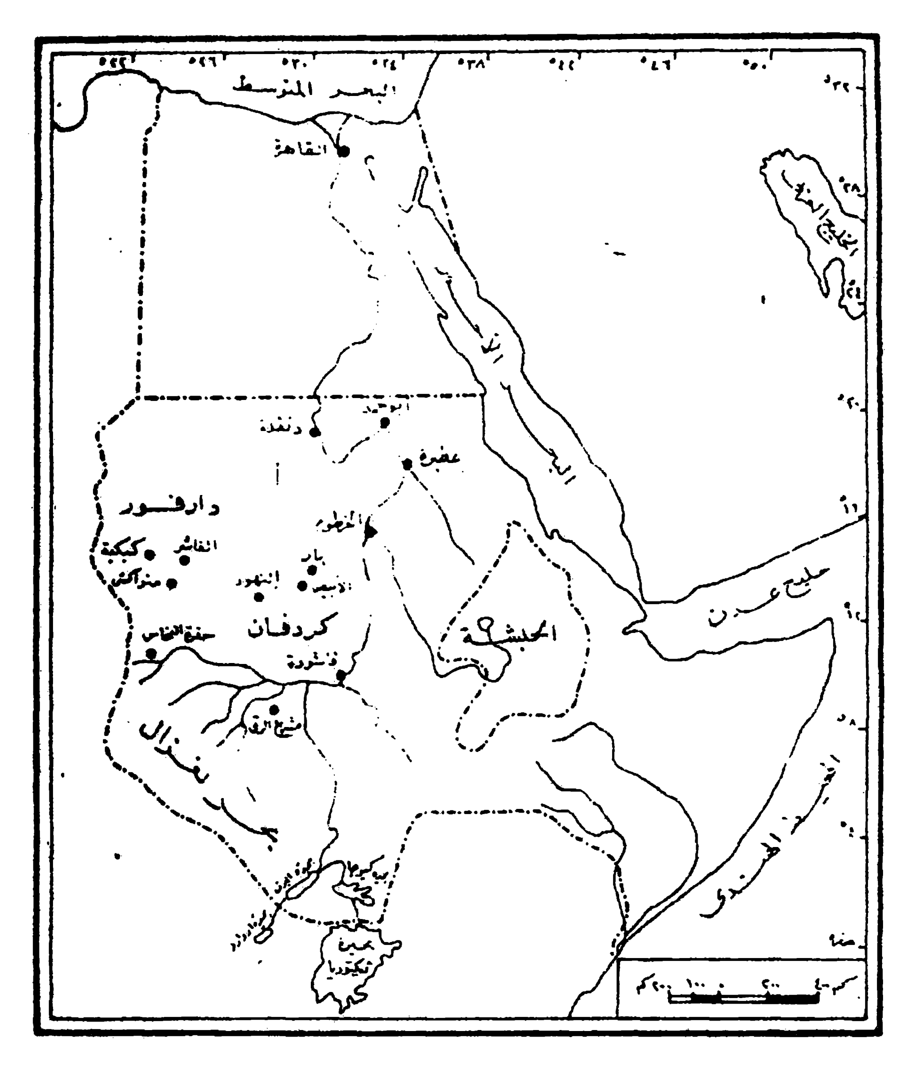
١– سعد الدين الزبير (قائمقام): الزبير باشا رجل السودان ص ٣٩

ملاحظة: تناول هذا الكتاب بالتفصيل سيرة الزبير باشا وهو من وضع ابنه (القائمقام سعد الدين الزبير) – لكنه يقول إنه استعان فيه بالمذكرات التى كتبها الزبير باشا نفسه بخطه فى الحقبة التى عاش فيها بحلوان.

– كذلك أنظر: إبراهيم فوزى باشا: السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج ١ ص ١٣٦.

– وكذلك. Sabry: L, Empire Egyptien sous Ismail P. 441

٢– نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته – ج ٣ ص ٦٠ وما بعدها.



شكل رقم (٤) امتداد الإدارة المصرية لبحر الغزال ودارفور

ضم إقليم بحر الغزال للإدارة المصرية

فـــى ســـنة ١٨٦٩ بعثت الحكومة المصرية لبحر الغزال رجلاً يُدعى (محمد البلالى)، ومعه جيش نظامى يتكون من مائتين من الجنود السودانيين بقيادة الصاغ (محمد منيب)، وأربعمائة من العساكر النظاميين بقيادة اليوزباشى (كوتشوك على)، وذلـــك لاحـــتلال هـــذا الإقليم باسم الحكومة الخديوية، وكان محمد البلالى قد قابل الخديو إسماعيل أثناء وجوده فى القاهرة، وقدم نفسه على أنه المالك لمناجم النحاس

الموجـــودة فى جنوب دارفور فى المنطقة المعروفة (بحفرة النحاس) وأنه قد وهُب هذه الأرض من سلطان دارفور نفسه، وزين للحكومة وجوب احتلال بحر الغزال، فُسمح له بذلك ووضعت تحت إمرته هذه القوة لتحقيق هذا الهدف، ولكن- كما يقول الدكتور (شواينفورث) فى كتابة "قلب أفريقياً" - لم يلبث أن اتضح أن كل أقواله لا تعـــدو أن تكون مجرد ادعاءات كاذبة لنصاب مخادع، فهو لا يمك أرضاً مطلقاً فى هـــذه المـــنطقة، ولم يُعط أيه هبة من الأرض من سلطان دارفور، ولقد تسبب فى كراهيته جميع الاهالى هناك له بادعائه ملكية الاراضى الواقعة جنوب دارفور، وما ألقى الشك فى صحة ملكيتهم للأرض التى بنوا عليها زرائبهم[١].

ولمـــا طالـــب محمـــد الـــبلالى كبار التجار بتسليم زرايبهم وممتلكاتهم كلها للحكومـــة، رفضوا بتحريض الزبير- كان تحت إمرة الزبير فى ذلك الوقت جيش كبـــير يبلغ تعداده أربعة آلاف رجل من العبيد الذين دربهم على القتال، تحت قيادة قواد اشتهرت منهم أسماء (رابح فض الله) و(موسى ود الحاجى).

ولـــذا أضـــطر (محمد البلالى) إلى توقيع معاهدة للسلام بينة وبين الزبير فى انـــتظار الـــنجدة الـــتى أرسل يطلبها من حاكم عام السودان- وقد وصلته بعد عام تقريباً من طلبها فرقتان من الجند ومعهما مدفع واحد.

وكان وصول هذه القوة دافعاً لأن يحاول (البلالى) التخلص من الزبير، فانتهز فرصة خروج الزبير لمحاربة خصم له يُدعى (جلجاوى) – وهو احد تجار الرقيق وكـــان قد هاجم مخزناً للزبير وقتل بعض أتباعه- فأسرع (البلالى) يُهاجم عاصمة الزبـــير (ديم الزبير) منتهزاً فرصة تغيبه، وأشعل النار فى قلاعها ومخازنها حتى التهمت كل مخازنه، وإن كانت قد نجت من الحريق مخازن الذخيرة والسلاح التى ظهر أن الزبير كان حريصاً على أن يجعلها تحت سطح الأرض[٢].

وأدى هـــذا لإســـتئناف القتال بين الطرفين، فنشبت بينهما معركة قاسية رهيبة اســـتعملت فـــيها الســـيوف والعصى والبنادق والخناجر، وانتهت المعركة بمصرع (محمـــد الـــبلالى) فى أبريل (١٨٧٢) وأصيب الزبير فى المعركة إصابة بالغة فى

1- George Schweinfurth : n The Heart of Africa Vol IIP.P 195, 196 & 197

– وكذلك Budge: The Egypian Sudan Vol 2. P. 232

٢- كـــلمة (ديم) فى الأصل كانت تطلق فى السودان على (الزريبة) وهى عبارة عن مكان مخصص كان يستعمل مركزاً لتجارة العـــاج والعبيد، وغيرهما – وكان لكل من كبار التجارة بالسودان (زريبة) أو أكثر ويقوم على حراستها عدد من الرجال المسلحين.

قدمـه اليمـنى، اضـطرته إلى أن يعود إلى عاصمته محمولاً على أكتاف رجاله، وكـادت هـذه الإصابة تقضى عليه، وكان يتردد عليه أحد (حكماء) دنقله، (أحمد القرصانى) ليعالجه باستخدام بعض الأعشاب حتى اندمل جرحه[1].

وبعـث الزبـير بعـد انتصاره على (البلالى) إلى جعفر باشا حاكم السودان بتفاصـيل مـا دار بيـنه وبين هذا الرجل، ويُقال أن جعفر مظهر نصح الحكومة المصـرية بأنـه مـن الأسلم عدم إظهار العداوة (للزبير بن رحمت)، وكان خبر انتصـاره قـد شاع فى أرجاء السودان كلها، مما أدى لزيادة عدد أتباعه حتى بلغ جيشـه فـى نهاية عام (١٨٧٢) إثنى عشر ألف رجل، وأصبح إقليم (بحر الغزال) كله تقريباً يدين له بالولاء[2].

زاد مـن قـوة (الزبـير رحمت) وإتساع ملكه انتصاره على سلطان (تكمه) سلطان بلاد (نيام نيام) وقد بدأت الحرب بينهما فى أوائل عام (١٨٧٢) كما ذكرنا- رغـم المصاهرة بينهما- واستغرقت ثلاثى عشر شهراً بأكملها، فقد أرهقت قوات الزبـير طريقة الإشارة التى كان يتبعها هذا السلطان لنقل أخبار الزبير وجيشه من قرية لأخرى، وبمقتل السلطان (تكمه) وعمه (ماريوه) دان للزبير ثمانية من ملوك (نيام نيام)، وأدى اتساع ملك الزبير إلى اتساع تجارته أيضاً.

وقـد زار الدكـتور (شواينفورث) المكتشف والعالم الطبيعى الزبير فى مقره، فكتب يصف ما رآه خلال تلك الزيارة بقوله:

"أحاط الزبير نفسه بحاشية لا تقل فى مظهرها عن حاشية الأمراء- وكان مقره الخاص مؤلفاً من مجموعة من الأكواخ المربعة الكبيرة المتينة البُنيان يُحيط بها سياج مـن نـباتات عالـية، وتضـم فى نطاقها إدارات الحكم المتباينة التى يقوم الحرس المسـلحون أمامها ليل نهار، وثمة أجنحة خاصة ملحقة بها، ومفروشة بأرائك مكسوة بالسـجاد، يقـود إليها الضيوف عبيد فى ثياب ثمينة، يقدمون لهم القهوة و(الشربات) و(الشـبك)، وكان يضاعف من أبهة هذه القاعات الرسمية وجود بعض أسود مغلولة بسلاسـل ضـخمة ومتينة - وكان السيد نفسه يضطجع على أريكة وراء ستار، فى كوخ يقوم فى الوسط تماماً من هذه الأكواخ ويقف خارجة العبيد ليلبوا أى نداء".

١- عابدين – وارد المعية دفتر ١٨٥٩ (عربى) رقم ٨ فى (غرة شوا ١٢٨٨).

- وكذلك دفتر ١٨٦٢ صادر معية صفحة ١٧ فى (١٦ ذى القعدة ١٢٨٩).

٢- تطلق عليه بعض المراجع اسم (محمد الهلالى بدلا من البلالى)

أنظر Hill: Op. Cit. P. 135

اتسع سلطان الزبير بعد ذلك بفتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور، وكان يسكنها جماعة من عرب الرزيقات، وكان السلطان (إبراهيم محمد حسين) سلطان دارفور فى ذلك الوقت يعتبر هذه البلاد تابعة لسلطانه، وكان الزبير كما ذكرنا قد عقد مع زعماء الرزيقات معاهدة أقروا فيها بعدم التعرض للقوافل التجارية التابعة له والمارة ببلادهم فى طريقها لكردفان، ولكنهم نقضوا هذه المعاهدة، فخرج الزبير بجيشه لمحاربتهم، وقد لاقى الزبير الأمرين فى قتال عرب الرزيقات، وبلغت خسائره فى الرجال أكثر من سبعمائة رجل (بين ١٠ يوليو، ٢٨ أغسطس ١٨٧٣)، وذلك لأن عدوه كان يجيد استعمال الخيل فى قتاله، ولم يكن رجاله قد اعتادوا هذا النوع من الحرب السريعة الخاطفة- لكنه تمكن أخيراً من دخول بلاد (شكا)[1].

وقد وقع أسيراً فى يده فقيه من فقهاء التعايشة يُدعى (عبدالله ود محمد آدم تورشين) وأمر بإعدامه، ولكن منعه من ذلك علماء الدين الذين كانوا معه. وقد ذكر الزبير أن عبدالله هذا أرسل له كتاباً وهو فى (دارا) يقول فيه:

رأيت فى الحلم أنك أنت المهدى المنتظر وأنى أحد أتباعك فأخبرنى إن كنت مهدى الزمان لأتبعك" – فرد عليه الزبير :

"أستقم كما أمرتك وإلا أعملت السيف فى رقبتك إننى لست المهدى إنما أنا واحد من جنود الله يُحارب به من طغى وتمرد[2].

ولم يكُف عبدالله عن الشعوذة كما يقول الزبير رحمت- إلى أن كانت ثورة السلطان (هارون) فى دارفور فضاق به الرزق فى تلك البلاد بسبب الثورة فرحل عنها، ولما أشتهر أمر (محمد أحمد المهدى) فى جزيرة أبا وفد عليه ومثل معه نفس الدور الذى لعبه مع الزبير رحمت، ولكن المهدى قربه إليه واستحوذ على ثقة المهدى فلما دان حكم السودان للمهدى عينه خليفة له، ولما مات بايع الناس (عبدالله التعايشى) هذا إماماً وحاكماً.

على أن دخول الزبير رحمت بلاد (شكا) أدى إلى حقد سلطان دارفور عليه، وقد تبودلت بين الطرفين عدة خطابات بهذا الشأن، انتهت كما سنرى بدخول الزبير رحمت بلاد دارفور نفسها فاتحاً.

وأظهر الزبير بعد ذلك ولاءه للحكومة المصرية، فقد أرسل إلى (إسماعيل باشا أيوب) حكمدار السودان يخبره بانتصاراته على عرب الرزيقات ويعرض

1- Hill: Op. Cit. P. 137

٢- سعد الدين الزبير: الزبير باشا رج السودان – ص ٧٠.

وضع البلاد التى فتحها فى (بحر الغزال) و(جنوب دارفور) تحت تصرف الحكومة المصرية لترسل من يتولى إداراتها[١].

وقـد جـاء رد الحكومة المصرية بالإنعام عليه بالمرتبة الثانية مع لقب (بك) وتولـيه أمـر البلاد التى فتحها تحت لواء الحكومة المصرية وهى (بحر الغزال) (وشكا).

ففـى ٢٢ نوفمـبر ١٨٧٣ أصدر الخديو إسماعيل الأمر التالى إلى (إسماعيل باشا أيوب) حكمدار السودان وقتئذ:

"حيـث اقتضـت إرادتنا تشكيل مديرية مخصصة لجهة بحر الغزال، وتعيين الزبـير رحمـت الجمـيعابى مديـراً عليها، وأحسنا عليه بالرتبة الثالثة كما سبق الـتحرير لكم بالتلغراف – فلزم إصدار أمرنا هذا الرسمى إليكم بما ذكر للإعتماد، ومرسـول طيه (بيوردى) توجيه الرتبـة المثنى عنها إلى المرمى إليه لابعاثة له، وبحضـوره لطـرفكم تنظروا معه فى تشكيل المديرية المذكورة، وإعمال الترتيب المقتضـى عن خدامها، ويلزم لها حسبما ترونه، وبإتمامه يعرض بطرقنا لصدور أمرنا عليه بما يلزم – هذا كما اقتضته إراداتنا[٢].

ثم لم تلبث الحكومة المصرية – كما ذكرنا أن منحت الزبير المرتبة الثانية مع لقب بك وقد أرسل الخديو إلى حكمدار السودان أمراً بذلك جاء فيه:

قـد صار توجيه المرتبة الثانية إلى الزبير بك مدير بحر الغزال بناءًا على ما ظهـر لنا منه من حسن الإجتهاد والغيرة، وأصدرنا أمرنا هذا لكم، ومرسولاً طيه بـيوردى المرتبة المثنى عنها لأجل توصيله للمومى إليه واعتباره بهذه الرتبة من تاريخه حسبما اقتضته إرادتنا[٣].

ولما وصل ذلك إلى (إسماعيل باشا أيوب) بعث للزبير بالرد التالى:

عرضـنا كتابكم على الجناب العالى الخديو فشكر ولاءكم وامتدح رغبتكم فى وضـع الـبلاد الـتى فتحتموها بين يديه ليولى عليها من يشاء، ولقد تعطف جنابه

١- نعوم شقير: تاريخ السودان وجغرافيته ج ٣ ص ٧٤.

٢- عابدين دفتر ١٩٤٨ أوامر عربى ص ٣٠ فى (١٧ ذى القعدة ١٢٩٠)

- وكذلك تقويم النيل : أمين سامى باشا – المجلد الثالث من الجزء الثالث ص ١١١٣.

٣- عابدين دفتر ١٩٤٨ أوامر عربى ص ٥٢ فى (١١ محرم ١٢٩١)

- وكذلك تقويم النيل : أمين سامى باشا – المجلد الثالث من الجزء الثالث ص ١١٤٣.

العالى فأنعم عليكم بالرتبة الثانية مع لقب (بك) وولاكم أمر البلاد، على أن تدفعوا للخزينة جزية سنوية قدرها ١٥٠٠٠ جنيه[١].

فتح سلطنه دارفور

كان طبيعياً إلا يسكت (السلطان إبراهيم) سلطان دارفور على استيلاء الزبير على بلاد (شكا)، كما أن الحكومة المصرية كانت تتحين الفرص لمد إداراتها (لدارفور)، وكانت حتى هذا الوقت مملكة مستقلة، فمنطق الحوادث كان يستلزم مد سلطان الإدارة المصرية للغرب لأسباب منها:

أ- قبائل الرعاة التى تعيش بكردفان لا تكترث بالحدود السياسية، بل تهرب خارج الحدود الإدارية عند مطالبتها بدفع الضرائب، أو عند اقترافها أعمالاً تستحق العقاب.

ب- حكومة دارفور كانت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف، وكان النزاع على السلطة فيها قد بلغ درجة خطيرة.

ج- كانت دارفور تُعتبر مخزناً للرقيق فى غرب السودان، ولا جدوى من جهود الحكومة المصرية للقضاء على الرق فى السودان دون وضع يدها على هذه المنطقة الهامة التى تُعتبر من أكبر مراكز الرق والنخاسة[٢].

وقد طُلب من (جعفر مظهر) أثناء حكمداريته على السودان بحث مسألة الطريق لدارفور بالإضافة إلى بحث أحوالها، وقد اطلع جعفر مظهر على رحلة التونسى لهذه البلاد بالفرنسية وأرسلها لمصر ليقوم (رفاعة رافع) بترجمتها، وقد أجيب بأنها مترجمة ولكن المعلومات التى بها مضى عليها زمن وغير وافيه- ولذا أرسلت إلى دارفور بعثة على رأسها القائمقام (محمد نادى)، وفى التقرير الذى قدمه (محمد نادى) وصف شيق للمسافات التى قطعها بساعات السير، والقرى التى مر بها، وأشار لعادة تجمع المياه فى أشجار التبلدى المحفورة الوسط، وتكلم عن وزير السلطان وقوته- أما عن القوة العسكرية فقد ذكر أن أسلحتها بدائية فهى لا تخرج عن سيوف ورماح وبعض أسلحة نارية يستخدمها بعض الفارين من الخدمة العسكرية فى مصر[٣].

١- سعد الدين ا لزبير: الزبير باشا رجل السودان ص ٧٤.

2- Budge: Op. Cit. Vol 2. P. 231

٣- تقرير (محمد نادى) موجود بالمحفوظات التاريخية محفظة ٤١ المعية السنية عربى - رقم ١٧١ (وارد المعية) فى (٢١ يونيو سنة ١٨٦٧).

كمـا ذكـر أنـه أتخـذت معه احتياطات مشددة ولم يُسمح له بحرية الانتقال والـتجول، وتحـدث عـن نظام التشريفات، وكيف مر من صفوف الجيش، وأنهم حـاولوا قبل مقابلته للسلطان تجريده من سلاحه، وأن يحبو على أربع فرفض ذلك، فُسـمح له بـالدخول كمـا هو- وأشار إلى أسئلة السلطان له عن مصر ونواياها بخصوص دارفور وأنه أجاب بأنها حسنة.

ومـن تقريره يُستنتج أن الغزو ممكن وقد قُدر أن حمله من ألفى جندى يمكنها فـتح دارفـور، وذكر أن سلطه سلطان دارفور غير شاملة، وأن جيشه مقسم ولا رابطة بين قواته.

فلمـا أسـتأذن الزبـير مـن (إسماعيل باشا أيوب) فى الهجوم على دارفور واحتلالها، أرسلت له الحكومة المصرية تُويد ذلك، وأمدته ببعض الجنود النظاميين وثلاثـة مدافـع، وأمرته بالزحف على دارفور من الجنوب، كما أمرت (إسماعيل أيوب) بالزحف عليها من الشرق ليتلقى الجيشان فى (الفاشر) عاصمة دارفور[1].

والـتقى جـيش الزبير بجيش سلطان دارفور وعلى رأسه قائداه (أحمد شطة) و(سعد النور) اللذان حاصرا (شكا)، وانتهى الأمر بانتصار الزبير وإبادة عدد كبير مـن جيش السلطان، ودخل الزبير مدينة (دارا) واحتلها، واضطر سلطان دارفور إلـى جمـع شتات جيشه، وعهد إلى قائد آخر يُدعى (أحمد نمر) بمحاصرة الزبير وجيشه فى (دارا)، ولكن دارات الدائرة فى هذه المعركة أيضاً على جيش السلطان، وقُـتل عـدد كبير من رجاله منهم (أحمد نمر) نفسه، وغنم الزبير غنائم كثيرة من الخيول والدروع والمعدات الحربية الأخرى[2].

وفى أغسطس عام (١٨٧٤) أعد سلطان دارفور جيشاً آخر عقد لواءه لعمه (الأمـير حسـب الله) وسـار هـذا الجيش المكون من عدد كبير من الفرسان المدرعيـن والمشاة المسلحين بالبنادق قاصداً (دارا)، فوصلها فى ١٥ أغسطس مـن هذا العام وبدأ فى حصارها - ولكن جيش الزبير استطاع أيضاً أن يُوقع الهـزيمة بهذا الجيش، وأن يقتل عدداً كبيراً من رجاله، مما دعا (الأمير حسب الله) للانسـحاب تاركـاً خلفـه كمـيات ضخمة من العتاد، ولما بلغ السلطان، (إبراهيم) خبر هزيمة عمه (الأمير حسب الله) استعظم الأمر وقام يستنفر قومه

١- دفاتر عابدين ٧٣- صادر المعية رقم ٢٨ ق (١١ فبراير ١٨٧٤) - من المعية السنية الى حاكم عام السودان.

2- Jackson: Black Ivory and white, or the story of Wl Zubeir Pacha slaver and Sultan as told by himself P. 61

للقـتال، وصمم على أن يقود جيشه بنفسه فى هذه المرة، فخلف على (الفاشر) ابـنه الأكـبر (محمد الفضل) وسار على رأس جيشه قاصداً (دارا) فبلغها فى السـادس عشر من أكتوبر (١٨٧٤) فحاصرها من جميع الجهات وبدأ هجومه عليها، ولكن جيش الزبير أمطر المحاصرين وابلاً من الرصاص، فارتدوا وأبوا الاسـتمرار فى القتال، مما دعا السلطان إلى أن يجمع شتات جيشه ويسير بهم إلى جبل (مره) للإجتماع به.

هـذا بيـنما كان (إسماعيل أيوب) حكمدار السودان، قد اتخذ (أم شنقة) شرقى دارفـور مركـزاً لعملياته وهو يستعد للتقدم شرقاً صوب العاصمة (الفاشر) على رأس قواته البالغ عددها ٣,٠٠٠ مقاتل[1].

وفـى ٢٢ أكتوبر (١٨٧٤) خرج الزبير رحمت على رأس جيشه ليقتفى اثر السلطان الهارب، فأدركه فى بلدة (منواشى) الواقعة على مسيرة يومين إلى الجنوب الشرقى من دارفور، حيث وقعت (موقعة منواشى) الشهيرة فى (الخامس والعشرين مـن أكتوبر ١٨٧٤) وانتهت بقتل السلطان (إبراهيم) وعدد كبير من رجاله، وغنم الزبـير فـى هـذه المعـركة ثمانية مدافع وسبعة وعشرين جملاً محملة بالذخيرة والعتاد، وأصبح الطريق أمامه مفتوحاً (للفاشر) عاصمة سلطنة دارفور، فدخلها فى (٣ نوفمبر ١٨٧٤)[2].

وجاء إسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة الذاهبة من الشرق، فدخل المدينة فـى ١١ نوفمـبر (١٨٧٤)، وهكذا امتدت الإدارة المصرية إلى هذه السلطنة التى تسـكنها قـبائل عربية هاجرت للسودان واستوطنت هذا الإقليم منذ أقدم العصور، واشـتهر سكان هذا الإقليم بتربية الماشية والإبل والأغنام، وزراعه الذرة والسمسم والفـول السـودانى وبعـض البقول والخضر، بالإضافة إلى ما ينتجه الإقليم من الصمغ العربى والقرض الذى يستخدم فى الدباغة.

وتعقـب الزبير رحمت الفارين من جيش الفور وعلى رأسهم الأمير (حسب الله) عـم السـلطان إبراهـيم، حيـث ذهـبوا إلى جبل مرة وتحصنوا فيه، وانتهى الأمر باستسـلامهم، فجـاء بهم جميعاً إلى الفاشر، فأمر إسماعيل باشا أيوب بإرسال الأمير (حسـب الله) والأمـير (محمد الفضل) أكبر أنجال السلطان إبراهيم وخليفته من بعده – إلى القاهرة.

1- Hill: Op. Cit. Vol 2. P. 137.

٢- عابدين – المعية – محفظة ٣ شيرزا نمرة ١١ – مكاتبة واردة من مديرية بحر الغزال فى (١٩ صفر ١٢٩٢).

على انه لم يلبث بعد ذلك أن شق الأمير (بوش) أخو الأمير (حسب الله) عصا الطاعــة، وجمع حوله بقية أولاد السلطان إبراهيم فى جبل مرة، فخرج إليهم الزبير رحمت بجيشه مرة أخرى فى الثالث من أغسطس (١٨٧٥) وأنزل بهم الهزيمة مما اضــطرهم لــترك الجــبل والفرار، فتعقبهم حتى أدركهم فى (كبكية) حيث دارت معركة حامية بين الطرفين، انتهت بمقتل الأمير (بوش) وأخيه (سيف الدين) وعدد من رجال جيشه.

وأرســل الحكمدار (إسماعيل باشا أيوب) يُبشر الخديو بأخبار هذا الفوز فأنعم علــيه برتــبه الفريق، وعلى الزبير برتبه اللواء فصار يُعرف (الزبير باشا) وأمر الحكمــدار بتبلــيغ أفراد الجيش الذى تولى هذا الفتح ثناءه وتحياته لما أظهره من نشــاط فى فتح دارفور، وأن يبقى هناك حتى يُنظم شئون الإدارة المصرية فى هذه البلاد المفتوحة، فجمع الحكمدار الجنوبى فى (الفاشر) وتلا عليهم تبليغ الخديوى فى احتفال عسكرى[١].

وبــنى إســماعيل باشا أيوب فى الفاشر داراً للحكومة ومنزلاً للحاكم، وعمد لتحصــين المدينة فأقام فى الناحية الغربية منها وعلى تتل مرتفع حصناً منيعاً زوده بالأبــراج والمدافع، وأحاطه بخندق عميق – ثم شرع فى تنظيم أحوال البلاد، فقسم هــذه البلاد أربعة أقسام (الفاشر، دارا، كبكية، وأم شنقه) – على أن تكون عاصمة الإقلــيم فى (الفاشر) – وأن يضم الجزء الجنوبى من دارفور حيث (دار الرزيقات) إلى بحر الغزال.

وأقــترح الحكمــدار تعيين (حسن بك حلمى) مديراً لدارفور، على أن يتفرغ (الزبــير رحمت) لإدارة مديرية بحر الغزال، ونظم تحصيل الضرائب من السكان فجعل على كل فرد من عامة الشعب خمسين قرشاً فى السنة، وزاد فى هذا المقدار علــى أهــل اليســار منهم كل حسب يسره وغناه، ولكن الزبير باشا شكا من هذه الضــرائب وذكر للحكمدار أنه يخشى أن تتسبب فى نفور الناس ونزوعهم للثورة، ولمــا لــم يتقبل إسماعيل باشا أيوب هذه النصيحة – كتب إليه الزبير رسمياً مثبتاً اعتراضه على هذه الضرائب، وإلقاء مسئوليتها ونتائجها على عاتق الحكمدار، فما كــان من الحكمدار إلا أن أمره بالعودة بجيشه إلى (دارا) ورفع الأمر للخديوى – فأرســل يأمــر الزبير باشا بعدم التعرض للحكمدار فى إدارة البلاد، فكتب الزبير برقــية للخديو يطلب السماح له بالارتحال لمصر للمقابلة لعرض حقيقة الحال عليه،

---

١ – الوقائع المصرية العدد ٥٨٥ فى (٣ ديسمبر ١٨٧٤)

وليفضـــى بآرائه فى تنظيم الإقليم، فأجابه الخديو إلى طلبه وأذن له بالحضور، فسار إلى مصر واستخلف ابنه (سليمان) فى قيادة جنده[١].

ولمـــا جـــاء لمصر أكرم الخديو وفادته، وأفرد له قصره بالعباسية ثم أخلى له قصـــر الجيزة ليُقيم فيه، ولكنه لم يأذن له بالعودة إلى السودان فأدرك أن المراد من إبقائـــه أن تضـــمن الحكومة ولاءه فأذعن للبقاء والإقامة فى مصر فى (قفص من ذهـــب) كما عبر هو عن ذلك، وتوطدت العلاقات بينه وبين الأمير حسن باشا أكبر أنجال الخديو لهوايتهما المشتركة فى ركوب الخيل[٢].

وفـــى عـــام (١٨٧٧) لما قامت الحرب بين السلطان العثمانى وروسيا بسبب مـــؤازرة روســـيا للثورة فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود، اشترك الزبير فى الحملة المصرية المرسلة لمعاونة السلطنة فى حروبها، وكان على رأس هذه البعثة العســـكرية (الأمير حسن باشا)، وقد أقلعت الحملة من الإسكندرية فى ١٤ أغسطس ١٨٧٧، واشترك الزبير فى هذه الحرب فى موقعة (صارى نصو ملر) وأبلى فيها بلاءاً حسناً فأنعم عليه (السلطان عبدالحميد) برتبه الفريق والنيشان العثمانى الثالث، لكـــن قســـوة إلـــبرد أثرت على صحته، فمرض وأرسل إلى الاسيتانه للعلاج فى مستشفى (الجمعية العثمانية الخيرية)، ثم خُصص لإقامته احد القصور المطلة على البوسفور، ولما شُفى تماماً قفل راجعاً إلى القاهرة.

وبعـــد رجوعه إلى مصر من حروب البلقان – أى فى أواخر عام (١٨٧٩) – بلغـــه نـــبأ مقتل ابنه سليمان الذى كان قد خلفه كقائد لجيوشه قبل مغادرته (الدارا) وقيامه منها لمصر.

وقد حدث مقتل (سليمان بن الزبير) أثناء حكمداريته غوردون للسودان، وكان قد بلغ غوردون أن سليمان يُعد العدة للثورة على الحكومة، أخذاً بثأر أبيه المحجوز فـــى القاهـــرة، فلما وصلت غوردون هذه الشائعات، أمر بتجريد سليمان من جيشه وعين (السعيد بك حسين) – أحد سناجق الجيش – مديراً على (شكا)، ووضع تحت إمـــرته ألـــف رجـــل من جيش سليمان، وبعد ذلك بفترة زار غوردون سليمان فى (شـــكا)، وطيـــب خاطره وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك، وجعله مديراً على (بحـــر الغـــزال)، ثم لم يلبث أن عزله وعين مكانه (إدريس أبتر)، وهو احد أتباع

١– نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ج ٣ ص ٨٤.

– وكذلك Sabry: L, Empire Egyptian sous Ismail P. 440- 443

٢– سعد الدين الزبير: الزبير باشا، رجل السودان ص ١٠٠.

والــده- وقــيل إن ذلك تم بإلحاح من قنصل ألمانيا فى الخرطوم (المسيو فردريك روســته)، وان إدريس أبتر استطاع أن يستميل هذا القنصل، بأن رشاه بمبلغ كبير مــن الذهــب- وقد عمد (إدريس أبتر) بعد تعيينه على بحر الغزال إلى إثارة الفتنه فــى إقلــيم بحــر الغزال، كما أن (سليمان بن الزبير) عز عليه أن يحل محله فى مديريه بحر الغزال أحد خدم أبيه كما ذكر هو[1].

وقــد أرســل غــوردون (إبراهــيم باشا فوزى) لبحر الغزال للتحقيق فى الحوداث التى أدت للاضطرابات هناك[2]. وقد تحقق إبراهيم فوزى باشا من أن (إدريــس أبتر) قد استفز (سليمان الزبير) وأتباعه مخالفاً بذلك أوامر الحكومة التى كانت قد أصدرتها إليه - بالعمل على جذب قلوب الاهالى وعدم القيام بأى عمــل يؤدى للفتنه فى هذه الجهات- فقام بإرساله إلى غوردون مخفوراً بعشرة مــن العســاكر وضــابط، ومعــه أوراق التحقــيق فزج غوردون باشا به فى السجن[3].

ثم عين بعد ذلك جسى باشا (Romolo Gessi) - وهو ايطالى الجنسية مديراً لــبحر الغــزال، وكلفه غوردون بإخضاع سليمان، وسار جسى بجيشه قاصداً (ديم الزبير) فى ديسمبر ١٨٧٨.

وقامــت بين جيش (جسى باشا) - الذى أمدته به الحكومة - ومن انضم إليه مــن عرب الرزيقات المعادين للزبير، وبين (سليمان) ورجاله عده معارك، انتهت بفرار سليمان إلى أن وصل إلى (عزة) غرب (الكلكله)، ومضى (جسى) فى سيره حــتى أخضــع (ديم الزبير) واستولى عليها وتعقب سليمان إذ خشى غوردون من انضمامه إلى الأمير هارون الذى كان قد بدأ الثورة فى دارفور.

وفــى صــباح ١٤ يولــيو (١٨٧٩) توجه سليمان بن الزبير ومعه ثمانية من أعمامــه وأقاربه ونحو سبعمائة من رجال جيشه، وسلموا أنفسهم إلى (جسى باشا) وقد قُتل سليمان هو وأعمامه بعد ذلك- فقد دعاهم جسى لشرب القهوة فى خيمته- ثم لم يلبث أن أمر جنوده بأن يوثقوهم وخرجوا بهم فى خارج الخيمة حيث أطلقت عليهم النيران[4].

١- إبراهيم فوزى: السودان بين يدى غوردون وكتشنر - ص ٣٥.

٢- دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات (تلغراف بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٨٧٨). وارد من غوردون.

٣- د. محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٨٠.

٤- إسماعيل سرهنك باشا: حقائق الأخبار عن دول البحار - ج ٢ ص ٣٢٥.

وقـد كتـب (جسـى) لغوردون يقول "لقد اضطررت لقتل سليمان الزبير بعد تسليمه لأنه حاول أن يؤلب على رجالى، وأن يُثير الفتنه فى صفوف جيشى[١].

ويُقـال أن الحكومة المصرية أبرقت لغوردون لكى يُرسل سليمان بن الزبير رحمت إلى القاهرة، ولكن كان تعليق غوردون على ذلك: "سأمنح جسى ألف جنيه إذا نجـح فـى القبض على ابن الزبير، وآمل أن يشنقه- لأنه لو أرسل إلى القاهرة لرحبوا به"[٢].

أمـا بقـية جنود سليمان وعلى رأسهم أحد قواد أبيه (رابح)، فقد رفضواً أن يـنفذواً فكرة الاستسلام (لجسى) واتجهواً غرباً حتى وصلواً لبحيرة تشاد، والتحمواً فى معارك عدة ضد القوات الفرنسية هناك، وقتل رابح بعد ذلك فى معركة بالقرب مـن (تشاد) بعد أن كانت قد خضعت له منطقة واسعة فى (واداى) غرباً. وقد قيل إن استسـلام (سليمان بن الزبير) جاء إطاعة لخطاب أرسله إليه والده من القاهرة فـى ٢٠ ديسمبر (١٨٧٨) مع (محمد آدم) عمدة الجمعياب وصهر الزبير، نصحه فـيه بالامتثال لأوامر الحكومة، لأن عصيانه يضر بمركز والده الادبى، كما يضر به هو فى السودان، ويجلب سخط الله والحكومة.

وبعـد ذلك صادر غوردون باشا أموال الزبير فى السودان، واحتج بان الزبير كتـب إلى سليمان من مصر يحرضه على الثورة لأن الحكومة قد احتجزته ومنعته من العودة للسودان، وكان غوردون قد أرسل برقية إلى الخديوى يقول فيها:

يوم تاريخه وردت لنا مكاتبه من خط الاستواء تفيد تأكيد ما بلغنا من أن أبن الزبير يحارب مع مديرية بحر الغزال، وأنه هجم على المركز وبادر بالعصيان، ومستعد للمحاربة، وقتل من قتل وأخذ من اخذ من أمتعة وأسلحة الميرى، وحيث أنـه الآن تـأكد عصيان ابن الزبير باشا - فإذا وافق يؤمر بالقبض على والده، ووضعه بالحديد، وحفظ جميع نقوده وأمتعته الموجودة معه إذ بلغنا أنه يوجد معه زيـادة عـن خمسـة آلاف جنيه، مع الترخيص لنا ببيع جميع أمتعته الموجودة بالسـودان وتورديهـا للمـيرى، وضـبط أقاربـه وعائلته وسجنهم وإلا فالأمر مفوض[٣].

1- Gessi: Seven years in the Sudan P, 240

٢- د. محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر - ص ٨٢.

٣- دفتر ٥٠ عابدين - وارد تلغرافات- تلغراف بتاريخ ٧ يوليه ١٨٧٨.١

وحيـــن وصلت هذه الأنباء إلى الزبير باشا احتج على هذا الأمر، وذلك أنه لا يعلـــم من أمر ثورة ابنه شيئاً- وكان رد الخديو على تلغراف غوردون (بالا يؤخذ الأب بجناية ابنه).

على أنه بعد مقتل سليمان بن الزبير أرسل غوردون للخديو برقية جاء فيها:

"إن الزبـــير باشـــا عند قيامه للتوجه إلى مصر أوصى أبنه وأقاربه تحت شجرة بأنه عند وصوله للمحروسة إن لم يرخص له بالعودة فسيخبرهم بالعصيان والمحاربة بإشـــارة، (أجـــروا مقتضى وصية الشجرة) - وبعد إجراء ذلك يلتمس من الحضرة الخديويـــة تعييـــنه والـــياً على جهات دارفور وبحر الغزال وإن لم يجد إجابة فيمكنه التوجه إلى الاسيتانه العلية ويتحصل على المرغوب من حضرة مولانا السلطان، لأن أفندينا الكبير (محمد على باشا) صادر له أمران من السلطنة العليا- الأول بالتفويض فـــى تـــوارث خديويـــة مصر، والثانى بالتفويض له فى أمر جهات السودان مؤقت- وحيـــث أن الموســـى إليه كان قد توجه إلى اسطامبول فى وقت المحاربة، وعاد ولم نـــدرك عـــندنا إن كان توجهه من تلقاء نفسه أو أمر به، كما لا نعلم مقابلته مع حليم باشا وعدمها، وسبب شروع نوبار فى إرساله للسودان"[١].

هذا وقد شكل غوردون مجلساً فى الخرطوم لمحاكمة الزبير غيابياً وحُكم عليه بـــالإعدام، ولكن الخديو إسماعيل ألغى هذا الحكم، إذا لم يثبت ما يدين الزبير بتهمة الاشتراك فى الثورة.

ومـــن الظـــريف إنه لما حضر غوردون لمصر فى عام (١٨٨٤)، اجتمع مع الزبير باشا فى بيت السير إفلن بارنج (Evelyn Baring)[٢] بحضور السير (إفلن وود) ســـردار الجيش المصرى، ونوبار باشا رئيس مجلس النظار فى ذلك الوقت، وســـأله الزبـــير عـــن سبب مصادرة أمواله وقتل ابنه سليمان، ولما رد غوردون باتهامـــه بإرساله كتاباً لإبنه يحرضه فيه على الثورة، رد الزبير باشا بأنه إذا كان هذا حق فلماذا لا يقُدم لمجلس عسكرى بتهمة الخيانة والتحريض على الثورة على الحكومـــة المصـــرية وعصيان قواتها، وأين هذه الرسالة التى يُقال أن بها الإشارة الموجهة لإبنه وأقاربه ليبدأوا الثورة.

هـــذا علـــى أننا نُشير إلى أنه بالإضافة إلى (جسى) الايطالى- الذى عُين مديراً لبحر الغزال، والذى اعتلت صحته بسبب ما عاناه من حملاته ضد (سليمان الزبير)،

١- دفتر ٥٢ عابدين – وارد تلغرافات- تلغراف بتاريخ ١٥ يوليو ١٨٧٩.

٢- حصل على قلب لورد وأطلق عليه اسم "كرومر" فى عام ١٨٩٢.

حــتى انتهى الأمر بعودته إلى الخرطوم فى يناير (١٨٨١)، ثم رجوعه لمصر حيث وصل السويس فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١، ونقل إلى المستشفى الفرنسى هناك حيث مــات بعــد يوميــن من وصوله. عُين أجنبيان لحكم (دارفور) و(دارا)، هما مسداليا (Messedaglia) الــذى عُيــن حاكماً لدرافور وريجوليه (Rigolet) وقد عين حاكماً لــدارا، وكــان تعيين أجانب لهذه الجهات - بالإضافة إلى تعيين غوردون حكمداراً عامــاً للسودان - من أسباب إشاعة موجه التذمر بين السودانيين، بالإضافة إلى اتجاه هؤلاء الأجانب لتصفيه الحكم المصرى فى هذه البلاد.

وفــيما يتعلق (بالزبير رحمت) فقد اتجهت الأنظار إليه، وتردد اسمه بعد ذلك أثــناء الأحداث التى ألمت بالسودان - ففى عام (١٨٨٣) فكرت الحكومة المصرية فــى إرسال (ألاى) من العساكر السودانيين من القاهرة إلى (سواكن) لتخليصها من (عثمان دقنه) الذى كان قد عينه المهدى أميراً على السودان الشرقى، وكان الاتجاه أن يصــحب الزبير باشا هذا الآلاى، وفعلاً توجه إلى السويس للإبحار منها، غير أنــه علــم قــبل قيام الحملة بأنه سيكون تحت قيادة (بيكر باشا) فأبى هذا واشترط لاشــتراكه فــى الحملة أن يذهب مستقلاً فى قيادته، دون الخضوع لأية أوامر غير الــتى تصدر لهُ من القاهرة مباشرة- ولما رفضت الحكومة طلبه هذا تخلف وقفل عائداً إلى القاهرة، وإن كان (كرومر) يُشير إلى أن العدول عن إرسال الزبير باشا إلى سواكن كان أجابه لضغط (جمعية مقاومة الرقيق) على الحكومة الإنجليزية[1].

وحدث فى عام (١٨٨٤) حين كلف غوردون بالعودة إلى السودان للقيام بمهمة إخلائه من المدنيين المصريين، وإجلاء القوات المصرية أن تلقى السير إفلن بارنج (كرومــر) وغوردون فى طريقة لمصر- البرقية التالية من اللورد (جرنفيل) وزير الخارجية الانجليزية:

إن غــوردون يعتبر فى الأهمية الأولى أن يتولى احد الأوربيين مراقبة الزبير لمــنع اتصــاله سراً بالسودان، وهو يقترح نفيه إلى قبرص زيادة فى الحيطة، وإن كنت لا أرى وجهاً واحداً يسندنا فى تصرف كهذا"[2].

وترتــب على هذا أن فُتش قصره بالقللى- الذى كان يسكنه فى ذلك الوقت - بحثاً عما يُبت مراسلته للمهديين كما أشيع، ولكن لم يسفر التفتيش عن شىء.

١- أنظــر خطــاب كرومر الى (اللورد جرانفيل) فى ٩ ديسمبر ١٨٨٣ - ومنشور بكتاب - كرومر : بريطانيا فى السودان (تعريب عبدالعزيز أحمد عرابى) ص ٤٤.

٢- نفس المرجع السابق ص ٨٥.

والعجيب أنه حدث فى (٢٥ يناير ١٨٨٤) أن تقابل الجنزال (غوردون) مع الزبير باشا – كما أشرنا سابقاً وعقب ذلك كتب غوردون مذكرة إلى إيفان بارنج (كرومر) يُلح فيها أن يصطحب معه إلى السودان الزبير باشا ويقول فيها : "إذا كانت المهمة المطلوبة منى هى إخلاء السودان بأسرع وقت للمحافظة على سلامة المواطنين المصريين، فلا داء هذه المهمة وحدها لا أرانى فى حاجه إلى الزبير، أما إذا كان على بالإضافة إلى ما تقدم، أن أترك ورائى فى السودان تسوية مرضية للأمور، فان وجود الزبير معى يُصبح عندئذ بنداً هاماً لا غناء غنه"[١].

ولكن وزارة الخارجية الانجليزية عارضت فى إرسال الزبير إلى السودان، وقيل إن هذه المعارضة جاءت تحت ضغط (جمعية إبطال الرقيق) إذ أتهم الزبير بأنه من كبار تجار الرقيق فى السودان[٢].

وفى ٢٦ يناير ١٨٨٤ غادر غوردون القاهرة فى طريقة إلى السودان، وبعد وصوله أرسل إلى السير ايفلن بارنج (كرومر) يلح فى ضرورة إرسال الزبير ليتسلم حكم البلاد، واضطر (بارنج) أن يبرق فى ١٩ فبراير ١٨٨٤ لحكومته بذلك، ولكن جاءه رد وزارة الخارجية البريطانية فى (٥ مارس ١٨٨٤) بأن الرأى قد استقر نهائياً على عدم إرسال الزبير باشا إلى الخرطوم[٣].

لكن لم تلبث الدسائس بعد ذلك أن أوقعت بالزبير عند ولاة الأمور بمصر، زاعمين أنه يقوم بمراسلة المهديين سراً، وانتهى الأمر باستدراجه فى عام ١٨٨٥ وكان يصطاف بالإسكندرية – على ظهر السفينة (إنديا) التى أقلعت به إلى جبل طارق، حيث نزل بقصر (الملكة فيكتوريا) بالجزيرة، وقضى فى هذا المنفى قرابة عامين، ولم يُسمح له بالعودة إلى القاهرة إلا فى عام ١٨٨٧ – وفى أوائل عام ١٩٠٠ بعد استعادة السودان، رد له ما صودر من أملاكه، وسُمح له بالسفر إلى السودان، فسافر إليه فى أواخر سنة ١٩٠٣، وأمضى سنتين زار فيهما أهله ودبر شئون أملاكه، وبنى دارين ثم عاد إلى مصر، وابتنى لنفسه قصراً فى (حلوان)، يقضى فيه ما بقى من حياته فى هدوء، وفى العاشر من أغسطس ١٩١٢ سافر الزبير لآخر مرة إلى السودان، وفى ٦ يناير (١٩١٣) انتقل إلى جوار ربه وهو فى (أم درمان) بين أهله وذويه فطويت صفحة رجل من رجال السودان، لعب فى

١- كرومر: بريطانيا فى السودان (تعريب عبدالعزيز أحمد عرابى) ص ٦٨.

2- Cromer: Mohern Egypt (1908) P. 454 - 460

٣- كرومر: بريطانيا فى السودان (تعريب عبدالعزيز أحمد عرابى) ص ١٢٧.

تـــاريخ هذا القطر الشقيق دورًا هامًا، فكان اسمه يتردد دائمًا خلال الأحداث الهامة التى مرت بالسودان طوال فترة حياته منذ أن لمع نجمه فى بحر الغزال حتى وفاته وهو فى سن الثانية والثمانين.

هـــذا علـــى أننا نشير إلى أن آخر حكام (دارفور) تحت الإدارة المصرية كان ســـلاتين بك (Slatin) وقد سلم للمهدية فى (دارا) فى ديسمبر ١٨٨٣، وقام بالأمر بعـــد ذلـــك فـــى دارفور (الأمير يوسف) وهو ابن (السلطان إبراهيم) الذى قتل فى معركة منواشى ١٨٧٤، ولكن قضى عليه الدراويش بعد ذلك.

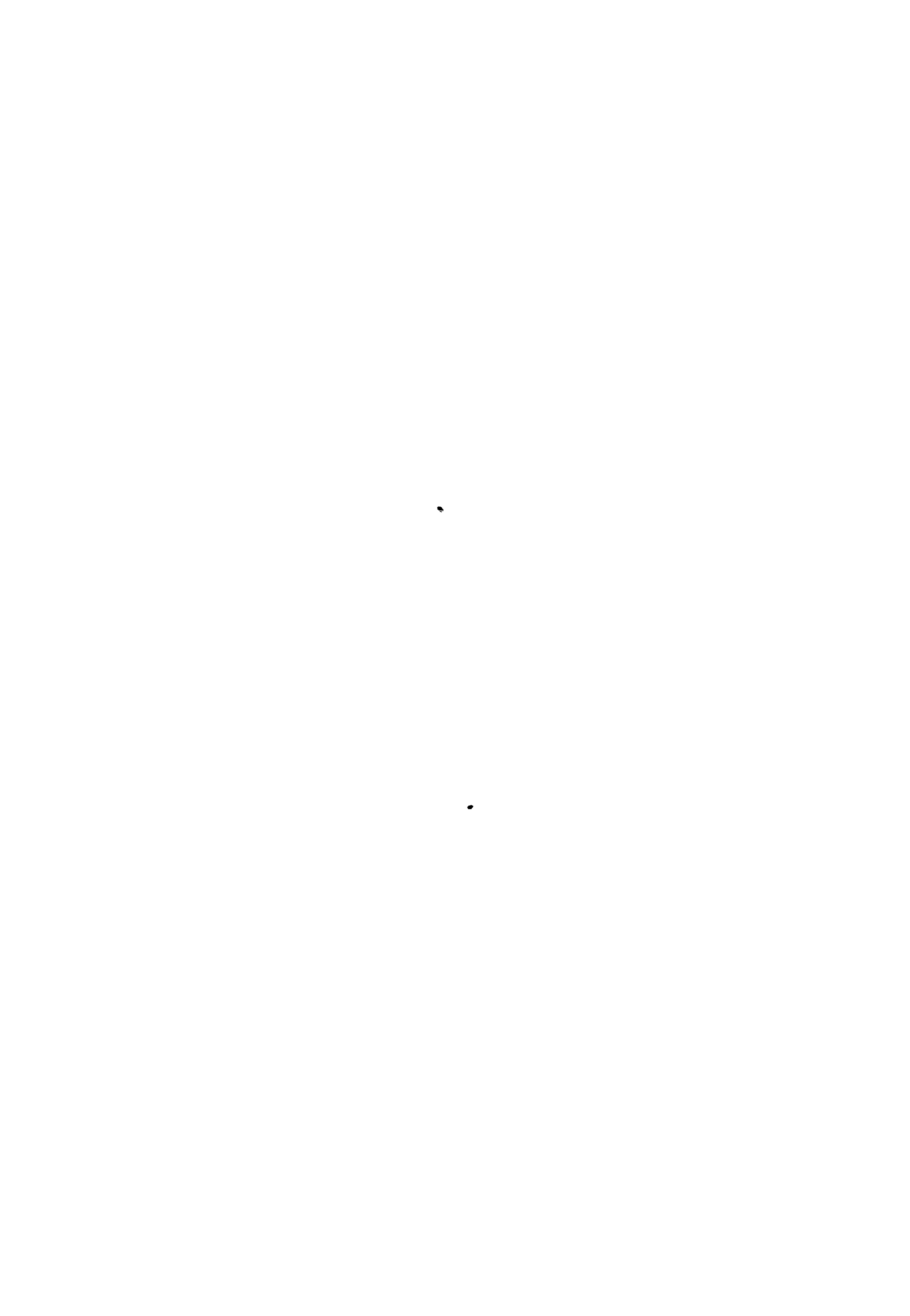
علـــى انـــه بعد هزيمة الدراويش فى أم درمان فى (٢ سبتمبر ١٨٩٨) أمكن "على دينار" وهو من سلالة سلاطين الفور أن يستخلص دارفور من يد الدراويش، واعـــترف بـــالولاء لحكومة السودان، واعترفت الحكومة رسمياً بسلطانه فى سنة ١٩٠٠ وبقـــى الوضـــع كذلـــك حـــتى قامت الحرب العظمى الأولى، فنبز ولاءه للحكومـــة، فأرسلت حملة قضت عليه سنة ١٩١٦ وسنشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

الفصل الثامن
الاهتمام بالبحر الأحمر
وضم الأقاليم السودانية المطلة عليه

- عوامل الاهتمام بالبحر الأحمر.
- ضم الأقاليم المطلة على البحر الأحمر.

١- سواكن ومصوع.
وما أنجزته الإدارة المصرية من إصلاحات فيهما.
٢- ضم زيلع وما تم بها من إصلاحات.
٣- ضم هرر.

- حملات الصومال وموقف انجلترا منها.
- الملاحة المصرية فى البحر الأحمر.
- أطماع انجلترا والدول الاستعمارية الأخرى فى هذه الجهات واستيلائها على أملاك مصر بها.
- نتائج حكم المصريين لهذه البلاد.



الفصل الثامن
الاهتمام بالبحر الأحمر
وضم الأقاليم السودانية المطلة عليه

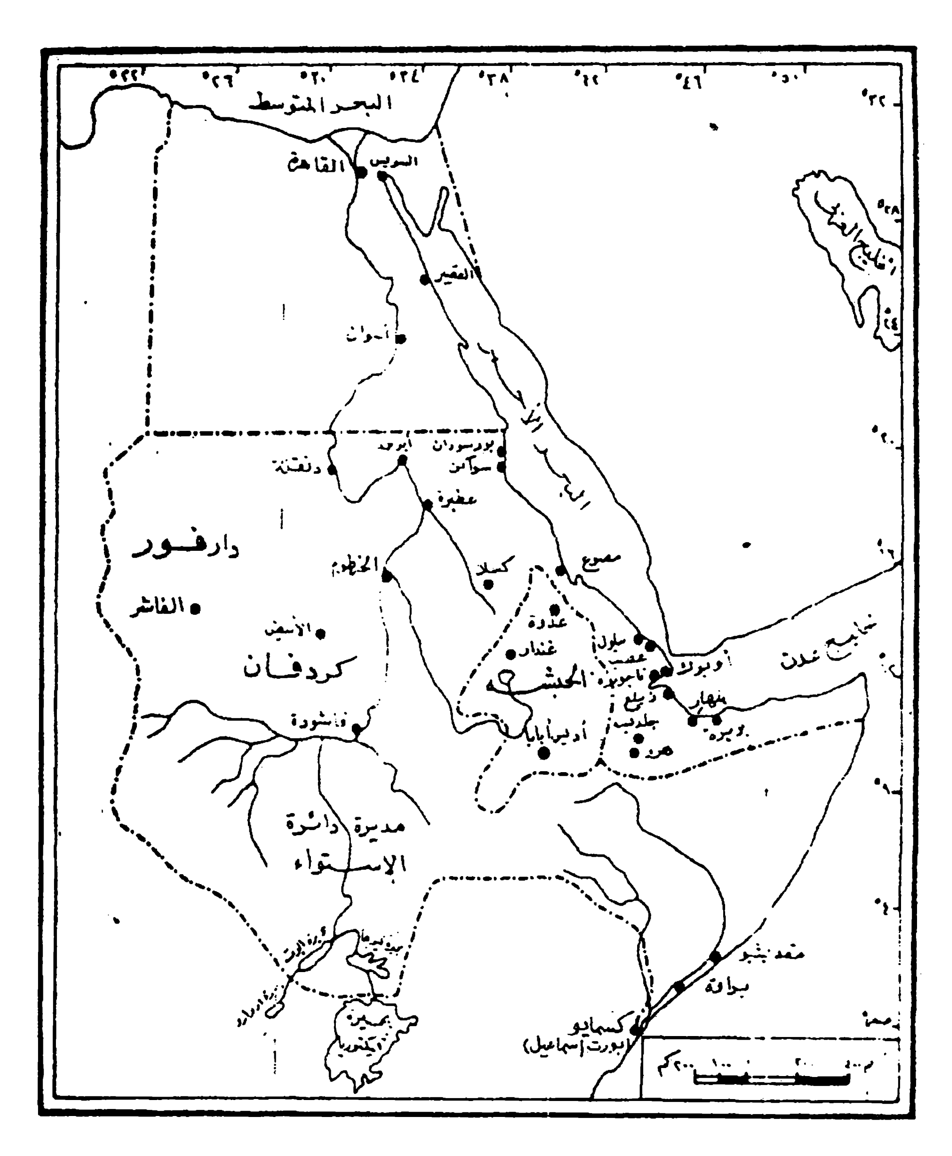
لعب البحر الأحمر دوراً خطيراً كطريق ملاحى بين الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر، وفى النصف الثانى من هذا القرن بنوع خاص، إذ أن هذا البحر الذى شاءت الدولة العثمانية أن تجعله بُحيرة راكدة، أصبح فى مستهل القرن التاسع عشر شُرياناً من أهم شرايين المواصلات بين الشرق والغرب، خاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه فى المواصلات البحرية وبالطبع ستتضاعف هذه الأهمية بعد أن يتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وتفتح قناة السويس للملاحة فى سنة (١٨٦٩).

وارتبط النشاط فى البحر الأحمر بالتطاحن الإستعمارى فى أفريقياً عامة وفى ساحلها الشرقى بنوع خاص، فقد كان طبيعياً وقد بدت للعيان أهمية المناطق المطلة على البحر الأحمر وعلى المحيط الهندى، أن تُسرع الدول الإستعمارية المتحفزة لتأخذ كل منها نصيبها فى هذا الصيد الثمين.

ونذكر فى هذا الصدد ما علقت به صحيفة النيويورك هيرالد (صحيفة ستانلى) على افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ إذ قالت "إن قناة السويس قربت اكتشافات سبيك وجرانت وبيكر، وبيرتون، ولفنجستون - حول المنابع الاستوائية للنيل - من متناول الإستعمار البريطانى".

ولم تقف مصر - وهى التى كان يمسها الأمر قبل غيرها - مكتوفة الايدى وسط هذا الصراع الدولى الطاحن، بل اتجهت إلى أن تلعب دوراً عملياً حاسماً، فعمدت إلى أن تثبت أقدامها فى المناطق الهامة على البحر الأحمر، وفى ساحل أفريقياً الشرقى، قبل أن تسبقها الدول الاستعمارية التى كانت قد بدأت فعلاً تنشب أظفارها فى هذه المناطق الساحلية، وتتخذ منها منافذ للتوغل إلى الداخل، بل - كما سأوضح - كانت السياسة المصرية أبعد من ذلك، فقد كانت السياسة ترمى إلى بسط النفوذ المصرى على ساحل البحر الأحمر الغربى كله، وعلى الساحل الافريقى الشرقى المواجه للمديرية الاستوائية التى كانت الجهود تُبذل فى ذلك الوقت لتثبيت وتوسيع دعائم الحكم المصرى فيها. وكانت الدلائل كلها فقد أثبتت أن اتصال مصر بالنصف الجنوبى من وادى النيل أى (السودان)،

وخاصة بمنطقة البحيرات الاستوائية عن طريق البحر أيسر وأجدى وأوفر فى الوقت وفى النفقات، من الاتصال عن طريق النيل الطويل، وما يعتريه من العقبات المتباينة.



شكل رقم (٥) أهمية البحر الأحمر كطريق ملاحى بين مصر والسودان

عوامل الاهتمام بالبحر الأحمر :

اهتمام مصر بالبحر الأحمر وثغوره يرجع لعاملين:

أ - عامل اقتصادى:

أن موانى البحر الأحمر هى المنافذ الطبيعية للسودان، فى وقت ظهر فيه بجلاء أن مشكلة المواصلات من أهم المشاكل التى تواجه الإدارة المصرية بالسودان.

ب- عامل سياسى:

يتعلق بازدياد أهمية البحر الأحمر وتطلع الدول الأجنبية إليه، فكانت سياسة مصر أن تسبقِ المشروعات الأوربية فى هذا المجال.

ودراسة جغرافية المناطق الساحلية للبحر الأحمر من (السويس) إلى (مصوع) تُعطى فكرة عن أهمية هذه المناطق فى عدة نقط كطريق للمواصلات مع الداخل.

وأول ثغر منهم بعد السويس فى هذا الساحل هو (القصير) وهو من الثغور المصرية الهامة، وترجع اهميتة إلى موقعه فى منطقة يضيق فيها الإقليم الصحراوى بحيث يقترب ساحل البحر من الوادى، بالإضافة إلى مواجهته لوادى قنا، وقد استخدم هذا الطريق من قديم الزمان كطريق للمواصلات.

و(القصير) بالإضافة إلى ذلك ميناء تجارى مع بلاد العرب، ومنها كانت تنقل الغلال للحجاز بالإضافة إلى الحجاج، وهى فى نهاية طريق هام من طرق القوافل عبر الصحراء الشرقية – ويجب أن نضع فى الاعتبار أنه فى القرن التاسع عشر كانت بلاد العرب موزعه للتجارة الهندية.

يلى القصير جنوباً بعد مسافة طويلة ثغر (سواكن) – وهى أيضاً مركز هام، لأنها فى موقع يقترب فيه البحر الأحمر من النيل، ومنها تبدأ عده طرق تجارية – احد هذه الطرق يصل لكسلا ثم يتفرع لفرعين، فرع يسير غرباً الى الخرطوم، وآخر جنوباً الى القضارف، والقلابات على حدود الحبشة.

وطريق آخر من سواكن مباشرة الى مدينة (بربر) على النيل نفسه، وكانت هذه المسافة من سواكن الى بربر تستغرق ما يقرب من أسبوع بالجمال.

وسواكن بالإضافة الى ذلك تقوم بنفس العمل كالقصير، فمنها يبحر الحجاج الى بلاد العرب، ويصدر العبيد، والمنتجات الرعوية كالجلود والسمن وما الى ذلك لبلاد العرب، ومنها ترد الى السودان البضائع المصنوعة وخاصة البضائع الهندية.

وجنوب سواكن بمسافة يقع ثغر (مصوع)، وهى على جزيرة قريبة من الساحل، وهى مواجهة للثغور اليمينة المشهورة.

ومصوع مخرج البحر الأحمر الطبيعى إلى كل الأقاليم الشمالية فى الحبشة، وبين مصوع ودادى النيل إقليم (بوغوص) وهو إقليم متوسط الارتفاع، خصب جيد المناخ، وله أهمية اقتصادية، وسكانه خليط وعدد كبير منهم يدين بالإسلام، كما أن منهم من يدين بالمسيحية.

وعند مدخل البحر الأحمر الجنوبى توجد موانى (تاجوره)، و(أبوك) و(عصب) و(بيلول)، بينما على خليج عدن يوجد ميناء (بربره) و(بلهار) – وهى موانى ذات أهمية بالغة كمنافذ لإقليم هرر.

أما على ساحل المحيط الهندى فتوجد موانى (مقدشو)، و(قسمايو) التى عُرفت فى وقت من الأوقات باسم (بورت إسماعيل) – وأهميتها ترجع الى أنها منافذ على الطريق البحرى المؤدى الى الداخل والى المديرية الاستوائية بالذات.

ويجب *أن نُشير هنا الى أن مشكلة المواصلات المتعلقة بالسودان* **برزت** أهميتها فى عهد إسماعيل أكثر من الناحيتين الإقتصادية والحربية **فعليها يتوقف** نجاح التبادل التجارى ونقل الحاصلات، كما كانت لها أهميتها فى الدفاع وتأمين الاراضى، وقد أستدعى خبراء إنجلترا خصصياً لدراسة مشروع مد السكة الحديد بين مصر والسّودان، فدرسوا مسألة مد السكة الحديد بين أسوان والخرطوم وقارنوا بين صلاحية الضفة الشرقية والضفة الغربية، وأُختيرت الضفة الشرقية لأسباب تتعلق بطبيعة السطح – ووصلوا الى صحراء العتمور، وقدرت تكاليف مد السكة الحديد من أسوان الى الخرطوم فى ذلك الوقت بستة ملايين من الجنيهات– لكن هذا البحث أثار دهشة فى مختلف الأوساط، فكيف تبنى سكة حديد للسودان، والوجه القبلى لم تكن قد مدت فيه السكة الحديد بعد– وقد وصلت السكة الحديد فى الوجه القبلى حتى أسيوط– ونحن نعلم أن السكة الحديد فى السودان أنجزت فيما بعد تحت ضغط الحاجة الحربية إبان حملات استرجاع السودان.

ولكن أهم من ذلك بُحثت مسألة تحسين النقل المائى بين أسوان والسودان، ومسألة إنشاء ترعة ملاحية شرق أسوان أو غربها لتجنب الجنادل، كما بحُثت فكرة إنشاء مجرى ملاحى فى منطقة الشلال نفسها بتحطيم بعض الصخور وعمل الجسور.

و لا شك فى أن الإتصال البحرى بين السودان والموانى السودانية لاقى نجاحاً وتوفيقاً فى عهد إسماعيل، وسنشير فيما بعد الى شركات الملاحة المنتظمة بين السويس ومصوع وسواكن وغيرها من موانى البحر الأحمر، لكن يهمنا هنا الإشارة لموضوع الاتصال البحرى بالسودان كجزء متعلق ببحث مشكلة المواصلات بين مصر والسودان.

وسنتناول الآن الجهود التى بُذلت لضم كل من هذه الموانى البحرية الى الإدارة المصرية ولتعميرها.

ضم الأقاليم المطلة على البحر الأحمر

١- سواكن ومصوع:

خطت مصر أول خطوة ايجابية فى سبيل مد نفوذها فى البحر الأحمر ومموانيه حين طلبت ضم ميناءى (سواكن، ومصوع) الى الإدارة المصرية، وقد كان للميناءين وضع خاص، إذ كانا تابعين لإيالة (جدة)، وكان يطلق على هذه الجهات اسم (ولاية الجيش)، ولعل هذه التسمية ترجع الى أن هذه الأقاليم هى التى تُشرف على الحبشة، وقد كان بين العثمانيين- باعتبارهم القوة الإسلامية التى تتزعم العالم الاسلامى، وبين الحبشة المسيحية، مثلما كان بين الحبشة وبين الولايات العربية الإسلامية المحيطة بها فى أفريقياً (كإمارة هرر) - نضال يُعتبر تتمة للحروب الصليبية المعروفة.

وفى عام (١٨١١) لما أخذت مصر تتدخل لإعادة النظام فى بلاد العرب- أُلحقت بالإدارة المصرية أيضاً (ولاية الحبش العثمانية)، ولكن فى سنة ١٨٤٠ - بعد التسوية المعروفة بين مصر والدولة العثمانية- رجعت الحالة فى سواكن ومصوع لما كانت عليه من قبل، وأحيلت إدارة جمركى سواكن ومصوع الى مصر مرة أخرى فى عام (١٨٤٦)، فألحقت هذه الإدارة بمديرية التاكا، ولكن بعد ذلك بقليل فى عام ١٨٤٨ عادت إدارة الميناءين الى جدة مرة أخرى[1].

وقد قدم إسماعيل مبررات معقولة الى كل من الدولة العثمانية والدول الأوربية لطلب ضم ميناءى سواكن ومصوع.

فالحجج التى قُدمت الى الدول الأوربية تتلخص فى أنه إذا أرادت الدول أن تقضى على تجارة الرقيق فالحل الوحيد هو وضع الثغرين تحت إدارة دولة تستطيع أن تعالج المسألة بحزم وشدة، وتبعية هذه المناطق (لجده) وهى بعيدة عنها لا يُحقق الإشراف عليها... وبالفعل نجد الحكومة الانجليزية لا تمانع فى نقل هذه الأماكن الى الإدارة المصرية[2].

1- Douin: Histoire du Regne de Khedive Ismail Tome 3ire partie P . 234

٢- دفتر غرة ٢١ عابدين تركى صفحة ٢٢٨ وثيقة رقم ٥٩ فى (٢٧ رجب ١٢٨١)

- منشور ترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف.

- ويذكر: Douin : Tome 3Ire partie P. 269

حديـث الخديـو إسماعيـل مع (هنرى بولر) سفيراً انجلترا فى تركيا الذى كان يقضى شتاء ١٨٦٤ فى مصر - فقد أشار الخديوى فى حديثة الى أن وضع حد لتجارة الرقيق يستلزم وضع ميناءى (سواكن ومصوع) تحت الإدارة المصرية.

أما الحُجج للدولة العثمانية فهى من نوع آخر- فقد أوضح إسماعيل مطامع ومشروعات للدول الأوربية فى تلك السواحل، فهناك باستمرار محاولات للاتفاق بين نواب القناصل أو القناصل، وبين المشايخ المحليين- فالحل السليم لتفادى هذه المحاولات هو ضم الميناءين الى الإدارة المصرية فتُصبح مصر أقدر على مواجهة هذه المشروعات الإستعمارية- كذلك مصر أقدر على توطيد الأمن فى هذه الجهات، هذا بالإضافة الى أن الدولة لن تخسر شيئاً فهو مستعد لأن يؤدى للخزانة العامة ما كانت تجبيه من جمارك تلك الثغور وزيادة عن ذلك[١].

وكللت جهود مصر فى ضم الميناءين بالنجاح، فصدر فرمان بوضع الميناءين تحت إدارة الحكومة المصرية فى مايو (١٨٦٥)[٢].

وفى فرمان تغير الوراثة الصادر فى (٢٧ مايو ١٨٦٦) جُعلت الإحالة وراثية أى غير مقصورة على وال بالذات[٣].

على أن استلام الإدارة المصرية لسواكن تم مباشرة بعد صدور الفرمان السلطانى بذلك، أما فيما يختص بميناء (مصوع) فقد تأخر إستلامها بسبب ثورة الجند فى (التاكا) وهى من مُلحقات السودان القريبة من سواكن.

وبعد استلام سواكن ومصوع عُين (حسن بك رفعت) محافظاً لمصوع و(ممتاز بك) محافظاً لسواكن[٤].

ولكن الحكومة المصرية، شعوراً منها بأهمية هذه الأقاليم المطلة على البحر الأحمر- والتى دخلت حديثاً فى حوزتها- فصلتها فى عام ١٨٧١ عن حكمدارية السودان، وكونت من مصوع وسواكن وغيرها من الأقاليم السودانية المطلة على البحر الأحمر والتى خضعت للنفوذ المصرى محافظة مستقلة عُرفت باسم "محافظة سواحل البحر الأحمر" وعُين لإدارتها الضابط المصرى أحمد ممتاز باشا بلقب (مدير عام شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر)[٥].

١- دفتر ٢١ عابدين تركى مكاتبة تركية رقم ٩٦ فى (٧ ذى القعدة ١٢٨١)
- منشورة ترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٣١.

٢- مجموعة الفرمانات الشاهانية فرمان رقم ٩١٣.
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٤٢.

٣- مجموعة الفرمانات الشاهانية – فرمان رقم ٩٢٥ فى (١٢ محرم ١٢٨٣).

٤- دفتر رقم (٥٣٧) معية تركى مكاتبة تركيه رقم ١٣١ ص ٧ فى (٢٤ محرم ١٢٨٢).
- الترجمة منشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٤٩.

٥- دفتر ١١ عابدين وارد تلغرافات – تلغراف رقم ١٢٨٤ فى (٢٣ ربيع الأول ١٢٨٧) – ترجمة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ١٠٣.

وخلف ممتاز باشا في هذه الوظيفة منز نجربك (Munzinger) وهو سويسرى الأصل وكان قنصلاً لفرنسا بمصوع من قبل[١].

وقد كانت حالة (سواكن ومصوع) وقت أن تسلمتها الإدارة المصرية غاية فى السوء وتقرير (حسن بك رفعت) فى مايو (١٨٦٦) عن مصوع يُوضح كيف كانت حالة السكان الصحية رديئة، إذ كانت تنتشر بينهم عدة علل منها الحميات، ومرض الدوسنتاريا، والعلة المخية، والكوليرا، وكان بأسواق مصوع وأزقتها بعض المصابين بالدرن، والقروح مشرفين على الموت، دون أن يُوجد من يعتنى بهم لعدم وجود مستشفيات أو وسائل علاج بها.

أما عن حالة المبانى الحكومية وقت استلامها، فقد كانت قديمة وآيلة للسقوط، وبعضها كان قد تهدم فعلاً وأصبح عبارة عن أكوام من التراب، ولم يكن بالبلدة طاحونة واحدة لطحن الحنطة أو فرن للخبز، وكانت حالة الأمن مضطربة إذ لم تكن حتى بالنقط الهامة بالساحل قوة عسكرية لحفظ الأمن، وفيما يختص بالأموال التى تُجبى من الاهالى لم تكن هناك سجلات ثابتة توضحها وتضبطها حتى لا يُضار أحد[٢].

وقد عثرنا فى المحفوظات التاريخية على عدة تقارير عن حالة هذه الجهات فى فترات مختلفة نذكر منها تقرير (أحمد ممتاز باشا) الذى أصبح محافظاً لسواحل البحر الأحمر فى مارس ١٨٧١، وتقرير (على رضا باشا) محافظ سواحل البحر الأحمر أيضاً فى الفترة من أغسطس الى يناير ١٨٨١، وهذه التقارير وافية شاملة، وتعطى فكرة كاملة ودقيقة عن حالة هذه الجهات[٣].

وقد قامت الإدارة المصرية منذ تسلمت تلك الجهات بعده إصلاحات شملت جميع نواحى الحياة فيها.

فاهتمت بتيسير سُبل المواصلات فنُظم بريد برى بين سواكن والقصير الى أن يتم تنظيم الخط الملاحى البحرى بين سواكن ومصوع، وبينها وبين السويس.

١- أوردنا تعريفاً: (بمتز نجربك) وجهوده فى هذه الجهات فى كتاب الوثائق التاريخية ص ٧، ٨.

٢- محفظة رقم ٣٨ معية تركى – وثيقة تركية رقم ٢٢ فى (٦ محرم ١٢٨٣)

– ترجمة التقرير التفصيلى الوافى عن حالة هذه الجهات وقت استلامها نشر فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص (٧١ – ٨١).

٣- تقريــر (أحمــد ممتاز باشا) منشور كاملاً فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص (١١١ – ١١٦) – وكذلك تقرير (على رضا باشا) منشور كاملاً فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص (١٥٧ – ١٧٣).

وأنشئ بكل من مصوع وسواكن مكتب بريد، وخُصصت باخرة بعد ذلك لنقل بريد السودان كله من سواكن الى مصر مرة فى كل أسبوع، فكانت (البوسته السودانية) تُنقل من الخرطوم الى سواكن براً، وكان يقوم جنود الهجانه بهذه المهمة، ومن سواكن الى السويس بحراً، وربط خط بحرى بين مصوع وسواكن، وخُصص وابور للإقامة بكل منهما، وقد نُظمت مواعيد هذه الوابورات بدقة، ولما انتظمت حركتها أصبحت تنقل الركاب والبضائع من مصر الى هذه الموانى، وبين هذه الموانى بعضها والبعض الآخر ومنها الى مصر[١].

كما مُدت خطوط التلغراف بين سواكن ومصوع وموانى البحر الأحمر الأخرى، وبينها وبين الخرطوم. وقد وجدنا فى دفاتر صادر محافظة سواكن وصفاً طريفاً لحفل نصب أول عمود من أعمدة التلغراف بسواكن، ومما ذُكر بهذه المناسبة أن تجار البندر قدموا أحد الأعمدة على سبيل الهدية الرمزية اعترافاً منهم بتقديريهم لأعمال الحكومة، ومشروعاتها العائدة بالنفع على الاهالى بصفة عامة، وعلى التجار بصفة خاصة[٢].

ومن الخطوط التلغرافية التى مدت الخط من بربر إلى كسلا، ومن كسلا إلى مصوع... ومنها الى سواكن، ومن سواكن الى (برانيس) وهى ميناء مصرى على البحر الأحمر[٣].

وقد ظهر أن الأخشاب التى ترسل من مصر لاستعمالها فى الخطوط التلغرافية، تتعرض لحشرة القرضة والنمل الأبيض، وأن الأفضل استخدام أخشاب شجر الدوم التى تنمو بالسودان لهذا الغرض، لأنه لما فُكر فى استخدام الأعمدة الحديدية وجدت ثقيلة لا تقوى الإبل على حملها.

١- دفتر رقم ٥٥٣ معية تركى وثيقة رقم ٣٥٣ ص ٦٢ ف (٤ ربيع الأول ١٢٨٢)

- منشورة ترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٥٠.

- وكذلك دفتر ٥٥٨ معية وثيقة تركية رقم ١٩ ص ٤٢ ف (٩ ذى القعدة ١٢٨٢)

- ومنشورة ترجمتها بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٦٩.

٢- دفتر رقم ٣٥٤٣ ج ١ صادر محافظة سواكن – مكاتبة عربية ص ١٥٧ رقم ٣ ف (ذى القعدة ١٢٨٢) – ومنشورة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٦٧.

٣- دفتر نمرة ٢ عابدين وارد تلغرافات ص ٨٨ تلغراف نمرة ٥٩٦.

- ترجمة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٧٠.

ودفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى نمرة ٢ ص٣٨.

- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ١٣٦.

وكان باشمهندس عموم التلغرافات (سلامة بك) يُداوم المرور على هذه الخطوط التلغرافية الجديدة لتفقد حالتها، وتلافى ما فيها من نقص[١].

هذا بالإضافة الى تمهيد الطرق البرية التى تربط موانى البحر الأحمر المختلفة بالمدن الداخلية.

وقد بُحث فعلاً مشروع وصل السودان بمصر بالسكة الحديد، وقدمت اللجنة المكلفة بهذا العمل تقريراً وافياً، كما بحث (إسماعيل بك الفلكى) مشروع مد خط حديدى من سواكن الى بربر أو شندى، وقدم تقريراً فى هذا الشأن مع خريطة توضيحية[٢].

ولكن العقبات المالية حالت دون تنفيذ هذا المشروع، وإن كان قد بُدىء فيه فعلاً، فمد الخط من وادى حلفا الى (حنك).

هذا من جهة المواصلات.

وقد اهتمت الإدارة المصرية بتعمير بندر سواكن ومصوع، فبنيت مساكن صحية للأهالى، كما شيد بكل منهما مسجد ومستشفى ومكاتب صغيرة لتربية وتعليم الأطفال، ولما كان من العساكر الموجودين بالبندر من يتقن أشغال الحدادة والنجارة والنحت والبناء فقد استخدمتهم فى هذه الأعمال[٣].

وحرصت الإدارة المصرية على أن تُشيد المبانى فى سواكن، ومصوع، والخرطوم وغيرها من الحجارة بدلاً من الطوب النى أو الطين والقش كما كان متبعاً من قبل، واستخدم الجيش فى ذلك، وشجُع الاهالى على تقليد المبانى الحكومية بعد إعادة تخطيط المدن.

كما أُرسلت مطاحن للغلال كاملة العدد من مصر لتركيبها هناك، وأرسل أيضاً مهندس خاص لإقامة (طابونة) لصنع الخبز بها، ومخزن بجوارها لخزن الدقيق.

وعُهد الى (عرفة بك) باشمهندس استحكامات السودان ببحث مسألة الاستحكامات اللازمة بهذه الجهات لضمان سلامتها.

١- دفتر رقم ١٩٤٦ أوامر عربى غرة ٢ ص ٣٨ فى (٨ ذى الحجة ١٢٨٩)
- ومنشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ١٣٦.

٢- سجل (٥٦) معية تركى وثيقة بدون غرة ص ٨٩ قسم ثان فى (٢٤ صفر ١٢٨٤).
- وترجمتها بكتاب الوثائق المصرية للمؤلف ص ٨٠.

٣- دفتر (٥٥٨) معيه تركى وثيقة رقم ٢٧ ص ٢٩ فى (٢٨ صفر ١٢٨٣ هـ)
- ترجمتها بكتاب الوثائق المصرية للمؤلف ص ٨٢.

واهتمت الإدارة المصرية أيضاً بتدبير المياه العذبة لكل من سواكن ومصوع، فمدت المواسير من العيون والآبار لبندر مصوع، وقام بهذه العملية المهندس المسيو (روسو). ولما وُجد أن مياه الآبار بسواكن مرة، وأن الاهالى يرتحلون منها للجبال فى (سنكات، واركويت) حيث يمكنهم الحصول على المياه العذبة، الأمر الذى جعل التجارة تكسد بالإضافة الى انتشار مرض (الأسكربوط) نتيجة المياه غير العذبة بسواكن – قامت الحكومة ببناء خزان يسع ٢٥٠,٠٠٠ متر من المياه لجمع مياه السيول التى تسقط على المرتفعات المحيطة بسواكن، ومدت قناة من الخزان الى المدينة بلغ طولها ٦,٠٠٠ متر وصُرف على هذه العملية ٨٠٠ كيس[١].

ووجهت الحكومة جهودها الى العناية بموارد هذه الجهات الطبيعية وتنميتها، فاهتمت بنشر زراعه القطن فى كل من مصوع وسواكن وملحقاتها (كطوكر وعقيق وسنكات)، فأرسلت البذور الى هذه الجهات، وشجعت الاهالى على الزراعة، فازدهرت الزراعة بها لدرجة أن المحالج التى أقامتها الحكومة لم تف بالحاجة، فأنشأ الاهالى والمهاجرون الأجانب محالج للقطن، ومما يدل على مبلغ إهتمام الحكومة بتنمية الزراعة هنا، أنها فصلت مدير التاكا فى عام (١٨٧٠) حين نسب له محافظ سواحل البحر الأحمر عدم الاهتمام بترغيب الاهالى فى الزراعة[٢].

ولما كانت هذه الجهات مشهورة بملاحاتها فقد إهتمت الإدارة المصرية أيضاً بتنظيم عملية استغلال هذه الملاحات، وتصريف إنتاجها من الملح، ومما عُمل فى هذا السبيل مد خطوط حديدية من الملاحات الى الساحل لتيسير نقل الملح فى عربات تسير على هذه القضبان بالدفع، وعمل مرسى بجوار الساحل لتيسير شحن السفن، وعُين مأمورون على الملاحات، بل إن الإدارة المصرية عملت على تنظيم إستغلال الملح وتسويقه، فأرسلت عينات من مختلف أنواع الملح الى البلاد الأجنبية للترويج[٣].

١- محفظة ١٩ بحر برا وثيقة رقم ١٢١ فى (٩ شعبان ١٢٨٦).
- ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٩٥.

٢- محفظة ١٩ بحر برا تركى – وثيقة رقم ١٢٢ فى (١٠ شعبان ١٢٨٦)
- ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص٩٩.
وكذلك دفتر ١٨٤٧ معية وثيقة رقم ٦ صفحة ٥٢ فى (٢٩ رجب ١٢٨٧)
- ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص١٠٩.

٣- دفتر رقم ٣٥٤٣ ج ١ صادر محافظة سواكن – مكاتبة ص ١٩٥ رقم ١٦٦
- منشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٦٠.
ودفتر ١٩٣٥ أوامر – أمر المحافظ سواحل البحر الأحمر نمرة ١٣ ص ١٤٦.
- ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص١١٠.

وفى مستهل الأعمال التى عُنيت بها الإدارة المصرية بعد استلام سواكن ومصوع ترتيب وحدة صحية وتعيين طبيب وصيدلى لكل منهما، كما عُينت حكيمتان من التلميذات اللاتى أتممن الدارسة بالمدرسة الطبية، أحداهما لوحدة سواكن الصحية والأخرى لوحدة مصوع[١].

وللفصل فى المنازعات والخلافات شُكل مجلس فى كل من مصوع وسواكن من وجوه وعمد التجار، وللتسهيل على أرباب القضايا رأى المجلس المخصوص أن القضية التى تنظر فى أحد المجلسين ويستلزم استئنافها تنظر بالمجلس الثانى[٢].

ولقد استتب الأمن تماماً فى مصوع وسواكن فى ظل الإدارة المصرية، فقد عُين فى كل نقطة من النقط الهامة عدد من الجنود، وعلى رأسهم ضابط للضرب على أيدى العابثين بالنظام والأمن.

كما نُظمت مسألة جمع العشور والعوائد، ورُصدت فى دفاتر حتى لا يُظلم أحد، وساعد ذلك كله بالإضافة إلى الإهتمام بإعداد الموانى لاستقبال السفن وإنشاء الاساكل، على رواج التجارة، فكانت السفن تأتى بانتظام لسواكن محملة بالبضائع الهندية والآسيوية المختلفة، وتعود محملة بالملح والصمغ والعاج وغيرها من المنتجات السودانية.

ولما كان الأجانب قد أخذوا يتسللون الى الجهات الهامة بساحل أفريقيا الشرقى، وسواحل البحر الأحمر، ويعقدون إتفاقات مع شيوخ القبائل، فقد أصدرت الحكومة المصرية أوامر مشددة الى محافظ سواحل البحر الأحمر بمداومة المرور على السواحل واستكشافها وبيان حدودها، وتسجيل أسماء القبائل والمشايخ بدفاتر الحكمدارية وسجلات محكمة العموم بالخرطوم، وذلك لإثبات حقوق الحكومة المصرية، وبطلان الوسائل التى كانت الدول الإستعمارية تتبعها فى عقد المعاهدات مع المشايخ لشراء جهات من الساحل، كما فعل الطليان فى (رأس غريب) والفرنسيون فى جهة (أوبوك) قرب تاجروه.

١- دفتر ١٩٣٩ أوامر عربى رقم ٧٢ ص ١٠٣ ف (٥ ذى الحجة ١٢٨٨)

- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ١٢٨.

٢- قرار المجلس المخصوص رقم ١٠٤ دفتر ٧٨ ص ٩١.

- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ١٣١.

وقد حدث فعلاً لما بدأت مصر تبسط نفوذها على هذه الجهات، أن احتج حاكم عدن (أدوارد راسل) واضطرت الحكومة المصرية أن ترسل (مكيلوب باشا) وهو (إنجليزى الأصل) ليشرح لوالى عدن حقيقة الوضع، لأن المسألة - كما قالت الحكومة المصرية فى خطابها لرضوان بك- تتعلق بالسياسة، وتحتاج الى تفهيم الوالى المذكور ما يختص بها عن طريق من يكون له إلمام تام بلسانه[١].

٢- بربره

تابعت الحكومة المصرية جهودها فى سبيل توطيد النفوذ المصرى فى المناطق الأخرى الهامة بساحل البحر الأحمر الغربى ووضع حد للوسائل التى كانت تتبعها الدول الأجنبية للتدخل فى شئون هذه الجهات، فلما علمت بالنزاع المستمر بين القبائل فى بربره وعدم وجود سلطة تحفظ الأمن وتحسم الأمر، وإتخاذ الإنجليز فى عدن ذلك ذريعة للتدخل فى شئون هذه الجهات، ووصلت لمصر عدة استغاثات من شيوخ القبائل يستصرخون الحكومة المصرية أن تعاونهم لوضع حد للفوضى المنتشرة فى بلادهم- أرسلت أحمد ممتاز باشا محافظ سواحل البحر الأحمر سنة (١٨٧١) وبرفقته محافظ مصوع لإجراء الصلح بين القبائل، ثم أعقب ذلك إرسال (رضوان بك) أحد رجال البحرية المصرية وقائد وابور (الصاعقة) الى بربره تمهيداً لإرسال الجنود والموظفين لإدارة شئونها، ثم صدرت الأوامر (لمنزنجر بك) مدير عموم شرق السودان، ومحافظ سواحل البحر الأحمر بالتوجه بنفسه لبربره، فذهب إليها وكتب تقريراً وافياً عن حالتها فى عام (١٨٧٣)، أشار فيه لاضطراب الأمن وكثرة المشاحنات بين القبائل[٢].

وأوضح فى تقريره أن حاله ذلك الميناء- الذى حبته الطبيعة بميزات نادرة- سيئة فهو مهمل، شأنه فى ذلك شأن كافة المدن الساحلية التابعة إسماً للدولة العثمانية، وذكر أن البلدة تفتقر الى المياه العذبة والمبانى المستقرة، والمنشآت الصحية الدائمة، بالإضافة إلى إفتقارها لمن يُدبر شئونها، ويحفظ الأمن ويضع حداً للنزاع بين القبائل، وأشار إلى أن الانجليز بعدن يُعتبرون العقبة الكؤود التى تعترض بسط الحكومة المصرية لنفوذها فى هذه الجهات.

١- توجد ترجمة كاملة للمحادثات التى دارات بين (والى عدن) ورضا باشا محافظ عموم سواحل البحر الأحمر فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص (١٧٢- ١٨٠).

٢- دفتر ١٨٧٥ معية ص رقم ٣٨ فى (٢١ ذى القعدة ١٢٩٠)

- ونص التقرير منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف - ص (٢٠٠ - ٢٠٢).

وقد زار بربره قبل امتداد الإدارة المصرية إليها، الرحالة روشت (Rochet) وكذلك الرحالة الانجليزى برتون (Burton) ولم يكن أهلها يسمحون لأوربى بأن تطأ قدمه أرض بلادهم، ولكنهما زاراها متخفين فى ثياب عربية(١).

وكل ما كتب عن حالة بربره قبل الإدارة المصرية، يُوضح حالة الفوضى التى كانت تعانيها، وحاجتها الماسة لتنظيم كافة النواحى بها، كما يوضح اتجاه الأطماع الاستعمارية إليها(٢).

ولما امتد التنظيم المصرى إليها، بدا العمران يدب فيها، فقد عُين (رضوان باشا) من رجال البحرية المصرية محافظاً لإدارة شئونها، فاهتم بتعمير هذا الميناء الفريد، وشرع فورا فى إقامة المبانى اللازمة كديوان للمحافظة، وبناء الكمرك، ومستشفى، وجامع، و(وقره قول)، وخزان لتخزين الفحم(٣).

وكان المتبع أول الأمر أن يُشرف على الناحية الصحية طبيب الوابور الراسى فى الميناء، ولكنه رؤى ضرورة وجود طبيب مُقيم ليرعى الناحية الصحية بالبلدة، فقد يقوم الوابور لجهة أخرى فتحرم البلد من وجود طبيب بها، ولهذا عُين طبيبان

١- نشر (Rochet) مشاهداته فى كتابه:

Rochet: Voyage sur la Cote Orientale de la Mer Rouge, dans Pays d, Adel et le Royaume de Choa. (2 Vols. Paris 1841).

- أما برتون فكتب عن مشاهداته كتابه الهام

Burton: First Footsteps in East Africa (2 Vols. 1856)

وبرتون كان ظابطاً بالجيش الانجليزى فى الهند، وفى عام (١٨٥٤) زار مكة وعاد منها لمصر عن طريق البحر الأحمر، ثم رجع الى بمباى حيث استطاع بمساعدة شركة الهند الشرقية أن يقوم برحلى لشرق أفريقياً غزار (زيلع* و(هرر) و(بربره)، وأن يصف حياة السكان وعيشتهم وعاداقم فى هذه الجهات وصفاً دقيقاً مستفيضاً، وذيل كتابة بالمذكرات والمعلومات التى كتبها الرحالة السابقون الذين حالوا النزول لساحل أفريقياً الشرقى من أمثال (سبيك) و(باركر). هذا بالإضافة الى ملاحظات وتسجيلات مناخية وشرح لقواعد (اللغة الهررية)، وهى لغة سواحيلية خليط من العربية وغيرها من لغات القبائل التى وفدت على هذه الجهات، واندمجت فى القبائل العربية التى استقرت هناك، مع مجموعة من الألفاظ الانجليزية نشرها مع ما يقابلها من هذه اللغة الهرية، وقد نصح برتون انجلترا فى مقدمة كتابه باحتلال هذه البلاد، معدداً الأسباب التى يرى من أجلها لزوم ذلك، ولم ينس وهو يختم كتبه أن يعيد ترديد هذه النغمة الاستعمارية.

٢- أنظر Burton: First Footsteps in East Africa P 33

وكذلك نفس المرجع P 504.

وكذلك Douin: histoire du Rgne de Khedive Ismail Tomc 3 2 eme Partie P 176.

٣- دفتر رقم ١٠ أوامر عربى ص ٧٥ أمر رقم ١٥٦ فى (٩ ربيع الأول ١٢٩٣)

- ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢١٣.

ليقيم أحدهما فى بندر (بربره) والآخر فى (دوبار) - وهى ميناء صغير لا تبعد كثيراً عن (بربره) - وقد اعد مستشفى (بربره) بحيث يكفى القسم الداخلى به لخمسين شخصاً بالإضافة إلى القسم الخارجى[1].

ومن أمجد المشاريع التى تُذكر للمصريين بالفخر فى تلك البلاد - مشروع توصيل المياه العذبة من (دوبار) الى (بربره) وقد أرسل مهندس متخصص لدراسة هذا المشروع والإشراف على تنفيذه وتم المشروع وافتتحه المحافظ المصرى (رضوان باشا) بحفل عظيم، حضره عدد كبير من التجار، ومن شيوخ القبائل وبعض الصومال وضباط الجهادية والبحرية وبلغ طول خط المواسير التى مدت من الدوبار الى بربره (١٢,١٢٣ متراً)[2].

ولما وصلت المياه لبربره مُدت منها فروع للجامع والمستشفى وديوان المحافظة والجمرك[3].

ومع أن سكان بربره من الصومال كانوا يدينون بالإسلام، فقد كانوا يجهلون التعاليم الأساسية للدين الاسلامى، ولذا أرسل أحد مدرسى الجامع الأزهر وهو الشيخ (محمد بيومى الحنفى) ليجتمع بالقاضى والمفتى فى هذه الجهات ليوضح لهما المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية، ثم يعود بعد ذلك لمصر، إذ أن الحكومة المصرية كانت ترى من الأوفق بقاء قاض ومفتى من أهل البلاد لمعرفتهما بأخلاق الاهالى وعاداتهم[4].

١- دفتر ١١ صادر معية - وثيقة ص ٨٢ رقم ١٣٠ فى (٢٩ صفر ١٢٩٢)
- ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢١٢.
- وكذلك دفتر ٣٧١٤ معية عربى ص ١١٥ رقم ١٤ فى (٢٠ رجب ١٢٩٢).
- منشورة بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٢٣.

٢- دفتر ٢٥ عابدين صادر تلغرافات - تلغراف عربى نمره ١٠٣ فى (٢٥ شعبان ١٢٩٢)
- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٠٧٤.
- وكذلك دفتر نمرة ٣٧١٤ (وارد معيه عربى) ص ١٣٦ نمرة ١٧ فى (٦ شعبان ١٢٩٣).
ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٢٤.

٣- دفتر ١١ معية صادر ص ١٣١ وثيقة نمرة ١٨٤ فى (٩ جمادى الثانى ١٢٩٣)
ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٢٢.

٤- دفتر ٢٧١٤ معية ص ٤ فى (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣)
ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢١٩.

وقد كان المحافظ المصرى – كما ذكرنا فى تقاريره – يُداوم المرور داخل وخارج بربره ليطمئن على أن الأمن مستتب، والطرق آمنه، وأدى ذلك الى أن يترك الصومال ما كانوا قد اعتادوا عليه من السلب والنهب والقتل وقطع الطريق، وكانت الأوامر الصادرة للمحافظ أن يستعمل الحزم مع اللين، فى شدة قاسية ولا تساهل مطلق.

ولما كانت بربره بطبيعتها ميناءًا تجارياً فريداً صالحاً لرسو السفن، ويحميه من العواصف لسان من الأرض بحيث تُصبح السفن الداخلة فيه فى مأمن من غوائل البحر وتقلب الجو – فقد شجع ذلك الحكومة المصرية على أن تعنى عناية خاصة بإعداد الميناء وتزويده من جميع النواحى، ليكون أكثر أمناً وأفضل صلاحية لاستقبال السفن(١).

وقد زار (مكليوب باشا) رئيس عموم الفنارات والموانى، ميناء بربره وعين الأماكن الملائمة لإقامة فنار لهداية السفن، و(رصيف) لتسهيل الشحن والتفريغ، وقد استوردت الأدوات اللازمة لهما وأرسلت الى بربره فور وصولها لتركيبها(٢).

وحرصت الإدارة المصرية على تنظيم عملية البيع والشراء وضبطها حتى تستقر أمور التجارة وتزدهر، ولذا أرسلت الموازين والمكاييل من مصر لتوحيد الوزن والكيل، كما وُحدت العملة المستعملة، وكانت الأمور تسير من قبل بطريقة مضطربة غير نظامية، وأدت هذه الإصلاحات إلى اتساع نطاق التجارة واستقرار القبائل بالمدنية، بعد أن كانت لا تبقى إلا مدة الموسم فقط وهى تمتد من أكتوبر الى مارس(٣).

ورغم ما بذلته الحكومة المصرية من جهد، وما صرفته على بربره لإصلاحها وما كانت تتكبده سنوياً للمحافظة على الأمن بها، وإداراتها– فقد اضطرت تحت ضغط الحكومة الانجليزية الى عدم تحصيل جمارك بجهة بربره، وذلك لأن أغلب علاقاتها التجارية كانت مع عدن، كما اضطرت أيضا الى أن تفتح ميناء (بلهار) للتجارة– وهو ميناء صغير لا يبعد عن بربره إلا مسافة ٤٠ ميلاً، وفتحه وإعداده كميناء للتجارة كان يكبد الحكومة المصرية مصاريف باهظة. وقد رأى غوردون نفسه عندما تولى حكمداريه السودان عدم عدالة هذه الأوضاع.

١– دفتر ١٠ أوامر ص ١٨، ١٩ رقم ٢٧ فى (١٧ رمضان ١٢٩٢).

2- Douin: Op. Cit. P . 578

٣– دفتر ٣٧١٤ وارد معية عربى ص ١٤٦ رقم ٢٠ فى (١٢ شعبان ١٢٩٢)

– ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ٢٣٧.

ورغم أن وجود إدارة مصرية منتظمة فى بربره وقيام مواصلات مستمرة بينها وبين عدن وباقى موانى البحر الأحمر، قد أدى خدمات جليلة للانجليز فى عدن فانخفضت أسعار اللحوم والمسلى بها، وأصبحت متوفرة طوال العام، بعد أن كانت تنقطع فترة طويلة منه، إلا أن انجلترا كانت تتحين الفرص لتضع يدها على أملاك مصر فى هذه الجهات، ولعلها كانت تنتظر حتى يدوس المصريون لها على الأشواك بأقدامهم، ويمهدوا لها الطريق، ويذللوا العقبات، ثم تتسلم هى هذه الموانى والبلاد، والدليل على ذلك الزيارات المتكررة لبربر من قبل (هنتر)، القائد البحر الانجليزى بعدن، وما بدا من أحاديثه وأحاديث حاكم عدن للمسئولين المصريين بها[١].

هذا ونشير الى أن الرحالة (James) زار بربره فى الأيام الأخيرة للإدارة المصرية، ووصف المدينة الجديدة التى أقامها المصريون، وقارن بينها وبين (بربره) القديمة التى لم تكن تتعد عدة أكواخ، أما المدينة الجديدة ففيها مبنى للحكومة، وجامع، وحدائق، مستشفى ومنازل مزودة بالماء[٢].

٣- زيلع

فى يوليه (١٨٧٥) صدر فرمان بإحالة ميناء زيلع الذى كان خاضعاً للسلطنة العثمانية ومحولة إداراته الى سنجق الحديده للإدارة المصرية، مقابل دفع خمسة عشر ألف ليرة عثمانية سنويا[٣].

وقد قام رضوان باشا باستلام الميناء المذكور، وصدر الأمر (لمنزنجر بك) محافظ شرق السودان وسواحل البحر الأحمر بالتوجه إلى هذه الجهات أيضاً، والوقوف على حالتها من جميع نواحيها، وتقديم تقرير عنها، كما صدر الأمر لرؤوف باشا الذى كان فى معيه غوردون باشا فى اكتشاف جهات خط الاستواء، بإحالة هذه الجهات الى إدارته، وكُلف بالتوجه إليها وكتابه تقرير عما يراه لازما لها من وجوه الإصلاح[٤].

١- دفتر نمرة ٣٧١٦ وارد معية عربى – ص ٣٣ نمرة ١٣ فى (٢٥ محرم ١٢٩٤)
- ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٢٩.

2- James F. L: The unknown Horn of Africa (Anexploration From Berberah to Leopold river P. 20

٣- انظر الجزء الخامس من قاموس الإدارة والعقار ص ١٦٧.
ويذكـر (داون) بمناسبة المبلغ الذى دفعه إسماعيل مقابل أحاله (زيلع) الى الإدارة المصرية – أنه كان معروفاً بالقسطنطينية أن الخديوى إسماعيل مستعد دائماً لأن يدفع بسخاء فى مقابل توسيع سلطته.

٤- دفتر ٢ أوامر عربية– ص ٨٧ رقم ١٧٩، ونفس الدفتر ص ٨٨ رقم ١٨٢
- وكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٣٦، ٢٣٧.

ولدينا بالإضافة الى هذه التقارير المتعددة، وصف كامل لحالة زيلع كتبه الرحالة الانجليزى برتون (Burton) الذى أشرنا إليه سابقاً – فى عام ١٨٥٤ – فذكر أن مساحة زيلع تقرب من مساحة السويس وعدد سكانها يتراوح بين ٣,٠٠٠ نسمة، ٤,٠٠٠ نسمة، ومع ذلك فالمبنى من منازلها بالحجارة لا يتعدى ١٢ منزلاً والباقى عبارة عن عشش صغيرة من القش والحصير، ومنازل الأثرياء مفروشة بالحصير، ويدخلها النور والهواء من منافذ صغيرة، وهى مليئة بالخفافيش التى يتركونها تأوى الى منازلهم لأنها تخلصهم من الذباب والبعوض، وأما طرقاتها فمتربة وغير منتظمة، وليست هى بشوارع بالمعنى المعروف.

وذكر أن المياه العذبة غير متوفرة بالبلد، مما يتسبب عنه بعض الأمراض للسكان – كالحمى وغيرها– التى تنشأ بسبب رداءة مياه الشرب، غير أن الآبار العذبة تبعد عن زيلع بأربعة أميال تقريباً، وأما زيلع نفسها فآبارها كلها غير عذبه ولا تصلح للشرب، وهذا هو سبب عدم وجود خضروات بالبلد، وفضلاً عن تأثير ذلك على الحالة الصحية، فأن الأمراض تنتشر بسبب البعوض والذباب[١].

وقد عُنيت الإدارة المصرية بأمر زيلع، شأنها فى ذلك شأن كافة بلاد السواحل التى خضعت لها. وجُعل (أبو بكر شحيم) حاكم زيلع السابق محافظاً لها لمعرفته بحالة البلد والسكان وعاداتهم، ولكن عُين وكيل للمحافظة من الملمين بالقوانين والأحكام[٢]، وأرسل (عبدالقادر باشا) مأمور ضبط مصر للإشراف على الأعمال العاجلة اللازمة للمحافظة، فأشرف على تشييد المبانى اللازمة لديوان المحافظة والكمرك والمستشفى وأماكن لإقامة العساكر ومخازن ورصيف لتيسير عملية الشحن والتفريغ[٣].

وقد كانت الأحجار وبعض الأخشاب متوفرة فى زيلع نفسها، فاستخدمت فى هذه المبانى كما اشتغل فيها الصناع من الجنود[٤].

1- Burton: First footsteps in East Africa P. 21

٢- دفتر ١٠ أوامر ص ٢١ رقم ٢٥ فى (١٢ شوال ١٢٩٢)

– ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٥٠.

٣- دفتر رقم ٣٤ معية عربى ص ٨٦ فى (٢٥ ذى القعدة ١٢٩٢)

– ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٥٢.

٤- دفتر نمرة ١٠ أوامر عربى ص ١٧ رقم ٢٢ فى (١٦ رمضان ١٢٩٢)

– ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٤٥.

وقد بُحثت مسألة إمداد زيلع بالمياه النقية ولما لم يتيسر القيام بمد مواسير إلى البلدة من الآبار البعيدة عنها – كما عمل المصريون فى بربره وغيرها من موانى البحر الأحمر التى دخلت تحت الإدارة المصرية – أرسلت عدة عربات من مصر لاستخدامها مؤقتا فى نقل المياه النقية للبلدة، وأرسلت دواب النقل اللازمة لجرها[١].

وعُنيت الحكومة أيضاً بتأمين الطرق من زيلع إلى هرر ليأمن التجار والمترددون على هذه الجهات على أموالهم وأرواحهم، وقد بُذلت جهود جبارة لتوسيع الطريق الرئيسى الذى تسلكه التجارة من هرر إلى زيلع، وأدخلت الحكومة النقد وعممت استخدام الموازين والمكاييل، وأدى هذا كله إلى رواج التجارة.

وقد أُنشئت مصلحة ثانية لنظارة الزراعة والتجارة بمصر عُرفت باسم (مصلحة الملح والنطرون)، على أن تتبعها الملاحات الموجودة بسواحل البحر الأحمر، وعُين موظفون من قبل هذه المصلحة لتنظم استغلال ملاحات زيلع البالغ عددها خمس، وبُحثت الوسائل التى بها يمكن مضاعفة المستخرج من الملح والمباع منه، وأرسلت عينات منه إلى الخارج.

ومن الوسائل التى أُتبعت لترويج ملح زيلع بالذات تخفيض سعره، إذ رؤى أن هذا أدعى لمضاعفة تصريفه[٢].

ولما أشيع عن وجود الفحم بزيلع، أرسل إلى محافظها ليحث الاهالى سواء بالترغيب أو (الترهيب) للإرشاد عن مكان وجود هذا المعدن.

أما من الناحية الصحية فقد كانت عناية الإدارة المصرية بها بالغة، فُشيد بها مستشفى ورتب له الأطباء والممرضون وغيرهم من الموظفين، ولما أظهر الاهالى عدم ثقتهم فى (الحكيمباشى) الأوروبى المعين لهذه الجهة، استبدل بغيره من المصريين[٣].

ولانتظام اتصال هذه الجهة البعيدة بمصر وبغيرها من موانى البحر الأحمر، رُتبت خطوط ملاحية منتظمة بين بربره وعدن وزيلع وبينها وبين السويس،

١- دفتر ١٠ أوامر ص ٢١ رقم ٢٥ فى (١٢ شوال ١٢٩٢)
- ومنشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٥٠.

٢- دفتر رقم ١٥ معية عربى ص ١٠ رقم ٩ فى (٢٣ ربيع الثانى ١٢٩٢)
- ومنشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٥٨.
- وكذلك دفتر ٢٤ (وارد معية عربى) ص٢١ رقم ٢٩ فى (٦ ربيع الأول ١٢٩٤)

٣- دفتر ٢١ صادر معية عربى ص ٥٣ رقم ١٣ فى (١٣ رجب ١٢٩٤)
- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف – ص ٢٦٦.

وُضعت لها جداول دقيقة، وقد وجدنا فى محافظ المعية بالمحفوظات التاريخية بغض هذه الجداول مرتبة بطريقة تدعو للدهشة والإعجاب[١].

ورغم أن الإدارة المصرية فى زيلع وضعت نُصب أعينها أن تسهل أمور محافظة عدن فى تلك الجهة، وتقدم لها كل التسهيلات والمساعدات الممكنة- فإن الانجليز لم ينظروا بعين الارتياح إلى وجود المصريين فى هذه الجهات.

ولما أحليت زيلع للإدارة المصرية، اتجهت الأنظار إلى جهة (تاجورة) القريبة منها، فقد ألحقت إداراتها بجهة زيلع وأهمية تاجورة ترجع إلى أنها المنفذ للأقاليم الداخلية[٢].

٤- هرر

من زيلع خرجت حملة مصرية بقيادة (محمد رؤوف باشا)[٣] لتفح سلطنة هرر- وهرر كانت فى ذلك الوقت سلطنة إسلامية مستقلة أسسها جماعة من العرب هاجروا من الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى.

وقد زارها الرحالة (برتون) قبل الحكم المصرى وكانت ف ذلك الوقت تحت حكم الأمير (عبدالشكور) وقضى بها عشرة أيام وتحدث بإسهاب عن الطريق من زيلع لهرر، والقبائل التى تسكن هذه الجهات، وهى ترجع فى أصلها إلى قبيلتين كبريتين هما: السومال والجالا[٤].

ومن الذين زاروا هرر أيضاً الرحالة النمساوى فيليب بولتشكة (Paulitschke)، وقد زارها فى حماية ورعاية الإدارة المصرية، ووصف حالتها قبل الحكم المصرى وما أدخله المصريون من ضروب الإصلاح.

١- جداول هذه الخطوط ومواعيدها موجودة فى محفظة ٥٢ معية تركى - وثيقة رقم ٢٩٢ فى (٢٢ شعبان ١٢٩٢).

- ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص (٢٤١ إلى ٢٤٤).

٢- تحدث الرحالة (Rochet) بإسهاب عن أهمية (تاجورة)

أنظر Rochet: Voyage sur La Cote Orientale de La Mer Rouge P. 38

٣- محمد رؤوف باشا: ضابط مصرى صاحب (صمويل بيكر) فى حملاته لمد النفوذ المصرى إلى الجهات الواقعة جنوب (غندكرو)، وعين لفترة مديراً لمديرية خط الاستواء بعد بيكر، ثم قاد الحملة التى فتحت فى هرر، وأصبح حكمداراً لعموم الجالا والصومال وهرر حتى فصله غوردون فى عام (١٨٧٧) حين أصبح حكمداراً عاماً للسودان. وقد خلف غوردون كحكمدار للسودان سنة (١٨٨٠)، وفى عهدة ظهرت الحركة المهدية.

- اقرأ ترجمة تفصيلية له فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ١١ وما بعدها.

4- Burton: Op. Cit. P. 320

كما انه من أحسن ما كتب عنها التقرير المقدم من هيئة أركان حرب الجيش المصرى التى قامت بفتحها، فقد شمل كل ما يتعلق بالمدينة وسكانها[١].

وقد كان الحكم المصرى لهذه الجهات حكماً مستنيراً قائماً على أساس تعرف حالة السكان وحاجاتهم المختلفة، وتدارك هذه الحاجات، فقد أرسلت الحكومة المصرية لرؤوف باشا بمجرد فتح هرر خطاباً تستفسر فيه عن حالة هذه الجهات وسكانها من جميع النواحى لمعالجة أوجه النقص، ورد رؤوف باشا على هذا بتقرير واف عن هذه الجهات.

وأرسلت الحكومة المصرية مهندسين من رجال الجهادية لرسم خرائط لتعيين أماكن المبانى الهامة اللازمة لها، كما أصدرت الحكومة فرماناً للاهالى تعهدت فيه بنشر التعليم والعمل على استتباب الأمن، والإهتمام بالمرافق العامة، والنهضة بالزراعة والصناعة[٢].

وقد أوفت الحكومة بوعدها ففتحت عدة مدارس صغيرة لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والفقه على المذهب الشافعى، وقد تفقه بعض السكان فى علوم الشريعة وأدى ذلك إلى القضاء على الشوائب المخالفة للدين الصحيح، فأصبحت أحكام الشرعية الإسلامية الغراء هى النافذة.

كما اهتم رؤوف باشا حكمدار عام هرر وملحقاتها بترغيب السكان فى الزراعة، خاصة زراعة البن التى كانت تجود فى هذه الجهات، ولكن أمراء هرر كانوا يُحرمون زراعتها على السكان، وقد أرسلت من مصر بذور الحنطة والخضروات والفاكهة والقطن والذرة لتجربتها، وحث الاهالى على زراعتها[٣].

واهتم رؤوف باشا بتأمين الدروب، والضرب على ايدى قطاع الطرق فاستتب الأمن بعد أن كانت القوافل تعانى الكثير فى الطريق، وكان التجار يضطرون إلى أن يبذلوا بسخاء لاسترضاء رجال القبائل التى يمرون بها فى كل مرحلة من مراحل الطريق، ليأمنوا على أنفسهم وتجارتهم، وكان ذلك فى

١- محفظة ٣ عابدين وارد معية رقم ٤ فى (٣ محرم ١٢٩٢).

- منشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٩٣.

٢- دفتر رقم ١٠ أوامر عربى ص ٢٦ رقم ٢ فى (١٢ شوال ١٢٩٢)

- منشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٨٠.

٣- دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٧ رقم ٤ وملحقاتها فى (١٢ شوال ١٢٩٢)

- منشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٩٠.

الماضى سبباً فى تدهور التجارة، فأفقرت أسواق هرر من البضائع، واضمحلت تجارتها(١).

وعمد رؤوف باشا إلى إقامة المحطات فى الأقاليم والجهات الهامة التى تطرقها القوافل فعملت محطة فى (جلديسه) وأخرى فى (دارى) على أن يُقيم فى كل خمسمائة جندى(٢).

وقد نُظم النقد المتداول فى هرر، وحُددت قيمته، ونُبه على رؤوف باشا بعدم تحصيل أى جمارك أو عوائد خلاف ما اعتاد الاهالى دفعه، ورفضت الحكومة المصرية الآخذ برأى رؤوف باشا فيما يختص باحتكار التجارة فى بعض البضائع المعتاد تصديرها إلى بلاد العرب، أو فيما يختص باستخدام الحكومة لطريقة (المبادلة) فى التجارة مع الاهالى بدلاً من طريقة النقد(٣).

ولم تقتصر عناية الحكومة المصرية على تأمين الطريق بين زيلع وهرر وبينها وبين بربره بل عنيت أيضا بتوفير وسائل المواصلات السهلة التى تربط هرر بالجهات الأخرى، فأصبحت هرر متصلة بالجهات المجاورة بطرق برية آمنه - وبالعالم الخارجى بخطوط ملاحية منتظمة وأصبح البريد يرد إليها ويصدر بانتظام تام.

وقد شجع رؤوف باشا بعض شبان الصومال على مرافقة رجال الجيش من الصناع ليتعلموا منهم صناعة البرادة والحدادة وغيرها من الصناعات، وازدهر فى هرر نوع من الأقمشة، وليكون قدوة لغيرة من الموظفين والاهالى أعد رؤوف باشا لنفسه حلتين من هذه الأقمشة كما حرم على الجنود شراء أى شىء من غير أسوق هرر نفسها حتى تزدهر الحالة الاقتصادية بها(٤).

وقد أشار (دور بك) عضو الجمعية الجغرافية المصرية فى تقرير قدمه عن هرر بعد زيارته لها إلى نشاط الحالة الاقتصادية بها(٥).

1- Brockman: British Somaliland P. 217.

٢- دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٧٦ رقم ٨ (١٨ جمادى الثانية ١٢٩٢)

- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٣١٢.

٣- دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٢٣ رقم ١ فى (١٢ شوال ١٢٩٢)

- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٨٣.

٤- تقرير هيئة أركاب حرب مأمؤرية هرر فى (٣ محرم ١٢٩٣).

- منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٢٩٣.

٥- الوقائع المصرية عد ٦٥٥ فى (٢٨ ربيع أول ١٢٩٣)

- ونص التقرير موجود فى المحفوظات التاريخية (ورق دشت السودان).

وقد كان أهالى هرر يحصلون على المياه الضرورية لهم من الغُدران البعيدة عن المدنية فحفر رؤوف باشا قناة لجلب المياه إلى داخل المدينة ليوفر على الاهالى الجهد ويدرأ عنهم ما كانوا يتعرضون له من مخاطر [١].

٥- حملة الصومال

فى سبتمبر (١٨٧٥) أى فى الوقت الذى كان فيه رؤوف باشا فى طريقة لفتح هرر كانت حملة أخرى بقيادة ماكيلوب باشا (Mckillop Pasha) مدير الموانى والمنارات المصرية قد أقلعت من ميناء السويس قاصدة فتح باقى بلاد السودان الجنوبى والوصول إلى مصب نهر الجب، واشترك مع (ما كيلوب باشا) فى هذه الحملة عبدالرازق بك، ورضوان باشا، وشايى لونج (Chaill Long)[٢].

وهذا الأخير من الضباط الأمريكيين، وقد دخل خدمة مصر سنة (١٨٧٠) ومما يُذكر له أنه ظل مخلصاً لمصر حتى بعد انتهاء خدمته بها، فكتب عدة كتب دافع فيها عن حقوق مصر فى السودان من أهمها كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة)، وكتابه (أفريقيا الوسطى) وأيضاً كتابه (الأنبياء الثلاثة: غوردون، المهدى، عرابى).

وقد وصلت الحملة المصرية إلى (رأس حافون)، و(براوة)، و(قسمايو) عند مصب نهر الجب واحتلت هذه الجهات، وبدأت فى العمل لتعميرها[٣].

وكانت التعليمات تقضى بأن تتجه الحملة غرباً بقصد ارتياد الطريق من الساحل لمنطقة البحيرات الاستوائية لكى تتصل مصر بأملاكها فى هذه المنطقة عن هذا الطريق، طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى، وكانت السياسة مرسومة على أن تتُخذ نقط على الساحل وتُمهد منها الطرق للداخل سواء الطرق البحرية أو الحديدية أو البرية[٤].

١- تقرير هيئة أركاب حرب مأمؤرية هرر السابق الإشارة إليه.

ملاحظـــات:

أ - أنشـــئت (المعـــية الجغرافية الخديوية) سنة ١٨٧٥ وكانت تصدر مجلة باسمها تنتشر به الأبحاث الجغرافية العامة، كما كانت تبعث من أعضائها من يقوم بزيارة الجهات التى خضعت للإدارة المصرية حديثاً ليقدموا تقريراً وافياً عن هذه الجهات.

ب- صـــدرت الوقائع المصرية لأول مرة فى عهد محمد على وكانت تصدر بالتركية ولكنها انتظمت بعد ذلك فى عهد إسماعيل، وأصبحت تصدر أعدادها بالتركية والعربية ثم صارت تصدر بالعربية فقط.

٢- دفتر ١٠ أوامر عربى ص ٣٤ رقم ٨ فى (١٧ رمضان ١٢٩٤).

٣- تقرير رضوان باشا عن حملة الصومال فى (٥ شوال ١٢٩٤).

4- Douin: Op. Cit. P . 639

ولهذا الغرض بُحثت مسألة مد السكة الحديد من سواكن إلى بربره أو من سواكن إلى شندى، ومن مصوع إلى كسلة، وكان الاتجاه إلى تنفيذ نفس الأمر فيما تختص باتصال بالمديرية الاستوائية عن طريق خط حديدى يمر من الساحل.

وكانت الأوامر الصادرة لغوردون باشا أن يُبادر للإتجاه شرقاً لمقابلة الحملة وتيسير مهمتها، ولكن كما صرح (غوردون) نفسه انه لم يكن فى نيته تنفيذ هذا الأمر، وقد علق (شايى لونج) على ذلك بأنه لعله راجع لتعليمات صدرت لغوردون من الحكومة الإنجليزية(١).

وقد اخذ المصريون بمجرد أن خضعت لهم هذه الجهات الساحلية يعملون على تعميرها، والعمل علي استتباب الأمن بها، ويجرون الصلح بين القبائل المتنافرة التى كان النزاع المستمر بينها سبباً فى تعطيل الأعمال العمرانية والإنتاجية، فلما بدأت الأمور تستقر وشعر الاهالى بأن هناك قوة تصون الأمن وتحافظ على الأرواح والممتلكات أخذوا- كما يقول رضوان باشا فى تقريره- يتعاونون فى زراعة الحدائق، وعمل الآلات الزراعية وغيرها، لأن الأرض هناك على ساحل نهر (الجب) صالحة للزراعة، فلم يكن من عائق يحول دون ذلك إلا تنافر القبائل وتطاحنها واستمرار الحروب بينها.

وأرسل (ماكيوب باشا) رئيس الحملة فى (٢ ديسمبر ١٨٧٥) إلى مصر كشفاً ببيان الأشخاص والمهمات اللازمة لتعمير المناطق التى أخذت بساحل أفريقيا الشرقى، ويتضح من الكشف أن الحاجة كانت ماسة لعدد كبير من المهندسين والبنائين، والنجارين، والموظفين والفلاحين المهرة المتزوجين بنسائهم، وبلغ عدد من طلبهم من الرجال الفنيين اللازمين لتعمير هذه الجهات ٣١٤ رجلاً بمهماتهم وأدواتهم(٢).

وهكذاً أخذ العمران يدب فى هذه الجهات، واتجه الكل إلى الإنتاج والعمل.

ولكن كانت التجارة فى هذه المناطق أغلبها عن طريق المقايضة لعدم تداول العملة فيها، وطريقة المقايضة البدائية هذه لها من مساوئها وعدم ضبطها كما نعلم

1- Chaillie Long : L,Egypt et ses Provinces perdues P. 124.

ملاحظة : يذكر Chailli Long : Les trios prophtes P . 6.

إن غوردون فى كل تصرفاته منذ وطأت أقدامه ارض السودان كان يعمل لتصفية الممتلكات المصرية هناك.

والحـــوادث التالية تدل على صحة هذا القول، ففى تصريحات غوردون الخاصة، وفى الطريقة التى اتبعها فى معالجة المشاكل الناجمة عن الحركة المهدية ما يقطع بأنه كان يعمل فعلاً بهدف تصفية الحكم المصرى فى السودان.

٢- خطاب (مكيلوب باشا) لمهردار خديوى فى (٤ ذى القعدة ١٢٩٢).

ما يُقيد التعامل التجارى ويضيق نطاقه، ويجعل سيرة فى أفق محدود- لذلك فقد عمد المصريون إلى نشر استعمال العُملة فى هذه الجهات، لتنشيط التجارة وزيادة حركة التعامل بين الناس.

ولا شك فى أن روح التعمير والبناء، وحث الاهالى على العمل والإنتاج، والاهتمام بجلب الفنيين لمختلف الحرف والصناعات- التى بدت من المصريين منذ اللحظة الأولى تُعطينا فكرة عما كان ينتظر هذه الجهات من تقدم ورقى ونهضة، لو قُدر للحكم المصرى أن يظل بها مدة طويلة، ولكن وقفت انجلتراً فى وجه الامتداد المصرى فى هذه الجهات، وأجبرت الحكومة المصرية على سحب حاميتها منها، وقد عقد فى سبتمبر سنة (١٨٧٧) بين مصر وانجلتراً معاهدة اعترفت فيها انجلترا بسلطان مصر على بلاد السومال حتى رأس خافون[١].

٦- الملاحة المصرية فى البحر الأحمر

كان طبيعياً أن تهتم مصر بتدعيم أسطولها فى البحر الأحمر ليمكنها ربط هذه المناطق الشاسعة التى دخلت تحت حوزتها بعضها بالبعض الأخر، ولذا فقد اتجهت الأنظار إلى بعث الحياة فى ترسانة الإسكندرية، وتزويدها بحاجتها من الآلات والمواد الخام والفنيين، وأنشئت بجوارها مدرسة بحرية عُين لنظارتها ضابط انجليزى هو (مكيلوب باشا) الذى أشرنا إليه من قبل- والذى أصبح فيما بعد رئيساً لمصلحة الموانى والفنارات، وقد اهتمت الحكومة باختيار طلبة هذه المدرسة البحرية، وبتعليمهم، وبعثت بعدد كبير من الخريجين إلى البلاد الأوروبية، لإتمام علومهم البحرية، وأوصت على عدد من السفن الحربية المدرعة لحماية أسطولها فى البحر الأحمر[٢].

ولكن انجلتر لجأت إلى طريقتها التقليدية، فأثارت مخاوف الدولة العثمانية من نتائج تقوية أسطول مصر التجارى، فوقفت الدولة العثمانية حائلاً دون تقوية مصر لأسطولها الحربى- فاتجهت الجهود إلى ناحية أخرى، هى تقوية شركات الملاحة التجارية كالشركة العزيزية ومصلحة وابورات البوستة الخديوية أجل الخدمات للحكومة المصرية فى تنفيذ سياستها فى البحر الأحمر وموانيه[٣].

١- إسماعيل سرهنك باشا: حقائق الأخبار عن دول البحار ج٢.

- وكذلك انظر نص المعاهدة فى المحفوظات التاريخية بعابدين القسم الاجنبى – دوسية رقم (73/2) F.O.

٢- إسماعيل سر هنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ح ٢ ٢٨٧.

٣- لمـن يريد معلومات أوفى عن شركات الملاحة المصرية فى البحر الأحمر يرجع لكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص (٣٥٥- ٣٨٩).

وقد اهتمت مصر بإعداد موانى البحر الأحمر المختلفة للملاحة، وأنشأت الفنارات لهداية السفن[١]. فأصبحت الملاحة فى هذا البحر آمنة منتظمة، وأصبحت للشركات الملاحية المصرية والأجنبية خطوط ملاحية متعددة فى هذا البحر، وبواخر خاصة تقوم برحلاتها البحرية حسب جداول دقيقة ومعروفة[٢].

هذه صورة بسيطة جداً لبعض الجهود التى بذلتها مصر فى البحر الأحمر وموانيه والتى إمتدت إليها الإدارة المصرية، ومنها يتضح بجلاء أن مصر تعتبر أن رسالتها فى هذه الجهات هى التعمير والبناء، والأخذ بأيدى السكان والنهوض بهم فى مختلف ميادين الحياة المدنية والثقافية والاقتصادية والدينية، ومن هنا يتضح البون الشاسع بين الامتداد المصرى فى هذه الجهات الأفريقية فى خصائصه ونتائجه، وبين الاستعمار الاوربى البغيض الذى كان دائماً لا ينظر إلى مصالح السكان الأصليين، بل ينظر إلى مصالح البلد المستعمر على أنها فى المرتبة الثانية، فيضحى بتلك المصالح طالما كانت تتعارض مع مصالح المستعمر، وأغراضه الابتزازية الإقتصادية أو مراميه السياسية.

ولذلك لم يكن عجيباً أن تنظر الدول الإستعمارية وبخاصة انجلترا بعين القلق لسيطرة مصر على هذه المناطق الهامة المطلة على البحر الأحمر، ورغم كل المحاولات التى بذلتها مصر لسكب رضا الدول الأوروبية، وانجلترا بنوع خاص لنيل موافقتها بقدر الإمكان على المشروعات التى تقوم بها الحكومة المصرية، فى هذه الجهات، ورغم التجاء الحكومة المصرية لاستخدام عدد ضخم من الأجانب لتحقيق مشروعاتها على أمل أن يؤدى ذلك لكسب دولهم إلى جانب مصر، أو على الأقل لضمان عدم اعتراضها على المشروعات المصرية فى منطقة البحر الأحمر ذات الأهمية الحيوية، ورغم التسهيلات والخدمات التى ذكرنا أن إدارة المصرية أدتها فى بربره وزيلع وغيرها لانجلترا والدول الاستعمارية الأخرى- فقد ظلت تتحين الفرص لطرد مصر من هذه الجهات التى كانت قد بدأت تنعم بالحكم المصرى المنتظم.

١- دفتر ١٨٩٤ أوامر صفحة ١٨٣ مسلسلة ٩٥ فى (٨ محرم ١٢٧٧)

- ومنشورة فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٣٩٣.

٢- محفظة ٥٢ معية تركى وثيقة رقم ٢٩٢ فى (٢٢ شعبان ١٢٩٢)

- ومنشورة بعض هذه الجداول فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف ص ٣٤٢.

٧- أطماع إنجلترا والدول الاستعمارية الأخرى في هذه الجهات ومصير أمرك مصر فيها

أتاح التدهور الاقتصادى والسياسى الذى انتاب مصر منذ أواخر عهد إسماعيل فرصة ذهبية للدول الاستعمارية لتحقيق أطماعها فى أملاك مصر، ولعبت السياسة الانجليزية دوراً عجيباً ملتوياً لتحقيق أطماعه هذه، فهى تارة تُجبر مصر على إخلاء أقاليم مطمئنة هادية من ممتلكاتها بحجة الإرهاق المادى الذى تُسببه إدارة مصر لهذه الأقاليم للخزانة المصرية المرهقة، وذلك بالطبع ليتيسر لها وضع يدها على هذه الأقاليم.

وتارة أخرى تتذرع باسم حق مصر الشرعى فى ممتلكاتها، لتقصى دولة استعمارية منافسة أخرى.

ومرة ثالثة تُسلم أملاك مصر لدولة حليفة أو قليلة الخطر حتى تتحين الفرص المواتية لتضع يدها هى على الفريسة.

وهكذا لم يأت عام (١٨٨٤) حتى كانت الدول الاستعمارية قد اقتسمت أملاك مصر فى السودان الشرقى، وشرق أفريقيا، وكان نصيب انجلترا وحليفتها ايطاليا فى ذلك الوقت نصيب الأسد من أملاك هذه الفريسة المغلوبة على أمرها.

فأخذ الايطاليون بمعاونة الانجليز يمتدون من منطقة "عصب" التى اتخذوها (كمسمار جحا)، فوضعوا أيديهم سنة ١٨٨٢ على (مصوع) واحتلوا (بيلول) وبسطوا سلطانهم على المنطقة كلها الممتدة من رأس نصار (جنوب سواكن) إلى (أوبوك)، وفى مارس (١٨٩٠) صدر مرسوم ايطالى ينظم أمر هذه الممتلكات الايطالية على البحر الأحمر التى سُميت فى المرسوم باسم (إرسريا)[1].

على أن هذا النصر العجيب أسال بالطبع بعض لعاب الايطاليين فتتطلعوا إلى غنيمة أخرى، وكانت أطماعهم متجهة إلى الحبشة، ولتحقيق هذا الهدف فكر الايطاليون فى احتلال ساحل السومال، إذ أن هذه الجهات كانت المنفذ الجنوبى لبلاد الحبشة فباستيلائهم عليها يستطيعون تطويق الحبشة من الجنوب، وبذا يقفلون الطريق أمامها للمحيط الهندى، كما أغلقوا طريق البحر الأحمر، باستيلائهم على المواني التى كونوا منها مستعمراتهم فى أرتريا، واستطاعت ايطاليا أن تتفق مع صديقتها انجلترا فى سنة (١٨٩١) على رسم حدود منطقة النفوذ الجنوبية هذه والطريف أن انجلترا سمحت لايطاليا بوضع يدها على موانى (براوه)، (مقديشو)،

١- الوثائق المتعلقة بمشكلة عصب – نشرها المؤلف فى كتاب الوثائق التاريخية صفحة (١٨١- ١٨٧).

وهى الموانى التى أرغمت المصريين على إخلائها، وحاولت ايطاليا بعد ذلك أن تضرب ضربتها المنتظرة على الحبشة لكن هزيمتها المشهورة فى عدوة (١٨٩٦) وضعت حداً لكل هذه الأحلام الاستعمارية الجميلة.

أما انجلترا فقد وقع اختيارها – من أملاك مصر على الجهات المقابلة لعدن على البر الثانى، فقد أجبرت مصر سنة (١٨٨٤) على إخلاء بربره وبلهار وزيلع واحتلتها هى، وكونت منها ما سمى **(بالسومال الإنجليزى)**.

أما **هرر** فقد أجبرت انجلترا مصر على إخلائها فى مايو ١٨٨٥ وتسليمها للأمير عبدالشكور بن أمير هرهر السابق، ويبدو أن انجلترا كانت تعتبر هذا الإجراء إجراءاً مؤقتاً حتى تتاح لها الفرصة بوضع يدها عليها وإدارتها، ولكن فى عام (١٨٨٧) زحف منليك ملك شوا (ملك الحبشة فيما بعد) على هرر واستولى عليها ولا تزال فى يد الأحباش إلى اليوم.

ولم تخرج فرنساً صُفر اليدين من هذه الغنيمة، فقد تذكر الفرنسيون أن هناك مسماراً آخر لجحاً، وكان جحاً فى هذه المرة يستظل تحت الراية الفرنسية، فقد تذكروا أن فرنسياً اشترى أو على الأقل ادعى أنه اشترى من احد مشايخ القبائل ميناء (أوبوك) فى عام (١٨٦٢)، ولم تهتم فرنساً بهذا الأمر فى ذلك الوقت، ولكن فى عام (١٨٨٢) حين فتحت مدافع الانجليز– التى كانت تضرب الإسكندرية– آذان الفرنسيين وأبصارهم إلى التغيير المترقب حدوثه فى هذه المناطق الحيوية الهامة– بادرت فرنسا إلى احتلال (أوبوك) والى التوسع منها إلى الداخل، فاستولت على (تاجوره) وعلى جيبوبتى وعلى غيرها من الجهات الساحلية القريبة، ولم يكن هذا غريباً فقد كانت هذه الجهات الخاضعة للنفوذ المصرى نهباً مستساغاً فى ذلك الوقت، وفى سنة (١٨٩٦) صدر مرسوم فرنسى بضم هذه الجهات تحت اسم **(الصومال الفرنسى)**.

هذه هى قصة إخلاء الإدارة المصرية لهذه الجهات، ومأساة إخلائها، ومبرراتها أو عدم مبرراتها– مسألة يطول الحديث فيها ويضيق هذا المجال عن التعرض لها، ولكن يكفى أن أشير إلى أن السكان أنفسهم بهذه الجهات – من وطنيين وأجانب– أصيبوا بالذهول لما علموا بأمر إخلاء الإدارة المصرية لها، ووصل الأمر بالتجار الأجانب الذين كانوا قد استقروا بهرر وزيلع وبربره وغيرها واستثمروا أموالهم هناك فى ظل الإدارة المصرية– أن قدموا لرضوان باشا الذى كان مكلفاً بإخلاء هذه الجهات عرائض ممضاة ذكروا فيها أنهم لم يُصدقوا النبأ حين وصلهم، أما وقد ظهر أنه حقيقى فإنهم يحتجون على هذا التصرف البعيد عن

الحكومة، وقدموا (بروتستو) على الحكومة المصرية يحملونها نتيجة إخلاء هذه المناطق الآمنة، ويذكرون أنهم لولا شعورهم بالأمن والطمأنينة لما نقلوا ثرواتهم وممتلكاتهم وعائلاتهم واستقروا فى هذه الجهات، وان سحب الإدارة المصرية منها سيعرضها لعوامل الفوضى، ويعرض حياتهم وأموالهم للإخطار، وهم يحملون الحكومة المصرية نتائج ذلك كله(١).

والغريب أن انجلترا أو غيرها من الدول الاستعمارية التى استولت على أملاك مصر لم تدفع أى تعويض عن المشروعات العمرانية والمبانى التى أقامها المصريون وصرفوا عليها آلاف الجنيهات خلاف الجهود المضنية، بل الأغرب من ذلك أن المصريين ظلوا يدفعون مرتب نائب القنصل الانجليزى المكلف بإدارة هذه الجهات، بل والإضافة السنوية التى كانت تدفعها مصر للدولة العثمانية فى مقابل ضم زيلع ومصوع وسواكن حتى بعد إخلاء هذه الجهات واحتلال هذه الدول الاستعمارية لها.

وهكذا طُويت صفحة الحكم المصرى بهذه الجهات، ولا شك فى أن أى حكم محايد عادل لا يستطيع أن يُنكر ما أدته الإدارة المصرية المنتظمة من خدمات لهذه البلاد وسكانها، ويستطيع أن يلمس البون الشائع بين أهداف مصر واتجاهاتها وبين أهداف الاستعمار الاوروبى ومراميه ووسائله.

٨- نتائج حكم المصريين لهذه البلاد

لا شك فى أن هذه البلاد نعمت فى ظل الحكم المصرى بإدارة مستنيرة، قفزت بها إلى مدارج الحضارة بخطوات واسعة، ولو دام الحكم المصرى مدة أطول لتأصلت تعاليم الإسلام فى قلوب الاهالى، ولقضت على كثير من الرذائل التى لا تزال منتشرة إلى اليوم.

وقد اعترف الرحالة النمساوى فيليب بولتشكة (Philip Pautischke) الذى زار هرر والجهات المجاورة لها فى نهاية الحكم المصرى - بما نال هذه البلاد من الخير تحت إدارة المصريين(٢).

١- ملخص العرائض المقدمة منن تجار هرر وعلمائها وأعيانها منشور فى كتاب الوثائق التاريخية للمؤلف.

- وانظر أيضاً تقرير رضوان باشا المقدم إلى الديوان الخديوى فى (١٩ فبراير ١٨٨٥) عن عملية إخلاء هذه الجهات.

٢- فيليب بولتشكة عالم نمساوى زار هرر والجهات المجاورة لها فى نهاية الحكم المصرى بهذه الجهات وكتب عنها عده بحوث وكتب أهمها:

أ - هرر تحت الحكم المصرى: بحث بالفرنسية نشرف فى مجله الجمعية الجغرافية عدد مارس (١٨٨٧).

ب- الكشوف الجغرافية فى أرض عادل وهرر: كتاب بالألمانية نشر فى ليبزج (١٨٨٨).

ج- هرر- رحالة فى أرض السومال والجالا وشرق أفريقياً : كتاب بالألمانية نشر فى ليبزرح (١٨٨٨).

وحتى الكتاب المغرضين من الانجليز أمثال جيمس (James) الذى زار هذه البلاد فى أواخر عهدها بالحكم المصرى، وعاد إليها بعد أن أنزلت عنها الراية المصرية وكتب عنها كتابه (The Unknown Horn of Africa) - نستطيع أن نلمس فى أقوالة الحقائق الصارخة التى حاول أن يّخفيها أو يطمسها فقد ذكر مثلاً أن السوماليين فى الحقيقة لا يُحبون المصريين، كما أنهم يبغضون التجار الأجانب الذين يأتون لمشار كهتم أرزاقهم، ولذلك فقد رحبواً به وبأعوانه لما علمواً أنهم ليسواً مصريين ولا تجاراً[١] وهذا كلام مضحك ووجه المغالطة فيه واضح، فقبل الحكم المصرى لم يجرؤ أجنبى أن يطأ هذه البلاد بأقدامه، وقد صرح (برتون) وغيره بذلك، وقد قابل الاهالى إجلاء المصريين عن هذه البلاد بالوجوم ولدينا العرائض المتعددة بإمضاءاتهم وبخط الاهالى يعبرون فيها عن جزعهم لما سمعواً عن نية مصر إخلاء هذه الجهات، فكيف يدعى هذا الكاتب أن السكان يرحبون بالانجليز وأمثالهم ويفضلونهم على المصريين المسلمين، وقد ظل سكان هذه البلاد بالذات سنين طويلة يحملون راية الجهاد ضد الحبشة وضد البرتغاليين فى حروب لاشك فى أنها امتداد للحروب الصليبية المعروفة.

أما قوله بأن أعمال المصريين العمرانية فى هذه الجهات لا تكاد تذكر[٢]. فإن فى فلتات كلامه أثناء وصفه لمديرية بربره الجديدة التى أنشاها المصريون وحديثة عن نظامها وبساتينها الجميلة والصور الفوتوغرافية الرائعة التى أخذها لمنزل الحاكم والحديقة والنافورة، ووصفه للمستشفى والسجن، ولمكتب البريد والمخازن والمنازل وعملية المياه التى ذكر أنها تصل المدينة فى أنابيب حديدية من على بعد عدة أميال، وغيرها من الأشياء التى ذكرها عفواً وهو يصف المدينة التى استحوذ عليها السادة الانجليز دون أن يذكر من هم أصحاب الفضل الأول والأخير فى النهوض بها بهده الدرجة من التقدم والرقى - كل هذا يدل على مبلغ ما بذله المصريون وعلى أن من يُنكر عليهم جهودهم إنما يكتب بروح التحيز البغيض الذى يجب أن يتحرر منه الكاتب النزيه.

ومن أمثال جيمس الكاتب الانحليزى بركمان (Brockman) الذى كتب فى كتابه (Britisn Somaliland) يقول أن ماطرا على بربره أثناء الحكم المصرى من التغيير شىء لا يُذكر وهذا تطاول أيضاً على الحقيقة، فالكاتب يناقض نفسه بنفسه إذ بيمنا نراه يصف بربره أيام زيادة (جونستون) لها قبل التنظيم المصرى بأنها

1- James : The Unknown ?Horn of Africa P. 12

٢- نفس المرجع السابق.

مجموعة عشش مبعثرة بلا نظام تدل على الحياة البدوية غير المستقرة ويرجع ذلك السببين:

١- معارضة السوماليين لزيارة أى غريب لبلدهم.
٢- عدم وجود المياه فى بربره فهم يحصلون عليها من بلده (دوبار) على مسافة كبيرة تبلغ ثمانية أميال.

نراه يتحدث بعد ذلك عن زوال هذه العقبات بوصول المياه إلى بربره، ويصف المنازل الجديدة بأنها شرقية فى طابعا، وتحتوى على فناء واسع وسط كل منزل نافورة، هذا بخلاف مبانى الحكومة، ثم قال إن المياه من منبعها من دوبار تمر فى خزان لتبريدها، وبجوار هذا الخزان بُنى حصن لحماية هذه المياه، ويتحدث عن فنار بلهار ومبانى الجمرك وغيرها[1].

ذكر كل هذا وهو يعرض لوصف المدينة الجديدة، ونسنى بل نتناسى أصحاب الفضل فى هذا كله، وتجاهل أن الفضل يرجع إلى أولئك الذين أشار فى أول كتابه إلى أنهم لم يُغيروا الكثير من شأن بربره.

لقد اجتث المصريون الأشواك التى كانت تعترض طريق الإصلاح، وأوجدوا وسائل الحياة المستقرة الآمنة فى هذه الجهات البعيدة، وجاء الانجليز لينعموا بثمار هذا كله دون جهد بذلوه، أو مال أنفقوه، وبلا حق مشروع يخول لهم طرد المصريين واحتلال أماكنهم فى هذه البلاد الإسلامية الإفريقية، اللهم إلا حق القوى فى أن يجبر الضعيف على ترك ثمار جهوده، وجهاده ليغتصبها وينعم بها دون حق صاحبها.

وإذاً فمن حق هذا الوطن علينا وعلى المشتغلين بالتاريخ بنوع خاص، أن نُبرز هذه الجهود المضنية التى بذلت وأن نظهر هذه الصحائف الناصعة التى يحاول المستعمر أن يطمسها، فمن عيوبنا أن جهودنا وخدماتنا ننسى دون أن نهتم حتى بتسجيلها، بينما يضخم الغربيون القليل الذى يؤديه، بل يُبرزون جهودهم الشخصية التى يبذلونها لخدمة مصالحهم هم فى ثوب المنفعة العامة، فيظهرون فى ثوب المضحين الباذلين وهم المغتصبون النفعيون.

1- Brockman: British Somaliland P . P . 40 & 88

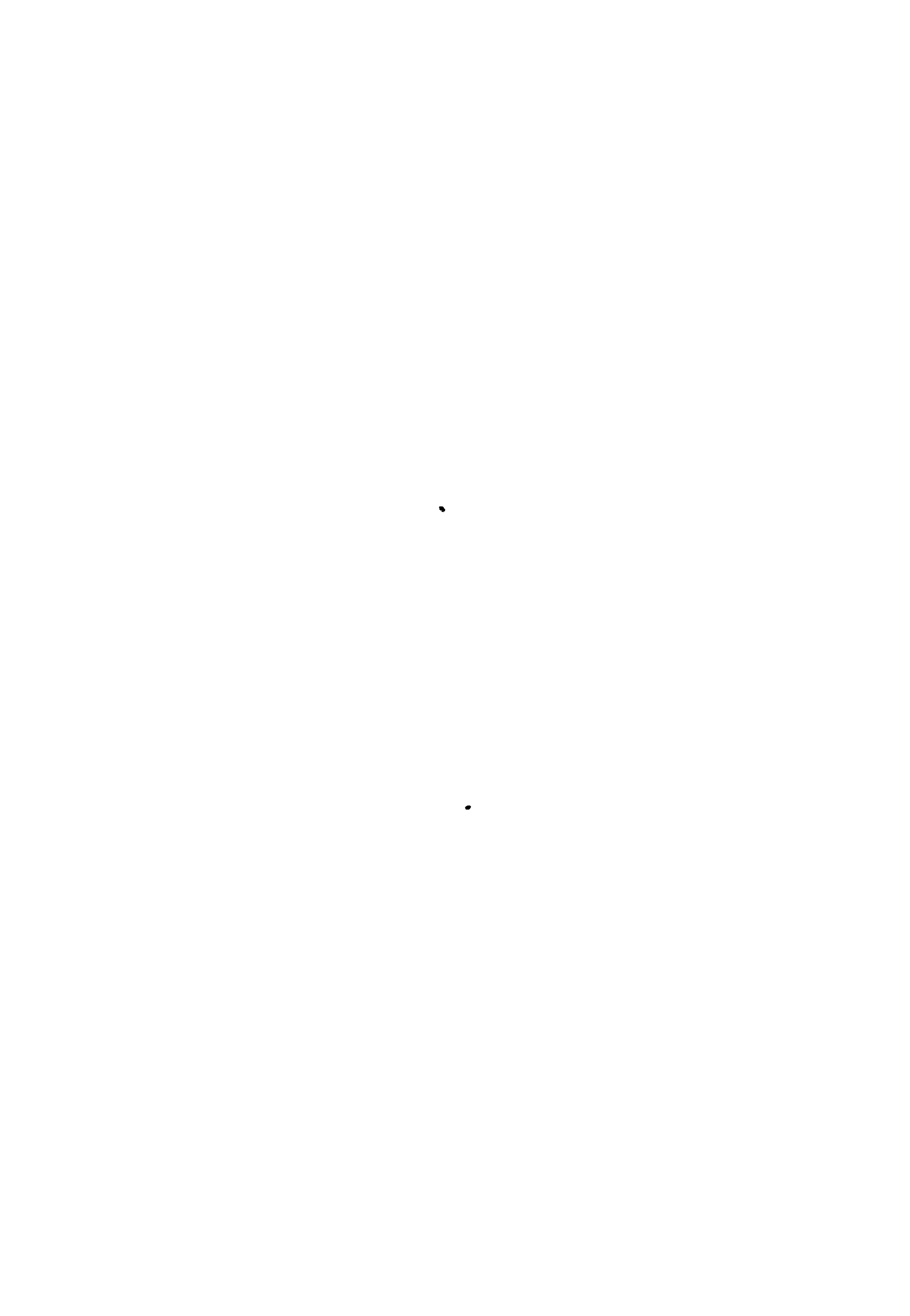
٩

الفصل التاسع
امتداد الإدارة المصرية لمديرية خط الاستواء والوصول لمنابع النيل الاستوائية

- حملات سليم قبطان السابقة.
- تكليف صموئيل بيكر بإنشاء مديرية خط الاستواء وما تم فى هذا المجال.
- رءوف مدير المديرية خط الاستواء.
- غوردون مديرا لمديرية خط الاستواء.

حدود المديرية فى عهده.

- حملة ماكيلوب باشا والهدف منها ونتائجها.
- مد نفوذ مصر لمنطقة البحيرات الاستوائية.
  - شايى لونج فى أوغنده.
  - بعثة إرنست لينان.
  - بعثة جيسي.
  - بعثة نوراغا.
- مديرية خط الاستواء بعد غوردون.
- أمين باشا (ادوارد شتنزر) مديرًا لمديرية خط الاستواء.
- أحوال مديرية خط الاستواء فى عهد إدارة أمين باشا.
- نتائج امتداد الإدارة المصرية لخط الاستواء.



الفصل التاسع
امتداد الإدارة المصرية لمديرية خط الاستواء
والوصول لمنابع النيل الاستوائية

رغـم أن الحملات التى قادها البكباشى (سليم قبطان) فى عهد محمد على قد وصلت إلى القرب من (غندكور) ولكن لم يقترن هذا العمل بوضع حاميات عسكرية تثبت سلطة الحكومة فى هذه الجهات.

وفى عام (١٨٦٥) فى عهد حكمدارية (جعفر صادق باشا) مدت السلطات المصرية نفوذها إلى (فاشوده)،[١] واتخذتها عاصمة للمديرية التى سُميت بهذا الاسم، وأقيمت فيها نقطة عسكرية وأصبحت لها أهمية خاصة بسبب موقعها فى ملتقى الطرق المختلفة المؤدية إلى جنوب السودان، فهى مفتاح الطريق المؤدى لمنطقة البحيرات الاستوائية.

أما امتداد الإدارة المصرية جنوبًا لمديرية خط الاستواء، فيرجع للجهود التى كلف بالقيام بها كل من السير صموئيل بيكر (Samuel Baker) وغوردون (Gordon).

أولا: تكليف صموئيل بيكر بإنشاء مديرية خط الاستواء ١٨٦٩-١٨٧٣

يبدأ تاريخ مديرية خط الاستواء من عام (١٨٦٩) حين كُلف السير صموئيل بيكر بالعمل لمد سلطان الإدارة المصرية إلى خط الاستواء، وقد كانت الحكومة المصرية تهدف إلى تحقيق أمرين:

١- **الأمر الأول:** مد الإدارة المصرية إلى منابع النيل الاستوائية، وما يترتب على ذلك من نشر المدنية فى هذه الجهات، وتنشيط الزراعة والتجارة بها[٢].

١- غيرت إنجلترا بعد ذلك اسم فاشوده باسم (كودوك)، كما غيرت اسم مديرية فاشوده (بمديرية النيل الأعلى) أو (مديرية أعالى النيل).

واشتهرت (فاشوده) فى التاريخ حين احتلتها كتيبة فرنسية بقيادة مرشان (Marchand) فى عام ١٨٩٨، وكاد هذه الحادث يؤدى إلى الحرب بين إنجلترا وفرنسا، ولكن رضخت فرنسا لإحتجاج إنجلترا الذى بنى على أن (فاشوده) من الأراضى المصرية فسحبت حاميتها منها.

٢- دفتر ٥٧٣ صادر المعية (تركى) – ص ٢١٧ رقم ٥٦ فى (٤ صفر ١٢٨٦) المكاتبة الصادرة من الجناب العالى إلى ناظر الداخلية بخصوص بعثة (النيل الأبيض). وكذلك دفتر ١٩٣٤ أوامر كريمة – أمر رقم ٣١ ص ٥ فى (٢٨ شعبان ١٢٨٦) من الخديوى إلى الحكام ونظار الأقسام ومشايخ وعمد الأهالى بجهاتهم والعربان بالجهات الداخلية بالبحر الأبيض بأقاليم السودان بشأن هدف البعثة المصرية فى نشر التقدم والمدنية.

٢- **الأمر الثانى:** استئصال تجارة الرقيق.

ولعل الخديو إسماعيل لمس أن أوربا وخاصة إنجلترا كانت شديدة الرغبة فى استئصال تجارة الرقيق، فأراد أن يستغل ذلك ليتخذ من إمتداد الحكم المصرى وسيلة لاستئصال هذه التجارة المحرمة، ونظرًا لأن إنجلترا تعضده وتؤيده فى استئصال هذه التجارة فإنها لا تعارض فى امتداد التنظيمات المصرية لمنابع النيل، طالما أن ذلك يحقق الرغبة فى القضاء على تجارة الرقيق.

وهذا لا يعنى بحال ما أن مصر لم تكن جادة أو راغبة فى محاربة تجارة الرقيق ولكن الفكرة أنه يمكن إستغلال فرصة عدم معارضة إنجلترا لتحقيق الهدفين معًا.

وتجارة الرقيق - كانت قد أصبحت محرمة بموجب اتفاقات بين الدولة العثمانية والدول الكبرى، ولكن فى كل مكان كانت هذه التجارة مستمرة، ولها مراكزها وأسواقها، وأثناء زيارة الخديو إسماعيل لإنجلترا - انتهزت بعض الجمعيات الدينية الفرصة وقدمت له التماسات ليستأصل هذه التجارة.

المهم أن الخديو إسماعيل برر أمام الدول مشروعه فى إقامة إدارة مصرية تمتد إلى أعالى النيل بأن هذا العمل يجعل هذه المناطق تخضع لحكومة نظامية تنشر الحضارة والنظام والأمن وسيادة القانون فيها.

ولعل لاختيار صموئيل بيكر بالذات لهذا العمل يرجع لأسباب عدة منها:

١- مساهمته فى كشف منابع النيل - فهو على علم بهذه المناطق، فبيكر سبق أن سافر إلى هذه المناطق فى عام (١٨٦٣)، وقد التقى عند (غندكرو) بالرحالتين (سبيك) و(جرانت) وأخبراه بكشفهما بحيرة فكتوريا، وبما علماه من الأهالى عن وجود بحيرة لم يكتشفاها - فسافر إليها وكشفها فى (١٤ مارس ١٨٦٤) وأسماها بحيرة (البرت) على اسم الأمير (البرت) زوج الملكة فكتوريا، ثم رجع من كشفه هذا لإنجلترا - وقد منحته الجمعية الجغرافية الإنجليزية الميدالية الذهبية[1].

٢- ويقال إن الحكومة الإنجليزية هى التى أشارت على الخديوى إسماعيل بشخص (السير صموئيل بيكر)، وأن أمير ويلز (الذى أصبح بعد ذلك الملك أدوارد

١- أشار الخديو إلى ذلك فى مكاتبته إلى ناظر الداخلية بخصوص بعثة النيل الأبيض والتى أشرنا إليها فى هامش الصفحة السابقة.

وانظر: Moorehead: The White Nile P. 96

السابع) كان فى زيارة رسمية لمصر قبيل إفتتاح قناة السويس رسميًا بأشهر بصحبة زوجته، وقد دعى بيكر - لمعرفته باللغة العربية وبمصر - ليصحب الزائرين كمترجم، وأن الأمير هو الذى أشار على الخديو إسماعيل باستخدام بيكر فى مطاردة الرقيق فى السودان، وأن الخديو انتحى بالرحالة جانبًا أثناء حفلة رقص تنكرية أقامها (دى ليسبس) للأمير وزوجته وعرض عليه المشروع بشروطه السخية التى سنوردها فيما بعد.

وفعلاً حضر صموئيل بيكر إلى مصر وتعاقدت معه الحكومة المصرية على هذه المأمورية - ويعلق ألن مورهيد (Alan Mborehead) على إسناد هذه المهمة لبيكر بقوله: "إنه إذا كانت رحلة بيكر الأولى إلى أعالى النيل قد حولته من صياد كبير هاو إلى مكتشف، فإن هذا المكتشف سيصبح بهذه المهمة الجديدة رجلاً عسكريًا وإداريًا[١]".

وأهم ما احتواه العقد المبرم مع بيكر:

١- أن السير صموئيل بيكر يكلف بمد سلطان الحكومة المصرية إلى منابع النيل الجهات الواقعة جنوب غوند كرو - وتنظيم الإدارة المصرية فى تلك الأرجاء والقضاء على تجارة الرقيق، وإيجاد تجارة منظمة مشروعة بها، وإقامة خط من النقط العسكرية ومستودعات للتجارة يبعد بعضها عن بعض مسافة ثلاثة أيام سيرًا على الأقدام إبتداءًا من غوند كرو، وفتح طرق الملاحة مع (البحيرات الكبرى) ونشر العدل والطمأنينة فى هذه الجهات[٢].

٢- مرتبه الذى أتفق عليه بموجب هذا العقد هو ١٠,٠٠٠ جنيه (عشرة آلاف جنيه) سنويًا أى ٤٠,٠٠٠ جنيهًا فى الأربع سنوات التى سيشتغل فيها فى هذه المهمة.

٣- وذكرت الوسائل التى ستوضع تحت تصرفه من وسائل للنقل المائى وعدد الجنود ومدى سلطانه[٣].

1- Moorehead: The White Nile P. 142.

٢- بالطبع لم تحدد المنطقة التى سيمتد نفوذ الإدارة المصرية إليها تحديدًا دقيقًا لأن التحديد لا يكون فى أراضى لم يتم فتحها بعد.

- انظر: Sabry: L'Empire Egyptien seus Ismail P. 446

- وانظر ترجمة الأمر الصادر لبيكر بتعيينه رئيسًا للحملة المصرية فى: عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الاستواء، جـ١، ص١٣.

- وكذلك عقد استخدام صموئيل بيكر فى كتاب: د. محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان ص ٢٥٥ وما بعدها.

٣- كلف (خسرو باشا) بالسفر للسودان لإعداد كافة الترتيبات اللازمة للحملة - وقد منح (صموئيل بيكر) الحرية الكاملة فى شراء ما يراه لازمًا للحملة.

- انظر دفتر ٥٧٣ صادر معية (تركى) ص ١٨٤ رقم ٦ بتاريخ (٤ صفر ١٢٨٦).

٤- أنعم على بيكر برتبة فريق فصار يعرف باسم (بيكر باشا)، وجعل حاكما على المديرية الجديدة (مديرية خط الاستواء) لمدة أربع سنوات ابتداءًا من أول أبريل ١٨٦٩.

وقد وقع على العقد، وأحيطت إنجلترا بتفصيلات الإتفاق والتعليمات التى أعطيت لبيكر – ولم تثر إنجلترا أية ملاحظة أو اعتراض بهذا الشأن.

وقبل أن نستمر فى تتبع بيكر وحملته فى هذه الجهات، نقف لنناقش هذه المهمة، فلا شك أن بعثة (صمويل بيكر) ثم بعثة (غوردون) من بعده إلى أعالى النيل حادث له أهميته وخطورته ودلالته.

ونسجل هنا بعض الملاحظات على هذا الإجراء :

١- أن الإقدام على هذا العمل الذى قام به إسماعيل فى مناطق وعرة وصعبة، ومواصلاتها غاية فى السوء، وبعيدة عن الخرطوم هذا البعد الشاسع، وفى هذا الوقت بالذات الذى كانت مصر تنوء فيه بأعباء شديدة مرهقة إذ بدأ القطن المصرى ينزل لمستواه العادى بعد الارتفاع الغير طبيعى الذى حققه بسبب الحرب الأمّريكية، وفى ذلك الوقت بالذات فى عام (١٨٦٩) الذى كان مركز مصر فيه فى غاية الدقة، بسبب افتتاح قناة السويس وفى مثل هذه الظروف – فيه مغامرة ضخمة.

٢- استخدام الأجانب فى تنفيذ مثل هذه المشروعات، أمر يدعو للتساؤل، والتبرير الذى ذكره البعض هو أن إسماعيل أدرك أنه فى ذلك الوقت – الذى كانت فيه قد اشتدت وتعددت محاولات كشف هذه المناطق فى قلب القارة الأفريقية عن طريق الشرق – يجب أن يسبق بالوصول إلى أعالى النيل من الشمال ليربط هذه المناطق بالشمال، وفى نفس الوقت استخدم الأجانب فى هذا العمل ليضم أوربا لصفه، بالإضافة إلى التلويح بهدفه فى إيجاد إدارة حازمة تقضى على تجارة الرقيق.

٣- أن إسماعيل حاول أيضًا أن يصبغ مشروعاته بطابع علمى، والدليل على ذلك تأسيس (الجمعية الجغرافية) فى عام (١٨٧٥) للمساهمة فى الحملات الكشفية.

والحقيقة أن ثقة إسماعيل بالدول الأجنبية – تلك الثقة وصلت إلى حد أنه جعل المنفذين لمشروعاته الضخمة من هذه الدول كما أحاطهم علما بتفصيلات مشروعاته قبل تنفيذها – كل هذا يجعلنا نسأل أنفسنا: ما مدى مسئولية إسماعيل

عمـــا انتهى إليه الأمر من التدخل الأوربى فى المناطق التى كانت خاضعة للادارة المصـــرية؟ وهل استخدام (بيكر) و(غوردون) وأمثالهما ساهم فى تصفية المناطق التى كانت خاضعة للإدارة المصرية أم لا؟

ولعل الإجابة على هذا تكون أقرب إلى الصواب إذا أمكننا أولاً أن نجيب على ســؤال آخر هو: هل كان (بيكر) و(غوردون) وغيرهما من الأجانب يعملون فعلاً علـــى أســـاس أن امتداد الإدارة المصرية إلى هذه الجهات ما هو إلا مرحلة انتقال لحكم أوربى أم لا؟

ولعــل الآقــرب للحقيقة التاريخية أن نذكر أن ضعف الخديوية المصرية وما أصـــاب سلطانها هو الذى أدى إلى النتائج السيئة أو على الأقل يسر الوصول إلى هـــذا الوضـــع، فانقلبت المسألة إلى نقمة بدلاً من أن تكون نعمة وفائدة – وتقلص ســلطة الخديويـــة فى مصر نفسها وتدخل الأجانب فى أهم ما يهم مصر (المسائل المالـــية، الجـــيش، مستشارون أجانب) هو الذى سهل وعاون فى انحراف (بيكر) و(غوردون) عن المهمة التى كلفوا فعلاً بها.

ولعل إسماعيل أحس بالضغط عليه فحاول أن يساير التيار، وواجه المسألة فى الجنوب بنفس الأسلوب الذى واجه به مشاكله فى الشمال، فأسرف فى الإنشاء وفى اســـتخدام الخبراء والموظفين الأجانب على أمل أن يؤدى ذلك إلى كسب دولهم إلى جانبه.

ويقـــول (الآن مورهيد): "إن إسماعيل أراد بالخطوة التى اتخذها لمد سلطانه إلى أعالى النيل بحجة إلغاء النخاسة – أن يستمر فى تلقى تأييد العالم الغربى، فما كان له عـــن هـــذا التأييد غنى، إذ كان بحاجة إلى مزيد من المال من أوربا، وإلى تعضيدها السياســـى لأغـــراض أعظـــم كـــان يتطلع إليها – وهى بسط سلطانه على السودان الجـــنوبى وأفريقيا الشرقية والحبشة – وكان لزامًا أن يتم هذا باسم (المدنية)، فتحمل مصر الحديثة بركات العالم الحديث إلى تلك البقاع الهمجية فى الجنوب"[1].

ولكـــن هـــناك سؤال يتبادر لأذهاننا وهو: هل التوسع فى زمن هذه الأحداث الـــذى لا يمكـــن الإقدام عليه إلا بنوع من الوصاية الأجنبية أفضل أم ترك التوسع للمستقبل ولفرصة أخرى مواتية بالنسبة للظروف؟

وأعتقد أن الإجابة على هذه التساؤلات تتلخص فى أن الإتساع فى مظهره يدل على القوة، ولكن استخدام الأجانب لتحقيقه يدل على الضعف لا على القوة.

1- Moorehead: Op. Cit. P.P. 141 & 142.

ويكفـــى أن نشـــير إلى أن (صموئيل بيكر) بالذات كا دائمًا من المحبذين لأن تقوم إنجلترا بعمل حاسم فى منطقة البحيرات الإستوائية، فقد ذكر فى عام (١٨٦٤) فـــى كتابه (البرت نيانزا) "إن إنجلترا تملك الوسائل الفعالة التى تساعدها على نشر لــواء المدنية فى منطقة البحيرات، وأن الطبيعة قد فرضت عليها مهمة القيام بهذا العمل"[١].

ويـــردد هـــذه الـــنغمة بعـــد ذلك فى كتابه (إسماعيلية) فقد ذكر "أن المناطق الاستوائية الواقعة فى أفريقيا ميدانًا عظيمًا للمشاريع البريطانية"[٢].

ونشـــير هـــنا إلـــى أن كثيرين من المؤرخين يرون أن من أسباب قيام الثورة المهديـــة واضطراب الأحوال فى السودان سيطرة هؤلاء الأجانب على الإدارة فى السودان، فبعد أن عهد إليهم بإدارة بعض الأقاليم كاقليم خط الإستواء (بيكر ١٨٦٩ -١٨٧٣، وغـــوردون ١٨٧٤-١٨٧٦) أصبحت شئون السودان كله بأيديهم بعد أن عين غوردون حكمدارًا عامًا للسودان (١٨٧٧-١٨٧٩)[٣].

الحملة :

طلـــب صـــموئيل بـــيكر إنشاء عدة بواخر ومراكب خصيصًا لمهمته فى هذه المـــنطقة، كما أُشتريت له مهمات ومعدات مختلفة ومتنوعة من الإبرة إلى القنبلة، ومن المنديل إلى شراع السفن، - كما ذكر هو - بل طلب عدة لعب وطبول وعلب موسيقية وبطاريات مغناطيسية ليبهر بها أنظار الأهالى، ويدخل السرور عليهم.

وصـــحب بيكر زوجته وعددًا من الأوروبيين، منهم ابن أخيه الملازم جوليان بـــيكر (Alleyne Baker)، وسكرتيره مستر وود (Wood)، وطبيبه جوزيف جيدج (Joseph Gedge)، وعدد كبير من الخبراء فى بناء السفن.

وتقـــرر أن تتكون الحملة من ١٤٠٠ جندى من البيادة وبطاريتين من المدافع من النوع الجبلى.

وكان جنود هذه الحملة تحت إمرة أمير الآلاى (رؤوف بك)[٤].

١- أنظر مقدمة الكتاب .Baker: The Albert N'yanza

2- Baker: Ismailia Vol. 11. P. 506.

3- Sabry: L'Empire Egyptien sous Ismail P. 445.

٤- دفـــتر ٥٧٣ معية (تركى) ص ٢٢١- رقم ٣٥ فى (١٥ صفر ١٢٨٦) - وقد رقى (رؤوف بك) باشا فيما بعد إلى رتبة (باشا) وعين حكمدارا عاما للسودان كما ذكرنا سابقًا.

وصدرت الأوامر (لجعفر مظهر باشا)، حكمدار السودان العام بأن يعد الجمال والخيول والمراكب الشراعية اللازمة للحملة.

وأبحـــر ســـير صموئيل بيكر مع الجزء الأساسى من الحملة فى (٥ ديسمبر ١٨٩٦) مـــن الســـويس على ظهر المركب الحربى المصرى (سنار)، وفى ظرف أربعة أيام ونصف يوم وصل الجميع إلى (سواكن) وكان فى استقبال سير صموئيل بـــيكر (مخـــتار بك) محافظ سواكن – ومن (سواكن)، سار الجيش صوب (بربر)، وقـــد قطـــع هذه المسافة وهى تقرب من ٤٥٠ كيلومترًا فى أرض صحراوية فى أربعـــة عشر يومًا – ومن (بربر) كانت باخرة فى انتظار سير صموئيل بيكر لنقله إلى الخرطوم فى بحر ثلاثة أيام، وكان وصوله فى أوائل عام ١٨٧٠[١].

وقد أضاع (جعفر مظهر باشا) وقتًا طويلاً فلم يتيسر له إعداد السفن التى كان قـــد طلب منه أن يعدها لتنقل الحملة من الخرطوم، وقد اتهمه (بيكر) بأنه يهدف – عن سوء قصد – إلى عرقلة الحملة وتعطيلها عن القيام بمهمتها[٢].

وفـــى ٨ فبراير (١٨٧٠) بدأت الحملة رحلتها من الخرطوم، وفى ١٢ فبراير وصلت إلى (فاشوده) فى بلاد الشلك[٣].

ومـــن (فاشوده اتجهت الحملة صوب (الدبة) وقد لاقت صعابًا جمة فى اجتياز مـــنطقة الســـدود، ممـــا اضـــطر بيكر إلى العودة إلى ملتقى نهر (سوباط) بالنيل الأبيض، حيث بحث عن مكان صالح لإنشاء محطة هناك.

وفعـــلاً أنشـــئت المحطـــة فـــى مكـــان مرتفع فى الشرق، وأطلق عليها اسم (التوفيقية) وهى تقع تقريبًا فى منتصف الطريق بين الخرطون، و(غندكرو) وبنيت فيها مخازن لحفظ الذخيرة، ولكن جو المستنقعات الفاسد فى هذه المنطقة تسبب فى إنتشار مرض الدوسنتاريا ووفاة عدد من جنود الحملة.

وفـــى أول ديسمبر (١٨٧٠) بدأ تحرك الحملة من (التوفيقية) صوب الجنوب، وكـــان أمـــل بـــيكر هو أن يوفق فى عبور منطقة المستنقعات صوب الجنوب قبل انخفـــاض مياه النيل، وفعلاً وصل الأسطول فى (٥ أبريل ١٨٧١) إلى (غوندكرو) التى رأى بيكر أن تكون القاعدة الرئيسية للعمليات[٤].

١- دفتر ١١ عابدين وارد تلغرافات – رقم ١٨٢ ق (١٩ شوال ١٢٨٦).

2- Sabry: L'Empire Egyptien sous Ismail P. 453.

3- Baker: Ismailia Vol. 1. P. 33.

٤- نفس المرجع ص ٢١٦.

وقــد اصـــطدم سير (صموئيل بيكر) فى هذه الجهات بقبائل البارى (Baris)، وبتجار الرقيق وعلى رأسهم (أبو السعود العقاد)، فقد كانت (غندكرو) محطة هامة لـتجارة العاج والرقيق وكان تحت إمرة كبار تجار الرقيق والعاج فى هذه الجهات جـيش كبير من قطاع الطرق، منتشرًا بين مختلف المحطات التى فى حوزتهم فى أنحـاء هذا الأقليم، وقد ذكر الرحالة الإيطالى جيسى (Gessi) الذى رافق غوردون خلـيفة (بـيكر) فى هذه الجهات فى كتابه (Seven years the Sudan) "إن سكان لادو نزلت بهم الكثير من المصائب على يد بيكر".

وفـى (٢٦ مايو ١٨٧١) أقام بيكر احتفالاً عسكريًا، أعلن فيه رسميًا ضم هذه الـبلاد إلى الإدارة المصرية، ورفع العلم المصرى على سارية عالية (بلغ ارتفاعها ٣٥ مـترًا) أقيمت خصيصًا فى مكان مرتفع مشرف على النهر فى (غندكرو)، وقد تمـت قـراءة إعلان ضم الناحية إلى مصر رسميًا باسم الخديو، وذلك فى حضور رؤسـاء العشائر الذين جاءوا من مختلف الجهات – وقد أطلق بيكر على غندكرو اسم (الإسماعيلية)، وجعلها عاصمة (لمديرية خط الاستواء)[1].

ووجه بيكر تحذيرًا بمنع قطع أو إتلاف الأشجار التى تُستخرج منها الزيوت، ومنع تجارة العاج إذ يعتبر ملكًا للخديو وتجارته محتكرة لسموه، وكذلك منع شراء الرقيق.

وبـدأ بـيكر بتحصين (غندكرو)، فحفر خندق حولها، وعمل منحدرًا لحماية المحطة التى أُقيمت والمخازن التى بنيت لحفظ الذخيرة ومؤونة الحملة.

وفـى ٢٢ يناير ١٨٧٢ استأنف بيكر السير فى النيل صوب الجنوب، فوصل إلـى (لابوريـه)، وفى مارس وصل إلى المنطقة التى أسماها (الإبراهيمية) جنوب لابوريـه بمـا يقرب من ٦٠ كيلومترًا، ثم عسكر فى جبل (شوا) (Choua) على مسافة قريبة من (فاتيكو) التى دخلها الجيش بعد ذلك وأقام فيها محطة.

فتح مملكة أونيورو (Ounyoro) (١٨٧٢-١٨٧٣):

واصـل سـير (صموئيل بيكر) زحفه صوب مملكة أونيورو – الواقعة شرق بحـيرة ألـبرت – وكـان يحكمها فى ذلك الوقت الملك كباريجا (Kabba-Rega) فتقدمت الحملة ووصلت فى ٢٢ مارس ١٨٧٢ إلى فويرا (Fowira)، وأسست بها محطة.

1- Baker: Ismailia Vol. I P. 247.

وفـــى ١٥ أبريل وصلت الحملة إلى كوكى (Koki)، وفى ٢٥ أبريل وصلت إلـــى (مـــازندى) عاصـــمة (أونـــيورو)، وكان كباريجا قد أظهر ولاءه للحكومة المصـــرية، وأرسل هدية إلى سير صموئيل بيكر، وزار سير صموئيل بيكر الملك زيارة رسمية.

وفـــى ١٤ مايو ١٨٧٢ أعلن بيكر دخول هذه المملكة تحت الإدارة المصرية، وذلك فى احتفال كبير بحضور (كباريجا) وجمع غفير من الأهالى، وبنى بيكر فى (مـــازندى) دارًا للحكومة المصرية، وحصنًا لإقامة الحامية المصرية يحميه خندق عميق[1].

على أن كباريجا لم يلبث أن أثار الأهالى للقيام بمظاهرات عدائية ضد الحامية المصـــرية، وخاصة بعد أن رفض بيكر معاونته فى حربه ضد منافسه (ريونجا)، وانـــتهى الأمر بقيام الحرب بين الطرفين، ورغم انتصار الحامية المصرية وفرار الملـــك (كباريجا) - ولكن اضطرت الحملة إلى التراجع عن (أنيورو) لقلة عددها، ولـــتأوى لمكان أكثر أمنًا، واضطر سير (صموئيل بيكر) إلى إن يتخلص من كثير من أمتعة الحملة، وأن يحرق المحطة التى أنشأها فى (مازندى) قبل مغادرتها، وقد عانـــت الحملـــة الكثير من المتاعب فى تراجعها من مباغتة الأهالى المختبئين فى الأحراش والدروب لها حتى وصلت إلى (فويرا) (Fowira)[2].

ويـــبدو أن الأهـــالى لم يستطيعوا فهم مهمة بيكر، فناصبوه العداء وشنوا عليه الحـــرب، وأعلن بيكر خلع الملك (كباريجا) وولى مكانه ملكًا آخر من نفس الأسرة الحاكمـــة يدعى ريونجا (Rionga) كان ينافس (كباريجا) على العرش، وبقى الملك الجديد على ولائه لمصر وجرد حملة على (كباريجا).

تبادل المودة بين ملك أوغندة ورجال الحامية المصرية:

فى ٢٣ يناير ١٨٧٣ وفد على سير صموئيل بيكر فى (فاتيكو) سفراء من قبل (أمتيسه) ملك أوغنده، وقد جاءوا ليعرضوا إخلاص مليكهم لخديو مصر، فأكرمهم بيكر وبادل مليكهم الرسائل والهدايا[3].

وبفضـــل ولاء (أمتيسه) لمصر انفتح الطريق بين أعالى النيل و(زنجبار) على شاطىء المحيط الهندى.

1- Baker: Ismailia Vol. II. P. 181.

٢- نفس المرجع ص ٣٣٣.

3- Baker: Ismailia Vol. II. P. 417.

عودة بيكر وأنتهاء مدة خدمته :

فـــى أبريل (١٨٣٧٣) عاد بيكر إلى (غندكرو) وكانت مدة خدمته حسب العقد بيـــنه وبيـــن الحكومة المصرية قد أنتهت، وغادرها إلى (فاشوده) بعد أن ترك فى قيادة الجند وإدارة المديرية (رؤوف بك) أحد ضباط الجيش المصرى، ثم سافر إلى الخرطوم حيث كان فى وداعه حكمدار السودان الجديد (إسماعيل أيوب باشا) وبعد أن أقام بالخرطوم بضعة أيام رحل إلى القاهرة على ظهر باخرة عن طريق سواكن والبحر الأحمر[١].

ووصـــل سير صموئيل بيكر وزوجته وابن أخيه إلى القاهرة فى ٢٤ أغسطس (١٨٧٣) وقـــابل الخديو حيث قدم له بيانات وافية بخصوص الأراضى التى ضمها إلـــى مصـــر والظـــروف الـــتى صادفها، وأنعم الخديو عليه بالنيشان العثمانى من الدرجـــة الثانـــية كما أنعم بالنياشين على من عاونه فى حملة مديرية خط الإستواء (الملازم بيكر) والبكباشى (عبدالقادر أفندى)[٢].

تقييم عمل بيكر :

١- كل ما حققه*بيكر فى مدة خدمته بمديرية خط الاستواء أنه أنشأ ثلاث محطات عســكرية فـــى (غـــندكرو، فاتيكو، فويرا) ولكن نفوذ الحكومة لم يكن يتعدى مسافة بسيطة من تلك المحطات[٣].
وقـــد سُـــميت الأراضـــى التى فتحتها مصر وضمتها لأملاكها (مديرية خط الاستواء) وكانت حدودها كالآتى:
فـــى الشـــمال: مصب نهر السوباط، وفى الجنوب: أوغنده التى بسطت مصر نفوذها عليها، وفى الشرق: الحبشة، وفى الغرب: مديرية بحر الغزال.

٢- لـــم تنجح جهود بيكر فى كسر شوكة (تجار الرقيق) فقد كان نفوذ كبار تجار الرقيق لا زال قويًا رغم الحملة التى قام بها بيكر فى أغسطس (١٨٧٢) ضد قـــوات (أبو السعود العقاد) والتى انتهت بالقبض عليه وترحيله إلى الخرطوم للتحقيق معه ومصادرة كل ما بمخازنه من عاج.

١- دفتر ٢٠ وارد تلغرافات عربى رقم ٤٠ فى (٢ جمادى الأول ١٢٩٠).

٢- قتل (عبدالقادر أفندى) بعد ذلك فى الحرب بين العرابين والإنجليز عام (١٨٨٢). وهو غير (عبد القادر حلمى باشا) الذى كـــان حكمدارًا للسودان، ثم ناظرًا للحربية والبحرية فى عهد الخديو توفيق وتوفى فى ٨ يوليو ١٩٠٨ – وقد أشاد بيكر بصفات وشجاعة وإخلاص (عبد القادر أفندى) فى كتابه "الإسماعيلية".

٣- انظر Hill: Colonel Gordon in Central Africa

وإن كان بيكر نفسه قد كتب فى مارس ١٨٧٣ مقيمًا عمله الذى قام به فقال: "أخــيرًا انهزمــت كل معارضة وانصاعت الكراهية والتمرد للنظام، وبسطت حكومــة واعــية حمايتها على الأراضى التى كانت من قبل ميدانًا للفوضى، وتجــارة الرقيق. فقد طهر النيل الأبيض – لمسافة ١٦٠٠ ميل من الخرطوم إلى أفريقيا الوسطى – من التجارة المنكرة التى كانت تلوث مياهه قبل اليوم – وانقشع كل غيم، وانقضت مدة بعثتى فى سلامٍ وإشراق"[1].

٣- ولا شك فى أن بيكر فشل فى تحقيق الهدف الأساسى الذى كلفت به بعثته وهو كســب ثقــة الأهــالى ومودتهــم وتأمينهم، والعمل على نشر أسباب المدنية والعمران وتوسيع النشاط الزراعى والتجارى فى هذه الجهات.

وكانت سياسة العنف التى اتبعها بيكر مع الأهالى– خاصةً مع قبائل (البارى) – من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى فشل الكثير من الجهود المبذولة[2].

حتى أن الخديو أضطر أن يرسل له فى فبراير ١٨٧٢ برسالة جاء فيها:

"إن مهمــتك فــى أساسها مهمة سلام وتقدم، وإنك مكلف باستمالة السكان إلى الــرجال (البــيض) الذيــن مــا دخلوا بلدًا من بلادهم حتى الآن إلا للقتل والنهب والإســتيلاء علــى الأسرى والعبيد، إن الشقة بينك وبين الخرطوم طويلة صعبة، فوطــد مركــزك ودعمه فى (غوندكرو)، واجتذب الناس إليك، لقد أظهرت بأسك لقــبائل الــبارى، فأظهــر الآن عدلــك نحوهم، وترفق عليهم ليطمئنوا إليك وإلى غايتك..."[3].

وقد بلغت تكاليف هذه الحملة ما يقرب من مليون جنيه[4].

بعــد ســفر سير صموئيل بيكر عين رؤوف بك مديرًا لمديرية خط الاستواء الــتى ألحقت – من ذلك الوقت حتى قدوم غوردون – بحكمدارية السودان، وقد قام رؤوف بك بهذه المهمة خير قيام، وشهد بذلك غوردون نفسه فيما بعد[5].

1- Moorehead, A. : The White Nile P. 153.

2- Hill: Egypt in the Sudan P. 139.

٣- د. محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٥٦.

4- Sabry: L'Empire Egyptien sous Ismail P. 455.

٥- دفتر رقم ٥ معية عربى – ص ١٧ رقم ٤ بتاريخ (٢٥ رجب ١٢٩١) إفادة من مأمورية خط الاستواء (غوردون) للمعية السنية.

– وكذلــك دفتر ٢٤ عابدين وارد تلغرافات عربى – رقم ١٨٦ بتاريخ (١٩ رجب الأول ١٢٩١)، تلغراف من غوردون باشا إلى (خيرى باشا).

غوردون مديرًا لمديرية خط الإستواء (١٨٧٤-١٨٧٦)

فى عام ١٨٧٣ انتهى عقد خدمة سير صموئيل بيكر - كما ذكرنا - وغادر المديـــرية تاركًـــا الأمر لرؤوف بك، ولكن الحكومة كانت تبحث بواسطة (نوبار باشـــا) عـــن خلـــف للسير صموئيل بيكر، وقد خلفه إنجليزى آخر هو الكولونيل غوردون[١].

ولعـــل ممـــا يلفـــت النظر أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير إنجليزيان، ولاشـــك فى أن الحكومة الإنجليزية كانت لها يد فى إسناد هذا المنصب إلى كل من بـــيكر وغـــوردون، فقد كانت السياسة الإنجليزية تدرك أهمية السودان، بل وأهمية مـــنطقة خط الاستواء بالذات باعتبارها مفتاح السودان من جهة الجنوب، فيصعب تصديق ما يقال من أن الصدف هى التى فرضت ذلك، وأن (نوبار) قابل غوردون صدفة فى السفارة الإنجليزية فى الإسيتانه فى (١٨٧٢) فعرض عليه أن يدله على مـــن يقـــبل أن يحل محل بيكر، وأن نوبار حث غوردون (Persuaded him) كما يقول (Hill) لقبول هذه الوظيفة[٢].

وصـــل غـــوردون إلى القاهرة فى فبراير (١٨٧٤) وقابل الخديو، وطلب منه الخديـــوى أن يحدد شروطه للقيام بوظيفة حكمدار للمديرية الاستوائية، فالتمس أن يعطـــى راتـــبًا قدره ٢,٠٠٠ جنيه سنويًا وهو راتب زهيد بالنسبة لما كان يتقاضاه صـــموئيل بـــيكر (١٠,٠٠٠ جنيه سنويًا)، وكان السودان منذ رحيل سير صموئيل بـــيكر حـــتى تعيين غوردون تحت سيطرة حكمدار عام واحد، وكان حكمدار عام الســـودان وقت تعيين غوردون هو (إسماعيل أيوب باشا)، غير أن الخديو غير هذا الوضع وقسمه إلى قسمين:

١- كـــان غوردون وقت اختياره لهذه المهمة فى الأربعين من عمره تقريبًا، وأصله من عائلة اشتغل أفرادها بالخدمة العسكرية، فأبوه كان فى الأصل ضابطًا إنجليزيًا، واشتراك (غوردون) فى حرب القرم عام ١٨٥٥، ثم دخل فى خدمة الحكومة الصينية (١٨٦٠-١٨٦٤) وعرف فى بعض الكتب (بغوردون الصينى) لشهرته فى إخماد ثورة الصين، وغوردون شخصية عجيبة، وقد كان يحتقر المادة وكان متدينًا.

- أنظر ترجمة حياة غوردون فى كتاب Allen: Gordon & the Sudan P. 2 وقد اتصل (غوردون) بالسودان فى ثلاث مراحل:

المـــرحلة الأولى: حين عين مديرًا لمديرية خط الاستواء، والمرحلة الثانية: حين عين حاكمًا عامًا للسودان، ثم المرحلة الثالثة: حـــين رجـــع بعد نشوب الثورة المهدية ونشأت فكرة إرساله إلى السودان لتنفيذ سياسة إخلاء السودان التى فرضت على مصر بعد احتلالها وانتهت هذه المرحلة بقتله فى الخرطوم على يد الدراويش.

2- Hill: Op. Cit. P. 130.

١- القســم مــن الشلال حتى (فاشوده) - تابع لحكمدار السودان (إسماعيل أيوب باشا).
٢- مديــرية خط الإستواء - وتمتد من جنوب (فاشوده) حتى أقصى ما يصل إليه الإتساع المصرى - وضعت تحت سلطة غوردون.

وصدر الأمر بتعيين غوردون مأمورًا على جهة خط الاستواء التابعة للحكومة- مــع فصــل هذه الجهة عن تبعية حكمدارية السودان، فتصبح قائمة بنفسها - ولكن على حكمدارية السودان أن تقدم للمديرية ما يلزمها حسب طلب حكمدارها - وبرر فصــل المديــرية عن حكمدارية السودان ببعدها، والرغبة فى أن يوكل أمرها إلى شخص يكون مسئولاً عن تعمير هذه الجهات، وكسب محبة الأهالى وثقتهم، وطلب من غوردون أن يعامل الأهالى بالرفق واللين ليكتسب قلوبهم حسب التعليمات التى أعطيت له باللغة الفرنسية[1].

وفــى التعليمات التى أعطيت لغوردون باللغة الفرنسية بتاريخ (١٦ فبراير ١٨٧٤) أشــير إلــى أن من أهداف مأموريته فى هذه الجهات وضع حد لتجارة الرقيق، وأن الحكومة ترى لتنفيذ ذلك أن تحتكر تجارة العاج وغيرها التى يتستر وراءهــا تجــار الرقــيق، وطلب منه إذا لزم الأمر أن يستعمل القوة لوضع حد لــتجارة الرقيق، على أن يمنع أى عمل يسىء للقبائل ولسمعة الحكومة كاستيلاء الجــنود مــثلاً على مستودعات حبوب القبائل، كما أعطى الحق فى نقل عاصمة المديــرية مــن (غــندكرو) إلــى مكــان أكثر ملاءمة إذ رأى ذلك - كما أمر (غــوردون) بأن يعمل لإقامة سلسلة من المحطات العسكرية على النيل الأبيض من (غندكرو) حتى منابع النهر فى (أوغنده)؛ وأن يضم أوغنده ذاتها، وأن يطلق البواخر فى بحيرة ألبرت، وأن يعمل لاكتساب مودة القبائل الضاربة على سواحل البحيرات[2].

وقــد اخــتار غــوردون القائمقام شايى لونج (Chaille long) - وهو ضابط أمــريكى - ليكون فى صحبته، وذلك رغم معارضة الجنرال ستانتون (Stanton) قنصل بريطانيا العام الذى أبدى لغوردون - كما ذكر غوردون نفسه لشايى لونج -

---

١- دفتر ١٩٤٨ أوامر عربى - ص ٤٧ وثيقة رقم ٩١ ف ٢ محرم ١٢٩١ (١٩ فبراير ١٨٧٤).

٢- عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الاستواء جـ١ ص ١١٠ وما بعدها.

ملاحظــة: أرســلت مصر للعمل بالمديرية الاستوائية عدة سفن بعضها سفن شراعية والبعض تجارية صنعت خصيصًا فى إنجلترا، والبعض صنع فى (ترسانة) الخرطوم.

رغبته فى أن يعين شخصًا إنجليزيًا فى هذه الوظيفة(١).

كمـا اخـتار مجموعة أخرى من الأجانب للعمل معه، منهم الكولونيل براوت (Prout) والميجر كامبل (Campbell)، واللفتنانت كولونيل ميسون (Mason) وهم أمريكيون ومن الإنجليز الضابطان شبندال وواطسون (Chippendall & Watson)، ومن الفرنسيين اوجيست وارنيست لينان دى بيلفون (Auguste & Ernest Linant de Bellefonds)، ومن الإيطاليين رومولوجيسى (Romolo Gessi).

ونشير هنا إلى أن شايى لونج ذكر - أن الخديو إسماعيل استدعاه وأخبره أنه وقـع علـيه الاختـيار كرئيس أركان حرب للجنرال غوردون لعدة أسباب، أهمها حماية مصالح الحكومة المصرية، وذكر له أن الإنجليز على وشك أن يرسلوا حملة بقـيادة ستانلى (Stanley) بدعوى تقديم المعونة للدكتور لفنجستون (Levingstone)، بيـنما الهـدف الحقيقى لهم هو رفع العلم البريطانى على (أوعنده) ولذا فعلى شايى لونج بعد أن يذهب إلى (غندكرو) ألا يضيع الوقت، بل يتجه فى الحال إلى أوغنده ليعقد مع ملكها محالفة ليسبق حملة إنجلترا(٢).

غـادر غوردون القاهرة فى قطار خاص فى (٢١ فبراير ١٨٧٤) متجهًا إلى السويس، ومنها أستقل الباخرة إلى (سواكن) فوصلها فى ٢٥ فبراير ومنها بالقوافل إلـى (بربر) ثم وصل الخرطوم يوم ١٣ مارس بعد رحلة نيلية من بربر استغرقت خمسة أيام.

وفى ٢٢ مارس غادرت الحملة الخرطوم بالبواخر فوصلت (فاشوده) فى ٣١ مـارس، وفـى ٢ أبريل بلغت الحملة مصب نهر (السوباط) وتابعت سيرها جنوبًا فوصـلت إلـى بور (Bor) فى ١١ أبريل، وكان حكمدار عام السودان (إسماعيل أيـوب باشـا) قـد بذل مجهودًا عظيمًا استغرق ثلاثة أسابيع فى إزالة أكداس من الأعشاب النباتية فى منطقة السدود ليفتح الطريق أمام الحملة جنوبًا، وقد زهقت فى هـذه المهمـة أرواح كثيرين من الجنود متأثرة بحمى الملاريا والأمراض الأخرى المتوطنة هناك كالدوسنتاريا وغيرها.

١- دخـل (شـايى لونج) خدمة الجيش المصرى سنة (١٨٧٠)، وعين رئيسًا لأركان حرب الجنرال غوردون فى مديرية خط الاستواء - وهو من الأجانب القلائل الذين دافعوا عن حقوق مصر المغتصبة فى كتبه وأهمها:

a- Chaille Long: Les trios Prophetes, Le Mahdi, Gordon, Arabi (1886).

b- Chaille Long: L'Egypte et ses provinces perdues (1892).

c- Chaille Long: My life in four Continents. 2 Vols. (1912).

2- Chaille Long: my life in four Continents, Vol. I. P. 67.

وفـــى ١٧ أبريل (١٨٧٤) حطت الحملة رحالها فى (غندكرو) حيث استقبلها بالحفـــاوة قـــائد الحاميه أمير الآلاى (رؤوف بك)، وقد كتب غوردون إلى (نوبار باشا) ناظر الخارجية - يثنى على (رؤوف بك).

وبعـــد أن وصـــل غوردون إلى مقر عمله فى المديرية الاستوائية كانت هناك مشـــكلة جوهـــرية تحتاج لحل سريع حتى يتفرغ المدير الجديد (غوردون) لشئون مديريـــته - وهـــى مشـــكلة تحديـــد واضح لحدود هذه المديرية التى فصلت عن حكمداريـــة الســـودان، وقد ترك أمر الاتفاق على هذه الحدود لغوردون وحكمدار السودان (إسماعيل أيوب).

واســـتقر رأى الطرفيـــن على أن يكون الحد الشمالى للمديرية الاستوائية على بعد خمسين ميلاً جنوب (فداسه) ويمر أيضًا على بعد خمسين ميلاً من نقطة تلاقى نهر السوباط مع النيل الأبيض[1].

لكـــن ظلـــت مسألة الحدود بين مديرية خط الاستواء ومديرية بحر الغزال - التى كان قد عُين الزبير رحمت الجميعابى مديرًا لها - موضع خلاف، وخشى أن يحدث صدام بين غوردون والزبير[2].

وتدخلت الحكومة المصرية لحسم الأمر بأرسلت لغوردون بأنها لا توافق على ضـــم جهات (شكا وبحر الغزال) إلى المديرية الاستوائية، وأن هذه المديرية متسعة جـــدًا، خاصـــة بعد أن أضيف إليها إقليم (الرول) و(فداسه) و(السوباط) فيجب أن تركز الجهود لتحسين إدارة هذه الجهات[3].

أخـــذ (غوردون) بعد ذلك يعمل لتنظيم إدارة المديرية التى عهد له بها، فأنشأ عدة محطات فى النقط التى أدرك أهمية وجود حاميات فيها لاستتباب الأمن وللعمل علـــى محاربة تجارة الرقيق، وقد امتدت هذه النقط العسكرية والإدارية على طول النيل إلى بحيرة ألبرت وزاد عددها ونطاقها تبعًا لإمتداد النفوذ المصرى[4].

ولمـــا وجـــد أن مناخ (غوندكرو) غير ملائم بسبب البرك التى تنتشر حولها بالإضـــافة إلـــى خلوهـــا من الأخشاب التى تستعمل كوقود للبواخر - نقل مركز المديـــرية إلـــى لادو (Lado) فأصبحت عاصمة خط الاستواء، خاصة أن مناخها

١- دفتر عابدين وارد تلغرافات عربي رقم ٢٦٩ فى (٢٦ ربيع الأول ١٢٩١).

٢- دفتر ٢٤ عابدين - وارد تلغرافات عربي شفره رقم ٤٤٠ ص ٦٢ فى (١٦ ربيع الثانى ١٢٩١).

٣- دفتر ١٨ عابدين - صادر تلغرافات عربي رقم ١٨٢ ص ٣٧ فى (١٩ ربيع الثانى ١٢٩١) - تلغراف من الخديو لغوردون.

٤- إبراهيم فوزى (باشا): السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ١ ص ٩ - وانظر مواقع هذه المحطات على الخريطة.

صـــحى وتربـــتها جـــيدة وواقعـــة قرب غابة يسهل الحصول منها على الأخشاب اللازمة[١].

ولمـــا كان تيسير اتصال المحطات الهامة فى المديرية بعضها بالبعض الآخر، وكـــذا بمديـــريات السودان الأخرى من أول واجبات الإدارة الجديدة، فقد اتجهت نية غـــوردون إلى إيجاد مواصلات بطريق النيل تحل محل النقل البرى، وكان السائد أن النيل من جنوب (الرجاف) إلى (دوفيليه) غير صالح للملاحة - فأرسل غوردون أحد المهندســـين المرافقيـــن له - المدعو المستر كمب (Kemp) - لبحث مدى صلاحية الملاحـــة فـــى النـــيل فى ذلك الجزء، وهل يمكن استخدام البواخر الصغيرة فى هذه المـــنطقة أم لا؟، وأدخل غوردون فى خدمته، أبو السعود، وغيره من الذين كانوا من قـــبل يتجرون فى الرقيق ليستفيد من خبرتهم وإلمامهم بالبلاد وأحوالها، وقد جعل أبو الســـعود المعـــاون الأول له، وكلفه بالإشراف على تيسير الملاحة النهرية بين شلال دوفيليه وبحيرة (البرت) ولكنه ظهر أن (أبو السعود) وعدد من تجار الرقيق السابقين يتحينون الفرصة لإستعادة مراكزهم السابقة، مما دعا غوردون لعزل أبو السعود من مركز المعاون الأول وإرساله إلى الخرطوم، ووضعه تحت المراقبة[٢].

وأخـــذ العمـــران ينتشـــر فى الجهات التى خضعت للإدارة المصرية - فتعلم الأهـــالى التـــبادل بالنقود وانتشر ذلك - كما قام الجنود والأهالى بزراعة (الذرة) وغيرها من المحاصيل الضرورية.

علـــى أن غوردون - وقد لمس الصعوبات التى تعترض اتصال أجزاء السودان اللمخـــتلفة بعضها بالبعض الآخر وبمصر عن طريق النيل - أدرك أنه ربما يكون من الأفضل الإتصال بوسط القارة عن طريق البحر الأحمر والساحل الشرقى للقارة[٣].

ولذلـــك عرض علىٍ الخديوى إيفاد ١٥٠ رجلاً فى باخرة إلى خليج (ممباسه) علـــى بعـــد ٢٥٠ مـــيلاً شمال (زنجبار) لإنشاء مركز هناك، يمكن منه التقدم برًا لأعالى النيل[٤].

1- Gessi: Seven years in the sudan P. 88.

2- Budge: The Egyptian Sudan V. 2 P. 233.

3- Langer: The Diplomacy of Imperialism P. 112.

٤- فكـــرة إيجـــاد طـــريق بين النيل والساحل الأفريقى الشرقى راودت الحكومة المصرية من مدة، وكلف الكلونيل بردى (Purdy) الأمـــريكى فى عام ١٨٧١ بقيادة حملة للنزول فى (ممباسة) ومحاولة ارتياد الطريق من هناك إلى بحيرة فكتوريا، واشيع فى ذلك الوقت أن صـــموئيل بيكر فى أزمة، وأن الغرض من الحملة هو محاولة إنقاذه، ولعل الغرض من إثارة هذه الإشاعة هو ضمان عدم اعتراض إنجلترا على الحملة - ولكن إنجلترا أبدت اعتراضها مما جعل الحكومة المصرية تؤجل تنفيذها مؤقتًا.

- انظر: Douin: Histoire du Regne de Khedive Ismail Tome 3-3 Eme Partie. P. 639.

ولتحقــيق هــذه الفكرة أرسلت الحكومة المصرية الضابط البحرى البريطانى مكــيلوب (Mckillop) على رأس قوة، غادرت السويس فى سبتمبر (١٨٧٥) فى أربع بواخر، ونزلت فى (براوه) كما عين (شايى لونج) – وكان قد عاد من مديرية خــط الاســتواء – ومعــه ٥٥٠ جنديًا لتنفيذ العمليات فى البر، وأبحرت القوة إلى (قسمايو).

وكانت التعليمات الصادرة لغوردون تقتضى بالاتصال بالحملة لتيسير مهمتها، ولكــن غوردون لم يحرك ساكنًا، ولم يتخذ أى إجراء لتنفيذ هذه التعليمات الصادرة إليه من الحكومة المصرية، وقد علق (شايى لونج) على هذا التصرف من غوردون "بأنه يحتمل أن يكون راجعًا إلى وصول تعليمات لغوردون من الحكومة البريطانية تقتضى بعدم تعاونه مع هذه الحملة"[1].

ومهمــا يكــن الدافع لغوردون ليقف هذا الموقف فإن أقل ما يمكن أن يوجه إلــيه، هــو عدم الإخلاص للحكومة التى كان هو أحد كبار موظفيها، بل إن هذا التصــرف يدمغه بعدم الأمانة، ويؤيد الشكوك الى أثيرت حول تصرفاته المقبلة، والــتى تدل على أنه كان يعمل فى هذه الجهات لا لحساب الحكومة المصرية – الــتى عينته فى مركز هام كالذى يشغله – بل لحساب إنجلترا، أو على الأقل أنه كــان يخضع لأوامر إنجلترا، فإذا ما تعارضت المصلحتان – مصلحة مصر مع مصــلحة بريطانــيا – فى أمر ما، سلك السبيل المؤدى إلى مصلحة بلاده، وهذا يلقــى الضــوء علــى السبب الذى حدا بالكتاب الإنجليز إلى أن يبالغوا فى مدح غــوردون وسرد سجاياه وتعداد الدوافع الإنسانية والصفات الأخلاقية التى كانت تســيطر علــيه، وتحثه للعمل فى وسط هذه القارة المظلمة، فهم يكتبون بالروح الإنجلــيزية التى تعتبر المثل العليا أن يراعى مصالح إنجلترا بأية ثمن، ولو على حساب الأمانة فى العمل الموكول إليه.

وكــان يجــدر بغــوردون على الأقل، أن يستقيل إذا وجد أن الأوامر التى تصدرها له الحكومة المصرية يتعــذر عليه تنفيذها، أما أن يقبل العمــل رسميًا كموظــف فــى الحكومة المصرية، بينما يسير فى تصرفاته على هدى التعليمات الــتى تصــله من الحكومة الإنجليزية، فإن هذا يتنافى مع أبسط قواعد الإخلاص الــتى أراد كــتابهم إلحاقهــا به، فالوضع الحقيقى للرجل هو أنه استعمارى، ولا

1- Chaille Long: L'Egypte et ses provinces perdues P. 124.

وكذلك Chaille Long: Les trios Prophetes, P. 63

يخرج عن كونه أحد الأجانب العديدين الذين استغلوا ضعف الحكام المصريين من أسرة محمد على وارتباكهم، فقفزوا إلى المناصب الرئيسية فى الدولة، وأستغلوها لتحقــيق أغراض إستعمارية، ويؤيد (شايى لونج) هذا الرأى فيقول "إن غوردون فى كل تصرفاته منذ وطأت أقدامه أرض السودان، كان يعمل لتصفية الممتلكات المصرية هناك[1].

وتحــت ضغط إنجلترا أصدر الخديو إسماعيل أوامره إلى الحملة بالإنسحاب من الأماكن أحتلتها فى الصومال الجنوبى، على أن تتجمع الحامية فى جهة (رأس حافون)[2].

وجرت بعد ذلك مفاوضات بين الحكومة المصرية والحكومة الإنجليزية انتهت باتفــاق بيــن الطرفين فى (٧ سبتمبر ١٨٧٧)، أعترفت فيه إنجلترا بسلطان مصر علـــى بـــلاد الصومال لغاية (رأس حافون) على أن تمنع مصر تصدير الرقيق من هذه الجهات، وتسمح للسفن الإنجليزية بملاحظة تنفيذ ذلك[3].

علـــى أنـــه من المفارقات العجيبة، أن إنجلترا لم تلبث أن حققت هذه المهمة فيما بعد حين وضعت يدها على أوغنده، فقد قام (لوجارد) الذى وصل إلى أوغنده ســنة ١٨٩٠ كموظــف فـــى (شركة شرق أفريقيا البريطانية) بإقامة سلسلة من المحطات من (ممباسه) حتى النيل، لأن هذا كما ذكر أصلح طريق للوصول إلى أعالى النيل.

مد نفوذ مصر لمنطقة البحيرات الاستوائية:

من الأمور الهامة الى جاءت فى التكليف الصادر لغوردون – مد نفوذ الإدارة المصـــرية لمـــنطقة البحـــيرات الاستوائية، ولتحقيق ذلك أرسلت عدة بعثات لهذه الجهـــات أهمها بعثة (شايى لونج)، وارنست دى بلفون، وجيسى، ونور أغا، وأمين أفندى – وسنتحدث بشىء من التفصيل عن هذه البعثات:

1- Chaille Long: Les trios Prophetes, P. 6.

٢– دفتر أوامر عربى ص ٣٢ رقم ٦٧ ق (١٦ ذى القعدة ١٢٩٢).

٣– وثائق الـــ F.O. بعابدين مجموعة رقم ٧١ ق (٧ سبتمبر ١٨٧٧).

– نص المعاهدة منشور بكتاب الوثائق التاريخية للمؤلف.

– والعـــتقد أن هناك علاقة بين تعيين غوردون فى وظيفة حكمدار عام للسودان، وبين هذه المعاهدة التى عقدت مع الحكومة الإنجلـــيزية – فلعـــل تعيـــنه فى هذه الوظيفة كان من ضمن الثمن الذى طلبته الحكومة الإنجليزية لتوقيعها على الإتفاقية المذكـــورة.

١- بعثة شايى لونج (Chaille Long):

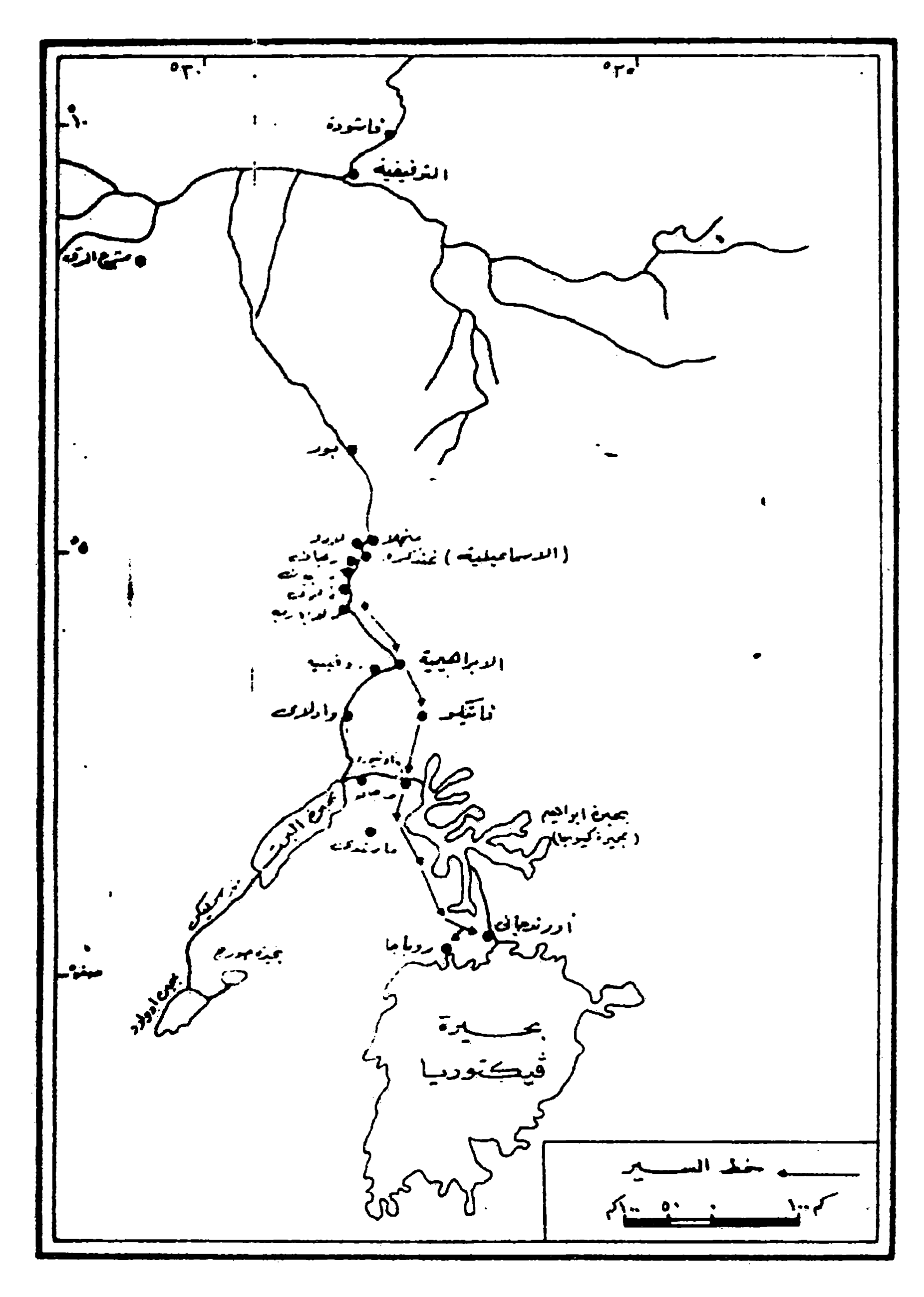
قبل مغادرة (شايى لونج) للقاهرة كان قد قابل الخديو إسماعيل - كما ذكرنا - وكلفه الخديو بمأمورية فى أوغنده بقصد سبق، إنجلترا وغيرها من الدول الإستعمارية فى بسط النفوذ المصرى على هذه المملكة الهامة بالنسبة لموقعها قرب منابع النيل الاستوائية[١].

ولتحقيق ما كُلف به، غادر شايى لونج (غندكرو) فى ٢٤ أبريل ١٨٧٤ ومعه- غير حاشيته - حرس مؤلف من جنديين فقط قاصدًا أوغنده، وذلك حتى لا يشتم من زيارته رائحة حملة عسكرية، والجنديان اللذان صاحبا شايى لونج هما (سعيد بقادره) و(عبد الرحمن الفورادى) - وهما من الأورطة السودانية التى سبق أن قاتلت فى المكسيك مساعدة لفرنسا - وفى ٢١ يونيو ١٨٧٤ وصلوا إلى عاصمة أوغنده (روباجا) وزار شايى لونج ملك أوغنده فى قصره المقام على تل مرتفع، وقدم إليه الهدايا.

وقد أقام (شايى لونج) فى ضيافة (أمتيسه) حتى ١٤ يوليو، ثم زار بحيرة فتكتوريا وقفل بعد ذلك راجعًا.

1- Chaille Long: My life in four Continents Vol. I P. 67.

- ويرجع لشايى لونج الفضل فى كشف بحيرات إبراهيم (كيوجا) فى (١٨٧٤) وقد نشرت مجلة الجمعية الجغرافية فى عدد سبتمبر (١٨٩١) بحثًا مسهبا (لشايى لونج) عن اكتشافه هذا.



شكل رقم (٦) شايى لونج فى أوغندا

وذكـــر شايي لونج فى كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) أنه بعد وصوله إلى عاصمة أوغنده، عقد مع الملك (أمتيسه) معاهدة قبل الملك بمقتضاها وضع مملكته تحت حماية مصر، وأن هذه المعاهدة أرسلت إلى الخديو إسماعيل الذى قام بإبلاغ الدول بمقتضى هذه المعاهدة أن مصر ضمت إليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت[١].

وقـــد ذكـــر شـــايي لونج أنه علم أن هذه المعاهدة التى عقدها مع (أمتيسه) أودعت بمحفوظات وزارة الخارجية بمصر، ولكن لم يعثر عليها بعد ذلك، ويقال أن أحـــد ضباط الجيش البريطانى أحرقها ضمن وثائق أخرى بعد احتلال إنجلترا لمصر [٢].

ولأهمية ما ذكره شايي لونج فى كتابه عن بعثته وعن هذه المعاهدة نورد هنا تـــرجمة لمـــا جاء بكتاب لونج، خاصة أن بعض الكتاب أثاروا الشكوك حول هذه المعاهدة، فقال شايي لونج:

"لقد توصلت إلى إصابة الهدف السياسى الذى ترمى إليه مهمتى، ونجحت فى ذلـــك إلـــى وراء ما كنت أبتغى وقدمت إلى الحكومة بتاريخ (١٦ ديسمبر ١٨٧٤) تقريـــرًا ذكـــرت فـــيه إبرام معاهدة مع الملك (أمتيسه)، قرر فيها هذا الملك وضع مملكـــته تحت حماية مصر، وهذه المعاهدة التى أبلغت لسمو الخديو وأتخذت أساسًا لصـــدور تبلـــيغ رســـمى، قررت مصر بموجبه ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحـــيرات فيكتوريا وألبرت نيانزا – قد اختفت من دار المحفوظات بمصر، ويحتمل أنهـــا أعدمـــت مع جميع المستندات المهمة والتقارير العلمية التى وضعها زملائى الفرنســـيون، والأمريكـــيون مـــن أركان الحرب، والتى تشرح جميع الأعمال التى أنجـــزت فـــى مدة خمس عشر سنة، ويقال أن جميع هذه المستندات أحرقها ضابط بريطانى أثناء نوبة جنونية جنوبية أصيب بها من أثر الخمر[٣].

علـــى أنـــنا نشـــير إلى ما سبق أن ذكرناه من أن النية كانت متجهة إلى فتح الطـــريق الـــبحرى الموصـــل إلى أوغنده، ومنها إلى مديرية خط الاستواء، ولهذا الغرض أرسلت حملة (مكيلوب) باشا بقصد إقامة محطة فى (ممبسه) أو غيرها من المـــناطق المناســـبة علـــى ساحل أفريقية الشرقى، بقصد فتح طريق للمواصلات

1- Chaille Long: L'Egypte et ses provinces perdues, P. 12 & P. 24.

٢- نفس المرجع السابق ص ٢٥.

3- Chaille Long: My life in four Continents Vol. I P. 157.

البحرية مع (أوغنده)، وذلك لتسهيل الاتصال بالمديرية الاستوائية عن هذا الطريق بدلا من طريق النيل الذى تكتنفه الكثير من العقبات.

ب- بعثة إرنست لينان (Ernst Linant):

إتمامًا لمأمورية شايى لونج أرسل وفد على رأسه (إرنست لينان)[١] إلى بلاط الملـــك (أمتيســـه)، وكـــان هذا الملك قد أرسل رسلاً من قبله يطلب بعض العقاقير الطبية، وأن يرسل له حلاق ومقرىء، وأن تقدم له جميع الوسائل التى تيسر دخول رعاياه فى الدين الإسلامى، فأرسلت له نسخة من القرآن الكريم داخل صندوق من الخشـــب الفاخـــر، كمـــا أعدت العدة لإرسال بعثة من العلماء لتوقفه على التعاليم الصحيحة للإسلام[٢].

وأرسل فعلاً أثنان من العلماء لهذا الغرض، وأخطر غوردون بذلك[٣].

وقد غادر (إرنست دى بلفون) ورجاله محطة (فاتيكو) فى ٢٥ فبراير ١٨٧٥ واتجهـــوا إلى محطة (فويرا)، ومنها وصلوا إلى (مرولى) فى آخر مارس ١٨٧٥، وفى ٤ أبريل دخل الوفد أول منطقة من أراضى مملكة أوغنده، وسارت البعثة فى طريق عرضه ٤٠ مترًا متجهة إلى المكان الذى أعد لنزولها وكان منظر العساكر الســـودانيين بســـترهم الحمـــراء وسراويلهم البيضاء - كما يقول إرنست لينان فى تقاريـــره - جميلاً، وكان يحيط بالموكب جمع مؤلف من بضعة آلاف من الأهالى وهـــم يغنون، ولدى مرور الوفد أمام قصر الملكة وقف الموكب ليبعث بسلامه إليه وحتى يرد إليه السلام كما هى العادة المتبعة، ثم عاود السير - وفى يوم ١٢ أبريل ١٨٧٥ قـــابل إرنســـت ملك أوغنده، وكان فى زيارة الملك فى ذلك الوقت الرحالة ستانلى (Stanley)[٤].

١- هـــو شقيق (أوجست لينان دى بلفون) (Auguste Linant) الذى حضر مع غوردون للعمل فى مديرية خط الاستواء وأصـــيب بالحمى فيها، ومات فى ١٦ سبتمبر ١٨٧٤، ونجل لينان باشا المهندس الفرنسى الذى أحضره محمد على باشا إلى مصر وكلفه بأعمال هندسية متعددة منها مشروع (القناطر الخيرية).

٢- دفـــتر ١٩٨٤ عربى جهات سايره ص ٩٣ خطاب فى (١٩ رجب ١٢٩١) من خديو مصر إلى جناب الملك أمتيسه ملك أوغنده.

٣- دفتر ٢٧ عابدين وارد تلغرافات عربى شفرة - ص ٦ رقم ٣٢ فى (آخر رجب ١٢٩١)، تلغراف وارد من وكيل أشغال حكمدارية السودان بتوجه إثنين من العلماء للمديرية الاستوائية لإرسالهما طرف ملك أوغنده.

٤- وثائق عابدين الـ (F. O.) دوسيه: 71/4, Corresp. Ernst Linant.

- دفتر ٣٣ عابدين وارد تلغرافات عربى رقم ٤٢١ فى (١٩ رجب ١٢٩٢) من مأمور خط الاستواء.

وفــى ١٥ أبــريل ١٨٧٥ زار إرنســت و(ســتانلى) بحيرة فكتوريا، وقضى (إرنست دى بلفون) فى أوغنده حتى ١٥ يوليو، ثم غادرها عائدًا إلى الشمال.

وقد ذكر إرنست لينان فى خطابه لوالده بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٨٧٥ (أى قبل وفاته بثلاثة أيام) إنه ترك أمتيسه بعد مشقة عظمى لأن الملك كانت إرادته أن يبقيه فى خدمته مع حرسه(١).

وفــى أثــناء مقابلات (إرنست دى بلفون) للملك كان يستفسر منه عن مسائل كثــيرة فاستفسر منه عن طريقة بناء السفن والمساكن، وعن دول العالم، والديانات المخــتلفة وعــن الجــنة والنار، وأنواع الحكومات وقواها الحربية، وعن الشمس والقمــر والســماء وحركات الأحرام السماوية، وقد أوضح إرنست للملك أنه مادام يرغــب فــى تقويــة صلاته بالدول المتحضرة فيجب عليه أن يعمل وفق المبادئ الأولــية للهيئة الاجتماعية فيحترم حرية الإنسان وحقوقه، ويمنع بيع وشراء الرقيق فــى مملكــته إلى غير ذلك من المبادئ الإنسانية المعترف بها - وقد أحاط أمتيسه إرنست بتاريخ أوغنده القديم والحديث(٢).

وقــد ضمن (إرنست) تقاريره التى أرسلها عن بعثته هذه عدة ملاحظات، منها أنه نصح بإنشاء عدة محطات عسكرية فى المناطق المؤدية إلى البحيرات الاســتوائية، وكذلــك نصح بمساندة كل من الملك (أنفينا) (Anfina)، وريونجا إذهمــا خصــما الملــك (كــباريجا) ملــك أونيورو الذى جاهر بعدائه للإدارة المصرية.

هذا وبعد عودة (إرنست) من أوغنده - قابل غوردون فعهد إليه بمهمة جديدة لإنشــاء محطــات بين فويرا وبحيرة ألبرت وذلك لتيسير إدخال مركب بخارى فى كــل مــن بحيرتى (البرت) وفكتوريا، ولتيسير المواصلات فى هذه الجهات، ولكن حــدث أن هــاجم بعــض رجال القبائل إرنست قرب سلالات (موجى) وقتلوه هو وبعض رجاله، وقد كتب غوردون إلى لينان باشا ينعى إليه ولده، وهو الإبن الثانى الذى يفقده لينان فى هذه الجهات(٣).

١- عمر طوسون: مديرية خط الاستواء جـ١ ص ٢٤٢.

٢- نشرت الجمعية الجغرافية الخديوية فى نشرتها عام ١٨٧٦ القسم الأول من أحداث رحلة (إرنست دى بلفون) وهو يحوى الأحداث حتى (٣١ مايو ١٨٧٥).

٣- دفتر ٣٣ عابدين وارد تلغرافات - رقم ٤٢٢ فى (٢٩ رجب ١٢٩٢) تلغراف من مأمور جهات خط الاستواء عن مقتل إرنست لينان.

ج- بعثة جيسى (Romolo Gessi)[١]:

[illegible]
(دوفيلــيه) بقصد الوصول إلى (ماجونجو) – ومنها إلى (بحيرة ألبرت) للتحقيق فيما إذا كانت هذه البحيرة هى آخر خزان للنيل أم تابعة لمجموعة الكنغو المائية وكـــان (ســير صـــموئيل بيكر)، قد كشف من قبل عن وجود اتصال بين بحيرة فيكـــتوريا وبحـــيرة ألـــبرت (نـــيل فيكتوريا)، وكان غوردون قد أرسل واطسن وشيبندال (Chippendall) فى عام ١٨٧٥ فى هذه المهمة ذاتها، ولكنهما مرضا واضطرا إلى العودة دون أن يحققا ما طلب منهما – وقد أمتدت رحلة جيسى هذه حتى ٢٢ أبريل واستطاعت البعثة أن ترتاد سواحل بحيرة ألبرت، وذكر (جيسى) أن طـــول البحـــيرة يبلغ ٢٢٥ كيلومترًا تقريبًا، وعرضها ٨٠ – والضفة الغربية منها لا يخرج منها أى نهر.

وقـــد قدم (جيسى) بيانات هامة عن هذه البحيرة، والقرى التى على شواطئها وســـكانها وعـــاداتهم، بالإضـــافة إلـــى خـــرائط دقيقة، ورفع العلم المصرى على (ماجونجو)[٢].

ونشـــير إلى أنه أثناء حكمدارية غوردون للسودان (١٧ فبراير ١٨٧٧- يناير ١٨٨٠) أرســـل الكولونيل ميسون بك (Mason) مرة ثانية فى ١٨٧٧ للقيام برحلة فـــى بحيرة ألبرت فى المركب البخارية المسماه (نيانزا) التى أمكن إنزالها فى مياه هذه البحيرة – وقد نشرت الجمعية الجغرافية الخديوية بمصر – كما نشرت جريدة أركان حرب الجيش المصرى – التقرير الشامل المرسل من ميسون إلى غوردون بخصوص هذه الرحلة[٣].

د- بعثة نور أغا :

وصـــلت غـــوردون فـــى ١٨٧٦ رسالة من (أمتيسه) ملك أوغنده يطلب فيها بالحـــاح أن تقام فى عاصمته (روباجا) الثكنة التى كان غوردون ينوى إقامتها فى

١- جيســـى مـــن أب إيطالى وأم أرمنية – ولد فى القسطنطينية فى عام (١٨٣٢) أى أنه كان يناهز غوردون، فى العمر، وقد اشـــترك مـــع (غريبا لدى) فى حرب التحرير الإيطالية، وعمل مع غوردون فى القرم، وقد اعتمد عليه غوردون كثيرًا فى مهمته بمديرية خط الاستواء.

2- Gessi, R. Seven years in the Sudan P.P. 99-136.

- وكذلك دفتر ٤٠ عابدين وارد تلغرافات رقم ١٢٩ فى (٥ ربيع الثانى ١٢٩٣).

٣- عدد رقم ٥ سنة ١٨٧٨ من مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية.

- وكذلك جريدة أركان حرب الجيش المصرى – السنة الثالثة جـــ٢، ٣ المجلد الثانى (١٨٧٨).

(أورنـــد وجـــانى)، وأمام هذه الرغبة الصريحة من الملك، أرسل غوردون ١٦٠ جـــنديًا ثـــم عزز هذه القوة بـــ٦٠ جندى آخر، وكانت هذه القوة بقيادة (نور أفندى محمد مدير جهة (فاتوكه) ووكيله (محمد أفندى إبراهيم)[١].

وقـــد قام (نور أغا) ورجاله بإنشاء محطة عسكرية فى كل من (أورندوجانى) و(روباجا) عاصمة الملك (أمتيسه) ورفع عليهما العلم المصرى، وهكذا أمتد النفوذ المصــــرى لعاصمة أوغنده، كما أمتد إلى (مازندى) عاصمة (أونيورو) التى أنشئت فيها محطة بعد فرار ملكها (كباريجا) الذى أظهر العداء للإدارة المصرية، ونشرت الوقـــائع المصرية نص التلغراف الوارد من غوردون باشا فى ٢ أغسطس ١٨٧٦ بخصـــوص طلـــب الملك (أمتيسه) عساكر للإقامة فى عاصمة ملكه، وأرسال هذه العســـاكر إليه وما يعنيه هذا بخصوص خضوع أوغنده ومنطقة البحيرات للسيطرة المصرية[٢].

كمـــا قامت مصر بتبليغ قناصل الدول رسميًا بضم البلاد الواقعة حول بحيرة فكتوريا وألبرت، وجاء فى البلاغ الرسمى للحكومة المصرية ما يلى:

"يؤخـــذ من الأخبار الأخيرة الواردة إلى القاهرة أن غوردون باشا دخل نهائيا فى مقاطعة (مرولى) الواقعة على شواطئ نهر (سومرست).

وأنشـــئت محطة فى (مازندى) عاصمة بلد (الأونيورو) واضطر كباريجا ملك الأورنيورو – وكان يظهر دوامًا العداوة والبغضاء لمصر – إلى الفرار.

وأســـتدعى انفيـــنا (Anfina) خصـــمه المتشـــبع بروح المودة المصر ليخلفه وليكون ممتلا للحكومة الخديوية هناك.

وخضع الأهالى والتزموا جانب الهدوء والسكينة وأرسل غوردون باشا بقيادة (نـــور أفـــندى) – وهو ضابط موثوق بأمانته وإخلاصة – الجنود اللازمين لإقامة نقطة عسكرية فى (أورونـدوجانى)، ونقطة أخرى على شواطئ بحيرة فكتوريا على مســـافة قلـــيلة مـــن مســـاقط (ريبون)، وورد فى الأخبار الأخيرة أنه احتل موقع (مـــاجونجو) الواقـــع على شواطئ بحيرة البرت فى اتجاه مصب نهر (سومرست) وفـــتح طـــريقًا يربط (ماجونجو) بمحطة (دوفيليه) الواقعة على النيل الأبيض قرب مصب نهر اسوا (Aswa) حيث وصلت المراكب تقطرها باخرة.

١– دفتر ٤٠ عابدين – وارد تلغرافات عربي – تلغراف رقم ٤٠٨ فى (٩ جمادى الأول ١٢٩٣).

٢– الوقائع المصرية عدد ٦٧٤ فى (٢٢ شعبان ١٢٩٢هـــ– سبتمبر ١٨٧٦م).

وبـــذا تـــم لمصر ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرتى فكتوريا وألبرت نـــيانزا إلـــى أملاكهـــا، وهاتـــان البحيرتان الكبيرتان تفتحان مع روافدهما ونهر سومرست ميدانًا رحبًا للريادة البحرية يقوم الآن غوردون باشا بإعداده"(١).

وجديـــر بالملاحظة هنا أن غوردون لم يكن مرتاحًا لامتداد سلطة مصر إلى منطقة البحيرات، وقد وضح ذلك بجلاء فى رسائله إلى أخته(٢).

هـ- بعـــثة الطبيب أمين أفندى – شنتزر (Eduard Schntizer) وسحب القوات المصرية من عاصمة أوغنده وأونيورو:

لـــم يلبث غوردون أن أرسل بعثة أخرى إلى أوغنده برئاسة الطبيب الدكتور شـــنتزر – الطبيـــب الألمانى – وكان يشغل فى ذلك الوقت وظيفة طبيب بالمديرية الاستوائية(٣).

وقـــد غـــادرت هـــذه البعثة (لادو) فى (٣ يونيو ١٨٧٦) ومعها هدايا للملك أمتيســـه، وقـــام أمين أفندى بسحب الجنود الموجودين فى عاصمة (أمتيسه) بقيادة (نور أغا)، ووصل بهم إلى (مرولى) فى (٩ سبتمبر ١٨٧٦)(٤).

وعلـــل غـــوردون فى مراسلاته للحكومة المصرية سحبه لهؤلاء الجنود بأنه وصل إلى علمه أن (أمتيسه) يشترى كميات كبيرة من البارود من زنجبار لأنه عقد النـــية علـــى القـــيام بعمل عدائى، وأنه سحب الحمالين الذين تعتمد عليهم الحامية المصـــرية فـــى نقل الأمتعة، وأنه رفع العلم البريطانى الذى تركه له ستانلى على عاصمته وأنه بدأ يضيق على الحامية المصرية فى المواد الغذائية اللازمة لها، ولذا قـــرر ســـحب الحامـــية ووضـــعها علـــى بعـــد خمســـة عشـــر كيلو مترًا شمال (أوروندوجانى) حيث يمكنه أن يراقب مجرى الحوادث(٥).

وقـــد أبـــرق غوردون إلى الحكومة المصرية بعزمه على سحب القوات التى أرسلت إلى (أوغنده) لأن ملكها أظهر عدم صداقته لمصر(٦).

1- Chaille Long: L'Afrique Centrale PP. 331-333.

2- Gordon, Miss: Letters of General C. G. Gordon to his sister.

٣- اعتنق الدكتور سنتزر الإسلام وأصبح فيما بعد (فى عام ١٨٧٨) مديرًا للمديرية الاستوائية وتسمى باسم (أمين).

4- G. Schweitzer: Em in Pasha Vol. I. P. 30.

5- Shukry: Equatoria P. 352.

٦- وثائق عابدين – عربى – دفتر ٤٢ (وارد تلغرافات) – تلغراف شفرة رقم ٨٧ ص١٥٠ فى (١٢ رمضان ١٢٩٣).

وبمجرد وصول هذا التلغراف إلى مصر أرسل إلى غوردون الرد بأن مصر سبق أن أعلنت لسائر قناصل الدول رسميًا وبالصحف عن امتداد سلطانها لهذه الجهات فسحب قواتها من عاصمة (أوغنده) يسيء إلى سمعة مصرٍ - ولذا فيجب أن يبذل (غوردون) كل جهده لجذب قلب الملك، وإذا كان قد تم فعلاً إرجاع الجنود الذين كانوا بطرفه - يجب عمل الجهد لإعادتهم[١].

على أن غوردون لم يتخذ إجراءًا عمليًا لتنفيذ أوامر الحكومة المصرية بضرورة إرجاع الجنود الذين كانوا بعاصمة أوغنده، بل لم يلبث بعد ذلك بقليل أن أخطر الحكومة بإنسحاب الحامية التى كانت فى (مازندى) عاصمة أونيورو، ولم يفكر (غوردون) فى إعادة هذه الحامية أيضًا إلى (مازندى) رغم أنه ذكر أن الملك (كباريجا) هرب عندما تقدم غوردون إلى (مازندى) على رأس قوة صغيرة من ستين جنديًا - وكل ما فعله غوردون أن أرسل قوة كبيرة لتعقب (كباريجا) ومطاردته[٢].

والتعليل الوحيد الذى يمكن أن يفسر به هذا التصرف من غوردون، هو أنه فعل ذلك ليفسح مجال العمل فى هذه الجهات للحكومية الإنجليزية، ولعل ما ذكره هو فى خطاب له من (مرولى) بتاريخ ٩ سبتمبر ١٨٧٦ يوضح ذلك، فقد ذكر: "لقد عاد الجنود من (روباجا)، إن أمتيسه على اتصال مستمر بزنجبار - ويظهر أن بعثة إنجليزية فى طريقها إليه وقد سحبت جنودى قبل وصولها"[٣].

وهذه البعثة التى يشير إليها ذكر أنها بعثة دينية - مع أن تكوينها وتصرفات رجالها يدل على أنها بعثة سياسية - وقد ذكر غوردون نفسه فى خطاب أرسله إلى هذه البعثة فى أوغنده أنه يرى أن يتصرف رجال البعثة بشيء من العقل والحكمة لأن وصول هذه البعثة وما يوحى إليه تأليفها من أنها بعثة سياسية، وليس كما يقال دينية - تسيب فى الجفاء بين الحكومة المصرية وإنجلترا فيجب أن يسأل رجال البعثة أنفسهم عن مهمتهم الحقيقة هل هى تسليح رجال (أمتيسه) أو توجيه نظره هو إلى كيفية التكفير عن ذنوبه؟[٤].

ولما كانت حكمدارية (غوردون) على وشك الإنتهاء، فقد بارح (لادو) فى (١٦ أكتوبر ١٨٧٦) إلى الخرطوم فوصلها فى ٢٩ منه سافر منها فى ١٢ نوفمبر

١- دفتر ٣١ عابدين - صادر تلغرافات - تلغراف شفرة عربي رقم ٣٢١ ص٧٠ في (١٨ رمضان ٢٩٣).

٢- دفتر ٤٣ عابدين عربي (وارد تلغرافات) - تلغراف شفرة رقم ١٢١ ص٢٠٥ في (١٣ شوال ١٢٩٣).

٣- انظر د. محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص٦٣.

٤- عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الاستواء جـ١ ص٢٥٨.

موليًا وجهه شطر القاهرة، فوصلها فى ٢ ديسمبر، وقد دامت مدة حكمداريته لمديرية خط الاستواء سنتين وشهرين وثمانية عشر يومًا.

على أنه حين عين غوردون حكمدارًا عامًا للسودان بما فيه المديرية الاستوائية فى عام ١٨٧٧ استدعى الدكتور ادوارد شنتزر (أمين باشا) وكلفه بالسفر إلى (أونيورو) ثم السفر مرة أخرى إلى (أوغنده).

وفعلاً قام برحلته إلى أونيورو وقابل كباريجا (ملك الأونيورو) فى الفترة (٥ يوليو- ٢٥ أكتوبر ١٨٧٧)، واستطاع أن يوضح له نيات الحكومة المصرية الحسنة تجاهه، وأنه إذا كان يرغب فى الحصول على إعانة مالية سنوية فالحكومة مستعدة لإرسالها له، وإذا كان يريد انتداب وفد يذهب إلى القاهرة يمكن إعطاء الوفد جوازًا للمرور، وإذا كانت نفسه تشتاق للذهاب إلى القاهرة يمكنه ذلك[١].

كما زار الملك (أمتيسه) ملك أوغنده فى الفترة (٢٥ أكتوبر ١٨٧٧- ٢١ مايو ١٨٧٨) وقدم له الهدايا المرسلة من الخديو بناءًا على طلب غوردون باشا، وأقنعه بضرورة إرسال سفير له للقاهرة، خاصة وأن الخديو أرسل له سفراء وهدايا فى كل الأعوام السالفة، وقد أقام (أمين أفندى) ثلاثة أشهر لدى أمتيسه ثم قفل راجعًا إلى غوردون فى ٣١ مايو[٢].

النتائج العلمية لامتداد الإدارة المصرية لجهات خط الاستواء:

بالإضافة إلى النتائج السياسية لامتداد الإدارة المصرية إلى خط الاستواء فقد حققت الإدارة المصرية نتائج علمية واقتصادية واجتماعية لا تقل عن النتائج السياسية أهمية.

ومن أهم هذه النتائج - كما جاء فى تقرير الجنرال ستون (Stone) رئيس عموم أركان حرب الجيش المصرى فى ١٦/١٠/١٨٧٦:[٣]

١- تأكيد الكثير من الحقائق الجغرافية التى وصل إليها الرحالة السابقون، ولكن لم تكن قد تأكدت صحتها بعد - وتجهيز حملات جديدة للإستكشافات.

1- Schweitzer: Emin Pasha, his life and work Vol. I. P. 43.

٢- نفس المرجع السابق والجزء P. 48.

٣- انظر نص التقرير فى المحفوظات التاريخية بعابدين الأرشيف الإفرنجي.

Doss. 72/2 (Soudan et Afrique Equatoriale)

- وكذلك انظر Hill: Egypt in the Sudan PP. 140-141.

٢- كشف ومسح النيل الأبيض من الخرطوم إلى (غندوكرو)، ورسم خرائط لهذه الجهات وفتحها للعالم المتحضر.
٣- كشف ومسح المنطقة من (غندوكرو) إلى بحيرة ألبرت.
٤- كشــف (بحيرة ألبرت) والتحقق من علاقتها بالنيل و(هو ما قام به جيسى) فى سنة ١٨٧٦.
٥- فــتح بحيرة ألبرت للملاحة بوضع سفن تجارية فيها، والشروع فى فتح طريق ملاحى بين (غندوكرو) والبحيرات الإستوائية.
٦- تحقيق مجرى نهر النيل من (بحيرة فكتوريا) وكشف "بحيرة إبراهيم"، وقد قام بهذا العمل شايى لونج.
٧- كشف الإقليم الواقع من النيل الأبيض قريبًا من "غندكرو" وبلاد "مكراكة".
٨- رســم خــرائط دقــيقة ورســوم طبوغرافية لهذه الجهات مع دراسة للسكان وأسلوب حياتهم.
٩- إقامــة محطات ووضع حاميات عسكرية فى كل هذه المناطق من التقاء النيل الأبيض بالسوباط حتى "فويرا"، ثم فى "أوروندوجانى"، وفى "روباجا" عاصمة أوغنده - مما ترتب عليه استتاب الأمن، ووضع حد لتجارة الرقيق وفتح هذه الــبلاد للتجارة المشروعة والمدنية والحضارة، وتشجيع ارتيادها بعد أن كانت مغلقة فى وجه العالم المتحضر.

وهكذا أصبحت الإدارة المصرية فى السودان تمتد من "وادى حلفا" شمالاً إلى خــط الإســتواء جنوبًا، ومن "مصوع" شرقًا إلى الحدود الغربية لمديرية "دارفور" غربًا، فى مساحة تقدر با يقرب من ١٣٠٠ ميل مربع.

ثالثاً: مديرية خط الإستواء بعد غوردون (فترة إدارة براوت وإبراهيم فوزى)

عندما سافر غوردون من الخرطوم عهد الكولونيل الأمريكى براوت (Prout)- وهــو ضــابط أمــريكى التحق بخدمة الجيش المصرى - بحكمدارية مديرية خط الإستواء، فذهب إليها فى (ديسمبر ١٨٧٦)، وقد استطاع أن ينقل المركب البخارى (الخديو) إلى بحيرة ألبرت ليستخدم فى الملاحة هناك[١].

وقــد طلب غوردون حين عين حكمدارًا عامًا السودان تعيين (بروات) مأمورًا لمديرية خط الإستواء[٢].

١- دفتر رقم ٤٦ عابدين وارد تلغرافات عربى - تلغراف رقم ٢٦٣ ص٦٩ فى (٢٤ ربيع الثانى ١٢٩٤).
٢- دفتر رقم ٤٦ عابدين وارد تلغرافات عربى - تلغراف شفره رقم ٢٨ ص٧٣ فى (٢٨ ربيع الثانى ١٢٩٤).

ولكن فى مايو (١٨٧٧) تحرجت صحته فأضطر للسفر إلى إنجلترا - ثم عاد لعمله بالمديرية بعد ذلك، غير أن صحته لم تسمح له بالبقاء، فبارح المديرية نهائيًا وعين (الأمير الاى إبراهيم فوزى بك) مديرًا لمديرية خط الإستواء[١].

ولكن لم يلبث غوردون - وكان قد أصبح (منذ فبراير ١٨٧٧) حكمدارًا عامًا للسودان بما فيه المديرية الإستوائية - أن فصله وعين مكانه الدكتور ادوارد شنتزر (Eduard Schnitzer) الطبيب الألمانى الذى صحب غوردون فى السودان واعتنق الإسلام وعُرف باسم (أمين بك) - وقد هدد غوردون بالإستقالة إذا لم تستجب مصر لطلبه بتعيين أمين بك مديرًا لمديرية خط الإستواء، وجسى (Gessi) لجهة بحر الغزال، وفردريك روسيت (Rosset) الذى كان قنصلاً لألمانيا بالخرطوم - لدارفور معللاً طلبه بأنه لا يمكن إصلاح هذه الجهات إلا بتعيين هؤلاء الأوربيين بها[٢].

على أننا نشير هنا إلى أن (إبراهيم فوزى بك) علل سبب فصله من إدارة مديرية خط الإستواء وتعيين الدكتور (شنتزر) مكانه بأنه يرجع إلى وشاية الدكتور يونكر (Junker) السائح الذى اصطدم به بسبب عدم دفعه أجرة الحمالين الذين انتدبتهم مديرية خط الإستواء لمصاحبته فى رحلته بالمديرية، ولأن المدير منعه من أن يحمل معه إلى الخرطوم كميات كبيرة من العاج، لأن الحكومة كانت تحتكر هذا الصنف، فوشى به لدى غوردون حكمدار عموم السودان، بعكس الدكتور شنتزر الذى قابل الطبيب يونكر أثناء سياحته وتودد إليه[٣].

وعلى أن غوردون لم يلبث أن اتهم (إبراهيم فوزى بك) بالاتجار فى الرقيق، وسجنه ولكن لما لم تثبت عليه التهمة أخلى سبيله[٤].

١- دفتر ٤٩ عابدين وارد تلغرافات عربى - شفره تلغراف رقم ١٦ فى (٢٣ محرم ١٢٩٥).

٢- دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات عربى شفره - تلغراف رقم ٢٠٢ ص٣٦ فى (١٣ رجب ١٢٩٥)، رقم ٢٠٤ ص٣٧ فى (١٤ رجب ١٢٩٥).

وقد أبقى (أمين بك) مديرًا لمديرية خط الإستواء حتى قيام الثورة المهدية ولم تستطيع قوات المهدى أن تستولى على هذه المديرية فظل يحكمها باسم مصر، ونقل عاصمتها من (لادو) للجنوب لتكون بعيدًا عن غزوات المهديين، وسنشير لذلك بالتفصيل فيما بعد عند الحديث عن الثورة المهدية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

٣- إبراهيم فوزى: السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ١ ص٤٠ وما بعدها.

٤- دفتر ٥٠ عابدين - وارد تلغرافات عربى شفره ص٤٧ فى (٢٧ رجب ١٢٩٥).

- دفتر ٣١ معية عربى ص٥٦ رقم ١٣ فى (٦ شعبان ١٢٩٥).

وقـد ذكر الدكتور يونكر فى كتابه (رحلات فى أفريقية) ما ترجمته: "سألنى غـوردون عن أفكارى بشأن من أشير بتعيينه خلفًا لإبراهيم فوزى بك فى مديرية خـط الإسـتواء، فعرضـت عليه الطبيب أمين أفندى فعارض غوردون فى بادئ الأمـر، إلا أنه انتهى بالقبول وعين فعلاً أمين أفندى مديرًا لمديريات خط الإستواء ومنح لقب بك"(١).

رابعاً: أمين (باشا) مديرًا لمديرية الإستواء (١٨٧٨-١٨٨٩)

الدكتور ادوارد شنتزر طبيب ألمانى الأصل، اعتنق الإسلام فى تركيا وتسمى باسم (أمين أفندى)، وبعد أن خدم فى الحكومة التركية زمنًا أتى إلى السودان، وكان غوردون مديرًا لمديريات خط الإستواء فألحقه بخدمة هذه المديريات بصفته طبيبًا، ولكنه كما يبدو لم يقم بأعباء هذه الوظيفة قياماً فعليًا، لأن غوردون – كما ذكرنا – كلفـه بـتأدية عـدة مأموريـات سياسـية فى البلاد المجاورة مثل مأموريته فى الأونـيورو) و(أغنده)، وقد عينه غوردون بعد ذلك مديرًا لمديرية من مديريتى خط الإسـتواء، أما المديرية الأخرى وهى (مديرية بحر الغزال) فكان غوردون باشا قد فصـلها وقـت تعيينـه حكمدارًا عامًا للسودان، وصارت فيما بعد مديرية مستقلة بذاتها، منفصلة عن مديرية خط الإستواء، وكان تعيين أمين باشا لهذه الوظيفة قبيل منتصف عام ١٨٧٨.

وكـان الدكـتور ادوارد شنتزر (أمين باشا) عالمًا نباتيًا وخبيرًا بالطيور، وكـان يجيد عدة لغات منها الفرنسية والألمانية والإنجليزية والتركية والعبرية والفارسـية واليونانية العامية، وبعد أن تولى (أمين بك) عمله كمدير للمديرية الإسـتوائيـة – أصدر له غوردون – حكمـدار عام السودان – أمـرًا بإخلاء المحطـات الواقعـة جنوب دوفيليه (توفيرًا للمصروفات) ولوقف الاحتكاك مع كباريجا(٢).

ولكـن (أمين بك) لم يجد ما يبرر انسحاب مصر من هذه الجهات التى بذلت جهودًا ضخمة لتعميرها وخاصة أنها تمتاز بالخصب وبموقع ممتا، وقد أثار امتناع (أمين بك) عن تنفيذ أوامر غوردون التى تقضى بإخلاء المحطات الجنوبية غضبه حـتى أنه قرر نقله إلى (سواكن) وأصدر فعلاً أمر النقل هذا، ولعله كان يستند فى

١- انظر Junker: Travels in Africa during the years (1845-1848) Vol. I. (translated by Kaene)

2- Schweitzer: Emin Pasha, his life and work. Vol. I. PP. 64-67.

ذلك إلى التصريح الصادر له فى يوليو ١٨٨١ بتعريفه عن تعيين كوفصل مديرى
دارفور وخط الاستواء وبحر الغزال[١].

ولكن قرار غوردون بنقل أمين باشا لم يوضع موضع التنفيذ، فقد استقال غوردون نفسه من منصب حكمدار عام السودان فى أواخر سنة ١٨٧٩ وخلفه محمد رؤوف باشا الذى أبقى (أمين بك) فى منصبه بالمديرية وترك له الحرية فى إقامة محطات فى الأماكن التى يراها مناسبة[٢].

وقد شجع ذلك (أمين بك) على إقامة محطات جديدة فى الجهات الجنوبية القريبة من مديريته بالإضافة إلى تدعيم المحطات القديمة، والتى كان قد أخلى بعضها حسب أوامر غوردون.

وظل أمين بك مديرًا لمديرية خط الاستواء – كما ذكرنا – مدة طويلة تقترب من عشر سنوات، وامتدت حكمداريته حتى انتهت الإدارة المصرية فى هذه الجهات، وقد كانت هذه المدة الطويلة بعد انتهاء المرحلة السابقة التى يمكن اعتبارها مرحلة الإنشاء، كافية لأن تعمل الإدارة المصرية على النهوض بهذه الجهات فى مختلف نواحى التقدم – شأنها فى ذلك شأن كل الجهات التى امتدت إليها الإدارة المصرية، والحقيقة أن ما قامت به الإدارة المصرية فى هذه الجهات يدل على أنه، لولا الظروف الشاذة الى أحاطت بهذه المديرية بسبب الاضطراب التى انتابت السودان مما ترتب عليه صعوبة اتصال المديرية بالخرطوم وبأجزاء السودان الأخرى وبمصر ثم انقطاع هذه الصلة بعد ذلك نهائيًا – لتقدمت هذه المديرية فى جميع نواحى العمران بخطوات أوسع.

ما أدته الإدارة المصرية بهذه الجهات من خدمات

النواحى الإدارية :

وضع (أمين باشا) تقسيمًا إداريًا جديدًا للمديرية، فقسمها إلى مراكز أو إدارات، ويشتمل كل منها على جملة محطات وهذه الإدارات كانت تسمى (مديريات) وكانت عاصمتها فى (لادو) وكان المدير العام يلقب بلقب (مدير عموم خط الاستواء)، وقد بلغ عدد المحطات مائة وسبعين محطة – عدا القرى التى ليست بها حاميات، والقبائل التابعة للمديريات – ولما استولى المهديون على مديرية

---

١ – دفتر ٣٦ عابدين صادر تلغرافات عربى شفره رقم ٥٠ ق (١٢ رجب ١٢٩٥).

2- Schweitzer: Emin Pasha, his life and work. Vol. I. P. 70.

بحـــر الغـــزال وهددوا مديرية خط الاستواء، نقل (أمين باشا) قاعدة المديرية إلى (وادلاى) لـــتكون فى مأمن من المهديين، وليمكنها الاتصال بسهولة مع (اونيورو) وأوغنده وكان ذلك فى عام ١٨٨٥ وسنشرح ذلك بالتفصيل فيما بعد[١].

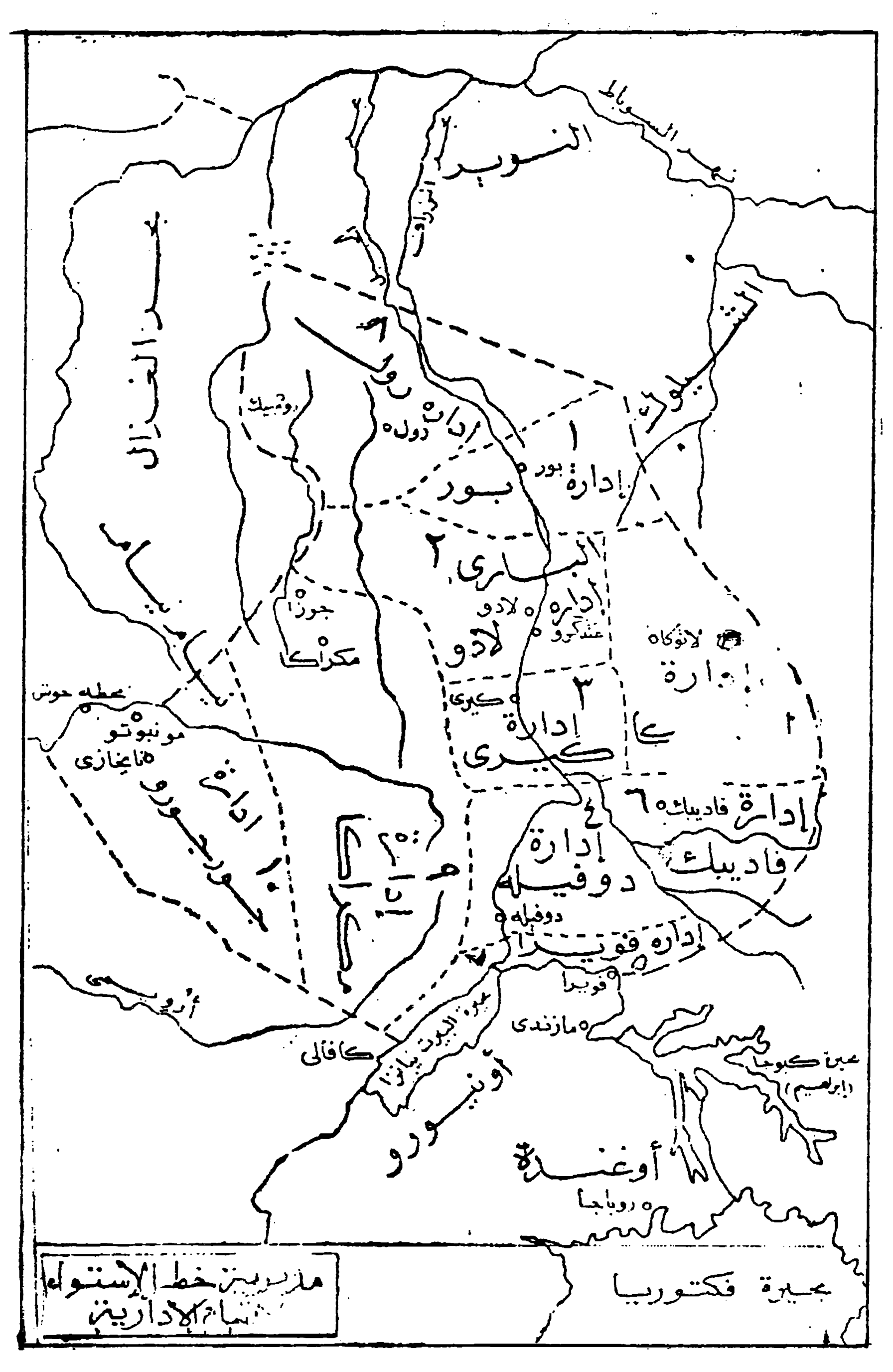
أما الإدارات العشر التى كانت تنقسم إليها المديرية فهى:[٢]

١- تناولـــنا هنا الحديث عن مديرية خط الاستواء حتى الفترة السابقة للثورة المهدية بالسودان - أما عن أصداء هذه الثورة فى المديرية الاستوائية وما آل إليه الأمر فيها بعد ذلك، فسنتناوله بالتفصيل عند الحديث عن الثورة المهدية لارتباطه بها.

٢- فيتاحسان: الحقيقة حول أمين باشا (الفصلين الخامس والسابع)

(فيتاحســـان مـــن أصـــل إســـرائيلى ولد فى تونس فى (١٤ يناير ١٨٥٨) وكان والده قنصلا لإيطاليا فى تونس فأرسله للإســـكندرية ليـــتم دراساته - فشغف (بالصيدلة) وأصبح صيدليًا لطبيب أرملة (عباس باشا الأول) الخاص فى القاهرة، وحصل على وظيفة صيدلى بالعريش بمصلحة الصحة، ثم عين صيدليا فى السودان، وأرسل لرؤوف باشا حكمدار السودان بصفة صيدلى بمديرية خط الاستواء. فوصل (لادو) سنة ١٨٨١ وتسلم صيدلية المديرية وبقى بها عشر سنوات إلى أن عاد مع حملة ستانلى المرسلة لسحب أمين باشا من مديرية خط الاستواء.

وكـــتابه هو تاريخ للمديرية فى هذه الفترة الهامة، وقد شارك هوفى حوادثها، وقد عينه (أمين باشا) وكيلا عنه فى (أونيورو) لـــدى الملـــك كباريجا فى الفترة التى ظهرت فيها أهمية فتح الطريق مع (الاونيورو) و(أوغندة) بعد أن أصبح طريق اتصال مديرية خط الاستواء بالشمال متعذرًا عن طريق النيل بسبب الثورة المهدية.


النوير
إدارة بور
بور
الباري
إدارة لادو
لادو
مكراكا
جوزا
إدارة كيري
كيري
إدارة فاديبك
فاديبك
إدارة دوفيله
دوفيله
إدارة فويرا
فويرا
مازندى
كافالى
أونيورو
أوغندة
روباجا
إدارة رول
رول
رومبيك
بحر الغزال
مونبوتو
نايغازى
محطه حوش
إدارة مونبوتو
بحيرة فكتوريا
بحيرة البرت نيانزا

شكل رقم (٧)

١- بور :

تقع شرق النيل الأبيض وتحتوى أرضها على غابات كثيرة من خشب الأبنوس، وهى عامرة بسائر أنواع الحيوانات البرية - سكانها من (الدنكا) ويشتغلون بالزراعة (ذرة - وسمسم - وتبغ) وبتربية المواشى خاصة البقر.

٢- لادو :

تقع على ضفة النيل الأبيض الغربية - وهى قاعدة المديرية - وأرضها تتألف من سهل رملى، ولكن يحيط بها جبلان أحدهما فى الشمال الغربى والثانى قرب محطة (الرجاف)، وسكانها من (الباريين) ويشتغلون بالزراعة (الذرة الحمراء، والسمسم، والفول السودانى) وتربية المواشى (الضأن، والماعز، والثيران)، وقرب لادو توجد ملاحات (أونجاتى) التى تسد حاجة جميع سكان مديريتى بحر الغزال وخط الاستواء[1].

والرجل العادى عند البارى يتزوج بامرأة واحدة، وشبكة الزواج عبارة عن عدة رؤوس من المواشى وبعض الحراب والسهام يقدمها الرجل لوالد خطيبته، والذرية من البنات عندهم أعظم من البنين لأن أهل البنت يربحون من زواجها بعكس الولد.

٣- كرى :

على ضفة النيل الأبيض الغربية وسكانها أيضًا من (الباريين).

٤- دوفيليه :

على ضفة النيل الغربية، وأهميتها ترجع إلى أنه منها تبدأ الرحلات صوب بحيرة (البرت) وبها ترسانة لإصلاح البواخر ولرسو الباخرتين النهريتين (الخديو) و(نيانزا)؛ ويشتغل السكان بالزراعة وصيد الإسماك، ويستخرج قربها الحديد وبعض المعادن الأخرى التى تصهر وتصنع منها الأسلحة وبعض الأوانى بطريقة بدائية.

٥- لاتوكا :

تقع شرق النيل الأبيض وأراضيها جبلية ولكن تكثر بها الأعشاب.

٦- فاديبك :

تقع شرق النيل الأبيض (شرق دوفيليه) وتقوم فيها الزراعة على نطاق واسع وتسكنها قبائل (الشولى).

١- لا يوجد فى سائر مديرية خط الإستواء إلا ملاحة فى أونجاتى (unjati) وملاحتان فى بلاد (الاونيورو).

٧- فويرا :

تقع على نيل فكتوريا عند التخوم الجنوبية لمديرية خط الإستواء وفيما وراءها توجد مملكة (الاونيورو) وعلى رأسها الملك كباريجا.

٨- رول :

غرب النيل الأبيض حتى مديرية بحر الغزال، والمنطقة آهلة بالسكان وهم من (الدنكا)، وقبائل الدنكا بعضهم ينزل فى شمال مديرية خط الإستواء فى مديرية بحر الغزال، والبعض يسكن مع النوير والشلوك فى مديرية (فاشوده) ولمركز رول أهمية بسبب مزارعة الشاسعة التى تنتشر فى سهوله الفسيحة – بالإضافة إلى مراعية الغزيرة ولمحصول العاج الوفير من الفيلة المنتشرة هناك.

٩- مكراكا :

تقع جنوب رول، ويشتغل السكان بالزراعة وهم من (النيام نيام) والحكومة تجند منهم عددًا كبيرًا.

١٠- مونبوتو (جورجورو):

تقع غرب النيل الأبيض وتمتد حتى أطراف نهر الكنغو والسكان هنا من (النيام نيام)، ويزرعون (الموز، والذرة الصفراء، والبيضاء)، والسكان لا يقتلعون ثناياهم مثل ما يفعل أغلب زنوح السودان ولكنهم يبردونها فتصبح مدببة[1].

على أن هذه المحطات التى امتدت لمسافة تبلغ أكثر من ٦٠٠ ميل من (فاشوده) شمالاً إلى خط الإستواء جنوبًا بدأت تتخذ مظهر (المدن) المستقرة، وكانت كل محطة منها تضم منطقة مساحتها حوالى ستة أفدنة فى بقعة مناسبة على ضفة النهر، وغالبًا كات الناحية المطلة على النهر مفتوحة، وأعد عندها رصيف لرسو السفن وورشة نهرية لتجميع وإصلاح البواخر، وكانت الجوانب الثلاثة الأخرى للموقع من سياج عال سميك من التراب يحاط بخندق، ومدت عدة شوارع نظيفة من النهر إلى الداخل، وكانت تحف بها أكواخ من القش، وفى وسط المحطة تعد أبنية من الطوب لضباط الحامية ومخازن ومستودعات للذخيرة.

وحول السور المحيط بالمحطة تنصب المدافع، وكانت الأعشاب والحشائش البرية على الضفاف تقطع لتفسح مجال الرؤية للمدافع، وأعدت كذلك الأرض لزراعة الخضر والقطن وغيرها، وقد فرض على الحاميات نظام دقيق، فكان بوق الاستيقاظ يدوى فى الخامسة والنصف صباحًا وكانت الشوارع تكنس بسرعة

1- Schweinfurth: Emin Pasha in Central Africa P. 513.

وتذهب زوجات الجنود للعمل فى الحقول بينما يتفرغ الرجال لتدريباتهم وأعمالهم الأخرى، وفى الثامنة مساء كانت الأبواق تغلق، وتطهى وجبة العشاء – وكانت البواخر تمر على هذه المحطات بانتظام حاملة البريد والإمدادات.

وهكذا كانت المحطات نقط الأمان والإطمئنان فى وسط هذه المناطق التى اعتادت الحياة الصاخبة البعيدة عند المدنية.

وكان (أمين بك) يداوم الإنتقال فى أنحاء المديرية للتفتيش والإطمئنان على حسن سير شئونها، وقد وضع على رأس كل محطة منها (قائد عسكرى) تحت إمرته قوة عسكرية – هذا وكان بالمديرية عدد من (الكتبة) وغيرهم من الموظفين لإدارة شئونها بالإضافة إلى عدد من الصناع والعمال فى مختلف الصناعات والحرف.

القوات العسكرية لمديرية خط الإستواء :

كان يوجد على رأس كل، مركز من مراكز مديرية خط الإستواء رئيس يلقب (بمأمور) تحت إمرته حامية يختلف عددها.

والحامية تتألف من ثلاثة عناصر:[١]

١- **جنود نظاميون:** من السودانيين، يتلقون دروسًا فى النظام العسكرى، وتتكفل الحكومة بكافة شئونهم من مأكل وملبس، وتصرف لكل منهم غير ذلك عشرون قرشا شهريًا.
٢- **الخطرية:** من متطوعى الحرب ويقال لهم أيضًا (الدناقلة) لأن أغلبهم من رجال دنقله.
٣- **التراجمة:** وهم أصلاً من الزنوج يقومون بالوساطة عادة بين الحكومة والأهالى لمعرفتهم بلغة الأهالى وعاداتهم وفيما بعد تألفت منهم فرق من الجنود النظاميين، وكان يوكل لهم بحراسة البريد والمواصلات بين مختلف المراكز وعاصمة المديرية.

وسكان مديرية خط الإستواء كان يبلغ تعدادهم فى أيام (أمين باشا) حوالى ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة موزعين إلى عدد من القبائل المختلفة الأجناس أشرقنا إليها سابقًا عند الحديث عن التقسيم الإدارى للمديرية.

1- Schweinfurth: Emin Pasha in Central Africa P. 409.

المواصلات :

من أهم ما وجهت له الإدارة المصرية عنايتها منذ كلف (بيكر) بمد نفوذ الإدارة المصرية لهذه الجهات – تيسير سبل المواصلات، ولهذا الغرض مهدت الطرق البرية كما بذلت الجهود لتيسير الملاحة فى النيل، ونقلت بعض البواخر (نيانزا، والخديوى) للعمل فى هذه الجهات.

وكان لإقامة المحطات العسكرية المختلفة على طول النيل وفى مختلف انحاء هذه المديرية – أكبر الأثر فى الإستقرار وسيادة الأمن، وتيسير الإنتقال بين أجزاء المديرية المختلفة.

وكان (البريد) المرسل للخرطوم يرسل أولا إلى (شمبى) بالمراكب بحرًا، ثم برًا إلى (مشرع الرق) ومنها إلى الخرطوم بطريق النيل، ولكن فى بعض فصول السنة كانت المواصلات النيلية متعذرة فيرسل البريد برًا إلى دارفور ومنها إلى الخرطوم(١).

وكانت المواصلات بين المديرية الإستوائية ومديرية بحر الغزال منتظمة، إلا فى الحالات التى تحدث فيها بعض القبائل القلاقل فى هذا الطريق(٢).

كذلك اهتم (أمين باشا) بصيانة المواصلات مع (أوغنده) لأهميتها كمنفذ للمديرية مع الخارج فى حالة انقطاع الإتصال بالشمال، ولذا فقد اهتم بإعادة الحياة إلى محطة (فويرا) وغيرها من المحطات التى أخليت بأمر غوردون، وقد ظهرت أهمية ذلك فيما بعد حين انقطعت صلة المديرية بالخرطوم بسبب الثورة المهدية، فكانت أوغنده هى الطريق الذى يؤدى إلى شرق أفريقيا حيث يمكن الإتصال بالعالم الخارجى.

التعليم :

اهتمت الإدارة المصرية – كما رأينا – بأن تختار عددًا من أبناء الجهات التى امتد إليها النفوذ المصرى وترسلهم إلى المدارس المصرية لتلقى العلم هناك، ثم انتقلت مصر خطوة أخرى ينقل تجربة التعليم الحديث إلى ميدان السودان نفسه فبدأت بفتح المدارس فى الخرطوم وغيرها من مدن السودان، واتسع أفق هذه التجربة فى عهد إسماعيل(٣).

١- عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الإستواء جـ٢ ص٤.

2- Schweinfurth: Emin Pasha in Central Africa P. 430.

٣- د. عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها – جـ ص١٦ وما بعدها.

– و د. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية وما بعدها جـ١ ص٣٩٠.

وقــد امــتدت هــذه الجهود بالطبع إلى مديرية خط الإستواء مع امتداد النفوذ المصـــرى فيها، وكان الهدف من هذه الجهود هو تعليم أهل الجنوب القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة والنحو والحساب وحسن الخط ومحاولة نشر اللغة العربية بينهم(١).

إن المحطات التى أنشأتها الإدارة المصرية فى مديرية خط الإستواء أصبحت بمثابة ورش لتعليم أهل الجنوب الصناعات الحديثة.

وكـــان الهـــدف من التعليم أولاً: هو سد حاجة الإدارة الجديدة من الموظفين ومن الصـــناع وخلافهم من المدربين على أنواع معينة من الخبرة كالنجارة والحدادة وصنع السفن والصناعات الجلدية – وقد أشار لذلك الرحالة الدكتور يونكو (Junker)(٢).

ولكـــن – كما ذكرنا سابقًا– يعيب هذا النوع من التعليم أنه لم يكن يساير إحتياجات البيئة السودانية، وقد كان أجدر بالإدارة المصرية أن تهتم بالتعليم الدينى البحت.

وقــد شهدت المديرية الإستوائية بنوع خاص ظاهرة تولى الأجانب الإدارة بها علـــى نطاق واسع فقد ولى أمرها (صموئيل بيكر) ثم خلفه (غوردون) ثم (براوت) فالدكـــتور (ادوارد شـــنتزر) هـــذا بالإضافة إلى عدد من الأجانب الذين أستقدمهم غـــوردون معـــه مـــن أمثال (رومولوجيسى) وغيره ممن سبق ذكرهم – وقد أثار اســـتخدام هـــؤلاء الأجانـــب المسيحيين سخط أهل السودان، وأتاح الفرصة لتثبيت وإنتشـــار الكثـــير من الإتهامات التى وجهت إلى الإدارة المصرية، ولو أن الخديو إســـماعيل بـــالذات لـــم يتورط إلى هذا الحد فى استخدام الأجانب فى المشروعات الهامـــة، ولـــو أنه تعلم درسًا من نشاط ووسائل الجمعيات التبشيرية الأجنبية التى اتســـع نشـــاطها فى السودان وفى غيره من الأقطار الأفريقية – لما أتاح الفرصة لانتشـــار الحـــركات المناهضـــة للإدارة المصرية مستخدمة سلاح الدين ومنتهزة فرصة استعداد النفوس وتهيؤها لاستقبال أمثال هذه الدعوات الدينية.

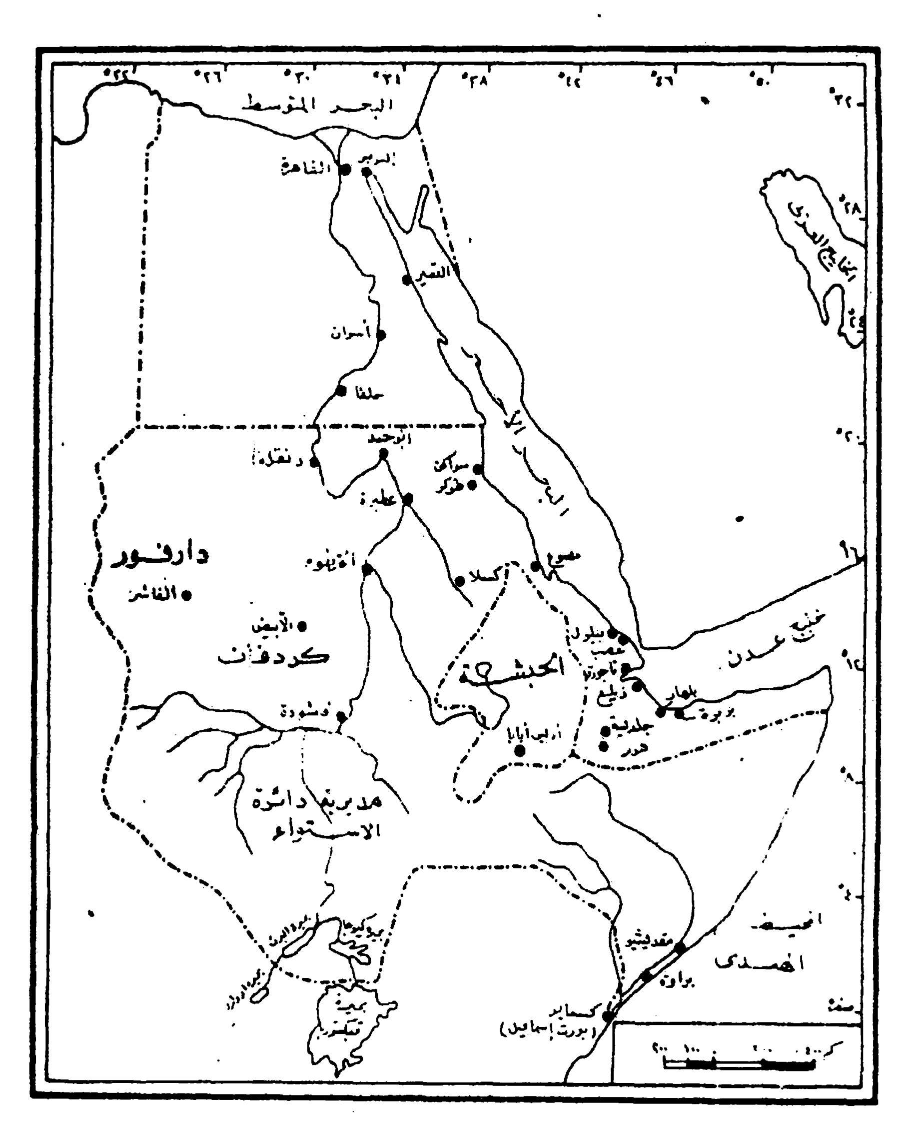
علـــى أن امـــتداد الإدارة المصـــرية لمديرية خط الإستواء فتح المجال أكثر أمام الهجـــرات العربـــية إلـــى الجـــنوب، وبذا امتدت آثار العرب والثقافة العربية إلى هذه المناطق، وقد أصبحت المواصلات ميسرة والأمن مستتبًا مما يسر مثل هذه الهجرات.

وقـــد أشـــرنا سابقًا إلى طلب أمتيسة ملك أوغندة إرسال من يرشده إلى تعاليم الدين الإسلامى، ومبادرة مصر إلى إرسال اثنين من الفقهاء وذكر فى ترد الحكومة

١– د. عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان ... جـ٢ ص٧٧.

٢– ويونكر طبيب روسى الجنس، وقد قام بعدة رحلات فى السودان الشرقى – ودارفور ومديرية خط الإستواء.

المصـــرية على هذا الطلب: "إنه بما أن هذه البلاد بعيدة ومتسعة ونشر الدين القويم فـــيهخا مبـــتدئ... فقد تعين إثنان من الفقهاء من ذوى العقل والمعرفة والإرادة فى تآلف قلوب الأهالى وتعليمهم بغاية اللطف قواعد الديانة وتفهيمهم محسناتها[1].



شكل (٨) حدود السودان فى عهد الخديوى إسماعيل

١- دفتر ١٨ عابدين - صادر تلغرافات عربى شفره ص ٣ ف (٢١ ربيع الأول ١٢٩١).

كمـــا أشـــرنا إلى أنه فى الوقت الذى كان (ستانلى) يزور فيه الملك (أمتيسه) كانت هناك بعثة إنجليزية تبشيرية (مؤلفة من قسس وضابط بحرى وعمال...) فى طريقها إلى أوغندة.

وكل هذا يدعو إلى عدم قبول أى عذر للحكومة المصرية فى ذلك الوقت لعدم إدراكهـــا الحقيقى لما كان مفروضًا عليها القيام به من التعليم الدينى بالذات فى هذه الجهـــات، بـــل وفـــى أرجـــاء الســـودان كله، بالإضافة إلى مسئوليتها عن النتائج الخطـــيرة- الـــتى كان يجب أن تداركها مقدما والمترتبة على استخدام الأجانب فى هذه الجهات - وقد ذكر غوردون فى تعليقه على البعثة التبشيرية السالفة الذكر (إنه واثـــق مـــن أن تنظيم هذه البعثة من عمل صمويل بيكر)... وذكر أنه يبنى اعتقاده هذا على ما جاء بخطاب من صمويل بيكر إلى الرحالة (جرانت) بخصوص ضيقه بامتداد الإدارة المصرية إلى أواسط أفريقية[١].

وقـــد واجهـــت الإدارة المصرية فى المديرية الإستوائية (تجارة الرقيق) التى كانـــت تمـــارس علـــى نطـــاق واسع فى هذه الجهات، وكان من أهداف الحملات المصـــرية الـــتى أرسلت لهذه الجهات - كما ذكر فى التعليمات الصادرة لكل من بـــيكر وغـــوردون - القضاء على هذه التجارة البغيضة، وفى أغسطس (١٨٧٧) عقدت بين مصر وإنجلترا معاهدة بشأن محاربة هذه التجارة، ولكن اتسمت الوسائل التى أتبعت لتنفيذ هذا الهدف الإنسانى بالكثير من العنف والشدة، مما أثار الكثيرين ممن كانوا يمارسون هذه التجارة من أزمان سحيقة، بالإضافة إلى ما أحدثته سياسة الإلغاء المفاجئ من خلخلة فى المجتمع السودانى[٢] الذى كان الرقيق ركنًا هامًا من أركانه، تقوم عليه الحياة الإقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة.

ورغـــم الأخطـــاء التى صاحبت تنفيذ سياسة مصر فى هذه الجهات فيمكن أن نذكر فضل مصر فى مجالين هامين على وجه الخصوص:

أ - الكشوف الجغرافية:

أشـــرنا مـــن قبل إلى جهود الإدارة المصرية فى عهد صمويل بيكر، وغوردون وغـــيرهما فـــى هذا السبيل، ويضاف إلى فضل الإدارة المصرية فى هذا السبيل العون الذى قدمته للرحالة والمستكشفين الأجانب، كما أنه فى ظل الإدارة المصرية أصبح فى

١- أنظر ماذكرناه سابقًا عن هذه البعثة أثناء الحديث عن بعثة الطبيب أمين وسحب الحامية المصرية من أوغنده.

- وانظر د. محمد صبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص٦٣، ٦٤.

2- Junker, W.: Traveles in Africa During the years 1857-1886 Vol. 1. P. 500.

إمكان الرحالة من أمثال الطبيب (يونكر) واليوزباشى (كازاتى) والمبشرين مثل (فلكن) و(ولسن) وغيرهم أن يجوبوا هذه المناطق فى أمان كامل واطمئنان.

ب- نشر الحضارة والمدنية بين السكان:

يكفى هنا أن نورد ما ذكره الدكتور يونكر فى كتابه (رحلة أفريقيا) عن فضل الإدارة المصرية فى هذا المجال:

"يرجع الفضل إلى المسلمين - وهم الذين توجه إليهم المطاعن والمثالب فى إلزام الزنوج بضرورة المعيشة فى هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم والإقامة على قدر الإمكان فى دورهم وصرفهم إلى زراعة حقولهم - وهذا العمل ينبغى أن تقدره حق قدره بدون أن نبخسه شيئًا، ومما يشرف الحكومة المصرية وضع المناطق التى يسكنها الزنوج تحت سيطرتها، وهذا الأمر مكنها من أن تفتح بابًا لانتشار المدنية فيها فى مستقبل الأيام".

وقد شهد نفس هذه الشهادة المبشر (فلكن) فى كتابه (أوغنده والسودان المصرى)[1].

فلاشك فى أن مصر مهدت الطريق لإنتشار المدنية والحضارة فى هذه الجهات، وفتحت أبوابها للنور وداست الأشواك وتعرضت لسهام القبائل غير المتحضرة.

وكانت المحطات المصرية فى هذه الجهات بمثابة المنارات التى يهتدى بها المسافرون، ويحتمى بسلطانها الكل، ويجدون فيها المكان المناسب الذى تشع منه أنوار المدنية والحضارة ويجد فى رحابه الكل المأوى والأمان والعلاج.

النواحى الصحية :

اهتمت الإدارة المصرية بالسودان منذ امتد الحكم المصرى لهذه الجهات فى عهد محمد على بالناحية الصحية سواء للموظفين - من مصريين وسودانيين - أو للأهالى، فقد أقيم تقام فى كل مدينة هامة مستشفى زود بالأطباء والصيادلة وما يحتاجه من أدوية وخلافه، لمسنا ذلك فى سنار وفى مدن السودان الأخرى، كما لمسناه فى الجهات التى أمتدت إليها الإدارة المصرية فى السودان الشرقى، وكذلك فى دارفور، وامتدت العناية بالنواحى الصحية لتوفير المياه العذبة وغير ذلك من ضروريات الحياة.

1- Felkin: Uganda & The Egyptian Sudan Vol. 1. P. 324.

وكان طبيعيًا أن نجد مثل هذا الاهتمام بالمديرية الإستوائية، فحين أعدت بعثة (صـــمويل بـــيكر) إلـــى هذه الجهات صدر أمر إلى ناظر الجهادية بإلحاق بعض الأطـــباء الشـــبان الأقويـــاء الذين تخرجوا من مدرسة الطب بهذه البعثة، ليرافقوا الموظفين الذين تقرر قيامهم بهذه المأمورية[١].

وبعـــد هـــذا الأمر بفترة قصيرة صدر أمر خاص بترقية (الملازم ثانى طبيب حسن فهمى) إلى رتبة الملازم أول، وإرساله أيضًا إلى مديرية خط الإستواء[٢].

وقـــد كانت العقاقير الطبية اللازمة لهذه الجهات ترسل لها فورًا وبكميات وفيرة، مـــراعاة لـــبعد المســـافة عـــن مصر، وكان المديرون فى هذه المديرية يرسلون عادة بطلباتهم من العقاقير المختلفة فتبادر (المالية) بإعداد المطلوب وإرساله فورًا[٣].

وقد كانت مصر تستجيب دائمًا لإقتراحات المديرين الخاصة بترقية الموظفين الذيـــن يعملـــون فى هذه الجهات النائية، فلما طلب غوردون ترقية الطبيب (محمد أفـــندى الحكيم) إلى رتبة اليوزباشى والصيدلى (أحمد أفندى) إلى رتبة معاون لأنهم يقومـــون بعملهـــم فـــى المديـــرية على خير وجه أبرقت إليه مصر بالموافقة على ترقيتهم تشجيعًا لهم لمضاعفة الجهد[٤].

وقد أمدنا فيتا حسان (Vita Hassan) الذى عين صيدليًا لمديرية خط الإستواء فى سنة ١٨٨١ محل (خليل أفندى وسيم) الصيدلى الذى تقرر رجوعه إلى مصر - بمعلومـــات كثيرة عن الجهود التى بذلت للنهوض بالناحية الصحية فى هذه الجهات التى لم تكن قبل الإدارة المصرية تعرف إلا التطبيب عن طريق السحرة.

فذكـــر أنه عندما وصل إلى (لادو) أعاد بناء المستشفى والصيدلية من الطوب ووفر فى الأولى وسائل الراحة، وفى الثانية (دواليب) زجاجية وضع فيها (أحقاق) وأوانى الأدوية بأكمل نظام وأتم ترتيب، وأعد فيها كذلك معملا علميًا نظيفًا - كما يـــتحدث عن جولاته فى أنحاء المديرية، وقد كان فى بعض هذه الجولات بصحبة

١- دفتر ٥٨٢ معية ص١٥ فى (٢٣ صفر ١٢٨٦).

٢- دفتر ٥٧٣ معية ص٢٣١ - أمر رقم ٤٥ فى (١٤ ربيع الأول ١٢٨٦).

٣- دفـــتر ١١ معـــية عربى صادر - مكاتبة رقم ١٩٤ ص١٩٣ فى (٦ رجب ١٢٩٣) - من المعية للمالية بخصوص صرف الأدوية التى طلبها غوردون باشا مأمور جهات خط الإستواء وإرسالها لطرفه حالا.

٤- دفتر ٤٩ عابدين وارد تلغرافات شفره - تلغراف رقم ١٧٨ فى ١٨٧٨/١/٢٨ من غوردون إلى خيرى باشا - وقد ورد رده فى دفـــتر ٣٥ عـــابدين صـــادر تلغرافات عربى شفرة - تلغراف رقم ٩٠ فى ١٨٧٨/١/٣٠ بالموافقة على ما جاء بالتلغراف السالف الذكر.

أميـــن باشا الذى كان كثيرًا ما يشترك فى علاج المرضى وذكر(فيتا حسان) - إنه كـــان يسافر مع أمين باشا إلى الخرطوم لإحضار ما يلزمه من أدوية وغيرها من الموجود فى مخازن العاصمة[١].

تنمية موارد البلاد الاقتصادية وإقامة المشروعات الإصلاحية

يكفى لدراسة الحالة الإقتصادية التى آلت إليها مديرية خط الإستواء أن ندرس التقرير الوافى الذى كتبه (أمين بك) عن موارد المديرية فى عام ١٨٨٣ - ففى هذا التقرير يوضح إيرادات المديرية ومصادرها وما بذل لتنميتها، ومصروفاتها وأوجه الصرف.

والأرقـــام الـــتى ذكرت للايرادات برهان ساطع على الرخاء الذى عم أرجاء المديـــرية، ويســـتطيع المرء أن يذكر وهو مطمئن - علاوة على ما سبق - أنه لو كـــان قـــد قـــدر للإدارة المصرية الوقت الكافى لتنفيذ مشاريع الإصلاح والتحسين المـــتعلقة بإنتشـــار الزراعة، وإحياء الصناعة التى بدأتها لأستطاعت هذه المديرية على كل حال تموين سكان يزيدون على الموجودين بها ثلاث أو أربع مرات.

ذكـــر أميـــن بـــك فـــى تقريره أن مصروفات المديرية (على الإدارة) بلغت ١١,٠٤٠ جنيهًا بيانها كالآتى:[٢]

راتب المدير	٦٠٠ جنيه مصرى
راتب وكيل المديرية	٣٦٠ جنيه مصرى
راتب قائد الجنود	٣٦٠ جنيه مصرى
رابت القاضى	١٢٠ جنيه مصرى
رواتب الموظفين	٤٣٠٠ جنيه مصرى
رواتب موظفى الأمور الصحية	٢٠٠ جنيه مصرى
رواتب الجنود	٥١٠٠ جنيه مصرى
	١١,٠٤٠ جنيه مصرى

١- كتب (Vita Hassan) كتابًا بالألمانية نشر فى برلين سنة ١٨٩٣ باسم (الحقيقة حول أمين باشا)، والكتاب تاريخ لمديرية خط الإستواء فى السنوات العشر الأخيرة من حكم أمين باشا والتى كان (فيتاحسان) بصحبته فيها، والكثير من المعلومات الواردة فى هذا الكتاب ضمنها عمر طوسون فى الجزء الثانى من كتابه عن تاريخ مديرية خط الإستواء ص٢٤ وما بعدها.

٢- أنظر نص التقرير فى:

عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الإستواء جـ٢ ص١٣٢ وما بعدها.

أما إيرادت المديرية فكانت كالآتى:

٥٠٠٠ جنيه مصرى من العاج
٨٠٠ جنيه مصرى من ريش النعام
٢٠٠ جنيه مصرى من جلود الثيران.
٨٧٥٠ جنيه مصرى من الحاصلات الزراعية
٥٩,٧٥٠

وقد كان على كل مركز أن يورد قدرًا محددًا من هذه الأصناف حسب إنتاجه، فمـثلاً مـن العاج كان المقدار الواجب توريده ١,٧٠٠ قنطار، وكان موزعًا على المراكز كالآتى:

المركز	المقدار بالقنطار	المركز	المقدار بالقنطار
بور	١٠٠	لاتوكا	٢٠٠
لادو	٦٠	فادييك	٥٠
كرى	٢٠	مكراكا	٥٠٠
دوفيليه	١٥٠	رول	٢٠٠
فويرا	٢٠	ممبو	٤٠٠

وثمـن قنطار العاج الواحد ٣٠ جنيهًا – ولكن كانت تصرف بضع هدايا منه لرؤساء القبائل قدر ثمنها بحوالى ١٠٠٠ جنيه.

أما الحاصلات المتنوعة التى تورد فهى:

النوع	مجموع الوارد منه	النوع	مجموع الوارد منه
ذرة	٢٢,٤٠٠ أردب	شهد	٨,٤٠٠ رطل
فول سودانى	٧٠٠ أردب	زيت	٩,٩٠٠ رطل
سمسم	١,٧٠٠ أردب	زيت نباتى	٤,٨٠٠ رطل
فول	١,٧٠٠ أردب	تبغ	٢٠ قنطار

ويسـتطيع المـرء من دراسته للمصروفات والإيرادات هذه أن يدرك بسهولة كيف استطاعت هذه المديرية سد حاجتها من نفس حاصلاتها، وإيراداتها زهاء ست سنوات عند انقطاع المواصلات مع باقى العالم بسبب الثورة المهدية.

أما أوجه النشاط الاقتصادى المختلفة فى المديرية فيمكن إجمالها فيما يلى:

أ - الإنتاج الزراعى :

أدرك أميــن بك أن مديريته التى عهد إليه بإدارتها تشمل مساحات واسعة من الأراضــى الصالحة للزراعة، والماء متوفر فيها من روافد النيل الأبيض المتعددة، كما يوجد الماء العذب تحت سطح الأرض فى بعض الأماكن على عمق مترين أو ثلاثة، ولذا جلب أنواعًا متنوعة من البذور وحاول تجربة زراعة أنواع مختلفة من الخضر وأشجار الفاكهة، وأدخل زراعة القطن، والأرز، وأنواع ممتازة من الذرة.

ولــو أُتيحــت للمديرية فترة استقرار واستتباب للأمن، لظهرت بشكل أوضح نتيجة الجهود المبذولة فى هذا المجال، ولكن كانت مصر والسودان منذ عام ١٨٨١ تفــتقران لمثل هذا الهدوء، وقد أرسل أمين بك فى عام (١٨٨١) إلى مصر يطلب المعونــة لتنفيذ مشروعاته التى رسمها للنهوض بهذه الجهات، وكان رد (الجنرال اســتون) علــى رســائل أمين بك أن الخديو يقدر مشروعاته حق قدرها، غير أن الحوادث تضطره لأن يؤجل تنفيذها إلى وقت أكثر ملاءمة.

وقد أصبحت المديرية - كما جاء فى تقرير أمين بك - تنتج الكميات الضخمة من الحبوب (الذرّة - الدخان - السمسم) التى يعتمد عليها الأهالى كلية فى التغذية، بالإضــافة إلــى صنع المريسة (الجعة الأهلية) منها، وذكر أن العصافير والطيور والقطعان التى لا عدد لها تحدث بالمحصول أضرارًا يجب تفاديها.

كذلــك أشار التقرير إلى غلات أخرى كالتمر الهندى والقصب الذى زرع فى سائر المحطات ويكثر فى الجنوب على الخصوص.

أما القطن فقد انتشرت زراعته كما انتشرت صناعة الأنوال لنسج الدمور من الأنسجة القطنية وهو نسيج ملائم لمناخ السودان.

ونجحــت زراعــة (الأرز) نجاحًــا كبيرًا فى المناطق التى تتوفر فيها المياه اللازمــة للــرى، كذلــك كــان هــناك اهتمام بنباتات الزيوت (كالفول السودانى، والسمسم) لاستخراج الزيوت منها.

وأدخلــت بالمديــرية زراعــات جديدة كأشجار الفاكهة (البرتقال، والجوافة، والعنــب، والليمون، والأناناس، والباباز، والرومان...) والخضر (ملوخية، وبامية، وقرع، وفاصوليا، وطماطم، بصل...)[1].

1- Schweinfurth: Emin Pasha in Central Africa P.P. 418-424.

ب- الإنتاج المتعلق بالثروة الحيوانية :

شــجعت مديــرية خط الإستواء الأهالى على تربية الماشية، وقد استورد أمين بك أنواعًــا مــن الجــاموس والأغنام التى تمتاز بوفرة لحومها أو ألبانها لتحسين الأنواع الموجــودة مــن قــبل فــى المديرية - كما استورد بعض الطيور والحيوانات كالبط والأرانــب، والجمــال والحمير والخيول، وقد تعرض أمين بك فى تقريره لأهمية كل مــنها وقدرتــه علــى الحمل أو السير - كذلك وجه عنايته للثروة المائية (الأسماك) إذ كانت غذاء لكثير من القبائل الساكنة بالقرب من البحيرات أو مجرى النهر(1).

وقــد أشرنا - سابقًا - إلى أهمية سن الفيل كمصدر من مصادر ميزانية هذه المديــرية. وقد نظم أمين بك عملية قنص الفيلة إذ أن أهم موارد ميزانية المديرية كــان من العاج الذى يرد من المنطقة الجافة، والجبلية الواقعة شرقى النيل، وعاج هذه المنطقة من أصلب الأنواع وأغلاها ثمنًا.

أما النعام فأهم مناطقه كانت شرق بحر الجبل، أما غربه فيندر وجوده لوجود الغابــات، وهو يتناسل بكثرة فى رمال (سهول لانجو)، وقد قامت تجارب فى عام ١٨٨٣ لتجربة تربية النعام فى المحطات المختلفة.

وشــجعت الإدارة المصــرية تربية النحل فى المناطق المأهولة بالزنوج لأن الــنحل يــتربى هناك وحده بدون أية عناية - فالأهالى يكتفون بتعليق السلال فى الأشــجار، ومــن المعــتاد تعليق سلة واحدة فى كل شجرة - ويطيب النحل نفسًا بالمــأوى الــذى عرض عليه، ويأخذ على عاتقه تأدية وظيفته، وكلما إمتلأت سلة طــرد مــنها الــنحل بــإطلاق الدخان عليه ثم يجنى الشهد - وتصنع من الشمع المشاعل.

ج- النشاط الصناعى :

أدخلت فى المديرية صناعات جديدة من أهمها:

١- **النســيج:** وقــد ظهــرت أهمــية هــذه الصناعة بنوع خاص حين انقطعت المواصــلات مع الخرطوم، فأصبح على المديرية أن تكفى نفسها من إنتاجها الخاص.

٢- **عصــر الزيوت وصناعة الصابون:** تحدث تقرير أمين بك عن نباتات الزيوت (كــالفول الســودانى والسمسم)، وعن نجاح التجارب التى أجريت لإستخراج كميات أوفر من الزيوت من هذه النباتات.

1- Schweinfurth: Emin Pasha in Central Africa P. 175.

وذكــر أن هناك أشجارًا بالمديرية تأتى بدهن متجمد، كما يوجد ثمر (الباسيا) الذى هو أشبه بأبى فروه، ويصنع منه دهن ممتاز للأكل.

وقــد أجريت تجارب لصناعة الصابون من هذه الزيوت، وظهر أن الأمر يحتاج لإستيراد مادة (الصودا) من مصر، لأنه لم يعثر على مورد لها فى السودان.

٣- **المطــاط، والصــمغ العــربى:** تكثر أشجار المطاط بجوار مجارى المياه فى الجهــات الواقعــة جــنوب خط عرض ٨° شمالا، وقد أثبتت التجارب التى أجريت على عينات منه أنه من النوع الجيد فاهتمت المديرية باستغلاله.

أما الصمغ العربى الناتج من غابات شجر (اللبخ) وغيره من المواد اللزجة فقد أجريت تحاليل للإستفادة منه.

٤- **الكحول:** أجريت تجارب لتقطير الحبوب لإستخراج الكحول منها.

٥- **دباغــة الجلــود والصناعات الجلدية الأخرى:** ذكر أمين بك فى تقريره أن ما ينحره الجيش من الثيران تكفى جلوده لسد حاجة سوق الخرطوم، فإذا أضيف لذلــك مــا يستهلكه الأهالى من هذه الحيوانات، وكذا جلود الضأن والماعز – وجــد أنــه تتوفر كمية هائلة من الجلود، ولما ظهر أن تكاليف النقل تزيد من ثمــن الجلــود الأصلية زيادة كبيرة، أقامت الإدارة المصرية صناعة (دباغة الجلود) فى أماكن تصديرها خاصة وأن مواد الدباغة متوفرة.

وتســتخدم جلــود الجاموس والأوعال والزراف فى صناعة الأحذية والقرب وسيور السياط وغيرها.

أمــا جلــود الحيوانات المفترسة كالأسد والنمر والسباع والحيوانات الأصغر حجمًــا مــثل الشــمس الــنمس وكلاب الماء وأنواع القردة والزراف وحمار الوحــش – فقــد ذكر (أمين بك) فى تقريره فى عام (١٨٨٣) أنه يوجد منها الكثير وأنه يفكر فى طريقة لإستغلالها.

٦- **المعــادن:** ذكــر أميــن بــك فــى تقريره أنه وجد (الحديد) الجيد، وأنه يقوم باســتخدامه خاصــة فى (مونبوتو) و(مكراكا) فى بعض الصناعات الحديدية كالســهام والحــراب، وذكر أنه يأمل أن يستطيع النهوض بمستوى الحدادين والصناع فى هذه الجهات.

د- التجارة :

كانــت طريقة (المبادلة) هى الشائعة فى هذه الجهات لعدم توفر العملة، وعدم تعــود الأهــالى علــى اســتخدامها، وإن كانت الإدارة المصرية قد أدخلت العملة المصرية هنا لكن تداولها كان على نطاق ضيق.

وقد ساعد تنوع الإنتاج ومضاعفته على زيادة حجم التبادل.

ولكن احتكار تجارة سن الفيل وريش النعام الذى اتخذته الحكومة المصرية لتحد من نشاط تجار الرقيق - الذين كانوا يتسترون وراء الاتجار فى هذين النوعين لمزاولة نشاطهم القديم - حد من النشاط التجارى خاصة وأن هذين النوعين من أهم ما كانت تنتجه المديرية ويتاجر به كبار تجارها - وقد انتقد (أمين بك) سياسة الاحتكار هذه وذكر فى تقريره أن الجهود تبذل لفتح أبواب التجارة والصناعة مراعاة لمصلحة البلد نفسها وللإستفادة من مختلف الخيرات التى أودعها الله فيها بوفرة عظيمة.

وأشار إلى أنه توجد فى المديرية ثروات لا يستهان بها من الإنتاج النباتى والحيوانى، بل ومن (الحيوانات البرية الحية) التى انتشرت تجارتها بسرعة على سواحل أفريقيا، وأن الأمر يستلزم تنظيم الملاحة مع الخرطوم وفتح الأسواق أمام ثروة المديرية لتغمر الأسواق الخارجية.

وهكذا تبذل الإدارة المصرية الواعية الجهود للنهوض بهذه البلاد بعد أن وفرت لها الأمن والسلام، حتى أننا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن الإنسان كان يتوقع لهذه المناطق مستقبلاً زاهرًا فى مختلف نواحى التقدم، لو أتيحت لها فرصة الهدوء والاستقرار التى حرمتها منه الاضطرابات التى اجتاحت أرجاء السودان فى ذلك الوقت، والأطماع الإستعمارية التى أطبقت عليه وخاصة على مديرية خط الإستواء والأقاليم الجنوبية الغنية منها بنوع خاص بعد ذلك[1].

١- ملاحظات :

أ - الحديث تركز هنا على المديرية فى فترة إدارة (أمين بك) لها لأن الفترة السابقة كانت فى الحقيقة - كما ذكرنا سابقًا - فترة فتح واستكشاف وتوطيد لدعائم الإدارة المصرية - أما فترة حكم أمين بك فكانت بداية الإستقرار لهذه الإدارة.

ب- ما يتعلق بعصير مديرية خط الإستواء بعد قيام الثورة المهدية فى السودان، أجل الحديث عنه لما بعد - عند الحديث عن الثورة المهدية ذاتها.

الفصل العاشر
الحبشة وعلاقة الإدارة المصرية فى السودان بها

- أسباب اضطراب العلاقات مع الحبشة.
- حملة إنجلترا على الحبشة وموقف مصر منها.
- الحملات المصرية على الحبشة:
  - حملة أرندروب بك.
  - حملة متزنجر باشا.
  - حملة راتب باشا.
- الحكم على سياسة إسماعيل تجاه الحبشة ونتائجها.



الفصل العاشر
الحبشة وعلاقة الإدارة المصرية فى السودان بها

العوامل التى أدت لاضطراب العلاقات مع الحبشة :

كانت العلاقات بين الإدارة المصرية فى السودان والحبشة فى ذلك العهد مضطربة كل الاضطراب، ويرجع ذلك لعدم تحديد الحدود، ولوقوع هذه الحدود فى مناطق يسكنها فى بعض الأحيان – أقوام رحل لا يسهل بقاؤهم فى مكان واحد، ولا يسهل ضبطهم، هذا بالإضافة إلى وجود نجاشى على عرش الحبشة كثير الأطماع هو النجاشى (ثيودور).

ونظام وراثة العرش فى الحبشة يقضى بأن تكون الوراثة فى أسرة معينة، ولكن لا يوجد تحديد أكثر من ذلك، فالأمر متروك لاجتماع من رؤوس الأقسام الكبرى فى الحبشة، وعادة العرش ينتقل إلى من يتغلب على أقرانه من هؤلاء الرؤساء، وكان (ثيودور) يطمع لا فى أن يصبح صاحب الأمر فى الحبشة فحسب – ولكنه كان يطمع أيضًا فى الوديان التى تسير إليها الأنهار الآتية من هضبة الحبشة، كما أنه كان يطمع فى أن يصل إلى البحر الأحمر، وكانت له بعض تصرفات غريبة مع الإرساليات الكاثوليكية ومع المسلمين فى بلاده، وقيل إنه كان يطمع فى الوصول إلى مصر نفسها، ومنها إلى فلسطين ليخلص (بيت المقدس) من المسلمين.

وقد اعتاد رؤوس الأحباش أنفسهم الإغارة على الأقاليم السودانية المجاورة ونهبها، وكانوا يفرضون أتاوه – تعرف (بالقبر) – على سكان الجهات السودانية المجاورة لهم مثل (فازوغلى) و(دار القلابات)[1].

وفى عهد محمد على أثير هذا الموضوع فكتب (خالد خسرو باشا) أثناء وجوده بفازوغلى إلى ملك الحبشة يطلب الإقلاع عن هذه المطالبات التى لا مبرر لها.

وكان الأحباش بالإضافة إلى ذلك يشجعون شيوخ الجهات المجاورة لهم من السودان على الخروج على سلطان الحكومة المصرية وإعلان العصيان[٢]

وظلت الدوائر الأجنبية أن (محمد على) يزمع متابعة فتوحاته فى هضبة الحبشة، وحذر محمد على بطريقة تكاد تكون رسمية من التفكير فى مثل هذه

1- Douin: Op. Cit. Tome 3-1re Partie. P. 37.

٢- محفظة ١٩ بحربرا تركى – رقم مسلسل ٩٤ ق (آخر محرم ١٢٦٤).

المشـــروعات ونبه إلى أن الإعتداء على الحبشة يستتبع أن تدخل الدول الكبرى فى صفها لمؤازرتها ورفع الإعتداء عنها[١].

وقد أنكر محمد على أنه دار فى ذهنه مشروع لفتح بلاد الحبشة – والواقع إن الإنســـان يصعب عليه أن يتصور أن محمد على يقدم على هذا الإتساع فى الوقت الـــذى كان يصرف فيه جهودًا كبيرة فى تأمين بلاده ومستقبله فى البحر المتوسط، وعلى حدود الدولة العثمانية.

وفـــى أيـــام (سعيد) زادت العلاقات توترًا – وكانت خطة سعيد لمعالجة هذه المســـألة هى الإستعانة بنفوذ الكنيسة القبطية المصرية فى دوائر الحكومة الحبشية، على إعتبار أن الحبشة موالية لتلك الكنيسة، وأن الرئاسة الدينية فى الحبشة فى أيدٍ مصرية.

وبناءًا على ذلك كُلف بطريرك الأقباط بالسفر إلى الحبشة، وإقناع الإمبراطور باتباع سياسة مسالمة وصداقة – ويلوح أن زيارة البطريرك ونفوذه لطفت من حدة العلاقـــات – وإنمـــا لم تحل شيئًا من جوهر وطبيعة الظروف القائمة بين الجارتين السودان والحبشة.

هـــذا هو الوضع عندما ولى الخديوى إسماعيل الأمر، ويبدو أنه كانت فى نية (إســـماعيل) من المبدأ أن يتبع سياسة حازمة بالنسبة للحبشة، ولكنه كان يدرك أن تنفـــيذ هـــذه السياســـة يستلزم إما مساهمة من الدول الأوربية وإما – على الأقل – حـــيدتها فـــى أثـــناء تصفية الحساب مع الأحباش، وكان إسماعيل فى سياسته تجاه الحبشـــة مـــتأثرًا بالإهانات التى وردت فى رسائل (ثيودور) إلى حكمدار السودان (موسى حمدى) ومن سبقه، والمعتقد – والأقرب إلى المنطق أيضًا – أن الهدف لا يمكـــن أن يكون القضاء على استقلال الحبشة نهائيًا، فهذا أمر غاية فى الصعوبة، ولكـــن لعـــل الأمـــر لا يتعدى تأمين مناطق الحدود وإخضاعها للإدارة المصرية، وإبعـــاد نفوذ الأحباش عن السهول، ولا يستبعد أن تكون الأنظار أيضًا متجهة إلى الاســـتيلاء على بعض المناطق الواقعة على طريق المواصلات المؤدى (لمصوع، وســـواكن) – فهناك ولاشك صلة بين العلاقات مع الحبشة وبين مسألة المواصلات السودانية.

والتعلـــيمات الصادرة إلى (موسى حمدى) تدل على أنه كلف – كما ذكرنا – بإتباع سياسة حزم وقوة تجاه الأحباش، مع تجنب الوقوع فى حرب معهم.

3- Dye: Moslem Egypt & Christian Abysinia P. 120.

كمـــا استغل إسماعيل العلاقات السيئة بين الإمبراطور الحبشى فى ذلك الوقت والأوربيين بسبب تصرفات (ثيودور) مع قنصلى فرنسا وإنجلترا واعتقالهما، وهذه الاتجاهـــات مـــن إسماعيل جعلته يخدع ويقع فى حبائل بعض المغامرين الأجانب. ويذكــر (دوان) على سبيل المثال قصة مغامر فرنسى يدعى بيسون (Combe de Bisson) جـــاء لمصر وجعل إسماعيل يتصور أنه جاسوس سرى لنابليون الثالث، وأنـــه قادم إلى مصر ليصل عن طريق وادى النيل إلى السودان ليمهد لحملة برية ضـــد الحبشـــة – وكـــان (Bisson) يحمـــل خطابى توصية من الحكومة الفرنسية باعتـــبار أنـــه يريد القيام بمشروعات زراعية فى منطقة (سنار)، وقد حصل على خطابات التوصية هذه عن طريق قريب له كان ببلاط نابليون الثالث.

ولما أحس أن الظروف فى مصر مواتية جمع حوله عصابة من رواد القاهرة مـــن المالطية والأروام، وبدأ إسماعيل ينفق عليهم عن سعة فسلحهم وأجرى عليهم الأرزاق وأركـــبهم ســـفناً ســـارت بهم فى النيل إلى السودان، وفى الطريق كانت للـــرجل تصـــرفات غريـــبة مع المأمورين ورجال الإدارة – وأرسل إسماعيل إلى نوبار فى فرنسا يستوضحه المسألة، فجاءه الرد بأن الحكومة الفرنسية لم تكلف هذا الأفـــاق بشـــئ، وكـــان (بيسون) قد وصل إلى الخرطوم. والعجيب أنه بدلاً من أن يرســـل إلـــى موسى حمدى للقبض على الرجل وإعادته إلى مصر – طلب منه أن يسالمه – كما ذكر فى الخطاب المرسل لموسى حمدى – وتطور الأمر إلى أن رفع هـــذا النصاب قضية على الحكومة المصرية يطالبها بتعويض عن أراضى شاسعة اتفق مع بعض القبائل على شرائها ولم يدفع ثمنها وأجبر على إعادتها لأصحابها.

وأهمـــية هذا الحادث أنه يكشف عن رغبة إسماعيل الملحة فى تصفية مسألة الحبشـــة عن طريق المعاونة الأوربية إن أمكن ذلك، أو عن طريق الحياد الأوربي إن لـــم تـــتحقق المعاونة. والحقيقة أن إسماعيل كان يعلق أهمية كبرى على موقف أوربا من مشروعاته، ويفسر لنا هذا استخدامه الأجانب بكثرة فى هذه المشروعات فـــى أعـــالى النيل وعلى سواحل البحر الأحمر وفى المحيط الهندى على زعم أن اســـتخدام هـــؤلاء الناس يربط دولهم بسياسته بعض الشئ – ولا شك فى أن الدول الأوربـــية كانـــت على استعداد لقبول هذه الخطة التى لا تكلفها شيئًا على أمل أنها يمكن أن تمهد لمشروعات أوربية صرفة، على أساس أن مصر لا يمكن أن تتحمل أعـــباء هذا الإتساع كله، ولذا فيمكن للدول الأوربية أن تحمل عن مصر بعض هذا العبء.

وكمـــا ذكـــرنا كانـــت التعلـــيمات (لموسى حمدى) بأن يتبع سياسة حزم مع الأحـــباش بشرط أن يتجنب حربًا صريحة معهم - فقام (موسى باشا حمدى) بنفسه وابـــتدأ حملات على حدود الحبشة أدب فيها القبائل العاصية، وتوغل فى الأراضى الحبشـــية متعقـــبًا القبائل الهاربة من الأراضى السودانية، أو الزعماء المقيمين فى الأراضـــى الحبشـــية والذين يثيرون الإضطرابات فى الأراضى السودانية، وخرب (موسى حمدى) ونهب وحرق المدن والقرى لأنه كان يرى أن يوجد منطقة جرداء شبه صحراء بين السودان والحبشة لتصبح أرضاً حراماً غير مأهولة، ولا مزروعة ولا يعـــيش فيها إنسان ولا حيوان، وقد أرسل إلى موسى باشا أن يقلع عن التمادى فـــى هذه السياسة، وكان الإمبراطور (ثيودور) مشغولاً بقمع ثورات بعض رؤوس الحبشـــة، فلـــم يقـــابل إجـــراءات موسى حمدى بحملات مضادة[1]. على كل هذه الإجراءات لم تحل جوهر المشكلة.

حملة إنجلترا على الحبشة وموقف الحكومة المصرية منها

لما قررت إنجلترا إرسال حملة بقيادة نابير (Napier) لتأديب الملك (ثيودور) ملك الحبشة الذى تجرأ على اعتقال وسجن قنصل إنجلترا بالحبشة، وبعض التجار الإنجليز بها، ورفض إطلاق سراحهم بالحسنى، كان موقف الحكومة المصرية فى غاية الدقة.

فهـــى ترحـــب بإضعاف الحبشة - ذلك الجار الذى كان دائمًا يثير المتاعب - ولكن فى نفس الوقت الذى كانت ترحب فيه بتقليم أظافر الإمبراطور (ثيودور) كان لابد لها من بحث العواقب التى ستنجم عن نزول قوات إنجليزية على سواحل البحر الأحمـــر وفـــى ثغـــوره وتوغلها إلى الداخل، ومن يدرى لماذا لا تفكر إنجلترا بعد انتهاء مهمتها فى الحبشة فى البقاء فى بعض الثغور؟ وفى هذه الحالة تكون مصر اســـتراحت مـــن جـــار ضعيف لمواجهة احتلال بريطانى - وقد تتخذ إنجلترا من مراكـــزها الجديـــدة على الساحل الأفريقى الشرقى قواعد لخلق المتاعب لمصر أو لمهاجمتها والإستيلاء على بعض ممتلكاتها[2].

لهـــذا استقر الرأى أخيرًا على أن تحاول الحكومة المصرية مشاركة الإنجليز فـــى لعملـــيات الحربية فى الحبشة، لأن معنى المشاركة (المقاسمة)، فعلاً فكرت مصر جديًا فى أمر إعداد الجنود اللازمين لمواجهة الموقف.

١- دفتر ٥٢٦ معية تركى ص ٥٨ رقم ١٦ فى (٦ شوال ١٢٧٩).

2- Douin: Op. Cit. Tome III 1re Partie. P. 348.

ولهـذا الغـرض أرسـلت الحكومـة المصـرية تلح فى طلب إعادة الجنود المصـريين الذيـن كانوا (بكريت) للمساهمة فى أخماد الثورة التى نشبت بها، لأن مصـر – كما أوضح الخديوى فى طلبه الذى أرسله لرئيس الجيش العثمانى – فى حاجـة إلـى عدد يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشرة ألف جندى للمرابطة على حدودها المواجهة للحبشة بسبب الحملة الإنجليزية عليها.

ولا شـك فى أن هذا العدد الضخم من الجنود لم تكن الحاجة ماسة إليه لحفظ الحـدود فحسـب بـل للمشـاركة فعلاً فى الحملة الإنجليزية ضد الحبشة، ولكن الإنجلـيز – وقـد أدركوا أغراض مصر – رفضوا هذا الطلب وأدعوا أن اشتراك المصـريين يدعـو لـتقوية مركز الإمبراطور الحبشى، لأن ذلك سيصبغ المسألة بصبغة دينية يستطيع الملك الحبشى أن يستغلها لجمع شتات الأحباش وتكتلهم معه، وخاصة أن إنجلترا أعلنت أنها تحارب الملك لا الأحباش[1].

والطـريف أن إنجلترا التى رفضت مشاركة مصر فى حملتها على الحبشة لم تـتورع عـن أن تطلـب من مصر أن تعمل لها كافة التسهيلات الممكنة – وفعلاً أصدرت الحكومة المصرية أوامرها إلى محافظ (مصوع) وحكمدار السودان لعمل كافة التسهيلات للإنجليز والسماح لهم بالمرور من مصوع فى طريقهم إلى الحبشة، وتدبـير الدواب اللازمة لهم وتأمينهم، والترخيص لهم بمد خط تليفونى بين سواكى ومصـوع، وبعمـل مخـازن لذخائـرهم وإسطبلات لحيواناتهم إلى غير ذلك من التيسيرات المطلوبة[2].

هـذا وقد عين (عبد القادر باشا) مندوبًا فوق العادة بمصوع خصيصًا بسبب هذه الحملة الإنجليزية للمحافظة على حقوق السيادة المصرية ولتيسير مهمة الإنجليز[3].

ولا شـك أنه فى ستار عمل التسهلات والتيسرات للإنجليز، انتهزت الحكومة المصرية الفرصة لتدعيم سيادتها فى المناطق الهامة على ساحل البحر الأحمر، وقد أمـر الأسطول المصرى بقيادة (جمالى باشا) بأن يجوب موانى هذا البحر، وينشر السـلام بين القبائل المتنافرة، ويرفع الراية المصرية إثباتًا لسيادة مصر فى الأماكن الهامة مثل (بربره) و(رأس حافون)[4].

1- Douin: Ibid Tome III 1re Partie. P. 350.

٢- سجل ٥٦٠ معية تركى – ص ١٠٦ قسم ثان رقم ٢ فى (جمادى الأول ١٢٨٤).

٣- دفتر ٥٧٣ معية تركى – ص ٤٤ رقم ٢٨ فى (٦ شوال ١٢٨٤).

٤- دفتر ٥٧٣ معية تركى – ص ٢٦ فى (٢١ جمادى الثانى ١٢٨٤).

هــذا على أن مصر اتجهت وجهة أخرى، وهى أن تلعب دور الوسيط بين الدولتيــن المتخاصــمتين (إنجلترا والحبشة)، فحررت ثلاثة خطابات إلى حاكم الحبشــة إحداهــا من الخديوى والآخران من بطريقى الأقباط والأرمن، لنصح الحــاكم الحبشــى بأن يطلق سراح القنصل الإنجليزى والمسجونين معه حفظًا للسلام وحقنًا للدماء[١].

ويمكنــنا أن نستنتج الدوافع التى دفعت مصر للتوسط فى الصلح بين إنجلترا والحبشة:

١- فممــا لا شــك فيه أن دخول الإنجليز فى الحبشة - وخروجهم منها ليس من الأمور المرغوبة، فإن ذلك سيفتح عيونهم أكثر لأهمية البحر الأحمر وثغوره، وهو أمر يهدد المصالح المصرية أسوة بما حدث حين احتل الإنجليز عدن.

٢- وســاطة مصــر - إذا نجحت - فلاشك فى أنها سترفع من مركزها الدولى. وستظهر مصر بمظهر الدولة المحبة للسلام والساعية فى تحقيقه.

٣- إذا فشــلت هذه الوساطة فستظهر الحبشة بمظهر الدولة المشاغبة الراغبة فى القــتال - وقــد أشــار خديوى مصر فعلاً فى أثناء خلافاته - المقبلة - مع الحبشة إلى هذه الحوادث كدليل على سوء نية ملوك الحبشة وتصرفاتهم.

ومــن جهــة الحملــة الإنجليزية - فقد رفض حاكم الحبشة ما أسدى إليه من نصح، وأرسلت الحملة واستولى الإنجليز فى الثالث عشر من شهر أبريل (١٨٦٨) علــى (مجــدلا) شمال (أديس أبابا)، وهو المكان الذى كان به المعتقلون واحتلوها وانقــذوا المعتقليــن جمــيعًا سالمين، وقتل من الأحباش عدد كبير وكان النجاشى (ثــيودور) من ضمن القتلى فى هذه المعركة، وحل محله الملك (يوحنا) الذى كان يعاون الإنجليز ضد (ثيودور).

وبعــد انتهاء الحرب عاد الجيش الإنجليزى من تلك الجهات، وعرضت كثير مــن المهمات والأدوات والمبانى التى أقيمت فى مناطق مختلفة من شواطئ البحر الأحمر للبيع، وقد اشترت الحكومة المصرية الكثير منها[٢].

علــى أنــه يجب أن نشير إلى أن وصول الإنجليز إلى الحبشة وخروجهم مــنها قــد فتح فعلاً أعينهم أكثر لأهمية البحر الأحمر خاصة أنهم كانوا - كما

١- سجل ٥٧٣ معية تركى - مكاتبة تركية ص ٢٢ رقم ١٢ فى (٢١ جمادى الثانى ١٢٨٤).

٢- دفتر ٥٧٣ معية تركى - وثيقة رقم ٤١ ص ٦١ فى (٢٥ محرم ١٢٨٥).

ذكـرنا – قـد اسـتولوا على مدخل هذا البحر باستيلائهم على قاعدة عدن عام (١٨٣٩).

علـى أن قـتل الملـك (تيودور) ملك الحبشة وتربع عدوه الملك يوحنا على العرش، لم يكن له أثر فعال فى تخفيف وطأة الخلاف بين مصر والحبشة، ويرجع ذلـك إلـى أن أسباب الخلاف الجوهرية لم تكن ترجع إلى شخصية الملك الحبشى بقـدر مـا هى متصلة بعوامل أخرى تتعلق بالحدود بين أملاك الدولتين، بالإضافة لطبـيعة الأرض علـى الحدود والقبائل التى تسكن هذه المناطق، فهى قبائل بدوية متـنقلة كانـت تأبى بطبيعتها أن تخضع لحاكم يفرض عليها نظامًا خاصًا وقانونًا معيـنًا محددًا، وضرائب منتظمة تدفع فى أوقات معينة، ولذلك كانت هجرة القبائل مـن أراضـى أحـد الطرفين لأراضى الطرف الآخر، وطلب حمايتها شيئًا عاديًا ومسـتمرًا وكانـت كـل مـن الحكومتين المصرية والحبشية تحتضن هذه القبائل المهاجـرة، وتقـدم لها التسهيلات والمغريات، فأدى كل هذا لاستمرار التوتر بين الحكومتيـن (المصـرية والحبشية)، هذا بالإضافة إلى أطماع الحبشة التقليدية فى بعـض المناطق التى خضعت للحكومة المصرية، ومنها (مصوع) وبعض الجهات الـتابعة لمديرية (التاكا)، فقد كانت الحبشة دائمًا تطمع فى منفذ على البحر الأحمر تطـل مـنه على العالم الخارجى، بالإضافة إلى نظرة الريبة والشك وعدم الرضا لإحاطتها بعدد من الدول الإسلامية القوية.

ومـنذ القـرن الخـامس عشـر كان الصراع الصليبى قد امتد إلى البحر الأحمـر، وكانـت الحبشة بالذات فى وقت من الأوقات تمثل رأس الحربة التى أريـد أن توجه إلى العالم الإسلامى واقتصادياته، ورغم أن الروح الصليبية أو الدوافـع لأمـثال هذه الحروب كانت فى هذه الفترة التى نتحدث عنها قد فترت وانتهـت، ولكن لاشك فى أن الدور الذى لعبته الحبشة فى القرن الخامس عشر أو الـذى كـان ينتظر البرتغاليون وغيرهم من الصليبيين أن تلعبه لم يغب عن الأذهـان.

وقـد جـرت مفاوضـات بين الحكومتين المصرية والحبشية بقصد تصفية الخلافات على الحدود بين السودان والحبشة، ولكن هذه المفاوضات لم تُسفر عن نتـيجة، وقـد أتهم ضابط إنجليزى يُدعى (كركم) – كان فى خدمة ملك الحبشة، وكـان قـد بقى بالحبشة – بعد الحملة الإنجليزية التى انتصرت على (ثيودور)، وأقامت (يوحنا) على العرش بأنه لكى يخلق لنفسه مركزًا لدى الملك حبذ له عدم قبول الصلح أو المفاوضات مع المصريين، وأكد له أن فى استطاعته كسب تأييد

الـــدول الأوربية إلى جانبه فى ادعاءاته الخاصة بحقوق الحبشة فى المناطق التى كانت مثار خلاف بين البلدين، وفعلاً أوفده الملك إلى بعض البلاد الأوربية كسفير لـــه يذيع الشائعات ضد مصر، مما دعا إنجلترا إلى أن تكتب لمصر تستفسر عن نواياهـــا من حشد عساكر على الحدود الحبشية، ومما دعا الصحف الأوربية أن تذكـــر أن الحكومـــة المصرية تطمع فى الإستيلاء على أجزاء من الحبشة، وأن حاكم الحبشة أضطر لمقابلة ذلك بالمثل، فأعد ما يقرب من عشرة آلاف عسكرى لمواجهة الخطرى المصرى[١].

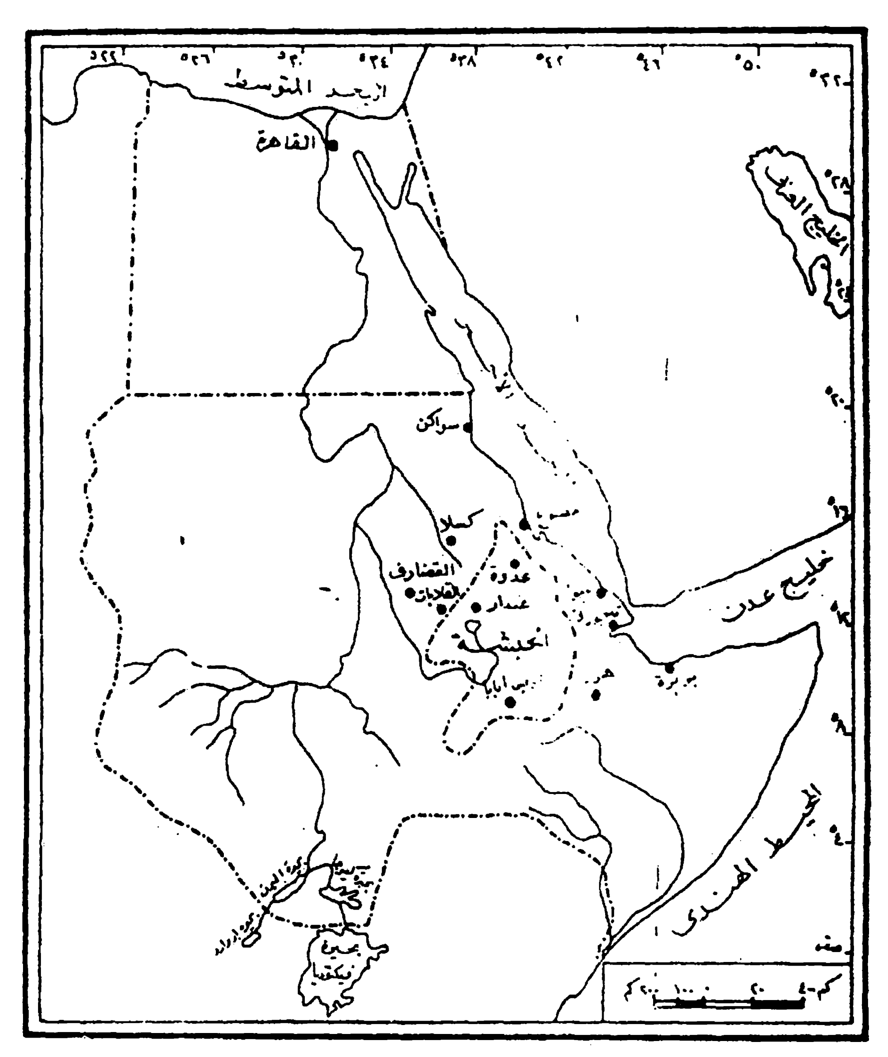
وقـــد حرصت مصر على أن تُفند كل هذه الإدعاءات، وأرسل إلى (نوبار باشـــا) فـــى الآســـيتانة ليوضح حقيقة الأمر للحكومة العثمانية، وأن يُفند القول بوجـــود موانـــى تتـــبع الحبشة على سواحل البحر الأحمر، لأنه بإحالة سواكن ومصـــوع وملحقاتهمـــا إلـــى الإدارة المصرية أصبح لمصر كل الساحل حتى (بربره)، ذلك لأن جميع الساحل من مصوع حتى باب المندب أصلاً من أجزاء الســـلطنة العثمانية، وقد الحق بالإدارة المصرية، ومافعلته إنجلترا عند حملتها علـــى الحبشة، إذ إستأذنت مصر فى أن تسمح لها باستخدام مرفأ (زولا) أثناء العملـــيات الحربـــية – دلـــيل قاطع على تبعيه هذه الجهات للحكومة المصرية بإعتراف إنجلترا ذاتها.

هكـــذا ظلـــت الحالـــة متوترة على الحدود بين الحبشة والإدارة المصرية فى الســـودان، واتخذت الحكومة المصرية جانب الحيطة، فمنعت الأسلحة من المرور بموانـــيها إلـــى الحبشـــة، كمـــا عمدت إلى توطيد صلتها ببعض الرؤوس والحكام الأحـــباش المناوئين للملك يوحنا، ومن أهمهم (منلك) ملك (شوا) المقاطعة الجنوبية من مقاطعات الحبشة وهى قريبة من هرر(٢).

وقد تطور الأمر إلى حروب سافرة بين مصر والحبشة.

١٢– دفتر ٢٥ عابدين صادر ص ١٠٨ فى (١٣ ذى القعدة ١٢٨٩).

١٣– محفظة ١٩ بحربرا بدون نمرة فى (١٢٩٢).



شكل رقم (٩) حملات الخديوى إسماعيل على الحبشة

الحملات المصرية على الحبشة :

بلغت هذه الحملات ثلاث:

١- حملة أرندروب بك (١٨٧٥).

٢- حملة منزنجر باشا (١٨٧٥).

٣- حملة راتب باشا (١٨٧٦).

١- حملة أرندروب بك (١٨٧٥):

كانت الحملة الأولى ضد الحبشة بقيادة أرندروب بك (Arendrup Bey) وهو مـن أصـل دانمركى، جاء إلى مصر وتعرف على الجنرال استون رئيس أركان الحرب، فأدخله فى خدمة الجيش المصرى.

وقـد أحيطت حملة (أرندروب) هذه بالسرية، حتى أن ضباطها لم يكونوا قبل سفرهم يعرفون وجهتهم. وتحركت الحملة من مصوع فى ٤ رمضان ١٢٩٢ بقيادة (أرندروب بك) وبصحبته (أراكيل بك نوبار) محافظ مصوع، والقائمقام (رستم بك ناجى) متجهة إلى بعض القرى فى الطريق إلى (الحماسين) وهى أول أقاليم الحبشة المجاورة لحدود السودان.

وأرسـل (أرنـدروب بك) مندوبًا إلى إمبراطور الحبشة لمحاولة عقد صلح، ولكـن رفض ملك الحبشة ما عرض عليه من جعل نهر (الجاش) حدًا فاصلا بين السودان والحبشة، وقيل إن (سارزيك) قنصل فرنسا فى مصوع وبعض الفرنسيين والإنجلـيز وغـيرهم من الأوربيين بالحبشة حرضوا الملك على قتال المصريين، وأشـاروا إلى أن حكوماتهم ستقف إلى جانبه وتمنع المصريين من الإستيلاء على أى جزء من بلاده.

وتقدم الأحباش لملاقاة الجيش المصرى – الذى قدرت قوته بـ ٣,٢٠٠ مقاتل بقوة ضخمة قيل أنها بلغت ٣٠,٠٠٠ مقاتل.

وقـد وزع (أرندروب) قواته على عدة مناطق رغم نصيحة بعض ضباطه له بعـدم إضعاف قوته بتقسيمها، كما رفض الإستماع لمشورة ضباطه الذين نصحوه بعـدم ملاقـاة الأحـباش فى المكان الوعر الذى كان يعسكر فيه بين الجبال قرب (جُـندت)، وقـد دارت المعـركة وكانت بين قوتين غير متكافئتين عددًا، فاستطاع الأحـباش أن يصـلوا القـوة المصرية نارًا حامية، وقتل فى المعركة (أراكيل بك نوبـار) المحافظ، و(أرندروب بك)، والقائمام (رستم ناجى بك) الذى أظهر شجاعة وبسالة فائقة، فقد أصيب برصاصة فى رأسه ولكنه عصب رأسه واستمر فى القتال وهـو جـريح، فأصيب برصاصة أخرى، وبينما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة – وكان المـيدان قـد خلا من القواد – نادى العساكر وأمرهم بأن يحاربوا بالسنكى بعد أن فرغـت ذخـيرتهم، فكان مثلاً أعلى للتضحية الحقة، وأسر عدد كبير ولم ينج من المعركة إلا أفراد قلائل.

الأسباب التى أدت إلى هذه الهزيمة المنكرة :

١- سـوء اختيار القائد - فإن تصرف (أرندروب بك) - الذى اختاره الخديوى دون القواد المصريين ليكون قائدًا عامًا للحملة، وتشبثه برأيه فى اختيار ميدان المعركة وعدم استماعه لنصيحة معاونيه - كان من الأسباب الرئيسية للهزيمة.

٢- هذا بالإضافة إلى تفتيت أرندروب للقوة التى معه وتوزيعها فى أماكن متباعدة، وبعضها كان بعيدًا عن المواقع المنظور أن تدور فيها رحى الحرب.

٣- ضآلة عدد الجنود المصريين بالنسبة لعدد جيش الأحباش.

٤- مـا نُسـب إلى بعض الضباط الذين اشتركوا فى الحملة من إهمال وتخاذل - بعكـس (رسـتم ناجى بك) الذى أشيد بموقفه - وقد ظهرت بعض تصرفات مُشينة خاصة أثناء الإرتداد استدعت أن يحقق مع بعضهم مثل البكباشى (على رأفت أفندى).

وقـد كان لتلك الهزيمة المنكرة التى مُنى بها الجيش المصرى فى تلك الحملة بالحبشـة صـداها السيىء، سواء فى الجهات التابعة لمصر بالأقاليم السودانية أو بمصـر ذاتهـا، حـتى أن محافظ (مصوع) الجديد طلب أن تُرسل له إحدى السفن الحربـية المصـرية لتقـيم بصفة دائمة فى مصوع لإظهار هيبة الحكومة، أما فى مصـر فقـد لمسـت الحكومة تأثير الشائعات التى انتشرت حتى أنها أرسلت إلى محـافظ مصـوع بعـدم تمكين أحد ممن كانوا فى تلك الموقعة - سواء أكانوا من العساكر أو الأتباع - من الحضور إلى مصر منعًا لنشر الإشاعات المزعجة[1].

هـذا وقـد ذكـر (وليم داى) الكاتب الأمريكى الذى كان ضابطًا فى الجيش المصرى، واشترك فى حملة راتب (الحملة الثالثة ضد الحبشة):

"إن الخديوى كان يأمل أن تنجح حملة راتب فيعلن للعالم خبر الهزائم السابقة، وخبر انتصارات الحملة الأخيرة معًا فى وقت واحد"[2].

٢- حملة منزنجر باشا (Munzinger) (١٨٧٥):

كانـت هذه الحملة مكملة لحملة (أرندروب بك)، وقد كان إعداد الحملتين فى وقت واحد، على أساس أن تُهاجم حملة أرندروب الحبشة من الشمال - من طريق مصوع - بينما تهاجمها الأخرى جنوبًا عن طريق ميناء (تاجوره).

١- دفتر ٢٧ عابدين - صادر تلغرافات شفره ص ٧٧ رقم ٤٤٣ فى (٧ صفر ١٢٩٣).

2- Dye: Moslem Egypt & Christian Abyssinia P. 15.

وقـد طلب (منزنجر باشا) من مصر أن توافق على إرسال خطاب ودى إلى (يوحـنا) ملـك الحبشة قبل البدء فى الهجوم، تدعوه فيه إلى الرجوع ومن معه من العسـاكر ليترك مجالاً للمفاوضة بين الطرفين، وقد وافقت الحكومة المصرية على ذلـك، كمـا أرسلت إلى (منلك) ملك شوا – خصم الملك (يوحنا) – لتشجيعه على فسخ الصلح الذى تم بينه وبين الملك الحبشى[١].

ولـم تـنجح محـاولات الصلح مع الملك (يوحنا)، فبدأت الحملة سيرها من (تـاجوره) فـى ٢٨ رمضـان ١٢٩٢ (٢٦ أكتوبر ١٨٧٥)، وكان مع (منزنجر) زوجته وسكرتيره الأوروبي[٢].

وكانـت وجهـة الحملة جهة (أوسه) – وفى الطريق إليها ألتقى منزنجر بأحد شيوخ عربان تلك الجهة (الشيخ محمد ولد لهيطة)، وقد أظهر هذا الرجل الخضوع للحكومـة المصرية، واستعداده لأن يدل الحملة على الطريق القصير إلى (أوسه)، ولـم يتخذ منزنجر حذره منه، وانتهى الأمر بأن غرر بهم فى طريق وعر، يتعذر علـى الجمـال أن تسير فيه إلا إذا قطعت الأشجار، ونقلت الأحجار، كما أنه من الصعب التراجع منه.

وانتهى الأمرّ بوقوع الحملة فى كمين كان قد دبر لها بالاتفاق مع هذا الرجل، فقـتل (منزنجر) باشا وزوجته وعدد كبير من الجنود المصريين، وأضطر الباقون مـن الناجيـن من هذه الحملة للتراجع إلى (تاجوره) بعد أن أتلفوا أسلحتهم الثقيلة وألقوا بها فى البحر حتى لا تقع فى أيدى الأعداء[٣].

والعجيـب أنـه بعد الهزيمة، وبعد فوات الوقت تهتم الحكومة المصرية بعمل رسـم للطـريق المؤدية من (تاجوره) إلى (أوسه) يوضح فيه بعد كل محطة عن الأخـرى مـع بـيان المياه المتوفرة فى المحطات ونوعها، سواء أكانت جارية أم (معين) أو مكونة من الأمطار.

وكـان الأجـدر أن تُعمل هذه البيانات والدراسات قبل قيام الحملة، وتسلم لها لتسير على هُدى، لانتقاد لمن يضلل بها.

وفـى نهاية كل حملة تظهر المخازى والفساد الذى كان سائدًا فى الجيش فى ذلك الوقت، ويعمل مع الضباط والعساكر العائدين من فلول الحملة تحقيق وهذا ما حدث بعد موقعة (أوسه).

١- دفتر ٣٣ صادر تلغرافات شفره – رقم ٥٢٧ فى (١٨ رجب ١٢٩٢).

2- Douin: Op. Cit. Tome 3-3 eme Partie. P. 794.

٣- دفتر ٣ عابدين – (وارد الإفادات) ص٣ رقم ٥ فى (١٦ ذى القعدة ١٢٩٢).

٣- حملة راتب باشا (١٨٧٦) :

خشى الخديوى عواقب هذه الهزائم المتتالية، فرتب حملة أكثر عددًا وأكمل فى العـدد والأسـلحة والضباط، ليثأر من الهزائم السابقة، وعين على هذا الجيش قائدًا عامًـا (راتـب باشـا) سردار العساكر المصرية ومعه الجنرال لورنج (Lorng) كرئـيس أركـان حرب، وهو من القواد الأمريكيين العاملين فى الجيش المصرى، و(عثمان رفقى باشا) و(راشد راتب) قوادًا للفرق العسكرية - ورافق الحملة (حسن باشا) نجل الخديوى برتبة أميرالاى.

وقـد اتضـح فـيما بعد أن الهدف من إرسال الخديو لنجله (حسن باشا)، لا للاشـتراك فى الوقائع الحربية، ولكن ليراقب ويتجسس على أحوال القواد والجنود، فـإن الأحـداث السـابقة زعزعت ثقته فى إخلاص رجال الجيش، وكان الخديوى يخشـى وقوع خلاف بين (راتب باشا) - القائد العام - وبين الجنرال (لورنج)، ولم يكن للأمير حسن باشا من الكفاءة والخبرة ما يجعلانه قائدًا يعتمد عليه فى مثل هذه الحـرب، فقد اقتصرت خبرته على بعض الدراسة لفترة قصيرة للفنون الحربية فى ألمانيا - ويقول (داى) إن كل مؤهلات الأمير أنه كان مولعًا بالصيد[١].

ويـبدو أن الصـدمة كانت من العنف على الخديوى حتى أنه لم يتمهل لتدبير الأمـر بـروية وأنـاة - وكل ما اهتم به هو أن يكدس أكبر عدد من الجنود لهذه المعـركة، ولكنه لم يعتن باختيار القيادة المتجانسة - وإن كان قد وضع على رأس هـذه الحملـة (راتـب باشـا) القائد المصرى إرضاءً للجنود المصريين وللشعور القومى، لكن للأسف فإن القادة لم يكن بينهم التجانس المطلوب[٢].

وقـد حاولت الحكومة المصرية أن تخطب ود (الملك منلك) ملك شوا، فأرسل الخديوى إليه خطابًا يمنيه فيه بعرش الحبشة بعد تأديب الملك يوحنا وخلعه[٣].

كذلـك حاولـت الحكومة المصرية استمالة حاكم الحماسين الرأس (ميخائيل) فأرسـلت إليه الهدايا السخية مع الوعد بمنحه هو ومن يتعاون مع الحملة المصرية سلطات كبيرة فى بلدهم بعد هزيمة الملك يوحنا.

هـذا وقـد ضـبط بمصـوع بعـض الأجانب من فرنسيين وإنجليز يعملون كجواسـيس لحسـاب ملك الحبشة من أمثال مسيو (دى سارزيك) الذى كان قنصلا

1- Dye: Op. Cit. P. 187.

2- Ibid P. 157.

٣- دفتر ٣ - أوامر عربى ص ٣٠ نمرة ٦١ فى (٨ ذى القعدة ١٢٩٢).

لفرنسا فى مصوع، ومن أمثال الضابط الإنجليزى (كركم) الذى كان قد وصل إلى رتبة (الجنرال) فى الجيش الحبشى، والذين ضبطوا من الأنجليز ادعوا أنهم من الصحفيين، ورغم أنهم ضبطوا وهم يتجسسون على أخبار الجنود المصريين، فقد احتجوا على حجز الحكومة المصرية لهم، وهم رعايا أجانب.

وقبل أن تواجه الحملة العدو، دب دبيب الخلاف بين (راتب باشا) والجنرال لورنج، ووصلت أخبار هذا الخلاف إلى القاهرة، فكتب الخديوى إلى نجله (حسن باشا) للعمل على إزالة هذا النفور بينهما، وأن يتقابل مع كل منهما على إنفراد، ويبحث الأمر ويحاول معرفة الأشخاص المسئولين عن إفساد الجور بين القواد، لأنه كما جاء فى خطاب الخديوى لنجله: "ما من جيش يمكنه أن يحرز النصر والظفر إن لم يكن رؤساء قواته على وفاق تام"[١].

وقد أبدت بعض القبائل العربية بالسودان من (بنى عامر) و(الشايقية) استعدادها للقتال مع الجيش المصرى، ووافقت الحكومة المصرية على ذلك. أما من ناحية الحملة فقد استولت على الحماسين، وعلى (قياخور) واتجهت صوب (قورع) – وقد مدت خطوط التلغرافات بين (مصوع) والجهات التى احتلها الجيش المصرى فى الحبشة.

ووصلت للقيادة المصرية أنباء تفيد أن الأحباش يزحفون إلى جهة (قياخور) – وحينئذ حدث خلاف بين (راتب باشا) وبين (الجنرال لورنج) على الخطة العسكرية التى يجب أن تتبع – فقد كان من رأى راتب باشا كما ذكر فى تقريره إلى الحكومة المصرية أن يبقى بجيشه متحصنا بالمتاريس حتى يهاجمه الأحباش، بينما كان من رأى الجنرال (لورنج) وجوب خروج الجنود ومبادأة العدو، وقد عقد راتب باشا والجنرال لورنج عدة اجتماعات فى الفترة السابقة للمعركة الحاسمة التى وقعت قرب (قورع) فى ٧ مارس ١٨٧٦، ولكن بدا فى هذه الاجتماعات بوضوح الخلاف الواسع فى الرأى بين القائدين[٢].

وانتهت معركة (قورع) بهزيمة الجيش المصرى وقتل عدد كبير من كبار الضباط وأسر عدد آخر – وأمكن إنقاذ (الأمير حسن) نجل الخديوى بالجُهد، ويقول الكاتب (داى) إن راتب باشا أهمل كل شيء عن الجيش، وكان اهتمامه كله مركزًا فى ضمان سلامة الأمير حسن[٣].

---

١ – دفتر معية أوامر (تركى صادر) ص ٢٨ ق (٢٦ ذى القعدة ١٢٩٢).

2- Douin: Histoire du Regne de Khedive Ismail Tome 3, eme Partie. P. 864.

3- Dye: Moslem Egypt & Christian Abyssinia P. 365.

وقد استطاع العدو أن يقطع خط الرجعة على (راتب باشا) ومن بقى معه من الجـنود فى (قورع)، وأبرق راتب باشا بهذا كله عن طريق (الإشارة الحربية) إلى (عـثمان رفقـى باشـا) فى (قياخور)، وأرجع هذه النتائج كلها لتصرفات الجنرال لورنج).

وهكـذا بسـبب عدم اتفاق كبار القواد، وتشبث كل برأيه تقع الكارثة الكبرى، فيسـقط صرعى وجرحى العدد الكبير من كبار رجال الجيش، ومن العساكر، ويقع القـائد العـام ومـن معه فى الحصار، وقد مثل العدو بالجرحى والأسرى بطريقة تقشعر منها الأبدان[1].

وكـان موقـف الحكومة المصرية فى غاية الحرج، وتركزت الآمال كلها فى محاولـة رفـع الحصار عن القوة فى (قورع)، ولكن حدث ما اضطر الملك يوحنا إلـى أن ينسـحب بجيشه، ويرسل خطابًا إلى الأمير (حسن باشا) مبديًا الرغبة فى المفاوضـة من أجل الصلح، ويبدو أن رغبة الملك فى الصلح كانت راجعة لخوفه من قيام حركات داخلية ضده فى بلاده.

وبالطـبع رحبت الحكومة المصرية بالصلح، وأرسلت إلى راتب باشا بالخطة الواجـب إتباعها فى ذلك – فيطلب من الملك إرسال مندوب من طرفه للمفاوضة، وأن يذكـر فـى الحديث للمندوب أن الحكومة المصرية لا تميل إلى سفك الدماء، وأنهـا راغـبة فـى السلام، لكن يوضح للمندوب الحبشى أنه اضطرت الحكومة المصـرية إلـى الاستمرار فى الحرب، فتحت تصرفها فى مصوع عدد كبير من الجـنود وغـيرهم فـى الطريق من مصر – وأن يطلب إرسال الجرحى ليعالجوا بمعرفة الأطباء المصريين، وأن يعامل الأسرى بالحسنى[2].

وقـد حاولـت الحكومة المصرية أن تشيع أمام الأجانب جسامة الخسارة التى أصـابت الأحـباش، فأبرقـت بالشفرة إلى السردار أن يقوم هو بتحرير تقرير من نسـختين، إحداهمـا بالعربـية والثانية بالفرنسية، يذكر فيه أن خسارة العدو بلغت خمسة وثلاثين ألف نفس وأكثر، ويرسل بهذا التقرير إلى مصر[3].

هكـذا يحـاول إسـماعيل أن يخفى هزائمه لأنه كان يدرك نتائج هذه الهزائم المتتالية.

١- نفس المرجع السابق ص ٣٩٤.

٢- دفتر ٢٨ عابدين – صادر تلغرافات شفره تركى رقم ١ فى (١٧ صفر ١٢٩٣).

٣- دفتر ٢٧ عابدين – صادر تلغرافات شفره عربى ص ٩٩ رقم ٥٣٨ فى (١٧ صفر ١٢٩٣).

وبينما المحادثات جارية إذ (بحسن باشا) نجل الخديوى يبرق إلى والده مطالبًا السماح له بالعودة إلى مصر، ورغم الإلحاح عليه فى البقاء حتى لا تفترهمة الجنود الرابضين فى مواقع القتال – لكنه أصر على العودة وأجيب إلى طلبه.

أما فيما يختص بمفاوضات الصلح فإنها لم تصل إلى نتيجة، مما اضطر الحكومة المصرية إلى أن تهيىء الرأى العام لسماع نتائج الحملة، فنشرت الوقائع المصرية فى عدة أعداد أخبارًا عن كثرة قتلى الأحباش، وعن طلب الحبشة للصلح وعدم جدوى استمرار الحرب سواء تم الصلح أم لا، وأنه لم يصبح ما يدعو لبقاء الأمير (حسن باشا).

وكان للإجراءات التى اتخذتها الحكومة المصرية قبل أن يتم شىء من الصلح، أو عقد معاهدة بين الطرفين المتنازعين وما بدا من تكالبها على طلب الصلح، أكبر الأثر فى تقوية مركز الملك (يوحنا)، حتى أن راتب باشا كتب يذكر أن الرؤوس المناهضين للملك أخذوا ينضمون إليه، وأنه إظهارًا لقوة الحكومة المصرية يرى أن تعين الحكومة ضابطًا كبيرًا مع نحو مائتى جندى من الخيالة لجهة القلابات.

على أنه رغم المحاولات الكثيرة التى بُذلت، والمفاوضات الطويلة لم يتوصل إلى عقد معاهدة أو عمل صلح نهائى كتابى، واكتفى بما قيل (شفويًا) من انتهاء الخصومة، فلم يوضع حل لإثبات الحدود الفاصلة بين الحبشة والسودان.

ولذلك تجدد النزاع بين الطرفين – بعد ذلك – فى أوائل حكم الخديو توفيق الذى نراه يكتب عن ذلك إلى استانبول، ويوضح أن الأمر يرجع إلى أن ملك الحبشة أخذ يرسل قوات إلى الحدود لمطالبة القبائل التابعة لمصر بأتاوات، وأنه قد أوفد (غوردون باشا) الحاكم العام للسودان مندوبًا من قبل الحكومة المصرية للتفاوض مع الحبشة لعقد صلح نهائى، ولكن رغم أنه مكث لدى ملك الحبشة مدة طويلة، وسعا سعيًا لعقد معاهدة لتحديد الحدود – فقد عاد دون أن يوفق إلى عقد أية معاهدة، وذلك لاشتطاط الملك يوحنا فى شروطه[1].

والآن نُجمل الحملات على الحبشة :

١- **الخسارة فى الرجال:** خسرت مصر فى تلك الحملات التى لا مبرر لها آلاف الجنود من المصريين والسودانيين، بل لا ننسى القواد العظام والأطباء والمهندسين وغيرهم ممن ضاعوا فى تلك البلاد، حتى أن الحكومة المصرية

1- Douin: Op. Cit. Tome 3 (1) 3 Eme partie P. 1093.

اضـــطرت إلى أن تطلب من (راتب باشا) ألا يذكر فى تقاريره عدد أو أسماء من سقطوا من جنودنا، سواء أكان ذلك أمام الأجانب أو فى التقارير الرسمية.

٢- **الخســـارة فـــى المال:** قُدرت هذه الخسارة – حسب إحصاء مسيو (سونتزارا قنصـــل النمســـا فـــى مصـــر – بأكثر من ثلاثة ملايين جنيه، وقد كانت هذه الخسارة جسيمة فى وقت كانت البلاد ترزح فيه تحت ثقل الضائقة المالية.

٣- **لـــم شـــمل العدو:** جاءت الحملات والهزائم التى مُنيت بها الجيوش المصرية بنتـــيجة عكسية لما كانت ترمى إليه الحكومة المصرية، فقد أدت الهزائم كما رأيـــنا إلـــى ضـــم صـــفوف الأحباش وتقوية شوكة الملك يوحنا، فحتى أشد المعاديـــن للملـــك مثل (ولد ميخائيل) اضطر لأن يطلب صفح الملك ورضاه، حـــتى أنه بعد سنتين تقريبًا من إنتهاء حملة (قورع) كتب إلى علاء الدين بك يثيره بالقول (أنا بخير بأنفاس الملك يوحنا).

٤- **عـــدم حـــل مشـــكلة الحدود:** إن الغرض الذى كان يظهره إسماعيل لحملاته الفاشـــلة هذه، هو المحافظة على الحدود، ولم يصل إسماعيل لشىء من هذا، فلم يتمكن من أن يتخذ قرارًا، أو يصل إلى معاهدة صلح يتفق فيها على تعيين حدود ثابتة واضحة بين البلدين، واضطر أن يترك الأمر للظروف، وقد تجدد النزاع فى أيام خلفه توفيق بعد تلك الحملات بنحو أربع سنين.

٥- **الخســـارة الأدبـــية وضياع هيبة مصر الحربية:** لقد كان لمصر مركز حربى مـــرموق – تهابـــه على الأقل الدول المجاورة للاقاليم التابعة لها بالسودان – وكـــان إســـماعيل يظهر بمظهر الحاكم الآمر، يتملقه حتى حكام الجهات غير الخاضـــعة لمصـــر، وكـــان يتقدم هو شخصيًا بالنصح إليهم حتى فى مسائلهم الداخلية، كما سبق أن نصح الملك (تيودور) بوجوب الصلح مع الإنجليز، وإلا توضـــع مسالك الطرق التابعة لمصر تحت أمر الجيوش الإنجليزية، ونفذ فعلاً إســـماعيل مـــا هـــدد به، وبعد أن كان يظهر بمظهر القوى القادر على إنزال (يوحنا) من العرش ليعتليه منلك (ملك شوا) إذ به يتذلل ويلح فى طلب الصلح مع يوحنا.

وأمـــا عـــن الخســـارة الأدبـــية للجيش فبعد أن كان ينظر إليه نظرة المهابة والاعتـــبار بالنســـبة للمكانة التى احتلها أيام إبراهيم باشا، فإذا به ينكشف حاله من الضـــعف والفساد والفوضى، حتى أنه يهزم هكذا أمام جيش الحبشة، فتزول المهابة وتعـــرف الحقـــيقة، فتتطلع الدول الأجنبية إلى اغتنام الفرص لاقتناص الغنائم، فلا يمـــر إلا القلـــيل حتى تقع الحوادث العرابية، وتجد بريطانيا الفرصة مواتية لتحقيق

حلمها فى احتلال مصر – بريطانيا هذه التى تودد إسماعيل إليها واحتضن رجالها من أمثال (غوردون باشا) وخلافه وولاهم أكبر المناصب والتى تقدم لها بتلك المساعدات التى لا تحصى فى حملتها على الحبشة – إذ كشفت ضعف جيشه – سال لعابها حتى ابتلعت مصر بعد ذلك بوقت قليل لقمة سائغة وجال بصرها صوب السودان أيضًا.

الحكم على سياسة إسماعيل تجاه الحبشة وبواعثها :

لاشك فى أن أبسط مبادئ السياسة والحكمة كانت تقتضى بأن يوازن إسماعيل بين الثمرة التى ينتظر أن يجنيها من حروبه ضد الحبشة، وبين ما تتكلفه هذه الحروب، والنتائج المحتملة لها.

ومهما نظرنا إلى هذه الحروب من أية ناحية، فإننا لا نكاد نجد لمصر مصلحة فى أن تخوض غمارها – فكل ما ذهب إليه إسماعيل لتبرير إقدامه على هذه الحروب الطاحنة فى تلك البلاد الوعرة، هو الاضطراب الذى يسود الحدود بين الدولتين، وإقدام رؤوس الأحباش على الهجوم على القرى المجاورة ونهبها، وفرض ضرائب عَلى سكانها.

ولم تكن هذه الحالة كما ذكرنا – جديدة، فالحدود بين الدولتين ليست محدودة تمام التحديد لعدم وجود فواصل طبيعية تميز بين المنطقتين، كما أن القبائل البدوية المتنقلة فى هذه الجهات لم تكن تعترف بالاستقرار فى مكان معين، ولا بالخضوع لسلطة محدودة، اللهم إلا فى حالة مطالبتها بما عليها من أموال حكومية، فقد كانت تنقض تبعيتها للحكومة المطالبة وتنزح إلى أرض الحكومة الأخرى، وتعلن تبعيتها لها – وكانت كل من الحكومتين ترحب بذلك وتضفى على القبائل المحتمية بها من الإمتيازات والمغانم ما يشجع غيرها على أن تحذو حذوها.

على أن كل هذه المبررات مهما بولغ فيها لم تكن قط تبرر أن يدفع إسماعيل بالجيوش المصرية إلى حروب طاحنة فى هذه البلاد الجبلية الوعرة التى يسهل على قوة صغيرة من أهلها – المدافعين عنها والعارفين بمخابئها – أن يكبدوا قوة أضعاف عددهم خسائر فادحة، وأن يفنوها قبل أن تلتحم معهم فى معركة فاصلة.

هذا بالإضافة إلى أن إسماعيل كان فى غنى عن إثارة الدول الأجنبية – التى لم يكن معقولا أن تغض النظر عن استيلائه على الحبشة – ضده وقد واجه فعلا حملات شعواء من الصحف الأجنبية، بل وجهت إليه تهديدات من إنجلترا وفرنسا،

ولـــم يمنع هذه الدول من الإقدام على عمل إيجابى ضده إلا هزائمه المتكررة، مما أثلج صدور هذه الدول التى كانت تتحفز إلى تحقيق أطماعها فى مصر.

ولعل حملة إنجلترا على الحبشة وتوفيقها فيها (١٨٦٧-١٨٦٨) كان حافزًا له علـــى الإقدام على نفس العمل، ولكن كان أجدر بإسماعيل أيضًا أن يأخذ من الحملة الإنجلـــيزية درسًـــا آخـــر، وهو أنه لو كانت هذه البلاد سهلة المنال – يسهل على الأجنـــبى إخضاعها والاحتفاظ بها، وأن الثمرة المنتظرة من ذلك تفوق التضحيات المـــبذولة فى سبيلها – لما أقدمت إنجلترا الدولة الاستعمارية المعروفة على إخلاء هـــذه البلاد بهذه السهولة ولاحتفظت بجيوشها فيها بعد أن أخضعتها، ولكن إنجلترا كانت تدرك تمامًا مدى التضحيات التى يتطلبها الاحتفاظ بهذه الجهات.

فـــلا شك فى أن حملة (أرندروب بك) كانت غير مبنية على دراسة وتروى، وقـــد اضـــطر إســـماعيل بعد هزيمة أرندروب فى (جوندت) فى نوفمبر ١٨٧٥، وهزيمة منزنجر فى (اوسه) فى ١٨٧٥ أيضًا، إلى أن يسوق حملة أخرى لمحاولة تـــدارك النتائج الوخيمة التى ترقبها نتيجة لهذه الهزائم ولكن لم يكن مصير الحملة الثالثة أفضل من مصير الحملتين السابقتين.

وقد ذكر داى (Dye) أكثر من سبعة وعشرين سببًا للهزائم التى مُنيت بها هذه الحملات، ولكن لو حاولنا نحن تحليل هذه الحملات – تبرز لأول وهلة الملاحظات التالية:

١- ركـــن إسماعيل إلى الأجانب ووضع كامل الثقة فيهم، كما أسند إليهم المراكز الهامة فى الأقاليم السودانية بل وفى مصر ذاتها، وأدى ذلك إلى زيادة نفوذهم بـــل مهـــد ذلـــك لإحتلالهم لمصر – هكذا فعل فى سياسته الخاصة بالأعمال الحربـــية فأســـند القيادة إلى الأجانب – فموقعة (جندت) ترجع أسباب الهزيمة فيها إلى سوء اختيار (أرندروب بك) لمكان المعركة، ومعركة (أوسه) السبب الرئيســـى للهـــزيمة فيها يرجع لعدم حذر (منزنجر)، ومعركة (قورع) سبب الهزيمة الخلافات بين راتب باشا والجنرال لورنج.

ولعـــل ذلـــك يرجع إلى عدم ثقة إسماعيل فى الضباط المصريين حتى أنه لما عيـــن (راتب باشا) أشرك معه أجنبيًا، وأرسل إبنه ليكون رقيبًا على الاثنين، وكان شابًا صغير السن قليل الدراية.

٢- ثبـــت أن هـــذه الحمـــلات كانـــت حملات إرتجالية أقدمت عليها الحكومة المصـــرية دون أن تعدلهـــا أسباب النجاح – فلم تدرس الطرق والمسالك

والمواقــع دراسة كاملة قبل تحرك الجيوش – وكانت الدراسات كلها تأتى بعد أن تقع الكارثة.

٣- كشــفت هذه الحروب مبلغ ما كان يُعانيه الجيش المصرى فى ذلك الوقت من مســاوئ، فكانــت كــل حملة تتبعها تحقيقات وفضائح، وهذا كما تعلم هو ما طالب به العرابيون بعد ذلك بوقت قصير.

٤- مــن أســباب فشــل هذه الحروب أن الجيش المصرى كان يخوضها دون أن يشعر بهدف واضح يعمل له، بخلاف الفتوح الأخرى التى خاضها الجيش فى ذلك الوقت.

٥- كانــت مصر تعتمد على إيجاد الفُرقة بين رؤوس الأحباش المناهضين للملك (يوحــنا)، وبذلت فى ذلك الكثير، وكانت تصرح لهم بأنه ليس لها أطماع فى الحبشــة، وقــد وجــد هؤلاء الجيش المصرى يحتل مناطق داخل الأراضى الحبشــية الصــميمة، فسهل ذلك على الملك يوحنا مهمة جمع رؤوس الحبشة تحت لوائه.

٦- لعــب الأجانب من أمثال (سارزيك) الفرنسى و(كركم) الإنجليزى دوراً هامًا فى تعضيد الملك يوحنا.

٧- الأســباب الرئيسية للهزيمة بسالة الأحباش المعروفة فى الحروب، وما تضفيه عليهم طبيعة بلادهم الجبلية.

ومهما قيل عن بواعث الحروب الحبشية، فقد ظهرت مصر أمام الدول الأجنبية– بالإضافة إلى الدول المجاورة – بالمظهر الذى أطمع الدول الأجنبية فيها.

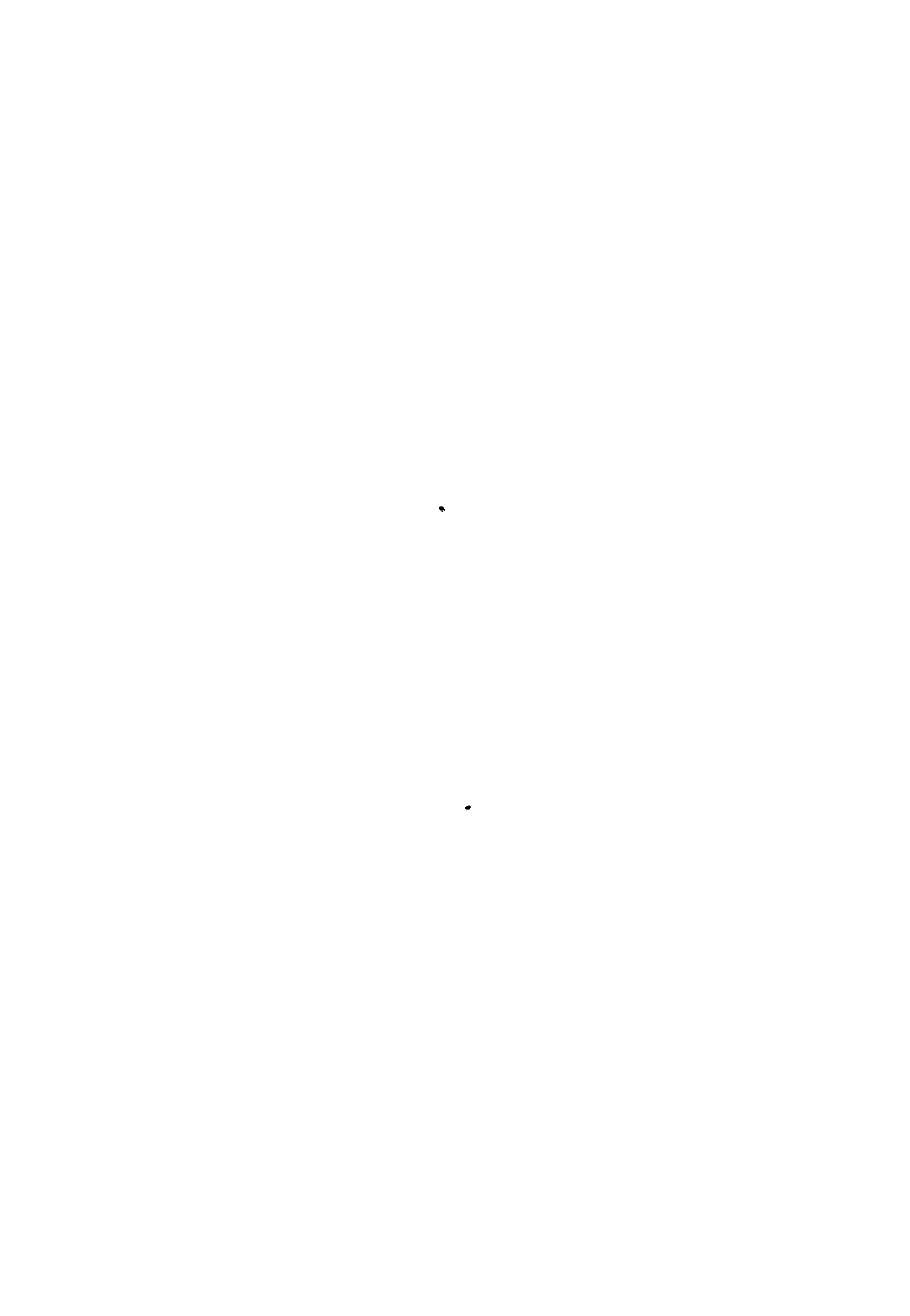
والعجيــب أنه بدلاً من العمل على إصلاح الوضع نجد إسماعيل يوزع الرتب والنياشــين والوظائف على القواد والضباط العائدين من الحملات الفاشلة، وقد كان نصــيب الأمــير (حسن) وراتب نصيب الأسد من هذا الإغداق، فمنح الأول رتبة (المــاجور) من الإمبراطور وليم إمبراطور ألمانيا، وأصبح فيما بعد وزيرًا للمالية بعــد سقوط المفتش ثم وزيرًا للحربية، بينما أصبح (راتب باشا) قائدًا عامًا للجيش المصرى[1].

وراتــب باشا فى الأصل من عبيد (أتباع) سعيد باشا، وقد أرسل فى بعثة إلى إحــدى مدارس فرنسا الحربية لمدة خمسة شهور فقط، وارتقى بعد ذلك فى وظائف

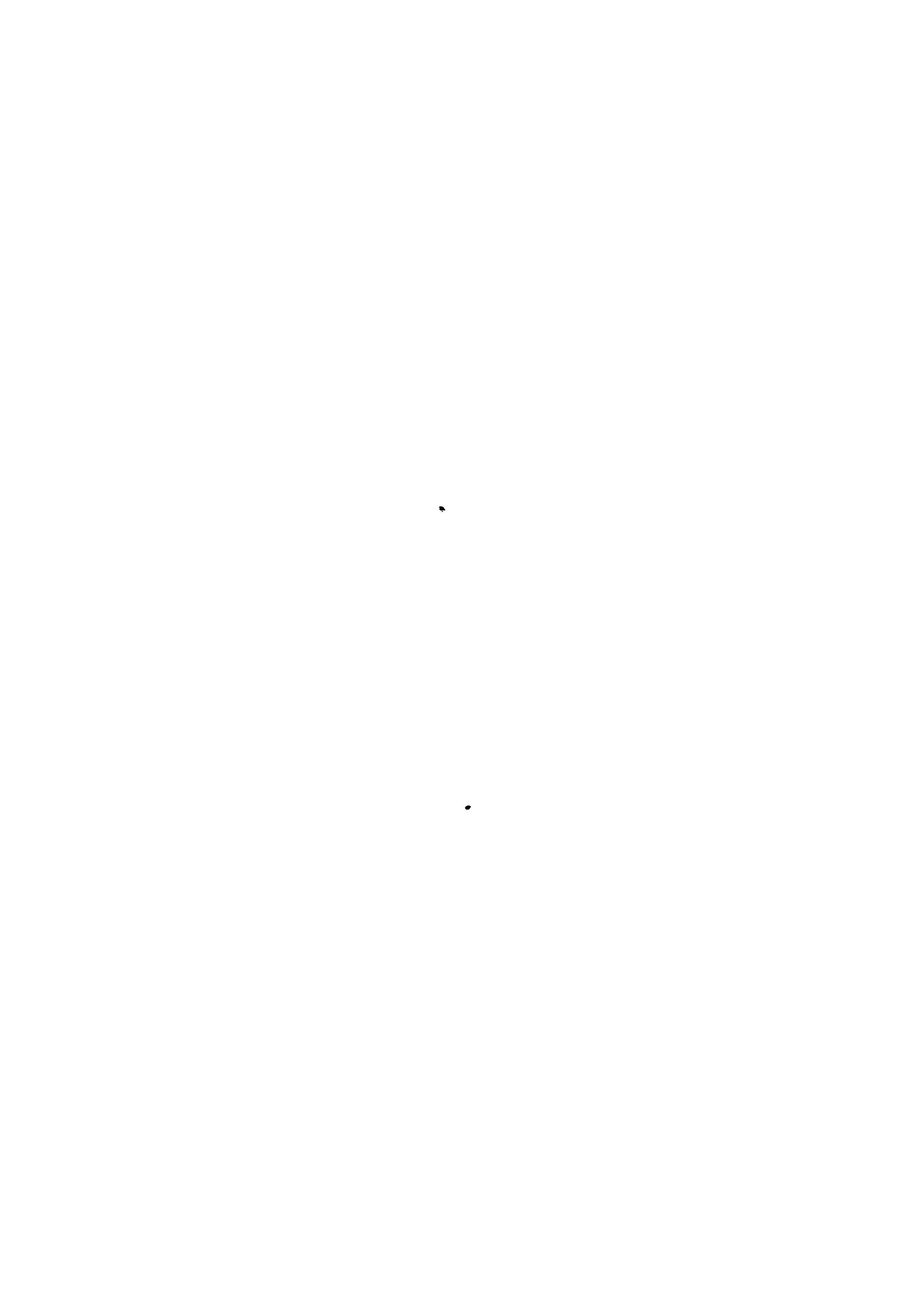
1- Dye: Op. Cit. P. 483.

الجــيش، ولكــن حدث خلاف بينه وبين سعيد باشا، أقدم بعده على الإنتحار، ولكنه أنقذ وسافر إلى القسطنطينية ولم يعد إلا بعد وفاة سعيد.

هذه صورة للإدارة المصرية فى السودان، ولعلنا فى الختام نستطيع أن نُكرر بكثــير مــن الــثقة أن السودان أصابه فى هذه الفترة من الخير والشر – بقدر ما أصــاب مصــر مــنهما، فقد تحملت الإدارة المصرية فى السودان عبء النهوض بالــبلاد والإنتقال بها من الركود – الذى قيد تقدمها فترة طويلة – إلى طريق ممهد للــتقدم والــرقى، ولكــن النزعات الشخصية للحكام فى مصر جرت على السودان الكثــير مــن الوبال، ولذا فلم يكن غريبًا أن يهب المصريون والسودانيون مطالبين بالإصــلاح، أما مقدار ما حققته هذه الانتفاضة فى كل من البلدين – من توفيق أو عدمه – فهو مجال البحث فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.



مراجع
الجزء الثانى



المراجـع

أولا: وثائق أصلية :

وثائق المحفوظات التاريخية المصرية:

لإرشاد راغبى البحث العلمى نذكر بياناً بأهم (مجموعات) هذه الوثائق التى رجعنا إليها بشىء من التفصيل:

١- مجموعة الفرمانات الشاهانيه: تحتوى على الفرمانات التركية الصادرة لولاة مصر.

٢- دفاتـــر وسجلات المعيه (تركى): تحتوى على المكاتبات التركية بين المعية والأقاليم والدواوين.

٣- دفاتر وسجلات المعية (عربى): وتحتوى على المكاتبات العربية بين المعية والأقاليم والدواوين.

٤- محـــافظ المعـــية (تـــركى): وتحـــتوى على بعض المكاتبات بين والدواوين والأقاليم وبين المعية.

٥- محـــافظ المعية (عربى) تحتوى على بعض المكاتبات العربية بين الدواوين والأقاليم وبين المعية.

٦- دفاتـــر وســـجلات عابديـــن (تركى): وتحتوى على المكاتبات والمراسلات التركـــية الهامـــة بيـــن الولاة وكبار الموظفين بالخارج كالقبو كتخدا مثلاً، والـــولاة للأقالـــيم الأخـــرى كالحجـــاز (مثلاً)، وهى مرتبة بأرقام مسلسلة، وأخرى فرعية.

٧- دفاتـــر وســـجلات عابديـــن (عربى): تحتوى على المكاتبات والمراسلات العربية الهامة بين الولاة وكبار الشخصيات.

٨- محـــافظ عابديـــن: تحتوى على بعض المراسلات الأصلية بين الولاة وكبار الشخصيات – وبعضها مقيد فى الدفاتر السابقة وبعضها غير مقيد.

٩- الملقـــات الخاصـــة: عدة ملفات خاصة بشخصيات بذاتها أو بجهات خاصة مثل:

أ – ملف الصداره (خاص بمراسلات الصدر الأعظم).

ب- ملف نظارة الخارجية.

ج- ملف القبو كتخدا.

د- ملف نوبار باشا.

هـ- ملف المتفرقات.

١٠- دفاتر الأوامر تحتوى على الأوامر الصادرة إلى الجهات وبعضها بالعربى، والبعض الآخر بالتركى.

١١- دفاتر عابدين (وارد تلغرافات): بها صور التلغرافات الواردة للمعية السنية.

١٢- دفاتر عابدين (صادر تلغرافات): بها صور التلغرافات المرسلة من المعية.

١٣- دفاتر عابدين وارد – تلغرافات شفرة: بها صور التلغرافات الشفرة الواردة للمعية.

١٤- دفاتر عابدين صادر– تلغرافات شفرة: بها صور التلغرافات الشفرة المرسلة من المعية.

١٥- سجلات الجهاية: تحتوى على الإفادات بين المعية والجهادية.

١٦- دفاتر المجلس المخصوص: تحتوى على قرارات المجلس المخصوص.

١٧- محافظ سايره: جُمعت فيها أشياء مختلفة من الأقاليم.

١٨- محافظ بحربرا تركى (خاصة محفظة ١٩): تحتوى على وثائق وارده من جهات مختلفة غير القطر المصرى للمعية.

١٩- محافظ السودان: إحدى عشرة محفظة جمع فيها ما أمكن جمعه عن السودان منذ شملته الإدارة المصرية فى عهد محمد على، وهو مأخوذ من الدفاتر والسجلات المختلفة.

٢٠- دفاتر وارد محافظات: عدة دفاتر لكل محافظة من محافظات السودان (سواكن مثلاً)، سُجل فيها الوارد من المكاتبات من كل محافظة.

٢١- دفاتر صادر محافظات: عدة دفاتر لكل محافظة من محافظات السودان (مصوع مثلاً) سجل فيها الصادر من المكاتبات من كل بخط الكتّاب المعينين بنفس المحافظة.

٢٢- محافظ الـ(Foreign office) الإفرنجية بعابدين: المحافظ الموجودة تحت مجموعة أرقام: 71/72/73.

وهى تحتوى على بعض المراسلات الإنجليزية والفرنسية – وبعضها مراسلات أصلية، وبعضها موجودة النسخة الأصلية بخط كاتبها ومرفق بها أخرى بالآلة الكاتبة، والبعض غير موجود الأصل ولكن موجودة النسخة المكتوبة بالآلة الكاتبة – أو نسخة منقولة عن أرشيف النمسا أو غيرها.

والكثير من هذه المراسلات كانت قد أُعدت لتكون تحت تصرف مسيو (Douin) وغيره ممن يسِّرت لهم مهمة الإطلاع على ما فى سجلات عابدين

مـــن وثـــائق، ووضـــعت تحت أمرهم خبرة كثيرين ممن كانوا يعملون فى الأقسام التركية والعربية والإفرنجية فى محفوظات عابدين.

ثانيا: المراجع العربية والمترجمة :

١- إبراهيم فوزى (باشا): السودان بين يدى غوردون وكتشنر (جزآن ١٣١٩هـ).

٢- د. أحمـــد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق - (٣ أجزاء ١٩٤٥).

٣- أسماء كبار موظفى الحكومة المصرية (من ١٢٧٧ إلى ١٢٩١هـ): مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٥٤.

٤- إســماعيل ســرهنك (باشـــا): حقائق الأخبار عن دول البحار (ثلاثة أجزاء - بولاق ١٣١٢هـ).

٥- التونسى (محمد بن عمر): تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (نشره د. خليل محمود عساكر، د. مصطفى محمد مسعد - ١٩٦٥).

٦- الشـــاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٥).

٧- الوقـــائع المصرية: صدرت لأول مرة فى عهد محمد على، وكانت تصدر بالتركية ولكـــنها انتظمـــت بعـــد ذلك فى عهد إسماعيل - وأصبحت تصدر أعدادها بالتركية والعربية - ثم صارت تصدر بالعربية فقط.

٨- المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (نشره الدكتور رونك).

٩- الـــياس الأيوبى (بك): تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل (جزآن - طبعة دار الكتب - ١٩٢٣).

١٠- أميـــن ســـامى (باشا): تقويم النيل - عصر محمد على باشا (الجزء الثانى - القاهرة ١٩٢٨).

١١- أميـــن ســـامى (باشـــا): تقويم النيل - عصرى عباس الأول - ومحمد سعيد (الجزء الأول من المجلد الثالث).

١٢- أميـــن سامى (باشا): تقويم النيل - عصر إسماعيل (المجلدان الثانى، والثالث من الجزء الثالث).

١٣- بوركهـــارت (جـــون لويس): رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان. (ترجمة، فؤاد إندراوس - القاهرة ١٩٥٩).

١٤- جريدة أركان حرب الجيش المصرى: صدر العدد الأول منها فى ١٥ جمادى الأول سنة ١٢٩٠ - وأهتمت بسرد أخبار الجيش المصرى كما تحتوى على تقارير عن والحروب التى خاضها، وأعمال الكشف الجغرافى التى قامت تحت إشراف الإدارة المصرية فى النيل الأبيض وفى السودان الشرقى ودارفور وغيرها من جهات السودان.
١٥- د. جميل عبيد: المديرية الإستوائية (القاهرة ١٩٦٨).
١٦- جورج حمدى (بك) - وجاك تاجر: إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية (دار الكتب ١٩٤٧).
١٧- د. حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا (الجزء الأول ١٩٥٨).
١٨- د. زاهر رياض: السودان المعاصر (القاهرة ١٩٦٦).
١٩- سعد الدين الزبير (القائمقام): الزبير رجل السودان (القاهرة ١٩٥٢).
٢٠- سعد الدين الزبير: إمبراطورية رابح الزبير (القاهرة ١٩٥٣).
٢١- سليم قبطان: الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض) - تعريب محمد مسعود.
٢٢- د. شوقى عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣-١٨٧٩) (القاهرة ١٩٥٨).
٢٣- د. شوقى عطا الله الجمل: تاريخ سودان وادى النيل وحضارته وعلاقاته بمصر - ثلاثة أجزاء.
٢٤- عبد الرحمن الرافعى (بك): عصر محمد على (القاهرة ١٩٥١).
٢٥- عبد الرحمن الرافعى (بك): عصر إسماعيل (جزآن).
٢٦- د. عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها - (ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٤٩).
٢٧- د. على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل (القاهرة ١٩٥٨).
٢٨- عمر طوسون: تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية (ثلاثة أجزاء ١٣٥٥هـ -١٩٢٧م).
٢٩- كرومر: بريطانيا فى السودان - تعريب عبد العزيز أحمد عرابى (القاهرة ١٩٦٠).
٣٠- محمد أحمد الجابرى: فى شأن الله (تاريخ السودان كما يرويه أهله) (القاهرة ١٩٤٨).

٣١- د. محمـــد صـــبرى: الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٤٨).
٣٢- د. محمـــد فـــؤاد شـــكرى: الحكـــم المصرى فى السودان (١٨٢٠-١٨٨٥) (القاهرة ١٩٤٧).
٣٣- د. محمد فؤاد شكرى: مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٨)

ثالثا: المراجع الأجنبية :

1- Abbate: Voyage de S. A. Mohamed Said Pacha dans Ses Provinces de Sudan (Paris, 1858).
2- Adams, W.H.D.: Recent events in the Sudan (London, 1887).
3- Alford, B.L.S.: The Egyptian Sudan, its loss and recovery (London, 1898).
4- Allen, B.M : Gordon and the Sudan (London, 1931).
5- Baker. S.: Albert N'yanza and !he great Basin of the Nile. 2 vols. (London, 1866, 1872)
6- Baker, S.: Ismailia, 2 vols. (London, 1874).
7- Baker, S.; The Nile Tributaries of Abyssinia (London, 1867).
8- Bellefonds, Ernest Linant de: Journal of a voyage on the Bahr El Abiad (Journal of the Royal Geog. Soc). (London, 1832).
9- Bel!efonds, Ernest Linant de: Voyage de service fait entre Fatiko et la Capitale de M'tesa (Bull. Soc. Kh. Geog., Ser. 1-No. 1). (Cairo, 1876).
10.- Bonola (Bey); Sommaire Historique des Travaux, Geog. sous la Dynastie de Mohamed Ali (Caire, 1889).
11- Bonola (Bey): Les expeditions Egyptien en Afrique (Bull. Soc. Khed. Ceog., Ser. 11-No. 18 (Caire, 1885).
12- Brockman, D.: British Somaliland. 2 vols. (1912).
13- Brun Rollet; Le Nil Blanc et le Soudan (Paris, 1855).
14- Budge, E.W. Wallis: The Egyptian sudan, Its History and monuments, 2 vols. (London, 1907).

15- Burckhardt; Travels in Nubia (London, 1819).
16- Burton: First Footsteps in East Africa (London, 1856).
17-. Butler, W.: Charles George Gordon (London, 1898)
18- Cailliaud, F.: Voyage a Meroe (Paris, 1826).
19- Cameron, D. A.: Egypt in the Nineteenth Century (Mohamed Ali and his successors) (London, 1898).
20- Casati, G.: Ten years in Equatoria & the return with Emin Pasha (Trans. by Mrs. Randolph Clay). 2 vols., (London, 1891).
21- Chaille Long, C.: La decouverte des sources du Nil (Bull Soc. Khed. Geog.. Ser. III., No.7).
22- Chaille Long, C.: Expeditions ou Lac Victouria-Nyanza et au Makraka (Paris, 1877).
23- Chaille Long, C.: Les trois prophetes - Le Mahdi, Gordon, Arabi (Paris, 1886).
24- Chaille Long. C.: L' Egypte et ses provinces perdues, (Paris, 1892).
25- Chaille Long, C.: My Life in four Continents (London, 1912).
26- Chauvelot, R.: L'empereur Menelik II. (Paris, 1899).
27- Chiron: Voyage de Dongola a Cordofan fait dans l'annee 1824-1825 (S.N.R. XXIX, 1948).
28- Colston, R.E.: Heconnaissance from Berenice to Berber (Cairo, 1874).
29- Combes: Voyage en Fgypte, Nubie (Paris, 1846).
30- Coupland: East Africa and its Invaders (1935).
31- Crabites, Piere: Ismail the Maligned Khedive (London, 1933).
32- Crabites, Piere: Gordon, the Sudan and Slavery (London, 1933) .
33- Crabites, Piere: Americans in the Egyptian Army (London, 1938).
34- Cromer: Modern Egypt, 2 vols. (New York, 1908).
35- Deherain, H.: Le Soudan Egyptien sous Mehemet Ali (Paris, 1898).
36- De Leseps, F.: Souvenirs d'un voyage au Soudan, (Nouvelle Revue T. XXVI). (Paris, 1884).
37- Dermott: British East Africa.

38- Douin, G.: Histoire du Regne de Khedive Ismail Tome III (Caire, 1936).

39- Dye. W.: Moslem Egypt & Christian Abyssinia (New York, 1880).

40- Ed win de Leon: The Khedives' Egypt (L877).

41- Edwin de Leon: Egypt under its Khedives (1882).

42- English, G.: Narrative of the Expedition to Dongola and Sinnar (Boston, 1823).

43- Etherington, S.: Egypt. the Soudan & Central Africa (Edinburgh, 1861).

44- Felkin, R.W. & Wilson, C.T.: Uganda and the Egyptian Soudan (London, 1882).

45- Felkin, R. W.: Emin Pasha in Central Africa (London, 1888).

46- Ferrand: Notes sur la situation politique, Commercial et religieuse du Pachalik de Harar (1886).

47- Gessi, Romolo : Seven years in the Sudan {London, 1892.

48- Gleichen, A.K.W.: The Anglo-Egyptian Sudan. 2 vols, (London, 190).

49- Gordon, C.G : The Journals of Major C. G. Gerdon at Kartoum (London, 1885).

50- Gordon, C. G.: Unpublished letters of Charles Gordon, (Sudan Notes & Records, vol. X). (Kartoum, 1927).

51- Gordon, H. W.: Events in the life of Charles George Gordon (London, 1886),

52- Gordon, Miss: Letters of General C. G. Gordon to his sister (1888).

53- Grant, J.A.: Khartoum as we saw it in 1863 (London, 1885).

54- Guillame (L. Jean): Theodore Le Novel Empire D'Abyssinie et les enteretes Francais dans le sud de la Mer Rouge (1865).

55- Hamilton, J.: Sinai, the Hedjaz and Soudan (London, 18-7).

56- Hassan, Vita: Die Wahrheit Uber Emin Pasha (Berlin, 1893).

57- Hill, B.: Colonel Gordon in Central Africa (London, 1885).

58- Hill, Richard: Egypt in the Sudan, 1820.1881 (London, 1959).

59- Holynski: Nubar Pacha devant l'histoire (1885).

60- Hoskins, G.A.: Travels on Ethiopia (London, 1835).
61- Hoskins: British Routes to India (1928).
62- Jackson, H.C.: Black Ivory & White. The story of El Zubeir Pacha slaver and Sultan (Oxford, 1913).
63- Jackson, Fredrick: Early days in East Africa (London, 1930).
64- James: The unknown Horn of Africa (1888).
65- Johnston, H.: The Nile Quest (London, 1904).
66- Junker, Dr. W.: Travels in Africa, 1875-1878. (Trans. by A. H. Keane) (London, 1890).
67- Junker: Les Voyages du Dr. Junker dans L' Afrique Equatoriale. (Bul. Soc. Kh. Geog., Ser. 1 No. 71) (Caire, 1880).
68- Kammerer: La mer Rouge, L' Abyssinie et l' Arabie depuis l'Antiquite (1929).
69- Littman, E.: Harar (Encyclopedic de l'Islam).
70- Loring; A Confederate soldier in Egypt 1884.
71- Lugard, F.J.D.: The Rise of our East African Empire. 2 vols. (London, 1893).
72- Lugard, F.J.D.: The Story of the Uganda protectorate. (London, 1897).
73- Macmaster, M.: The Egyptian Sudan (London, 1802).
74- Macmichael, H.A.: A History of the Arabs in the Sudan 2 vols. (Cambridge, 1922).
75- Markham, C.: A History of the Abyssinian expedition (London, 1869).
76- Mc. Coan, J.C.; Egypt as it is (1877).
77- Mc. Coan, J.C.: Egypt under Ismail (London, 1889).
78- Melly, G.: Khartoum and the Blue and White Niles. 2 vols. (London, 1851).
79- Messidaglia, G.: Les Exped. Egypte. en Afrique (Bull. Soc. Kh. Geog., Ser. III, No. 1, Caire, 1888).
80- Middleton, D.: Baker of the Nile (London, 1949).
81- Moorehead, Alan: The white Nile (New York, 1960).

82- Moughtar M.: Notes ser le pays de Harar (Bull. Soc. Kh. Geog., Ser. I, No. 11, 1876).
83- Moughtar, M.: Une reconnaissance au pays de Gardiboursie (Bull. Soc. Kh. Grog., Ser. I. No.7, 1880).
84- Mouriez, P.: Histoire de Mehemet Ali (Notes sur les mines d'or du Soudan et sur le Voyage que fit Mehemet Ali, Paris, 1857).
85- Pallme, I.: Travels in Kordofan (Translated from. The German, London, 1844).
86- Paulitschki: Le Harrar sous l' Administration Egyptienne (Bull. Soc. Kh. Ceog., Ser. No. 10, Mars, 1887).
87- Pensa, H.: L'Egypte et le Soudan Egyptien (Paris, 1895).
88- Petherick, J.: Egypt, The Soudan and Central Africa (London, 1861).
89- Prout, H.C.: General report on the province of Kordofan (Cairo, 1877).
90- Puckler Muskau: Egypt under Mehemet Ali (2 vols., London, 1845).
91- Rochet: Voyage sur la Cote Orientale de la Mer Rouge dans le pays d' Adel et le Royaume de Choa, 2 vols., (Paris, 1841).
92- Rochel: Second voyage dans le pays d' Adel et de Choa (Paris, 1846).
93- Ronchetti, A.: L'Egypte et ses progres sous Ismail Pacha (1867).
94- Sabry, M.: L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali (Paris, 1930).
95- Sabry. M.: L'Empire Egyptien sous Ismail (Paris, 1933).
96- Schweitzer, G.: Emin Pasha, his life and work. 2 vols., (London, 1898).
97- Schweinfurth, G.: Emin Pasha in Central Africa (London 1888).
98- Schweinfurth, G.: In the heart of Africa. 2 vols., (London, 1890).
99- Shafik Gobeal: The beginnings of the Egyptian Question & the Rise of Mehemet Ali (1928).
100- Shukry, M.F. : The Khedive Ismail and slavery in the Sudan (Cairo, 1938).
101- Slatin Pssha. R. C.: Fire and sword in the Sudan (Trans. by F.R. Wingate) (London, 1898).

102- Stanley, H. M.: In darkest Africa. 2 vols., (London, 1890).

103- Stanton: Secret Letters from the Khedive Ismail in connection with an occupation of the east coast of Africa (1935).

104- Stone, Ch. P.: Les expeditions Egyptiennes en Afrique (Bull. Soc. Kh. Geog., Sec. II, No.4) (Caire, 1885).

105- Thruston, A.B.: African Incidents (Egypt and Unyoro). (London, 1900).

106- Tousson, Omar: Le fin des Mamelouks (Bull. de l'Inst. Egypt. T. IX). (Caire, 1927).

107- Trevexer, H.: Records of the expedition to Abyssinia 2 vols.

108 - Trimingham, J. E.; Islam in the Sudan (London, 1949) .

109- Turneyseen: L'expedition de l' Egypte contre l'Abys. Sine (1875-1876).

110 - Wadington, George: Journal of a visit to some parts of Ethiopia (London, 1822).

111- Watson & Chippendall: Survey of the White Nile (Cairo, 1874).

112 Werne: Expedition to discover the Sources of the White Nile in the years 1840, 1841. 2 vols. (London 1849) .

113 - Wylde: Modern Abyssinia, Suakin & the Red Sea ports (1885).

114 - Wylde: The Red Sea Trade (1887).

الجزء الثالث


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

مقدمة

الجزء الثالث

يتــناول هــذا الكــتاب تاريخ سودان وأدى النيل من أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر.

عــالج الجــزء الأول تــاريخ السودان منذ أقدم العصور إلى مشارف العصر الحديث، بينما تعرض الجزء الثانى لتاريخ هذه البلاد منذ امتد إليها نفوذ محمد على إلى نهاية عهد إسماعيل.

وســيتناول هذا الجزء (الجزء الثالث) تاريخ سودان وأدى النيل بداية من قيام الثورة المهدية فى السودان حتى وقتنا الحاضر.

ويــرجو المؤلف أن يوضح إنه كان حريصا فى تناوله للأحداث المتعلقة بهذه الفترة – أن يلتزم الموضوعية بقدر الإمكان، وأن يعرض الأحداث ويحللها معتمدًا قــبل كل شئ على الوثائق الأصلية، وعلى أقوال المعاصرين للأحداث والمشاركين فــيها، مع الأخذ بعين الاعتبار للظروف التى قد تجعلهم يحيدون عن قصد أو عن غير قصد عن ذكر الحقيقة كاملة.

وقــد تناول هذا الجزء من تاريخ سودان وأدى النيل خاصة ثلاثة موضوعات هامــة هــى: الحركة المهدية بالسودان وتطورها منذ قيامها حتى إخلاء السودان، والحكومة المهدية وأحوال السودان فى هذه الفترة – فترة حكم المهدية، ثم استرداد السودان ونظام الحكم الجديد والأوضاع بالسودان فى هذه الفترة حتى الاستقلال.

كذلك المشكلات التى واجهتها الإدارة الوطنية فى السودان بعد الاستقلال.

ولا يســع المؤلف إلا أن يذكر بالشكر والعرفان الذين عاونوه على أن يظهر هذا الجزء من الكتاب فى صورته هذه.

والله ولى التوفيق،

شوقى الجمل

المعادى ٢٠٠٨

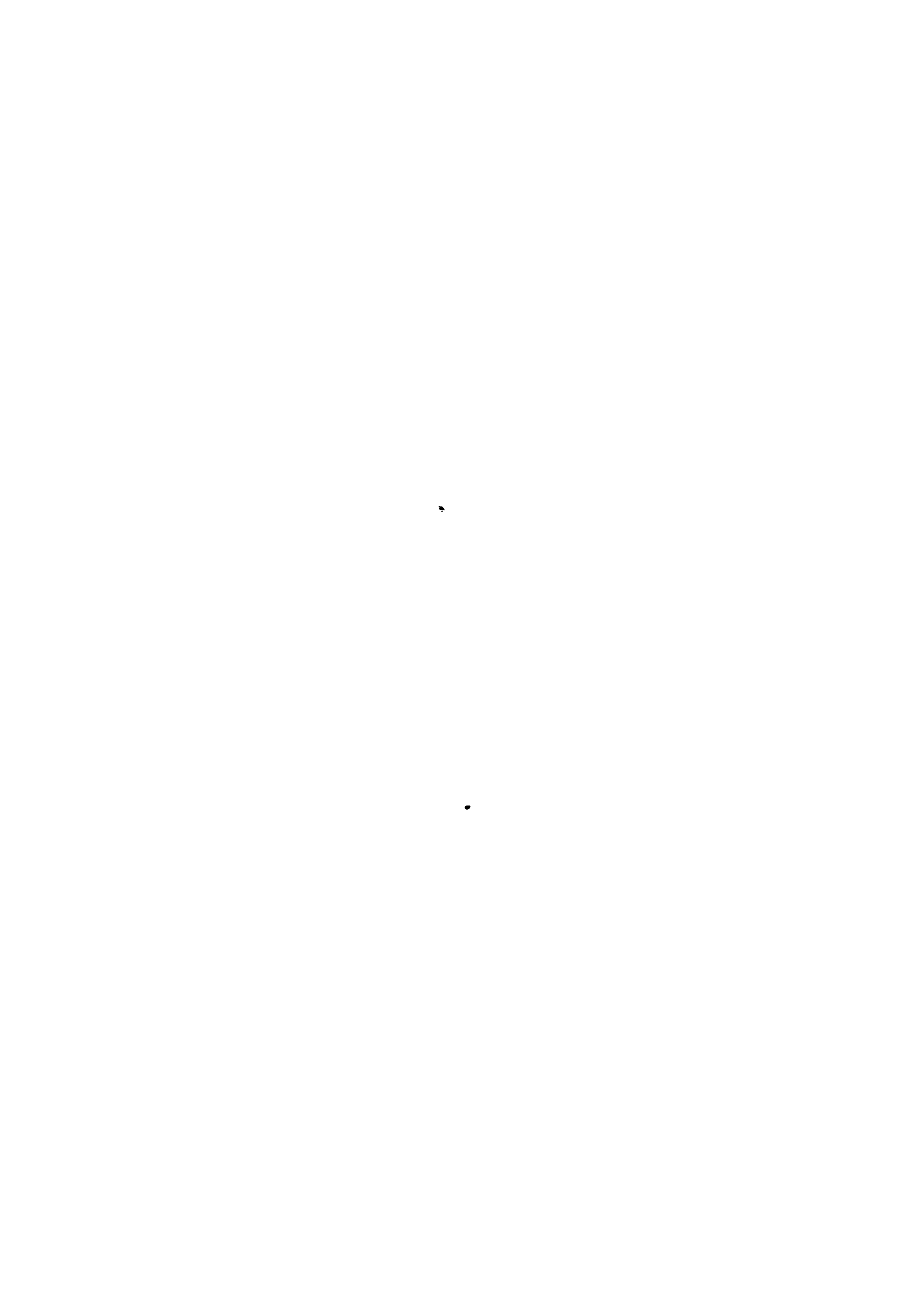


القسم الأول
الحركة المهدية بالسودان
وتطورها منذ قيامها حتى إخلاء السودان

الفصل الأول: الحركة المهدية والحركات المماثلة.

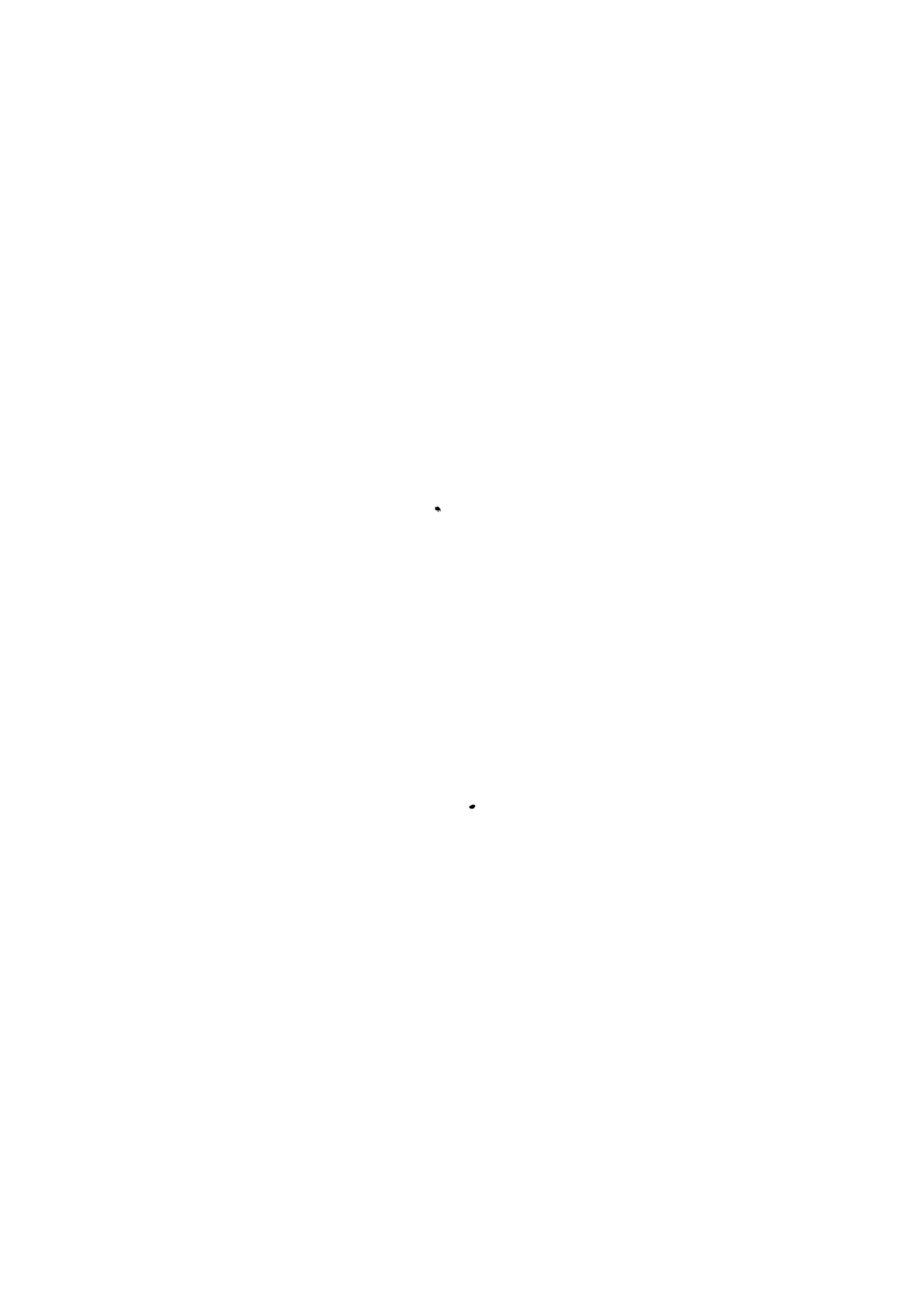
الفصل الثاني: المهدى مبادئه والظروف التى أحاطت بظهوره.

الفصل الثالث: تطورات الحركة المهدية منذ بداية الحركة حتى سقوط الخرطوم فى أيدى المهدى وأتباعه.



الفصل الأول
الحركة المهدية والحركات المماثلة

- مقارنة بين الحركة المهدية والحركة الوهابية، والسنوسية.
- مبادئ كل منها وأهدافها، ووسائلها لنشر مبادئها.
- الحــركة العرابــية فى مصر، والحركة المهدية فى السودان – أسبابها، وهل كان هناك اتصال بين زعماء الحركتين.



الفصل الأول
الحركة المهدية والحركات المماثلة

غلبت على حركة محمد أحمد المهدى بالسودان - الصفة الدينية. وقد تضاربت آراء الكتاب بشأنها إلى حد كبير، فقد تعرض كثيرون من الذين كتبوا عن هذه الحركة لبحث أشياء فرعية، فمثلاً ثار جدل حول الرجل الذى قام بهذه الحركة هل كان حقًا مؤمنا برسالته التى نادى بها ودعا الناس إليها أم أنه تحايل لخداع الناس؟

وقد وصل الأمر إلى أن البعض نسبوا إليه إنه كان يخدع الناس باستدرار الدموع من عينيه بواسطة مواد (حريفة) يضعها تحت أظافر يده وقيل إنه كان يضع الحب فى أذنيه ويأتى الطير لالتقاطه فيدعى أن الطير كان يحدثه[1].

ونحن لا يهمنا مناقشة هذا الجدل حول مدى صدق المهدى فى دعوته - وإن كانت دراسة تاريخ هذا الرجل تعطى إنطباعًا بأنه كان فعلا مؤمناً برسالته - وألوف من أتباعه آمنوا به وبالدور الذى يقوم به. فالمهم إنه قال إنه المهدى المنتظر وأتبعه الناس معتقدين انه الرجل الذى وضعت على عاتقه مهمة إصلاح الفساد الذى استشرى، وإحلال العدل محل الظلم - أما موضوع بحث صحة دعوته من عدم صحتها فقد مضى زمانه، فلعل معاصريه كان من حقهم أن يبحثوا هذا الموضوع - أما الآن فواجبنا تسجيل الأحداث ومحاولة تحليلها فحسب.

قد يلقى الضوء على الحركة المهدية بالسودان، ويوضح الظروف التى قامت فيها، ودوافعها وعوامل نجاحها أو فشلها - أن نقرن هذه الحركة بحركات إصلاحية دينية تشبهها إلى حد كبير كان مسرحها العالم الإسلامى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ونشير بالذات إلى الحركة الوهابية فى الحجاز، والحركة السنوسية فى الصحراء الكبرى وبرقه.

فقد ساعد على ظهور تلك الحركات، وإيمان الناس بها وتكتلهم لنصرتها ما كان عليه العالم الإسلامى من ضعف فى ذلك الوقت. فتركيا التى كانت تسيطر

١- انظر :

The Journals of Major Gen. Gordon (Tauchnitz Edition Leipzig 1885) Vol 1. PP. 89-91.

وقد ذكر غوردون هذا نقلا عن القنصل اليونانى فى الخرطوم الذى استقى هذه الأخبار من أحد اليونانيين الذين كانوا قد وقعوا فى أسر المهدى ورأسله للخرطوم ليدعو غوردون وأتباعه للتسليم.

علـــى ذلك العالم بلغت درجة كبيرة من الضعف أطمعت فيها الدول الأوربية التى أخذت تتدخل فى شؤون المسلمين الذين كانوا يعانون من التفرق، والبعد عن تعاليم الإســـلام ومـــبادئه الصحيحة، هذا بالإضافة إلى الظروف الإجتماعية والإقتصادية السيئة التى كانت تعانى منها الدول الإسلامية(١).

هـــذا على أن تشابه الظروف التاريخية والجغرافية والحضارية للمناطق التى قامـــت فـــيها هـــذه الحركات الثلاث ساعد على أن يتخذ الطابع الدينى فيها شكلا وأنجاهًـــا معيـــنا يقوم على إعادة حياة السلف الصالح بالرجوع إلى الكتاب والسنة وبناء مجتمع بسيط بعيد عن زخارف المدنية الحديثة وبدعها.

فشبه جزيرة العرب والصحراء الكبرى والواحات الشمالية والساحل الأفريقى والســـودان كانـــت إلى حد كبير بعيدة عن التأثيرات الغربية، بخلاف بلاد كمصر ولبـــنان وتركـــيا وإيران مثلا التى تأثرت أكثر بالتيارات الغربية التى هبت عليها، حـــتى أن الحركة الدينية فيها اتخذت شكلا إنشائيا، وكان هناك اتجاه فى هذه البلاد حتى من رجال الدين أنفسهم للأخذ ببعض العناصر من الحضارة الغربية.

لكـــن رغم هذا التشابه فى الظروف التى أدت لقيام الحركات الثلاث فإن هناك فروقًا واضحة فى السبيل الذى سلكته كل منها لتحقيق أهدافها.

فالوهابية :

تنسب إلى محمد بن عبد الوهاب الذى ولد بنجد سنة ١١١٥هـ (١٧٠٣م) وأتم دراسته على يد فقهاء الحنابلة، وقام بعدة سياحات للبلاد المجاورة، وهاله ما شاهده من تفشى البدع، والخصومات وبقاء الكثير مما اعتاده العرب فى الجاهلية فأراد أن يعـــيد فـــى محاربة عوامل الفساد هذه عهد أسلافه من الحنابلة ولا سيما ابن تيميه، وكـــان قد درس كتبه ورسائله الإصلاحية، وقد أدرك ابن عبد الوهاب ما لم يدركه ابـــن تيميه قبله، ولعل ذلك يرجع إلى أنه قام بدعوته بين البدو، وفى إمارة عربية لكن ابن تيميه قام بدعوته فى أهل الحضر وفى دولة المماليك(٢).

1- Holt, P. M: The Mahdist State in the Sudan (1881-1898).

وكذلك

- Smith, Wilfred Cantwell; Islam in Modern History (U.S.A. 1957) PP. 51-52.

٢- أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (١٩٤٨) ص ١٠-١٢.

كذلك - مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب (١٩٦١) ص ٢٨٣.

وكانت أسس تعاليم الوهابية ودعوتها :

١- العـودة بالإسـلام إلى نقائه الأول بمحاربة ما ابتدع من عادات وتقاليد - فلا احـتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء جنازة، ولا إقامة أذ كار يغنى فـيها ويـرقص، ولا محمـل يتبرك به. فالدعوة فى جوهرها محاربة الوثنية المتمثلة فى عبادة الأشجار، والقباب، والأحجار.

٢- التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك.

٣- التوحيد فى التشريع، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة.

والحقيقة إن الوهابية لم تدع لمحاربة الوثنية التى تمثلت فى تقديس الأموات أو القـباب وغـيرها فحسـب، ولكن أيضًا حاربت وثنية أصحاب السلطان والحكام، فالعثمانـيون كانوا من وجهة نظر الوهابيين مغتصبين للخلافة وحقها أن تكون أبدًا فى أيدى العرب.

ويمـثل قـبول ابن سعود أمير الدرعية للدعوة وتعاهده على نشرها فى جميع أنحـاء الجزيرة العربية باللسان عند من يقبلها، وبالسيف عند من لم يقبلها أو يقف فـى طـريقها - نقطة تحول هامة فى تاريخ الدعوة - فقد شعرت الدولة العثمانية بالخطـر الـذى يهـدد سـلطانها ومكانتها فى شبه جزيرة العرب بل وفى العالم الإسـلامى كلـه ومن ثم تصدت لها بكل قوة. وإذا كان محمد على قد نجح فى أن يحقـق للدولـة العثمانـية رغبتها فى القضاء على القوة العسكرية للوهابيين ومن ساندوهم - فإن بذور الثورة الدينية التى بذرها الوهابيون فى شبه الجزيرة العربية لم تمت بالقضاء على سلطتهم السياسية يومئذ[١].

السنوسية :

تنتسـب إلى محمد بن على السنوسى - الملقب بالسنوسى الكبير، ويرجع نسبه إلـى إدريـس الأكبر - أول خلفاء الأدارسة بالمغرب، ثم إلى على بن أبى طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم[٢].

ولد السنوسى الكبير حوالى عام ١٧٨٧م بالقرب من مستغانم بالجزائر، وتتلمذ علـى فقهـاء وعلماء عصره فى مستغانم وفاس، والقاهرة والحجاز - ثم قام بعدة رحلات اكتسب فيها الكثير من الخبرة وتبلورت فيها مبادئه[٣].

١- محمد حامد الفقى: أثر الدعوة الوهابية فى الإصلاح الدينى فى جزيرة العرب وغيرها (١٣٥٤هـ) ص ٩٠.

٢- الاشهب، محمد الطيب بن إدريس: السنوسى الكبير (١٩٥٦) ص ٧.

3- Adams, C. C: The Sanusiya Order (N.d.) P. 8.

فقد اندمج فى فاس ضمن اتباع الطريقة التيجانية، كما درس الطرق الصوفية الأخرى التى كانت منتشرة فى هذه البلاد، وحين غادر فاس حوالى عام ١٢٣٢هـ (١٨١٦م) ذهب للحجاز حيث كانت تعاليم الوهابية ومبادئها منتشرة فاستوعبها، وعاد للجزائر حوالى عام ١٨٢٩م وغادرها إلى مصر عقب الاحتلال الفرنسى لها، وفى مصر اتصل بالأزهر وعلمائه، ومن مصر ذهب إلى مكة مرة أخرى حيث أقام عدة زوايا لنشر مبادئه، وهذه هى الزوايا السنوسية الأولى[1].

وفى عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م) غادر مكة – وانتهى به المطاف إلى برقه حيث أسس الزاوية البيضاء – فى أواخر عام ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م) – التى كانت المهد الحقيقى لعظمة السنوسى والزاوية الأم إلى أن بنيت زاوية الجغبوب فى عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) فانتقل إليها السنوسى الكبير واتخذها مركزًا لدعوته حتى وفاته فى ٩ صفر سنة ١٢٧٦هـ (٧ سبتمبر ١٨٥٩م)[2].

والسؤال الذى يهمنا فى مجال المقارنة بين هذه الحركات – هو: ما هى الأهداف التى كانت تسعى إليها الحركة السنوسية؟

١- يفهم مما تركه السنوسى الكبير من مؤلفات[2] وما كتب عن الحركة – أن الدعوة فى جوهرها – تعمل للعودة بالإسلام إلى ما كان عليه فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين؛ ونبذ ماجد على ذلك العهد، وفى مقدمة ذلك قيام الخلافة على ما كانت عليه من أسس إسلامية صحيحة برضاء المسملين واختيارهم، فلا يستبد الحاكم بأمور الناس، وأن يجمع فى شخصه السلطتين الدينية والزمنية – فالخلافة العثمانية إذًا تعد مخالفة للنصوص الإسلامية الصحيحة – لكن يفهم من الخطابات المتبادلة بين السنوسيين والسلطات العثمانية – أن السنوسى الكبير كان يرى أن الوسائل السلمية كفيلة – فى هذه

1- Ibid: P. 8.

2- Pritchard, Evans: The Sanusi of Cyrenaic Oxford (1949), P. 14.

٢- ومن مؤلفاته التى طبعت :

- ايقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن (الجزائر ١٣٣٨هـ).
- الدرر السنية فى أخبار السلالة الإدريسية (القاهرة ١٩٤٣م).
- مقدمة موطأ الإمام مالك (القاهرة ١٣٨٥هـ).
- المسائل العشر أو "بغية المقاصد وخلاصة المراصد" (القاهرة ١٩٢٦م).
- السلسلات العشرة فى الأحاديث النبوية (القاهرة ١٣٥٧هـ).

المرحلة على الأقل – بتحقيق أغراضه، لذا استمرت فترة العلاقات الطيبة بينه وبين السلطات العثمانية[١].

ولعل تجنب الإصطدام بالسلطات الحاكمة، وكذا الدول الأوربية هو الذى دفع السنوسيين لهجرة المجتمع والمدن الكبرى إلى الصحارى والواحات حيث يتسع لهم المجال للإعداد لهذه الخلافة السليمة بإعداد الأفراد (الإخوان) الذين سيصبحون النواة لهذا المجتمع الذى كان سائدًا فى عهد الرسول وخلفائه[٢].

وفى هذا المجال نشأ تساؤل عن سبب إحراز السنوسيين للأسلحة والإمعان فى إخفائها – هل كانوا ينتظرون بصبر الوقت المناسب لإنشاء الدولة الإسلامية التى يبغونها؟

٢- وبفهم من خطابات السنوسى الكبير ومن نصائحه لأتباعه إنه كان يهدف بالدرجة الأولى لتخليص الدين من الشوائب التى علقت به والبدع التى دخلته[٣]، وكان الدعاة السنوسيون بدورهم يطالبون الناس بالعودة بالإسلام إلى ما كان عليه فى عهوده الأولى والتمسك بمبادئه.

ولتحقيق هذا الهدف كان السنوسى يرى أنه لابد من جمع شمل المسلمين فى رابطة إسلامية واحدة لأن التشتت والتفرق إلى شيع وفرق متناحرة هو الذى أدى لضعفهم[٤].

٣- لاشك فى أن من أهداف السنوسية الأولى – كانت إعداد أتباعها حربيًا لمواجهة الأعداء عملا بالآلة الكريمة (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ).

ولتحقيق هذا الهدف الحربى راعوا فى تأسيس زواياهم إختيار الأماكن المناسبة، وحرصوا على تحصينها، ويشترطون على كل من ينضم تحت لوائهم أن يتخذ سلاحًا وجملا يركبه، وأن يتعهد بالسير إلى الحرب معهم فى أى وقت دعت الحاجة فيه لذلك[٥].

وكانت الزاوية المركزية فى الجغبوب إلى جانب رسالتها الدينية والفكرية والاجتماعية بمثابة مدرسة حربية يمارس فيها أتباع السنوسية ضروب

1- Rinn, Lowis: Marabouts at Khouan (Alger. 1884) PP. 495-496.

2- Duveyrier H.: Exploration du Sahara; Les Touareg du Nord (Paris 1864) PP. 16, 17.

٣- الاشهب: السنوسى الكبير ص ١٩.

٤- الموصلى: التحفة السفية فى المشايخ السنوسية (١٣٣١هـ)

5- Rinn, Lowis,: Op. Cit, PP. 497-500.

التدريب العسكرية كالرماية وركوب الخيل، وكانت لهم مخازن للأسلحة ومصانع لإصلاحها، بل قيل إنهم نجحوا فى صنع البارود[١].

وقد ظهرت أهمية هذه الناحية العسكرية حين أضطر السنوسيون لخوض الحرب ضد الإيطاليين الغزاة.

٤- هناك هدف آخر من أهداف السنوسية يرتبط بتحقيق الأهداف الأخرى. وهو الهدف الاقتصادى – فقد اهتم مؤسسو السنوسية بحث أتباعهم على العمل والإنتاج فى مجالات الزراعة والتجارة والصناعة وتربية الحيوان.

ولا شك فى أن أى مصلح اجتماعى يفكر فى إقامة مجتمع ناجح يتمتع بإكتفاء ذاتى – يوجه اهتمامه للناحية الاقتصادية.

وقد ازدهرت الزراعة فى الزوايا السنوسية وأدخلت زراعات جديدة[٢]. أما فيما يتعلق بالتجارة فإن الأمن الذى ساد فى المناطق التى امتد لها نفوذ السنوسيين بالإضافة إلى الحياة الجديدة التى دبت فى أماكن استقرارهم شجعت القوافل التجارية التى أصبحت لا تنقطع عن الجغبوب وغيرها من الزوايا السنوسية.التى ارتبطت مع برنو، ووادای، وغات، وتونس، وطرابلس، ومصر – وغيرها من بلاد شمال وغرب أفريقيا بطرق تجارية منتظمة. وقد شجع السنوسيون – أصحاب الحرف والصناعات. ويقال إن السنوسى الكبير كان يدمج نفسه أحيانًا بين أهل الحرف ويشتغل معهم ليشجعهم على إتقان صنعتهم[٣].

٥- وما حرصت السنوسية على تحقيقه – العمل لإحياء التراث الثقافى الإسلامى. والمعروف أن الزوايا السنوسية كانت تشتمل على فصول للدراسة، وأماكن لإيواء الطلبة والمدرسين، وقد عمرت جغبوب وغيرها من زواياهم بالعلماء واشتهرت بخزائنها العلمية.

وقد كان السنوسى الكبير غزير العلم، مغرما باقتناء الكتب عن الشريعة الإسلامية وعلم الفقه والتصوف والفلسفة والتاريخ، والتفسير، وعلم الفلك – وقد برزت أسماء عدد غير قليل من الإخوان فى سائر العلوم النقلية والعقلية[٤].

١- الأشهب: برقة العربية أمس واليوم (القاهرة ١٩٤٧) ص ١٧٩.

٢- الأشهب: برقة العربية ص ١٨٧.

٣- ارسلان: حاضر العالم الإسلامى ص ١٢٨.

4- Pritchard, Evans: Op. Cit. P. 17.

أما المهدية :

فهـــى حركة دينية أيضًا، قامت ضد الحكم التركى فى السودان – فالمهدى فى منشـــوراته وخطاباته لم يشر للمصريين بشئ لكنه نادى بالثورة على الأتراك الذين أدخلـــوا الـــبدع والضـــلالات على الدين الإسلامى، وكانوا يحكمون بغير الشريعة الإسلامية واستبدوا بالأمر فى مصر والسودان على السواء(١).

وقـــد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية، وما آلت إليه الإدارة، والوسائل الـــتى اتبعـــت لإلغـــاء الرق بحد السيف إلى انتشار الحركة، وانضمام كثيرين من المتبرمين من الأوضاع السائدة يومئذ إليها. كما أن استخفاف الحكومة بشأن محمد أحمد المهدى فى بادئ الأمر، وتخبط الإدارة فى سياستها تجاه الحركة، والظروف التى كانت تمر بها مصر – ساعدت كلها على أن تتطور الحركة وتنجح فى تثبيت أقدامهـــا فـــى الســـودان، وتصديها للقوات النظامية وهزيمتها لهذه القوات المزودة بالأسلحة الحديثة.

كمـــا أن المهدى استطاع أن يجذب بذكائه ودهائه أعدادًا غفيرة من السودانيين كانت مستعدة لأن تموت تحت رايته للفوز بالاستشهاد أو النصر(٢).

وقد أراد المهدى بعد انتصاراته المتعددة واستيلائه على (الأبيض) ان يضيف إلى قوته قوة السنوسيين – ولعله لمس تشابهًا فى الأهداف خاصة فى نظرة كل من الدعوتيـــن للعثمانييـــن – فدعـــا المهدى السنوسى ليقبل وظيفة الخليفة الثالث ولكن السنوســـى احتقر دعوة المهدى لما صاحبها من عنف فلم يستجب لهذه الدعوة ولو بالرد عليه(٣).

١- شقير، نعوم: تاريخ السودان القديم والحديث حـــ١ (١٩٠٣) ص ١٠٩.

Holt, P. M.: Op. Cit. P. 3.

٢- ســـنتعرض فـــيما بعد لهذه النقطة بالتفصيل عند الحديث عن الدوافع التى دفعت الأعداد الفقيرة من السودانيين للانضواء تحت لوائه.

٣- الاعـــتقاد فى ظهور المهدى الذى يقود الناس إلى الصلاح ويملأ الدنيا عدلا بعد أن امتلأت جورًا – يرجع إلى حديث يـــزعم السنية أن أبا بكر نسبه للرسول، أما السنية فيزعمون أن المهدى ظهر فعلا فى شخص الإمام الثانى عشر (محمد ابى القاسم).

وكـــان لكل خليفة من خلفاء المهدى علم (راية) فالراية السوداء للخليفة عبد الله، الخضراء للخليفة على ودحلو، والراية الحمراء للخليفة محمد شريف.

- Siatin: Fer et Feu au Soudan (1898) T. II P. 416.

ويعطى لنا وينجت (Wingate) تفصيلات هذا الاتصال بين المهدى والسنوسى فيذكر إنه بعد سقوط (الأبيض) بفترة قصيرة وصل إليها مندوب من السنوسى عن طريق واداى – لكن ما شاهده غير ما كان ينتظره من المهدى الذى كان ينتظر إنه يملأ الأرض عدلا وسلامًا بعد أن امتلأت جورًا وفسادًا – فقد شاهد ما أصاب المدينة على أيدى أتباع المهدى من التخريب، كما شاهد المخازن التى ملئت بما نهبوه من الأهالى، وكل ذرة رمال كانت ملطخة بالدماء.

ورأى فى المهدى رجلا ذكيًا، لبقًا فى حديثه لكن كل ما يدور فى ذهنه هو أن يمد سلطته إلى أبعد ما يستطيع.. فالصورة التى كونها السنوسيون عن المهدية إنها دعوة تقوم على الحديد والنار.. وهذا يناقض تمامًا دعوة السنوسيين فى بناء مجتمع على أساس مقاومة الإنحرافات وتنمية موارد الدولة بالعمل لا بالنهب والسلب.

ولما لم يتلق المهدى ردًا على خطابه الأول للسنوسى أرسل خطابًا ثانيًا للخليفة محمد المهدى إبن السنوسى الكبير مؤرخا فى رجب ١٣٠٠هـ (مايو ١٨٨٣) – ذكر فيه إنه – قبل أن يوحى إليه بالقيام بهداية الناس كان واضعًا كل آماله فى السنوسيين ليعيدوا للإسلام سيرته الحقيقية – وأنه سبق أن كتب له ليتعاونا معًا فى هذا الهدف، لكن يبدو أن خطابه لم يصله إذ لم يتلق ردًا عليه.

وشرح له كيف أوحى إليه بأنه المهدى وأنه سوف يهزم كل أعدائه، وأن الرؤيا ظهرت له فى جبل غدير (Gedir) فى الغرب، وأنه طلب منه أن يكتب للأمراء والشيوخ يدعوهم للاعتراف بخلافته، وأنه فعل ذلك فأذعن للدعوة الكثيرون وأعلنوا استعدادهم للتضحية بكل شئ فى سبيل دعوته، لكن من خشى على جاهه وماله هم الذين أصروا على الرفض والعناد، ولكن هؤلاء سيخضعهم الله ويذلهم.

وذكر له إنه حسب الرؤيا سيكون له أربعة خلفاء على نسق الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى وإن مكان الخليفة الثالث (عثمان) خصص له هو – بينما شغل بعض أتباعه الأماكن الثلاثة الباقية. وذكر له كيف أن قوات الأتراك الضخمة تصددت له مرارًا لكن الله هزمها جميعها.. وإن هذه الانتصارات التى يعرفها القاصى والدانى دليل دامغ على مهدويته.

ويدعــوه بمجــرد استلام خطابه هذا - إما أن يقوم على رأس قواته للزحف صــوب مصر لإخضاع مصر للدعوة المهدية أو يسارع للحضور إليه فى السودان للعمل معه - وإنه يفضل انضمامه بقواته إليه[١].

وإذا حاولنا إجراء مقارنة بين الحركات الثلاث فى ضوء هذه النظرة السريعة لكل منها نجد :

١- تشــابه الحركات الثلاث فى الدوافع والأهداف - وهو إحساسها بما ألم بالعالم الإســلامى من جراء البعد عن تعاليم الإسلام الصحيحة مما يدعو للعودة إلى مــبادئ الإســلام الأصلية، والاعتماد على القرآن والسنة دون غيرها - كما تشــترك الحــركات الــثلاث فى نظرتها للخلافة العثمانية على أنها مغتصبة للســلطة، وإن كانــت تختلف فى دعوتها لمقاومة السلطات الحاكمة علانية أو مهادنتها وإعداد أتباعها أولا لتحمل المسئولية.

٢- لعــل ما يلفت النظر أن زعيمى الحركة الوهابية والسنوسية لم يقوما بحركتهما إلا بعــد جولات فى البلاد الإسلامية أمدتهما - بلا شك بفكرة عن أحوال هذه البلاد الإسلامية - أما المهدى فقد جهر بدعوته فى السودان ولم يقم بمثل هذه الرحلات.

٣- ســاعد على انتشار الحركات الثلاث ظهورها فى بيئات بدوية. لكن فى الوقت الــذى أدعى فيه المهدى والسنوسى (المهدية) - فإن الوهابية بالعكس لم تدع للمهدية لأنها كانت حركة علمية تستنكر التصوف.

١- انظر ترجمة كاملة للخطاب فى :

Wingate, Mjor, F. R.: Mahdism and the Egyptian Sudan (London 1891) PP. 69-72.

ولــد Wingate عــام ١٨٦١، والــتحق بالجيش الإنجليزى فى عام ١٨٨٠ وبخدمة الحكومة المصرية فى عام ١٨٨٢، واشترك فى عام ١٨٨٤ فى حملة انقاذ غوردون وفى عام ١٨٩١ فى احتلال طوكر، وعين حاكما عاما لإقليم البحر الأحمر ١٨٩٤ وبعــد ذلــك رئيسًا للمخابرات المركزية،ة واشترك فى حملة استرجاع السودان ١٨٩٦-١٨٩٨ وكان المساعد الأيمــن لكتشنر، وقاد فى ١٨٩٩ الحملة التى قضت على الخليفة عبد الله فى (أم دبيكرات) وعين سردارًا للجيش المصرى وحاكما عاما للسودان (١٨٩٩-١٩١٦) ومندوبا ساميا فى مصر (١٩١٧-١٩١٩) وتوفى فى ٢٩ يناير سنة ١٩٥٣.

وتــرجع أهمــية كتابه بالإضافة إلى معاصرته واشتراكه فى الأحداث أثناء اشتغاله فى وظائفه المتعددة السالفة الذكر - فقد كــان يجــيد العربــية، كما أن الكثير من الأوراق والوثائق المتعلقة بالمهدية قد وقعت فى يديه بعد (معركة توشكى) فى ٣ أغســطس ١٨٨٩ بالإضافة إلى ما حصل عليه من معلومات من القواد وغيرهم سواء الذين اشتركوا فى الأحداث أو من كان قد وقع فى أسر المهدى ونجا من الأسر.

هذا ونشير إلى أن أوراق Wingate الخاصة بالسودان قد أرسلت إلى مدرسة الدراسات الشرقية فى جامعة درهام.

وقد أرسلت صور من بعض هذه الوثائق لمكتبة معهد الدراسات الأفريقية بالقاهرة. بناء على طلب قسم التاريخ بالمعهد.

٤- وفى الوقت الذى سلكت فيه كل من المهدية والوهابية طريق العنف والشدة مع من خالف تعاليمهما - فإن السنوسية لم تلجأ إلى العنف فى فرض دعوتها على الناس.

٥- وفى الوقت الذى أبطل فيه المهدى العمل بالمذاهب الأربعة لأنها تقوم كسد فى وجه منبع العرفان وقام بحرق الكتب إلا الأصول لأنه اعتبر هذه الكتب الفرعية حاجبة للنمو الحقيقى المنبعث من القرآن والسنة - حتى ضل القوم واتجهت الأنظار للمشايخ بدلا من مصدر الدين الحنيف - فأصبح الدين أسمًا لاعملاً - فإن الوهابية اعترفت بمذهب أبى حنبل.

٦- اشتراك الحركات الثلاث فى الدعوة للتقشف وتحريم الملابس الفاخرة والمجوهرات.

٧- وفى الوقت الذى غلبت فيه الناحية الدينية على السنوسية والوهابية فإن الإنتصارات الحربية طغت على الناحية الدينية من رسالة المهدى فلم يتفرغ لتوضيح مبادئه الدينية، وإذا كان خليفته قد قام بأعباء الرسالة من الوجهة الحربية فإن الناحية الدينية لم تجد بعد فترة حكمه القصير من يخصص أى جهد لهما - ولذا لم تخلف لنا المهدية من الناحية الدينية إلا بعض رسائل صغيرة دونها من عكفوا على ذلك من أحاديث وأقوال سمعوها عن المهدى بعكس الوهابية والسنوسية، فقد ترك السنوسى الكبير - كما ذكرنا سابقا - العديد من المؤلفات.

٨- وإذا كانت هذه الحركات الثلاث قد تحولت من حركات دينية إلى حركات سياسية - فإن ذلك تم فى ظروف متباينة - ففى حالة الوهابية لعل التحالف الذى تم بين القائم بالدعوة وأمير الدرعية هو الذى دفع بها من البداية فى ميدان السياسة.

وفى حالة المهدى اندفع المهدى وخليفته منذ البداية فى السياسة والحروب، ولذلك كانت المهدية فى السودان قصيرة الأجل فلم يتجاوز عمرها عشرين عامًا.

وبالعكس فإن السنوسية تحاشت منذ البداية الدخول فى أمور السياسة، وكان السنوسى الكبير يحذر أتباعه من السياسة لأنها من العوامل الهدامة ولعله اتعظ بما أصاب الوهابية. ويؤرخ الجانب السياسى للسنوسية عادة بالاصطدام الفرنسى بهم ثم الاصطدام الإيطالى بعد ذلك، بينما لم تتعرض الحكومة

التركية للحركة من المبدأ حيث أن السنوسى الكبير كان مستعدًا لإقامة نظامه فى المناطق البدوية تاركًا المدن.

٩- والدارس يرى تشابهًا بين الحركات الثلاث فى تنظيمات الأخوان، وفى محاولة تكوين إمارة أو دولة إسلامية مؤسسة على خصائص دينية، وفى مواجهة الحركات الثلاث للاستعمار.

كذلك هناك محاولات للربط بين **الحركة العرابية** فى مصر، والحركة المهدية فى السودان. فالحركتان معاصرتان فى نفس الوقت، ويسهل على الإنسان أن يلتمس أسبابًا واحدة للحركتين. وبعض المؤرخين اتجهوا هذا الاتجاه فنسبوا الحركتين لأسباب واحدة.

والسؤال الذى تردد كثيرًا هو هل كان هناك اتصال بين الحركتين – وهل شجع العرابيون المهديين؟

من المعروف أن بعض الصحف المصرية وبعض الشخصيات المصرية الهامة كانت فى مبدأ الحركة المهدية تعطف عليها وتجد لها مبررات.

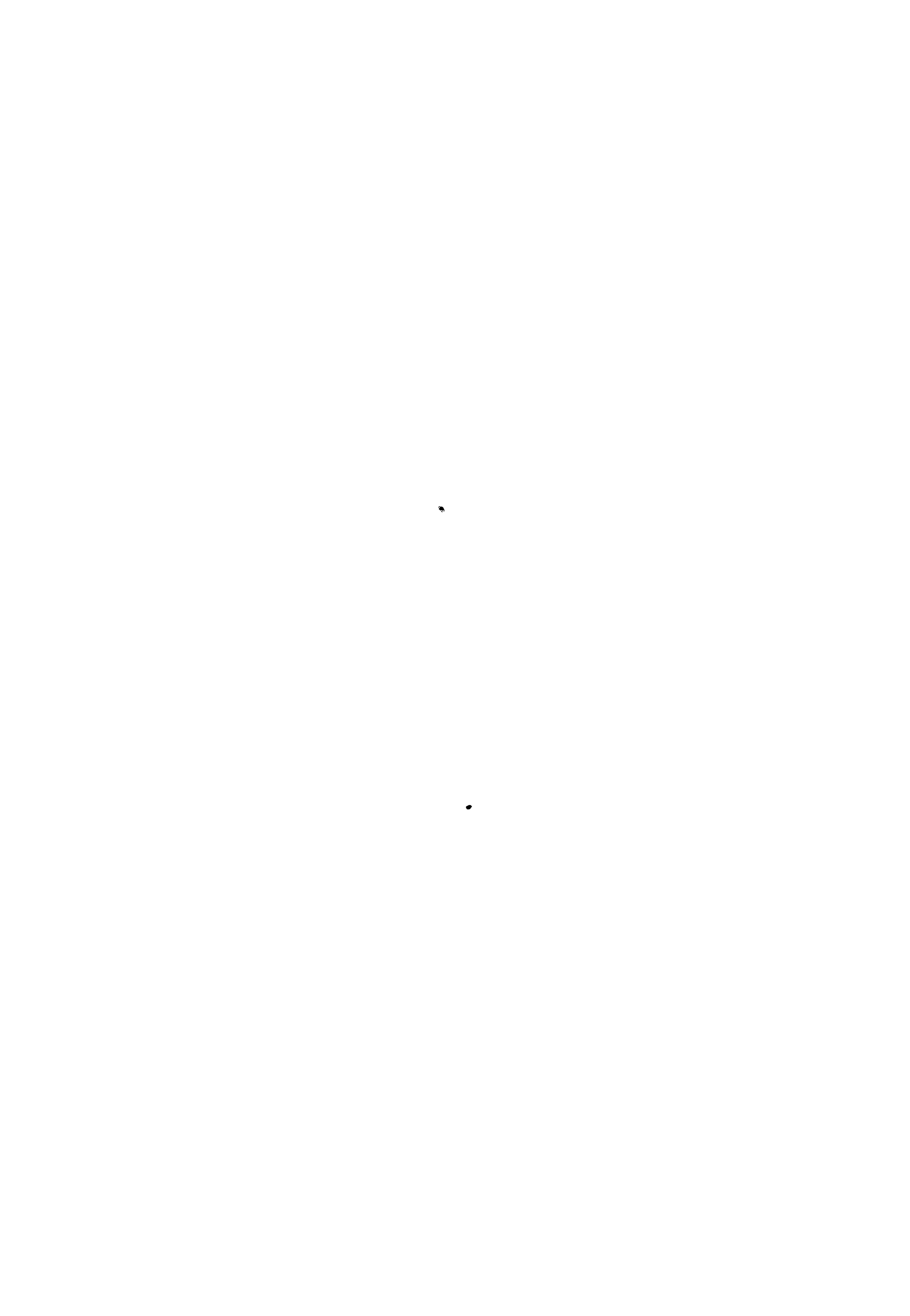
لكن لا يعنى هذا وجود اتفاق بين العرابيين والمهديين، كل ما يمكن أن نجزم به هو أن سير الأحداث فى مصر، وإرتباك الحكومة المصرية، واضطراب الأحوال فى مصر والاحتلال البريطانى لها – كل هذه أدت لتسهيل مهمة المهديين فى السودان من غير قصد بالطبع.

وهناك ملاحظات جديرة بالتسجيل فى هذا المجال منها:

١- اتجهت زعامة الحركة الوطنية فى مصر نحو رجال الجيش، أما فى السودان فقد كانت مصطبغة بالصبغة الدينية الصرفة.

٢- اتجهت الحركتان العرابية والمهدية إلى الانتفاض على الحاكمين وهم – كما قالوا – غير مصريين فى الحالتين، فالعهد فى السودان يعرف (بالعهد التركى)، وكانت السيطرة فى مصر للشراكسة.

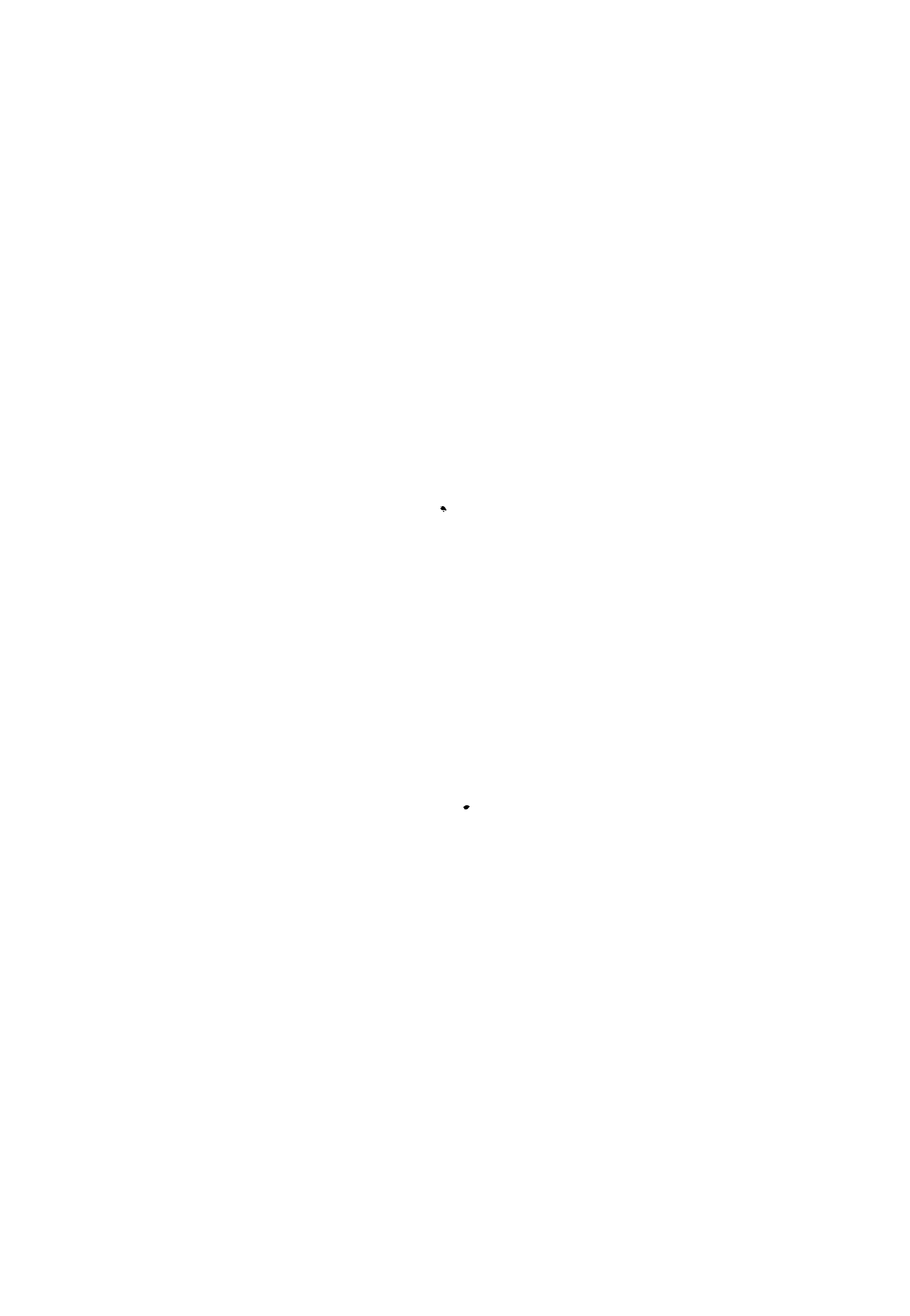
٣- والحركتان شعبيتان وساندتهما العناصر الشعبية.





الفصل الثانى
المهدى الظروف التى ظهر فيها

- حياة المهدى.
- المبادئ التى نادى بها.
- الأسس التى قامت عليها هذه المبادئ



الفصل الثانى
المهدى الظروف التى ظهر فيها

المهدى :

ولـــد محمـــد أحمـــد – الذى تزعم الحركة المهدية – فى جزيرة (ضرار) فى مديرية دنقلة فى عام ١٨٤٨ من عائلة كان أفرادها يعملون فى بناء السفن – لسكنه منذ نعومة أظفاره ولع بالعلوم الدينية، وغلب عليه الزهد والتصوف، وكان منطويًا على نفسه، شديد الحياء – انصرف للعلم وللطرق الصوفية وتعلق بها(١).

وكانـــت المدارس – غير الرسمية – منتشرة فى ذلك الوقت بالسودان، وهى تشـــبه (الكتاتيـــب) أو المدارس القرآنية، ينشئها أفراد من الناس ويعينهم أهل البر لتقوم برسالتها فى تعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن وعلوم الدين.

وكانت تعرف هذه المدارس (بالخلاوى)، ومن الغريب أن المتعلم فيها بدلا من أن يدفـــع أجرًا لتعليمه كان يعيش على نفقة معلمه وما يقدمه القادرون، وانضم محمد أحمد للطريقة السمانية، وكان شيخها وقت ذلك هو الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم(٢).

وقـــد أصـــبح لمحمـــد أحمد مركز ممتاز عند أستاذه لما نميز به من الصلاح والـــزهد ووداعـــة الأخلاق وشدة الحياء حتى قيل إنه كان دائمًا بغض بصره ولا يرفع نظره.

وانـــتقل بعـــد ذلك مع اخوته إلى جزيرة أبا (Aba) هم يصلحون السفن وهو يتعـــبد بجـــوار الشاطئ، وقد أتاح له هذا المكان ذات الغابات المتشابكة بعيدًا عن ضـــجيج الخرطوم – فرصة للخلوة، وكان يعيش حياة زهد وتقشف يقتات من صيد السمك بسنارته، وكان يزور أستاذه من حين لآخر.

وقـــد حـــدث خلاف بينه وبين أستاذه، كان له أثر كبير فى نفس المهدى، فقد ترتـــب علـــيه إنـــه تحول إلى نوع آخر من الرجال وسبب الخلاف إن شيخه أقام

1- Wingate: Op. Cit,. P. 13.

٢- انظر ما كتبه (سلاتين) عن تاريخ حياة المهدى.

Slatin, R.: Fer et Feu

Le Caire 1898) T. 1, P. 173..

وتـــرجع أهمـــية كتاب سلاتين إلى أنه عاصر الأحداث، فقد كان حاكمًا لدارفور، وأسرة المهدى، وبعد موت المهدى صار نديما ملازما للتعايشى حتى فراره (فى ٢٠ فبراير ١٩٨) من أم درمان ووسوله إلى أسوان بالقاهرة.

احـــتفالا لخـــتان أولاده وأحفاده ودعا تلاميذه ومريديه لحضور الحفل، وسمح فيه بإقامـــة الملاهى المختلفة من رقص وغناء وتعاطى للسوائل المقوية، ويقال إنه قال لمريديه "تمتعوا وأنا ضامن إنه لا جناح عليكم فى هذه المناسبة" وقد استنكر محمد أحمـــد حـــدوث ذلك من شيخ كبير من المتصوفين، ونقل كلامه واعتراضه للشيخ فاستدعاه وعنفه وطرده وفصله من زمرة أتباعه.

وقـــد حـــاول محمد أحمد استعطاف أستاذه مرارًا فجاءه متذللا مغطى بالرماد والنـــير فى عنقه كما يعمل مع العبيد – لكن رغم ذلك رفض أستاذه أن يصفح عنه وطرده قائلا "إذهب أيها الدنقلاوى لا خير فيك[١]".

وقـــد قلبت هذه المعاملة الرجل الوديع – فتنبه للظلم الذى يحيق بالإنسان وبدأ يتـــنمر وأنقلـــب لرجل آخر، وأنضم لشيخ آخر هو (الشيخ القرشى)، وقد رحب به هذا الشيخ.

ومـــات الشيخ القرشى بعد ذلك، واشتغل محمد أحمد مع غيره من أتباع الشيخ فـــى بـــناء قـــبة لدفـــنه. وفى أثناء ذلك حدث حادث آخر مهم هو التفاؤه بعبد الله التعايشـــى، وكان اسم محمد أحمد قد بدأ يتردد على الألسن فقد كان يتمتع بشجاعة نـــادرة، يشير إلىّ جامع الضرائب الذى كان بمنتهى القسوة يجرد الراعى من آخر رأس من الغنم يمتلكها، أو ينتزع من الزارع آخر حزمة من الذرة التى كان يحملها لغذاء أطفاله فيعلن للناس إن هذا إنما يرجع لغضب الله على الناس بسبب انحرافهم – لكـــن حـــان الوقت الذى سترسل السماء فيه المخلص الذى يرشد الناس للطريق الســـوى ويقودهـــم للقضـــاء علـــى الظلم ويخلصهم من الأتراك القساة .. فترتفع الصيحات متسائلة متى – متى يأتى هذا المنقذ[٢].

وقد أعطانا سلاتين صورة عن محمد أحمد المهدى فذكر إنه كان متين البنيان، عـــريض المنكبيـــن، كبير الرأس، ذا عينين عسليتين متألقتين ولحية سوداء، وعلى خده ثلاث ندب تشير إلى قبيلته وكان لا يكف عن الابتسام[٣].

1- Statin: Op. Cit. T. I, P. 175.

2- Wingate: Op. Cit, PP. 13-14.

3- Statin: Op. Cit. T. II, P. 398, 399.

ملاحظـــة :

كانـــت الإدارة فى السودان فى ذلك الوقت أغلبها فى يد الأجانب، فقد كان الإنجليزى ليبتون بك (Lupton Bey) فى بحـــر الغزال بعد استقالة الإيطالى (Gessi)، بينما كان سلاتين (Slatin) النمساوى واميليانى (Emiliani) والإيطالى ميسداليا Messedaglia فى دارفور، والدكتور شنتزر (Schnitzer) الألمانى فى خط الأستواء.

أما عن عبد الله بن محمد التعايشى – الذى أصبح فيما بعد خليفة المهدى، فهو ينـــتمى لجماعة البقارة، وقد نشأ فى دار التعايشة بدارفور وينتمى لأسرة فقيرة. أما عـــن ظـــروف اللقاء بين محمد أحمد، وعبد الله التعايشى فيحدثنا عنها سلاتين فى كتابه السيف والنار. فقد فكرت أسرة التعايشى فى السفر للحجاز بحثًا وراء الرزق، ويذكر سلاتين – أنه كان رجلا هستيريا عصبى المزاج لا يبالى بالمبادئ الأخلاقية بعكس ما شاع عن والده من أنه كان رجلاً ورعًا تقيًا، لكنه اشتهر بالذكاء والفراسة وكانـــت فكـــرة المهدى المنتظر مختمرة فى عقل عبد الله – وهى كما ذكرنا سابقًا ليست جديدة.

وكـــان عـــبد الله يبحـــث عمـــن يمكن أن يحقق هذا الهدف الذى يترقبه على الخصـــوص كـــل مـــن يحـــس بالضـــيق والعنت، وحين برز الزبير رحمت بعد انتصـــاراته فـــى دارفور ظن عبد الله التعايشى انه وجد ضالته، ولكن الزبير نهره وكـــاد يقـــتله، فلمـــا سمع عن أحمد محمد المهدى عدل عن فكرة متابعة السفر مع أســـرته للحجاز، وسار بحمار جريح وقربة ماء وشئ من الخبز الجاف ليبحث عنه ويذكـــر انـــه لبساطة منظره وفقره كانت القبائل التى مر بها تنتهره وتظن إنه من قطـــاع الطرق، وأخيرًا التقى بمحمد أحمد وكان هذا الأخير يبنى قبة شيخه القرشى فقـــربه إلـــيه، وزاره وهو مريض بالدوسنتاريا، وأطعمه طعامًا شفاه، وهكذا بدأت قصـــة عـــبد الله التعايشى مع زعيم هذه الحركة، وقدر له أن يعاصر الحركة من بدايتها حتى نهايتها[١].

وقـــد وصـــف إبراهيم فوزى[٢] المهدى وتحدث عن صفاته وأخلاقه فذكر إنه كـــان طويـــل القامة، أسمر اللون، مفتول الساعدين، واسع الجبهة، وأسنانه بيضاء كاللؤلؤ، وفى الفك الأعلى فلجة بين الأسنان، وكان يلبس المرقعة كسائر الدراويش ويتمـــنطق بمـــنطقة مـــن الخوص أو الدمور ويتوكأ على هراوه من الخيزران أو الـــنحاس، ويذكر إنه توفى وعنده ١١٠ إمرأة (وهذه مبالغة لا تصدق)، منهن أربع كانـــت لهن الحظوة، ويطلق عليهن أمهات المؤمنين، إحداهن عائشة بنت إدريس، والثانية فاطمة بنت أحمد الدنقلاوى والثالثة فاطمة بنت حاج، والرابعة مصرية من أهالى أسوان وتدعى أيضا فاطمة، وكانت متزوجة وفرت من بيت زوجها ولحقت

1- Statin: Op. Cit. T. I, P. 177-178.

٢- إبراهيم فوزى: السودان بين يدى غوردون وكتشنر.

وانظر ما ذكرناه فى الفصل الرابع من هذا الكتاب عن إبراهيم فوزى وظروف اعتقاله من المهدية.

بـــالمهدى فـــى جزيرة أبا، وهجم الزوج على المهدى وأطلق عليه الرصاص لكنه أخطأه، وعفا عنه المهدى فيما بعد. ومنهن ٣٠ من بنات أعيان السودان، أما أولاده الذكـــور فيبلغون عشرة وذكر إبراهيم فوزى أيضا أنه كان يربط على بطنه حجرًا حـــتى ذاع بيـــن الناس أن الذين يأكلون الأطعمة الفاخرة من الكفار، ولكن إبراهيم فـــوزى يدعـــى أن ذلـــك كان مجرد تظاهر بالزهد وأن (القصع) كانت ترسل له بالمـــئات، وإنـــه كـــان يوضع أمامه الخروف فلا يترك منه إلا عظامه، وإنه كان يتناول فى إفطاره السمن والعسل واللبن ودقيق الحلبة.

وانه كان يتعطر فيعتقد الناس إنه من رائحة أهل الجنة، وانه كان يلقب اتباعه (بالصـــحابة) أو (الأنصـــار) – ويذكر إن الدراويش انهمكوا فى الملذات لحد بعيد، ويعلـــل ذلـــك بأنهم قوم بدائيين لا رادع لهم، وضعت الأقدار تحت أيديهم سلطة لا حدود لها، ويذكر إن الباب فتح لانتشار كثير من المفاسد، وبعض هذه المفاسد كان موجـــودًا فـــى السودان من قبل، لكن ما وقع فى أيديهم من خيرات بلا حدود أدى للاستهتار بكل المعايير.

ويذكـــر إبراهيم فوزى عن التعايشى إنه من البقارة، وانه كان أميًا بحيث أنه وجـــد صـــعوبة فى حفظ (الفاتحة)، وقال إنه كان فقيرًا نحيل الجسم يشوه الجدرى وجهـــه، وأن قدميه كان بهما من الشقوق ما تختفى فيه الحشرة الصغيرة لأنه عاش مدة طويلة يسير حافى القدمين، لكنه أصبح من السمنة للمعيشة الطيبة بحيث اختفت من وجهه كل آثار الثقوب.

على أن إسماعيل عبد القادر الكردفانى – وصف الإمام المهدى فذكر "إنه كان دائـــم البشر سهل الخلق، لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ، لا يذم أحدًا ولا يعيبه .. يـــتفقد أصحابه ويسأل عنهم، فمن كان غائبًا دعا له، ومن كان حاضرًا زاره، ومن كـــان مريضا عاده ... أوسع الناس صدرًا وأصدقهم لهجة، وألينهم خلقا، وأكرمهم عشرة، لا يجزى السيئة بالسيئة لكن يعفو ويصفح متخلقا بالقرآن المجيد، عاملاً بما فـــيه من الإجتهاد فى طاعة الله والخضوع له، والانقياد لأمره والشدة على أعدائه والتواضـــع ولـيـــن الجانـــب والـــرحمة لأولـــيائه ومواساة عباده وإرادة الخير لهم والحرص على كمالهم والاحتمال لأذاهم والقيام بمصالحهم وإرشادهم إلى ما يجمع لهـــم خـــيرى الدنـــيا والآخرة ... ذا حلم وعلم وخير وشكر وعدل وزهد وتواضع وعفو وعفة وتقوى وحياء ومروءة وجود وسماحة وشجاعة، أكثر الناس شفقة على خلق الله وأرأفهم بهم، يركب الحمار ويردف خلفه، ويجلس على الأرض ويأكل مع الخـــادم ويحمل حوائجه بنفسه من السوق. يحب الطيب ويستعمله ويحب من الثياب

مـــا خشن، ومن الطعام ما خشن – واشتهر من أول نشأته يحب الخلوة، والإنفراد عن الناس والتمسك بالدين[١].

وقـــبل أن نتتـــبع الحركة المهدية فى تطورها – نشير إلى أهم المبادئ التى نادى بها المهدى:

فكمـــا ذكـــرنا من قبل إن الحركة المهدية كانت قصيرة العمر، وأن المهدى لم يخلـــف لـــنا الكثـــير مما يوضح المبادئ التى نادى بها – بخلاف السنوسية مثلا فقد أشرنا من قبل لمؤلفات السنوسى الكبير العديدة التى تعطى فكرة واضحة عن مبادئه.

والحقـــيقة إن مستلزمات الحرب طغت على الناحية الدينية من اهتمام المهدى، ولقصر مدة حكمه بعد فراغه من انتصاراته الحربية، لأن خليفته عبد الله التعايشى لـــم يكـــن – كمـــا أشرنا – رجل دين وعلم ومعرفة حتى يتصدى لتوضيح تعاليم المهدى وشرحها، لذلك كثر الكلام عن مبادئ المهدى وتعاليمه.

ولعلـــه يمكـــنا أن نحدد الخطوط العريضة لتعاليم المهدى الدينية من الرسائل الصـــغيرة التى دونها ومن منشوراته، وممن كتبوا بعد ذلك عما سمعوه من أقواله وأحاديثه[٢].

١– مكى شبيكه: السودان فى قرن (١٩٥٧) – ص ٢٣٤.

٢– منشورات المهدى (المطبوعة) أربعة أجزاء.

حـــ١– منشورات تعالج الأسس الرئيسية التى تقوم عليها حركة المهدى كالدعوة واتجاهاتها العامة والصلاة.

حـــ٢– (كتاب الإنذارات): يشمل الإنذارات الموجهة للمعارضين، وبه بيانات موجهة إلى كبار أتباع المهدى (الأنصار).

حـــ٣– (كتاب الأحكام والآداب): يتناول الفتاوى التى أفتى بها المهدى والأحكام التى صدرت.

حـــ٤– خطب المهدى.

– ملاحظة :

هناك بعض المؤلفات عن المهدية وضعها بعض الأنصار المعاصرين مثل:

حسين زهرا: الآيات البينات فى ظهور مهدى الزمان وغاية الغايات.

حسن سعد محمد العبادى: الأنوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية.

أحمد العوام: نصيحة العوام للخاص والعام بسيرة أهل الإيمان والإسلام.

إسماعيل عبد القادر الكردفانى: سعادة المهتدى السيرة الإمام المهدى (بتكليف فى الخليفة عبد الله).

– وقد نشر د. محمد إبراهيم أبو سليم عدة كتب عن المهدية نذكر منها:

– منشورات المهدية.

– مفهوم ولاية العهد فى المهدية.

– الأرض فى المهدية.

– المهدى عليه السلام.

– الحركة الفكرية فى المهدية.

وكمــا ذكــرنا تتركز فكرة المهدى الدينية أساسًا على الرجوع للقرآن والسنة. ولتحقــيق ذلك نجده يهاجم المذاهب المختلفة والطرق وأربابها، والكتب المتعددة فقد اعتبرها مسئولة عن حجب نور الحق والدين الصحيح، وأنها باعدت بين المسلمين ومصــدرى الــنور (القرآن، والسنة). ولذا أمر بإحراق الكتب إلا قلة منها اعتبرها الأصــول مــثل مســلم الــبخارى، وإحياء علوم الدين، وكتب الشعرانى والسيرة، والتفاسير – أما باقى الكتب فقد اعتبرها حاجزًا يمنع المسلم من أن يصل بنفسه إلى نور الحق.

وبالإضــافة إلــى ذلــك حارب البدع، وطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية فى الأحكــام والقضــايا، وقد أثر عنه قوله (إن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله، وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ).

وروى عــنه أيضًــا إنــه قال (اتركوا الكتب لكتاب الله فإنها حاجبة عن فهم معناه).

وقد حث أتباعه على التقشف والزهد، وساوى بين الأنصار جميعا، وعمم لبس الجــبة المرقعة، يلبسها الخلفاء، كما يلبسها المجاهد العادى، ومنع النساء من لبس الحلــى والفضــة والذهب، وحرم الرقص والغناء وضرب الدفوف والبكاء والنواح على الميت، كما حرم الخمر والسجاير وحارب الزنا.

وقــيل إن المهدى نفسه كان مثالاً فى التقشف والزهد، كان يحمل طعامه بيده بالــرغم من كثرة أتباعه ومريديه، وإنه لم يحاب قريبًا أو يجامل قبيلة على أخرى، لكن كان كل من لازموه فى نفس المرتبة لا تمييز بينهم إلا بحسب سابق انضمامهم للدعوة المهدية.

كما أنه وضع بعض النظم الاجتماعية فأمر النساء بالتحجب وتغطية رءوسهن وعــدم الاخــتلاط بالرجال، كما أمر بعدم المبالغة فى مهر الزواج، كما أمر بأداء الصــلاة اليومية فى مواعيدها – وبالابتعاد عن العادات التى سادت فى عهد الترك كالغناء على دقات الطبول التى يجب ألا تقرع إلا فى الحروب ... إلخ[1].

---

١ – انظر تعليماته التى أصدرها بعد فتح الأبيض واستقراره بها.

Wingate: Op. Cit. PP. 56-57.

Statin: Op. Cit. T. II, P. 50..



الفصل الثالث
تطور الحركات المهدية
(من بدايتها حتى سقوط الخرطوم)

- بداية الحركة المهدية.
- الاصطدام الأول مع قوات الحكومة.
- الهجرة إلى كردفان.
- سقوط الأبيض فى أيدى المهدى وأتباعه.
- حملة هكس ونتائج فشلها.
- الثورة فى السودان الشرقى.
- اهتمام إنجلترا بالمحافظة على موانى البحر الأحمر.
- فكرة الإنسحاب من السودان.
- إرسال غوردون للسودان.
- شكل مأمورية غوردون.
- الإجراءات التى إتخذها غوردون بعد مجيئه للسودان.
- حملة الإنقاذ.
- سقوط الخرطوم ونهاية غوردون.
- تطورات الأحداث بعد سقوط الخرطوم.
- تحليل لموقف إنجلترا من الثورة المهدية فى السودان.
- سياسة إنجلترا فى السودان بعد سقوط الخرطوم



الفصل الثالث
تطورات الحركة المهدية
من بداية الحركة حتى سقوط الخرطوم

إن المتتبع لتطورات الحركة المهدية منذ بدأ محمد أحمد المهدى دعوته فى أغسطس ١٨٨١ حتى سقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ يذهل للسرعة التى تطورت بها الأحداث وتتألف كأنها شريط سينمائى، لكن لعل الحالة التى وصلت إليها الأوضاع فى كل من السودان ومصر تعطى بعض التفسير للسرعة والكيفية التى تطورت إليها الحركة.

أما مراحل هذه التطورات فيمكن اجمالها فيما يلى:

أولاً: بداية الحركة :

فى بداية عام ١٨٨٠ أصبح محمد رؤوف باشا حكمدارًا للسودان خلفاً لغوردون الذى كان يشغل وظيفة الحاكم العام للسودان منذ ١٨٧٧. فكان على رؤوف باشا أن يواجه النار التى أشعلها غوردون قبل مغادرته للبلاد بوسائله العنيفة التى اتبعها بهدف وضع لحد لتجارة الرقيق - كما يذكر ذلك بصراحة وينجيت (Wingate)[١].

وفى هذا إشارة صريحة إلى أثر سياسة غوردون فى إثارة روح العداء تجاه الحكومة وبالتالى سهلت مهمة المهدى فى جمع الأتباع والأنصار حوله.

وفى أغسطس ١٨٨١ بدأت حركة محمد أحمد بإعلان أنه المهدى المرتقب، والذى ينتظر العالم الإسلامي كله ظهوره، وكان سنه فى ذلك الوقت دون الأربعين. فبدأ يكاتب رجال الدين ومشايخ الطرق وعلماء الشريعة سراً، وكانت كتاباته فى بادئ الأمر تلميحاً لا تصريحاً- فبعضهم آمن بمهديته وترقب صدور الأمر لتنفيذ ما يؤمر به، والبعض الآخر لم يعر هذه الرسالات اهتماما.

ثم قام برحلةإلى كردفان طاف فيها بأنحائها وبجبال النوبة ينشر دعوته[٢]، وقد عاهده البعض وخاصة الملك آدم أدبالو- ملك جبال تقلى على نصرته، ثم عاد

1- Wingate: Op. Cit. p. 12.

٢- يذكر (Wingate) إنه إثر تجمع الناس حوله بعد صلاة الجمعة فى مسجد (سوار الذهب) بالأبيض- قبض عليه أحد الضباط المصريين وسجن- لكن أخلى سبيله وأعيد إلى جزيرة آبا، وذلك بتداخل بعض الشخصيات البارزة بالأبيض .
انظر : Wingate: Op. Cit. p. 12 .

لجزيـــرة أبـــا، وقـــد شجعته رحلته هذه على التصريح بدعوته وإعلانها علناً، فبدأ يكتـــبإلى رجال الدين يدعوهم صراحة إلى نصرة الدين وتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بها، وأخذ عدد أتباعه يتزايد بشكل ملحوظ..

ولعـــل الأســـئلة الـــتى تدور بالذهن وتلح على المرء لأول وهلة- فيما يتعلق بحوادث هذه الحركة وتطورها هى:

أ - ما الذى يدعو الناس لأن يجتمعوا حول شخص لا شخصية له، ولا غنى، ولا جاه، ولا أسرة عريقة- فبقية أهله يعملون بالنجارة؟

ب- وما الذى يدعو لثبات الناس حوله - كما سنرى- واستعدادهم للموت فى سبيله؟

ج- وكـــيف يستطيع مثل هذا الرجل بحفنة من الغوغاء أن يهزم القوات الحكومية النظامية؟

قـــد يقال ردًا على هذه الأسئلة ان عامة الشعب كانت تترقب مهدياً لكن لماذا حدث هذا فى هذا الوقت، ولم يحدث من قبل؟

لعـــل الأوضاع التى ألت إليها الأمور فى السودان فى ذلك الوقت والتى أشرنا إلـــيها - تساعد على كشف بعض الغموض وتعطى تفسيراً لكثير من الاستفسارات السالفة.

فكراهـــية الـــناس للحكومـــة كانـــت قد وصلت إلى حد كبير، فقد اتفقت كلمة المعاصـــرين علـــى أن البغض والكراهية ضد الحكومة فى ذلك الوقت بلغ أقصاه بسبب القسوة المتناهية والعنف الذى اتبعه غوردون وهو يحاول تنفيذ سياسته لإلغاء تجارة الرقيق بالقوة.

أضـــف إلى ذلك مضاعفة غوردون للضرائب حتى - كما ذكر هو- يستنزف جـــزءاً كبـــيراً من الثروة التى يستغلها كبار التجار فى هذه التجارة المحرمة- وقد اســـتخدم لجمعهـــا أعـــنف الوسائل الوحشية حتى أن كثيرين هربوا للجبال وتركوا عبء الضرائب يتحمله كله الذين عجزوا عن مجاراة الفارين.

وقـــد عجز رؤوف باشا الذى خلف غوردون فى الحكمدارية عن التراجع إلى الطـــريق المعقـــول وقـــد عـــبر (وينجـــت) عن ذلك خير تعبير بقوله الذى أشرنا لمضمونه سابقًا:

"Gordon set the house on fire, and Raouf and Abdel kader Pashas who succeeded him could do nothing but watch the flames"[1].

1- Wingate: Op. Cit, p. 12.

أضيف لذلك فساد الموظفين الإداريين فى السودان، فهم أما منفيون لسوء ذمتهم أو لضعفهم أ، لعدم الرضى عنهم- أى أنهم شرذمة سيئه لا ينتظر منها أى عمل مثمر أو على الأقل غير مستعدين للتعاون مع الإدارة الموجودة.

كذلك فأن سلطة الخديوى والحكومة كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف خاصة بعد عزل إسماعيل، واستقالة غوردون، وتدخل الدول الأجنبية فى شئون مصر.

ورغم أن عمر الإدارة المصرية فى السودان فى ذلك الوقت كان يزيد عن نصف قرن- فإنه لم يكن لها بالسودان حزب حكومى يمكن أن يناوئ المهدى، ففكرة الحكومة التى تقوم لحفظ الأمن، والعمران الرفاهية- هذه الفكرة لم تكن واضحة فى الأذهان، بل إن الواقع يكذب هذا، وحتى إذا وجد من فهم الحكومة بهذا المعنى فلم تكن هذه الفكرة قد تعمقت فى النفوس بحيث يوجد من يضحى فى سبيلها بحياته.

أضف الى ذلك أن الحكومة لم تحاول فى السودان أن تجمع الناس حول هدف واحد واضح كهدف دينى مثلاً أو فكرة عربية أو هدف إنساني كمنع تجارة الرقيق الى غير هذا من الأهداف السامية التى تجد من يؤمن بها ويتكتل مع العاملين لتحقيقها ..

هذا ويحاول الدكتور مكى شبيكه أن يعلل لانحياز الناس للمهدى، وهو يصنفهم إلى فريقين[1]:

١- فريق المتعلمين وأتباع الطرق المختلفة التى كانت منتشرة فى السودان وهؤلاء تبعوه أولاً لأنه لم يعلن فى المبدأ عن مناهضته لطرقهم ، كما أن التجار وأرباب المال منهم دخلوا الدعوة خوفاً على أموالهم ومراكزهم الإجتماعية، بينما كانت قلوبهم معرضه عنه، كما أن أرباب الوظائف الحكومية منهم كانوا لا يريدون من التغيير إلا ما يؤدى إلى إصلاح أوضاعهم، وكانت غالبية سكان وادى النيل من هذا الفريق.

٢- فريق كان بعيداً عن العلم، وعن الطرق المختلفة، وكان أفراد هذا الفريق يصدرون فى أعمالهم الدينية عن قليل جداً من العلم بثه فى نفوسهم فقهاء القرى والبادية عن العبادات، لكنهم لم يتعمقوا معهم فى الإختلافات، هؤلاء وجدوا فى المهدى من يروى ظمأهم الطبيعى لحب النضال، فكان فى نظرهم

١- مكى شبيكه: السودان فى قرنه ص ٢٤٧.

بطــلاً يمجــدون أعمالــه وهادياً إلى دين الفطرة والبساطة - يخاطبهم بقدر عقولهــم، ويضرب لهم الأمثال بما ألفوه فى حياتهم الطبيعية، وبعد ذلك قادهم مــن نصر إلى نصر على جنود الحكومة- وكان أهل غرب السودان غالبيتهم من هذا الفريق.

ثانيًا: الاصطدام الأول مع قوات الحكومة :

أبلــغ شيخ المهدى السابق - محمد شريف - رؤوف باشا حاكم السودان بخبر المهــدى وأنه بدأ يعمل بلبلة فى الأفكار، لكن رؤوف باشا لم يهتم بالأمر فى المبدأ وظــن أن الأمــر يــرجع للحقد على الرجل لتركه أستاذه، لكن لما كثرت الأقاويل وتواتــرت الأخــبار عــن نشاط المهدى تحرك رؤوف باشا فأرسل له رسولاً هو (محمــد بــك أبــو السعود) ، وكان فى وقت ما من المتاجرين بالرقيق، لكنه ترك تجــارة الرقيق وانتظم فى خدمة الحكومة- ليستدعيه للخرطوم لمقابلة الحاكم العام، لكــن محمــد أحمد رفض المجيء، وقال "إنه هو سيد البلاد"، وكان ذلك ردًا على تذكــير أبو السعود له بالآية الكريمة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ).

فكانت إجابة المهدى (أنا ولى الأمر فى هذا الأوان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر).

فلمــا وصــل هذا الرد لرؤوف باشا- أرسل سفينة مسلحة وعليها فصيلة من الجند للقبض عليه.

وأبــرق الحكمــدار لمصر بهذه الأخبار- فكانت أول الأنباء عن هذه الحركة وجاء فى برقيته[1]:

"فــى ابتداء شهر رمضان أشيع بأنه موجود بجزيرة أبا التابعة لمديرية فاشوده بعــيداً عــن (الكوة) بمسافة ثمانية ساعات- شخص يسمى الشيخ محمد أحمد، من أهالــي (دنقلــة) من مشايخ الطرق يدعى أنه المهدى المنتظر، وبوقته عينا قاضى الكــوة وإثنيــن من العلماء لينظروا الخبر، فتوجهوا إليه وتحقق أمر ذلك الشخص واستحصــلوا على مخاطباته المحررة إلى أناس بخطه وختمه يدعوهم أنه المهدى المنــتظر وأرســلوا تلــك المخاطــبات لنا بالبوستة فبوصولها لطرفنا عينا وأبورًا وأرسلنا من طرفنا مندوبين وحررنا له جواب بالنصيحة وأن يقوم يحضر لطرفنا،

١- دفتر ٤ وارد تلغرافات معيه سنة ١٨٨١ (بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨١).

وعند وصول المندوبين سلموه المخاطبات فحرر لنا ردها بأنه هو المهدى المنتظر ومن لم يصدقه فالسيف، ولكن أوروا بأنه موجود معه نحو مائتا نفر- فقد عينا وأبورًا وبلوكين وعساكر جهادية ومدفع تحت قومندانية صاغقول أغاسى الطوبجية وأعطيناهم التعليمات اللازمة وفهمناهم بأن يجربوا كل الطرق المستحسنة لحضور محمد أحمد بدون زعزعة وان تراءى لهم عدم إمكان حضوره، وأشهر عليهم السلاح يجرى ضربه وإحضاره بالقوة الجبرية وإفادتنا عن كل ما يجروه أولاً بأول، وفى يوم الأربعاء الماضى صار قيامهم من الخرطوم إلى تلك الجهة- ولزم عرضه بالإخطار أفندم".

لسوء الحظ أساء ضباط هذه الفصيلة المرسلة التصرف فحين وصلوا للجزيرة قسموا أنفسهم إلى فرقتين كل فرقة نزلت على ساحل، وبدأت الفرقتان التقدم وسط الأحراش دون حذر، مما أتاح الفرصة لأتباع المهدى لمهاجمة جنود الفرقتين وإفنائهما.

وبالطبع عزز هذا التصرف مركز المهدى.

ثالثًا: الهجرة إلى كردفان :

بناءًا على نصيحة التعايشى- أنتقل المهدى وأتباعه للغرب لجبال تقلى، وكانت هذه بلا شك حركة بارعة أتاحت للحركة المهدية فرصة ذهبية للازدهار لأسباب:

أ - فهذه المنطقة فى أقصى الغرب بعيدة عن مركز الحكومة ونفوذها، كما أنها منطقة جبلية يسهل له التحصن فيها والإيقاع بالقوات المهاجمة له.

ب- بالإضافة إلى ذلك فهى منطقة عهدها بالحكم المصرى قريب نسبياً، فالحكم لم يستقر فيها، ولم يوطد علاقاته مع الأهالي.

ج- يقال أن المهدى فى ذلك الوقت كان متشبهاً بالرسول صلى الله وعليه وسلم فى هجرته وأذاع بين أنصاره بأنه أمر بهذه الهجرة.

أنتقل المهدى وأتباعه إلى جبل قرير جبل (ماسة) إذ أنه كان شائعًا فى السودان أن المهدى المنتظر سيظهر من هذا الجبل، وقد ترتب على وصول المهدى إلى هذه الجهات إختلال النظام فى غرب السودان، فابتدأت الفوضى تضرب أطنابها، وحدثت حوادث قتل لعمال الحكومة وموظفيها من جامعى الضرائب والجنود، فقد أدت هذه الاضطرابات إلى الاستهانة بسلطة الحكومة وممثليها.

وقـد رحـب ملـك تقلى الملك (آدم) بالمهدى وأتباعه، بل وأرسل جواسيسه لمعـرفة أخبار وتحركات قوات الحكومة، فوصل لعلمهم نبأ قيام محمد سعيد باشا مدير كردفان من الأبيض على رأس قوة كبيرة من ١٤٠٠ جندى مقتفياً أثر المهدى وأتـباعه، وقد رجع محمد سعيد باشا دون أن يفعل شيئًا وقدم تقريرًا جاء فيه "إنه اقـتفى أثـر المهدى لغاية جبال أم طلحة إحدى جبال تقلى- لكنه لما وجد أن ملك تقلـى ورجالـه يعضـدون المهدى وأن عدداً كبيراً من سكان بحر الغزال، وشكا، وأهـل كـردفان- قد انضموا للمهدى ليهربوا من دفع ما عليهم من ضرائب، وأن القوة التى معه غير مناسبة أضطر للعودة".

وقـد حاول راشد أمين بك مدير فاشوده ومعه قوة من الجنود النظاميين، ومن الشـلك- أن يتعقـب المهدى ويقضى عليه- لكن راشد بك لم يأخذ ما كان يتطلبه الموقـف مـن حيطة فقد ترك معسكره بدون أية حماية بالأشواك أو أشجار أو قوة حراسـه- وانـتهى الأمر بانقضاض جموع المهديين على القوة وفتكوا براشد بك ورجاله[١].

وأمـام هذه الهزائم المتتالية وتضاعف قوات المهدى بمن أنضم اليه من رجال القـبائل بعـد هجـرته لغرب السودان- أرسل رؤوف باشا لمصر يطلب إمدادات للتصـدى لهـذه الحـركة التى أنتشر أمرها، لكن استدعى رؤوف باشا لمصر فى مارس ١٨٨٢.

وكـان العرابـيون قد سيطروا على الحكم فى مصر، وتألفت وزاره برئاسة محمـود سـامى البارودى وكان عرابى ناظرًا للجهادية فيها، وكانوا بحاجة ماسة للجـيش، كما أنهم لم يتصوروا أن الحاميات بالسودان تعجز عن إخماد فتنه كفتنة المهدى ولذا تقرر إرسال عبد القادر باشا حلمى للسودان لتدارك الأمر[٢].

وقـد بُذلـت محاولة من جانب يوسف باشا الشلالى، وهو سودانى كان يشغل منصب مدير سنار- لكنها أيضا أخفقت فى الإيقاع بالمهدى ورجاله[٣] - وأدى هذا بالطـبع لـزيادة أتباع المهدى، كما أكتسب قوة مما غنمه من أسلحة الجنود الذين هزمهم، فأصبحت لديه أسلحه نارية، بل ومدافع، وتضاعف عدد أتباعه (الأنصار) وأتخذ من انتصاراته دليلاً على صحة دعوته[٤].

1- Slatin : Op. Cit. T.I.p. 195.

٢- ملاحظة: عبد القادر حلمى شركس تركى وليس سودانياً- كما هو شائع.

3- Slatin : Op. Cit., T. I. p. 138.

4- Ibid.: P. 201.

رابعًا: سقوط الأبيض فى أيدى أتباع المهدى :

كـان علـى عبد القادر باشا أن يواجه عدة ثورات نشبت فى أنحاء الجزيرة مؤيـده لحـركة المهـدى، وقـد استطاع أن ينتصر على ثوار الجزيرة، وأن يعيد للنفوس الثقة بعد أن تزعزعت بهزيمة يوسف الشلالى وغيره من رجال الحكومة، وحـاول عـبد القادر باشا أن يزعزع الثقة بالمهدى ويرد على حججه لوقف تيار آندفلع الناس للانضمام لأتباعه- فكلف المفتى وقاضى عموم السودان وغيرهما من رجـال الأزهر والدين بأن يؤلف كل منهم رسالة فى تكذيب دعوى المهدى والرد علـى حججـه، ونشـرت هذه الرسائل فى السودان وكان لها تأثيرها فى التشكيك بدعوته.

وكانـت أنظـار المهدى متجهة بعد ذلك إلى الأبيض، وكانت المدينة محصنه بخـنادق، وبهـا حوالى ٦,٠٠٠ جندى تحت إمرة محمد سعيد باشا حكمدار غرب السـودان، فباءت محاولات المهدى المتعددة لمهاجمتها بالفشل، بل يقال إنه قتل فى هذه المحاولات ما يقرب من ١٠,٠٠٠من أتباعه بينهم شقيقا المهدى.

ولـو استطاعت الحكومة أن تنتهز الفرصة للقضاء عليه لقضت علي الحركة قـبل أن يستفحل أمرها أكثر- لكن ظروف مصر وإرتباكها الداخلى الشديد السابق للحـركة العرابية والملازم للحركة واللأحق لها- لم تمكنها من انتهاز هذه الفرصة الذهبية.

وفـى خـتام عام ١٨٨٢ كانت قوات المهدى تحاول أن تفرض حصاراً على مدينة باره (Bara) والأبيض.

وكـان الأمـل معقـوداً علـى ما تستطيع الحكومة أن ترسله من تعزيزات للمدينتين- لكن إنتهى الأمر بتسليم (باره) فى ٥ يناير ١٨٨٣ لود النجومى وترتب علـى ذلك أن إنضمت حاميتها البالغ عددها ٢,٠٠٠ رجل بمعداتها وأسلحتها لقوة المهدى[1].

وزاد الأمـر سـوءاً فـى هذه الفترة أن الحاكم العام للسودان عبد القادر باشا حلمـى الـذى بدا أنه وفق فى القضاء على الثورة فى الجزيرة - أستدعى لمصر

١- يعطـى سلاتين تفصيلات دقيقة عن الظروف التى أحاطت بانتشار الدعوة فى دارفور وسقوط الأبيض باعتبارها المنطقة التى كان هو مسئولاً عنها.

أنظر: الفصلين الخامس والسادس من كتابه

Slatin : Op. Cit. pp. 208-257.

وأرسل بدلاً منه علاء الدين باشا - تم ذلك فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢، وباستيلاء المهدى على باره أصبح مركز حامية الأبيض حرجًا.

وقبل أن نتابع الأحداث التى تلت ذلك- نجد لزاماً علينا أن نقف لنناقش مسألة إستدعاء عبد القادر حلمى باشا من السودان فهى تحتاج لتفسير، وقد كثرت الأسباب التى قيلت لتعليل هذا التصرف.

علل البعض السبب فى هذا الإجراء إلى أن عبد القادر باشا انتقد الخديوى توفيق أمام الكولونيل استيورت (Stewart) فما كان من هذا الأخير إلا إبلاغ الأمر للخديوى، وأدى هذا للشكوك التى أُثيرت حول نواياه فى السودان.

وعلى العموم يمكن أن نعلل هذا التصرف من الحكومة المصرية بأن الحركة العرابية قد أوجدت فى نفوس الحكام الكثير من عدم الثقة والخوف ، فظنوا أن الرجل يفكر فى الإستقلال، على كل مما يدل على أنه لم تكن هناك أية أدله ضد عبد القادر باشا أنه لما أُعيد لمصر شغل منصباً هاماً فى وزارة نوبار باشا، ولا شك فى أن استيورت كان- كما تدل تصريحاته فيما بعد - من المتحمسين لفكرة إبعاد المصريين عن السودان.

ومما يدعو للعجب والتساؤل أن عبد القادر كان قد أرسل لمصر فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٢ يطلب السماح له بالنزول للمحروسة، وكان الرد عليه من الجناب العالى بالبقاء ليتم النصر على يديه، ثم فجأة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ صدر الأمر بتعيين علاء الدين باشا حكمدارًا على السودان بدلاً من عبد القادر باشا دون سبب واضح لهذا التغيير بعد النجاح الذى أحرزه عبد القادر باشا على المهديين فى الجزيرة والذى أشار إليه الخديوى نفسه فى خطابه لعبد القادر الذى أنبأه فيه بتعيين علاء الدين باشا محله، وهذا يدل على أن فى الأمر شيئاً مفاجئاً غير عادى.

وأشير هنا إلى أن التفكير إتجه - فيما بعد لعبد القادر باشا حلمى ليقوم بمهمة إخلاء الحاميات المصرية من السودان كله - لكنه أشترط عدة شروط منها عدم إعلان نية الحكومة على الإخلاء حتى لا يضعف مركزه، وقد رفض الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر ويصرفون شئونها سفره، وتقرر سفر غوردون وأنتهي الأمر بقتله فى الخرطوم كما سنوضح بعد.

وقد أقترح غوردون نفسه فيما بعد حين ضاق بالحكومة الإنجليزية لرفضها إرسال الزبير باشا لمعاونته، وبعد أن ضيق عليه المهدى الخناق فى الخرطوم وكانت (بربر) وغيرها من مدن السودان الهامة قد استسلمت للمهدى - أن يعين

الخديـــوى توفـــيق عبد القادر باشا مكانه- وحينئذ يصبح هو فى حل من أن يترك الخــرطوم بــل الســودان كله بمن فيه دون التزام بأحد، وفى هذه الحالة تستطيع الحكومـــة الإنجليزية أن تفرض رأيها- فتلزمه بالإنسحاب بمفرده وترك الحاميات والموظفين الموالين للحكومة أو بغير ذلك كما تشاء(١).

ركـــز المهدى جهوده على تشديد الحصار المضروب حول الأبيض، وقد أستمر الحصار أكثر من ستة شهور ولاقت حاميتها الكثير من الضنك، ويصف أحـــد ضباط الحامية تطورات الوضع فى المدينة المحاصرة طوال هذه المدة - فـــيذكر أنـــه فى الشهر الأخير من الحصار قلت المؤن حتى أن رجال الحامية اضـــطروا إلى أكل أى شئ يصل إلى أيديهم من لب أشجار النخيل، والصمغ، والجلود.

وقـــد كتب المهدى الى (محمد باشا سعيد) يطلب منه التسليم، لكن هذا الأخير كـــان مصراً على المقاومة، لكن حين وصلت الحالة إلى درجة اليأس عقد مؤتمرًا جمـــع فيه كبار قواده وأستقر أمرهم على أن يكتبوا بموافقتهم على التسليم للمهدى علـــى أن يعـــد بحماية أرواح رجال الحامية جميعاً، وقد وافق المهدى على ذلك- ودخلـــت قواتـــه المديـــنة فى ١٩ يناير ١٨٨٣ بعد أن كان طول الحصار قد أنهك القـــوات المدافعـــة عـــنها- وأستولت قوات المهدى على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة.

وأســـتقر المهـــدى فـــى ديـــوان الحكومـــة بالأبيض وأمر بإحراق كل الكتب والأوراق الحكومية- أما محمد سعيد باشا وباقى الضباط الكبار فقد أرسلهم المهدى إلى أماكن بعيده حيث قتلوا(٢).

ويعـــد استقرار المهدى فى الأبيض البداية الحقيقية لإقامة حكمه فقد كانت هذه بمـــثابة نقطة انطلاق لبسط نفوذه على باقى أجزاء السودان، وإثر استقرار المهدى فـــى الأبيض أصدر عدة أوامر لأتباعه توضح المبادئ التى يلزم أن يتبعوها وهذا يـــدل علـــى أن هـــذه الموقعـــة وهذا الانتصار يعتبر فعلاً مرحلة استقرار وتثبيت للحكومـــة الجديـــدة والمجتمع الجديد الذى يعتزم المهدى أقامته ووضع أسسه، وقد أشرنا سابقاً إلى خطاب المهدى إلى السنوسى الذى أرسله عقب سقوط الأبيض مع طاهـــر ود أســـحق مـــن قبيلة الزغاوه يدعوه فيه إلى أن يحتل المركز الثالث بين

1- Wingate : Op. Cit. PP. 54-55.

2- General Gordon's Journals. Vol. I PP. 166-167 and 173-175.

خلفائه الأربع، وكذلك بعد هذه الانتصار وجه المهدى خطاباً لسكان الخرطوم لنبذ الأتراك والانضمام تحت لوائه[١].

خامسًا: حملة هكس ونتائج فشلها :

كان الوضع فى مصر فى ربيع عام ١٨٨٣ غريباً، فبالرغم من أن الحكومة الإنجليزية كانت تحتل مصر، فقد أعلنت أنها لا يمكنها تقديم أية معونة لمصر فى السودان، كما أنها لا تسمح باستخدام الجيوش المصرية الجديدة التى كانت تنظم من جديد على يد ضباط إنجليز بعد حل جيش عرابى.

ومع ذلك فقد أصر (شريف باشا) رئيس الوزارة على ضرورة المحاولة من جديد فجهزت حمله بقيادة الجنرال هيكس باشا (Hicks Pasha)، وهو ضابط إنجليزي خدم فى الهند ووضعت تحت يده قوة تبلغ ١٠,٠٠٠ جندى من أنواع مختلفة من الجيوش القديمة منهم عدد كبير من جنود عرابى[٢].

وقد أرسل مع هكس باشا فى المبدأ أركان حرب من أكثر من أثني عشر أوربيًا، كما أرسل (سليمان نيازى باشا) لتكون له القيادة الاسمية على القوات المسلحة على شرط رجوعه فى كل كبيرة وصغيرة إلى مساعده الجنرال هكس، لكن حين أرسل هكس إلى السير ماليت بالقاهرة يشكو من عدم تنفيذ سليمان باشا لأوامره- سحب سليمان باشا من الخرطوم وعين حاكماً على شرق السودان، وأسندت القيادة إلى الجنرال هكس.

ورغم أن حملة هكس أعدت بعلم إنجلترا ومشورتها- فإن الحكومة الإنجليزية حاولت من المبدأ أن تتنصل من المسئولية، ففى ٧ مايو ١٨٨٣ أرسل اللورد جرانفيل برقية إلى من كان يقوم مؤقتاً بعمل السير أدوارد ماليت يقول فيها " إن حكومة جلالة ملكة غير مسئولة بحال من الأحوال عن العمليات التى تجرى باسم الحكومة المصرية فى السودان ولا عن تعيين الجنرال هكس أو تصرفاته "[٣].

1- Slatin. Op. Cit., T. I. P. 822.

٢- نفى إلى السودان عدد كبير من جنود عرابى ورجاله منهم مثلاً سكرتير عرابى (أحمد عفت عوان) وقد أقمه غوردون بأنه كان يدعو للمهدى فى الخرطوم، كما حامت حوله الشبهات فى مسئوليته عن حريق نشب فى مخزن الذخيرة فسجن لفترة.

General Gordon's Iournals. Vo. I, PP. 180-181.

٣- كرومر: بريطانيا فى السودان (تعريب عبد العزيز أحمد عرابى) ص ١٧.

لكــن كما ذكر كرومر نفسه آن مسئولية الحكومة البريطانية فيما يتصل بسير الأمــور فى مصر كانت ترجع إلى حقائق نبعت من أن هذه الحكومة تحتل مصر عسكريًا[١].

وفــى ٨ ســبتمبر ١٨٨٣ تحرك هكس باشا بحملته من الدويم صوب كردفان وقــيل إنه حدثت خلافات كثيرة بينه وبين علاء الدين باشا قبل تحرك الحملة، وأن الأهالــي فــى المناطق التى مرت بها هجروا قراهم فلم يمدوا الحملة بأية معاونه واتخذوا فى سيرهم طرقاً بعيدة عن المياه الصالحة للشرب- فقد حدث نقاش طويل حــول الطريق الذى تتخذه الحملة تجاه الأبيض- هل تتقدم مباشرة من (الدويم) إلى (باره) عن الطريق الشمالى ومنها إلى الأبيض؟ أم تتخذ طريق الجنوب؟ وهل يقسم الطــريق لمــراحل تــترك بكل حامية صغيرة تتكفل بتأمين وصول المياه والمؤن للجيش المتقدم أم يتحرك الجيش كوحدة معتمداً على الآبار التى قيل أنها متوفرة فى الطــريق؟ وكان مع الحملة أدلاء من رجال القبائل التى تقطن هذه المناطق بغرب السودان.

وأنتهــي أمــر الحملة بأن ضلل بها فى طريق وعر فى وسط غابات شيكان الكثــيفة، واســتطاعت قوات المهدى المختبئة بين الأحراش أن تحيط بالحامية وأن تحصد رجالها الذين كانت قواهم قد وهنت من السير فى طريق بالغ الوعورة.

وقد أشترك فى (معركة شيكان) التى وقعت فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ محمد أحمد المهدى نفسه مصحوباً بخلفائه عبد الله التعايشى ، وعلى ود الحلو، وشريف محمد، وكــذا الأمير يعقوب آخو عبد الله التعايشى، وأدم ود النجومى، ولم ينج من جيش هكس بعد هذه المعركة سوى ما يقرب من ٣٠٠ جندى بينما قدرت خسائر المهدى بمــا لايزيد عن ٥٠٠، وعادت باقى قواته إلى الأبيض محملة بما غنمته من أسلحة وذخائر الجيوش المندحرة[٢].

وســرت أخــبار هــذا الانتصار الساحق الذى أحرزه المهدى فى كل ربوع السودان شرقه وغربه، شماله وجنوبه من البحر الأحمر إلى واداى ومن دنقله إلى مديــرية خــط الاستواء مؤيدة بما لا يدع مجالاً للشك صحة ادعاءاته بأنه المهدى المنتظر.

١- نفس المرجع ص ١٨.

٢- يقدر وينجت خسارة حملة هكس بـــ ٩,٥٠٢ جنديًا وضابطًا.

Wingate : Op. cit, pp. 552-553.

ولذا فقد كانت هذه الموقعة بالغة الأثر فى تاريخ السودان ومصر.

ففيما يتعلق بالسودان :

فقد خلت كردفان كلها للمهدى، وترتب على هذا الانتصار أن تدفق عدد المؤيدين للمهدى، وانقطعت صلة دارفور بالخرطوم، وأضطر(سلاتين باشا) للاستسلام، ثم أستسلم (فرانك ليبتون) فى بحر الغزال أيضا[١] - أما (أمين باشا) فى مديرية خط الاستواء فقد تراجع للجنوب.

أما أثر هذه الهزيمة على مصر ذاتها :

فأقل ما يقال أنها أدت لتأجيل الجلاء عن مصر، ففى وقت حدوثها كانت مصر والدولة العثمانية والدول الأوروبية تضع أمام إنجلترا مشروعاً للجلاء، وقد وعدت الحكومة الإنجليزية بالنظر فيه، وعقد قنصل إنجلترا العام فى ذلك الوقت السير ايفلن بارنج (Evelyn Baring)[٢] اجتماعات مع الجنرال ستيفنسن قائد جيش الاحتلال لبحث هذا الوضع- لكن هزيمة هكس جعلت الخديوى نفسه يخشى من انتقال حركة المهدية لمصر أو يكون لها أتباع فيها فطلب تأجيل الجلاء.

ولاشك فى أن المرء يحتار فى تفسير الظروف التى أحاطت بهذه الحملة والأسباب التى أدت إلى ما انتهت إليه.

لكن هناك حقائق يجب إدراكها منها :

أ - إن اختيار هكس لهذه الحملة تم بمعرفة إنجلترا، بل الثابت أنه عين بمشورة السفير البريطانى فى القسطنطينية اللورد دوفرن (Dufferin) الذى ذكر بصراحة فيما بعد أن من رأيه أن اختيار هكس لهذه الحملة لم يكن اختيارا سيئًا.

ب- إن فشل الحملة يتحمل تبعته أولاً وأخيرًا القائد لا الجنود- فقد ثبت أن السبب الرئيسى لما حدث هو سوء اختيار الطريق والتخطيط السيئ للمعركة.

١- يتحدث غوردون فى مذكراته بسخرية عن الأوربيين الذين يستسلمون للمهدى ويعلنون ولائهم له.

Gordons Journals Vo. I P. 67.

٢- السير ايفلين بارنج ممثل إنجلترا فى مصر فى هذه الفترة- ولفترة طويلة - والذى أصبح فيما بعد اللورد كرومر- يصفه الكاتب والشاعر الإنجليزى (بنت١٨٤٠-١٩٢٢) صاحب الكتاب المشهور عن التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر- بأنه كان من أسرة تمارس أعمال الصيارف، وأنه من أصل هولندى وبوجه عام من عنصر يهودى. فهو ينتمى من بداية حياته لصميم طبقة الماليين الكبار فى أوربا وهو أبن عم (لورد فوريبروك الذى كان نائبًا للملكة فى الهند، وقد أشتهر بالقظاظة وكان فى تصرفاته يفتقر للتحرر من قيود الرسميات، وكان يتثبت بالحرص والسلبية اللذين يسودان عالم الرسميات، لكنه كان أداريًا ماهرًا - وقد حصل على لقب لورد فأطلق عليه أسم كرومر١٨٩٢، وقد عاد كرومر من مصر عام ١٩٠٧، ومات بالأنفلونزا عام ١٩١٧ وهو فى السادسة والسبعين من عمره.

ج- مـــا يقـــال عن الخلاف بين هكس باشا وعلاء الدين باشا وكبار رجال الجيش المصـــريين مثل حسين مظهر باشا- لا يعلل أبدًا ما أصاب الحملة من نكسة، وكذلـــك مـــا يُقال عن تخلى الأهالي عن تقديم ما كانت الحملة بحاجة إليه من أغذية ومؤن.

د- مـــا يحـــتاج لتفســـير هو لماذا تترك الخرطوم والنيل الأبيض وتسير الحملة لدارفـــور، وكيف يضلل مرشد(عبد الرحمن بك بانقا) بحامية كاملة فى مسالك وعـــرة لا مـــاء فـــيها؟ ولاشك فى أنه كان بين جنود هذه الحامية من يعرف الطريق السليم- فالتجريدة حدثت بعد حكم مصر السودان بستين عامًا كاملة.

والعجيـــب أن السير (ريجنالد ونجت) أثناء تجواله فى مديرية كردفان عام ١٩٠٥ (بعد مأساة جيش هكس بآثنين وعشرين عامًا) زار المكان الذى وقعت فيه هذه المعركة وكتب يقول:

"قمت بزيارة ساحة القتال التى قضت فيها عصابات الدراويش عام ١٨٨٣ علـــى المأســـوف عليه الجنرال هكس وقواته قضاءًا تامًا - فوجدت أنه توجد بـــركة مـــاء عظـــيمة علـــى بعد ميل واحد من المكان الذى هلك فيه الجنود العطـــاش، مما يدل على أنهم جهلوا مكانها كل الجهل .. إن هذه الساحة تقع وسط غابة عظيمة على بعد ثلاثين ميلاً جنوبى الأبيض، ولا أتردد فى القول بـــأن النتيجة لم تكن لتتغير لو أن قوة أكثر عدداً وأوفر كفاية من قوة هكس قد أُرسلت لإنقاذ الأبيض .. ومن الواضح أن حكومة ذلك الوقت لم تدرك حقيقة الحالـــة، ولا قـــدرت المصاعب العظيمة التى تترتب على سير قوة كبيرة فى مـــثل هذه الأصقاع، ولا شك آذن أن إرسال الحملة فى مثل هذه الظروف لا تفسر بأنه عمل بالغ السخف"[١].

هـ- ما يحتاج حقاً لتفسير هو: لماذا أهمل رأى(عبد القادر حلمى باشا) فى التركيز لا التشتيت، أى جمع القوات لا بعثرتها، وقد أثبتت الأحداث السالفة صحة هذا الرأى[٢]؟.

١- كرومر: بريطانيا فى السودان ص ٢١.

ملاحظة:

وقعت موقعة شيكان فى محرم، ويذكر غوردون فى يومياته أنه سمع أن المهدى لا يحارب فى محرم لكنه أجبر على ذلك بسبب تقدم جيش هكس لمحاربته.

General Gordon's Journals. Vo. I pp. 288 and 304.

٢- أشار غوردون فى يومياته إلى أنه لو بقى هكس فى الخرطوم ولم يتورط لحملات فى فيا فى كردفان لأتعب المهدى ولما أحتاج الأمر لإرسال غوردن بعد ذلك.

المهم أن الحملة أصيبت بنكبة من النكبات الإلهية التى لا يمكن تفسيرها. وكانت آثارها كما أوضحنا عميقة سواء فى تاريخ السودان نفسه أو فى تاريخ مصر.

سادسًا: الثورة فى السودان الشرقى :

عيــن المهدى عثمان دقنه الذى كان فيما مضى من تجار الرقيق فى منصب أميراً على شرق السودان، وأذاع بياناً حث فيه أهالى وسكان السودان الشرقى على الانضـــمام تحت لواء الدعوة والعمل فى صفوف القوات المهدية تحت قيادة عثمان دقنه ضد الجيوش التركية[1].

وفــى أغســطس ١٨٨٣ كانت الثورة قد انتشرت فى شرق السودان، وأرسل عــثمان دقنه لحامية سنكات (Sinkat) التى كانت تحت إمرة ضابط مصرى شجاع (توفــيق بــك) وإلى حامية سواكن التى كانت تحت إمرة سليمان باشا نيازى الذى كان مع الجنرال هكس وسحب وعين حاكماً على شرق السودان- يطلب منها باسم المهدى التسليم له.

وقــد رفضــت الحاميات هذا الطلب، واستطاع توفيق بك أن يوقع بالدراويش الذين هاجموا سنكات ويكبدهم خسارة فادحة، لكن استطاع الدراويش أن يوقعوا قوة أرســلها سليمان باشا حاكم سواكن لإنقاذ سنكات وأخرى أرسلت من سواكن أيضاً لمعاونـــة حامـــية طوكر التى كانت تطوقها قوات الدراويش، كما قضى الدراويش على قوة كبيرة أخرى ٦٠٠ سودانى جئ بهم على عجل من مصوع لإنقاذ طوكر.

وهكــذا أصـــبح الأمر يتطلب إجراءات سريعة أخرى لإنقاذ الوضع فى هذه المنطقة الهامة- شرق السودان- التى تعتبر الواجهة التى يتصل بها السودان بالعالم الخارجى.

ولما رفضت الحكومة الإنجليزية استخدام الجيش المصرى الجديد الذى نظمه الســير آفليــن وود (Sir Evelyn Wood) بعد تسريح جيش عرابى- لم يكن أمام

١- عثمان دقته من أصل تركى، هاجر أجداده من القسطنطينية منذ ما يقرب من ٣٠٠ عام لكنهم اندمجوا مع قبائل الهدندوه وتصــاهروا معهم- وكان عثمان وشقيقه أحمد من الذين أضيروا نتيجة لقرارات تحريم تجارة الرقيق- وقد كان عثمان على جانب كبير من الدهاء والكفاءة- وقد وضع كل خبراته ومؤهلاته فى خدمة المهدية.

عن تاريخ عثمان دقنه أنظر:

Wingate : Op Cot.,P. 92.

الحكومـــة المصـــرية الا قـــوة الجندرمة المصرية (فصائل تركية وجركسية كانت تســتخدم كقـــوة بوليســـية) برئاسة الجنرال فالنتين بيكر الذى كان رئيساً للبوليس المصرى[١].

وقد فكرت الحكومة المصرية فى أن ترسل مع هذه القوة لسواكن (الزبير باشا رحمـــت) لأنه يفيد فى قيادة البدو وفى إجراء المفاوضات مع القبائل الضاربة حول طـــريق بربـــر - سواكن وغيره من الأماكن هناك، وكان الجنرال بيكر يرغب فى الانتفاع بخبرة ونفوذ هذا السودانى الكبير، لكن الحكومة الإنجليزية - تحت ضغط (جمعـــية مقاومة الرقيق) - رفضت إرسال الزبير باشا، كما رفض الزبير باشا أن يعمل تحت إمرة الجنرال بيكر.

وكانـــت قوات بيكر - وقت مغادرتها القاهرة - تتكون من ٢٠٠٠ من المشاة، ٥٢٠ مـــن الفرســـان بالإضافة إلى ١٠٠ من المتطوعين الأوربيين منهم عدد من الضباط الإنجليز.

والتحمت القوة التى كانت تحت إمرة بيكر وهى فى طريقها إلى طوكر لإنقاذها مـــن الحصار - مع الدراويش فى يوم ٥ فبراير ١٨٨٤ فى مكان قريب من آبار التب (El Teb)، وانتهـــت المعـــركة بقتل عدد كبير من جيوش بيكر وفرار الباقين (قدروا بأقل من ١٤٠٠) إلى ترنكيتات (Trinkitat) حيث عاد بهم بيكر أدراجه إلى سواكن، وغنم الدراويش فى هذه المعركة الكثير من المعدات الحربية[٢].

حـــدث هذا وكان غوردون فى طريقه إلى الخرطوم لتولى مهمته الجديدة التى سنتحدث عنها فيما بعد.

١- فالنـــتين بـــيكر - هو أحد الأخوة الصغار للمكتشف بيكر، وكان ضابطًا فى سلاح الفرسان الإنجليزي وحارب فى جنوب أفريقـــيا والقـــرم لكنه أدين بتهمه أخلاقية مع فتاه فى إحدى مركبات السكة الحديد وحكم عليه بالغرامة والسجن عامًا وفصل من الخدمة فى الجيش وبعد أن بارح السجن وصل تركيا حيث عمل كجندى مرتزق فى الحرب ضد روسيا وأصبح حاكماً لأرمينيا عام ١٨٨٢ - ثم رحل إلى القاهرة ليتولى شرطة بلوكات النظام الحديثة التكوين.

ملاحظة :

يـــتهكم غـــوردون على إرسال رئيس البوليس (بيكر) وليس القائد العام للجيش (وود) إن المسألة - كما يذكر - كانت تخص الجيش وليس البوليس.

General Gordon's Journals Vo. I P. 209

٢- يلوم غوردون فى مذكراته الحكومة الإنجليزية لعدم تدعيمها قوات بيكر - وقد شعر بنتائج هزيمة بيكر على الخصوص حين نجـــح الدراويـــش فى الاستيلاء على بربر وذكر أنه لو أن بيكر أعطى القوة الكافية لأمكن البقاء على طريق بربر - طوكر مفتوحاً ولما هزمه الدراويش واستولوا على أسلحتها التى ساعدتهم فى فتح بربر.

أنظر : General Gordon's Journals Vol. I., PP.207-206.

ولما كانت إنجلترا تقدر أهمية الموانى الواقعة على البحر الأحمر وكذا أهمية طريق (بربر- سواكن) بالنسبة لها - فقد قررت أن تعهد لأحد رجال البحرية للدفاع عن سواكن، فعهدت فى ٦ فبراير ١٨٨٤ للأميرال هيويت (Admiral Hewett) للقيام بهذه المهمة، كما وافقت إنجلترا على إرسال تجريده قوامها ٤٠٠٠ جندى بقيادة السير جيرالدجراهام (Sir Gerald Graham) ووصلت هذه التجريدة إلى سواكن فى ٢٧ فبراير ١٨٨٤[1].

ويرجع اهتمام إنجلترا بموانى البحر الأحمر السودانية لسببين:

١- أهمية هذه المنطقة المواجهة لعدن، ومداخل البحر الأحمر لها.
٢- أهميتها بالذات فى ذلك الوقت الذى نشطت فيه حركة تقسيم أفريقيا.

وقد استطاع الجنرال جيرالدجراهام أن يوقع الهزيمة بالدراويش فى التب فى ٢٩ فبراير ١٨٨٤- فى نفس المكان الذى هزم فيه بيكر من قبل، ووجه جراهام نداءًا للثوار للخضوع وخلع الطاعة لعثمان دقنه - لكن لم يسفر هذا النداء عن نتيجة، ورغم أن جراهام استطاع أن يوقع بالدراويش هزيمة ثانية فإنه لم يستطع إنقاذ المدن المحاصرة، وكل ما أسفرت عنه حملته هو تعطيل احتلال الدراويش للثغور البحرية وهذا ما كان يهم إنجلترا فى ذلك الوقت[2].

وفى هذه الأثناء كانت تدور مفاوضات لتصفية الممتلكات المصرية فى هذه الجهات- وكما سنرى أن الدول الاستعمارية ستقتسم هذه الممتلكات.. فقد كانت إرتريا من نصيب إيطاليا، وتاجورا من نصيب فرنسا، وهرر من نصيب أثيوبيا، وزيلع والموانى المجاورة لها من نصيب إنجلترا.

سابعًا: فكرة الانسحاب من السودان :

فكرت مصر فى طلب المساعدة من الدولة العثمانية، ولم يكن فى هذا الاتجاه ضير، فمصر ولاية عثمانية، وقد أعانت تركيا مرارًا فى حروبها- أخرها الحرب الروسية (١٨٧٦-١٨٧٧) ، وقد عرض الأمر على إنجلترا، وكان رد إنجلترا الذى أرسله اللورد جرانفيل فى ١٣ ديسمبر ١٨٨٣ برقيا إلى السير أيفلين بارنج (كرومر) الذى أصبح ممثلاً عامًا لإنجلترا فى مصر منذ ١٨٨٣ والذى- كما يقول هو- أصبح المسئول الأول عن الشئون الداخلية فى مصر كما يلى:

1- Wingate: Op. Cit. P. 117.

٢- بلوم غوردون على الحكومة الإنجليزية أنها بطيئة الحركة وحركتها تأتى بعد الوقت المناسب فما قامت به مثلاً فى السودان الشرقى فى مارس كان أجدر بها أن تقوم به فى فبراير (يقصد دعم حركة بيكر).

"إن حكومة جلالة الملكة لا تنوى استخدام قوات بريطانية أو هندية فى السودان، ولا مانع لديها من استخدام قوات عثمانية بشرط أن تدفع الحكومة التركية نفقاتها، وأن تقتصر مهمة هذه القوة على السودان وحده وتكون قاعدتها سواكن، فباستثناء ما يتخذ من وسائل لسلامة انسحاب الحاميات فإن حكومة جلالة الملكة لا تستطيع الموافقة على زيادة أعباء الخزانة المصرية بما ينفق بإسراف فى عمليات حربية لا تفيد مصر حتى بفرض نجاحها، إن حكومة الملكة ترى أنه على وزراء الخديوى أن يقرروا سريعاً ترك جميع المناطق جنوبى أسوان أو وادى حلفا على الأكثر، وأن يهيئوا أنفسهم للمحافظة على مصر والدفاع عنها وعن موانى البحر الأحمر"[١].

هذا على أن الاشتراطات الإنجليزية فيما يتعلق باستخدام قوات عثمانية كانت تعنى إحباط هذه الفكرة نهائياً- فالمعروف أن حكومة السلطان كانت فى ذلك الوقت مفلسة، فكيف يتبرع السلطان بالحملة ونفقاتها؟ ، كما أن إنجلترا أحبطت المشروع بوسائلها الأخرى.

وقد عبر أيفلين بارنج (كرومر) نفسه عن ذلك فذكر "إن موافقة الحكومة البريطانية على استخدام الجنود الأتراك كانت جبرية ومشروطة بشروط مستحيلة التنفيذ "[٢].

وكان من رأى إنجلترا أنها تشير على مصر بالإنسحاب من السودان، وضغطت إنجلترا بمختلف الوسائل على الحكومة المصرية لتحقيق ذلك، فكان رد شريف باشا رئيس الوزراء الذى سلم للمعتمد البريطانى يوم ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ يتلخص فى:

١- إن الانسحاب مستحيل لأنه لغاية مديرية خط الاستواء هناك جاليات مصرية، وحاميات مصرية قدر عددها فى مختلف إنحاء السودان بـ ٢٠,٠٠٠ جندى خلاف عائلاتهم والجاليات الأوربية والعثمانية واليونانية التى استقرت بالسودان فى ظل الإدارة المصرية وما كفلته هذه الإدارة من نظام، وأمان واطمئنان- فكيف يترك هؤلاء لأيدي المهدى وأتباعه؟

٢- كيف تترك حكومة مهامها لغير قوة معينة؟ فلو أن حكومة وطنية نظامية تتسلم مقاليد الأمور لهان الأمر- لكن كيف تترك البلاد وأهلها ومن أستوطنها

١- كرومر : مرجع سابق ص ٢٨.

٢- كرومر : نفس المرجع ص ٣٤.

لعوامــل الفوضى، وقد ذكر كرومر نفسه "إن الرأي العام الإنجليزي أعلن أنه يحمل الحكومة البريطانية مسئولية عودة السودان إلى الهمجية"[١].

٣- إعــلان الرغبة فى التخلى سيضعف مركز الحاميات المنسحبة المبعثرة حاليًا فــى جميع إنحاء السودان- فمن الذى سيقف إلى جانب حكومة تعلن صراحة أنهــا منسحبة لاتكون لها علاقة بالسودان- فالأمر سيجعل كل القوى منحازة للجانب الأخر- وهذا ما ثبتت صحته حين جاء غوردون وأعلن ذلك.

٤- إخلاء شرق السودان، ودنقله سيجعل مهمة الدفاع عن مصر نفسها شاقة.

ولمــا ردت الحكومة الإنجليزية على الخديوى توفيق بأن الحكومة التى لا تقــبل نصــيحة ممــثل إنجلترا فى المسائل الهامة يجب أن تستقيل- أضطر شــريف باشا للاستقالة فى ٧ يناير ١٨٨٤ وتولى نوبار الوزارة، وقبل فكرة الانسحاب.

والجديــر بالذكــر أن ايفليــن يارنج (كرومر) كان يرى أنه لا مجال لإقناع شــريف باشا بسياسة الانسحاب من السودان بل إنه كان يخشى أنه لا يوجد وزير مصرى يقبل هذا الوضع- ولذا فقد أرسل إلى اللورد جرانفيل قبيل قبول نوبار باشا للــوزارة ولأوامر إنجلترا يقول: "إن الحكومة البريطانية عليها أن تستعد لمواجهة مــثل هــذه الحالــة المحــتملة- أى عدم تحمل وزير مصرى تبعة الانسحاب من السودان- بتعيين وزراء إنجلترا بصفة مؤقتة"[٢].

وكان رد اللورد جرانفيل على هذه البرقية من ممثل إنجلترا بمصر:

"طالمــا كــان الاحــتلال قائماً، وجب أن تكون نصائح حكومة جلالة الملكة مطاعة فى المسائل التى تمس آدارة مصر وسلامتها، وعلى الوزراء والحكام تنفيذ النصــيحة أو الاســتقالة مــن مناصــبهم- فأما تعيين وزراء إنجليز فإن الحكومة البريطانــية لا توافــق عليه بتاتاً، وترى من المحقق الاهتداء إلى مصريين ينفذون أوامــر الخديوى تحت إرشاد بريطانيا- هذا وأرجو أن تثق بأن الوزارة البريطانية ستؤيدك كل التأييد"[٣].

أمــا عــن قبول نوبار تأليف الوزارة وسياسة ترك السودان- فقد ذكر أيفلين بــارنج (كرومــر)- بصــراحة أنــه تعمــد إذاعة أنباء عزمه على تعيين وزراء

١- كرومر : مرجع سابق ص ٢٣.

٢- كرومر : المرجع السابق ص ٢٩.

٣- نفس المرجع ص ٣٠.

بريطانييــن فى حالة عدم قبول أى زعيم مصرى الوزارة بالشروط السالفة- فكانت النتــيجة أن الهلــع أستولي على الخديوى وأرسل فى طلب نوبار باشا وأبلغ ايفلين بارنج (كرومر) بأن نوبار وافق بإخلاص على سياسة ترك السودان بأكمله[١].

ثامنًا: إرسال غوردون للسودان :

شارلس غوردون (C. Gordon) كما نعلم له معرفة سابقة وتامة بالسودان فقد كان حاكماً لمديرية خط الاستواء، وحاكماً عاماً للسودان[٢].

وقصة إرسال غوردون للسودان وفشله فى مهمته بعد أن قضى فيه ما يقرب مــن عام مهمة، لأنه فى هذه الفترة وفى غضون هذه الأحداث بذرت بذور السياسة الإنجليزية المتعلقة بالسودان- إذ قررت إنجلترا فصل السودان عن مصر على آلا تعلن هذه السياسة آلا بعد مده طويلة.

ولعلــنا نتســاءل- إذا كانــت إنجلترا قد أستقر رأيها على فصل السودان عن الإدارة المصــرية - فلمــاذا لم تعلن ذلك فى حينه، وبقى هذا الأمر ما يقرب من ثلاثيــن عامــاً حيــن حققــت إنجلترا أهدافها بإبعاد الجيش المصرى والموظفين المصريين من السودان؟.

لعل ذلك يرجع لأسباب نجملها فيما يلى:

١- عدم فصل السودان يبرر بقاء إنجلترا بمصر.

٢- عــدم إعلان هذا الفصل يعطى ذريعة أمام الدول الاستعمارية الأخرى - فكل مشــروع أوربي آخر غير بريطاني لامتلاك مناطق فى السودان على اعتبار أنهــا أراضــى بلا حكومة كان يرد عليه بأن هذه رغم أنها أراضى من غير حكومة نظامية حاليًا لكنها أراضى مصرية لها صاحب- وقد استخدم هذا الرد لأبعاد الفرنسيين والبلجيكيين والإيطاليين والأحباش.

٣- عــدم إعلان الانفصال فى ذلك الوقت أتاح القرصة لاستغلال رءوس الأموال المصــرية والجنود المصريين والموظفين المصريين فى بناء حكومة نظامية عقب هزيمة المهدى - فلما تم كل هذا وأصبح وجود المصريين غير مرغوب فيه أعلنت نية إنجلترا الحقيقية فى أن يخلو الجو لها فى السودان. بالطبع كان أشــرف للإنجليز لو أنهم أعلنوا عن نياتهم الحقيقية من المبدأ - لكن السياسة الاستعمارية لا تقيم وزناً للشرف.

١- نفس المرجع ص ٣١.

٢- عن تاريخ حياة غوردون انظر : عصمت زلقو: مرجع سابق.

فيما يتعلق بغوردون فالصورة التى ترسمها له المراجع الأجنبية- هى أنه رجل متدين، يسبح فى أوهام التصوف ويحلم بالآخرة والدين، لكن رغم أن هذه الصورة صحيحة إلى حد كبير فوراء هذه الصورة هو رجل فيه دهاء ومكر وله مطامع شخصيه، كما آن شخصيته المتقلبة كانت مثار كتابات متناقضة من بعض الكتاب، فالكاتب (لايتون ستراتش) يصفه "بأنه سكير تقى يفطر على البراندى والصودا- تعتريه أحيانا نوبات اكتئاب سوداوى"، على آن كثيرين يرون أن هذا الوصف فيه الكثير من القسوة والبعد عن الصواب، لكن غوردون نفسه على كل حال عبر عن عدم استقراره بقوله "ما من رجل فى الدنيا أكثر تغيرًا منى"[١].

أما سير بارنج (كرومر) فيصفه "بأنه أهوج يغير آراءه بسرعة فائقه"، ولعل هذا هو السبب فى أن الحكومة الإنجليزية أرسلت معه الكولونيل ستيوارت (Stewart) الذى قال عنه غوردون متهكمًا "إنهم أرسلوه معى ليكون مرضعتي التى تروضني"، وقد ذكر السير بارنج (كرومر) إنه وصل به الأمر إلى أنه كان يصله خلال النهار الواحد وهو فى الخرطوم من عشرين إلى ثلاثين برقية، وما يصل منه ليلاً لم يكن من اليسير التوفيق بينه وبين ما يصل فى الصباح، وأنه أصبح لا يجد متسعاً من الوقت لدراسة هذه الغوردونيات"[٢].

وقصة اختياره لكى يتولى تصفية حساب مصر فى السودان لم تكن كما يقال- من تأثير الرأى العام الإنجليزي على الحكومة فحسب، بل لعل غوردون نفسه - كما نستنتج من تصرفاته - لعب بمهارة دور الإيحاء بأنه هو رجل الموقف ليختار لهذه المهمة، ففى وقت اشتداد الحوادث أختفي عن إنجلترا وسافر لبيت المقدس وشغل نفسه بأن يطبق دراساته الدينية على الطبيعة، لكنه أثناء إقامته فى القدس أتصل بليوبولد ملك بلجيكا وهو صاحب المشروعات الاستعمارية المعروفة، وقيل إن ليوبولد كان يفكر- بالإضافة لاستخدام الرحالة ستانلى (Stanley) فى الاستعانة بغوردون وخدمته وأسمه فى تنظيم الإدارة فى الكونغو[٣].

١- من أحسن من كتب عن مهمة غوردون فى السودان كتاب:

Allan: Gordon in the sudan.

فعلى الرغم من أنه يتحيز لغوردون إلى حد كبير- لكنه يعتمد على عدد كثير من الوثائق المنشورة وغير المنشورة - كذلك أنظر المقدمة الطويلة التى قدم بها (Egmont Hakc) لمذكرات غوردون المنشورة فى عام ١٨٨٥ فى مجلدين.

٢- كرومر- مرجع سابق ص ٦٨، ٦٩.

3- The Journals of Major-Gen. Gordon Vol. I, P. 50.

فاتصـــال غوردون به يظهره بمظهر المرغوب فى الاستفادة من خدماته، ولذا بدأت إنجلترا تفكر فى أنها هى الأولى برجلها.

وبعـــد فترة من غياب غوردون عاد لإنجلترا، وفى وسط هذا الجو المشحون بالتأثـــيرات أشـــار كثـــيرون ومنهم (صموئيل بيكر) الذى سبق غوردون فى إدارة مديـــرية خـــط الاستواء- على الحكومة الإنجليزية بإرسال غوردون للسودان، وقد كتـــب بـــيكر فـــى أول يناير (١٨٨٤) رسالة لجريدة (التايمز) يقترح فيها إرسال غوردون للسودان.

هـــذا ولما عرض الأمر على الحكومة المصرية اعترضت بأن حركة المهدى حـــركة مصطبغة بصبغة إسلامية دينية، فإرسال حاكم غير مسلم فى هذه الظروف يقوى الحركة.

وقـــد أرسل السير بارنج (كرومر) فى ٢ ديسمبر ١٨٨٣ إلى اللورد جرانفيل برقيه يقول فيها:

"تعـــارض حكومة مصر بشده فى استخدام غوردون، وتقوم معارضتها بصفة رئيســـية على أنه ما دامت حكومة السودان دينية، فإسناد القيادة إلى مسيحى يؤدى إلـــى تغيير نفوس القبائل على ولائها وأرى من الحكمة عدم الضغط عليها فى هذا الشأن"(١).

وكـــان مـــن رأى الحكومة المصرية إرسال عبد القادر باشا الذى كان حاكماً عامـــاً للســـودان- لكـــن لم تأبه إنجلترا بهذا الاعتراض فقد قرر مجلس الوزراء الـــبريطانى فـــى ١٨ يناير ١٨٨٤ إرسال غوردون للسودان ورحل غوردون من إنجلترا فى نفس الليلة.

على أن السؤال الذى يقفز للذهن لأول وهله هو :

ما شكل مأمورية غوردون؟

لقـــد حدث فى الحقيقة تخبط كثير فى تحديد هذه المأمورية وتعددت الآراء والأقـــوال بإزاء المهمة التى كانت موكولة إليه خاصةً بعد موت غوردون فى الخـــرطوم، علـــى أن غـــوردون نفسه لم يثبت على رأى واحد فى تحديد كنه مأموريـــته حـــتى أن خططـــه كانت تعارض بعضها البعض الآخر بين لحظه وأخرى.

١- كرومر: مرجع سابق ص ٦٢.

فقـد ذكر السير بارنج (كرومر) أن غوردون عرض خمس خطط متعارضة فيما يتعلق بمهمته ومستقبل السودان فى فتره لا تتجاوز تسعه وثلاثين يومًا[١].

١- ففى ١٨ يناير ١٨٨٤ حين غادر لندن كانت مهمته- بناءًا على التعليمات التى أملاهـا هـو بنفسه - مجرد موافاة لندن بتقارير عن أفضل الوسائل لتحقيق الانسحاب من السودان، أى مجرد الرؤية وإرسال تقارير وتوصيات[٢].

أى أن مهمته كما جاءت فى التكليف الصادر إليه مجرد أن يقدم النصيحه (Only to advise) علـى أن تكـون اتصالاته بممثل إنجلترا فى مصر السير بـارنج، وقد أضيفت جمله للتكليف الصادر له تعنى أن يقوم أيضًا بما قد تعهد إليه الحكومة المصرية من مهام، والتى نكلفه بها عن طريق بارنج[٣].

"From the British Government to Gordon You will consider yourself authorised and instructed to perform such other duties as the Egyptian Government may desire to entrust, to you and as may, be communicated to you by E. Baring".

٢- وفـى ٢٤ يـناير غير آرائه- فلم يعد يقبل آن يكون مجرد مستطلع ومراسل يرسـل التقارير، وإنما أراد آن يعطى وظيفة(حاكم عام السودان)، وأن تكون مهمته ذات صبغه تنفيذية - فيعطى سلطة تدبير شئون مستقبل السودان وذلك بأن يقوم بتسليم البلاد إلى ذريات السلاطين السابقين الذين حكموها قبل امتداد الإدارة المصرية أيام محمد على.

والأفكار التى جالت بذهن غوردون بهذا الخصوص يمكن تلخيصها فيما يلى:

أ - فصل مديرية خط الاستواء وضمها إلى ممتلكات الملك ليوبولد بالكونغو، وقيل أن غـوردون برر فكرته هذه بأن إبعاد السودان العربى عن السودان الزنجى هـو خير وسيله لمحاربة الرق، ونشير هنا إلى أن غوردون فكر فى فتره من الفـترات فى آخذ المهمات المخزونة فى مخازن الحكومة بالخرطوم والذهاب

١- كرومر : نفس المرجع ص ١١٣.

٢- ملاحظة :

يشـير شقيق غوردون فى مقدمة مذكراته إلى أنه لم يكن فى نية غوردون الذهاب للقاهرة لكنه كان ينوى الذهاب لسواكن ومـنها لبربر وأن تغيير طريقه ومجيئه للقاهرة جاء بناء على دعوة وإلحاح السير أيفلن بارنج وهذا الأمر ترتب عليه مقابلته لخديوى وتعينه حاكماً للسودان.

3- Egmont Hake : op. Cit. P. 25.

إلـــى المديرية الاستوائية وبحر الغزال، واعتبار هذه الجهات تحت حكم ملك بلجيكا، وأرسل برقيه فى ٩ مارس ١٨٨٤ للسير بارنج (كرومر) بذلك، لكنه حذر من السفر جنوب الخرطوم(١).

ب- غرب السودان يترك لبقايا بيوتات الإمارة القديمة.

ج- الحواضـــر الحديثة مثل الخرطوم، بربر، وكسلا- أصبح من الصعب الرجوع بها للحالة القبلية السابقة.

هذا وقد اصدر الخديوى فى ٢٦ يناير ١٨٨٤ أمرًا بتعيين غوردون حاكمًا عامًــا للســودان، كما وجه نداءاً لأهالي السودان بطاعته، وأمراً أخر بالتنويه بنية الحكومة فى الانسحاب وجاء فيه:

إن مهمـــته هـــى إخــلاء السودان وسحب الحاميات المصرية والموظفين وترحـــيلهم هم وممتلكاتهم إلى مصر، وإقامة حكومات لإدارات أقاليم السودان المختلفة - أى إعادة الاستقلال لعائلات السلاطين والحكام السابقين- وهذا هو النص الإنجليزي لهذا الأمر(٢):

From the Khediwe to General Gordon Excellency,

You are aware that the object of your arrival here and of your mission to the Sudan is to carry into execution the evacuation of those territories, and to widraw out troops, civil officials, and such of the inhabitants, together with their belongings, as may wish to leave for Egypt. We trustthat your Excellency will adopt the most effective measures for the accomplishment of your mission in this respect, and that after completing the evacuation, you will take the necessary steps for establi-shing an organised Government in the different provinces of the Sudan, for the maintenance of order, and the cessation of all disasters and incitement to revolt.

We have full confidence in your abilities and tact, and are convinced that you will accomplish your mission according to our desire.

1- General Gordon's Journals Vol. I, P. 195.

2- Egmont, Hake : op. cit., P. 28.

ويعلق وينجت على هذه الأفكار التى جالت بالأذهان بقوله"إن هذا يعنى أن غـــوردون قد آخذ طريقه للخرطوم لكى يحطم كل القواعد والنظم التى ساهم هو فى وضعها، ولكى يثبت أركان تجارة الرقيق التى خاض غمار العديد من الحـــروب لوضع حد لها، ولكى- إذا تيسر له ذلك- جمع الخراف المشتته فى جميع أنحاء السودان ليقودها إلى وطنها الأصلي"(١).

هـــذا وقد أعطى غوردون حرية اختيار الوقت المناسب لإعلان ذلك – أى نية إخلاء السودان.

٣- وفـــى ٨ فبراير أرسل غوردون مذكرة من (أبو حمد) يعترف فيها بأن الناس مازالوا يعتبرون الحاكم بالقاهرة كخليفة للسلطان، ويتطلعون بجزع إلى مسألة انفصـــالهم عـــن مصـــر انفصالا كاملاً – ولذا يقترح ما سماه(برنامج للجلاء الجـــزئى ولـــيس الهجـــرة من السودان كلية) بحيث تحتفظ الحكومة المصرية بســـلطة أســـميه ويحـــق تعيين الحاكم والمديرين وتكون بمثابة هيئه استئنافيه لأنه- كما قال- يهيج جزعاً من فكرة ارتداد بلد بذرت فيه بعض بذور المدنية إلى البربرية والفوضى.

ونشـــير هـــنا إلى أنه ظل يلح فى إرسال الزبير باشا ليكون حاكماً عاماً على الســـودان يحكم أكثر أجزائه باعتباره تابعاً للحكومة المصرية مع إعطائه قدراً من المـــال ليـــبدأ به مهمته إلى جانب هبه سنوية مقدارها مائة آلف جنيهاً ويستمر فى دفعها طالما كان سلوكه مرضياً، وذلك لأنه – فى رأيه – له نفوذ محلى يفوق نفوذ المهـــدى كثـــيرًا، ولأن موقفـــه يخالف موقف غوردون الذى أعترف بأنه موقف ضعيف ناشئ من أنه أجنبى ومسيحى ورحاله مسالم(٢).

هـــذا مـــع أن غوردون كان فى أثناء رحلته من إنجلترا إلى مصر قد توجس خفـــيه من عدوه القديم (الزبير) وتوهم أنه ربما كان على أتصال بالمهدى، فأرسل إلـــى (جرانفـــيل) يقترح فرض رقابه على الزبير ونفيه إن أمكن إلى قبرص- لكن بعـــد وصـــوله لمصـــر، وبعـــد المقابلـــة الـــتى تمت بينه وبين الزبير فى منزل الســـير(أيفلينـــبارنج) وبحضور نوبار باشا والكولونيل (ستيوارت) غير رأيه، فبدلاً من المطالبة بمراقبة الزبير أو نفيه ألح على اصطحابه لضمان نجاح مهمته، وكتب لبارنج يقول "لا أستطيع أن أفسر بدقه سر شعورى نحو الزبير، ولا لماذا أومن أن

1- Wingate, op. cit., P. 109.

2- The Journal of Major Gen. Gordon, Vol. I. P. 104.

ذهابــه معى كفيل بتسوية مسألة السودان لمصلحة حكومة صاحبة الجلالة ومصر، وأنـــا على استعداد لتحمل مسئولية هذه التوصية".. وكان رد بارنج عن هذا :"لست أركن إلى آراء تقوم على مشاعر خفيه"[١].

لكن غوردون بعد سفره للسودان ظل يلح على بارنج فى أهمية إرسال الزبير، بل أخذ يفند الاعتراضات التى برر بها عدم إرساله.

فعـــن اعتراضـــات الحكومـــة البريطانية بأن الزبير قد يتفق مع المهدى كرر غوردون أنه ليست هناك آية فرصه لاتفاق الزبير مع المهدى، فإذا كان المهدى فى الســـودان قوة(البابا) فسيكون للزبير قوة السلطان، اى مضاعفة نيران الثورة، فلعل ذلك يرجع لأنه يأمل فى اختياره هو لإطفائها.

وأمـــا مـــن جهة تأثير عودة الزبير على (الرق) فقد أجاب غوردون بأنه من المؤكـــد أن خروج مصر من السودان سيبعث الرق من جديد، إلا آن إرسال الزبير لا يؤثر فى المسألة من أية ناحية من نواحيها[٢].

أمـــا عـــن احـــتمال خطـــر معاداته لمصر- فالاحتمال موجود ولكنه ضئيل، وأفضـــل أن نتعرض لمواجهة هذا الخطر من مواجهة الأضرار المحققة التى تنتج من وراء الانسحاب بدون إعداد ما يلزم لحكم السودان فى المستقبل.

وذكر آنّ خطة إرسال الزبير إلى الخرطوم مع منحه إعانه مالية هى من حيث المـــبدأ نفس السياسة التى أقرتها الحكومة الهندية نحو (أفغانستان) والقبائل التى فى الحـــدود الشـــمالية العربـــية، فحكومة جلالة الملكة تؤيد أمير أفغانستان تأييدًا أدبيًا ورتبت له هبه مالية يأخذها.

هذا على أن غوردون وصل فى إلحاحه بشأن إرسال الزبير ليخلفه إلى درجة طلب إعفائه أو اعتباره مستقيلاً فى حالة عدم الأخذ برأيه فى هذه المسألة.

وقـــد أبـــرق غوردون لبارنج يؤكد لأهمية وجود الزبير إلى جانبه ليحقق له النجاح - ونص البرقيه هو[٣]:

"From Gordon to Baring..The Combination of Zubair and myself is absolute necessity for success. To do any good we must be together, and that without delay".

1- Wingate Op. Cit. P. 49.

2- The Journsls of Major-Gen. Gordon, Vol. I, p. 110.

3- The Journals of Major Gen. Gordon, Vol. I, P.136.

علـــى أن الحكومـــة الإنجلـــيزية تحت ضغط (جمعية محاربة الرق) رفضت اقـــتراح غوردون وذكرت أنها مستعدة للموافقة على أية (مساعده إسلامية أخرى) وخاصة آن غوردون أذاع أسرار المكاتبات الخاصة بإرسال الزبير مما أثار الرأى العـــام الـــبريطانى. وقد أبلغ جرانفيل - السير يارنج (كرومر) بذلك فى ٥ مارس ١٨٨٤.

وقـــد ذكـــر غوردون أن إرسال الزبير وتسليمه الأمر فى السودان ليس الحل الأمثل لكنه الحل الذى تختمه الظروف وعبر عن ذلك بقوله[١]:

"It is because the cloth is short I recommend the shape of coat to be such".

هذا وإذا حاولنا مناقشة هذه الأفكار التى عرضت لغوردون فإنه يتبادر للذهن عدة أسئلة منها:

هـــل شـــخص بإمكانـــياته الفردية المحدودة مهما تكن- يكون أفضل من أية حكومـــة مصـــريه؟- ثم ما الأمل فى التحسين الذى يكون أمام مثل هذه الحكومة؟ الحـــاكم المصـــرى قد تثبت الأيام أنه رديء فيعزل ويحل محله غيره بيسر- آما الوضع الذى أقترحه غوردون فيصعب تغييره بعد تنفيذه.

٤- وفـــى ١٨ فبراير أى بعد عشرة أيام من مذكرة أبو حمد- أرسل غوردون رأيًـــا أخـــر خطـــيراً، وذلك بأن تقوم الحكومة البريطانية - لا الحكومة المصـــرية بإدارة السودان وتعين له حاكماً مزوداً بهيئة بريطانية تعاونه، ورشـــح غـــوردون لهذه الوظيفة (الزبير باشا) ليعمل لحساب بريطانيا فى السودان.

٥- وفـــى ٢٦ فبراير حين علم غوردون بعدم استعداد الحكومة البريطانية لتعيين الزبـــير- اقـــترح اقتراحًا أخر هو آن ترسل الحكومة الإنجليزية مائتي جندى هندي إلى وادى حلفا لإرهاب المهدى.

وكـــان رد اللورد جرانفيل (Granville) على آراء غوردون الجديدة هذه إن مهمته التى أرسل لها هم مهمة سلمية فالحملات الحربية التى ينوى القيام بها تتنافى مع هذه المهمة[٢]:

1- Ibid, P. 278.

2- Egmont Hake : Op. cit, p. 28.

From Granville to Gordon

Undertaking military expeditions was beyond the scope of the commission he (Gordon) held, and at variance with the pacific policy which was the purpose of his mission to the Sudan.

إذن فـــى تسعه وثلاثين يومًا أنتقل غوردون من فكرة قصر مهمته على وضع تقارير عن شئون السودان إلى تحبيذ سياسة تحطيم المهدى.

أما الإجراءات التى اتخذها غوردون :

فقــد غـــادر القاهـــرة فى مساء ٢٦ يناير ١٨٨٤ وكان فى معيته الأمير عبد الشــكور بـــن السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور، وقد منحت الحكومة المصرية الأمير آلفي جنيه، وستره مزركشه، وذكر الكولونيل (أستيوارت) الذى كان مرافقاً لغـــوردون أيضًـــا- إن قـــيامهم تأخـــر بعض الوقت بسبب حاشية سلطان دارفور الكبـــيره، فقد وجب توفير عربات كثيرة لحمل أمتعة زوجاته الثلاث والعشرين مع كميه من بضائع آخرى، وتبين السلطان فى اللحظة الأخيرة أنه نسى لباسه الرسمى وظل يبحث عنه إلى أن وجده[١].

وقـــد أســـتمر هذا الأمير فى رحلته معهم حتى بلغ دنقله ومكث بها، ورفض مغادرتها فلم يذهب إلى دارفور، وبعد بضعة شهور عاد راجعًا إلى القاهرة.

هـــذا وقـــد منحت الحكومة المصرية غوردون مبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه ووعدته بالمـــزيد إذا دعت الحاجة، وأعد فرمانان- إحداهما خاص بتعيين غوردون حاكماً عاماً على السودان- والآخر خاص باعتزام الخديوى الجلاء عن السودان مع ترك حـــرية غـــوردون فـــى تحديد موعد إذاعة كل من الفرمانين كما ذكرنا .. وقد أكد غـــوردون قـــبل مغادرته القاهرة استعداده لتنفيذ التعليمات التى يصدرها له السير أيفليـــن بـــارنج والحكومـــة المصـــرية، وتقرر آن يعدل عن السفر بطريق البحر الأحمـــر، وآن يســـافر بالقطـــار من القاهرة، ثم يكمل الرحلة بالنهر ثم بالإبل إلى الخرطوم.

وفـــى ١١ فبراير ١٨٨٤ وصل غوردون وستيوارت إلى بربر وفى بربر أبرز غـــوردون الفرمان الأول بتعيينه حاكماً عاماً للسودان، كما أبرز البيان الآخر الخاص بـــإعلان انفصال السودان عن مصر ونية الحكومة المصرية على الانسحاب، وإخلاء السودان، وقد أنتشر مضمون هذا البيان الأخير فى كل أنحاء السودان.

١- كرومر : مرجع سابق ص ٨٤.

وقد أشار وينجت (Wingate) إلى بيان غوردون هذا بأنه (البيان المهلك الذى تسبب فى ضياع السودان)، فقد ترتب عليه كما أجمع الكل أن تضاعفت متاعب غوردون، وانضمت القبائل التى كانت مترددة فى الإنضمام للمهدى للثورة، وحتى الذين كانوا موالين لمصر انقلبوا عليها- فمن الذى يبقى متعلقًا بحكومة تعلن بصراحة أنها ستنسحب وتترك البلاد لغيرها[١]؟

وقد كان هذا الخطأ كافيًا لعرقلة كل الجهود المبذولة لترحيل القوات المصرية فأصبحت مهمة غوردون مقضيًا عليها بالفشل.

لقد كانت هذه التصرفات من غوردون كافيه لتأكيد الشائعات التى راجت فى السودان بأن إنجلترا قد استولت على مصر وأنها قررت إخلاء السودان فوجود هذا الحاكم الإنجليزي فى السودان ما هو إلا إجراء إنتقالى مؤقت[٢].

وفى بربر أعلن غوردون شيئًا أخر فقد أعلن وقف العمل بالمعاهدة المعقودة بين بريطانيا والحكومة المصرية سنة ١٨٧٧ الخاصة بعتق العبيد[٣].

وقد كان لهذا البيان آثره فى إنجلترا، لكن الحكومة الإنجليزية استطاعت أن تسكت أصوات أنصار حركة محاربة الرقيق، وقد رد غوردون فى مذكراته على هذه المشكلة بأن هناك فرق بين تحريم قنص العبيد، وبين تحريم الإحتفاظ بالعبيد الذين فى أيدي الناس أى تحريرهم وأشار إلى مهلة الإثنى عشر عامًا التى حددتها المعاهدة المذكورة[٤].

ومنذ آن غادر غوردون القاهرة - أخذ سيل البرقيات ينهمر على بارنج، فقد كان يبرق إليه بكل فكره تطرأ على عقله - حتى أن عدد البرقيات التى كانت تصل يومياً- كما آشرنا سابقاً- تتراوح بين العشرين والثلاثين برقيه وكان التضارب بين الآراء فيها واضحاً حتى إن بارنج أرسل له يقول[٥]:

"أننى أشد ما أكون رغبةً فى مساعدتك ومساندتك فى كل شئ، ولكنني آري من العسير جدًا إدراك ما تبغى- أرى أن خير ما تفعله هو أن تعيد التفكير ثانيةً فى

١- أنظر تعليق سلاتين نفسه على هذا التصرف العجيب، وتحليله للوضع بعد إعلان نية الحكومة على مغادرة السودان:
Slatin : Op. Cit., P. 409, 401 and 411.

2- Wingate : Op. cit., pp. 109 & 110.

٣- أنظر نص المعاهدة فى: محمد فؤاد شكرى: مصر والسعادة على السودان ص ص ١١٤-١١٦.

4- General Gordon's Journal Vol. I. P. 6 & 186.

٥- كرومر: مرجع سابق ص ٨٤.

المسألة برمتها- ثم بين لى فى برقيه واحدة ما توصى به حتى يتيسر لى- إذا دعت الضرورة آن أطلب تعليمات من حكومة صاحبة الجلالة"- ونص رد بارنج هو[1]:

From Baring to Gordon:

"I have received your eleven telegrams of the Last four days on matters of general policy. I am most anxious to help and support you in every way, but find it very difficult to understand exactly what you want. I think your best plan will be to reconsider the whole question carefully and then state to me in one telegram what it is your recommend".

وقد حاول استيوارت - دون جدوى - كبح جماح هذا السيل من البرقيات.

وفى ١٨ فبراير ١٨٨٤ وصل غوردون إلى الخرطوم وكان القائم بأمر الحاكم العام حسين باشا سرى قد غادرها، وبمجرد وصوله أمر غوردون بجمع سجلات ومستندات الضرائب المتأخرة على الأهالى واحرقها علنا فى الطريق، كذلك جمع أدوات العقاب والجلد المختلفة وأحرقها أيضًا، كما أطلق سراح كثيرين من المسجونين، واصدر أمره برحيل الجنود البيض (المصريين) للقاهرة وبقاء الجنود السودانيين فى الخرطوم، وألف مجلسًا للأعيان من إثنى عشر عضوًا تحت رئاسته هو فى الخرطوم، وكان قد سبق أن ألف مثل هذا المجلس فى بربر.

والغريب أن أول قرار لمجلس بربر والخرطوم كان رجاءًا للحاكم العام بأن يؤجل سفر القوات المصرية من السودان خشية اضطراب الأمن.

وتدل هذه التصرفات من غوردون على أنه لم يدرك من المبدأ تغلغل الثورة المهدية وكنهها كثورة دينية - فقد اعتقد إنه يستطيع التغلب على المهدى بمجرد اجتذاب السودانيين حوله والطعن فى الإدارة المصرية - لكن كيف يجتمع الناس حوله وهو يصرح بأنه جاء لمهمة مؤقتة هى مجرد تصفية الإدارة المصرية ثم يقفل راجعًا؟

وقد لمس (استيوارت) أثر إعلان غوردون هذا عن نية الحكومة المصرية على الجلاء فكتب فى رسالة له للسير بارنج من بربر مؤرخة ١٣ فبراير يقول "يتدفق غوردون عطفًا على هؤلاء الناس إلى حد جعله يميل إلى التوسل بكل وسيله

1- General Gordon's Journals Vol. I, pp. 209 & 210.

لتخفيف آثار إعلاننا إننا سنجلو عن البلاد - لكننى مقتنع أنه مهما يفعل فلن يحول دون وقوع البلاد فى الفوضى"[١].

وقد لمس غوردون بنفسه بعد ذلك آثار هذه التصرفات الرعناء التى دفعته إليها مجرد الرغبة العجيبة التى كانت تسيطر عليه فى تصفية الإدارة المصرية فى السودان دون تدبر لنتائج هذا العمل.

فقد ظهر واضحًا أن الحالة فى الخرطوم نفسها تزداد حرجاً، فالقبائل بينها وبين بربر مترددة فى الانضمام إلى هذا الطرف أو ذاك- لكن الظروف تدفعها إلى ذراعى المهدى.

وقد حاول غوردون أن يعالج خطأه هذا فوقع فى خطأ آخر إذ وجه نداءًا دعا فيه الناس إلى الهدوء وعدم الانضمام لحركة المهدى، وأشار فى بيانه هذا الصادر فى ٢٧ فبراير ١٨٨٤ إلى أن قوات بريطانية فى طريقها إلى الخرطوم.

ويقول بارنج (كرومر) "إن غوردون من وجهة النظر السياسية يبدو إنه ارتكب خطأ لأنه كان يدرك إن الحكومة البريطانية لم تقبل إرسال آية قوات إنجليزية أو هندية للسودان - وإنه لا ريب فى آن الناس سيكتشفون عاجلاً عدم وجود قوة فى طريقها إلى الخرطوم وتكون النتيجة فقدان الثقة فى أقواله - حتى لقد حدث عند تقدم لورد ولسلى (Wolseley) بقواته فعلاً لنجدة غوردون بالخرطوم إن أنباء تقدمه لم تصدق مطلقًا[٢].

وقد حدث فعلاً إن (الشيخ عبيد) وكان زعيمًا له نفوذه القبلى بين أهالى الخرطوم وبربر- ظل متردداً فى الانضمام إلى المهدى أو عدم الانضمام إليه، وقد وصفه (ستيوارت) فى خطاب أرسله لبارنج بأنه (رجل متدين ومحايد ويتمسك بحيدته) لكن إزاء هذه التصرفات الغردونيه أعلن انضمامه للمهدى، وترتب على ذلك آن القبائل بين بربر وشندى أعلنت الثورة[٣].

والإجراء الآخر الذى أتبعه غوردون والذى يدل على إنه لم يكن يدرك حقيقة الثورة وقوتها- إنه كتب للمهدى من بربر يعرض عليه سلطنة كردفان بحيث تكون له سلطه شبه مستقلة فى هذه الجهات، ويرجوه توطيد العلاقات بينه وبين السلطات الحاكمة فى جهات السودان الأخرى، وأرسل له مع الخطاب قفطانًا وكسوة تشريفة،

١- كرومر: مرجع سابق ص ١٠٧.

٢- كرومر - سابق ص ١١٥.

3- Sltatin.: op. cit., T. 11, p. 415.

وكان يعتقد أن المهدى سيوافق على هذا العرض السخى- لكن رد المهدى عليه بمنتهى الإزدراء بأن بين له بأنه أرفع من سلطان، ودعاه للإسلام والاعتراف بدعوته- وأرسل مع هذه الرسالة له الجبة المرقعة رداء الدراويش أى أنه يدعوه للبسها[١].

وهكذا لم يتخذ غوردون حلاً إيجابيًا لمجابهة الموقف، وجعل كل همه تصفية أمر الإدارة المصرية بالسودان.

سقوط الخرطوم ونهاية غوردون :

كانت الدعوة المهدية تنتشر بسرعة، بينما كان الدراويش يضيقون الخناق على الخرطوم، وكانت الحكومة الإنجليزية مشغولة بتبادل الرسائل بين (جرانفيل) و(بارنج).

وكان البحث يدور حول:

١- هل ترسل حملة إنجليزية أو هندية لإعادة النظام لا لإنقاذ الحاميات المصرية المحاصرة - ولكن لإنقاذ الضباط الإنجليز الذين أرسلتهم الحكومة إلى الخرطوم؟

٢- أم هل يركز الجهد على فتح طريق سواكن- بربر ليسهل على غوردون التقهقر قبل أن يتمكن المهديون من التجمع ليعترضوا طريقه.
وهل يمكن للقوات التى تحت إمرة السير (جراهام) والتى هزمت قوات عثمان دقنه فى التب أن تقوم بهذه المهمة؟

٣- هل ترسل قوه من الجيش المصرى للمرابطة فى وادى حلفا بقصد شد أزر غوردون معنويًا فى الخرطوم؟

ورغم إنه قد وصل لعلم الحكومة الإنجليزية فى ٢٥ مارس ١٨٨٤ أن الخرطوم أصبحت محاصره من كان جانب، وأن الثوار يتلقون إمدادات باستمرار- وكان الخط التلغرافى بين القاهرة والخرطوم قد قطع منذ ١٢ مارس ١٨٨٤- فقد أغمضت عينها عن الحالة وأرسلت للسير إفلين بارنج لمحاولة الاتصال بغوردون وإخباره أن الحكومة تترك له الحرية فى البقاء حيث هو أو للانسحاب عبر أى طريق يهتدى إليه.

١- أنظر نص هذه الخطابات المتبادله بين غوردون والمهدى فى:

Wingate : Op. cit., pp. 111-116.

كذلك انظر :

Slatin : Op. cit., 11, p. 387.

والقضـــية التى أثارها - فى دوائر الحكومة الإنجليزية - الوضع الذى آل إليه أمـــر غوردون فى السودان- هى هل غوردون فى تصرفاته كلها هذه بعد وصوله للســـودان يعتـــبر متخطـــياً للتعليمات المعطاة له من حكومته أم لا؟، ولعل السير شـــارلس ديلـــك (C. Dilke) كـــان يعـــبر أصدق تعبير عن وجهة نظر المساندين لغـــوردون فى رده على اتهامات أعضاء الحكومة لغوردون بتخطى تعليماتها، فقد بـــرر تصـــرفاته بأنه أقدر على إصدار الأحكام من أى شخص آخر وآنه يجب آن يحصل على كل معونة يحتاجها.

ونفى تخطيه لتعليمات حكومته وبرر ذلك بأن الحكومة الإنجليزية لم تعترض علـــى الفرمان الصادر من الخديوى بتعيين غوردون حكمدارًا عامًا للسودان وهذا يتضمن تنفيذه بالتالى لتوجيهات الخديوى.

هـــذا علـــى أن غوردون فى مذكراته - كما سنشير بعد- كان عنيفًا فى اتهام (Dilke) واعتباره أحد المسئولين عن سياسة الحكومة الإنجليزية تجاه غوردون فى السودان.

وكـــان غوردون يوفق فى إيفاد عدائيين من الأهالى من آن إلى آخر يحملون أنـــباءه - وقـــدْ علم من الرسائل الواردة آن سلاتين (Slatin) فى دارفور، ولبتون (Lupton) فـــى بحـــر الغزال والآن أورفالدر (Orphalder) وفريقًا من القساوسة والراهـــبات الذيـــن كانوا بالإرسالية النمساوية فى دارفور قد وقعوا جميعاْ فى أسر المهدى مع عدد من التجار اليونانيين، أما أمين باشا فلا يزال معتصم بمديرية خط الاستواء[1].

وأدى تشديد الدراويش الحصار على الخرطوم إلى صعوبة إرسال تعليمات أو أخـــبار لغـــوردون لكنه أدرك نية الحكومة البريطانية- فأرسل فى ٧ أبريل للسير بارنج يلخص الموقف وقد جاء فى رسالته هذه:

"إن الموقـــف كما أفهمه هو كما يأتى : إنكم تذكرون عزمكم على عدم إرسال أى مـــدد إلى بربر لإنقاذنا، وأنتم تمنعون الزبير عنى- فلذلك أعتبر نفسى حرًا فى

١ - كتـــب سلاتين- وهو أسير طرف المهدى - لغوردون والقنصل الألماني هانسال (Hansal) يشرح الظروف التى اضطرته للاستســـلام للمهدى، ولكن أكتشف آمر هذه المراسلات فشددت الرقابة على سلاتين وقيد بالسلاسل - لكن استطاع الآن أورنالدر بعد ذلك الهرب من الأسر.

وقـــد كان بالإرسالية التبشيرية فى كردفان ٥ من القساوسة، ٦ راهبات وقد صدم غوردون حين علم أنهم اعتنقوا المهدية وغيروا أسمائهم فى سبيل سلامتهم.

Gordon's Journals Vol. I, P. 82.

التصـــرف وفقًـــا للظروف، وسوف أبقى هنا أطول مده ممكنة، وإذا استطعت قمع الـــثورة فعلـــت، وإلا فســـأوى إلى خط الاستواء وأترك لكم وصمة عار لا تمحى لإهمـــالكم حاميات سنار وكسلا وبربر ودنقله - مع تأكيدى بأنكم ستضطرون آخر الأمـــر إلى تحطيم المهدى فى أحوال مفعمة بالضباب - إذا كان عليكم آن تحافظوا على السلام فى مصر ذاتها"(١).

والحقـــيقة إن الحكومـــة الإنجليزية - كما عبّر عن ذلك صراحةً ممثلها فى مصر السير ايفلين بارنج (كرومر) - لم تعتبر نفسها ملزمة أدبيًا بإنقاذ الحاميات المصـــرية- لكن فى نفس الوقت كان يهمها منع وقوع (غوردون) و(أستيوارت) فى أيدى المهدى- لكن غوردون كان لآخر لحظه لا يريد آن يهرب مع رفاقه من الحصـــار المضروب حولهم وكان يردد قوله "لقد عينت فى منصبى للقيام بمهمة الجـــلاء عـــن الســـودان وليس للفرار من الخرطوم وترك الحاميات تحت رحمة القدر"(٢).

ولما كان بقاء الاتصال بين القاهرة والخرطوم مستمراً، آمراْ فى غاية الأهمية فقـــد أصبح الاحتفاظ بـــ (بربر) وحمايتها من الوقوع فى آيدى المهدى ضرورياْ، ولـــذا أرســـل الجنرال كتشنر (Kitchener) ومعه الليفتنانت رندل (Rundel) وقوه مـــن الفرســـان فى مارس ١٨٨٤ ليستقر كضابط مخابرات فى مركز أمامي على النـــيل يمكـــنه من تلقى أخبار غوردون وتوصيل الأخبار إليه - وفى نفس الوقت تقـــرر إقامـــة حامـــيات فى وادى حلفا وكورسكو وكذا إبقاء قوة كبيره فى أسوان بالإضافة إلى إرسال قوة إلى الصحراء القريبة لحماية طريق الأربعين.

وفـــى ٢٦ مـــايو ١٨٨٤ سقطت بربر فى أيدى الأنصار وأسر مديرها حسين باشا خليفة(٣)، وكبار ضباطها، وتقدمت قوات المهدى صوب مركز حلفايه بالقرب

١- كرومر: مرجع سابق ص ١٦٥.

٢- نفس المرجع ص ١٧١.

ملاحظة :

عـــبر غـــوردون فى مذكراته فى أكثر من موضع بعنف عن شعور الألم والضيق تجاه الذين يمسكون بدفة الأمور فى إنجلترا والذين لم يعيروا صرخاته أى انتباه.

٣- اســـتطاع حسين باشا الهرب فعاد للقاهرة فى ١٢ يوليو ١٨٨٥، وقدم للمحاكمة فقد كانت الشكوك تحوم حول اتصاله بالمهدى لكنه برئ.

ويتحدث غوردون فى يومياته كثيرًا عن حسين باشا خليفة وآسرته، وهو يرجع سقوط بربر إلى خيانة حسين باشا خليفة.

General Gordon's Journals Vol., 1, pp. 301-302.

من الخرطوم وانقطعت المواصلات مع مصر وتم عزل الخرطوم- فقد كانت بربر الحلقة الباقية فى سلسلة الاتصال بين الخرطوم والقاهرة.

ومن الأخبار التى تسربت لمصر ومنها لإنجلترا أدرك الرأى العام فى إنجلترا علـــى الأخـــص خطورة المأزق الذى أصبح فيه غوردون- فهاج الرأى العام فى إنجلـــترا علـــى ما أسماه (الغدر بالجنرال غوردون)، وتحت تأثير هذا الهياج تقرر إرســـال بعثة الإنقاذ - بعد جدل طويل للوزارة البريطانية حول مدى الحاجة لمثل هذه الحملة - وهل تتخذ طريق النيل أم البحر الأحمر.

وكان ذلك فى أغسطس ١٨٨٤، وفى ٢٦ أغسطس تقرر تعيين اللورد ولسلى (LordWolseley) [١] قـــائدًا لهذه الحملة - فوصل القاهرة فى ١٠سبتمبر ١٨٨٤ وكانت التعليمات التى صدرت له تحدد الغرض من هذه الحملة كما يلى :

"إن الغـــرض الأول مـــن ذهاب الحملة بطريق النيل هو استرجاع غوردون، وســـتيوارت مـــن الخرطوم - وعند تحقيق هذا الغرض ينبغى عدم اتخاذ عمليات هجومية أخرى من أى نوع كان"[٢].

وكـــان كتِشـــنر قد نجح فى الوصول إلى(الدبة) عند إنحناء النيل فى أغسطس ١٨٨٤، وصـــار يتلقى رسائل غـــوردون ويبلغه بأخبار النجدة المنتظر إرسالها له وتحـــركاتها - وعـــن طـــريقه علم غوردون بأخبار حملة الإنقاذ، فأعلن غوردون البشـــرى فى الخرطوم بل سارع لتأجير المنازل التى سيأوى إليها الضباط الإنجليز بالخرطوم.

وقد رسم غوردون فى مذكراته خطه لما يمكن أن يعمل إذا منحت له السلطة الكاملة للتخطيط والتنفيذ.. وتتلخص خطته فى:

أ - مجموعه تتركز فى دنقله وتتكفل بشأن المواصلات بين وادى حلفا وبربر فى النهر.
ب- مجموعة تسترجع بربر وتتمركز فيها.
ج- المجموعة الثالثة - تتجه من الخرطوم فى إتجاه النيل الأزرق لطرد الدراويش من (مدنى) وفتح طريق سنار لضمان وصول الحبوب للخرطوم.

١- ولسلى من الضباط الإنجليز الذين أشتركوا فى قتال المصريين فى التل الكبير.

٢- كرومر : مرجع سابق ص ١٨٣ وما بعدها.

ملاحظة :

يقـــارن الكـــتاب الإنجلـــيز بين الحملة الإنجليزية التى أرسلت بقيادة نابير (Napier) عام ١٨٦٨ لإنقاذ قنصل إنجلترا فى الحبشة وغيره من الأجانب الذين أعتقلهم تيودور، وبين هذه الحملة التى أرسلت لإنقاذ غوردون من أيدى المهدى وأتباعه.

وفـــى نفس الوقت تسترد الخطوط التلغرافية وتعمل لإعادة الاتصال بالقاهرة، وهـــذه الخطـــة - مـــن وجهـــة نظرة ستدفع المهدى للتراجع بقواته إلى كردفان، وتضطر باقى الجيوب فى السودان الشرقى للتسليم.

وهذا الانتصار كفيل بمحو الآثار التى ترتبت على هزيمة حملة هكس وغيرها مـــن الحمـــلات الحكومية.. وفى اعتقاده أن تنفيذ هذه الخطة لا يحتاج لقوة كبيرة طالما يمكن آن تعزز القوات بالبواخر المسلحة.

وقد رسم غوردون فى يومياته خريطة توضيحيه لخطته هذه(١).

وكان مع غوردون بالمدينة ما يقرب من ٨,٠٠٠ جندى مسلحين بالبنادق وإثنا عشـــر مدفعًـــا، وتســـع سفن (رفاصات) تمكنهم من القتال على النهر، وأكثر من ملـــيونى مشـــط من الذخيرة بالمخازن بالإضافة إلى أن ترسانة المدينة كانت تنتج ٤٠,٠٠٠ مشط أخرى كل أسبوع.

كمـــا أن غـــوردون أخبر فى شهر مارس آن لديه أغذيه تكفى أكثر من ستة أشـــهر، ولـــم تكن ثمة مشكله بصدد الماء نظرًا لوجود النيل، وكانت (بأم درمان) علـــى الضفة الغربية للنيل الأبيض حامية مصرية قوية - وكانت قبائل الشايقية فى المناطق الريفية المحيطة معاديه للمهدى، كما أنه فى الجهة الجنوبية من المدينة - وهـــى نقطة الضعف فى دفاعها- حفر خندقًا عميقًا نصف دائرى وثبت الألغام فى الرمال وأقيمت الاستحكامات(٢).

لكـــن الأمـــور أخذت تتطور سريعًا - فقد حدث أن بعث غوردون الباخرة (عـــباس) فى مهمة بقصد شرح حقيقة الأوضاع للمسئولين فى مصر واستعجال النجدة المطلوبة والإتفاق على ما يجب إتباعه - وأقلعت الباخرة من الخرطوم فى

1- General Gordon's Journals Vol I pp.175-177.

ملاحظة :

يعقـــد رائـــد عصمت زلفو مقارنة بين نجاح غوردون وجيشه الذى وصف بلآنه لا يقهر- فى إخماد الثورة فى الصين وبين فشله فى إخماد الثورة فى السودان.

(انظر كتاب كررى ص ٦٩).

2- General Gordon's Journal Vol., I, p. 277.

ملاحظة :

يعطـــى غوردون فى يومياته صوره عن عدد قواته، وما تحت يديهم مؤن وأغذيه، ففى١٩ أكتوبر ١٨٨٤ يذكر إن قوته تبلغ ٨٦٦٥ جنديًا، وتحت إمرته ٧ بواخر بالإضافة إلى ٥٨ مركبًا، ٥٣ مركبًا حكوميًا، وبمخازن الحكومة ما يبلغ ٤,٠١٨ إردبًا من القمح بالإضافة إلى كمية من البسكوت، ويقدر استهلاك القوة العسكرية أسبوعيًا ٥٠٠ إردب من الحبوب.

١ سـبتمبر ١٨٨٤ وعليها عدد من الأوروبيين منهم (ستيوارت) نائب غوردون فـى القـيادة، والقنصل الفرنسى فى الخرطوم (Herbin) ومستر باور(Power) وعـدد أخـر مـن الأوروبيين بالإضافة إلى الشفرة الخاصة بالرسائل الرسمية المتـبادلة بيـن القاهرة والخرطوم، وكثير من الوثائق والبيانات الخاصة بكميات الأغذية والذخائر الباقية، وعدد الجنود وأسلحتهم ومسودات الرسائل المتبادلة بين القاهـرة والخرطوم وخطابات المهدى المرسلة لغوردون والشفرة المستخدمة بين غوردون وحكومته ويوميات ستيوارت[١]. وقد تبعت الباخرة عباس بواخر أخرى حتى عـبرت بأمان شندى وبربر، لكن فى ١٨سبتمبر (بعد مغادرتها الخرطوم بثمانية أيام) ارتطمت الباخرة بصخرة على بعد ستين ميلاً من آبو حمد واضطر سـتيوارت ومـن معـه النزول للبر واللجوء إلى منزل حيث باغتهم شيخ قبيلة (المناصر) وقتلهم.

وقـد علـم غوردون بأخبار هذه الكارثة من مصادر متعددة منها خطاب من (سـلاتين) الـذى كان أسيرًا عند المهدى[٢]، ومن رسالة للمهدى نفسه مؤرخة ٢٢ أكـتوبر[٣]، ومن خطاب وصله من كتشنر[٤]، وقد حاول غوردون فى مذكراته أن يبرئ نفسه من مسئولية إبحار ستيوارت ورفاقه فذكر أنهم سافروا بمحض إرادتهم وأنـه مـن جانـبه أتخذ كافة الإحتياطات لتأمينهم، وآن ما حدث كان نتيجة غدر وخيانة وهو ما لا يمكن تداركه[٥].

أما عن ولسلى فقد وصل إلى وادى حلفا فى ٥ أكتوبر ١٨٨٤، وكان يعلم أن حملـته هـى لمـنازلة الوقـت أكثر مما هى لمنازلة الرجال – فنجاحه فى إنقاذ غوردون يتوقف على عدم إضاعة أى وقت.

١- كـان ستيوارت – كما يذكر غوردون فى يومياته – يسجل ملاحظاته وأراءه بدقه وعناية، وقيمتها عظيمة خاص فى الفترة السـابقة لتلك التى بدأت فيها مذكرات غوردون (أى الفترة حتى ٩ سبتمبر ١٨٨٤ وهى الليلة السابقة لمغادرة ستيوارت ورفاقه الخرطوم).

انظر :

General Gordon's Journal Vol. I, pp. 247-248.

2- General Gordon's Journal Vol. I, p. 256.

3- Ibid, pp. 262.

نص خطاب المهدى موجود فى :

عصمت زلفو : كررى ص ص ٧٨، ٧٩.

4- Gordon's Journals Vo. I, pp. 308 and 309.

5- Ibid, pp. 309 & 310.

وقد وصلت حملة ولسلى إلى (كورتى) فى نهاية ديسمبر ١٨٨٤- وقرر ولسلى أن يقسم قوته إلى قسمين:

أ - إحداهما بقيادة السير (هربرت ستيوارت[١])، وقد تقرر آن يتخذ طريق الصحراء من كورتى صوب المتمة.

ب- والآخر يتبع مجرى النيل بقيادة الجنرال ايرل (General Earle) بقصد الإستيلاء على بربر.

أما عن الأحداث فى الخرطوم فى هذه الأثناء- فقد كانت قوات المهدى تضيق عليها الخناق من كل جهة، ففى ١٢ نوفمبر ١٨٨٤ كانت مدافع المهديين التى غنموها من حملة هكس تقصف الخرطوم، وإن كانت قذائفها قليلة الجدوى من ناحية الإضرار المادية - لكنها كانت ذات تأثير قوى على الروح المعنوية للسكان فى المدينة المحاصرة التى كانت الأغذية فيها على وشك النضوب- كما أحاطت قوات المَهدى (بأم درمان)، وكان على رأس قوات المهدى التى تحاصر الخرطوم (عبد الرحمن النجومى) وابو قرجه (Adu Girgeh) حيث كانت قواتهما تحاصرها من الجنوب، ويعطينا غوردون نفسه صوره دقيقة عن أحداث هذه الفترة[٢].

١- هو غير الكولوتيل ستيوارت الذى قتل سابقًا.

ملاحظة: يذكر غوردون إنه عجز عن فك رموز ما وصله من برقيات الشفرة بعد أن غادر ستيوارت الخرطوم ومعه مفتاح الشفرة.

انظر: General Gordon's Journal Vol. I, p. 127

٢- تقع مذكرات(يوميات) غوردون- حسب طبعة توتشنز (Tauchnitz) ١٨٨٥ فى ستة اجزاء - مجموعها ٤٣٣ صفحه.

الأول : يتناول الفترة من ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ إلى ٢٣ سبتمبر (٧٨ صفحه).

الثانى : يتناول الفترة من ٢٣ سبتمبر ١٨٨٤ إلى ٣٠ سبتمبر (٤١ صفحه).

الثالث : يتناول الفترة من أول أكتوبر ١٨٨٤ إلى ١٢ أكتوبر (٨٥ صفحه).

الرابع : يتناول الفترة من ١٢ أكتوبر ١٨٨٤ إلى ٢٠ أكتوبر (٣٢ صفحه).

الخامس: يتناول الفترة من ٢٠ أكتوبر ١٨٨٤ إلى ٥ نوفمبر (٩٣ صفحه).

السادس: يتناول الفترة من ٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ١٤ ديسمبر (١٠٤ صفحه).

وكان غوردون يسجل أفكاره وتعليقاته على الأحداث التى تصله أخبارها من الصحف وغيرها، وأرفقبيومياته صورًا ورسومًا بريشته وفقرات مقتبسه من أقوال الكتاب المشهورين، وقد كانت تعليقاته على سياسة اللورد جرانفيل وكرومر قاسيه وعنيفة، وقد حزم غوردون أوراق يومياته التى ختمها فى ١٤ ديسمبر١٨٨٤ وخاطها فى قطعة قماش وسلمها لربان الباخرة بوردين الذى نجح فى الوصول بها إلى المتمة وقد يلمت المذكرات فيما بعد لشقيقه السير هنرى غوردون ولأقت رواجًا كبيرًا عند نشرها.

وقد التحم جيش الصحراء بقيادة السير هربرت ستيوارت مع القوات التى أرسلها المهدى بقيادة موسى ودحلو عند أبار (أبى طليح) شمال المتمه، ودارت معركة حامية فى ١٧ يناير ١٨٨٥ انتهت بهزيمة الأنصار- لكن فاجأ الأنصار المختبئون خلف الحشائش الكثيفة - الحامية بعد ذلك وأطلقوا عليهم نيران حاميه وقتل فى هذه المعركة السير هربرت ستيوارت.

ووصلت الحملة إلى النيل شمال المتمة بقيادة السير شارلس ولسن (C. Wilson) حيث التقت بالسفن الأربع التى أرسلها غوردون من الخرطوم لاستقصاء أخبار حملة الإنقاذ وحثها على سرعة السير- ومنها عرف إنه فى أحرج المأزق بالخرطوم فقد كانت أم درمان قد سقطت فى أيدى الدراويش كما سنبين بعد وكانت الخرطوم محاصرة من كل جهة.

وقد كان المهدى والخليفة عبد الله التعايشى، ومحمد الشريف، وعلى ود الحلو، وأبو عنجه[١] - فى الأبيض، بينما ود النجومى، وأبو قرجة يحاصران العاصمة من الجنوب والقبائل الموالية للمهدى تحاصرها من الشمال والشرق، وكان المهدى مترددًا فى ترك الأبيض لمهاجمة الخرطوم لأسباب عده، فقد كان يخشى الفشل لإدراكه صعوبة الزحف لمسافة طويلة نحو العاصمة، خاصة وأنهم يسافرون كشعب متحرك معهم نساؤهم وأطفالهم، ولأنه كان يعرف صفات غوردون العسكرية، وما كان متواترًا عن قدوم جيوش نظاميه من الشمال، لكن المعلومات التى استقاها من أوراق الباخرة عباس شجعته على الهجوم، فبعد تردد استقر رأى المهدى على السير ومن معه متخذين طريقهم نحو الرهد وهم مسلحون بالسيوف والحراب وما غنموه فى معاركهم السابقة، وعند منهل (شات) أنضم الشيخ محمد شريف ود نور الدايم لتلميذه، وحين وصلوا إلى (ديم أبى سعيد) على مسافة ساعة جنوبى أم درمان كان عددهم ينيف على الستين ألفًا، وبعث المهدى لغوردون يدعوه للتسليم، لكن رد غوردون عليه ردًا قاسيًا فقد أجابه بأن السلاح هو الذى سيفصل بينهم[٢].

وقد ظلت أم درمان تقاوم الحصار تحت قيادة ضابط يدعى (فرج الله باشا) حتى نفذت مؤنها ونقصت ذخيرتها، ولما عجز غوردون على أن يرسل المزيد من المؤن لحاميتها المحاصرة صرح لقائدها بالتسليم للمهدى على أساس التعهد بصيانة

١- عثر على وثائق هدان أبى عنجه عن أعماله التى كلفه بها المهدى فى جبال النوبا.

2- Wingate : Op. cit., p. 165.

أرواح الـــرجال الذين كانوا يدافعون عنها فسلمت المدينة فى ١٥يناير١٨٨٥ وأسر جميع رجالها واستولت قوات المهدى على أسلحتهم وما كان متبقيًا من الذخيرة(١).

وترتـــب علـــى سقوط أم درمان فى أيدى الأنصار أن أصبح مركز الخرطوم حـــرجًا للغاية لأن الثوار أحاطوا بها من كل الجوانب وقطعوا عنها كل الإمدادات وآخـــذ رصـــيد القمح والبسكويت بمخازنها ينضب- حتى أن غوردون أضطر لآن يؤلـــف لجـــنة للبحـــث فى كل أنحاء المدينة عما قد يكون لدى بعض الأهالى من الغـــلال، وأخـــيرًا أضطر الجنود لأكل الكلاب والحمير وجلود الحيوانات والصمغ وألـــياف النخيل، وأنتشر الطاعون بالمدينة ليكون ضغثا على اباله، وكان المدنيون أسوا منهم حالاً فمات كثيرون جوعًا وغطت الطرقات جثث الموتى دون أن ينهض أحد لدفنها(٢).

وكتـــب المهـــدى لأهل الخرطوم يدعوهم للخضوع ويعدهم بالأمان، كما كتب لغوردون يدعوه للتسليم ليسلم.

وقـــد ضبط غوردون بعض الرسائل من بعض الأعيان للمهدى وأعدم بعض مرســـليها- وبذل غوردون كل جهده ليرفع من الروح المعنوية لمن معه من القادة والمســـئولين ورؤســـاء القبائل فكان يجمعهم لينبئهم بأن لديه آخبارآكيده عن قرب وصـــول الـــنجدة، لكـــن حين طال إنتظار النجدة المرتقبة دون جدوى آخذ اليأس يتسرب إلى النفوس.

وفـــى ٢٥ يناير١٨٨٥ عقد المهدى مجلسًا مع خلفائه وكبار أمرائه فى مركز قيادة النجومى، وبعد التداول أصدر المهدى أوامره لشن الهجوم على الخرطوم فى الســـاعات الأولـــى مـــن الصباح التالى(٣) وقد شجعت المجتمعين على اتخاذ هذه الخطوة المعلومات التى وصلتهم من الفارين من المدينة المحاصرة عن الحالة التى

1- Slatin : Op. cit., T. II, p. 460.

ملاحظـــة: يذكـــر ســـلاتين إنه فى ديسمبر١٨٨٤ وصلته قصاصة ورق من غوردون يذكر فيها إن الخرطوم تستطيع آن تقاوم الحصار حتى نهاية يناير.

٢- تحدث غوردون فى يومياته بتهكم وآلم كيف أن الجوع يتحكم فى الإنسان بل وفى مصير العالم كله بقوله:

"The Stomach governs the world, and it was the stomach a despised organ which caused our misery from the beginning. It is wonderful that the ventral tube of man governs the world in small and great things".

Gordon's Journals Vol. I, p. 74.

3- Slatin : Op. cit., T. 11, p. 463.

أصبحت عليها بسبب إنتشار المجاعة والأمراض فيها حتى أصبح المدافعون عنها غير قادرين على حمل سلاحهم- وقد ذكر المهدى أتباعه بأن الجنة أمامهم إذا ماتوا(١).

وفى صبيحة ٢٦ يناير زحف حوالى ٥٠,٠٠٠ من الدراويش بقيادة (عبد الرحمن النجومى) على استحكامات الخرطوم مركزين ضغطهم على منطقة كان الطمى المتخلف منْ النيل الذى كانٍ قد أخذ ينخفض- قد ملأ فيها الخندق وكون حافة من اليابسة تمهد طريقًا للمدينة، وفى لحظات كان سيل المتحمسين المنقضين بعنف صوب السراى حيث كان غوردون الذى أستيقظ على أصوات المعركة عند خطوطه قد أرتدى ملابسة الرسمية وتناول مسدسه وسيفه وخرج إلى سلم القصر.

ويقال إنه حدثت خيانة بين أتباع غوردون فقد دل أحد ضباط الحامية الأنصار عن النقطة الضعيفة التى يمكنهم منها دخول المدينة(٢).

ورغم أن أوامر المهدى بالا يُقتل غوردون فإن أتباعه الذين هاجموا سراى الحاكم بادروا بطعنه وحزوا رأسه وأرسلوها للمهدى فى أم درمان بينما جر جسده جراً على سلم القصر وترك فى الحديقة حيث جاء كثيرون ليطعنوه بحرابهم(٣)، وأستمر النهب والقتل فى المدينة ساعات ويقال إنه قتل من سكانها ٤,٠٠٠ شخص، وسيق الآلاف عرايا عبر النهر إلى أم درمان حيث حشروا فى حظائر مكشوفة وأستمر الشغب فى المدينة يومين حتى سيطر المهدى على الموقف(٤).

١- يعطى سلاتين وصفًا دقيقًا لترتيبات وتحركات أتباع المهدى صوب الخرطوم.

Slatin : Op. cit., T. II, p. 463.

٢- قبل سقوط الخرطوم أكتشف غوردون- كما يقول هو- إن هناك مراسلات بين الشيخ الإسلام، وقاضى الخرطوم وغيرهما وبين المهدى وفكر فى آن يتخلص منهم بإرسالهم للمهدى لكنه عدل عن هذه الفكرة وحدد إقامتهم وفرض عليهم حراسه.

انظر :

General Gordon's Journals, Vol. I, pp. 231-232.

٣- يذكر سلاتين إن المهدى ذكر بعد آن رأى رأس غوردون إنه كان يفضل أن يسلم له حياً لأنه كان يفكر فى أن يفاوض الإنجليز على فك أسر أحمد عرابى مقابل تسليمهم غوردون لأن عرابى كان سيفيد فى خطته المقبلة لغزو مصر.

أنظر :

Slatin : Op. cit., pp. 464-471.

٤- عرضت رأس غوردن على سلاتين وهو مكبل بالسلاسل ويصف لنا مشاعره وينذ، كما يصف الأحداث التى أعقبت سقوط الخرطوم.

أما عن حملة الإنقاذ فقد لاقت مشاق فى عبور النيل عند الشلال السادس حيث الملاحـــة عســيرة ومعقده، ولم يمكن مرور السفن من مدخل (السبلوقة) الضيق إلا فى ٢٧ يناير.

وفـــى ٢٨ يناير وصلت الباخرة بوردين وعليها قوة صغيرة من البريطانيين بقيادة الضابط الإنجليزى تشارل ويلسون (C.Wilson) تتبعها باخرة أخرى على مـــرمى البصــــر مـــن مدينة الخرطوم- وقد قوبلت الباخرتان بطلقات كثيفة من مدفعـــية الدراويـــش مـــن البر، وحين تأكد ويلسون من سقوط الخرطوم وموت غـــوردون قفـــل راجعاً بعد آن تعطل أحد الوابورين وأصاب الأخر عطب، ولما علـــم القـــائد العـــام فـــى كورتى بأخبار مقتل غوردون وسقوط الخرطوم أبرق لحكومته لتلقى تعليماتها[١].

وقـــد أحدث مقتل غوردون بهذه الطريقة هزه عنيفة فى بلده لدرجة أن الملكة لبست لباس الحداد وأرسلت لشقيقتهAugusta رسالة فياضة بالعطف، وقرر مجلس العمـــوم مـــنح أسرة غوردون ٢٠,٠٠٠ جنيه أسترلينى، وكان له تأثير سياسى فى إضعاف حكومة الأحرار لأنها لم تصدر قرار الموافقة على إرسال حمله الإنقاذ إلا مـــتأخرًا جدًا حتى لقد أجمعت جميع الصحف البريطانية على أن أخطاء جلادستون (Gladstone) فـــى صـــيف ١٨٨٤ وتراخـــيه فـــى إرسال حمله لإنقاذ غوردون بالخرطوم من النوع الذى لا يبرر.

وقـــد بقيت فكرة التشفى لدى الإنجليز، وحملتهم على نبش عظام المهدى وهدم قبته عندما أستولى كتشنر على الخرطوم وأم درمان لكن أعيد بناؤها مره أخرى.

تاسعًا: تطورات الأحداث بعد سقوط الخرطوم :

أما عن تطورات الأحداث بعد سقوط الخرطوم فيمكن آن نجملها فيما يلى:

كـــان الغرض من حملة الإنقاذ أو حملة النيل - كما أطلق عليها- هو استعادة غـــوردون وستيوارت من الخرطوم - وبما أن هذا الغرض لم يتحقق فقد كان أمام إنجلترا أحد أمرين:

١- إمـــا اتخـــاذ خطة الدفاع - وسحب الجنود البريطانيين إلى موضع استراتيجى ملائم فى وادى النيل.

١- ثـــارت موجة نقد عنيف لسير شارلس ولسن (Charles Wilson) بعد مقتل غوردون لتأخره فى نجدته، على أن هنرى غوردون فى مقدمة المذكرات المنشورة يبرئ ساحة السير شارلس ولسون مما نسب إليه.

٢- أو محاولة القضاء على سلطة المهدى فى الخرطوم، خاصةً آن إنجلترا أصبحت تخشى وقع انتصاره فى مصر ذاتها، بل وبين المسلمين فى سائر الأرض، وخاصةً آن المهدى قد أعلن أكثر من مره آن غايته هى امتلاك مصر نفسها.

وكان من رأى ولسلى (Wolseley) ضرورة استرداد بربر، وأبو حمد باشتراك جيش الصحراء وجيش النهر، وكذا ضرورة إعادة فتح طريق سواكن- بربر، ومد خط حديدى بينهما، ولتحقيق هذا الهدف تعاقدت الحكومة المصرية مع شركة إنجليزية وبدأت الشركة تباشر عملها فى مد الخط الحديدى، كما ذهب الجنرال جراهام (Graham) على رأس حملة إلى سواكن بهدف القضاء على قوة عثمان دقنه، ونجح فعلاً فى زحزحة الأنصار المحيطين بسواكن، لكنه لم يقض على قوتهم، كما سافر ولسلى بنفسه إلى القاهرة ليشرف على الاستعدادات اللازمة لاستئناف الزحف.

لكن اضطراب الأحوال على حدود الهند جعل من غير المرغوب فيه الاشتغال بحرب فى السودان قد تعرقل طاقة إنجلترا العسكرية فى حالة الاحتياج لخدمات جيشها فى مكان أخر.

وفى ٢٤ يونيه ١٨٨٥ سقطت وزارة جلادستون (Gladstone) وخلفتها وزارة سالسبورى، وكان من رأى الوزارة الجديدة أيضًا عدم المجازفة بحرب مع الدراويش حالياً- ورسمت خطتها على أساسين:

١- التقهقر لوادى حلفا- ومنع الدراويش من التقدم فى وادى النيل شمال وادى حلفا.

٢- الدفاع عن سواكن دون غيرها فى شرق السودان.

ولذا فقد صدرت الأوامر لجنود حملة (ولسلى) بالجلاء، فأخليت دنقله وأحتلها عامل بربر من قبل المهدى (محمد الخير) وضمها للأراضى الخاضعة للمهدية.

وقبل أن نتحدث عن الظروف التى لا بست تنفيذ هذه الخطة يمكن آن نقف قليلاً لنلقى الأضواء على السياسة التى أتبعتها الحكومة الإنجليزية تجاه السودان حتى هذه اللحظة - تلك السياسة التى كانت مثار انتقاد سائر الدوائر السياسية فى إنجلترا ذاتها وخارجها.

فنحـــن نلخص من تتبع الأحداث السالفة موقف إنجلترا من أحداث السودان فيما يلى :

١- لعبــت إنجلــترا دورًا هامًــا فـــى قيام (حملة هكس) التى أبيدت عن أخرها، لأســباب من أهمها عدم إتباع سياسة عبد القادر باشا حلمى التى كانت تقضى بالتركيز لا التشتت، ولسوء أختيار الطريق والتخطيط السئ للمعركة.

٢- ضـــغطت إنجلــترا على مصر لتقبل إرسال بريطانى رسمى للخرطوم، وكان هــذا الــرجل هو(غوردون) ولم تأبه إنجلترا باعتراضات الحكومة المصرية على هذا العمل.

٣- كبلــت الحكومـــة الإنجليزية أيدى الحكومة المصرية فمنعت استخدام الجيش المصــــرى الجديـــد ضد المهديين واشترطت للإستفادة من أية معونة عسكرية عثمانـــية- الا تـــتكفل الخـــزانة المصرية باى شئ فى نفقات هذه المعونة فى الوقـــت الـــذى كانت تعلم فيه أن الدولة العثمانية فى ضائقة مالية تحول دون تقديمها مثل هذا العون - إذا وافقت عليه- وفى نفس الوقت رفضت الحكومة الإنجليزية تقديم أية مساعدة عسكرية من جيوشها أو من الهند لمصر.

٤- تركـــزت خطـــة غـــوردون- كمـــا حددتها الحكومة الإنجليزية - فى سحب الحاميات المصرية، وتصفية الإدارة فى السودان، ما عدا الأقاليم المطلة على البحر الأحمر ذات الأهمية الخاصة لإنجلترا سواء فى مواصلاتها البحرية منع الهند أو بالنسبة لأهداف إنجلترا الاستعمارية فى القارة الأفريقية.

٥- لـــم تطلق إنجلترا يد غوردون فى العمل- فلم تحقق رغبته فى استخدام الزبير رحمت- بغض النظر عن تقدير النتائج المحتملة لاستخدامه.

٦- فـــيما يتعلق بغوردون فقد أدرك خطورة ترك السودان لعوامل الفوضى دون تدبـــير حكومة نظامية، لكن كانت تسيطر عليه رغبة تصفية الإدارة المصرية بالســـودان، فأتجـــه للتفكير فى إعادة السلطة فى بعض إجزاء السودان للبيوت الحاكمـــة السابقة فى دارفور وغيرها، وللزبير فى الخرطوم والحواضر التى يتعذر إعادتها للبيوت الحاكمة السابقة، كما فكر فى ضم مديرية خط الاستواء لأملاك الملك ليوبولد ملك بلجيكا.

٧- اهتمت الحكومة الإنجليزية بمسألة فتح وتأمين طريق سواكن - بربر وفكرت فـــى إرســـال حمله لتحقيق ذلك، لكن مدى نجاح مثل هذه الحملة كان موضع خلاف بين السلطات العسكرية، فلم ينفذ هذا الاتجاه.

٨- تباطأت وزارة جلادستون فى اتخاذ الإجراءات لإرسال حمله لإنقاذ غوردون وستيوارت بعد أن تحرج مركزهما وقطع الاتصال بين الخرطوم ومصر مما أدى لوصول حملة الإنقاذ هذه بعد فوات الأوان وبعد مقتل غوردون بيوم واحد.

٩- لم يكلف الإنجليز أنفسهم- بعد سقوط الخرطوم- فى التفكير فى مصير الحاميات المصرية فى كسلا، وسنار وغيرهما وتركوها لمصيرها المحتوم، وقد علق (السير ماكاى) الذى كان فى أوغندا فى ذلك الوقت على ذلك بقوله:

"لقد ذبح المهدى الجنرال غوردون، بينما جرى الجيش الإنجليزى راجعًا، وقد نسى إنه جاء ليفعل ما كان غوردون قد جاء ليفعله، ألا وهو إنقاذ حاميات السودان- تأملوا المنطق ! لأن الجنرال لم يستطع آن يفعل ذلك بدون جيش- فإن الجيش لم يستطع هو الآخر آن يفعله بالرغم من أنه أوتى قائدًا أخرًا- وكان ليبتون الإنجليزى فى قبضة المهدى، ولكن الحملة لم تتخذ أى خطوة لتتبين ما إذا كان حياً آو أنه مات - فضلاً عن إنقاذه، كما أهملوا سلاتين، كذلك أمين الذى ظل صامدًا فى مديرية خط الاستواء إلى جانب الحاميتان المصريتان اللتان أصبحتا تنتظران مصيرهما المحتوم- الذبح.

لقد ولى الإنجليز الأدبار- دون أن يعرف أحد لذلك سببا لدهشة العدو والعالم جميعًا ولخيبة رجاء كافة الأوربيين والمصريين المريرة - وعادوا مسرعين تاركين الحاميتين تحت رحمة الثائرين وأصبحت مديريتا بحر الغزال وخط الاستواء الكبيرتان مجرد فريستين لإغارات طلاب الرقيق من دراويش حزب المهدى- وهذا التخلى عن بلاد الزنوج الشاسعة والتى حكمها غوردون يومًا ما أعظم أسلوب إنسانى - وصف فى إنجلترا بأنه بمثابة (ترك شعب شجاع ليستمتع بحريته).. حقاً إن الدراويش قد تركوا وشأنهم ليعيشوا فساداً فى أجمل جزء فى أفريقيا الوسطى .. وفوق هذا فإن الذين تركوهم هم الإنجليز الذين قالوا يومًا إنهم مصممون على القضاء على تجارة الرق هناك"([1]).

عاشرًا: سياسة إنجلترا فى السودان بعد سقوط الخرطوم :

استقر رأى الحكومة الإنجليزية بعد سقوط الخرطوم على سياسة الاهتمام بالدفاع عن المناطق النيلية شمالى وادى حلفا - وعلى سواكن فقط.

1- Moorehead, Alen. The white Nile (N.Y. 1960), p. 274.

ففيما يتعلق بالمناطق النيلية شمالى وادى حلفا:

فقــد تقــرر أن يعهــد بهذه المهمة للجيش المصرى الجديد تحت قيادة بعض الضــباط الإنجليز، وقد سادت فترة سكون حتى ٣ ديسمبر ١٨٨٥ حين إلتقت قوه مصــرية بقــيادة الســير فردريك ستيفنسون (F.Stephenson) مع الدراويش عند جنــيس (Ginnis) فى منتصف الطريق بين وادى حلفا ودنقله وكان ذلك بعد وفاة المهدى[١] ببضعة شهور، وقد منى الدراويش فى هذه الموقعة بخسائر فادحه[٢].

وقــد تفاوضت الحكومة الإنجليزية مع الحكومة التركية لتلزما مصر بإرسال مــندوب عنها للتفاوض مع الدراويش على أفضل الوسائل لتهدئة السودان والحدود مــع مصــر بالطرق السلمية، وسافر لهذا الغرض (يوسف شهدي باشا) إلى وادى حلفــا فى مايو ١٨٨٦، ولم تجد بالطبع هذه المحاولة بل إن التعايشى أرسل رسائل تهديد لملكة بريطانيا، ولسلطان تركيا، وخديوى مصر.

علــى أن فكرة غزو مصر ظلت تراود الدراويش، ولتحقيق هذا الهدف أعدت حملــه تحــت قيادة عبد الرحمن النجومى لغزو مصر تلك الحملة التى هزمت فى توشكى فى ٣ أغسطس ١٨٨٩- كما سنشرح بعد.

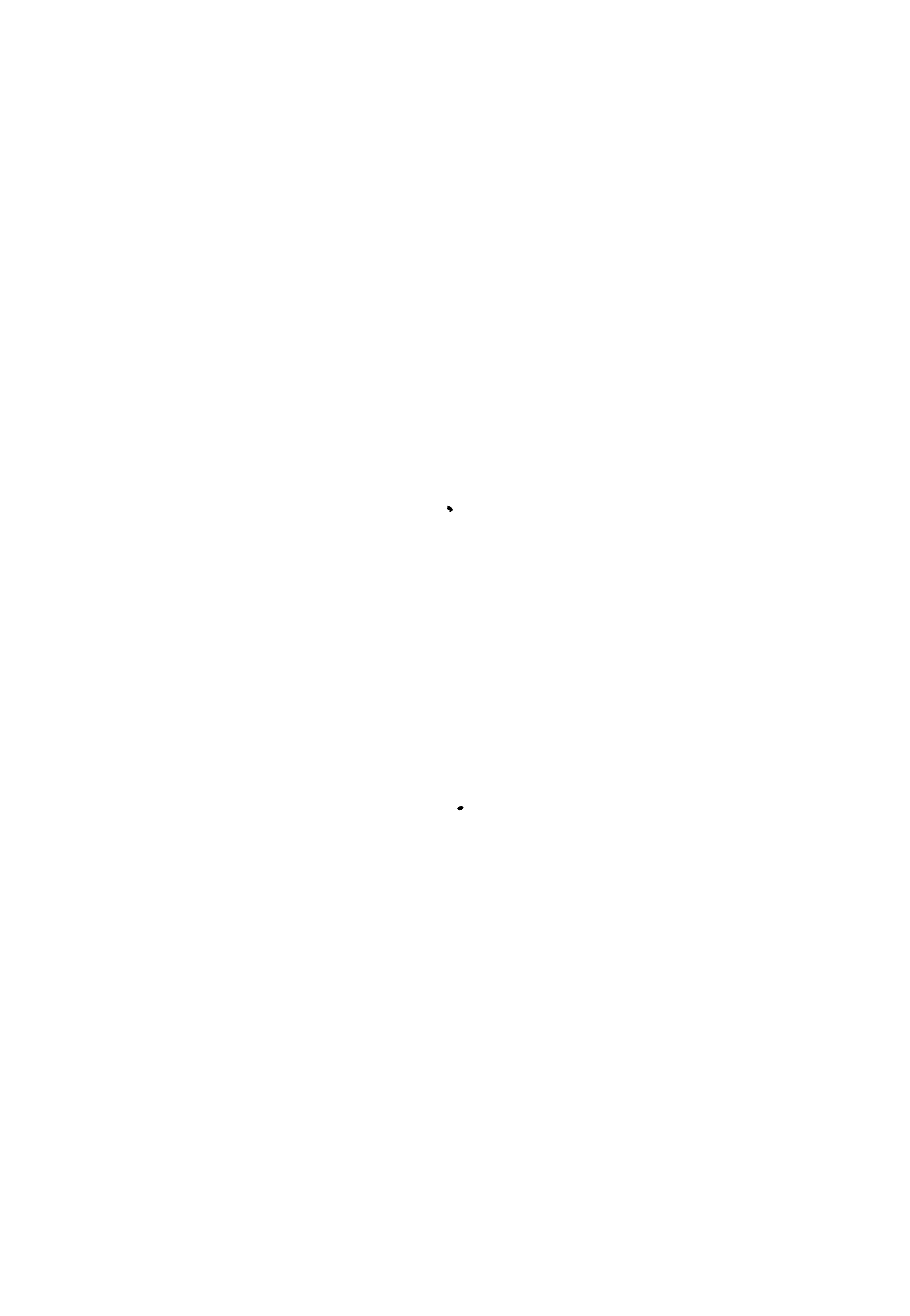
أما فيما يتعلق بسواكن :

فقــد وضــعت قوة تحت قيادة السير جراهام (Graham) بقصد القضاء على ســلطة عــثمان دقنه وتأمين الطريق بين سواكن وبربر، وتسهيل عملية إنشاء خط السكة الحديد بينهما إن أمكن ذلك.

وقد التقت هذه القوة بقوات عثمان دقنه وهزمته فى موقعة تماى (Tamai) فى أبريل ١٨٨٥- على أن الأوامر صدرت بعد ذلك بأن يقتصر الآمر على المحافظة على سواكن.

1- Slatin : Op. cit., T. II, p. 498.

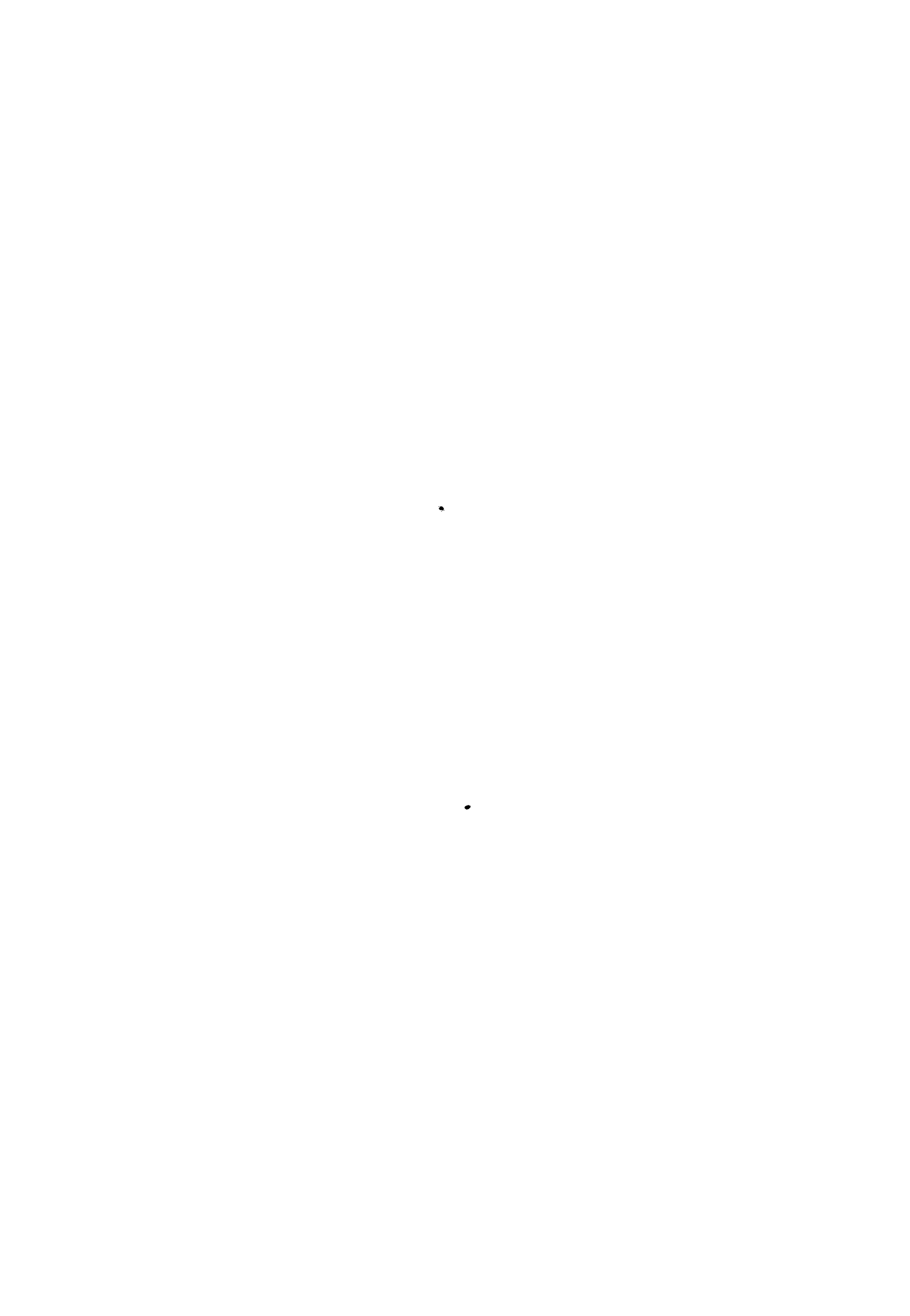
2- Wingate : Op. cit., p. 275.



القسم الثانى
الحكومـــة المهديـــــة
وأحوال السودان فى فترة حكم المهدية

الفصل الرابع: التطورات التى تبعت سقوط الخرطوم.

الفصـــل الخـــامس: طبيعة الحكومة المهدية وأحوال السودان فى فترة حكمهم.



الفصل الرابع
التطورات فى السودان
بعد سقوط الخرطوم فى أيدى الأنصار

- ماذا حدث فى الخرطوم بعد دخول المهدى فيها
- ما ألت إليه بقية أجزاء السودان.
- ضياع أجزاء من السودان.
- الوضع فى دارفور.
- الوضع فى بحر الغزال.
- الوضع فى مديرية خط الاستواء.
- الوضع فى السودان الشرقى.
- الوضع فى الأقاليم المطلة على البحر الأحمر، والصومال، وهرر.

الفصل الرابع
التطورات فى السودان
بعد سقوط الخرطوم فى أيدى الأنصار

لعل السؤال الذى يطرأ على الذهن لأول وهلة هو :
ماذا حدث فى الخرطوم بعد دخول المهدى فيها ؟

وصف إبراهيم فوزى ما أرتكب من الفظائع ضد أهل الخرطوم فى أموالهم وأعراضهم وأرواحهم وقد كان حاضرًا هذه الأحداث.

فقد نظر لأهل الخرطوم على أنهم كفار فاستبيح كل مايملكون للغزاة.

ويقدر إبراهيم فوزى عدد القتلى من سكان الخرطوم بعد سقوطها ٢٤,٠٠٠ رجل. ويقول إنهم قتلوا كل طفل من الذكور، وأن الكثير من الفظائع أرتكبت حتى أنهم كانوا يقتلون الطفل ويوزعون أجزاء جسمه على أقاربه من النساء. وقد استمرت عمليات التعذيب والنهب فى المدينة أكثر من شهرين ونصف بحثًا عن الثروة. ويقول إن الكثيرين من النساء أصبن بالجنون لهول ما قاسين من العذاب، وأنهم أسروا النساء وقاموا بتوزيعهن على أمراء المهدى وأتباعه فأعطى كل أمير ١٠ فتيات وذلك بموجب سجلات بأسماء الأسرى. ولم يحترموا قناصل الدول فقد قتلوهم جميعًا ونساءهم. ومن الذين قتلوا مفتى السودان، ومفتى المحاكم الشرعية. فالصورة التى يعطيها إبراهيم فوزى بشعة إلى حد كبير وبالطبع هذا كلام شخص عاش هذه الأحداث لكنه لاقى من تعذيب المهديين فى الأسر ما يدعونا نشك فى أن هناك مبالغة فى أقواله(١).

انتقل المهدى بعد ذلك إلى أم درمان، وبنى بها جامعًا صغيرًا، كما بنى عدة بيوت من الطين والحجر والقش، وأمتد معسكر الأنصار بها لمسافات طويلة –

١- إبراهيم فوزى: السودان بين يدى غوردون وكتشنر.

ملاحظة : إبراهيم فوزى أصله من ضباط المديرية الاستوائية وعمل مع غوردون فيها، لكن غوردون غضب عليه فأعيد لمصر. واشترك إبراهيم فوزى فى الثورة العرابية فطرد من الخدمة، لكن لما نكر فى مهمة غوردون الأخيرة طلبه غوردون معه فعفا الخديوى عنه ورافق غوردون حتى نهاية حياته وأسر بعد سقوط الخرطوم وعذب لكن عفا عنه المهدى واستمر فى خدمة التعايشى.

وهو يصف المهدى وحياته الخاصة وقد اتهمه بالنفاق وذكر أنه يتظاهر بالجوع فى حين تقدم له فى الخفاء أشهى الأطعمة.

وحكـم المهدى من مدينة (أم درمان)، وفترة حكمه قصيرة فقد توفى بالتيفوس فى ٢٢ يونـيو ١٨٨٥ وتولـى بعـده الخليفة عبد الله التعايشى وأخذت أم درمان فى الاتسـاع والعمران بسرعة. وقد نقل جثمان المهدى بعد ذلك إلى المقبرة التى أمر الخليفة ببنائها له فى أم درمان[٢].

أما عن بقية أجزاء السودان:

فقـد كان سقوط الخرطوم إيذانا بضياع أجزاء السودان الباقية – إذ أصبح مـن المتعذر بعد ذلك أن تحتفظ مصر بسلطانها فى أقاليم بحر الغزال، وسنار، ودارفـور، وخـط الاسـتواء، والسـودان الشـرقى، وسواحل البحر الأحمر، والصـومال وهـرر. ولـو أن كل هذه المناطق سقطت فى يد المهديين لكان مصـيرها الآن على الأقل كمصير الأجزاء الأخرى من السودان التى استولوا عليها، لكن للأسف فإن عوامل الفوضى التى اجتاحت السودان فى هذه الفترة – أتاحـت فرصـة ذهبـية للدول الاستعمارية لتحقيق أطماعها فى كثير من هذه المناطق.

وفيما يتعلق بدارفور :

كان آخر حكامها تحت الإدارة المصرية سلاتين بك (Slatin Bey) النمساوى[١] وقـد ذكرنا إنه سلم للمهديين فى داره (Darra) فى ديسمبر ١٨٨١ وأسره المهدى ولكـن قـربه الخليفة عبد الله، وكان يعمل كمترجم و(ياور) للخليفة، وكان يضطر أحـيانا أن يـنام خارج خيمة الخليفة وأن يجرى بجانب حصانه فى الإستعراضات العسـكرية وأن يجلس أمامه معقود الساقين – ولكن استطاع أن يهرب، وأن يسجل انطباعاته فى كتابه المشهود الذى أشرنا إليه.

ولمـا تولـى التعايشى الحكم بعد المهدى عمد إلى تعيين أهله وأصدقائه الذين يثق فيهم فى مناصب خاصة فى السودان الغربى الذى اعتبره بلاده. وقد قام بالأمر فـى دارفـور فترة (الأمير يوسف) وهو ابن السلطان إبراهيم الذى قتل فى معركة منواشـى ١٨٨٤. لكن هذا الأمير طمع فى استرداد ملك آبائه مما اضطر التعايشى لأن يرسـل حملـة برئاسة (عثمان آدم) هزمت الأمير يوسف وقضت عليه وعلى محاولته.

---

١ – ملاحظـة : كان بالسودان عدد كبير من النمساويين، وقد وقعوا فى أسر المهدى ومنهم قنصل النسا هانسال (Hansal) تسلموا وأطلقت عليهم أسماء إسلامية، وأدرج كثيرون منهم فى خدمة الخليفة فيما بعد.

لكــن ظهــر بعد ذلك فقيه اسمه الشيخ أحمد من قبائل المساليت واشتهر باسم (أبـــى جميزه)[1] جمع حوله عددًا كبيرًا من الاتباع وقام يناوئ المهدية ويأخذ على التعايشـــى منعه الناس عن الحج لمكة بحجة أنه يمكن الاستعاضة عنه بزيارة قبر المهـــدى فـــى (أم درومان)، وحاول أبى جميزه أن يتشبه بما حاوله المهدى فى أن يـــنال تأيـــيد السيد محمد المهدى بن السيد محمد بن على السنوسى مؤسس الطريقة السنوســـية، وأرسل إليه فى جغبوب يطلب تأييده لحركته التى تهدف لإعادة الإسلام للطريق السوى وإتباع الكتاب والسنة – ولكن السيد محمد المهدى السنوسى لم يشأ الـــتدخل فـــى الخلاف بين (أبى جميزه) والتعايشى فأدى ذلك لانفضاض الناس من حـــول أبى جميزه فضعف شأنه رغم ما وصلته من مساعدات من سلطان بورنو، وأخيرًا استطاع عثمان آدم قائد جيش التعايشى أن ينزل به وبأتباعه هزيمة حاسمة فى فبراير ١٨٨٩.

أما بحر الغزال :

فقـــد كان يحكمها وقت إندلاع الثورة المهدية الإنجليزى لبتون (Lupton) وقد سلم هذا الحاكم للأمير كرم الله محمد (Karamallah Mohamed) مندوب المهـــدى فى عام ١٨٨٤، وبقى فى أسر المهدى، ثم أفرج عنه واستفيد بخبرته فى مصنع الذخيرة بالخرطوم حتى مات فى يوليو ١٨٨٨ ولم يبلغ الثلاثين من عمره[2].

علـــى أن الدراويش لم يلبثوا أن انسحبوا من بحر الغزال فى عام ١٨٨٦ وتركوها نهبًا لأطماع البلجيكيين والفرنسيين. فقد كانت فرنسا تطمع فى توسيع نطـــاق مســـتعمراتها، وأن تمتد من مستعمرة الكونغو الفرنسى شرقًا فى اتجاه حوض النيل.

وفى نفس الوقت كان الملك (ليوبولد الثانى) ملك البلجيك يطمع هو الآخر فى التوسع صوب حوض النيل، وكان مؤتمر برلين ١٨٨٤ قد وافق على إنشاء (ولاية الكونغـــو الحـــرة) تحت سيادة ملك بلجيكا – وقد مكنتهم المعاهدات التى عقدت مع

١– ترجع هذه التسمية إلى أنه كان يجتمع بأتباعه فى ظل شجرة جميز كبيرة.

Wingate : Op. Cit., P. 374.

٢– أصيب ليبتون فى عينية بسبب انفجار فى مصنع الذخيرة لكنه مات بالحمى فى ٨ مايو ١٨٨٨ بام درمان.

الـــدول الاســـتعمارية الأخرى (البرتغال، والفرنسيين، والإنجليز) من وضع أيديهم على جزء كبير من بحر الغزال[١].

مديرية خط الاستواء :

كان حاكمها أمين باشا (إدوارد اشنتزر سابقا Edward Schnitxer) قد رفض أن يستســلم لتهديدات الأمير كرم الله – عامل المهدى – لكن الثورة المهدية عزلته عـــن الوادى شمالا وعن بقية أجزاء السودان، وأصبحت مصر عاجزة عن إرسال تعزيـــزات له[٢] – ممـــا أضعف مركز أمين باشا وشجع على قيام الثورات ضده، واضـــطر أميـــن باشـــا لأن يسحب حامياته من جزء كبير من المديرية، واستولى الأنصار على المنطقة الواقعة شمال (الرجاف) – إلى أن أرسل ستانلى (Stanley) لإعادته ومن يرغب من رجاله.

وقصـــــة إرســـال ستانلى لسحب أمين باشا من المديرية الإستوائية تستحق منا وقفة.

فقـــد شـــاعت فـــى أوربا فى عام ١٨٨٦ أخبار أن أمين باشا فى خطر، وأن الواجـــب يحـــتم إرســـال حملة لإنقاذه – وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه المنافســـة بين الألمان والإنجليز على أشدها فى شرق أفريقيا، وترتب عليه إرسال الـــرحالة (ستانلى) فى البعثة التى سُميت بعثة الإنقاذ، وساهم فى تدبير هذه النجدة كـــل مـــن السير وليم ماكينون (William Mackinon) رئيس الجمعية البريطانية لشـــرق أفريقـــيا، وليوبولد الثانى (Leopold II) ملك بلجيكا. ووصلت الحملة إلى شاطئ بحيرة البرت فى مايو عام ١٨٨٨ فى حالة سيئة، وكشف ستانلى لأمين باشا عن أهدافه – فقد اقترح عليه:

١- إمـــا الإنسحاب مع الحملة هو ومن معه من الضباط والعساكر إلى مصر عن الطريق الذى يرى ستانلى أنه أنسب لعملية الإنسحاب.

٢- أو يـــبقى فـــى المـــنطقة كمدير تابع لحكومة دولة الكونغو (وهو ما عرضه ليوبولد).

١- لمعرفة تفصيلات هذا المؤتمر :

انظر : شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ط١ ص ٣٠١، ٣٠٩.

2- Statin: Op. Cit. T. II, P. 611.

٣- أو يذهب إلى الشمال الغربى لساحل بحيرة فكتوريا ويبنى هناك مراكز ويكون فـى خدمـة (الجمعية البريطانية لشرق أفريقيا) كمدير لها فى هذه الجهات – وينتظر قوات الشركة هناك التى ستنقل إليه.

والحقيقة التى وضحت كما يقول الكاتب فيلى (Valey):

"إن حـادث خطف أمين باشا كان القصد منه هو محو آخر آثار سيادة مصر على هذه المنطقة التى تعتبر الوحيدة التى أخفقت فيها جماعة المهدى، إذ أن وجود حـاكم فيها مؤيد لحقوق الخديو وقف سدًا فى طريق إنجلترا إلى الجنوب فكان من الواجب التخلص من هذا الرجل المضايق، ولكى تبرر إنجلترا تدخلها – أذاعت فى أوربـا نـبأ وجود أمين باشا فى خطر، وقامت لنجدته فكلف ستانلى بإنقاذه، فبعثه سـتانلى تخفـى أمـرًا سياسيًا كان معدًا منذ وقت طويل، والدليل على ذلك أنه لما رفـض أميـن باشا مغادرة البلاد وذكر لستانلى أن لديه رسالة من رئيس الوزراء المصـرى (نوبار باشا) يترك له فيها حرية البقاء أو الإنسحاب حسب الحالة – لم يرستانلى بدًا من استخدام القوة لإقناع أمين باشا، وفى ١٠ أبريل عام ١٨٨٩ خطفه مـع ٥١ ضـابطًا وجنديًا وموظفًا، ١٢٦ من خدمه، وبعد بضعة أشهر رفع العلم البريطانى على قلعة وادلاى"(١).

على أن أمين باشا بعد وصوله إلى شرق أفريقيا لم يكمل رحلته إلى مصر أو إلى أوربا، لكنه دخل فى خدمة الحكومة الألمانية وعاد لمنطقة البحيرات الإستوائية لينشئ منطقة نفوذ ألمانية هناك لكن قتله تجار الرقيق فى ٢٣ أكتوبر ١٨٩٢.

علـى أن انسحاب أمين باشا من مديرية خط الاستواء – ترك المديرية أرضًا لا صـاحب لهـا – فـى نظـر الدول الاستعمارية وفتح باب الصراع بين ألمانيا وإنجلترا وبلجيكا على النفوذ فى هذه الجهات.

وقـد نجحت شركة شرق أفريقية البريطانية الإمبراطورية فى إرسال الكابتن لوجـارد (Frederick Lugard) لعقـد معاهدة مع الملك موانجا (Mwanga) ملك أوغـنده تدخل بموجبها بلاده تحت الحماية البريطانية وقد وقع الملك هذه المعاهدة فـى ٢٦ ديسمبر ١٨٩١ – واستطاع لوجارد أن ينشئ عدة مراكز فى المنطقة بين بحيرتى أدوارد والبرت، وضع فيها حاميات من جنود أمين باشا السابق.

1- Valey, Et.: Les Rivalite, France Anglaise en Egypte (1876-1904), (1904) PP. 165-166.

وفــى أبريل ١٨٩٣ حلت الحكومة البريطانية محل الشركة وألزم موانجا أن يوقــع معاهدة مع السير جيرالديورتال (Gerald Portale) المندوب البريطانى فى زنجبار، وضعت بموجبها بلاده تحت حماية الحكومة البريطانية.

وأعلنــت إنجلترا رسميًا حمايتها على أوغنده فى ١٨ يونيه ١٨٩٤. ومن ذلك الوقــت أخــذت الحكومة الإنجليزية تمد نفوذها على الأقليم المجاورة، فقضت على ســلطة (كــباريجا) ملك (أونيورو) وضمت بلاده لإدارتها فى أوغنده، بل ورفعوا العلــم الــبريطانى على (وادلاى) و(الدفلاى) من أملاك مصر السابقة فى المديرية الاستوائية.

علـــى أن إنجلــترا عقــدت فى ١٢ مايو ١٨٩٤ مع ليوبولد ملك بلجيكا اتفاقًا أجــرت إنجلــترا بمقتضاه لولاية الكونغو الحرة ما صار يعرف باسم حاجز لادو (Lado Enclave) وهــو عبارة عن منطقة كبيرة من بحر الغزال بموجبها أعطت ولايــة الكونغــو الحــرة منفذًا إلى النيل الأعلى بين (ماهاجى) على بحيرة البرت و(لادو) بموجب إيجار يستمر مدة حكم الملك ليوبولد، وفى مقابل ذلك أجرت ولاية الكونغــو الحــرة لإنجلترا شريطًا من بحيرة أدوارد إلى بحيرة تنجانيقا – وقد أدى إحتلال البلجيكين (الحاجز لادو) إلى حدوث مشاكل مع حكومة السودان لم تسو إلا أخيرًا فى اتقاف عقد فى لندن فى عام ١٩٠٦.

أما سنار :

لقــد دافعت عنها حاميتها دفاعًا مجيدًا، وأوقعت بالدراويش عدة هزائم لكن تحت ضغط الحصار وقلة الموؤنة اضطرت سنار للتسليم لقائد الدراويش (محمد عبد الكريم) فى أغسطس ١٨٨٥، وكان ذلك فى عهد الخليفة عبد الله التعايشى – فقــام بتخريــب المديــنة[١] وقــد بقيت خرابًا حتى أعيد تعميرها بعد استرجاع السودان.

السودان الشرقى :

ضــيق عثمان دقنه الحصار على (القضارف) و(القلايات) وغيرهما من مدن السودان الشرقى[٢].

1- Statin: Op. Cit. T. II, P. 510.

2- Ibid. : P. 511.

وقــد عُقدت معاهدة مع يوحنا ملك الحبشة فى يونيه ١٨٨٤ – تعهد بموجبها بــأن يســهل للجيش المصرى مهمة الانسحاب من كسلا وغيرها من مدن السودان الشــرقى واجتــياز أثيوبــيا إلى (مصوع). وأمكن بفضل تعاون الأحباش انسحاب حلمــيات القلابــات وأمديــب، وســنهيت – ووضع الأحباش أيديهم على مقاطعة بوغــوص (سنهيت) كما تقضى هذه المعاهدة بينما أستولى الدراويش على الأقاليم الباقية.

وفى ساحل البحر الأحمر والصومال وهرر[1] :

تقرر إخلاء هذه البلاد – فأخليت بربره فى أكتوبر ١٨٨٤ – وأسست إنجلترا بها محمية بريطانية.

وأخليــت هرر – فى أبريل ١٨٨٥ وسلمت للأمير عبد الله ابن الأمير محمد عــبد الشكور، غير أن منليك الثانى ملك الحبشة لم يلبث أن فتحها وضمها للحبشة فى سنة ١٨٨٧.

أمــا ميناء زيلع – فقد احتلته إنجلترا فى أغسطس ١٨٨٤ وظلت تدير شئونه بقوات سودانية مصرية حتى أنزلت الراية المصرية عنها نهائيًا فى أكتوبر ١٨٨٨، وأصبحت زيلع، بلهار بربره نواه لما عرف باسم (الصومال البريطانى)[2].

أمــا ميناء تاجورة – فقد ارتكنت فرنسا على معاهدة سابقة كان الفرنسيون قد عقدوهــا فــى ١٨٦٢ مع أحد شيوخها (أبو بكر شحيم) بخصوص ميناء (أوبوك) فأرسلت فى مايو ١٨٨٤ قوات لاحتلال تاجورة. وتاجوره هى نواة لما عرف باسم (الصومال الفرنسى).

أمــا مصــوع – فقــد سبق أن وطدت إيطاليا أقدامها فى المنطقة القريبة من عصــب عند مضيق باب المندب – فقد أرسلت إيطاليا أسطولها فى فبراير ١٨٨٥ لاحتلالها، بعد أن أبدت إنجلترا عدم اعتراضها على قيام إيطاليا بهذا العمل، وأدت أطمــاع إيطالــيا فــى التوسع للداخل إلى الاصطدم مع يوحنا ملك الحبشة – لكن استفادت إيطاليا من النزاع الداخلى بين يوحنا ملك الحبشة ومنليك الثانى ملك شوى إحدى الأقاليم الحبشية.

١- الوثــائق المــتعلقة باخلاء هذه المناطق من النفوذ المصرى وتوزيعها بين الدول الاستعمارية نشرها المؤلف فى كتاب الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر.

2- Lewis, T. M.: The Modern History of Somaliland London, 1955.

وفى ٢ مايو ١٨٨٩ عقدت معاهدة اتشيالى (Uccialli) بين الإيطاليين ومنليك الثانى الذى خلف يوحنا الذى قتل فى إحدى المعارك ضد الدجراويش[١].

وفـــى يناير ١٨٩٠ أصدر ملك إيطاليا مرسومًا بإنشاء مستعمرة (إرتريا) التى كانت تضم مصوع، وزولا، كرمن (عاصمة أقليم بوغوص)، وأسره بالإضافة إلى بـــيلول) و(عصب). وحاول الإيطاليون توسيع حدودهم فى ارتريا جنوبًا وغربًا – لكنهم اصطدموا بالدرْاويش وهزموهم – واحتلوا كسلا فى يوليه ١٨٩٤.

وقـــد بقيـــت كســـلا فى أيديهم حتى سلموها للحكومة المصرية فى ديسمبر ١٨٩٧[٢].

علـــى أن أطمـــاع إيطاليا التوسعية أدت للاصطدام من جديد مع الحبشة لكن هزيمة إيطاليا على يد الأحباش فى (عدوه) فى مارس ١٨٩٦ وضعت حدًا لأطماع إيطالـــيا الـــتى عمـــدت بعـــد ذلك لعقد سلسلة من الاتفاقيات مع بريطانيا، ومصر والحبشة لتخطيط حدود مستعمرة إرتريا[٣].

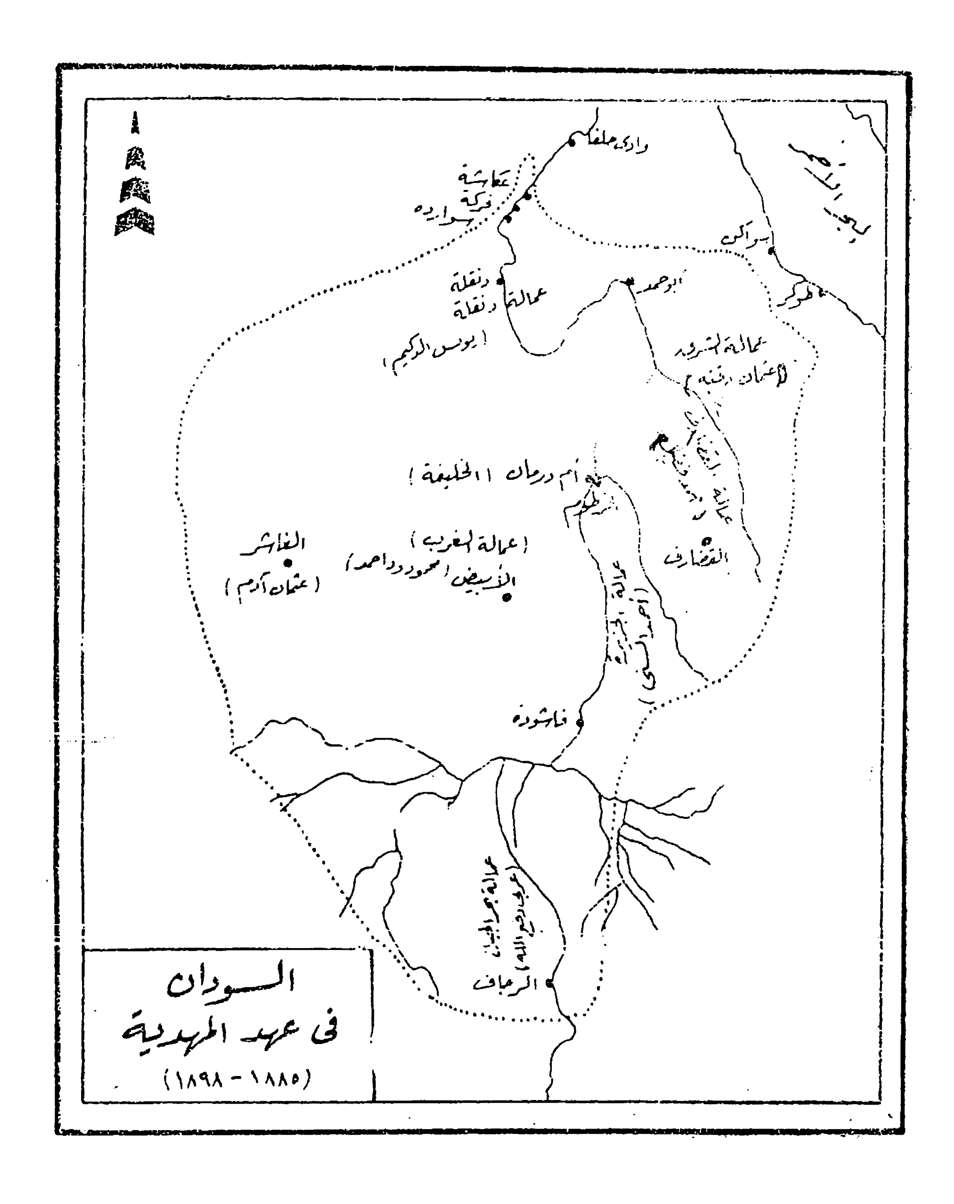
وهكـــذا قطعت أوصال السودان – إذ لم يتمكن المهديون من تثبيت أقدامهم فى الســـودان الشمالى كله، ثم اخلوا بحر الغزال فى ١٨٨٦، ودارفور ١٨٨٩، واحتل الأحـــباش بوغـــوص ١٨٨٥، وهـــرر ١٨٨٧ – واقتســـم الإنجلـــيز والفرنسيون والإيطالـــيون بـــلاد الصـــومال فـــيما بيـــنهم – وتوغل الإنجليز فى (أوغنده) – والبلجيكيون والفرنسيون فى إقليم بحر الغزال.

١- انظر شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ص ١٨١-١٨٧.

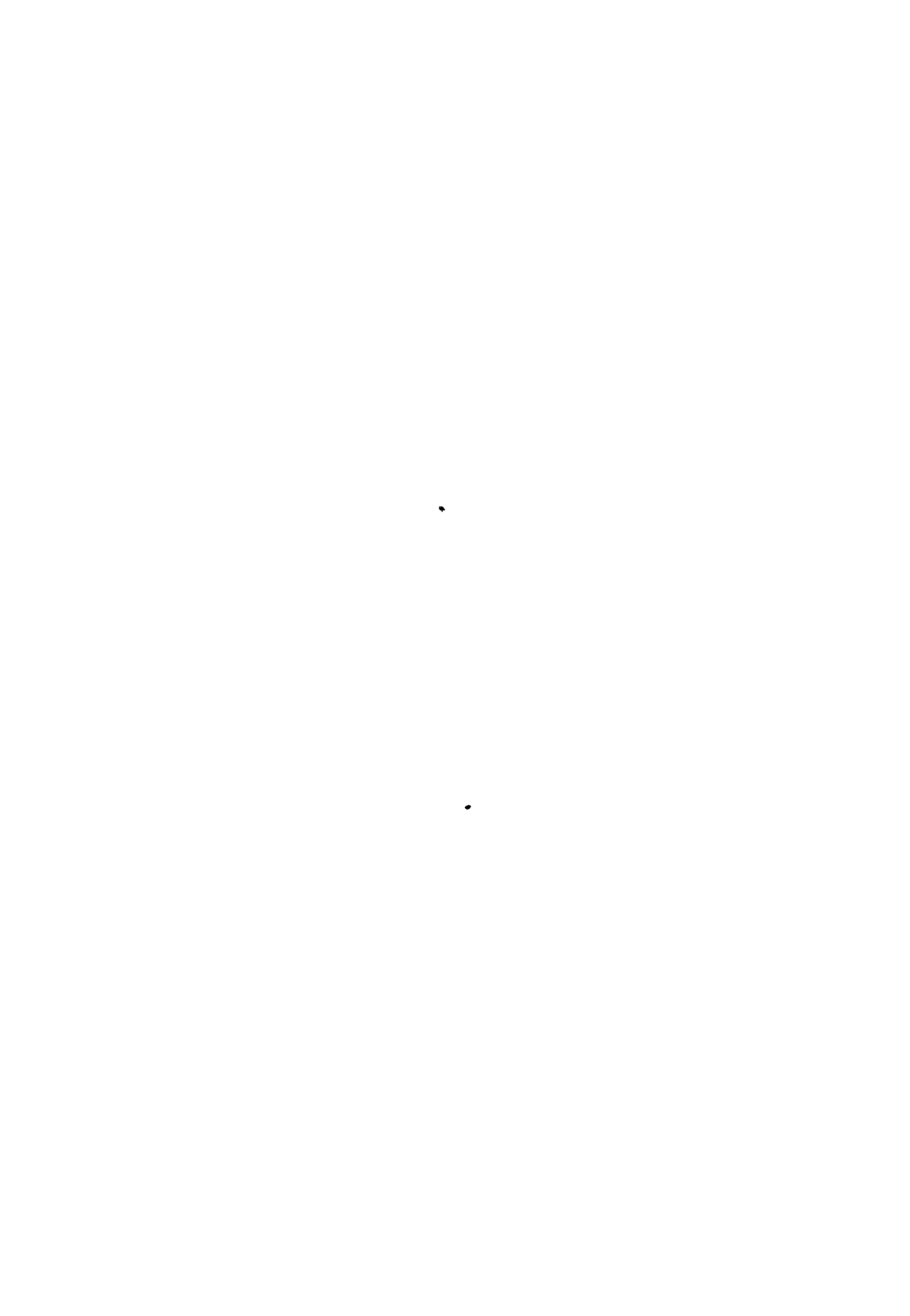
٢- انظر :

Martslet, Sir Eduard the Nap of Africa by Vol. II, (London, 1894) PP. 454-457.

3- Hallis, Christopher: Italy in Africa (London, 1944) PP. 39-40.



وادى حلفا
عكاشة
فركة
سواردة
سواكن
دنقلة
عمالة دنقلة
(يونس الدكيم)
عمالة الشرق
(عثمان دقنه)
أم درمان (الخليفة)
الخرطوم
القضارف
الفاشر
(عثمان آدم)
(عمالة الغرب)
(محمود واحمد)
الأبيض
فاشودة
الرجاف
السودان
فى عهد المهدية
(١٨٨٥ - ١٨٩٨)



٥

الفصل الخامس
الحكومـة المهديـة
وأحوال السودان فى فترة حكمهم

- محاولتهم إقامة حكومة شرعية حسب فهمهم للشريعة، وحسب ما سمحت به الظروف.
- الإدارة الداخلية.
- مؤامرة لخلع التعايشى ونهايتها.
- التقسيم الإدارى.
- الموارد المالية للدولة.
- الحالة الاقتصادية للدولة.
- المواصلات.
- السلطة القضائية.
- الطباعة والاتجاهات الفكرية.
- إخضـاع جمـيع الناس للعقيدة - خطابات لعدة جهات تدعوهم للاعتراف بالدولة الجديدة والانضمام للمهدية.
- القوة البحرية.
- السياسة الخارجية.
- الحوادث العسكرية التى تلت قيام الحكومة المهدية بأم درمان.

الفصل الخامس
الحكومة المهدية وأحوال السودان فى فترة حكمهم

لعـل السـؤال الذى يتبادر للذهن هو – هل أدرك المهديون شيئا من لوازم الحكومة المنظمة ونقلوه عن غيرهم؟

كانت سلطة المهدية ونفوذهم فى فترة حكم المهدى القصيرة تعتمد على سمعته الشخصية وشهرته كزعيم دينى.

وكانت (أم درمان) هى عاصمة الدولة بعد أن خربت الخرطوم. وقد تحولت من قـرية صـغيرة إلـى مديـنة كبيرة، وقد أطلق عليها المهدى اسم (البقعة المباركة) وأصبحت عاصمة الحكم ومركز الدعوة والإرشاد وأول مراكز الثقافة فى الدولة[١].

وكانت الناحية الجنوبية محمية بالقلعة التى بناها غوردون بينما كان خورشمبا (Khor Shamba) يمـثل حـدًا طبيعـيًا للشـمال، كمـا بُنيت قلعة جنوب كررى (Kerreri) وفـى وسـط المدينة بنى الجامع الكبير، ومن معالمها أيضًا بيت المال وسوق الرقيق[٢].

وقد اضطر الأمراء لأن يتخذوا لهم منازل فى أم درمان يقيم فيها بعض أفراد عـائلاتهم. ولعل الخليفة عبد الله – الذى أهتم بأن ينفذ الأمراء هذا – كان يرى فى هذا الإجراء ضماناً لولائهم له، هذا بالإضافة لما أجراه من عملية الهجرة الضخمة لأبناء عشيرته من الغرب لينتقلوا لوادى النيل ويعيشوا حوله[٣].

ويعطينا وينجت وصفاً للمسجد الكبير بأم درمان فيقول: إنه يبلغ ١٠٠٠ ياردة طولا، ٨٠٠ ياردة عرضا، وفى الناحية الغربية المكشوفة منه عدد كبير من أشجار اللـبخ – ويسـع هذا الجامع أكثر من ١٠,٠٠٠ شخص، وكان لكل أمير وشخص معـروف مكـان معروف فى الجامع ولذا إذا تغيب كان يكتشف أمره وإذا لم يثبت

١– أبو سليم، محمد إبراهيم: الحركة الفكرية فى المهدية (١٩٧٠) ص ٥٣– وانظر وصف سلاتين لها:

Statin: Op. Cit. T. II, P. 738.

٢– أعطانا سلاتين وصفا دقيقا ورهيبا لما يجرى فى هذا السوق، وقد زاره بإذن من الخليفة أكثر من مره.

Statin: Op. Cit. P. 723 suite.

٣– يتحدث سلاتين عن هذه الهجرة الضخمة والوسائل التى اتبعها الخليفة لتنفيذها وأهدافه منها – انظر:

Statin: Op. Cit. T. II, P. 692.

عـن طريق شاهدين على الأقل أنه مريض كان يسجن – وقد وصل عدد سكان أم درمان فى عهد الخليفة ما بين ١٥,٠٠٠، ٢٠,٠٠٠ نفس[١].

ولقـد حـاول المهديون إقامة أحكام الشريعة والدين بقدر فهمهم لها وبقدر ما سـمحت ظروفهم. فقد حرم المهدى أى شراب مسكر، كما حرم التدخين، وإن كان إبراهـيم فوزى يقول إن ذلك كان تظاهرًا، لكن كما ذكرنا إن فى أقواله الكثير من التحامل على المهديين.

وقـد كوّن المهدى (مجلسًا من الأمناء) تحت رئاسة الخليفة عبد الله التعايشى للنظر فى الشئون الإدارية فكان هذا بمثابة وزارة على رأسها الخليفة.

والملاحـظ أن المهـدى تفرغ فى فترة حكمه القصيرة للشئون الدينية ولكتابة الرسائل والمنشورات، أما الشئون الإدارية الأخرى الخاصة ببيت المال، والأسرى، والقـيادة العامة للجيش وغير ذلك من شئون الإدارة فقد تركزت كلها فى يد الخليفة عـبد الله، ولـذا فقـد قال الكتاب "إن المهدى كان روح الحركة بينما كان عبد الله التعايشى رجل الإدارة والتنفيذ".

وعلـى كـل فـرغم أن التقشـف، والزهد كانا محور المجتمع الذى نادى به المهدى، وأعتقد أن فيهما العلاج الناجع لمختلف المشكلات وللحالة التى تردى إليها العـالم الإسلامى – فلم يكن للمهدى بديل من ان يكون للدعوة نظام وتنظيم وللجهاد المقـدس مـن أن ينفذ عن طريق تنظيم عسكرى، وللعدالة من أن تكون فى جهاز قضائى – ومن هنا كان التنظيم الإدارى والقضائى والعسكرى للمهدية[٢].

الإدارة الداخلية :

كـان المهـدى قـد نقـل سلطاته الدينية إلي خلفاء أربع على غرار الخلفاء الراشـدين (أبـو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى) وكان هؤلاء الخلفاء حسب ترتيبهم هـم: عبد الله التعايشى، وعلى ودحلو، والمكان الثالث خصص للسيد محمد المهدى السنوسى وقد رفض أن يشغله، والرابع هو الخليفة محمد الشريف ابن عم المهدى.

وقد توفى محمد أحمد المهدى فى ٢٢ يونيه ١٨٨٥[٣] فكان على خليفته عبد الله

2- Wingate: Op. Cit. P. 483.

٢- أبو سليم : مرجع سابق ص ٥٠.

وللمؤلف كتاب آخر عن (الأرض فى المهدية).

٣- ترك المهدى بعد وفاته ثلاثة أبناء، وثلاثة بنات وزوجتين.

التعايشى أن يضع نظامًا حكوميًا يستعين به عن السمعة الشخصية التى كانت للمهدى والحماس الدينى المصاحب للدعوة فى بدايتها.

وقد امتدت فترة حكم الخليفة عبد الله التعايشى ثلاث عشرة عامًا (١٨٨٥-١٨٩٨) واجهته خلالها مشاكل داخلية وأخرى خارجية وكانت سياسته التى وضعها ترمى قبل كل شئ إلى تعزيز مسند الخليفة، وحاول أن يجعل الخلافة وراثية فى أسرته يتولاها من بعده أبنه البكر عثمان.

وركز الخليفة عبد الله السلطة فى شخصه، فهو الذى يهيمن على الإدارة المركزية فى أم درمان، وهو الذى يعين الحكام فى المديريات ويشرف على بيت المال، وعلى أعمال القضاء، ويعين أمراء الجيوش.

واستعان الخليفة فى تصريف شئون الدولة بأخيه يعقوب الذى كان ملمًا بالقراءة والكتابة ويحفظ القرآن - فأصبح له من المركز ما كان للخليفة نفسه فى عهد المهدى[١].

وكان يعقوب، وعثمان شيخ الدين ابن الخليفة، وقاضى الإسلام، وأمين بيت المال بمثابة مجلس المشورة للخليفة.

وقد عمد الخليفة عبد الله التعايشى من المبدأ إلى تجريد الخلفاء الآخرين من كل نفوذ وسلطة، وأكثر من الحرس الخاص (الملازمين[٢])، وتعقيب كل من كان يخشى مزاحمتهم له سواء من أقرباء المهدى (الأشراف) أو من الخلفاء الآخرين أو من ولاة المهدى السابقين - فقد عزل ونحى قواد الجيوش والحكام الذين عينهم المهدى واستبدلهم بأقربائه وأهل عشيرته (البقارة)، وقد تحركت جحافلهم بنسائهم وعيالهم إلى (أم درمان) حيث نزلوا بالقرب من منازل الخليفة - وقد استعان بهم ضد القبائل التى ثارت ضده مثل قبيلة الكبابيش فى المنطقة من دنقلة إلى شمال كردفان، وقبيلة رفاعه الغرب بسنار، وقبيلة البطاحين شرقى النيل الأزرق - بالإضافة إلى حركات العصيان فى دارفور وجبال النوبا، وبحر الغزال، ودار قمر، ودار تامه - وسنتير لبعضها فيما بعد[٣].

١- يصف سلاتين يعقوب بأنه أصغر من الخليفة فى السن عريض المنكبين، وجهه مستدير، وأنه جذاب فى حديثه.
Statin: Op. Cit. T. II, P. 403.

٢- يذكر سلاتين أن حرس الخليفة كان يتكون من ١١٠٠ رجل وكانوا يسكنون بأسرهم والمناطق المحيطة بمسكنه.
Statin: Op. Cit. T. II, P. 681.

٣- انظر Statin: Op. Cit. T. II, P. 571 et 587-588 et 692.

- وانظر وصفه المفزع لتصفية زعماء البطاحين.

وقـد امتلأت ام درمان والأقاليم فى عهد الخليفة بالعيون (الجواسيس) حتى إن كـل إنسـان كان يخشى أن يتحدث حتى إلى نفسه، فأى شك أو وشاية كانت كافية لأن يلقـى به فى السجن أو ينفى، فقد كانت طريقة الخليفة فى التخلص من أعدائه الذيـن يقعـون تحت يديه أن يبعث بهم إلى الرجاف أو يرسلهم لعماله فى الأقاليم البعيدة ليقتلوا هناك بدون ضجة[١].

ولـم يكـن الخليفة عبد الله يفارق أم درمان لكن كان جواسيسه فى مختلف الأقاليم يمدونه بالأخبار تفصيليًا.

وقد كان بالأقاليم حكام يطلق على كل منهم لقب (عامل) بينما كان فى مناطق الحدود من أطلق عليهم لقب (أمراء). ومن أشهر هؤلاء (عثمان دقنه) فى السودان الشـرقى، وأحمـد على، وهو تعايشى – على الحدود الحبشية، وعثمان ود آدم فى السودان الغربى ودارفور، وكذلك ود النجومى فى السودان الشمالى ودنقله وقد حل محلـه عـثمان خـالد زوجال بعد مقتله – وهؤلاء الأمراء لهم السلطة الكاملة فى أقاليمهم ومسئولون مباشرة أمام الخليفة عبد الله وشقيقه يعقوب[٢].

والحقـيقة التى يمكن أن تخرج بها من دراسة الجهاز الإدارى فى الدولة فى عهد الخليفة إنه لم ينجح فى إيجاد جهاز حكومى أو هيئة مدربة من الموظفين للقيام علـى خـير وجه بأعمال الحكم والإدارة لتحل محل الجهاز الحكومى السابق الذى أزيل عقب إنهاء عهد الإدارة المصرية.

وقـد أعطـى لنا نعوم شقير صورة للخليفة عبد الله كما أعطانا وصفا لحياته اليومية وإدارته لشئون الدولة[٣].

1- Ibid, P. 634 et 636.

وقد اشتهر فى هذا المجال (مجال ممارسة تصفية لمعارضين) زكى طلمال عامل فشودة بالذات.

ملاحظة:

يذكر محمد سعيد القدال إن (الأمير) هو القائد على المنطقة التى بها جيوش، والعامل على المناطق الأخرى – انظر:

١ – القدال، محمد سعيد: المهدى والحبشة (١٩٧٣) ص ٣٤.

٢ – انظـر مـا سبق أن اوردناه عنه نقلا عن إبراهيم فوزى. وقد اعطى وينجت صورة أخرى للخليفة، فذكر إنه كان يعرج قلـيلا بسبب رصاصه أصيب بها فى فخده فى حصار الأبيض، وأنه كان يتحدث عن ذلك دائمًا ويفخر به – ووصفه بأنه حـاكم جـاهل كان يثور غضبًا إذا عارضه أحد وكثيرا مازج بالناس فى السجن لمجرد معارضته – وذكر إن سلوكه كان مغايرا لما نادى به المهدى، وإنه إذا رأى امرأة جميلة كان يلزم زوجها بتطليقها وبضمها لحريمه.

Wingate: Op. Cit. P. 475.

فذكــر أن الخلــيفة عــبد الله كــان ربع القامة أسمر اللون، وعلى وجهه أثر الجدرى، وكان يلبس الجبة المرقعة فوق سراويل من الدمور، وعلى كتفيه رداء من حريــر أزرق، ويلبس فى عنقه مسبحة كبيرة، وفى قدمه الخف الأصفر فى الحذاء الأصــفر - فإذا جلس خلع الحذاء وأبقى الخف وتربع على عنقريب فوق فروة من جلد الضأن.

وكان مولعا بالتطييب - تفوح رائحة الطيب من ثيابه على بعد خطوات.

وإذا مشـــى يحمــل بيســاره سيفًا وبيمينه حربه قصيرة ويمشى وراءه بعض غلمانه من الأحباش(١).

ويــبدأ الخلــيفة يومه بالصلاة بالناس عند طلوع الفجر، ثم يعود لمنزله حيث يؤتــى له بطعامــه من الزبــدة البقرية واللبن الحليب والعصيدة من الدخن واللحم المشــوى على النار - ثم يخرج لمجلسه للنظر مع الكتاب فى المراسلات، ويصلى الظهــر فى الجامع، وبعد الصلاة يجتمع بالأمراء والأعيان والقضاة، حيث يصدر الأحكام التى دبرها قبلاً، فيأمر بسجن ذاك أو نفى آخر ثم يتناول طعامه ظهرًا مع بعــض التعايشــة، وغالبًا ما يولم وليمه كبرى لجنوده، ويصلى العصر والمغرب بالجــامع. وبعــد صــلاة المغرب يعقد جلسة للمذاكرة مثل جلسة الظهر، ثم يعود لمنزله للعشاء، وبعد صلاة العشاء فى الجامع يدخل منزله للنظر مع أهل مشورته، وكبار رجال دولته فى الأمور الهامة(٢).

وكــان الخلــيفة إذا ســعى للمسجد للصلاة أو انطلق لتفقد جنوده فى أطراف المدينة يتقدمه العلم الأسود وتتبعه حاشية كبيرة، وهكذا فى مجالسه الدينية التى كان يعقدها ويقص فيها أحلامه ورؤياه، ولم يكن أحد من أتباعه يجرؤ على التخلف عن هــذه المجالس التى كان الحضور فيها ينظر إليه كتعبير عن الولاء وكان لكل من رجال الدولة مكان محدد فى المسجد كما يذكر سلاتين(٣).

١- أعطــى (سلاتين) صورة عجيبة وتفصيلية عن حياة الخليفة الخاصة فذكر مثلا إن له ٤٠٠ من النساء منهن أربع زوجات شــرعيات وإن زوجــته الأولى هى أم ولده عثمان وابنته راضية التى أرغم محمد بن المهدى على الزواج منها، وأنه يقسم زوجاتــه إلى مجموعات من ١٥ إلى ٢٠ على رأس كل مجموعة توجد مسئولة عنهن، ويخصص لهن شهريا كمية خاصة من القمــح وغير ذلك وكما ذكرنا أنه يجب أخذ حديث سلاتين بشئ من التحفظ لأنه كتب كتابه هذا بعد معاناة كثيرة من الخليفة نفسه.

2- Statin: Op. Cit. T. II, P. 676.

3- Statin: Op. Cit. T. II, PP. 709-710.

وقــد أدت الأساليب الإنتقامية التى أتبعها التعايشى إلى تجميع المعارضين له خاصــة من الأشراف أتباع المهدى والتفافهم حول الخليفة محمد الشريف. والحقيقة لقــد بدأ كثيرون يشعرون بخيبة الأمل فبدلا مما كانوا ينتظرونه من ظهور المهدى الــذى يمــلأ الأرض عدلا بعد أن امتلأت جورًا – امتلأت أرض السودان بالفزع والرعب والقتل وسيطرة البقارة بيد من حديد.

وحــاول بعض هؤلاء المعارضين فى عام ١٨٩١ القيام بمؤامرة تهدف لخلع الخليفة ويبدو أن هذا الفريق من المعارضين للخليفة – خاصة من تربطهم بالمهدى رابطــة القــربى – كانوا يرون أنهم أحق بالحكم والولاية إذ أنهم أهل علم ومعرفة أولاً، وذوى صلة ورحم بالمهدى مؤسس الدعوة ثانية.

لكــن لم يلبث التعايشى أن علم عن طريق رجال المخابرات التابعين له بهذه المؤامــرة – وانــتهى الأمر بالصلح مع الأشراف والخليفة محمد الشريف على أساس[١]:

أ – يسترجع الخليفة محمد الشريف المركز اللائق به.

ب– تخصص لأقرباء المهدى رواتب مناسبة تكفيهم.

ج– يســلم الإشــراف فــى نظير ذلك سلاحهم للخليفة التعايشى ويطيعونه طاعة عمياء.

علــى أنــه لم يكد التعايشى يجرد الإشراف من سلاحهم حتى غدر بهم وزج برؤســاء الفتــنة فــى السجن ثم أرسلهم إلى عامله فى فاشوده حيث قتلوا وسجن الخلــيفة محمــد الشريف، وحبس عددًا كبيرًا من أتباع المهدى وظل الخليفة محمد الشــريف فــى السجن حتى وردت الأنباء بتحرك الجيش المصرى صوب الحدود فأطلق سراحه ليتحد الكل أمام الجيش المهاجم[٢].

هذا وقد قامت عدة ثورات وفتن داخلية أخرى ضد الخليفة – نذكر منها ثورة أهــل جبال النوبا – وقد كلف الأمير حمدان أبى عنجه بتتبعهم ونجح فى أن يوقع برؤسائهم ويرسل برءوسهم للخليفة فى أم درمان لتعلق بالسوق[٣].

1- Statin: Op. Cit. T. II, P. 634.

2- Statin: Op. Cit. T. II, P. 626 et suite.

3- Ibid., T. II, P. 545.

كمـــا قامت ثورات فى دارفور، فثارت قبائل الكبابيش، وقبائل الرزيقات، كما ثار الأمير يوسف من سلالة أمراء دارفور السابقين.

وثار أبو جميزه – كما سبق أشرنا – فى دار تامه بقرب دارفور(١).

وإن تمكن الخليفة من القضاء على هذه الثورات – لكن لم تكن الثورة تهدأ فى مكان حتى تظهر فى منطقة أخرى – فظلت شغله الشاغل لفترة كبيرة.

التقسيم الإدارى :

قســم الخلــيفة الســودان إلـــى ست مقاطعات على رأس كل مقاطعة (أمير عسكرى) يقود الجند ويتصرف فى الإقليم – وهذه المقاطعات أو (العمالات) هى:

١- عمالة دنقله.
٢- عمالة السودان الشرقى.
٣- عملة بربر.
٤- عمالة السودان الجنوبى الشرقى.
٥- عمالة السودان الغربى.
٦- عمالة الرجاف.

الموارد المالية للدولة :

كانـــت العشـــور والزكاة هى أهم موارد الدولة، وقد فرضت الضرائب على البضائع التى تنقل داخل السودان، وعلى السواقى والحدائق والأغنام والماشية.

وقد فتحت أسواق السودان من جديد فأصبحت ترد إليه البضائع المختلفة حتى الدخـــان الذى حرمته المهدية أصبح يرد خلسة – لكن كما سنرى أن التجارة تأثرت كغيرها من الموارد الاقتصادية بالاضطرابات.

على أنه فى كثير من أجزاء السودان كان الأمر عبارة عن جمع للمال بقدر ما تســمح بـــه الظــروف، كما كان الصرف بهذه الوسيلة أيضًا – فأجزاء كثيرة من السودان كانت كما ذكرنا فى يد (أمراء) منهم يتولون عن المهدى السلطة ويكادون يكونون مستقلين فى حياتهم – فهولاء كانوا يجمعون ويصادرون ويقسمون الغنائم، فترســل كمية للحكومة المركزية، بقدر ما تكون حالة علاقاتهم بها ويصرف الباقى على الأقاليم.

1- Ibid., P. 578 and 571.

ومـــع ذلـــك فقـــد كانت هناك مرتبات تخرج من بيت المال لأشخاص معينين حسب أمر الخليفة[١].

وقـــد خصصـــت مـــوارد معينة للصرف منها على نواح حددت لها. فأموال الجزيـــرة مثلا للصرف على الحرس الخاص للخليفة، وسواقى الخرطوم وحدائقها بالإضـــافة لمـــا يرد من أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء خصص للورشة الحربية المختصـــة بصـــنع الأسلحة والذخائر، أما نفقات الخليفة الخصوصية فقد رصد لها إيراد المراكب وأرباح ريش النعام والسن وغير ذلك من الموارد.

أما الحملات والتجريدات فقد كانت تحاول بقدر الإمكان أن تستغنى بحاجياتها من المناطق التى تمر بها، وأدى هذا للكثير من حوادث النهب وسرقة الماشية.

علـــى أن هذه السياسة الإرتجالية القائمة على مواجهة الظروف بحلول بدائية أدت فى النهاية للمجاعات كما حدث فى السودان الشرقى.

الحالة الاقتصادية :

وإن كـــان التعايشى قد جنى ثمار الإنتصارات الأولى للمهدية – فقد بدأت فى عهـــده أيضًا الكثير من المساوئ التى ترتبت على هذه الأوضاع الجديدة – فلم تتبع أية خطة إنتاجية لتشجيع الزراعة أو التجارة وما إلى ذلك.

ويعطيـــنا سلاتين صورة عن الإنتاج الزراعى وما أصابه من تدهور. فيذكر إنه علـــى الـــرغم من إنتاج الحبوب خاصة الذرة فى جنوب بربر، وزراعة الخضروات فـــى الأراضـــى الخصـــبة علـــى ضفتى النيل من وادى حلفا إلى فاشوده – إلا أن مســـاحات واســـعة من الأرض تركت بورًا بسبب الاضطرابات الداخلية والحروب وعمليات القمع، وعدم إهتمام الحكومة – وحتى الصمغ الذى كانت تنتج منه كردفان سنويا ما يقرب من مليون قنطار انخفض محصوله إلى ٣٠,٠٠٠ قنطار سنويا تقريبًا بعـــد هجـــرة بعض قبائل كردفان وتمركزهم فى أم درمان ووادى النيل بأمر الخليفة وبســـبب مـــا أصـــاب باقى القبائل من عمليات إبادة، وكذلك أصاب التدهور صناعة النسيج – التى اشتهرت بها بربر وإقليم دنقله على وجه الخصوص[٢].

١- بالإضـــافة إلى بيت المال العمومى كانت هناك بيوت المخصصة لنواحى متعددة للصرف مثل: بيت مال الملازمين للخليفة، بيت مال ورشة الحربية، والخميس الخاص بالخليفة ومصاريفه – وكانت هناك مصادر متعددة للدولة من الزكاة والعشور، ودخول جهات متعددة وما يرد من بيع صمغ كردفان وغير ذلك.

Statin: Op. Cit. T. II, PP. 701, 702.

2- Statin: Op. Cit. T. II, P. 716 et 730.

وهكذا كان الإنفاق – كما رأينا من المصادرة وما ينتجه الناس.

ولا شك فى أن مورد من هذا النوع حكمه حكم إنسانى ينفق من رأس ماله. وبانقطاع التجارة وكثرة النهب والمصادرة وعدم إطمئنان الناس – كل ذلك أوقع خزانة السودان فى مأزق، وأخذت مدن السودان التى كانت عامرة بالتجارة والبضائع – تكاد تصبح خرائب وأطلال، وكانت التجارة الرائجة هى تجاره الرقيق أما التجارة العادية فقد تعثرت نتيجة الاضطرابات الداخلية ولقطع اتصالات السودان بالخارج.

وقد انتابت السودان العديد من الأوبئة التى فتكت بعدد كبير من الأهالى، كما إنتابتهم المجاعات وبدأت تظهر نتائج العزلة عن العالم بالإضافة إلى نتائج سوء الإدارة – ولذا نقص عدد سكان السودان إلى حد مخيف.

العملة :

استغل المهديون الضربخانة المصرية واستخدموا المصريين العاملين بها، وقد أمر المهدى بسك عملة ذهبية وأخرى فضية مما غنموه من ذهب وفضة، وموجود منها عينة بدار الآثار العربية – وفى آخر أيامهم قل المعدن النفيس فى عملتهم، فأصبح الريال يكاد يكون كله نحاسًا ويلون بقشرة بيضاء.

وكانت المعاملات تجرى بهذه العملة.

وكان أمين بيت المال هو المسؤول عما يجمع من الأموال – وجرت العادة على تغير أمناء بيت المال من وقت لآخر حتى لا يتورطون فى عمليات الرشوة.

صعوبة المواصلات :

كانت صعوبة المواصلات وبدائية وسائل النقل التى يستخدمها المهديون من العوامل التى جعلت من الصعب ربط أقطار السودان الشاسعة بعضها بالبعض الآخر وبمقر الحكومة المركزى – وهذا يسر اشتعال الثورات فى الأماكن البعيدة عن مركز الحكومة فى أم درمان، كما أصبح ولاة الأقاليم البعيدة شبه بسلاطين أو ملوك فى أقاليم – وإن كان الخليفة قد عين من ٦٠ إلى ٨٠ هجينا لنقل رسائله للأقاليم وإحضار ردود عمال الأقاليم عليها[1].

١- انظر : Statin: Op. Cit. T. II, P. 685

السلطة القضائية :

عهد بالسلطة القضائية إلى قضاة ونواب للقضاة – يحكمون وفق الشرع الإسلامى بقدر فهمهم له – لكن كانت هناك تطبيقات غريبة للشريعة تدل على أن كثيرًا من هؤلاء القضاة كان جاهلاً بأحكام الدين الصحيحة مثلاً قيل إن الرجل لا يلزم بنفقة إمرأته مادام من المجاهدين. وقد تولى منصب قاضى الإسلام – وهو أكبر منصب قضائى – ولفترة طويلة من حكم الخليفة – القاضى أحمد ود على، لكنه أتهم بالرشوة فزج به فى السجن حتى مات، وقد انتشرت الوشايات وكثرت شكوى الناس من تصرفات بعض المقربين من المهديين.

وقد كان الخليفة يتشاور يوميا مع القضاة بشأن القضايا التى سيفصلون فيها وتصدر الأحكام حسب الاتفاق بينهم. على أن القضايا الخطيرة كتلك التى تتعلق بالعصيان فهذه يفصل فيها الخليفة بنفسه ويصدر فيها الأحكام بالإعدام أو قطع أحد الأطراف أو أكثر(1).

الطباعة ولاتجاهات الفكرية :

استغلت المطبعة الحجرية التى استولوا عليها بالخرطوم، كما استعانوا بعدد من المصريين ونقلت المطبعة لمكان قريب من بيت المال.

وقد طبع فيها المهدى عددًا من منشوراته، ومن صلوات المهدى (الراتب)(٢) وغير ذلك من الكتيبات الدينية والوثائق. وقد أشار نعوم شقير فى كتابه تاريخ السودان وجغرافيته للعديد من مطبوعات هذه المطبعة.

ويشير الدكتور أبو سليم إلى ثلاثة مراكز ثقافية ظهرت فى المهدية هى(٣):

١- أم درمان – حيث نشطت حركة التدوين والتصنيف والتأليف والنشر، وقد قامت هذه الحركة على أكتاف العلماء والكتاب الذين تجمعوا فى هذه العاصمة.

٢- شرق السودان – مركز نشاط الأمير عثمان دقنه حيث قاد (المجاذيب)(٤) حركة عظيمة للتدوين والتصنيف.

1- Wingate: Op. Cit. P. 479.

٢- الراتب أول كتاب يتم طبعة فى المهدية – ظهرت الطبعة الأولى فى رمضان ١٣٠٢ والنسخة الوحيدة الباقية من هذه الطبعة موجودة فى مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درم بإنجلترا وصفحاتها ٤٨.

٣- انظر أبو سليم : مرجع سابق ص ٦١.

أبو سليم : مرجع سابق ص ٢٣ وما بعدها.

٤- ينسبون لجدهم حمد بن محمد المجذوب الكبير وقد خدموا التراث الفكرى لحركة المهدية بحماس كبير.

٣- دنقله – حيث اجتمع عدد من العلماء المهتمين بتراث المهدية.

إخضاع جميع الناس للعقيدة :

كانت نظرة المهديين للدولة على إنها عبارة عن شعب كل فرد مفروض فيه أن يكون مهدويًا أى من الأنصار، ومن شذ عن ذلك ينكل به، ويباد كما حدث لبعض القبائل المشهورة فى السودان التى عوقبت أو أبيدت أو كادت تباد عن آخرها كالسكرية[١]، والكبابيش، والجعليين.

لكن الأمر لم يقتصر على السودانيين فحسب فقد كانت فكرة المهدى إنه بعد أن يتم نشر دعوته فى السودان سيتابع نشر دعوته فى سائر بلاد العالم وخاصة مصر والحجاز والدولة العثمانية، وقد بعث بالكتب والرسائل والدعاة لهذه البلاد الإسلامية ولحكامها.

وقد عمد التعايشى بدوره لتوطيد العقيدة المهدية فبنى فوق قبر المهدى بأم درمان قبه ودعا الناس فى عام ١٨٨٨ إلى الحج إليه بدلا من الذهاب إلى الكعبة.

وكتب إلى السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى، وإلى الخديو محمد توفيق وإلى محمد يوسف سلطان واداى، وجباتو بن سعيد بن محمد بلو سلطان سوكوتو، وإلى رابح الزبير الذى كان قد فر بعد مقتل سليمان الزبير بعد وقائع بحر الغزال وأسس مملكة فى برنو وظل بها حتى قتله الفرنسيون سنة ١٩٠٠، وإلى السيد محمد المهدى السنوسى فى الجغبوب، وإلى أهل مصر، وإلى يوحنا ملك إثيوبيا، وإلى قبائل الحجاز وأهل المدينة المنورة ونجد، بل وإلى الملكة فكتوريا ملكة الإنجليز.. يدعوهم جميعًا إلى اعتناق المهدية ويخبرهم بخبر خلافته للمهدى[٢].

١- كان تعداد رجال الشكرية ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ رجل وكانوا يمتلكون ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ جمل، وكان عدد كبير منهم يعمل بنقل المتاجر عبر السودان، وقد عارض أغلب امرائها المهدى فى البداية، وكان مصيرهم الزج بهم فى السجون وإبادتهم بعد أن جردوا من سلاحهم، وأخذ ممتلكاتهم وجمالهم وقضى على نظامهم القبلى ويقال إنه لم يبق بعد عمليات الإبادة هذه من رجالهم أكثر من ١٠٠٠ رجل.

ملاحظة :

كتب التعايشى خطابًا للسيد عثمان المرغنى زعيم الطائفة المرغنية والذى كان يساند هو وإتباعه جهود الحكومة المصرية فى السودان الشرقى بدعوة للانضمام برجاله للحركة المهدية، بل ويقال أن التعايشى عرض على الميرغنى المكان الذى كان مخصصا للسنوسى – لكنه رفض أيضًا الانضواء تحت لوائه وعانى هو وإتباعه الكثير من جراء ذالك.

٢- انظر نص ترجمة الخطابات الموجهة لملكة إنجلترا.

انظر : Wingate: Op. Cit. P. 307-312.

Statin: Op. Cit. P. T. II, P. 589

القوة البحرية :

رغـــم مـــا كان يؤكده المهدى من أن الملائكة تحارب معه، فقد أدرك إنه لابد من تدبير البارود وغيره من معدات الحرب والقتال.

واســتعان المهديــون بأســرى المصريين والأجانب[١] الذين كانوا بالسودان لصناعة ما يحتاجونه – هذا بالطبع بالإضافة إلى استغلال ما غنموه من أسلحة فى حـــروبهم السابقة مع المصريين. على أنه فى ظروف كثيرة وجد من استغل سذاجة وجهــل الحكام فوجد من أدعى بأنه يستطيع استخراج البارود من الحجارة، وغيره إنه يستخرجه من عظام الموتى.

وكانــت فــرق الجيش موزعة على المقاطعات حسب أهميتها، وعلى الحدود وكانـــت أســـلحة الجــيش من البنادق والحراب والسيوف كما كانت هناك فرق من الفرسان والمدفعية[٢].

وكـــان هـــناك تهريب للأسلحة من مصر، ولم يكن هذا صعبًا فى ذلك الوقت بواسطة التجار الذين اعتادوا السفر بين البلدين[٣].

وقـــد اســـتعانوا بعناصر عسكرية كثيرة من السودانيين والمصريين الأسرى وغيرهم.

ويقدر وينجت ما كان لدى المهديين من أسلحة فى أم درمان بحوالى ١٢,٠٠٠ بندقية رمنجتون، ٩٠٠ بندقية من أنواع أخرى مختلفة، ٥ مدافع جبلية[٤].

وقـــد أدرك الخلـــيفة مـــيزات الجندى الزنجى ولذا أدخل عددًا كبيرًا منهم فى الجـــيش وأمر بألا يعرض زنجى قادر على حمل السلاح للبيع فى سوق الرقيق – وبالإضـــافة إلـــى الـــزنوج الذين سلحهم بالأسلحة النارية كان هناك حملة السيوف والـــرماح من العرب من مختلف القبائل خاصة قبيلتى التعايشة والحبانية، ولم يكن للجندى رداء خاص فكل الجنود يلبسون نفس لبس الأفراد العاديين.

١– عدد كبير من الأجانب الذين قبض عليهم المهديون اسلموا وأطلقت عليهم أسماء جديدة، وبعضهم أعطى أعمالا فى خدمة الخليفة. وقد جمع الكل فى حى واحد فى أم درمان، وعين أحد اليونانيين تسمى باسم (جابر) كمقدم مسؤول عن الحى.

2- Bujarrio, E.: L'Etat Mahdiste De Soudan, PP. 193, 1974.

٣– عملـــيات التهرب لم تكن صعبة فى ذلك الوقت، فإبراهيم فوزى مثلا وقد كر أسيرًا فى (أم درمان) وصلته رسائل وكتب وأموال عن طريق ضابط صديق له.

4- Wingate: Op. Cit. P. 475.

وكـــان علـــى كـــل ٢٠ من رجال الجهادية مقدم، وعلى كل ١٠٠ رجل أمير والأمير تحت إمرته عدد من المقدمين، ولكل أمير راية ذات لون[١] خاص، وهناك أمـــير للأمراء – وهو فى منطقته يلى الخليفة مباشرة فى المرتبة. ولم تكن الخيول تســـتخدم علـــى نطاق واسع. لكن كان هناك حوالى ٢,٠٠٠ جمل ترعى باستمرار بالقرب من أم درمان، وهى دائمًا على أهبة الاستعداد للعمل.

وكان لدى المهديين خمس بواخر استولوا عليها من الإدارة المصرية السابقة– وقد استمرت ترسانة أم درمان فى عملها وظل عدد من العاملين المصريين بها فى موقعه[٢].

ونشـــير إلـــى أن موضوع (الغنيمة) وطريقة جمعها وصرفها شغلت المهدى نفســـه – وقد أمر بأن تترك الغنيمة للمجاهدين الذين لا حرفة لهم إلا الجهاد، وأن يؤخـــذ الخمـــس من الذين لهم حرفة يعودون إليها بعد انتهاء الجهاد، وأن يصرف للمجاهدين المنقطعين للجهاد من بيت المال – وبذا يكون المهدى قد وضع الأساس لتكويـــن جـــيش نظـــامى يعتمد على الدولة فى معاشه ويبقى دائمًا على أهبة القيام للجهاد – وقد تطور هذا التنظيم بشكل أكبر فى عهد الخليفة[٣].

السياسة الخارجية وحروب الخليفة :

كانـــت مدة المهدى قصيرة، ولذا اقتصر نشاطه على الداخل، رغم أنه أرسل عـــدة خطابـــات – كما ذكرنا – يدعو لاعتناق المهدية، ورغم أنه كان يصرح بأنه ســـيغزو مصر والحجاز وتركيا – فإنه لم يتح له الوقت لمواجهة شئ من هذا الذى صرح به – لكن التعايشى كان عليه مواجهة مشكلات متعددة مع الأقاليم التى على الحـــدود بالإضافة إلى الفتن الداخلية – وكان إعتقاده أن كسب المعارك الحربية هو

١– الراية السوداء راية الخليفة عبد الله أو نائبه (يعقوب) وهكذا.

٢– يعطيـــنا ســـلاتين صورة كاملة عن القوة العسكرية التى كانت تحت يد الخليفة، محددًا أمير كل منطقة ومن تحت إمرته من الجنود والأسلحة. وحسب تقديره كانت القوة العسكرية للمهديين وأقصى حدودها تتكون من:

٣٤٣٥٠ جندى من الزنوج والعرب.

٦٦٠٠ من الخيالة ، ٧٥ مدفع.

٦٤١٠٠ حملة الرماح والسيوف ، ٤٠٣٥٠ بندقية.

انظر الجدول التفصيلى فى : Statin: Op. Cit. T. II, P. 697 .

٣– قداع، محمد سعيد: مرجع سابق ص ٣٥.

السـبيل الوحـيد ليثبت هيبة الخلافة فى الداخل والخارج – وقد دفعه هذا الاعتقاد للدخول فى مغامرات حربية متعددة أهمها:

أ – مع الحبشة :

فـالحدود بيـن الحبشـة والسودان غير واضحة، والقبائل دائمة الحركة بين البلديـن، وقـد ترتـب علـى هذا نشوب حروب متعددة بين الإدارة المصرية فى السودان والحبشة(١).

هـذا وقـد خشـى النجاشى (يوحنا) من إمتداد الحركة المهدية لبلاده فضيق الخـناق علـى مسـلمى بـلاده – وانتهى الأمر بدخول الأحباش فى حروب مع الدراويـش فى الأراضى التى كانوا يزعمون إنها تابعة لهم (القضارف، والقلايات) بحجة أن ماء النيل الأزرق الذى ينبع من الحبشة يروى هذه الجهات.

وقـد اسـتطاع أحد قواد الخليفة (حمدان أبو عنجه) أن يوقع بالأحباش هزيمة مـنكرة قرب غندار (Gondar) فى يناير ١٨٨٨، ثم هزم الأحباش مرة أخرى فى واقعـة القلابـات فى مارس ١٨٨٩، وجرح الملك يوحنا فى هذه الموقعة ومات، ووقـع جـثمانه بعد ذلك فى يد الدراويش فنهبوا التابوت، الذى به جثمانه، وأخذوا تاجه وصليبه ومثلوا بجثته، وتولى مكانه منليك.

علـى أن منليك اتجه لسياسة التهادن مع الدراويش، وعدم إضطهاد المسلمين، وذلـك ليـتفرغ للخطر الإيطالى، إذ كان الإيطاليون قد نزلوا فى مصوع بمعاونة إنجلترا وأخذوا يحققون أطماعهم فى الحبشة(٢).

ب– مع مصر :

كـان علـى الدراويـش أن يواجهـوا على حدودهم الشمالية مصر تؤازرها بريطانيا، فلم يكن معنى إخلاء السودان انتهاء الخصومة، بالإضافة إلى أن المهدين كـانوا يرددون دائما استعدادهم لغزو مصر، كما كانت لا تزال فى داخل السودان حامـيات مصـرية فـى سنار، وكسلا، وكانت سواكن فى أيدى المصريين تمثل

١– لمن يريد تفاصيل هذه الحروب انظر

شوقى الجمل : سودان وادى النيل جـ٢ ص ٢٩٥–٣٢١.

انظر : Statin: Op. Cit. T. II, P. 574 et suite .

2- Churchill, W. S.: The River War. An account of the reconquest of the Sudan (London, 1933), PP. 75-88.

الخنجر المسدد لقلب الدراويش بالسودان، كما أن أمين باشا كان لا يزال فى مديرية خط الاستواء.

وقـد حانـت للدراويش فرصة ذهبية لتسوية مشكلة حدودهم مع مصر سلميًا حيـن أرسـلت حكومة مصر فى مايو ١٨٨٦ إلى وادى حلفا (يوسف باشا شهدى) لمحاولـة مفاوضـة الدروايش، وذلك بناءًا على اتفاق تم بين الحكومة الإنجليزية والباب العالى – كما ذكرنا سابقًا[١].

لكـن الخلـيفة عبد الله كان مصرًا على غزو مصر ففشلت هذه المفاوضات وانتهى الأمر بحملة (عبد الله النجومى) فى ١٨٨٩ لغزو مصر.

وقـدر عـدد رجال هذه الحملة الذين كانوا تحت إمرة النجومى بـ١٢,٠٠٠ مقاتل وكان ذلك فى صيف ١٨٨٩.

والـنجومى مـن قبيلة الجعليين، وقد كان فى بداية حياته فقيهًا مثل المهدى – وقد وصفه السير ونجت "بأنه البطل الذى أدخره القدر لتتمثل فى شخصيته السمات الحقيقية للمهديـة المشـوبة بحـب القتال، ووصفه بأنه بطرس الناسك فى قومه، والمثل لروح البسـالة المهديـة، وكان إيمانه بالمهدية يضارع إيمانه بنفسه وكان إقدامه فى الحروب وشـجاعته مـثلاً حيًا لخالد بن الوليد فى حروب النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى أعـد الخطـط التى حطمت حملة الجنرال هكس، وهو الذى تسلل برجاله خلسة حول الأوحال المتراكمة خلف الحواجز المنهارة يوم دهمت قوات المهدى الخرطوم"[٢].

وقـد أحـرق النجومى بيته فى (أم درمان) وأقسم ألا يعود إليه ويعيد تأسيسه حتى يهزم مصر. وعندما حانت ساعة رحيله جمع التعايشى خلفاءه الأربعة، وجمع أمـراء جـنده، ولما تكامل الجمع، مدوا أيديهم فى اتجاه القاهرة هاتفين "الله وأكبر ثلاث مرات..".

ثـم خاطـبهم التعايشى قائلا: أيها الأنصار إيا كم أن ترهبوا القتال فى سبيل أرض مصر، ولسوف تقاسون كثيرًا فى معركة أسوان، ولكن مصر كلها ستقع بعد المعركة فى أيديكم، أيها الأنصار انكم ستعانون كثيرًا فى معركة مكة أيضًا، ولكن الجزيرة العربية ستكون لكم بعدها".

١– فى ٢٤ أكـتوبر ١٨٨٥ وقعت معاهدة بين الحكومة البريطانية والباب العالى – وتقضى المادة الثانية منها بإرسال مبعوث تركى لمصر ليتشاور مع الخديو فى أفضل الوسائل لتهدئة السودان بالطرق السلمية.

٢– كروم : بريطانيا فى السودان ص ٢١٩.

وكذلك Wingate: Op. Cit. P. 239

ترك النجومى النهر جنوب وادى حلفا – مفضلا أن يدور حولها، وسار غرب النيل بعيدًا عن النهر، وقد لاقى الأنصار الكثير من العناء بسبب قلة المؤونة وحاجتهم إلى الماء فى هذه الصحراء المحرقة.

وفى ١٦ مايو ١٨٨٩ أرسل جرانفيل الذى كان على رأس الجيش المصرى خطابًا إلى ود النجومى يدعوه للتسليم ويعده بالأمان له ومن معه، ويوضح له أن الخليفة التعايشى لا يَخفى عليه – كما لا يخفى نور الشمس عن أحد – أن الاستيلاء على مصر محال فهو يغرر به وبرجاله ليتخلص منهم.

رد النجومى فى ١٣ ذى القعدة ١٣٠٦هـ على هذه الرسالة فذكر له إن جيشه الكبير ومعداته لا تخيفهم فهم لا يخافون إلا الله – وذكره بما حدث لهكس وغوردون ولجيوشهم الكثيرة العدد والأسلحة، وذكر له أنهم سوف لا يستولون على الأقاليم الجنوبية من مصر فحسب بل على القطر كله لأن الله وعدهم بالنصر[١].

وفى ٢ يوليو ١٨٨٩ وقع أول التحام بين الأنصار والمصريين عند قرية ارجيين (Argin) شمالى وادى حلفا – وخسر الأنصار فى هذه المعركة أكثر من تسعمائة مقاتل منهم بعض الأمراء – لكن روح المقاومة العنيدة لدى الأنصار لم تتزعزع.

وفى ٢ أغسطس ١٨٨٩ كان الجيش المصرى معسكرًا فى قرية توشكى (Toski) الواقعة على الشاطئ الغربى للنيل فى منتصف المسافة بين وادى حلفا وكورسكو بقيادة السير (جرنفيل)، بينما كان ود النجومى على رأس ما يقرب من ٨٧٠٠ مقاتل فى الصحراء على بعد خمسة أميال من الجيش المصرى.

واشتركت فرقة الفرسان المصرية بقيادة الكولونيل كتشنر (Colonel Kitehener) فى المعركة التى انتهت بقتل ما يقرب من ١٢٠٠ من رجال النجومى، ووقع أكثر الباقين أسرى أثناء المعركة[٢]. أما النجومى فقد ظل يحارب لآخر رمق، وقد وجد المصريون جثمانه بعد المعركة على جمل، وكان أتباعه قد بذلوا كل ما فى استطاعتهم ليحولوا دون وقوع جثمانه فى أيدى أعدائهم، ووجد بجانب الجمل أحد أولاده البالغ من العمر خمسة أعوام قتيلا، بينما حمل ولده الآخر الذى لم يكمل العام الأول من عمره حيًا للمعسكر المصرى فى توشكى[٣].

1- Wingate: Op. Cit. P. 417-420.

2- Statin: Op. Cit. T. II, P. 590.

٣- نقل هذا الطفل للقاهرة حيث عولج فى القصر العينى وقد عمل بعد ذلك فى القصر الملكى فى مصر.

وقد أثبت هذا النصر فى توشكى حقائق هامة منها:

١- إن الأنصار قد فقدوا كل قيمة لهم كمهاجمين، وإن كانوا لا يزالون أقوياء قادرين على الدفاع عن أنفسهم فى صحارى السودان البعيدة.

٢- بعث النصر الثقة فى الشعب المصرى والجيش المصرى لأن الجندى المصرى - كما اعترف كرومر - كان فى هذه الحرب اليد المنفذة لسياسة رشيدة حكيمة.

٣- أثبت هذا النصر أن الحركة المهدية كانت أقل تناسقًا وانسجامًا وأضعف شأنًا مما ظن من قبل، فقد استطاعت قوة مصرية صغيرة أن توقع الهزيمة الساحقة بعدد كبير من الأنصار يقودهم أكثر رجالهم إيمانًا وقوة.

ولم يكن نصيب الدراويش فى التحامهم مع حامية سواكن مختلفًا عن نصيبهم فى محاولتهم لغزو مصر.

ففى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨ هاجم جيش مصرى يقوده السير فرنسيس جرانفيل (F.Grenfell) الأنصار الذين كانوا يشددون الضغط على سواكن متحصنين بالخنادق التى حفروها فى هذه الجهات وانتهى الأمر بطردهم من الخنادق المعتصمين بها بعد أن خسروا حوالى خمسمائة رجل، وكانت النتيجة رفع ضغط الأنصار عن سواكن[١] رغم أن عثمان دقنه ظل قابضًا على شرق السودان بوجه عام، فلم يكن النفوذ المصرى يتعدى حصون سواكن ذاتها.

وقد ترتب على بسط الدرراويش سلطانهم على شرق السودان أن ازدهرت تجارة الرقيق.

وفى عام ١٨٩١ أُرسلت الامدادات لسواكن بقصد احتلال (طوكر) التى تعتبر مستودع الحنطة والحبوب عامة فى شرق السودان بإعتبار أن الاستيلاء عليها يحرم (عثمان دقنه) من المؤن التى تساعده على تثبيت أقدامه فى السودان الشرقى- واستطاعت الحامية المصرية بهذه التعزيزات الجديدة أن تستولى على ترنكتات وأن توقع الهزيمة بقوات عثمان دقنه قرب طوكر، وفر عثمان دقنه بعد أن مات من امرائه عدد كبير.

وتخلص من ذلك إلى أن الحوادث العسكرية المهمة فى السنوات التى تلت إخلاء السودان فى سنة ١٨٨٥ يمكن إجمالها فيما يلى:

1- Wingate: Op. Cit. P. 305.

١- هـزيمة الأنصار قرب سواكن فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨ إذ أزاح هذا الانتصار الضغط عن هذه المدينة.
٢- هـزيمة قوات النجومى فى توشكى فى ٣ أغسطس ١٨٨٩ - إذ حطمت قوة الأنصـار الهجومـية بحيث يمكن اعتبار عام ١٨٨٩ نقطة تحول التيار ضد الخليفة.
٣- هـزيمة عثمان دقنه قرب طوكر فى ١٩ فبراير ١٨٩١ إذ مكنت المصريين من احتلال مديرية طوكر وتوفير السلام للجزء الأكبر من شرق السودان.

وقد علق كرومر على واقعتى طوكر وتوشكى بقوله :

"إن واقعـة طوكر حققت للسودان الشرقى ما حققته واقعة توشكى لوادى النيل فقد أجلت الدراويش عن هذا الإقليم[١].

ج- مع الإيطاليين :

قام الإيطاليون باحتلال مصوع بموافقة الحكومة البريطانية، وأخذوا يمدون نفوذهـم فـى أرتـريا جـنوبًا وغـربًا - مما أدى للاصطدام بنين الإيطاليين والدراويش[٢].

وقـد انتصـر الإيطاليون على الدراويش فى واقعة اغوردات (Agordat) فى ديسـمبر ١٨٩٣ ثم احتل الإيطاليون كسلا فى يولية ١٨٩٤ - وقد بقيت فى أيديهم حتى سلموها للحكومة المصرية فى ديسمبر ١٨٩٧[٣].

وهكذا انهكت هذه الحروب المتتالية قوى التعايشى.

هذا ولم تعترف الدول رسميًا بالحكومة التى أوجدها المهديون فى هذه البلاد.

علـى أن الـدول الاسـتعمارية - كمـا رأينا - اعتبرت السودان بعد إخلاء المصريين ملكا مباحا (Res Nullius) فأصبح نهبًا لكل طامع.

ولعـل هـذا من الأسباب الرئيسية التى دفعت إنجلترا لإقرار سياسة استرداد السـودان خشـية أن تستولى إحدى الدول المنافسة لها على منابع النيل فتتحكم فى مياه النهر وتكون خطرًا على المصالح الاستعمارية البريطانية فى أفريقيا كلها.

١- كرومر : مرجع سابق ص ٢٢٩.

٢- فى ١٥ أبـريل عام ١٩٨١ وقعت اتفاقية بين الحكومتين الإنجليزية والإيطالية حدد بموجبها مناطق النفوذ الإيطالى فى شرق أفريقيا.

انظر : Hertslett Sit E.: The Map of Africa By Treaty Vol. 3 (1909) P. 950

3- Statin: Op. Cit. T. II, P. 655.

القسم الثالث
استرداد السودان
ونظام الحكم الجديد فيه

الفصل السادس: استرداد السودان.

أولا: العوامل التى أدت لتقرير سياسة الإسترداد.

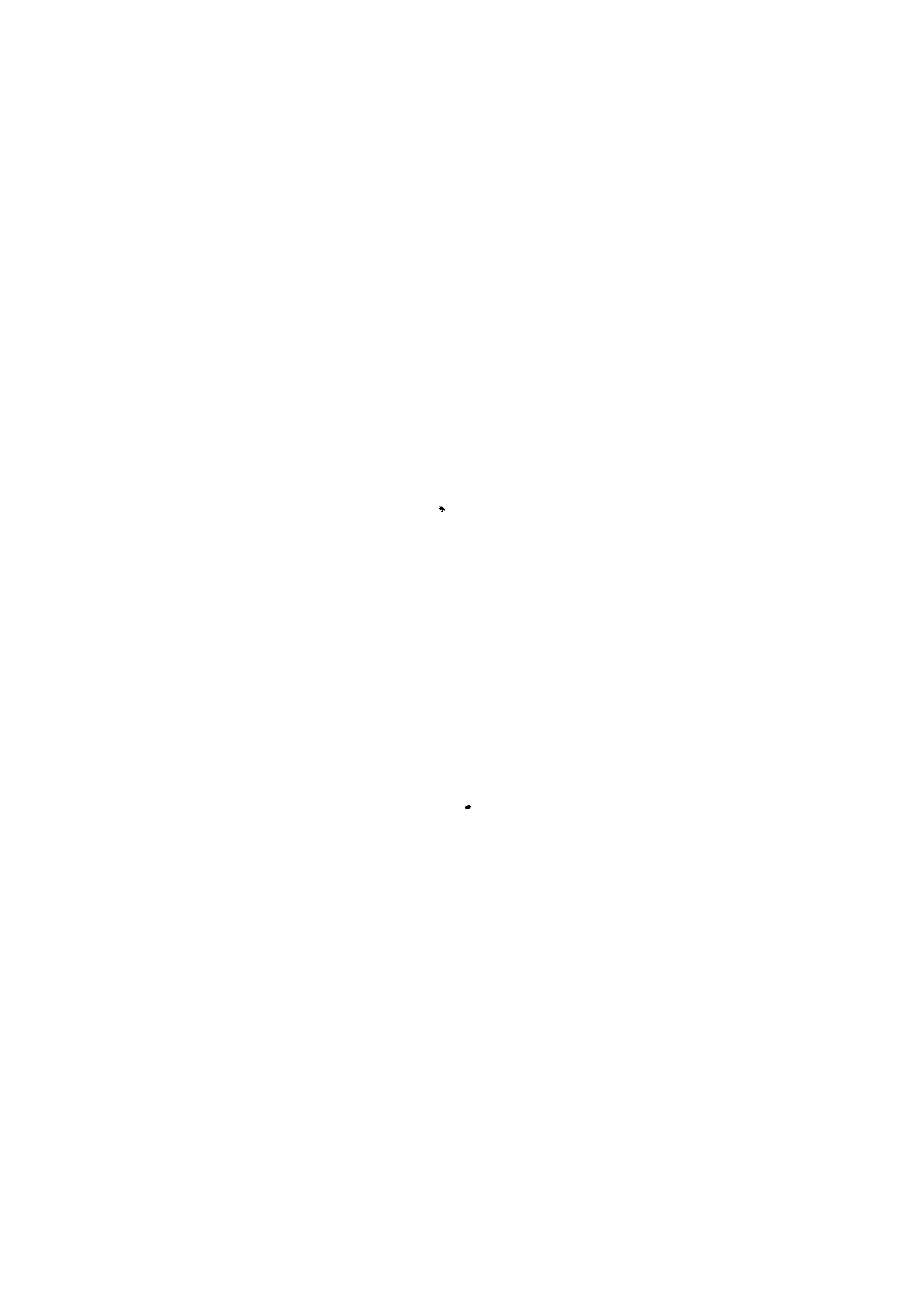
ثانيا: حملات الاسترداد.

الفصل السابع : نظام الحكم الجديد فى السودان.

الفصل الثامن : سياسة إنجلترا تجاه السودان من ١٩١٤ إلى ١٩٢٤

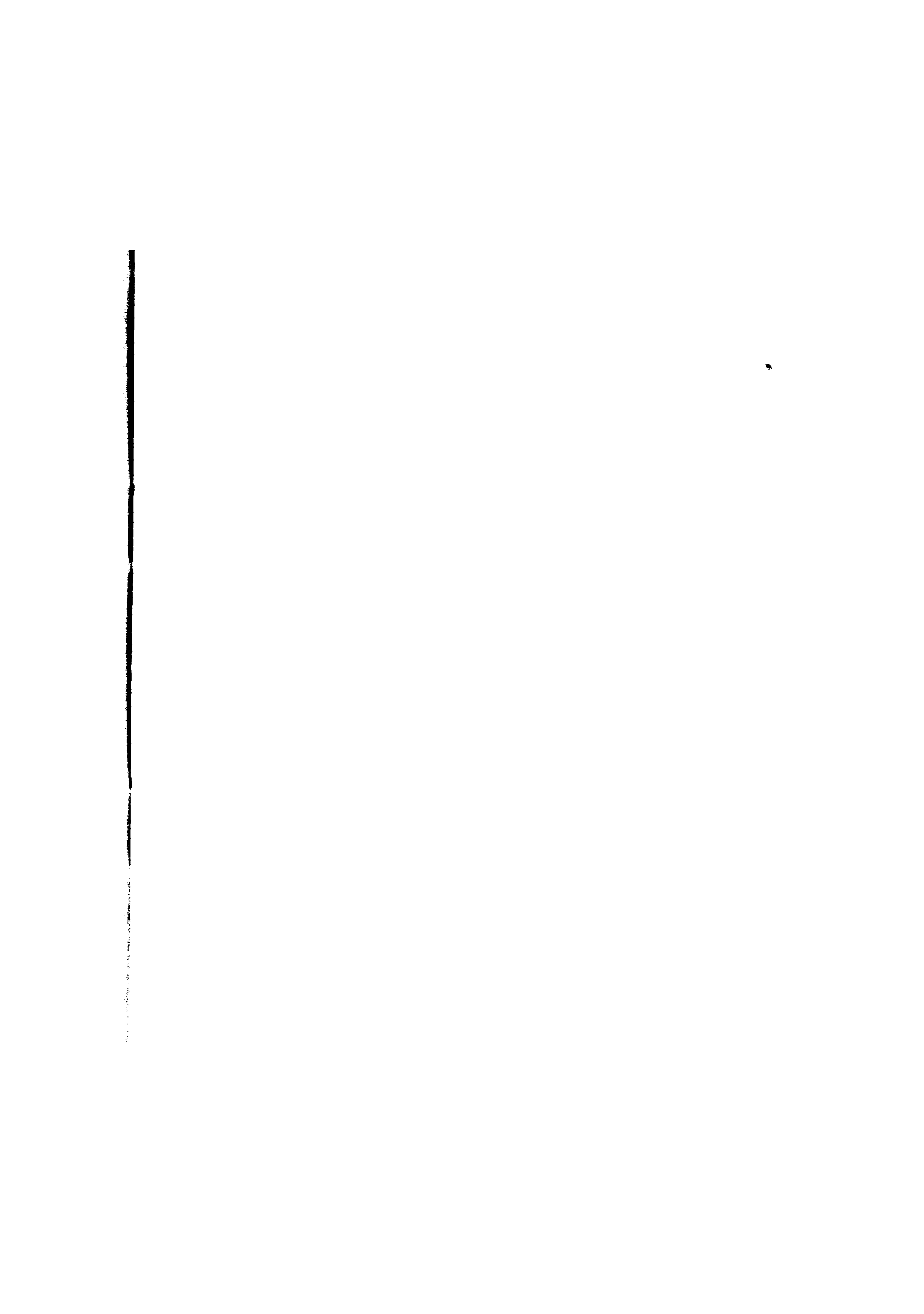
الفصل التاسع : انفراد إنجلترا بإدارة السودان (١٩٢٤-١٩٣٦)

الفصل العاشر : أوضاع السودان فى الفترة من ١٩٣٦ حتى قيام الجمهورية السودانية.



الفصل السادس
استرداد السودان

أولا: العوامل التى أدت لتقرير سياسة الإسترداد.
ثانيا: حملات استرداد السودان.
- حملة دنقله (مارس ١٨٩٦).
- حملة النيل (عطبرة) (١٨٩٧-١٨٩٨).
- سقوط أم درمان.
- فاشوده والصراع الإنجليزى الفرنسى على السيادة على المناطق النيلية الهامة
- استرجاع بقية أقاليم السودان - التى كانت قد خضعت للمهدى وأتباعه.



الفصل السادس
استرداد السودان

أولاً: العوامل التى أدت لتقرير سياسة الاسترداد

عرفـــنا أن السودان أخلى كله ما عدا سواكن، فقد تمسكت الحكومة البريطانية بها لمصالحها ولأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لها.

وقد ترتبت على تقرير سياسة الإخلاء نتائج خطيرة منها:

أ - مقتل غوردون.
ب- ضياع السودان وقيام حكومة الدراويش فى أم درمان.
ج- تكالـــب الـــدول الاســـتعمارية على اقتسام الأراضى التى كانت تحت الإدارة المصرية.
د- تعرض حدود مصر الجنوبية لتهديد الدراويش.

وكانت السياسة التى رسمتها حكومة الإحتلال فى مصر هى الدفاع عن حدود مصر وعن سواكن فقط.

وفى سبيل تحقيق هذه السياسة، وصلت الحكومة الإنجليزية إلى أنها اتفقت مع الدولـــة العثمانية، وضغطت على الحكومة المصرية لترسل فى عام ١٨٨٦ يوسف شهدى – مندوبًا عنها لمحاولة مفاوضة الخليفة عبد الله التعايشى فى سبيل الوصول لحل سلمى يحقق الهدوء على حدود مصر الجنوبية.

فمـــا الدوافع إذًا للعدول عن هذه السياسة، وتقرير إرسال بحريدات لاسترجاع السودان، والقضاء على قوة المهديين؟

الدوافع متعددة من أهمها

١- مركز إنجلترا فى مصر :

لقـــد كانـــت إنجلـــترا إلى ذلك الوقت تنظر لإحتلالها لمصر على أنه "إجراء مؤقت"، لكنها بعد ذلك صارت تنظر إليه على أنه إجراء مستديم أو على الأقل على أن أمـــده ســـوف يطول كثيرًا عما كان مقررًا له – وهذا يتطلب التفكير فى توفير أســـباب الإســـتقرار الاقتصادى لمصر، بالإضافة إلى تأمين حدودها وأراضيها –

وهذا لا يتأتى وعلى حدود مصر الجنوبية قوة تهدد سلامة مصر وأمنها وتتحكم فى فى مياه النيل[1].

والحقيقة إن إنجلترا حتى عام ١٨٩٢ لم تكن متأكدة من قدرتها على الاستمرار فى سياسة إحتلال مصر، وذلك لا لعدم رغبتها فى البقاء أو السيطرة على الإدارة المصرية، أو لعدم الإهتمام بالمركز الممتاز الذى نالته فى هذه البلاد - لكن يرجع عدم التأكد إلى أنها كانت لا تدرى إذا كانت تستطيع فى وسط الظروف الدولية القائمة فى ذلك الوقت - المحافظة على هذا المركز وما يتبعه، فقد تضطر لا للحرب بل للانسحاب استجابة لظروف الموقف الدولى. فعلى ذلك السياسة غير متأكدة، والضغط لأجل الإنسحاب من مصر كان مستمرًا وقويًا خاصة من فرنسا.

وتحت قوة هذا الضغط حاولت إنجلترا أن تحل المسألة المصرية بالدخول مع تركيا فى مفاوضات، فأرسلت الحكومة البريطانية لهذا الغرض السير هنرى درووند وولف (Henry Drummond Wolf) للقسطنطينية فى عام ١٨٨٧، ووصل إلى اتفاق مع السلطان العثمانى يحدد تاريخًا لجلاء إنجلترا عن مصر - لكنه كان يحوى نصا يسمح لها بالعودة إلى مصر إذا ظهر لها أن هناك خطرًا يتهدد سلامة مصر، لكن لم يسر هذا الاتفاق إلى نهايته فتحت ضغط المعارضة، وتحت ضغط فرنسا وروسيا لم يصدق السلطان العثمانى على إتفاق القسطنطينية هذا - إذ أن هذه القوى المعارضة لبريطانيا وجدت أنه فى ظل هذا الإتفاق سيصبح الاحتلال فى الظروف التى أشير عنها فى الاتفاق إحتلالاً شرعيا يقره السلطان.

وهكذا تغير موقف إنجلترا التى لم تكن تجد ما يبرر التسرع فى سحق قوة الخليفة طالما أن بقاء احتلالها لمصر لم يمكن متأكدا، وذلك بعد تغير الموقف كله منذ عام ١٨٩٢، بل إن فريقًا من حزب الأحرار الذى كان يتزعمه جلادستون لم يكن منذ البداية يقر سياسة الجلاء عن مصر التى كان يفكر فيها رئيس الحزب.

١- ملاحظة :

- أشار (سلاتن باشا) فى كتابه الذى أشرنا إليه سابقا والذى ألفه بعد فراره من أسر الخليفة - إلى ما يمكن أن تتعرض له مصر إذا احتلت النيل الأعلى فى السودان دولة مستعمرة أخرى.

- وأشار تشرشل فى كتابه (حرب النهر) بعد أن اشترك فى جيش كتشنر - إلى العلاقة بين مصر والسودان، وصورها بنخلة تمتد جذورها فى أعالى النيل. وجزعها فى السودان، وفروعها وأوراقها فى دلتا مصر.

٢- عامل اقتصادى يتعلق بمشروعات ضبط النيل:

ففـــى الفترة ما بين ١٨٩٠، ١٩٠٠ - كثر حديث المهندسين عن مشروعات ضبط النيل، وكانت قد بدأت فى مصر عدة مشروعات لتحسين وسائل الرى بهدف زيـــادة الإنـــتاج، وكمـــا ذكرنا إن الإذهان بدأت تتفتح لمستقبل القسم الجنوبى من حوض النيل، وتأثيره على القسم الشمالى.

وقـــد تألفت جمعية فرنسية سمت نفسها (جمعية الدراسات النيلية) أتخذت مقرًا لهـــا فـــى باريس، وأوفدت بعثات لمصر، وقد جاء فى أبحاثها التى نشرت فى عام ١٨٨٠ إن حســـن الإنـــتفاع بماء النيل لن يتأتى إلا ببحث مشروعات خاصة بالنيل كله من منبعه إلى مصبه، وإن القسم الجنوبى إذا أدير بشكل مضاد لمصلحة مصر بسبب إضرارًا بالغة.

وقـــد كتب (صموئيل بيكر) فى هذا الموضوع عام ١٨٩٢، وذكر أنه يعرف نقطـــة على نهر العطبرة يمكن منها إنزال ضرر بفيضان النيل الأزرق والعطبرة، وكتب أيضًا فى وجوب درء الخطر بشكل ما عن مصر بواسطة إبعاد أية دولة أو أيـــة قـــوة تســـتطيع إنزال الضرر بمصر. وقال حقيقة إن الأحباش والدراويش لا يســـتطيعون شـــيئا من ذلك - لكنه إذا فرض أن وقعت هذه المناطق فى يد بلد لها براعة هندسية - فإنه يمكن أن توقع بمصر ضررًا.

وأشـــار لهذه الفكرة أيضًا (سكوبمان جليف) الذى تولى وزارة الأشغال بمصر بعد الاحتلال مباشرة، واشترك فى بعض مشروعات الرى. فحين سئل: هل يخشى مـــن قـــيام الدراويش بأى عمل يؤثر على الفيضان بمصر؟ ذكر إنه قد لا يستطيع الدراويش ذلك - لكن أية أمة تملك مهندسين مدربين تستطيع ذلك[1].

وقـــد ألقيت فى ذلك الوقت فى (المجمع العلمى المصرى) عدة أبحاث هندسية صـــرفه فـــى موضـــوعات تـــتعلق بسياسة الرى وضبط النيل. نذكر منها أبحاث المهـــندس الفرنســـى برومـيـــت (Prompt) الـــذى كـــان يعمل فى خدمة الحكومة المصـــرية. وفـــى أبحاثـــه قرر إن مشروعات ضبط النيل تستلزم أن يشرف على الـــوادى ســـلطان سياســـى واحد، وأن توسع مصر الزراعى فى المستقبل يقتضى البحـــث فـــى أمر النيل كله من منبعه إلى مصبه، وأن الأمر لا يقتصر على إنشاء

١- انظر الدراسة الوافية التى أجراها السير هارى جونستون عن مشروعات منابع النيل.

Johnston, H.: The Nile Quest (1904).

Shibeika, Mekki: British Policy in the Sudan (1882-1902). (London, 1952) P. 334.

خــزانات فــى القسم المصرى من حوض النيل، وذكر إن القوة التى تسيطر على الســودان يمكــن أن تــتحكم فــى المياه الذاهبة إلى مصر وقد أرسلت نسخة من محاضرة (بروميت) لرئيس جمهورية فرنسا المسيو كارنو (Carnot) عام ١٨٩٤.

وكانــت هناك فكرة أن تحتل فرنسا مناطق فى أعالى النيل وذلك للضغط على إنجلترا لترك مصر أو على الأقل لفتح موضوع احتلال إنجلترا لمصر للبحث[١].

٣- حالة الجيش المصرى، والمالية المصرية:

من ضمن العوالم التى يمكن أن تذكر كسبب لعدول إنجلترا عن سياسة الدفاع عــن مصــر لسياسة الهجوم والغزو لاسترجاع السودان – إنه بين عامى ١٨٨٩، ١٨٩٦ – وهــذه الســنة الأخيرة هى السنة التى قررت فيها حملة دنقله – كان قد توفــر العاملان الرئيسيان اللذان كان لابد منهما للتفكير فى أية خطة للهجوم – كما ذكر السير إيفلن يارنج وهما[٢]:

أ – تحســن موقــف المالية المصرية – بحيث تقدر على تحمل النفقات الإستثنائية المنتظرة للقيام بأعباء لإسترجاع السودان دون أن تضار المالية المصرية.

ب– أن يكــون الجــيش المصــرى الجديــد الذى أعيد تكوينه وإعداده بعد الثورة العرابية – قد بلغ درجة من التدريب والخبرة تؤهله لأن يخوض حربًا كبيرة.

والدليل على هذا التغيير فى السياسة الإنجليزية أن كرومر نفسه بدأ يؤيد القيام بالعمليات العسكرية من أجل استرجاع دنقله رغم إنه حتى بعد معركة طوشكى فى (أغســطس ١٨٨٩) وانتصار الجيش المصرى الساحق على قوات الدراويش التى كــان يقودها (عبد الرحمن النجومى) – صرح بأنه يرى لا يمكن أن تتخلى مصر عن سياسة الدفاع، وتباشر سياسة الهجوم إلا بعد حوالى خمسة وعشرين عامًا.

٤- حالة الأنصار :

يضاف للحالة المناسبة التى وصل إليها الجيش المصرى – إنه أصبحت تحت يــد القائميــن بالأمر فى مصر من ناحية أخرى معلومات وافية ومطمئنة ومشجعة للقيام بالحملة، وقد اكتسبت تلك المعلومات سواء من تجارب، حملة الإنقاذ السابقة، ومادونــه بعدهــا ضــباطها من ملاحظات وتوجيهات هذا بالإضافة إلى ما جمعته

١- انظر شكرى، محمد فؤاد: مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٩٠٨ ص٤٦١.

٢- حصل على لقب لورد سنة ١٨٩٢ وصار يعرف باسم اللورد كرومر.

مخابـــرات الجـــيش المصرى من معلومات عن حالة الأنصار، وأسلحتهم وعددهم ومدى ولاء القبائل للخليفة – وقد تجمعت هذه المعلومات سواء من الأسرى أو من جواسيس أرسلوا لهذا القصد.

٥- شعور الإنجليز بعقدة الذنب :

فعلـــى الرغم من أن فريقًا من الساسة الإنجليز تنصل من مسئولية إنجلترا عن إخلاء السودان – فلا شك فى أن فريقًا آخر كان يرى إن إنجلترا مسئولة عن فقدان السودان وانتشار الفوضى بين أرجائه، بل وعن مقتل غوردون. ففى عهد الإحتلال البريطانى لمصر، وتحت الضغط البريطانى على الحكومة المصرية تقررت سياسة إخـــلاء الســـودان، ولولا تردد الوزارة الإنجليزية فى إرسال النجدات لغوردون لما انتهـــت الأمـــور إلـــى ما انتهت إليه، ولذا فلم تنته صيحات الثأر لمقتل غوردون والتمثيل به ولهزيمة هيكس وولسيلى.

يضـــاف إلـــى هـــذا أن بعـــض قـــبائل السودان أرسلت تطالب بعودة الحكم المصـــرى. فقد أرسل شيخ الكبابيش لمدير دنقله خطابًا بتعجب من تباطؤ الحكومة المصـــرية فـــى القيام بعمل لا سنرجاع سلطتها، فى حين تنتظر كل القبائل عودة الحكم المصرى إلى السودان.

وقد أرسل هذا الخطاب لمصر وبلغه ممثل الحكومة الإنجليزية بها لحكومته.

ويذكـــر من عوامل تأليب الرأى العام الإنجليزى على حكومة الخليفة عبد الله وأســـاليبها فى الحكم – ما أذاعه عنها الأب أوهر والدر Ohrwalder فى كتابه وقد نشر الكتاب فى عام ١٨٩٢، وكان أوهر والدر قد وقع هو وعدد من الراهبات فى أسر الأنصار وظل ما يقرب من ١٠ سنوات، واستطاع الهرب أثناء فتنة الأشراف فى نوفمبر ١٨٩١ ووصل إلى مصر مع راهبتين بقيتا على قيد الحياة[1].

أضـــف إلـــى هـــنا ما نشره سلاتين بعد أن فر من أسر المهديين فى ١٨٩٥، ووصل مصر فى عام ١٨٩٦ ونشر كتابه الذى ترجم لعدة لغات أوربية[2].

1- Ohrwalder, J.: Ten Years Captivity in the Mahdie's Camp (1882-1892) (London, 1892).

2- Slatin, R.: Fer et Feu au Soudan.

(قام بترجمته من الألمانية إلى الفرنسية عام ١٧٩٨ G. Bettex – وترجمه Wingate فى نفس السنة إلى الإنجليزية).

ملاحظـــة: اشترك سلاتين مع كتشنر فى حملة استرداد السودان، وفى الحرب العالمية الأولى كان رئيسًا للصليب الأحمر فى وطنه النمسا.

وقد ساد الاعتقاد بسبب ما نشره هذان الكاتبان بأن السودانين يعيشون فى أشد حـالات البؤس والشقاء فى ظل حكم التعايشى، كما أعطى هؤلاء الفارين صورة حقيقية عن استحكامات الخليفة المتداعية.

٦- موقف الدول الاستعمارية من السودان:

لعل السبب الرئيسى والهام للاسراع بعملية الاسترداد يرجع لموقف الدول الاستعمارية فى أفريقيا، وتسابق هذه الدول على إقتطاع أطراف السودان والتوغل فى أرضه. والدول التى كانت لها أطماع فى هذه الجهات هى ألمانيا، وإيطاليا، وبليجيكا، والحبشة، وفرنسا.

وبالنسبة للألمان والإيطاليين - فقد نظمت إنجلترا أمرها مع الإثنين بعد مفاوضات طويلة - فأعطت إيطاليا مناطق على البحر الأحمر (مصوع) كانت ملكا لمصر، وعقدت إنجلترا اتفاقًا مع إيطاليا فى أبريل ١٨٩١، اعترفت فيه إيطاليا بالحقوق الشرعية التى لمصر فى السودان بما فى ذلك (كسلا)، وفى ضوء ذلك سمح الإنجليز للطليان باحتلال كسلا بصفة مؤقتة على أن تستردها مصر فى الوقت المناسب.

كما عدلت إنجلترا الحدود بين مستعمراتها فى شرق أفريقيا والمستعمرات الألمانية، وغربا فى الكميرون فى مقابل تخلى ألمانيا عن إدعاءاتها فى حوض النيل (معاهدة ١٨٩٠).

وبذلك تحقق لإنجلترا الإنفراد بالنفوذ فى (أوغنده) وانتهت منافسة ألمانيا لها أيضًا فى خط الاستواء.

ومن جهة بلجيكا - فقد استطاع ليوبولد الثانى ملك البلجيك - إنشاء ولاية الكونغو الحرة، وأخذ البلجيكيون من ذلك الحين يعملون للتوغل فى إقليم بحر الغزال. وفى عام ١٨٩٤ أجرّت إنجلترا للبلجيك ما عرف باسم (حاجز لادو). وكان الهدف الرئيسى من هذا الإجراء هو أن يحول دون وصول الفرنسيين إلى حوض النيل، وأيضًا كترضية للبلجيك الذين كانوا يطمعون فى السودان كله أو على الأقل فى المناطق العليا منه - ونحن نعلم أن ليوبولد الثانى كانت له يد فى حملة استانلى لسحب أمين باشا ممثل الإدارة المصرية من خط الاستواء، ومن العروض التى عرضها استانلى على أمين باشا تحويل نشاطه فى خط الاستواء لحساب الملك ليوبولد.

ولما كانت إنجلترا لا تخشى بأس الملك ليوبولد كثيرًا – لذا فقد وصلت الدولتان إلى الاتفاق الذى نوهنا عنه، والذى يحقق – من وجهة نظر الإنجليز – استرضاء الملك ليوبولد وبذا يصبح حائلا دون وصول الفرنسيين لوادى النيل[١].

ومن جهة الحبشة – كان الخوف من احتمال عقد محالفة بين الخليفة عبد الله التعايشى ومنليك الثانى إمبراطور الحبشة للقيام بعمل مشترك.

وحدث فعلاً أن الحق الأحباش بالإيطاليين هزيمة منكرة فى معركة عدوه فى أول مارس ١٨٩٦[٢]، وفى نف الوقت انتهز الدراويش هذه الفرصة لمحاصرة كسلا، مما اضطر الحكومة الإيطالية لمطالبة الحكومة الإنجليزية باتخاذ إجراء لتخفيف الضغط عن حامية كسلا الى أتضح أن الخليفة كان يركز بصره عليها بعد انتصاراته.

وكان هذا دافعًا لأن تقرر إنجلترا فى ١٢ مارس ١٨٩٦ إرسال حملة دنقله على أساس أن احتلال دنقله يجبر الدراويش على سحب قواتهم أو بعضها على الأقل من المناطق المحيطة بكسلا.

أما عن موقف فرنسا – فقد كان له أثره الفعال – على الأقل – فى استمرار عملية الزحف جنوب دنقله، فكانت الحملة التى عُرفت باسم حملة النيل أو حملة أم درمان عام ١٨٩٧، بل دفع ذلك لأن تستعجل إنجلترا قائد الحملة كتشنر لأن يعجل بالتقدم للجنوب ليم استرداد سودان.

ويمكن أن نجمل موقف فرنسا فيما يلى:

١- كانت لفرنسا مواقف خاصة بالنسبة لمصر، والحقيقة إن علاقة فرنسا بالأحداث التى تتعلق بمصر وبالأقاليم المتصلة بمصر يمكن أن نرجع بها لحملة نابليون على مصر، والصراع الإنجليزى الفرنسى وإشتراك إنجلترا فى إجلاء الفرنسيين عن مصر، وقد كانت العلاقات الإنجليزية الفرنسية عامة وبالنسبة لموقف كل من الدولتين تجاه مصر خاصة – حساسة.

٢- زادت هذه الحساسية فى علاقة كل من الدولتين تجاه مصر بعد افتتاح قناة السويس، وشراء إنجلترا لأنصبة مصر فيها، وقد حدث فى عام ١٨٨٢ أن

١- شوقى الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (١٩٧١) ص ٥١١.

٢- لمن يريد التوسع فى أحداث هذه المعركة – انظر:

شوقى الجمل: مرجع سابق ص ٣٥٩ وما بعدها.

انسحبت فرنسا وتركت إنجلترا تنفرد بالعمل فى مصر - لكن منذ احتلال إنجلترا لمصر وفرنسا تضيق عليها الخناق لتجبرها على الجلاء.

واتخذت ضغوط فرنسا صورًا مختلفة، بعضها كان مسرحه الأسيتانه. وقد أشرنا لأبحاث المهندسين الفرنسيين بخصوص أهمية مناطق أعالى النيل بالنسبة للتوسع الاقتصادى فى مصر.

٣- كانت الفكرة الذائعة فى ذلك الوقت (فى عام ١٨٩٤) أن السيطرة على منابع النيل والتحكم فى توزيع مياه النهر يكفلان السيطرة على مصر ذاتها - ولذا فقد اختمرت فكرة محاولة الفرنسيين للوصول لحوض النيل من ممتلكاتهم فى أفريقيا الغربية والوسطى.

وأدت هذه الفكرة إلى التفكير فى احتلال (فاشوده) على أساس أن هذا العمل أقل ما يمكن أن يجنى الفرنسيون من ورائه إنه يجبر الإنجليز على طرح المسألة المصرية - أى مسألة الجلاء عن مصر على مؤتمر أوربى.

وفعلا قررت الحكومة الفرنسية فى عام ١٨٩٣ أن يتولى المستكشف الفرنسى (مونتى) قيادة حملة للوصول إلى فاشوده من الأوبانجى العليا بالكونغو الفرنسى ليرفع عليها العلم الفرنسى.

وأهمية فاشوده بالذات ترجع إلى أنها نقطة تسيطر على مجرى النيل الأعلى وعلى ملتقى بحر الغزال ونهر السوباط بالنيل الأبيض وقد شجع على إرسال هذه الحملة الإجراء الذى اتخذته إنجلترا فى مايو ١٨٩٤ بتأجير المنطقة التى عرفت باسم (حاجز لادو) لولاية الكنغو الحرة - ذلك الإجراء الذى عبر عنه هانوتو (Hanotaux) وزير خارجية فرنسا بأنه إعتداء على حقوق مصر، وحقوق تركيا، ويخالف ما نص عليه فرمان تقليد عباس حلمى الثانى منصب الخديو (فى مارس ١٨٩٢) والذى جاء فيه:

"إنه لا يجوز لأى سبب أو وسيلة - ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية للغير مطلقا"[١].

هذا على أن فرنسا كانت تعد لحملة أخرى تبدأ زحفها من الحبشة شرقًا للسوباط لتموين الحملة السابقة الآتية عن طريق الغرب بحاجتها من المؤن والعتاد. ولتحقيق هذا الهدف حدثت اتصالات مع (منليك) إمبراطور الحبشة لتسهيل مرور

١- انظر مجموعة الفرمانات الشاهانية.

الفرنســيين من بلاده. والحقيقة إن نفوذ فرنسا فى الحبشة كان قد زاد بشكل واضح منذ استولى الفرنسيون على (أوبوك) (وجيبوتى) وأسسوا مستعمراتهم فى الصومال الفرنسى.

علـــى أن الاتفاقـــات الـــتى عقدها الملك ليوبولد مع الفرنسيين والتى بموجبها اســـتطاعت فرنسا تعديل حدود مستعمرة الكونغو الفرنسية حملت فرنسا على وقف مشروع احتلالها لفاشوده مؤقتا.

على أن نشاط الفرنسيين وأطماعهم فى حوض النيل لم تنته نهائيًا، خاصة أن إنجلترا كانت مستمرة فى مشروع إنشاء سكة حديد أوغنده كتمهيد للوصول لحوض النـــيل الأعلى عن طريق أوغندا، فقد عينت فرنسا المسيو فيكتور ليوتار (Victor Liotard) مـــندوبا للاوبانجى العليا على أمل أن يمد نشاطه من هذه الجهات صوب بحر الغزال.

وفى فبراير ١٨٩٦ صدرت التعليمات لكل من جيان بابتست مارشان (Jean Baptiste Marchand) ولـــيوتار بشأن الحملة التى سيقودها مارشان لمنطقة بحر الغزال والنيل الأعلى ليرفع العلم الفرنسى على فاشوده[١].

واســـتطاعت البعثة الفرنسية فعلا أن تصل إلى فاشوده فى ١٠ يوليو ١٨٩٨ وتـــرفع علـــيها العلـــم الفرنسى، وأن تؤسس فى طريقها إليها عدة محطات وتعقد معاهدات مع شيوخ القبائل فى الجهات التى مرت بها.

كما استطاع الأحباش وأعوانهم من الفرنسيين أن يتوغلوا فى السودان الشرقى من ناحية النيل الأزرق.

وقـــد أجـــبرت هـــذه الأحـــداث كلها إنجلترا على أن تقرر سرعة إسترجاع الســـودان، وأن يكـــون ذلك من الشمال وبجنود مصريين، كما أدت لإثارة الوضع القـــانونى للسودان بعد الثورة المهدية – فهل لا تزال حقوق السيادة المصرية على

١- ولد مارشان فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٣، وفى سنة ١٨٨٧ عين مساعد ملازم فى الجيش الفرنسى، وفى سنة ١٨٨٩ حارب فى السنغال، وفى ١٨٩٦ صدرت إليه الأوامر بالقيام بحملة فاشودة – ورقى لرتبة كولونيل سنة ١٩٠٢، واشترك فى الحرب العالمـــية الأولى وجـــرح فيها، وفى عام ١٩١٧ رقى إلى رتبة جنرال واحيل للمعاش فى سنة ١٩١٩ ومنح وسام الصليب الأكبر فى عام ١٩٢٠ وتوفى فى ١٤ يناير ١٩٣٤.

وللتفاصيل عن الحملة

انظر : على إبراهيم عبده: المنافسة الدولية فى أعالى النيل (١٩٥٨) ص ٢٥٠.

السـودان باقـية باعتـبار أن المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة من الحكومة الشـرعية فـى البلاد وعطلت مؤقتًا ممارسة هذه الدولة لحقوقها الشرعية؟ أم أنه بـإخلاء السـودان وقيام حكومة الخليفة عبد الله فى بعض أجزائه تصبح أرضًا لا يملكها أحد أى تصبح ملكا مباحًا Res Nullius.

وسـنرى إن إنجلترا ستلتزم باستخدام الراية المصرية، وتستند إلى حق مصر الشرعى فى السودان لتقف فى وجه الأطماع الاستعمارية الأخرى المنافسة لها فى هذا المجال.

ثانيًا: حملات استرداد السودان

١- حملة دنقله (مارس ١٨٩٦)

كان النصر الذى حققه الأحباش على الطليان فى موقعة عدوه فى أول مارس ١٨٩٦، وتهديدهـم للقـوة الإيطالية فى كسلا - الباعث الحقيقى الذى دفع الحكومة الإنجلـيزية (حكومـة سولسبرى) - إلى أن تقرر فى ١٢ مارس ١٨٩٦ أن ترسل حملـة بقـيادة سردار الجيش المصرى السير هربرت كتشنر (H. Kitchener)[1] لاحـتلال دنقلـه، رغم ما ذكره كرومر بأنه من الصعب إقناع الحكومة المصرية بتحمل نفقات عملية يراد بها مساعدة الطليان فقط.

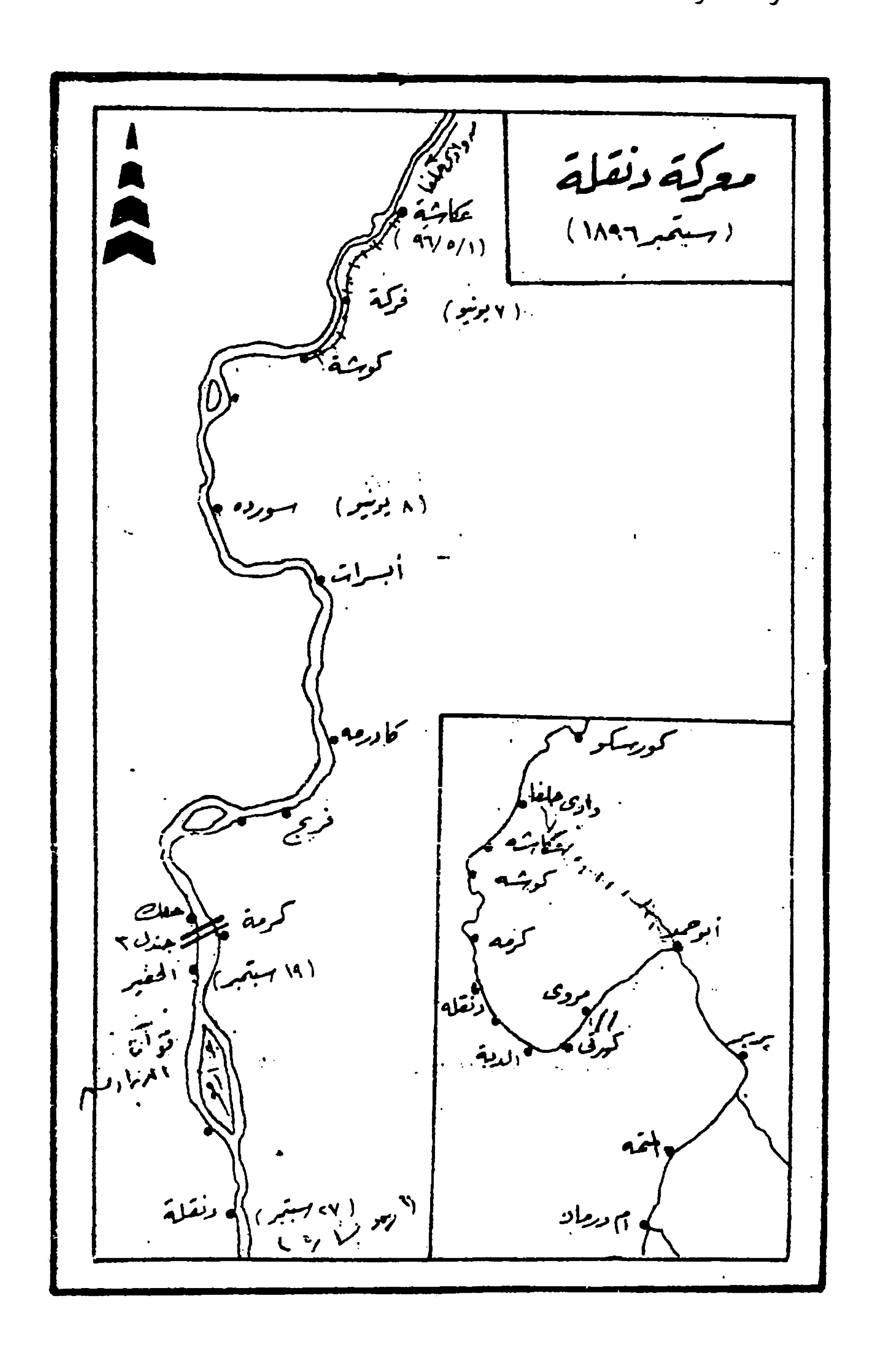
ملاحظة : انظر خط سير الحملات على الخريطة بملحق الكتاب.

١- كتشـنر - ضـابط إنجليزى من سلاح المهندسين، التحق بالخدمة فى الجيش المصرى الجديد الذى أعيد تكوينه بعد الثورة العرابـية، وكـان يعرف اللغة العربية ولذا اختير ضابطا للمخابرات فى دنقله قبل حملة واسلى ليستطيع الاتصال بغوردون المحاصـر فى الخـرطوم - كما أشرنا سابقًا - وأن يكون حلقة الاتصال بينه وبين العالم الخارجى والحملة القادمة لانقاذه، وعـين محافظًـا لسـواكن التى كانت تتعرض لهجمات (عثمان دقنه) وقواته، ثم عين رئيسا للبوليس المصرى، ثم سردارًا للجيش المصرى فى عام ١٨٩٢ خلفًا للسير جرانفيلل وقدر له أن يقود حملات استرجاع السودان.

وكان كتشنر فى ذلك الوقت فى سن الثامنة والأربعين ولم يكن متزوجا. وقد ذكر مورهيد إنه اشتهر بالترفع وكان فى مصر يتجنب زيارة ضباطه فى مساكنهم ويؤثر عليهم لقاء أغنياء اليهود والأتراك.

وكـان قاسـيًا فى الاقـتطاع من مرتبات الجنود، شرسا متغطرسًا لا يبدى أى اهتمام نحو جنوده، ونادرا ما كان يتحدث إلـيهم، وبحجة الاقتصاد فى النفقات لم يسمح إلا بعدد ضئيل من الأطباء ليصحب الحملة، وكان مسلكه مع الجرحى من الدراويـش مشـوبا أيضـا بعدم الإكتراث إذ كانوا يتركون فى سلحة القتال ليموتوا، وكان ضباطه يجاملونه بأن يطلقوا شوارهم على غرار شاربيه الطويلين، ولم يجرؤ أحد منهم قط على مناقشة قراراته.

انظر- الآن مورهيد : النمل الأبيض ص ٣٣٥.


معركة دنقلة
(سبتمبر ١٨٩٦)
عكاشة
فركة
كوشة
سورده
أبرات
كادرمه
كرمة
الحفير
دنقلة
كورسكو
وادي حلفا
عكاشه
كوشه
كرمه
دنقله
الدبة
كورتي
مروى
أبو حمد
بربر
المتمه
أم درمان

والعجيب إن الحكومة الإنجليزية لم تستشر الخديو قبل تقرير إرسال الحملة حتى أن كرومر بعث إلى سولسبرى يقول "إن الخديو قد رفض أن يخطب فى الجنود قبل رحيلهم بما يفيد أنه راض عن غرض الحملة، وهو استرجاع جزء من السودان، وليس استرجاع السودان كله، وأن شكواه الرئيسية تتلخص فى أن الزحف حصل لخدمة المصالح الإيطالية، وأن أحدًا لم يستشره سلفًا، وقبل تقرير إرسال الحملة"(١).

وقد احتج الباب العالى بتحريض فرنسا على دخول مصر فى حرب دون أخذ موافقته المبدئية(٢).

وأثيرت مشكلة أخرى حين طلبت الحكومة المصرية من صندوق الدين الموافقة على صرف مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه للانفاق منها على الحملة إذ عارض فى ذلك مندوبا فرنسا، وروسيا، ولما وافق الصندوق بأغلبية أربعة أصوات ضد صوتين (صوتا فرنسا، وروسيا) – أقام المندوبان الفرنسى والروسى دعوى على الحكومة المصرية فى المحكمة المختلطة، وصدر الحكم فى ديسمبر ١٨٩٦ ضد الحكومة المصرية فاضطرت لرد المبلغ وفوائده للصندوق.

وقد وافقت الحكومة الإنجليزية على أن تقرض الحكومة المصرية مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه بفائدة ٢,٤/٣% لتمويل الحملة. وقد تنازلت الحكومة البريطانية فيما بعد عن حقها فى هذا المبلغ لتقيم الدليل على نيتها فى المساهمة مع حكومة الخديو فى التبعات، ومن المحتمل الأرباح المنتظرة من هذا العمل الذى أقدما عليه سويًا.

وتتلخص الخطة التى رسمت للحملة فيما يلى:

١- إقامة معسكر حصين عند (عكاشة) وإتخاذها كمخزن للمؤن الجيش المتقدم جنوبًا.
٢- يمد الخط الحديدى من سرس إلى (عكاشة).
٣- تتكفل القوافل بنقل المؤن.

١- انظر :

Abbas, Mekki: The Sudan Question. The dispute over the Anglo Egyptian Condominium (1884-1951), P. 43.

٢- محمد فؤاد شكرى: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر (١٨٢٠-١٨٩٠) القاهرة ١٩٥٨ ص ٥٠٢، ٥٠٣.

٤- يعمـل ترتيـب لضـمان الاتصال المنتظم بين القوات المحاربة فى السودان وقواعدها الأمامية والقاعدة الأساسية لها فى مصر.
٥- ضرب قلاع العدو وتحصيناته بطول مجرى النهر.

وكان السردار يدرك أن الحرب هى حرب نقل وتموين، وأن المشكلة الرئيسية أمام جيشه تتركز فى المواصلات(١).

تحـرك الجيش البالغ عدده ١٠,٠٠٠ مقاتل فى أول مايو ١٨٩٦ من حلفا إلى (عكاشة)، وبعد الإستيلاء عليها وتحصينها اتخذ الطريق الصحراوى، وطريق النيل صـوب فـركة (Eirkct) يقصد مباغتة قوة الدراويش هناك، وكان عددها حوالى ثلاثة آلاف مقاتل معظمهم من البقارة تحت قيادة أحد رجالهم المدعو الأمير حموده إدريس وكانوا مسلحين بالبنادق(٢).

والتقى الجيش المصرى مع الدراويش فى ٧ يونيه ١٨٩٦ فى فركة، وهزمهم وقـتل منهم ما يقرب من الألف، وأسر ستمائة، وفر الباقون، وتتميز قرية (فركه) بموقعها الطبيعى الممتاز والحصين.

واحتلـت قـوة مـن الفرسان (سورده)، وقد مدت السكة الحديد إلى (كوشه)، وانفـتح الطريق أمام القوات الزاحفة صوب دنقله، لكن انتشار الكوليرا، وما عاناه الجنود من العواصف الرملية أدى إلى توقف الزحف صوب الجنوب لبعض الوقت.

وكانـت قـوات الدراويـش فـى دنقله تحت قيادة ودبشارة وهو قائد اشتهر بالشجاعة كما يذكر تشرشل (Valliant Wad Bushara)(٣).

ولـم يلبـث أن استأنفت قوات السردار زحفها فى سبتمبر (١٨٩٦) فوصلت كـرمه، بيـنما عـبرت قوات الدراويش النهر إلى الحفير، وأمر السردار بضرب تحصينات العدو فى الحفير، كما استطاعت الوابورات أن تعبر الحفير إلى الجنوب فـى اتجـاه دنقله مما أقلق الدراويس على ديمهم وأسرهم، وكان ود بشارة مصمما على الصمود فى دنقله لأنه كان يدرك أنها مفتاح المديرية الشمالية كلها.

1- Theobald, A. B.: The Mahdiya: History of the Anglo-Egyptian Soudan (1881-1899), P. 196.

٢- انظر الخرائط الملحقة بالكتاب لتتبع مواقع المعارك الهامة.

3- Churchill, W. The River War; An Account of the Reconquest of the Sudan (London, 1933), PP. 251-258.

لكــن أمام زحف الجيش المصرى اضطر الدراويش إلى إخلاء (دنقله) نفسها فاحــتلها الجيش الزاحف فى ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦. واستولت الحملة على (مروى)، وأصــبحت هــناك حاميات مصرية متمركزة فى دنقله، والخندق، ودبه، وكورنى، ومروى ولم تتعد خسائر الجيش المصرى ٤٧ قتيلا، ١٢٢ جريحًا(١).

وبعد تنظيم الإدارة فى مديرية دنقله – عاد كتشنر إلى القاهرة فى ١٣ أكتوبر ١٨٩٦ ومنها سافر إلى إنجلترا.

وكــان الجيش المصرى أثناء تقدمه يمد خطوط السكة الحديدية من وادى حلفا عــبر صحراء العطمور صوب (أبو حمد)، فقد أدرك كتشنر مما لاقته حملة الإنقاذ الســابقة أن الجهد الذى يُبذل فى مد الخط الحديدى أيسر مما يستلزمه أمر اختراق الجــنادل الطبيعــية أو اختراق الطريق الصحراوى، والعجيب أن الدراويش تركوا الجــيش الــزاحف يمد خطوطه دون إبداء أية مقاومة أو محاولة لإتلاف هذا الخط الذى سينقل الجيوش الزاحفة عليهم وإمداداتها وتموينها. وهذا دليل على قلة حنكتهم العسكرية وعلى قصر نظرهم(٢).

علــى أن حملة دنقله، وإن كانت قد حققت الهدف منها – لكنها أثبتت ضرورة اســتئناف العملــيات العسكرية للزحف صوب الخرطوم لتحطيم قوة الدراويش من جهــة ووضــع حــد للتسابق الاستعمارى على أملاك مصر فى السودان من جهة أخرى.

وقــد شعرت إنجلترا إنه قبل استئناف الزحف لابد من ضمان حياد الحبشة – فأرســلت بعــثة إلــى (إديس أبابا) برئاسة رنيل رود (Rcnael Rodd) فى فبراير

1- Alford and Sword: The Egyptian Sudan: Its Loss and Recovery PP. 130-137.

٢- بحثــت فكرة الخط الحديدى من وادى حلفا إلى ابو حمد أو من كورتى إلى المتمة أو من سواكن إلى بربر – واستقر الرأى عــلى مــد الخط من وادى حلفا مخترقًا الصحراء إلى أبو حمد – وقد بدأ العمل فى الخط فى يناير ١٨٩٧، وحرص كتشنر على أن يسير على نظام قضبان جنوب أفريقيا تحقيقا لحلم سيسل جون رودس فيكون هناك فى المستقبل خط الكاب – أبو حمد – حلفا.

وقد برزت مشكلة المياه اللازمة للعمال وغيرهم، وحلت بحفر الآبار.

على أن إتمام المشروع كان يستلزم الاستيلاء على ابو حمد ونجح الجنرال هنتر (Hinter) فى ٧ أغسطس فى تحقيق ذلك.

وقــد مر الخط فيما بعد إلى (العطبرة) وتم ذلك فى (٣ يوليو ١٨٩٨)، وكان هذا بحق مفتاح النصر لأن (معركة العطبرة) كما ذكر ستيفنس كسيت فى الواقع فى ورش السكك الحديدية بوادى حلفا.

انظر Steevens G. S.: With Kitchener to Kartoum, P. 39.

١٨٩٧، وقد ذكر فى أهداف هذه البعثة "الحصول - إذا أمكن على حياد الأحباش المشبع بالود والعطف، وهم الذين بعد نجاحهم الأخير ضد الطغيان - قد أصبحوا قوة ذات شأن فى مساحة شاسعة من الأراضى المتاخمة للسودان، وأن تبذل قصارى جهدها لتحول دون أى تعاون بين الملك منليك والخليفة عبد الله، وأن تجمع كل ما يتسنى لها أن تجمعه من معلومات عن الحالة فى داخل الحبشة ذاتها، وأن تنظر البعثة بعد نجاح مهمتها - لمسألة تخطيط الحدود بين الصومال البريطانى والحبشة ناحية هرر[1].

قد نجحت بعثة رنيل رود الإنجليزية فى تحقيق الهدف منها، فاستطاعت أن تزيل كل سوء تفاهم بين بريطانيا ومنليك، وتعهد منليك بعدم مساعدة المهديين، بل أعلن أنهم أعداؤه، كما سويت مشكلة حدود الصومال البريطانى مع الحبشة، وتركت مسألة الحدود بين السودان والحبشة حتى يتم الإنتصار نهائيا على الدراويش.

وقد عقدت البعثة فى ١٤ مايو ١٨٩٧ معاهدة فى أديس أبابا من ست مواد، تضمنت ما اتفق عليه الطرفان - الأحباش والإنجليز[2].

لكن البعثة لم تستطع أن توقف نشاط الفرنسيين الذين كانوا يهدفون للزحف على النيل من جهتين من الشرق (من الحبشة)، ومن الغرب (من الكنغو الفرنسى، والأوبانجى)[3].

٢- حملة النيل (حملة أم درمان ١٨٩٧-١٨٩٨)

أسرعت الحكومة الإنجليزية بعد نجاح حملة دنقله، فأمرت كتشنر للاستعداد للزحف جنوبا حتى يصل إلى فاشوده قبل وصول مارشان الفرنسى إليها - كما تواترت فى ذلك الوقت.

وصل كتشنر إلى (مروى) فى يوليه ١٨٩٧ ليتخذ منها مركزا لقيادته، وكان معه فى هذه الحملة عدد ممن ذاع صيتهم فيما بعد مثل ونجت (Wiugate) وسلاتين (Slatin)، ووينستون تشرشل (Churchill; W.).

1- Rodd, Rennel: Social and Diplomatic memories (London, 1925) Vol. II, P. 164.

2- Ibid: P. 167.

3- Hanotaux, Gabriel et Martineau, Alfred: Histoire des Colonies Francaise, Tome IV (Paris 1931) P. 522.

والتقى الجيش المصرى بالدراويش وهزمهم ودخل (أبو حمد)، ووقع فى الأسر قائد الدراويش (الأمير محمد زين)، واضطر الدراويش لإخلاء بربر وانسحب أميرها (محمد الزاكى) صوب الجنوب ودخلها الجيش الزاحف فى سبتمبر ١٨٩٧.

وكان سقوط بربر ضربة كبيرة وجهت للخليفة، فقد ترتب ذلك فتح الطريق للمناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والسيطرة على طريق سواكن - بربر[١].

وقد حدثت حركة عصيان وتمرد من الجعلين فى (المتمة) ضد الخليفة. وتختلف الآراء فى العوامل التى أدت لذلك - ويشير تشرشل إلى المقابلة التى تمت بين زعيم الجعليين والخليفة، وطلب الخليفة من الزعيم الجعلى تدبير المؤن اللازمة لجيش (الأمير محمود) الذى سيرسل لحمايتهم من الأتراك واعتذر زعيم الجعليين عن إمكانية تحقيق ذلك وما أعقب هذا من حركات تمرد.

ومهما يكن السبب المباشر لذلك فإن الثقة بين الجعليين والخليفة لم تكن متوفرة وسينضم هؤلاء للجيش الزاحف فى محاربته للخليفة وأتباعه - وقد أرسل الخليفة حملة انتقامية ضربت مساكن الجعليين وسبت نساءهم وأسرت رجالهم.

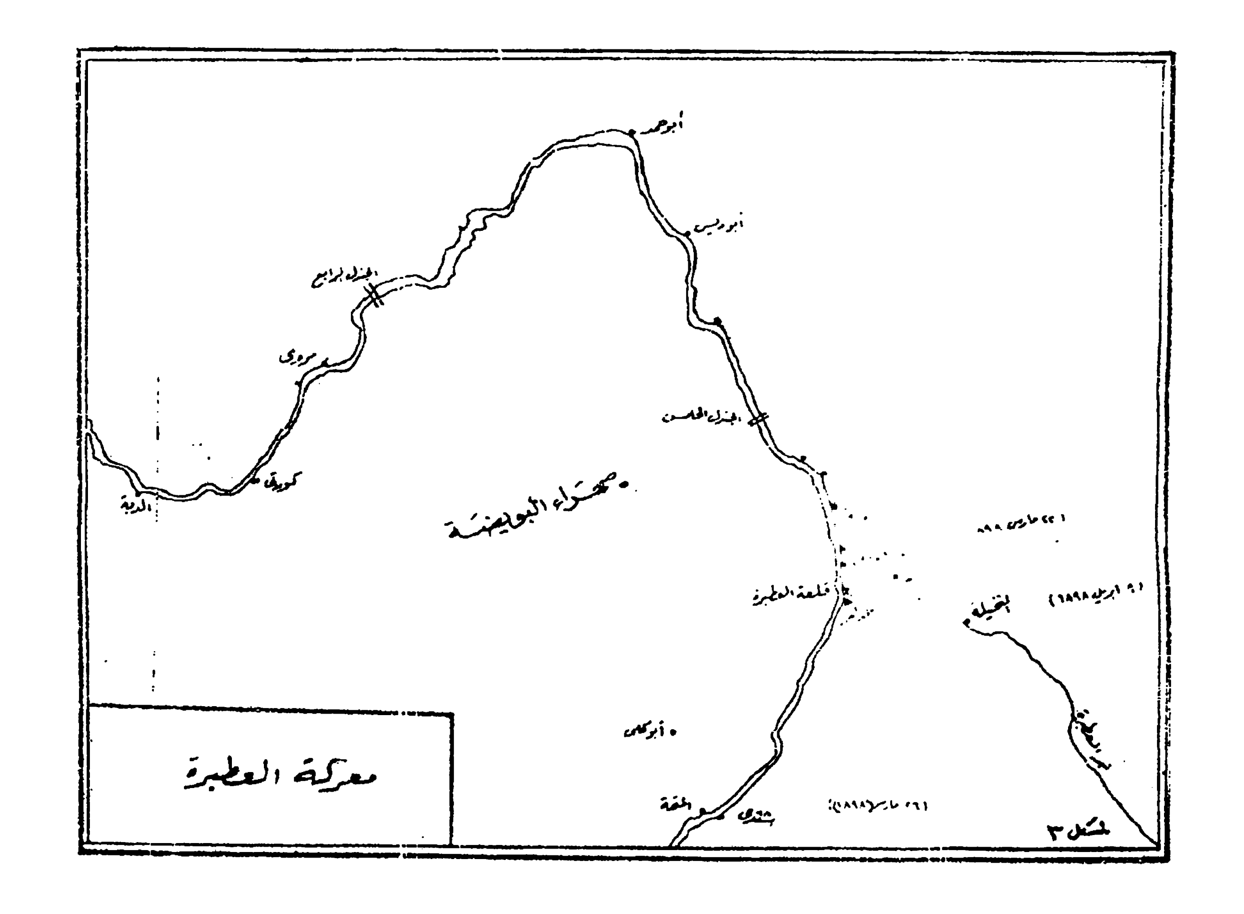
وقد حاول (عثمان دقنه) الذى جاء لنجدة جيش الدراويش الذى كان يقوده الأمير محمود - القيام بحركة التفاف حول الجيش الزاحف لكنه لم ينجح.

وكان وصول خط حديد الصحراء إلى أبو حمد (فى ٢١ أكتوبر ١٨٩٧) بمثابة تأمين لوصول المؤن بانتظام للجيش الزاحف.

وفى ٢٠ مارس ١٧٩٨ وصل محمود ود أحمد ابن عم الخليفة إلى قرية (النخيله) على نهر العطبرة حيث أقام معسكرًا كبيرًا تحميه شجيرات كثيفة وحصنه بزريبة مدعمة بجزوع نخيل الدوم، بينما كانت قوات كتشنر على مسافة أكثر من عشرين ميلاً فى منطقة (رأس الهودى) عند انثناء العطبرة. وكان كتشنر مترددًا فى أن يبدأ الهجوم على العدو أم لا، وحدثت مكاتبات بين كتشنر وكرومر بهذا الصدد، وكان رأى كرومر إنه من الصعب أن يعطى رأيًا قاطعا وهو فى القاهرة، ونصح كتشنر الاسترشاد برأى من معه من ضباط الحملة من أمثال هنتر[٢].

١- عصمت حسن زلفو (رائد): كررى ص ٢٣٤.

2- Cromer, Earl of: Modern Egypt (London 1908) Vol. I PP. 99-102.



معركة العطبرة
صحراء البيوضة
أبو حمد
أبو دیس
الجندل الخامس
الجندل الرابع
مروي
كورتي
الدبة
قلعة العطبرة
أبو كلي
المتمة
شندي
النخيلة
(٢٦ مارس ١٨٩٨)
شكل ٣

وفى ٢٦ مارس ١٨٩٨ سقطت شندى، وترك أمر تعقب الفارين من الدراويش للجعليين، وفى ٨ أبريل ١٨٩٨ حدثت معركة العطبرة وهى من المعارك الفاصلة فى تاريخ حملات استرجاع السودان[١].

بدأت معركة العطبرة فى صباح يوم ٨ أبريل ١٨٩٨ حين هاجمت مدفعية كتشنر مواقع جيش الدراويش، وانتهت المعركة باندحار جيش الدراويش وقتل عدد كبير من رجالة قدر بثلاثة آلاف، وأسر ما يقرب من الألفين من بينهم الأمير محمود نفسه قائد الدراويش بينما نجح بعض القواد الآخرين فى الفرار إلى أم درمان – ومن هؤلاء عثمان دقنه. ويذهب البعض إلى أن قتلى معركة العطبرة من الدراويش يزيد عددهم عن ٧,٠٠٠، وأن عددًا كبيرًا أبيد بعد المعركة أو ترك جريحًا للموت إذ أن الغرض الأساسى لكتشنر فى معركة العطبرة – كما قيل – كان إبادة جيش محمود لمنعه من العودة لأم درمان والقتال مرة أخرى[٢].

ويمكن أن نجمل نتائج معركة عطبرة فيما يلى:

١- نقص قوات الخليفة بما لا يقل عن ١١,٠٠٠ مقاتل من أمهر مقاتليهم منهم من قتل أو جعرح أو تشتت فى أرجاء القطر الواسعة ولم يعودوا لأم درمان للاشتراك فى المعركة الحاسمة.

٢- زعزعة معنويات جيش الخليفة فى أم درمان بعد وصول فلول وبقايا جيش محمود، وما ردده عن أسلحة الجيش المصرى المتقدمة.

٣- انتفاض أعداء الخليفة وتكتلهم ضده، وفى مقدمة هؤلاء الجعليين الذين كونوا فرقة أطلق عليها الكتاب الإنجليز اسم فرقة الأصدقاء العرب (Friendly

---

١- أخذ كثيرون من النقاد العسكريين على محمود ود احمد قائد الدراويش تركه استحكاماته فى المتمة حيث كان باستطاعته عرقلة تقدم كتشنر صوب أم درمان واختراقه بجيشه الصحراء بين النيل والعطبرة، ولكن ذكرت عدة مبررات لاختيار قائد الدراويش هذا المكان للمعركة الحاسمة مع العدو الزاحف على العاصمة أم درمان.

– هذا وقد كان محمود ود احمد حاكما لولاية دارفور وكردفان المضطربة، حين استدعاه الخليفة ليواجه الجيش الزاحف من الشمال. انظر:

Hill, Richard: Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan (Oxford 1951), P. 224.

٢- محمود عبد الله : حملة محمود ود أحمد للشمال (رسالة ماجستير) ص ٢٣٦.

– وللتفاصيل الدقيقة لمعركة العطبرة انظر :

عصمت حسن زلفو : مرجع سابق ص ص ٢٤١-٢٤٣.

(Arabs – لتحارب فى صفوف السردار، وذلك انتقامًا لما أصاب عشيرتهم التى أبيدت فى المتمه.

٤- اقتناع الخليفة بالتخلى عن كل المنطقة شمال أم درمان وتركيز جهده فى المناطق الواقعة جنوبًا.

حشد الخليفة قواته البالغ عددها ٥٠,٠٠٠ مقاتل مسلحين بالحراب فى سهول كررى عند أم درمان فقد فضل أن يخوض المعركة الفاصلة فى المنطقة خارج أسوار أم درمان. وقد استدعى قواته من مختلف أنحاء السودان للاشتراك فى المعركة الحاسمة، وأمر الخليفة ببناء الطوابى فى شمال وجنوب خانق سبلوكه للدفاع، كما أمر ببث الألغام فى مياه النهر.

عبر الجيش الزاحف – والبالغ عدده ٢٥,٨٥٠ مقاتل مدعمين بالمدفعية القوية– منطقة (سبلوكه) دون مقاومة تذكر. وفى ٣ أغسطس ١٨٩٨ أرسل كتشنر خطابًا للخليفة يطلب فيه إبعاد النساء والأطفال عن أم درمان، ويدعوه للتسليم حقنًا للدماء. ولم يرد الخليفة على خطاب كتشنر لكنه جمع مجلس أمرائه للنظر فى استعدادات الدفاع، ولما اقترح (الزاكى عثمان) وهو من رجاله البارزين الهجرة إلى دار الغرب والاستعداد هناك لمقاتلة الأعداء أحتد الخليفة وأمر بسجنه.

هذا وقد نجحت الوابورات المتقدمة فى النهر فى إسكات طوابى الدراويش فى شمباتن وتوتى، والخرطوم واتجهت بعد ذلك لضرب أم درمان ذاتها[1].

وفى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ وقعت معركة أم درمان وأندحر جيش الخليفة وقتل أكثر من إحدى عشر ألفًا من رجاله حصدتهم مدفعية الجيش المصرى، هذا بالإضافة إلى ١٦ ألف جريح، ٤ الآلاف أسير، ودخل كتشنر أم درمان، وفر الخليفة عبد الله وبعض قوات جيشه ومعهم عثمان دقنه، والخليفة على ودحلو تجاه الغرب – أما الخليفة أحمد شريف وأبناء المهدى الكبار فقد فروا إلى جزيرة أبا وسلموا فيما بعد فى نوفمبر ١٨٩٨ لقوات الحكومة وسمح لهم بالإقامة فى قرية قرب سنار على النيل الأزرق، ولما وصل إلى علم القيادة البريطانية فى أغسطس ١٨٩٩ إنهم يدبرون للانضمام للخليفة عبد الله فى الغرب فى مقاومة قوات الحكومة قبض عليهم وأعدموا.

وقد بلغت خسائر جيش كتشنر ٤٨ قتيلا، ٤٨٢ جريحًا. وهكذا يمكن أن نقول إن هذه المذبحة تعتبر من أكبر المعارك التى أنتصرت فيها الأسلحة الحديثة على

١- نعوم شقير : مرجع سابق جـ٣ – ص ص ٦٣٥-٦٣٧.

الأسلحة المتخلفة، وتفوقت فيها الخطط العسكرية على الحرب العشوائية، ومع ذلك فـإن من النقاد العسكريين من يرى أن (التكتيك) الذى أتبعه كتشنر لم يتغير كثيرًا عن أيام وترلو (١٨١٥) – ففى أم درمان كما فى واترلو حارب الرجال على هيئة طـابور، ولم يستخدم تليفون الميدان فقد كان كتشنر ينقل أوامره إلى قواده بواسطة مراسلين راكبين كما فعل (ولنجتون) فى ووترلو.

وكان هذا التأخير فى استقبال الأخبار وإرسال الأوامر من الأمور التى جعلت مهمة السيطرة على حركات هذه القوات الضخمة المنتشرة فى ميدان واسع صعبة.

ويـأخذ الـبعض على الخليفة عدم أخذه برأى الذين نصحوه بالهجوم ليلاً وأن يتحاشى مهاجمة أعدائه فى وضح النهار حتى لا يعرض جموعه للحصد فى ميدان مكشـوف، بينما يرى البعض أن تقدم كتشنر تجاه أم درمان فى ذلك الوقت بالذات كـان مغامـرة تتسم بقصر النظر، وأن خط تقدمه كان واسعًا وكان تقديره لموقف الفـرقة الـتى كانت بقيادة ماكدونالد فى غاية البطء، وأن الظروف خدمته وليست مهارتـه الحربـية هـى الـتى حسمت الموقف[1]. وقد تخلص كتشنر من جرحى الدراويـش ليـنظف مـيدان المعركة منهم حتى أن صحف المعارضة البريطانية وصفته بالوحشية[2].

وبعد دخول كتشنر أم درمان قام يعمل يتنافى مع كل مبادئ الإنسانية، وإن دل على شئ فهو يدل على ما وصف به من وحشية وشراسة. فقد أمر بإخراج جثمان المهدى من جوف الأرض من ضريحه الذى كانت قد هدمته القنابل، واجتز رأسه، وقيل إنه كان يفكر فى استعمال الجمجمة كمحبرة أو قدحًا للخمر، وذلك إنتقامًا لما فعلـه الدراويـش بغـوردون، وقد أرسل رأس المهدى للقاهرة ليرسل كتحفة لكلية الجراحين فى لندن – لكن يارنج أعاد الجمجمة حيث دفنت سرًا فى مقبرة فى وادى حلفا.

ولما قوبل تصرف كتشنر هذا بهجوم عنيف من الصحافة العالمية والبريطانية – كتـب للملكة فى ٧ مارس ١٨٩٩ يبرر تصرفه بأن قبر المهدى يشير إلى عهد المهديـة، وأن البناء كان آيلا للسقوط، وأن الضرورة السياسية تحتم هذا التصرف ليقضى على عقيدة المهدية ولتجنب أضرار المستقبل.

١– لمن يهمه معرفة التفاصيل الدقيقة لمعركة أم درمان (كررى) والمعارك الجانبية المتصلة بها يرجع إلى: عصمت حسن زلفو : مرجع سابق.

2- Theobald: Op. Cit. P. 234.

وكذلك Churchill: Op. Cit. P. 301.

وكان رد الملكة أنه يجب احترام قبور أعدائنا.

وقد منح كتشنر لقب لورد الخرطوم Lordkitchcuer of khartoum[١] وحين دخـل كتشـنر الخـرطوم بحث عن بقايا مخلفات غوردون فلم يعثر منها إلا على المـنظار المقرب الذى يتطلع خلاله من فوق سطح السراى، كما أستردت الباخرة بورديـن، وقد أقام كتشنر صلاة جنائزية على روح غوردون فى الميدان المواجه لأطـلال السـراى، ونكس العلمان البريطانى والمصرى على ساريتين أقيمتا على حطام سقف السراى، وإصطف الجنود تحت درجات السلم الذى قتل عليه غوردون لأداء التحية العسكرية لروحه.

وبعد واقعة أم درمان رفع كتشنر العلمين المصرى والبريطانى جنبًا إلى جنب على سراى الحكومة المخربة فى الخرطوم وفقا للتعليمات التى تلقاها من كرومر، وأدى هـذه العاصـفة استياء من الجنود والضباط المصريين فحين تم قبل ذلك فتح دنقله، وكسلا، وبربر رفع عليها العلم المصرى فقط[٢].

ولـم تلبث إنجلترا أن بلغت الحكومة المصرية أن لها حق الاشتراك فى إدارة شئون السودان بما ضحت فيه من مال ورجال – وسنتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد.

فاشـوده :

صـدرت التعلـيمات لكتشنر بمتابعة السير فى النيل الأبيض لاحتلال فاشوده. وكانـت هذه التعليمات تقضى بأنه عند وصوله لفاشوده – إذا وجد بها القوة الفرنسية الـتى يُشـاع وصـولها مـن المسـتمرات الفرنسـية بغرب القارة بقيادة مارشان (Marchand) فعليه أن يخبر القائد الفرنسى بأن وجود هذه القوة الفرنسية فى فاشوده بـل وفـى أى جـزء مـن وادى النيل كله يعد تعديًا على حقوق مصر، والحكومة الإنجليزية، وأن يعترض على رفع الراية الفرنسية على أملاك سمو الخديو.

خـرج كتشـنر مـن أم درمان فى ١٠ سبتمبر فوصل إلى (الرنك) فى ١٥ سـبتمبر، وفى ١٨ سبتمبر أصبح على بعد ١٢ ميلا من فاشوده، وفى ٢١ سبتمبر

1- Magnus, Philip: Kitchener; Portrait of An Imperialist (London, 1958) P. 134.

٢- مكى شبيكه : السودان فى قرن ص ٢٨٩.

ملاحظة :

بعـد معـركة أم درمـان بأسبوع واحد وصلت باخرة كان الخليفة قد أرسلها للجنود لجلب الغلال، لكنها قوبلت عند فاشوده بنيران الفرنسيين فعادت أدراجها للشمال تقص قصة هؤلاء الغزاة الأوربيين الجدد، لكن لم يستطيع رجال الباخرة تحديد جنسية الذين واجهوهم فى فاشوده.

١٨٩٨ وصل كتشنر إلى فاشوده على رأس كتيبتين من الجنود السودانيين، وخمس سفن، وبطارية للمدفعية وأربعة مدافع مكسيم.

وبمجرد وصول كتشنر طلب مارشان للتباحث معه. وقد أخبره مارشان "إنه بناءًا على أوامر حكومته قد احتل بحر الغزال إلى مشرع الرق وإلى ملتقى بحر الجبل، ثم بلاد الشلك على يسار النيل الأبيض إلى فاشوده، وأنه دخل فاشوده فى يوم ١٠ يوليو الماضى ومعه ٩ ضباط فرنسيين، ١٢٠ جنديًا سنغاليًا، وثلاث قوارب من الصلب، ١٠ قوارب صغيرة – وأنه رفع العلم المثلث الألوان على فاشوده[١].

وبعد مناقشة حامية – قبل مارشان رفع الراية المصرية على مسافة ٧٠٠ ياردة من الراية الفرنسية على أن ينتظر أوامر حكومته إذ أنه كضابط يستحيل عليه الخروج من ذلك المكان الذى أمر باحتلاله إلا بأوامرها.

وترك كتشنر فى فاشوده الكولونيل (جاكسون) ومنحه لقب الحاكم العسكرى والمدنى لمنطقة فاشوده مع فرقة من الجنود عسكرت فى المعسكر الذى أقيم بجوار المعسكر الفرنسى، وغادر كتشنر فاشوده واتجه إلى السوباط وأقام نقطة مراقبة عند ملتقى السوباط بالنيل رفع عليها العلم المصرى وبذا أغلق طريق اتصال الفرنسيين فى فاشوده بالأحباش، كما أغلق طريق اتصالهم بالداخل.

وقد أرسل اللورد سولسبرى – الوزير البريطانى – كتابًا للحكومة الفرنسية يؤكد فيه إن وادى النيل كان ولا يزال ملكا لمصر، وإن كل إعتداء على هذه الحقوق من جانب المهدى قد انتهى بعد هزيمة الدراويش فى أم درمان، وإن إخلاء فاشوده ليس فيه امتهان لكرامة فرنسا لأن الحكومات الفرنسية المتعاقبة قد أعلنت بجلاء إن هذه الأرضى المتنازع عليها إنما هى ملك لمصر.

ولما كان مارشان فى وضع حرج فقد أُضطر للسفر إلى القاهرة حيث تكون اتصالاته مع حكومته أسهل وأسرع تاركا القيادة فى غيابه للكابتن جيرمان[٢].

وقد رأت الحكومة الفرنسية بعد ذلك ألا تثير حربًا مع إنجلترا على مسألة فاشوده، فبعثت فى ٤ نوفمبر ١٨٩٨، تأمر رجالها بالانسحاب من فاشوده وتم

١- كانت فاشوده مركزًا ذات أهمية خاصة لأنها تقع فوق جزء مرتفع من الأرض فهى فى مأمن من أخطار الفيضان والأمطار الغزيرة صيفا، هذا بالإضافة إلى أنها عند ملتقى طوق القوافل من جنوب كردفان، وتقع على بعد ٦٠ ميلا شمال التقاء النيل الأبيض والسوباط.

2- Giffen, N. B.: Fashoda, the incident and its diplomatic setting (Chicago 1930) P. 11.

ذلك في ١١ ديسمبر ١٨٩٨، وأبحر الفرنسيون عائدين لوطنهم عن طريق الحبشة(١).

وفي ٢١ مارس ١٨٩٩ عُقد اتفاق بين الحكومتين الفرنسية والإنجليزية لتحديد مناطق النفوذ بين أملاك ومستعمرات الإنجليز والفرنسيين الواقعة إلى الغرب وإلى الشرق من نهر النيجر، وبمقتضى هذا الاتفاق خرج حوض بحر الغزال، وبحر العرب بأجمعه من دائرة النفوذ الفرنسي بما في ذلك دار فريت ودارفور(٢).

هذا على أن هناك سؤالا يفرض نفسه من خلال هذه الأحداث المرتبطة بالحملة الفرنسية على فاشوده. هو لماذا إختارت الحكومة الفرنسية فاشوده بالذات لتحقيق أهدافها في حوض النيل؟ فقد كانت هناك عدة أماكن أخرى في شمال النهر وجنوبه لها نفس الميزة الحيوية كنقط مواصلات على النهر مثل فاشوده وكانت فاشوده بالذات معروفة بجوها الحار وتفشي الملاريا فيها. وأثناء الإدارة المصرية للسودان كثيرًا ما استخدمت كمكان لإبعاد غير المرغوب فيهم. وقد كتب رومولو جيسي عنها في عام ١٨٧٤ فذكر "إنه يقال أن من يرسل إلى فاشوده لا يعود، فالطقس غير صحي والهواء موبوء"(٣).

والحقيقة إن قضية فاشوده لم تكن مجرد مادة للمناقشات القانونية حول نظرية الأرض الخلاء أو غيرها فحسب بل أصبحت رمزًا للتنافس الاستعماري الطويل بين إنجلترا وفرنسا(٤).

1- Theobald: Op. Cit. P. 246.

٢- كان الفرنسيون قد احتلوا مراكز أخرى غير فاشوده في مشرع الرق، واو وغيرها ولذلك كان الأمر يستلزم ليس فقط إخلاء فاشوده بل أيضًا الاتفاق على الحدود بين مناطق نفوذ كل من الدولتين.

Giffen: Op. Cit., P. 78.

٣- ارجع لما جاء في الوثيقة التي نشرها مؤلف هذا الكتاب عن طلب مارشان طبيبا إنجلترا لمعالجة المصابين بالمرض من رجال حملته – مجلة الدراسات الأفريقية العدد الثاني.

El Gamal, Shawki: An unpublished document.

ملاحظة :

اشتراك مارشان فيما بعد في الحرب العالمية الأولى، وقد توفي بعد ذلك في عام ١٩٣٤.

4- Theobald: Op. Cit. PP. 245-246.

٣- استرجاع بقية أقاليم السودان

شرق السودان ومنطقة النيل الأزرق :

فيما يتعلق بباقى أقاليم السودان - فقد كان الإيطاليون يحتلون كسلا، وقد تحرج وضعهم بعد هزيمتهم فى عدوه - لكن بعد احتلال الجيش المصرى لبربر أرسلت قوة مصرية من سواكن احتلت كسلا فى ٢٠ ديسمبر ١٨٩٧.

وبعد هزيمة الدراويش فى أم درمان تعقب الجيش الزاحف البقية الباقية منهم، كما هاجم قواتها التى كانت لا تزال تحتل سنار والرصيرص حيث أنهزم الدراويش هزيمة منكرة فى ديسمبر ١٨٩٨، كما سقطت القضارف، والقلابات، وتم احتلال أرض الجزيرة و(فازوغلى) ومات فى هذه المعارك الأمير (سعد الله) أحد أمراء الدراويش البارزين، بينما نجح (أحمد فضيل) وكان موجودًا فى العطبرة وقت احتدام معركة أم درمان - فى الهرب إلى القضارف، ثم هرب بعد ذلك إلى الرصيرص وغربًا إلى (الرتك) ثم لحق بالخليفة فى كردفان وسيلعب دورًا آخر فى الصفحة الختامية للمهدية فى السودان[1].

هكذا لم ينته عام ١٨٩٨ حتى كان كل شمال ووسط وشرق السودان قد خضع للقوات المصرية ومع ذلك فقد كان الخليفة لا يزال فى غرب السودان وحوله عدد لا يستهان به من أتباعه.

نهاية الخليفة

بعد معركة أم درمان هرب الخليفة فى اتجاه الأبيض متخذًا طريق أبارشات، وآبار الزرقا، وتجمعت حوله قوات الأبيض التى بقيت سليمة.

وفى ديسمبر ١٨٩٩ أرسلت قوة صوب جزيرة أبا فى محاولة لتعقب الخليفة الذى كان يظن أن قواته لا تتعدى ألف رجل - لكن اضطرت القوة للعودة حين علمت أن الخليفة يجمع حوله أكثر من ٧,٠٠٠ رجل مسلحين بالبنادق - فقد خشيت القوة أن تلقى مصير حملة هكس. وهكذا ولمدة سنة كاملة لم تتخذ ضد الخليفة أية عمليات حربية جدية حتى شاع أنه يعمل لمحاولة استعادة عاصمة ملكة وإنه يتقدم على رأس ٤١٥٠ رجلاً لمهاجمة أم درمان.

وفى أوائل نوفمبر ١٨٩٩ وصلت طلائع قوات الخليفة - بقيادة الأمير أحمد فضيل الذى هرب من شرق السودان - إلى النيل مقابل جزيرة أبا - فأعدت حملة

1- Churchull: Op. Cit. PP. 343-346.

بقــيادة الكونــيل ونجت (Wingate) لتعقب قوات الخليفة والقضاء عليه، ووصلت القــوة إلــى (كاكا) على النيل الأبيض جنوب الخرطوم بــ٣٨٠٠ ميلا، وفى ٢١ نوفمــبر تركت القوة النيل متجهة إلى الغرب لتتبع قوات أحمد فضيل التى اتجهت صــوب (أبــو عادل). وقد نجحت قوات ونجت أن تلحق بقوات أحمد فضيل وأن توقــع بهــا فأنســحب أحمد فضيل بعد أن فقد أكثر من أربعمائة ن رجاله ليلحق بالخليفة فى (أم دبيكرات) على بعد سبعة أميال جنوب شرق آبار جديد.

وأســرع ونجــت للتقدم لاحتلال (آبار جديد) فوصلها فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ وبذا حرم الخليفة مصدر الحياة الوحيد فى تلك المنطقة.

ولعــل الســؤال الذى يفرض نفسه قبل أن نشير إلى المعركة الختامية فى أم دبــيكرات (Um Debeikerat) هــو – مــا الدافع التى حدت بالخليفة لترك مكمنه الحصين فى جبال النوبة والتقدم نحو أم درمان مهاجمًا.

هــل هــى الرغــبة فى خوض معركة يائسة أخيرة – إما أن تحقق له نجاحا يسترد به مكانته أو يموت ميته كريمة؟

هــل فشــل الحمــلات التى وجهت نحوه بعد أم درمان قد شجعته وقوت من عزيمته على أخذ المبادأة والتقدم نحو أم درمان.

أم أنه شعر بأن العدو يستعد للقضاء عليه ففضل أن يخوض المعركة التى لابد من خوضها فى المكان والموعد الذى يناسبه ويختاره هو؟

علــى كل بقى الخليفة فى (أم دبيكرات) حتى وصل أحمد فضيل مع من نجا مــن رجاله ليجد أن العدو أحتل آبار جديد. وقد أدرك الخليفة أنه وقع فى المصيدة، فالطــريق للشــمال كــان مقفولا أمامه بواسطة قوات ونجت، أما الشرق فقد كانت بوارج العدو بمدافعها تجعله محرمًا – ولم يكن فى الإمكان الانسحاب للجنوب بعد احــتلال العــدو لمصــدر المياه الوحيد فى المنطقة – فلم يكن أمام الخليفة إلا أن يخوض معركته النهائية فى هذه المنطقة.

وانتهــت المعركة بقتل الخليفة عبد الله، وعلى ود حلو، والأمير أحمد فضيل، والصــديق ابن المهدى، وهارون محمد شقيق الخليفة – وقتل من جنود الخليفة ما يقرب من ١٠٠٠ مقاتل وأسر ٣١٥٠ مقاتل، ٦٢٥٠ من النساء والأطفال[١].

١– تقرير ونجت الرسمى الذى كتبه عن المعركة :

Col. Wingate Report to the Sirdar 25th Nov. 1899. Wo/32/6143. Public Record Office London.

وأفلت عثمان دقنه ونجح فى الوصول للنيل الأبيض وعبره بالقرب من الدويم وواصل تقدمه إلى أن وصل شواطئ البحر الأحمر حيث ظل مختفيا فى أحد كهوف الجبال إلى أن قبض عليه.

وقد توفى معظم الأسرى من عشيرة الخليفة عبد الله فى سجن رشيد فتوفى يعقوب أبو زينب عام ١٩١٢ – وكان آخر الأمراء (يونس الدكيم) الذى عاد لأم درمان وتوفى عام ١٩٣٦. وهكذا تمت التصفية النهائية للثورة المهدية وتبع ذلك سقوط الأبيض عاصمة كردفان.

أما دارفور فقد استطاع الأمير (على دينار) من سلالة الفور السابقين أن يستخلصها من يد الدراويش بعد واقعة أم درمان، وبقى يحكمها من قبل حكومة السودان حتى عام ١٩١٦ حين نبذ ولاء الحكم فقبضت عليه جيوشها[١].

هذا على أنه حدثت فى السودان بعد ذلك حركات مماثلة للحركة المهدية استطاعت الحكومة القضاء عليها فى مهدها.

نذكر منها حركة (على عبد الكريم) فى أم درمان سنة ١٩٠٠ وهو من أقارب المهدى، وقد نادئ بأفكار غريبة وانتهى الأمر بنفيه إلى حلفا.

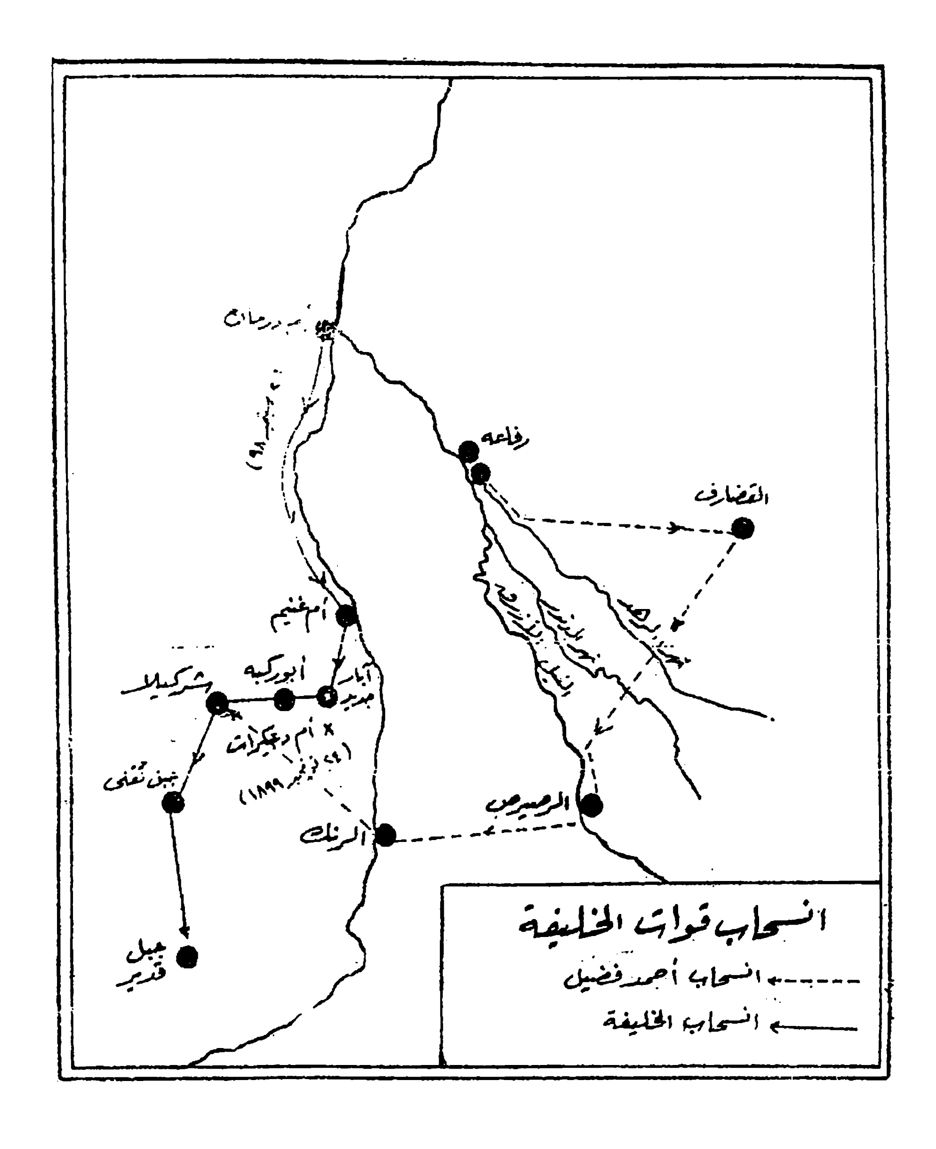
وفى سنة ١٩٠٣ ظهرت فى (تقلى) حركة تزعمها شخص يدعى (الشريف محمد الأمين)، وقد قامت حملة بقياة مدير كردفان بالقبض على زعيم هذه الحركة وأحضر إلى الأبيض حيث أعدم.

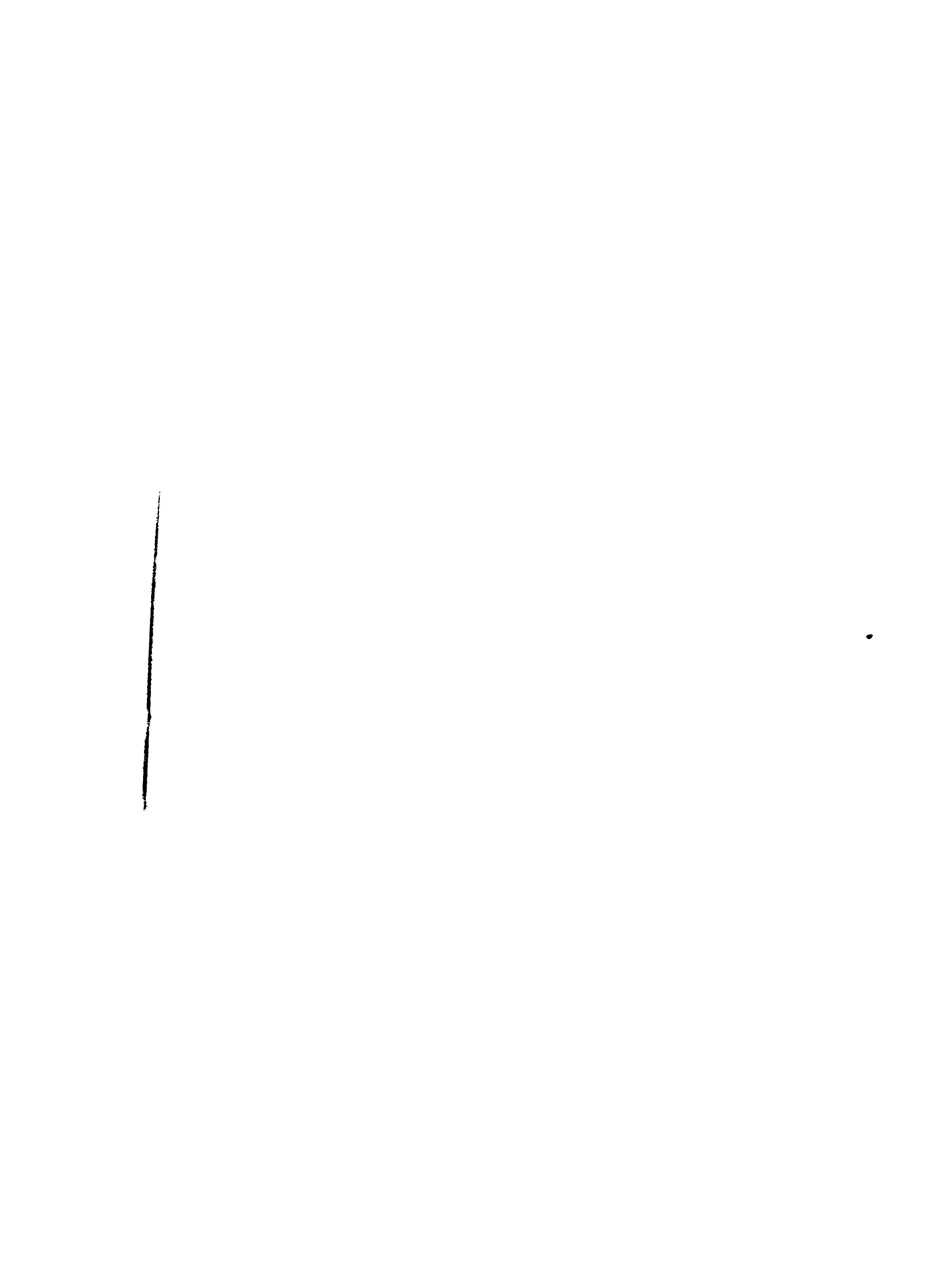
وظهرت حركات فى القضارف وغيرها من مدن السودان الشرقى والجزيرة، وقد قمعت هى الأخرى.

ومن أخطر الحركات التى ظهرت بالجزيرة حركة (عبد القادر ود حبوبه) فقد أنضم إليه عدد كبير ممن أثارهم بدعوى التفكير عن خطأ الرضوخ للحكومة الجديدة، فأرسلت الحكومة إليه حملة كبيرة انتصرت عليه بعد جهد وعناء وحكم عليه بالإعدام.

وسنشير فيما بعد بتفصيل إلى بعض هذه الحركات التى ظهرت فى السودان وواجهتها الإدارة الجديدة.

١- انظر الخرائط.


رفاعه
القضارف
أم غنيم
أبو ركبه
آبار جديد
أم دبيكرات
(٢٤ نوفمبر ١٨٩٩)
الرنك
الروصيرص
جبل قدير
انسحاب قوات الخليفة
انسحاب أحمد فضيل
انسحاب الخليفة

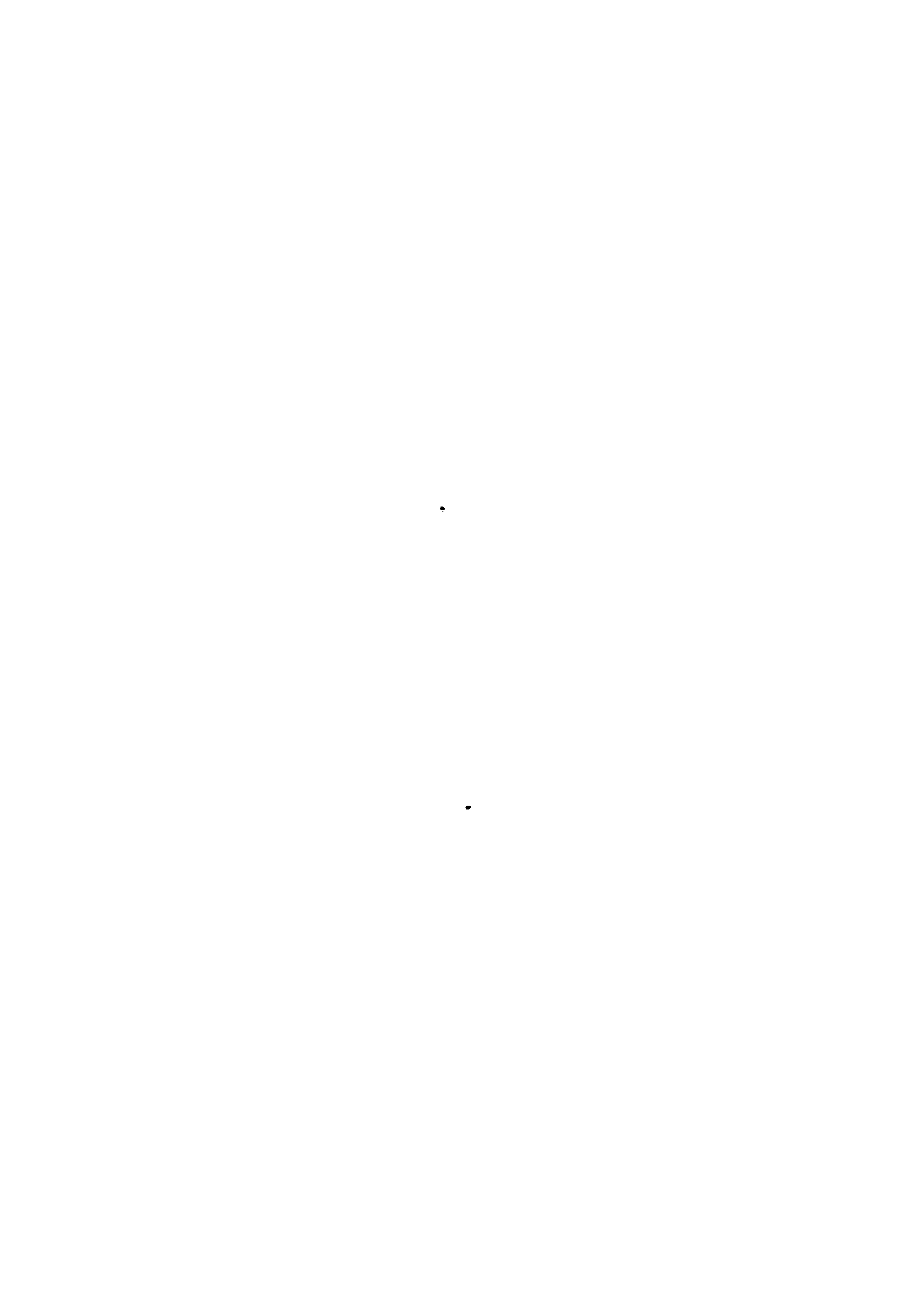


٧

الفصل السابع
نظام الحكم الجديد فى السودان

أولا: اتفاقية الحكم الثنائى (٢٩ يناير ١٨٩٩).
- مواد الاتفاقية.
- نقد الاتفاقية.
- موقف المصريين والراى العام العالمى من الاتفاقية.

ثانيا: أحوال السودان فى ظل نظام الحكم الثنائى:
- الإدارة ونظام الحكم.
- الحاكم العام - السكرتير - مديرو الإدارات.
- التقسيم الإدارى.
- المفتش العام.
- مجلس الحاكم العام.
- تعمير الخرطوم.
- المبانى العامة.
- التعليم فى الشمال، والجنوب.،
- الصحة.
- القضاء.
- المشروعات الاقتصادية.
- الزراعة.
- الثروة الحيوانية والرعى.
- التعدين.
- الصناعة - التجارة - الضرائب.
- الأمن الداخلى والقضاء على الثورات المعادية.



الفصل السابع
نظام الحكم الجديد فى السودان بعد استرداده

أولاً: اتفاقية الحكم الثنائي (١٩ يناير ١٨٩٩)

حرص الإنجليز بعد استعادة السودان علي ان يضعوا نظاماً جديداً لإدارته وحكمه.

وقد كانت هناك عدة اعتبارات تحكمت في صورة النظام الجديد الذي وضع لحكم السودان هي:

١- رغبة البريطانيين في بسط نفوذهم علي وادي النيل كله وضمه لإمبراطوريتهم الافريقية، وقد استندوا علي ما أسموه حق الفتح، وعلي ما شاركوا به من مال ورجال في استرجاع السودان لتبرير ذلك.

٢- لكن كان يحول دون انفرادهم بالسيطرة علي السودان – حقوق مصر القديمة فيه، وما تكبدته في عمليات الفتح الجديد. وقد كانت بريطانيا ذاتها تستند علي ما لمصر من حقوق ثابتة في السيادة علي السودان لم تلغها الثورة المهدية – وذلك لتواجه اطماع الدول الاستعمارية الاخري المنافسة لها في هذه الجهات – وقد حدث هذا مثلا حين واجهت بريطانيا فرنسا وقواتها في (فاشوده)، فباسم حقوق مصر وسيادتها واجه كتشنر، مارشان وطلب منه الجلاء عن هذه الجهات، بل إن استرجاع السودان قام أصلا علي اساس هذه الحقوق التي تريد مصر استئناف ممارستها.

٣- كذلك كانت بريطانيا تدرك ان السودان يُعتبر ارضًا عثمانية، ولذلك يجب – حسب الفرمانات الشاهانية – ان يقوم بالحكم فيه الخديوى الذي هو تابع للسلطان.

٤- لم ترد بريطانيا في ذلك الوقت ان تضيف اعباءاً جديدة بإدارة هذه البلاد الواسعة إدارة مباشرة، مع ما يتطلبه ذلك من جهد ومال ورجال.

٥- كذلك كانت بريطانيا ترغب في أن تبعد تركيا عن شئون السودان حتي لا تطبق فيه الإمتيازات الأجنبية السائدة في باقي الولايات العثمانية، وللخروج – كما قال كرومر – من المتاعب الخطيرة التي كانت تأتي من إعتبار السودان أرضاً عثمانية.

وكـــان علـــي البريطانييـــن أن يجـــدوا حلا لهذه المعادلة الصعبة. حلا يحقق أطمـــاعهم ومصـــالحهم وفي نفس الوقت يواجه الأوضاع القانونية والدولية التي لا يمكن تجاهلها كلية.

وكمـــا قـــال كرومر نفسه "إن الامر قد نوقش عندما كنت في لندن في يوليو ١٨٩٨، لكـــن فـــي ذلـــك الوقت لم يقترح احد حل للطريقة التى يتسني بها تحقيق الاغراض المنشودة.* وعلي أية حال فمن اجل إعطاء فكرة عن وجهة نظر الحكومة البريطانـــية التى تتلخص في أن الوضع السياسي للسودان يختلف تماما عن الوضع السياســـي في مصر – أمر كتشنر أنه عند دخوله الخرطوم ان يرفع كلاً من علمي بريطانيا ومصر جنباً الي جنب – وقد نفذ هذا الامر فعلاً، ولكن لم يلفت هذا العمل النظر كثيراً بسبب الحرب والإنشغال بأفراح النصر".

وهكـــذا كان علي القنصل البريطاني في مصر – لورد كرومر ان يجد وسيلة للخروج من هذه الورطة.

وقـــد عّبر اللوردسا لسبري(Salisbury) عن ذلك بقوله "إنه عندما يواجه احد مجموعـــة مـــن الـــتلال فإنه من الممكن علي العموم أن يعبر خلالها علي ممر او طريق"[١].

وقـــد استطاع كرومر وبمساعدة مستشاريه القانونين أن يجد (تخريجاً) قانونيا، فـــي الـــنظام الفريد الذي وضع أسسه والدي أقره اللورد سالسبوري وهو ما سماه الدولة المولده (Hybrid Estate) وهي دولة من ناحية الشكل علي الاقل – تشترك في حكمها مصر وبريطانيا[٢].

وقـــد كانـــت هناك تمهيدات لهذا الاتفاق الذي أُبرم في ١٩ يناير ١٨٩٩ فكما ذكـــرنا لقـــد مهـــد له برفـــع العلمين المصري والبريطـــاني علي مبني الحكومة بالخـــرطوم، وتـــنازل الحكومـــة البريطانـــية عن المبالغ التي أقرضتها للحكومة المصـــرية أثـــناء عملـــيات الفتح لتكون بذلك مساهمة في نفقات الفتح. وقد عّبرت

ملحوظة:

عـــندما دخـــل كتشـــنر الخـــرطوم فى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ رفع العلمين المصرى والبريطانى جنبا إلى جنب على بقايا سراى الحكمدار لكن عندما وصل فاشوده بعد ذلك فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٨ ليواجه القائد الفرنسى مارشان رأى من الحكمة رفع العلم المصرى وحده واحتج على رفع العلم الفرنسى على جزء من أملاك صاحب السمو الخديو.

1- Omar, Abd El Moneim : The Sudan Question Based on British Decuments pp. 55. 57 .

٢- شكرى فؤاد : المرجع السابق ص ٥٣٩. (م ١٢ – السودان).

بريطانـــيا عن وجهة نظرها هذه فى مذكرة بتوقيع رينل رود فى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ جاء فيها:

"إنـــه بالـــنظر إلـــى المســـاعدات المادية التى قدمتها الحكومة البريطانية إلى الحكومة المصرية من الناحيتين الحربية والمالية – فقد قررت حكومة جلالة الملكة رفـــع العلـــم البريطانى بجانب العلم المصرى فى الخرطوم – وإن هذا الإجراء لا يقصد به تحديد كيفية إدارة الأراضى المحتلة فى المستقبل، وإنما يرمى إلى التأكيد بـــأن حكومـــة جلالـــة الملكـــة تعتبر أن لصوتها الغلبة فى جميع المسائل المتعلقة بالســـودان وأنها تبعاً لذلك، تنتظر أن تلتزم الحكومة المصرية بكل نصيحة تقدمها إليها الحكومة البريطانية فى شأن المسائل السودانية[١].

وقد أبلغ رأى الحكومة البريطانية هذا لوزير الخارجية المصرى بطرس باشا غالى.

وحين قام كرومر بأول زيارة له للسودان عقب النصر على قوات الخليفة ألقى خطـــبة للمشـــايخ فـــى أم درمـــان، هنأ فيها المجتمعين على خلاصهم من طغيان الدراويـــش، ثـــم أخبرهم أن رفع العلمين المصرى والبريطانى كان دليلاً على أنهم ســـوف يُحكمون فى المستقبل بواسطة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا وسمو الخديو ممثليـــن فـــى شـــخص الحاكم العام الذى لا يجب أن يعول على أحد غيره، وأكد كرومر فى خطبته إحترام العقيدة الإسلامية، وتطبيق الشرع، وأنهم يجب ألا يخشوا عودة مساوئ الحكم المصرى القديم فإن الحكومة المصرية الآن تتسم بروح جديدة، وأكـــد لهـــم أن الضـــرائب سوف لا تكون باهظة، وأنه سوف يقيم بعض الضباط البريطانيين فى كل جهة لضمان العدالة[٢].

وقـــد أشـــار كرومر فيما بعد إلى أنه كان يهدف من خطبته هذه جذب أنظار الرأى العام فى مصر والسودان إلى الخطوة التالية[٣].

وقد أثارت هذه الخطبة مناقشات حادة بين كرومر وبين المشايخ الحاضرين – أما سالسبرى فقد هنأ كرومر على خطبته هذه.

وقوبلـــت خطـــبة كرومـــر هذه بدهشة من الضباط المصريين ومن الأهالى الســـودانيين – وقد أرسل أحد الضباط المصريين نص خطبة كرومر إلى الخديوى،

١– السودان: من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣ – رئاسة مجلس الوزراء بمصر ١٩٥٣ – ص ٥.

2- Shbeika, Mekki : Op. Cit. P. 418

3- Cromer : Modern Egypt. (London 1908) Vol. 2. p. 115.

وأشار إلى أن جميع الضباط المصريين بالسودان قد استاءوا من هذه الخطبة وأنهم يتساءلون إذا كان قد تم شئ من الإتفاق بخصوص السودان حتى يقول اللورد كرومر مثل هذا الكلام(١).

وكان تعليق الخديو "إنه لا يصدق أن يكون هذا نص خطبة اللورد كرومر" وبعد عودة كرومر إلى مصر من السودان فى ١٧ يناير ١٨٨٩ سأله الخديوى عن موضوع الخطبة – فأجابه بأنه لم يكن فى نيته القاء خطاب فى السودان لكنه اضطر إلى ذلك، لكنه أشار غلى أن اللورد سالسبرى بعث إليه بصورة اتفاق إنجليزى – مصرى يختص بالسودان وأنه سلم نسخة منه لبطرس باشا غالى ناظر الخارجية(٢).

وبالطبع لم يكن كرومر صادقاً فى إدعائه – أنه لم يكن فى نيته إلقاء خطب فى السودان فقد أشار هو نفسه – كما ذكرنا سابقاً إلى أن الهدف من الخطبة إنه أراد لفت الأنظار إلى التغيير الذى سيطرأ على حكم السودان.

كما أن إشارة كرومر إلى أن سالسبرى هو صاحب فكرة الاتفاق يغاير الحقيقة تماماً – فقد كان مشروع الإتفاق الذى تبلورت عنه صيغة الإتفاق النهائى الذى وقع فى ١٩ يناير ١٨٩٩ من وضع كرومر نفسه – فقد ظهر أن كرومر انتهى من وضع مشروع الاتفاق وأرسله فى ١٠ نوفمبر ١٨٩٨ إلى سالسبرى مع مذكرة تفصيلية.

وقد ذكر كرومر فى مذكرته الإعتبارات التى املت ما أنتهى إليه فى مشروعه الخاص بالحكم الجديد فى السودان – واشار إلى أنه كان هناك أحد احتمالات ثلاثة: إما أن تضم بريطانيا السودان إليها، وإما أن يعتبر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية كما كان، أو أن يوضع حل وسط – وناقش كرومر كل حل من هذه الحلول، ووصل إلى أن الظرف كانت تحتم وضع نوع فريد من الحكم غير ما هو متعارف عليه فى القوانين الأوربية، كما أشار إلى ما يهدف الإتفاق إلى تحقيقه، واعترف بأن هذا الوفاق قد تثار حوله بعض الاعتراضات أشار إلى بعضها وحاول الرد عليها.

فقد ذكر مثلاً إنه قد يقال إن الفرامانات الشاهانيه منعت الخديو من عقد أية معاهدات مع الدول الأجنبية – ما عدا الاتفاقات التجارية والجمركية كما أنه جاء

١– أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن – الجزء الثانى طبعة ١٩٣٦ ص ٢٩٤، ٢٩٥.

٢– شكرى، فؤاد : مرجع سابق ص ٥٧٤.

فى الفرمان الصادر فى ٢٧ مارس ١٨٩٢ للخديو عباس حلمى الثانى "أنه لا يجوز للخديــو لأى سبب أو وسيلة أن يتنازل للآخرين بصفة جزئية أو كلية عن الحقوق والإمتيازات الممنوحة لمصر، كما أنه ليس له الحق فى التصرف فى أى جزء من الأراضــى المصرية للغير" لكن كرومر رد على هذا الاعتراض بأن الاتفاق ليس معاهدة لكن مجرد تنظيم داخلى للإدارة فى السودان، كما أنه كان يرى فى اشتراك أموال انجليزية وجنود إنجليز فى حملات استرجاع السودان ما يبرر الخروج على القانون.

كمـا حـاول كرومـر فـى مذكرته هذه تفسير مواد الاتفاق كما وردت فى مشروعه ومبرراتها.

وبـرر كرومر النظام الذى وضعه يقول : "إنه كان ضرورياً أن يبتدع نظامًا يكـون السـودان بمقتضـاه فـى آن واحد مصرياً إلى الحد الذى يتفق مع العدل والسياسـة وبريطانـياً إلى حد يكفل تجنب إدارة البلاد أن يعوقها نظام الامتيازات الأجنبية الذى يلازم حياة مصر السياسية".

وقـد طلب كرومر فى مذكرته أن يعرض مشروع الإتفاق على كتشنر ليبدى ملاحظاتـه علـيه. وقد عرض المشروع فعلاً على كتشنر وعلى مجلس الوزراء الـبريطانى، كمـا عـرض على خبراء قانونين، وأجريت عليه تعديلات طفيفة ثم أرسلت الصيغة النهائية لكرومر ليبلغها لوزير الخارجية المصرى[١].

وأنتهى الأمر بموافقة الحكومة المصرية عليه.

وفـى ١٩ يـناير وقع الاتفاق عن الحكومة المصرية وزير الخارجية بطرس غالى وعن الحكومة البريطانية اللورد كرومر.

وهذا الوفاق من مقدمة واثنى عشر مادة[٢]:

فى المقدمة :

أشـار لحقـوق السيادة التى كانت لمصر، وما أصبح للحكومة البريطانية – حكومـة جلالـة الملكة – من الحقوق المترتبة على اشتراكها فى عملية الفتح مما يترتب عليه اشتراك الحكومتين فى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم التى أعيد فتحها، وما تستلزمه حالتها من الاحتياجات المتنوعة.

1- Shebeika : Makki : Op. cit., pp. 411 412.

٢– نص الوفاق موجود فى ملحق البحث.

المادة الأولى:

تعريف بالأراضى التى يشملها لفظ السودان فى هذا الاتفاق – وهى الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٢٢° من خطوط العرض وهى:

أولاً: الأراضى التى لم يخلها قط الجنود المصريون منذ ١٨٨٢ (أى وادى حلفا، وسواكن).

ثانياً: الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة، وفقدت منها مؤقتا، ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة، والحكومة المصرية معا.

ثالثاً: الأراضى التى قد تفتتحها الحكومتان مستقبلاً بالاتحاد.

المادة الثانية:

تشير إلى رفع العلمين البريطانى، والمصرى فى جميع أنحاء السودان، ما عدا (سواكن) التى وجد أن رفع العلم البريطانى عليها حالياً إلى جانب العلم المصرى يثير عاصفة احتجاج كبيرة[١].

المادة الثالثة:

لهذه المادة أهمية خاصة فهى تتعلق بطريقة حكم السودان – فقد نص على أن تكون السلطة التنفيذية فى يد موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) يُعين بأمر خديوى بناءًا على طلب حكومة جلالة الملكة، ولا يفصل من وظيفته أيضاً إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة:

تختص بالقوانين واللوائح، فقد أعطى الحاكم العام سلطة تغييرها أو إصدار لوائح أو قوانين جديدة على أن يبلغ الحكومتين البريطانية والمصرية بما يصدره من قوانين ونشرات.

المادة الخامسة:

تقضى بعدم سريان القوانين والقرارات المصرية التى تصدر من الآن فصاعداً – على السودان إلا إذا صدر بها منشور من الحاكم العام.

١- أخضعت سواكن لأحكام النظام الذى تقرر فى هذا الوفاق بموجب اتفاقية خاصة وقعت فى ١٠ يوليه وسنشير لذلك بتفصيل فيما بعد.

المادة السادسة:

تتعلق بالمساواة بين جميع الأوروبيين فيما يتعلق بحرية المتاجرة أو الإقامة فى السودان أو التملك.

المادة السابعة:

خاصة بالرسوم الجمركية على البضائع الواردة من مصر أو غيرها من البلاد الأخرى، وكذلك الرسوم التى تقرر على البضائع الخارجية من السودان.

المادة الثامنة:

بخصوص عدم امتداد سلطة المحاكم المختلطة إلى أية جهة من جهات السودان عدا سواكن[1].

المادة التاسعة:

بشأن وضع السودان تحت الأحكام العرفية.

المادة العاشرة:

خاصة بتعيين القناصل او وكلاء القناصل أو مأمورى القنصليات بالسودان.

المادة الحادية عشر:

بشأن منع إدخال الرقيق إلى السودان.

المادة الثانية عشرة:

خاصة بمنع أدخال الأسلحة النارية أو الذخائر الحربية والأشربة المقطرة الروحية وبيعها أو تشغيلها.

هذه هى بنود الاتفاقية التى وقعت بالقاهرة فى ١٩ يناير ١٨٩٩ وفى اتفاق آخر بتاريخ ١٠ يوليه ١٨٩٩ ألغى النص الوارد فى المادة الثامنة الخاص باستثناء سواكن من امتداد سلطة المحاكم المختلطة إليها[2].

١- استثنيت سواكن فى البداية حتى لا يقابل بمعارض من الدول الأوربية – لكن أصبح هذا الحذر أيضاً نافذاً على سواكن بعد اتفاقية يولية ١٨٩٩.

٢- نص هذا الاتفاق الجديد موجود فى :

السودان : مرجع سابق ص ٨، ٩.

نقد الاتفاقية (الوفاق):

يلاحظ على هذه الاتفاقية:

١- لم يتوفر الشرط الأساسى الضرورى لصحة أية اتفاقية أو معاهدة – وهو أن يكون طرفا الاتفاق متكافئين، وأن يتاح جو الحرية التامة لكل طرف، لكن الوضع كان غير ذلك تماماً، فالأنجليز كانوا أصحاب السيادة فى مصر.

وقد سبق أن أوضحت الحكومة الإنجليزية بصراحة أن من لا يقبل من الوزراء المصريين السير وفق السياسة والنصائح البريطانية فعلية أن يتخلى عن منصبه، وقد سبق أن استقال شريف باشا رداً على هذا الوضع وتألفت وزارة نوبار باشا، وكان قبولها للوزارة فى هذه الظروف ورضوخها لتوجيهات إنجلترا بإخلاء السودان دليلا على قبول ما جاء بالتصريح البريطانى.

٢- لم يكن للخديو الحق فى عقد المعاهدات أو الاتفاقات مع الدول الأجنبية ما عدا الاتفاقات التجارية وما يتعلق بالضرائب، ولم يكن له الحق فى التنازل للغير عن الحقوق والامتيازات الممنوحة لمصر – فسلطة الخديو كانت مقيدة بالفرامات العثمانية.

وقد أدرك كرومر نفسه هذه الحقيقة لكنه حاول فى مذكرته المرفقة مع مشروع الاتفاقية أن يرد على هذا الأعتراض.

٣- المعاهدات الدولية التى وقعت عليها إنجلترا (اتفاق لندن عام ١٨٤٠، ومعاهدة باريس ١٨٥٦، ومعاهدة برلين ١٨٧٨) كانت كلها تحتم عليها عدم المساس بأى جزء من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية – فالاتفاق فى حد ذاته نقض لهذه المعاهدات.

٤- لم تتعرض الإتفاقية لمسألة السيادة على السودان وتركتها – عن قصد – مبهمة تفسرها كل جهة وفق أهوائها.

ولعل كرومر قصد بذلك ألا يترك مجالا لتركيا للاعتراض بدعوى أن الاتفاقية تعنى تنازلا من الخديوى عن جزء من الأملاك العثمانية بدون إذن من السلطان.

٥- استندت انجلترا لتبرير اشتراكها فى حكم السودان وإدارته – إلى ما اسمته (حق الفتح)، وهذا يخالف الواقع – فمصر هى التى تحملت النصيب الأكبر من أعباء حملة الإسترداد، وإذا كانت قيادة الحملة قد عهد بها للإنجليز فإنهم

لـــم يكونواســـوى موظفين فى الحكومة المصرية ولولا سياسة بريطانيا التى كانت تسيطر على مصر لما تطورت الأمور فى السودان لهذا الحد.

٦- وضعت الإتفاقية فى يد الحاكم العام سلطات واسعة، فقد أصبح النفوذ الحقيقى فى يد هذا الموظف الذى اشترط على أن يكون تعيينه بناءًا على طلب حكومة جلالـــة الملكـــة ولا يفصل من وظيفته أيضاً إلا بأمر يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

وبذا أصبح الأمر كله بيد بريطانيا وأصبحت الإدارة الثنائية التى أشير إليها – لا وجود حقيقى لها.

٧- خالفـــت الإتفاقية المبادئ الدولية المتعارف عليها بإلغائها الامتيازات الأجنبية، وسلطة المحاكم المختلطة وهى حقوق لم تكن لبريطانيا ولا لمصر أن تغيرها دون اتفاق مع من منحت لهم.

علـــى كل ستثبت الأحداث المقبلة عند تطبيق الإتفاقية أن الأمر لم يخرج عن كونه حكم إنجليزى صرف للسودان ألبس ثوب ما عرف باسم (الحكم الثنائى) حتى لا تُثار عليه أية أعتراضات قانونية أو غيرها.

موقف المصريين والرأى العام العالمى من الاتفاقية:

قابلـــت جمـــيع الصـــحف العربية، بل والصحف الأجنبية المحايدة توقيع هذا الاتفـــاق بموجه من الإستنكار، وأعتبرته سلباً لحقوق مصر. كما أن رجال القانون المصـــريين وغـــيرهم وجدوا فى هذا الإتفاقية افتئاتاً على القانون وخروجاً على ما كانـــت تســـتند عليه الحكومة الإنجليزية من حقوق مصر فى السيادة على السودان لمواجهة أطماع الدول الاستعمارية الأخرى.

وقـــد كتبـــت جريدة الجورنال اجيسيان (Le Journal Egyptien) عقب توقيع الاتفاقية عدة مقالات هاجمت فيها الإتفاقية. وقد جاء فى إحدى هذه المقالات بتاريخ ٢٤ يـــناير ١٨٩٩ "إن أفظـــع اغتصاب فى هذا الجيل قد وقع، وهو عقد اتفاق بين الغاصـــب القاهـــر والمغصوب العاجز . وفى عام ١٧٨٤ حينما شرع الإنجليز فى وضـــع أيديهم على مصر كان يوجد وطنى صادق ووزير أمين رفض التوقيع على عقـــد قصد به سلخ السودان عن مصر سلخاً قانونياً، وقد توفى هذا الرجل الشريف وخلـــد ذكـــره مقرونا بالمديح. وفى عام ١٨٨٩ وقع مجلس النظار المصرى عقد اتفاق مشئوم لا يراد به التخلى المؤقت عن السودان – وإنما التنازل عنه لإنجلترا، وقـــد تـــم هذا العقد – الذى مزقت به العقود المبرمة سابقا مع الدول – بين وكيل

المملكـــة المـــتحدة، وناظـــر خارجية مصر المأذون بذلك – كما يتم التوقيع على تعريفه جمركية"(١).

وقد عطلت الجريدة بسبب هذه المقالات الشديدة اللهجة فى ٢٥ يناير ١٨٩٩.

أمـــا المصريون فقد غُلبوا على أمرهم، فتوقيع الإتفاقية لم يكن فى الحقيقة عن اقتـــناع ممـــن وقعها عنهم، وقد كانت الوزارة الموجودة فى ذلك الوقت هى وزارة مصـــطفى باشا فهمى، وقد وقع الاتفاقية عنها وزير الخارجية بطرس باشا غالى. ولـــذا فقد صب المصريون جام غضبهم على الوزارة وعلى وزير الخارجية الذى وقع الاتفاقية باسمها وتزعم حركة التعبير عن غضبة الرأى العام المصرى الزعيم مصطفى كامل.

وقـــد نشر مصطفى كامل فى جريدة اللواء فى ٢٠ يناير عام ١٩٠٠ بمناسبة مرور عام على هذه الاتفاقية جاء فيه(٢):

"إن أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر، واسوأ تذكار يهيج فى نفوس المصريين الأحـــرار الالآم والأشـــجان هو يوم ١٩ يناير – يوم تذكار اتفاقية السودان – ذلك الـــيوم المشؤوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كله – إن الســـودان صـــار مستعمرة إنجليزية بالفعل، وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التى صُرفت فى سبيل استرداده قدمت هديه من مصر للدولة البريطانية – فما أعظمك يا مصر كرماً – وأكبرك بلاءًا وهمًا.

أجـــل كان الأمس تذكار المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التى أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الأمينة من سماء عدالتهم وإنصافهم.

فـــإن كـــان لكم معاشر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكر الأحـــياء، وأعتقدوا أن حقوقكم فى السودان مقدسة، وأن كل المعاهدات والإتفاقيات لا تميـــت هـــذه الحقـــوق أبداً، وعلموا أبناءكم صغاراً معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كباراً، أو ليحافظوا عليها إن استرجعتموها أنتم.

تذكـــروا معاشـــر المصـــريين إن اخوانكم فى الوطن والدين أُهرقت دماؤهم الغزيرة فى سبيل استرداد السودان – تذكروا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم وصرفت فيها أموالكم، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء ..

١- أحمد شفيق : مرجع سابق جـ٢ ص ٢٩٨، ٢٩٩

٢- مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٣٠٧.

تذكــروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان، وأن القابعين على منابع النيل قابعين على أرواحكم.

تذكــروا معاشـــر المصــريين أن ضياع السودان ضياع لمصر، وأنكم بغير السودان لمصر فاقدون الحياة.

تذكــروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرمانات جلالة السلطان الأعظم ومعاهدات الدول الأوربية.

تذكــروا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم وقد مضـــى علـــى انفصـــالهما ثلاثون عاماً، وما حاجة فرنسا إليها كحاجة مصر إلى السودان.

ومـــا أذكـــركم بالســـودان إلا لتفكروا فيه صباحًا ومساءًا، وتعتبروا الإتفاقية المشؤومة اتفاقية باطلة حتى يجئ اليوم الذى تحققون فيه رغائبكم، وتكون الحكومة طوع إرادتكم، وتصير كلمتكم فى بلادكم هى الكلمة النافذة كغيركم من الأمم الحرة والشعوب الحية المستقلة.

وكان تعليق كرومر على الاعتراضات التى أثيرت فيما يختص بحقوق مصر الــتى أغتصبت بموجب هذه الاتفاقية – بأنه إذا قيل أن الجيش المصرى والخزانة المصـــرية تحملـــتا أكبر العبء لاستعادة السودان – فيرد على ذلك بأن ما وصله الجـــيش المصرى من كفاءة واستعداد يعزُى للتدريب والقيادة الإنجليزيتين أما عن الخـــزانة المصـــرية فإنهـــا ما استقرت وبدأت تفيض إيرادتها على مصروفاتها إلا بفضـــل الإدارة الإنجلـــيزية الحازمة الرشيدة – وحتى إذا رأت مصر أنها ضحت بالـــرجال والأمـــوال فيكفيها تأمين حدودها الجنوبية، وقد كانت معرضة لغزوات المهديـــة الخاطفة، ويكفيها أيضاً وصول المياه الكافية فى شريان حياتها النيل، وإنه طالمـــا تســـيطر علـــى أعلاه وروافده دولة صديقة مأمونة الجانب – فإن الرجال والأموال المضحاه تكون قد جنت ثمارها"

هـــذا علـــى أن موجـــة الاســـتياء من الإتفاقية كانت تظهر كلما سنحت الظـــروف للتعبـــير عن ذلك، فحدثت مثلا حركة من جنود وضباط الأورطة الرابعة عشرة بأم درمان عبّر فيها هؤلاء الجنود والضباط عن تذمرهم لشغل الوظـــائف الكبـــيرة فـــى السودان بالبريطانيين، والتصرف فى ذخيرة الجيش المصـــرى فـــى السودان لإرسالها للجنود الإنجليز الذين يحاربون البوير فى جنوب أفريقيا.

وقـد أخمدت هذه الحركة وحكم على بعض الضباط والجنود أحكاماً مختلفة[١] – وقـد تكونـت فـيما بعد فى الجيش المصرى فى السودان جمعية سرية (جمعية المودة المصرية) كان غرضها الوقوف فى وجه أطماع الإنجليز.

ومهمـا يكـن فقد فرضت إنجلترا هذا الاتفاق الذى أوجد للسودان كيانًا إداريًا ودستورًا خاصًا به ومنفصلاً عن الكيان الذى لمصر.

وسـتبقى هـذه الإتفاقية معمولاً بها حتى اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ بين مصر وإنجلـترا . وإن كانـت بريطانـيا – كما سنفصل بعد – انتهزت بعض الأحداث لتنقض حتى ما جاء بالاتفاقية ولتنفرد هى بإدارة السودان تماماً.

علـى أنـنى أشـير إلى أن الخزانة المصرية، كانت هى التى تتحمل العجز المسـتمر فى ميزانية السودان الناجم عن كثرة مصروفاته، رغم أن الجزء الأكبر من هذه المصروفات كان يذهب مهايا لكبار رجال الإدارة من البريطانيين.

ولـم يعـترض كرومـر على عرض الميزانية السودانية سنوياً على مجلس الـوزراء المصـرى طالمـا أن الحكومـة المصرية هى التى تسد العجز فى هذه الميزانية إذ أنه رأى أن هذا الأمر لا يغير شيئاً من الوضع طالما أن السودان يحكم وفقاً لإتفاقية الحكم الثنائى التى وضعها هو نفسه.

ثانياً: أحوال السودان فى ظل نظام الحكم الثنائى فى الفترة من ١٨٩٩ إلى ١٩١٤

يقسم بعض المؤرخين تاريخ السودان وتطور الإدارة فيه من عام ١٨٩٩ إلي عام ١٩٥٥ إلي أربع مراحل:

١- المرحلة الأولي تشمل الفترة من ١٨٩٩ إلي عام ١٩١٤.
٢- المرحلة الثانية تشمل الفترة من ١٩١٤ إلي عام ١٩٢٤.
٣- المرحلة الثالثة تشمل الفترة من ١٩٢٤ إلي عام ١٩٣٦.
(وهـي الفترة التي انفردت فيها إنجلترا بحكم اتلسودان أنفراداً كاملاً صريحاً بعد سحب الجيش المصري والموظفين المصريين منه).
٤- المرحلة الرابعة تشمل الفترة من ١٩٣٦ إلي ديسمبر ١٩٥٥.

(وهـذا الـتاريخ الأخير هو تاريخ قرار البرلمان السوداني الاستقلال وإعلان قيام الجمهورية (١٩ ديسمبر ١٩٥٥).

١- مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٣٠٦ – ٣٠٩.

وهذا التقسيم لا بأس به في أنه يحدد معالم مراحل معينة في تاريخ السودان – لكــن أحوال السودان الإدارية والاقتصادية والاجتماعية خلال الفترة كلها كانت في الحقيقة متصلة والهيكل الاساسي للنظام ظل كما هو خلال الفترة كلها مع التغييرات العاديــة التــي تطلــبها الــتطور الطبيعي أو الأحداث الطارئة دون أي تغيير في الجوهــر، خاصــة أن الســلطة الإنجليزية متمثلة في الحاكم العام السودان وكبار الموظفيــن ظلت منذ البداية وحتي نهاية الحكم الثنائي تقبض علي مقاليد الأمور في الســودان وتســيرها وفــق ارادتهــا ومصالحها وهي إن سمحت في فترات معينة لشريكتها – مصر – بموجب الاتفاقية الثنائية ببعض الحقوق فالأمر لم يتعد الشكل لا الجوهر.

أولاً: الإدارة ونظام الحكم

وضــع كرومــر نصب عينه وهو يصمم لنظام الحكم الجديد في السودان بعد استرداده – أن يحقق الأهداف الرئيسية التالية:

أ – أن يكفل السيطرة الإنجليزية التامة علي شئونه.

ب– أن يبعد السيادة التركية وما يتبعها من تطبيق لنظام الامتيازات الأجنبية.

ج– يرضــي – ولــو شــكلاً – بعض الأمائي المصرية المستندة علي حق مصر الثابت في إدارة هذه البلاد.

د – يُضــعف مــن معارضــة الــرأي العام العالمي للنظام الذي أحدثة في حكم السودان.

هـ– يتــيح الفرصة لألقاء الأعباء المالية والعسكرية علي عاتق الخزانة المصرية والجيش المصري.

وقد وفق كرومر في نظامه الذي وضعه في تحقيق هذه الأهداف.

فالنظام الإداري الذي وضعه يستند علي:

١– الحاكم العام:

وضــعت الســلطة كاملــة في يده، ويكون تعينه بناءًا علي ترشيح الحكومة الإنجلــيزية ويصدر بذلك أمر خديوي، ولا ينقل إلا برضاء الحكومة البريطانية – وهو رئيس السلطتين التشريعية والتنفيذية.

وكان اللورد كتشنر (Kitchner) أول حاكم عام للسودان. وقد عرف كتشنر – كمــا أســلفنا – الــبلاد معرفة كاملة، فقد كان ضابط اتصال بين غوردون وحملة

الأنقاذ، وكان محافظاً لسواكن، كما كان قائداً لحملة الاسترداد، وسرداراً للجيش المصري. ولم يستمر كتشنر في وظيفته كحاكم عام للسودان مدة طويلة، فقد احتاجت إنجلترا لخبرته في حروبها ضد البوير في جنوب أفريقيا فغادر السودان إلي جنوب أفريقيا في بداية عام ١٩٠٠.

وبالرغم من قصر المدة التي قضاها كتشنر في منصبه كحاكم عام للسودان إلا ان الصراع قد احتدم بينه وبين اللورد كرومر حول (أسلوب الإدارة في السودان). فقد كان كتشنر منذ البداية يحاول أن يكون إدارياً له استقلاله الذاتي في كل أعماله، بينما كان كرومر يري أنه لا يفرق بين أسلوب الإدارة العسكرية، والإدارة المدنية، فهو يدير السودان بنفس الأسلوب الذي يقود به فرقة عسكرية، ويعطي زيتلاند (Ztland) أمثلة متعددة للخلافات التي نشبت بين الرجلين(١).

وقد صدر أمر الخديوي بتعيين وينجت سرداراً للجيش المصري وحاكمًا عامًا للسودان في ٢٣ ديسمبر ١٨٩٩، وظل وينجت (R. Wingate) يتولي إدارة السودان لمدة سبعة عشر عاماً (من ١٩٠٠ إلي ١٩١٦) ولذا يرجع اليه أمر وضع القواعد والأسس التي جرت عليها سياسة بريطانيا في إدارة السودان.

ورغم السلطة التي كانت للحاكم العام فإنه كان عليه أن يحصل علي موافقة المندوب السامي البريطاني في القاهرة فيما يتعلق بالمسائل التي تخص السياسة العامة، وإن كان وينجت قد حصل علي حرية أكثر في التصرف في شئون السودان في فترة تولي كتشنفر – فيما بعد – لمنصب المندوب السامي في مصر(٢).

وقد خلف السير لي ستاك (Lee St ak) وينجت (في الفترة من ١٩١٦ إلي ١٩٢٤)، وقد قتل لي ستاك في نوفمبر ١٩٢٤.

وخلفه في سنة ١٩٢٥ السير جيوفري أرشر (G' Archer).

هذا وقد كان كرومر المعتمد البريطاني بمصر حتي عام ١٩٠٧ يشرف بدقة علي تنفيذ السياسة البريطانية في إدارة السودان، فهو الذي خطط لهذا النظام، كما انه عاصر أحداث مصر والسودان منذ ١٨٨٣ فكانت له اليد الطولي في تيسير دفة الأمور طوال هذه الفترة.

1- Zstland. The Markuess of: Load Cromer

2- Warburg, G: The Sudan Under Wigate, P.

٢- الخبراء (السكرتيريون):

إلـــي جانـــب الحـــاكم العام وجد السكرتير العام، ثم ثلاثة من السكرتيرين هم السكرتير الإداري، والسكرتير المالي، والسكرتير القضائي.

٣- مديرو الإدارات:

وضـــع علـــي رأس كل إدارة من الإدارات العامة بالبلاد مدير – فهناك مدير إدارة الســكك الحديدية، ومدير إدارة التلغرافات والتليفونات، ومدير إدارة الغابات وهكذا.

٤- التقسيم الإداري:

قســمت البلاد إلي مديريات، والمديريات إلي مراكز. وقد بلغ عدد المديريات تسع هي: أعالي النيل (عاصمتها ملاكال)، والمديرية الاستوائية (عاصمتها جوبا)، ومديـــرية الخرطوم (عاصمتها الخرطوم)، والمديرية الشمالية (عاصمتها الدامر)، ومديرية النيل الأزرق (عاصمتها واد مدني)، ومديرية بحر الغزال (عاصمتها واو)، ومديـــرية دارفـــور (عاصـــمتها الفاشـــر)، ومديرية كردفان (عاصمتها الأبيض)، ومديرية كسلاً (عاصمتها كسلا).

ووضـــع علي رأس المديريات والمراكز ضباط من الجيش المري، ولما كان كـــبار الضـــباط في الجيش المصري نفسه من الانجليز – فقد أصبح من اليسير أن تشـــغل مـــناص الســـكرتيريين والمديرين بضباط من الإنجليز بينما تركزت إدارة المراكز في أيدي المصريين.

ويعاون المدير في مديريته مفتشان إنجليزيان، بينما يعاون المأمور – معاون.

ولمـــا احتاجـــت بريطانيا للعسكرين من رجالها لحرب البوير أُستبدل هؤلاء بغـــيرهم مـــن الشـــبان الانجليز المدنيين من خريجي الجامعات الإنجليزية فأصبح هؤلاء يشغلون مناصب المديريين والمفتشيين وغيرها من الوظائف الإدارية الهامة. ويـــبدو أن هـــذا كـــان يحقق إتجاه كرومر لتحويل الإدارة في السودان من إدارة عسكرية إلي إدارة مدنية[1].

1- Mac Micwael, Sir A : Sudan Political Service (1899 106)

انظر مقدمة الجزء الثالث من الكتاب.

ملاحظة:

كتـــب الإداريون البريطانيون تقارير وأبحاث وافية تتعلق بالإدارات التي كلفوا بها، وكانت هذه التقارير والأبحاث تنشر في دوريه تصدر بصفة منتظمة تحت اسم Sudan Notes and Records وهي تمدنا بمعلومات قيمة عن النظام الإداري في السودان هذه الفترة.

وكان المدير يتمتع في مديريته بسلطة واسعة. وعمدت إنجلترا بعد ذلك لتدعيم سلطتها في المراكز والأقاليم فأكثرت من عدد المفتشين، وأصبح في كل مركز مفتش يتبعه مأمور المركز.

وكانت التعليمات الصادرة لرجال الإدارة تقضي بالعمل بشتي الطرق لجذب قلوب الناس للإدارة الجديدة، ومنع ما قد يؤدي إلي إثارة السخط والإستياء حتي يشعر الناس نحتاز به الإدارة الجديدة عن الإدارة السالفة في أيام المهدية.

وكان المديرون والمفتشون والمأمورون مكلفين بكتابة تقارير منتظمة للإدارة المركزية عن مختلف نواحي النشاط في أقاليمهم.

وهذه التقارير كانت تظهر كلها في التقرير السنوي العام الذي يقدمه الحاكم العام عن الحالة المالية والإدارية العمومية، والأوامر الصادرة[١].

٥- المفتش العام:

ابتدعت وظيفة المفتش العام، وكان كافة المفتشين مسئولين أمامه، وقد شغل هذه الوظيفة لمدة طويلة سلاتين (Statin) فقد كان يشغلها حتي الحرب العظمي الأولي وساعد بخبّرته السابقة وبمعرفته بشئون السودان في تيسير دفة الأمور.

٦- مجلس الحاكم العام:

أنشئ هذا المجلس في عام ١٩١٠، وظل يمارس نشاطه حتي عام ١٩٤٨ حيث صدر تشريع جديد بانشاء مجالس أخري حلت محله. وكان هذا المجلس يتكون من الحاكم العام، والسكرتيريين الثلاثة (السكرتير المالي، والإداري والقضائي)، وثلاثة أو أربعة من رؤساء الإدارات العامة.

ومن اختصاصه سن القوانين، ومناقشة الميزانية وإقرارها، وإبداء الرأي في السياسة العامة.

وكانت تعرض علي المجلس جميع الأمور الإدارية والتشريعية التي تري المصالح عرضها عليه لأهميتها أو التي يري الحاكم العام إحالتها إليه.

٧- مؤتمر المديرين السنوي:

نشأ بعد الحرب العالمية الأولي لمناقشة السياسة العامة، وتقديم توصيات بخصوصها للحاكم العام.

١- داود بركات: السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية (١٩٢٤) ص ٨١ – ٨٢.

وقـــد شـــكلت مجالس أخري فيما بعد سنشير إليها في حينها كمجالس مشايخ القبائل، والمجالس البلدية، والمجلس الاستشاري، والمجلس التنفيذي.

ثانياً: المشروعات العمرانية والثقافية

تمـــت فى هذه الفترة من تاريخ السودان عدة مشروعات، وقد تحملت الخزانة المصـــرية العبء المالي فيها. وقد بلغ ما قدمته الخزانة المصرية في عام ١٨٩٩ مســـاهمة في المشروعات العمرانية في السودان ١٥٩,٠٠٠ جنيها ارتفعت في سنة ١٩١٢ إلـــي ٣٦٨,٠٠٠ جنية وهو مبلغ ضخم بالنسبة لذلك الوقت ولميزانية مصر يومـــئذ. هذا وقد ساهم عدد كبير من العمال والموظفين المصريين بالجهد في هذه المشروعات – نذكر منها:

١- تعمير الخرطوم:

شـــرع أكـــثر من خمسة آلاف عامل في إعادة إنشاء الخرطوم، وإقامة قصر جديـــد علي أنقاض القصر القديم ليكون مقراً للحاكم العام. وقد صممه كتشنر الذي أصـــبح أول حـــاكم عام للسودان – علي أن يكون القصر لائقاً بمركزه فأحضر له الدرجات الرخامية والمرايا والأبواب والأثاث الفاخر من كافة الأنواع، وأقيم خلف القصر في الميدان الرئيسي تمثالاً لغوردون يمتطي صهوة جمل.

هـــذا وقـــد أعُيدت الخطوط البرقية، كما أكملت السكك الحديدية التي كانت قد بدأت مع الجيش الزاحف.

وجدير بالذكر أن الدين شاهدوا ما حل بالخرطوم، والسودان كله بعد أن زالت عـــنه الإدارة المصرية ترحموا علي العهد الذهبي للحكم المصري – فقد هبط عدد ســـكانه إلـــي مـــا لا يزيد علي مليونين، وتفشي الطاعون البقري في الماشية، كما نفشـــت الأوبئة بين السكان، وأصبحت ضفاف النيل الأبيض جرداء مقفرة حتي أن هـــاري جونستون (Johnston) وهو المعروف بميوله الاستعمارية العنيفة ذكر أن الأوضاع في السودان أصبحت في حالة سيئة لا تقارن أبداً بما كانت عليه أيام سير صموئيل بيكر، وأمين باشا.

هـــذا وقد قام كرومر أثناء زيارته للخرطوم بإرساء حجر الأساس للكلية التـــي حملـــت اســـم غوردون، وكان كتشنر قد زار إنجلترا، وقام بحملة لجمع اكتـــتاب عـــام لإقامة هذه الكلية تخليداً لذكري غوردون فجمع لها ١٢٠,٠٠٠ جنيهـــاً.

٢- المباني العامة والخاصة:

وضــعت علي عاتق القوات المصرية بالسودان مهمة عملية التعمير والبناء، فكمـا رأيـنا أنهـا قامت بإعادة بناء قصر الحاكم العام بالخرطوم، وكذلك الأبنية اللازمة لإدارات الحكومة وثكنات الجيش بالخرطوم.

وفـي أدم درمـان شيدت ثكنات للجيش ومستشفي عام، كما أنشئ ميناء (بور سودان) علي البحر الأحمر.

ولتنظـيم الملكية – صدر قانون الملكية العقارية، وألفت في كل مديرية لجهة لفحـص جمـيع حالات الملكية المتنازع عليها والبت فيها، فشجع ذلك الناس علي الاستقرار، فبدأت المدن – خاصة في السودان الشمالي – تعمر.

وكانـت مسـاكن السـكان تبني إما علي شكل منازل بالطوب الأحمر مربعة الشـكل مسطحة السقف أو علي شكل أكواخ مستديرة من القش أو من الطين ذات أسقف مخروطية الشكل.

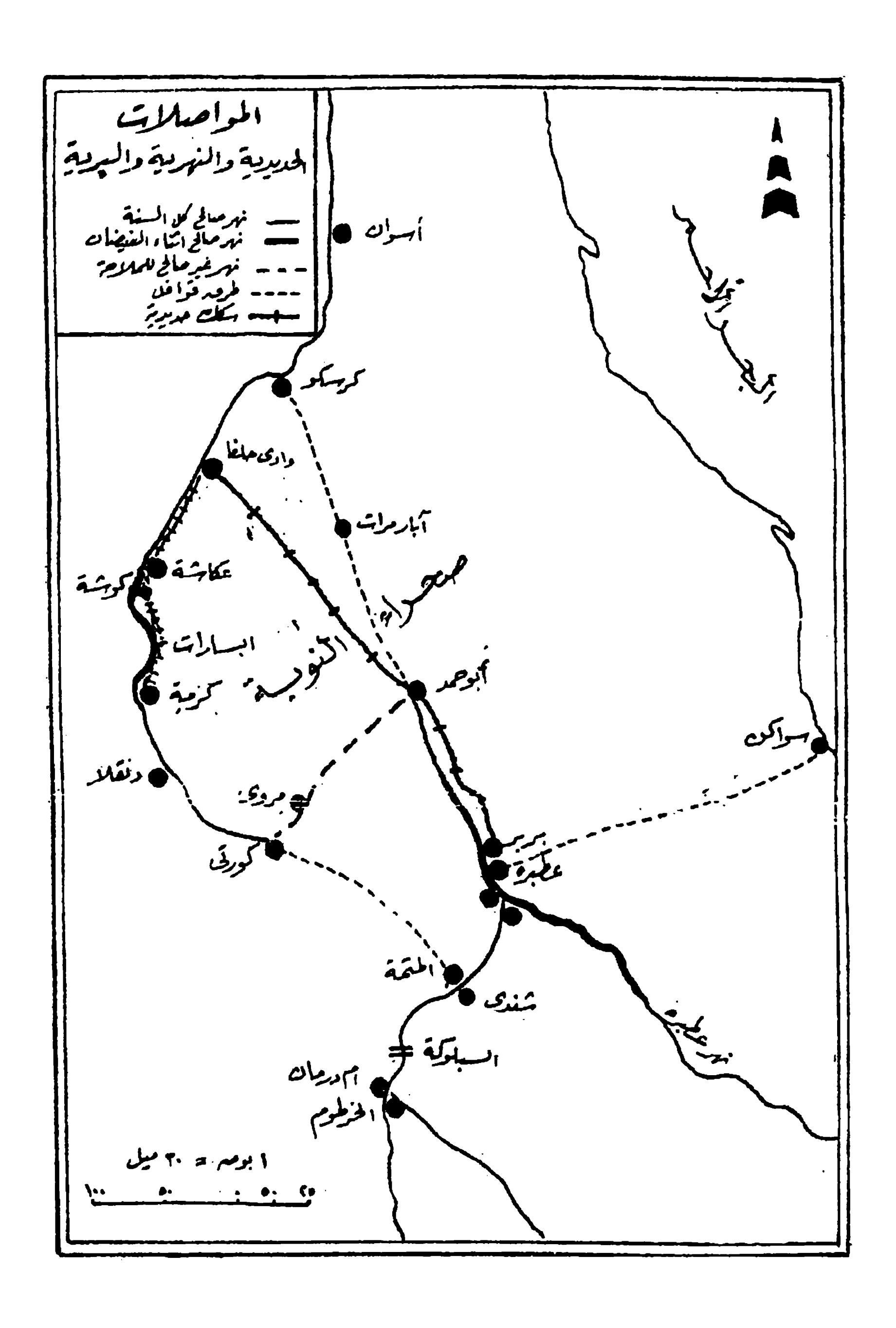
٣- الخطوط الحديدية والتلغرافية:

أثبتـت الأحـداث التي مرت بالسودان – كما أوضحنا سابقاً – أعمية السكك الحديدية في الربط بين أجزاء السودان، وبينه وبين مصر، وقد أمتد الخط الحديدي مـن وادي حلفاً جنوباً إلي أبو حمد عبر صحراء العطمور، ووصلت السكة الحديد عـام ١٩١٠ جنوبـي الخـرطوم. ويرجع الفضل في إنشائها لجهود كتيبة السكك الحديدية وهي كتيبة مصرية.

وفـي سنة ١٩١٢ مد الخط الحديدي من الخرطوم إلي سنار، ثم مد غرباً إلي (الأبيض) بعد بناء قنطرة علي النيل عند كوستي.

كذلـك أُصـلحت الخطوط التلغرافية التي كانت قد أصابها التلف أثناء الثورة المهدية وما بعدها – ومدت خطوط جديدة فوصلت إلي (واو)، وخصصت دوريات لمراقبة هذه الخطوط وإصلاح ما يصيبها من تلف.

وعهد لمصلحة السكك الحديدية ايضاً بادارة البواخر النيلية.


المواصلات
الحديدية والنهرية والبرية
نهر صالح كل السنة
نهر صالح اثناء الفيضان
نهر غير صالح للملاحة
طرق قوافل
سكك حديدية
أسوان
كرسكو
وادى حلفا
آبار مرات
عكاشة
كوشة
صحراء النوبة
ابو حمد
كرمة
دنقلا
مروى
كورتى
سواكن
بربر
عطبرة
المتمة
شندى
السبلوكة
ام درمان
الخرطوم
البحر الأحمر
نهر عطبرة
١ بوصة = ٣٠ ميل
٢٥ ٥٠ ١٠٠

٤- التعليم :

كانــت السياسة التي رسمتها إنجلترا هي قصر التعليم علي عدد محدود حسب حاجــة الوظــائف الصــغيرة التي خصصت للسودانيين – والحقيقة أن التعليم في السودان مر بمحنة تفوق ما مني به التعليم في مصر من إهمال منذ عهد الإحتلال.

ومن المدارس التي انشئت مدارس وادي حلفا، وسواكن، وواد مدني. وقد كان يقوم بعبء التدريس فيها المصريون.

وفــي عام ١٩٠٠ أنشئت بأم درمان مدرسة ابتدائية التحق بها مائة وعشرون طالــباً أغلبهم من السودانيين، كما افتتحت خمس مدارس ابتدائية أخري في جهات مختلفة من السودان.

وفــي عــام ١٩٠٢ أفتــتح اللورد كتشنر (كلية غوردون التذكارية) وإن كان البريطانــيون قــد قــاموا بالاكتــتاب لجمع مال مناسب لهذه الكلية باعتبارها كلية تذكاريــة تحمــل اســم غوردون – فإن العبء في عملية تشييدها قام علي أكتاف العمــال المصــريين والســودانيين – وحرصت إنجلترا علي أن تربط الدراسة بها بالمناهج والمدارس الإنجليزية، وأن تعمل علي محاربة الروح القومية بين طلابها، ولــذا ركز الاهتمام فيها علي اللغة الإنجليزية دون العربية. وبدأت في أول الأمر كمدرســة ابتدائــية، ثــم فتح القسم الثانوي بها في عام ١٩١٣. وحتي عام ١٩٤٢ تحولــت المدرســة الثانوية إلي كلية جامعية أصبحت تدرس فيها الفنون والآداب، والإدارة، والهندســة، والــزراعة، والبيطرة، وألحقت بها بعد ذلك (مدرسة كتشنر الطبية) وأصبحت الكلية تمنح الدرجات العلمية لجامعة لندن.

ولم يلق تعليم البنات من الحكومة أهتماماً يذكر.

وقد ترك امر التعليم في جنوب السودان لنشاط الجمعيات التبشيرية المسيحية. وظلت هذه الجمعيات تباشر نشاطها دون أية رقابة حكومية حتي عام ١٩٢٧ حين صدر تشريع للحكومة يعطيها بعض الإشراف علي نشاط هذه الجمعيات.

ولا شــك فــي ان الحكومــة البريطانية كانت ترمي لأهداف بعيدة من ترك شئون الجنوب للأجانب خاصة وأنها منذ عام ١٩٠٤ وهي تعمل بمختلف الطرق لفصل جنوب السودان عن شماله، ومنع الشماليين من سودانيين ومصريين من السفر للجنوب.

وفي عام ١٩٢٢ أصدرت قانون المناطق المغلقة الذي أغلق جنوب السودان في وجــه ســكان الشمال، فأصبحوا لا ينتقلون من الشمال للجنوب إلا بتصريح بل وضع العراقيل في طريق مصاهرة الشماليين للجنوبيين.

علي أنه إذا كان قد حيل بين الحكومة المصرية وبين القيام بواجبها نحو نشر التعلـيم والثقافة في السودان – فإن بعض الجمعيات المصرية الأهلية استطاعت أن تقـوم بـبعض الواجب في هذا المجال – فأفتتحت كلية الأقباط بالخرطوم في سنة ١٩١٦، وفتتحت بها مدرسة البنات القبطية، كما أفتتحت مدارس أخري في عطيرة وواد مدني، وبور سودان. ووصل عدد هذه المدارس أربع عشرة مدرسة في مدن السودان المختلفة.

علـي أن الحكومـة المصـرية سـاهمت بعد ذلك بنصيب كبير في النهضة التعليمية في السودان حين أتيح لها أن تقوم بنشاطها في هذا السبيل فأنشئت مدارس ابتدائـية وثانويـة، وانشئت في الخرطوم (منطقة تعليمية) للأشراف علي المدارس المصـرية الحكومـية والأهلـية وأدي هذا إلي أن أخذ التعليم ينتشر في السودان بسرعة كبيرة.

ويكفـي أن نذكـر أن عـدد طلبة المدرسة المصرية الثانوية بالخرطوم تزايد بشـكل كبـير (بلغ في عام ١٩٥٢ ألف طالب وارتفع بعد ذلك في عام ١٩٥٤ إلي ١٥٠٠ طالباً)

وكـان لانتشـار التعلـيم بالطـبع أثره الواضح في نمو الوعي القومي بين السودانيين.

وتعطي الاحصائيات الحكومية عن التعليم فكرة واضحة عن الوضع[1]

إحصائيات عن التعليم

نوع المدارس	عدد المدارس	عدد الطلبة بها
مدارس حكومية :		
أ – بنين :		
ثانوى ومهنى	٦	٩٩٢
وسطى (إعدادية)	١٤	٢١٢٨
أولية	١٢٩	٢٢٠٩٣
شبه أولية (وتشمل معاهد القرآن)	٤١٥	٢٨٢٩٢
ب– بنات :		
ثانوى ووسطى	٤	١٩٤
أولية	٦٩	٧٧٤٧
الجملة	**٦٣٧**	**٦١٤٤٦**

١– هذه الإحصائيات عن الوضع في فترة متأخرة (يناير ١٩٤٧)، وقبلذلك لا تكاد توجد إحصائياً دقيقة.

نوع المدارس	عدد المدارس	عدد الطلبة بها
مدارس الإرساليا بالجنوب :		
أ – بنين :		
مدارس القرى	٣٨٨	٩٥٧٨
مدارس أولية وسطى	٤٠	٤٢٦١
تدريب الحرف والمدرسين	٧	٤٠٣
ب– بنات :		
مدارس أولية	١٩	١١٦٢
الجملة	**٤٥٤**	**١٥٤٠٤**

نوع المدارس	عدد المدارس	عدد الطلبة بها		
مدارس غير حكومية (بالشمال)			بنين	بنات
مدارس أهلية وخاصة	٣٨	٧٨٠٤	٦٨٥٧	٩٤٧
مدارس إرساليات	١٧	٤٤٨٣	١٨٧٠	٢٦١٣
الجملة	٥٥	١٢٢٨٧	٨٧٢٧	٣٥٦٠
كليات تدريب المدرسين :				
معهد التربية في بخت الرضا (على النيل الأبيض)			١٠٨	طالبا
كلية المعلمات بأم درمان			١٣٦	طالبة

٥- الصحة :

أنشـــئت عدة مستشفيات أميرية في مدن السودان الرئيسية، كما أُنشئت بعض المستوصـــفات، وزودت المستشفيات بالأطباء والممرضات، لكن كانت علي العموم أقل من أن تسد حاجة السكان.

٦- القضاء :

كلـــف بعـــض موظفـــي وزارة الحقانية في مصر من الإنجليز بوضع قانون للعقوبات خاص بالسودان بالاسترشاد بقانون الجنايات المعمول به في الهند.

هـــذا علي أن التشريعات والقوانين الجديدة واللوائح كانت تصدر بمرسوم من الحـــاكم العـــام بعـــد بحثها في مجلس الحاكم العام المكون من السكرتير الإداري، والسكرتير المالي، والسكرتير القضائي، والقائد العام لقوة دفاع السودان.

وكـــان يدعي مفتش عام الري المصري بالسودان للحضور عند بحث المسائل المتعلقة بالري.

القضاء المدني:

كـــان تحـــت ســلطة السكرتير القضائي مباشرة، ويقوم بمهمة القضاء المدني رئيس القضاة، وقضاة المحاكم العليا، والقضاة الجزئيون.

وكانـــت القضايا الكبيرة تنظر عن طريق محكمة مكونة من رئيس وعضوين، أما القضايا الصغرى فتنظر فيها محاكم يتولي شئون كل منها قاض.

وقـــد كانـــت هناك محاكم عرفية في الشمال والجنوب تحكم حسب العرف في المسائل المتعلقة بعلاقات الأشخاص المدنيين بعضهم بالبعض الأخر.

القضاء الجنائي:

أخذ قانون العقوبات – كما ذكرنا – في جوهره من قانون العقوبات الهندي.

المحاكم الشرعية:

كانـــت تبـــت في الشئون المتعلقة بالشريعة الإسلامية كشئون الميراث والزواج والطـــلاق والأوقـــاف. والرئيس الأعلي للمحاكم الشرعية هو (قاضي القضاة)، ومن أشهر من تولي هذا المنصب الشيخ (محمد المراغي) في الفترة بين ١٩٠٨، ١٩١٩.

وفـــي سنة ١٩٠١ أنشأت الحكومة المعهد العلمي لتخريج طبقة تتولي الفصل في قضايا الأحوال الشخصية طبقاً للشريعة الإسلامية.

ثالثاً: المشروعات الاقتصادية

كانـــت الحالة الاقتصادية للسودان قد تدهورت في عهد المهدية بسبب أهمالهم لشئوون الاقتصاد، فكان لابد أن تعمل الإدارة الجديدة للنهوض بالاقتصاد بعناصره المختلفة.

لكن كما سنري إن انجلترا وجهت اقتصاد السودان لخدمة مصالحها.

ففي مجال الزراعة:

اعتـــبرت حكومة السودان ملكية الأرض الزراعية حقاً مكتسباً لها، لكن صدر قـــانون التملـــيك في عام ١٨٩٩ بهدف تشجيع الأفراد علي الإستقرار في الأرض الزراعية وزراعتها.

وتألفـــت لجنة في كل مديرية لفحص جميع حالات الملكية والبت فيها، وكان الأســـاس الـــذي أتخـــذ هو الاعتراف بحق الشخص في الأرض إذا استطاع إثبات

ملكيـــته لهـــا خمـــس سنوات متوالية، أما الأرض التي يثبت استغلال الشخص لها فترات غير منتظمة فيعطي مستغلها حق استغلالها بدون ملكية.

وقـــد كانـــت معظـــم المشاريع الزراعية الكبري التي قامت بالسودان في هذه الفترة – مشاريع حكومية.

ويعتـــبر (القطـــن) مـــن أهـــم المحصولات الزراعية بالسودان، وقد بوشرت زراعـــته بمـــنطقة* الجزيـــرة، وكســـلا، وطوكر، وكردفان[1]. وتبلغ مساحة سهل الجزيـــرة الواقـــع بيـــن النيل الأزرق والنيل الأبيض نحو خمسة ملايين فدان، وقد تألفـــت نقابة لزراع القطن، وأخذت هذه النقابة منذ عام ١٩١١ في إجراء تجاربها علـــي زراعـــة القطـــن في أرض الجزيرة وحصلت هذه النقابة – التي لم تكن في الحقيقة سوي شركة بريطانية – علي ضمان من الحكومة البريطانية للحصول علي قرض يمول مشروعاتها في أرض الجزيرة واحتكرت هذه الشركة زراعة القطن، وحلجة وتصديره، وتمويله. وأقامت عدة طلمبات كبري لتنفيذ مشروعاتها.

ودرس مشـــروع إقامة (خزان سنار)[2] لتوفير المياه اللازمة لأرض الجزيرة لـــزراعة القطن، وأتمت الحكومة بناء الخزان سنة ١٩٢٥، كما مدت شبكة ضخمة مـــن الـــترع. وبلغـــت تكاليف المشروع ١٣ مليوناً من الجنيهات. وقدرت حكومة السودان الأرض التي سيرويها في الجزيرة بمليون فدان، يزرع ٤٠ % منها تقريباً بالقطن طويل التيلة بينما يزرع الباقي بالذرة، والقمح والخضروات.

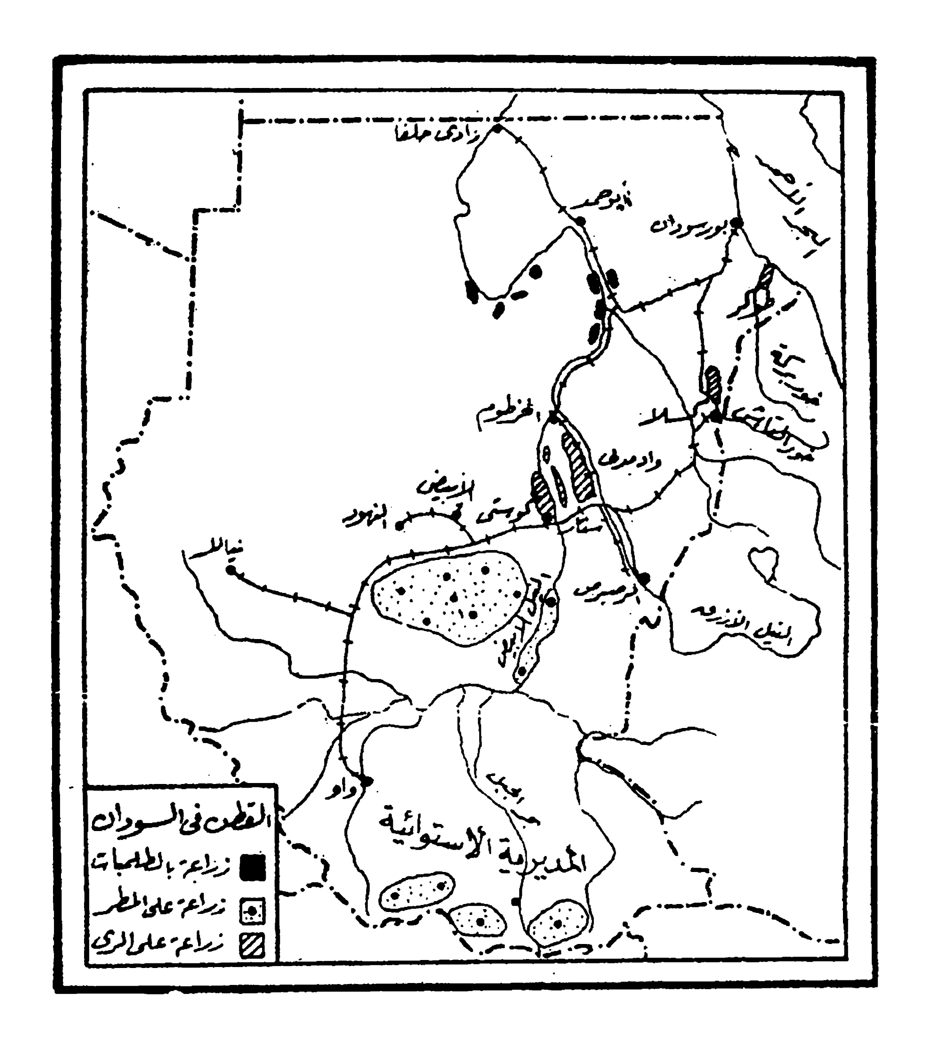
وكـــان كـــبار موظفـــي الشركة والعاملون في المشروع من الإنجليز، بينما يعمل الســـودانيون فـــي الأعمال الزراعية اليدوية التي تحتاج لمجهود جسمي فحسب وكانت تـــوزع أربـــاح المشـــروع بعـــد خصم المصاريف التي يذهب أكثرها كمرتبات لكبار الموظفيـــن الإنجلـــيز – بنســـبة ٤٠% للمزارعيـــن، ٢٠% للشركة الزراعية، ٤٠% للحكومة.

واســـتمر هذا النظام حتي عام ١٩٤٨ حين صدر قانون مشروع الشركة. وقد قـــدرت صـــادرات الســـودان من القطن وبذرته في عام ١٩٤٧ بسبعة ملايين من الجنـــيهات، وصـــدر أغلـــب المحصول إلي بريطانيا – إذ أن أهم الدوافع لتحمس إنجلـــترا لمشـــروع زراعـــة القطـــن في الجزيرة وما تطلبه من مشروعات للري وخلافـــه – كانت تطلع إنجلترا لأن تجد من السودان بديلاً عن مصر في حالة تأزم

1، 22 انظر الخريطة فى الصفحة التالية.

العلاقـــات بين البلدين وذلك من حيث تدبير المادة الخام اللازمة لسد حاجة مصانع لانكشير، بالإضافة إلي الأسواق الملائمة لتصريف المنتجات البريطانية.

علي اننا نشير إلي أنه في ٧ مايو ١٩٢٩ تم الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانـــية علـــي أسس محددة للأستفادة من مياه النيل وعلي مشاريع الري علي النهر فيما عرف باسم (اتفاقية مياه النيل)[١]



١- انظر ملاحق الكتاب

وقـــد ظـــل العمل بهذه الاتفاقية حتي عقدت اتفاقية جديدة بين مصر والسودان حين شرعت الجمهورية العربية المتحدة في بناء السد العالي.

وبالإضافة إلي القطن يعتبر (الصمغ العربي) من المحاصيل السودانية الهامة. وهو يجمع من أشجار الصمغ بكردفان، ويقطع كالمطاط من شجر الشهاب، وشجر الطلـــخ، وشـــجرة الصمغ لا تغرس بل تنبت طبيعياً علي أراضي الغرب المطريه الرملية.

ويـــبلغ ما يصدر من الصمغ السوداني ٧/ ٨ الصمغ العالمي وهو يشحن من ميناء بور سودان، ويصدر إلي الولايات المتحدة، وبريطانيا والهند.

ويدخل الصمغ في صناعة بعض الأدوية والحلويات.

الثروة الحيوانية:

تعتبر الحيوانات مصدراً للثروة الأهلية بالسودان. وقد كانت أمراض الحيوان تنتشـــر في السودان في بعض السنين بصفة وبائية، فتؤثر تأثيراً واضحاً في الثروة الحيوانية فأنشئت الوحدات البيطرية المتنقلة لعلاج ذلك.

وقـــد ترتـــب علـــي العـــناية بالـــثروة الحيوانية مضاعفة أعدادها، وأزدهار الصناعات القائمة علي الإنتاج الحيواني.

التعدين:

أنحصـــر النشـــاط التعديني في متابعة استخراج كميات بسيطة من الذهب من جـــبال البحر الأحمر، ومن منجم (حبيت)، كما يوجد (اللجنايت) في دنقله، والحديد فـــي دارفـــور وكردفان، والنحاس في بحر الغزال. ولكن ليس بكميات تشجع علي الاستغلال[1].

الصناعة:

صـــاحب انتشـــار زراعـــة القطن في السودان إنشاء المحالج ومصانع الغزل والنســـج، كمـــا أنشـــئ معمل للصابون. ولما قامت الحرب العالمية وتعذر استيراد بعـــض المنتجات – اتجهت الجهود لإنشاء الشركات الصناعية لسد حاجة البلاد من

ملاحظة:

من يريد لتوسع في دراسة التطور الاقتصادي في السودان انظر:

١ – محمد محمود الصياد: اقتصاديات (من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة ١٩٥٧)

المصـــنوعات الهامة فقامت صناعة دبغ الجلود، والأسمنت، ومعاصر الزيوت. هذا بالإضـــافة إلـــي الصناعات الوطنية الموجودة أصلاً في السودان كصناعة السلال، والصناعات العاجية.

التجارة :

كان الصمغ، وريش النعام، والعاج – أهم صادرات السودان:

وكان الصمغ بالذات هو السلعة الرئيسية – لكت بعد التوسع في زراعة القطن أصبح القطن وبذرته المركز الأول.

وقد قُدرت تجارة السودان مع مصر في سنة ١٩٤٧ بمبلغ أربعة ملايين جنية، بيـــنما قـــدرت تجارتـــه مع الأقطار الأفريقية الأخرى المجاورة (إثيوبيا، وإرتريا، وأوغندا، وكينا، والكنغو، وأفريقيا الأستوائية) بما يقرب من مليوني جنية.

ويستورد السودان من الخارج، المنسوجات القطنية، والبن، والسكر، والشاي، والالآت، وزيوت الوقود.

ويجلب أغلبها من الهند، ومصر، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وكندا.

وتمر تجارة السودان إلي بور سودان علي البحر الأحمر، او عن طريق وادي حلفا لمصر.

وقـــد أصـــيب اقتصـــاد السودان بهزه عنيفه نتيجة خروج الجيش المصري، والموظفيـــن المصريين من السودان بعد ازمه عام ١٩٢٤ – التي سنشير إليها فيما بعد – والمعروف انه بمجرد استعادة السودان سنة ١٨٩٩ هاجر للسودان عدد كبير مـــن المصـــريين، وعلي أكتاف هؤلاء قام جزء كبير من النشاط التجاري، وأسس عدد منهم بيوتاً تجارية كان لها دورها في الانتعاش الاقتصادي في السودان.

وبعـــد عقـــد معاهدة ١٩٣٦ – بين مصر وبريطانيا – أنشئ بالسودان مكتب (الخبـــير الاقتصادي المصري) لشئون السودان، وكان له حق الاشتراك في مجلس الحاكم العام.

علـــي أن تخلص السودان أخيراً من النفوذ البريطاني حرر الاقتصاد السوداني مـــن القـــيود التـــي كاتنت مفروضه عليه، وأخذ يسير يخطي سريعة في الانتعاش الاقتصادي واستغلال موارد البلاد الهائلة فيما يعود بالخير علي أهله.

الضرائب :

فرضـــت فـــي الســـودان الضـــرائب المباشرة الرئيسية الآتية: ضريبة أرباح الأعمـــال، وضريبة القطعان (٥% من قيمة المواشي في السوق لمحلي)، وضريبة

الأطيان (٣% من إجمالي القيمة)، وضريبة العشور (تقدر علي قيمة المحصول في الأماكــن التــي تفــرض فيها ضريبة الأطيان)، والجزية (تقدر بمبلغ إجمالي علي القبــيلة بــدلاً من التحصيل الفردي لضريبة القطعان وضريبة العشور)، وضريبة النخيل (بنسبة عن كل نخلة).

أمـــا الضرائب غير المباشرة فكانت تحصل من عوائد الجمارك، ومن احتكار الحكومة للسكر، ومن رخص المشروعات، ورخص السيارات.

أما موارد الدخل الحكومى الأخرى فتتمثل فى دخل البريد، التلغراف، والسكك الحديدية، والمشاريع الزراعية شبه الحكومة.

رابعًا: الأمن الداخلى

ظلــت حكومـــة الســـودان فـــترة طويلة توجس خيفة من كافة التجمعات أو الحـــركات الدينـــية. إذ كان الخوف يساورها من معاودة تجدد حركة الدراويش أو حـــركات مماثلـــة. فقـــد ظهـــر أن بيئة السودان صالحة لأن تفرخ فيها مثل هذه الحركات.

وقد ظهرت فعلاً حركات محلية، لكنها أخمدت فى مهدها - نذكر منها:

أ - حركة على عبد الكريم (عام ١٩٠٠):

ظهـــرت هـــذه الحركة فى أم درمان، وتزعمها على عبد الكريم، من أقارب محمـــد أحمد المهدى، وكانت تنادى بآراء غريبة عن توقع ظهور نبى الله عيسى. واهتمـــت سلطات السودان بالحركة، فقبض على (على عبد الكريم) وأتباعه وقدموا للمحاكمـــة. واشـــترك ســـلاتين باشا فى استجواب على عبد الكريم، واستصدرت الحكومـــة مـــن هيـــئة كبار العلماء قرارًا باعتبار هؤلاء الثوار خطرًا على العقيدة الإســـلامية، واســـتنادًا علـــى ذلك أصدر حاكم عام السودان قرارًا بإبعاد على عبد الكريم وأتباعه إلى وادى حلفا(١).

ب- حركة الشريف محمد الأمين (١٩٠٣):

ظهـــر فـــي جـــبال نقلي، وأدعي انتسابه لآل البيت، وتبعه عدد غير قليل من الناس، وتظاهر بعمل المعجزات وشفاء الأمراض، وممن ابتعوه ملك جبال تقلي.

١- مكي شبيكه: السودان عبر القرون ص ٤٢٩.

وكذلك: Central Records Office, Khartoum, Intil. 6/4 113 - Appendixe

ولمـــا وصـــل امـــره إلـــي الحكومـــة – قام مدير كردفان السكولونيل ما هون (Mahon) علـــي رأس قـــوة استطاعت أن تأسر زعيم هذه الحركة وعدداً كبيراً من أتباعه، وأقتيدوا إلي الأبيض حيث أعدم محمد الأمين شنقاً في ٢٣ ماري ١٩٠٣[١].

وقـــد قامـــت حركات مشابهه في سنجه، وتالودي، والقضارف، ومدني قضي عليها بسرعة.

ج- حركة محمد ود أدم (١٩٠٤):

زعـــيم هـــذه الحركة من أهالي دنقله، لكنه قضي معظم حياته في إحدي قرى ســـنار (قـــرية طلحـــه). وفي مارس ١٩٠٤ أدعي النبوة وأنضم إليه بعض أتباع المهـــدي، منهم عبد الله حسن أحد الأمراء السابقين، ولما تصدي له مأمور (سنجه) وبعـــض رجال البوليس أطلق النار علي القوة فقتل المأمور، لكن أطلقت القوة عليه الـــنار فأردته قتيلاً هو وبعض أتباعه من بينهم الأمير عبد الله حسن، وقبض علي باقي أتباعه وحوكموا وشنق بعضهم[٢].

د- حركة عبد القادر ود حبوبه (١٩٠٨):

قامت هذه الحركة في الجزيرة، وزعيمها من الأنصار من قبيلة الحلاويين في المســـلمية بـــأرض الجزيـــرة، وكان مع جيوش النجومي وأسر في موقعه توشكي (١٩٨٨)، وأرسل لمصر – لكن أفرج عنه فعاد للسودان وعاصر معارك عكاشه، وفـــركه، والحفـــير، لكنه ظل متعلقاً بمقيدته وإيمانه بالمهدية، ونقم علي اهله لعدم اشتراكهم في تعضيد جيوش المهدية أثناء حملة أم درمان.

وجمع حوله عدداً من الأنصار. ولما أرسل له مفتش إنجليزي ومأمور مصري هاجمهما هو وأتباعه وقتلوهما، فأرسلت الحكومة قوة من الخرطوم ومدني استطاعت أن توقـــع الهـــزيمة بعـــبد القـــادر وأتباعه وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في سوق الحلاوييـــن أمام الأهالي مما أدي بصحيفة اللواء المصرية (صحيفة مصطفي كامل) لأن تصف المحاكمة وما شابها علي أنها دنشواي أخري في السودان[٣].

1- Centeal Records Office, Khartoum, Intil. 2/ 271218 (From Mahon to the Governor General)

2- Sudan Intelligence Report No. 121 (August 1904). Colvin, Sir A: The Making of Modern Egypt (London, 1908)

٣- مكي شبيكة: مرجع سابق ص ٤٦٨

– اللواء العدد ٢٦٥٩ (مايو ١٩٠٨)

وقـد أدت ثـورة الـرأي العـام في العالم، وفي مصر والسودان، إلي بعض الانـتقادات فـي مجلس العموم البريطاني لبعض تصرفات الحكومة البريطانية في السودان، مما أدي إلي ان وينجت حاكم عام السودان رفض التصديق علي الإعدام الذي أصدرته المحكمة ضد خمسة وعشرين من أتباع عبد القادر ود حبوبه - رغم احتجاج السكرتير القضائي وسلاتين علي هذه المعاملة اللينة(١).

هـذا ونشير إلي أن ثورة عبد القادر ود حبوبه هذه وانضواء عدد من الأنصار- أتـباع المهـدي السـابق تحت لوائها - أدت إلي ان تعيد إنجلترا تقييمها للأحداث، فقد اتجهـت للسـيطرة علـي جماهـير الأنصار عن طريق وضعهم تحت أعين ورقابة السلطات، والسماح لهم بالاستقرار، وربطهم بقيادة مركزية تخضع للسلطات الحاكمة.

ولـذا سـمحت للسيد عبد الرحمن المهدي وأصحابة بالعودة إلي (جزيرة آبا) وزراعـة الأرض هـناك، وظـل الوضع هكذا حتي الحرب العالمية الأولي حين اضـطرت الإدارة البريطانية للإعتراف بالسيد عبد الرحمن زعيماً لطائفة الأنصار فـبدأ يعمـل من ذلك الوقت لتنمية ثروته وقوته لقيادة طائفة الأنصار، ومن ثم بدأ نجمه يتألق وسيلعب دوراً هاماً في تاريخ السودان(٢).

هـ- حركات أخري في جبال النوبا وجنوب السودان:

قامـت حركات ثورية في جبال النوبا منتهزة فرصة اشتعال الحرب العظمي الأولي، لكن تمكنت الحكومة من القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها.

كمـا قامـت ثـورات في مناطق السودان الجنوبية بين قبائل البوير، والدنكا، والزاندي وغيرها واضطرت الحكومة إلي إرسال عدد من قواتها العسكرية لتثبيت سـلطة الحكومـة والقضـاء علي المعتديين سواء فى بحر الغزال أو الزراف أو غيرها(٣).

خامساً: مشكلات الحدود

كانـت هـناك مشـكلات تـتعلق بحدود السودان مع جيرانه، وكان لابد من معالجـتها مع كل إثيوبيا، وإيطاليا، والكنغو الحرة، وفرنسا، بالإضافة إلي الحدود الجنوبية مع أوغنده.

1- Wingate: Mahdism and The Egyptian Sudan (London, 1968), P. 150.

2- Dunean. J. S. R: The Sudan. Pathiu to Independence.

٣- سليمان محمد سليمان: الدنكا والنوير ص ٤٣٠

وفيما يتعلق باثيوبيا:

فقــد كـــان الخـــلاف علي حدود السودان الشرقية سبباً في إندلاع الحرب بين الإدارة المصرية في السودان أيام الخديو اسماعيل وبين الحبشة.

وقـــد عمـــد السردار حين دخل الخرطوم غلي فك أسري الأحباش الذين كناوا فـــي ســـجن أم درمان، وترك للمعتمد البريطاني في أديس أبابا مهمة تسوية مسألة الحدود مع منليك ملك إثيوبيا.

وعقـــدت اتفاقـــية في ١٥ مايو ١٩٠٢ بين الحكومة الإنجليزية ومنليك الثاني وقعهـــا عـــن بريطانيا جون هارنجتون (Harington) وبناءًا عليها بسطت إثيوبيا نفوذهـــا حتي نهر السوباط، واعترف بسيادتها علي البلاد الواقعة بين نهري بارو، والجب[١].

وقـــد ذكـــرت جـــريدة الرأي العام السودانية المناطق التي اقتطعت من حدود السودان الشرقية قائلة[٢].

شـــرق القلابات،ومـــنطقة المتمة التي يشهد أسمها بأصلها السوداني، ومنطقة (توبـــا) التي تسكنها قبائل القمر، والهمج السودانية، ومنطقة (بني شنقول) المعروفة والتـــي هـــي ضرورية للسودان نظراً إلي خصوبتها، ووجود الذهب فيها، وخاصة أنها كانت جزءاً من السودان في عهد الحكم التركي".

وتعهـــد منليك في هذه المعاهدة بعدم السماح بإقامة أية مشروعات علي النيل الأزرق وبحيرة تانا، أو نهر السوباط تؤثر علي كمية المياه المتدفقة من هذه المتابع إلا بموافقة الحكومة السودانية.

وفيما يتعلق بالحدود بين السودان وإرتريا:

فنحـــن نعلـــم أم مستعمرة إرتريا يرجع تكوينها الي نقطة إرتكاز إيطالية في ميـــناء (عصب)، ثم احتلت إيطاليا مصوع في عام ١٨٨٥، وبياول وزولا، وصدر مرسوم إيطالي بتأسيس مستعمرة إرتريا في مارس عام ١٨٩٠.

وعقـــدت عـــدة اتفاقـــات بين انجلترا وايطاليا بخصوص الحدود الفاصلة بين منطقتـــي نفـــوذ الدولتين، وفي ديسمبر ١٨٩٧ وقعت إيطاليا وثيقة تنازل عن قلعة (كســـلا) لمصـــر، كما وقع اتفاق أخر في ٧ ديسمبر ١٨٩٨ بشان تخطيط الحدود

1- Harslett: The Map of Africe by Treaty (1909), Voll. II, P

٢- عدد الصحفية المذكورة – الصادر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٥.

الشمالية لمستعمرة إرتريا، واتفاق أخر في ١٦ ابريل ١٩٠١ بشأن الحدود بين السودان المصري الإنجليزي وارتريا[١].

ويعد الاتفاق بين الحبشة وإيطاليا في ١٥ مايو ١٩٠٢ علي الحدود التي تفصل إرتريا عن الحبشة – رسمت الحدود بين السودان وإرتريا بعد مفاوضات بين حاكم السودان العام وحاكم إرتريا.

وفيما يتعلق بالكنغو الحرة:

كان الملك ليوبولد يطمع في منطقة بحر الغزال، ومنطقة اللاهو، وقد عقدت في ٢١ مايو ١٨٩٤ معاهدة أجرت بريطانيا بموجبها للملك ليوبولد منطقة كبيرة من الأرض علي الضفة الغربية للنيل بين بحيرة البرت، وفاشودة.

وبعد انسحاب الفرنسيين من فاشودة أثار الملك أثار الملك ليوبولد حقوق دولة الكنغو الحرة بمقتضي معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤، وتعقدت الأمور وكادت تؤدي إلي أزمة، فقد بدأ الإنجليز في استعادة المواقع الفرنسية في بحر الغزال، كما بدأت الحملات البلجيكية تشق طريقها إلي المناطق المتنازع عليها، فبدأ احتمال نشوب ازمة فاشودة أخري – لكن أخيراً توصل الطرفان إلي توقيع اتفاق في ٩ مايو ١٩٠٦.

واتفق علي ان تترك منطقة بحر الغزال للسودان، وأن تؤجر منطقة اللادو الملك ليوبولد، علي ان يسري هذا الايجار مدي حياة الملك.

وبعد وفاة الملك عام ١٩١٠ أعيدت منطقة لادو لحكومة السودان[٢].

أما عن أوغندة فقد أصبحت تحت الحماية البريطانية منذ عام ١٨٩٣ فاستولت إنجلترا بذلك علي الأجزاء الجنوبية من مديرية خط الاستواء المصرية التي كانت منذ ١٨٧٥ جزءاً لا يتجزأ من السودان، ثم حدثت تسويات للحدود بينها وبين السودان.

ففي يناير ١٩١٤ سويت الحدود علي أساس اقتطاع القسم الجنوبي من منطقة لادو الواقعة في غرب بحر الجبل – من السودان وضمها إلي أوغنده – وذلك في مقابل إضافة مركزي غندكرو، ومنيوت إلي السودان.

وقد امتدت حدود السودان نحو الجنوب حتي (نيمولي) قبالة درفيله، بينما كسبت اوغنده البلاد الغنية الواقعة في غرب النيل، وأصبحت مديرية مونجالا

١– محمد فؤاد شكري مرجم سابق ص س ٤٧٠، ٦٧١

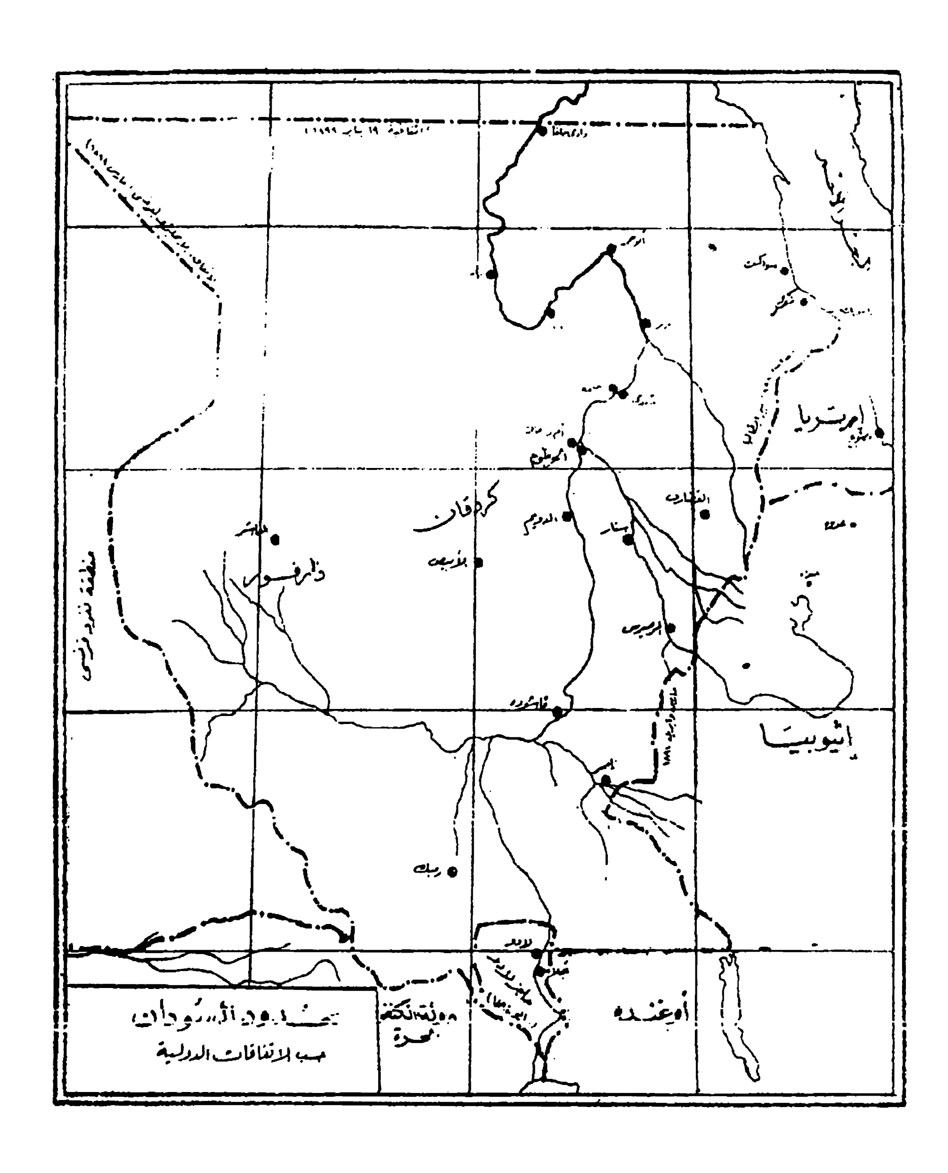
2- Langer: The Dip;omacy of Imperialism

أقصـــي مديــريات الســـودان الحالـــي، وأصبح إقليم لاتوكا داخلاً ضمن حدود السودان.

وهكــذا استطاعت إنجلترا ان تنال إعترافاً من الدول بحدود السودان المصري الإنجليزي كما حددته الاتفاقات بينها وبين الدول المجاورة.

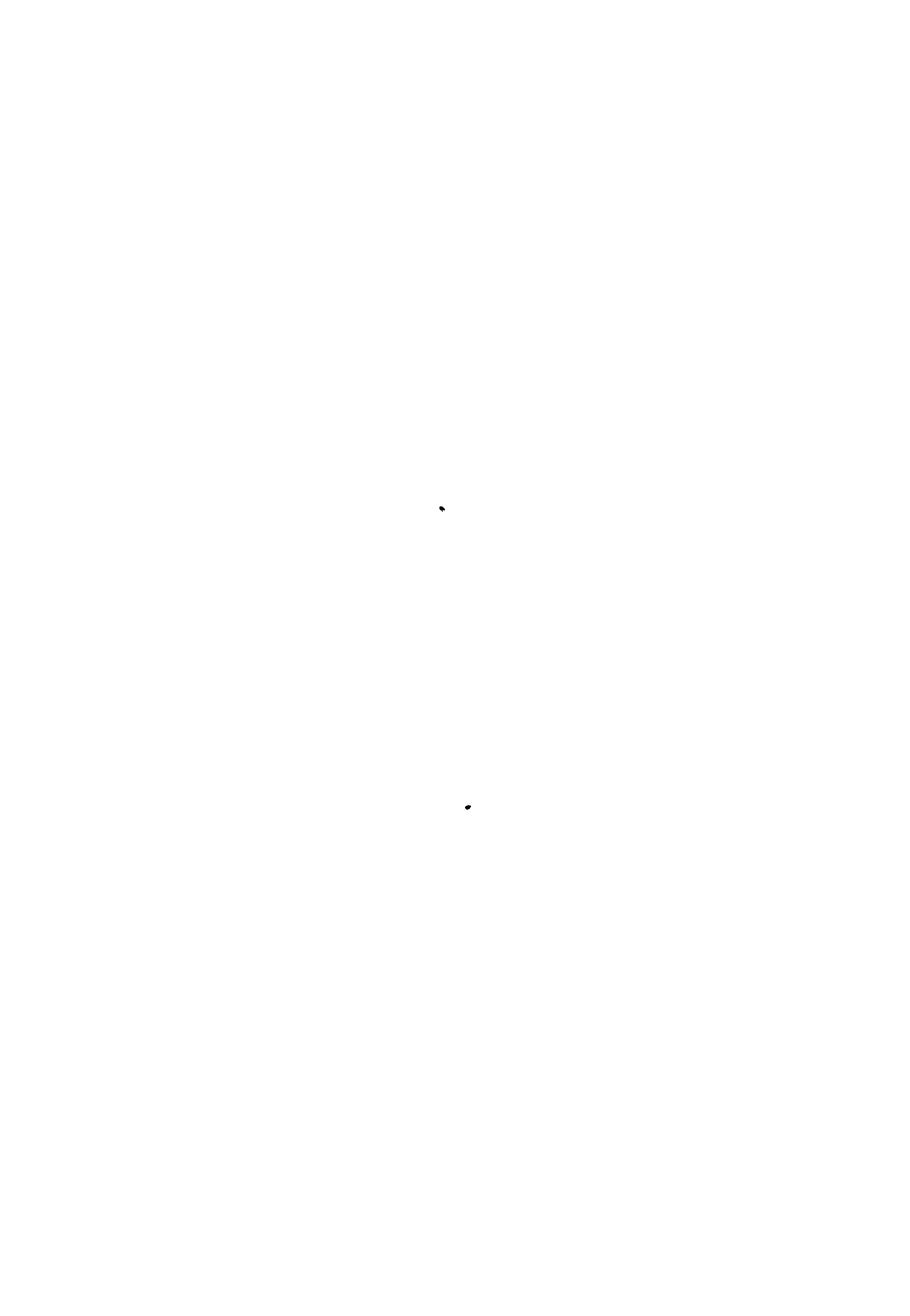
ونلاحظ أن أراضي السودان بحدوده الجديدة أقل بكثير مما كان تحت السيطرة المصـــرية قبل الثورة المهدية – فلم تدخل الأقاليم الهامة علي ساحل البحر الأحمر التي آلت إلي إنجلترا وإيطاليا وفرنسا، وبي شنقول ضمن حدود السودان بالإضافة إلي الأقاليم التي ضمت لأوغندة التي احتلتها إنجلترا.

كما أن إنجلترا أصبحت تسيطر علي وادي النيل من منبعه إلي مصبه.


كردفان
دارفور
إرتريا
إثيوبيا
أوغندة
حدود السودان
حسب الاتفاقات الدولية

الفصل الثامن
سياسة إنجلترا تجاه السودان
فى الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩٢٤

- الحرب العظمى الأولى وانعكاساتها على الأوضاع فى السودان.
- الثورات فى السودان وموقف الحكومة منها.
  (ثورة على دينار - ثورة السجينى - ثورات جبال النوبا)
- ثورة ١٩١٩ فى مصر وانعكاساتها على السودان.
- مؤتمر الخريجين ودوره فى الحركة الوطنية.
- المفاوضات المصرية - البريطانية ووضع السودان منها.
- الجماعات السودانية المطالبة بالوحدة مع مصر.
- الحركة الوطنية السودانية والمراحل التى مرت بها حتى ثورة ١٩٢٤.
- ثورة ١٩٢٤- دوافعها ونتائجها (بزعامة على عبد اللطيف).



الفصل الثامن
سياسة إنجلترا اتجاه السودان
فى الفترة من ١٩١٤ إلي ١٩٢٤

أثر الحرب العظمي الأولي علي الأوضاع في السودان:

ارتطبت قضية السودان وظروفه منذ عقدت اتفاقية الحكم الثنائي بين مصر وبريطانيا - بالقضية الوطنية المصرية، فقد عمد الإنجليز منذ ذلك الوقت إلي جعل سيطرتهم علي السودان أقوي ما يمكن، وأصبحت نظرتهم للسودان علي انه الظهير الذي يحمي مصالحهم، ووجودهم في مصر. ولذا لم يكن غريباً أن يتبلور المطلب الذي ينادي به الوطنيون في كل من مصر والسودان في "الجلاء عن شطري الوادي".

ولنتتبع تطورات السياسة الإنجليزية تجاه السودان في مراحلها المختلفة منذ قيام الحرب العظمي الأولي حتي قيام الجمهورية السودانية.

فحين قامت الحرب العظمي الأولي في يونية ١٩١٤ إنقسم العالم الي معسكرين. فقد أصبحت الإمبراطوريات الألمانية والنمساوية والعثمانية في جانب، بينما بريطانيا، وروسيا، وفرنسا، واليابان، والبلجيك والعرب في جانب أخر.

ورغم أن إنجلترا احتلت مصر منذ عام ١٨٨٢ وأصبح المعتمد البريطاني هو الحاكم الحقيقي للبلاد لكن كانت مصر من الوجهة الرسمية مستقلة، لكن عمدت بريطانيا لاستصدار عدة قرارات وإجراءات وتدابير لمواجهة حالة الحرب وما تمليه مصالحها هي وحلفائها.

فقد صدر في ١٩١٤/١١/٢ أمر بفرض الرقابة علي الصحف فيما تكتبه متعلقاً بالحرب، كما صدر إعلان بفرض الأحكام العرفية.

وفي ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أصدرت إنجلترا إعلاناً بوضع مصر تحت (الحماية البريطانية)، وفي ١٩ ديسمبر صدر إعلان بخلع الخديو عباس حلمي الثاني الذي كان وقتذاك بالاستيانة وتولية السلطان حسين كامل ارشد امراء بيت محمد علي في ذلك الوقت العرش[1].

واستندت بريطانيا إلي الأحكام العرفية التي فرضتها في مصر فاستغلتها لكبت الحريات وتعطيل الصحف وإعتقال الوطنيين من رجال الحزب الوطني وغيره.

١- أنظر يونان لبيب رزق (دكتور): قصة الحماية البريطانية علي مصر - مجلة السياسة الدولية عدد ٢٨ (ابريل ١٩٧٢).

وخشـيت الحكومة الإنجليزية ان تؤثر هذه الأحداث والإجراءات التي اتخذتها علـي السـودان خاصـة للرابطة الدينية التي تربطه بتركيا، وما كان للسلطان من مكانـة باعتباره خليفة المسلمين، ولذلك إتخذت الحكومة عدة إجراءات لضمان أن يسـود الهدوء أرجاء السودان فالظروف لا تسمح بالقيام بحركات عسكرية لإخماد فتن داخلية.

ولذلـك فقـد أوحـي للعلماء، وكبار الأعيان وشيوخ القبائل وزعماء العشائر ان يبرقوا للحاكم العام معلنين ولاءهم للحكومة ومستنكرين موقف تركيا من الحرب[١].

علـي انـه كان من نتيجة إعلان الحرب وانقسام الدول إلي معسكرين – كما أسلفنا – أن فقدت الإدارة الإنجليزية واحداً من أكفأ موظفيها وأكثرهم دراية بشئون السودان هو (سلاتين باشا) الذي شغل منصب المفتش العام للسودان منذ استعادته – فنتـيجة لإعـلان الحـرب بين بريطانيا والنمسا طلب سلاتين – باعتباره مواطناً نمساوياً – إعفاءه من منصبه.

وأضـطر ونجـت لاجابته إلي طلبه، وأعقب ذلك إلغاء منصب المفتش العام وتوزيـع مسـئولياته علـي عدد من الإدارات إذ لم يوجد من يمكن ان يشغل هذا المنصب بنفس الكفاءة[٢].

وقـد أصـدر ونجـت عـدة اوامر لمراقبة رعايا الدول الأجنبية التي أعلنت بريطانيا الحرب ضدها وحذرت أي نشاط سياسي عليهم[٣].

وفـي ١٤ نوفمـبر ١٩١٤ أصدر ونجت منشوراً بإعلان الأحكام العرفية في السودان.

وقد أسهم السودانيون بنصيب كبير في الحرب سواء في تموين جيوش إنجلترا وحلفائهـا المـرابطة فـي مصـر وسد حاجتها من الماشية والأغنام والحاصلات السودانية أو الإسهام الفعلي في الحرب – خاصة في الحملة السورية[٤].

١- ملاحظـة: اعلـن وبنجـت في احتفال رسمي نبأ تولية السلطان حسين كامل عرش مصر وارسل له برقية تهنئة وتلقي من السلطان شكراً علي برقيته.

٢- ملاحظـة: أعلـن وبنجـت في أحتفال رسمي نبأ تولية السلطان حسين كامل عرش مصر وارسل له برقية تهنئة وتلقي من السلطان شكراً علي برقيته.

٣- يوجـد بالمحفوظـات بالخـرطوم عدد كبير من العرائض والتلغرافات المرفوعة لحاكم السودان كبتر رجال الدين والأعيان بالسودان معربين عن ولائهم للحكومة ولإنجلترا.

٤- مكي شيكه: مرجع سابق ٤٧٣

علي أن الشغل الشاغل للحكومة البريطانية – كان ضمان ولاء السودانيين وقد أدركــت هــذه الحكومة أنها تستطيع تحقيق ذلك عن طريق اكتساب مشايخ الطرق الدينية لجانبها.

وكانت أقوي هذه الطرق، وأكثرها أتباعاً الطريقة المرفنية التي يرجع تأسيسها فــي الســودان إلي القرن الثامن عشر الميلادي حيث قدم السيد (محمد عثمان) من الحجــاز وأنضــم إليه السيد علي الميرغني فأصبح من مريدي هذا الشيخ وخليفته. وأســس الســيد علــي الميرغني بلدة (الختمية) قرب كسلا وأتخذها مركزاً لنشاط الطــريقة التي حملت اسمه والتي أخذت تنتشر بسرعة. وكان السيد علي الميرغني مــن المواليــن لــلإدارة المصرية بالسودان، وقد غادر السودان لمصر حين استبد المهديون بالإدارة، ثم عاد للسودان بعد ذلك، وكان من أركان الإدارة الجديدة.

وقد أرسل السيد علي الميرغني – حين نشبت الحرب العالمية الأولي – برقية من كسلا حيث كان يقيم يعرب فيها عن ولائه للحكومة ويدين فيها سياسة الحكومة التركية[١]، وقد حذا حذوه العديد من أتباعه.

وأدركت إنجلترا أهمية خلق شخصية تكون موالية لها في السودان تستطيع أن تواجــه بها قوة السيد الميرغني وأتباعه الذين بدا من أول وهلة تعاطفهم مع الإدارة المصــرية بالســودان – ولذا سمحت الإدارة البريطانية للسيد عبد الرحمن المهدى بالعودة إلى جزيرة آبا التى بدأت منها الشرارة الأولى للثورة المهدية على يد أبيه– كما شجعته على زراعة القطن بمساعدة أتباعه من الأنصار، وقدمت له التسهيلات اللازمــة لذلك، ولعل إنجلترا أدركت أن المهدية – وقد كانت بطبيعة الحال معادية للاتراك – فمن الخير أن تعقد معها تحالفًا لتضمن ولاءها، وكانت المهدية فى نفس الوقــت تنظر نظرة عداء للمصرين الذين اشتركوا فى القضاء على حكومتهم، وبذا اســتندت الحكومة البريطانية على السيد المهدى وأتباعه فى مقاومة الدعوة التركية فى السودان[٢].

وأخــذت سياســة الإدارة فى السودان تتغير تجاه الأنصار، وعمدت إلى تقديم المساعدات للسيد عبد الرحمن المهدى لتنمية موارده الإقتصادية ليكون ندا ومنافسًا للســيد علــى الميرغــنى، وبتشــجيع الحكومة بنى السيد عبد الرحمن قصرًا فى الخرطوم.

١– تلغراف من السيد علي الميرغني بكسلا في ١٢ نوفمبر ١٩١٤.

2- Abd Al Rahim M.: Imperialism and Nationalism in the Sudan (1899-1956), P. 96.

وهكذا وجد فى السودان معسكران-معسكر الختمية، ومعسكر المهدية أو الأنصار.

وكان هدف إنجلترا من هذا الاتجاه واضحا تمام الوضوح وهو إيجاد الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، فقد كانت الدعاية الدينية هى التى يتجمع حولها الأفراد. ويشبه هذا ما حدث فى مصر حيث شجعت إنجلترا (الحزبية) وذكت الخلافات والتشاحن بين الأحزاب، فقد كانت السياسة الإستعمارية فى ذلك الوقت قائمة على أساس (فرق تسد). وقد استخدمت إنجلترا هذا السلاح بذر بذور التنافس والشقاق - بنجاح طوال فترة بقائها فى السودان إلى أن حصل على استقلاله.

على أن هذا لايعنى أن الأمور سارت بيسر وسهولة على طول الخط للإنجليز وإدارتهم بالسودان.

فقد ظهرت انتفاضات وحركات ثورية فى أنحاء مختلفة من وسط وغرب وجنوب السودان وسيتطور الأمر إلى ظهور الأشكال الجديدة للوعى السياسى والاجتماعى متمثلة فى الجمعيات والاتحادات الوطنية. ولا شك فى أن هذا الوعى السياسى سار جنبًا إلى جنب مع الحركة الوطنية فى مصر، كما ساعد انتشار التعليم والثقافة وظهور جيل جديد مثقف على إنتشار هذه الحركات الوطنية فى السودان وبلورتها وتطورها إلى قوة واجهت الحكام البريطانيين وأقلقت الإدارة البريطانية فى السودان، وهذا ما سنتعرض له بشئ من التفصيل فيما بعد.

أولاً: الثورات التى قامت فى السودان فى هذه الفترة

قامت فى السودان فى هذه الفترة عدة ثورات، وكان غرب السودان بحكم موقعه وطبيعته الجبلية من أكثر المناطق ملاءمة لهذه الثورات ومن أبرزها ثورة على دينار فى دارفور، وثورة السحينى، وثورات جبال النوبا

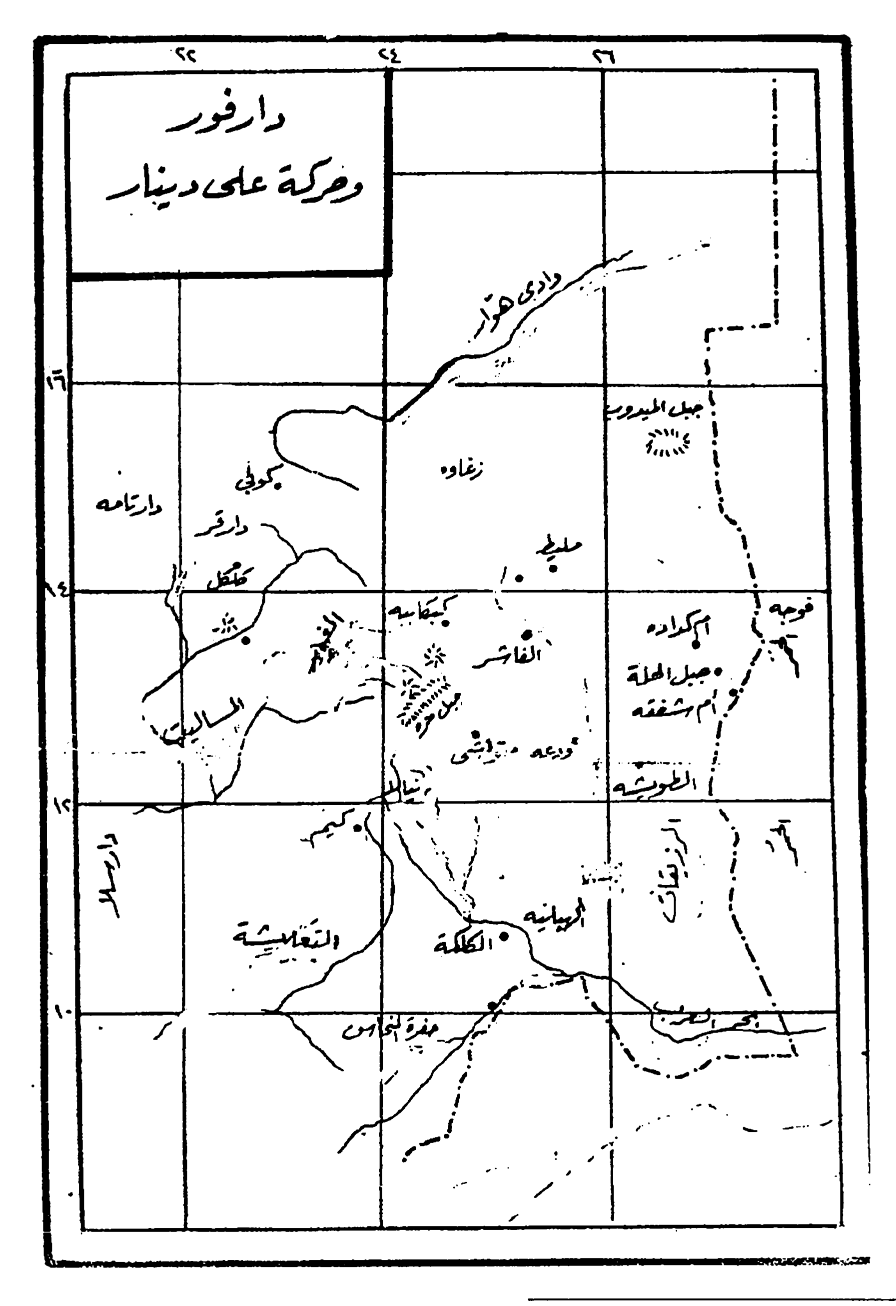
وسنشير لهذه الثورات باختصار.

أ - ثورة على دينار:

على دينار من أسرة سلاطين دارفور الذين حكموا هذه المنطقة قبل امتداد الإدارة المصرية إليها فى عهد الخديو إسماعيل، وقد أعلن على دينار ولاءه للمهديين، ولكن الخليفة عبد الله التعايشى شك فى ولائه فاستدعاه إلى أم درمان.

فلما وقعت (معركة أم درمان) انتهز على دينار الفرصة فعاد إلى دارفور فى مجموعة من رجاله حيث تغلب على مناوئ له من نفس عائلة الفور هو

(إبراهيم علـى) وأرسل إلى كتشنر يعلن ولاءه للحكومة ويطلب الاعتراف به سلطانا لدارفور[1].



1- Theobald, A. B.: Ali Dinat, Last Sultan of Darfour, P. 31.

ولما كانت الإدارة الجديدة فى السودان تواجه العديد من المشكلات، بالإضافة إلـــى الصـــعوبات التى تكتنف السيطرة الكاملة على دارفور - فقد أقر الحاكم العام للســـودان على دينار على حكم دارفور وإعترف به حاكما لدارفور، على أن يدفع للحكومـــة جزية سنوية قدرها ٥٠٠ جنيه، وأن يرفع العلمين المصرى والبريطانى على عاصمته، وأن يستعين فى إدارته بالمستشارين الحكوميين(١).

لكـــن انـــتهج على دينار منذ البداية سياسة تهدف للإستقلال فى إدارة دارفور والتملص من كل محاولات الحكومة للتدخل فى شئونه - لدرجة أنه رفض السماح لســـلاتين المفتش العام - والذى كان مديرًا لدارفور قبل الثورة المهدية - بزيارتها بحجـــة أن وجـــوده قـــد يثـــير الأهالى ضده - كما كان على دينار يوقع خطابات المرسلة للحكومة فى الخرطوم بلقب (سلطان درافور)(٢).

وواجه على دينار عدة ثورات قبلية كما دخل فى حروب مع عرب الرزيقات وغـــيرهم، وكـــان طـــوال مـــدة حكمه لدارفور يرتاب فى أتباع ورجال حكومة الخـــرطوم القادميـــن بخطابـــات وغيرها، كما كثرت الاضطرابات على حدوده الشرقية بسبب لجوء بعض قبائل دارفور إلى كردفان بالإضافة إلى الاضطرابات على حدود درافور الغربية خاصة فى منطقة الحدود مع سلطنة واداى بالذات مما أدى لمشاكل مع فرنسا التى إدعت أن (دار تاما)، (دار مساليت) جزء من سلطنة واداى(٣).

وعـــندما قامت الحرب العالمية الأولى - وجد على دينار فيها فرصة للتخلص من أى سلطة للإدارة الحاكمة بالخرطوم عليه خاصة أن الخلافات كانت قد اشتدت بينهما لعدم استجابة الإدارة لكل ما طلبه من أسلحة.

وقد حاولت الإدارة البريطانية أن تكتسب ولاءه فأرسل له الحاكم العام خطابى الـــولاء مـــن الســـيدين علـــى الميرغنى ويوسف الهندى بالإضافة إلى رسائل من الحكومة المصرية ورجال الدين.

كما حاولت الدولة العثمانية من جانبها ضم سلطان دارفور إلى جانبها وأخذت تضرب على وتر الجهاد المقدس.

١- موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسى (١٨٨٢-١٨٩٨) ص ٢٣١.

2- Theobald: Op. Cit., P. 42.

٣- انظر مذكرة مدير دارفور السيد على عبد الله أبو سن عن مديرية دارفور.

- وانظر الخريطة بملحق الكتاب

وقد بادر على دينار بإعلان عدائه للإدارة البريطانية فى السودان، فرفض دفع الجزية السنوية، وأرسل إلى حاكم السودان يندد بتهديداته له، ويعلن أنه سوف يحارب أعداء الإسلام حتى يردهم على أعقابهم خاسرين[٠].

ودلت تقارير المخابرات أن السلطان على دينار اتصل بالسنوسيين بغية الحصول على الذخائر لقواته عبر ليبيا، كما اتصل بتركيا والحجاز لتوحيد المقاومة ضد المستعمرين البريطانيين وحلفائهم، وأنه يعد جيوشه للزحف على كردفان – ولذلك اتجهت الإدارة الحاكمة فى السودان إلى الإسراع بمهاجمة على دينار قبل أن يقوم هو بمهاجمة كردفان.

ولم يكن فى استطاعة الإدارة البريطانية حشد قوات كبيرة لمقاومة على دينار فى ظروف الحرب العالمية الأولى – لذلك اتجهت لإضعاف قوته قبل أن تدخل معه فى معارك حاسمة، فقامت بتأليب أعدائه عليه، وأغرقته فى عدة حروب داخلية. ومنذ شهر مارس ١٩١٥ أخذت الإدارة البريطانية تجمع قوات كبيرة فى مدينة النهود جنوب غرب الأبيض[١] لمواجهة خطر على دينار فى دارفور للقضاء على هذه الثورة فى مهدها قبل أن يستفحل خطرها وتشجع غيرها على الانتقاض على الإدارة البريطانية فى ظروف الحرب العالمية التى ركزت بريطانليا لها كافة جهودها.

ورسمت الإدارة البريطانية خطتها على أساس استخدام الأسلحة الحديثة بما فيها الطائرات والمدافع، وأعداد وحدات سريعة الحركة خصيصاً لهذه الحملة.

وكلت قيادة هذه القوات لليفتنانت كولونيل كلى (Kelly) يعاونه ضابط المخابرات البريطانى هارولد ماك مايكل (Mack Michael) وساعد على سرعة وصول الإمدادات وسهولة الاتصال بالإدارة والقيادة العامة وصول الخط الحديدى إلى الأبيض، ومد الخطوط التلغرافية لربط النقط العسكرية التى أقيمت على طول الطريق. وفى فبراير ١٩١٦ كانت القوات تتأهب للزحف.

وعند (أم شنقه) التحمت القوات الزاحفة مع قوات على دينار وانتصرت عليها بعد أن حصدت المدافع الكثيرين من أتباعه، وتقدمت الحملة إلى (جبل الحلة) ثم إلى أم كداده.

وتجمعت قوات على دينار فى بلده (برنجيه) على بعد ١٢ ميلا شمال الفاشر بهدف مباغتة الجيش الزاحف صوب الفاشر.

١- انظر الخريطة .

وفـــى ٢٣ مـــايو ١٩١٦ حدثت معركة حاسمة اندحرت فيها قوات على دينار فاضطر لإخلاء الفاشر والالتجاء لجبل (مره) مع باقى قواته والأمراء المخلصين له ودخل الجيش الزاحف الفاشر.

وفـــى ٦ نوفمـــبر ١٩١٦ كانـــت قـــوة علـــى رأسها الامير الاى هدلستون (Huddlestin) تؤيدهـــا المدافـــع الرشاشة تتعقب على دينار وأتباعه، ونجحت هذه القـــوة فـــى وضـــع نهايـــة لحركة على دينار الذى قتل هو وعدد كبير من أتباعه ومساعديه واستسلم الباقون.

وهكذا لم ينته عام ١٩١٦ حتى كانت دارفور قد أصبحت مديرية من مديريات السودان الخاضعة للإدارة بالخرطوم، وعين كيلى باشا (Kelly) مديرًا لها، وما كما يكل (Mack Michael) وكيلالها.

وكـــان القضـــاء على حركة على دينار بهذه السرعة مما ساعد على استقرار الأوضاع فى السودان إلى حد كبير خلال فترة الحرب العظمى الأولى.

ب- ثورة السحينى (فى جنوب دارفور):

ولـــد عبد الله السحينى فى قرية (دار قمر)، من قبيلة المسلات بدارفور، وكان من رجال المهدية، وقد عمل تحت إمرة الأمير محمود. وانتهز فرصة التذمر الذى كان يسود الأهالى فى جنوب دارفور نتيجة سوء الأحوال الإقتصادية والشكوى من الضـــرائب – فظهـــر بين قبائل البقارة فى (نيالا) وأدعى أنه بنى الله عيسى وأنه مدعو لنشر العدل وتطهير الأرض من الفساد الذى استشرى وأن فى استطاعته أن يبطل مفعول رصاص الأعداء[١].

وقـــد أرســـلت قوة من الفاشر استطاعت أن توقع الهزيمة بالسحيتى وأن تقتل حوالـــى ســـتمائة من أتباعه أما هو فقد أمكنه الفرار والإلتجاء لبعض القبائل التى ســـلمته فـــى أكتوبر ١٩٢١ لقوات الحكومة فحوكم وأدين وحكم عليه بالإعدام كما أعدم عدد من أتباعه.

ورغـــم مـــا لجأت إليه الإدارة من قسوة ضد الثائرين والمشتركين فى حركة الحســـينى – فقد تجددت الثورات فى جنوب دارفور ووجدت من يتزعمها فى هذه المـــناطق الجبلية النائية سواء فى دار مساليت أو دار حمر – مما اضطر الحكومة لإقامة طابية وتوفير وحدة عسكرية فى تلك المنطقة. كما لجأت الحكومة إلى السيد

١- على عبد الله أبو سن: مرجع سابق ص ٤٤-٤٨.

عبد الرحمن المهدى ليرسل رسله إلى الأهالى يدعوهم للهدوء والولاء للحكومة باعتبار أن هذه الحركات كانت حركات دينية.

وعلى كل ظلت هذه المنطقة مثار خوف الإدارة فى الخرطوم من أن تبعث منها شرارة الثورة.

ج- ثورات جبال النوبا :

قامت عدة ثورات فى جبال النوبا – حيث استطاع العديد من سكان تلك المناطق الحصول على الأسلحة من أيام المهدية وتخبئتها.

وكانت هذه القبائل تجد من الجبال ملاذاً لها حين تشق عصا الطاعة على الإدارة فترسل القوات الحكومية لتعقبها. وكانت هذه الحملات التأديبية تجد المشقة والعناء وهى تتعقب المقاومين والخارجين عن سلطانها.

ثانيًا: أثر الحركة الوطنية فى مصر على السودان

كانت للحرب العظمى الأولى آثار كبيرة فى إذكاء الحركة الوطنية فى مصر.

فقد عانت مصر الكثير أثناء الحرب من إعلان الأحكام العرفية فى البلاد، واستغلال مواردها الزراعية والاقتصادية والبشرية لخدمة احتياجات بريطانيا وتموين جيوشها التى كانت تحارب فى سيناء وفلسطين وغيرها من الميادين، وقد جند لخدمة جيوش الحلفاء الآلاف العمال والفلاحين المصريين[1].

وكانت بريطانيا قد ولت السلطان حسين كامل على عرش مصر – كما سبق أن ذكرنا – وخلفه على العرش السلطان أحمد فؤاد. وكانت للمندوب السامى البريطانى فى مصر ونجت (Wingate) الكلمة العليا.

ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى طالبت مصر بتحقيق ما تعهدت به إنجلترا أثناء الحرب وما أذاعه الرئيس الأمريكى ولسن (Wilson) من مبادئ عن حق الشعوب فى التحرر وفى تقرير مصيرها.

وتألف فى مصر (الوفد المصرى) برئاسة سعد زغلول للسفر لعرض قضية البلاد على مؤتمر الصلح.

وقد أدى منع السلطات البريطانية سفر الوفد واعتقال أربعة من أعضائه (سعد زغلول، وإسماعيل صدقى، وحمد الباسل، ومحمد محمود) يوم ٨ مارس ١٩١٩

1- Lioyd, Lord: Egypt Since Cromer Vol. I. P. 218.

ونفـيهم إلى جزيرة مالطة – إلى اندلاع الثورة فى جميع أنحاء مصر، وقد قابلتها إنجلترا بالعنف والقوة مما أدى لاستشهاد المئات[(١)]

وأمـام هـذا التـيار الوطنى الجارف سحبت إنجلترا ممثلها فى مصر ونجت وأحلـت محله اللورد للنبى Lord Allenby صاحب الشهرة الذائعة لانتصاراته فى فلسـطين أثـناء الحرب، كما اضطرت للأفراج عن الزعماء المنفيين وسمحت لهم بالسفر إلى باريس لكنها عوقت مهمتهم أمام مؤتمر الصلح.

وقـد ارتبطت قضية السودان بالقضية المصرية منذ البداية فالثورة المصرية نادت بالاستقلال ووحدة وادى النيل واعتبرت القضية واحدة لا تتجزأ.

وكانـت أخـبار الـثورة المصـرية تنتشر فى السودان عن طريق الصحف المصـرية وغـيرها، وكـان الشـباب السودانى يتلقف أخبارها، وأصبحت أسماء الـزعماء الوطنيـن المصريين وأخبارهم معروفة عند السودانيين خاصة المثقفين الذين كانوا يتابعون تطورات الثورة فى مصر[(٣)].

وقـد كانت الإدارة الإنجليزية فى السودان تدرك النتائج التى قد تتمخض عن الاتصـال بيـن المصـريين والسودانيين وعن انتقال صدى الثورة المصرية إلى السودان.

ولذلـك فقـد شـددت الرقابة على المصريين بالسودان من ضباط، وموظفين ومدرسين، وتجار وغيرهم، واستخدمت العنف والشدة لقمع المظاهرات التى قام بها المصـريون فـى بورسـودان وعطبرة وغيرهما من مدن السودان تأييدا للحركة الوطنية فى مصر.

ولمـا اشتدت حركة القمع لهذه المظاهرات المساندة للحركة الوطنية المطالبة باسـتقلال مصـر ووحدة وادى النيل – اتجهت الحركة إلى العمل السرى فتعددت المنشـورات والحـركات السرية التى تندد بإنجلترا وسياستها وعملائها فى وادى النيل شماله وجنوبه.

١– من يريد التوسع فى تتبع تطورات الحركة الوطنية فى مصر يرجع إلى :

عبد العظيم رمضان: تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ حتى سن ١٩٣٦

٢– قدر عددهم حسب تقرير وكيل وزارة الخارجية البريطانية فى جلسة مجلس العموم البريطانى يوم ١٥ مارس ١٩١٩ بألف قتيل، وقدر عدد الجرحى بحوالى ١٦٠٠ جريح والمعتقلين بحوالى ٤,٠٠٠ معتقل.

انظر : أمين سعيد : تاريخ مصر السياسى من الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى أنهيار الملكية ١٩٥٢.

٣– أحمد محمد خير: كفاح جيل، تاريخ معركة الخريجيين وتطورها فى السودان ص ٢٣ وما بعدها.

وقـد كـان للتعليم المصرى فى السودان أثره البالغ فى تنشئة طبقة مثقفة ارتبطت بالثقافة المصرية وتأثرت بها، وبالتالى تأثرت بالحركات الوطنية المصرية وتطوراتها. وكانـت لهذه النخبة من المثقفين ومن أنضم إليها من العمال وغيرهم أثرها خاصة بعد أن انحـازت الزعامات الدينية والقبلية إلى جانب الإدارة البريطانية – فبرزت هذه القوة المـثقفة كعـامل جديد فى الموقف خاصة بعد أن نجح المثقفون السودانيون فى تأسيس (نـادى الخريجيـن) بأم درمان فى مايو ١٩١٨، ومن هذا النادى نبعث فكرة (مؤتمر الخريجيـن) الـذى يعتبر بداية الحياة الحزبية فى السودان التى تبلورت فى الأربعينات وقادت الحركات السياسية التى انتهت باستقلال السودان[1].

ثالثًا: وضع السودان فى المفاوضات المصرية البريطانية

كان طبيعيًا أن تكون مسألة السودان من الأمور التى نتناولها المفاوضات التى جـرت بين مصر وبريطانيا فى هذه الآونة بل كما سنرى أن السودان كان الحجر الذى اصطدمت به هذه المفاوضات المتتالية، ويرجع ذلك لإصرار إنجلترا على أن تنفرد بإدارة السودان وتسيير دفة أموره بما يخدم مصالحها السياسية والإقتصادية.

فقـد اضطرت إنجلترا للإفراج عن سعد زغلول ورفاقه – كما رأينا – لكنها وضعت العراقيل أمام جهودهم فى الخارج لشرح القضية المصرية ومحاولة كسب العالم الخارجى لصفها – مما أضطرهم للعودة لمصر لمتابعة الكفاح.

وأرسـلت إنجلـترا لجـنة برئاسـة اللورد ملنر Milner وزير المستعمرات البريطانـية لبحـث أسـباب شكوى المصريين، ولكن الشعب المصرى قاطع هذه اللجـنة– وقـد أرسـلت اللجـنة عضوين من أعضائها للسودان هما السير جون ماكسـويل Maxwell، والسـير اوين توماس Thomas لبحث حالة السودان ولما عـادت اللجنة إلى لندن اضطرت الحكومة البريطانية فى يونيو ١٩٠٥ لدعوة الوفد المصرى للتفاوض معه فى القضية المصرية.

١– أنظر تقارير المخابرات البريطانية عن هذه المظاهرات فى:

Sudan Monthly Intelligence Report.

(الأعداد الصادرة فى عام ١٩١٩ وما بعدها).

١– بـدأ مشروع نادى الخريجين فى عام ١٩١٣، ولعل فكرة النادى كانت من وحى فكرة نادى المدارس العليا بمصر والذى كان من ركائز الحركة الوطنية المصرية – وللتفاصيل عن تأسيس نادى الخريجين أنظر:

سليمان كشه : كيف تأسس نادى الخريجين بام درمان (مجلة الخرطوم – العدد الثانى – نوفمبر ١٩٦٦).

ملاحظة : سنعود للحديث عن أثر انتشار الثقافة المصرية فى السودان – فى ثورة ١٩٢٤.

وفى هذه المفاوضات بين الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول واللجنة البريطانية برئاسة لوردملنر - كان وضع السودان من الموضوعات الهامة التى تناولها الطرفان.

وقد جاء فى المادة الثالثة عشرة من المشروع المقدم من الوفد المصرى. "مسألة السودان تكون موضوع اتفاق خاص".

أما المشروع الذى قدمته لجنة ملنر فيما يختص بالسودان فقد جاء فيه "إن السودان تقدم تقدمًا عظيمًا تحت إدارته الحالية المؤسسة على مواد اتفاقية سنة ١٨٩٩ فيجب والحالة هذه ألا يسمح لأى تغيير يحدث فى حالة مصر السياسية أن يوقع الاضطراب ويؤدى إلى وقف تقدم السودان ورقيه، ويؤثر على نظام أنتج مثل هذه النتائج الحسنة[١].

على أن اللورد ملنر عمد بعد ذلك لإخراج مسألة السودان بعيدًا عن الموضوعات التى سيناقشها المفاوضون. ففى خطاب لعدلى يكن رئيس الوزارة المصرية فى ذلك الوقت بتاريخ ١٨ أغسطس ١٩٢٠ ذكر "إن موضوع السودان الذى لم نتناقش فيه قط نحن وسعد زغلول باشا وأصحابه خارج بالكلية عن دائرة الاتفاق المعقود لمصر، على أننا ندرك من الجهة الأخرى أن لمصر مصلحة حيوية فى إيراد النيل الذى يصل إليها مارًا فى السودان، ونحن عازمون أن نقترح اقتراحات من شأنها أن تزيل هم مصر وقلقها من جهة كفاية ذلك الإيراد لحاجتها الحالية والمستقبلة[٢].

وفى عام ١٩٢١ تألف الوفد الرسمى المصرى للمفاوضات من عدلى باشا يكن باشا، وعضوية كل من حسين رشدى باشا، وإسماعيل صدقى باشا، ومحمد شفيق باشا، وأحمد طلعت باشا، ويوسف سليمان باشا - وكان عبد الحميد بدربك (باشا) سكرتيرًا عاما لوفد المفاوضات.

وكانت مع الوفد فئة من الشباب المبرزين بصفة هيئة استشار وكسكرتيريين- بينما كان الوفد البريطاني برئاسة اللورد كيرزون (Curzon).

وسافر الوفد إلي لندن في يوليو ١٩٢١ واستمرت المفاوضات حتي نوفمبر ١٩٢١.

وقد جاء في المشروع المقدم من الحكومة الإنجليزية والذي سلمه اللورد

١- غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٦٨.

٢- نفس المرجع السابق ص ٧٣

كـــيرزون لعدلي يكن باشا في ١٠ نوفمبر ١٩٢١ – فيما يتعلق بالسودان في البند ١٧ من هذا المشروع ما يلي:

"حيــث أن رقـــي الســـودان في هدوء وسكينة ضروري لأمن مصر، ولحفظ مؤونـــتها مـــن المـــياه – تتعهد مصر بأن تقدم لحكومة السودان نفس المساعدات الحربـــية التـــي كانت تقوم بها في الماضي، أو أن تقدم بدلاً من ذلك لتلك الحكومة إعانـــته مالية تحدد قيمتها بالاتفاق بين الحكومتين، وتكون كل القوات المصرية في الســـودان تحـــت أمر الحاكم العام. وعدا ذلك تتعهد للحكومة البريطانية بأن تضمن لمصـــر نصيبها العادل من مياه النيل – وقد تقرر من أجل ذلك الأ تقام أعمال ري جديـــدة علي النيل وروافده في جنوب وادي حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء يمثل أحدهم مصر، وآخر السودان، وثالث أوغنده"[1].

ولقـــد ســـجل الوفد الرسمي المصري بمحاضر الجلسات وفي المذكرات التي قدمها للمفاوضين البريطانيين وجهة النظر المصرية. وفيما يتعلق بمسألة السودان– رأي الوفـــد أن النصـــوص التي عرضتها إنجلترا ليست مرضية. وعاد عدلي باشا إلـــي الإســـكندرية في ٥ ديسمبر ١٩٢١ وبعد ذلك بثلاثة أيام قدم للسلطان استقالة وزارته.

ولجـــأت الســـلطات العســـكرية البريطانية في مصر لسياسة العنف ضد سعد زغلـــول وبعض السياسيين الآخرين (فتح الله بركات، وعاطف بركات، ومصطفي الـــنحاس، وســـينوت حـــنا، ومكرم عبيد) واتهمتهم بإثارة الشعب بما يلقونه ونفتهم لإحـــدي جـــزر سيشل. وفي ٢٤ ديسمبر قبل السلطان إستقالة وزارة عدلي – أما الحكومة البريطانية فقد استدعت ممثلها في مصر اللورد اللنبي للتباحث معه.

وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢ عاد اللنبي لقاهرة حيث أعلن التصريح المشهور.

بتصريح (٢٨ فبراير ١٩٢٢)

وفـــي هذا التصريح أعلنت الحكومة البريطانية إنتهاء الحماية البريطانية علي مصر، وبذلك تكون دولة مستقلة ذات سيادة، ووعدت بالغاء الأحكام العرفية، لكنها احتفظـــت بصـــورة مطلقة بتولي أمور معينة إلي ان يحين الوقت الذي يتسني فيه إبرام اتفاقات بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية بشأنها وهذه الأمور هي:

١- تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية بمصر.

١- غربال: المرجع السابق ص ٩٧.

٢- الدفاع عن مصر ضد كل إعتداء أوتدخل أجنبي.
٣- حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.
٤- السودان.

وإلي ان تبرم الآتفاقيات بخصوص هذه الأمور يبقي الحال فيما يتعلق بها علي ما هو عليه.

وبناءًا علي ذلك تألفت في مصر في أول مارس ١٩٢٢ وزارة ثروت باشا، وشكلت الوزارة في ٣ أبريل ١٩٢٢ لجنة من ثلاثين عضواً لوضع مشروع الدستور المصري.

ويهمنا من مشروع الدستور تدخل المندوب السامي البريطاني لتعديل بعض نصوصه، وبلغ ذلك التدخل مرحلة تقديم إنذار نهائي. فقد طلب المندوب السامي حذف النصوص الخاصة بالسودان - وهي المادة (٢٩) من المشروع التي كانت تنص علي أن الملك يلقب بلقب (ملك مصر والسودان)، والمادة (١٤٥) التي كانت تنص علي ان يجري أحكام الدستور علي المملكة جميعاً عدا السودان، فمع أنه جزء منها إلا أن نظام الحكم فيه يقرر بقانون خاص.

وبرر المندوب السامي تدخله هذا بأن السودان من المسائل المحتفظ بها في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وأن النصوص الواردة في مشروع الدستور لا تتفق وهذا التحفظ ولامع اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩، وطال الأخذ والرد وانتهي بتقديم إنذار بأنه اذا لم تقبل وجهة نظر الحكومة البريطانية في أربع وعشرين ساعة فإنها تسترد كامل حريتها في العمل بإزاء الحالة السياسية في السودان وفي مصر، وتلجأ عند الضرورة إلي أي تدبير تراه مناسباً.

جرت لذلك مخابرات بين الحكومة ودار المندوب السامي، كانت نتيجتها حل الأزمة بأن غير النصان كما يلي:

١- يعين اللقب الذي يكون لملك لمصر بعد أن يقرر المندوبون المفوضون نظام الحكم النهائي للسودان.
٢- تجري أحكام هذا الدستور علي المملكة المصرية بدون أن يخل ذلك مطلقاً بما لمصر من الحقوق في السودان[1].

وصدر الدستور فى ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ محتوياً هذين النصين.

١- غربال: مرجع سابق ص من ١٨٨، ١١٩.

وفـــى يـــناير ١٩٢٤ ألف سعد زغلول وزارته البرلمانية الأولى التى عرفت (بـــوزارة الشـــعب) بعـــد فـــوز مرشحى الوفد المصرى بالأغلبية فى الانتخابات البرلمانية.

وأثـــارت الأوضــــاع فى السودان مناقشات حادة فى البرلمان فى ذلك الوقت. فمـــثلاً فى جلسة من جلسات نظر الميزانية فى ٧ يونيه ١٩٢٥ طلب (عبد اللطيف بـــك الصـــوفانى) عرض ميزانية السودان، وذكر "أنه أثناء كان عضواً فى مجلس شـــورى القوانيـــن، وفى الجمعية التشريعية كانت ميزانية السودان تعرض عليهما عرضاً مفصلاً"(١).

وكـــان رد ســـعد باشا بأنه سيبحث أسباب وقف تنفيذ اتفاقية سنة ١٩١٠ بين حـــاكم السودان العام وبحث (Wingaie) فى ذلك الوقت والمستشار المالى لمصر بشـــأن عرض ميزانية السودان فى مجلس الوزراء، ومراقبة ومراجعة الإجراءات المالية لحكومة السودان.

وفـــى جلسات مجلس النواب فى أيام ١٩، ٢٣، ٢٤ يونيو ١٩٢٤ أثار بعض الـــنواب مـــا حدث فى السودان من اصطناع عرائض تعبر عن الثقة فى الحكومة الإنجلـــيزية، واصـــطناع وسائل العنف والتهديد لمنع السودانيين من إظهار ولائهم للعـــرش ولمصر، ومنع وفد منهم من الحضور للتعبير عن تلك المعانى – واستنكر سعد باشا هذه التصرفات كلها(٢).

وأثير موضوع مصر والسودان فى مجلس اللوردات الإنجليزى فى جلسة ٢٥ يونـــيه ١٩٢٤، واشـــترك فى المناقشة اللورد جراى وزير خارجية إنجلترا القديم، فإدعى أنه بلغه أن جميع الأعمال الإدارية التى قام بها كرومر والتى كانت موضع فخـــر إنجلـــترا قد انهارت، وقال "إن الذى يهم الآن هو أن يبقى فى يد إنجلترا حق حمايـــة قـــناة السويس وصيانتها، وإدارتها هذا أولاً، وثانياً إن حكومة السودان أمر يتعلق بالحكومة البريطانية والسودانيين، وثالثاً تأليف لجنة يرأسها محايد تضمن ألا يحـــرم السودان مصر من المياه، وألا تحرم السودان منها" وكان رد المتحدث باسم الحكومـــة البريطانـــية : إن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأى معنى كان،

٢- نفس المرجع ص ١٣٧.

٣- بعـــد صـــدور تصـــريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ قدم الزعماء والأعيان والموظفون السودانيون بتحريض وتوجيه من الإدارة البريطانية عرائض يبدون فيها خوفهم من حصول تغير فى إدارة السودان الحالية.

وأنـه لـن يسـمح بوقوع تبدل فى نظام السودان، أو بإجراء هذا التبدل دون إذن البرلمان الإنجليزى[١].

وأدى هـذا الإعلان لموجة من الاستياء فى مصر وفى السودان، وأعلن سعد زغلول باشا فى جلسة مجلس النواب فى ٢٨ يونيه ١٩٢٤ "إن الأمة لن تتنازل عن السـودان ما حييت وما عاشت، وأنها تسعى ولا تكف عن السعى بكل طريق سلكه مهضوم الحق لرد حقوقها" - ثم صرح باستعداده للتخلى عن الحكم، فقرر المجلس الـثقة التامة به وطلب إليه أن يبقى مشرفاً على أقدار البلاد، وفعل مجلس الشيوخ نفسى الشئ، ولما قدم استقالته للملك رفض الملك استقالة الوزارة.

وقـد قامت فى السودان بعض الجماعات تنادى بالوحدة مع مصر، نذكر منها (جمعية الاتحاد السودانى)، (وجمعية اللواء الأبيض)[٢].

وقـد قابلـت السلطات الإنجليزية هذه الحركات بمنتهى القسوة فقبضت على زعمائها، وأودعتهم السجون مما أدى لإثارة الاضطرابات بالسودان.

ففـى شهر أغسطس (١٩٢٤) تظاهر تلاميذ المدرسة الحربية فى الخرطوم، وأورطة السكة الحديدية بعطبرة احتجاجاً على حركات القمع والسجن التى تقوم بها السلطات بالسودان.

وقد احتجت الحكومة المصرية لدى الحكومة الإنجليزية على تصرفات الإدارة فـى السـودان، وطلبـت المبادرة إلى تشكيل لجنة مصرية سودانية لفحص الحالة وتحديـد المسـؤليات، والعمـل علـى تهدئة الخواطر حقناً للدماء - لكن كان رد الحكومة البريطانية:

"بـأن الحكومـة السـودانية لا تملـك سوى سحق المظاهرات التى يقوم بها الأشخاص غير المخلصين للنظام الحاضر فى السودان".

وفـى أثناء زيارة سعد باشا لإنجلترا فى سبتمبر وأوائل أكتوبر ١٩٢٤ أوضح سـعد باشـا للمستر ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية التعديلات التى لا يرى بداً من إدخالها فى الحالة الحاضرة فى مصر، ومنها حقوق مصر فى السودان.

وكـان تعلـيق ماكدونـالد علـى هـذا "إن معنى هذا إن الإخلاص من قبل السـودانيين فـى الجيش المصرى، ومن قبل المصريين المستخدمين فى السودان

١- غربال : المرجع السابق ص ١٣٩.

٢- سنشير فيما بعد الظروف قيام الجمعيتين ونشاطهما.

نحـــو الحكومة المصرية – أصبح فى ضوء تصريحات سعد باشا أمراً يختلف عن الإخلاص لإدارة السودان الحالية" .

وقـــد كـــان لهـــذه النظرة الإنجليزية تأثيرها فى تطور الأحداث مستقبلاً، فقد نظـــروا للمصريين المستخدمين فى السودان – على أنهم دعاة لنشر آراء الحكومة المصرية، وإن وجودهم فى السودان مصدر للخطر على الأمن العام.

وقد جاء فى الكتاب الأبيض البريطانى الذى نشر فى ٧ أكتوبر ١٩٢٤ – وهو نفـــس الـــيوم الذى غادر فيه سعد باشا لندن فى طريقة للقاهرة – ما يوضح سياسة الحكومة الإنجليزية تجاه السودان – فقد ذكر فيه :

"أما عن السودان، فالموقف كما يلى:

يظـــل الواجب العملى فى حفظ النظام فى السودان واقعاً على عاتق الحكومة البريطانـــية، وهـــى تتخذ جميع التدابير اللازمة لهذا الغرض، لأنها منذ ذهبت إلى هناك وضعت على عاتقها تعهدات أدبية بإتخاذ نظام إدارى جيد، فهى لا تسمح بأن يـــزول هـــذا الـــنظام – وهى تعد مسؤليتها وديعة فى يدها للشعب السودانى .. إن الحكومة البريطاينة لا ترغب فى مس الاتفاقات الحالية، لكن يجب عليها أن تصرح بـــأن الحالـــة الحاضـــرة الـــتى تسمح للموظفين الملكيين، والضباط العسكريين أن يـــتآمروا ضـــد الـــنظام المدنـــى – هى حالة لا تطاق فإذا لم يقبل النظام الحاضر بـــإخلاص، وإذا لم نسلم بوجوده إلى أن يوضع اتفاق جديد – فإن حكومة السودان تخل بواجباتها[١]".

ثورة ١٩٢٤ – دوافعها ونتائجها (بزعامة على عبد اللطيف)

تخـــتلف ثـــورة ١٩٢٤ فى السودان عن الحركات السابقة لها، فالقائمون بها كـــانوا من المثقفين السودانين، وكانت دعوتهم إلى الاستقلال التام للسودان ومقاومة إجراءات الإنجليز التى ترمى إلى تشديد قبضتهم على السودان وإقامة المشروعات – كمشروع الجزيرة – لخدمة مصالحهم الإقتصادية.

والـــثورة هـــى تطـــور طبيعى للتغيرات التى طرأت على المجتمع السودانى ونتيجة للأحداث المحلية والعالمية المحيطة به.

ويمكن أن نجعل العوامل التى أدت للثورة فيما يلى:

---

[1] غربال : المرجع السابق ص ١٥١ وما بعدها.

١- انتشار التعليم ونشأة طبقة مثقفة فى السودان:

فقد عمدت الإدارة الجديدة فى السودان بعد وفاق ١٨٩٩ لإيجاد موظفين من الكتبة المحليين وغيرهم لخدمة الإدارة فى الوظائف الكتابية بمرتبات تقل عن مرتبات الكتبة الأجانب، مع تجنب خلق طبقة مثقفة لا يمكن للإدارة أن توفر لها الوظائف الملائمة، ولذلك عمدت الإدارة لإنشاء بعض المعاهد فى مقدمتها المعهد الذى دعا كتشنر لإنشائه تخليداً لذكرى غوردون والذى تطور فيما بعد إلى (كلية غوردون التذكارية بالخرطوم) التى بدأت نشاطها فى ١٩٠٢.

هذا بالإضافة إلى المدارس الإبتدائية فى أم درمان والخرطوم، والمدرسة الصناعية فى أم درمان، ومدرسة تدريب المعلمين والقضاة بها، والمدارس الأولية والصناعية التى أنشئت بعد ذلك.

واصطبغ التعليم الجديد بالصبغة الأجنبية، فقد أستخدم عدد من خريجى الجامعات البريطانية للعمل بالمدارس.

هذا بينما نشطت الإرساليات التبشيرية فى التعليم بجنوب السودان[١].

وفى هذا المجال لابد من الإشارة إلى دور مصر الثقافى فى السودان برغم محاولة الإدارة بالسودان توجيه التعليم الدينى فى معهد أم درمان والخرطوم بهدف قطع الصلة بين الأزهر فى مصر وبين الطبقة المثقفة ثقافة دينية فى السودان فقد ظل الأزهر قبلة الراغبين فى مزيد من الثقافة الدينية من السودانين وغيرهم، كما كان للأساتذة المصريين الذين أضُطرت الإدارة السودانية للاستعانة بهم لتدريس اللغة العربية وغيرها فى السودان، والكتب المصرية، والصحف المصرية التى كان يتداولها المتعلمون السودانيون، والموظفون المصريون من مدنيين وعسكريين - دورها الفعال فى نشر الثقافة فى السودان.

وقد ساهمت بعض الهيئات المصرية فى إنشاء مدارس لها بالسودان . ففى عام ١٩١١ أنشئت الكلية القبطية للبنين فى الخرطوم وكان عدد كبير من طلبتها من السودانين بالإضافة إلى ابناء الموظفين المصريين فى السودان.

وقد أسفرت حركة الثقافة فى السودان عن إنشاء ناد خاص للمثقفين السودانين (نادى الخريجين) بأم درمان الذى برزت فكرته فى عام ١٩١٣ ثم ظهر فى الوجود فى عام ١٩١٨ - وقد ساهم هذا النادى فى توحيد صفوف الصفوة

١- أنظر محمد بشير : تطور التعليم فى السودان ١٨٩٨ - ١٨٥٦ (ترجمة هنرى رياض وآخرين).

المثقفين السودانين فأخذوا يلعبون دوراً واضحاً فى توجيه التيارات السياسية فى بلادهم وانتزعوا قيادة الحركات الشعبية من يد الزعماء القبليين والدينين الذين أرتموا فى أحضان السلطة البريطانية.

٢- الحرب العالمية وآثارها:

لقد أيقظت الحرب العالمية الأولى مشاعر العديد من الشعوب المغلوبة على أمرها، سواء بما قدمته هذه الشعوب من تضحيات فى الحرب أو ما وعدت به الدول المتحاربة أثناء الحرب – الشعوب، وما نادت به من مبادئ عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها[١]، وما ترتب على هذه الحرب من قيام منظمة دولية (عصبة الأمم) وما جاء فى ميثاقها من مبادئ تنصف الشعوب المعتدى عليها.

ولذلك كان طبيعياً أن يتطلع الوطنيون السودانيون بعد الحرب – لنيل حقوقهم كسائر شعوب العالم.

٣- انتقال آثار ثورة ١٩١٩ فى مصر إلى السودان:

كان لثورة ١٩١٩ فى مصر، ومناداة المصريين باستقلال مصر والسودان، وموقف السلطات البريطانية من القواد والثوار – آثارها العميقة فى السودان.

فقد بدأت إنعكاسات الثورة تظهر فى السودان، فى المجتمع المصرى فى السودان أو فى المجتمع السودانى المثقف – وضح ذلك جليا فى مظاهرات الاحتجاج ضد السلطات البريطانية وأساليبها، كما وضح فى الجمعيات السرية ثم العلمية التى أخذت تهاجم بريطانيا وسياستها وتكشف أطماعها فى مصر وفى السودان، وقد وضح بجلاء موقف بريطانيا من السودان والدور الذى رسمته السياسة البريطانية له من خلال المفاوضات المصرية البريطانية.

وفى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى تحفظت فيه بريطانيا بخصوص وضع السودان. وبالطبع كان هذا من العوامل التى لفتت أكثر أنظار المثقفين والوطنيين السودانيين للاطماع البريطانية فى بلادهم.

٤- مشروع الجزيرة:

كان مشروع الجزيرة بالسودان – موضع نقد كثيرين من المثقفين السودانين – فقد نظروا نظرة ريبة وشك للمشروع وما ارتبط به من إنشاء خزان سنار، وقوانين

١- مبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر.

أرض الجزيـرة التى أدت لنزع ملكية الأراضى التى يحتاجها المشروع والأعمال المرتـبطة بـه، والشركة الزراعية البريطانية السودانية التى أنشئت للمشاركة فى الخدمـات اللازمة للمشروع وتوجهه ناتج المشروع لصالح مصانع الغزل والنسيج البريطانية فى لانكشير.

وهكـذا أصـبح هذا المشروع فى أنظار المثقفين السودانيين – الاستغلال البشع للاقتصاد السودانى لصالح الاقتصاد البريطانى.

٥- إرتماء القيادات الدينية والقبلية فى أحضان الإدارة البريطانية:

فقـد نجحـت الإدارة البريطانية فى اجتذاب هذه القيادات إلى جانبها حتى أنه عـندما قامـت الحـرب العالمـية الأولى عام ١٩١٤ بعثت هذه القيادات ببرقيات وعـرائض لحـاكم السـودان تعـرب عـن الـولاء لحكومة السودان وللحكومة البريطانية[١] وتكرر نفس شئ عندما قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩.

ولعـل الدافـع الـذى دفع هذه القيادات لأن تتجه هذا الاتجاه – بالإضافة إلى إغـراء بريطانـيا وسلطاتها بالسودان – أنها رأت أن مصلحتها الحقيقية تتمثل فى بقاء الإدارة البريطانية، وأن ظهور طبقة مثقفة سودانية يوجد منافساً خطيراً لها.

ولعـل وضـع هـذه الزعامات الدينية والقبلية وموقفها من الإدارة البريطانية وسياسـة هـذه الإدارة تجاه هذه الزعامات تتضح من تشكيل الوفد الذى ذهب إلى لـندن عقب الحرب الأولى لتهنئة ملك بريطانيا بالنصر فى الحرب والترتيبات التى علقـت بسفر الوفد واستقباله والبرنامج الذى وضع لزياراته فى إنجلترا – فقد ضم هذا الوفد الزعماء الدينين من أمثال السيد على الميرغنى زعيم الختمية، والسيد عبد الرحمـن المهـدى زعـيم الأنصار، والشريف يوسف المهدى زعيم إحدى الطرق الصوفيه، بالإضافة إلى عدد آخر من الرؤساء الدينيين وزعماء القبائل والعشائر – ولـم يشـترك فـى الوفـد أى ممـثل للطبقة المثقفة التى بدأت تبرز فى المجتمع السودانى[٢].

ويتضح اتجاه هذه القيادات الدينية والقبلية، واتجاهها لتنفيذ السياسة البريطانية الـتى رسمت لها – من سعى هذه الزعامات ونجاحها فى إحتواء صحيفة (حضارة السـودان) التى أنشئت فى عام ١٩١٩ بهدف معالجة القضايا الإجتماعية والمشاكل

١- عرفت هذه المجموعة من البرقيات والعرائض باسم (سفر الولاء).

٢- سليمان كشه : وثيقة السودان الأولى ص ٩ وما بعدها.

المحلية فى السودان – وبعد أن آلت ملكية الصحيفة للزعامة الدينية واتباعها صدر العدد الأول فى ٢٤ يوليو ١٩٢٠ وفى افتتاحيته لسياسة الصحيفة الجديدة التى تدعو للـــولاء للإدارة بالسودان. ومن يتتبع مقالات الصحيفة فى أعدادها المتتالية بعد ذلك لا يخامره شك فى الدور الذى رسم لها.

ويرتبط بموقف رجال الدين ذلك الاجتماع الذى عقد بمنزل السيد عبد الرحمن المهـــدى يـــوم ١٠ يونـــيو ١٩٢٤ بهدف إعلان الولاء لبريطانيا وإبداء الرغبة فى الحكـــم البريطانى المنفرد، وانتهى الإجتماع بجمع توقيعات السودانيين لتأييد الدعوة إلى إخراج المصريين وإنفراد البريطانيين بحكم السودان.

وقـــد أدى هـــذا الاجـــتماع ومـــا اتضح من أهدافه إلى إثارة سخط المثقفين الســـودانيين مما دفع أعضاء جمعية اللواء الأبيض للدعوة لمقاومة المطالبين ببقاء بريطانيا فى السودان، وجمع التوقيعات والعرائض الرافضة للحكم البريطانى.

٦- تولـــى وزارة وطنـــية فى مصر الحكم فى عام ١٩٢٤ وافتتاح أول برلمان مصرى وما أثير فيه حول وضع السودان:

كان لتولى وزارة سعد الحكم فى ظل النظام النيابى، وما جاء بخطاب العرش عـــند افتـــتاح الـــبرلمانى المصرى من عزم الحكومة على تحقيق الأمانى القومية لمصـــر والســـودان، وما جاء فى مناقشات البرلمان المصرى عن السودان وانتقاد أعضـــاء الـــبرلمان لسياســـة السلطات البريطانية فى السودان – أثره فى الحركة الوطنـــية الســـودانية . ولعـــل ذلك يظهر فى البرقيات التى أرسلها أعضاء جمعية اللواء الأبيض السودانية للبرلمان المصرى بالقاهرة وللحاكم العام[١].

الحركة الوطنية السودانية المراحل التى مرت بها حتى ثورة ١٩٢٤:

١- الجمعيات السرية:

لجـــأت الإدارة البريطانـــية – كمـــا ذكـــرنا سابقاً – إلى وأد الحركات التى تعارضها فى مهدها، وإن كانت قد استطاعت أن تحتوى الزعماء الدينيين والقبليين – لكـــن لم تغب عنها هذه القوة الجديدة – قوة المثقفين والوطنيين السودانيين – فقد كانـــت المخابرات البريطانية تعمل بنشاط لترصد حركات كل من حاول أن يجهز

١- أنظر :

Central Records Office, Karthoum, Intel. 61/9/29. Sudan Monthly Intelligence, Report No. 356 and 359.

بــرأيه منهم، ونجحت فى أن تحرمهم من نشر آرائهم الحرة فى صحيفة (حضارة السودان).

ولذلــك كان من الطبيعى أن تلجأ القوى الوطنية إلى أسلوب النشرات السرية تعبر فيها عن رأيها وتتبارى به سراً.

ومــن هــذه المنشــورات التى انتشرت على نطاق واسع منشور وقع باسم؟ (وطــنى ناصح أمين)، وقد هاجم هذا المنشور الإدارة البريطانية والمتحالفين معها وانتقد سياسة بريطانيا ومشروعاتها فى السودان . والدليل على مالقيه هذا المنشور مــن انتشار وذيوع أن السلطات البريطانية أوعزت لصحيفة (حضارة السودان) أن تقوم بنقد ما جاء فى المنشور فى مقالات متعددة[١].

وقــد تطور الأمر فاتخذ شكل تجمعات بدأت فى شكل (جمعيات أدبية) فى أم درمــان وغــيرها، وكان لخريجى كلية غوردون دور فى هذا النشاط الأدبى الذى اتخــذ فى البداية الشكل الثقافى ثم تطور للعمل السياسى متمثلاً على الخصوص فى (جمعية الاتحاد السودانى) و (جمعية اللواء الأبيض).

٢- جمعية الاتحاد السودانى :

لا يمكــن أن نحدد بالضبط متى بدأ نشاط هذه الجمعية، لكن يمكن القول بأنه مــنذ بدايــة عام ١٩٢٠ كانت هذه الجمعية قد أخذ نشاطها كحركة وطنية قائدة - يظهر.

ويعطــى (سـليمان كشه) - الذى كان من الأعضاء المؤسسين للجمعية - صورة لظروف تكوين الجمعية وأعضائها ونشاطها، ونظام الخلايا الذي كانت تتكون منه[٢].

وكان هدف الجمعية كما أعلنته هو تحرير كل من مصر والسودان من النفوذ البريطانــي، وقــد وضع نظام دقيق لإختيار أعضاء الجمعية، وتعددت فروعها في أنحاء السودان، ولم يكن لها في البداية رئيس عام بل كانت القيادة مسئولية مشتركة بين رؤساء الخلايا المتعددة.

١- جريدة حضارة السودان العدد ١٦ (١٣ نوفمبر ١٩٢٠).

والعدد ١٧ (٢٠ نوفمبر ١٩٢٠)

٢- سليمان كشة: وثبة السودان الأولي - أسرار وثائق تاريخية.

- قام الدكتور محمد أنيس بدراسة مستفيضة لتشكيلات هذه الخلايا ونظامها.

محمد أنيس: حركة اللواء الأبيض بعد ٥٠ عاماً في السودان ومصر (صحيفة الأهرام القاهرية - ٢٩ فبراير ١٩٧٣)

وبعـد صـدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نشرت الجمعية وثيقة (مطالب الأمـة السـودانية) بتوقيع علي عبد اللطيف، وتوالت بعد ذلك المنشورات التي تهـاجم بريطانيا وإدارتها في السودان – وأدي هذا لمحاكمة الضابط السوداني علي عبد اللطيف في ١٤ يونيو ١٩٢٢ وحكم عليه بالسجن لمدة عام وفصل من الجيش.

ومـنذ نوفمـبر ١٩٢٢ بدأت الجمعية تعمل بصورة علنية، فنشرت الصحف المصـرية أنـباء تكويـن الجمعـية وأعضـائها وأهدافها، ومع ذلك فقد أستمرت المنشـورات السرية التي كانت تعبر فيها عن أرائها ونقدها للإدارة والأحداث التي تجري بالسودان.

وهكـذا قادت هذه الجمعية النضال الوطني في هذه الفترة من تاريخ السودان وأدي تطـور الحـداث بعد ذلك إلي تغلب العناصر التي كانت تدعو للعلنية الكاملة لنشـاط الجمعـية ولإستخدام العنف في مقاومة الإدارة البريطانية. ويتمثل هذا في ظهـور (جمعـية اللواء الأبيض). ويمكن القول إن جمعية الاتحاد السوداني تكلفت بخلق رأي سوداني عام واع مهد للعمل الثوري فيما بعد.

٣- جمعية اللواء الأبيض[1]:

تعتـبر جمعـية اللواء الأبيض إمتداداً لجمعية الاتحاد السوداني، بل إن بعض العناصر اشتركت في الجمعيتين.

ولا يمكـن أن نحـدد تاريخاً معيناً كبداية لنشاة الجمعية، فإن كافة نشاطها قد برز بوضـوح فـي عـام ١٩٢٤ – إى أن مجريات الأحداث تدل علي أنه بدأ قبل ذلك أي حوالي عام ١٩٢٠. وكان نشاطها في البداية – كنشاط جمعية الاتحاد السوداني – علي هيـئة سـرية ثـم انـتقل هذا النشاط إلي العلنية بنشر آرائها في الصحف المصرية (الأخبار القاهرية، الأهرام...) وبإرسال العرائض للمختصين في مصر والسودان.

وقـد دخل في عضوية الجمعية الآلاف من العسكريين السودانيين والموظفين والمثقفين، وكانت العضوية قاصرة علي السودانين.

وقـد حـددت أغـراض الجمعـية في المطالبة بحقوق السودانيين في بلادهم والوحدة مع المصريين في كيان واحد، ورفض الوجود البريطاني.

١- صحيفة الأهرام ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢

سليمان كشة: مرجع سابق ص ٢٣.

ورأســت الجمعــية لجنة قيادية خماسية علي رأسها (علي عبد اللطيف) وهو من والــد من جبال النوبا وأم دنكاوية. ولد في حلفا عام ١٨٩٢ وبعد إتمام تعليمه الابتدائي التحق بالمدرسة الحربية بالخرطوم، وكان ضمن قوات الخليفة عبد الله التعايشي – لكنه أنضــم للجيش المصري بعد استرداد الخرطوم، ووصل إلي رتبة نائب مأمور، وعرف عنه كثرة اصطدامه بكبار الضباط البريطانيين الذين عمل معهم.

وقــد انضم لجمعية الاتحاد السوداني، وفي مايو ١٩٢٢ نشرت جريدة الأخبار القاهــرية منشوراً بتوقيع علي عبد اللطيف معبراً عن مشاعر وآراء الجيل الجديد مــن المثقفيــن الســودانيين طالب فيه بأن يكون حكم السودان لأهله – وقد عرف المنشور باسم (وثيقة مطال الأمة السودانية) فقبض علي (علي عبد اللطيف) بتهمة إذاعــة منشــور يثير الكراهية ضد الحكومة ويحرض علي العمل ضدها – وحكم عليه بالسجن لمدة عام. وقد أثار ذلك ثائرة الوطنيين في مصر والسودان.

وبعــد خــروج علي عبد اللطيف من سجنه في عام ١٩٢٣ تكتل حوله عدد كبير مــن الوطنييــن للعمــل علانية علي مقاومة السياسة البريطانية في السودان ورغم أن عضــوية جمعية اللواء الأبيض قد اقتصرت – كما قلنا – علي السودانيين – فقد كانت هــذه الجمعية تلقّي تأييداً من عدد كبير من المصرين بل ومن الأحزاب المصرية حتي تردد أن هناك اتصالا بين الحزب الوطني المصري وبين جمعية اللواء الأبيض.

وكانــت زيارة (حافظ رمضان) زعيم الحزب الوطني المصرى للسودان عام ١٩٢٣ ذريعة أتخذها البعض للربط بين الحركتين[١].

علــي أن الدراسة الدقيقة وتقارير المخابرات البريطانية في السودان أثبتت أن جمعــية اللــواء الأبــيض وأعضــائها الذين يبلغون ١٥٠ عضواً بقيادة علي عبد اللطــيف، والمتعاطفيــن معهــا مــن ضباط الجيش العاملين والسابقين، والعمال، والــتجار، والطلبة، والقضاة، والمدرسين، ونواب المأمير وغيرهم من فئات الطبقة المــتعلمة السودانية – قد تزعموا حركة المطالبة بحقوق السودانين في إدارة وحكم بلادهــم. فحركة اللواء الأبيض حركة سودانية لحماً ودماً، لكنها كانت تعمل لخدمة المصالح السودانية بالتعاون مع الوطنين بمصر.

ولعــل زيــارة زعــيم الحزب الوطني المصري للسودان كانت بمثابة تنسيق وتبادل للرأي بين الطرفين[٢].

١– أنظر مقال الدكتور محمد أنيس بجريدة الأهرام الذي أشرنا إليه من قبل.

٢– أنظر مقال الدكتور محمد أنيس بجريدة الأهرام الذي أشرنا إليه من قبل.

وتـــرجع تســـمية الجمعية بجمعية (اللواء الأبيض) إلي انها اتخذت شعاراً لها علمـــاً من القماش الأبيض رمزاً للسلام رسمت عليه خريطة لوادي النيل من منبعه إلـــي مصـــبه – رمزاً لوحدة شعبي مصر والسودان – وفي أعلي اليسار من العلم رسم هلال ضمير، وكان المتظاهرون يرفعون هذا الشعار.

ويعتـــبر النصـــف الثاني من عام ١٩٢٤ فترة حاسمة في تاريخ حركة جمعية اللـــواء الأبيض السودانية وطريقة كفاحها، وموقف الإدارة البريطانية نفسها خاصة بعد أن أنفردت بريطانيا بالحكم في السودان كما سنري بعد.

أحداث عام ١٩٢٤ بالسودان ونتائجها[١]:

تعدد المظاهرات والاصطدامات بين الوطنيين السودانيين والسلطة الحاكمة في السودان في عام ١٩٢٤م.

وقـــد تحولـــت المظاهرات إلي اصطدام مسلح اشتركت فيه وحدات عسكرية سودانية.

ومن أبرز هذه الأحداث:

أ – أحداث يونيو عام ١٩٢٤:

ففي هذا الشهر بالذات تعددت المظاهرات في أم درمان والخرطوم.

ففـــي أم درمـــان قامت مظاهرة صاخبة عرفت (بمظاهرة المقابر) إثر تشييع جـــنازة أحد الضباط المصريين (عبد الخالق حسن) وكان مأموراً لمركز أم درمان وكان محبوباً من السودانين. وقد قاد المظاهرة الشيخ عمر رفع الله الجعلي فقبضت عليه السلطات الحاكمة وحكم عليه بالسجن ثلاثة شهور.

وفـــي الخـــرطوم قامت في يوم الجمعة ٢٠ يونيو ١٩٢٤ مظاهرة إثر خطبة (للشيخ حسن الضرير) خطيب جامع الخرطوم فقبض عليه وأعفي من عمله. ورغم أن الســـلطات الحاكمـــة فـــي السودان أصدرت أمراً بمنع المظاهرات فقد تتابعت المظاهـــرات بعـــد ذلك وقابلتها الإدارة البريطانية بالقهر، وكانت هذه المظاهرات مخططـــاً لها بدقة ويتزعمها في كل مرة عضو من الأعضاء البارزين من جمعية اللـــواء الأبـــيض، وعمـــت هذه المظاهرات مختلف مدن السودان وتعقبتها الإدارة البريطانـــية، ونجحت بعد تفتيش منازل زعماء اللواء الأبيض المقبوض عليهم في

١– للدراسة التفصيلية للأحداث التي وقعت في عام ١٩٢٠ – أنظر:

حـــلمي جرجس غبريال (دكتور): موقف الإدارة في السودان من الحركة الوطنية خلال الحربين العالميتين (رسالة دكتوراه غير منشورة)

معــرفة الكثــير مــن أسرار هذه الجمعية والأعضاء المنضمين اليها فعملت بكل الوســائل لتصــفيتها والتنكــيل بأعضائها وكانوا من مختلف الطبقات من موظفين مدنيين وعسكريين وغيرهم من الشباب السوداني المثقف[١].

ب- مظاهرة طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم (أغسطس ١٩٢٤):

يعتــبر قيام طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم بمظاهرة في ٩ أغسطس ١٩٢٤ بالســلاح وخــروجهم من المدرسة وطوافهم بالمدينة بهذا الشكل – حدث له أهمية خاصة رغم أن عددهم لم يتجاوز ٥١ طالباً.

وتشــير تقارير المخابرات إلي القلق الذي أصاب السلطات بالخرطوم من هذا الــتطور. وقد ذكرت أن الطلبة كانوا ينتظرون أن تنضم اليهم القوات المصرية في أم درمــان والخرطوم بحري. وقد انتهت المظاهرة بتسليم الطلبة أسلحتهم للأورطة الــرابعة المصــرية وعودتهــم لمدرستهم حيث قبضت عليهم السلطات البريطانية وشــكلت هيــئة محكمــة عسكرية لمحاكمتهم وصدرت عليهم أحكاماً بالسجن لمدد طويلة، وأغلقت السلطات البريطانية المدرسة الحربية[٢].

ج- مظاهرة فرق السكك الحديدية بعطبرة (٩ أغسطس ١٩٢٤):

كانــت هذه المظاهرة في نفس اليوم الذي قامت فيه مظاهرة المدرسة الحربية السابق الإشارة إليها.

وظــروف قــيامها ترجع إلى إعتقال السلطات البريطانية لوكيل جمعية اللواء الأبيض فى بورسودان (صالح عبد القادر) وترحليه إلى الخرطوم. فقد كان وقوف القطــار المقل لهذا الثائر بمحطة عطبرة فرصة لتعبير رجال فرق السكك الحديدية فــى مركزهم الرئيسى بعطبرة ومن أنضم إليهم من المواطنين عن مشاعرهم. وقد وصــلت قــوة وعــنف هذه المظاهرة لدرجة أن الإدارة اضطرت لإستدعاء قوات بريطانيا من الخرطوم وشندى لمواجهتها.

وأطلقت هذه القوات الرصاص على المتظاهرين مما أدى لتعدد الإصابات[٣].

وقــد لجــأت الإدارة البريطانية بعد ذلك لمحاكمة الثوار، ثم اتخذت خطوات آخــرى لإجــلاء فرق السكك الحديدية من السودان وإبعادهم لمصر، لأنها وجدت تجمعهم فى عطبرة أو غيرها من مدن السودان تهديداً لها.

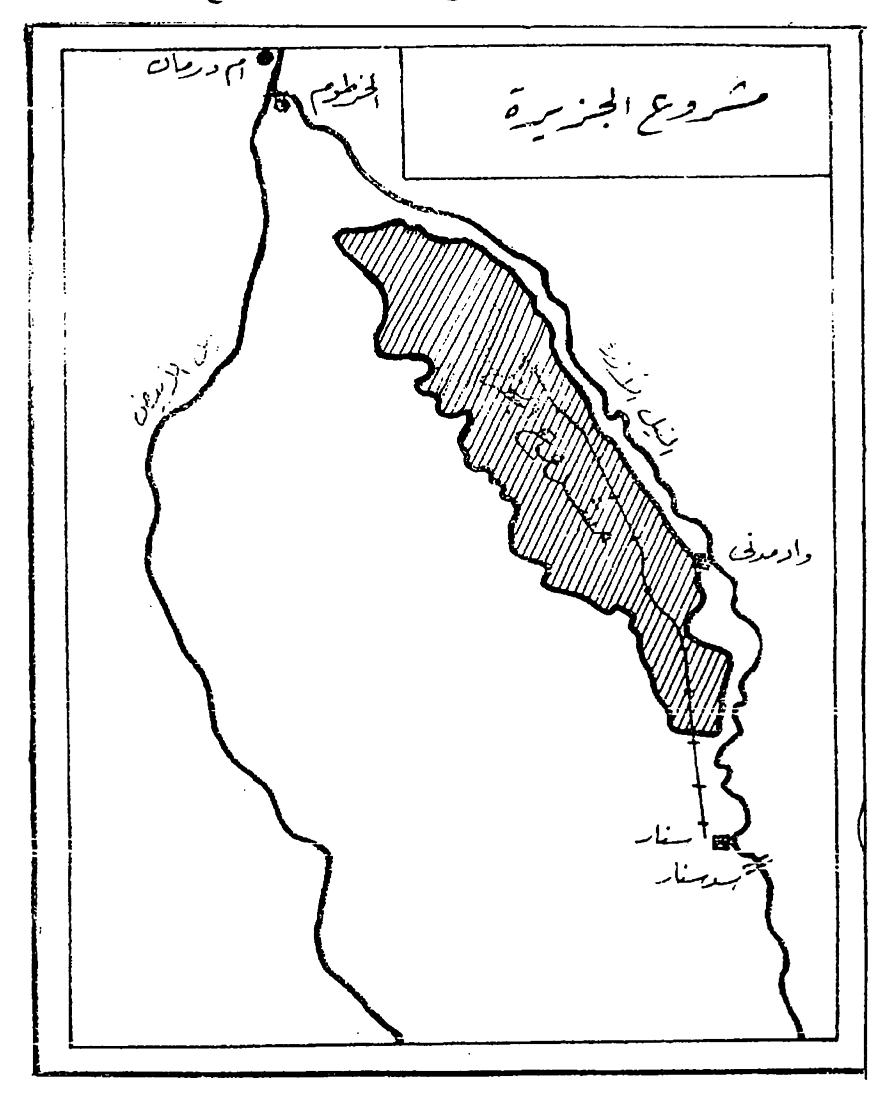
١- يونان لبيب رزق: أضواء جديدة علي ثورة ١١٢٤ السودانية (مجلة الهلال يناير سنة ١٩٦٨)

٢- صحيفة الأخبار: العدد ١٤٠٦ (٢٧ سبتمبر ١٩٢٤)

٣- صحيفة المقطم : تسريح أورطة السكك الحديدية (٢٣ أغسطس ١٩٢٤)

وإزاء هــذه الأحداث المتتالية أصدرت الإدارة البريطانية منشوراً مشدداً بمنع موظفى الحكومة من الاشتراك فى الأنشطة السياسية، ونشرت عيونها وجواسيسها لتعقــب كل من يظهر تعاطفاً مع الحركة الوطنية سواء من المدنيين أو العسكريين السودانين أو المصريين، وعمدت السلطات البريطانية – مستندة على هذه الأحداث – لإلغاء الوجود المصرى فى السودان.

فــأخذت تستبعد بالتدريج العاملين المصريين من مدنيين وعسكريين إلى أن تم لها تنفيذ مخططها كاملا بعد مقتل السيرلى ستاك – كما سنوضح بعد.

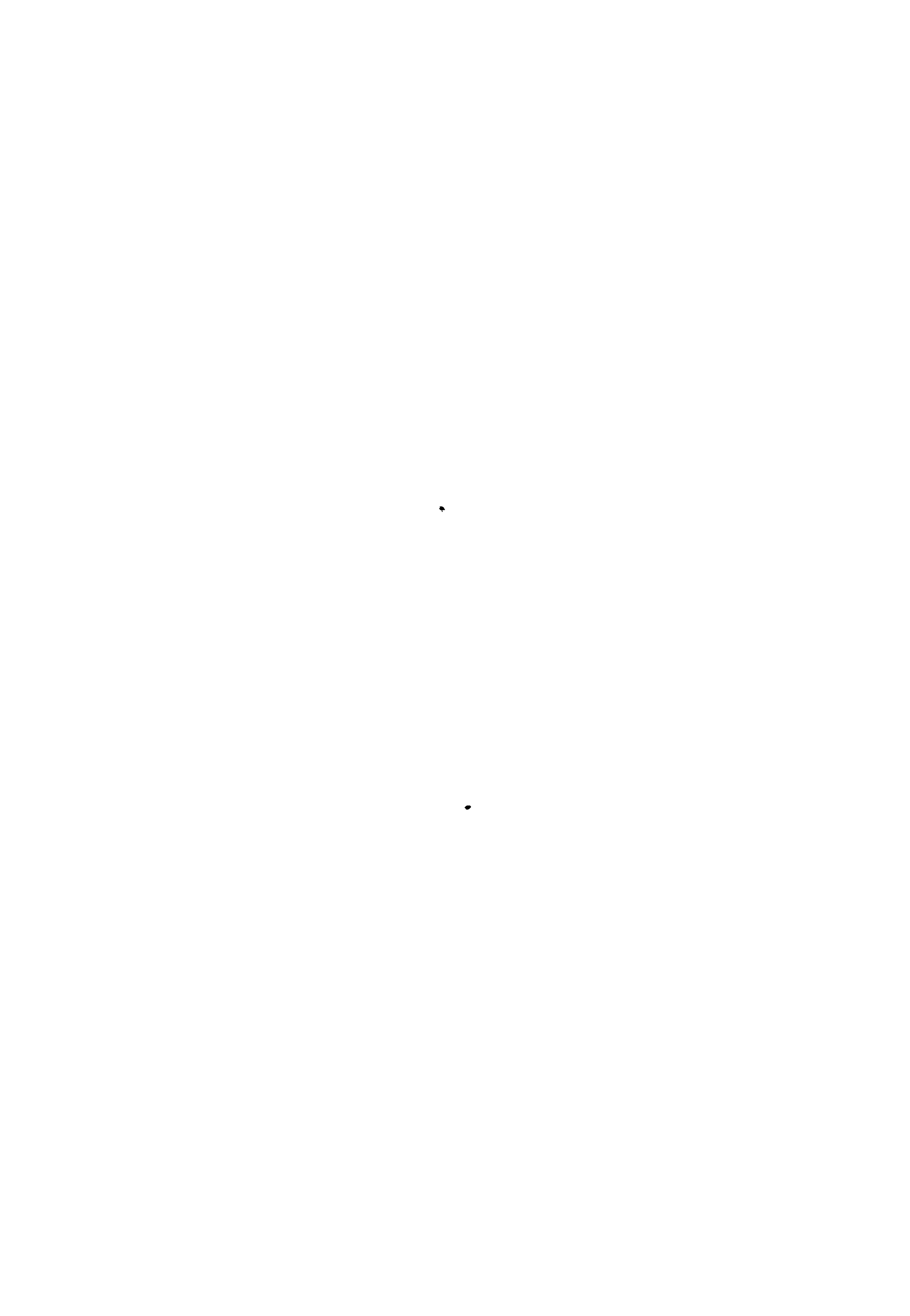




٩

الفصل التاسع
انفراد إنجلترا بإدارة السودان
(١٩٢٤-١٩٣٦)

- الاستعمار البريطانى واستقالة وزارة سعد زغلول.
- تأليف زيوار باشا الوزارة الجديدة وقبول طلبات بريطانيا.
- الأحـداث الـتى ترتبت على إبعاد الجيش المصرى والموظفين المصريين من السودان.
- الإدارة البريطانية فى السودان خلال فترة الانفراد بالحكم.
- السيد جيفرى حاكما عاما للسودان.
- تشكيل قوة الدفاع لسودانية.
- الخزانة المصرية تستمر فى سد العجز فى ميزانية السودان.
- قمع الحركات المعارضة للنظام الجديد.
- تدعيم السلطات القبلية.
- سياسة إنجلترا تجاه جنوب السودان.
- السياسة الإقتصادية للإدارة البريطانية.
- مشروع الجزيرة - التوسع فيه وأهدافه.
- المفاوضات المصرية البريطانية خلال تلك الفترة.



الفصل التاسع

انفراد إنجلترا بإدارة السودان (١٩٢٤-١٩٣٦)

مـن الخطـأ الاعـتقاد بأن الخطوات والسياسة التى اتخذتها إنجلترا للأنفراد بـالحكم فى السودان عقب اغتيال السردار السيرلى ستاك – الذى حدث عقب ظهر يـوم الأربعـاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ بإطلاق الرصاص عليه عند عودته من وزارة الحربية بالقاهرة – ترجع لهذا الحادث فحسب. فمن المؤكد أن إنجلترا كانت – قبل الحـادث – تدبـر أمـراً فـى السودان، وكانت تتحين الفرصة المناسبة لوضع ما اعتزمت عليه موضع التنفيذ، فكان الحادث هو الفرصة المرتقبة التى وفرت المناخ المناسب للتنفيذ.

وقـد شرح اللورد لويدت نيات إنجلترا وما كانت تبيته بوضوح إذ قال : "إن ولاة الأمـور فـى السـودان أدركوا منذ عدة سنوات أن المهيجين المصريين لن يعـتمدوا لإثـارة الـتمرد فى السودان على دعاة ورسل يوفدونهم من مصر – بل سيكون اعتمادهم على المصريين المقيمين فى السودان من مدنيين وعسكريين.

وهـؤلاء يسهل عليهم أن يبعثوا دعوتهم فى الجنود السودانيين، فهؤلاء الجنود علـى الفطرة، متعصبون ويشق عليهم أن يفهموا معنى الولاء لدولتين، وضباطهم إمـا مصريون وإما إنجليز – وقد عرف الضباط المصريون كيف يثيرون جنودهم السذج ويملأون أدمغتهم بقصص خيالية عما يضمره لهم الإنجليز فى المستقبل[1].

وهكذا كانت إنجلترا تتوجس خيفة من وجود مصريين وعسكريين فى السودان وتأثـيرهم علـى السـودانيين الذين يرتبطون معهم بروابط مختلفة، روابط الجنس واللغـة والدين والمصالح المشتركة، والروابط التى امتدت عبر عصور التاريخ . ولـذا كان الحل للحفاظ على مصالح إنجلترا فى السودان هو إبعاد المصريين عن المسرح.

وقـد قـام المسـتر تشمبرلن (Chamberlain) وزير خارجية بريطانيا فى وزارة المحافظيـن الجديـدة – فى يوم ١٩ نوفمبر بإبلاغ السكرتير العام لعصبة الأمـم، أن إنجلـترا تخشـى من قبول مصر للوثيقة المعروفة باسم (بروتوكول

١- لورد لويد : مصر منذ عهد كرومر جـ٢ ص ١٣٣ وما بعدها.

وعزبال : مرجع سابق ص ١٥٤.

جنيف) التى تقضى بتسوية الخلافات الدولية بالوسائل السلمية والتى تقرر ألا يقتصر توقيعها على الدول الأعضاء فى العصبة فقط بل على جميع الدول، فقد أدركت إنجلترا أن توقيع مصر على هذا البروتوكول – يتيح لمصر أن تستخدم سلاحاً دولياً إحقاقاً أو دفعاً للعدوان عليها فتطلب تدخل عصبة الأمم لتسوية الخلافات بينها وبين إنجلترا – خاصة بعد عودة سعد زغلول لمصر بعد إخفاق مفاوضاته مع الإنجليز[1].

وفى نفس اليوم الذى أُرسلت فيه هذه المذكرة (١٩ نوفمبر ١٩٢٤) أغتيل سردار الجيش السيرلى ستاك فى القاهرة.

وقد أعلن الملك فؤاد والحكومة المصرية أسفهما الشديد على وقوع هذا الحادث، وأهتمت الحكومة بضبط مرتكبيه . وفى البداية إتجه التحقيق تجاه إتهام السودانيين المقيمين فى مصر – وخاصة أعضاء اللواء الأبيض – بتدبير الحادث واستمر التحقيق فى هذا الاتجاه قبل أن تكتشف جماعة شفيق منصور الفدائية ودورها فى الحادث[2].

وقد وجه المندوب السامى البريطانى (اللورد اللنبى) فى الحادث فرصته للتعبير عما كان بينه وبين رئيس الحكومة المصرية – سعد زغلول – من خلافات – ففى يوم السبت ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ تحرك المندوب السامى فى مظاهرة عسكرية نحو دار الرياسة، واستقبله الرئيس، وقرأ المندوب السامى إنذاراً بمطالب الحكومة الإنجليزية، وسلم الرئيس نسخة منه، وعاد إلى قصره.

وفى هذا الإنذار الذى صيغت عباراته بطريقة فيها إهانة لمصر ولحكومتها – تُحمل الحكومة الإنجليز – الحكومة المصرية المسئولية عن الجريمة وتصفها بالعجز عن حماية أرواح الأجانب . أما طلبات الحكومة البريطانية فى الإنذار فتتلخص فى الاعتذار الكافى، ومواصلة البحث عن الجناه، وإنزال العقاب الشديد بهم بغض النظر عن أشخاصهم أو سنهم، وحظر المظاهرات الشعبية وقمعها، ودفع تعويض نصف مليون جنية، وإصدار الأوامر فى خلال أربع وعشرين ساعة بإرجاع جميع الضباط والوحدات المصرية من السودان، وتبليغ المصلحة المختصة بأن حكومة السودان ستزيد مساحة الأطيان التى تزرع فى أرض الجزيرة إلى

١- أنظر ارنولد توينى : دراسة الشئون الدولية لسنة ١٩٢٥ – المجلد الأول ص ٢١٢.

٢- يونان لبيب : الحقيقة التاريخية وراء حادثة السردار.

(مجلة الهلال – عدد ٩ سبتمبر ١٩٦٨ ص ٨٧ وما بعدها)

أقصـــى حد ممكن، والعدول عن كل معارضة لرغبات حكومة إنجلترا فى الشئون المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية[1].

وقد قبلت وزارة سعد باشا بعض المطالب . فقبلت أن تقدم إعتذاراً، وأن تدفع الغرامة، ووعدت بتعقب الجناة ومحاكمتهم، ومنع كل مظاهرة شعبية تخل بالنظام، ورفضت باقى الطلبات.

وكـــان رد اللورد اللنبى : إنه إزاء رفض الحكومة المصرية الطلبات الخاصة بالســودان فإنـــه أرسل تعليماته إلى حكومة السودان بإخراج جميع وحدات الجيش المصـــرى مـــن الســـودان وأطلـــق يد الحكومة فى زيادة المساحة التى تروى فى الجزيـــرة إلـــى مقـــدار غير محدود . وقد أحتجت وزارة سعد باشا على تصرفات الحكومة الإنجليزية وأرفقت بردها تحويلا بمبلغ الغرامة.

وقدم سعد زغلول باشا استعفاء وزارته يوم ٢٣ ١٩٤٤ وقبلها الملك فى نفس الـــيوم . واجـــتمع مجلسا البرلمان فى مساء ٢٤ نوفمبر، وأعلن سعد باشا استعفاء وزارته، وقرر المجلس الإحتجاج على التصرفات الإنجليزية المنافية لحقوق البلاد، لمـــا فيها من إعتداء على أستقلالها وتدخل في شئونها، وعبث بدستوردها، وتهديد لحـــياة الـــبلاد الزراعـــية والاقتصادية، فضلاً عن أن هذه الإعتداءات ليس لها أى علاقة بالجريمة ولا نظير لها فى التاريخ.

وأعلـــن البرلمان تمسكه بالاستقلال التام لمصر والسودان اللذين يكونان وطناً واحـــداً لا يقبل التجزئة . وتقرر إبلاغ الإحتجاج إلى برلمانات العالم، وإلى مجلس عصبة الأمم.

وقـــد ألقـــى تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا بياناً فى إجتماع مجلس العصبة ذكـــر فـــيه أن ما حدث فى مصر لا تنطبق عليه نصوص عهد جمعية الأمم التى تسمح بتدخل الجمعية.

١- غربال : مرجع سابق ص ١٥٧، ١٥٨

ملاحظة:

لم تقر الحكومة البريطانية اللنبى على بعض الفقرات الواردة فى الأنذار، لكنه تجاهل حكومته وقدم الانذار للحكومة المصرية كما وضعه هو – وقد دعا ذلك وزير الخارجية البريطانى لأن يوفد لدار المندوب السامى رجلا من رجال الوزارة هو (تقبل هندرســـون) ليكون بجانب اللورد اللنبى – وترتب على هذا أن استقال اللورد اللنبى وقبلت استقالته، لكن أرجئ تنفيذها للموعد مناسب، وحل محلة اللورد (لويد) وهو من حكام الهند سابقاً وم غلاه الاستعماريين.

وبعد استعفاء وزارة سعد زغلول ألف زيور باشا رئيس مجلس الشيوخ وزارة جديـدة كانـت مهمتها تسوية الموقف المترتب على الإنذارات الإنجليزية وقد قبلت هذه الوزارة الطلبات الإنجليزية[١].

وفـيما يتعلق بالسودان – فقد أوفدت الحكومة المصرية رسولاً خاصاً للجيش المصـرى بالسودان، للإنسحاب بلا مقاومة، بعد أن رفض قواده الجلاء بناءًا على أمر نائب السردار، لكن – كما سنوضح – فقد ثارت بعض الفرق السودانية تضامناً مـع الجـيش المصرى واشتبكت مع الجنود الإنجليز فى القتال واستشهد من أبناء السـودان أبطـال مـنهم من قتل فى الإشتباك مع الإنجليز، ومنهم من أعدم بحكم المحاكم العسكرية.

وفـى يـناير ١٩٢٥ أنشأ حاكم السودان السير جيوفرى أرشر (G.Archer) الذى خلف السيرلى ستاك قوة دفاع سودانية تدين بولائها للحاكم العام للسودان.

وفيما يتعلق بتوزيع مياه النيل فقد اتفقت الحكومتان المصرية والإنجليزية على تألـيف لجنة ثلاثية يرأسها خبير هولاندى وعضو بريطانى وآخر مصرى لاقتراح القواعد الملائمة لتوزيع المياه بين مصر والسودان.

وقـد جـرت فـى مصـر الإنتخابات العامة فى مارس ١٩٢٥ وأفتتح الملك الـبرلمان فى ٢٣ مارس ١٩٢٥، ولما دارت حركة إنتخاب رياسة مجلس النواب نال سعد باشا الأغلبية مما دعا زيور لتقديم استقالته، لكن رفض الملك قبولها ووقع بـدلاً من ذلك مرسومًا بحل مجلس النواب فى اليوم الأول من إجتماعه وكان ذلك نذيراً بمعارك دستورية وتطاحن حزبى لا مجال للتعرض لتفاصيله الآن.

الأحداث التى ترتبت على إبعاد الجيش المصرى من السودان:

اتخـذت الإدارة الإنجلـيزية فى السودان إجراءات صارمة لمواجهة الأحداث المـتوقعة نتـيجة للقـرارات الـتى صـدرت بإبعاد الجيش المصرى والموظفين المصـريين عـن السودان . وقد رفضت القوات المصرية بالسودان تنفيذ الأوامر الـتى صدرت إليها من الإدارة البريطانية ورفضت تنفيذ أمر الإخلاء ما لم تصدر لهـا أوامر صريحة من الملك فؤاد بذلك وتحضر إليهم هذه الأوامر بواسطة ضابط مصرى موثوق فيه[٢].

١- بعد الإنذار الأول السالف الذكر – قدم اللورد اللنبى – انذاراً أخر وضح فيه بعض النقط التى وردت فى الأنذار الأول. أنظر غربال : مرجع سابق ص ١٥٧.

2- Lioyd, Lord : Egypt Since Cromer. Vol . II, p. 135.

وبعد استقالة وزارة سعد وتولى وزارة زيور وتسليمها بمطالب بريطانيا – قام وزيــر الحربــية المصــرى صــادق يحيى باشا بإرسال رسالة يأمر فيها القوات المصرية بتنفيذ أوامر الجلاء – وأذعنت القوات المصرية للأمر.

لكن أمر الإخلاء لم يتم بهذه السهولة فقد ثارت الفرق العسكرية السودانية فى أم درمــان، والخــرطوم وغــيرهما مــن المــدن السودانية متضامنة مع إخوانهم المصريين وحدث صدام بين فصائل من الفرق السودانية والقوات البريطانية – فقد هاجمــت الكتيبة السودانية بأم درمان المستشفى العسكرى واحتلته، وقتل أثناء ذلك بعــض الأطباء البريطانيين، واحتل بعض الجند الثائرين نادى الضباط المصريين واشــتبكوا مع الجنود الإنجليز فى قتال، واستشهد من أبناء السودان أبطال منهم من قتل فى الاشتباك مع الإنجليز، ومنهم من أعدم بحكم المحاكم العسكرية.

أما الجنود المصريون فقد أذعنوا بعد وصول أمر وزير الحربية المصرى لهم بالرحيل، فأركبوا القطار لبورسودان حيث رحلوا لمصر.

وتــدل تقارير المخابرات البريطانية على أن هذه الثورات العسكرية السودانية لــم تكن عشوائية، لكن ثبت أن التنظيمات التى قادت الثورة كانت لها فروع متعددة فى مختلف بلاد السودان[1].

وهكــذا لم تكن هذه الثورة العسكرية التى اجتاحت أرجاء السودان مجرد رد فعل عفــوى للجــنود السودانيين تضامناً مع إخوانهم المصريين – لكن كانت هذه الأحداث صــورة مــن صور التعبير عن الضيق من السيطرة البريطانية والرغبة فى الخلاص مــنها ولا شك فى أن حركات جمعية اللواء الأبيض، وطلبة المدرسة الحربية، والجنود والضباط السودانيين – حركات أصيلة نابعة من صفوف الشعب السودانى.

أمــا الإرتباط بين هذه الحركات السودانية والحركة الوطنية المصرية فى هذا الوقــت بــالذات فأمر لا يدعو للدهشة بل فى الواقع أنه أمر طبيعى يرجع لرابطة اللغة والدين والتاريخ والصلات التى ربطت بين أبناء شطرى الوادى عبر عصور الــتاريخ المخــتلفة، كمــا يرجع للأدراك الواعى لما يبيته العدو المشترك لشطرى الــوادى وأطماعــه السياســية والإقتصادية التى يريد تحقيقها على حساب مصالح البلدين[2].

1- Central Records Office, Khartoum, 1/11/45.

٢- لمن يريد المزيد عن التفصيلات عن الثورات التى اندلعت فى السودان فى ذلك الوقت – انظر:

حلمى جرجس : موقف الإدارة فى السودان من نمو الحركة الوطنية خلال الحربين العالمتين (رسالة دكتوراة غير منشورة)

الإدارة البريطانية فى السودان خلال فترة الإنفراد بالحكم

يجــدر بنا أن نقف قليلاً لنناقش السياسة التى رسمتها إنجلترا للسودان فى هذه الفترة.

فهذه السياسة الإنجليزية وضعت لتحقق أهدافاً معينة أشرنا إليها من قبل.

ويمكن أن نجملها فيما يلى:

١- اســتغلال الأقالــيم الصالحة لزراعة القطن فى السودان الشمالى بالذات (دلتا خور الجاش، وبركه، وأرض الجزيرة) لإنتاج القطن اللازم لمصانع لانكشير، فقــد استطاعت إنجلترا عن طريق خبرائها أن تدرس إمكانيات السودان، وفى ضــوء هذه الدراسة رسمت سياستها على أساس الإستفادة إلى أقصى حد من هذه الإمكانيات.

٢- فــتح أسواق جديدة فى السودان للمنتجات البريطانية وإيجاد مجالات عمل فيه لعدد من الشبان البريطانيين.

٣- فصل جنوب السودان عن شماله، وتوجيهه صوب (أوغندا) وغيرها.

٤- الاســتفادة مــن أبــناء جــنوب الســودان كجنود يخدمون أغراض بريطانيا العسكرية- ولهذا أنشئت (قوة الدفاع السودانية).

٥- الاستناد على مركز بريطانيا فى السودان وتحكمها فى منابع مياه النيل كوسيلة للضغط على مصر.

٦- قمع الحركات الوطنية فى مهدها ومحاولة إستيعاب الطبقة المثقفة السودانية التى أخذت تبرز كقوة سياسية خاصة فى الفترة بين عام ١٩١٩، وعام ١٩٢٤.

وقد وجهت السياسة البريطانية فى هذه الفترة لتحقيق هذه الأهداف.

والخطوط الأساسية للسياسة البريطانية فى هذه الفترة تتلخص فيما يلى:

الإنفراد بالإدارة والحكم:

اســتطاعت بريطايــنا أن تصل لأهدافها متعللة بحادث إغتيال السردار . فأبعد الموظفــون والجــنود المصريون عن السودان[١]. وأستطاعت الإدارة البريطانية فى عــام ١٩٢٤ أن تقضــى على الثورات الوطنية، وملأت السجون بالمعتقلين المثقفين،

١- ملاحظة:

لما رفضت الحكومة المصرية سحب الوحدات المصرية، والضباط المصريين من السودان على أساس مخالفة ذلك للمادة ٤٦ مــن الدســتور المصــرى – أصدر المندوب العالى البريطانى تعليمات لحكومة السودان بسحب الوحدات المصرية واجراء التعديلات المترتبة على ذلك.

ومن جماعة اللواء الأبيض بعد محاكمات صورية سريعة، واستخدمت وسائل البطش والإرهاب ضد من يبدى أية معارضة للحكومة أو اعتراض على تصرفاتها.

حاكم عام السودان:

عيـن السير جيفرى أرشر (G. Archer) حاكماً عاماً للسودان، ورغم صدور مرسـوم ملكـى مصرى بتعينه حاكماً عاماً للسودان – فقد اعتبر نفسه كأى حاكم بـريطانى آخـر يحكـم مسـتعمرة بريطانية، واتسمت تصرفاته كلها – حتى فى الشـكليات الرسـمية – بهـذا الإتجـاه فكان النشيد البريطانى يعزف فى الحفلات الرسـمية[١]. وقـد أشـار السير جيوفرى أرشر فى مذكراته إلى أنه قبل حضوره للسـودان عقـد مـع اللـورد اللنبى عدة اجتماعات أتفقا فيها على جميع الخطوط العريضة للسياسة التى ستنفذ فى السودان.

وقـد استقال السير جيوفرى أرثر، وخلفه يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٢٦ السير جون مافى J. Maffy كحاكم عام للسودان كما سنوضح بعد.

مساعدو الحاكم العام:

فـي مقدمتهم السكرتير القضائي، والسكرتير الإداري، ومدير المخابرات. وقد برز إسم السير وداس ستيري W. Sterry السكرتير القضائي والسير هارولد مايكل H. Machaal السكرتير الإداري.

وقد كان الحاكم العام حريصاً في كل مناسبة – علي إعلان أن مسئولية الحكم الثنائي أصبحت مركزه في شخصه. هذا وإن ظل العلم المصري والعلم البريطاني يخفقـان علـي المباني الحكومية الرسمية وهو المظهر الوحيد الذي ظلت بريطانيا تلتزم به مما قضت به اتفاقية ١٨٩٩.

قوة الدفاع السودانية:

بعد إخراج الجيش المصري من السودان كان لابد من سد هذا الفراغ بسرعة. وفـي ١٧ يـناير ١٩٢٥ اعلـن حـاكم عام السودان عن قيام هذه القوة الجديدة – وأوضح بجلاء أن هذه القوة الجديدة التي تبلغ ١٠,٠٠٠ مقاتل وعلي رأسها ضباط بريطانـيون يسـاعدهم بعض الضباط السودانيين يدين أفرادها بالولاء للحكام العام للسـودان الـذي مـن حقه ان يُعين ويعزل وإن البراءات تمنح باسمه، والمرتبات والمعاشات والمكافأت المستحقة كلها تكون من حكومة السودان[٢].

١- أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية – الحولية الثانية لسنة (١٩٢٥) ص ٥١.

2- Archer, G.: Personal and Historical Memoirs of an East African Administrator, P. 211

علـــي أن يعتـــبر الضباط السودانيون الذين كانوا يعملون من قبل في الجيش المصـــري والمزمع استخدامهم في قوة الدفاع السودانية مستقبلين من وظائفهم في الجـــيش المصري علي أن تتحمل الحكومة المصريةجميع المبالغ المستحقة لهم عن خدمتهم السابقة.

وبذلـــك يصبح الحاكم العام هو المسيطر علي تلك القوة الحديثة، وكان الهدف أن تستخم هذه القوة كأداة لبسط نفوذ الإدارة البريطانية.

وممـــا يدل علي أن هذه السياسة الإنجليزية تجاه السودان كانت مرسومة قبل حادث اغتيال السردار ما يلي:

١- اتفقـــت بريطانـــيا مـــع إثيوبيا في سنة ١٩٠٤ علي ان يسمح لها بانشاء خط حديـــدي مـــن الصومال البريطاني الي حدود السودان بعد أخذ موافقة كل من إيطاليا وفرنسا.

٢- أصدر الحاكم العام للسودان - قبل حادث الإغتيال - عدة قرارات تحول دون ســـفر المصـــريين، وسكان السودان الشمالي إلي الجنوب إلا بعد أخذ تصريح مـــن الحـــاكم العـــام، كمـــا وضعت قيود تحول دون التزواج بين السودانيين الشماليين وأهل الجنوب.

وفـــي عام ١٩٢٢ صدر (قانون المناطق المغلقة)، وقد أصبح جنوب السودان بموجبه منطقة مغلقة تماماً في وجه أهل الشمال والمصريين، بينما فتح لنشاط المبشـــرين الأجانـــب. وســـاعدت هـــذه الإجـــراءات، بالإضافة إلي الدعاية الإنجليزية علي زيادة الفجوة بين أهل شمال السودان وجنوبه، فقد صوروا لهم أهـــل الشـــمال علـــي أنهـــم يطمعون في استعبادهم واستغلال موارد بلادهم وإمكانـــياتهم لمصـــلحتهم، وأنهـــم - أي أهل الجنوب - أقرب جنسياً لسكان أوغندا منهم لسكان السودان الشمالي.

٣- درست مشروعات لاستغلال الأراضي الصالحة لزراعة القطن اللازم لمصانع لنكشـــير، وكـــذا المشـــروعات التي تفتح المجال الاستغلال رؤوس الأموال الإنجليزية، وتمخضت هذه المشروعات والدراسات عن انشاء (خزان مكوار) الـــذي افتـــتح فـــي عام ١٩٢٥، وعن قيام شركة أخري بريطانية لإستغلال (أرض الجزيرة) وكذا شركة لإستغلال أرض دلتا الجاش.

وقامـــت الحكومـــة السودانية بمد خط حديدي علي نفقتها يربط كسلاً بسواكن وبورسودان.

٤- في اغسطس ١٩٢٤ - أي قبل إغتيال سرادر الجيش - تناول البحث في لندن المندوب السامي اللورد اللنبي وبين حاكم عام السودان السيرلي ستاك، ورئيس الحكومة البريطانية ماكدونالد - مسألة تنمية موارد السودان الإقتصادية وتنفيذها - وأثيرت مسألة تأليف قوة سودانية تقسم يمين الولاء للحاكم العام للسودان.

وهكذا تشير كل الدلائل - بمالا يدع مجالاً للشك - إلي أن نية إنجلترا في ان تنفرد بالعمل في السودان، وفي أن توجه سياسته حسب مصالحها الخاصة كانت مرسومة بدقة وتنتظر الوقت الملائم لوضعها موضوع التنفيذ.

وقد اعترضت الحكومة المصرية علي هذه الإجراءات وبنت الحكومة المصرية اعتراضها علي أساس[1]:

١- إن اتفاقية السودان المعقودة بين الحكومتين المصرية والبريطانية في يناير ١٨٩٩ يجب أن تعتبر قائمة بينهما.

٢- إن انشاء قوة الدفاع السودانية - مخالفة في الواقع لأحكام اتفاقية سنة ١٨٩٩، ولأحكام الدستور المصري، بسبب الأحوال الخاصة التي انشئت فيها هذه القوات وذلك:

أ - لأن الحكومة البريطانية ليس لها قانونًا حق الإنفراد بإصدار الأمر - باتخاذ مثل هذا الاجراء الهام - الي الحاكم العام الذي هو ممثل الحكومتين ونائبهم المشترك في إدارة السودان.

ب- لأن الداعي السياسي إلي أتخاذ هذا الاجراء زال بسقوط الوزارة المصرية السابقة، وزوال الاضطرابات في السودان، وبذلك صار من الممكن الاتصال بالحكومة المصرية للحصول علي موافقتها علي إنشاء قوة الدفاع في السودان.

٣- أن موافقة الحكومة المصرية علي إنشاء قوة الدفاع - إذا رأت أن توافق عليه- لا يصحح ما قد يكون في تأليف هذه القوة أو غيرها من العوامل التي تناقض إتفاقية سنة ١٨٩٩ أو تخالف أحكام الدستور المصري، لأن هذه القوة لا تبدو كأنها مجرد وحدة عسكرية خاضعة لحاكم السودان باعتباره ممثلاً للشركة القائمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية، وإنما كأنها في خدمة دولة مستقلة عن مصر أو في خدمة مستعمرة بريطانية.

١- جمهورية مصر - رئاسة مجلس الوزاراء - مرجع سابق ص ٣٣، ٣٤

٤- لذلــك اقترح – دفعاً للشبهة – أن تتفق الحكومتان علي بعض النقاط الهامة – مــثل تســمية القــوة الجديــدة، والعلم الذي تستعمله، وطريقة تجنيدها، ومنح العــرائض لضــباطها، وعلاقة حاكم السودان العام بسردار الجيش المصري وعلاقة جنود هذه القوة وضباطها بجنود وضباط الجيش المصري.

هــذا علــي أن هذه الإعتراضات من الحكومة المصرية لم تجد أذناً صاغية، وحيــن اجــتمع رئيس الوزارة المصرية مع نائب المندوب السامي البريطاني في مصــر فــي ١٤ يناير ١٩٢٥ بقصد بحث موضوع قوة الدفاع السودانية لم يسفر اجتماعهما عن الوصول لإتفاق معين.

ولــذا أصــدر حاكم السودان العام في ١٧ يناير ١٩٢٥ – كما ذكرنا سابقاً – منشوراً بإنشاء قوة الدفاع السودانية – وجاء في هذا المنشور:[١].

١- أن القوة الجديدة تتبع وتخضع (Owe allegiance) لحاكم السودان العام.

٢- أن الحــاكم العام هو الذي يعين أو يعزل جميع الضباط، وأن جميع العرائض تصدر باسمه.

٣- لمــا كانت الحكومة المصرية غير قادرة علي أن تمضي في إستخدام الضباط الســودانين فــي الجيش المصري – فإن حاكم السودان سيقبل في قوة الدفاع السودانية كل من يراه منهم جديراً بذلك.

٤- إنــه بمجرد منح العرائض الجديدة لهؤلاء الضباط تتحمل حكومة السودان كل الإلتزامات الخاصة بماهياتهم في الجيش المصري والمعاشات والمكافآت عن خدمتهم السابقة.

وجــاء فــي ديباجة هذا المنشور – إن إنشاء قوة الدفاع السودانية إن ذلك قد استلزمه سحب الجنود المصريين من السودان.

وقد بلغ هذا المنشور إلي الحكومة المصرية في يوم ٢٥ يناير ١٩٢٥ بخطاب أرسله المندوب السامي إلي رئيس الوزارة.

وقــد بــادرت الحكومة المصرية بمجرد وصول منشور حاكم السودان العام بالرد علي تبليغ المندوب السامي هذا. وقد جاء في رد الوزارة:

"إن الموقــف الــذي وقفه حاكم السودان العام قد سبب للحكومة المصرية قلقاً حقيقياً، كما أحدث انزعاجاً عظيماً للرأي العام بمصر.

١- جمهورية مصر – رئاسة مجلس الوزراء – مرجع سابق ص ٣٥.

فلهـذه الأسباب لا يسعني إلا أن أقرر في هذا الشأن تحفظات مصر القانونية وأكـد فـي الوقـت نفسه بصفة خاصة أن الحكومة المصرية تعتبر أن الظروف العارضة التي قضت بعودة الجنود المصرية، وكذلك الظروف الخاصة بتأليف قوة الدفاع عن الأقاليم السودانية، كل هذه لا يمكن أن تؤثر في حل مسألة نظام السودان النهائـي، تلك المسألة المحتفظ بها للمفاوضات المقبلة كما أنها لا يمكن أن تضعف ما بين مصر والسودان من الروابط التي لا إنفصام لها"[١].

وقد كتب المندوب السامي إلي رئيس الوزارة المصرية يخبره بأنه أعتباراً من تاريخ إنشاء قوة الدفاع السودانية تكون نفقاتها علي ميزانية حكومة السودان.

لكـن الحكومـة المصـرية رفضت هذا الإتجاه وأخبرت المندوب السامي ان الحكومة المصرية لا يسعها التخلي عن مسئولية الدفاع عن السودان، وأنها ترغب فـي إثبات مصلحتها الدائمة في تأدية هذا الواجب – باستمرارها في الاشتراك في الدفاع عن الأراضي السودانية – ولذا قد قرر مجلس الوزراء أن تخصص للنفقات العسـكرية في السودان كل ما يتبقي من ميزانية وزارة الحربية بعد خصم النفقات العسـكرية فـي القطر المصري. ولما كان مشروع ميزانية الحكومة للسنة المالية ١٩٢٥ / ١١٩٢٦ قـد تم إعداده فيما يتعلق بمصروفات وزارة الحربية وظهر ان الباقـي يـبلغ ٧٥٠,٠٠٠ جنية – فقد قرر مجلس الوزراء أن يضعها جملة – بعد موافقـة الـبرلمان – تحـت تصرف الحكومة السودانية لحساب النفقات العسكرية السابق ذكرها.

وقـد ردت الحكومـة البريطانـية – حيـن بلغت بهذا الامر – بان الحكومة البريطانية رغم الحوادث التي مرت قد أبقت السيادة المشتركة التي أوجدها الاتفاق المعقـود فـي سنة١٨٩٩ بين بطرس باشا واللورد كرومر – ولذلك فهي تقرر أن قيام الحكومة المصرية بهذه المشاركة في النفقات إنما هو حق عادل.

هـذا وقد ظلت مصر تعاون في نفقات الدفاع عن السودان بمبلغ ٧٥٠,٠٠٠ جنـية سنوياً – وظل الأمر كذلك حتي عودة وحدات الجيش المصري إلي السودان بعـد عقد معاهدة ١٩٣٦ فخفضت الإعانة في عام ١٩٣٨ إلي نصف مليون جنية، ثـم أوقفـت في السنة التالية علي أساس ان تكون هذه بمثابة مهلة معقولة لحكومة السودان لتدبير شئونها المالية[٢].

١– جمهورية مصر – رئاسة مجلس الوزراء – كرجع سابق ص ٣٦.

٢– جمهورية مصر – رئاسة مجلس الوزراء – مرجع سابق ص ٣٨.

وصـــدر قـــرار الحاكم العام بتعيين الجنرال هيوبرت هدلستون باشا قائداً لقوة الدفاع السودانية، وكان قد شغل من قبل منصب سردار الجيش المصري بالنيابة.

ورغـــم أن الدافـــع لإنشاء هذه القوة الجديد – كما جاء في خطابات حاك عام السودان – كان سد الفراغ العسكري بعد خروج القوات المصرية من السودان فإن الإدار البريطانية في السودان كانت تهدف قبل كل شئ لتكوين قوة بوليسية تدين لها بـــالولاء ويمكن أن تعتمد عليها لقمع أية حركة تهدد مصالحها في السودان، ولذلك عمدت الإدارة البريطانية لعزل المتعلمين من ضباط قوة الدفاع، كما عمدت لترقية عدد من صفوف الجنود إلي ضباط لتربطهم بها ولتضمن ولاءهم لها.

قمع الحركات الوطنية:

كانت بريطانيا تشعر أن الخطر علي مصالحها في السودان يتمثل في المثقفين السودانيين الذين أخذوا يتيقظون للأهداف الحقيقية للإدارة البريطانية في السودان.

وقـــد تخلصـــت بريطانيا من الوجود المصري عقب حادث السردار، أما فيما يتعلق بالوطنيين السودانيين فقد تصدت لهم الإدارة البريطانية وكانت حركات القهر لأعضاء جمعية اللواء الأبيض وغيرهم من المثقفين والوطنيين السودانيين كفيلة في نظر إنجلترا بالقضاء علي الحركة الوطنية السودانية.

وكانـــت محاكمات قادة جمعية اللواء الأبيض التي عُقدت في الفترة من يناير إلـــي فبراير ١٩٢٥، والإجراءات التي أُتخذت ضدهم والإتهامات التي وجهت اليهم دلـــيلاً علـــي ما كانت الإدارة البريطانية ترمى إليه من تشويه سمعه رجال حركة اللواء الأبيض ومبادئهم وأهدافهم(١).

وقد تعرض المثقفون السودانيون للقمع والإرهاب من السلطات البريطانية.

وأغلـــق عـــدد كبير من المدارس والمعاهد وشددت الإدارة البريطانية الرقابة علـــي الصحف، وتعقبت الذين اتجهوا لنشر آرائهم ومقالاتهم في الصحف المصرية بتوقـــيعات رمـــزية. فقد أدركت الإدارة البريطانية – كما يتضح من تقارير إدارة

١- نشرت صحيفة حضارة السودان بعض جلسات هذه المحاكمات.

وقـــد صـــدرت أحكـــام مـــتفاوته بالسجن علي الذين اشتركوا في الثورة عام ١٩٢٤ وكان من الذين صدرت عليهم أحكام بالســـجن عبيد حاج الامين، وعلي عبد اللطيف، ومحمد المهدي حليفة، ومحمد عبد البخيت – وقد نقلوا لسجن (واد) في مديـــريه بحر الغزل، وتوفي في هذا السجن عبيد حاج الأمين، واصيب علي عبد اللطيف، بإرتجاج في المخ ولما ساءت حالته نقل إلي مصر حيث توفي ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨.

المخابرات – أن الطليقة المثقفة السودانية رغم أن نسبتها ضئيلة ولا يتجاوز عددها ١% من مجموع السكان – فإنها تمثل الخطر الحقيقي علي النظام الذي وضع لإدارة السودان[١].

وفي نفس الوقت اتجهت السلطات الحاكمة إلي الزعماء التقليدين والمشايخ وغيرهم من زعماء القبائل ورجال الدين فقربتهم إليها ومنحتهم من السلطات ما يجعل منهم قوة يمكن أن تستند إليها في مواجهة القوة الوطنية الجديدة.

ولتحقيق هذه السياسة منحت بريطانيا السيد علي الميرغني زعيم الحتمية في عام ١٩١٦ – لقب سير، كما رحبت بالنشاط السياسي والاقتصادي للسيد عبد الرحمن المهدي وأستغلت بريطانيا العداوة القديمة التي كانت بين الحاكم المصري وبين الزعامة المهدية التي نجحت في تدمير الوجود المصري في السودان – من قبل خلال القرن التاسع عشر – وذلك بغية التعاون معها لتدمير هذا الوجود أيضاً خلال القرن العشرين[٢].

وقد كانت زيارة الحاكم العام أرشر لجزيرة (أبا) معقل المهدية بمثابة إعلان علني لسياسة التقارب بين الادارة وبين زعيم الأنصار – وإن كانت هذه الزيارة قد قوبلت بانتقاد دعنيف من كبار رجال الإدارة البريطانية في السودان لأنهم توجسوا خيفة من نتيجة ذلك علي علاقة الإدارة بباقي الزعماء وفي مقدمتهم السيد علي الميرغني.

وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٢٦ عين السير جون مافي J. Maffy حاكماً عاماً علي السودان بعد إستقالة السير جيوفري ارشر – فأخذ يعمل بنشاط لتنفيذ السياسة التي رسمتها بريطانيا الإدارة السودان.

تدعيم السلطات الأهلية والقبلية:

كانت الصحوة القومية – كماذ كرنا – هي أخشي ما تخشاه بريطانيا في ذلك الوقت. وفي مواجهة الدعوة لتوحيد القوي الوطنية لمجابهة الأطماع البريطانية اتجهت الإدارة إلي إثارة النعرة القبلية، وتقوية نفوذ مشايخ القبائل، وتدعيم السلطات القبلية لتستعيد قوتها وحيويتها ونفوذها. وقد وضع أسس هذا النظام السكرتير الإداري للحكومة السيد هارولد ما كما بكل، وساعد السكرتير القضائي للحكومة أيضاً في وضع أسس النظام الجديد.

١- يونان لبسيب ورق: مرجع سابق ص ٥١

2- Central Records Office. Khartoum Security 7/ 1/ 2/ p.p 43 - 44

ولذلــك فقــد اتجهــت الجهــود كلهــا لتدعيم هذا النوع من الحكم والإدارة اللامركزية.

ولم يكن هذا النظام جديداً علي البريطانيين، فقد مارس مثل هذه الإدارة السير (جــون مــا في) بعبارة صريحة إذ قال. "إن السودان بإتساع أرجائه وتنوع قبائله واخــتلاف طــبائع أهله وعاداته يحتاج إلي نظام إداري يتفق مع ظروفه .. هناك بعــض القوانيــن مــثل قانون العقوبات والإجراءات الجنائية لا تتفق مع العادات الشــائعة بين الأهالي .. لقد التهمنا لقمة كبيرة، ولا بدلنا من الوقت لبلعها والراحة الكافية لهضمها"[١].

هــذا وكانــت لجنه ملنر في تقريرها عام ١٩٢١ قد اتجهت إلي نفس الشئ، فجاءت الأحداث التالية لتقوي هذا الإتجاه.

ولتحقيق ذاك منحت لمشايخ القبائل سلطات لفض الخوصمات بين أتباعهم.

كمــا انشــئت مجــالس المــدن والمديريات والمجالس القروية واتخذت عدة إجراءات أخري لنقل السلطات التنفيذية غلي أيدي السلطات التقليدية ليظهر للأهالي ان الأوامــر تأتيــي إلــيهم عن طريق رؤسائهم وليس عن طريق الرجل الأبيض الدخــيل، وأدي هذا لظهور قبائل كانت قد اختفت أو علي وشك الاختفاء، كما ظهر زعمــاء وشــيوخ قبائل كانوا قد صاروا في طي النسيان، وأصبح ذكر اسم القبيلة ضــرورياً في الأوراق الرسمية. وهكذا كانت الأدارة تعمل لهدم ما تسعي الحركة الوطنية إلي تحقيقه في سبيل توحيد القوي الوطنية المختلفة[٢].

وحين أبدي بعض الموظين البريطانين ضيقهم من التنازل عن بعض السلطات للــزعماء ورؤساء القبائل كان تعليق الحاكم العام "إن عليهم تسليم هذه السلطات إما للزعامات المختلفة أو تسليمها للحركة الوطنية ... ولذلك فإتباع الطريق الأول هو الأسلم"[٣].

وقــد استمرت السياسة التي تهدف إلي تقوية سلطةالمشايخ، وأصدرت الإدارة البريطانية في السودان قانون سلطات المشايخ عام ١٩٢٧، وفي عام ١٩٣٨ صدر قانون أخر وذلك بهدف تدعيم سلطة المشايخ حتي – كما ذكر – تطغي علي سلطة الافندية المتعلمين[٤].

١- أحمد شفيق: مرجع سابق (الحولية: الثالثة ١٩٢٦) س ٦٢٧.

٢- إبراهيم محمد حج موسي (دكتور): التجربة الديمقراطية وتطور نظام الحكم في السودان ص ١٢ وما بعدها.

3- Abd Al Rahim. M.: Op. Cit. P. 69

٤- محمد أحمد محجوب: الحكومة المحلية في السودان ص ٥٥.

وأدي ذلـــك لظهور طائفة من الشيوخ من أمثال (الشيخ عوض الكريم أبو سن ناظـــر الشـــكرية، وعلي التوم ناظر الكبابيش، والشيخ ابراهيم موسي مادبو ناظر الزريقات، والشيخ منعم منصور ناظر الحمير).

وإن كانت هذه السياسة البريطانية قد حققت أهدافها في المناطق المتطرفة لكن في المناطق المتحضرة شمال ووسط السودان لم يكن للزعامة القبلية أو للشيوخ أثر فعال.

سياسة الإدارة البريطانية تجاه الجنوب في هذه الفترة:

كانت لبريطانيا سياسة خاصة تجاه جنوب السودان، فقد اتجهت إلي بث بذور الفرقة بين المواطنين الجنوبيين والشماليين.

وترك التعليم في الجنوب للجمعيات التبشيرية، وبذلك كانت سياسته في الشمال وأساليبه مختلفة تماماً عنها في الجنوب.

وحيـــن بـــدت روح الـــثورة الوطنية في الشمال خشيت الإدارة البريطانية أن تســـري الـــروح مـــن مصـــر إلي شمال السودان، ومن الشمال إلي الجنوب. ولذا وضعت قيود شديدة علي الإنتقال والإتصال بين الشمال والجنوب.

وكـــان تفكير الإدارة البريطانية متجهاً إلي أن المديريات الجنوبية في السودان يمكن أن توجه إلي الأقاليم الخاضعة لبريطانيا في شرق ووسط القارة وترتبط بهذه الأقاليم وليست بشمال السودان.

وقد أشار تقرير لجنة ملنر عام (١٩٢٠) بوضوح إلي هذا الإتجاه.

لكن الإجراءات التي أتخذتها الإدارة البريطانية بعد أحداث عام ١٩٢٤ سارت فـــي هذا الاتجاه – إتجاه فصل الجنوب عن الشمال علي نطاق واسع فدعمت سلطة مفتشـــي المراكـــز البريطانيـــي، كما لجأت لإنشاء ونشر المحاكم القبلية التي تحكم حســـب العـــرف القبلي، وشجعت علي ان يحافظ الجنوبيون علي عاداتهم وتقاليدهم القبلية ويتمسكوا بزيهم الخاص.

وقد ذكر رئيس الوزراء البريطاني ماكدونالدفي عام ١٩٢٤ في مجلس العموم البريطانـــي "إنه لا مبرر لأن يحكم الأجناس التي تسكن شمال السودان تلك القبائل التي تسكن في الجنوب"[١].

١- مدثر عبد الرحيم: مرجع سابق ص ٥٠.

ومما أثار إنزعاج الإدارة البريطانية أن عدداً من قادة الثورة في عام ١٩٢٤ كانوا ينتمون لأصل زنجي، فعلي عبد اللطيف قائد جمعية اللواء، وعبد الفضيل الماظ، وثابت عبد الرحيم، وحسن فضل المولي الذين تزعموا ثورة نوفمبر العسكرية – ينتمون لأصل دنكاوي[1].

ولذا اتجهت الإدارة البريطانية لتعميق الخلافات بين شمال السودان وجنوبه فحالت دون انتشار الثقافة في الجنوب كما حالت دون انتشار الإسلام بين الجنوبيين.

وفي ١٩٣٠ صدرت عدة قوانين وقرارات تبناها السكرتير الإداري هارولد ما كما يكل اعتبر الجنوب بمقتضاها منطقة مغلقة في وجه الشماليين.

وقد قامت هذه السياسة علي أسس معينه اهمها:

١- توفير العاملين الذين تحتاجهم الإدارة في الجنوب من غير المتكلمين بالعربية.
٢- استخدام اللغة الإنجليزية كلغة أساسية للتعامل في جنوب السودان، وتشجيع تداولها بين الموظفين والعاملين في الإدارات المختلفة إلي جانب اللجهات القبلية.
٣- حظر هجّرة التجار من شمال السودان للجنوب وغلق الجنوب في وجه التيارات الثقافية الوافدة من الشمال.
٤- العودة إلي التقاليد والأعراف القبلية.
٥- إبعاد القبائل ذات الأصول العربية من المناطق الرئيسية في الجنوب.
٦- منع الزواج المختلط بين الشماليين والجنوبيين.

وقد ترتب علي هذه السياسة الانفصال بين شمال السودان وجنوبه – لكن للأسف لم تنجح هذه السياسة في خلق شخصية مميزه لجنوب السودان، وكل ما أدت إليه هو العودة بالجنوب إلي القبلية البغيضة التي فتت الوحدة بين أجزاء الوطن – فأصبح الجنوب عبارة عن مجموعة من الوحدات القبلية لكل منها اتجاهاتها ومميزاتها وتقاليدها وأعرافها.

السياسة الإقتصادية للإدرارة البريطانية في السودان:

اتجهت بريطانيا الي استغلال الأقاليم الصالحة لزراعة القطن في السودان كاعمدت لإستغلال السودان كسوق للمنتجات البريطانية، وشجعت استغلال رءوس الأموال البريطانية في المشروعات ذات العائد المضمون.

1- Beshir, M.O> Cit. P.P 34 - 36

وكان السودان قد عرف زراعة القطن منذ وقت بعيد، وإن كان لم يزرع علي نطـــاق واســـع إلا منذ ١٩٠٥ حين زرعت مساحة قدرها ٢٤ ألف فدان بالقطن - وظلـــت المساحة المزروعه قطناً بالسودان تتزايد حتي أصبح القطن عماد الاقتصاد السوداني[١].

وفي مقدمة الشركات التي حصلت علي امتياز زراعة القطن بالسودان شركة نقابة الزراعات السودانية (Saudan Planation Syndicate litd).

وقد بدأت هذه الشركة نشاطها عام ١٩٠٥ حين أجريت تجارب لزراعة القطن فـــي حوالي عشرة آلاف فدان في منطقة الزيداب، والطيبة، وبركات، وأدي نجاح التجربة إلي التوسع في زراعته[٢].

وأصبح القطن في السودان يزرع علي المطر، وعلي الري علي السواء. غير أن المســـاحة التي تعتمد علي المطر محدودة بالقياس إلي ما يزرع علي الري، كما ان قطن المطر من النوع قصير التيلة بينما قطن الري من النوع طويل التيله الذي تحـــتاجه مصانع لانكشير. وتنتج مديرية كردفان وحدها حوالي ٨٠ % من مساحة القطن الذي يعتمد علي المطر[٣].

في دلتا خور القاش (منطقة كسلا)، ودلتا خور بركة (منطقة طوكر) وكلتاهما في شرق السودان[٤].

وكانـــت المواصـــلات هي العامل المؤثر في إنتاج بمنطقة كسلا، وظل الأمر كذلك حتي أُنشئ خط حديد كسلا سنة ١٩٢٤.

وفـــي ســـنة ١٩٢٥ أنشئ (سد سنار) لتوفير المياه اللازمة لمشروع الجزيرة، وفـــي بداية هذا المشروع أمكن زراعة ٢٤٠ الف فدان، كان يزرع ثلثها قطناً تبعاً للـــدورة الزراعـــية الثلاثية المتبعة في ارض الجزيرة، وقد اتسعت مساحة الأرض الزراعـــية في أرض الجزيرة حتي أصبحت تمتد إلي ما يقرب من ١٧٥ كيلو متراً من الشمال إلي الجنوب بعرض ٨٠ كيلو متراً.

١- صبحي عبد الحكم، ويوسف خليل، حليم جريس، اجلال السباعي: الموارد الاقتصادية في الوطن العربي ١٩٦٣ ص ١٥٤.

٢- يحيي محمود مصطفي: السياسة الزراعية في السودان سياسياً وأقتصادياً - وكذلك سعد الدين فوزي: جوانب من الاقتصاد السوداني.

٣- انظر الخرائط بملحق الكتاب.

٤- محمد صبحي عبد الحكيم وأخرون: مرجع سابق ص ١٤٥

واستمر التوسع لزراعة ٢٠ ألف فدان تقريباً في (منطقة المناقل) الواقعة غربي أراضي مشروع الجزيرة، وساعدت علي ذلك اتفاقية مياه النيل التي عقدت في سنة ١٩٢٩ بين مصر والسودان[١].

ورغم أن مشروع الجزيرة أتاح فرص عمل لعدد من العاملين بالزراعة وما ترتب عليها من اعمال أخري جانبية – فلا شك في ان المشروع كان في جوهرة مشروعاً استعمارياً بالإضافة إلي خدمة المستثمرين البريطانيين.

والدليل علي ذلك:

١- كلف المشروع خزانة السودان ما ينيف علي ١٣ مليوناً من الجنيهات رغم أن الفائدة الأساسيةعادت علي أصحاب رءوس الأموال البريطاليين.

٢- احتكرت بريطانيا شراء القطن السوداني وحددت سعره – حتي فى سنوات الحرب التي تضاعف فيها السعر – بـ بأربعة جنيهات ونصف للقنطار[٢].

٣- اتجهت الإدارة البريطانية إلي عناصر (الفلاتا) الحجاج في طريقهم من غرب أفريقيا إلى الحجاز فشجعتهم علي الاستيطان في أراضي المشروع للقيام بالزراعة – وهذا بالطبع يمثل عمل كانت له أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيما بعد.

٤- التركيز علي محصول نقدي واحد – يعرض الاقتصاد لهزات هنيفة ويجعله عرضة للتقلبات المختلفة.

ونشير إلي أن القطن بالذات أصبح يلعب دوراً هاماً في سياسة بريطانها تجاه السودان – فقط أصبحت له أهمية خاصة لاستمرار مصانع لا نكشر في نشاطها – حتي أن أكثر من كاتب بريطاني حذر من أن أي نقص في القطن السوداني طويل التيلة سيكون له دور فعال سئ في تشغيل تلك المصانع لأن هذا القطن يسد النقص في جودة القطن الأمريكي قصير التيلة[٣].

وبالاضافة إلي القطن فقد كان السودانيون يزرعون بعض المحاصيل الأخري لسد حاجاتهم الضرورية – وفي مقدمة هذه المحاصيل الذرة الرفيعة التي تعتبر أهم الحبوب الغذائية المزروعة في السودان.

١- أنظر الوثائق بملحق الكتاب

٢- كان القطن ينقل إلي بورسردان علي البحر الأحمر حيث يأخذ طريقة إلي بريطانيا والهند.

أنظر محمد محمود الصياد: اقتصاديات السودان (القاهرة ١٩٥٧)

2- Fabunmi, L. A.:The Sudan in Anglo Egyptian Relations

ومنـــتجاتها – هـــي التي تحكمت في رسم الخطوط العريضة لسياسة بريطانيا الاقتصادية في السودان في هذه الفترة.

وفـــي المفاوضـــات المصـــرية البريطانية في هذه الفترة – ووضع السودان فيها أتخـــذت إنجلـــترا – كما أوضحنا من قبل – بعد مقتل سردار الجيش المصري وحاكم الســـودان العام السير لي ستاك – عدة إجراءات تجاه السودان وإدارته تتنافي حتي مع وفاق ١٨٩٩ رغم ما فيه من إجحاف، وأشرنا إلي ان إنجلترا كانت تدبر للأمر وتتحين الفرصـــة المناســـبة لذلـــك – لكن الأحوال لم تستقر تماماً للإدارة البريطانية خاصة أن الطبقة المثقفة السودانية كانت متيقظة للأهداف التي ترمى الإدارة البريطانية لتحقيقها.

كمـــا أن مصـــر اعتبرت الإجراءات التي أتخذتها إنجلترا في السودان عملاً تعســـفياً لا تســـنده الإ القوة التي تمارسها بريطانيا بحكم وجود جيوشها في كل من مصـــر والســـودان – أضـــف إلـــي ذلك أن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ لم يحسم العلاقـــات بين مصر وبريطانيا تماماً بل ترك أموراً معلقة ومنها – وضع السودان لتصل الدولتان بشأنها إلي اتفاق.

وكذلـــك شـــهدت هـــذه الفترة سلسلة من المفاوضات والمحادثات بين مصر وبريطانيا حتي عام ١٩٣٦.

وســـنحاول أن نمـــر مـــروراً ســـريعاً بما جري بخصوص السودان في هذه المفاوضات.

أولاً: مفاوضات سنة ١٩٢٧ (ثروت – تشمبران):

تولـــي ثروت باشا رئاسة الوزارة الائتلافية بعد استقالة علي باشا يكن. وحين ذهب ثروت باشا إلي إنجلترا في معية الملك فؤاد في رحلته الرسمية لإنجلترا (من ٤ إلـــي ٣٠ يولية ١٩٢٧) أتيحت لثروت باشا فرصة الاتصال الشخصي مع وزير خارجـــية إنجلـــترا (الســـير أوستن تشمبرلن)، فأراد أن ينتهز هذه الفرصة ليسترد بعض ما فقدته من جراء الإنذارات الإنجليزية خاصة ما يتعلق بالسودان.

وقـــد كان اهتمام ثروت باشا – فيما يتعلق بمشكلة السودان – أن يعمل علي إعادة الحالـــة إلي ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٤، وتسوية المسألة الحيوية المستعجلة – مسألة مياة النيل، علي أن يحتفظ بحل مسألة السودان السياسية إلي اتفاق يعقد فيما بعد[1].

١- "أنظر ما كتبه ثروت باشا عما جري في هذه المفاوضات: "وثائق سياسية خاصة بالمفاوضات التي دارت بين حضرة صاحب الدولـــة عبد الخالق ثروت ثروت باشا رئيس مجلس الوزاري وحضرة صاحب السيادة السير أوستن تشمبرلن وزير خارجية بريطانيا العظمي، تمهيداً لوضع الأسس لمفاوضات رسمية ترمي لعقد معاهدة تحالف وصداقة بين بريطانيا العظمي ومصر"

ووضـــع ثروت باشا مشروعاً بوجهة نظره سلم لوزارة الخارجية البريطانية في ١٨ يوليه ١٩٢٧.

وجاء في المادة ١١ من المشروع المصري ما يلي[١]:

"مع الاتفاق علي تأجيل تسوية مسألة السودان إلي مفاوضات تجري فيما بعد، ويكـــون لكـــل مـــن الطرفين المتعاقدين فيها تمام الحرية في تقرير حقوقه، توافق الحكومـــتان مـــن الآن علي الرجوع إلي الحالة التي كانت قائمة قبل سنة ١٩٢٤، علـــي أن يتخذا كقاعدة لتحديد نصيب مصر في مياه النيل الأبيض، والنيل الأزرق النتائج التي وردت في التقرير الذي وضع مع ما أدخل عليها من التعديل بناءًا علي طلب وزارة الأشغال العمومية المصرية، وعلي الإعتراف بحق الحكومة المصرية فـــي اتخـــاذ كافـــة تدابـــير المراقبة اللازمة لتكفل توزيع المياه طبقاً للقواعد التي أوضـــعت في التقرير المذكور، وعلي أن تقدم لها كل التسهيلات للقيام علي نفقتها بجمـــيع أعمـــال الـــري علي مجري النيل التي اشار إليها ذلك التقرير في مصلحة مصر"[٢].

ولعـــل مـــا يهمـــنا هنا في المشروع البريطاني ما جاء في المادة ١٣ خاصاً بالسودان فقد نصتّ هذه المادة علي ما يلي:-

"يعـــترف الطـــرفان المتعاقدان بأن أوفي ضمان لصيانة مصالحهما، ولا سيما مصالح مصر في مجاري النيل العليا هو استمرار سيادتهما المشتركة في السودان.

وكلاهمـــا مـــتفقان علـــي أن يتخذا كقاعدة لتحديد نصيب مصر في مياه النيل الأبيض والنيل الأزرق النتائج التي وردت في تقرير لجنة النيل المؤرخ ٢١ مارس ١٩٢٦، وفي الاتفاق الذي عقد في أول مايو سنة ١٩٢٦ بين ممثلي مصلحتي الري في مصر والسودان.

ويمـــنح ممثلو مصلحة الري المصرية التسهيلات اللازمة لمراقبة المشاهدات المـــتعلقة باعمـــال قـــناطر ســـنار، كما إنه تكون لهم حرية الوصول إلي البيانات الخاصـــة بذلـــك للـــتحقق من ان توزيع المياه جار طبقاً للقواعد التي وضعت في الـــتقرير المذكـــور، وتمـــنح حكومـــة حضرة صاحب الجلالة البريطانية الحكومة المصـــرية كـــل مساعدة ممكنه لتمكينها من القيام لمصلحتها الخاصة وعلي نفقتها وبوجـــه يتفق مع مصالح السلطات المحلية ذات الشأن، بأعمال الحفظ المنصوص

١- جمهورية مصر العربية: السودان – مرجع سابق ص ٤٠.

٢- جمهورية مصر العربية السودان مرجع سابق ص ٤٠.

علـيها في ذلك التقرير، وتتحمل الحكومة المصرية نفقات كل عمل تكميلي، ودفع كل مبلغ نقدي ندعو الحاجة إليهما باعتراف الطرفين تعويضاً للمصالح المحلية من كل تلف أو تفكك ينجم عن الأعمال المشار إليها.

ويستمر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر – نظراً لاهتمامه بحفظ السلام في ربـوع السـودان وعلي حدود مصر الجنوبية – في دفع حصته الحالية في نفقات الإدارة فـي السـودان إلي ان يقرر الطرفان المتعاقدان أن الحال تدعو إلي إعادة النظر في هذا الترتيب"[١].

وبعـد عـودة ثروت باشا إلي مصر استمر الأخذ والرد، وعلي هذا الاساس عدلت الخارجية البريطانية مشروعها بعض الشئ.

علي أنه في المشروع البريطاني المعدل (المشروع النهائي – كما أطلق عليه) لم يرد للسودان ذكر. والظاهر أن الوزيرين المصري والبريطاني إتفقا علي إرجاء الناحـية السياسية من الموضوع، وإن كانا لم يشيرا إلي ذلك إشارة صريحة – لكن جـاء فـي رسالة بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٢٨ من السير أوستن تشمبرلن إلي ثروت باشا: "أما المسائل القانونية الخاصة بالامتيازات، وتوزيع مياه النيل فقد اتفقنا كلانا علي ان نتبادل – عند اعتماد المعاهدات – مذكرات بتسويتها"[٢].

علـي كل لم تأت محادثات ثروت باشا بنتيجة إيجابية فقد اعلنت مصر في ٤ مـارس ١٩٢٨ أن المشروع البريطاني عرض علي مجلس الوزراء لكن لا يمكن قبوله[٣].

لكن محادثات ثروت باشا والمستراوستن تسنبرلين كانت في الواقع هي لساس المفاوضات التالية.

ثانياً: مفاوضات سنة ١٩٢٩ (محمد محمود – هندرسن):

اسـتقال ثـروت باشـا دون ان يحـدث تقـدم يذكر في الوصول لإتفاق، وألف (مصـطفي الـنحاس باشا) وزارة إئتلافية، لكن لم تبق هذه الوزارة طويلاً فقد استقال الوزراء الدستوريون المشتركون فيها، ثم أقال الملك النحاس باشا في ٢٥ يونيه ١٩٢٥ وألـف (محمـد محمود باشا) وزارة من الأحرار الدستوريين والإتحاديين، وأصدرت الحكومة امراً ملكياً في ١٩ يوليه سنة ١٩٢٨ بحل مجلس النواب والشيوخ.

١- جمهورية مصر العربية: السودان – جرمع سابق ص ٤٠، ٤١

٢- غربال. مرجع سابق ص ١٩.

٣- جلال الدين الحمامصي: ماذا في السودان ص ١٢١ وما بعدها.

علـــي أن انـــتقال الحكـــم في انجلترا منذ أوائل شهر يونية ١٩٢٩ من أيدي المحافظيـــن إلـــي أيدي حزب العمال، واستقالة المندوب السامي في مصر (اللورد لويـــد) الـــذي اتصـــف بالتعنت والتدخل في شئون مصر الداخلية بحيث تكون كل حـــركة تقـــوم بها الحكومة المصرية بعد موافقة مندوب انجلترا – فتح هذا التغيير المجـــال أمام الوصول لإتفاق إنجليزي مصري (أو لتحريك الشئون المصرية) علي حد تعبيرك محمد محمود باشا.

وقـــد أســـفرت محادثـــات محمد محمود باشا مع مستر هندرسون عما سمي (بمقـــترحات اغســـطس ١٩٢٩) – إذ رفض مستر هندرسون ان يخرج في الوقت الراهـــن عـــن دائرة المقترحات ليجعلها معاهدة يوقع عليها دولته، ومحمد محمود باشا.

وقـــد سلمت هذه المقترحات لمحمد محمود باشا مع كتاب من مستر هندرسون بتاريخ ٣ أغسطس ١٩٢٩، مع المذكرات الايضاحية المتبادلة بين الطرفين – وذلك لعرضـــها علـــي الـــبرلمان المصري – حتي إذا بُحثت بروح الصداقة والمسالمة، ووجـــد فـــيها الطـــرفان أساسا مرضياً للعلاقات المستقبلة بين البلدين – يمكن ان يعرضها مستر هندرسون علي البرلمان البريطاني لكي تبرم معاهدة بها(١).

وجاء في البند ١٣ من هذه المقترحات خاصاً بالسودان ما يلي:

"مـــع الإحـــتفاظ بحرية إبرام اتفاقات جديدة في المستقبل معدلة لإتفاقات سنة ١٨٩٩ يـــتفق الطرفان المتعاقدان علي أن يكون مركز السودان – هو المركز الذي ينشـــأ عن الإتفاقات المذكورة، وبناءًا علي ذلك يظل الحاكم العام يباشر بالنيابة عن الطرفين المتعاقدين السلطات التي خولتها إياه الاتفاقات المشار إليها"(٢).

وتناولـــت المذكـــرات المتـــبادلة بيـــن الطرفيـــن ايضاً فيما يختص بالسودان المضوعات الآتية:

أ – اتفـــق الطرفان علي ان دين السودان لمصر يجب أن يبحث الآن للوصول إلي تســـوية عادلة، ويتولي البحث مندوب عن وزارة الخزينة البريطانية ومندوب عن وزارة المالية المصرية.

ب– إتفق الطرفان – فيما يتعلق بالمعاهدات الدولية – علي أن ما يراه تطبيقه علي السودان من المعاهدات لا يبدو بطبيعة الحال ذلك النوع الذي تكون له ضبغة

١– أنظر محمد حسين هيكل: مذكرات في السياسة المصرية ص ٣٠١ وما بعدها.

٢– غربال: مرجع سابق ص. ص ٢١٤، ٢١٥.

فنية او إنسانية عامة – وفي مثل هذه المعاهدات التي يراد تطبيقها علي السودان بيدي المندوبون المصريون، والبريطانيون تصريحاً مشتركاً بان توقيعاتهم عن مصر وبريطانيا تشمل السودان.

ج- فيما يتعلق بعودة الجنود المصريين للسودان – تبدي الحكومة البريطانية إستعدادها – إذا نُفذت المعاهدة بالروح الودية التي سارت عليها المفاوضات – لن تفحص بروح العطف الإقتراح بشأن عودة (أورطة مصرية) إلي السودان في الوقت الذي تنسحب فيه القوات البريطانية من القاهرة.

هذا علي ان هندرسون – اشترط كما ذكر من قبل ان تناقش مقترحاته بواسطة حكومية نيابية تمثل الشعب المصري، وأن تعرض المقترحات علي البرلمان المصري. وقد استقالت وزارة محمد محمود باشا وألف عدلي باشا يكن وزارة إنتخابات وفاز الوفد بالأغلبية في الإنتخابات فألف مصطفي النحاس باشا وزارته الثانية في أول يناير ١٩٣٠.

علي ان مفاوضات محمد محمود هندرسون قد أسفرت رغم ذلك عن نتيجة هامة هي التوصل لحل لمشكلة مياه النيل. وكانت قد تألفت لجنة خبراء من مستر كانتر كريمر رئيساً، ومستر ر. م. ماك يجور عن بريطانيا، وعبد الحميد سليمان باشا عن مصر.

وأخذت هذه اللجنة منذ ١٥ فبراير ١٩٢٥ تدرس القواعد التي يمكن إجراء الري بمقتضاها مع مراعاة مصالح مصر مراعاة تامة، ومن غير الإضرار بما لها من الحقوق الطبيعية والتاريخية.

وقد قدمت اللجنة تقريرها في ٢١ مارس ١٩٢٦. وبعد دراسة وزارة الأشغال المصرية للتقرير – استمرت المحادثات والمراسلات بين الحكومة المصرية ودار المندوب السامي البريطاني بشان الاقتراحات التي جاءت في التقرير حتي تم الإتفاق بين الحكومتين في مايو سنة ١٩٢٩ وتأيد هذا الإتفاق بخطابين متبادلين بين رئيس مجلس الوزراء المصري والمندوب السامي البريطاني في ٧ مايو ١٩٢٩[١].

وقد ظل هذان الخطابان المتبادلان (المعبر عنهما باتفاقية مياه النيل) أساس العلاقات بين مصر السودان فيما يتصل بمسائل الري إلي أن عُقدت أتفاقية جديدة عند البدء في إنشاء السد العالي – إذ لم تتعرض معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا في سنة ١٩٣٦ لتلك المسائل اللهم إلا ما جاء في المذكرة المتبادلة بين

١- أنظر ملحق الكتاب.

الدولتين في ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٦ الخاصة باشتراك مفتش عام الري المصري بالسودان في مجلس الحاكم العام كلما نظر المجلس في مسائل متصلة بأعمال مصلحيه – فقد جاء بالمذكرة:

"يعتبر من المرغوب فيه ومن المقبول ان يدعي مفتش عام الري المصري بالسودان إلي الاشتراك في مجلس الحاكم العام كلما نظر المجلس في المسائل المتصلة بأعمال مصلحته".

ثالثاً: مفاوضات سنة ١٩٣٠ (النحاس – هندرسن):

بعد تشكيل وزارة مصطفي النحاس باشا في يناير ١٩٣٠ – فوض البرلمان الحكومة أن تتفاوض مع الحكومة البريطانية إلي إتفاق يصون حقوق مصر، وتألف وفد المفاوضات المصري برئاسة مصطفي النحاس باشا، وعضوية واصف بطرس غالي باشا، وعثمان محرم باشا، ومكرم عبيد أفندي (باشا)، وكان من مستشاريه الفنيين الدكتور أحمد ماهر (باشا) ومحمود حسن بك (باشا)، وكان سكرتيره العام مصطفي الصادق بك (باشا).

وقد توالت جلسات المفاوضات، وبذل الفريقان جهداً عظيماً للوصول إلي إتفاق، وفعلاً تمكنا من الإتفاق علي مشروع كامل للمعاهدة[١]. لكن المفاوضات تحطمت علي صخرة (السودان) وانتهت في ٨ مايو ١٩٣٠ إلي غير نتيجة بعد أن استغرقت اثنين وعشرين جلسة.

اما فيما يتعلق بالسودان فقد كان القرار الذي قدمه الوفد المصري لتقوم عليه التسوية هو كما يلي:

"إلي أن تتم تسوية مسألة السودان بمفاوضات مقبلة ومع الإحتفاظ بجميع الحقوق يباشر الطرفان المتعاقدان إدارة السودان بالاشتراك بينهما أشتراكاً فعلياً"[٢].

لكن كثر الأخذ والرد حول المقصود من (الأشتراك الفعلي).

ووافق الوفد المصري علي أن الاشتراك الفعلي المطلوب إنما هو تنفيذ لاتفاقيتي ١٨٩٩ بشرط أن ينص علي عدم المساس بحق سيادة مصر علي السودان– واقترح وضع النص في الصيغة التالية:

١– لمعرفة المشروع الكامل للمعاهدة فيما عدا مادة السودان أنظر:

غربال: مرجع سابق ص ص ٢٢٤ – ٢٢٨

٢– جمهورية مصر العربية: السودان – مرجع سابق ص ٥٤.

"مـــع الاحتفاظ بحرية عقد إتفاق في مفاوضات مقبلة لتعديل إتفاقيتي ١٨٩٩، وحـــل مشكلة السودان، وحل مشكلة السودان، وبدون إخلال بحق سيادة مصر علي الســـودان – يـــتفق الطرفان المتعاقدان علي ان يسكون مركز السودان هو المركز الناشـــئ مـــن إتفاقيتي سنة ١٨٩٩ المذكورتين – وبناءًا علي ذلك يباشر الطرفان المـــتعاقدان إدارة الســـودان بالإشـــتراك بينهما اشتراكاً فعلياً، ويباشر الحاكم العام بالنيابة عنهما السلطات التي خولتها لهما الاتفاقيتان المشار إليهما"[١].

ورفـــض المفاوضـــون البريطانـــيون هذا النص، وذكروا انهم لا يريدون أن يتعرضـــوا لإثارة مناقشة في مسألة السودان أمام البرلمان، وأنهم لا يمكنهم تطبيق إتفاقيتـــي ســـنة ١٨٩٩ بإشراك مصر في الإدارة، وبالجملة لا يمكنهم تغيير الحالة الراهنة في السودان.

وقـــد أدرك الوفد المصري أن نية البريطانيين مبيته علي ان تنفرد بريطانيا بإدارة السودان، وأن كل ما يكون لمصر هو أن ينوب الحاكم العام عنها في الإدارة.

وقد طال الأخذ والرد بين الفريقين للوصول إلي صيغة مقبولة.

لكن الوفد البريطاني وضع صيغة نصها:

"اتفقـــت الحكومـــتان علي أن تدخلا – إذا طلبت إحداهما ذلك – في مناقشات وديـــة فـــي بحـــر سنة من تاريخ نفاذ المعاهدة، وذلك بالنسبة لأي مسألةتنجم عن تطبيق أي مادة من مواد المعاهدة تكون قد نشأت عنها صعوبة ما"[٢].

وعـــرض الفـــريق البريطانـــي أثـــناء مناقشة مسألة عودة الجيش المصري للسودان، ومسائل الهجرة، والتجارة، والملكية أن ينص علي:

"إن الحكومة البريطانية تنظر في المستقبل بعين العطف إلي عودة أورطة من الجـــيش المصـــري للســـودان ... وأنه من المتفق عليه ألا يكون هناك تفريق بين الـــرعايا البريطانييـــن، والأهالي المصريين فيما يتعلق بمسائل الهجرة، والملكية، والـــتجارة في السودان، وعلي ذلك يكون الرعايا البريطانيون والأهالي المصريون أحـــراراً في حيازة الملك، والاشتغال بالتجارة والصناعة في السودان، مع مراعاة القوانيـــن واللوائـــح المحلـــي التـــي لا تتعارض مع التشريع الحديث في مثل هذه المسائل.

١- جمهورية مصر العربية: السودان – مرجع سابق.

٢- جمهورية مصر العربية: السودان – المرجع السابق ص ٦٢ وما بعدها.

ويجب ألا تستعمل الرقابة التي تفرضها حكومة السودان لصالح السودان علي دخوله والهجرة إليه استعمالاً غير مقبــول لحرمان الرعايا البريطانيين أو الأعالي المصريين من حق دخول السودان أو الهجرة إليه"[١].

وكان رد الفريق المصري كما يلي:

١- يتمسك الوفد المصري بان ينص في مادة السودان أو في المذكرة علي وجوب الدخـــول في مناقشات ودية في بحر سنة من تاريخ نفاذ المعاهدة، وذلك بشأن تطبيق إتفاقيتي سنة ١٨٩٩.
٢- لا يمكـــن قـــبول العـــبارة الخاصة بالنظر بعين العطف إلي عودة أورطة من الجيش المصري إلي السودان.
٣- لا يقبل الوفد تقييد حق الهجرة والملكية والتجارة بالصيغة التي وضعها الفريق البريطاني.

وصمم كل من الفريقين علي موقفه، وأعلن إنهاء المفاوضات مع إبداء الأسف علي هذه النتيجة.

والثابــت من مجريات الأحداث أن الحكومة البريطانية في سبيل إقصاء مصر والمصــريين عـــن السودان – صنعت لنفسها أدوات وصيغاً – فخلقت للحاكم العام ورجالـــه اختصاصـــات جديدة في نوعها، وسلطاناً لا مثيل له في الزمن الحديث، ورســـمت لمســـتقبل السودان أهدافاً لا تستند إلى واقع الأحوال والظروف ولا تتفق وخير أهله أو تقدمه الحقيقي[٢].

رابعاً: الفترة من ١٩٣٠ إلي ١٩٣٦:

لم تشهد هذه الفترة تغيراً يذكر في مسألة السودان – أما في مصر فقد استقالت وزارة الـــنحاس باشـــا فـــي ١٧ يونية ١٩٣٠ وكلف اسماعيل صدقي باشا بتأليف الـــوزارة الجديـــدة، وأصدرت هذه الوزارة في يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٣٠ أمراً ملكياً بإبطال الدستور القائم وحل مجالس البرلمان ووضع دستور جديد.

وفي عام ١٩٣٢ تقابل صدقي باشا في جنيف مع السير (جون سيمون) وزير الخارجـــية البريطانـــي وسلم صدقي باشا للسير جون سيمون مذكرة بوجهة نظره كانت أساساً للحديث بين الطرفين.

١- نفس المرجع ص. ص ٨٤، ٨٥

٢- غزبال: مرجع سابق ص ٢٤٣.

وقد أبدى الوزير البريطاني في حديثة تحفظين[١]:

الأول: خاص بتحديد مواقع المعسكرات البريطانية بعد إنسحاب قواتهم.

والثاني: خاص بالسودان.

وقد جاء فيه "نري إن الإتفاق ينبغي ألا يحيد عن الإحتفاظ بالنظام الإداري الحالي للسودان. فإذا ما تم الإعتراف بذلك أمكن البحث عن الوسائل التي تصان بها حقوق مصر المادية والمعنوية في السودان".

علي أن صدقي باشا عاد لمصر، ولم يحدث أي تطور في المحادثات، ثم نقل السير (برسي لورين) من مصر وحل محله السير (مايز لا مبسون) مندوباً سياسياً لبريطانيا، وانتهي الأمر بإستقالة صدقي باشا نفسه في سبتمبر ١٩٣٣.

وألف عبد الفتاح يحيي باشا الوزارة، لكنه غضب لتوالي إعتداء رجال دار المندوب السامي علي كرامته وكرامة البلاد فاستقال، وألف توفيق نسيم باشا الوزارة في نوفمبر ١٩٣٤.

وكان أول عمل لوزارة نسيم باشا هو إلغاء دستور ١٩٣٠ كما حل مجلس النواب والشيوخ القائمين علي أساسه – علي أن يظل شكل الدولة، ومميزاتها، ومصدر السلطات، وحقوق المصريين وواجباتهم كما هي – إلي أن يوضع نظام دستوري يحل محل النظام الذي ألغي.

وكانت الغيوم قد أخذت تتجمع مهددة بقيام حرب عالمية ثانية خاصة بعد إعتداء إيطاليا علي الحبشة، وازدياد استعدادتها العسكرية في ليبيا وأفريقية الشرقية والبحر الأحمر.

واتفق الوفد والأحرار الدستوريون علي تأليف (جبهة وطنية) تسعي لإعادة دستور ١٩٢٣ ولعقد معاهدة مع إنجلترا.

وحررت الجبهة كتاباً للملك لإعادة الدستور، وأبلغت الحكومة البريطانية لتوقيع معاهدة بالنصوص التي إنتهت إليها مفاوضات هندرسن – النحاس في سنة ١٩٣٠ – بعد الأتفاق علي نص خاص بالسودان[٢].

وأبلغ المندوب السامي نسيم باشا عدم معارضة الحكومة البريطانية علي إعادة الدستور – فصدر أمر ملكي بإعادة ذلك الدستور في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥.

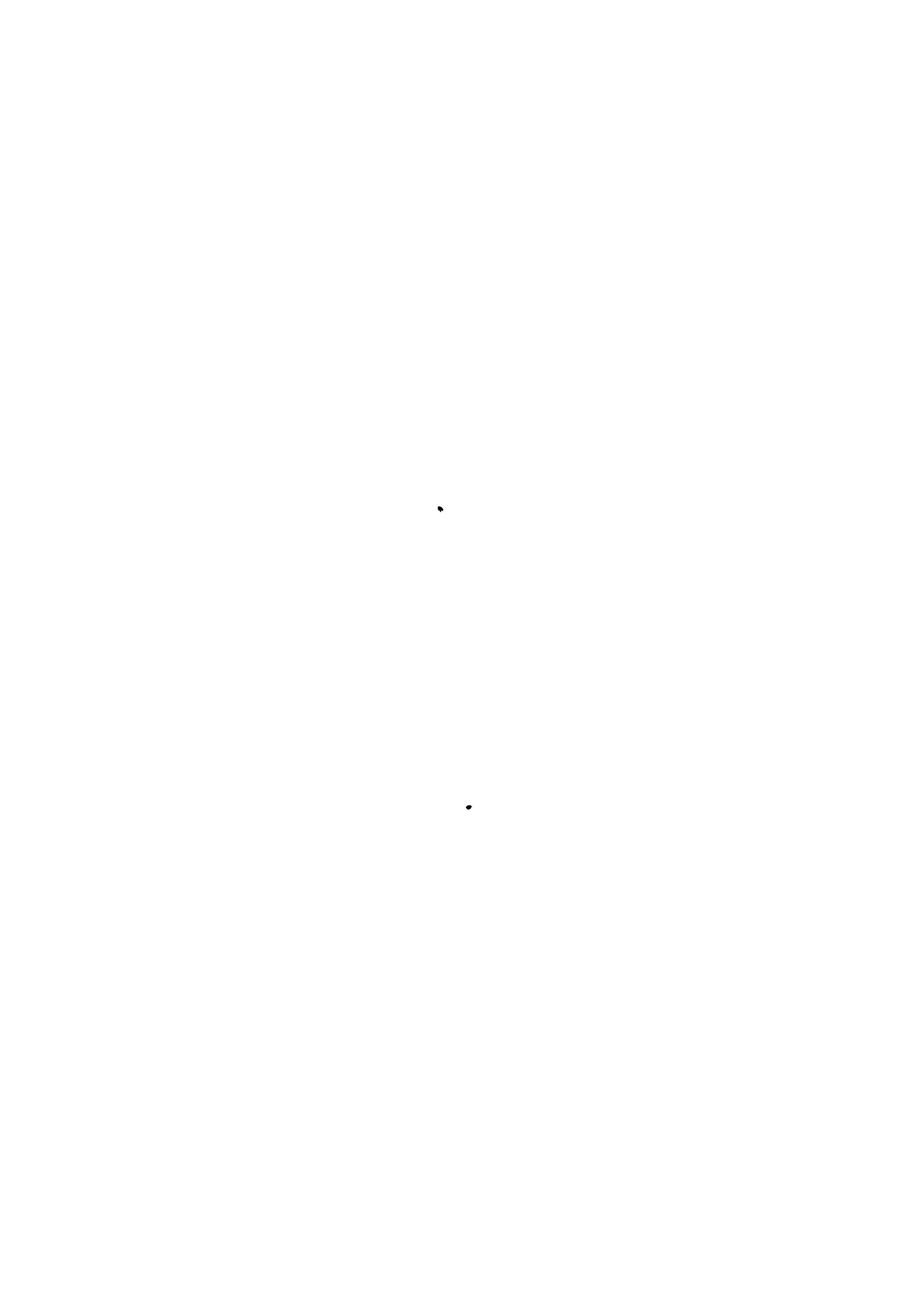
أما الاتفاق مع إنجلترا فقد تم في عام ١٩٣٦ كما سنوضح بعد.

١- غربال: مرجع سابق ص ٢٦١، ٢٦٢

٢- غربال: مرجع سابق ص ٢٦٨

الفصل العاشر
السودان فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٣

السودان فى معاهدة ١٩٣٦ وملحقاتها.
التطورات التى طرأت على السودان بعد معاهدة ١٩٣٦.
الأحزاب السودانية وإتجاهاتها المختلفة.
السودان فى المفاوضات ١٩٤٦-١٩٥٣.
عرض قضية السودان على مجلس الأمن والقرار الذى انتهى إليه.
مباحثات ١٩٥٢-١٩٥٣
اتفاق الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودانيين (١٩٥٣-١٩٥٦).



الفصل العاشر
السودان في الفترة من ١٩٣٦ إلي ١٩٥٣

أولاً: السودان في معاهدة ١٩٣٦

فرضت الظروف الدولية والداخلية علي بريطانيا ان تسعي لرسم علاقاتها مع مصـــر علي أسس دائمة – لذلك كلف مستر أنتوني أيدن (Mr. A. Eden) – الذي أصبح وزيراً لخارجية بريطانية – السفير البريطاني في مصر أن يصرح للحكومة المصـــرية بأن حكومة صاحب الجلالة علي استعداد للدخول فوراً في محادثات مع الحكومـــة المصـــرية للوصول إلي عقد معاهدة بين مصر وبريطانيا علي أن يبدأ بالمســـائل التـــي صعب حلها في سنة ١٩٣٠ (المسألة العسكرية، ومسألة السودان) فإذا ما بدئ بالتفاهم عليها كان الأمل في النجاح أكثر[١].

وفـــي ١٣ فـــبراير ســـنة ١٩٣٦ صدر مرسوم ملكي مصري بتعيين الهيئة الرســـمية المصرية لإبرام معاهدة صداقة ومودة ومحالفة مع بريطانيا العظمي من مصـــطفي الـــنحاس باشـــا رئيســـا، ومحمد محمود باشا، وعبد الفتاح يحيي باشا، وواصـــف بطـــرس غالي باشا والدكتور أحمد ماهر (باشا)، وعلي الشمسي باشا، وعثمان محرم باشا، ومحمد حلمي عيسي باشا، والأستاذ مكرم عبيد (باشا)، وحافظ عفيفـــي باشا، والأستاذ محمود فهمي النقراشي (باشا)، وأحمد حمدي سيف النصر بك (باشا) أعضاء.

وتألفت الهيئة البريطانية من السير ما يزلامبسون وقواد عسكريين.

وعقدت جلسة الأفتتاح بقصر الزغفران في ٢ مارس سنة ١٩٣٦.

وقـــد توفـــي الملـــك فؤاد في ٢٨ إبريل سنة ١٩٣٦ – قبل الوصول لإتفاق، وتـــألف مجلـــس الوصاية من الأمير محمد علي، وعبد العزيز عزت باشا، ومحمد شريف صبري باشا.

وفـــي ١٠ مايو ١٩٣٦ ألف النحاس باشا وزارته بعد فوز الوفد بالأغلبية في الانتخابات.

ووصـــل الفريقان المتفاوضتان في ٢٤ يوليو ١٩٣٦ إلي إتفاق بشأن المسائل العسكرية.

١- محمد حسنين هيكل: مذكرات في السياسة المصرية جـ١ (١٩٥١) ص ٣٩٤.

إما فيما يتعلق بالسودان فقد أستُدعي السير جورج سيتوارت سايمز حاكم عام السـودان من لندن للأشتراك في المحادثات المتعلقة به، ووصل الطرفان إلي إتفاق وقع بالحروف الأولي في ١٢ أغسطس ١٩٣٦. وبعد ذلك سافر الوفد المصري إلي لندن حيث تم التوقيع النهائي علي المعاهدة في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ بقاعة لوكارنو بوزارة الخارجية البريطانية[١].

وفـيما يتعلق بالسودان فقد جاء في المادة الحادية عشرة من المعاهدة وملحقها إنه[٢]:

١- مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل إتفاقيتي ١٩ يناير، ١٠ يولـيو سنة ١٨٩٩ – فقد اتفق الطرفان المتعاقدان علي أن إدارة السودان تسـتمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين، ويواصل الحاكم العام، بالنيابة عن كـلاً الطرفيـن المتعاقدين، مباشـرة السلطات المخولة له بمقتضي هاتين الإتفاقيتين.
الطـرفان المتعاقدان متفقان علي أن الغاية الأولي لإدارتهما في السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين.

٢- بـناءًا علـيّ ذلـك تبقي سلطة تعيين الموظفين في السودان وترقيتهم محولة للحاكم العام الذي يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين في الوظائف الجديدة التي لا يتوفر لها سودانيون أكفاء.

٣- يكـون جنود بريطانيون، وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلاً عن الجنود السودانيين.

٤- تكون هجرة المصريية إلي السودان من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام.

٥- لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين، والرعايا المصريين في شئون التجارة والمهاجرة أو الملكية.

٦- اتفق الطرفان المتعاقدان علي الأحكام الواردة في ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التي تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية في السودان.

١- لمن يريد تفصيلات علي المراحل التي مرت بها هذه لمفاوضات والمناقشات التي دارت فيها أنظر:
القـانون رقـم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ بالموافقة علي معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمي (صر في ١٩٣٧) حيـث أنـه لم تنشـر محاضر لهذه المفاوضات باستثناء محاضر مكرم عبيد باشا في قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة عن هذه المفاوضات وقد نشرها اتحاد الجامعة.

٢- جمهورية مصر العربية: السودان مرجع سابق من ٨٦ وما بعدها.

كما اتفق:

أ - علـي أن يقـدم الحاكم العام إلي حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة، وإلـي الحكومة المصرية تقريراً سنوياً عن إدارة السودان، وأن يبلغ التشريع السوداني غلي رئيس مجلس الوزارة المصري مباشرة.

ب- يكـون تعييـن الـرعايا المصـريين فـي وظائف السودان الرسمية خاضعاً بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الخالية ووقت حاولها ومؤهلات المرشحين المتقدميـن لها ... وتكون ترقية الموظفين في حكومة السودان إلي أية درجة كانت بدون مراعاة للجنسية وذلك بالإختيار تبعاً للجدارة الشخصية.

ج- أنـه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في إرسال جنود إلي السودان – فإن الحـاكم العـام سـيبادر بالنظر في عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السـودان، والأماكـن التـي يعينون فيها، والثكنات اللازمة لهم – وسترسل الحكومـة المصـرية فـوراً بعد نفاذ المعاهدة ضابطاً مصرياً عظيماً يستطيع الحاكم العام أستشارته في هذه الأمور.

وقـد ألقـي النحاس باشا بياناً في مجلس النواب في ٢ نوفمبر تحدث فيه عن مزايا معاهدة ١٩٣٦ – وذكر في هذا البيان فيما يتعلق بالسودان.

إنـه مع الإحتفاظ بمسألة السيادة علي السودان وبحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي ١٨٩٩ – فقد توصل الطرفان إلي الاتفاق علي:

١- عودة الجيش المصري إلي السودان.

٢- يعيـن المصريون كما يعين البريطانيون في وظائف حكومة السودان التي لا يوجد لها سودانيون أكفاء.

٣- يرقـي المصـريون إلي أعلي الدرجات ومنها وظائف السكرتيريين الذين لهم حق الجلوس في مجلس الحاكم العام (وهم بمثابة الوزراء عندنا).

٤- تحويـل مفـتش الري في السودان (وسيكون مصرياً) حتي الجلوس بمجلس الحاكم العام عند النظر في الشئون المعلقة بمهام وظيفته.

٥- دب خبير أقتصادي مصري للخدمة في السودان.

٦- تكـون هجرة المصريين إلي السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والأمن العام.

٧- لا يكون هناك تفرقه بين المصريين والإنجليز – فيما يتعلق بالتملك.

٨- يبلغ التشريع السوداني إلي رئيس الوزارة المصرية مباشرة.

٩- يقدم التقرير السنوي الذي يضمه الحاكم العام عن إدارة السودان إلي الحكومة المصرية.

هذه وجهة نظر المؤيدين للمعاهدة.

لكـــن أوضـــح نقد وجه لما جاء بالمعاهدة خاصاً بالسودان هو ما أثاره محمد علوية باشا فقد ذكر:

"إنـــه لا يفرحـــنا أيهـــا الســـادة أن يُقال أننا نتساوي مع الإنجليز في التملك والهجرة، إن لنا روابط مع السودانيين. لنا روابط اللغة، والدين،

وأظـــن انه كان يصح أن يكون لنا أتصال روحي بمن هم مثلنا في الدين من حيث التعليم الديني وتعليم اللغة".

ويعلق الأستاذ غربال علي هذا النقد بقوله:

لقـــد وضـــح ســـعادته (أي علوية باشا) بذلك إدراكه لما أعتقد إنه كان وجه الضعف في سياسة مصر في أفريقية منذ أيام محمد علي للأن: إن وحدة الوادي لم توضع علي الأساس الوحيد الذي كان يستطيع ان يجتذب إليه أقوي البواعث وأقوي الشخصيات في الحياة السودانية[١]"

وقـــد أشار آخرون إلي ان القول بأن المعاهدة ليس فيها مساس بحقوق السيادة المصـــرية فـــي الســـودان، وأن الاشتراك في الإدارة لا يعتبر ماساً بمسألة السيادة هـــذه- كل ذلك غير صحيح فهو يتنافي مع ما ذكره وزير الخارجية البريطانية في مجلس العموم من أن المعاهدة لم تغير الوضع القانون القائم في السودان[٢].

ويعلـــق الدكـــتور محمد أنيس علي هذه المعاهدة – من خلال دراسته لأوراق اللـــورد كيلرن بان هذه المعاهدة حطمت كل ما بقي لمصر في السودان، ووضعت جميع أموره بين أيدي رجال الإدارة البريطانية، واستطاعت بريطانيا أن تصل إلي هدفهـــا مـــن المعاهدة وهو عدم المساس بسيادتها وإدارتها في السودان ... وهكذا لعـــب السير ما يز لأمبسون دورة بعبقرية ودهاء وحنكة بحيث تحققت كل أهداف بريطانـــيا في المحافظة علي مصالحها في السودان عن طريق معاهدة معترف بها من بريطانيا ومصر[٣].

١- غربال مرجع سابق: ص ١٠٣

2- Parliamentary Debates, Vol. 318 (House oF Commons, Session 1936 1937, 24/11/1936)

٣- محمـــد أنـــيس: الوراق الخاصة باللورد كيلرن – صحيفة الأهرام العدد ٣١٤٩٦ (٥ مارس ١٩٧٣) وذلك تعليقا علي مذكرات اللورد كيلرن عن الفقرة (١٩١٤ – ١٩٤٦) التي نشرها وعلق عليها كمال عبد الرؤوف.

ولعل تحليل الدكتور مكي سبيكه لمعاهدة ١٩٣٦ بالنسبة للسودان هو أقرب ما يكون للواقع فقد ذكر: "إنه لما كانت معاهدة ١٩٣٦ لم تضف شيئاً جديداً بين مصر وبريطانيا يغير وضع السودان من أية ناحية، فقد أرضت الكرامة المصرية دون أن تعطـــي المصـــريي حـــق المشاركة الفعلية في الحكم دون المساس بجوهر الجهاز الإداري في السودان بقي في أيدي الإدارة البريطانية[١]".

هـــذا وقـــد أســـفرت نتـــيجة التصويت علي مشروع القانون المعروض علي البرلمان بالموافقة علي معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمي عن قبول المشروع.

ففـــي مجلس النواب صوت في صالح المشروع ٢٠٢ من الأصوات ضد ١١ صوتاً.

وفي مجلس الشيوخ صوت في صالح المشروع ١٠٩ من الأصوات ضد أصوات.

وهكذا نجد أن علاقة بريطانيا بمصر مرت بأربعة أدوار:

احتلال العسكري – ثم حماية – فاستقلال اسمي مقيد بتحفظات – ثم محالفة.

أما دورها في السودان – وقد كان بالطبع مرتبطاً بالدور الذي تلعبه في مصر فقد مر بالمراحل الآتية:

الضغط علي مصر لإخلاء السودان – محاولة تصفية كل أثر لمصر فيه إيجاد نظـــام للحكـــم في السودان يخدم أغراض الإمبراطورية البريطانية الاستعمارية مع الاســـتفادة بخـــبرة مصر السابقة وبعلاقاتها الطبيعية بالسودان وبماليتها لخدمة هذه الأغراض.

وقد صمم ببراعة اللورد كرومر – نظاماً يحقق هذا الهدف.

وفي ١٩٣٦ حصلت بريطانيا علي اعتراف رسمي من مصر بالسلطات التي جمعـــت فـــي يد الحاكم العام. ولعل سياسة الإدارة البريطانية في السودان في ظل معاهدة ١٩٣٦ تزيد الموقف وضوحاً.

ثانياً: التطورات التي طرأت علي أوضاع السودان بعد معاهدة ١٩٣٦:

رغـــم معـــاهدة ١٩٣٦، وما جاء بها خاصاً بالسودان فقد ظلت إدارة السودان في أيـــدي الإنجلـــيز، وإن كان قد حدثت بعض التعديلات في الإدارة نتيجة إنشاء المجالس البلدية والمحلية والقروية، وصدور قانون الحكم المحلي فيما بعد في عام ١٩٥١.

١- مكي شبكه: السودان عبر القرون ص ٥٠٤.

هــذا بالإضافة إلي إنشاء المجلس الإستشاري ليقدم المشورة للحكام العام. لكن كمــا ســنري – فقــد ظلت السلطة الحقيقية في أيدي الحاكم العام وكبار الموظفين البريطانيين. وأهم ما طرأ علي أوضاع السودان:

١- عودة وحدات من الجيش المصري إلي السودان:

تنفــيذاً للمــادة ١٦ من المحضر الملحق بمعاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا وللفــترة الثالــثة مــن المادة الحادية عشرة من هذه المعاهدة – فقد اصدر مجلس الــوزراء فـــي ٣١ مارس ١٩٣٧ قراراً بندب (إبراهيم خيري باشا) وكيل وزارة التربية والبحرية بصفته ضابطاً عظيماً يستشيره الحاكم العام للسودان في أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السودان، والأماكن التي يقيمون فيها، والتكنات اللازمة لهم.

وبــناءًا علي هذه المشاورات قدم السفير البريطاني مذكرة في ٢٧ يولية سنة ١٩٣٧ بالقوات التي رأي حاكم السودان أنها لازمة للخدمة في السودان من الجنود المصــرية وهي اورطتان من المشاة، وقوات منفصلة للدفاع عن الشواطئ وبعض المــدن السودانية الأخري، وقد حرص السفير البريطاني علي أن يشير في مذكرته إلي ان[١]:

أ - القــيادة العســكرية العلــيا في السودان مخولة للحاكم العام بمقتضي اتفاقيتي ١٨٩٩.

ب- إن الفقــرة الأولـــي من المادة ١١ من معاهدة التحالف تنص علي أن يواصل الحــاكم العام بالنيابة عن كلاً الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمخقتضي هاتين الاتفاقيتين.

ج- إن الفقرة الثالثة من المادة ١١ من معاهدة التحالف تنص علي أن يكون جنود بريطانــيون، وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان – فضلاً عن الجنود السودانين.

د - إن الفقرة السادسة عشر من المحضر الملحق بمعاهدة التحالف تقضي بأن يــنظر الحــاكم العــام نفسه في عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السودان.

هـ- وإن الحاكم قد أبدي رغبته في تعيين ضابط مصري كسكرتير حربي له.

١- جمهورية مصر العربية: السودان ص. ص ٨٩، ٩٠

وهكـــذا نجـــد أن السفير البريطاني كان حريصاً علي التأكيد علي أن السلطة الكاملة في الإدارة يجب أن تكون في يد الحاكم العام – وانه هو صاحب الشأن في تحديد عدد الجنود الذين يطلبون من كل من الحكومتين المصرية والبريطانية للدفاع عن السودان، وفي تحديد الأماكن التي تعمل فيها هذه القوات...

علـــي كـــل كلفت الحكومة المصرية وزير الحربية باتخاذ الاجراءات اللازمة لإرسال القوات المطلوبة إلي السودان.

٢- الموظفون المصريون والبريطانيون المعينون في السودان منذ إبرام المعاهدة:

فيما يتعلق بالموظفين المصريين والبريطانين الذين يعينون في السودان، فعلي الـــرغم من أن شروط المعاهدة تقضي بأن يعين المصريون كما يعين البريطانيون فـــي وظـــائف حكومـــة الســـودجان التي لا يوجد لها سودانيون أكفاء – فإن عدد المصـــريين الذين التحقوا بخدمة السودان في الخمس سنوات التالية لتوقيع المعاهدة كان أقل من عشرة في المائة من عدد الموظفين البريطانيين.

فقـــد قـــدم أحد النواب في ١١ سبتمبر سنة ١٩٤١ سؤالا عن عدد الموظفين المصـــريين، والموظفين الإنجليز الذين التحقوا بخدمة السودان، وماهية العمل الذي أسند لكل منهم بعد إبرام معاهدة التحالف والصداقة.

وقـــد طلبـــت هـــذه البيانات شفوياً من السفارة البريطانية فكان ردها بخطاب مـــؤرخ ١٦ أكـــتوبر ١٩٤١ إنـــه مـــنذ إبـــرام المعاهدة قد عين ١٢٣ موظفاً من المصريين والبريطانيين منهم ١١٢ موظفاً بريطانياً، ١١ مصرياً وذلك لعدم وجود موظفين مصريين فنيين أكفاء لشغل الوظائف الباقية(١).

٣- موقف المثقفين السودانيين وتأسيس حركة الخريجيين:

شـــعرت الطـــبقة المثقفة أن مصير السودان يقرر دون الرجوع لأهله – لذلك قررت هذه الطبقة تشكيل جبهة متحده ليثبتوا أنهم لن يظلوا كياناً سلباً تشكل أقداره دون أخذ رأيه(٢).

وبـــدأ نشـــاط المثقفين السودانيين على شكل (جمعيات أدبية) تمثل نشاطها فى الأندية الثقافية وفى مقدمتها (نادى الخريجين بأم درمان)، وفى المقالات التى أخذت تظهر فى الصحف والمجلات مثل صحيفة النيل، ومجلة الفجر.

١- رد مستر شون بالسفارة البريطانية فى ١٦ أكتوبر ١٩٤١ (أنظر جهورية مصر : السودان مرجع سابق – ص ٩١)

2- Mahgoub, M.D.: Demecracy in Trial, p.p 39 40.

وقد تطور الأمر إلى الدعوة لمؤتمر للخريجين[١] لتجسيم أفكار ومشاعر وأحاسيس الحركة الوطنية فى برنامج محدد. وكان فى مقدمة الساعين لهذه الفكرة السيد أحمد محمد خير[٢].

وقد لقيت الفكرة تأييداً عاماً من كل الخريجين، وفتح باب الاشتراك فى المؤتمر أمام جميع الخريجين، وانتخبت لجنة تمهيدية للمؤتمر.

وعقد المؤتمر اجتماعه الأول فى ١٢ فبراير ١٩٣٨، ورأس الاجتماع إسماعيل الأزهرى رئيس اللجنة التمهيدية وانتخبت اللجنة التنفيذية للمؤتمر، كما عرض على المؤتمر مشروع دستور حدد الغرض من إنشاء المؤتمر لخدمة المصلحة العامة للبلاد، ورعاية مصالح الخريجين، وشرح اختصاص اللجان والنواحى التنظيمية والإدارية والمالية[٣].

وكان السؤال الذى لابد أن يفرض نفسه على الموقف كله هو: ما موقف هذه الحركة الجديدة من السلطات الحاكمة بالسودان؟ وما موقف السلطات الحاكمة منها؟

وقد تقدمت لجنة شكلت لهذا الغرض من بين أعضاء المؤتمر – إلى الأدارة البريطانية فى السودان ببيان بالغرض من المؤتمر، ودستوره – لتحصل على الاعتراف به[٤].

وأوضحت اللجنة أن أعمال المؤتمر تنحصر فى أمرين:

أ – المسائل المتعلقة بالإصلاح الاجتماعى، والمشاريع الخيرية وغيرها.

ب– المسائل العامة التى تدخل فى نطاق إعمال الحكومة وتمس سياستها. وفى هذا لا يريد المؤتمر أن يسلك سلوكاً يتنافى مع سياسة الحكومة بل أن يعاونها بما يقدمه من آراء ومقترحات.

واتسم رد السكرتير الإدارى بالكياسة، فقد أشار إلى أن المؤتمر لا يمثل غير أعضائه، وأنه لم يطلب الاعتراف الرسمى به كهيئة سياسية وأنه فى هذه الحدود سيلقى منه كل عناية واعتبار[٥].

١– يذهب البعض إلى أن فكرة مؤتمر الخريجين مستوحاه من فكرة المؤتمر الهندى.
انظر – محمد خير: كفاح جيل ص ٨٣.

٢– أنظر محاضرته فى هذا الشأن فى:
أحمد محمد خير – مجلة الفجر (١٦ مايو ١٩٣٧).

٣– مؤتمر الخريجين العام دستور المؤتمر العام، ولائحته الداخلية (١٩٣٨).

٤– شكلت اللجنة م الدرديرى محمد عثمان وأحمد محمد صالح.

٥– مجلة المؤتمر – عدد ٢ (فبراير ١٩٣٩).

وهكـــذا نرى أن حكومة السودان – على لسان سكرتيرها الإدارى لم تعترف بالمؤتمـــر إلا كهيـــئة شعبية تمثل الخريجين فقط، وتعمل فى ميدان الخدمة العامة ولـــيس لهـــا الحـــق فـــى التحدث باسم الشعب السودانى كله أو التدخل فى الشئون السياسية.

وقد حاولت الإدارة بعد ذلك السيطرة على حركة المؤتمر وإستيعابها.

وفـــى هذا الإتجاه عمدت الإدارة إلى استيعاب نشاط الخريجين بمحاولة شغلهم بالعمل فى السلطات البلدية والمحلية، كما اتجهت لإرسال بعثات علمية تدريبية إلى بريطانـــيا مـــن العاملين فى حقل التعليم أو الأطباء وغيرهم بهدف تشربهم بالثقافة البريطانية وإبعادهم عن الثقافة المصرية.

وقـــد لعب الجنرال هيدبرت دلستون Huddleston – الذى أصبح حاكما عامًا مـــنذ عـــام ١٩٤٠ – دورًا حاسمًا فى العمل على تصفية الحركة الوطنية السودانية وعلى الحيلولة دون أى تقارب مصرى سودانى[١].

هـــذا وقد برزت جهود مؤتمر الخريجين فى العديد من المجالات . ففى مجال التعلـــيم فتحـــت عـــدة مـــدارس حتى فاق عدد المدارس التى أنشأها المؤتمر عدد المدارس الحكومية.

وجـــاءت أحـــداث الحـــرب العالمية الثانية، وإعلان ميثاق الأطلنطى فى عام ١٩٤١ ومـــا جـــاء فيه من وعود للشعوب الصغيرة وحقها فى تقرير مصيرها بعد نهاية الحرب، وغير ذلك من وعود الحلفاء البراقة بهدف مساهمة هذه الشعوب فى الحرب ضد الدول الغازية وأتباعها – فرصة لإثارة المشاعر القومية للسودانيين – ولـــذا قرر المؤتمر الظهور على المسرح السياسى فتقدم للسكرتير الإدارى بمذكرة اشـــتملت علـــى إثنى عشر مطلباً بمستقبل السودان السياسى والأوضاع الدستورية والاجتماعية، فقد طالب المؤتمر[٢] بـــ:

١- إصـــدار تصريح مشترك يمنح السودان حق تقرير مصيره على أن يترك للشعبين المصرى والسودانى حق تكييف علاقتهما الطبيعية باتفاق خاص بينهما.

١- شغل الجنرال هدلستون عدم مناصب فى السودان ولعب دوراً بارزاً منذ ١٩٢٤ فى مقاومة الحركة الوطنية السودانية وفى تصفيه الوجود المصرى فى السودان؟ وقد عهد إليه بتشكيل قوة الدفاع السودانية بعد سحب القوات المصريه من السودان وأصبح قائداً للقوة الجديدة.

انظر عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية حـــ٣ ص ٩.

٢- أحمد محمد خير : كفاح جيل ص ٣١٩ وما بعدها.

٢- تأسيس هيئة سودانية لإقرار القوانين والميزانية.
٣- تأسيس مجلس أعلى للتعليم من السودانيين، مع تخصيص ١٢% على الأقل من الميزانية للتعليم.
٤- فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.
٥- إلغاء قوانين المناطق المقفولة.
٦- وضع تشريع يحدد الجنسية السودانية.
٧- تحديد الهجرة إلى السودان.
٨- عدم تجديد عقد الشركة الزراعية بالجزيرة.
٩- قصر الوظائف على السودانين، وما تدعو الضرورة لشغله بغيرهم يكون بعقود محددة الأجل إلى أن يتدرب السودانيون على شغلها.
١٠- إلزام الشركات التجارية بالسودان بتحديد نسبة من موظفيها للسودانين.
١١- تمكين السودانين من استثمار موارد بلادهم.
١٢- توحيد برامج التعليم فى الشمال والجنوب.

وقد كانت هذه المذكرة بمثابة ناقوس الخطر الذى جعل الحكومة تدرك مدى خطورة المؤتمر، ولذلك كانت هذه بداية إصطدام المؤتمر بالسكرتير الإدارى الذى لفت أنظار المؤتمر إلى أنه يجب أن يحصر نفسه فى الشئون الداخلية، وأن يقلع عن أى دعوى فى تمثيل البلاد تمثيلاً عاماً، وأنكر على المؤتمر أى حق فى الدفاع عن البلاد(١).

وبذلت الإدارة محاولات لعلاج الموقف تارة بمحاولة التقارب مع الخريجين، وتارة أخرى بالتفكير فى إقامة مجلس إستشارى سودانى لمواجهة المؤتمر وإجهاض حركته وإيجاد بديل له، كما بذلت المحاولات لبذر بذور الشقاق بين أعضاء المؤتمر أنفسهم(٢).

وكان إنشاء المجلس الإستشارى لشمال السودان الذى خرج لحيز الوجود فى عام ١٩٤٤ خطوة تهدف الإدارة البريطانية فى السودان من ورائها إرضاء العناصر الراغبة فى التعاون معها من السودانين ولقطع الطريق على المتحمسين من أعضاء المؤتمر.

١- انظر خطاب فيوبولد السكرتير الإدارى رداً على مذكرة المؤتمر فى صحيفة الرأى العام - عدد ٢٨٤ (مارس ١٩٥٦).
انظر - إبراهيم أحمد العدوى : يقظة السودان ص ٨٤.
٢- ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث (١٩٦٥) ص ٢٥٨.

واستندت الإدارة البريطانية على حجة قوية – هى حجة تدريب السودانيين على المشاركة فى الحكم كما تقضى بذلك المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦ ونجحت الإدارة فى أن تجد من السيد عبد الرحمن المهدى وأنصاره من يرحب بالاشتراك فى هذا المجلس – لكن الغالبية من أعضاء المؤتمر ومن أتباع السيد على الميرغنى زعيم الختمية، وفريق إسماعيل الأزهرى (الأشقاء) لم يقبلوا الاشتراك فى المجلس – وكان النقد الذى وجه له:[١]

١- أنه مجلس استشارى ليس له سلطة تشريعية.
٢- قاصر على الشمال فقط (مديريات الخرطوم، والشمالية، والنيل الأزرق، وكسلا، وكردفان، ودارفور) فهو خطوة لفصل الجنوب عن الشمال.
٣- تشكيل المجلس بالشكل المقترح يجعله مجلساً حكومياً لا قيمة له[٢].

هذا على أن الأحداث العالمية والمحلية التى صاحبت الحرب العالمية الثانية وتصريحات قادة الحلفاء، وتصريحات روزفلت وغيره أثناء الحرب حول الحرية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها، وانتشار الحركات التحررية فى القارة الأفريقية وغيرها عقب هذه الحرب – أدت كل هذه إلى تطور الحركة الوطنية سواء فى مصر أم فى السودان وعاصرت هذه الأحداث نشاط الأحزاب السياسية السودانية ببرامجها المختلفة.

ولعله من المفيد أن نحاول أن نلقى الأضواء على اتجاهات الأحزاب السودانية التى نشطت فى ذلك الوقت :

ثالثاً: الأحزاب السودانية واتجاهاتها:

المختلفة، وما بذل من وعود أثناء الحرب – باب الأمل للشعوب المظلومة لتطلع لتحقيق أمالها الوطنية.

وفيما يتعلق بالسودان كانت الآمال معقودة على مؤتمر الخريجين – وقد اجتمعت هيئةُ المؤتمر العام للخريجين فى أبريل ١٩٤٥ وحددت مطالب الأمة السودانية فى قيام حكومة سودانية ديموقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى.

1- Beshir, M.O. : Op. Cit., pp. 164 165.

٢- شكل المجلس من الحاكم العام رئيسا والسكرتيرين الثلاثة نواباً للرئيس، ٢٨ عضواً معهم عن المديريات الستة الشمالية والباقون يعينهم الحاكم العام لتمثيل المصالح المختلفة فى البلاد.

وأرسل المؤتمر مذكرة إلى رئيس كل من حكومتى مصر والسودان موضحاً فيها ما بذله السودان من جهود وتضحيات أثناء الحرب وموضحاً مطالب السودانيين[١]. هذا على أن الحكومة المصرية أرسلت فى سبتمبر ١٩٤٥ مذكرة إلى مؤتمر وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى المنتصرة فى الحرب (الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، وبريطانيا، وفرنسا) والمنعقد فى لندن – تطالب فيها بإعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ لتحقيق جلاء الجنود البريطانية عن مصر ووحدة وادى النيل[٢].

على أن الإدارة البريطانية فى السودان استغلت الخلاف بين السودانيين فى تقرير نوع العلاقة التى يريدونها لبلادهم مع مصر، هل هى الوحدة أم الاتحاد أم الاستقلال . وذلك لأنهم – كما ذكر السكرتير الإدارى البريطانى – "لا ينوون أن يسمحوا لعمل خمسين عاماً أن يهدده بعض مثيرى الفتن الذين يثيرون بعض الأهالى من البسطاء".

أما عن الأحزاب السودانية التى نظمت فى ذلك الوقت فيمكن إدراجها حسب الإتجاه العام لها تحت أحد المجموعتين:[٣].

أولاً: الأحزاب الأتحادية:

وتضم حزب الاتحاديين وحزب الأحرار، والأشقاء، وحزب وحدة وادى النيل.

وتتفق هذه الأحزاب فى أنها تدعو لقيام حكومة سودانية حرة فى إتحاد مع مصر، وقد اختلفت فى شكل هذه الاتحاد وأهمها.

أ – حزب الاتحاديين:

كان يرى أن يكون هذا الاتحاد على نظام الدومنيون . وقد نشأة هذا الحزب عام ١٩٤٤، وكانت له صحيفة تتحدث باسمه هى (صحيفة اللواء) لكن كانت غالبية أعضاء الحزب من الطبقة المتعلقة وكانوا بعزلة عن الجماهير. وكان يشرف على سكرتارية الحزب عبد الله ميرغنى.

١– انظر نص المذكرة فى :

أحمد محمد خير : مرجع سابق – ص ص ٢٣٥ – ٣٤٣

٢– سنتعرض فيما بعد بتفصيل لتطور المفاوضات بين مصر وبريطانيا، ووضع قضية السودان منها.

Central Records Office Khartoum. From Robertson Civil Secretary to all Governers. Khartoum 2/11/1946.

٣– مجلة السودان الجديد : الأحزاب السياسية (عدد ٤٧ – نوفمبر ١٩٤٤).

كذلك مجلة أمن درمان : نشأة الأحزاب السودانية (عدد ١٤ – نوفمبر ١٩٤٥).

ب- حزب الأحرار:

نشأ عام ١٩٤٤ أيضاً ونادى بقيام حكومة ديمقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى، وكانت له صحيفة تتحدث باسمه (هى صحيفة الأحرار).

ج- حزب الأشقاء:

ظهـر منذ ١٩٤٤، وكان على رأس الحزب السيد إسماعيل الأزهرى، وكان يتمتع بتأييد الطائفة الختمية وزعيمها السيد على الميرغنى، وكان هذا الحزب أكثر الأحـزاب الإتحادية أنصاراً، وكان ينادى بوحدة وادى النيل على أن تكون للسودان حكومة ذاتية فى وحدة مع مصر بعد جلاء بريطانيا عن السودان . وكانت الحكومة المصـرية تناصـر هـذا الحزب وتعضره أدبياً ومادياً . وقد وقف الحزب موقف المعـارض من كل مشروعات الإدارة البريطانية، وكانت للحزب صحيفة (صحيفة الأشقاء) تتحدث باسمه.

و- حزب وحدة وادى النيل:

تأسـس فى عام ١٩٤٥ أسسه الدرديرى أحمد إسماعيل المحامى، وكان ينادى بمـبدأ وحـدة وادى النـيل والجلاء العاجل عن مصر والسودان، وكانت (صحيفة الحقيقة) هى التى تتحدث باسم الحزب.

ثانياً: الأحزاب الاستقلالية:

أ - حزب الأمة:

رفع هذا الحزب شعار "السودان للسودانيين" وكانت تسانده المهديه. وقد ظهر هـذا الحـزب فى عام ١٩٤٥، ووجد تأييداً من الإدارة البريطانية حتى أن البعض يذهب إلى أنه نشأ بإيعاز من هذه الإدارة لمحاربة الفكرة الاتحادية التى انتشرت فى السـودان وتولـى السـيد الصديق المهدى نجل السيد عبد الرحمن المهدى رئاسة الحزب، بينما كان السيد عبد الله خليل سكرتيراً عاماً له، وتعاون أتباعه مع الإدارة البريطانـية فى مختلف نشاطاتها ومشاريعها، وكانت له صحيفة هى (صحيفة الأمة)، وقد استمد نفوذه من نفوذ المهديه وأتباعها.

ب- حزب القوميين:

ظهـر هـذا الحـزب فى عام ١٩٤٤هـ، وقد صرح اتباعه بأنهم يؤيدون اتجاه الإدارة البريطانـية فـى السـودان التى تهدف إلى تدريب السودانيين حتى يصلوا لمرحلة الحكم الذاتى.

رابعاً: السودان فى المفاوضات المصرية البريطانية (١٩٤٦-١٩٥٣)

١- السودان فى مفاوضات سنة ١٩٤٦ (صدقى بيفن):

قدمت حكومة النقراشى باشا – فى ديسمبر ١٩٤٥ مذكرة رسمية للحكومة البريطانية بشأن جلاء القوات البريطانية وتحقيق وحدة مصر والسودان، لكن الرد البريطانى على المذكرة المصرية كان مخيباً للأمال، فقد أوضحت بريطانيا تمسكها بمعاهدة ١٩٣٦، فعمت البلاد المظاهرات . فقد أوضحت الوزارة وسائل العنف لقمع المظاهرات واضطرت وزارة النقراشى لتقديم استقالتها فى ١٥ فبراير ١٩٤٦ تهدئة للمشاعر، وعهد الملك إلى اسماعيل صدقى باشا بتأليف الوزارة الجديدة، كما اضطرت بريطانيا لسحب مندوبها فى مصر اللورد كيلرم وعينت مكانه رونالد كامبل R Cambell[(١)].

على أن هذا التغيير الذى حدث فى الوزارة المصرية وفى ممثل انجلترا فى مصر لم يؤد للهدوء المطلوب، فقد استمرت مظاهرات الطلبة والعمال فى مصر وانتقل صداها للسودان فقام طلبة كلية غوردون، واتحاد العمال الزراعيين، وأعضاء مؤتمر الخريجين بمظاهرات مؤيدين لموقف إخوانهم فى مصر – وإزاء هذا قررت بريطانيا الدخول فى مفاوضات مع الحكومة المصرية.

وتألف الوفد المصرى للمفاوضات برئاسة إسماعيل صدقى باشا، بينما تألف الوفد البريطانى برئاسة وزير الخارجية المستر بيفن E. Beven[(٢)].

بدأت المفاوضات فى النصف الثانى من ابريل ١٩٤٦.

وقد اقترح الوفد المصرى فى هذه المفاوضات بروتوكولا خاصاً بالسودان نصه كالآتى:

"يتعهد الطرفان الساميان المتعاقدان بالدخول فوراً فى مفاوضات بقصد تحديد نظام الحكم فى السودان فى نطاقِ مصالح الأهالى السودانيين على أساس وحدة وادى النيل تحت تاج مصر"[(٣)].

وقد استمرت المفاوضات لمدة طويلة دون الوصول إلى تقارب فى وجهات النظر مما اضطر صدقى باشا لتقديم استقالته يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٤٦ – لكن الملك

١- عبد الرحمن الرافعى : مرجع سابق حـ ٣ ص ١٨٠.

٢- نفس المرجع السابق ص ١٨٩.

٣- جمهورية مصر العربية : السودان (١٩٥٣) ص ٩٤.

وكذلك جمهورية مصر العربية : القضية المصرية (١٨٨٢ – ١٩٥٤).

لـــم يقبلها وطلب منه الإستمرار فى الوزارة . وإنفق أخيراً على أن يسافر صدقى باشا إلى لندن لمتابعة المفاوضات هناك.

واســـتغرقت المفاوضـــات بين الطرفين الفترة من ١٨ إلى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٦ وانتهت بالاتفاق على مشروع معاهدة وبروتو كولين أحدهما للجلاء والآخر خاص بالسودان – ووقع عليها بالأحرف الأولى[١].

وقد جاء فى البروتوكول الخاص بالسودان ما يلى:

"إن السياســـة التى يتعهد الطرفان الساميان المتعادقان بإتباعها فى السودان فى نطـــاق وحـــدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك ستكون أهدافها الأساسية تحقـــيق رفاهـــية الســـودانين وتنمية مصالحهم وإعدادهم إعداداً فعلياً للحكم الذاتى، وتـــبعاً لذلـــك ممارســـة حـــق اختيار النظام المستقبل للسودان ... وإلى أن يتسنى للطرفيـــن الســـاميين المتعاقديـــن الاتفاق التام المشترك بينهما ... تظل اتفاقية سنة ١٨٩٩ ســـاريه، وكذلك المادة ١١ من معاهدة سنة ١٩٣٦ مع ملحقها والفقرات من ١٤ إلى ١٦ من المحضر المتفق عليه للمعاهدة المذكورة نافذة.."[٢]

وقـــد صرح صدقى باشا بعد عودته للقاهرة "بأن الوحدة بين مصر والسودان تحت التاج المصرى قد تقررت بصفة نهائية".

لكـــن بـــادر وزير الخارجية البريطانى – فى مجلس العموم البريطانى إلى التأكيد علـــى أن مشروع البروتوكول الخاص بالسودان لا يتضمن أى تغيير فى حالة السودان القائمـــة بـــل إنـــه لا يعـــدو أن يكون تأكيداً للحالة القائمة – وقد أكد وزير الخارجية البريطانية ذلك فى مذكرة سلمت للسفير المصرى بلندن فى ٦ ديسمبر ١٩٤٦[٣].

واضـــطر صـــدقى باشا للرد على مذكرة الحكومة البريطانية – وانتهى الأمر باســـتقالة صـــدقى باشـــا، وعهد الملك إلى محمود فهمى النقراشى بتشكيل وزارة جديدة.

٢- مفاوضات ١٩٤٦ -١٩٤٧ (النقراشى – كامبل):

شـــجعت تصـــريحات المســـئولين البريطانيين حاكم عام السودان فأدلى ف ٧ ديســـمبر ١٩٤٦ بتصـــريح يشـــجع فيه العناصر التى تعمل للانفصال عن مصر

١- انظر محاضر جلسات هذه المفاوضات نقلا عن محاضر وزارة الخارجية البريطانية فى جمهورية مصر العربية) : السودان ص. ص ٩٨ – ١١٤.

٢- جمهورية مصر العربية : المرجع السابق ص ١١٥.

٣- نفس المرجع السابق ص ١١٦.

وأعقب ذلك بتصريح مماثل فى ٢٢ ديسمبر، ثم أرسل خطاباً للحكومة المصرية بشأن إنتهاء مدة خدمة قاضى قضاة السودان المصرى الشيخ حسن مأمون، وقال إنه ينوى تعيين قاض سودانى فى هذا المنصب رغم إدراكه لأهمية هذا المنصب الدينى باعتباره رباط روحى ودينى بين مصر والسودان. كل هذه الأحداث واجهتها الوزارة الجديدة – وزارة النقراشى باشا فى أول عهدها.

وقد تقدمت الوزارة المصرية فى ١٥ يناير ١٩٤٧ بمشروع بروتوكول للسودان جاء فيه:

إتفق الطرفان الساميان المتعاقدان بغية ضمان رفاهية السودانيين وتنمية مصالحهم والعمل الدائب على إعدادهم للحكم الذاتي على أساس وحدة مصر والسودان تحت تاج مصر المشترك – أن يدخلا فوراً فى مباحثات عن السودان تمثل فيها مصر والمملكة المتحدة ويستشار فيها السودانيون.

وإلى أن يبلغ السودان الحكم الذاتى تستمر اتفاقية سنة ١٨٩٩ سارية وتظل المادة ١١ من معاهدة سنة ١٩٣٦ مع ملحقها والفقرات ١٤ إلى ١٦ من المحضر المتفق عليه والملحق بالمعاهدة المذكورة معمولا بها[١].

ولما لم يستطع الجانبان أن يصلا إلى صيغة يتم عليها الاتفاق – قرر مجلس الوزراء المصرى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٤٧ قطع المفاوضات، وعرض قضية البلاد برمتها على مجلس الأمن فهى – كما أوضح رئيس مجلس الوزراء فى بيانه بمجلس النواب بجلسة ٢٧ يناير ١٩٤٧ – قضية واحدة لا تتنجزأ.

٣- موقف السودانيين والإدارة البريطانية من المفاوضات:

لم يقف السودانيون مكتوفى الأيدي تجاه مفاوضات نتناول بالطبع مستقبل بلادهم. وقد نشط مؤتمر الخريجيين، كما ضاعف حزب الأشقاء نشاطه، وأستقر الأمر علي إرسال وفد سوداني من ممثلي مؤتمر الخريجين العام وسائر الأحزاب السودانية برئاسة السيد إسماعيل الأزهري لمصر للتعمير عن وجهة النظر السودانية، وفي القوت نفسه تكونت في السودان جبهة وطنية تشد أزر الوفد وجمع التبرعات اللازمة له[٢].

وقد كان للوفد في القاهرة نشاط ملحوظ – لكن حدث خلاف بين أعضاء الوفد من الاتحاديين وزملائهم من الأستقلاليين – من اتباع حزب الأمة علي وجه

١- جمهورية مصر العربية: السودان مرجع سابق ص ١٢٤.

٢- صحيفة الرأي العام: العدد ٢٩٨ – مارس ١٩٤٦.

الخصوص – إلي للسودان حيث نجحت الإدارة البريطانية في السودان في إقناعهم. بالاشــتراك فــي مشــروعاتها ونشاطاتها. هذا بينما قرر السيد إسماعيل الأزهري وأتــباعه فــي الوفد السفر إلي لندن ليكونوا علي مقربة من مسرح الأحداث حيث تجري المفاوضات أما عن الإدارة البريطانية في السودان فقد كانت قلقة من النتائج التي قد تسفر عنها المفاوضات خشية ان يتزعزع المركز الذي يتمتع به الإداريون وما يخطون به من وظائف ونفوذ.

لذلــك رســمت الإدارة البريطتنــية خططهــا لمواجهــة هذا الموقف. ومن الاجراءات التي إتخذتها:[١]

أ – إســتقطاب رجــال الجهــة الإستقلالية واستخدامهم لضرب حركة الإتحاديين، ولتأليب الرأي العام السوداني ضد المنادين بوحده مصر والسودان وبث الفرقة في صفوف السودانيين.

وقــد نجحــت هــذه الجهود في بذر بذور الخلاف بين أفراد الوفد السوداني بالقاهرة الذي كان يمثل كل الأحزاب، وأدي هذا لعودة أفراد حزب الأمة بالوفد إلي السودان، واتجه الحزب للتعاون مع البريطانيين والإدارة البريطانية في السودان في مشروعاتها.

وباركــت الإدارة البريطانــية نشاط السيد عبد الرحمن المهدي الذي تمثل في إرسال ممثلين إلي لندن للتعبير للمسئولين هناك عن رغبة السودانيين في الإستقلال بــبلادهم عن كل من مصر للمسئولين عن رغبة السودانيين في الإستقلال ببلادهم عــن كــل مــن مصر وبريطانيا، كما أبرق لوزير خارجية بريطانيا بهذا المعني، وبذلــت جهــود لتوحيد الجبهة الإستقلالية في السودان وقام أتباعها بمظاهرات في الخرطوم وغيرها من مدن السودان معبرة عن أعتراضها علي أي – تنازلات تقدم لمصر – علي حد تعبيرهم.

ويســرت الإدارة البريطانــية سفر السيد عبد الرحمن المهدي إلي لندن لمقابلة المسئولين هناك لتأييد وجهة نظر الإدارة البريطانية بالسودان[٢].

١- اشــترك في رسم هذه الخطط كل من الحاكم العام للسودان هدلستون الذي ظل في منصبة حتي عام ١٩٤٧ وكان – كما ســبقت الأشارة – له نشاط ملحوظة منذ عام ١٩٢٤ في الوقوف في وجه الحركات الوطنية، وكذلك السكرتير الإداري جيمس رويرتسن (Roperton) وكانت له خبرة طويلة بشئون السودان وخدم فيه منذ عام ١٩٢٢.

٢- زار السيد عبد الرحمن المهدي لندن في نوفمبر ١٩٤٦، وقابل المستر اتلي رئيس الوزارة البريطانية في ٢٧ نوفمبر ١٩٤٦ كما اجتمع بزعماء المعارضة في البرلمان البريطاني واتيحت له فرصة إذاعة حديث في الإذاعة البريطانية عن قضية السودان.

ب- الإتصال بالمعارضة وأعضاء مجلس العموم البريطاني، وكان الهدف من ذلك الضغط علي الحكومة البريطانية والوقوف في وجه أي إتفاق للحكومة البريطانية مع الحكومة المصرية يتضمن إعترافاً بتبعية السودان للتاج المصري. وقد رسمت الخطة علي أساس ان يكتب كل من السكرتيرين الثلاثة تثريراً للحاكم العام للسودان يعبر فيه عن مخاوفه من النتائج التي ترتب علي اي إتفاقية فيها تسليم بوجهة النظر المصرية. وقد سافر الحاكم العام للسودان غلي لندن حين أشبع خبر إتفاق صدقي – بيفن وكان له هناك نشاط ملحوظ في إتصاله بالمسئولين البريطانيين وأعضاء مجلس العموم البريطاني[١].

ج- إجراء تعديلات إدارية بالسودان:

تسترت الإدارة البريطانية في السودان بحجة إشراك السودانيين في إدارة بلادهم بشكل اوسع لتجري تعديلات في الإدارة.

ولذلك دعت الحكومة السودانية في ابريل ١٩٤٦ لعقد (مؤتمر إدارة السودان) وبشكل هذا المؤتمر من أعضاء بريطانيين بحكم وظائفتهم، وممثلين للمجلس الأستشاري لشمال السودان، وطلب إلي الأحزاب الأتحادية وغلي مؤتمر الخريجين العام أن ينتبدوا ممثلين عنهم ولكنهم رفضوا الأشتراك في المؤتمر.

وفي ٣١ مارس (١٩٤٧) قدم روبرتسن – بصفته رئيساً للمؤتمر – للحاكم العام للسودان تقريراً شاملاً عن المؤتمر ونتيجة مداولاته.

ومن أهم ما أستقر عليه رأي المؤتمر: إنشاء (جمعية تشريعية) نتألف من أعضاء سودانيين منتجين بحيث تشمل شمال السودان وجنوبه وتحل محل المجلس الاستشاري لشمال السودان، وكذلك (مجلس تنفيذي) يحل محل مجلس الحاكم العام الحالي.

وحددت وظيفة الجمعية التشريعية بانها: تشريعية، ومالية، وإدارية، وحدد عدد أعضاء هذه الجمعية بستين عواً علي أن يزاد في المستقبل حتي يصل إلي مائة عضو، وتقرر أن يحتفظ بعدد من كراسي الجمعية للتعيين بواسطة الحاكم العام[٢].

أما المجلس التنفيذي – فقد اقترح ان يكون من إثني عشر عضواً (السكرتيريون الثلاثة، والرئيس، وستة وكلا سكرتيريين سودانيين وعضوين يرشحهم الحاكم العام).

١- عبد الرحمن المهدي: جهاد في سبيل الأستقلال (١٩٦٥) ص ٥٥ وما بعدها.

٢- أنظر التقرير الكامل لمؤتمر الإدارة في: جمهورية مصر العربية: السودان مرجع سابق ص. س ١٣٤-١٥٤.

وقـــدر رفـــع الحـــاكم العام صورة من التقرير لكل من الحكومتين البريطانية والمصرية، واحالت الحكومة المصرية التقرير إلي الجهات المختصة لدواسته. وفي ٢٦ نوفمـــبر ١٩٤٧ قدمـــت الحكومـــة المصرية مذكرة تتضمن رفضها لتوسيات المؤتمر، وجاء في ملاحظات الحكومة المصرية[1]:

١- إن تشـــكيل الجمعـــية التشـــريعية بالشـــكل المقـــترح لا يفسح المجال لتمثيل الســـودانيين تمثـــيلاً صحيحاً – أقرب إلي التعيين من الانتخاب وأن الواجب يقتضي ان يوضع قانون إنتخاب بتمثيل السودانيين تمثيلاً صحيحاً.

٢- إن السلطات التيس خولت للجمعية التشريعية ضيقة بالقياس للسلطات الواسعة التـــي خولـــت للحـــاكم العام ولمعاونيه الأربعة الذين يعتبرون أعضاء بحكم وظائفهم في المجلس التنفيذي، وهؤلاء كلهم من البريطانيين.

٣- رأي هذه الجمعية التشريعية استشاري محض.

٤- الجمعـــية التشـــريعية مع أنها لا تملك إلا هذا الرأي الاستشاري المحض فلا يتسني لها النظر في جميع التشريعات قبل فغاذها.

٥- الجمع بين الوظيفة الحكومية وعضوية الجمعية أمر غير مستساغ.

٦- رأيـــس الجمعـــية أستشـــاري في (الميزانية) كما هو إستشاري في القوانيين الأخري.

٧- أعضـــاء الجمعية التشريعية لا يملكون التقدم مباشرة إلي الجمعية بمشروعات قوانين يقترحانها هم.

٨- الحاكم العام له الحق المطلق في التصديق علي التشريعات او رفضها.

٩- فـــيما يتعلق بالمجلس التنفيذي فغن معاوني الحاكم العام الأربعة – وكلهم بريطانـــيون – قـــد خـــول لهـــم النظام المقترح السيطرة التامة علي هذا المجلس.

١٠- النظام المقترح – مع ان الغرض منه تدريب السودانيين علي الحكم الذاتي – فهو يلقي المسئولية كاملة علي البريطانيين.

١١- خـــلا الـــنظام حتـــي مـــن مجـــرد الإشارة إلي الحريات الدستورية والحرية الشخصية، وحرية الصحافة.

١٢- المؤتمـــر الـــذي أصـــدر هذه التوصيات قد خلال من عناصر ضرورية كان وجودها لازماً حتي يتمكن المؤتمر من القيام بمهمته علي وجه مرض.

١- جمهورية مصر: السودان ١٦٥ وما بعدها.

وقـد أعقب ذلك تبادل المذكرات بين الحكومتين المصرية والبريطانية، وكذا حـاكم عـام السـودان فـي شأن هذا المشروع – مشروع إنشاء المجلس التنفيذي والجمعـية التشـريعية – وقـد إقترحـت الحكومة البريطانية ان تعين الحكومتان المصرية والبريطانية ممثلين لهما الاجتماع في مكان يحدد لبحث نصوص مشروع القانون المنظم لهذه الإصلاحات المقترحة(١).

لكن جاء رد الحكومة المصرية الذي أرسل لسفير مصر في لندن (عبد الفتاح عمـرو باشـا) فـي ٨ مارس ١٩٤٨ حاسماً – فقد أشارت الحكومة المصرية في مذكـرتها إلـي أن مشروع القانون المقترح لم يشتمل علي شئ من التعديلات التي طلبـتها الحكومـة المصرية ليحقق القانون الهدف منه وهو إشراك التعديلات التي طلبـتها الحكومـة المصرية ليحقق القانون الهدف منه وهو إشراك السودانيين في الإدارة المركـزية للسودان، ولذلك لا يمكنها أن تستجيب لطلب الحكومة البريطانية من غجتماع مثلين لكل من الحكومتين لبحث نصوص هذا المشروع – كما أشارت الحكومـة المصرية إلي ان الحاكم العام لا يملك بمقتضي ما حول من سلطات أن يصدر مثل هذا التشريع من غير موافقة الحكومة المصرية.

٤- قضية السودان أمام مجلس الأمن (١٩٤٧):

إتجهـت حكومة محمود فهمي النقراشي إلي عرض قضية البلاد علي مجلس الأمـن – بعـد أن فشـلت محـاولات الوصول إي إتفاق مع بريطانيا عن طريق المفاوضات.

وفـي عريضـة دعوي مصر إلي مجلس الأمن المؤرخة ٨ يوليه ١٩٤٧(٢) والمقدمـة للسـكرتير العـام لهيـئة الأمم المتحدة عن طريق السفير المصري في نـيوريوك محمـود حسـن – أوضـحت مصر ان إحتلال القوات البريطانية غير

١- نص العريضة موجود في الكتاب الذي طبعته الحكومة المصرية بمناسبة عرض القضية تحت عنوان: قضية وادي النيل بيانات حضـرة صـاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس مجلس الوزراء ورئيس وفد مصر أمام مجلس الأمن (أغسطس ١٩٤٧) ص. ص جـ.

وكذلك جمهورية مصر: السودان مرجع سابق ص ١٨٩ وما بعدها.

٢- نص العريضة موجود في الكتاب لذي طبعته الحكومة المصرية بمناسبة عرض الفضية تحت عنوان: قضية وادي النيل بيانات حضـرة صـاحب الدولة محمود فهمي النقراشي باشا رئيس مجلس الوزراء ورئيس وفد مصر أمام مجلس الأمن (أغسطس ١٩٤٧) من ص جـ

وكذلك جمهورية مصر: السودان مرجع سابق ص ١٨٩ وما بعدها.

المشـــروع لمصـــر في سنة ١٨٨٢، وإحتلالها للجزء الجنوبي من وادي النيل أي السـودان تـبعاً لذلــك – قد مكن حكومة المملكة المتحدة منذ سنة ١٨٩٩ من أن تغــرض علي مصر إشتراكها معها في إدارة السودان وأن تنفرد بعدئذ بالسلطان – وقد استخدمت حكومة المملكة المتحدة هذا الوضع لكي تتبع سياسة ترمي إلي فصل السودان عن مصر عاملة علي تشويه سمعة مصر والمصريين وبذر بذور، وإثارة حركات إنفصالية مصطنعة والحض عليها.

وأنـــه وفقــاً للمـــادة ٢٣ من ميثاق الأمم المتحدة، وعلي الرغم من ان وجود القـــوات الأجنبية لا يتلاءم بداءة مع حرية المفاوضات – سعت الحكومة المصرية حسن نية إلي الوصول إلي حل عادل لهذا النزاع عن طريق مفاوضات مباشرة مع المملكة المتحدة ... لكن أخفقت هذه المفاوضات الطويلة المضنية، وحاولت حكومة المملكـــة التمسك بمعاهدة ١٩٣٦ لكن لا يمكن أن تلتزم مصر بها إذ أنها استنفذت اغراضها كما انها تتعارض مع احكام الميثاق.

وقــد تناول مجلس الأمن القضية في جلسات إمتدت من أغسطس ١٩٤٧ حتي ١٠ سبتمبر من نفس السنة.

وعـــرض النقراشـــي باشا القضية أمام مجلس الأمن عرضاً طيباً في جلسة ٥ أغســطس ١٩٤٧ وتحدث عن طبيعة النزاع المصري البريطاني، ومساعي مصر لحــل الــنزاع، ووعود إنجلترا بالجلاء وأوضح كيف ان الاحتلال البريطاني خرق للقانون الدولي والمعاهدات ١٩٣٦ ومنافاتها لحكام ميثاق الأمم المتحدة[1].

وفــيما يــتعلق بمســألة السودان – شرح الروابط الطبيعية التي تربط البلدين وأشار الي قول السير ونستون تشرشل في كتابه "حرب النهر":

"إذا نظر القارئ إلي خريطة مجري النيل اخذته الدهشة للشبه القائم بينه وبين شـــجرة النخــيل – فأرض الدلتا بخضرتها وخصوبتها تنتشر عند قمة الوادي كما ينتشـــر فـــي رشـــاقة جريد النخل وسعفه، وقد يلتوي الجذع قليلاً غذ ينحني النيل إنحـــناءه واســـعة حين يجري في أرض السودان – ولكن الشبه يعود كاملاً جنوبي الخـــرطوم، وتـــبدأ جذور الشجرة تتوغل عميقاً في السودان ولا يسعني أن اتخيل صـــورة أصـــدق من هذه الصورة لذلك الرباط الوثيق – رباط التعاطف بين مصر والمديريات الجنوبية – فالماء – حياة الدلتا – يهبط من السودان مندفعاً في مجري النيل كما تسري العصارة في ساق الشجرة لتؤتي ثمرها رطباً جنياً.

١- قضية وادي النيل المرجع السابق.

وإذا كانـــت مـــنفعة واضحة جلية فهي ليست وحدها إذ ان الرباط بين مصر والســـودان مـــزاياه متـــبادلة ... فالسودان جزء من مصر بحكم الطبيعة والعوامل الجغرافية، وليست حاجة السودان إلي مصر بأقل شانا من ذلك كي يتسني له التقدم ... فـــأي خـــير فـــي الجذور والأرض الطيبة إذا فصلت عن الساق التي لا يتهيأ الخارجي للحياة بغيرها..."

وتـــابع الحديـــث عـــن وحـــدة الدين واللغة والثقافة التي تربط البلدين، ونتبع العلاقـــات السياســـية بيـــن البلديـــن إلي أن عقد وفاق ١٨٩٩ الذي اريد به مجارة الظروف القائمة في مصر وقتئذ. وأوضح كيف أن الحاكم العام كان دائماً بريطانيا وكذا جميع الموظفين الكبار، رغم أن الوفاق ليس فيه ما يمنع من ان يكون الحاكم العـــام مصـــرياً، وتحـــدث عن التطورات التي حدثت في إدارة السودان بعد مقتل السردار وكيف استغلت بريطانيا الحادث، وأشار إلي محاولات بريطانيا لبذر بذور الشـــقاق بيـــن المصريين والسودانيين في الوقت الذي يحاولون فيه دوام الاحتفاظ بالسودان كأنه تابع لإمبراطوريتهم.

وقد تصدي السير الكسندر كادوجان (Copogan) رئيس الوفد البريطاني للرد علي رئيس مجلس وزراء مصر ...

وفي جلسة ١١ أغسطس ١٩٤٧ رد محمود فهمي النقراشي باشا عي ما ذكره ممثل المملكة المتحدة، وأشار إلى مساوئ بريطانيا في إدارة السودان، وأوضح ان العلاقـــات بين السكان الذين يقطنون شطري وادي النيل مسألة داخلية بل أهلية ... وأن الأمـــر ســـيقرر بالتشاور مع السودانيين أحراراً في إرادتهم، لامع البريطانيين ولامع السودانيين مقيدين بالاحتلال البريطاني[١].

وفـــي جلسة ١٣ أغسطس ١٩٤٧ فضح رئيس وفد مصر نوايا بريطانيا نحو تقســـيم السودان بفصل الشمال عن الجنوب وضم الجنوب او جزء منه إلي أوغندا، واســـتند علـــي البـــيانات التي قدمها البريطانيون وكيف أنها تدل علي أن الإدارة البريطانية في السودان كانت بعيدة كل البعد عن التوفيق والنجاح ،وكيف أنها كانت تنفر من فتح أبواب الجنوب ريثما يصبح أهله قادرين على الوقوف على أقدامهم . وأن هذه الإدارة لم تقم إلا بنصيب ضئيل مباشر فى تعلم سكان الجنوب.

وقـــد اتضح أثناء مناقشة القضية فى المجلس – كما عبر رئيس وفد مصر فى جلســـة ٢٢ أغســـطس ١٩٤٧ – "أن الأمل الذى كان يحدو مصر فى أن يخلصها مجلس الأمن من الأغلال التى قيدها بها هذا التاريخ لم تتحقق".

١- قضية وادي النيل المرجع سابق ص. ص ٥٣ – ٥٦.

فقــد قدمــت البرازيل مشروع قرار وصفه رئيس وفد مصر بأنه تهرب من التــبعة الأولى لمجلس الأمن، وقدم مندوب الصين، كما قدم مندوب بلجيكا، وكذلك مندوب أستراليا تعديلات لم تمس جوهر النزاع.

وهكــذا امتنع مجلس الأمن عن إصدار قرار بجلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان، وأعلن الرفيق جروميكو رئيس المجلس آنذاك، أن المجلس لم يتمكــن مــن اتخــاذ قــرار بشأن هذه القضية وستظل القضية مدرجة بجدول الأعمال.

ولعلمــنا نتســاءل عن الأسباب التى أدت إلى فشل القضية أمام مجلس الأمن يمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى:

١- أثبتت هذه القضية أن الأمم المتحدة بمجالسها وهيئاتها المتخصصة عاجزة عن إنصــاف الأمــم الصغيرة طالما كانت مصالحها متضاربة مع مصالح الدول الكــبرى – وللأسف فإن هذه كانت نقطة الضعف فى عصبة الأمم والتى أدت لنشوب الحرب العالمية الثانية.
٢- يشير البعض إلى أن الجو السياسى الدولى لم يكن ملائماً فى ختام عام ١٩٤٧ لعرض القضية على المجلس . وقد أشار مستر بيفن نفسه فى بداية هذا العالم إلى أن الجو السياسى فى صالح بريطانيا وسياستها فى الشرق الأوسط[١].
٣- تفكك الجبهة الداخلية فى مصر – فقد كان الأمر يستلزم تكتل الكل خلف الوفد الذى سيسافر للدفاع عن قضية البلاد – لكن وصل التناحر الحزبى لدرجة أن رئــيس الوفد المعارض (النحاس باشا) أرسل إلى سكرتير عام الأمم المتحدة يــتهم حكومة النقراشى بأنها لا تمثل شعب وادى النيل وليس لها حق التحدث بإسمه.

٥- السودان بعد مجلس الأمن:

شــجعت الــنهاية التى انتهى إليها مجلس الأمن فى شأن النزاع الإنجليزى – حكومة السودان على أن تسير إلى حد أبعد فى إجراءاتها.

ففــى ١٣ ســبتمبر ١٩٤٧ ابرق نائب الحاكم العام للسودان إلى رئيس مجلس الــوزراء المصرى بالنيابة يفيد أنه سيصدر بيانا يعلن فيه " ان الحكومة السودانية مصــممة على أن تعمل بأسرع ما يمكن بمشروعاتها الخاصة بالجمعية التشريعية

١- عبد الرحمن الرافعى : مرجع سابق ص ١٢١.

الجديـــدة والمجلس التنفيذى متممة بدقة توصيات مؤتمر إدارة السودان، ولن تسمح بأى تدخل فى سياستها العامة المتعلقة بالسودان والتقدم الاقتصادى به"[١]

وكان رد الحكومة المصرية فى ١٦ أكتوبر علي هذه البرقية – إن هذا البيان الـــذي صـــدر بعـــد يومين من وقف المناقشة في النزاع المصري الإنجليزي أمام مجلس الأمن يمكن أن يفسر بأنه يري إلي الحد من حق الحكومة الملكية المصرية وســـلطتها – وأكـــد الـــرد مـــرة أخـــري أن الإصلاحات الدستورية لا تدخل في اختصاص الحاكم العام٢.

أ – مباحثات سنة ١٩٤٨ (خشبه – كامبل):

علي الرغم من ان النزاع بين مصر وبريطانيا بقي مطقاً – فقد رأت للحكومة المصـــرية واجباً عليها – مع تمسكها التام بموقفها الذي حددته تحديداً واضحاً أمام مجلـــس الآمـــن – ان تقبل الاشتراك مؤقتاً في وضع نظام يمهد للسودانين طريق الحكم الذاتي – وذلك حتي لا يكون تأخر البت في النزاع الحكم الذاتي.

ولذلـــك شـــكلت لجـــنة ثنائـــية مـــن احمد محمد خشبه باشا وزير الخارجية المصـــرية، وســـير رونالد كامبل السفير البريطاني في مصر لينظرا معاً مشروع القـــانون الـــذي أعدتـــه حكومـــة السودان والذي، طلبت إلي الحكومتين المصرية والبريطانـــية موافقتها عليه. واتفق الممثلان المصري والبريطاني علي أن ما يدور بيـــنهما لا يتـــناول بحـــث قضـــية الســـودان ولا مصـــيره ولن يتناول البحث إلا الاصلاحات الادارية والتشريعية.

وقـــد وصـــل الممـــثلان المصري والبريطاني إلي اتفاق بخصوص الجمعية التشريعية المقترحة، كما اتفقا علي تكوين (لجنة دائمة) تكون مهمتها ان ترقب تقدم الســـودانين نحـــو الحكـــم الذاتي وتشكل هذه اللجنة من ممثلين لكل حكومة ويكون ممثلاً حكومة السودان سودانين، وتجتمع اللجنة كل ثلاثة أشهر علي الأقل، ويكون الرئـــيس من المصريين والبريطانيين بالتناوب. لكن حدث خلاف بين الممثلين يما يـــتعلق بتكويـــن (المجلس التنفيذي)، وقد أصرت الحكومة المصرية علي أن يكون المصـــريون فـــي المجلس التنفيذي مساوين الإنجليز من حيث المركز والعدد، ولم يوافق الجانب البريطاني علي ذلك.

١- جمهورية مصر العربية : السودان – مرجع سابق ص ٢١٢.

٢- نفس المراجع ص ٢٠٦

ب- مباحثات سنة ١٩٥٠-١٩٥١ (صلاح الدين - بيفن):

ظـلا الموقـف هكـذا إلي أن نجح الوفد في انتخابات يناير ١٩٥٠ وتشكلت وزارة وفديـه برئاسة مصطفي النحاس باشا في يناير ١٩٥٠ وفي مارس ١٩٥٠ أرسـل محمد صلاح الدين وزير الخارجية المصري مذكرة رسمية إلي مستر بيفن يعـرض فتح باب المفاوضات للوصول إلي وضع مستقر يؤدي إلي الإستقلال التام لمصـر ووحـدة وادي النيل، واستجابت بريطانيا لذلك فاستؤنفت المفاوضات بين الطرفين في ٢٦ أغسطس ١٩٥٠.

وقـد استغرقت هذه المفاوضات ثماني جلسات بدأت في ٢٦ أغسطس ١٩٥٠ وانتهـت فـي ٢٦ يوليو ١٩٥١ أي أنها استغرقت أكثر من عام من غير أن يصل الطرفان إلي نتيجة إيجابية:

وكانـت الحكومـة البريطانية تهدف منذ البداية إلي فصل مسألة السودان عن مسألة الدفاع علي أمل أن تصل إلي اتفاق مع الحكومة المصرية بخصوص مسألة الدفـاع، ويؤجل بحث مسألة السودان - لكن إزاء إصرار مصر علي بحث قضية وادي النـيل ككل تقدمت الحكومة البريطانية ببعض المبادئ لتكون أساساً لمناقشة مسألة السودان وهي:

أ - بالـنظر إلي اعتماد كل من مصر والسودان علي مياه النيل، ولضمان التعاون فـي التوسـع في كميات المياه الممكن الانتفاع بها - يستلزم الأمر أن يرتبط الشعبان بأوثق علاقات الصداقة.

ب- الهـدف المشترك لمصر وبريطانيا العظمي هو ان تمكنا الشعب السوداني من بلوغ الحكم الذاتي الكامل في أقرب فرصة.

ج- بسـبب الفـروق الواسعة بين السودانيين في الثقافة والجنس والدين والتطور السياسـي - فـإن الوصول إلي الحكم الذاتي الكامل - يقتضي تعاون مصر والمملكة المتحدة مع السودان.

د- مـن أجل ذلك توافق الحكومتان علي أن تؤلفا لجنة ثلاثية لمعاونة السودانيين علـي بلوغ الهدف الموضح في الفقرة (ب) ومساعدتهم علي وضع دستورهم المقبل.

وقد اقترح الوعد المصري أن تكون المبادئ علي الوجه الآتي[١]:

أ - وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري.

١- جمهورية مصر العربية - مرجع سابق ص ٢٥٨ - ٢٦١

ب- متع السودانيين في نطاق الوحدة وفي مدي عامين بالحكم الذاتي.
ج- انسحاب القوات البريطانية والموظفين البريطانيين وإنتهاء الحكم القائم الآن في السودان بمجرد انقضاء هذين العامين.
د - في حالة قبول هذه المبادئ - توافق الحكومة الملكية المصرية علي تأليف لجنة ثلاثية للمعاونة علي بلوغ الهدف الموضح في الفقرة (ب).

وقد طال أمد المباحثات دون الوصول إلي نتيجة، وقد عبر رئيس الوفد المصري في المباحثات محمد صلاح الدين (باشا) عن ذلك في جلسة ٢٦ يوليه ١٩٥١ بقوله "إنني لا أري بارقة تدل علي إمكان الاتفاق لأنكم أولاً تتكرون حقنا الثابت في وحدة مصر والسودان، وثانياً تدعون لأنفسكم - دون حق - مسئوليات قبل السودان لا نقركم عليها، وثالثاً تتعللون بهذه المسئوليات لتعقيد الموقف وأستمرار الحالة القائمة في السودان - بحيث يتعذر الوصول إلي حل مرض".

وفي ٣٠ يوليه ١٩٥١ القي مستر موريسون Morrison الذي خلف المستر بيفين في وزارة الخارجية في مارس لمرضه ثم وفاته في ابريل ١٩٥١ - بياناً في مجلس العموم البريطاني عن أسباب عدم الوصول لإنفاق. وفيما يتعلق بالسودان أتهم الحكومة المصرية بأنها لا تعالج المشكلة علي نحو واقعي، فالشعب السوداني - بالرغم من اختلاط الأجناس والأديان فيه - قد خطا خطوات سريعة سياسياً واجتماعيا واقتصاديا مما يهيئة ان يكون قومية منظمة تعتمد علي نفسها ... وان إنجلترا تأمل ان تري الشعب السوداني يختار لامن نوع العلاقة التي تقوم بينه وبين مصر ما يحقق حاجاته علي أحسن وجه.

كما القي وزير الخارجية المصري بياناً في مجلس البرلمان بجلسة ٦ أغسطس ١٩٥١ وضح فيه مراحل المفاوضات وأسباب تعثرها، وضح كيف أن الإنجليز - بعد ان تنبه الوعي القومي في مصر والسودان - تراهم يلجأون لمناورة جديدة تتفق وهذا الظرف الجديد فيبدأون ويعيدون في إعلان الحرص علي رفاهية السودانيين والمطالبة باستشارتهم وان يكون لهم حكم ذاتي يفضي في أخر الأمر إلي تقرير المصير...

ويشرح كيف إن كلامهم المعاد عن الحكم الذاتي تمخض عن نظام الجمعية التشريعية التي لا حول لها ولا سلطان.

وأنهم يرون أن المدة التي يتمتع بعدها السودان بحكم ذاتي صحيح تتراوح في تقديرهم بين خمسة عشر عاماً وعشرين عاماً بينما نقدر مصر لذلك عامين

إثنين معتمدة في تقديرها علي ما قضت به الجمعية العمومية للأمم المتحدة في شأن ليبيا، وليس السودان أقل استحقاقاً منها للحكم الذاتي...

وأنهم إذا كانوا حقاً يحترمون مشيئة السودانيين لأصغوا لما أجمع عليه السودانيون علي اختلاف هيئاتهم وأحزابهم من ضرورة إنهاء الحكم الثنائي العام في السودان وجلاء القوات البريطانية عنه ... بينما لا يفكرون أن جانباً كبير من السودانيين – وهم في الواقع أغلبيتهم الساحقة– ينادون بالوحدة تحت التاج المصري. وهي تتمثل في وحدة الجيش، والنقد، والسياسة الخارجية ... فالإنجليز يسعون حالياً للتفريق بين مصر والسودان تمهيداً لتحقيق ما يرمون إليه من فصل جنوب السودان عن شماله[١].

ج- مصر تلغي معاهدة ١٩٣٦، واتفاقيتي سنة ١٨٩٩.

أثبتت المفاوضات المتتالية أن الحكومة البريطانية ليست علي استعداد للجلاء عن مصر، كما أنها متمسكة بالنفوذ الذي أصبح لها في السودان.

لذلك اتجهت حكومة الوفد غلي اتخاذ خطوة حاسمة من جانبها – ففي ٨ أكتوبر ١٩٥١ ألقي النحاس باشا بياناً أمام البرلمان أعلن فيه إنهاء العمل بأحكام معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ وملحقاتها، وبأحكام اتفاقيتي ١٩ يناير، ١٠ يوليه سنة ١٨٩٩. وقد صدق الملك فاروق علي قرار مجلس الشيوخ ومجلس النواب في ١٥ أكتوبر ١٩٥١، وكان القرار قد اتخذ بإجماع الحاضرين من مجلس الشيوخ وعددهم ١٤١ من مجموع أعضائه وعددهم ١٨٠ ومن مجلس النواب وعددهم ٢٨٥ من أعضائه وعددهم ٣١٩[٢]

كما صدر قانون أخر بتعديل الدستور[٣].

فألغيت المادة ١٥٩ واستعيض عنها بالنص التالي:

"تجري أحكام هذا الدستور علي المملكة المصرية جميعها – ومع أن مصر والسودان وطن واحد، يقرر نظام الحكم في السودان بقانون خاص ..."

كما ألغيت المادة ١٦٠ من الدستور واستعيض عنها بالنص التالى: "الملك يلقب بملك مصر والسودان".

١- جمهورية مصر العربية السودان – مرجع سابق ص ٢٨٠ – ٢٨٢.

٢- القانون رقم ١٧٥ لسنة ١٩٥١.

٣- القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٥١.

وصــدر قــانون آخــر خاص بوضع دستور ونظام حكم خاص بالسودان[1] ويقضـــى هــذا القانون بأن يكون للسودان دستور خاص تعده جمعية تأسيسية تمثل أهالى السودان وينفذ بعد تصديق الملك عليه.

ويكفل هذا الدستور قواعد أساسية أهمها:

أ - إقــرار الــنظام الديمقراطى النيابى فى البلاد، سواء تكونت الهيئة النيابية من مجلس واحد، أو مجلسين.

ب- الفصل بين السلطات الثلاث - التشريعية، والتنفيذية، والقضائية.

ج- إنشــاء مجلــس وزارى مــن أهل السودان، وتكون الوزارة مسئولة مسؤلية تضامنية لدى الهيئة النيابية.

د - تشــترك الهيــئة النيابية مع الملك فى ممارسة السلطة التشريعية بما فى ذلك اقتراح القوانين.

هـ- ضمان استقلال السلطة القضائية.

و- كفالة حقوق الأفراد والحريات العامة.

ز- يحــتفظ بالشيــؤون الخارجية وشئون الدفاع والجيش والنقد فيتولاها الملك فى جميع أنحاء البلاد.

وفــى ١٦ نوفمــبر ١٩٥١ القــى وزير خارجية مصر خطاباً أمام الجمعية العامــة للأمم المتحدة بباريس أشار فيه إلى الأحداث التى جرت فى السودان قبل معــاهدة ١٩٣٦ وبعدها، وأوضح أن الإنجليز عندما احتلوا مصر لم تكن لهم أية علاقــة بالســودان لكــنهم بعــد الإحتلال أرغموا مصر على إخلاء السودان ثم أرغموها على قبول اشتراكهم فى إعادة فتحة، ثم أرغموها مرة ثالثة على توقيع اتفاقيــتى ســنة ١٨٩٩ بشــأن الإدارة المشــتركة للسودان، وأنهم كانوا يؤكدون ويكــررون أنهم يعملون فى السودان باسم مصر، لكنهم بعد ذلك صاروا يعملون بواســطة حكومــة السودان الثنائية إسماً والبريطانية فعلا على تنفير السودانيين بشتى الخدع والمناورات من مواطنهم المصريين - وأنهم يلجأون لمناورة جديدة بــإعلان الحــرص على رفاهية السودانيين رادعوا لأنفسهم الحق فى الكلام باسم السودانيين.

وأعلــن وزير خارجية مصر - على سبيل التحدى للملكة المتحدة - أن مصر تقــبل سحب موظفيها وقواتها المسلحة من السودان بشرط أن تفعل المملكة المتحدة

١- القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥١.

نفس الشئ وذلك لتمكين السودانيين من الإعراب بحرية عن مشيئتهم فى استفتاء يهيئ له الجو الصالح والإدارة اللازمة بمعونة الأمم المتحدة السودانيين[١].

أما عن موقف بريطانيا ازاء هذه الأحداث – فقد وصل المحافظون للحكم إثر فوزهم فى الإنتخابات التى جرت فى ٢٦ أكتوبر واتفاقيتى ١٨٩٩، وأن بريطانيا متمسكة بحقوقها التى كفلتها المعاهدة، كما أكد مسئولية الحاكم العام للسودان فى مواصلة حكم السودان، وتأييد الحكومة البريطانية المطلق للخطوات التى تتخذها حكومة السودان بهدف الوصول بالسودانيين إلى مرتبة الحكم الذاتى كخطوة فى طريق إختيار مصيرهم فى المستقبل.

ولم تعبأ حكومة الوفد لأعلان إنجلترا تمسكها بالمعاهدة التى ألغتها مصر من جانبها – فأمرت العمال المصريين الذين يعملون فى المعسكرات البريطانية – وكان عددهم يصل إلى بضعة الآلاف – بترك العمل، وتكونت الفرق من الفدائيين لإغتيال الجنود الإنجليز فيما يشبه حرب العصابات طالما أن المواجهة الكاملة لجيش الإحتلال لم تكن ممكنة . وفى ٢٥ يناير ١٩٥٢ حدثت معركة الإسماعيلية بين الإنجليز وقوات الشرطة، وفى ٢٦ يناير حدث حريق القاهرة، واضطر الملك لإقالة مصطفى النحاس فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ ؛ وكلف على ماهر بتأليف الوزارة الجديدة. لكن الوضع القلق الذى آلت إليه الأمور بين إنجلترا ومصر جعل من العسير على وزارة بعينها أن تمسك بدفة الأمور، فتعاقبت على حكم البلاد أربع وزارات فى فترة ستة شهور وانتهى الأمر بقيام ثورة ١٣ يوليو ١٩٥٢ فطردت الملك وقضت على الأحزاب التى كانت تتطاحن على الحكم.

هذا وأشير إلى أن هذه الخطوة التى خطتها وزارة النحاس باشا – بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان كانت مثار تساؤلات – عن دوافعها الحقيقية، وعن النتائج التى انتهت إليها، وهل كان التوقيت لها سليماً أم لا؟

فالبعض يرى أن هذه الخطوة كان لابد منها لوضع الإنجليز أمام الأمر الواقع بعد أن ظهر بوضوح من خلال المفاوضات المتتالية تمسكهم بوضعهم فى مصر والسودان وعدم استعدادهم لمسايرة التيار الوطنى الجارف فى مصر والسودان، بل وفى العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية.

بينما يأخذ البعض الآخر على حكومة مصطفى النحاس عدم إتخاذ الإحتياطات والاستعدادات التى كان يتطلبها هذا الإجراء مما أدى لانتشار الفوضى فى البلاد

١– أس خطاب وزير خارجية مصر أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة موجود فى : جمهورية مصر العربية : السودان ص ١٨٨ – ١٩٢.

ولتضـــحيات ضخمة، كما حدث فى مذبحة الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ حين خاض رجال الشرطة معركة غير متكافئة مع القوات البريطانية.

على كل ليس هذا مجال مناقشة هذه القضية بتفصيلاتها، لكن المهم فيما يتعلق بقضـــية الســـودان أن هذه الأحداث عجلت بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وكان على هذه الثورة أن تواجه المشكلات المترسبة من العهد السابق وفى مقدمتها قضية السودان - وتحاول أن تجد لها حلا.

د- ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقضية السودان:

بعد أن استتبت الأمور فى مصر كان على الثورة أن تواجه المشكلات الملحة مع بريطانيا وهى مشكلة الجلاء، ومشكلة السودان.

وقــد رأى رجال الثورة أن علاج مشكلة السودان كفيل بحل مشكلة الجلاء إذ أن بريطانــيا أتخــذت من عدم حل مسألة السودان ذريعة لتأخير الجلاء عن مصر.

ولمـــا كانت بريطانيا تتستر خلف حق السودانيين فى تقرير مصيرهم بأنفسهم لـــتجد من ذلك حجة لإستمرار سيطرتها على دفة الحكم والإدارة بالسودان وتشوية صـــورة المصـــريين فـــى أعين السودانيين وتصويرهم بصورة المعارضين لحق الســـودانيين فـــى حكـــم بلادهم - لذلك رأت حكومة الثورة أن تنتهج سياسة جديدة تفضـــح أســـاليب انجلترا وأغراضها فقدمت حكومة الثورة بمصر فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ للحكومـــة البريطانية مذكرة فى شأن الحكم الذاتى للسودان وتقرير مصيره وتضمنت هذه المذكرة:[١]:

١- أن الحكومة المصرية تؤمنن بحق السودانيين فى تقرير مصيرهم.

٢- للوصول لهذا الهدف لابد:

أ - من تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل.

ب- تهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير.

٣- تعتبر فترة الانتقال تصفية للإدارة الثنائية.

٤- يعـــاون الحـــاكم العام فى فترة الانتقال لجنة من خمسة أعضاء، عضو مصرى، وعضـــو بـــريطانى، وإثنيـــن مـــن السودانيين، وعضو هندى أو باكستانى تعينه حكومته.

١- جمهورية مصر العربية : السودان ص ٢٩٣.

٥- تشـــكل لجنة من ستة أعضاء (ثلاثة من السودانيين، وعضو مصرى، وعضو بـــريطانى، وعضو أمريكى، وعضو هندى أو باكستانى) وذلك لإتخاذ الإجراءات التمهيدية للانتخابات.

٦- تكـــون الانـــتخابات مباشـــرة فى جميع الدوائر باستثناء مديرية بحر الغزال، والمديرية الاستوائية، ومديرية أعالى النيل.

٧- تبدأ الانتخابات قبل نهاية سنة ١٩٥٢.

٨- تشكل لجنة للسودنه للاسراع فى سودنة الإدارة والبوليس، وقوة دفاع السودان وغير ذلك من الوظائف الحكومية.

وعلى هذه اللجنة أن تنجز مهمتها فى ثلاث سنوات.

٩- توصـــى الحكومـــة المصرية بإنشاء وظيفة وكيل وزارة سودانى يكون حلقة اتصال بين الحاكم العام ومجلس الوزراء.

١٠-تبدأ فترة الانتقال بتعيين اللجنة الخماسية ولا تتجاوز مدتها ثلاث سنوات.

١١-عند انتهاء فترة الانتقال تعد الحكومة السودانية القائمة وقتذاك مشروعاً بقانون الإنتخاب (جمعية تأسيسية).

١٢-تنســحب القــوات العســكرية البريطانية والمصرية من السودان بعد إجراء انتخابات الجمعية التأسيسية بسنة واحدة على الأقل.

١٣-مهمة الجمعية التأسيسية:

أ - أن تقرر مصير السودان.

ب- أن تعد دستوراً للسودان بما يتمشى مع القرار الذى يتخذ.

ويكون تقرير مصير السودان:

أ - إما الإرتباط بمصر على صورة ما.

ب- أو الإستقلال التام عن المملكة المتحدة ومصر.

١٤-تحـــترم الدولـــتان القـــرار الـــذى تـــتخذه الجمعية التأسيسية فى شأن مصر والســـودان- وتـــتخذ كل من الحكومتين من جانبها التدابير اللازمة التى تكفل تنفيذ هذا القرار.

وقـــد وضعت هذه المذكرة - بريطانيا فى مركز حرج فقد سقطت حجتها التى كانـــت تـــتذرع بها فى كل المفاوضات السابقة - فقد كانت تظهر أمام الرأى العام الدولـــى والسودانى بمظهر المدافع عن حقوق السودانيين ... ولذلك لم تجد بدأ من الدخول فى مفاوضات مع مصر بشأن السودان.

وقـد كان الوفد المصرى فى المفاوضات برئاسة اللواء أركان الحرب محمد نجيب رئيس مجلس الوزراء، والوفد البريطانى برئاسة سير رالف ستفنسون R. Stevenson السفير البريطانى فى مصر.

اتفاق الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودان (١٩٥٢-١٩٥٣):

بـدأت المباحـثات برئاسة مجلس الوزراء المصرى فى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ واستمرت عشر جلسات وانتهت فى ١٢ فبراير ١٩٥٣ باتفاق فى شأن الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودان[١].

وأهم ما نصت عليه هذه الاتفاقية:

١- حق الشعب السودانى فى تقرير مصيره.
٢- تعطى فـترة انتقال يتوفر للسودانيين فيها الحكم الذاتى الكامل، وهذه الفترة تكون كتمهيد لإنهاء الإدارة الثنائية (المادتان ١، ٢).
٣- يمـارس الحـاكم العام - إبان فترة الانتقال - سلطانه بمعاونة لجنة خماسية تشكل من إثنين من السودانين، وعضو مصرى، وعضو من المملكة المتحدة، وعضو باكستانى (المادتان ٣، ٤).
٤- الاحتفاظ بوحدة السودان كإقليم واحد (مادة ٥).
٥- تشـكل لجـنة للانـتخابات مـن سبعة أعضاء، ثلاثة من السودانيين، عضو مصرى، وعضو من المملكة المتحدة، عضو من الولايات المتحدة الأمريكية، وعضو هندى تكون له رئاسة اللجنة (مادة ٧).
٦- تشـكل لجنة للسودنه من عضو مصرى، وعضو من المملكة المتحدة، وثلاثة أعضـاء سـودانيين، وعضـو أو أكثر من لجنة الخدمات العامة (مادة ٨) - وحـددت وظيفة هذه اللجنة فى ملحق الاتفاق بإتمام سودنه الإدارة والبوليس، وقـوة الدفـاع السودانية وغير ذلك من الوظائف الحكومية التى قد تؤثر على حـرية السـودانيين عند تقرير المصير، وتنظر اللجنة فى الوظائف الحكومية المخـتلفة بغـية إلغـاء الوظائف غير الضرورية أو الزائدة عن الحاجة التى يشـغلها الموظفـون المصـريون أو البريطانيون - وحدد لإتمام هذه اللجنة لمهمتها مدة لا تتعدى ثلاثة أعوام.
٧- تنـتهى فـترة الإنـتقال عندما يعرب البرلمان السودانى عن رغبته فى اتخاذ التدابير للشروع فى تقرير المصير، وحينئذ يجب أن تنسحب القوات العسكرية

١- نص المذكرة فى جمهورية مصر العربية : السودان ص ٣٠٠ وما بعدها.

المصـــرية والبريطانية من السودان، وتنتخب (جمعية تأسيسية) – (المواد ٩، ١٠، ١١).

٨- مهمة الجمعية التأسيسية:

أ – أن تقـــرر مصير السودان كوحدة لا تتجزأ، وذلك إما بارتباط السودان بمصر على أية صورة أو الاستقلال التام.

ب- تعد دستوراً للسودان يتواءم مع القرار الذى يتخذ فى هذا الصدد.

٩- تحـــترم الحكومـــتان المـــتعاقدتان قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل الســـودان وتقـــوم كل منهما باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار وقد ألحق بهذا الاتفاق أربعة ملاحق توضح:

ســـلطات لجـــنة الحاكم العام (ملحق ١)، سلطات لجنة الانتخابات (ملحق ٢)، وسلطات لجنة السودنه (ملحق ٣)، وملحق ببعض التعديلات لمشروع قانون الحكم الذاتى وفقاً لهذا الاتفاق، وتفسيرات لبعض ما جاء به (ملحق ٤).

ولا شـــك فى أن الحكومة المصرية أظهرت بهذا الاتفاق حسن نية مصر تجاه السودان، وقد ثبت على بريطانيا ما كانت تدعيه دائماً أثناء المفاوضات بأنها تعمل مـــن وحـــى مصـــلحة السودانيين وقد عبر مستر إيدن عن ذلك فى مجلس العموم الـــبريطانى فـــى ١٢ فـــبراير فـــى تعليقه على الاتفاقية وإجابته على بعض أسئلة الأعضاء بقوله:

"إن الـــتحرك المصرى غير الموقف تمامًا، وإن بريطانيا لم تجد أمامها أى بديل للمفاوضات، ولذلك فإنه من الأفضل الآن أن نصل إلى اتفاق مع المصريين"[1].

وذكـــر أن الاتفاق يعتبر تسوية ملائمة للمسألة السودانية التى أفسدت علاقات بريطانيا مع مصر، وأنها ستسهم كثيراً فى مستقبل السودان نفسه.

وبـــناء على هذا الاتفاق أصدر حاكم عام السودان مستر ر. ح . هاو فى ٢١ مارس ١٩٥٣ القانون التفصيلى للحكم الذاتى الكامل فى السودان.

وقـــد حرصت مصر على أن ينفذ هذا القانون بنصه وروحه وأن يقرر شعب السودان بإرادته الحرة رغبته فى مستقبل بلاده.

وفـــى ١١ يـــناير ١٩٥٥ أتمت لجنة السودنة عملها، وأبلغت حكومة السودان دولـــتى الحكـــم الثـــنائى بقـــرار الجمعية التأسيسية بالرغبة فى مزاولة حق تقرير

1- Fabunmi, L.A : The Sudan in Angto Egyptian Relations (1960) p. 179.

المصير، وبادرت الدولتان بقبول قرار اللجنة وفى ٩ نوفمبر غادرت قوات الدولتين السودان نهائياً، وقررت الحكومة المصرية أن تترك السودان جميع الأسلحة الثقيلة التى كانت لها بالسودان.

وفى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ أصدر مجلس النواب السودانى قراراً يقضى بأن الأمر لا يدعو إلى إجراء استفتاء آخر بشأن شكل الحكم القادم فى السودان وأنه يعتبر جلاء الجيوش الأجنبية عن أرض السودان استقلالا له.

وأعلنت الحكومة السودانية قيام الجمهورية السودانية وأبلغت دولتى الحكم الثنائى بذلك – ودعت لأنتخاب جمعية تأسيسية لتضع الدستور النهائى للسودان.

وفى ٣١ ديسمبر ١٩٥٥ أقر البرلمان السودانى الدستور وأصبح نافذاً من أول يناير ١٩٥٦ .

وأعلنت مصر على الفور اعترافها بالسودان دولة مستقلة ذات سيادة كما اعترفت إنجلترا بالوضع الجديد.

وفى ١٩ يناير ١٩٥٦ أصبح السودان المستقل عضواً فى جامعة الدول العربية، وفى ١٢ نوفمبر أصبح عضواً فى هيئة الأمم المتحدة.

وهكذا أصبح مصير السودان فى يد أبنائه فأنفتح المجال أمامهم للنهوض بالبلاد فى مختلف المجالات ولاستغلال خيرات السودان لصالح أهله.

وكان تخلص السودان من قبضة الحكم البريطانى إيذاناً بتخلص مصر أيضاً من بقايا الوجود البريطانى بها.

كما أن الحل الذى انتهت إليه قضية السودان – أقصد به استقلال السودان وقيام جمهورية سودانية مستقلة ذات سيادة على أراضيه – يعتبر بلاشك أسلم حل وأنقى جو لقيام علاقات طبيعية سليمة بين شطرى الوادى، فالتكامل بين الشطرين فى المجالات الإقتصادية والاجتماعية والسياسية لن يتم إلا بشعور سكان هذا الوادى بأنفسهم وبإرادة حرة طليقة بأهمية هذا التكامل الذى فرضته الظروف الطبيعية والمصالح المشتركة على مر العصور.

إن الدارس لتاريخ سودان وادى النيل وعلاقاته بمصر منذ أقدم العصور – والذى تتبعناه بشئ من التفصيل فى الأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب – لعله يحرج بعدة حقائق يمكن أن نجملها فى ختام هذا الكتاب وهى:

١- أن الحضارة التى قامت فى وادى النيل بشطرية حضارة نيلية تأثرت إلى حد كبير بوجود هذا النهر وبما أضفاه على الحياة على جانبيه من أوضاع معينة.

٢- ازدهـــرت هذه الحضارة منذ أقدم العصور حتى أن الشعوب التى عاشت هنا تعتـــبر مـــن أقدم شعوب العالم المتحضرة، ومن أوائل الشعوب التى استقرت بجانـــب الأنهار ونظمت حياتها وعرفت الحكومات المنظمة التى يخضع الكل لسلطانها.

٣- انتقلـــت الحضـــارة بمضـــاهرها المخـــتلفة بين شطرى الوادى، وحين انتاب الضـــعف الشمالى فى بعض فترات التاريخ القديم هب من الجنوب من يحاول أن يجـــبر الكســـر ويتصـــدى للتـــيارات المعادية التى تحاول أن تستغل هذا الضعف.

٤- تأثـــر الســـودان طـــوال عصور تاريخه الطويل بأحداث الشمال بشكل ملفت للأنظار.

٥- وفيما يتعلق بالعصر الحديث نلاحظ أن أنظار محمد على اتجهت للسودان بعد أن اســـتقر له الوضع فى مصر فمد تنظيماته إلى جزء كبير من سودان وادى النـــيل، وحين استقر الأمر لأسرته في مصر حسب نظام توارث العرش الذي ارتضـــته الدولة العثمانية لهذه الولاية الفريدة نشط خلفاء محمد علي من حكام مصر ليمدوا سلطانهم إلي الشطر الجنوبي من وادي النيل بحدوده الطبيعية.

٦- وأصـــاب الســـودان مـــا أصـــاب مصر من الخير ومن الضير في ظل هذه المحاولات.

٧- لمـــا اشـــتد تـــيار الحركة القومية في مصر الذي وصل إلي مداه في الحركة العرابـــية كـــان الصـــدي الطبيعي له الحركة المهدية في السودان، وكان بين الحركتيـــن والقائميـــن بهمـــا تعـــاطف مـــازال مداه مثار نقاش وخلاف بين المؤرخين للحركتين.

٨- وانتهـــت الحركـــتان ولـــم تســـتطع أي منهما ان تصمد أمام رياح الصراع الاســـتعماري الـــذي كانت تهب بعنف علي المنطقة، فنجحت بريطانيا في ان تحـــتل مصر وأن تمد نفوذها إلي السودان باسم مصر وحقوقها تارة ومستندة إلي ما يتيحه لها اشتراكها في الفتح من حقوق تاره أخري.

٩- وتوالـــت صفحات الكفاح في سبيل الخلاص من براثن العدو الأجنبي، وطال أمـــد الكفـــاح عبر فترة حربين عالميتين، دفعت مصر - كما دفع السودان - فيهما الكثير من دم أبنائهما ومن اقتصادهما في سبيل بريطانيا وحلفائها.

١٠- واســـتخدمت إنجلـــترا كافـــة الأساليب السياسية التي اشتهرت بها لتتحلل مما وعدت به هي وحلفاؤها أثناء الحرب، وما أعلنوه من حق الشعوب في تقرير

مصـــيرها، فامتدت المفاوضات بينها وبين مصر طوال ما ينيف علي ثلاثين عاماً منذ ثورة ١٩١٩ حتي ثورة يوليو ١٩٥٢.

وكانت قضية السودان هي الصخرة التي تحطمت عليها هذه المفاوضات حتي ان الأمــر وصــل إلــي تجميد هذه القضية وتأجيل البت فيها حتي لا تنتهي الجهود المضنية المبذولة الموصول لاتفاق بين الطرفين إلي الفشل.

١١-وقــد بذلت السياسة والإدارة البريطانية في السودان جهدها لبذر بذور الشقاق بيــن مصــر والسودان وكانت الصورة التي ترسمها أمام السودانيين لأطماع مصــر فــي الســودان كفيلة بتحقيق هذا الهدف – إلي أن قضي المفاوضون المصــريون فــي عــام ١٩٥٢ علي هذه الحجة بإصرارهم علي حل قضية الســودان قــبل قضية الجلاء عن مصر وبموافقتهم علي الاتفاق بشأن الحكم الذاتــي وتقريــر المصير للسودان، فاضطرت إنجلترا في ١٢ فبراير للتوقيع علــي الاتفاق فكان هذا كفيلاً بان يحصل السودان علي استقلاله فحلت قضية أسودان وأعقبتها قضية الجلاء.

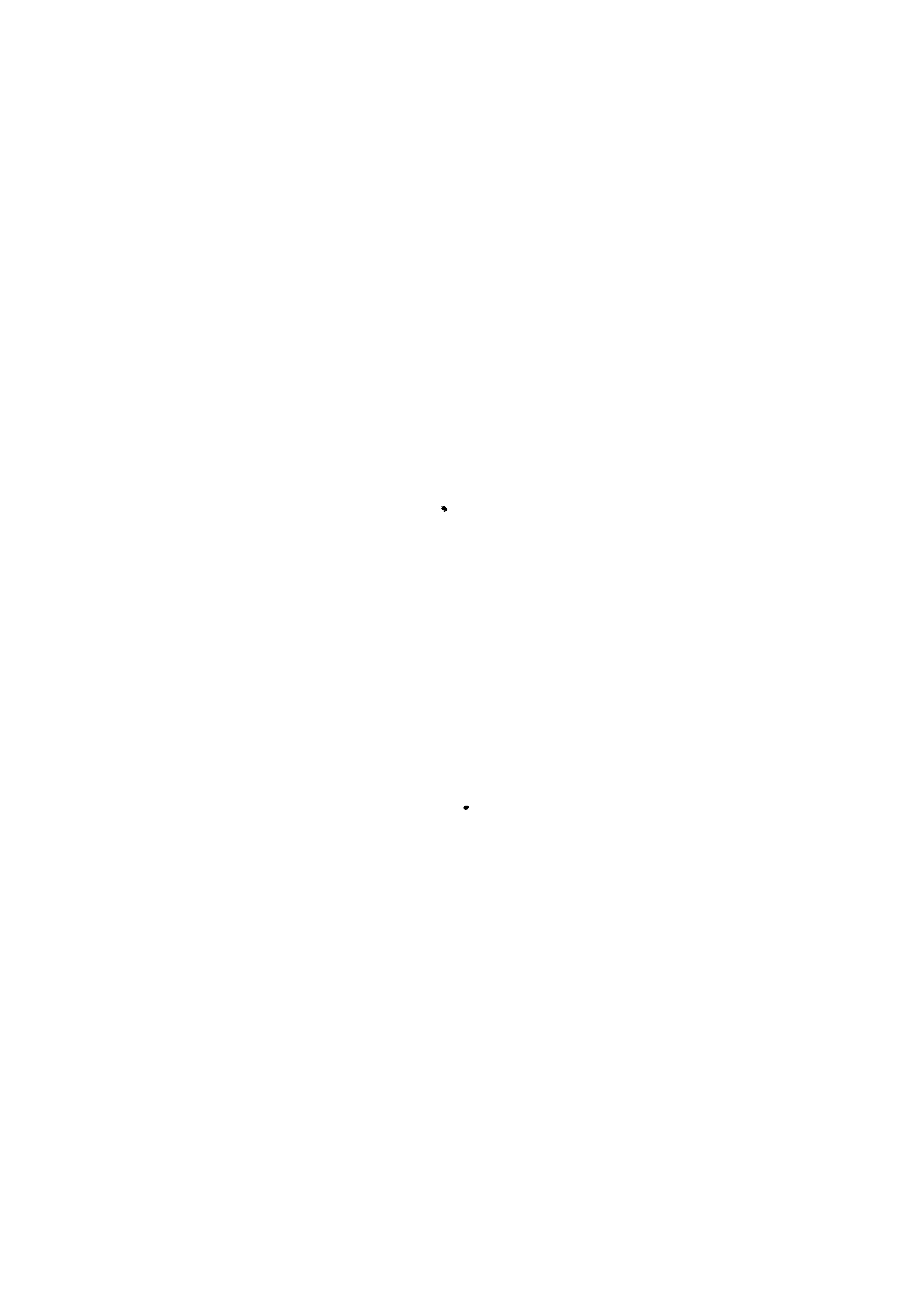
وأصبح بعد ذلك من اليسير أن تسير مصر ويسير السودان جنباً إلي جنب في طــريق التغلــبّ علــي التخلف الاقتصادي وغير ذلك من رواسب فترة الاستغلال الأجنبي الطويلة ...

ولاشــك فــي أنــه علي المصريين وعلي السودانيين أن يستوعبوا الماضي بدروسه وهم يخططون للمستقبل بكل ما يهدفون غلي تحقيقه من آمال ...

١١

الفصل الحادى عشر
المشكلات التى واجهتها الحكومات الوطنية فى السودان بعد الاستقلال

- مشكلة الإدارة.
- الحكومات المدنية.
- الحكومات العسكرية التى تولت الحكم.
- مشـكلات اقتصادية - ومشكلات طبيعية - ومشكلات سياسية تواجهها وتنتهى بتغيير الحكومة.



الفصل الحادى عشر
المشكلات التى واجهتها الحكومات
الوطنية فى السودان بعد الاستقلال

مقدمة :

واجهت الحكومات الوطنية فى السودان بعد الاستقلال عدة مشكلات كان عليها حلها منها:

١- مشكلة الإدارة.
٢- مشكلة جنوب السودان.
٣- مشكلة دارفور.
٤- العلاقات مع مصر بعد الاستقلال.

وسنحاول إلقاء الضوء على هذه المشكلات.

أولا: مشكلة الإدارة (الحكومة) :

كان طبيعيًا أن تواجه الحكومات الوطنية فى السودان مشكلة الإدارة.

حقيقة أن كثيرًا من العناصر الوطنية والشخصيات السودانية شاركت فى فترات مختلفة فى الحكم وقد ترتب على هذا أن اكتسبت خبرات كبيرة – لكن كان على السودانيين أن يواجهوا فى ظل الوضع الجديد كيفية ممارسة إدارة شئونهم كاملة بأنفسهم دون الاعتماد على أحد.

وقد رأينا أنه أثناء الإدارة المصرية لشئون السودان قبل الحكم الثنائى كان عدد من السودانيين قد ساهم فى الإدارة وشئون الحكم، وفى فترة الإدارة المهدية للسودان حاولت هذه الإدارة أن تدبر شئون السودان واستفادت هذه الإدارة أثناء حكم المهدى الذى لم تدم إدارته لشئون السودان إلا لفترة قصيرة، وأثناء حكم التعايشى الذى استمرت إدارته إلى ما يقرب من ١٣ سنة أن تستفيد مما ورثته من الإدارة المصرية سواء من أدوات أو من شخصيات. والسودانيون يعتزون بهذه الفترة ويعتبرونها فترة حكم وطنى أتيح فيها للسودانيين أن يمارسوا شئونهم بأنفسهم.

لكن لا شك فى أن الوضع تغير تمامًا بعد أن نال السودان استقلاله كاملا بعد إنتهاء الحكم الثنائى منذ بداية عام ١٩٥٦ وأصبح على الحكومات السودانية

القيام بشئون الحكم ومواجهة مختلف المشكلات، وكان بالسودان عدد من الأحزاب – كما رأينا سابقًا – وكان عدد من السودانيين المثقفين قد وصلوا لدرجة كبيرة من الوعى بشئون بلادهم وحقوقهم كمواطنين، كما كانت هناك بقايا الانتماءات والولاءات القبلية بالإضافة للعوامل الجغرافية التى تعرضت لها بعض أقاليم السودان كالجفاف والتصحر – كما برزت فى مقدمة المشكلات التى كان على الحكومات السودانية مواجهتها مشكلة جنوب السودان ومشكلة دارفور ومشكلات بعض أقاليم شرق السودان وغيرها التى اعتبر سكانها أنها مناطق مهمشة لا تحظى بالاهتمام الذى تحظى به المناطق الرئيسية فى شمال السودان فى مختلف المجالات – مجالات التنمية ومجالات التعليم والصحة ومجالات الإصلاح المختلفة الأخرى.

وقد ترتب على هذه المشكلات خطورة فى بعض الأوقات بشكل عنيف وأدت إلى عدم استقرار نظام الحكم بشكل أو آخر فتولت حكومات عسكرية استحوذ فيها الجيش على السلطة وألغى العمل بالدستور وحاول مواجهة المشكلات التى تواجه السودان بشكل أو أخر على أساس أن تركيز السلطة فى يد العسكريين قد يتيح الفرصة لحل هذه المشكلات أو بعضها التى لا يمكن حلها فى ظل الحكومات المدنية التى تعتمد على أسلوب المفاوضات وغيرها من الأساليب الديمقراطية كوسيلة لحل المشكلات.

وفى يناير ١٩٥٦ تولت الحكم حكومة الأزهرى وبذلك تكون أول حكومة وطنية بعد الاستقلال.

لكن نجح حزب الأمة وقوى سياسة برلمانية أخرى فى إزاحة إسماعيل الأزهرى من السلطة فحدث فى يونيو ١٩٥٧ إنقلاب عسكرى أطاح بحكومة الأزهرى.

وفى ١٩٥٦/٧/٤ ألف عبد الله خليل حكومة جديدة استمرت حتى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ حين قام عبد الله خليل بتسليم السلطة للفريق عبود.

وقررت الحكومة العسكرية الجديدة وضع السلطات الدستورية العليا فى أيدى المجلس العسكرى الأعلى للقوات المسلحة وتحولت السلطات التشريعية، والقضائية والتنفيذية للحاكم العسكرى، وتشكل مجلس وزراء برئاسة الفريق عبود.

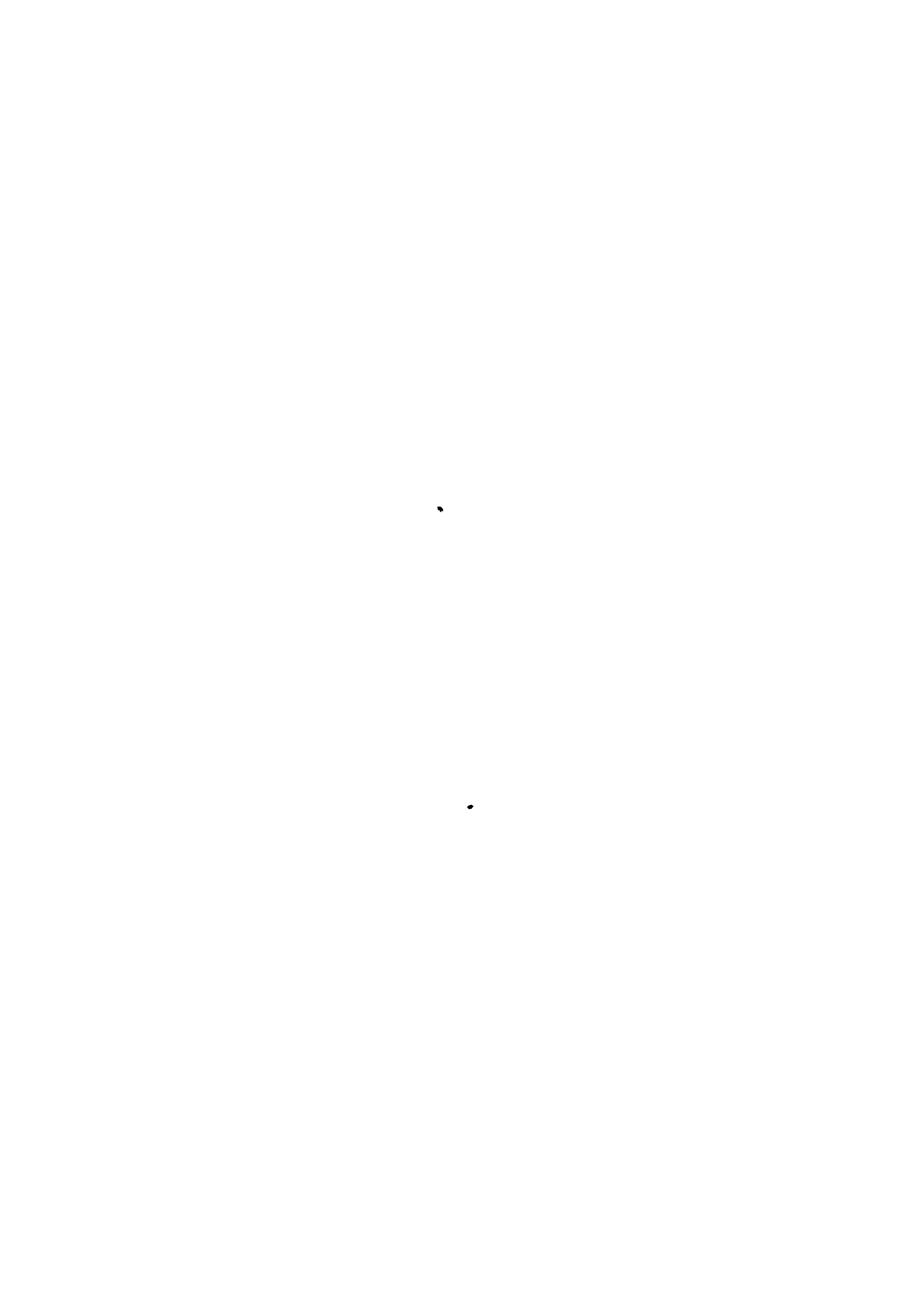
وفى ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ رحلت حكومة الفريق عبود وتألفت حكومة علمانية برئاسة سر الختم خليفة – وظلت هذه الحكومة التى تعتبر الحكومة الدمقراطية

الثانية فى السودان تدير شئون البلاد حتى ٢٥ مايو ١٩٦٩ حين قامت حركة جديدة بقـيادة جعفـر نمـيرى واسـتمرت هذه الحكومة العسكرية حتى قامت الحكومة الديمقراطية الثالثة فى السودان برئاسة الصادق المهدى.

وفى ١٩٨٩ استولت حكومة الإنقاذ على السلطة برئاسة حسن البشير.

هكذا أمسكت بالسلطة فى السودان حكومات مدنية وأخرى عسكرية وكان على هذه الحكومات أن تواجه المشكلات الملحة للبلاد.

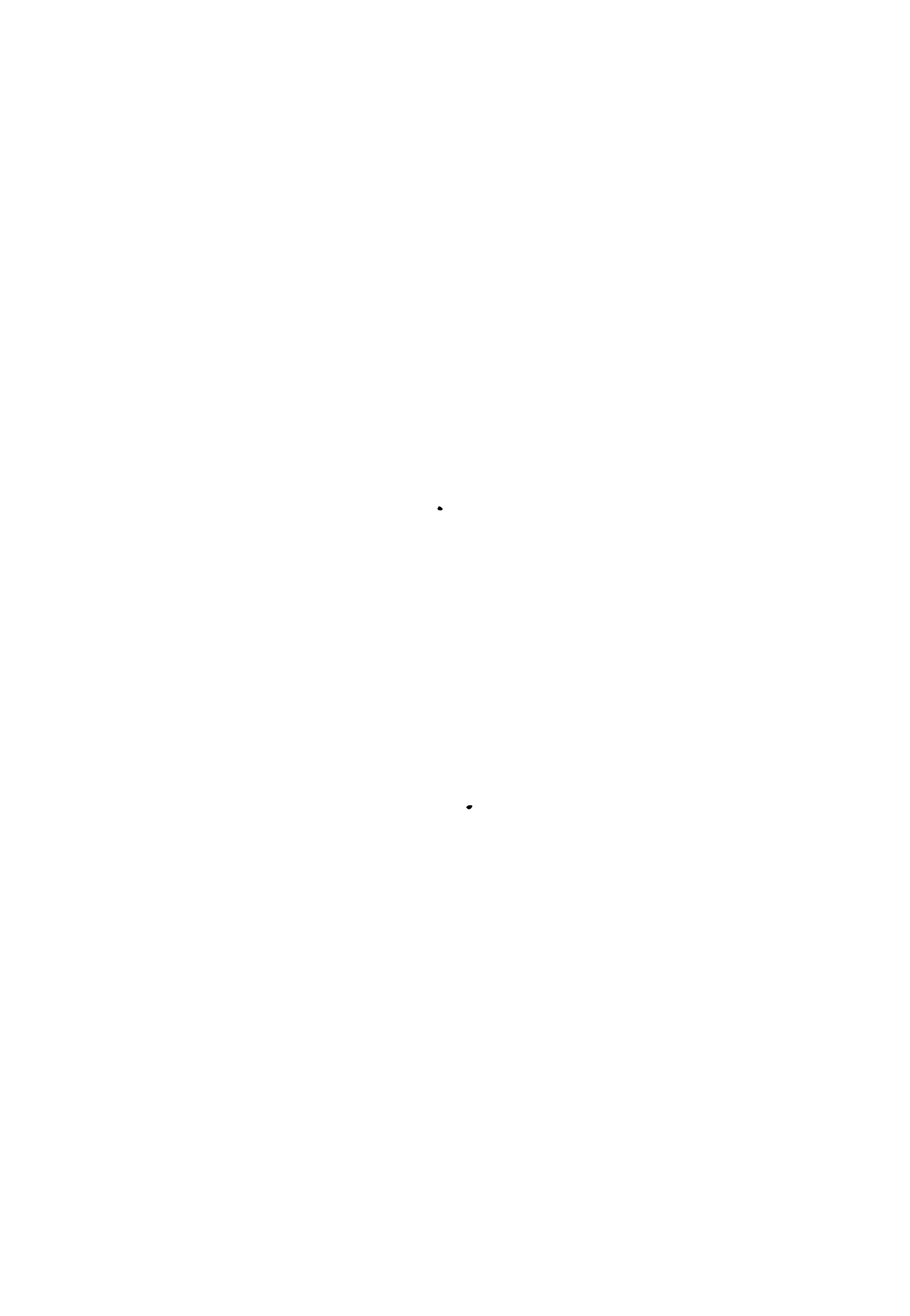
وسنتناول أهم هذه المشكلات التى واجهها السودان فى تاريخه الحديث.





الفصل الثانى عشر
مشكلة جنوب السودان وتطوراتها

- مقدمة.
- الخصائص الجغرافية لمديريات جنوب السودان.
- سكان جنوب السودان.
- التطورات الهامة المتعلقة بهذه المشكلة.
- وضع الجنوب فى الفترة السابقة للحكم الوطنى.
- الجنوب فى اتفاقية الحكم الذاتى (فبراير ١٩٥٣).
- تطور مشكلة الجنوب فى ظل الحكومات الوطنية.



الفصل الثانى عشر
مشكلة جنوب السودان وتطوراتها

مقدمة :

البعض ينظر إلى مشكلة جنوب السودان على أنها ترجع أولاً وأخيرًا إلى فقدان الثقة بين سكان الجنوب وسكان الشمال.

لكن لا شك فى أن هذه المشكلة ترجع لأسباب عدة بعضها أسباب طبيعية والبعض يرجع لأسباب تاريخية، والبعض يرجع بالمشكلة لأسباب عنصرية وجنسية، والبعض يرجع المشكلة إلى أسباب ثقافية.

ومهما تكن الأسباب فإن المشكلة تضخمت بمرور الزمن وأثرت فى العلاقات بين الحكومات التى قامت فى الخرطوم وبين مواطنيها فى الجنوب، كما أثرت المشكلة إلى حد كبير على جهود التنمية فى السودان وعلى علاقات السودان الخارجية سواء بدول الجوار الأفريقية أو بدول العالم الكبرى.

وإذا كانت المشكلة قد هددت الوحدة الوطنية فى السودان فإنها كما ذكرنا عرقلت التنمية الإقتصادية فيه خاصة بعد أن تحولت المشكلة إلى حرب مسلحة بين القوات الحكومية والجنوبية.

الخصائص الجغرافية للمنطقة :

ترجع الحدود الحالية للسودان إلى اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التى عُقدت بين مصر وبريطانيا – ومساحة السودان حوالى مليون ميل مربع – وهذه المساحة هى ربع مساحة أوروبا تقريبًا – مساحة تعادل مساحة كل من فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، والبرتغال، ودول اسكنديناوه مجتمعة.

ويمتد السودان ما بين خطى عرض ٣°، ٢٢° شمالاً – وللسودان حدود مع ثمان دول أفريقية هى مصر، وليبيا، وتشاد، وأفريقية الوسطى، والكنغو، وأوغندة، وكينيا، وإثيوبيا.

ويطلق جنوب السودان على المنطقة الواقعة بين خطى عرض ٤°، ٣٠° شمالا وبين خطى طول ٣٤,٣°، ٣٥° شرقًا.

ويتكون الجنوب من ثلاث مديريات هى:

١- بحر الغزال وعاصمتها واو وتقدر مساحتها بـ ٢١٣,٧٥١ كم٢.

٢- المديرية الاستوائية وعاصمتها جوبا ومساحتها حوالى ١٩٨,١٢٠ كم٢.
٣- وأعالى النيل وعاصمتها ملكال ومساحتها ٢٣٦,١٨ كم٢.

ومساحة هذه المديريات مجتمعة حوالى ٢٥٠٠ ألف ميل مربع أى حوالى ربع المساحة الكلية للسودان.

وتختلف مديريات جنوب السودان عن شماله فى الظروف الطبيعية ومن جهة المناخ إذ يتفاوت معدل المطر تفاوتًا واضحًا بين أجزاء السودان.

ففى الشمال يقل المطر – حيث لا يتعدى فى الخرطوم ٦ أو ٧ بوصات، وفى كردفان يصل إلى ١٢ بوصة، بينما يصل المعدل فى مديرتى أعالى النيل والإستوائية إلى ٣٥ بوصة، وفى مديرية بحر الغزال يصل إلى ٤٤ بوصة، وفى أقصى الجنوب يصل معدل المطر إلى ٥٠ بوصة.

وتبع ذلك تنوع النبات، ففى الشمال النباتات من النوع القصير، باستثناء المناطق التى تتوفر فيها مياه الرى على ضفاف النيل وفى منطقة الجزيرة.

أما فى الجنوب فتنوعت النباتات وتختلف بين حشائش السافانا، والغابات الإستوائية.

وترتب على إختلاف معدل المطر – تكوين منطقة البردى الضخمة الى تكون منطقة السدود التى تعرقل الملاحة فى النيل الأبيض والتى كانت إلى وقت قريب بمثابة حاجز طبيعى بين الشمال والجنوب.

وهكذا تحكمت العوامل الطبيعية فى طرق المواصلات التى تربط أجزاء السودان بعضها بالبعض الآخر إلى أن قامت الخطوط السودانية الجوية بتدبير رحلات منظمة إلى عواصم المديريات الجنوبية.

فالطرق البرية لا يمكن الإعتماد عليها إلا فى موسم الجفاف القصير ويستحيل استخدامها فى موسم المطر الطويل.

ومن الناحية الإقتصادية يقوم اقتصاد جنوب السودان على الزراعة حيث تزرع الذرة والسمسم والقطن والتبغ.

كما يقوم السكان بتربية الماشية إلا فى المناطق التى ينتشر فيها ذباب التسى تسى.

وقد عثر فى جنوب السودان على كميات من النحاس، والذهب والحديد.

فخام الحديد موجود بمديرية بحر الغزال وأعالى النيل. كما يوجد النحاس فى مديرية بحر الغزال.

ويوجد الذهب بكميات ضئيلة فى المديرية الإستوائية.

لكن يعوق استغلال هذه المعادن عدم توفر الفحم إلى جانب عدم توافر وسائل النقل والمواصلات.

وقد أُكتشف البترول أخيرًا فى جنوب السودان ويستغل حاليًا، وإن كانت الظروف السياسية والصراع بين الجنوب والشمال يعوق الإستفادة منه بطريقة مثالية.

سكان جنوب السودان :

لا توجد إحصاءات رسمية دقيقة حديثة عن عدد سكان الجنوب وجنسياتهم، كما تختلف الإحصائيات التى تذكر لعدد المهاجرين الذين هاجروا للأقاليم أو الدول المجاورة بسبب الحرب الأهلية فى السودان.

وحسب التقويم السنوى لحكومة السودان لسنة ١٩٧١/١٩٧٠ يصل سكان السودان إلى حوالى ١٥,٧٠٠,٠٠٠ نسمة – بينما يمثل سكان جنوب السودان نحو ٢٧% من هذا العدد.

وسكان شمالى السودان من العناصر القوقازية وهم ينقسمون حسب اللغة السائدة بينهم إلى.

العناصر العربية :

وهم يتكلمون اللغة العربية وينتمون إلى أصول عربية.

ويسود الدين الإسلامى فى شمال السودان – ويسكن جنوب السودان مجموعات قبلية متعددة ذات أصول زنجية.

ويقسم علماء الأجناس هذه المجموعات القبلية إلى ثلاث مجموعات:

١ – القبائل النيلية:

وهم يسكنون على شواطئ بحر الجبل، والغزال، والسوباط، وأعالى النيل الأبيض. وينتظمون فى عدد من القبائل أهمها:

أ – الدنكا :

ويبلغ عددهم فى جنوب السودان مليون نسمة – ويعتقد أنهم أتوا من مناطق البحيرات العظمى فى شرق أفريقيا – ويتصفون بسواد اللون وطول القامة

ويشتغلون بالرعى وتلعب الماشية دورًا هامًا فى حياتهم المدنية والدينية – فبها تدفع مهور الزواج – كما تقدم القرابين للآلهة – والسلطة السياسية عندهم فى يد الزعيم المحلى.

ب- النوير :

وهم أقل عددًا فى جنوب السودان من الدنكا ويسكنون فى مديرتى أعلى النيل وبحر الغزال – وهم أيضًا يشتغلون برعى الماشية، وللماشية لديهم أهمية – لكنهم أيضًا يشتغلون بالزراعة خاصة الذرة التى تمثل غذاءًا رئيسيًا عندهم – ولهم رئيسهم الدينى الذى يرأس الإحتفالات الدينية والطقوس فى المناسبات الدينية.

ج- الشلك :

يسكنون على الضفة الغربية للنيل الأبيض ويمتازون بالقوة الجسمية – ويشتغلون بالرعى والزراعة – وعلى رأس المجتمع رئيس يقوم بالشعائر الدينية.

٢- القبائل النيلية الحامية :

وهم يستوطنون حاليًا الأجزاء الجنوبية الشرقية من المديرية الإستوائية – وهذه القبائل كانت لها أصول هامة إلى جانب صفاتها الزنجية ويشتغلون بالرعى أساسًا وإن كان بعضهم يزاولون مهنة الزراعة.

وإلى هذه المجموعة تنتمى قبائل البارى – ويسكن البارى على الشاطئ الشرقى لبحر الجبل ويشتغلون بالزراعة ولهم تنظيمهم الإجتماعى المتمثل فى مجلس الكبار الذى يناقش القضايا الهامة ولهم زعيم ينظم علاقة القبيلة بالسلطة الإدارية.

٣- القبائل السودانية:

وهم جماعات صغيرة تعيش فى الجزء الغربى والجنوبى الغربى لمديرية بحر الغزال. وينتمى إلى هذه المجموعة شعب الزاندى ويعتقد أنهم هاجروا من جنوب بحيرة تشاد ويستوطنون حاليًا المناطق الجنوبية الغربية لمديرية بحر الغزال – ويقدر عددهم فى السودان بحوالى ٢٣٠,٠٠٠ نسمة، ويشتغلون بالزراعة بصفة خاصة – والسلطة عندهم فى يد طبقة أرستقراطية.

وغالبية الجنوبيين من الوثنيين، وإن كانت جماعات منهم اعتنقت المسيحية نتيجة نشاط الجمعيات التبشيرية كما اعتنقت جماعات منهم الإسلام.

ويعتقد الجنوبيون فى وجود الآلة الأعظم وهو عندهم قوة روحانية غامضة تتحكم فى الأحداث الغامضة.

ويلعب بعض الأشخاص كجالبى المطر دورًا هامًا عند بعض القبائل.

٤- جماعات قبلية مختلفة:

توجد بجنوب السودان جماعات قبلية مختلفة بأعداد متباينة بعضها لا تتعدى العشرات والبعض الآخر أكثر من ذلك – وذلك نتيجة الهجرات على مر السنين.

تطور مشكلة الجنوب

مرت المشكلة بين جنوب السودان وشماله فى مراحل

التطورات الهامة المتعلقة بهذه المشكلة :

كما ذكرنا سابقًا لم تعرف السودان كدولة كائنة بذاتها ولها حدودها الدولية المعترف بها قبل اتفاقية الحكم الثنائى بين مصر وبريطانيا الموقعة فى القاهرة فى ١٩ يناير ١٨٩٩ – والتى حددت المادة الأولى منها الأراضى التى يُطلق عليها لفظ السودان – وحددت خط عرض ٢٢° حدًا فاصلاً بين مصر والسودان.

وقبل امتداد الإدارة المصرية للسودان – كما أوضحنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب لم تكن تمارس السلطة على أرض السودان حكومة واحدة بل كانت هناك سلطنات إسلامية مختلفة تمارس السلطة على بعض المناطق فى شمال السودان والشرق والغرب، بينما كان الجنوب تحت نفوذ قبائل متباينة لها معتقداتها المختلفة وتدير شئونها بطريقتها، وقد إختلف نفوذ شيخ القبيلة أو رئيسها من قبيلة لأخرى.

وضع الجنوب فى ظل الإدارة المصرية:

لم تكن هناك معلومات واضحة عن جنوب السودان قبل امتداد الإدارة المصرية لإجزاء من شمال السودان فى عهد محمد على – وقد كانت السدود النباتية عائقًا طبيعيًا بين الشمال والجنوب – لكن بدأت تتكشف أحوال الجنوب بعد رحلات سليم قبطان التى وصلت إلى غندكرو وذلك فى عهد محمد على – ثم تتابعت المحاولات والجهود لمد نفوذ مصر للجنوب وربط الجنوب بالشمال فى عهد إسماعيل الذى كلف صموئيل بيكر ثم غوردون بهذه المهمة[١].

وكانت الحروب تنشب بين حين وآخر بين قبائل الجنوب ويترتب على إنتصار القبائل القوية مثل قبيلة الزاندى على القبائل الضعيفة أسر أعداد كبيرة من أفراد القبائل الضعيفة وبيعهم كرقيق.

١- أرجع للجزء الثانى من هذا الكتاب.

أثر تجارة الرقيق على مشكلة جنوب السودان:

أدى انتشار الرق فى جنوب السودان بالذات إلى توتر العلاقات بين الشماليين والجنوبيين فى هذه المناطق، وقد بذل محمد على جهودًا للحد من تجارة الرقيق فى السـودان بعـد امتداد إدارته لأجزاء من هذه البلاد خاصة أن الحكومات الأوربية وجمعيات مقاومة تجارة الرقيق - كانت تضغط على محمد على لإتخاذ خطوات جادة لمقاومة تجارة الرقيق.

وقـد ظهـر أن عددًا من الشخصيات القوية والمسلحة من مختلف الجنسيات كانـت متورطة فى تجارة الرقيق، وكانت تستثمر أموالها وطاقاتها فى هذا المجال ولها ما أطلق عليه اسم (الزرائب) لتخزين السلاح والعبيد وممارسة هذه التجارة على نطاق واسع.

واصطدمت هـذه البيوت التجارية بالجهود التى بذلتها الحكومة المصرية لتسـهيل سـبل الاتصال بين شمال السودان وجنوبه - وليسود الأمن والسلام فى ربوع المناطق التى خضعت للإدارة المصرية لتحد هذه الشخصيات المتورطة فى تجارة الرقيق من نشاطها.

هذا رغم أنه كان من أهم أهداف الحملات المصرية التى أرسلت للجنوب كما جاء فى تعليمات الحكومة المصرية الصادرة لكل من صموئيل بيكر وغوردون هو القضاء على هذه التجارة.

وقـد خلـق هذا الوضع شيئًا من الجفاء والنفور بين حكام الشمال والسلطات القبلية فى الجنوب[١].

وفـى أغسطس ١٨٧٧ عُقدت بين مصر وإنجلترا معاهدة بشأن محاربة هذه التجارة ولكن اتسمت الوسائل التى أتبعت لتنفيذ هذا الهدف الإنسانى بكثير من العنف والشـدة مما آثار الكثيرين ممن كانوا يمارسون هذه التجارة من زمن بعيد، بالإضافة إلـى مـا أحدثته سياسة الإلغاء المفاجئ من خلخلة فى المجتمع السودانى الذى كان الرقيق ركنًا هامًا من أركانه تقوم عليه الحياة الاقتصادية من زراعة وتجارة.

الوضع فى فترة حكم المهديين لشمال السودان:

حاولـت قـوات المهدية بعد أن استقر لها الوضع فى شمال السودان وسقوط العاصـمة الخـرطوم فـى يد قوات المهدى مد سلطانها على مديرية بحر الغزال

٢- أرجع للجزء الثانى من هذا الكتاب.

والمديـــرية الاستوائية لكنها لم تنجح فى ذلك ولم تستطع قوة الأنصار بسط نفوذها إلا علـــى مناطق محدودة من الجنوب ولفترات قصيرة – وقد هزمت قوات المهدية بقـــيادة عـــربى رفـــيع الله فى الرجاف عام ١٨٩٧ وقد ترتبت على ذلك نتائج من أهمها:

١- زيادة تجارة الرقيق وإشاعة الفوضى والدمار فى جنوب السودان.
٢- زيـــادة الأطمـــاع الأجنبـــية فـــى هذه المناطق الجنوبية خاصة أطماع الملك البلجـــيكى ليوبلد الثانى الذى كان يطمع فى ضم الأراضى الواقعة غرب نهر النيل إلى مستعمرته فى الكونغو.
٣- هذا بالإضافة لأطماع إنجلترا فى ضم هذه الأقاليم من جنوب السودان للمناطق الواقعة تحت نفوذها فى شرق القارة وجنوبها.
٤- أوقفت المهدية عملاً هامًا للإدارة المصرية كان من المنتظر تحقيقه فى جنوب السودان كما تحقق فى الشمال وهو نشر اللغة العربية والإسلام فى الجنوب.

الوضع فى جنوب السودان فى ظل الحكم الثنائى:

فـــى ١٩ يـــناير سنة ١٨٩٩ وقعت بالقاهرة معاهدة الحكم الثنائى أو ما أطلق علـــيه وفاق ١٨٩٩ بين حكومة جلالة ملكة إنجلترا وحكومة الجناب العالى خديوى مصر بشأن إدارة السودان فى المستقبل وقد وضعت هذه الإتفاقية السلطات المختلفة فى السودان فى يد الحاكم العام.

والغريـــب أنه منذ توقيع هذه الاتفاقية وحتى نال السودان استقلاله الكامل فى يناير ١٩٥٦ لم يعين مصرى واحد حاكمًا عاما للسودان، فقد تولى هذه السلطة عدد مـــن البريطانيين رغم أن الاتفاق نص فى المادة الثالثة منه أن يعين (الحاكم العام) بأمر عال خديوى بناءًا على طلب حكومة جلالة الملكة، وأنه لا يُفصل من وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

ولـــذا كانـــت هـــذه الفـــترة – فترة الحاكم الثنائى – فرصة لبريطانيا لتحقيق أطماعهـــا وسياســـتها التى تعمل لفصل جنوب السودان عن شماله، وتوسيع الفجوة بين الشمال والجنوب، ومحاولة تحويل أنظار الجنوبيين وأطماعهم ومصالحهم نحو الجنوب حيث كانت لبريطانيا السيطرة الكاملة على هذه الجهات.

وقـــد صدرت فى فترة الحكم الثنائى للسودان من حكومة السودان عدة قوانين وأتخذت عدة إجراءات لتحقيق هذا الهدف –

ومن الإجراءات التى أتخذت:

١- إنشاء قوات عسكرية خاصة بالجنوب من الجنوبيين.
٢- جعل العطلة الأسبوعية الرسمية فى الجنوب – يوم (الأحد) بدلاً من الجمعة.
٣- استخدام اللغة (الإنجليزية) بدلا من العربية كأساس للتخاطب، وإصدار التعليمات الحكومية الإدارية باللغة الإنجليزية بدلاً من العربية لتوسيع سعة الخلاف الثقافى بين الشمال والجنوب.
٤- تعيين المأمورين وغيرهم من رجال الإدارة فى الجنوب من الجنوبيين. ومنذ ١٩٢٠ أصبح الإتجاه الحكومى يهدف إلى فصل الجنوب عن الشمال أو ما عبر عنه بفصل الأراضى الزنجية التى غالبية سكانها من الزنوج عن الأراضى العربية فى الشمال.
٥- وفى عام ١٩٢٢ صدر قانون المناطق المغلقة الذى جعل المناطق الجنوبية مغلقة فى وجه الشماليين بالنسبة للتجارة والانتقال، وأعطى القانون الحاكم العام سلطة إعتبار أى منطقة مغلقة بالنسبة للتجارة الخارجية بحيث يكون التعامل فيها قاصرًا على الأهالى المحليين وقد تدعم هذا القانون فيما بعد بقانون آخر صدر فى عام ١٩٢٨.

الوضع فى جنوب السودان فى فترة إنفراد إنجلترا بالحكم ١٩٢٤-١٩٣٦:

أتاحت الظروف التى تلت مقتل السيرلى ستاك حكمدار عام السودان فرصة ذهبية لبريطانيا لتحقيق سياستها الرامية إلى فصل جنوب السودان عن شماله – فقد ترتب على الإنذار البريطانى لمصر عقب حادث الاغتيال واستقالة وزارة سعد زغلول واضطرار حكومة زيوار إلى قبول ما جاء بالإنذار البريطانى بخصوص سحب الجنود والموظفين المصريين من السودان – أن أصبحت يد إنجلترا حرة لتحقيق ما ترمى إليه من توجيه الجنوب إلى أوغندة والمستعمرات البريطانية بجنوب القارة، وتعميق الفجوة بين السودانيين الجنوبيين والشماليين، وإن كانت بريطانيا قد صدمت بأن قادة ثورة ١٩٢٤ فى السودان كانوا جميعًا – تقريبًا – من قبائل جنوبية – فعلى عبد اللطيف ينتمى إلى قبائل الدنكا – وكذلك حسن فضل المولى، وثابت عبد الرحيم، وعبد الفضل الماظ ينتمون لقبائل جنوبية.

لكن إنجلترا مضت فى سياستها لفصل الجنوب عن الشمال.

ومن الإجراءات التى اتخذتها :

١- أصدرت السلطات الحاكمة فى السودان فى عام ١٩٢٧ – قانون سلطات المشايخ وهو يقضى بتكوين مجلس فى كل مديرية يرأسه أحد شيوخ القبائل

ويعاونه كبار السن من المشايخ ويمتلك هذا المجلس سلطات قضائية وسلطات تنفيذية.

٢- إنشـاء محـاكم الرؤساء وإحياء مهام السلطات التقليدية ومنح بعض السلطات الإدارية لزعماء القبائل.

٣- محاولة سد النقص فى الكوادر الإدارية الذى ترتب على خروج عدد كبير من رجـال الإدارة المصـرية مـن السودان - عن طريق أبناء الجنوب أنفسهم بالإضافة للبريطانيين خريجى المدارس والجامعات والمحتاجين للعمل.

٤- تعمـيم اسـتخدام اللغـة الإنجليزية واللغات واللهجات المحلية فى المراسلات والمعاملات لمحو آثار اللغة العربية.

٥- تدعيم نشاط الجمعيات التبشيرية ومنحها المساعدات المادية وغيرها لتسهم فى الجهود المبذولة للقضاء على اللغة العربية ومواجهة الجهود التى كان يقوم بها الأزهر ورجال الدين الإسلامى لنشر الإسلام وتعليمه.

وفـى هذا المجال أُتخذت عدة خطوات منها تحصيص مناطق خاصة تمارس فيها كل جماعة تبشيرية نشاطها، ومنها تيسير عمل الجمعيات التبشيرية عن طريق توفـير جـو السلام والإستقرار وتيسير تنقلات رجال الإرساليات ومساعدتها على ممارسة نشاطها.

ومن الغريب أن أمر التعليم فى جنوب السودان يكاد يكون قد عُهد به كلية لهذه الإرساليات، وقد خصصت لكل إرسالية منطقة بذاتها تمارس فيها نشاطها، ونظـر للإرسـاليات على أنها جزء مكمل لسياسة الإدارة تجاه الجنوب، وفى ضوء ذلك عملت الإرساليات وقد أدى ذلك إلى تجسيم الاختلافات بين الجنوب والشمال.

وأدى تبايـن النظم التعليمية للإرساليات المختلفة رغم وجود نقاط تلاقى بينها سـواء فى الأهداف أو الأسلوب المتبع فى أداء رسالتها - إلى زيادة الخلافات بين الجنوبيين أنفسهم وبينهم وبين الشماليين.

وقـد شـملت مـدارس الجـنوب التى تمارس الإرساليات نشاطها فيها عدة مسـتويات تعليمية - فهناك مدارس القرى، ومدارس الأحراش والمدارس الأولية، ومـدارس متوسـطة، وكذلك مدارس تجارية - وبالطبع لم تتوفر كل هذه الأنواع والمسـتويات من المدارس فى منطقة واحدة ولم تهتم هذه الإرساليات بنشر التعليم فلم يكن هذا هو هدفها الرئيسى لكن كان نشر الدين هو الهدف الأساسى.

مؤتمر الرجاف ١٩٢٨ :

حضـــر هذا المؤتمر ممثلون عن حكومة السودان ومندوبون عن الإرساليات من أوغندا، والكنغو، والمعهد الدولى للهجات والثقافات الأفريقية.

ونـــاقش المؤتمر مشكلة تعدد اللغات واللهجات فى جنوب السودان – وإنتهى المؤتمر إلى اختيار مجموعة اللهجات التى تستخدم فى التدريس فى المرحلة الأولية وهى لهجات الزاندى، والنوير، واللاتوكا، والدنكا، والباريا، والشلك.

وقـــد درس المؤتمر مشكلة المقررات التعليمية فى الجنوب وإتخذ قرارًا بإيفاد بعـــض علمـــاء الأجناس لدراسة العادات والتقاليد والتنظيمات الاجتماعية واللغات السائدة لدى القبائل البدائية – ويُعتبر هذا المؤتمر أحد الخطوات التى مهدت لتطبيق السياسة التى رسمتها الحكومة السودانية فى الجنوب.

وهكذا ساهمت الجهود التى قامت بها الإرساليات فى جنوب السودان فى خلق أفكـــار ومعتقدات غريبة عما تعود عليه السودانيون – فقد ساهم فى خلق أشخاص يشـــعرون بالـــتعالى عـــن أقرانهم فى مجتمعهم مما أدى إلى إحجام بعض رؤساء القبائل عن إرسال أبنائهم إلى مدارس الإرساليات التى تنمى فيهم هذه الروح البعيدة عن روح أفراد مجتمعهم.

مذكرة السكرتير الإدارى (ماكمايكل) ١٩٣٠:

توضـــح هذه المذكرة التى أرسلها السكرتير الإدارى بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٣٠ للإدارات المختلفة بجنوب السودان – المعالم الرئيسية للسياسة البريطانية فى جنوب الســـودان ففـــى مذكـــرته طالب السكرتير الإدارى المديرين وغيرهم من موظفى الإدارات فى الجنوب:

١- بالعودة إلى الأعراف القبلية وتقوية هذه الأعراف والعمل على سيادتها.
٢- الإلـــتزام بعدم استخدام اللغة العربية فى المصالح الرسمية والعودة إلى اللغات المحلـــية أو اللغة الإنجليزية إن أمكن ذلك، وتشجيع استخدام اللغة الإنجليزية لتسود فى الأوراق الرسمية.
٣- عدم تشجيع الشماليين ومسلمى غرب أفريقيا (الفلاتة) على الوجود فى جنوب السودان أو التعامل مع الجنوبيين والتضييق على التجار الشماليين الموجودين فى الجنوب ليضطروا للعودة للشمال.
٤- تشـــجيع الجنوبيين علـــى عدم إستخدام الزى العربى أو الأسماء أو الألقاب العربية.

٥- استبعاد المسلمين من رجال الشرطة ومن المدرسين وغيرهم وإستبدالهم بعناصر من الجنوب.

وقد كان رد الإداريين الجنوبيين على تعليمات السكرتير الإدارى بأنهم ملتزمون بهذه التوجيهات وأنه لم يبق فى الجنوب إلا قلة من التجار الشماليين.

وترتبت على هذه السياسة التى تتبعها حكومة السودان لفصل جنوب السودان عن شماله وارتباطه بالأقطار الأفريقية فى جنوب القارة وشرقية نتائج منها:

١- عدم وجود عناصر تتصف بالكفاءة لسد الفراغ فى الإدارات الجنوبية.
٢- تعطيل عملية التنمية والتقدم فى الجنوب وإتساع الفجوة الحضارية والعمرانية بين الشمال والجنوب.
٣- عدم نجاح سياسة إحياء التقاليد والعادات القبلية الحالية بعد أن كانت قد قضى عليها.

وهكذا لم تنجح السياسة البريطانية الرامية إلى أفرقة أوجه الحياة فى الجنوب- فى الوقت الذى لم يستطع الجنوبيون استيعاب الأنماط التى حاولت الجمعيات التبشيرية بثها بين أبناء جنوب السودان للفوارق الكبيرة بين مبادئ الحضارة الأوربية التى كانت تعمل الجمعيات التبشيرية لنشرها، وبين الحضارة الأفريقية التى تعود عليها أبناء الجنوب والتى توارثوا طقوسها ومعتقداتها.

مشكلة جنوب السودان فى الفترة السابقة لقيام حكومات وطنية ١٩٣٦-١٩٥٥:

بدأت الحركة الوطنية للسودانيين فى الإنتعاش فى أواخر الثلاثينات - فقد قام المثقفون السودانيون فى عام ١٩٣٨ فى تنظيم أنفسهم فيما عرف (بمؤتمر الخريجين) - ولما زار على ماهر باشا رئيس وزراء مصر السودان فى مستهل عام ١٩٤٠ - تقدم مؤتمر الخريجين له بمذكرة حول الأوضاع السيئة فى جنوب السودان وواجب الحكومة لمعالجتها، كما تقدم مؤتمر الخريجين فى عام ١٩٤٢ بمذكرة إلى الحاكم العام للسودان طالب فيها بإلغاء قوانين المناطق المقفولة، ورفع القيود المفروضة على التجار والانتقال عن السودانيين داخل السودان، ووقف الإعانات التى تمنح لمدارس الإرساليات وتوحيد برامج التعليم فى الشمال والجنوب.

وقد رد السكرتير الإدارى لحكومة السودان على المذكرة بالرفض على أساس أن هذه المطالب ليست من اختصاص المؤتمر.

ولمــا أنشــأت الإدارة البريطانــية فــى عام ١٩٤٢ المجلس اللاستشارى لشمال الســودان واقتصر عمل المجلس على المديريات الشمالية – وجه المثقفون السودانيون انتقادات كبيرة لهذا المجلس بعدم تمثيل الجنوبيين فيه ولجعل سلطته استشارية.

تغيير سياسة الحكومة السودانية تجاه الجنوب (منذ ١٩٤٦):

اضــطرت الحكومة السودانية أمام ضغط الرأى العام السودانى لانتهاج سياسة جديدة، فقد تقدم السكرتير الإدارى فى ١٦ ديسمبر ١٩٤٦ باقتراحات تقضى:

١- بالعمل فى إتجاه توحيد السكان فى شمال السودان وجنوبه.
٢- إلغــاء قــانون الــرخص الــتجارية الذى يحد من نشاط التجار الشماليين فى الجنوب.
٣- توحيد السياسة التعليمية فى جميع أنحاء السودان.
٤- تدريس اللغة العربية بمدارس الجنوب.
٥- تطويــر طرق المواصلات بين شمال السودان وجنوبه وتيسير تنقل المواطنين دون قيود.
٦- انــتهاج سياسة جديدة تهدف لتطوير الجنوب بحيث يصبح الجنوبيون فى فترة قصيرة على قدم المساواة مع الشماليين وفى نفس المستوى.
٧- حرية ممارسة الشعائر الدينية فى جميع أرجاء السودان.
٨- توحيد العطلات الرسمية فى جميع أرجاء السودان.

مؤتمر جوبا ومشكلة جنوب السودان (١٦-١٧ يونية ١٩٤٧):

فــى ضــوء هذه السياسة الجديدة للإدارة السودانية انعقد مؤتمر جوبا برئاسة السكرتير الإدارى وحضره مديرو المديريات الجنوبية وعدد من الشخصيات الهامة مــن الشماليين والجنوبيين وكان هذا المؤتمر أول لقاء بين ممثلين لشمال السودان وممثلين للجنوب.

وقد اتخذ المؤتمر عدة توصيات من أهمها:

١- تمســك الجنوبييــن بوحــدة السودان وباعتبار الشمال والجنوب وطنًا واحدًا للجميع.
٢- الموافقــة علــى إرسال ممثلين عن الجنوب إلى الجمعية التشريعية المقترحة لشــمال السودان وبذلك انقضت فكرة إنشاء جمعية تشريعية منفصلة لكل من الشمال والجنوب،

٣- إلغـــاء قانون الرخص التجارية السابق إصداره والذى يحد من نشاط الشماليين فى الجنوب.
٤- زيادة وسائل الاتصال بين المشال والجنوب.
٥- إيجـــاد بعـــض الضـــمانات الـــتى تكفـــل المساواة الكاملة والاحترام لكل من الجنوبيين والشماليين.
٦- افتتاح مدرسة ثانوية (أول مدرسة) فى مديرية أعالى النيل.
٧- اتجـــاه طـــلاب التعلـــيم العـــالى من الجنوبيين لكلية غوردون بدلاً من كلية ماكريرى بأوغندا.
٨- إدخال اللغة العربية فى مدارس الجنوب.

الجنوب فى اتفاق الحكم الذاتى للسودان (١١ فبراير ١٩٥٣):

وقعـــت مصر وبريطانيا فى ١١ فبراير ١٩٥٣ الإتفاق الذى يمنح السودانيين حـــق تقرير المصير وقد حرصت مصر فى هذا الإتفاق على وحدة السودان كأمر رئيســـى وعلى ألا يمنح الحاكم العام أى سلطة إستثنائية خاصة بالجنوب تشير إلى الاختلافات بين الشمال والجنوب.

وفـــى الفـــترة الانتقالية (٣ سنوات) حدثت أحداث هامة تتعلق بوضع حنوب السودان من أهمها:

١- دعـــوة مصـــر للاشتراك فى انتخابات وأوجه النشاط الأخرى التى تجرى فى الفترة الانتقالية.
٢- لجـــنة الســـودنة: أعلنـــت اللجنة عن الوظائف التى يجب سودنتها – وكانت حوالـــى ٨٠٠ وظيفة – ولكن كان نصيب الجنوبيين منها ٤ وظائف لمساعد جيش واثنين لمأمور، وكان ذلك مخيبًا لأمال الجنوبيين واعتبروا أن الأمر لم يخرج عن كونه استبدال شخص بأخر، ونظروا لعملية السودنة التى قامت بها لجـــنة الخدمـــة العامـــة ومعظم أعضائها من الشماليين بأنها تمثل استمرارًا للشـــماليين فـــى الـــتحكم فى الجنوب – ولم تنجح الجهود التى بُذلت لاحتواء الثورة التى نتجت عن نتيجة عملية السودنة هذه.
٣- أحـــداث العنف فى الجنوب (١٩٥٥): بلغت أحداث العنف فى الجنوب ذروتها فى تمرد الفرقة الاستوائية فى ١٨ أغسطس ١٩٥٥.
٤- تمرد القوة الاستوائية فى (توريت) بالمديرية الاستوائية: تعددت الاضطرابات فـــى جـــنوب الســـودان وحين طلبت الحكومة من الفرقة الاستوائية فى مدينة

توريـــت الـــتوجه إلى الخرطوم للاشتراك فى العرض العسكرى الذى سيقام بمناســبة إعـــلان استقلال اللسودان – جرت إشاعات بأن الاتجاه هو التنكيل بهـــؤلاء الجنوبييـــن – فرفضـــت القـــوة ترك مواقعها وقد قطع الحاكم العام للســـودان زيارتـــه لبريطانيا وعاد للخرطوم لتدارك الموقف وإصدار الأوامر للقـــوات المـــتمردة بتســـليم أسلحتها، وانتهت العملية بهروب أعداد كبيرة من القـــوات المتمردة – وقد شكلت لجنة للتحقيق فى أسباب التمرد، على أن هذا كان بداية لاشتداد العنف بين الشماليين والجنوبيين.

تطور مشكلة الجنوب فى ظل الحكومات الوطنية المستقلة:

١- فترة الحكم المدنى (١٩٥٦-١٩٥٨):

كانـــت مشـــكلة الجنوب من أول المشاكل التى واجهتها الحكومة الوطنية التى تولـــت حكـــم الســـودان مـــنذ أول يناير ١٩٥٦ (حكومة الأزهرى) – وكان أحد الجنوبييـــن عضـــوًا فى السلطة التى تولت الحكم – وقد سقطت حكومة الأزهرى وتكونـــت حكومـــة جديدة فى ٥ يوليو ١٩٥٦ من حزب الأمة بالائتلاف مع حزب الشعب – برئاسة عبد الله خليل وقد دخل الحكومة الجديدة ثلاثة وزراء جدد.

وقـــد شـــكلت الحكومـــة الجديـــدة لجنة لوضع مشروع دستور السودان، وقد استبعدت اللجنة فكرة منح الحكم الذاتى الإقليمى للجنوب.

وقـــد قـــررت الحكومة الاستيلاء على جميع المدارس التابعة للإرساليات فى الجنوب – كما قررت أن يكون التعليم باللغة العربية – وقد تقدم ممثلو الإرساليات التبشـــيرية بعدة مطالب لوزير التربية والتعليم خاصة بمدارسهم التى تستولى عليها الدولة – لكن الحكومة رفضت هذه الطلبات.

وفـــى انـــتخابات البرلمان السودانى الجديد التى أجريت فى فبراير ١٩٥٨ – حصـــل حـــزب (الاتحاد الجنوبى الجديد) على ٤٠ مقعدًا – وعندما عرضت لجنة الدستور على البرلمان مشروع الدستور الجديد – عارضه نواب الجنوب وانسحبوا مـــن الجلســـة وطالـــبوا بالنص فى الدستور على إقامة اتحاد فيدرالى بين الجنوب والشمال.

وقـــد تمـــيز الوضع فى السودان فى هذه الفترة بالتوتر وسيطرت الجماعات المتطرفة فى الجنوب على الموقف.

٢- مشـــكلة الجــنوب فى فترة الحكم العسكرى الأول (١٩٥٨-١٩٦٤) برئاسة إبراهيم عبود:

فـــى عـــام ١٩٥٨ تولـــى اللـــواء إبراهيم عبود السلطة – وأعلن حل جميع الأحزاب ووضع صلاحية الحكم فى يد مجلس أعلى للقوات المسلحة يتكون من ١٢ ضـــابطا – وقـــد عيـــن هذا المجلس وزارة من ١٢ وزيرًا منهم سبعة من أعضاء المجلـــس الأعلى للقوات المسلحة وخمسة من المدنيين من بينهم جنوبى واحد لتولى السلطة.

وقـــد حاولـــت الوزارة العسكرية دمج الشمال والجنوب ولو بالقوة، وفى هذا المجـــال حاولـــت نشر اللغة العربية والدين الإسلامى فى الجنوب ولو بالقوة ولهذا الغـــرض أنشـــأت مـــدارس إسلامية فى الجنوب، ومعهد ثانوى فى جوبا وجعلت، العطلة الأسبوعبة يوم الجمعة وحدت من نشاط الإرساليات، وأصدرت قانون يمنع الإرساليات من مباشرة أى نشاط تبشيرية ألا بتصريح خاص من الحكومة.

وأدت هـــذه الإجـــراءات الصـــعبة إلى هجرة أعداد غفيرة من الجنوبيين إلى أوغـــندا – والكـــنغو (زائـــير) وإلـــى غيرهما من دول الجوار، وأخذت تبرز هذه المشكلة – مشكلة اللاجئين وكيفية إعالتهم.

وأدت هـــذه الإحـــداث لتشـــكيل تنظـــيم سياسى خارج السودان باسم (رابطة المســـيحيين السودانيين) وقد غير اسمه فيما بعد إلى اسم الاتحاد السودانى الوطنى الأفـــريقى (سانو) – وتشكل من هذا الحزب تنظيم عسكرى عرف باسم (الأنيانيا) واتخـــذ هذا التنظيم أسلوب العنف ضد السلطات الحاكمة فقام بنسف الجسور وبث الألغام واحراق القرى.

واضطرت الحكومة العسكرية لتشكيل لجنة لتقصى الحقائق، وقد ضمت اللجنة ١٩ جنوبيًا، ١٣ شماليًا.

وهكـــذا ترتب على قيام الحكم العسكرى والطريقة التى حاول بها حل مشكلة الجنوب عدة نتائج منها:

١- أصـــبح العامل العسكرى والعنف عاملاً مؤثرًا وقويا فى المشكلة – فلما لم يجد الجنوبـــيون فرصة لتمثيلهم فى الحياة البرلمانية والتعبير عن رأيهم فى البرلمان والصحف اتجهوا لحمل السلاح الذى أصبح الوسيلة الوحيدة للتعبير عن رأيهم.
٢- ظهـــرت مشكلات جديدة (كمشلة اللاجئين) وكان على الأمم المتحدة أن تواجه هذه المشكلة بعد أن تضخمت أعداد اللاجئين وبرزت مشاكلهم وإحتياجاتهم.

٣- ترتبت على أعمال العنف آثار مدمرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية.
٤- زادت الفجـوة الحضـارية والـتخلف فـى المجالات المختلفة بين الجنوبيين والشماليين.
٥- اتخـذت المشـكلة مبدأ دينيا جديدًا تمثل فى الصراع بين الإسلام والمسيحية، وانـتقل هذا الأثر إلى الهيئات الدينية المسيحية فى الخارج فأصبحت ترى أن لهـا دورًا فـى هـذه المشكلة بعد أن تعرض أتباعها ومنظماتها العاملة فى السودان لموقف عدائى من الحكومة.

مؤتمر المائدة المستديرة ١٩٦٥ (١٦ مارس - ٢٠ مارس ١٩٦٥):

سقطت الحكومة العسكرية (حكومة عبود) فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ وكان الفشل فى حل مشكلة الجنوب من أهم العوامل التى أدت لسقوط الحكومة العسكرية وكانت البلاد فى حالة غليان.

وتحولـت السلطة فى البلاد إلى حكومة جديدة برئاسة (سر الختم خليفة) وقد دخـل الحكومة الجديدة وزيران جنوبيان، وقد رحب زعماء سانو بالحكومة الجديدة وأعلـنوا عن استعدادهم للعودة للبلاد والاشتراك فى بحث سلمى لمشكلة الجنوب - لكن حدثت فى يوم الأحد ٦ ديسمبر ١٩٦٤ أحداث دامية بين الجنوبيين والشماليين راح ضـحيتها العديد من الضحايا من الجانبين مما قضى على سياسة التهدئة التى كانت تعمل لها الحكومة.

لكـن نجحت الجهود المبذولة للاتفاق على عقد مؤتمر مائدة مستديرة فى جوبا فى السادس من فبراير مع اتفاق على وقف العمليات العسكرية - وقد عقد المؤتمر فـى الفـترة من ١٦ مارس إلى ٢٩ مارس برئاسة (الدكتور النذير دفع الله) مدير جامعـة الخرطوم، وحضر ممثلون للأحزاب الشمالية والجنوبية ومراقبون من عدة دول مجـاورة (كينيا - وتنزانيا، وغانا، نيجيريا، والجزائر، ومصر) وقد واجهت المؤتمر مشكلات تتعلق بمن يمثل حزب سانو أو جبهة الجنوب.

وطرحـت فى المؤتمر عدة أراء خاصة بالعلاقات بين الشمال والجنوب وهل يمـنح الجنوبيون حق تقرير المصير أم أن يقتصر الأمر على الإتحاد بين الجنوب والشمال فى أى شكل من أشكاله.

وقـد وصـل المؤتمر إلى طريق مسدود بسبب الخلافات بين وجهات النظر المتبايـنة وقـرر المؤتمر أخيرًا تأجيل مناقشة موضوع الشكل الدستورى للعلاقات بين الجنوبيين والشماليين وإحالته إلى لجنة خاصة لبحثه.

وقد اتخذت الحكومة السودانية عدة قرارات بعد ذلك تتعلق:

١- بإعادة توطين اللاجئين وتدبير وسائل المعيشة لهم.
٢- تأهيل الجنوبيين ليشغلوا الوظائف الهامة فى الجنوب.
٣- كفالة حرية العمل للهيئات التبشيرية فى إطار قوانين الدولة.
٤- التوسع فى التعليم العام فى الجنوب وبحث مشروع إقامة جامعة بالجنوب.
٥- بحث مشروعات التنمية الاقتصادية والإجتماعية وإحياء مشروع الزاندى.

وقد وجه البعض نقدًا لعقد مؤتمر المائدة المستديرة فى هذا الوقت بالذات باعتبار أن الوقت لم يكن مناسبًا لعقده مما أدى لفشل المؤتمر فى الوصول للأغراض التى عقد من أجلها.

على أن أهم ما أتخذه مؤتمر المائدة المستديرة من قرارات هو تشكيل (لجنة الإثنى عشر) لتتولى بحث الوضع الدستورى والإدارى للعلاقات بين الجنوب والشمال.

لجنة الإثنى عشر :

لم تبدأ اللجنة عملها إلا بعد حوالى شهرين من انتهاء مؤتمر المائدة المستديرة بسبب التعقيدات التى واجهتها فى عملية تحديد الأعضاء الممثلين للجنوب فى اللجنة وانتهت اللجنة من دراستها وقدمت مشروعا للحكم الإقليمى للجنوب فى إطار السودان الواحد على أساس توزيع السلطات بين الحكومة المركزية والحكومة الإقليمية.

وفيما يتعلق بالانتخابات العامة فقد أجُريت فى المديريات الشمالية وعلى أساسها تم تشكيل حكومة ائتلافية من حزب الأمة والحزب الوطنى الاتحادى – وترأس الحكومة السيد/ محمد أحمد محجوب – وكان فى هذه الحكومة ثلاثة ممثلين للجنوب.

لكن هذه الحكومة لم تستمر طويلا حيث سقطت فى عام ١٩٦٦ وألف (الصادق المهدى) الحكومة الجديدة وقد إختار الصادق المهدى اثنين من رجال الخدمة الدينية لتمثيل الجنوب.

وفى خطاب للصادق المهدى بتاريخ ١٩٦٦/٨/١٠ أوضح أنه يفتح باب التفاهم والتعاون مع جميع المواطنين من المديريات الجنوبية – وأنه سيدرس المشروع المقدم من لجنة الإثنى عشر، ويبحث مدى إمكانية تطبيقه – وأنه سيكون للمديريات الجنوبية تمثيل واضح فى لجنة التخطيط الاقتصادى المركزى – وأنه

سـيلتزم باشــتراك الأحزاب الجنوبية فى لجنة وضع الدستور الجديد – وأن حرية العقيدة والعبادة ستكون مكفولة للجميع.

وحيــن تشــكلت لجنة لوضع الدستور الجديد مثل الجنوب فيها سبعة أعضاء يمثلون مختلف الاتجاهات الحزبية.

وبــذل الصــادق المهــدى مجهــودات كبيرة لإجراء الإنتخابات التكميلية فى المديــريات الجنوبــية – لكــن لم تنجح مع ذلك حكومة صادق المهدى فى تهدئة الأحوال فى الجنوب.

وفــى ١٥ مــايو ١٩٦٧ فشلت حكومة صادق المهدى فى الحصول على ثقة البرلمان وسقطت وخلفتها حكومة جديدة برئاسة السيد/ محجوب.

ثورة مايو ١٩٦٩ واتفاق الحكم الذاتى الإقليمى لمديريات الجنوب:

فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ نجح تنظيم الضباط الأحرار فى السودان فى الوصول للحكــم. وفــى ٣١ مايو ١٩٦٩ شكل النظام الجديد لجنة لوضع هيكل لسياسة الــوزارة إزاء الجــنوب – وقد قررت اللجنة خطوات نظام للحكم الإقليمى فى الجنوب، واتخذت الحكومة عدة خطوات للتمهيد لعرض نظام الحكم الإقليمى فى الجنوب.

وقــد كــان الجــو مهيئا لتوقيع اتفاق بين الجنوب والشمال خاصة أن جميع الأطراف كانت على قناعة بعدم جدوى الإستمرار فى الصراع المسلح الذى مضى عليه ما يقرب من ١٦ عامًا.

وقــد بــدأت المباحثات بين وفد حكومة الخرطوم المكون من تسعة أشخاص برئاســة نائــب رئيس الجمهورية ووزير شئون الجنوب، ووفد يمثل جبهة تحرير جــنوب السودان تكون من تسعة أشخاص، وضم فى عضويته ممثلين عن الجناح العســكرى للجــبهة، وبدأت المباحثات بين الطرفين فى أديس أبابا فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ بحضــور مراقبيــن عــن مجلس الكنائس العالمى ومؤتمر كنائس جنوب أفريقيا– وبحضور بعض الشخصيات الإثيوبية الكبيرة.

واســتمرت المباحثات فى الفترة من ١٦ إلى ٢٧ يناير ١٩٧٢ وانتهت بإعلان التوصــل إلــى اتفاق بإعطاء المديريات الجنوبية الحكم الذاتى الإقليمى داخل إطار السودان الموحد، وتم التوقيع على الاتفاق بالحروف الأولى فى ١٨ فبراير ١٩٧٢ وصدق عليه الرئيس نميرى (وجوزيف لاجوى) فى ١٧ مارس ١٩٧٢.

وينص القانون الأساسى لتنظيم الحكم الذاتى الإقليمى للمديريات الجنوبية على إقامة سلطة تشريعية لإقليم جنوب السودان.

كمـــا نص على أن يتولى السلطة التنفيذية بإقليم جنوب السودان مجلس تنفيذى عـــالى يتكون من رئيس وعدد من الأعضاء، ويمارس المجلس السلطة التنفيذية فى إقلـــيم الجنوب نيابة عن رئيس الجمهورية على ألا يمس أية مسألة تتعلق بوزارات ومصالح الحكومة المركزية إلا بموافقة رئيس الجمهورية.

كذلـــك صـــدر قـــانون الحكـــم الذاتى الإقليمى للمسائل التى تدخل ضمن اختصاص السلطة المركزية ولا يجوز للسلطة التشريعية أو التنفيذية فى الإقليم أن تـــتدخل فـــيها كالمسائل المتعلقة بالدفاع الوطنى والشئون الخارجية والعملة والـــنقد – وجـــاء فـــى الاتفاق أن (اللغة العربية) تعتبر اللغة الرسمية للسودان وتعتـــبر (اللغة الإنجليزية) لغة رئيسية لإقليم جنوب السودان مع عدم المساس باســـتعمال لغـــة أو لغات أخرى قد تساعد على أداء المهام النفيذية أو الإدارية للإقليم بطريقة فعالة.

وفيما يتعلق بميزانية الإقليم أُعطى قانون الحكم الذاتى الإقليمى لمجلس الشعب الإقلـــيمى ســـلطة فرض رسوم وضرائب إقليمية بالإضافة إلى الرسوم والضرائب المركزية والمحلية.

وتضـــمنت وثائق اتفاق الحكم الذاتى الإقليمى مشروع قانون بإصدار عفو عام عـــن الأشـــخاص الذين اشتراكوا فى التمرد والعصيان على السلطة فى أو بعد يوم ١٨ أغســـطس ١٩٥٩، وقـــد نص القرار الصادر على بعض الإجراءات الإدارية الخاصة بتنظيم الفترة الإنتقالية لحين قيام مؤسسات الحكم الذاتى الإقليمى.

ونـــص القرار الصادر على إجراءات وقف إطلاق النار، والإجراءات المؤقتة الخاصـــة بتشكيل القوات المسلحة للإقليم، والإجراءات اللازمة لتنظيم إعادة توطين وإســـكان وإقامـــة اللاجئين والوافدين للمدن والقرى وهذا بالإضافة لعدة إجراءات لازمة أخرى لتنفيذ الاتفاق.

ونشـــير إلـــى أن الإتفـــاق يُعد خطوة هامة فى طريق العلاقات بين شمال الســـودان وجـــنوبه إلا أن فـــرص نجـــاح الاتفاق فى وضع حل نهائى لمشكلة الجنوب التى شغلت الحكومات السودانية المختلفة فترة طويلة تتوقف أساسا على مدى النجاح فى معالجة المشاكل الإقتصادية والإجتماعية والمشاكل الأخرى فى جنوب السودان.

تجـــدد الاشـــتباكات المسلحة فى جنوب السودان والمحاولات الجديدة للصول لاتفاق سلام:

تجددت الاشتباكات المسلحة بين القوات الحكومية والحركات المسلحة المتمردة بجـــنوب السودان – مما ترتب عليه توقف مشروعات التنمية والتعمير بالجنوب – ومن المشروعات الهامة التى توقف العمل فيها تمامًا مشروع قناة جونجلى بعد أن كانـــت الشـــركة الفرنسية القائمة بالمشروع قد قطعت مرحلة كبيرة فى إنجازه – كذلك لم يمكن لحكومة السودان أن تستفيد من اكتشاف البترول فى الجنوب وتتعاقد على استخراجه وتصديره بصورة كاملة.

وقد تجددت محاولات حل مشكلة الجنوب السودانى.

ومن أهم هذه المبادرات للحل مبادرة الإيجاد[١]، وكذلك المبادرة التى عرضتها مصر وليبيا.

وقد سافر العقيد معمر القذافى للخرطوم لشرح المبادرة الليبية المصرية.

مفاوضات الصلح بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان:

تحـــت رعاية منظمة الايجاد (قامت فى بلدة – ماشاكوس) بكينيا عدة جولات مـــن المفاوضات بين وفد الحكوم السودانية ووفد يمثل الحركة الشعبية للتمرد أكبر الحـــركات العســـكرية فى جنوب السودان والتى تزعمها (جون جارانج) وتناولت المفاوضات التى بدأت فى عام ٢٠٠١ وناقشت عدة قضايا مثل:

١- شروط وقف إطلاق النار.
٢- موقف الحكومة السودانية من التمرد فى الجنوب.
٣- سلطة حكومة الخرطوم والسلطة الإقليمية.
٤- حقوق الإنسان.
٥- الديانة.
٦- المسائل الأمنية.
٧- التعليم واللغة المستخدمة ووضع مدارس الإرساليات.

٣- تشـــكلت فى أفريقـــيا مجموعات اقتصادية لمحاولة حل المشكلات التى تتعرض لها القارة باعتبار أن هذه المشكلات تنعكس آثارهـــا بقوة على النشاط الاقتصادى ومن هذه المجموعة (الايجاد) – والايجاد تضم سبعة دول هى السودان، والصومال، وأثيوبـــيا، وجيبوتى، وكينيا، وأوغندا وللجمعية سكرتير تنفيذى – وفى اجتماع ٩ يناير ٢٠٠٢ بالخرطوم كان معروضا عليها موضوعان هامان هما السلام فى السودان والمشكلة الصومالية.

٨- حق الجنوبيين فى تقرير المصير.

وكانــت الجولــة الثانية لمفاوضات ماشاكوس فى شهر أغسطس ٢٠٠٢ وقد توصــل الجانــبان فى هذه الجولة إلى تفاهم مبدئى للمبادئ الأساسية فى المواضيع الــتى كانــت موضع نقاش. فصرح (جون جارانج) زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان بعد المناقشات أن الحركة تعتبر (وحدة السودان الطوعية) لها أولوية كاملة على الرغم من الإتفاق على حق تقرير المصير لجنوب السودان.

وقــد عُقــدت عدة جولات من المفاوضات بين الحكومة السودانية - حكومة الســيد عمــر حسن البشير، وبين ممثلى الحركة الشعبية لتحرير السودان - أكبر واقوى الحركات فى جنوب السودان والتى تزعمها جون جارانج وذلك تحت رعاية جماعــة الإيجاد فى كينيا، وقد توقفت المفاوضات لفترة طويلة بسبب الخلاف على مســائل رئيسية كمسألة اقتسام السلطة بين الشماليين والجنوبيين، والمسائل الأمنية، والمســألة الدينــية، ومــبدأ تطبيق الشريعة الإسلامية فى الجنوب - لكن استؤنفت المفاوضــات، كمــا أن حكومــة السودان حرصت فى الإحتفال بالعيد الرابع عشر لــثورة الإنقــاذ فــى السودان على أن يكون الإحتفال فى إحدى مديريات الجنوب وبحضــور السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية، وصرح البشير بــأن الحكومــة السودانية ستبذل قصارى الجهد للنهوض بالجنوب وأنه لا جنوب بدون الشمال، ولا شمال بدون الجنوب.

وصــرح الأميــن العام للجامعة العربية بأن الجامعة سترسل معونات لجنوب الســودان وستقدم كل ما يمكن تقديمه من مساعدة للنهوض بأبناء الجنوب، وصرح الرئــيس الكيــنى بأن كينيا من جانبها ستعمل لتقريب وجهات النظر بين الطرفين ويهمها أن يصل الطرفان قريبًا لاتفاق يحقق مصالح جميع السودانيين.

ورحبــت مصــر من جانبها - كما صرح السيد أحمد ماهر وزير خارجيتها بحصــول جميع الأطراف السودانية لاتفاق نهائى ينهى سنوات طويلة من المعاناة ويهيــئ الجــو للســودان للتفرغ لمشروعات التنمية، وإن كل ما يهم مصر هو أن يحــافظ الســودانيون علــى وحدة بلادهم شمالها وجنوبها، وذكر أن مصر ستسهم بشــكل واضــح فى النهوض بجنوب السودان وأن جامعة الإسكندرية تبحث إمكان فتح فرع لها فى جنوب السودان فى (جوبا).

وفى الثامن من يناير ٢٠٠٥ أعلن الاتفاق بين حكومة الوسوان وحركة تحرير جــنوب الســودان أكبر الحركات فى الجنوب وبذلك انتهت اطول حرب أهلية فى

أفريقــيا بعــد أن استمرت حوالى ٢١ عامًا وأعلن أنه سيتم توقيع اتفاق السلام فى نــيروبى وسيحضر التوقيع مندوبون عن دول منظمة الإيجاد، وعن الأمم المتحدة، وعــن بريطانيا وإيطاليا والنرويج وأفريقيا، كما يحضر التوقيع رئيس كينيا ورئيس أوغندة الذين سيوقعان كضامنين لعقد الاتفاق.

وبناءًا على ما اتفق عليه تقرر :

١- تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية على المسلمين فى جنوب السودان فقط.
٢- تعهد الطرفان بإطلاق سراح الأسرى من الجانبين.
٣- تحترم الحقوق الأساسية للإنسان.

وقــد زار الدكــتور مصطفى عثمان إسماعيل وزير خارجية السودان مصر وعــبر الوزير السودانى للرئيس مبارك عن شكر حكومة السودان للرئيس مبارك علــى الجهــود التى بذلتها مصر لإنهاء المشكلات التى كانت معلقة بين الحكومة السودانية وحركة تحرير السودان بزعامة جون جارانج.

وقــد عكفت حكومة السودان بعد ذلك على وضع دستور نهائى للسودان بناءًا على الأسس التى تم الاتفاق عليها.

وبعــد توقيع اتفاق السلام بين حكومة السودان وحركة تحرير جنوب السودان تم تشكيل حكومة سودانية جديدة – شغل فيها (جون جارانج) منصب النائب الأول لرئــيس الحكومــة – وقــد زارت وزيرة الخارجية الأمريكية السودان فى ٢٢/٧/ ٢٠٠٥ لبحث:

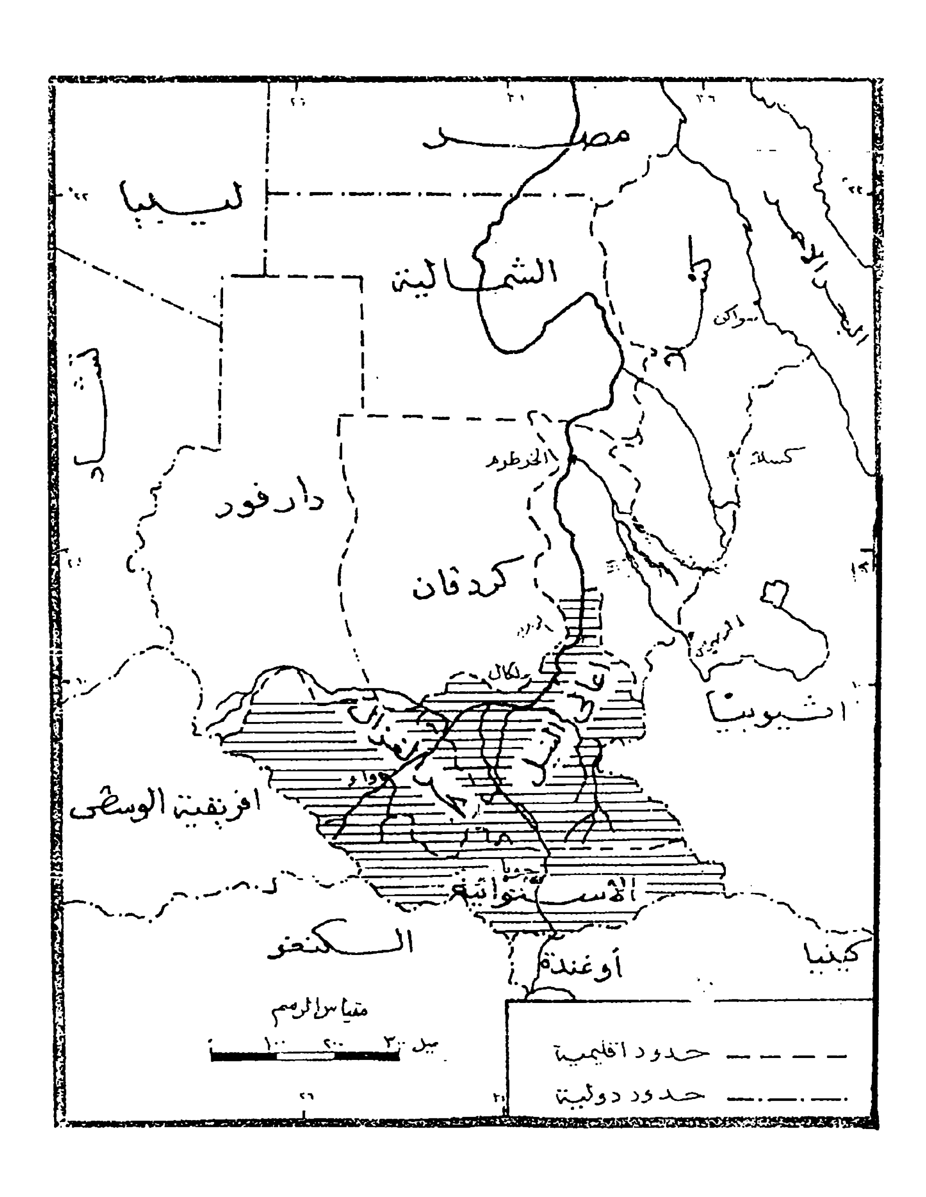
١- مــا يجــب أن تقوم به حكومة السودان لإنهاء النزاع فى دارفور وغيرها من أقاليم السودان الأخرى.
٢- مــا يمكن أن تقدمه حكومة واشنطن من مساعدات للمساهمة فى حل المشاكل الاقتصــادية فى السودان وتنمية الجنوب والأقاليم الأخرى التى تعانى من آثار الفقر والجوع.
٣- مسألة رفع درجة التمثيل الدبلوماسى للولايات المتحدة الأمريكية بالسودان إلى درجة سفير.
٤- مســألة تدخــل دول الجوار فى شئون السودان ودعوة الولايات المتحدة هذه الدول للإمتناع عن التدخل.

ومن المؤسف ما حدث بعد توقيع اتفاقيات السلام بين جنوب السودان وشماله، وتكويــن حكومــة سودانية جديدة أشترك فيها (جون جارانج) رئيس حركة تحرير

جنوب السودان الذى أصبح النائب الأول للرئيس السودانى فقد قتل (جون جارانج) فـــى حادث طائرة أثناء عودته من أوغندا وحل نائبه (سلفا كبير) محله فى رئاسة حركة جنوب السودان وكنائب لرئيس الحكومة السودانية.

وكـــان طبيعيا أن يؤدى ذلك لإثارة المخاوف بشأن اتفاقيات السلام التى وقعها جـــون جـــارانج مـــع الحكومة السودانية، وبشأن خيار (الوحدة) الذى أعلن جون جـــارانج أنـــه يتبـــناه ويعمـــل لتحقيقه – لكن الرئيس الجديد لحركة تحرير جنوب السودان أعلن بوضوح أنه لا يقل عن جارانج فى أمله فى توثيق الصلة بين شمال الســـودان وجـــنوبه وأنه سيبذل كل جهده لتنفيذ اتفاقات ماشاكوس، وأنه سيسهم مع حكومـــة السودان فى المشروعات التى تعتزم الحكومة القيام بها للنهوض بالجنوب ولعلاج المشكلات التى تواجه السودان فى الشرق، وفى إقليم دارفور لتكون الوحدة بين جميع أرجاء السودان خيارًا تلقائيًا.

والأمـــل ألا يؤثـــر غـــياب جون جارانج – الذى عاصر الصراع بين جنوب السودان وشماله طوال ما يقرب من عشرين عامًا والذى شارك فى كل المفاوضات الـــتى انتهت بتوقيع اتفاق السلام – على الجهود المبذولة لإستقرار السلام وللتنمية فى مختلف بقاع السودان.

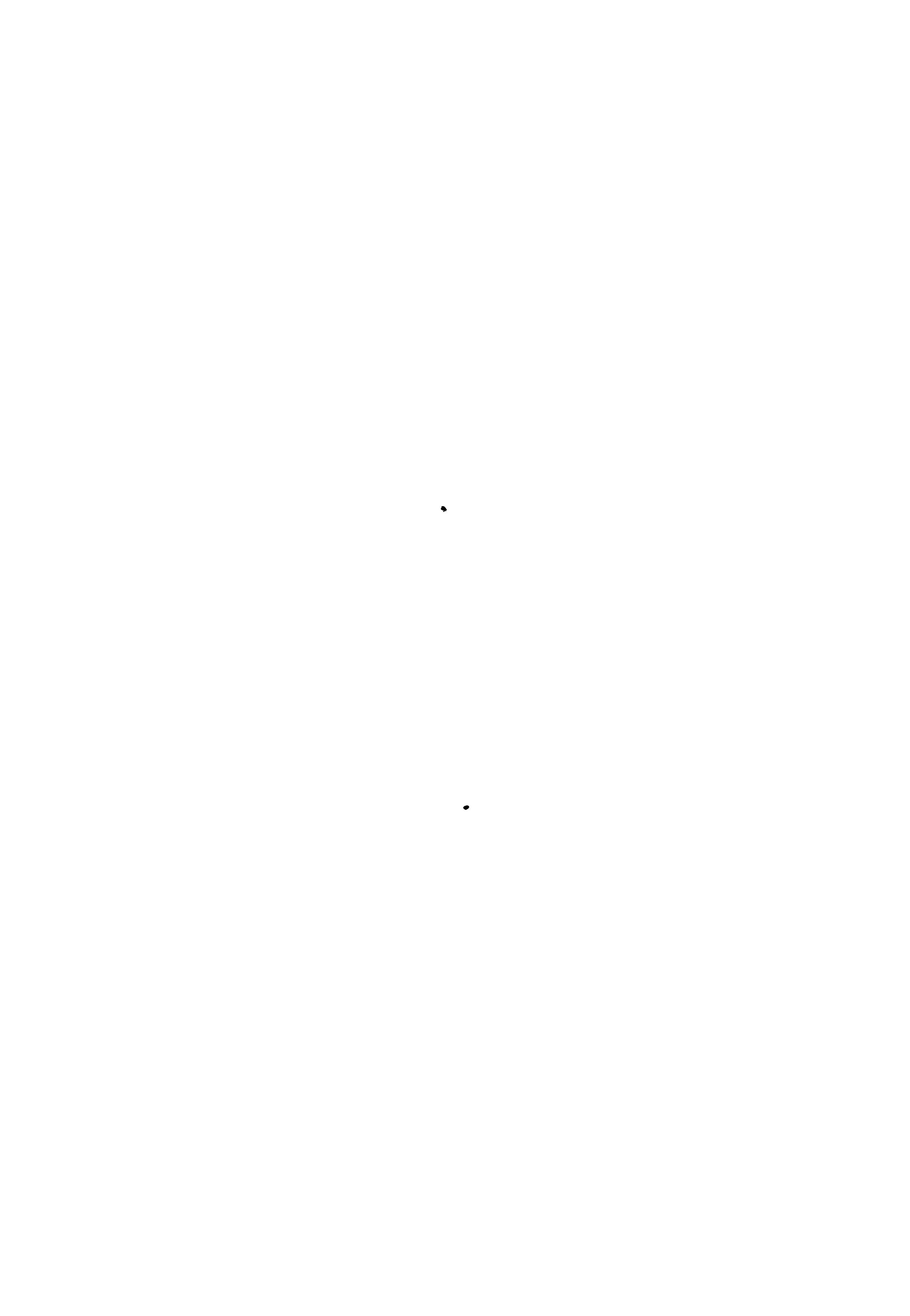


مصر
ليبيا
الشمالية
سواكن
الخرطوم
كسلا
دارفور
كردفان
ملكال
اثيوبيا
افريقية الوسطى
الاستوائية
جوبا
الكنغو
أوغندة
كينيا
مقياس الرسم
ميل
حدود اقليمية
حدود دولية

١٣

الفصل الثالث عشر
مشكلة دارفور وتطورها

- مقدمة جغرافية.
- أسباب الصراع فى دارفور.
- تطور الصراع.
- اتفاق أبوجا.
- تدويل أزمة دارفور.



الفصل الثالث عشر
مشكلة دارفور وتطورها

مقدمة جغرافية :

لم تكد السودان تنتهى من تهدئة الأوضاع فى الجنوب بعقد اتفاقات الصلح مع جيش تحرير جنوب السودان أكبر وأقوى الحركات التى تصدت للحكومة السودانية فى الجنوب – حتى واجهت حركات فى إقليم دارفور وفى شرق السودان.

وإن كانت حركات التمرد فى الشرق لم تصل إلى القوة والتصعيد الذى وصلت إليه حركات الغرب فى دارفور.

وتقع دارفور فى غرب السودان وتشترك فى حدودها مع ثلاث دول أفريقية هى ليبيا فى الشمال للغربى، وتشاد فى الغرب وأفريقيا الوسطى فى الجنوب الغربى.

وتنقسم دارفور إلى ثلاث ولايات هى الشمالية، والغربية والجنوبية.

ومساحة دارفور حوالى نصف مليون كم٢ أى حوالى ٢٠% من مساحة السودان.

ومن جهة السطح يُعتبر جبل مرة أهم ظاهرة تضاريسية فى الإقليم وبجانب كتلة جبل مرة توجد مرتفعات بركانية أخرى مثل كتلة جبل يدون، وإلى جانب المرتفعات توجد السهول، وهى أراضى متوسطة الإرتفاع.

وإلى الغرب من جبل مرة توجد منطقة سهلة، وفى الجنوب توجد سهول رملية، وفى الشرق توجد سهول وكثبان رملية.

وقد ترتبت على هذه التضاريس نتائج هامة منها:

١- وجود بعض المعادن ومن أهمها البترول فى دارفور.
٢- وجود المياه الجوفية والسطحية فى بعض المناطق مما ساعد على قيام حرفتى الرعى، والزراعة.
٣- شكلت المرتفعات مناطق عملية وإعتصام صالحة للمتمردين.

أما الظروف المناخية: الحرارة متوسطة أو مرتفعة فى معظم شهور السنة خاصة فى الصيف وتختلف تبعًا للارتفاع – والشتاء هو فصل الجفاف، وتغزر الأمطار على مناطق المرتفعات فى جبل مرة وتقل كلما اتجهنا شمالاً – والتربة متنوعة.

ولذا تتنوع النباتات حسب الحرارة والأمطار.

الجماعات العرقية :

يـــبلغ ســـكان دارفور حوالى ٦ مليون نسمة من سكان السودان البالغ عددهم حوالى ٣١ مليون نسمة أى أن سكان دارفور أكثر من ربع سكان السودان وينتمى السكان إلى مجموعتين كبيرتين هما المجموعة العربية والمجموعة الأفريقية.

وكل مجموعة منها تشمل عددا من القبائل:

فالمجموعة العربية وتشمل :

١- البقارة ومنهم الرزيقات: ويعيشون فى أقصى الجنوب الشرقى من دارفور.
٢- التعايشة ويعيشون فى الركن الجنوبى الغربى من دارفور.
٣- الهبانية يعيشون بين الرزيقات والتعايشة.
٤- الكبابيش: يعيشون فى شمال دارفور، وكردفان.

المجموعة غير العربية وتشمل:

١- الزغاوة: وهم منتشرون شمال مرتفعات جبل مرة.
٢- المبدوب
٣- التنجور
٤- الرنو
٥- التكازنة
٦- الفور: وهم من أهم سكان دارفور وقد تسمى الإقليم باسمهم.
٧- المساليت

الموارد الطبيعية والنشاط البشرى :

تتنوع الموارد الطبيعية فى دارفور فمنها:

١- المـــوارد الزراعية: حيث تزرع عدة محاصيل - وبالإضافة للأمطار، توجد المياه الجوفية.
٢- المـــراعى: وتـــربى عليها الأبقار، والضان، والماعز، والإبل - وتقدر الثروة الحيوانية فى دارفور بـــ١٠% من ثروة السودان الحيوانية.
٣- الـــثروة المعدنـــية: أهمها الحديد، الرصاص، والجرانيت، والكروم، والرخام، الحجر الجيرى - وقد كشف البترول فى الإجزاء الشرقية من الولاية.
٤- الغابـــات: توجـــد الغابـــات فى مساحات شاسعة - ومن أهم منتجاتها الصمغ العربى بالإضافة لخشب الإثاث.

أسباب الصراع :

يـــرجع الصراع الذى نشب فى دارفور والذى تطور إلى صراع مسلح ضخم وتحـــول إلـــى مشكلة دولية تدخلت فيها عدة دول ومنظمات دولية إلى عدة أسباب أهمها:

١- صـــراع على الموارد الطبيعية: فقد بدأ الصراع بين الرعاة والمزارعين على مناطق الكلأ والماء وزادت من حدته موجات الجفاف والتصحر التى إجتاحت الـــبلاد وأجبرت الرعاة على الهجرة إلى المناطق الأكثر خصوبة والتى يتوفر بها العشب والماء.

٢- الاحـــتكاك بيـــن القبائل: أدت هى التحركات غير المنظمة إلى إحتكاك ترتب علـــيه قتل أحد أبناء القبائل العربية فكانت هذه هى الشرارة التى أوقدت النار فقد ترتب عليها قتل أربعة من (الفور) الذين استعانوا ببعض أبناء (الزغاوة). وأدت هـــذه الاحـــتكاكات القبلـــية إلى عمليات نهب مسلح ساعد عليها انتشار السلاح نتيجة للحروب التشادية على الحدود الدارفورية.

٣- بعد تعدد واتساع عمليات القتل والنهب تدخلت السلطات الحاكمة فى الخرطوم (حكومـــة الرئـــيس عمر البشير)، كما تدخلت السلطات التشادية، وعقدت فى مديـــنة (ابشى) التشادية جولات من المفاوضات بين ممثلى الحكومة السودانية وممـــثلى حركات التحرر فى دارفور لبحث وسائل وقف إطلاق النار ووقف عملـــيات القتل والنهب، كما عقدت جولة من المفاوضات فى مدينة (انجمينا) التشادية.

٤- أتهمـــت الحكومـــة الســـودانية بأنهـــا لجـــأت إلى تدريب وتجنيد الآلاف من (الجـــنجويد)[1]. لمواجهة المتمردين من القبائل غير العربية (الأفارقة) بعد أن عجـــزت القـــوات الحكومية عن التغلب على المتمردين، وهكذا إتخذ الصراع صـــيغة قبلية واتسم بالعنف ووجهت للحكومة السودانية تهمة أنها تعمل لإبادة

٤- الجـــنجويد: اختلف الكتاب فى تفسير مدلولها – فالجنجويد هو جندى يحمل سلاحا ويركب جوادا – والبعض ذكر أنهم جماعة مـــن القـــبائل العربية وأن الحكومة السودانية شكلت فى سنة عام ٢٠٠٣ معسكرات لإعداد فرق ٣ تقاتل عنها ضد العناصر المـــتمردة فى دارفـــور وقيل إن عدد الذين جندهم الحكومة من الجنجويد بلغ ٢٠,٠٠٠، وأن هذه الفرق مارست اعمالاً من القـــتل والتدمير استهدفت المدنيين الأبرياء وقدمت لهم الدولة الدعم والتغطية فابيدت قرى بأكملها – مما حرك القوى الدولية الـــتى اتهمـــت الحكومة السودانية المسؤلة عن هذه الأمر المذابح وأن الصراع فى دارفور أصبح صراعًا عرقيًا، وقد شكل بعض شباب دارفور تشكيلاً من شباب الفور والزغاوة باسم (جبهة انقاذ دارفور) لمواجهة التشكيلات الحكومية.

العناصر غير العربية – ويعتبر مارس ٢٠٠٣ بداية النشاط الحقيقى القوى للمتمردين.

وتدخلت الهيئات الدولية (مجلس الأمن) وجماعات حقوق الإنسان فى المشكلة خاصة بعد أن إتسع نطاقها وتضاعفت أعداد القتلى وأعداد الذين أضُطروا للهجرة وترك ديارهم واللجوء للبلاد المجاورة – حيث أعدت لهم معسكرات للإيواء – وعجزت الحكومات فى البلاد المضيفة للاجئين – كما عجزت المعونات التى قدمتها المنظمات الدولية – عن سد حاجتهم فانتشرت بينهم الأمراض.

٥- تطور الصراع واتسع نطاق مطالب المتمردين فأصبحوا يتهمون الحكومة بتهميش الإقاليم الغربية والجنوبية والشرقية من الدولة وتركيز اهتمامها على الإقليم الشمالى الذى أصبح يستحوذ على ما يقرب من ٦٥% من دخل الدولة ويستحوذ على السلطة بينما لا يكاد إقليم دارفور يشارك فى السلطة ولايصيبه من مشروعات الإصلاح والتنمية إلا اليسير.

٦- وقد تعددت حركات التمرد فى دارفور واتخذت أكثر من شكل – فقد تشكلت حركة جيش تحرير السودان وكان أغلب قواتها من الفور، والزغاوة، والمساليت – واتخذت جبل مرة مأوى لها، وقد كان لها اتصال بحركة تحرير جنوب السودان بقيادة جون جارانج.

ونشأت (حركة العدل والمساواة) – وهى من أتباع حسن الترابى – وكانت نشأتها عام ١٩٩٩ بعد النزاع الذى نشأ بين عمر البشير وحسن الترابى، وقيل أن الحركة لها علاقات قوية مع متمردى شرق السودان ولها أتباع فى كردفان.

٧- وفى جميع المفاوضات التى جرت بين ممثلى الحكومة السودانية وممثلى حركات التمرد طالب ممثلو المتمردين باحترام التنوع داخل الشعب السودانى، والتعددية السياسية، والتمثيل السليم للمواطنين السودانيون على اختلاف انتماءاتهم القبلية فى مختلف المجالس النيابية والوظائف الحكومية والتوزيع العادل للثروة، وعودة النازحين إلى مواطنهم، وإصدار العفو الشامل عن المتمردين، والاهتمام بالمشروعات الحيوية والتنموية خاصة فى الإقاليم المهمشية.

٨- وقد قام الاتحاد الأفريقى بجهد واضح لمحاولة إنهاء أزمة دارفور وللحيلولة دون فرض عقوبات إقتصادية أو سياسية على السودان، ولمنع أى تدخلات

دولية فى الأزمة ولمعالجة النتائج التى ترتبت على الأزمة وفى مقدمتها مشكلة اللاجئين الذين تضاعفت أعدادهم فى الدول المجاورة للسودان حتى أعلنت هذه الدول عجزها عن سد طلباتهم أو توفير المأوى أو الغذاء أو العلاج الضرورى لهم.

وقد دعى الاتحاد الأفريقى الدول الأفريقية للمساهمة الفعالة الكفيلة بسد العجز الواضح فى الجهود المبذولة لإعانة هؤلاء المهاجرين، وللمساهمة فى إعادة توطينهم ورجوعهم إلى أوطانهم الأصلية لمباشرة حياتهم كمواطنين عاديين.

كما طالب الاتحاد الأفريقى الدول المجاورة للسودان بمراقبة الحدود، ومنع تسرب الأسلحة للمتمردين أو لغيرهم من مواطنى دارفور.

وطالب الاتحاد الأفريقى الحكومة السودانية بإصدار عفو شامل عن جميع الذين اشتركوا فى أحداث دارفور وطالبوها باتخاذ الإجراءات الكفيلة بجمع الأسلحة من جميع أفراد المجتمع فى دارفور ومنع تداولها.

كما طالب الإتحاد الأفريقى الحكومة السودانية بتوجيه عناية خاصة للأقاليم المهمشة ومضاعفة الجهود للإصلاح والتنمية فيها ولتيسير الحياة لسكانها ولربطهم بالحكومة المركزية فى الخرطوم، وتقوية انتمائهم القومى بدلا من الانتماءات القبلية والعرقية.

اتفاق أبوجا :

فى ٥ مايو ٢٠٠٦ تم بزعامة الاتحاد الأفريقى توقيع اتفاق السلام بين حكومة السودان وحركة تحرير السودان المتمردة بقيادة مينى أركو ميناوى – لكن للأسف فقد رفض التوقيع على الاتفاق اثنان من وفود التمرد الثلاثة هما حركة تحرير السودان بقيادة عبد الواحد محمد نور، وحركة العدالة والمساواة الإسلامية.

وقد جاء الاتفاق بعد أكثر من سنتين من المفاوضات الشاقة.

ويشمل الإتفاق تقاسم السلطة وتقاسم الثروة ووقف إطلاق النار الشامل والترتيبات الأمنية النهائية فضلاً عن سبل الحوار الدارفورى – الدارفورى والتشاور فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية.

وقد تناول الفصل الأول من الاتفاق – طريقة تقاسم السلطة والعناصر الرئيسية لذلك – وتحدث عن نظام الحكم الفيدرالى وتشكيل السلطة فى دارفور والتأكيد على مبادئ حقوق الإنسان والحريات الأساسية التى يجب أن يتمتع بها.

وتناول الفصل الثانى - موضوع تقاسم الثروة وتنمية الموارد الطبيعية. وركز الفصـــل الثالث - على الترتيبات الأمنية، ووقف إطلاق النار ومراقبة إطلاق النار والإجراءات الواجب اتخاذها ضد الجنجويد، والميلشيات المسلحة الأخرى وطريقة دمج المقاتلين السابقين فى المؤسسات الأمنية القومية.

وتـــناول الفصل الرابع - موضوع الحوار الدارفورى - الدارفورى واجتماع أصـــحاب الـــرأى فـــى دارفـــور لمناقشـــة تحديات إعادة السلام لبلادهم وتجاوز الانقسامات فيما بينهم.

أما الفصل الخامس - فقد أشار إلى إنشاء لجنة للإغاثة وإعادة التأهيل - وفى هـــذا الفصل دعوة للمجتمع الدولى لتقديم الدعم الفنى والمادى، والمالى ليمكن إغاثة المحتاجين من أهل دارفور وإعادة تأهيل وإعادة البنية التحتية.

ونص على أن تسوى كافة الخلافات عند تطبيق هذا الاتفاق بالوسائل السلمية وأن يدخل هذا الاتفاق حيز التنفيذ ونور توقيع الأطراف عليه.

ويتـــناول الفصل السادس من الاتفاق مواعيد التنفيذ لبنود الإتفاق - وأن تنشأ لجـــنة مســـتقلة فى غضون ثلاثة شهور من تاريخ التوقيع على الإتفاق لتقييم ما تم إنجازه فى ضوء هذا الإتفاق.

وقد ألحق بالاتفاق الوثائق التالية كجزء متمم للاتفاق:

١- ملحق (١): الخاص باتفاق وقف إطلاق النار - الموقع فى ٨ إبريل ٢٠٠٤.
٢- ملحـــق (٢): الـــبروتوكول الخـــاص بإنشاء مساعدات إنسانية والموقع فى ٨ إبريل ٢٠٠٤ فى انجامينا (تشاد).
٣- ملحـــق (٣): اتفاق الأطراف السودانية حول ترتيبات إنشاء لجنة وقف إطلاق النار ونشر مراقبين فى دارفور، الصادر فى ٢٨ مايو ٢٠٠٤.
٤- ملحـــق (٤): البروتوكول بين حكومة السودان وحركة جيش تحرير السودان، وحـــركة العـــدل والمساواة والمتعلق بتحسين الوضع الإنسانى فى دارفور - والصادر فى ٩ نوفمبر ٢٠٠٤.
٥- ملحـــق (٥): الـــبروتوكول بين حكومة السودان وحركة جيش تحرير وحركة العدل والمساواة حول تعزيز الوضع الأمنى فى دارفور وفقا لاتفاق نجامينا.
٦- ملحق (٦): إعلان المبادئ لتسوية النزاع السودانى فى دارفور الصادر فى ٥ يوليو ٢٠٠٥.

وقـــد ذكر أن هذه الملاحق السنة تشكل جزءًا من الاتفاق وقد جاء الاتفاق فى سنة فصول.

لقى الاتفاق معارضة من عدد غير قليل من الدارفويين الذين ذكروا أن الاتفاق تـــم وفقا لتوجيهات أمنية وضغوط دولية – وذكروا إن الذين وقعوا الاتفاق اعتبروا أنفسهم أوصياء على شعب دارفور وأن الاتفاق لا يعبر عن أهل دارفور وتطلعاتهم – وذكـــرت بعـــض قوى المعارضة أن المعارضة ترفض الترتيبات السياسية التى تـــريد أن تعطـــى المؤتمـــر الوطنى الحق فى حكم السودان، وأن اتفاق أبوجا جاء بـــإرادة أجنبية بل اتهم نائب وزير الخارجية الأمريكية بأنه أسهم فى صياغة بعض نقـــاط الاتفاق وأن الحكومة سترضخ فى النهاية لدخول قوات أجنبية أمنية إلى إقليم دارفور.

هـــذا وعقـــب توقـــيع الاتفاق أصدرت الحكومة الأمريكية بيانا ذكرت فيه أن الاتفـــاق إنجـــاز مهم من أجل السلام فى دارفور وأن على الحكومة السودانية أن تتحرك لنزع سلاح ميليشيات الجنجويد بشكل تام.

تدويل أزمة دارفور:

بدأ الاتحاد الأفريقى بتدخل بقوة فى عملية تسوية أزمة دارفور خاصة بعد أن أكـــدت (قمة أديس أبابا) فى يوليو ٢٠٠٤ على ضرورة استمرار الاتحاد الأفريقى فى قيادة الجهود الرامية للتعامل مع الأزمة من مختلفة جوانبها – لكن مع ذلك فقد أصـــرت الولايات المتحدة الأمريكية على تدويل المشكلة وبناءًا على ذلك صدرت عن مجلس الأمن عدة قرارات متتالية بخصوص قضية دارفور كانت كلها تقريبا – بمـــثابة إدانه للحكومة السودانية واعتبارها المسئولة عن الأزمة وعن الجرائم التى ارتكبت والتى وصفتها الولايات المتحدة بأنها أبشع ما ارتكب من جرائم إنسانية.

وقـــد صدر عن مجلس الأمن القرار ١٥٥٦ فى ٣٠ يوليو ٢٠٠٤ الذى استند علـــى الفص السابق من الميثاق الذى يبيح استخدام القوات المسلحة فى التعامل مع الأزمة مع مطالبة الأمين العام للأمم المتحدة هذا القرار باعتبار الوضع فى دارفور يشـــكل تهديـــدا للســـلام والأمن الدوليين بتقديم تقرير لمجلس الأمن عن تطورات الأحداث كل ثلاثين يوما.

وقـــد تبـــنى مجلس الأمن القرار رقم ١٥٦٤ الصادر فى ١٨ سبتمبر ٢٠٠٤ وهـــو من ١٦ مادة – ومع أن القرار أشاد بالدور الذى اضطلع به الاتحاد الأفريقى فـــى معالجة الحالة فى دارفور إلا أن القرار أشار إلى أنه لم يحدث تقدم فيما يتعلق

بالأمن وحماية المدنيين ونزع سلاح ميلشيات الجنجويد وتحديد هوية المسئولين عن انتهاكات حقوق الإنسان والقانون فاستدعى تدخل الأمم المتحدة.

وفى أغسطس ٢٠٠٦ أصدر المجلس قراره رقم ١٧٠٦ الذى انتقد فيه بشده الحكومة السودانية بدعوى أنها ساهمت فى قيام الصراع – وقد أشار القرار إلى ضرورة إيجاد قوات دولية للمساعدة على تنفيذ اتفاق أبوجا للسلام الذى تم توقيعه فى مايو ٢٠٠٦ تحت رعاية الاتحاد الأفريقى، وحماية المدنيين والنازحين وتأمين توصيل الإغاثة لهم – بالإضافة إلى ضرورة وضع حد لما يشهده إقليم دارفور من عمليات إبادة جماعية.

وقد عارضت الصين وروسيا مشروع هذا القرار الذى تقدمت به الولايات المتحدة وبريطانيا.

لكن الولايات المتحدة الأمريكية مارست ضغوطا عنيفة حتى تم صدور القرار.

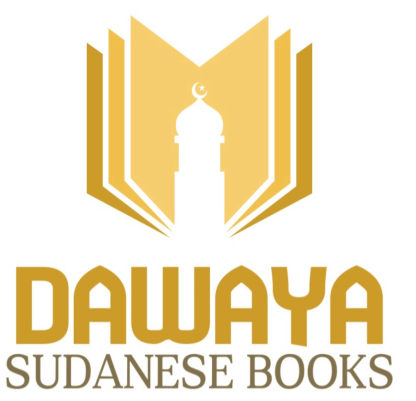
وقد رفضت الحكومة السودانية القرار رغم ضغوط الحكومة الأمريكية على الرئيس السودانى عمر البشير.

خاتمة :

رغم المحاولات العديدة والجادة من الحكومة السودانية والتى انتهت بتنازلات عدة من الحكومة لإنجاح المفاوضات وإنهاء المشكلات التى واجهتها سواء فى الجنوب أو الغرب – فإن المشكلات التى تواجهها حكومة عمر البشير سواء فى جنوب البلاد أو غربها أو فى الشرق ما زالت قائمة ورغم ما يبذله الاتحاد الأفريقى ولجانه الخاصة بحفظ السلام والأمن من جهد ضخم فى حدود إمكانياته المادية المحدودة – فإن هذه المشكلات للأسف فتحت الباب على مصراعيه أمام الدول صاحبة المصالح الإستراتيجية والعسكرية والاقتصادية فى السودان وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا للتدخل.

ولا حل لهذه المشكلات التى يواجهها السودان إلا إذا قدرت كل القوى الوطنية فى السودان ذلك وغلبت مصلحة الوطن على المصالح القبلية والشخصية.

المعاهدات والوثائق


DAWAYA
SUDANESE BOOKS

١- وفاق ١٨٩٩

وفاق

بين حكومة جلالة ملكة الإنكليز وحكومة الجناب العالي خديو مصر بشأن إدارة السودان في المستقبل

حيــث أن بعــض أقالــيم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديويـــة قـــد صار أفتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي.

وحيــث قــد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الاقاليم المفتـــتحة المذكورة، وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الإستقرار وبقائه علي حاله إلي الآن وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة.

وحيث أنه من المقتضي التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة علي مـــا لها من حق الفتح وذلك بأن تشترك في وضع النظام الإداري والقانوني الانف ذكره وفي إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل.

وحيـــث أنه تراءي من جملة وجوه اصوبية إلحاق وادي حلفا وسواكن إدارياً بالأقاليم المفتوحة المجاورة لهما.

فلذلـــك قـــد صـــار الانفاق والاقرار فيما بين الموقعين علي هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن علي ما يأتي وهو:

(المادة الأولي)

تطلــق لفظة السودان في هذا الوفاق علي جميع الأراضي الكائنة إلي جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي:

أولاً: الأراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢.

ثانــياً: الأراضـــي التـــي كانـــت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخـــيرة وفقـــدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد.

ثالثاً: الأراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً.

(المادة الثانية)

يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصري فقط.

(المادة الثالثة)

تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدينة في السودان إلي موظف واحد بلقب بلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناءًا علي طلب حكومة جلالة الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

(المادة الرابعة)

القوانين وكافة الأوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت إلي أخر بمنشور من الحاكم العام، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسري مفعولها علي جميع أنحاء السودان أو علي جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحريرها أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة.

وعلي الحاكم العام أن يبلغ علي الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل غلي وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة إلي رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي.

(المادة الخامسة)

لا يسري علي السودان أو علي جزء منه شئ ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً عدا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها.

(المادة السادسة)

المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للأوربيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة او السكني بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول.

(المادة السابعة)

لا تدفع رسوم الواردات علي البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها إلي السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة علي البضائع

القادمـــة مـــن غير الأراضي المصرية، على أنه في حالة ما إذ كانت تلك البضائع آتـــية غلي السودان عن طريق سواكن أو اية ميناء أخري من مواني ساحل البحر الأحمـــر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينـــئذ علي مثلها من البضائع الواردة إلي البلاد المصرية من الخارج. ويجوز ان تقرر عوائد علي البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت لأخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن.

(المادة الثامنة)

فـــيما عـــدا مديـــنة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة علي أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بأى وجه من الوجوه.

(المادة التاسعة)

يعتـــبر السودان بأجمعه ما عدا سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقي كذلك إلي أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام.

(المادة العاشرة)

لا يجـــوز تعييـــن قناصـــل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصليات بالسودان ولايصرح لهم بالإقامة منه قبل المصادقة علي ذلك من الحكومة البريطانية.

(المادة الحادية عشر)

ممـــنوع مـــنعاً مطلقـــاً إدخال الرقيق إلي السودان او تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشان.

(المادة الثانية عشرة)

قـــد حصـــل الاتفـــاق بين الحكومتين علي وجوب المحافظة منهما علي تنفيذ مفعـــول معـــاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربه المقطرة الروحية وبيعها أو تشغيلها.

تحرير بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

الإمضاءات

(كرومر) (بطرس غالي)

٢- اتفاق ١٠ يوليو ١٨٩٩

حيــث قــد تقرر في المادة الثامنة من الوفاق المعقود بيننا في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ بشــأن إدارة السودان في المستقبل أن سلطة المحاكم المختلفة لا تمتد علي أي قسم من أقسامه ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه ما عدا مدينة سواكن.

وحيــث أنــه لم تشكل محكمة مختلطة بسواكن في أي وقت من الأوقات، وقد رُوى عدم مناسبة ذلك التشكيل الآن وخصوصاً لما يترتب عليه من النفقات.

وحيث أن عدم وجود محكمة أهلية بسواكن للفصل فيما يحدث من المنازعات بين أهلها قد ألحق بهم ضرراً جسيماً فيكون حينئذ من الصواب إجراء المساواة بين تلك المدينة وبين باقي السودان.

وحيث أنه بناءًا علي ما ذكر قد تراءي لنا تعديل الوفاق المشار اليه.

فــيما لــنا نحــن الموقعيــن علي هذا من التفويض التام في ذلك - قد حصل التراضي والاتفاق بيننا علي ما هو آت:

تعتبر ملناة من الآن النصوص الواردة في وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التــي كانــت بموجــبها مدينة سواكن مستثناه من أحكام النظام الذي تقرر في ذلك الوفاق لإدارة السودان في المستقبل.

تحريراً بمصر في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩

إمضاء	إمضاء
(بطرس غالي)	(كرومــر)

٣- تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢
تصريح لمصر

بمـــا ان حكومة جلالة الملك - عملاً بنواياها التي جاهرت بها - ترغب في الحال في الأعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة.

وبمـــا أن للعلاقـــات بين حكومة جلالة الملك وبين مصر لها أهمية جوهرية للأمبراطورية البريطانية؛

فبموجب هذا تعلن المبادئ الاتية:

١- انتهت الحماية البريطانية على مصر. وتكون مصر دولة مستقلة ذات السيادة.

٢- حالمـــاً تصـــدر حكومة عظمة السلطان قانونا يتضمن (إقرار الإجراءات التي اتخـــذت باســـم الســـلطة العسكرية) نافذ الفعل علي جميع ساكني مصر تلغي الأحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤.

٣- إلـــي ان يحيـــن الوقت الذي يتسني فيه ابرام اتفاقات بين حكومة جلالة الملك وبيـــن الحكومـــة المصرية فيما يتعلق بالأمور الاتي بيانها وذلك بمفاوضات وديـــة غـــير مقيدة بين الفريقين - تحتفظ حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولي هذه الأمور وهي:

أ - تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.

ب- الدفاع عن مصر من كل إعتداء أو تدخل اجنبي بالذات او بالواسطة.

ج- حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.

د - السودان.

وحتـــي تـــبرم هذه الاتفاقات تبقي الحالة فيما يتعلق بهذه الأمور علي ما هي عليه الآن.

٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

٤- اتفاقية مياه النيل
في ٧ مايو سنة ١٩٢٩

١- في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٥ أرسل رئيس مجلس الوزراء إلي المندوب البريطاني خطاباً قال فيه:

"طلبتم فخامتكم في المذكورة المؤرخة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ التي وجهتموها إلي سلفي من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية (عقب مقتل سيرلي ستاك حاكم السودان العام) أن تزاد مساحة الأطيان التي تروي في الجزيرة بالسودان من ٣٠٠ ألف فدان مقدار غير محدود"

وقد رد سلفي علي هذه بمذكرة مؤرخة في ٢٣ نوفمبر صرح فيها بان مسالة إدخال تعديل منذ الان علي المقدار المحدد لمساحة الأراضي التي تروي بالجزيرة هي علي الأقل سابقة لأوانها ويجب، طبقاً للتصريحات المتكررة التي أبدتها الحكومة البريطانية، ان تحل باتفاق الطرفين مع مراعاة المصالح الحيوية للزراعة المصرية.

وعلي أثر هذا الرد ابلغتم فخامتكم الوزارة المصرية في ذلك الوقت بمذكرة صادرة في نفس اليوم انه قد أرسلت تعليمات لحكومة السودان بأنها أصبحت مطلقة الحرية في زيادة المساحة التي تروي في الجزيرة إلي مقدار غير محدود.

والآن وقد أعيدت لحسن الحظ العلاقات الودية بين البلدين، فإني أري من واجبي لفت نظر فخامتكم إلي أن ما أشرتم إليه في مذكرتكم المؤرخة في ٢٣ نوفمبر قد احدث قلقاً شديداً في البلاد. ومما لا يخفي علي فخامتكم أنه في جميع المناقشات التي دارت بين الحكومتين فيما مضي سعياً وراء الإتفاق علي نظام مياه النيل وبالاخص علي مسألة توسيع نطاق الري في السودان، ما فتئت الحكومة المصرية تطالب في حزم بما لها من الحقوق في مياه النيل.

وكان علي الدوام من رأي الحكومة المصرية أن توسيع نطاق الري في السودان يجب الا يكون من شأنه بحال من الأحوال الإضرار بالري في مصر ولا المساس بما يتوقع إنفاذه من المشاريع التي تدعو اليها الضرورة للقيام بحاجات اهالي البلاد المشتغلين بالزراعة الذين يزداد عددهم إزدياداً سريعاً. ولا أظنني مخطئاً في التأكيد بان هذا المبدأ الحيوي لمصر قد إعترفت به الحكومة البريطانية تمام الاعتراف.

لهــذا أرجو من فخامتكم ان تتفضلوا بإعادة النظر في مسألة الجزيرة والعدول عن التعليمات المشار اليها في المذكرة المؤرخة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ سالفة الذكر. فإن ذلك مما يزيد في توطيد العلاقات الحسنة بين البلدين.

وأجاب المندوب السامي بخطاب في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٥ قال فيه:

إن حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية تقدر ما أعربتم عنه دولتكم من عواطــف المــودة الصــادقة وتشــاطركم تمام الرغبة في إعادة العلاقات الحسنة وتوطيدها بين البلدين بعد ما طرأ عليها من الشوائب المكدرة.

ويسرني اليوم أن أوقف دولتكم علي وجهة نظر حكومتي في هذا الموضوع.

وإنــي فــي غنــي عن أن أذكر دولتكم بما قامت به الحكومة البريطانية مدة أربعيــن عامــاً مــن السهر علي زيادة الرخاء الزراعي في مصر، كما أني أؤكد لدولــتكم من الآن أن الحكومة البريطانية مع عظم اهتمامها بتقدم السودان لا تنوي مطلقــاً الافتئات علي ما لمصر من الحقوق التاريخية والطبيعية في مياه النيل، تلك الحقوق التي تعترف بها اليوم كما كانت تعترف بها في الماضي سواءًا بسواء، وان الحكومــة البريطانية عندما أصدرت التعليمات المشار إليها إلي حكومة السودان لم تكن تقصد ان تفسر تلك التعليمات بغير هذا المعني.

علــي ان الحكومــة البريطانــية، مــراعاة لهذه الاعتبارات وإثباتها؛ مستعدة لإصــدار التعليمات إلي حكومة السودان بان لا تنقذ إرساله اليها من التعليمات فيما يــتعلق بتوســيح نطــاق الجزيرة توسيعاً لاحد له، وهي التعليمات المشار اليها في المذكــرة المؤرخــة فــي ٢٣ نوفمبر، علي أن تؤلف لجنة خبراء من مستر كانتر كريمــر رئيســاً، وقد وقع الاختيار عليه باتفاق الحكومتين، ومن مستر ر. م ماك جريجور مندوب بريطانيا المعين من قبل الحكومة المصرية.

وتجتمع هذه اللجنة ابتداءًا من ١٥ فبراير ١٩٢٥ لتدرس وتقترح القواعد التي يمكــن إجــراء الري بمقتضاها، وذلك مع مراعاة مصالح مصر مراعاة تامة ومن غــير الإضــرار بمــا لهــا من الحقوق الطبيعية والتاريخية. وأن تقدم هذه اللجنة تقريرها حوالي ٣٠ يونية سنة ١٩٢٥.

٢- وبعد ان أوشكت تلك اللجنة علي أن تتم بحثها وتضع تقريرها مرض رئيسها فاضــطرت إلــي تأجــيل اجتماعها في يونيه سنة ١٩٢٥، وبعد وفاة رئيسها أتفقــت الحكومــتان المصرية والبريطانية علي أن يستأنف عضواها الأخران عملهما فأتمت عملها وقدمت تقريرها المؤرخ ٢١ مارس سنة ١٩٢٦.

٣- وقــد أخــذت وزارة الاشــغال المصــرية في درس هذا التقرير، ثم استمرت المحادثــات والمراسلات بين الحكومة المصرية ودار المندوب السامي بشأن الاقــتراحات والنظريات الواردة في التقرير والقواعد العملية لطريقة تنفيذ ما تضمنه، حتي تم الاتفاق بين الحكومتين في مايو سنة ١٩٢٩ وتأيد هذا الاتفاق بخطابين متبادلين بين رئيس مجلس الوزراء والمندوب السامي البريطاني في ٧ مايو سنة ١٩٢٩. قال رئيس مجلس الوزراء في خطابه:

"إن الحكومــة توافــق علــي أن البت في هذه المسائل (مسائل الري) لايمكن تأجلــيه حتي يتيسر للحكومتين عقد إتفاق بشأن مركز السودان، غير أنها مع قرار التســويات الحاضرة تحتفظ بحريتها التامه فيما يتعلق بالمفاوضات التي تسبق عقد مثل ذلك الاتفاق.

ومن البين أن تعمير السودان يحتاج إلي مقدار من مياه النيل أعظم من المقدار الذي تستعمله السودان الآن.

ولقــد كانــت الحكومة المصرية دائماً - كما تعلم سعادتكم - شديدة الإهتمام بعمــران الســودان وستواصل هذه الخطة، وهي لذلك مستعدة للأتفاق مع الحكومة البريطانــية علــي زيــادة ذلــك المقدار بحيث لا تضر تلك الزيادة بحقوق مصر الطبيعية والتاريخية في مياع النيل، ولا بما تحتاج إليه مصر في توسعها الزراعي وبشرط الاستيثاق بكيفية مرضية من المحافظة علي المصالح المصرية علي الوجه المفصل بعد في هذه المذكرة.

وبــناءًا علــي ما تقدم تقبل الحكومة المصرية النتائج التي توصلت إليها لجنة مــياه النــيل فــي سنة ١٩٢٥ المرفق تقريرها بهذه المذكرة والذي يعتبر جزءاً لا ينفصل من هذا الانفاق.

ثم استطرد الخطاب في بيان ما تراه الحكومة المصرية من تعديل في تواريخ ومقاديــر المــياه التي تؤخذ تدريجياً من النيل للسودان في اشهر الفيضان وبيان ما أتفق علي وجوب مراعاته فيما يختص باعمال الري علي النيل.

وقال المندوب السامي في خطابه:

"ومــع تأييدي للقواعد التي تم الاتفاق عليها كما هي واردة في مذكرة دولتكم فإنــي اعبر لدولتكم عن سرور حكومة جلالة الملك من ان المباحثات ادت إلي حل لابد من أنه سيزيد في تقدم مصر والسودان ورخائهما.

وان حكومة جلالة الملك بالمملكة المتحدة لتشاطر دولتكم الرأي في ان مرمي هذا الاتفاق وجوهره هو تنظيم الري علي أساس تقرير لجنة مياه النيل وأنه لاتأثير له في الحالة الراهنة في السودان.

وفي الختام أذكر دولتكم ان حكومة جلالة الملك سبق لها الاعتراف بحق مصر الطبيعي والتاريخي في مياه النيل وأقرر أن حكومة جلالة الملك تعتبر المحافظة علي هذه الحقوق مبدأ أساسياً من مبادئ السياسة البريطانية كما أؤكد لدولتكم بطريقة قاطعة أن هذا المبدأ وتفصيلات هذا الاتفاق ستنفذ في كل وقت أياً كانت الظروف التي قد تطرأ فيما بعد".

ملاحظة:

لم يزال هذان الخطابان المتبادلان (المعبر عنهما باتفاقية مياه النيل) أساس العلاقة بين مصر والسودان فيما يتصل بمسائل الري، إذا لم تتعرض معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا فى سنة ١٩٣٦ لتلك المسائل، إلا بما جاء فى المذكرة الثالثة المتبادلة بمصر فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٦ من أنه "قد أعتبر من المرغوب فيه ومن المقبول أن يدعى مفتش عام الرى المصرى بالسودان إلى الأشتراك فى مجلس الحاكم العام كلما نظر المجلس فى مسائل متصلة بأعمال مصلحته".

٥- السودان في معاهدة ١٩٣٦
المادة الحادية عشرة من معاهدة ١٩٣٦ وملحقها

١- مـــع الاحتفاظ بمجرية عقد اتفاقيات جديدة في المستقبل لتعديل اتفاقيتي ١٩ يناير و ١٠ يولـــيه سنة ١٨٩٩ - قد اتفق الطرفان المتعاقدان علي أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام، بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة بمقتضي هاتين الاتفاقيتين.

والطرفان المتعاقدان متفقان علي أن الغاية الأولي لإدارتهما في السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين.

وليس في نصوص هذه المادة اي مساس بمسألة السيادة علي السودان.

٢- وبـــناءًا علـــي ذلك تبقي سلطة تعيين الموظفين في السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذي يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين في الوظائف الجديدة التي لا يتوفر لها سودانيون أكفاء.

٣- يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلاً عن الجنود السودانيين.

٤- تكـــون هجرة المصريين إلي السودان خالية من كل قيد إلا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام.

٥- لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين في شئون التجارة والمهاجرة أو في الملكية.

٦- اتفق الطرفان المتعاقدان علي الأحكام الورادة في ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التي تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية في السودان.

ملحق للمادة الحادية عشر:

ما لم وإلي أن يتفق الطرفان المتعاقدان علي غير ما يأتي تطبيقاً للفقرة الأولي مـــن هـــذه المـــادة يتعين أن يكون المبدأ العام الذي يراعيانه في المستقبل بالنسبة للأتفاقـــات الدولية هو أنه لا تطبق علي السودان إلا بعمل مشترك تقوم به حكومة المملكـــة المـــتحدة وحكومة مصر، وأن مثل هذا العمل المشترك يكون لازماً كلما أريد أنهاء إشتراك السودان في إتفاق دولي منطبق عليه.

والاتفاقـــات التـــي يراد سريانها في السودان تكون علي العموم إتفاقات ذات صـــفة فنـــية أو إنســـانية. ومثل هذه الاتفاقات تكاد تشمل علي الدوام حكماً خاصاً

بالانضـــمام الـــيها فيما بعد. وفي مثل هذه الأحوال تتبع هذه الطريقة لجعل الاتفاق ســـارياً فـــي الســـودان ويجري الانضمام بوثيقة مشتركة يوقعها عن مصر وعن المملكـــة المـــتحدة كـــل فيما يخصه شخصان مفوضات في ذلك تفويضاً صحيحاً. وتكون طريقة إيداع وثيقة الانضمام في كل حالة موضع إتفاق بين الحكومتين.

وفـــي حالـــة مـــا إذا أريد أن يطبق علي السودان إتفاق لا يحتوي علي نص خاص بالانضمام تكون طريقة تحقيق ذلك موضع تشاور واتفاق بين الحكومتين.

واذا كـــان السودان بالفعل طرفاً في إتفاق وأريد اشتراكه فيه فتشترك المملكة المتحدة ومصر في إصدار الإعلان اللازم لهذا الإنهاء.

ومن المتفق عليه أن اشتراك السودان في اتفاق ما وإنهاء الإشتراك لا يكونان إلا بعمـــل مشـــترك يجري خصيصاً بالنسبة للسودان ولا يترتبان علي مجرد كون المملكة المتحدة ومصر طرفين في الإتفاق ولا علي نقضها لهذا الاتفاق.

وفـــي المؤتمـــرات الدولية التي تجري فيها المفاوضات في مثل هذه الاتفاقات يكـــون المـــندوبان المصري والبريطاني بطبيعة الحال علي اتصال دائم بالنسبة لي غجراء قد يتفقان عهلي أنه مرغوب فيه لصالح السودان.

جزء من المحضر المتفق عليه:

١٤-مـــن المتفق عليه بالإشارة إلي الفقرة الأولي من المادة الحادية عشرة أن يقدم الحـــاكم العـــام إلي حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة وإلي الحكومة المصـــرية تقريـــراً سنوياً عن إدارة السودان وأن يبلغ التشريع السوداني إلي رئيس مجلس الوزراء المصري مباشرة.

١٥-مـــن المتفق عليه بالإشارة إلي الفقرة الثانية من المادة الحادية عشرة انه بينما يكـــون تعييـــن الـــرعايا المصـــريين فـــي وظائف السودان الرسمية خاضعاً بالضرورة لعدد الوظائف المناسبة الخالية ووقت خلوها ومؤهلات المرشحين المتقدمين لها - فإن أحكام تلك الفقرة تسري فوراً بمجرد نفاذ المعاهدة.

وتكون ترقية الموظفين في حكومة السودان إلي أية درجة كانت بدون مراعاة للجنسية وذلك بالاختيار للجدارة الشخصية.

ومـــن المفهوم أيضاً أن هذه النصوص لا تمنع الحاكم العام من أن يعين أحياناً فـــي بعض الوظائف الخاصة أشخاصاً من جنسيات أخري إذا لم يتيسر وجود ذوي المؤهلات من الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين أو من السودانيين.

١٦-مـــن المتفق عليه فيما يتعلق بالفقرة الثالثة من المادة الحادية عشرة إنه نظراً لأن الحكومة المصرية ترغب في إرسال جنود إلي السودان فإن الحاكم العام ســـيبادر بالـــنظر في أمر عدد الجنود المصرية اللازمة للخدمة في السودان والأماكن التي يقيمون فيها والثكنات اللازمة لهم. وسترسل الحكومة المصرية فـــوراً بمجـــرد نفـــاذ المعـــاهدة ضابطاً مصريا عظيماً يستطيع الحاكم العام استشارته في هذه الأمور.

٦- السودان امام مجلس الأمن
نص الشكوي التي قدمتها مصر إلي مجلس الأمن

جناب السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة.

تحتل القوات البريطانية الأقاليم المصرية علي الرغم من إرادة الشعب الإجماعية. وإن وجود قوات أجنبية في اراضي دولة من اعضاء الأمم المتحدة في زمن السلم بغير رضائها رضاءًا حراً يعد إمتهاناً لكرامتهم وحائلاً يحول دون تقدمها الطبيعي، كما انه خرق للمبدأ الأساسي – مبدا المساواة في السيادة – وهو بذلك يناقض ميثاق الأمم المتحدة في نصه وروحه وقرار الجمعية العامة الصادر بالاجماع في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٦.

إن احتلال القوات البريطانية غير المشروع لمصر في سنة ١٨٨٢ واحتلالها للجزء الجنوبي من وادي النيل أي السودان تبعاً لذلك، قد مكن المملكة المتحدة منذ سنة ١٨٩٩ من ان تفرض علي مصر إشتراكها معها في إدارة السودان، وان تنفرد بعدئذ بالسلطان فيه. وقد استخدمت حكومة المملكة المتحدة هذا الوضع لكي تتبع سياسة ترمي إلي فصل السودان عن مصر عاملة علي تشويه سمعة مصر والمصريين، وبذر بذور التفرقة بين المصريين والسودانيين، وبث الإنقسام بين السودانيين أنفسهم وإثارة حركات إنفصالية مصطنعة والحض عليها، وقد سعت حكومة المملكة المتحدة بهذه السياسة، ومازالت تسعي، إلي فصم وحدة وادي النيل علي الرغم من أن هذه الوحدة تقتضيها مصالح سكان هذا الوادي وأمانيهم المشتركة.

ولما كان أحتلال القوات البريطانية المسلحة لوادي النيل والمضي في هذه السياسة العدائية كلاهما تهديداً غير مشروع لحرية أمة مستقلة ووحدتها، فقد أثار نزاعاً بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة من شأن استمراره تعريض السلم والأمن الدولي للخطر.

ووفقاً للمادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة، وعلي الرغم من ان وجود القوات الأجنبية لا يتلاءم بذاته مع حرية المفاوضات – سعت الحكومة المصرية في حسن نية إلي الوصول إلي حل عادل لهذا النزاع عن طريق مفاوضات مباشرة مع حكومة المملكة المتحدة. واذا اخفقت هذه المفاوضات الطويلة المضنية – حاولت حكومة المملكة المتحدة التمسك بمعاهدة سنة ١٩٠٦ التي لا يمكن ان تلتزم مصر بها، إذا أنها استنفدت أغراضها فضلاً عن أنها تتعارض مع أحكام الميثاق.

لذلــك تــرفع الحكومة المصرية النزاع القائم بينها وبين المملكة المتحدة إلي مجلس الأمن تطبيقا للمادتين ٣٤ و ٣٧ من الميثاق طالبة:

أ - جلاء القوات البريطانية عن مصر والسودان جلاءًا تاماً ناجزاً.

ب- إنهاء النظام الإداري الحالي للسودان.

والحكومة المصرية إذ تطلب اليكم إدراج هذا النزاع في جدول اعمال المجلس - تــبدي استعدادها لشرح هذا النزاع وتقديم الوثائق اللازمة حيث يطلب إليها ذلك وفقاً للمادة ٢٢.

وانتهز هذه الفرصة للاعراب عن فائق إحترامي،،،

القاهرة في ٨ يوليه ١٩٤٧.

محمود فهمي النقراشي

رئيس مجلس الوزاراء ووزير خارجية المملكة المصرية

٧- اتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمي وشمال ايرلندا بشن الحكم الذاتي وتقرير المصير للسودان (١٢ فبراير ١٩٥٣)

لما كانت الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمي وشمال ايرلندا (المسماة فيما بعد حكومة المملكة المتحدة) تؤمنان إيماناً ثابتاً بحق الشعب السوداني في تقرير مصيره وفي ممارسته له ممارسة فعلية في الوقت المناسب والضمانات اللازمة فقد اتفقتا علي ما ياتي:

مادة ١:

رغبة في تمكين الشعب السوداني من ممارسة تقرير المصير في جو محايد، تبدأ في اليوم المعين بالمادة التاسعة الواردة فيما بعد فترة انتقال يتوفر للسودانيين فيها الحكم الذاتي الكامل.

مادة ٢:

لما كانت فترة الانتقال تمهيداً لإنهاء الإدارة الثنائية إنهاءًا فعلياً فإنها تعتبر تصفية لهذه الإدارة، ويحتفظ إبان فترة الإنتقال بسيادة السودان للسودانيين حتي يتم لهم تقرير المصير.

مادة ٣:

يكون الحاكم العام، إبان فترة الانتقال السلطة الدستورية العليا داخل السودان، ويمارس سلطاته وفقاً لقانون الحكم الذاتي بمعاونة لجنة خماسية.

تسمي لجنة الحاكم العام، ويتضمن الملحق الأول لهذا الاتفاق بيان وسلطات هذه اللجنة.

مادة ٤:

تشكل هذه اللجنة من اثنين من السودانيين ترشحهما الحكومتان المتعاقدتان بالاتفاق بينهما، وعضو مصري وعضو من المملكة المتحدة، وعضو باكستاني ترشح كلا منهم حكومته، علي ان يتم تعيين العضوين السودانيين بموافقة البرلمان السوداني عند انتخابه، ويكون للبرلمان في حالة عدم موافقته حق تعيين مرشحين آخرين، ويتم رسمياً تعيين هذه اللجنة بمرسوم من الحكومة المصرية.

مادة ٥:

لمـــا كـــان الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليماً واحداً مبدأ أساسياً للسياسة المشـــتركة للحكومتين المتعاقدتين، فقد اتفقتا علي الا يمارس الحاكم العام السلطات المخولـــة له بمقتضي المادة ١٠٠ من قانون الحكم الذاتي علي أية صورة تتعارض مع هذه السياسة.

مادة ٦:

يظـــل الحـــاكم العام للسودان مسئولاً مباشرة أمام الحكومتين المتعاقدتين فيما يتعلق بما يلي:

أ - الشئون الخارجية.

ب- أي تغيير يطلبه البرلمان السوداني بمقتضي المادة ١٠١ (١) من قانون الحكم الذاتي فيما يتعلق بأي جزء من هذا القانون.

ج- أي قـــرار تتخذه اللجنة يري فيه الحاكم العام تعارضاً مع مسئولياته، وفي هذه الحالـــة يـــرفع الأمر إلي الحكومتين المتعاقدتين، وعلي كل من الحكومتين أن تـــبلغ ردهـــا في خلال شهر واحد من تاريخ الإخطار الرسمي، ويكون قرار اللجنة نافذاً إلا إذا اتفقت الحكومتان علي خلاف ذلك.

مادة ٧:

تشـــكل لجنة مختلطة للأنتخابات من سبعة أعضاء: ثلاثة منهم من السودانيين يعيـــنهم الحـــاكم العام بموافقة لجنته، وعضو مصري وعضو من المملكة المتحدة، وعضـــو مـــن الولايات المتحدة الأمريكية، وعضو هندي، ويكون تعيين الأعضاء غـــير الســـودانيين بمعرفة حكومة كل منهم. وتكون رئاسة اللجنة للعضو الهندي، ويعين الحاكم العام هذه اللجنة بناءًا علي تعليمات الحكومتين المتعاقدتين، ويتضمن الملحق الثاني لهذا الاتفاق بيان وظائف وسلطات هذا اللجنة.

مادة:

رغبة في تهيئة الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير، تشكل لجنة للسودنة تتألف من:

أ - عضـــو مصـــري، وعضـــو من المملكة المتحدة ترشح كلا منهما حكومته ثم يعيـــنهما الحـــاكم العام، وثلاثة أعضاء سودانيين يختارون من قائمة تتضمن خمســـة أســـماء يقدمهـــا إلـــيه رئيس وزراء السودان، ويكون اختيار هؤلاء السودانيين وتعيينهم بموافقة سابقة من لجنة الحاكم العام.

ب- عضـــو أو أكثر من لجنة الخدمة العامة السودانية للعمل بصفة استشارية بحته دون أن يكون له حق التصويت.

ويتضمن الملحق الثالث لهذا الاتفاق بيان عمل هذه اللجنة ووظائفها وسلطاتها.

مادة ٩:

تـــبدأ فـــترة لانـــتقال في اليوم المسمي "اليوم المعين" بالمادة الثانية من قانون الحكـــم الذاتـــي، ومع مراعاة إتمام السودنه علي الوجه المبين بالملحق الثالث لهذا الاتفـــاق تتعهد الحكومتان المتعاقدتان بانهاء فترة الانتقال بأسرع ما يمكن، وينبغي علـــي أيـــة حاول ألا تتعدي هذه الفترة ثلاثة أعوام، وتنتهي هذه الفترة علي الوجه الاتي:

يصـــدر الـــبرلمان الســـوداني قراراً يعرب فيه عن رغبته في اتخاذ التدابير للشـــروع فـــي تقريـــر المصير، ويخطر الحاكم العام الحكومتين المتعاقدتين بهذا القرار.

مادة ١٠:

عند إعلان الحكومتين المتعاقدتين رسمياً بهذا القرار، تضع الحكومة السودانية القائمة آنذاك مشروعاً بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية تقدمه إلي البرلمان لإقراره، ويوافـــق الحـــاكم العـــام علي القانون مع لجنته. وتخضع التدابير التفصيلية لعملية تقرير المصير بما في ذلك الضمانات التي تكفل حيدة الانتخابات وأية تدابير أخري تهـــدف إلـــي تهيـــئة الجو الحر المحايد لرقابة دولية، وتقبل الحكومتان المتعاقدان توصيات أية هيئة دولية تشكل لهذا الغرض.

مادة ١١:

تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور إصدار قرار الـــبرلمان السوداني برغبته في المشروع في اتخاذ التدابير لتقرير المصير، وتتعهد الحكومـــتان المـــتعاقدتان باتمام سحب قواتهما من السودان في مدي فترة لا تتعدي ثلاثة شهور.

مادة ١٢:

تقوم الجمعية التأسيسية بأداء واجبين:

الأول: أن تقرر مصير السودان كوحدة لا تتجزأ.

والثانـــي: أن تعد دستوراً للسودان يتواءم مع القرار الذي يتخذ في هذا الصدد، كما تضع قانوناً لانتخاب برلمان سوداني دائم.

ويتقرر مصير السودان:

أ - إما بان تختار الجمعية التأسيسية أرتباطاً للسودان بمصر علي أية صورة.

ب- وإما بأن تختار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام.

مادة ١٣:

تتعهد الحكومتان المتعاقدتان باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل السودان، وتقوم كل منهما باتخاذ جميع جميع الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار.

مادة ١٤:

اتفقت الحكومتان المتعاقدان علي تعديل قانون الحكم الذاتي وفقاً للملحق الرابع لهذا الاتفاق.

تصبح احكام هذا الاتفاق وملحقاته نافذة بمجرد التوقيع

وإقراراً بما تقدم وقع المفوضون المرخص لهم بذل من حكومتيهما هذا الاتفاق ووضعوا اختامهم عليه.

تحرر بالقاهرة في اليوم الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٩٥٣ عن الحكومة المصرية.

توقيع (محمد نجيب) ختم

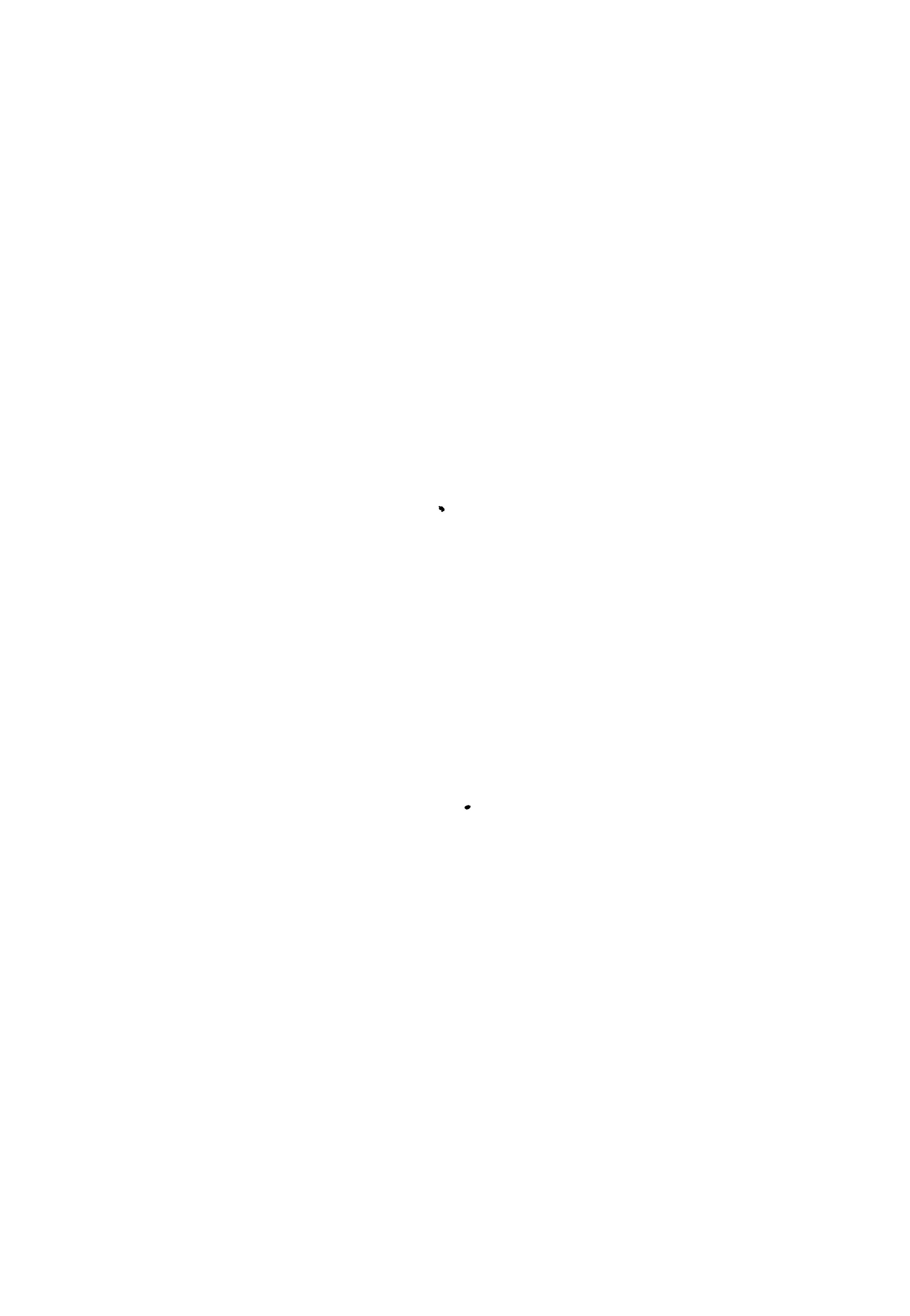
لواء (أ. ح)

عن حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمي وشمال أيرلندا

توقيع (رالف اسكرين ستيفنسون) ختم

وقد حررت منه صورتان تودع واحدة محفوظات الحكومة المصرية وتودع الأخرى محفوظات حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمي وشمال ايرلندا.

مراجـع
الجزء الثالث



المراجع

أولاً: وثائق غير منشورة :

تضـــم دار الوثـــائق المركزية بالخرطوم، ومكتبة جامعة الخرطوم (غوردون ســـابقًا)، ودار الوثـــائق بالقلعـــة بمصر، ومكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درهام بإنجلترا (School of Oriental Studies University of Durham).

وكذلـــك دار الوثـــائق بلـــندن Public Record Office – العديد من الوثائق المتعلقة بالحركة المهدية، وفترة حكمهم وما بعدها ونشير هنا لأهمها:

دار الوثائق المركزية بالخرطوم:

١- المراســـلات المتـــبادلة بيـــن الخلـــيفة وعمالـــه علـــى الأقاليم – خاصة فى المجموعتين رقم ١، ٢ من وثائق المهدية.

٢- دفاتـــر الصـــادر: خطابات المهدى والخليفة إلى مختلف الأقاليم التى خضعت للمهدية.

٣- تقارير المخابرات السودانية المصرية.

- Sudan Intelligence Reports S.I.R.
- Egyptian Intelligence Reports E.I.R.

خاصة :

المتعلقة بالفترة التى قضاها غوردون أخيرًا فى الخرطوم:

The life of Gordon Pasha in Khartoum E.I.R. (Class 1 Box 3/20).

والتقارير عن حصار الخرطوم وسنار وسقوطهما (٢٠ أغسطس ١٨٨٧).

وكذلـــك تقارير المخابرات المصرية مطبوعة أرقام ٤٦ إلى ٦٠ وهى متعلقة بالفترة من عام ١٨٩٦ إلى ١٨٩٨.

- وكذلـــك تقاريـــر الضباط الذين اشتركوا فى حملات الإسترداد وهى فى ١٧ مجلد تحت عنوان:

(The battle of Omdurman)

وكذلك أوامر وتعليمات السكرتير الإدارى للمديرين مثلا:

From Robertson, civil Secretary to all governers - Khartoum 2/11/1946.

مكتبة جامعة الخرطوم:

نذكر منها على وجه الخصوص:

- عثمان دقنه: دفتر وقائع عثمان دقنه.
- مجموعة تقارير عن حصار الخرطوم وسقوطها (٢٠ أغسطس ١٨٨٧).

دار المحفظات المصرية بكورنيش النيل:

- ملفات السودان:

خاصـــة مـــا يـــتعلق بمحاكمـــة على عبد اللطيف، واضطرابات سنة ١٩٢٤ والمفاوضـــات المصرية البريطانية، والأحزاب المصرية، ودفاتر المعيه وارد تلغرافات.

- محافظ السودان:

جمـــع فيها الكثير عن السودان منذ إمتداد الإدارة المصرية إليه فى عهد محمد على، وهى مأخوذة من الدفاتر والسجلات المختلفة.

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية بدرهام:

(وتوجد صور من بعضها بمكتبة معهد الدراسات والبحوث الأفريقية بالقاهرة – صورت خصيصًا للمعهد) ومنها:

Colonel Wingate Military Reports on the final Campaign of UM Debiekrat (25/11/99 - Box 18).

- ونصيحة العوام للخاص والعام.

Box 98/4

Public Record Office - London - Lord Kitchner's Report on the battle of Omdurman to the War Office wo/32/6143.

Lord Kitchner's Report on the battle of Omdurman to the War Office wo/32/6143.

ثانياً: وثائق منشورة :

١- منشـــورات الإمـــام المهدى – أربعة أجزاء – مطبوعات إدارة المحفوظات المركزية (الخرطوم ١٩٦٤).

٢- جمهورية مصر – رئاسة مجلس الوزراء.
السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣ (القاهرة ١٩٥٣).

٣- جمهورية مصر: القضية المصرية ١٨٨٢-١٩٥٤ (القاهرة ١٩٥٥).
٤- قضـــية وادى النيل - بيانات حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشـــا رئيس مجلس الوزراء ورئيس وفد مصر أمام مجلس الأمن (أغسطس ١٩٤٧).
٥- مضابط مجلس النواب ومجلس الشيوخ المصرى.
خاصة ما يتعلق بجلسات المجلس فى السنوات ١٩٢٤، ١٩٣٦، ١٩٤٧.

ثالثًا: رسائل جامعية (غير منشورة) :

١- أحمـــد إبراهـــيم ديـــاب (دكتور): العلاقات المصرية السودانية، وأثرها فى تطور السودان السياسى (١٩١٩-١٩٢٤)، رسالة ماجستير - آداب القاهرة ١٩٧٣.
٢- تمام همام تمام (دكتور): السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦-١٩٥٣)، رســالة ماجستير - من معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧١.
٣- تمام همام تمام (دكتور): موقف حزب الوفد المصرى من مسألة السودان فى الفــترة ١٩١٩-١٩٥٢، رســالة دكــتوراه - من معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٤.
٤- عــبد المــنعم عــباس: مشــكلة جنوب السودان، رسالة ماجستير من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بمصر (ديسمبر ١٩٧٣).
٥- محمـــد صلاح الدين قبضايا: حملات السودان فى الصحف اليومية المصرية (١٨٩٦-١٨٩٩) - رسالة ماجستير من معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ١٩٧٨.
٦- نورهـــان وحيد زكى: الأصول التاريخية للنزاع ١٩٦٨ بين شمال السودان وجنوبه، رسالة ماجستير - آداب الإسكندرية.
٧- يوسف فوزى عبد الله العربنى: استراداد السودان (١٨٩٦-١٨٩٩)، رسالة ماجستير من معهد البحوث الأفريقية والدراسات بجامعة القاهرة ١٩٦١.
٨- يونان لبيب رزق (دكتور): السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول (١٨٩٩-١٩٢٤) رسالة دكتوراه كلية آداب جامعة عين شمس ١٩٦٧.

رابعًا: مراجع باللغة العربية أو مصرية:

١- إبراهيم أحمد العدوى (دكتور): يقظة السودان (القاهرة ١٩٥٦).
٢- إبراهيم فوزى (باشا): السودان بين يدى غوردون وكتشنر جزءان (القاهرة ١٣١٩هـ).
٣- أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث (١٩٤٨).
٤- أحمد شفيق (باشا): حوليات مصر السياسية - ستة أجزاء (القاهرة ١٩٠٨-١٩٣١).
٥- أحمد لطفى السيد (باشا): صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر من مارس ١٩٠٧ إلى مارس ١٩٠٩ (القاهرة ١٩٤٦).
٦- إسماعيل صدقى (باشا): مذكراتى (القاهرة ١٩٥٠).
٧- إسماعيل عبد القادر الكردفانى: المستهدى بسيرة الإمام المهدى (الخرطوم د.ت).
٨- جلال يحى (دكتور): الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان (القاهرة ١٩٥٩).
٩- حسن قنديل: فتح دارفور سنة ١٩١٦ ونبذ عن تاريخ سلطانها على دينار (الإسكندرية ١٩٣٧).
١٠- حمد خير (المحامى): كفاح جيل - تاريخ حركة الخريجين وتطورها فى السودان (القاهرة ١٩٤٨).
١١- راشد البراوى (دكتور): دراسات فى السودان واقتصاديات الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥١).
١٢- زهير جرانة (دكتور): الوضع القانونى للمسألة المصرية - السودانية (القاهرة ١٩٣٧).
١٣- سليمان كشه: اللواء الأبيض (الخرطوم ١٩٦٩).
١٤- سمير المنقبادى: تطور المركز الدولى للسودان (القاهرة د.ت).
١٥- الصادق المهدى: مسألة جنوب السودان (الخرطوم ١٩٦٤).
١٦- عبد الرازق السنهورى (دكتور): قضية وادى النيل - مصر والسودان (القاهرة ١٩٤٩).
١٧- عبد الرحمن الرافعى: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (القاهرة ١٩٤٥)
١٨- عبد الرحمن الرافعى: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (القاهرة ١٩٦٤).
١٩- عبد العظيم رمضان (دكتور): تطور الحركة الوطنية فى السودان من سنة ١٩١٨ إلى ١٩٣٦ (القاهرة ١٩٦٨).

٢٠- عبد الكريم السيد: اللواء الأبيض – ثورة ١٩٢٤ (الخرطوم ١٩٧٠).
٢١- عبد الله عوده: تغيرت موازين القوى وتم اتفاق جنوب الوادى (الأهرام ٣/٧/٠٠٠).
٢٢- عصـمت زلفـو: كـررى – تحليل عسكرى لمعركة أم درمان (الخرطوم ١٩٣٧).
٢٣- على إبراهيم عبده (دكتور): المنافسة الدولية فى أعالى النيل ١٨٨٠-١٩٠٧ (القاهرة ١٩٥٨).
٢٤- عمر طوسون (الأمير): المسألة السودانية (القاهرة ١٩٣٦)
٢٥- كرومر: بريطانيا فى السودان – تعريب عبد العزيز أحمد عرابى (القاهرة ١٩٦٠).
٢٦- محمد أحمد محجوب: الحركة المحلية فى السودان (القاهرة ١٩٤٥).
٢٧- محمد إبراهيم أبو سليم (دكتور): الأرض فى المهدية (الخرطوم ١٩٧٠).
٢٨- محمـد إبراهـيم أبو سليم (دكتور): الحركة الفكرية فى المهدية (الخرطوم ١٩٧٠).
٢٩- محمـد إبراهيم أبو سليم (دكتور): مفهوم ولاية العهد فى المهدية (الخرطوم ١٩٦٣).
٣٠- محمد إبراهيم أبو سليم (دكتور): منشورات المهدية (بيروت ١٩٧٠).
٣١- محمد إبراهيم أبو سليم (دكتور): المهدى عليه السلام (الخرطوم ٩٦٨).
٣٢- محمد حسن عوض: قضية كفاح البطل على عبد اللطيف (القاهرة ١٩٥٥).
٣٣- محمد حسين هيكل (دكتور): مذكرات فى السياسة المصرية جزاءن (القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢).
٣٤- محمد سعيد القدال: المهدية والحبشة (الخرطوم ١٩٧٣).
٣٥- محمـد سليمان: الجذور التاريخية لمشكلة جنوب السودان (مجلة الطلبة عدد ٩ سبتمبر ١٩٧٠).
٣٦- محمد شفيق غربال: تاريخ المفاوضات المصرية، البريطانية – الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).
٣٧- محمد عمر بشير مشكلة جنوب السودان (الخرطوم ١٩٦٧).
٣٨- محمـد فـؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان ١٨٥٠-١٨٨٥ (القاهرة ١٩٠٧).
٣٩- محمد فؤاد شكرى: مصر والسيادة على السودان (القاهرة ١٣٠٦).
٤٠- محمد محجوب: الحركة الفكرية فى السودان (الخرطوم ١٩٤٨).

٤١- مكرم عبيد (باشا): بحث مقارن تحليلى للمعاهدة المصرية الإنجليزية (المحاضرة التى ألقيت بالجامعة المصرية).
٤٢- مكى شبيكه (دكتور): السودان عبر القرون (القاهرة ١٩٦٤).
٤٣- مكى شبيكه (دكتور): السودان فى قرن (١٨١٩-١٩١٩) (القاهرة ١٩٤٧).
٤٤- مكى شبيكه (دكتور): تاريخ شعوب وادى النيل - (مصر والسودان فى القرن التاسع عشر الميلادى (بيروت ١٩٦٥).
٤٥- مندور المهدى (دكتور): تاريخ السودان من أقدم العصور إلى قيام الأحزاب السياسية (الخرطوم ١٩٦٧).
٤٦- ميمونه ميرغنى حمزة: حصار وسقوط الخرطوم (الخرطوم ١٩٧٢).
٤٧- نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث - ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٠٣).
٤٨- هولت، ت.م دولة المهدية فى السودان - عهد الخليفة عبد الله (١٨٨٥-١٨٩٨) (مترجم - بيروت ١٩٧٣).
٤٩- هولت، ت.م: الأولياء والصالحون والمهدية فى السودان - (مترجم - الخرطوم ١٩٦١).
٥٠- وفد السودان بالقاهرة: مآسى الإنجليز فى السودان (القاهرة ١٩٤٦).
٥١- يحيى محمود مصطفى: السياسة الزراعية فى السودان - سياسًا واقتصاديا (الخرطوم ١٩٥٦).

ندوات وأبحاث فى دوريات :

١- الحلقة النقاشية حول أزمة دارفور - الأصول والمواقف وسيناريوهات الحل والتدخل، جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات الأفريقية (٢٠٠٥).
٢- أفاق أفريقية - المجلد السابع العدد الرابع والعشرون (ربيع ٢٠٠٧).
٣- نورا عبد القادر حسن: التمرد المسلح فى درافور (السياسة الدولية مجلد ٣٨ عدد ١٥٣ - يوليو ٢٠٠٣.
٤- محمد الأمين عباس: أزمة درافور ..... وتطوراتها (دار المستقبل العربى - عدد ٣٧ فبراير ٢٠٠٥).
٥- إجلال رأفت: أزمة دارفور وأبعادها السياسية والثقافية (دار السبكى العربى عدد ٣١٢ فبراير ٢٠٠٥.

خامسًا: مراجع باللغات الأجنبية :

1- Abbas Mekki: The sudan Question; The Despite over the Anglo-Egyption condominium (London, 1952).

2- Abd-Al Rahim, M.: The Development of British policy in the Southern Sudan 1899-1947 (Khartoum. 1968)

3- Abd Al Rahim, M.: Imperialism and Nationalism in the Sudan (Oxford, 1969).

4- Alford, H.S. & Sword W.D. : The Egyption Sudan; Its Loss and recovery (London, 1898).

5- Allen B.M. Gorodon & the Sudan (London. 1931).

6- Arthur, Sir G. : Life of Lord Kitchener 3 Vols. (London, 1920).

7- Baddour, A.I. Sudanese-Egyption Relations (Netherlands, 1960).

8- Berman, R.: The Mahdi of Allah. The Story of the Derwish Mohamed Ahmed (N.Y.), 1931.

9- Beshir, M.O.: Revolution & Nationalism in the Sudan (London, 1974).

10- Beshir, M.O.: The Southern Sudan (London, 1968).

11- Blunt, W.S. Gordon at Khartoum, (London, 1911).

12- Budge, E.A.W.: The Egyptian Sudan, 2 Vols. (London, 1902).

13- Burleigh, B.: Khartoum Compaign 1893; or the reconquest of the Soudan (London, 1899).

14- Burleigh, B.: Sirdar and Khalifa (London, 1898).

15- Bugarrio, E.: l'Etat Mahadiste de Soudan)Paris 1920).

16- Churchill, W.S.: The River War (London, 1933).

17- Collins, R.O.: King Leopold, England and the Upper Nile 1899-1909 (London, 1968).

18- Compton, P.: The Last days of General Gordon (London, 1974).

19- Crabites, P.: The Winning of the Sudan (London, 1934).

20- Cromer, The Earl of: Modern Egypt, 2 Vols. (London, 1908).

21- Cuzzi, G.: Fifteen years Prisoner of the False Prophet (1967).

22- Duncan, J.S.R.: The Sudan's Path to Independence (London, 1957).

23- Fabienmi; L.A.: The Sudan in Anglo-Egyptian Relations; A case study in Power Politics (1800-1950) (London, 1960).

24- Giffen, N.B.: Fashoda, the incident & Its diplomatic setting (Chicago, 1930).

25- Glaichen, Count.: The Anglo-Egyptian Sudan. 2 Vols. (London, 1905).

26- Gordon: The Journals of Major Gen. C.G. Gordon at Khartoum (Leipzig 1885).

27- Gray, R.: The History of the Southern Sudan 1839-1889 (Oxford, 1961).

28- Hake, Egmont: The Journals of Gordon at Khartoum (London, 1885).

29- Hamilton, J.A. de C.: The Anglo-Egyptian Sudan from within (London, 1935).

30- Hanotaux, Gabriel et Martinaux. Alfred: Histoire des Colonies Francaise. Tome IV (Paris 1931).

31- Hartslet, Sir E.: The Map of Africa by Treaty. Vols. II & III (London, 1894-1909).

32- Henderson, K.D.D.: Survey of the Anglo-Egyptian Sudan 1898-1944 ((London, 19460.

33- Henderson, K.D.D.: Sudan Republic (London, 1965).

34- Hill R.: Slatin Pasha (London, 1965).

35- Hill R.: Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan (Oxford, 1951).

36- Hill R.: Egypt in the Sudan (London, 1935).

37- Hollis, Christopher: Italy in Africa (London, 1941).

38- Holt, P.M.: The Mahdist state in the sudan (1881-1899) (Oxford, 1958).

39- Holt, P.M.: A Modern History of the sudan ((London, 1961).
40- Jackson, H.C.: Behind the Modern Sudan (London, 1955).
41- Jackson, H.C.: Osman Digna (London, 1926).
42- Johnston, Sir H.: Britain Across the Seas, Africa (London, N.D.).
43- Johnston, Sir H.: The Nile Quest (London, 1904).
44- Lioyd, Lord: Egypt Since Cromer. Vols. 1 & 2 (London, 1933-1934).
45- Mac. Michael, Sir H.R.: The Anglo-Egyptian Sudan (London, 1934).
46- Mac. Michael Sir H.A.: The Sudan (London, 1954).
47- Magnus, Philip: Kitchener, Portchener, Portrait of an Imperialist (London, 1958).
48- Morehead, Alen: The White Nile (N.Y. 1960).
49- Nuefield, C.: A prisoner of the Khalifa (London, 1899).
50- Nutting, Anthony: Gordon (London, 1966).
51- Omar, Abdel Moneim: The Sudan Question Based on British ocuments.
52- Rodd, Rennil: Social & Diplomatie memories (London, 1945).
53- Shibeika, M.: British Policy in the Sudan 1882-1902 (London, 1952).
54- Shibeika, M.: The independent Sudan, (N.Y. 1959).
55- Slatin, R.C.: Fire & Sword in the Sudan 1879-1895 (Translated by F.R. Wingate) (London, 1896).
56- Smith, Wilfred C.: Islam in Modern History (U.S.A. 1957).
57- Stevens, G.W.: With Kitchener to Khartoum (London, 1899).
58- Theobold, A.B.: The Madiya. A History of the Anglo-Egyptian Sudan (London, 1951).
59- Traille, H.D.: England, Egypt and the Sudan 1881-1899 (London, 1959).
60- Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan (London, 1941).

61- Trimingham, J.S.: The Christian Approach to Islam in the Sudan (London, 1948).

62- Valey, Les Rivalite France- Anglaise en Egypt (1876-1904).

63- Warburg, G.: The Sudan Under Wingate 1899-1916 (London, 1971).

64- Warner, O.S.: With Kitchener's Army (London, 1893).

65- Wingate, F.R.: Mahdism and the Egyptian Sudan; Being an account of the rise and progress of Mahdism and of the subsequent events in the Sudan (London, 1891).

66- Wingate, Sir R.: Times of General Sir Reginald Wingate maker of the Anglo-Egyptian Sudan (London, 1955).

67- Wright, P.: Conflit on the Nile. The Fashodent Incident of 1898 (London, 1972).

68- Letland, The Marquess of: Lord Cromer (The Authorized Life of Evelyn Boring) (London, 1932).

Sudan Notes & Records (S.N.R.):

1- Boustead, J.E.: The Youth and last days of Sulan Ali Dinar (Vol. 22-1939).

2- Lampen, G.D.: History of Darfur (Vol. 31-1950).

3- Theobold, A.B.: The Khalefa Abdallahi (Vol. XXXI-1950).

